

النبي موسى وأخر أيام تل العمارنة

د. سيد القمني

مقدمة

الطبعة الأولى

هذا العمل الذى بين يديك الآن هو خلاصة جهد استمر عشر سنوات أو يزيد، بدأ العمل فيه عام ١٩٨٧ وتوقف أكثر من مرة، لكن مجموع تلك الوقفات لم يزد بحال عن مدة سنتين، أنجزت خلالها كتاب حروب دولة الرسول وكتاب إسرائيل وكتاب رب الزمان، ولم يستغرق أى من هذه الأعمال سوى بضعة شهور كنت أعود بعدها إلى موسى مرة أخرى، بعد أن تتراكم مادة علمية جديدة تدفعنا إلى البدء من البداية مرة أخرى. مرات كانت تصل بنا الفروض إلى طرق مغلقة فنعود نضع فرضاً جديداً لنلته وراء ما يدعمه شهوراً لنكتشف مرة أخرى أننا دخلنا متاهة، فنعود نضع علامات على الطريق المحتمل لكن لنكتشف خلاً جديداً. وفى كل مرة كان رجال علم التاريخ وراء تلك المشقة التى كادت تصبح مكابدة لا تنتهى، وما أكثر تناقضات أهل التاريخ التى تصل أحياناً إلى حد التضارب الكامل إزاء الموضوع الواحد. ومن ثم يصبح من الرعونة بمكان إقامة أى بناء علمى على أسس تاريخية دون فحص دقيق ومراجعة تامة لتلك الأسس وضبطها ضبطاً كاملاً، وإلا وصل الباحث إلى نتائج شديدة الضلال والبطلان، لأن أسس التاريخ نفسه كعلم وهى مادته، يختلف بشأنها أصحاب هذا العلم بحيث لا يمكنك القطع فى أى لحظة مع علم التاريخ، أن ما تقرأه حقيقة أم بناء افتراضى؟ وما هى مساحة الصدق التاريخى فيه وما هى المساحة التى سمح المؤرخ بها لنفسه بالتدخل فى الوقائع وإعادة بنائها تصورياً؟ ناهيك عن بعض المؤرخين ذوى الأسماء الكبيرة — كما سنرى فى بحثنا — قد قاموا بتفسير النص التاريخى على هوى البناء الذى يريدون، بل وصل ببعضهم حد التساهل — وهى كلمة سهلة — إلى حد أنه لم يجد بأساً فى إبدال لفظة بلفظة أخرى فى النص التاريخى الأصلى.

أضرب لك مثلاً بسيطاً للتوضيح، رأى أحد المؤرخين بحساباته أن الاسرائيليين كانوا موجودين فى مصر زمن رمسيس الثانى، ووجد نصاً من زمن رمسيس الثانى يتحدث عن العابيرو الذين ينقلون الأحجار لبناء " معبد الشمس الذى توجهت إليه عناية شمس البلاد رمسيس الثانى"، هنا وببساطة يقوم السيد المؤرخ بترجمة العابيرو إلى (الإسرائيليين) رغم أن الخلاف حول من هم العابيرو؟ وهل هم العبريين؟ بل وهل العبريين هم فعلاً بنى إسرائيل؟ مشاكل لم تحل بعد وتتضارب بشأنها مدارس المؤرخين شتى.

ومع ذلك وضع الرجل نظرية فى خروج الإسرائيليين من مصر على مثل تلك الفروض المختلف عليها.

مثال آخر : يختلف أصحاب علم المصريات الكبار حول تعيين موضع مدينة كبرى أنشأها الفرعون عاشق المعمار رمسيس الثانى باسمه (رمسيس)، وتعود أهمية هذه المدينة لكونها المدينة التى ذكرت فى التوراة كمدينة للاضطهاد الإسرائيلى فى مصر عندما تم تسخيرهم فى بنائها. وكلما تم العثور فى حفائر مصرية على أثر باسم رمسيس الثانى قام أصحابه يهللون: لقد وجدنا مدينة رمسيس المفقودة؟! الكارثة

تبدأ عندما تحاول أن تعتمد مصادر التاريخ لبحثك في ميدانك الجديد، فمن الطبيعي أن يعرف قارئ كتاب النبی موسى أين تم استعباد الإسرائيليين بمصر. هنا يقف عالم عظیم مثل (السير آلن هنرى جاردنر) ليقول لك: إن مدينة رعمسيس هي الفرما الآن على البحر المتوسط شرقى بور سعيد الحالية، ليردف عالم حجة فى المصریات هو (بيير مونتييه) ليقول لك : إن مدينة رعمسيس هي (صان الحجر) الآن جنوبى بحيرة المنزلة، لكن ليقف عالم المصریات (محمود حمزة) معلنا كشفه لآثار كبرى لرعمسيس الثانى فى مدينة قننير قرب فاقوس بالشرقية، وأن هنا تقع مدينة رعمسيس، ويذهب رابع إلى تل رطابة بوادى طميلات وخامس إلى مدينة المسخوطة وسادس إلى صفت الحنة وسابع...

هذا بشأن مدينة واحدة فقط إسمها رعمسيس (؟!) وأين تقع؟ فهل بعد ذلك يصر باحث ليس فقط على العثور على مدينة رعمسيس، بل وعلى تحديد مواضع المدن التى ذكرتها التوراة مجاورة لها؟ نعم لقد أصررنا وأظننا نجحنا لكن بعد إعادة قراءة شاملة لتاريخ مصر فى علاقاتها بجيرانها، أعادت تنظيم التاريخ مرة أخرى وفق نظرية جديدة هي التى يقوم عليها هذا العمل جميعه، واعتبرناها تأسيسا نطلق منه لبحث موضوع النبی موسى على أرض تاريخية أقرب إلى السلامة ولحظة وصلنا إلى أسس نظريتنا لم نفعل بعد ذلك شيئا سوى سحب طرف الخيط الذى أصبح مستقيماً سهلاً بعد أن كان شرنقة من الخيوط المتشابكة، وقد استغرق التأسيس الجزء الثانى بكامله من هذا البحث وهو فقط (تأسيس).

وكان هذا التأسيس بهدف إعادة ترتيب للمادة التاريخية المتضاربة وإعادة صياغتها من جديد وفق كشوف جديدة تماما.

لذلك اعتبر من جانبى شخصياً أن التأسيس هو المعبر الصادق والحقيقى على مدى ما بذل فى هذا الكتاب من جهد.

والنموذج الصارخ بصدد تضارب علم التاريخ أنك ستجد بشأن الهكسوس الذين احتلوا مصر القديمة فى نهاية الدولة الوسطى رأيين أبداً لا يلتقيا فهناك فريق يأتى بهم من جزيرة العرب (السعودية الحالية واليمن)، وفريق آخر يأتى بهم من البرارى والسهوب الآسيوية الوسطى. وهو ما يعنى مفارقة كبرى لأن سكان جزيرة العرب ساميين وسكان برارى آسيا عند قزوين وأرارات من الجنس الهندو آرى وهو أيضاً ما يعنى أنه لم يتم حتى الآن الاتفاق حول جنس الهكسوس. والمشكلة تظهر عندما تريد تحقيق حدث يتعلق ببني إسرائيل زمن الهكسوس، هنا لن تتمكن من بناء بحثى سليم إلا بعد تحديد هوية العنصر الهكسوسى لما بين الشعبين الهكسوسى والإسرائيلى من وشائج اتصال كان أول من أشار إليها المؤرخ الكلاسيكى يوسفيوس فلافيوس.

أو أن تبحث عن موقع دولة كبيرة كانت على علاقة وثيقة بمصر القديمة زمن الأحداث التى سنتناولها هي بلاد ميثانى، فتكتشف أنه قد تم وضع هذه الدولة فى المساحة الواقعة بين الفرات والخابور بأعلى الفرات

شمالى الشام وشرقى تركيا (افتراضاً)، لكن لتكتشف أن هذا المكان كانت تشغله فى ذات الفترة الزمنية دولة الآشوريين؟! وتعود تدقق فتكتشف أن ذلك الموضع الجغرافى الذى تم تحديده لبلاد ميتانى ليس فيه أية أدلة قاطعة أو حتى مقبولة لوضع تلك الدولة هناك!! نعم إلى هذا الحد يصل التساهل بعلماء التاريخ القديم.

أو نبحت وراء العنصر الأرامى الذى قطن برارى الشام وبواديه شرقى مصر، لكن لتكتشف أنه كان عنصراً أصيلاً فى البلاد التى أطلق عليها المصريون القدماء "بلاد بونت أرض الإله المقدسة"، وبينما انتهى المؤرخون إلى وضع بلاد بونت على الساحل الإفريقى الشرقى عند الصومال، تجد إشارات ونصوص أخرى هامة وكثيرة لا يمكن تفسيرها بوضع بلاد بونت عند الصومال، وإلا نكون قد أهملنا دلائل وإشارات أخرى تذهب بنا إلى مواضع جغرافية مخالفة تماماً لما استقر عليه رأى المؤرخين.

وهى المشكلة التى عشنا معها فترة عندما كنا نبحت وراء العنصرين الهكسوسى والإسرائيلى، لنتنتهى إلى رؤية جديدة ومخالفة تماماً تدخل فى باب الكشف الكبرى، وهى الرؤية التى أصبحت العمود الأساسى لعملنا هذا، حيث أمكننا العثور على أطراف خيوط مبعثرة التأمّت جميعاً فى موطن واحد تجمعت فيه عناصر التاريخ والجغرافيا معاً.

أو نقرأ فى نصوص الرافدين عن بلاد باسم (موصرى) ونبحث وراء علماء التاريخ فيقولون لك إنها إما تقع فى أعالي الرافدين فى الموضع نفسه الذى تم تحديده لبلاد ميتانى(!!؟). أو فى منطقة العقبة وشرقى سيناء، هكذا!! ولك أن تختار أو تحتار بين موقعين متباعدين تماماً لبلاد (موصرى).

أو أن تبحت وراء جنس أطلقت عليه التوراة الجنس الكوشى / أى الزنجى، والمعلوم أن موطنه أفريقيا السوداء، لكن التوراة تحدثنا عن كوشيين يهاجمون فلسطين من الجنوب زمن المملكة اليهودية، فيضع المؤرخون تفسيراتهم فيما لايزيد عن سطرين عند كل منهم، البعض يرفض روايات التوراة تماماً بهذا الخصوص، فكيف يهاجم الأفارقة الزوج فلسطين طوال الوقت كما لو كانوا جيرانهم؟. بعض آخر فسر ذلك بأن المقصود هم المصريون لأنهم من أبناء حام حسب شجرة الأنساب التوراتية، ومن أبناء حام كان كوش، لكن يبقى السؤال البسيط الساذج: إن التوراة طوال الوقت تتحدث عن المصريين باسمهم، فلماذا أسمتهم هنا باسم الكوشيين؟! فلا يقنع فريق ثالث بهذه النتائج ويرى أن المقصود بالكوشيين هم المصريين فعلاً لكن فى زمن حكم الأسرة السوداء الكوشية فى الأسر الأخيرة لمصر القديمة، وهنا يبرز فريق رابع ليقول: ليس المقصود بالكوشيين فى التوراة دائماً هو العنصر الزنجى، لأنه ربما كان يشير إلى العنصر الكشى أو الكاس الذى احتل بلاد الرافدين قادماً من السهوب الآرية الشمالية، فى ذات الزمن الذى احتل فيه الهكسوس مصر. ومرة أخرى لك أن تختار، ومع كل اختيار لا يمكنك أن تتأكد من سلامة مقدماتك لتمضى فى استنباطاتك وأنت مطمئن. وكل هذه الحالات التى نشير إليها كانت عاملاً مشتركاً فى موضوع الإسرائيليين وعلاقتهم بمصر، وهنا لابد أن ينال موضوعك حجماً من التضارب، وتصل بك النتائج إلى درجة من التناقض تتناسب

مع اختياراتك من مجموع المتناقضات التاريخية، ويبقى لديك سؤال لم يجبك عليه أهل التاريخ: وعلى أى الأسس يتم الاختيار. وفي هذه الحال يطرح السؤال نفسه: وهل بذلك نبني علما؟

ثم إليك ما هو أنكى وأشد في مثال فصيح واضح حول موعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وحتى لا نطيل عليك هنا سنضرب لك مثالا برأى مدرسة واحدة فقط هي التي سادت واستقرت نهائياً في زعم علماء التاريخ حول مسألة الخروج، وهي المدرسة التي تعتمد على ذكر كلمة إسرائيل في لوح مرنبتاح ابن رمسيس الثانى لأول مرة وربما لآخر مرة في التاريخ المصرى، ليقولوا إن الإسرائيليين قد سيموا السخرة والعذاب زمن رمسيس الثانى وخرجوا من مصر زمن ولده مرنبتاح الذى حكم حوالي ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م خلال الأسرة التاسعة عشرة.

المشكلة تظهر عندما نبدأ في رصد وجود الإسرائيليين في فلسطين، ولما كانت التوراة تطلق عليهم أحيانا اسم العبريين، فإن التضارب يبدأ صارخا عندما يعرضون لنا محتويات مكتبة تل العمارنة عاصمة الفرعون إخناتون، وأغلبها كان رسائل قادمة من ولاية مصر على أراضى الإمبراطورية المصرية في الشام، والتي دونت صرخات استغاثة من هؤلاء الولاة بالفرعون لحماية أراضى مصر في بلاد الشام من هجوم شعب جاء اسمه على مختلف التتجمات (العابيرو، الخابيرو، الهبرو، الأبيرى . . إلخ)، فإذا كان الإسرائيليون هم العبيرو (العبريين)، وأنهم خرجوا من مصر زمن مرنبتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م، فكيف كانوا يهاجمون حدود فلسطين لغزوها قبل خروجهم من مصر، بعد أن حددت رسائل العمارنة تاريخ ذلك الهجوم العبرى على فلسطين بزمن أمنتب الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م وولده إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م؟ أى كيف كانوا يهاجمون حدود فلسطين في زمن أمنتب الثالث وقبل أن يخرجوا من مصر زمن مرنبتاح ١٤٢٤ - ١٢١٤ ق.م؟ أى قبل الموعد المقرر تاريخيا لخروجهم بحوالى ١٧٠ عاماً بالتمام والكمال؟

ونحن نعلم أن القائد الإسرائيلى للخروج بعد موسى المعروف باسم يشوع، أول ما هاجم في فلسطين (غربى الأردن) هاجم مدينة أريحا ودمرها تدميراً شاملاً، لكن البحث الأركيولوجى قد أثبت أن أريحا قد تم تدميرها فعلاً، لكن قبل الزمن المحدد للخروج بما يزيد على ١٥٠ عاماً!؟

لحل الإشكال لجأ المؤرخون بكل رصانة إلى استبعاد أن يكون العابيرو هم العبريين التوارتيين، إنما هو اسم مشابه حملته فئات من شذاذ البدو وقطاع الطرق، ولا يجب ربط تلك الإشارات التاريخية عن العبيرو بمسألة بنى إسرائيل والخروج.

نموذج آخر وما أكثرها النماذج فى علم التاريخ، نوضحه بالقول أننا لو حتى أخذنا برأى مدارس أخرى توارت بعد ظهور واستتباب الأمر لنظرية الخروج زمن مرنبتاح: سنجدها تضع الخروج فى مساحة

نتأرجح بين ثلاثة قرون كاملة تبدأ بزمن الفرعون حثشبوت ١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م حتى زمن مرنبتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م.

ومشكلة أخرى تظهر عندما تبدأ فى علاج علاقة الإسرائيليين بالفلستينيين، فعلم التاريخ الرصين يؤكد لنا أن شعباً جديداً باسم البلست أو البلستى جاء بسفنه البحرية المسلحة من الجزر اليونانية يهاجم مصر زمن رمسيس الثالث ١١٨٢ - ١١٥١ ق.م، لكننا نجد هذا الشعب فى ذات الزمن يقيم على سواحل فلسطين. والحل ببساطة عند أهل التاريخ أنه بعد أن هزمهم رمسيس الثالث سمح لهم بالإقامة على سواحل كنعان ومن ثم أعطوها اسمهم فأصبحت فلسطين؟! هكذا بكل يسر وسهولة تم حل المشكلة!!، لكن الصارخ فى المسألة أن الإسرائيليين - حسب الكتاب المقدس - عندما خرجوا من مصر كان الفلسطينيون مستقرون فى ممالك كبرى، وهذا قبل أن يصلوها زمن رمسيس الثالث؟! بحسبان الخروج قد تم زمن مرنبتاح ابن رمسيس الثانى أو ربما قبله فى مدارس أخرى؟

والأكثر إدهاشاً أن نجد التوراة نفسها تأتى بالقبيلة العبرية فى تاريخها القديم من (أور الكدانيين) قبل دخول مصر والخروج منها بزمان إلى أرض كنعان كقبيلة هامشية غريبة على البلاد، وتصف التوراة هذه البلاد بأنها أرض الفلسطينيين قبل وصول الفلسطينيين إليها زمن رمسيس الثالث بحوالى خمسة قرون كاملة حسبما يقرر أهل التاريخ!؟

المصيبة هنا أن كل هذه المتضاربات الصارخة التى ضربناها مثلاً كانت خلال الفترة الزمنية وفى المساحة الجغرافية التى يعالجها كتابنا هذا. ومن هنا كان لابد من إعادة قراءة ذلك الرتل المختل مرة أخرى قراءة تضبط أحداثه وفق منهج علمى صارم ودقيق، وإذا وجد القارئ بعض التضارب أحياناً فى المادة التاريخية، فله أن يستمىح لنا العذر، وأننا حملنا عنه عبء إعادة الترتيب والضبط، ويبقى كتابنا هذا شاهداً على مدى تساهل أهل التاريخ، ومدى قيمة ما يتم تدريسه فى جامعاتنا بل وفى جامعات العالم دون الشعور بأى خلل.

هذا ما كان عن المصدر الأول لهذا العمل، أما المصدر الثانى والذى لا يقل أهمية وخطورة فهو الكتاب المقدس BIBEL العهد القديم، المصطلح على تسميته بالتوراة (تجاوزاً) لأن التوراة لا تشكل فيه غير الأسفار الخمسة الأولى فقط. وسنستخدم الكلمات الثلاث على التبادل العهد القديم / التوراة / الكتاب المقدس / فى هذا العمل، للدلالة على ذلك العمل الضخم، وهو إضافة إلى كونه كان كتاباً مقدساً لدين بعينه، فإنه أيضاً عمل أدبى رائع لأساليب تعبير ذلك الزمان، إضافة إلى - وهنا الأهم - أنه كتاب فى التاريخ فى المقام الأول، وكتابنا هذا يثبت لك مدى صدق هذا التقرير (ان العهد القديم كتاب فى التاريخ). بل أن هذا الكتاب عندما تعاملنا معه ألقى أضواء على مناطق كانت شديدة الظلمة فى تاريخ المنطقة القديم، وملاً فراغات وثقوب فى علم التاريخ، لكن المشكلة أنك عند التعامل مع هذا المصدر ستواجه متاعب أخرى ومن نوع آخر. فليس هناك أولاً إجماع على قيمة التوراة كوثيقة تاريخية، لما شابها على أيدي المحررين من

نزوات ومبالغات وحشو وإضافات وأساطير تغطت كل أسفارها، بحيث أصبح علينا أن نثبت مدى الصدق ومدى الباطل ومواضعهما في التوراة عند المعالجة، كي نطمئن إلى ما بقى بأيدينا من هذا المأثور الهائل. فالوثيقة التوراتية تحمل بصمات تاريخ يمتد بزمن كتابتها الذي استغرق حوالى ١٥٠٠ سنة متصلة، تعرضت أثناءها للمعالجة وإعادة التحرير عدة مرات من محررين أغلبهم مجهول، لكنها من جانب آخر كانت حقلاً رائعاً وثرياً لإعمال المنهج العلمى للخروج منها بما يمكن تسميته حقائق تاريخية.

لذلك مهدنا لعملنا بالجزء الأول المعنون بـ (تمهيد تاريخى) بعرض أهم أدوات وأساليب التعامل مع هذا المأثور بحيث يمكننا بعد العرض النقدي تقديم شهاداته كشهادات تاريخية ونحن أكثر اطمئناناً لتلك الشهادات. لكن ضمن ذلك المأثور تقع مجموعة من الأساطير احتاجت منا تفسير تفسيرها ودلالاتها والغرض من دسها وسط السرد التاريخى ضمن مجموع العمل، ومحاولة فهم ما حدث بعيداً عن منطق الأسطورة والمعجزة. فحاولنا العثور على إجابات واضحة لمسألة العصا الشعبانية، وفلق البحر، والعليقة المشتعلة بنار لا تحرق. هذا إضافة إلى أسئلة أخرى تأسيسية حاولنا الإجابة عليها وهى: لماذا يتمسك اليهود بلحظتين تاريخيتين أساسيتين كلتاهما تتعلق بمصر تحديداً: لحظة العهد مع الله بالختان، والختان شرعة مصرية أساساً. ولحظة عبور البحر من مصر إلى سيناء. وهو ما يجرنا إلى مناقشة كل لحظة تماس فى علاقة الشعب الإسرائيلى بمصر منذ نزول إبراهيم إليها ومن بعده يوسف والأسباط حتى ميلاد موسى وخروجهم منها حسبما وردنا من روايات التوراة. أما الأهم فهو أين العرب من كل تلك الأحداث؟

أما (موسى) فهو المبحث الأول والغرض النهائى ويشكل البحث وراءه الجزء الثالث والجزء الرابع فى هذا العمل. لكن ما يجب هنا التأكيد عليه وإعلانه واضحاً أنه رغم وجود بعض أوجه الشبه فى تفاصيل قصة موسى بين التوراة والقرآن، فإن أوجه الخلاف بدورها كبيرة، سواء فى الرؤية العامة لمفهوم الألوهية أو النبوة، مع خلافات أساسية حول بعض التفاصيل والدقائق. وهو ما يجعل من موسى التوراتى شخصاً آخر يختلف اختلافاً بيناً وحاداً عن موسى القرآنى، ومن هنا نقول بل ونعلن أن بحثنا هذا يتناول شخص النبى موسى كما ورد بالتوراة وببقية العهد القديم فقط، ولا علاقة لبحثنا بشخص النبى الجليل موسى الكليم عليه أفضل الصلوات وأزكى السلام، لا من بعيد ولا من قريب، وإذا وجد القارئ متاثرات نادرة عن النبى موسى: كما هو فى الإسلام، فإن ذلك قد جاء على سبيل الاستضاءة ليس إلا، ولا يعنى أننا نتحدث عن موسى كما هو فى الإسلام.

مدخل

ولعل هذا التنويه جدير بذكاء قارئنا الذي لا ريب يعلم ما تعرضنا له مؤخراً من إرهاب فكري ومصادرة لكتابنا رب الزمان، والذي صحبته رحلة قاسية بين أروقة المباحث المصرية ونيابة أمن الدولة والمحكمة والقضاء ورهاب قفص الاتهام واحتمالات الاعتقال أو القتل. ورغم أن العقبي كانت لنا بعد معركة فكرية أصغرنا فيها على عدم التراجع عن كلمة قلناها لا بالتصريح ولا بالتلميح ولا بالتأويل، فإن المناخ السائد في مصر الآن الذي يشبه من جوانب كثيرة (طالبان الأفغانية) يفرض علينا ذلك التنويه وهذا التنبيه الواضح الفصيح. وأكرر لا علاقة البتة بين دراستنا هنا حول موسى التوراتي، وبين النبي موسى كما جاء في الإسلام، بل قصدنا بالعمد قصداً قصر الدراسة على موسى التوراتي، بفرض أنه كان شخصاً حقيقياً تاريخياً وليس مجرد أسطورة، لنرى إلى أين يمكن أن يصل بنا البحث حسب معطيات التوراة وعلوم التاريخ.

ومن الجدير بالذكر أنه أثناء بحثنا في النبي موسى قد اكتشفنا الإجابة على بعض التساؤلات التي سبق وطرحناها في كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول)، وكنا قد طرحنا بعض الحطول العجلى في كتاب النبي إبراهيم، ثبت لنا الآن أننا كنا فيها مخطئين، خاصة ما تعلق منها بتفسير التواجد الثقافي المصري القديم في جزيرة العرب. وهو ما ألجأنا في كتاب النبي إبراهيم إلى افتراض هجرة مصرية إلى جزيرة العرب تركت هذه المؤثرات، لكننا الآن نذهب مذهباً آخر في تفسير ذلك ستفصح عنه صفحات هذا الكتاب.

وقد عمدنا إلى تقسيم هذا العمل إلى في طبعته الأولى إلى أربع وحدات، تم إدماج الجزء الرابع في الجزء الأول في هذه الطبعة التي بين يديك ليصبح ثلاث وحدات هي كالتالي:

(١) تمهيد تاريخي مع إعادة ترتيب جغرافيا الخروج

(٢) إعادة ترتيب أحداث التاريخ

(٣) آخر أيام تل العمارنة

وفي الوحدة الأولى حاولنا الإجابة على استفسارات مفترضة حول عدة موضوعات بحاجة إلى إيضاح أولي مثل طبيعة الإله التوراتي ومدى اتفاهه مع أو اختلافه عن مفهوم الإلهية عند الشعوب الأخرى في زمانه. وكان طبيعياً أن نخرج على الوعاء القدسي للمفاهيم التوراتية أقصد الكتاب المقدس، وبالتحديد العهد القديم منه، فعرضنا أقسام العهد القديم كما هي بكتابها ومصادر ذلك الكتاب حسبما انتهت إليه المدارس البحثية. ولم يفتنا أن نحاول تتبع الطرق التي استخدمت في تدوين تلك الوثيقة الشديدة الأهمية، وبأى لغة كتبت، مع البحث عن مساحات الصدق التاريخي في العهد القديم ومارواه من أحداث، بالمطابقة مع الكشف التاريخية والأركيولوجية.

ثم كان لابد من تعريف واضح بالقبيلة صاحبة التوراة والمعروفة بالقبيلة الإسرائيلية، مع إطلالة سريعة على الفترة التي تواجد الإسرائيليون فيها بمصر وخروجهم منها، بحسبانها النقطة المفصلية في تاريخ القبائل الإسرائيلية.

وعند هذه النقطة المركزية وقفنا هنيهة نستمع إلى أهم النظريات المطروحة في مسألة دخول بني إسرائيل مصر ثم خروجهم منها، وموعده الزمني وخطوات رحلة الخروج عبر مواضع جغرافية ذكرتها التوراة، لم تعد اليوم مواضع دقيقة لتغير أسماء المواضع الجغرافية عبر الزمن بل وتغير الجغرافيا نفسها مما أدى إلى خلف كبير بين الباحثين حول خط سير الخروج، وهو الأمر الذي استدعنا طرح رؤية جديدة تدقيقية حول مواضع خط سير الخروج الإسرائيلي من مصر، وبالتحديد مواضع إقامة الإسرائيليين في مصر ومواضع خط الخروج نختتم الوحدة الأولى من هذا العمل..

أما الوحدة الثانية، والتي نزع منها العمود الفقري للعمل جميعه فهي ما اعتدنا عمله في أعمالنا السابقة تحت عنوان (تأسيس) بدلاً عن المقدمة، لكن التأسيس هنا يعادل في حجمه وفي كيفه بقية الكتاب جميعاً. حيث نلطنا قد تمكنا في هذا التأسيس من اكتشاف طرف الخيط في شرنقة معقدة من الأغوار التاريخية

غير المحلولة أو التي سبق حل بعضها بحلول متعجلة ومتسريعة أدت إلى تراكمات من الأخطاء تحولت بمرور الوقت إلى لون من الحقائق الثابتة، خاصة عند المؤرخين التقليديين. وعندما نشرنا الفصول الأربعة الأولى من هذا التأسيس ثارت زوبعة حادة تزعم الطرف المقابل أو المعارض فيها أحد أساتذة التاريخ دون أن ينتظر قراءة بقية العمل كاملاً.

على أية حال نحن لانزعم إلا المحاولة، ولا يذهب بنا الظن حد تصور أننا قد وضعنا النظرية النهائية التامة الصديق، فلا شك أننا بقدر ما سيجد قارئنا من جهد بين تلال وطرق كالمناهات من المادة العلمية الهائلة في كمها وفي كيفها وفي تناقضاتها، بقدر ما سيجد من أخطاء ارتكبناها، لكن كل ما نرجوه أن تكون الهنات أقل وزناً من المحاولات الناجحة.

وقد عمدنا في هذا التأسيس إلى أسلوب جديد إلى حد ما قياساً على أعمالنا السابقة، بحيث تركنا مساحة أوسع للقارئ ليشتركنا النقاط مكامن الأخطاء بين شراك معقدة، وليشاركنا أيضاً متعة البحث والاستقصاء، ومتعة الفرح بالكشف العلمي، إذا جاز لنا وصف ما وصلنا إليه بالكشف.

وعلى هذا الذي أسميته كشفاً أعدت قراءة علاقة القبيلة الإسرائيلية بمصر على كافة الأصعدة والمستويات الممكنة، ثم علاقتها ببقية شعوب المنطقة، مع إعادة قراءة قصتي دخول بني إسرائيل مصر وخروجهم منها، لتفضي بنا تلك القراءة إلى نتائج قدر جدتها بقدر خطورتها، وقد ضفرنا تلك القراءة مع ما وصلنا إليه في التأسيس وذلك في الوحدة الثالثة (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة)، التي ركزت همها البحثي في اكتشاف الحقائق الغائبة وراء النصوص المعلنة في علاقة الفرعون اخناتون بشخصيتين أخريين هما: موسى نبي اليهودية وأوديب الملك اليوناني صاحب الملحمة المشهورة في المسرح اليوناني.

ولأننا تعرضنا بطول الوحدات الثلاث إلى تفاصيل صغيرة حاولنا معها ضبط بعض التفاصيل الدقيقة، كالكشف عن اسم فرعون يوسف وزمنه، واسم فرعون موسى وزمنه، فكان لابد من استكمال سلسلة الحلول الصغيرة لتستكمل تضيفير المشهد الأكبر للوحة الأساسية لكتابتنا، ونقصد النظرية التي وضعناها في التأسيس لقراءة الموسوية والإخناتونية على أرض تاريخية أقرب إلى الصحة والسلامة.

ولأن الكتاب بين يديك وفيه تفاصيل بها كفاية وغنى عن أى مقدمات تفصيلية، فسندتقي هنا بمحاولة التقديم تلك لنترك القارئ أمام العمل مباشرة، لكننا نستميح قارئنا عفواً ونحن نكرر: " نرجو أن نكون قد ارتكبنا أقل قدر ممكن من الأخطاء وأكبر قدر ممكن من الكشف، وهي الكشف التي أزعج أنى - أبداً - لم أكن مسبوقاً إليها " .

الجزء الأول

تمهيد تاريخي

التوراة: شعبها وكتابتها وربها

الإله التوراتي

قيضت مجموعة من ظروف التاريخ الديني ذكراً عظيماً واستمراراً مدهشاً - عبر المأثور الديني - لواحدة من القبائل الهامشية القديمة هي القبيلة الإسرائيلية، التي جاءت إلى منطقتنا من مكان بعيد لم يزل تحديده بشكل دقيق مثار خلاف بين الباحثين والمؤرخين، رغم أن تلك القبيلة في حقيقة أمرها لم تكن بهذا الذكر العظيم في مراجع التاريخ كعلم.

وقد دانت هذه القبيلة بدين يعرف باسم الديانة اليهودية التي تنسب إما للسلطان يهوذا أحد الأسباط الإثني عشر أبناء يعقوب في أساطير الآباء البطارقة الأولين، وهو الرأي المرجح، وإما لرب اليهودية المعروف في التوراة باسم يهوه أو جاهوفاه أو ياه أو إيهيه أو يهيه على مختلف التغميمات. وهو الذي - حسبما تقول التوراة - قد ظهر لموسى في تجلٍ سحري على هيئة لهيب مضئ ينبعث من شجرة لاتحترق باللهيب.

ورغم ارتفاع شأن يهوه في أفق الديانة اليهودية في طورها المتأخر فإنه لم يكن كذلك في البدء أبداً، لأن عقائد القبيلة أو القبائل المنعوتة باسم إسرائيل حسبما وصلتنا في كتابها المقدس (العهد القديم) تتضمن رواسب لأشكال بدائية من عبادات الحيوانات كالسوائم النافعة مثل: الثور والخروف أو الضارية الصحراوية كالذئب والضبع، إلى عبادة قوى الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والأنهار والبراكين، إضافة إلى عبادة الأسلاف الغواير.

كذلك عبد هؤلاء أرباب المنطقة وخاصة آلهة الخصب الكنعانية (البعول: جمع بعل أى سيد أو رب). وقد تميز من بين تلك البعول البعل الرافدي (تموز)، والبعل الكنعاني (بعل مولك / أى السيد الملك)، والبعل الفينيقي (أدونيس) واسمه بحذف التصريف الإسمي في آخر الكلمة (يس) هو (أدون) أى السيد أو الرب أيضاً.

وأيضاً عبدوا كبير الأرباب السامية وشيخها ورئيس مجمعها (إيل) الذي تنتسب إليه أسماء شهيرة مثل (عزرا - إيل، وميكا - إيل، وجبرا - إيل، وإسماع - إيل . . إلخ) وهو الذي اشتق منه اسم الجلالة (إيلاه) أو (إله) الذي أصبح في العربية: الله.

كما عبدوا ربات الزرع والخضرة مثل (عشتروت) الرافدية و(عشيرة) الفينيقية و(عناة) الكنعانية، وكلهن زوجات لأرباب الخصب البعول، وكان الثور عادة هو الرمز الأعظم تجلياً والمشارك الواضح بين تلك البعول لما يتميز به من فحولة جنسية تقارن بخصب الطبيعة وعطائها.

كذلك عبدوا عبادات مصرية واضحة مثل اليوارييس الحية المصرية حامية الملكية والتاج، ومراكب الشمس التي تحمل رب الشمس رع في جولته السماوية من الشرق إلى الغرب.

ونماذج لهذه العبادات نقرأ بالعهد القديم " فقال لهم هارون: انزعوا أفرات الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم واثنوني بها . . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه **عجلاً مسبوكة**، فقالوا: **هذه آلهتك** يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر / خروج ٣٢ / ١ - ٤ . "

وفي سفر العدد (٢٥ / ١ - ٣) نجدهم يعبدون بعل فغور في بلاد مديان، وفي سفر القضاة (٢ / ١١ - ٧) يعبدون مع البعل الأنثى السماوية المخصصة عشتروت ربّة الجنس والخصب. وقد عبد أعظم ملوكهم طرا (شلمان) المعروف باسم (سليمان) عدداً من الآلهة " فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيغيين وملوكهم رجس العمونيين .. وبني سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك، رجس بني عمون / ملوك أول ١١ / ٨ - ١٠ . "

وبعد موت سليمان سار الملك يربعام على ذلك الدرب " وعمل عجلاً ذهب وقال لهم: هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر / ملوك أول ١٢ / ٢٨ . " ويحيطنا سفر (ملوك ثاني ١٨ / ١٤) أن الحية نحشان (أى الحنش) ظلت تعبد منذ صنعها لهم موسى في سيناء وحتى زمن الملك يوشيا. وذات السفر يؤكد أنهم قد عبدوا رع رب الشمس المصري لأنهم كانوا يسجدون لمركبه السماوي (عبادة مراكب الشمس).

ويحدثنا سفر (ملوك ثانى) عن الملك حزقياء بن أحاز الذى كان متعصباً لعبادة يهوه، وكيف أنه « هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها [أى يقربون لها القرابين / المؤلف] ملوك ثانى ١٨ / ٤ ».

وقد عبد البطارقة الأوائل من إبراهيم إلى إسحق إلى يعقوب حتى زمن موسى، الإله السامى المعروف بكبير الآلهة (إيل)، لكن إلى جواره كانت عبادة الأصنام شيئاً اعتيادياً معلوماً بالتوراة. فهذه راحيل زوجة يعقوب تسرق أصنام أبيها المنزلية اعتزازاً بها، عندما غادرت موطنها حاران إلى فلسطين بصحبة زوجها يعقوب (تكوين ٣١ / ٣٤). وقد بقيت هذه الآلهة مع غيرها فى بيت يعقوب على ما يفهم من الأصحاح (٣٥ / ١ ، ٢) من سفر التكوين. كذلك نجد ذات الأصنام المنزلية موجودة بشكل اعتيادى فى بيت الملك (داود بن يس) بعد قرون طويلة باسم الترافيم، وهو ما يوضحه لنا سفر صموئيل أول ١٩ / ١٢ ، ١٣. بل يبدو أن الرب يهوه نفسه وهو فى عزه عند مطلع القرن السادس قبل الميلاد لم يكن منفرداً، فهناك جالية يهودية عاشت فى ألفتين عند أسوان بمصر وحافظت على مآثور اختفى فى التوراة ولم يذكر، فكانت تعبد إلى جوار يهوه زوجته عناة يهوه، ومعلوم أن اسم عناة كان لربة الخصب الكنعانية، وهو اسم زوجات البعل بشكل اعتيادى^(١).

والإله يهوه نفسه فى التوراه وبلسانه هو لم يدع لحظة أنه رب البشر أجمعين بمفرده، بل كان نقيض ذلك تماماً، فهو يعترف ببساطة بوجود آلهة أخرى أبدى غيرته منها، ووجد أن من حقه على الشعب الذى اختاره أن يميزه عن هذه الآلهة ويعبده دونها، لذلك كانت الوصية الأولى بين الوصايا العشر « لا يكن لك آلهة أخرى أمامى / خروج ٢٠ / ٣ ». لذلك - ومثل جميع القبائل - أجلت القبيلة الإسرائيلية ربها يهوه، وعبرت التوراة عن انزعاجها من عبادة الإسرائيليين لآلهة أخرى لقبائل أخرى، فالمزمور ٨٦ / ٨ ينادى مؤكداً: « لا مثل لك بين الآلهة يارب »، ويقول المزمور ١٣٥ / ٥: « عرفت أن الرب عظيم وربنا فوق جميع الآلهة ». أما أمر يهوه لموسى وأتباعه فكان: « لا سجد لإله آخر لأن الرب اسمه غيور، غيور هو / خروج ٣٤ / ١٤ ».

وكان الشرك بمعنى عبادة آلهة عديدة واضحاً فى أفق تلك العقيدة منذ بدئها حتى نهاية تدوين الكتاب المقدس اليهودى، ففى أسفاره الأولى المبكرة نجده يقول صراحة: « أبأؤكم . . عبدوا آلهة أخرى / يشوع ٢٤ / ٢ »، والآباء هم البطارقة من إبراهيم حتى موسى.

ولم يقتصر ذلك على زمن إيل والبطارقة الأوائل، بل يبدو أنه كان سمة زمن يهوه منذ موسى، فترنيمة الخروج تتساءل: « من مثلك بين الآلهة يارب؟ خروج ١٥ / ١١ » و « الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة / خروج ١٨ / ١١ »، وحتى الأزمنة المتأخرة المفترضة أن يهوه قد تفرد فيها بالعبادة وحده نسمع النبى إرميا ينادى شعبه صارخاً فيه: « بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا / إرميا ١١ / ١٣ ».

وخلال ذلك السير التطورى الطويل كان كهنة يهوه وأنبيائه يكافحون طوال الوقت العبادات الغريبة الأخرى، وحاولوا - خاصة فى الأسفار الأخيرة - تمييز يهوه بحسبانه رباً عالمياً. ومع التطور أمكن لهم إدماج جميع الرموز المعبودة فى رب واحد هو يهوه، الذى صار رباً واحداً لكن تتجلى فيه قدرات آلهة أخرى قديمة، فهو رب البرق والرعد والأعاصير مثل (بعل)، وهو الذى ينزل السخط والعذاب والجوع والجفاف مثل (سيت) المصرى، وهو رب الرحمة رغم ذلك مثل (أوزيريس) المصرى، وهو أيضاً رب البراكين والزلازل المدمرة (تيفون)، وهو الذى قتل الحية الشريرة المعروفة فى مصر باسم (أبو فيس) عدو رع الشمس، والمعروفة فى بلاد الشام باسم (لويathan الحية متعددة الرؤوس). ومثلما كان رع وأتباعه ينتصرون على أبو فيس كل يوم لتعود الشمس ساطعة فى اليوم التالى، وكما كان البعل الكنعانى ينتصر على لويathan، فإن ذات المهمة قد نسبت إلى يهوه، فنجد وصفاً مرعباً للويathan فى الكتاب اليهودى المقدس يقول: « من يفتح مصراعى فمه، دائرة أسنانه مرعبة، عطاسه يبعث نوراً وعيناه كهذب الصبح .. من فيه تخرج مصابيح، شرار نار يتطاير منه، من منخريه يخرج دخان كأنه من قدر منفوخ أو من مرجل، نفسه يشعل حجراً . . / أيوب ٤١ / ١٤ - ٢٠ ». وهذا التنين الثعبانى قد قتله يهوه فى

(١) فراس السواح: أرام دمشق وإسرائيل فى التاريخ والتاريخ التوراتى، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥، ص ١٨٤ ، ١٨٥.

النص " أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه، أنت رضضت رؤوس لويathan / المزمور ٧٤. "

وهو الأمر الذى سجلته لنا ألواح أو غاريت المكتشفة على الساحل السوري / رأس شمرا الآن قبل التوراة بأزمان فنقرأ فى ملحمة البعل " فى ذلك الوقت سنقتل لويathan الحية الهاربة وتضع نهاية للحية الملتوية شالياط ذات الرؤوس السبع " (١).

وقد كررت هذا النص التوراة فى قولها نصيا " فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسى العظيم الشديد لويathan الحية الملتوية / إشعيا ٢٧ / ١. "

وأدمجت جميع الآلهة ووظائفها فى شخص يهوه، بعضها كان يمثل الخير، وبعضها الآخر يمثل الشر، ومثل يهوه الاثنين " أنت فجرت عينا وسيلا ، أنت أبيست أنهاراً دائمة الجريان، لك النهار ولك الليل أيضاً / المزمور ٧٤. "

لذلك - وبالضرورة - احتسب أن الخير والشر ينبعان كلاهما من يهوه الواحد بذات الدرجة دون تناقض. لكن ذلك أدى إلى مشكلة مستعصية ظلت بعد ذلك أرقاً دائماً للأنبياء والكهنة.

وتتمثل المشكلة فى أن الديانة اليهودية على غير المعتاد فى جميع الديانات، اختار فيها الرب شعبه إسرائيل من دون الناس ليتأله عليه وينقذه من ظلم المصريين، بينما المعتاد أن تختار الشعوب آلهتها. أى أنه خص تلك القبيلة دون العالمين بذاته وعبادته وفضلها على العالمين، ومع ذلك فإن هذا الرب الذى جمع صفات آلهة الخير مع آلهة الشر، لم يكن ينزل الشر فقط بالآخرين الأغيار غير اليهود، بل باليهود أنفسهم بشكل يكاد يكون أكثر من الآخرين، لقد كانت مهمته بعد دمج الآلهة فى شخصه إنزال الشرور بالأعداء فما باله ينزل نقمته على شعبه الذى اختاره واصطفاه وفضله على العالمين؟ وتفاقت المشكلة بعد انقسام مملكة سليمان وظهور قوى جبارة أخرى فى الشرق كالأشوريين والبابليين إضافة إلى المصريين، وهم من جعلوا المملكتين الإسرائيليتين كرة يتقاذفونها فيما بينهم، إضافة إلى سنوات القحط والمجاعة المتوالية، ناهيك عن أولئك اليهود الذين أخذوا بالإثراء على حساب إخوانهم الآخرين بجشع لا يرحم، وهنا ظهرت المفارقة ما بين الإيمان بالآلهة حليف للشعب ظهر أصلاً لإنقاذ هذا الشعب وحمايته، وبين ما بات يعانيه من آلام وخطوب لا شك أن الذى ينزلها يهوه نفسه بعد عمليات الإدماج الألوهى، فكيف يجوز احتساب هؤلاء شعباً مختاراً أم كان مختاراً للعذاب؟

لقد كان ضرورياً من أجل توحيد يهوه الجمع بين السمتين القومية والشمولية، ليصبح يهوه كلى الجبروت وتشمل سلطته الشعوب جميعاً، لكن إسرائيل شعبه المختار والمحبوب فكيف يمكن تفسير ما لحق بهم من هزائم من الوثنيين؟

إن هذا التناقض كان قد ساقه من قبل الفيلسوف اليونانى أبيقور ٢١٨ - ٣٤١ ق.م حين تساءل: {إذا كان الإله كلى الجبروت وكلى الخير فلماذا يوجد الشر فى العالم؟ إما أن الإله يريد القضاء على الشر ولا يستطيع، وفى هذه الحالة يكون عاجزاً ولا يستحق صفته الكلية، وإما أنه يستطيع ولا يريد وفى هذه الحال يكون شريراً وشیطاناً يتلذذ بتعذيب عباده، وإما أنه لا يستطيع ولا يريد وهذا أمر لا يتناسب مع إله، وإما أنه يريد ويستطيع ويبقى السؤال: فمن أين الشر إذن؟} (٢)

أما المشكلة الثانية التى اعترضت طريق اليهودية وترتبط بالمشكلة الأولى تماماً، فهى غياب فكرة البعث والحساب ثم المصير الأبدى إلى ثواب أو عقاب دائمين، عن أفق التفكير الإسرائيلى، مثلهم فى ذلك مثل بقية محيطهم من الشعوب السامية، يعتقدون أن المصير بعد الموت هو الهبوط إلى مملكة تقع تحت الأرض هى مملكة شيول المظلمة دوماً المخيفة، حيث يعيش الموتى على شكل هوام شبحية، وضعها أسوأ من الحياة ومن العدم. الكل فيها سواء، الصالح مثل الطالح.

(١) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠٩.

(٢) Epicurea, ED. H. usener Lipsial, ١٨٨٧, Lactantius, Deira Dei, ١٣-١٩.

وبينما عالجت جارتهم الكبرى مصر هذه المشكلة مبكراً فقررت وجود عالم آخر بعد بعث جسد في فيه ثواب وعقاب عن العمل في الحياة الدنيا، حتى يمكن الاعتراف بعدل الإله، ويأخذ الشرير عقابه وينال الخير ثوابه، فإن الديانة الإسرائيلية ظلت منذ فجرها وحتى القرن الثاني قبل الميلاد تعتقد أن الثواب والعقاب دينويان. فالصالح من عباد يهوه ينال حياة أطول وخيراً مادياً (وهو بالطبع الكلام المنطقي)، بعكس الشرير المنحرف دينياً يموت مبكراً بقرار إلهي ولا ينال خيراً في دنياه، فيضربه يهوه بالأمراض والسيقم والفقر والخيبة ثم يموت حزينا كميدا. اليهودية كانت تثق في يهوه وترفض وهم العزاء الأخرى زمناً طويلاً. لكن يهوه أبداً لم يأبه، الوثنيون أعزاء كرام بين العالمين، والإسرائيليون يكابدون، وبين اليهود أنفسهم يعيش الشرير وأصحاب المال عيشة رغدا ويتمتعون بالصحة والعافية، بينما يموت المؤمن بيهوه المخلص له فقيراً مريضاً بعد أن ذهبت تضرعته هباء. وهو الأمر الذي أدى إلى نزعات شك وإلحاد بدأت تنتشر بين هؤلاء نجدها واضحة في أسفار مثل سفر الجامعة وسفر أيوب بالكتاب المقدس ذاته.

ونتيجة انتشار الموجة الإلحادية قام الأنبياء يحاولون تبرير يهوه وتبرئته بإلقاء اللوم في كل محنة على الشعب الإسرائيلي لأن بعضه ولو كان أفراداً قلائل لم يستقيموا في عبادة الرب وخانوه مع آلهة أخرى أو شعوب أخرى. وتالت الخطوب تأخذ بعضها برقاب بعض حتى العصر الهلنستي الذي أطلق عليه عصر الآلام، عشية مجيء القرن الأول الميلادي بقرنين، فقامت اليهودية تأخذ بالعقيدة الأخرى المصرية كأبرز تبرير للإله حيث سيتمكن تحقيق العدل وتعديل الموازين لكن فيما بعد، عندما يأتي (يوم يهوه)، وينال المخلصون ثواباً أبدياً ويذهب الآخرون إلى العار الأبدى. وبذلك يتحقق ليهوه ما كان ناقصاً وهو العدل الذي لم يحدث في دنيانا الفانية ولا مرة واحدة.

هنا يجب ألا نغفل أن هذا التطور الجديد وإن حدث في فلسطين، فإن فلسطين إيان ذلك كانت تموج بالأفكار المصرية، كما كانت تموج بها مختلف بقاع المتوسط الشرقي. ومن هناك، وعبر الديانة اليهودية قدر للعقيدة الأخرى لتبرير الإله أن تجد طريقها إلى المأثور السامي، فتصبح من بعد ركناً ركينا في ديانا شرقى المتوسط الكبرى، حتى أنها أدت إلى تطور الديانة اليهودية إلى ما يعرف بالديانة المسيحية، ثم جاءت بعد ذلك كأحد الأسس الإيمانية في قانون الإيمان الإسلامى: أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

لكن هذا المأثور المصرى القديم جداً لم تتقبله اليهودية إلا متأخراً جداً، وهى تلفظ آخر بقاياها مع آخر أنبيائها، لينتظر اليهود بعد ذلك وحتى اليوم (يوم يهوه) الذى يسودون فيه الدنيا. وبينما تدفع العقيدة الأخرى بالدماء إلى شرايين اليهودية يبدأ الصراع بين القديم التقليدى الرافض للبدعة المصرية، وبين الجديد الذى وجدها ضرورة استمرار حتمية، لينتصر الجديد، فيأخذ العقيدة برمتها مع ربها (أوزيريس) الإله الطيب رب النور والخصب والخير، الذى يموت شهيداً من أجل رعاياه ويقوم في اليوم الثالث لموته في قيامة مجيدة، ليمنح من يؤمن بموته وقيامته حياة خالدة في عالمه الآتى. وتتادى الأناجيل هاوية عالم الموتى تحت أرضى نقول: أين شوكتك ياموت أين غلبتك ياهاوية؟ الموتى الآن يقومون، يصعدون ولا ينزلون، ويستبدل أوزيريس ببسوع الإسرائيلى وتظهر في أفق الدنيا ديانة جديدة هى اليسوعية أو المسيحية أو النصرانية نسبة إلى الناصرة حيث ولد المسيح. تنتصر على القديم ويتجدد القديم بجديد كان قديماً مصرياً، ويقوى أمرها ويستتب عندما تعتنقها الإمبراطورية الرومانية دينا رسمياً تفرضه على رعاياها فرضا.

لكن كى تتم تبرئة الإله نهائياً مما يحدث لعبيده الخُص من نوازل، كان لابد من العثور على مصدر للشر، وهنا تعود الإنسانية إلى فجر قديم عندما كانت العقائد القديمة تقول بالهين للخير والشر، أوزيريس وسيت في مصر، وبعل وموت في كنعان، وأهورمزدا وإهريمان في إيران. ووقع اختيار التيار الإسرائيلى الجديد (المسيحية) على شخصية عابرة وردت بالتوراة باعتبارها من بنى الله. وبنو الله فى التوراة عنصر هجين ناتج عن زواج الله ببنات الناس، وذلك الابن هو الذى يحمل اسماً عبرياً ترجمته: الغريم أو الواشى، واسمه (شيطان) وتكتب فى العربية (شيطان).

وكان يتوجب على شيطان أحياناً (فى الأسفار المتأخرة من العهد القديم)، أن يقوم بتجريب الناس فى إيمانهم بتكليف من يهوه، فيضرب المخلصين مثل أيوب العبد الصالح بالمرض والفقر بعد صحة وغنى، اختباراً لإيمانه، والواضح أنها كانت إحدى محاولات تبرير وتبرئة الإله باعتبار ما يحدث من نوازل هو ابتلاء من الله واختبار لأحبابه.

وكان أول ظهور لهذا الابن المتميز (شيطان) في سفر أيوب أبرز المحبين لله وأبرز المصابين من الله. وجاء التبرير في هذا السفر في حكاية هي الأولى من نوعها حينذاك، وتقول الحكاية: " وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضا في وسطهم [في الأصل العبري المازورى شاطان]، فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟ فأجاب الشيطان الرب وقال: من الجولان في الأرض والتمشي فيها، فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدى أيوب لأنه ليس في الأرض مثله، رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر، فأجاب الشيطان الرب وقال: هل مجانا يتقى أيوب الله؟ أليس أنك سبحت حوله وحول بيته وحول كل ماله من كل ناحية، وباركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض. ولكن ابسط يدك الآن ومس كل ماله، فإنه في وجهك يجدف عليك، فقال الرب للشيطان: هوذا كل ماله في يدك .. ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب / أيوب ١ / ٦ - ١٢. " وذهب شاطان وضرب أيوب بالمرض والفقر.

وهكذا وجد الاتجاه الجديد بغيته في التراث الإسرائيلي نموذجاً للإله الشرير القديم، ومن ثم أصبحت كل الشرور في المسيحية الناهضة تنسب إلى واحد من أبناء يهوه هو الشيطان الواشى أو الغريم. وفي الإسلام وجد له مكاناً وركناً ركيناً، وتحولت الواشى إلى الوسواس الذى يوشوش أو يوسوس للناس ويشككهم فيما يعتقدون، أما المسيحية فقد وجدت خلاصها وخلص البشر في تنزيه الله عن الشر لأنه فقط رب محبة أما الشر فهو من شاطان أو الشيطان الملعون إبليس.

وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة نجد العهد القديم عبر المحررين الذين دونوه، وهم غالباً من الكهنة والأنبياء المتعديدين، يحاولون دوماً تجريم الابتعاد عن طريق يهوه، ويعدون ذلك انحرافاً عن صحيح العقيدة وخيانة للرب تستحق عقابه الشديد، لكن يهوه أبداً لم يحتج يوماً على رب البطارقة الأوائل، رب سفر التكوين المعروف باسم إيل، بل حاول التخفى وراءه والإيعاز أنه كان هو ذات إيل ونفسه.

لقد كان إيل هورب زمن البطارقة الأوائل من إبراهيم حتى موسى، لكن موسى الذى عاش مع الإسرائيليين في مصر، وتكررت زيارته إلى سيناء، خرج على شعبه بإله جديد هو يهوه، زعم أنه قد انتقاه في سيناء، في هيئة شجرة ضوئية. لكن يهوه رغم حربه الضروس ضد الآلهة الأخرى، لم يكن بإمكانه أن يتكرر لرب البطارقة، ومن ثم كانت كذبه على موسى:

هكذا تقول لبنى إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، أرسلنى إليكم، هذا اسمى إلى الأبد

خروج ٣ / ١٥

أنا ظهرت لإبراهيم وإسحق بأنى الإله القادر على كل شيء، وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم.

خروج ٦ / ٢ ، ٣

والصفة " الإله القادر على كل شيء " و " الله العلى مالك السماوات والأرض "، كانت صفات معلومة للرب السامى الكنعانى (إيل)، وكان ملك أو رسلهم الكنعانى (ملكى صادق) أو الملك صادق، كاهنا لهذا الإله، وسبق له أن بارك إبراهيم الوافد الغريب ضيفاً على بلاد كنعان، وقد باركه باعتباره ممثلاً لإيل ونائباً عنه وكاهناً له، وقال له: " مبارك إیرام من الله العلى مالك السماوات والأرض / تكوين ١٤ / ٨. "

وهنا يصح التساؤل من الباحثين المدققين، إذا كان حقاً يهوه إلهها معروفاً في فلسطين قبل الخروج من مصر، وأنه كان ذات عين إيل، فلماذا سميت المدينة المقدسة (بيت إيل) ولم تسمى (بيت يهوه)؟ ثم لماذا يتخذ سفر التكوين من إيل إلهها، بينما تتحدث بقية الأسفار عن يهوه دون أى اعتبار أو وزن للإله إيل؟ هذا مع ملاحظة أن أول ظهور لهذا الإله كان في لقاءه بموسى في سيناء وليس في فلسطين. لا بد إذن أن هناك تغييراً جوهرياً قد حدث، وأن سفر التكوين تحديداً كان منتجاً لتقافة قديمة في فلسطين قبل مجئ إبراهيم وآله إليها من أور الكلدانيين. وعليه تكون بقية الأسفار نتاج ثقافة أخرى لشعب يعبد يهوه ولا يعرف إيل، وأنه قد تم ضم السفر الفلسطيني القديم للتوراة لإثبات علاقة نسب بالدم بين أتباع الإلهين، إله شعب فلسطين (إيل)، وإله شعب جديد (يهوه) جاء مع الخروج من مصر بدين جديد إلى فلسطين^(١).

ويدعم أصحاب هذا الرأى مذهبهم بانقطاع التاريخ التوراتى عند البطرك يوسف، وتوقف هذا التاريخ تماماً لمدة أربع قرون قضاها هؤلاء في مصر حسب زعمهم، فلماذا سمح محررو التوراة بهذه

(١) يوسف سامى اليوسف: تاريخ فلسطين عبر العصور، الأهالى، دمشق، ١٩٨٩، ص ٥٣ ، ٥٤ .

القفزة في عرض تاريخهم؟ الإجابة لا شك أنهم عبدوا آلهة مصرية وهو ما جاء في سفر يشوع « انزعوا الآلهة التي عبدها آبائكم في عبر النهر وفي مصر / يشوع / ٢٦ »، وأن هذه الآلهة يقف على رأسها الإله يهوه الذي قابله موسى في مديان في سيناء المصرية. والمعنى هو أن سلالة البطارقة دخلت مصر مع ربها إيل لكن لتعيش هناك أربعة قرون، وفجأة يخرج قوم من مصر إلى فلسطين بثقافة جديدة ورب جديد مع موسى ويزعمون أنهم أخلاف أولئك البطارقة الأسلاف، لكن الواضح أن هذه كانت ثقافة وتلك كانت أخرى جديدة تماماً. مما يشكك في هوية الجماعة الخارجة من مصر ومدى انتسابها لهؤلاء البطارقة.

ويؤكد هذا المذهب ووجهة النظر تلك هو أنه بعد مجئ الخارجين من مصر إلى فلسطين، نجد خلافاً جذرياً بين الشعب يكاد يقسمه إلى عنصرين بشريين متميزين، قسم يحمل اسم يهوذا. وقد قرر هؤلاء اليهوديون استيطان جنوب فلسطين على الحدود السينائية واتخذوا من أورشليم عاصمة لهم، والآخر يحمل اسم إسرائيل استقر في المناطق الشمالية من فلسطين واتخذ من مدينة السامرة عاصمة له.

وعندما قامت مملكة إسرائيل الموحدة زمن شاول ثم داود فسلیمان، انقسمت فور موت سليمان إلى إسرائيل شمالاً ويهوذا جنوباً. ويبدأ سفر صموئيل الثاني بالتمييز بين إسرائيل (وتحوي اسم إيل في تركيبها) وبين يهوذا المنتسبة إلى (يهوه)، وهو التميز الذي يستمر ويتضح ويتأكد عبر الأسفار اللاحقة. وبعد أن كان المحرر يستعمل تعبير «كل إسرائيل» للدلالة على القبائل المنتسبة للأسباط الإثني عشر بما فيها يهوذا، فإنه يبدأ في سفر صموئيل الثاني بالحديث عن إسرائيل ويهوذا، حيث تبدو يهوذا مستتاه من مصطلح (كل إسرائيل) الذي أصبح يستخدم للدلالة على القبائل الشمالية.

وتلخص موسوعة تاريخ العالم علاقة هذا الشعب بالآله يهوه فنقول: «أصبح يهوه إلهاً لإسرائيل عن طريق موسى بعد التخلص من الأسر المصري، وكان يهوه في الأصل إلهاً لجبل مقدس (سيناء أو جوريب)، ثم قاد يهوه - باعتباره إلهاً قومياً - الاسرائيليين إلى كنعان. وبعد أن أخذ صفات البعول واستولى على معابدها أصبح إلهاً كنعان بجانب كونه إلهاً إسرائيل، وإعلانه إلهاً دولياً للعدل مهد عاموس ٧٥٠ ق.م الطريق للاعتراف بأن يهوه هو الإله الواحد في الوجود في إشعيا ٤٠ / ٥٥ حوالى ٥٥٠ ق.م. وبالجمع بين هذا اللاهوت النبوي وطقوس العبادة في المعابد التي اقترحها حزقيال في ذلك الوقت نتج دين جديد هو اليهودية ».

وعلينا أن نلاحظ أن عائلة الملك داود التي تعود إلى سبط لاوى أوليفى الذي كان منه موسى. هي التي حكمت في دولة يهوذا الجنوبية كأسرة واحدة لملوك يهوذا، بينما كانت إسرائيل الشمالية قد تناوبت على عرشها تسع أسر خلال أكثر من مائتي عام بقليل. ورغم أن المملكتين قد عبدتا يهوه بعد سيادته الأولى على مملكة (كل إسرائيل)، فإن عبادة يهوه كانت في يهوذا أقوى منها في إسرائيل بشكل واضح. وقد اتهمت التوراة الدولة الشمالية إسرائيل بعبادة الآلهة الغريبة ولحقت هذه التهمة جميع ملوكها وأدانت نشاطهم الديني، لكنها لم تنتهم من ملوك يهوذا هذه التهمة سوى ثمانية ملوك، لكن كان فيها ملوك آخر مخلصين ليهوه، فبفضل الملوك اليهوديين آسا و يهو شافاط ويهورام وحزقيا ويوشيا تجددت اليهودية وانتعشت رويداً حتى انتصرت على الديانات الأخرى.

ومع ما تعرضت له تلك القبائل من مفارقات تاريخية قاسية انغلقت على نفسها في حالة نرجسة قبلية، تماهت فيها الجماعة مع الرب يهوه وعبدت يهوه أو عبدت نفسها لافرق، وقدمت نفسها للعالم كأفضل الأمم، ودينها كآشرف الأديان، وتحولت الجماعة المندمجة بربرها إلى بطل قومي، نقل الإحباط من داخل الجماعة إلى خارجها المعادى المخالف، لتحافظ على انسجامها وعلى وحدتها الداخلية، وهو الأمر الذي يتكرر دوماً مع الجماعات التي تتعرض لخطر الضياع من صفحة التاريخ. وهو ذات ما يحدث الآن في بلادنا الإسلامية.

أقسام العهد القديم :

العهد القديم (الكتاب اليهودي المقدس) هو مجموعة كتب وليس كتاباً واحداً، يطلق عليها الأسفار جمع سفر أو كتاب، وتسمى في مجموعها التوراة، وهي تسمية مجازية تطلق على كل الكتاب لأن التوراة تقتصر على الكتب الخمس الأولى، من مجموع كتب يشملها هذا الكتاب يصل عددها إلى تسع وثلاثين سفرًا. وقد اتفق على تقسيم هذه الكتب إلى أربعة أقسام هي على الترتيب:

القسم الأول :

يعرف باسم التوراة أو كتب موسى الخمسة أو البنتاتك Pentateque، والكلمة توراة مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة تورات أى شريعة، لكنها في العبرية استخدمت بدلالة تعنى التعليم، ونطقها العبرى (تورة)

من الفعل (رأى - رعه بالعبرية) على وزن أفعل، وتعنى حرفياً الترتيبة أو الرقبة. وتشمل التوراة خمسة كتب أو أسفار هي:

□ **التكوين Cenesis** ويحكى تاريخ العالم من لحظة البدء بخلق الرب للسموات والأرض ثم آدم ونسله، ثم تسير التوراة مع ذلك النسل فى عمليات غربلة واستبعاد حتى تستبقى شعب التوراة فى المصفاة، وذلك عندما تصل إلى أولاد يعقوب المعروف باسم إسرائيل. وهم اثنى عشر ولداً أو سبطاً، والكلمة سبط مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة (سبيت) أى إقليم أو فرع، ومعنى الأسباط الفروع التى انقسم إليها بيت يعقوب. ونسبة للكلمة يطلق على الحبار ذى الأيدى أو الفروع المتعددة (سُبط) أى متعدد الأرجل أو الأفرع، ونطلق على عرجون النخل (سُباطة) .. إلخ.

وينتهى سفر التكوين باستقرار فروع يعقوب أو الأسباط فى مصر ضيوفاً عليها إبان مجاعة حلت بالمنطقة بكاملها لكن مصر كانت بمأمن منها. ويرجح بعض نقاد التوراة أن يكون قد تم تأليف كتاب التكوين أو جمعه من المأثور القديم لفلسطين والمنطقة حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، أى بعد موت موسى بحوالى خمسة قرون كاملة.

ويظهر محررو التوراة فى كتاب التكوين بحسبانهم جامعى تراث أكثر من كونهم مؤرخين لواقع حقيقى. وفى التكوين تم حشد قصص عديدة مختلفة المنشأ والأصل إلى جوار بعضها مع ربطها ربطاً غير محكم بتاريخ إسرائيل، مما أبقى على استقلال شبه واضح لكل قصة على حدة، مع تناقض بين الأحداث يسمح للباحث أن يفرز ويصنف. ويظهر أن المحررين كانوا يعون هذا التناقض فيما يدونون من أحداث، لكنهم ابقوا عليها من باب التقديس، وربما برغبة تسجيل أكبر حشد من التتويجات التى مرت بها القصة الواحدة، مع مهمة أساسية أخذها المحررون على عاتقهم وهى تنظيم تلك التركة من الأساطير والأحداث والتقاليد والحكى الفولكلورى، فى سياق من شأنه أن يخلق لإسرائيل تاريخاً كشعب موحد من البداية. فكان هاجس الأصول - فيما يقول فراس السواح - يسيطر طول الوقت على مجموع أسفار التوراة الخمسة، ثم تعداه إلى بقية الأسفار المعروفة بالأسفار التاريخية.

□ **الخروج Exodus** ويتعرض هذا الكتاب للأحداث التى مرت بها القبيلة الإسرائيلية فى مصر فى سطور لا تفصح عن أحداث يفترض أنها استمرت ثلاثين سنة وأربعمائه، بصمت مريب لا يلتئم وأسلوب هذا القسم الذى يميل للإطناب والتفصيل والتكرار إلى حد الإملال. وتركز بقية السفر على أحداث الأيام الأخيرة للخروج من مصر، لإبراز قدرات يهوه السحرية وضرباته للمصريين ضربات مدمرة، انتهت بخروج الإسرائيليين من مصر تحت قيادة موسى أحد أحفاد سبط لاوى أوليفى شقيق يوسف والأسباط، فى رحلة هروب أو خروج كبرى تتم حكايتها هنا بتدقيق وتفصيل شديدين. تشير إلى جغرافيا شرقى دلتا مصر وسيناء بمزيد من التدقيق لأسماء مواضع الحل والترحال للخارجين عبر سيناء نحو فلسطين. ويحوى هذا السفر بعض أحكام الشريعة اليهودية فى العبادات والمعاملات والعقوبات. ويرجح الباحثون أن يكون قد تم تأليفه زمن تأليف كتاب التكوين.

□ **التثنية Deuteronomy** وقد شغل هذا السفر بأحكام الشريعة اليهودية فى الحرب والسياسة والاقتصاد والعبادات والمعاملات والعقوبات. وسمى تثنية لأنه ثنى أو أعاد ذكر التعاليم المفترض أن موسى تلقاها من ربه إبان رحلة الخروج عبر سيناء. لكن نقاد التوراة لهم رأى آخر فهم يجمعون على أن هذا السفر لم يتم تأليفه إطلاقاً قبل أواخر القرن السابع قبل الميلاد، أى بعد زمن موسى بحوالى سبعة قرون كاملة، وبعد مملكة سليمان بثلاثة قرون، وأن ذلك قد تم إبان وجود اليهود فى المنفى البابلى على الرافدين.

□ **اللاويون أو الليفيون Leviticus** نسبة إلى ليفى Levi أحد الأسباط. ويشير إلى نسل ليفى هذا. وهم من اختارهم موسى من عائلته الليفية ليكونوا كهانا ليهوه حفظاً لمسؤولية العلاقة بالله داخل أسرته، وقد شغل هذا السفر فى معظمه بشئون العبادة وطقوسها خاصة ما تعلق منها بطريقة تقديم الأضاحى والقربان إلى الإله.

- **العدد Nambers** وهو خامس أسفار التوراة وآخرها، وقد اهتم بإحصائيات عديدة عن إسرائيل كعدد القبائل وعدد أفراد الجيش وكم الأموال وأى شأن كان يمكن أن يخضع لعملية الإحصاء لذلك سمي العدد أو الإحصاء.

القسم الثاني :

- ويعرف بالأسفار التاريخية وعددها اثني عشر كتابا قامت بعرض تاريخ إسرائيل منذ دخولهم أرض فلسطين قادمين من مصر . . ويشمل أسفار:
- **يشوع Josue** ويشوع هو ربيب موسى وخليفته على قيادة بنى إسرائيل إلى فلسطين بعد موت موسى.
- **القضاة Juges** وهم الذين تولوا أمور الحكم على بنى إسرائيل بشكل قبلى حيث كان الحاكم هو من يقضى بين الناس بشكل مباشر فى اجتماعات دورية تعقد لهذا السبب.
- **راعوث Ruth** وهو اسم جدة الملك داود من جهة أبيه، ويحكى قصة لا علاقة لها بالسياق التاريخي.
- **صموئيل الأول وصموئيل الثانى (كتابان):** وصموئيل هو آخر قضاة إسرائيل قبل التحول عن نظام حكم القضاة القبلى إلى الحكم الملكى وقيام المملكة.
- **أعمال الملوك أول وثانى (كتابان):** ويحكى تاريخ ملوك القبائل الإسرائيلية بدءاً من أول ملوكهم المؤسس شاول مروراً بداود وولده سليمان، ثم انقسام المملكة إلى يهوذا فى الجنوب وإسرائيل فى الشمال، وسيرة ملوك المملكتين فى علاقتهما بالرب وبالذول المجاورة.
- **أخبار الأيام أول وثانى (كتابان) :** ويعرضان على الترتيب شجرة النسب من آدم إلى يعقوب، ويكرران ما سبق عرضه فى سفر التكوين، ثم يكرر عرض تاريخ الملك داود وولده سليمان ثم يعرض لتاريخ اليهود السياسى بعد سليمان.
- **عزرا Esdras** وينسب هذا الكتاب إلى نبي إسرائيلى باسم عزرا، عاد على رأس اليهود المنفيين فى بابل إلى فلسطين حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، وإليه تنسب محاولة تجديد الديانة وإيقاد جذوة القومية الإسرائيلية، وقد أشرف على تجديد الهيكل، وإليه تنسب كثير من كتب العهد القديم فى رأى نقاد التوراة. وقد بلغ عزرا منزلة عظيمة عند بنى إسرائيل، ويخبرنا القرآن أن الإسرائيليين قد قدسوه حتى قالوا: عزير ابن الله. رغم أننا لم نجد - فى العقائد اليهودية ذاتها - ما يشير إلى ذلك.
- **نحميا Nehemie :** وهو أحد وجهاء بنى إسرائيل، تمكن مع عزرا من إقناع الملك الفارسى بعد فتح الفرس لبابل بالسماح للإسرائيليين بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل من جديد.
- **إستير Esther** وهو سفر صغير يشتمل على تسعة أبواب أو إصحاحات، ويروى قصة الإسرائيلىة الجميلة إستير التى تمكنت من إغواء أخشويريش ملك الفرس فتزوجها، وتمكنت بوجودها فى البلاط من إحباط مؤامرات وزيره الكبير هامان ضد بنى جلدتها. ثم دبرت مع عمها الكاهن مردخاى مكيده قضت على هامان وأتباعه، حتى سمح لهم الملك الفارسى بالولوج فى دم هامان وفريقه كيف شاءوا، وقام الإسرائيليون بذبح الآلاف من قوم هامان ونسائهم وأطفالهم، وحتى اليوم يحتفل اليهود بذكرى تلك المذبحة فى عيد البوريم أو عيد استير فى مارس من كل عام.

القسم الثالث:

- ويعرف بمجموعة كتب الأناشيد أو الأسفار الشعرية، ويشتمل على أسفار فى صيغ أناشيد وتراتيل ومواعظ دينية مصاغة شعراً، ويشمل خمسة كتب أو أسفار هى على الترتيب:

□ **أيوب Job**

□ **المزامير Bsaumes**

□ سفر أمثال سليمان Bruverbes

□ سفر الجامعة Ecclesiastes وينسب بدوره لسليمان.

□ نشيد الإنشاد Cantique des cantiques وهو بدوره ينسب إلى سليمان ويسمى نشيد الإنشاد الذي لسليمان.

القسم الرابع :

وهو مجموعة أسفار النبيين أو الأنبياء ويحوى سبعة وعشرين كتابا تعرض لتاريخ أنبياء إسرائيل بعد موسى، وهى على الترتيب:

| | |
|----------|---------------|
| Esaie | □ إشعيا |
| Jeremie | □ إرميا |
| | □ مراثى إرميا |
| Ezechiel | □ حزقيال |
| Daniel | □ دانيال |
| Osaie | □ هوشع |
| Joi | □ يوئيل |
| Amos | □ عاموس |
| Abdias | □ عوبيديا |
| Jonas | □ يونس |
| Michee | □ ميخا |
| Nahum | □ ناحوم |
| Habakuk | □ حبقوق |
| Sophonie | □ صفنيا |
| Ajjee | □ حجي |
| Zacharie | □ زكريا |
| Malachie | □ ملاخي |

ويرجح علماء مدارس نقد التوراة أن معظم تلك الكتب النبوية قد تم تأليفها إبان النصف الأخير من القرن التاسع قبل الميلاد، بينما يعود بعضها إلى أوائل القرن السادس قبل الميلاد ويمكن نسبة بقيتها إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وحتى القرن الثانى قبل الميلاد.

وهكذا تشكل العهد القديم على مدى ١٥٠٠ عاما، ويحكى لتاريخ امتد أكثر من ألفى سنة قبل الميلاد، تعرض أثناءها للمعالجة والتحرير عدة مرات من محررين أغلبهم مجهول. ومع مرور الزمن والتغيرات التى لحقت ديانة إسرائيل وأخذت توطد سيادة يهوه بشكل واضح، أتاح ذلك الفرصة لأنصار يهوه وكهنته استخدام المأثور التاريخى لقبائل اسرائيل وغيرها من شعوب المنطقة، من أجل خدمة وتأكيد عبادة يهوه. ومن ثم تعرضت نصوص المقدس التوراتى لتحويرات كانت تتناسب مع روح المذهب الدينى المنتصر، لكن هؤلاء - ولحسن حظ الباحثين اليوم - كانوا أتقياء إلى حد عدم الاجترار على تصحيح النصوص القديمة أو جعلها ملائمة، وعادة ما كانوا يكتفون بحشر مقدمات وخواتيم ضمن نص السرد الأصيل للحوادث التاريخية، وأحيانا كانوا يضيفون على السرد الفعلى وقائع لم تكن موجودة فى النص الأصيل. وهو مايلقى على الباحث اليوم

مزيداً من المشقة في غربلة الأصل مما لحقه من إضافات خاصة أن المحرر عادة ما كان يستقي موضوعاته من الفلكلور السائد أو كان يخترعها اختراعاً. ثم تواجه الباحث مشاكل أخرى لها أسبابها القديمة، فمثلاً كان المحررون لا يتركون فواصل بين مداخلات مؤلفين عدة بقصد توفير الورق الثمين، وهو ما جعل النساخ المتأخرين ينسبون مداخلات نبي إلى نبي آخر، وأثناء ذلك لم يكن يرى المحرر أى تخرج من حشر مقاطع تتاسب وجهة نظره مع مداخلة نبي قديم عاش في زمن سابق.

ولسوف نشرك القارئ معنا في معرفة أكثر بهذا الكتاب في فصول قادمة وكيف يمكن قراءة هذا التل المختل، والخروج من الأخيولة الأدبية بالأحداث التاريخية، وكشف المستوى التاريخي الكامن وراء السرد الأسطوري، خاصة إذا علمنا أن التوراة هي أحد المفاتيح الهامة لفهم خط سير التاريخ الديني ثم السياسي في منطقة الشرق القديم. وإبان ذلك علينا مراعاة أننا نتعامل مع نصوص تنتمي لضروب أدبية مختلفة، وتحوى قوانين ومشاهد طقسية وخرافات وأساطير وقصص وتاريخ ينتمي لفئات اجتماعية متباينة، مضافاً إلى كل ذلك تعليقات المحرر ونزواته.

مصادر العهد القديم

أما على مستوى الدرس العلمي النقدي للكتاب المقدس فقد حدث تقسيم آخر يعتمد المصادر الأساسية لخطوط سير الوثائق المقدسة، وقد انتهى التطور الأخير لمدرسة يوليوس فلهاوزن الألمانية ١٨٤٤ - ١٩١٨ إلى الكشف عن أربعة وثائق مختلفة عن بعضها وشديدة التباين يتكون منها العديد القديم. هي على الترتيب:

أولاً : المصدر اليهوى Jahwist

ويرمز له اختصاراً بالرمز (J). وقد أخذت التسمية من اسم الإله يهوه Jahowa، لأنه الاسم الإلهي الغالب على الاستعمال في هذا المصدر، ويرجع زمن تأليفه إلى حوالي عام ٨٥٠ ق. م. في المملكة الجنوبية يهوذا. وقد ركز هذا المصدر على الوعد الذي أعطاه الله للبطاركة من إبراهيم إلى موسى. والتركيز على هذا المصدر لون من إضفاء الشرعية التاريخية والدينية على الإثتلاف الذي أنشأه داود في فلسطين لدولته، بوضعه هو وأسلافه في خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الرب يمتد شرعاً إلى عهد الرب إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى. ويمنح وحدة القبائل المعروفة بالأسباط وجوداً تاريخياً قديماً. بقصد وضع أساس قومي تاريخي متين للدولة التي وحدت القبائل، حتى يصعد بتاريخ تلك القومية التاريخية عبر سلسلة الأنساب إلى آدم زمن الخلق الأول.

ثانياً : المصدر الإلهيمي Elohist

ويرمز لهذا المصدر اختصاراً بالرمز (E) نسبة إلى الاسم الإلهي الغالب في ذلك المصدر وهو (إيل EL) أى الإله، وإلهوهم أى الآلهة. ويرجع زمن تأليفه إلى حوالي ٧٧٠ ق. م. في المملكة الشمالية إسرائيل التي تحوى في اسمها الشق (إيل / اسم الإله). وبعد ذلك تم إدماج المصدرين: اليهوى (J) والإلهيمي (E) في مجموعة واحدة يرمز لها بالرمز (E J) وذلك حوالي عام ٦٥٠ ق. م. وقد عنى هذا المصدر باستكمال النقص الحادث في المصدرين اليهوى والكهنوتى، وسيرد الحديث عن المصدر الكهنوتى.

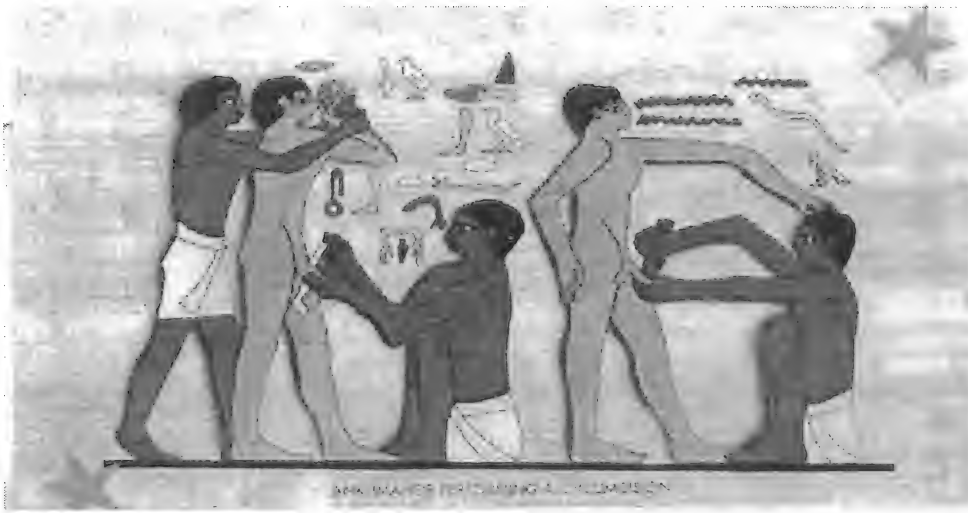
ثالثاً : مصدر التثنية Deuteronomy

ويرمز له اختصاراً بالرمز (D) ويعنى بالإغريقية القانون الثانى، وهو مصدر منفصل تماماً عن بقية المصادر ويتمثل في الكتاب أو السفر الذى يحمل اسم التثنية أو تثنية الاشتراع، وقد تم تأليفه خلال القرن السابع قبل الميلاد في أورشليم عاصمة المملكة الجنوبية يهوذا. وترغم الرواية الملحقة به أنه كان مخفياً منذ زمن موسى في فجوة بجدران الهيكل السليماني، وأنه تم الكشف عنه أثناء عمليات ترميم المعبد عام ٦٢٢ ق. م. أثناء حكم الملك اليهودي الورع يوشيا Josias (انظر ملوك ثانياً ٢٢ / ٣ - ١٠ و ٢٢ / ٣ - ٢٥)، حيث عثر المرممون في وجود حلقيا شيخ الأحبار أو كبير الكهنة على كتاب الشريعة وأحضره للملك. وقد ترك الحدث أثره الشديد على الملك الورع فقام يحرم كل الطقوس الوثنية ويمنع كل العبادات عدا عبادة يهوه، وقصر العبادة على معبد أورشليم وحده دون بقية معابد الآلهة الأخرى. لكن الملاحظة الواضحة هو تعرض

ذلك المصدر لكثير من الحشو والإضافات من عناصر ثقافية لا علاقة لها بالبيئة البدوية الصحراوية، والمفترض أنها البيئة التي عاشها الخارجون من مصر إلى سيناء حتى نهاية زمن القضاة، لكن قراءة هذا المصدر تبين بجلاء أن المحررين كانوا ينتمون إلى ثقافة دولة متماسكة يحكمها ملك. ويعنى هذا السفر بالشرعية وبوضع شرائع الحرب والأوامر الإلهية المباشرة لاتباعه.

رابعاً : المصدر الكهنوتي Priestly

ويرمز لهذا المصدر اختصاراً بالحرف (P) وهو تجميع كهنوتي يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ويركز على شعائر العبادة والطقوس، ويعود إلى التركيز على العهد بين الله وبين نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم داود. ويقوم جوهره على وجوب إخلاص الشعب اليهودي للعهد حتى يستحق الخلاص ويتم الوفاء بالعهد من قبل الله إذا أخلص الشعب ووفى لربه، وذلك بالتزام عباده بالشرعية بدقة، وشرية أن يتمسكوا بلحظتين تاريخيتين جوهريتين في تاريخهم: الأولى هي لحظة العهد القديم بين الله وبينهم ممثلين في جدهم إبراهيم، وهو الوعد الذي منحهم الله بموجبه أرض فلسطين مقابل أن يختتن جميع الذكور في قضبانهم. ومعلوم أن أرض فلسطين إبان ذلك كانت خاضعة للحكم المصري، وكان المصريون هم الشعب الذي ابتدع الختان منذ العصر الحجري الأول، في وقت كان فيه المصريون هم السادة في فلسطين زمن الإمبراطورية، وكانوا مختننين، ويبدو أن ذلك الأمر قد أمسى راسخاً حتى وجد الإسرائيليون أنفسهم بحاجة للختان كدلالة على السيادة في الأرض، والسيادة امتلاك وحكم المصريين. ويؤكد هذا المعنى اللحظة الثانية في تاريخهم التي يجب أن يتمسكوا بها تماماً وهي لحظة خروجهم من مصر، لحظة المعجزة الكبرى وانشقاق البحر، تأكيداً على مصر والانتماء إليها بأي شكل، لذلك فإن العزف على معجزة فلق البحر والخروج من مصر، يكاد يكون ترنيمة أساسية متكررة دائمة يومية لدى اليهودي الورع، وتكرر في كل كتابات كتب العهد القديم المقدس بلا استثناء.



ويرجع زمن ذلك المصدر إلى عهد (عزرا)، وقد تم إدماج هذا المصدر مع المصدرين اليهودي والإلهيمي حوالي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد.

وقد انتهت المدرسة الألمانية إلى أنه قد تم تجميع المصادر الأربعة في كتاب واحد هو كتاب العهد القديم حوالي عام ٢٠٠ ق.م ، أما الأسفار المتأخرة غير الموجودة في النسخة العربية، مثل سفر المكابيين الأول والثاني فقد تم تحريرها خلال القرن الأول قبل الميلاد، ووردت في النسخة اليونانية المعروفة بالسبعينية نسبة إلى سبعين حبراً قاموا بجمعها وكتابتها في الإسكندرية المصرية.

وقد قامت مدرسة فلهاوزن بعمل شديد الجراءة عندما قررت عكس الترتيب التقليدي لأسفار التوراة، بناء على ما وصلت إليه من نتائج النقد والمقارنة والتحليل، بحيث أصبح الترتيب يعاد على النحو التالي:

١- أسفار الأنبياء

ثم أضيفت إليها الأسفار بعد ذلك بترتيب منهجى حسب مادتها المشتركة وموضوعها، وليس حسب الترتيب الزمنى لتأليفها.

طرق تدوين العهد القديم

من كتاب اليهود المقدس ذاته يمكن للباحث العثور على الطرق والأدوات والوسائل التى استخدمها محررو التوراة لتدوين مؤلفاتهم، فنحن مثلاً نجد فى سفر (إرميا ٣٦ / ٢) حديثاً عن التدوين على أدراج. والدرج هو اللفيفة وجمعها لفائف، وتتم الكتابة عليها من اليمين إلى الشمال، وقد أكد لنا هذا سفر حزقيال (٢ / ٩ و ٣ / ١) وسفر زكريا (٥ / ١ ، ٢) وسفر المزمير (٤٠ / ٨) وهى أسفار تشرح طريقة الكتابة، وقد استخدمت للكتابة على الأدراج أداتين: الأولى يذكرها المزمور (٤٥ / ٢) وهى قلم الإردواز، والثانية هى الأحبار أى السوائل الملونة ألوانا كثيفة ثابتة، وقد ذكر لنا ذلك كتاب إرميا (٣٦ / ١٨).

وعلى حد ما نعلمه تاريخياً فإن الأدراج اختراع مصرى بحث ولايمارى فى ذلك أحد، وكانت تصنع من البردى، وإلى جوارها كانت الكتابة على الرق (الجلود)، وقد ظلت تلك المخطوطات على هيئة اللفائف / الأدراج حتى القرن الثالث قبل الميلاد، حيث بدأت تأخذ شكل الكتب مع الاستمرار فى العمل بنظام اللفائف. ولم يزل حتى اليوم يعمل بنظام اللفيفة أو الدرج فى الأشكال الطقسية التى تمارس فى المعابد اليهودية من باب تحنيط التاريخ، ونجد ذلك مستعملاً خاصة مع أسفار التوراة الخمسة مع سفر اسستير نظراً لمناسبته الخاصة.

لكن ما يبدو للمدقق فى قراءة التوراة أن هناك أسلوباً فى التدوين قد اتبع قبل القلم والحبر والدرج، هو النقش على الحجر الصلب، لكن أبداً لم نعثر على نموذج توراتى منه حتى الآن، وهو الأسلوب المعروف فى مصر بالمسلات، حيث كان يتم تدوين الحدث المطلوب حفظه على مسلة من الحجر الصلد بالنقش بالإزميل، وفى التوراة نجد أول شخصية توراتية تكتب باستخدام هذا الأسلوب، هو النبی موسى، وتم استخدام هذا اللون من الكتابة فى كتابة ألواح الشريعة منقوشة على الحجر فى كتابين أو لوحين كبيرين أو بالأحرى مسلتين.

وتزعم التوراة أن الله هو من كتبها بنفسه وبإصبعه ثم سلمها لموسى. وقد وردت قصة كتابة الشريعة متناثرة فى التوراة، وقد جمعناها ورتبناها من جديد لتتطابق بالآتى:

□ وقال الرب لموسى : إصعد إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك **لوحى الحجارة** والشرعية والوصية التى كتبتها لتعليمهم . . ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل، وكان موسى فى الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة / خروج ٢٤ / ١٢ ، ١٣ ، ١٨ .

□ ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء، **لوحى شريعة مكتوبين بإصبع الله** . / خروج ٣١ / ١٨ .

□ فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده، **لوحان مكتوبان** على جانبيهما، من هنا وهناك كانا مكتوبين، **واللوحان هما صنعة الله**، والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين . . وكان عند اقترابه من المحلة أنه ابصر العجل والرقص، فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها أسفل الجبل / خروج ٣٢ / ١٥ ، ١٦ ، ١٩ .

□ ثم قال الرب لموسى : إنحت لك **لوحين حجر** كالأولين. وبكر موسى فى الصباح وصعد إلى جبل سيناء كما امره الرب وأخذ من يديه لوحى الحجر / خروج ٣٤ / ١ ، ٤ .

□ وقد جاء فى الأثر الإسلامى فى حديث للنبي محمد (ص): إن الله تعالى خلق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراه بيده ^(١). كذلك جاء فى الآيات القرآنية: وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة / ١٤٤ / الأعراف.

هذا إضافة إلى أن ذات الأسلوب المصرى قد اتبع مرة أخرى بعد ذلك، وذلك فى كتابة أسفار الشريعة بيد اليهود بأمر من موسى، وبذات الطريقة، وهو ما يتضح فى قوله لهم:

يوم تعبرون الأردن إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك، تقيم لنفسك **حجارة كبيرة** تشيدها بالشيد، وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس، **نقشاً جيداً**، تثنية ٢٧ / ٢ ، ٤ / ٨ .

اللغة التى دون بها العهد القديم

على غلاف الكتاب المقدس نجد لافتته تنبه وتقول: « الكتاب المقدس: أى كتب العهد القديم، والعهد الجديد (الجديد هو الأنجيل) ، وقد ترجم من اللغات الأصلية وهى : اللغة العبرانية ، واللغة الكلدانية واللغة اليونانية » .

أولاً **العبرانية** هى اللغة الكنعانية مكتوبة بالخط الأرامى المربع، ويعترف الكتاب اليهودى المقدس صراحة بذلك فى سفر إشعيا ١٩ / ١٨ بأن العبرية هى شفة كنعان. وهناك لغات أخرى استخدمت فى الكتابة لم تشر إليها اللافتة المذكورة، فنحن نعلم الآن أن بعض الأجزاء قد كتبت بالأرامية، وأخرى كتبت بالخط المربع (هو خط آشورى أصلاً) بعد السبى البابلى، ومعلوم أن عزرا صاحب معظم أجزاء العهد القديم قد استخدم تلك اللغة فى تدوين كتبه أو أسفاره.

لكن بعض الترتيب المنهجي والمنطقى لابد أن يؤدى إلى افتراض سليم هو أن أول ألوان الكتابة الذى استخدمه محررو التوراة وأول لغة كانت هى المصرية، فنحن نجد جميع البطارقة قبل النزول إلى مصر لا يعرفون الكتابة، ويقيّمون الأدلة على اليهود والمواثيق بين الناس ليس بأوراق أو نقوش، بل بقسم مثل القسم الذى أقسمه إبراهيم وأبيمالك عند بئر سبع، وحيث تم ذبح سبع نعاج علامة أو وثيقة للعهد أطلق بموجبها الاسم على المدينة (بئر سبع). كذلك عهد يعقوب مع خاله لابان الأرامى الذى تم بعمل رجمة أحجار تشهد بالعهد وينوده. ثم فجأة تظهر الكتابة عند هؤلاء بالنقش على الحجر مع خروجهم من مصر تحت قيادة موسى المعروف فى الكتاب المقدس أنه عاش فى قصر الفرعون، و « تعلم بكل حكمة المصريين » على حد تعبير الكتاب المقدس. بل ربما يجب أن نذهب بالفرض بعيداً فنقول أن اللغة المزعوم أن موسى قد خاطب بها ربه فى سيناء، يجب أن تكون اللغة المصرية تحديداً، فهى لغة موسى فى بلاط الفراعين، علماً أن موسى لم تطأ قدمه أرض فلسطين صاحبة شفة كنعان (العبرية)، ومات وهو بعيد عن تلك الأرض. ناهيك عن كون

(١) الشهر ستانى: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، ١٩٦١، ج ١، ص ٢١١ .

كلمة توراة نفسها كما قلنا مصرية قـح فهي Torah فى العبرية أى التعاليم من المصرية Toroth أى الشريعة.

ترجمات العهد القديم :

من المعروف أن ترجمة هذا الأثر الهائل إلى العربية عن لغته الأصلية وهى النسخة المتداولة الآن، قد تمت فيما هو محقق عام ١٨٦٥م. أما الترجمة الإنجليزية فقد تمت فى عهد الملك جيمس عام ١٦١١م، وكلا الترجمتين قد تمت عن الأصل العبرى المعروف بالنص المازورى المدون فى القرن العاشر الميلادى، عن مجموعة نسخ مجهولة الآن ومجهول تاريخها أيضاً. لكن ذلك لا يعنى أن نصا عبريا أو نصوصا لم تكن موجودة قبل ذلك، وإنما كل ما يعنيه هو أن هذه الأصول قد فقدت. والنسخة المازورية الأقدم الموجودة الآن تعود إلى عام ٨٩٥ ميلادية، وتم الكشف عنها فى كنيسة المعبد اليهودى فى القاهرة.

وكان النص المازورى فى النسخ السابقة للقرن العاشر الميلادى، غير مصحوب بالإشارات والحركات والنقاط فوق الحروف فكانت جميعاً ساكنة الكتابة، وعند تدوين الأصل البعيد للنص المازورى تم اقتباس حركات النظام البابلى فى الكتابة، واستخدم فى تحريك أحرف النسخة المازورية.

وهناك نص آخر دون باللغة اليونانية القديمة ويعرف باسم النص السبعينى، وقد تمت كتابته حوالى سنة ٢٨٣ ق.م على يد اثنين وسبعين فقيها يهودياً، بأمر من ملك مصر آنذاك بطليموس فلافيوس وتزيد عن النسخة المازورية بأربعة عشر كتاباً أو سفراً جديداً، وهى أسفار غير موجودة بالطبع فى النسخة العربية لأنها مأخوذة عن المازورية. وتلك الأسفار هى:

□ **سفر طوبيا Tobie** وهو وصف لسيرة أسير إسرائيلى فى الأسر الآشورى بمدينة نينوى فى القرن السابع قبل الميلاد.

□ **سفر الحكمة سليمان Salomon** ويشمل أمثلة حكمية وعظات ضد الوثنية.

□ **أسفار المكابيين Maccabees** وعددها أربعة، تتحدث عن المكابيين الذين تمكنوا من الاستقلال بفلسطين وحكمها حكماً وطنياً زمن السلوقيين فى القرن الثانى قبل الميلاد، وقد جاء اسمهم من الشعار الذى كانوا يتنادون به عند القتال وهو (مى كا مو خابجيم يهوها) أى (من مثلك بين الآلهة يا يهوه)، فأخذ من كل كلمة حرف (م كا ب ي) شكلت الأسم (مكابى).

□ **سفر يهوديت Judith**: ويروى قصة أرملة يهودية غنية وتقية ساعدت اليهود فى الانتصار على الآشوريين فى إحدى المعارك.

□ **سفر الكهنوت**، ويدعى أيضاً: سفر الحكمة ليسوع بن سيراخ، وهو مجموعة أمثال على غرار سفر أمثال سليمان.

□ **سفر تسبيحة الفتية الثلاثة**، وهى تسابيح يُقال أن أصدقاء دانيال الثلاثة كانوا يرنموها وهم ملقون فى أتون مشتعل بالنار، فكانت عليهم برداً وسلاماً، وقد نسبت تلك الحادثة فى الإسلام للنبي إبراهيم وهو مالم نقل به التوراة.

□ **سفر سوزان Suzane** أو سوسنة العفيفة، وهى قصة تمجيد من النبي دانيال لقاض دحض وشاية ضد سوسنة العفيفة.

هذا إضافة إلى ثلاثة أسفار منسوبة لعزرا، وإصحاحات تمت زيادتها على الأصل المازورى فى أسفار إستير ودانيال. والمعروف أن الكنيسة لم تتخل عن النص اليونانى للسبعينى إلى النص العبرى المازورى، إلا بعد القرن العاشر الميلادى، حيث أصبح النص المازورى هو النسخة المعتمدة للعهد القديم. ورغم ذلك ما زالت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة الروسية وكنائس شرق أوروبا، تستعمل النص السبعينى اليونانى.

مساحة الصدق التاريخى فى العهد القديم

لا يخلو كتاب أو سفر من أسفار العهد القديم من خرافات وأساطير واضحة ملتبسة بأحداث وقعت بالفعل، مع تدخل دائم من المحرر التوراتي لتفسير الأحداث وربطها بإرادة يهوه ومشئته، والقاسم المشترك دوماً هو الأيديولوجيا الدينية التي ترجع كل شيء وتفسر كل شيء بما يخدم قضية شعب الله المختار، حتى لو تم تزييف بعض الحقائق التاريخية لصالح الهدف القومي. إضافة إلى شغف شديد من المحررين بالمبالغات الأسطورية التي تكسر قواعد الطبيعة وخط سيرها لصالح الشعب المختار، بل نجد تلك الأساطير والمبالغات قد أصبحت في اليهودية ومن بعدها في المسيحية و تراث الإسلام موضوع تصديق وإيمان باعتبارها حقائق حدثت بلا شك.

ونظراً لحجم الكتاب وما حواه من تأريخ وعقائد وأساطير وسير بشر وملوك مندمجة جميعاً في صياغة كان همها الدائم والأول هو يهوه وشعبه، فقد تعددت مدارس نقد التوراه وتناقلت كشوفها، بحيث أصبح بالإمكان نخل وغرلة هذا المأثور الهائل لاستخلاص حقائق الأحداث التاريخية التي يمكن أن تكون محلاً للبحث ومعيناً للباحثين، فهناك نصوص يمكنها أن تحمل اسم الوثيقة التاريخية، وبإمكانها أن تملأ لنا فراغاً في بعض مناطق التاريخ كعلم، والتي فقدنا وثائقها التاريخية الأصلية.

والمشكلة التي تواجه الباحث أنه حتى النص الذي يمكن احتسابه نصاً تاريخياً بالعهد القديم، ويتحدث عن واقعة تاريخية بعينها، قد دخله حشو وإضافات وحذف وتفسير خرج به من فضاء التاريخية إلى الهوام في الأسطورية. وبقيت من الحقائق ظلال باهتة تحتاج من الباحث إلى مشقة عظيمة في تدقيق مصداقيتها التاريخية.

والمعلوم - مثلاً - أن العهد القديم يحوى روايات تثبت معرفة مدهشة من المحرر التوراتي لتأريخ قديمة بائدة، كانت مخفية عنا ولم نعلم بأمرها إلا بعد كشف مناطقها الأثرية وفك رموز لغاتها، وهى أمور حديثة جداً قياساً على ما سبق وساقه العهد القديم. وذلك مثل معرفة ذلك الأثر التوراتي بأسماء مدن مصرية قديمة أهال عليها الزمن النسيان، ولم نكتشفها ونتعرف على أسمائها إلا حديثاً بعد فك رموز اللغة الهيروغليفية، كأسماء مدن مثل نوف / منف، ورعمسيس / رمسيس، وتحفيس / تفنه أو دفنه، وأون / عين شمس . . إلخ، وكأسماء فراغة مثل شيشق / شيشنق، ونخاو، كذلك اسم فوطى فارغ كاهن مدينة أون : بادى بارع، وإله الشمس رع، ومركبات فرعون، ومراكب الشمس.

هذا إضافة إلى معرفة دقيقة بأحوال مصر القديمة وعقائدها مع طقوس كطرق دفن الموتى والتحنيط ومواعيد الدفن، كذلك الأساليب المعمارية فى البناء والكتابة والتوابيت، وكلها أمور لم نعلم دقائقها إلا بعد فك رموز الهيروغليفية وما كشفت عنه الحفائر الحديثة. هذا ناهيك عن أسماء المواضع الجغرافية - مثلاً - فى رحلة الخروج من شرقى الدلتا المصرية عبر سيناء وحتى فلسطين، وهى مواضع تحتمل ثقة شديدة فيها لأن لا علاقة لها بأية أهداف أيديولوجية ولا أساطير قومية، لأنها كانت مجرد مواضع جغرافية معلومة للجميع أوانها، حفظت لنا التوراة أسماءها وإحداثيات بعضها الجغرافية قبل أن تتغير مسمياتها الآن.

ورغم ذلك فإن أبرز وأهم النتائج الأولى التى خرجت بها مدارس نقد التوراة، أن نسبة الكتب الخمسة الأولى لموسى وأنه صاحبها أو كاتبها بوحى من الله، قد أصبحت نسبة باطلة تماماً ولا ظل لها من حقيقة، وبسبيل ذلك تم تقديم عدد من الأمثلة الشاهدة إليك بعضاً منها:

□ هناك عبارات تتعلق بموسى لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه وذلك مثل "وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض / عدد ١٢ / ٣" فهنا كاتب أو محرر يتحدث عن موسى وليس موسى من يتحدث عن نفسه.

□ هناك خبر خاص بموت موسى يقول: "فمات هناك موسى عبد الله فى أرض موآب حسب قول الله، ودفنه فى الجواء فى أرض موآب / تثنية ٣٤ / ٥". ومن المستحيل بالطبع أن يكتب موسى عن نفسه قصة موته بعد أن مات . بل ويحدد فى القصة الموضع الذى دفن فيه.

□ نحن نعلم أن موسى قد مات ولم تطأ قدماه أرض فلسطين، ومع ذلك تجد فى التوراة المنسوبة إليه أسماء مواضع جغرافية موجودة فى عمق فلسطين، هذا إضافة إلى أن أكثر أسماء تلك المواضع لم تكن قد وضعت بعد زمن موسى، بل تمت تسميتها بعد ظروف ومستجدات حدثت بعد موت موسى بقرون. وذلك مثل ورود اسم مدينة دان فى التكوين ١٤ / ١٤ والتثنية ٣٤ / ١، ومجموعة قرى يائير فى العدد ٣٢ / ٤١ والتثنية ٣ / ٤، وهى القرى التى لم تظهر أصلاً إلى الوجود إلا فى عصر القضاة (انظر قضاة ١٠ / ١٤).

□ ونجد في سفر التكوين عبارات تتحدث عن موسى وزمنه وتقول أن ذلك قد حدث « قبل أن يملك ملك من بني إسرائيل / تكوين ٣٦ / ٣١ والعدد ٢٤ / ٧ » وهي جملة لا يكتبها إلا شخص عاصر العهد الملكي وعرف بقيام المملكة، وهي بذلك لا يمكن أن تكون قد كتبت قبل العهد الملكي لإسرائيل.

□ ونجد أيضاً تعبيراً متواتراً هو (حتى اليوم) يلحق بحكايات بعض الأحداث، كالقول أنه تمت تسمية مدينة كذا زمن كذا وظل هذا اسمها (حتى اليوم) أي حتى لحظة التدوين. وبالتدقيق تكتشف أن كل الأحداث والتسميات التي لحقها هذا التعبير قد تمت بعد موسى بقرون، والأمثلة على ذلك كثيرة وحاشدة، ونموذجاً لها إرجع إلي (تكوين ٣٥ / ٢٠ و ٤٧ / ٢٦ و ٤٨ / ١٥، وخروج ١٠ / ٦، وعدد ٢٢ / ٣٠، وتثنية ٢ / ٢٢ و ١٠ / ٨ و ١١ / ٤).

□ وهناك تعبير بالتوراة يقول: « ولم يظهر نبي مثل موسى / تثنية ٣٤ / ١٠ » وهو ما يعنى معرفة المحرر بظهور أنبياء من بعد موسى، علماً أن الأنبياء لم يبدأوا تواجدهم الفعلي إلا بعد عهد صموئيل ومع قيام المملكة.

□ أما أهم ما ينفي نسبة التوراة لموسى فهو أنها أبداً لم تكن موضوعاً واحداً متكاملًا دفعة واحدة، ويؤكد ذلك التكرار في قصة الخلق الذي يشير إلى اختلاف المحررين وهو تكرار يحوى اختلافات جوهرية تشير إلى أكثر من محرر لم يلتقوا معاً ليصفوا ما بينهم من خلافات.

فالعهد القديم مجموعة جمة من التأليف التي اشترك في وضعها محررون كثيرون اختلفوا فيما بينهم، وهذه المجموعة من التأليف تعنى بمسائل دينية ودنيوية وسياسية وأدبية وتاريخية، وقد أبدت الكنيسة الكاثوليكية تفهماً لما انتهت إليه مدارس نقد الكتاب المقدس، وسجلت اعترافها بذلك في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس الصادرة في عام ١٩٦٠ في نص يقول: « ما من عالم كاثوليكي في عصرنا يعتقد أن موسى ذاته قد كتب كل التوراة منذ قصة الخلق، أو أنه أشرف على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية ».

ولهذا كله، ولأن العهد القديم يستخدم في هذا العمل كوثيقة تاريخية أساسية مثلها مثل بقية وثائق علم التاريخ، وحتى يعرف القارئ كيف يسلك معنا دروب هذا المأثور مع النقل ما أمكن من الوقوع في أخطاء يسببها أسلوب كتابة هذا المأثور الذي علمناه الآن، فإننا سنقدم درساً تمهيدياً في كيفية قراءة العهد القديم مرتبطاً بأحداث التاريخ، من باب ضبط هذا التاريخ المقدس على ما وصلنا من علوم التاريخ.

(كل إسرائيل)

أو

مملكة إسرائيل الموحدة

يزعم الكتاب المقدس (العهد القديم) أن إبراهيم أرومة العبريين قد جاء إلى أرض كنعان / فلسطين، قادماً من موطن أطلقت عليه مرة (أور الكلدانيين) ومرة (بلاد حاران) ^(١)، ليسكن جنوبى أرض فلسطين (النقب) التى أطلقت عليه المآثورات اليهودية الكلاسيكية (أرض الأحبار) أى أرض الأجداد الآباء البطارقة الأوائل إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط.

ويحكى المقدس التوراتى أنه قد حلت ببلاد كنعان سنوات عجاف "وجوع شديد فى الأرض" وكعادة البدو على حدود مصر، لجأ إبراهيم مع زوجته سارة إلى وادى النيل المصرى درءاً للموت جوعاً، وحصل من ملكها على خير جزيل وثروة عظيمة بعد أن زوّج الفرعون سارة زوجته، بعد أن زعم أنها شقيقته وليست زوجته. وعاد مرة أخرى إلى أرض الأحبار.

ومرة أخرى تعود كَرّة الجفاف والجوع لتعم المنطقة بأسرها زمن الأسباط، لكن مصر تتجو من الجوع بحكمة يوسفية، حيث تمكن ذلك البدوى المتجول بعد أن بيع عبداً فى مصر أن يصل إلى أعلى المناصب بدهاء إسرائيلى متميز، وأن يفيض بحكمته على مصر وشعبها بتخزين الحبوب للأعوام العجاف، وتتجو مصر وتقيئ بخيرها على روادها من جيران جوعى.

لكن الظروف فى مصر تتغير فجأة بالكلية، ويأتى طاقم قيادى جديد إلى سدة الحكم، ويتكرر السادة الجدد للأفضال الإسرائيلية ويستعبدون بنى إسرائيل فى أعمال المعمار والإنشاء بقسوة.

وبعد مرور ٤٣٠ عاماً فيما تزعم التوراة العبرية المازورية أو ٢١٥ عاماً كما تزعم التوراة السبعونية، خرجت سلالة الأسباط من مصر تحت قيادة شخصية جبارة هى شخصية موسى أول أنبياء بنى إسرائيل، بعد أن دمر الرب يهوه مصر تماماً وتركها خراباً، وعبر الخارجون البحر المنشق بمعجزة العصا الشعبانية إلى برارى سيناء فى طريقهم إلى فلسطين مرة أخرى.

ويقضى الخارجون سننين ارتحالا حتى يحلّوا فى مدينة فى أقصى شرقى سيناء على حدود النقب باسم (قادش برنيع) أو (قادش عين مشفط)، ويقضوا هناك ثمان وثلاثين عاماً حتى تمكنوا من غزو فلسطين من شرقها عبر نهر الأردن عند أريحا شمالى البحر الميت. وبذلك يكون قد انقضى منذ خروجهم من مصر إلى غزو أريحا حوالى أربعين عاماً. تعرف اصطلاحاً باسم سنوات النيه.

(١) للمزيد أنظر كتابنا: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.

ويعيش الخارجون على هامش الحياة الكنعانية في فلسطين تحت حكم القضاة القبلي، حيث كان القاضي هو شيخ القبيلة، ويزعم المقدس أن زمن القضاة قد استمر حوالى أربعة قرون أخرى حتى قامت للإسرائيليين أول مملكة في فلسطين، تلك التي أسسها شاؤول بعد أن اختاره للعرش الكاهن القاضي صموئيل، بضغط من أفراد الشعب الذين طالبوا بالتحول عن نظام القضاة البدوى إلى النظام الملكى المركزى أو كما قالوا لصموئيل فى التوراة " اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب / صموئيل أول ٨ / ٥ ". ليحكم شاؤول على إسرائيل جميعاً أو على إسرائيل ويهوذا معا.

ويظهر شاب وسيم طموح باسم داود يتمكن بعصاة من شذاذ الآفاق وبمجموعة من الحيل السياسية والمؤامرات المدروسة، يتمكن من إنهاء حكم أسرة شاؤول ويقفز على العرش وبعدها يصبح داود هو المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل الموحدة. بعد أن تم تفسير تلك الأحداث السياسية وفق رؤى دينية حيث ستفسر الملكية بعد ذلك باحتسابها عهداً بين يهوه وبين داود وسلالته وأولاده يمتد إلى العهد القديم مع البطارقة الأوائل.

وتوطدت سلطة داود المركزية، ثم من بعده سلطة ولده سليمان الذى تمكن من تحجيم دور الكهنة ونفوذ الأنبياء الكثر، حتى أن داود بدأ يعين الكهنة بنفسه (انظر صموئيل الثانى ٨ / ١٧ و ٢٠ / ٢٥ ، ٢٦) ويؤدى بنفسه الوظائف الكهنوتية ليجمع بيديه السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى ديكتاتورية متكاملة. رغم أن تقديم المحرقات أو الذبائح أو القرابين للإله كانت قاصرة على الكهنة اللاويين بأوامر الرب يهوه فى شرائع موسى، وكان العقاب صارماً لمن يفعل ذلك من غير اللاويين وينتهى بالموت. وهو السيناريو الذى تم بموجبه تصفية بيت شاؤول لأنه أقدم بنفسه على كسر احتكار الكهنة وتقديم القرابين بنفسه. لكن لأن للقوة منطقها فقد تمكن داود من أن يجمع السلطتين فى يده دون أن يخشى أحداً ولا حتى الرب يهوه نفسه، " وأصعد محرقات أمام يهوه وذبائح سلامة، ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم يهوه رب الجنود / صموئيل الثانى ٦ / ١٧ ، ١٨".

وعندما جاء ولده سليمان جازف أكثر حتى أنه عندما اختلف مع الكاهن الأكبر أبينار " طرد . . أبينار عن أن يكون كاهناً ليهوه " أى أنه استبعد الكاهن الأكبر ليهوه والذى كان زمن داود كاهناً أولاً لتأبوت العهد فى معبد يهوه المركزى، لكن كتابع لداود الملك (انظر ملوك أول ٢ / ٢٦ ، ٢٧). وهو ما دفع بالكهنة إلى صياغة مؤامرة كبرى ضد سليمان تزعمها النبی أخيا الشيلونى (أى أخيا الذى من قرية شيلوه)، بمشاركة أحد المقربين من الملك ويدعى يربعام، ويدين المحرر التوراتى يربعام وكيف تجرأ ورفع يده على الملك (ملوك أول ٢٦/١١)، وتتضح المؤامرة من النص القائل:

وكان فى ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه أخيا الشيلونى النبی فى الطريق، وهو لابس رداءً جديداً وهما وحدهما فى الحقل. فقبض أخيا على الرداء الجديد الذى عليه ومزقه اثنتى عشرة قطعة،

وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع، لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل: ها أنذا أفرق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط، ويكون له سبط واحد.

ملوك أول ١١ / ٣٠ - ٣٣

والنص هنا يصبح واضحاً عندما نعلم أن يربعام هذا قد قام بثورة ضد رحبعام بن سليمان بعد موت سليمان، واستقل بعشرة أسباط عرفت في التاريخ باسم الأسباط الإسرائيلية، وأقام مملكة شمالية عرفت باسم إسرائيل، وترك الجنوبية لرحبعام بن سليمان وهي التي عرفت بمملكة يهوذا / الجنوبية، وتفككت دولة إسرائيل المتحدة أو كل إسرائيل إلى دولتين غالباً ما كانتا بعد ذلك متعاديتين.

ولما كانت تلك مصيبة كبرى قد حلت بالمملكة وكان يجب الاعتراف بها، ولما كان يهوه ربا محبا لشعبه يرجو له الخير، ولأن ما حدث لا بد كان قد حدث بإرادة يهوه، ولأن ما حدث كان شراً مستطيراً، لذلك لجأ المحرر التوراتي لتبرئه يهوه وإلقاء اللوم على شعبه، ولو سألنا يهوه لماذا فرقت مملكتك وشعبك؟ فإنه يرد ويقول:

لأنهم تركوني وسجدوا لعشتروت آلهة الصيغونيين ولكموش إله الموابيين، ولملكولم إله بنى عمون.

ملوك أول ١١ / ٣٣.

وعلينا هنا أن نلاحظ أمراً له أهميته وهو أن أمهات ملوك بنى إسرائيل كن غير إسرائيليات، فداود يعود إلى جدة موابية باسم راعوث، وأبشالوم ابن داود من أم جشورية اسمها معكة، وسليمان ابن بتشبع الحثية، ورحبعام ابن سليمان من أم عمونية (انظر صموئيل الثاني ٣ / ٢ وملوك أول ١٤ / ٢١).

وملاحظة ثانية مهمة وهي أن الإسرائيليين عندما قرروا إنشاء مملكة والتحول إلى المركزية، لم يكن لديهم مراسم تتويج معلومة، ومن هنا أخذوا مراسم التتويج عن مصر القديمة، وهو دهن المسحة أو المسح بالزيت، ومن هذه المراسيم ظهرت أهم الأفكار الإسرائيلية، لأن منشأ كلمة (شيحا) العبرية يعود إلى طقس المسح بالزيت المقدس تتويجاً للملك على العرش، أو رسم منصب الكاهن الأكبر. وتمثل الطقس التتويجي بصب الزيت أو مسحه على رأس الممسوح أو جبهته، وبعد ذلك يتحول إلى شخص مقدس لا يُمسّ، أمراً ناهيا باسم الإله (انظر صموئيل الأول ٢٦ / ١٠)، وبعد مسح الملك يصبح مسيحاً (!؟).



المسحة المصرية المقدسة بالدهن أو الزيت المقدس
شكل (٢)

وحتى تقوم الدولة المركزية وتتوحد مجموع القبائل المتناثرة أرجع المحرر التوراتي ذلك التوحد إلى الزمن القديم، فاخترع قرابات دم بين الآباء البطارقة الأوائل أسلاف تلك القبائل، وألقى بوحدة إسرائيل في مرآة التاريخ القديم إلى وحدة عنصر ودم قرابية تأسيسية، رغم أننا سنعلم من هذا البحث أنهم كانوا قبائل

ضمن مجموعات قبلية عديدة لا ترتبط برابطة الدم قدر ما ارتبطت بروابط المصالح المشتركة.

ورغم أن سيرة داود بالكتاب المقدس تشير إلى شخص نفعي داهية يضحي بأى كم من الدماء لتحقيق مآربه، ويعقد التحالفات حتى مع أعداء شعبه، وكثيراً ما أظهر ورعاً زائفاً بينما كان يسعى لتحقيق مصالح دنيوية بحتة. فإن المحرر اللاهوتي اللاحق رفع داود إلى موضع المختار من يهوه شخصياً، ووضع في مصاف القديسين، لأن يهوه قد غفر له كل خطاياه وآثامه، والسبب أنه كان شديد الملاحاة عظيم السمات جميل الطلعة وفنان أيضاً ينشد المزامير على آلات الطرب، " وكان أشقراً مع حلاوة العينين وحسن المنظر . . يحسن الضرب بالعود / صموئيل أول ١٦ / ١٢ ، ١٧".

وبشأن داود يقول (روحية جارودي) في كتابه الذى كتبه بعد إشهار إسلامه وترجمه له الداعية الإسلامى عبد الصبور شاهين:

حينئذ بدأ الصعود الرهيب لداود الذى جعل من إسرائيل قوة سياسية. كان داود فى بداية أمره حامل سلاح لشاوول (صموئيل أول ١٦ / ٢١) ثم ابعده شاوول لأنه كان يغار من انتصاراته ضد الفلسطينيين (٢٨ / ٨) بل حاول قتله (١٨ / ١١ و ١٩ / ١٠)، فهرب داود فى جبال الضفة الغربية لنهر الأردن حيث كون عصابة مسلحة قوية للغزو (٢٥ / ١٣) كما كان يفعل الخابيرو قديماً، وعمل داود مع مرتزقته فى خدمة الفلسطينيين الذين كانوا فى حرب عنيفة ضد إسرائيل . . ولم يكن الأمر فى هذه الغارات أمر تحريم أو إبادة

مقدسة أمر بها يهوه الرب كما كانت الحال على عهد يشوع، إنما كانت مجرد عمليات سطو مسلح دينوية محضة وسياسية، قامت بها المملكة التي سوف يشيدها داود، لا مع الفرق المجندة من الأسباط، بل مع جنده المحترفين من كل جنس . . ولما كان داود قد تزوج من ميكال ابنة شاول فقد كان صهراً للملك القديم (١٨ / ٢٢ - ٢٧)، وهو ما جعله خليفته الشرعى ، عند ذلك تدخل الفلسطينيون للمرة الأخيرة فهزمهم داود، لا بواسطة جيش الأسباط بل بالمرتزقة المحاربة. داود ورجاله (صموئيل الثانى ٥ / ١٢). (١)

ويزعم المقدس أن داود تمكن فى سنوات قلائل من إقامة دولة كبرى أخضعت بلاد جيرانها مثل آدوم وموآب وعمون، بل وأجبر الأراميين فى دمشق على دفع الجزية، وأخذ أورشليم من اليبوسيين واتخذها عاصمة لمملكه. وجعل ليهوه مقراً واضحاً بنقل التابوت المتجول الذى ينام فيه يهوه، لينقله من حالة البداوة المرتحلة إلى حالة الاستقرار المدنى، وأعطى أورشليم قدسية لتصبح رمزاً لوحدة إسرائيل. رغم أن هذه القدسية كان يحوزها قبل ذلك جبل حوريب المقدس بسيناء، حيث كان يتجلى الرب المدمدم المزمجر العاصف النارى، وحيث صنع التابوت، وحيث التقى موسى بربه، وحيث تلقى موسى ألواح الشريعة، وحيث كان هناك مقر الإله وعلامات قوته فى سيناء المصرية.

وقد تزامن تشكيل المملكة الإسرائيلية الموحدة فى فلسطين مع فجر القرن العاشر قبل الميلاد ومع بداية تمركز الأراميين فى ممالك ببلاد الشام. ورغم أن البحوث الأركيولوجية لم تفدنا إطلاقاً بمثل هذا التوسع للدولة، فهو مما يوعز بشدة أن حكاية إخضاع داود للشعوب الأخرى لم تكن سوى مبالغاة من المحرر التوراتى، صاغها فى حبكة ملحمية. حيث لا دليل تاريخى ولا آثارى يؤكد أنها أو حتى يشير إليها مجرد إشارة، لا فى نصوص آثار فلسطين ذاتها، ولا فى أى أثر من آثار حضارات المحيط بالمنطقة جميعاً.

لكن ذلك لا يعنى شطب القصة برمتها وعدم اعتماد تاريخيتها، لأن أول تقاطع بين التوراة وبين التاريخ كعلم نجده فى حديث التوراة عن ملك حكم فى دمشق باسم (بن حدد بن طبريمون الأرامى) وهو ما جاء فى النص:

وأخذ آسا (ملك يهوذا المملكة الجنوبية) جميع الفضة والذهب الباقية فى خزائن بيت الرب وبيت الملك، ودفعها ليد عبده وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حزيون ملك أرام الساكن فى دمشق قائلاً: إن بينى وبينك وبين أبى وأبيك عهداً. هو ذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب، فقال انتقض عهدك مع بعثا ملك إسرائيل فيصعد عني. فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن إسرائيل،

(١) جارودى: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة، د.ت، ص ١٢٠، [لاحظ أن ذلك النسق الشرعى فى وراثة العرش نسق مصرى بحت، فكانت شرعية الملك للحكم بزواجه من ابنة الملك السابق فهى صاحبة العرش / المؤلف] .

وضرب عيون ودان وآبل بيت معكة وكل كنروت مع كل أرض نفتالى.

ملوك أول ١٥ / ١٨ - ٢٠

وفى التاريخ كعلم تعطينا الوثائق اسم ملك أرامى هو (بن حدد الأول) وقد عثر قرب مدينة حلب على نصب بازلتى نذره هذا الملك باسمه (بن حدد بن حزيون بن طبريمون) ملك أرام دمشق للإله ملقارت، ويرجع تاريخ النصب إلى حوالى عام ٨٦٠ ق.م.

وعليه نقش يقول: " النصب الذى أقامه بن حدد بن طبريمون بن حزيون ملك أرام لسيده ملكارت الذى نذر له فسمع قوله ". ويحفظ هذا النصب الآن بمتحف حلب بسوريا^(٢) والمنطق التاريخى أيضاً يجب أن يفترض وجود معارك تنافسية حول المصالح والسيادات بين دولتين تتشأن فى زمن واحد حيث يعود تاريخ نصب بن حدد إلى السنوات الأخيرة من حكم آسا، ويصدق هنا المحرر التوراتى ويثبت أن التوراة ليس كتاباً للتلاوة الدينية والعظة الحكيمة فقط، إنما هو أيضاً مصدر تاريخى هام ووثيقة عالية القيمة. رغم ما يشوبها طوال الوقت من تدخلات المحرر بما لديه من أوهام وأخيله وعواطف، وطموحات قاداته إلى تمجيد ملوك إسرائيل تمجيذاً عظيماً، يتناقض مع معلومات أخرى بذات المواضع بالكتاب المقدس تشير إلى ضعف شديد ووهن كان سمة لتلك المملكة وملوكها. كذلك لا يعرف علم التاريخ عظيماً باسم داود فتح ممالك وهزم شعوبا ولا ملكا كونيا وحكيما حاز شهرة فلكية باسم سليمان. وكثيرا ما حير هذا الأمر العلماء والباحثين فلا آثار مصر ولا العراق ولا تركيا ولا الشام ولا فلسطين ذاتها تنطق ببنت شفة فى هذا الأمر. بينما تقرر رواية سفرى صموئيل الأول والثانى وسفر الملوك الأول أن داود قد أقام إمبراطورية تمتد من النيل إلى الفرات، وعليها قامت أحلام إسرائيلية كبرى فى قرننا هذا تطلب عودة الإمبراطورية الكبرى بحسبانها أمراً ربانياً وقراراً إلهياً. ونقول رواية هذه الأسفار أن تلك الإمبراطورية الكبرى قد ورثها سليمان عن أبيه داود بعد موته، لكن رغم الهوس الأركيولوجى فى دولة إسرائيل اليوم والذى دفع إلى نبش الأرض فى كل

موضع محتمل للعثور على ما يؤيد هذه الرواية، فإن كل ذلك لم يفض إلى العثور على أى أثر مباشر أو حتى غير مباشر يشير إلى إمبراطورية داود وولده سليمان.

وكل ما يمكن قوله - بفرض وجود شخص اسمه داود - أنه ربما كان واحداً من الملوك الصغار تمكن من رئاسة تحالف القبائل الإسرائيلية التى كانت تسكن فلسطين آنذاك، وفقط فى مناطق الهضاب، لأن المسح الأثرى لم يكشف أى وجود لبنى إسرائيل لا على الساحل الفلسطينى ولا شمالى فلسطين عند الجليل ولا فى

(٢) فراس السواح: الحدث التوراتى، سبق ذكره ...، ص ٢٨٢ .

صحراء النقب جنوباً، فقط ربما امتد هذا التواجد بالمواقع الجبلية الوسطى الممتدة من دان (تل القاضى الآن شمالاً) حتى بئر سبع جنوباً.

وقد تمكن أحمد عثمان بحق من اكتشاف مميز - إن كان هو صاحب الكشف حقاً وغير مستقى من مصدر سابق له لأن كتابه يخلو من ذكر المصادر - حيث قام بعقد مقارنات انتهى منها إلى أن محررى العهد القديم فى بابل إبان القرن السادس قبل الميلاد، قد علموا بقصة الفرعون الفاتح العظيم تحتمس الثالث التى كانت تتواتر حتى ذلك الزمن بحسابه بطلاً تاريخياً كبيراً، وأنه أقام إمبراطورية كبرى تمتد من النيل إلى الفرات. ولا زالت قصة فتوحاته كأكبر فتوحات تمت فى العالم القديم حتى زمانه مدونة على جدران معبد الأقصر، ويرى عثمان أن الإسرائيليين قد بهرتهم تلك البطولات والأمجاد، ولما كانوا طوال الوقت يعلنون ارتباطهم الوثيق بمصر، فلم يجدوا بأساً فى استعارة تلك القصة البطولية من المأثور المصرى وإدخالها كما هى دون تعديلات واسعة فى وسط قصتهم الرئيسية عن داود.

والمتابع للقصة بالعهد القديم يجد أن داود كان معه جيشاً مكوناً فقط من ٦٠٠ مسلح من رجال العصابات المرتزقة، وأنه دخل بهم معارك مع بنى جلدته الإسرائيليين ومع الفلسطينيين. ثم فجأة تجد تفاصيل معركة كبرى، وتتحول العصابة المأجورة إلى جيش منظم يخوض معارك عظمى عند قلاع محصنة متعددة فى بلاد الشام. ويرى عثمان أن سفر صموئيل الثانى تحديداً يحتوى على إصحاحين هما رقم ٨ ورقم ١٠ مقتبسان بالكامل من قصة حروب تحتمس الثالث الفاتح الأعظم. كذلك يرى أن الإصحاح الخامس يحوى جزءاً آخر من القصة المصرية وهو المتعلق باستيلاء داود على مدينة القدس التى كانت ترديداً لدخول تحتمس الثالث المظفر أورشليم^(٣).

ولو حذفنا من قصة داود المستعار المصرى لاقتصرت على صراع داود مع شاول ثم مع ابنه ثم مع شبع بكري من قبيلة بنيامين، وكان صراعاً على العرش وليس أكثر من ذلك، فكان داود بهذا الرأى مشغولاً طوال الوقت بخلافات العائلة والثوار الذين ثاروا عليه.

هذا ناهيك عن كون ظروف بنى إسرائيل حسبما وردتنا بالعهد القديم تتناقض تناقضاً شديداً مع مسألة الإمبراطورية والتوسع والفتوحات، فهم يظهرون فى حالة دائمة من الدفاع عن وجودهم إزاء الفلسطينيين. وهى حالة تتناقض مع استعارات كتلك التى تقول أن داود ضرب حدد عزز وذهب يرد سلطته عند نهر الفرات، بينما لا نجد قبل كورش الفارسى أى ذكر لأى ملك من ملوك العالم القديم تمكن من مد حدود بين النيل والفرات سوى تحتمس الثالث^(٤)

(٣) أحمد عثمان: تاريخ اليهود، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤، ج ١، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٤) نفسه: ج ١، ص ١٤٣، ١٤٤.

ويرى أحمد عثمان أن محررى التوراة قد اختاروا قصة تحتس الثالث لنسبتها إلى داود لأسباب أهمها: أولاً أن تحتس الثالث كان أول من أقام إمبراطورية تشمل العالم القديم المعروف فى زمانه، وثانياً أن اسمه (تحت - موسى) يتطابق فى شقه الأول (تحت) مع اسم (داود)، وفى رأينا يجب نطق (تحت) المصرى (ضحت) أو (ضحوض) وهو الأقرب، ويتطابق مع اسم (داود) تماماً والحاء تسقط بالتخفيف والإهمال. وسنقدم فى الفصول المقبلة الكثير عن هذا الإله. وثالثاً أن تحتس الثالث هو الفرعون الذى دخل إبراهيم فى زمنه إلى مصر وهو الذى تزوج من سارة^(٥)، وهنا نختلف مع عثمان ونتباعد تماماً عن بقية ما يقول حتى النهاية.

ونترك عثمان يستمر فى سرد رؤيته لنعود إلى بدايته حيث يجد ثلاثة إصحاحات خارج سياق الرواية، وضمنها ما ورد فى الإصحاح الخامس عن استيلاء داود على أورشليم ويقول هذا الإصحاح: " ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم سكان الأرض . . وأخذ داود حصن صهيون . . هى مدينة داود "، وعاش داود فى الحصن وزاد من تدعيمه. وبدلاً من القتال المستمر بينه وبين الفلسطينيين نجد فجأة قصة حروب عظيمة خاضها داود ضد تحالف أعظم من ملوك كنعان وبلاد الشام، ويقوم داود هنا بدور البطل المغوار المهاجم الذى يغزو كل الممالك الواقعة بين النيل والفرات. وتقول النصوص المقامة على حكاية داود الأصلية أن مركز اللقاء الحربى قد حدث عند مدينة ربة (بالعربية: الرباط / المؤلف) وكانت عاصمة بلاد عمون الواقعة شرقى نهر الأردن، ويحتمل أنها عمان الأردن الحالية. وتحكى القصة أن ملك هذه المدينة توقع مهاجمة داود له فقام بجمع ملوك دويلات بلاد فلسطين والشام تحت قيادة هدد أوحده عزز ملك واحدة من الممالك الأرامية، وتجمعت جيوش الأحلاف عند ربة بنى عمون وقسمت نفسها قسمين واحد داخل أسوار المدينة والآخر خارج المدينة على الأرض المكشوفة بالجوار منها. وفعل داود ذات الأمر فقسم جيشه قسمين، وعند الالتحام العسكرى هربت جيوش التحالف المتجمعة فى الأرض المكشوفة وأسرعت مع ملوكها بدخول المدينة المحصنة، وأغلقوا الأبواب، مما اضطر داود لفرض الحصار عليها وترك جيوشه تحاصر المدينة وعاد إلى أورشليم ينتظر استسلامها. وبالفعل تمكنت جيوشه من فتح مدينة ربة" فجمع داود داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذ تاج ملكها عن رأسه ووزنه وزنة من الذهب مع حجر كريم، وكان على رأس داود، وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً / صموئيل ثانى / ١٢ / ٢٩، ٣٠ " (٦).

ورغم الهزيمة التى منى بها التحالف نجد حدد عزز ملك صوبية الأرامية موجوداً وينظم التمرد ضد داود مما يشير إلى وجوب استنتاج أنه هرب بجلده من الهزيمة عند ربة عمون. لكن داود يتمكن مرة أخرى من هزيمته عندما سار إلى شمال سورية حين ذهب " ليرد سلطته عند نهر الفرات ". ونصب داود تذكراً

(٥) نفسه: ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٦) نفسه: ج ١، ص ١٤٩.

(أقام لوحة) عند نهر الفرات يخلد بها انتصاراته الكبرى. وبعد هذا النصر المؤزر استسلمت لداود كل ممالك التحالف السوري الكنعاني وأصبحوا من أتباعه " ولما رأى جميع الملوك عبيد هدد عزز أنهم انكسروا أمام إسرائيل صالحوا إسرائيل واستعبدوا لهم ". ومن ثم قام داود ينشر حامياته العسكرية فى سورية وكنعان ليضمن سيطرته عليها ولضمان تدفق الجزية فى مواعيدها. (٧)

ويرى عثمان أن كل ذلك السرد البطولى لا علاقة له بداود الإسرائيلي بل بتحتمس/ تحوت المصرى، ويحكى: " وكان الملك أحمس قد بدأ حكم الأسرة ١٨ فى مصر عام ١٥٧٥ ق.م عندما طرد ملوك الهكسوس الكنعانيين من مصر [مسألة أن الهكسوس كنعانيين بهذا القطع يخالف فيها عثمان كما سيظهر من السير فى بحثنا هذا / المؤلف] . . وجاء آمنحتب الأول فخرج إلى كنعان وجنوب سورية فى مطاردة لفلول الهكسوس . . ولم يكن لآمنحتب الأول ولد فزوج ابنته إلى القائد العسكرى تحتمس [الأول / المؤلف]. وتمكن هذا الملك — مع أن حكمه لم يتجاوز ١٨ سنة — من الوصول بجيشه إلى جنوب الأناضول عبر الفرات، وهناك أقام لوحة سجل عليها أخبار انتصاراته . . وكان لتحتمس ابن من زوجة أخرى غير زوجته الملكية أراد أن يخلفه على العرش، فزوجه حتشبسوت ابنته الوريثة، لكن تحتمس الثانى [أى هذا الابن / المؤلف] لم يكن مقاتلاً مثل أبيه فهو لم يقم بأى معركة حربية طوال عقدين من الزمان جلس فيهما على عرش مصر. وواجه تحتمس الثانى المشكلة التى واجهها الأب من قبل، فهو لم ينجب ابناً من الوريثة حتشبسوت وكان له ابن وحيد من محظية اسمها إيزيس أراد أن يجعله ولياً للعهد، ومع أن حتشبسوت أنجبت له بنتاً إلا أنها لم توافق على زواجها من ابن المحظية، فحرمته من حق خلافة أبيه عن هذا الطريق [كان حق العرش فى مصر القديمة لمن يتزوج الأميرة الوريثة / المؤلف].

وبسبب عدم وجود ولى عهد شرعى فى البلاد، قام الكهنة فى يوم احتفال العيد بحمل تمثال آمون فى تابوت، وطافوا به حول قاعة الأعمدة الكبيرة بالكرنك. وتحرك التابوت وجاء عند ابن الملك — وكان مازال طفلاً لا يتجاوز الخامسة من عمره. وقد التحق بالمعبد للدراسة — وقاده الكهنة وأوقفوه عند قدس الأقداس فى المكان المخصص للملوك، وكان ذلك تعبيراً عن أنه أصبح ابناً لآمون بالتبني، فصار له الحق بالتالى فى خلافة أبيه فى العرش، من دون حاجة إلى الزواج من الوريثة. وخلف الطفل أباه على العرش باسم نفرو رع تحتمس الثالث. ومع ذلك وبسبب صغر سنه أصبحت حتشبسوت زوجة أبيه وصيه عليه، وسرعان ما أعلنت نفسها ملكة إلى جانبه. وطوال حياة حتشبسوت التى استمرت ٢٢ عاماً بعد وفاة زوجها، ظل تحتمس الثالث بعيداً عن السلطة.

. . وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم بعد أبيه كان مر حوالى أربعين عاماً خلال حكم أبيه وزوجة أبيه لم يشن الجيش المصرى أى حملات عسكرية. وكان ملك قادش الواقعة فى منتصف الطريق بين دمشق

(٧) نفسه: ج ١، ص ١٥٠.

وحمص في شمالى سورية قد تزعم تحالفا من ملوك سورية وكنعان في حركة تمرد على السلطة المصرية " (٨)

ويقف عثمان يرصد مقارنا فيرى القصتين تتفقان على مواجهة الملك لتحالف من ملوك كنعان وأرام بقيادة ملك أرامى عند مدينة محصنة، وفي كلا القصتين نجد جيوش التحالف مقسمة إلى قسمين أحدهما داخل المدينة والآخر خارجها وكذلك فعل الملك فقسم جيشه قسمين، وفي كلا القصتين تهزم جيوش الملك المتحالفين الذين يهرعون إلى داخل أسوار المدينة، وأن الملك بطل القصة في القصتين قد حاصر المدينة وأقام في مدينة أخرى ثم ذهب ليتسلم المدينة بعد استسلامها، وفي كلتا القصتين نجد ملك التحالف المهزوم يهرب ويعود إلى مملكته ويجمع شتات المتحالفين المتمردين مرة أخرى لكن ليسير إليهم بطل القصة ويهزمهم ثم يسترجع سلطته عند الفرات، ويقم على الفرات نصبا تذكاريا، ويعلن كل الملوك ولاءهم ويدفعوا الجزية، ويقم الملك البطل حاميات في كل مكان إعلانا عن نفوذه أينما كانت. (٩)

وبعدما يعرج عثمان على القصة الأصلية حيث دونت هناك في جنوب الوادي المصري على جدران معبد الأقصر بعاصمة الإمبراطورية الكبرى ليحكى لنا: " وخرج تحتس الثالث بجيشه من مدينة زارو الحربية عند القنطرة شرق وسار في طريق حورس بشمال سيناء متجها إلى كنعان، ووصل الملك إلى مدينة غزة وكانت ما تزال خاضعة للنفوذ المصرى، وهناك احتفل بعيد جلوسه الثالث والعشرين، وكانت المعلومات التى وصلت القيادة المصرية تفيد بأن ملك قادش جمع عدداً كبيراً من ملوك سورية وكنعان عند مدينة مجدو بوسط كنعان، وكانت أكبر مدينة محصنة. فسار تحتس الثالث بجيشه على سلسلة جبلية وعرة محاذية للبحر، وكانت هناك ثلاث طرق تؤدى لهذه المدينة، طريق ينتهى غربى مجدو والثانى يؤدى إلى جنوبها الشرقى بينما الثالث كان طريقاً أشد وعورة مع ضيق شديد، لكن تحتس الثالث قرر ركوب الصعب فسلك الطريق الثالث رغم خطورته لأنه الطريق الذى كان لابد سيستبعد الأعداء مجيئة منه، وكانوا قد قسموا جيوشهم قسمين، واحد داخل المدينة والآخر خارجها يقف عند نهاية الطريق الممهّد ينتظرون مجيئه.

واختبأ تحتس الثالث يومين في الجبال حتى يسمح لجيشه بعبور المضيق، وقسم جيشه إلى وحدتين. كان هو نفسه على رأسهما فوق عربته الحربية المطهّمة بالذهب، وخرج عليهم من عند المضيق مباغتاً ليجدوه في القلب من صفوفهم. وكان لظهور المصريين المفاجئ أثره فارتبك جيش الأحلاف وأخذوا يولون الأدبار تاركين الخيول والعجلات والسلاح، فانهمك أفراد الجيش المصرى في الغنيمّة دون متابعة العدو واحتلال المدينة، مما أعطى الفرصة للأحلاف للتحصن داخل أسوار مجدو إغلاق أبوابها. واضطر تحتس

(٨) نفسه: ج ١، ص ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.

(٩) نفسه: ج ١، ص ١٥٥.

الثالث إلى فرض الحصار على المدينة، بينما تمكن ملك قادش الزعيم من الهرب. وذهب تحتس الثالث ينتظر تسليم مجدو في مدينة أخرى فتحت له أبوابها دون قتال. وبعد سبعة أشهر سلمت مجدو وخرج أمراء التحالف يحملون الهدايا لتحتس طالبيين السلام، وسلموا كل أسلحتهم ومركباتهم، وعند حضور تحتس لاستلام المدينة وقف أمامه ٣٥٠ ملك يعلنون خضوعهم لسلطان مصر.

وعاد الفرعون المنتصر إلى عاصمته المصرية في طيبة، بينما كان ملك قادش يعيد تجميع الأحلاف مرة أخرى، فخرج إليه تحتس الثالث بعد سبع سنوات، ليستعيد نفوذه الذي سبق وأقامه جده عند نهر الفرات، وسقطت قادش وعبر تحتس الثالث الفرات، وأقام بجوار نصب جده التذكاري نصباً جديداً يسجل أخبار انتصاراته، وبذلك يكون تحتس الثالث هو الشخص الذي تنطبق عليه عبارة العهد القديم جملة وتفصيلاً وكلمة كلمة وهي التي تقول عن داود أنه " ذهب ليرد سلطته عند الفرات . . ونصب تذكراً هناك " (١٠)

ولا يبقى سوى اختلافات طفيفة بين القصة التوراتية وبين القصة المصرية، وهي ما يبرره عثمان بقوله: " أما استخدام كتبة العهد القديم لأسماء أخرى مثل ربة بدلاً من مجدو، وصوبه بدلاً من قادش، فهذا شيء متوقع منهم لمحاولة إخفاء الأصل الحقيقي للقصة، فمدينة ربة هي عمان الحالية عاصمة الأردن ولم تكن سوى قرية صغيرة غير محصنة في عصر داود، أما صوبة فلم يتم العثور على موقع بهذا الاسم في أي من المصادر التاريخية القديمة، ومجدو (تل المتسلم حالياً حسبما يرى بعض الباحثين) التي كانت أهم المدن الحربية في كنعان موجودة داخل الإمبراطورية التي يقول سفر أخبار الملوك الأول أن داود أو رثاها لسليمان، وجاءت نتيجة الحفريات الحديثة لتتكرر كل ما نسبته كتبة العهد القديم من انتصارات مزعومة، ومع أنه تم العثور على ما يؤكد دمار المدن التي تقول القصة بدمارها على يد داود، إلا أن تاريخ هذا الدمار ثبت أنه يرجع إلى عصر تحتس الثالث في النصف الأول من القرن ١٥ ق.م وليس في عصر داود بعد ذلك بخمسة قرون " (١١)

ولنا هنا ملحوظة وهي أن المعلومات التي خالفت بها التوراة القصة المصرية ربما لم تكن مخالفة لو نظرنا إليها من وجهة نظر أخرى ستأتى في حينها في ثانياً عملنا هذا، حيث سنفترض لمملكة صوبة مكاناً تقع فيه، ووفق هذا الفرض سنكتشف أن مجدو كانت تقع في الجوار منها، وأن قادش في النصوص المصرية كانت تقع في الجوار من صوبة في النصوص التوراتية.

ويتابع عثمان مقارناته فيقرأ بالعهد القديم أن داود بعدما صار ملكاً على كل إسرائيل (يهودا وإسرائيل) قام بالاستيلاء على مدينة أورشليم " ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض وأخذ داود حصن صهيون وهي مدينة داود ". وتعبر الملك ورجاله لا يشير إلى جيوش جرارة

(١٠) نفسه: ج ١، ص ١٥٣ : ١٥٥.

(١١) نفسه: ج ١، ص ١٥٦، ١٥٧.

تفتح البلاد وتهزم الملوك إنما يشير إلى عصابة تتكون بحد أقصى من ٦٠٠ مقاتل. وقد اعتمد داود خطة ذكية لدخول مدينة أورشليم المحصنة، فقد كانت المدينة تقوم على هضبة مرتفعة، وكانت تحصل على المياه من نبع في أسفل الوادي بأسفل المدينة عبر ممر محفور تحت أسوار المدينة يصل إلى عين الماء، وكان يمكن الحصول على الماء أثناء الحصار بهذا الشكل دون أن يخرجوا من المدينة المرتفعة. وكان داود يعرف هذا الأمر فأعلن أنه سيكافئ الرجل الذي يمكنه أن يتسلق البئر إلى داخل المدينة ويفتح أبوابها بتعيينه رئيساً على رجاله، وهكذا تمكن داود من الاستيلاء على أورشليم، لكن عثمان يعقب بأنه قد " عجز الأثريون عن العثور على بقايا تدعم هذه الرواية " (١٢)، لكن في واقع الأمر أن عثمان لا يعرف أنه قد تم العثور على ذلك الموقع جميعه وبتفاصيله الدقيقة مع الأثر الأركيولوجي المدون الذي يحكى قصة حفر النفق بين المدينة العالية وبين مصدر المياه البعيد المنخفض.

معروف أن أورشليم التي كانت تعرف بمدينة اليبوسيين نسبة إلى قبيلة ييوس التي سكنتها واتخذتها مدينة منيعة وقلعة حصينة، كانت تقع بكاملها إلى الجنوب من أورشليم الحالية على سلسلة تلال القدس الشرقية، وقد تطابقت جغرافية المدينة وطبوغرافيتها المكتشفة مع عرض العهد القديم بشأنها. فقد بنيت المدينة على الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية وبنى الهيكل على الجزء الأوسط منها أما الجزء الشمالى فلم يكن ضمن المدينة القديمة ويقع حالياً ضمن مدينة القدس. وتحيط بأورشليم التلال من جوانب ثلاثة كما هو واقع وكما هو وارد في (مزامير ١٢٥ / ٢)، فإلى الشمال الشرقي يقع جبل المشهد أو جبل المشارف ويسمى أيضاً جبل سكوبس. وإلى الشرق يقع جبل الزيتون وفي الجنوب جبل المكبر.

وأما الوديان فيقع وادي قدرون شرق أورشليم بين المدينة وبين جبل الزيتون، وكان يسمى وادي يهو شافاط أيضاً (يوئيل ٣ / ١٢) ويسميه العرب وادي الست مريم. وفي الغرب بين سلسلة التلال الشرقية والغربية يقطع المسافة وادي تيبيريون ويسميه العرب اليوم (الوادي) فقط، وإلى الغرب من التلال الغربية يقع وادي هنوم الذي يسميه العرب الآن وادي الربابة.

وقد أثبتت التنقيبات أن المدينة تعود إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد زمن عصر البرونز الأول، ويبدو أنها كانت مدينة صغيرة بدون أسوار. ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد تظهر دلالات انقطاع حضارى وسكنى يبدو أنه قد حدث إبان الموجة الهكسوسية التي احتلت مصر حوالى ذلك الزمان. ومع مطلع عصر البرونز الوسيط يلاحظ انتعاشاً جديداً وتظهر المدينة اليبوسية التي تم العثور على سورها وتزمين بنائه بحوالى عام ١٨٠٠ ق.م، وهى الفترة التي ظهر فيها لأول مرة اسم أورشليم فى نصوص مصر (١٣).

(١٢) نفسه: ج ١، ص ١٦١.

(١٣) KathLeen Kenyon, Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London, ١٩٧٤, pp ٧٦ - ٨٣.

وكان موضع المدينة محاصراً بنبع جيحون فى وادى قدرون وكان المصدر الرئيسى لمياه الشرب، ومن ثم تم بناء السور قرب النبع لحمايته أثناء الحصار، لكنه من جانب آخر بنى بحيث لا يهبط نحو الوادى فيكشف المدينة والمدافعين عنها، ومن هنا تم حفر نفق تحت الأرض بين المدينة والنبع يمر أسفل السور وتم الكشف عنه، وهو القناة المذكورة فى الرواية التوراتية والتي نفذ منها القائد يوباب ومجموعته لاقتحام المدينة بطلب الملك داود، كما فى سفر صموئيل الثانى ٥ / ٨ وأخبار أيام أول ١١ / ٦ ، ٧.

ومن أهم أعمال الملك اليهودى حزقيا الباقية للآن هو سحبه مياه نبع جيحون إلى قناة تمر تحت مدينة أورشليم حتى وادى تبرىون لتصب فى بركة سلوام فى موقع محصن، لمنع الآشوريين من السيطرة على مصدر المياه الوحيد الذى يغذى المياه، " وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود وأفلح حزقيا فى كل عمله / أخبار أيام ثانى ٣٢ : ٣ ، ٤ ، ٣٠ . " ولم تزل بركة سلوام موجودة وتعرف اليوم باسم بركة سلوان، ويعرف نبع جيحون باسم نبع العذراء، وقد اكتشف المنقب وارن Warren القناة فى ١٨٦٧م. ونظفها المنقب باركر Parker فى ١٩١١م وتابع العمل بها بعثة الأركيولوجية كاثلين كينيون ١٩٦١ — ١٩٦٧، ويتطابق مجرى القناة المكتشفة الآن مع وصف سفر أخبار الأيام الثانى (١٤).

وقد تم العثور على نقش حجرى يصف اللحظة الأولى لانهاء حفر القناة البيوسية تحت المدينة وكيف التقى فريقى الحفر القادم كل منهما من الاتجاه المعاكس، ويقول النقش: " بينما النحاتون يرفعون فأس الحفر كل تجاه رفيقة، وبينما بقى ثلاثة أذرع للنحت، سُمع صوت رجل ينادى أخاه لأنه وجد تقبا فى الصخر من ناحية اليمين، وفى يوم انتقابة ضرب النحاتون رجل أمام رجل وفأس على فأس، وسالت المياه من النبع إلى البركة مسافة مائتين وألف ذراع ومائة ذراع، وكانت قمة الجبل فوق رأس النحاتين " (١٥).

ولأن أحمد عثمان فيما يبدو لم يتابع تلك الكشف فقد أنكر قصة أولئك الجنود الذين دخلوا المدينة عبر النفق والقناة واحتسب أورشليم هى المدينة التى استراح فيها الملك الفاتح داود أو تحتسب سبعة أشهر، كانت هى مدة حصار ربة كما فى قصة داود أو حصار مجدو كما فى قصة تحتسب، وأنها كانت مدينة صديقة للفاتح فتحت له أبوابها دون قتال ورحبت به لذلك أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم مدينة السلام أو أورشليم (١٦).

(١٤) فراس السواح: الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ط ٢، ١٩٩٣، ص ١٤٣، ١٤٤، ١٥٠، ١٥١.

(١٥) إسرائيل ولفستون: تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠، ص ٨٣.

(١٦) أحمد عثمان: تاريخ اليهود، سبق ذكره، ج ١، ص ١٦٢، ١٦٣.

هذا رغم أنه كان بإمكان عثمان المتابعة وافترض أن قصة دخول المدينة عبر النبع والقناة قد حدثت بأمر من تحتتمس الثالث، وليس داود، خاصة وأن أورشليم لم تكتسب اسمها زمن تحتتمس الثالث كما يذهب عثمان إنما أبعد من ذلك بكثير، وقد سبقت إشارتنا إلى أن أول ظهور لهذا الاسم كان فى النصوص المصرية حوالى ١٨٠٠ ق.م، أى قبل زمن تحتتمس الثالث بحوالى أربعة قرون كاملة، ورغم ذلك يصر عثمان ويتابع القول إن " هذه المدينة التى انفردت بإعلان السلام مع الملك المصرى فى تلك المعركة أصبح السلام جزءاً من اسمها منذ ذلك التاريخ، فهى صارت معروفة على أنها مدينة السلام أو أورشليم . . والمدينة التى يسميها العرب قدس أو بيت المقدس لم تعرف فى أى من المصادر القديمة باسم أورشليم إلا بعد عصر تحتتمس الثالث " (١٧).

ويرى عثمان أن تحتتمس الثالث لم يذكر فى قائمة المدن الكنعانية التى أخضعها مدينة باسم أورشليم، لذلك افترض أنها تلك التى جاءت فى نصوصه باسم قادش الذى هو اسم القدس الحالية، هذا بينما سنفترض نحن لقادش افتراضاً آخر سيأتى فى حينه.

وكما قدم عثمان قراءته الجديدة لأهم السجلات المقدسة حول المؤسس الحقيقى لدولة إسرائيل الموحدة أو كل إسرائيل المعروف باسم داود، وأبان عن ميل شديد من المحرر التوراتى إلى نسبة الأعمال العظيمة لبنى إسرائيل كما حدث مع تحتتمس الثالث و داود، فإنه يعرج على مبالغات المحرر التوراتى بشأن مملكة سليمان الأسطورية ليكشف لنا انها لم تكن سوى تسجيل لصدى أيام حكم الفرعون المصرى آمنحتب الثالث، هارون رشيد العالم القديم. لكنه يقول لنا هذه المرة أن هناك مصادر أساسية لتلك المقارنة ثم لا يذكرها لنا، فهو يؤكد أنه قد " لاحظ كثير من المؤرخين الشبه الشديد بين قصة سليمان كما وردت فى سفر الملوك الأول، وتفاصيل حياة آمنحتب الثالث تاسع ملوك الأسرة ١٨ المصرية والذى حكم لمدة ٣٩ عاماً عند بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد " (١٨).

وعن هؤلاء المؤرخين الذين (لاحظوا) يأخذ عثمان ثم يحكى. " كان آمنحتب الثالث يسيطر على معظم أرجاء العالم المعروف فى زمانه . . وعندما توفى والده تحتتمس الرابع كانت الأمور استقرت للملك الصغير الذى تولى الحكم وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره . . وعمد آمنحتب الثالث إلى الزواج من أميرات ممالك الإمبراطورية، وتبادل الهدايا مع الملوك خصوصاً الذهب الذى كانت مصر تحصل عليه بكثرة من مناجم أفريقيا . . وفى العام العاشر لحكمه تزوج آمنحتب الأميرة جيلوخيبية ابنة شورتانا ملك ميثانى بشمال ما بين النهرين، وجاءت العروس إلى مصر فى موكب كبير ومعها ٣١٧ امرأة من الوصيفات للانضمام إلى حريم الملك ".

(١٧) نفسه: ج ١، ص ١٦٣ .

(١٨) نفسه: ج ١، ص ١٧٢ .

" .. وعاد آمنحتب فتزوج أميرة أخرى من ميثاني وأميرتين من بابل وأميرة من سوريا إلى جانب زوجاته المصريات " (١٩).

ثم يتابع " عندما جلس آمنحتب الثالث عل عرش مصر كان الثراء قد وصل درجة لم يصل إليها من قبل ولا وصل إليها في أى عصر لاحق، واستطاع الملك الذى ساد السلام فى عصره أن يستخدم هذا الثراء فى البناء سواء فى مصر أو فى بلاد سورية وكنعان، فشيّد المعابد والقصور والمدن المحصنة، وكان لوجود عدد كبير من أسرى الحروب فى ذلك الزمان أثر فعال " (٢٠).

ثم يعقد المقارنات مع قصة العهد القديم التى تتحدث عن ثروة سليمان التى كانت تأتية من الممالك الخاضعة له " وكان وزن الذهب الذى أتى سليمان فى سنة واحدة ستمائة وستين وزنة ذهب ". وكانت فترة حكم سليمان فترة سلام فلم يقم بأى حروب طوال سنى حكمه الأربعين، لذلك استعمل تلك الثروات فى المعمار والإنشاء كبناء قصر الملك وبناء المعبد والهيكل ، استخدم فيه جيشاً من البنائين جمعه من بين الشعوب التى خضعت له، كما امتلأ قصره بالغيد الحسان من زوجات وجوارى وصل عددهم إلى ما يربو على الألف امرأة، ويلاحظ عثمان أن كل النسوة لم يكن بينهن واحدة فقط من بنى إسرائيل؟! (٢١).

ثم يقول : " وبينما لم يتم العثور على أية بقايا لكل هذه الإنشاءات ترجع إلى القرن العاشر ق.م الذى عاش فيه سليمان، نجد الأدلة كلها تؤكد أن هذه الأعمال نفسها تمت من أربعة قرون قبل ذلك فى عهد آمنحتب الثالث . . والبعثة الأمريكية التى قامت بالكشف عن القصر الذى بناه آمنحتب الثالث غرب الأقصر أكدت أنه كان مكوناً من البيوت نفسها التى ورد ذكرها فى قصة سليمان، ومازال خشب الأرز اللبناني قائماً هناك " (٢٢) . . وإن هذه الإمبراطورية الإسرائيلية الوهمية اختفت تماماً كالسراب فى قصص العهد القديم نفسه بمجرد أن وارى التراب جثة سليمان، فلا قصور ولا حصون ولا جيش جرار ولا سفن تجوب البحر إلى أوفير ولا خشب من صور ولا جزية من أرام سورية أو من موآب وآدوم فى الجنوب. وعادت القصة إلى الصورة الأصلية لقبائل بنى إسرائيل المنتشرة على سفوح الهضاب الفلسطينية فى حالة مستمرة من الدفاع عن النفس أمام قوى كانت دائماً أكبر منها بكثير " (٢٣).

والمعلوم أنه بعد موت سليمان انقسمت المملكة إلى يهوذا فى الجنوب وإسرائيل فى الشمال، بينما قام الفرعون شيشنق المصرى بمهاجمة مملكة يهوذا، ولم تسجل نصوصه شيئاً عن مملكة قوية فى فلسطين ولم

(١٩) نفسه: ج ١، ص ١٧٢، ١٧٣ .

(٢٠) نفسه: ج ١، ص ١٧٢ .

(٢١) نفسه: ج ١، ص ١٦٩، ١٧٠ .

(٢٢) نفسه: ج ١، ص ١٧٤ .

(٢٣) نفسه: ج ١، ص ١٧٧ .

يذكر شخصاً باسم سليمان ولا بالإشارة، بينما كان العهد القديم يشير إلى مملكة وصل نفوذها إلى الفرات وطبقت شهرة ملكها سليمان الآفاق، ومن ثم يعقب فراس السواح بالقول: " فإما أن التاريخ قد أحبك مؤامرة صمت مقصودة، وإما أن هذه المملكة الموحدة لم يبق لها قائمة إلا في خيال المحرر التوراتي، . . فلم يتم العثور على بنية واحدة من بناها. وعلم الآثار كما تقول السيدة كينون لا يستطيع تقديم أية فكرة عن مدينة العصر الذهبي وراثتها وقصور سليمان التي بناها له ولزوجاته " (٢٤).

ثم يعقب: " وفي قصة زواج الملك سليمان من ابنة الفرعون يقع المحرر في تناقض يظهر الطابع الخيالي لنفوذ سليمان الداخلي والخارجي . . فقد صعد فرعون مصر المجهول الاسم على فلسطين وأخذ مدينة جازر، وهذه لا تبعد عن أورشليم أكثر من بضعة عشرات من الكيلو مترات، وهكذا نعرف مدى النفوذ الفعلي للملك سليمان الذي وصلت سلطته إلى الفرات وكان عاجزاً عن ضم مدينة كنعانية قوية لا تبعد إلا رمية حجر من عاصمته " (٢٥).

ثم يتساءل السواح: " وإذا كانت سلطة داود قد وصلت الفرات فلماذا لم يصطدم بالآشوريين؟ ولماذا خلا الخبر التوراتي من أي ذكر لهم ولتواجدهم في عبر النهر؟ ولماذا لم يرد ذكر لداود في الوثائق الأرامية التي اكتشفت في عواصم ومدن ممالك أرام عبر النهر؟ . . هذا المحرر لم يكن يقصد إلى تقديم نص تاريخي موثق عن حروب داود بل إلى تزيين سيرة هذا الملك الملحمي بأخبار حروب جمعها من الذاكرة القبلية للمنطقة " (٢٦).

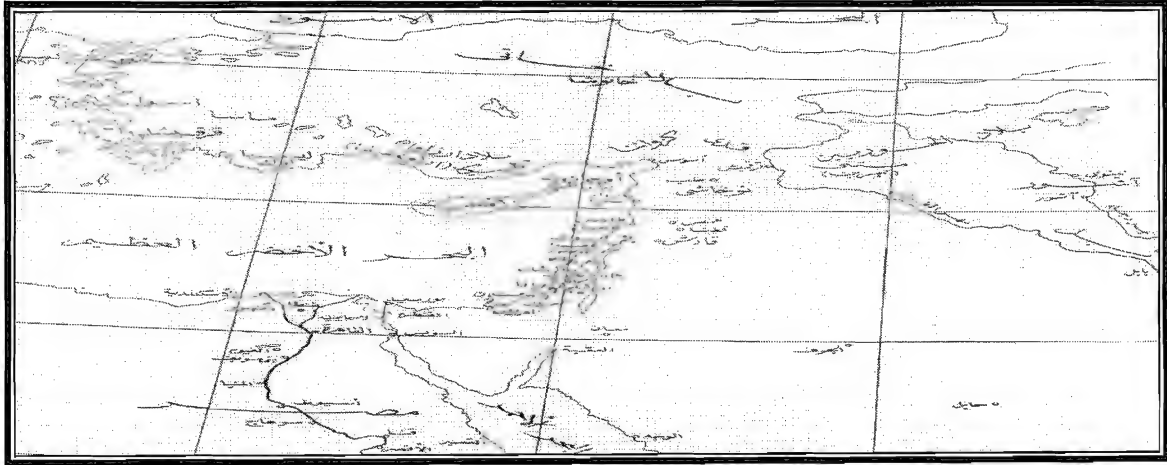
أما (زياد منى) فيقول بشأن ما جاء عن سليمان وملكه وحكمته في العهد القديم: " إن المحرر اتخذ موقفاً منحازاً لسليمان بن داود ولا يميل من كيل المديح له، لكن المتابعة الدقيقة لعهد سليمان التوراة تبين أنه كان أبعد ما يكون عن الحكمة، فولعه غير العادي بالنساء جعله يستحق صفة زير نساء من الطراز الأول، أما ضعف مقاومته لكافة أنواع البذخ والترف ومتع الحياة الدنيا فجعله أبعد ما يكون عن الحكمة وأقرب للولد العاق الذي أضاع الثروة التي قضى الأب عمره في جمعها . . فالتوراة تسجل في سفر ملوك أول ٩ / ١٠ - ١٣ بصريح العبارة أن سليمان اضطر للتنازل عن بعض أقاليم مملكته وإجراء تعديلات حدودية لرد بعض الديون التي استحققت عليه من قبل بعض الممالك المجاورة. كما أن اهتمامه وبطانته ببذخ الحياة هي التي أدت بلا شك إلى تراخي جيشه التي عُبر عنه بفقدان بعض أقاليم مملكة داود / سفر ملوك أول ١٤ / ١١ - ٢٢. فأية حكمة هذه التي تؤدي إلى انهيار المملكة فور موت ملكها. إن تقسيم مملكة داود إلى إسرائيل ويهوذا بعد وفاة سليمان كانت النتيجة الحتمية لسياسة الأخير التي يمكن نعتها بأي صفة باستثناء الحكمة، أما

(٢٤) فراس السواح: أرام دمشق: سبق ذكره . . . ص ١٤٩ ، ١٥٠.

(٢٥) نفسه: ص ١٤٧ .

(٢٦) نفسه: ص ١٣٢ .

الأحاديث التوراتية المطولة عن إنجازات عهده فلا يمكن أخذها جدياً لأنها تدخل ضمن التراث الأدبي الشعري العام، هذا عدا أنها لا تتقل لنا أى عمل مادي محدد، وفيما يتعلق بمسألة الهيكل فمن الضروري الإشارة إلى أن علماء التوراة - كثيراً في الخفية وقليلاً علناً - لا يقبلون الإدعاء بأن سليمان التوراة قام ببناء أى معبد، بل أنهم مقتنعون بأن الهيكل لم يكن أكثر من قاعة أو غرفة في القصر الملكي . . إن سياسة سليمان التي قامت على استعباد الشعوب الأخرى المقيمة بالمملكة واستثنائها من المشاركة في السلطة شكلت القاعدة الوحيدة لموقف المحرر الإيجابي تجاهه . . وهذا هو منبع مديح الكهنة لسليمان وعهده . . كما أن سليمان على عكس أبيه داود شارك المحرر الكهنوتي في وجهة نظره القائمة على حصر إسرائيل في مجموعة معينة، وعمل على تطبيق ذلك نصاً وروحاً " (٢٧).



خريطة رقم (٢) خريطة لمواقع الأحداث القديمة حسبما رأى المؤرخون

(٢٧) زياد منى: بنو إسرائيل: جغرافية الجذور، الأهالي، دمشق، ١٩٩٥، ص ١١٨، ١١٩.

التاريخ النبوى

أبداً لم يحتسب اليهود ولا كتابهم المقدس أن البطارقة الأوائل (إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط) أنبياء، بقدر ما كانوا أسلافاً لهم قدسيته لاتصالهم المباشر بالآلهة. وكان أول من وصف بصفة نبى - فى التوراة - هو موسى سليل سبط (ليفى) أو (لاوى) الذى قاد حملة الخروج من مصر عبر سيناء باتجاه فلسطين.

وبعد موسى تواتر ظهور الأنبياء بكثافة خاصة بعد انقسام مملكة سليمان، وظهروا بمظهر القدرة على تلقى وحى الرب المعروف فى المقدس باسم (روح الرب). وهى القدرة المزعوم أنها منحهم استطاعة التنبؤ بأحداث المستقبل وقدرة قراءة المغيبات.

واصطلاح (نبييم) هو جمع كلمة (نابى) أو (نبى) العبرية من (نبا) أى خرج وارتفع وظهر أو خالف القطيع، لكنها - نتيجة كثرة الأنبياء وسلوكهم - اتخذت دلالة الهذيان والخيال، فبعضهم كان هاذياً مخبولاً وبعضهم كان صادقاً فى تمنياته التنبؤية، وبعضهم كان صاحب طموحات دنيوية محض يريد تحقيقها عبر هذا الهذيان النبوى، وبعضهم كان قاسياً يقرع أسماع شعبه بالقول الغليظ ويتوعد بعقوبات عظيمة، أو بهجوم الشعوب الأجنبية عليهم. تلك الشعوب التى تحولت لدى الأنبياء إلى أداة وعصاة عقاب وتأديب يستخدمها يهوه لتأديب شعبه المختار. وعادة ما كان هؤلاء يختتمون نبوءاتهم بعزاء أنه إذا سار الشعب الإسرائيلى فى طريق يهوه وتاب عن خطاياهم، فإن يهوه سيظهر حبه لشعبه المختار من جديد. أما البعض الآخر فقد وجد فى امتحان النبوة مصدراً للربح الوفير دون جهد يذكر، لذلك تتحفظ الأسفار المتأخرة ويحتاط المحررون إزاء الأنبياء، كما جاء فى سفر حزقيال:

فإذا ضل النبى وتكلم كلاماً، فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى، وسأمد يدي عليه وأبيده من وسط شعبى إسرائيل.

حزقيال ١٤ / ٩

وكانت كثرة الأنبياء لا تتناسب مع عدد سكان البلاد، وهو مما يؤخذ من قول سفر الملوك عن عدد الأنبياء زمن ملك واحد "فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعمئة / ملوك أول ٢٢ / ٦".

وكان بإمكان هؤلاء الأنبياء إشعال الحروب وخلع الملوك وتنصيب من يريدون، وكانوا من رجال الدين غير النظاميين واشبه بال دراويش اليوم، فلم يخضعوا لهيكل من الهياكل بل يزعمون تلقى الوحي مباشرة من يهوه الذى تتملك روحه النبى فينطق بلسانه.

وعادة ما نجد بعضهم فى صف الشعب يدافعون عن قضاياهم ضد المؤسسة الدينية الرسمية وكهانها المسييين، وقد ظهر سلطانهم ونما منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ولم يأت منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حتى أصبحوا أهم عناصر الجماعة الإسرائيلية، بل وربما قام بعضهم أحياناً باتصالات مع الدول المعادية لتقويض نظام و سلطان الداخل المرفوض.

ويقول (تيودور روبنسون): إنه كانت "تعتورهم حالة نفسانية غريبة نسميها نحن الوجد تشبه أعراضها أعراض الغيبوبة أو الصرع، ويزعمون أن مرجع ذلك إلى أن الشخص قد حل فيه إله . . والعجيب أنها كانت حالة معدية قد تنتقل من شخص لآخر. وقد نزع الأنبياء والواجدون إلى التجمع وتأليف الفرق وتعلموا كيف يبتعثون هذه الحالة الخاصة بهم برياضات شتى كالرقص أو اصطناع الموسيقى أو تناول العقاقير" (١).

وسلك بعضهم سلوكاً نافرماً غريباً من باب المخالفة الواضحة كالزواج من الدواعر والزانيات العلنيات، أما جميعهم فكانوا يثيرون الدهشة بالسير عراة تماماً كما ولدتهم أمهاتهم رمزاً للتخلي عن الدنيا الفانية. ولا

(١) تيودور روبنسون: إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى من تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ١١٥، ١١٦.

يفوتنا هنا التأكيد أنه كان في فلسطين أنبياء آخرون من أهل البلاد من أتباع الإله الزراعى بعل، وقد ذاع صيت نبي موآب المدعو بلعام بن بعور الذى ورد ذكره بالعهد القديم كمناصر للإسرائيليين ضد شعبه، مما يشير إلى مكافأة كبرى من إسرائيل لذلك النبى الخائن لملته وشعبه، ناهيك عن كون تلك الكثرة جعلت أنبياء إسرائيل عادة يكذبون بعضهم بعضاً.

وكان لسلوك الأنبياء ما جعلهم أحياناً في نظر الطبقات المحترمة والراقية مصدر نفور واحتقار، وهو ما عبر عنه (م. ريجسكى) بقوله: " إن الذين كانوا يصبحون أنبياء . بالإضافة إلى سلوكهم الغريب أثناء الشغل عندما يحتاجون بسبب الموسيقى الوحشية لآلاتهم الموسيقية، فيصلون إلى حالة النشوة ويخلعون ثيابهم ويصرخون ويقفزون ويكيلون الضربات لأنفسهم، كان يستدعى لدى الناس موقفاً فيه بعض الازدراء تجاههم، ولم يكن نادراً أن يصبحوا مادة للسخرية، فساكن جبعة جيران شاول (جميع الذين عرفوه منذ أمس وما قبله) حين رأوه (يتتبع مع الأنبياء) راوحا يسألون بدهشة: (أشاول أيضاً من الأنبياء . . ومن هو أبوه؟)، ولم يكن معنى ذلك أبداً: كيف يتواجد رجل دنيوى وسط أناس ورعين كهؤلاء، بل على العكس من ذلك: كيف وجد ابن شخص محترم مثل يس، شاب من عائلة جيدة، في مجتمع ردئ كهذا؟ لقد كان البعض يعتبر الأنبياء أناس مجانيين ويتخذ منهم الموقف المطابق لذلك: (لماذا جاء هذا المجنون إليك ؟ ملوك ثانى ٩ / ١١) ^(١).

هذا كلام (ريجسكى) فى كتابه (أنبياء التوراة والنبؤات التوراتية) وهو الذى سنعتمده جميعاً الآن فى قراءة أخرى لتاريخ إسرائيل عبر أسفار الأنبياء التى تم تدوينها فى العهد القديم، كدرس يمكن معه معرفة كيفية الخروج من حبال وشراك الظروف التى مر بها تحرير العهد القديم، لقراءته كوثيقة تاريخية يمكن الاطمئنان إلى المعلومة الواردة فيها دون الوقوع فى أخطاء كبرى. ومن ثم فلن نراعى. الترتيب الحالى لأسفار هذا الكتاب، بل سنراعى ترتيب الأحداث نفسها.

ومن أهم الأنبياء كان عاموس أول من أخذ على عاتقه مهمة تبرئة يهوه من نقض عهده مع إسرائيل. وقد عاش فى السنوات الأخيرة لحكم الملك الإسرائيلى يربعام بن يواش الذى حكم من ٧٨٣ إلى ٧٩٣ قبل الميلاد، وكان عاموس من قرية تقوع الواقعة جنوبى بيت لحم فى مملكة يهوذا الجنوبية.

ينظر عاموس حوله فيجد الأغنياء يمرحون فى بذخ وترف وذهب وخمر، وكان بإمكانهم تقديم القرابين ليهوه ليرضى، بينما الفقراء فى ضنك شديد ولا يملكون حق القران لتقديمه ليهوه لينظر إليهم وإلى مشاكلهم، ومن هنا يقف عاموس يعلن وحى يهوه إذ يقول:

بغضت، كرهت أعيادكم، ولست ألتذ باعتكافاتكم، إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم لا أرتضى، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها، إبعد عنى ضجة أغانيك، ونغمة ربابك لا أسمع

عاموس ٥ / ٢١ - ٢٣

لقد بدأ الحس بالفوارق الاجتماعية يتضح ويعلو زمن عاموس الذى أعلن أن يهوه لم يعد يرضى بالثيران السمينة والعزف فى معبده، أنه يريد الآن العدل. والآن كيف سيتدخل يهوه؟ كان عاموس لم يزل يؤمن بفكرة **الجزاء الجماعى** ومسؤولية الكل عن خطأ البعض ومن هنا أعلن يهوه بلسان عاموس.

قد أنتت النهاية على شعبى، لا أعود أصفح بعد

عاموس ٨ / ٢

إن أثرياء الشعب المختار لم يكتفوا بظلم الفقراء من بنى إسرائيل، بل ذهبوا يسجدون للعجول فى بيت إيل وفى الجبال وفى بئر سبع، ولهذا قرر يهوه عقاب شعبه على خطاياهم وجرائمهم، وباسم الإله انهال عاموس بالوعيد على من تخيلوا أنه بإمكانهم رشوة يهوه بالقرابين لكسب رضى الكهنة الكسالى المتخمين. ولذلك كان عاموس أول نبى يعلن أن سبب غضب يهوه الآتى هو **خطايا أصحاب الثروة والجاه**، ولذلك

^(١) م. ريجسكى: أنبياء التوراة والنبؤات التوراتية، ترجمة د. آخو يوسف، دار الينايع، دمشق، ١٩٩٣، ص ٤٣ (سنعتمد فى هذا الفصل جميعاً تقريباً على هذا الكتاب، ويجدر بالتتوية تحية الترجمة المتميزة وتحقيق النصوص على التوراة العربية / للدكتور آخو يوسف)

سيعاقب الشعب جميعه، لكن الأغنياء سيحظون بنقمة أعظم في (يوم يهوه). وكان عاموس أول من قال بفكرة (يوم يهوه) الذي يحمل دلالة حساب الإسرائيليين على ما قدمت أيديهم ويبل للذين يشتهون يوم يهوه، لماذا لكم يوم يهوه؟ هو ظلام لا نور

عاموس ٥ / ١٨

لكن أبداً لم يصل عاموس ولا بقية الأنبياء من بعد بفكرة العدل الاجتماعي إلى نهايتها المنطقية، بالدعوة إلى مقاومة الاستغلال والظلم، لسبب بسيط في كل الأديان، وهو أن تلك الدعوة تتناقض جوهرياً مع صلب المشيئة الإلهية التي توزع الأرزاق بمعرفتها. فقط كان عاموس غاضباً من الظلم الواقع على الفقراء من أولئك الذين يصورهم

المضطجعون على أسرة من العاج، والمتمددين على فرشهم، والآكلين خرافاً من الغنم وعجولاً من وسط الصيرة. الهاذرين مع صوت الرباب، المخترعين لأنفسهم آلات الغناء كداود، الشاربين من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان.

عاموس ٦ / ٤ - ٦

لذلك قام عاموس يتوعد شعب إسرائيل بالسبي والأسر على يد أمة قوية، لكنه كان يطمئن المخلصين أنهم سيعودون بيد يهوه من الأسر إلى فلسطين، لبناء المدن الخاوية " ولن يُقلعوا من بعد من أرضهم التي أعطيتهم، قال يهوه إلهك / عاموس ٩ / ٨ - ١٥.

كان عاموس مشغولاً بالظلم الاجتماعي أكثر من انشغاله بتحقيق الآلهة الأخرى للشعوب، فقد ثبت أن الشعوب الأخرى قوية بما فيه الكفاية للدلالة على قوة آلهتها؛ لذلك ظلت فكرة التعددية قائمة لدى مع تفضيل يهوه عن بقية الآلهة، فهو مثلاً يعبر عن سر هزيمة شعب موآب على يد الملك الإسرائيلي عمري، بأن شعب موآب انصرف عن ربه البعل كموش وأهمل وصاياه " لأن كموش غضب على شعبه؟! "

واتخذ عاموس من ذلك مثلاً لما سيحدث مع الإسرائيليين الذين اغضبوا يهوه، فقام يتنبأ بسبيهم ودمار بلادهم. لكن عاموس - مع بعض الغموض - يضع أحياناً مصائر الشعوب الأخرى بيد يهوه، في رؤية بدائية لعالمية الرب. فموآب هزمت لأن ربها كموش غضب عليها، ولأن يهوه شارك أيضاً في عقاب موآب لأنهم عندما هزموا بلاد آدوم " أحرقوا عظام ملك آدوم / عاموس ٢ / ١ ". وبذلك فإن عقاب يهوه سينال الشر في أي موطن حتى لو كان هذا الموطن لشعب وثني، أو لشر ارتكبه شعب وثني في حق عب وثني آخر. كما عاقب موآب لحرقها ملك آدوم!!

وبالفعل تتحقق نبوءات عاموس، ويهبط الآشوريون بجيوشهم على مملكة إسرائيل، ويسبون أهلها وبخاصة الطبقة المترفة منهم واحتل سرجون الثاني الآشوري إسرائيل بعد أن نهبها لكننا بقدر من التدقيق في مصادر التاريخ نكتشف أن عاموس لم يكن بحاجة لوحى يهوه لكي يدرك أن الخطر الآشوري قد بات على أبواب السامرة، خاصة بعد اتجاه جيوش تجلات بلاسر الثالث الآشوري جنوباً، وتهجيريه أينما حل وفتح للنخبة من البلاد المفتوحة إلى آشور.

فماذا نقول لنا واثائق علم التاريخ حول نبوءات عاموس؟

من نصوص شلمناصر الثالث الآشوري نقرأ متون الفتوحات التي تؤكد أنه قد تلقى الجزية من صور وصيدون ومن ياهو بن عمري الذي دون اسمه هكذا Hu - um - ri - i - la - u - amar . وبالعهد القديم نعلم أن هناك ملكاً إسرائيلياً حكم في السامرة، بعد أن قضى على بيت سلفه آخاب بن عمري، لكن بعد أن اكتسبت المملكة الشمالية إسرائيل اسم مملكة عمري في نصوص الرافدين، فقليل في نص شلمناصر الثالث (ياهو بن عمري). وكان ياهو معاصراً لحزائيل ملك دمشق، واتخذ كلا منهما خطأ مخالفاً للآخر في التعامل مع الخطر الآشوري القادم، فبينما أعلن حزائيل تمرده واستعداده بتجيش مواطنيه، لجأ ياهو إلى الدبلوماسية بإرسال الجزية وفروض الطاعة والولاء التي وجدت صداها في نص منقوش بالمتحف البريطاني يمثل رجلاً يقدم فروض الطاعة والولاء للملك شلمناصر الثالث، وتحت الرسم كتابة تقول: " جزية ياهو - بن عمري تُلقيت منه فضة وذهباً " وكذا وكذا (تعداد لأصناف الجزية وأنواعها).

وفى سفر ملوك ثانى رواية تقول:

فى أيام **فقح** ملك إسرائيل جاء **تغلت فلاسر** ملك آشور وأخذ عيون وآبل معكة وبنوم وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وأرض نفتالى وسباهم إلى آشور، وفتن **هوشع** بن أيله على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضا عنه

ملوك ثانى ١٥ / ٢٩ ، ٣٠

وهى الرواية التى تتقاطع مباشرة مع النص الآشورى:

أما مناحيم فقد هبطت عليه كما العاصفة الثلجية ففر وحيداً، ثم عاد فانحنى عند قدمي فأعدته إلى مكانه وفرضت عليه جزية (تعداد أصناف الجزية) وسقت الكثير من بيت عمرى (يقصد مملكة إسرائيل) وممتلكاتهم إلى آشور ثم انقلبوا بعد ذلك على ملكهم **فقح** pa - qa - ha فأحلت بدلا عنه **هوشع** Au - si ملكا عليهم وتلقبت منه جزية (تعداد أصناف الجزية)

وفى عهد هوشع تحل النكبة الأخيرة بمملكة إسرائيل فبعد تجلات بلاسر الثالث يأتى ابنه شلمناصر الخامس ٧٢٦ - ٧٢٢ ق.م الذى يعزو إليه محررو التوراة فتح السامرة وإجلاء سكان السامرة أسرى إلى آشور، بينما تتحدث نصوص خليفته سرجون الثانى ٧٢١ - ٧٠٥ ق.م عن قيامه بفتح السامرة، ويبدو أن سرجون الثانى كان قائدا للعمليات العسكرية فى فلسطين، وهو من أكمل خطط شلمناصر الخامس وعزاها جميعا لنفسه، فنحن نقرأ فى نص مبكر لسرجون الثانى يقول

سرجون ملك آشور فاتح السامرة Sa - mir - i - a وكل بيت عمرى (إسرائيل) Bet - Ha - um - ri - a الذى غنم اشدود وشيتوخى وأمسك اليامانى فى البحر كالمسك، الذى قضى على إلخ^(١)

لقد قرأ عاموس خريطة الأحداث والمقدمات وأيقن بالنتائج فقدمها كنبوءات، وكان فى زمنه نبى آخر يتنبأ وربما استمر يعيش بعده لفترة قليلة، وكان هذا المتنبى هو المعروف بالنبى هوشع والمحمّل أنه كان يتنبأ بين عامى ٧٥٠ و ٧٣٤ ق.م ، لكن بينما كان عاموس يعيش فى المملكة الجنوبية يهوذا، كان هوشع يعيش فى المملكة الشمالية إسرائيل.

ويبدو أن هوشع كان يعانى من مشاكل عائلية قاسية فزوجته تخونه مع كل من يدفع، وسيرتها على كل لسان، فأحال ذلك جميعه إلى إرادة يهوه الذى أمره بالزواج من امرأة زنى

قال يهوه لهوشع اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض زنت زنى تاركة يهوه، فذهب وأخذ جומר بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا فقال له يهوه ادع اسمه يزرعيل، لأنى بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل.

ثم تلد الزوجة الخائنة مرة أخرى ولدا وبنتا، ومن جديد يأمر يهوه بمنحهما اسمين، أسمى البنت لورحامة " لأنى لأعود أرحم بيت إسرائيل "، والابن لوعمى أى ليس شعبى " لأنكم لستم شعبى وأنا لا أكون لكم / هوشع ١ / ٢ - ٩ ."

هوشع وجد نفسه مع امرأة زانية وأبناء زنى فتماهى بأسرته مع بيت إسرائيل جميعاً، وبينما كانت الجيوش الآشورية تتدفق على الممالك الشمالية لإسرائيل، كان سكان إسرائيل يتوقعون استمرار سير الهجوم جنوبا واكتساح الجيش الآشورى للسامرة، وكان السبب فى رأى هوشع هو أن إسرائيل خانت ربها يهوه وعبدت آلهة أخرى مثل زوجته جומר تماما، لهذا تلقى هوشع أمر يهوه

اذهب أحب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة يهوه لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى .. فاشتربتها لنفسى بخمسة عشر شاقل فضة. وقلت لها تقعدين أياما كثيرة لا تزنى ولا تكونى لرجل وأنا كذلك لك، لأن بنى إسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس وبلا ذبيحة وبلا تماثيل وبلا أفود وترافيم

هوشع ٣ / ١ - ٤

ويتنبأ هوشع ليهوذا بالسقوط مع إسرائيل تحت النير الآشورى

فراس السواح: الحدث التوراتى، سبق ذكره . . . ص ١٠١، ١٠٨ .

فيتعثر إسرائيل وإفرايم في إثمهما، ويتعثر يهوذا أيضاً معهما

هوشع ٥ / ٥

وكما تنبأ عاموس لإسرائيل تنبأ هوشع بأن يوم العقاب قد أمسى على الأبواب ولم تعد لدى يهوذا أى شفقة على خيانة إسرائيل، وسيتصرف مع إسرائيل تصرف الزوج مع الزوجة الخائنة، ويلوم يهوذا زوجته الزانية إسرائيل على لسان الزوج المكلم فيقول:

قالت : أذهب وراء محبى الذين يعطونى خبزى ومائى وصوفى وكتانى وزيتى وأشربتى
وبالنسبة ليهوذا وإسرائيل كان محبوا إسرائيل آلهة أخرى على رأسهم رب الخصب بعل
وهى لم تعرف أنى أنا أعطيتها القمح والمسطار والزيت كثرت لها فضة وذهباً، جعلوه لبعل
ومن ثم كان الجزاء

أعاقبها على أيام بعليم (جمع بعل / المؤلف) التى كانت تبخر لهم وتنزىل بخرائمتها وحليها وتذهب إلى محبيها
وتتسانى أنا، يقول يهوذا

والآن لتعلم الزوجة الخائنة أنها
ليست امرأتى وأنا لست رجلها

هوشع ٢ / ٢ - ١٣

ثم يبدأ فى تقرير إسرائيل لتعبدها للعجلين اللذين يمثلان يهوذا، ويقول
زنخ عجلك ياسامرة . . صنعة الصانع وليس هو إلهها، إن عجل السامرة يصبح كسرا، صنعوا لأنفسهم من
فضتهم وذهبهم أصناما لكى ينقضوا

هوشع ٨ / ٤ - ٦

ثم يربط هوشع بين عبادة الآلهة الغربية وبين الانحدار الأخلاقى للناس فى كل مكان
حتى الكهنة كانوا ضمن هؤلاء الفجرة، أما الأثرياء فكانوا يمرضون من
" سورة الخمر " والكبار " كلهم حامون كالتنور وأكلوا قضائهم " .

ومثل عاموس وقف هوشع يتنبأ لإسرائيل، لكنه لم يتبين الموقف بوضوح لأن الأخبار التى وصلته
كانت تحمل إمكان التناقض فى التنبؤ، فالمملكة الشمالية إسرائيل كانت ترسل الجزية لدولتين قويتين، لمصر
ولآشور، وحاول هوشع المفاضلة بين الخطرين فتوقع وقوع إسرائيل فى الأسر المصرى
الآن يذكر إثمهم ويعاقب خطيئتهم، إنهم إلى مصر يرجعون

هوشع ١٣ / ٨

لكنه فى موضع آخر يتوقع الهجوم من كلا الدولتين القويتين
يرجع إفرايم إلى مصر ويأكلون النجس فى آشور

هوشع ٩١ / ٣

لكن عندما وضحت الأمور وأصبحت آشور على الأبواب يصلح شأن نبوءته فيقول :
لا يرجع إلى مصر بل آشور

هوشع ١١ / ٥

ثم يصاب بالبلبل التامة فيقول
فيكونون تائهين بين الأمم

هوشع ٩ / ١٧

لكن الملك الآشورى لا يهاجم يهوذا مع إسرائيل حسب نبوءة هوشع إذ تفادت يهوذا البطش الآشورى
بدفع جزية كبرى للعاهل الآشورى فبقيت قائمة بعد سقوط مملكة إسرائيل، لذلك علينا أن نعتبر المقطعان (١)

(٧ / ١) و (١٠ - ١١) فى سفره إضافة من محرر يهودى لاحق، حيث يتم قطع النبوءة حول إسرائيل بعود من يهوہ بإتقاد مملكة يهوذا وأما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بيهوہ إلههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب وبخيل وبفرسان هوشع ١ / ٧

بينما كانت نبوءات هوشع الأصلية تشفق فى النهاية على مملكتى إسرائيل ويهوذا لأن يهوہ الزوج الغيور سيصالح زوجته الخائنة (الشعب الإسرائيلى) ويلطفها وستفهم الخائنة أن سلوكها كان مشيناً وستندم، وكراهية فى بعل واسمه يقول الرب: ويكون فى ذلك اليوم يقول يهوہ إنك تدعينى رجلى ولا تدعينى بعد بعلى، وأنزع أسماء البعلين من فمها فلا تذكر أيضاً اسمها

هوشع ٢ / ١٦

وسوف يحل الغفران على الخائنة أى على شعب إسرائيل وسوف يعود الأسرى من مصر وآشور (رغم أنهم لم يسبوا إلى مصر) وبعدها تقوم مملكة السلام والخير، ويؤكد يهوہ وأقطع لهم عهداً فى ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض وأكسر القوس والسيف والحرب من الأرض، وأجعلهم يضطجعون آمنين.

هوشع ٢ / ١٨

ثم نأتى إلى سفر إشعيا الذى يحتوى على ست وستين إصحاحاً، لكن الرؤية الناقدة لهذا الكتاب النبوى يمكنها أن تستبعد نصف هذا العدد أو أقل قليلاً بحسبانه لا يعود أبداً لإشعيا الذى عاش آخر القرن الثامن وأول القرن السابع قبل الميلاد. وإلى الإصحاحات الأصلية أضيفت نصوص أخرى ليست لإشعيا خلال عدة قرون، من قبل محررى النبوءات اللاحقين، لما كان يتمتع به إشعيا من شعبية فى المملكة الجنوبية يهوذا، وذلك لإضافة الهيبة إلى نصوصهم بإضافتها لإصحاحات كتاب إشعيا.

وفى الإصحاحين الثالث عشر والرابع عشر نجد حديثاً عن تدمير الإمبراطورية الآشورية (١٤ / ٢٥)، وعن مملكة بابل بحسبانها بهاء الممالك وزينة وفخر الكلدانيين، وعن العاهل البابلى الجبار الذى يطوى الشعوب تحته طياً بالقوة المسلحة (١٤ / ٤ ، ٩٦)، وكيف جعل العالم كقفر وهدم مدنه ولم يطلق أسراه إلى بيوتهم (١٤ / ١٧).

وإزاء قوة بابل الطالعة التى تمكنت من هزيمة الآشوريين كان لابد أن يرتعب شعب الله المختار خوف الاحتلال وخشية السبى، فإن يهوہ يؤكد بلسان إشعيا « ها أنذا أهيج عليهم الماديين . . وتصير بابل كنقليب الله سدوم وعمورة، لا تعمر إلى الأبد ولا تسكن إلى دور فدور / إشعيا ١٣ / ٥ ، ١٧ / ٢٠ .»

ومرة أخرى يعطف يهوہ على يهوذا وإسرائيل فيجعلهم يتسلطون على من ظلمهم (١٤ / ١ ، ٢).

وهذا الكلام إطلاقاً لا يمكن نسبته لإشعيا وزمنه فى آخر القرن الثامن ق.م. لأسباب شديدة الوضوح، حيث فى زمن إشعيا فى القرن الثامن ق.م كان الحديث عن هذه الأحداث سيبدو غير مفهوم بالمرّة، فيهوہ يهدد بابل بالويل والثبور ويصفها بأنها زينة الممالك، بينما بابل فى زمن إشعيا كانت فاقدة لاستقلالها مثل يهوذا وتتبع الإمبراطورية الآشورية.

وحتى لو قلنا مع المؤمنين أن تلك نبوءة، وكى تكون النبوءة صادقة، كان لا بد أن يتنبأ إشعيا أولاً بأن بابل ستثور على آشور وتنتصر عليها ثم تتوسع وتهاجم يهوذا وتسبى سكانها، لكن النبوءة لم تتطرق لذلك كله، فقط يتحدث إشعيا عن عودة المسبيين كأنه كان أمراً معلوماً لجميع ناس زمنه، ومن ثم لا يصح احتساب الإصحاحين ١٣ و ١٤ من عمل إشعيا بل يجب القول أنه قد تم تحريرهما بعد قيام بابل بتدمير الإمبراطورية الآشورية، وعندما بلغت بابل جبروتها كبيراً فى عهد نبوخذ نصر الثانى، وعندما قام نبوخذ نصر بحملته على يهوذا وأسرها إلى بابل، أى يجب أن يكون تحرير هذين الإصحاحين قد تم بعد عام ٥٨٦ ق.م.

ثم نقف مع تلك المفترض أنها نبوءة، أو دُست على سفر إشعيا لتظهره بمظهر النبوءة عما سيحدث في قابل الأيام، لندهش من قولها أن بابل العظيمة ستسقط فريسة الاحتلال الميدي، بينما الذي حدث فعلاً بعد ذلك هو سقوط بابل فريسة الاحتلال الفارسي زمن قورش ٥٣٩ ق.م وليس الميدي، وهذا يعنى أن مؤلف النص لم يكن يعرف بعد عن الانقلاب الذي حصل في إيران وكيف سقط الميديون أنفسهم في إيران تحت سلطة الفرس حوالى عام ٥٤٩ ق.م

إن ذلك يؤكد أن نبوءة الإصحاحين ١٣ و ١٤ قد تمت كتابتها بين عامى ٥٨٦ و ٥٤٩ ق.م وممن ثم لا يمكن أن تعودا إلى أشعيا الذى مات قبل ذلك بزمن بعيد.

وضمن التحرير المنسوب لإشعيا تصورات لما كان يأمل المحرر في حدوثه قريباً وهو سقوط بابل فريسة للاحتلال من شعب آخر وعودة اليهوديين المسيبيين إلى أورشليم وسيادة يهوذا على ظالمها. ومؤلف الإصحاح ٢١ يشير ليهوذا مسحوقة، لكنه يتنبأ بأن البابليين الذين سحقوا يهوذا لهم أعداء، وهؤلاء الأعداء يتقدمون لسحق بابل، ويشجعهم المؤلف باسم الإله " اصعدى يا عيلام، حاصرى يامادى / إشعيا ٢١ / ٢ "، وهذا يعنى أن العيلاميين والميديين الذين يعيشون في إيران سيقومون باحتلال بابل، ويفرح صاحب النبوءة ويضطرب هاتفا " سقطت سقطت بابل، وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض ". والطريف أن مطابقة ذلك على خط سير أحداث التاريخ يجعل ما يقوله المتنبئ هنا غير حقيقى بالمرة، فالذين احتلوا بابل هم الفرس الذين سيطروا على كل إيران، وخرج ملكهم قورش بجيوشه واحتل بابل، لكنه أبداً لم يهدم المعابد ولم يكسر تماثيل الآلهة، بل أظهر احترامه لها، وهذا يعنى أن المؤلف لم يعرف كل هذا وكان يتنبأ قبل وقوع بابل بين ٥٤٩ و ٥٣٨ ق.م بل ونجد ضمن الإضافات حشراً من زمن أكثر تأخر مثل النبوءة " ويكون في ذلك اليوم أن يهوه يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس وممن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماه ومن جزائر البحر لإشعيا ١١/١١، ١٢ " لأن هذا الانتشار الواسع لليهود لم يحدث إلا بعد حملة الاسكندر الأكبر فى نهاية القرن الرابع الميلادى.

وبالعودة إلى بدء نبوءات اشعيا يمكن القول أنه فى سنة موت الملك اليهودى عزيا عام ٧٤٢ ق.م قرر اليهودى (اشعيا بن أموص) أن يكون نبيا وهو يرى خطر هجوم الأعداء قريباً. وكان اشعيا رجلاً من العلية على صلة بالكهنة وبالنبخة وبالبلاط وبالملك، إضافة إلى ثقافته الرفيعة وإحاطته بالتقاليد الدينية وبالتاريخ.

وفى عام ٧٤٤ أى قبل أن يتنبأ اشعيا بسنتين حدث انقلاب فى بلاط آشور وجاء الملك تجلات بلاسر الثالث المشهور بفتوحاته، وكى يتيقنه الملك الإسرائيلى مناحيم أرسل له جزية كبيرة وأصبح تابعاً لآشور (ملوك ثانى ١٥ / ٢)، واقتطع تجلات بلاسر بعض أراضى إسرائيل وهجر سكانها إلى نينوى على الفرات.

وإزاء هذه القوة الكبرى الطامعة شرع ملوك الدول الصغيرة فى بلاد الشام بعقد التحالفات للتصدى لهذا الغازى وقد اشتركت مصر فى هذه التحالفات، بل وتحالف اللدودان إسرائيل ودمشق. وأرسل الملك الدمشقى رصين للملك اليهودى أحاز لينضم للتحالف فرفض، فشنت دمشق وإسرائيل الحرب على أحاز اليهودى مما أضطره إلى طلب مساعدة الآشوريين فى رسالة ذليلة مهينة تقول " أنا عبدك وابنك، إصعد وخلصنى من يد ملك أرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علىّ / ملوك ثانى ١٦ / ٧ ".

وهنا يبدأ دور إشعيا وتبدأ نبوته ونبوءاته بتحريض ملك يهوذا ضد ملك إسرائيل وأنه لايجدر بملك يهوذا أن يخشى إسرائيل الشمالية لأن يهوه قد قرر مصير مملكة إسرائيل الشمالية " تخلى الأرض التى أنت خاش مليكها / إشعيا ٧ / ١٦ . . وأنه فى خلال خمسة وستين سنة سوف تنكسر إفرايم / إسرائيل حتى لا يكون شعباً / ٧ / ٩٨ . ثم اقترح إشعيا على أحاز أن يطلب من الرب يهوه علامة على ذلك (آية) فرفض أحاز، لكن يهوه يتطوع بنفسه ويعطى الآية، وهو أنه لو كان ثمة طفل رضيع فإن نبوءات اشعيا ستحدث قبل أن يتمكن هذا الطفل من تمييز الخير من الشر.

يعطيكم السيد نفسه آية، ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (معنى عمانوئيل: الله معنا). زبداً وعسلاً يأكل، ومتى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير، لأنه قبل أن يعرف الصبى أن يرفض الشر ويختار الخير تخلى الأرض التى أنت خاش من مليكها

وعندما رأى إشعيا خوف الملك اليهودى قام يوحى له أن ملك دمشق وملك إسرائيل سيتردان من بلديهما قريباً جداً قبل أن يميز هذا الطفل الصغير. ولم ينتظر الآية بل قام يصنعها بالزواج من نبية أنجبت

الطفل، لكنه أطلق عليه اسماً جديداً هو دمهير شلال حاش/ ومعناه: (رأى الذى يعجل الغنيمة ويسرع النهب). وقبل أن يعرف هذا الصبي نداه للأب والأم سيسبى ملك آشور دمشق والسامرة (٨ / ٢ - ٤). والمعلوم لدى العارفين بالتوراة أن تعبير (العذراء) فى النص السالف قد ورد فى الترجمة السبعينية وقد تمت ترجمة اللفظة العبرية (علما) فيها بمعنى العذراء، بينما كانت فى الأصل هى (بارتيتوس) التى منها (بروستيتوت) أى الداعرة وليس العذراء. وقد وقفت المسيحية بعد ذلك أمام هذا النص لتراه نبوءة بمجئ المسيح. رغم أن اشعيا لم يفكر فى هذا إطلاقاً وهو يطلق نبوءاته، فقط كان يتنبأ بسقوط مملكتى دمشق وإسرائيل خلال ثلاث أو أربع سنوات قبل أن يبدأ طفله فى التمييز. وسقطت دمشق أمام آشور بعد عامين فقط، وسقطت إسرائيل ليس بعد ٦٥ عاماً بل قبل ذلك بكثير، بعد نبوءات إشعيا بإثتى عشر عاماً فقط عندما احتلها سرجون الثانى الآشورى وسبى سكانها إلى نينوى، لقد كان الغزو متوقفاً بين لحظة وأخرى، ووضعه إشعيا بحسبانه نبوءة ووحيا إلهيا.

وعندما كانت إسرائيل تسقط أمام الجيوش الآشورية، هاجم الفلسطينيون والآدوميون يهوذا واحتلوا بعض مدنها (أيوب ٢٨ / ١٧ - ١٩) ومن هنا لجأ ملكها أحاز إلى ملك آشور، بل وأدخل إلى يهوذا عبادة الآلهة الآشورية رشوة لسرجون العاهل الآشورى، مما جعل ديانة يهوه فى خطر، وترأس صفوف أنصار يهوه النبى اشعيا، الذى قام يحاول إيجاد تبرير لما يحدث لشعب يهوه. وانتهى إلى نتيجة هى أن آشور بكل جبروتها ليست سوى أداة فى يد يهوه ينفذ بها إرادته لتأديب شعبه المختار وتفسخه الأخلاقى خاصة لدى النخبة العليا فى المجتمع اليهودى، ولأن شعبه المختار دوماً يحب عبادة الآلهة الغريبة والوثنية.

وإذا كان هوشع قد تصور يهوه فى صورة الزوج الغيور الذى من حقه تأديب زوجته الزانية، فإن إشعيا تصوره فى هيئة ملك حاكم يحق له شرعاً تأديب المتمردين، لكن كما أن الملك لا يسمح بإيذاء شعبه فكذلك يفعل يهوه ليبقى من الشعب من يتعبد له ويمجد اسمه على الأرض.

كان إشعيا يتوقع احتلال آشور ليهوذا وعند ذلك سيغضب يهوه على آشور التى هى أداته التنفيذية، وستظهر بعد ذلك بقية اليهود ليعيشوا فى مملكة سلام ورخاء. كما رأى فى استعانة أحاز اليهودى بالآشوريين شكا فى يهوه الذى يجب الاعتماد عليه وحده، وعبر إشعيا للملك أحاز عن غضبه من الاستعانة بأشور ضد دمشق وإسرائيل، لأن المتوقع لدى أى عارف بالآشوريين أنهم لن يحفظوا عهدهم وأنهم بمجرد احتلالهم لدمشق وإسرائيل سيتجهون من فورهم جنوباً نحو يهوذا، وهو بالفعل ما حدث بعد ستة عشر عاماً عندما مات أحاز وانتقل العرش إلى ابنه حزقيا.

وبمجرد تنويع حزقيا قام اشعيا بتدوين قصيدة مديح عصماء فى الملك الجديد أملا فى اجتذابه لتحقيق مخططاته، وبالفعل تم تقريب إشعيا من البلاط وأصبح شديد التأثير فيه حتى أصبح الملك حزقيا مناصراً غيوراً ليهوه، وقام يلاحق العبادات الأخرى بعنف، وفتح معبد أورشليم الذى أغلق أيام أبيه أحاز وانتصر حزب يهوه على بقية الآلهة.

وفى المملكة الشمالية إسرائيل تحمس الملك هوشع وتوقف عن دفع الجزية لآشور وعقد حلفاً مع مصر. وهنا اجتاحت آشور السامرة بأمر سرجون الثانى عام ٧٢٣ ق.م. وانتهت إسرائيل من الوجود. أما فى الجنوب فى يهوذا فقد أعلن إشعيا الموقف المطلوب وهو أنه على حزقيا ملك يهوذا عدم الاشتراك فى الصراع ضد آشور وعدم الدخول فى أية أحلاف ويجب ألا تطلب العون سوى من يهوه فقط.

وأملا فى مساعدة مصر قامت مجموعة الدول الصغيرة فى بر الشام بعقد الأحلاف، لكن حتى لا يفعل ملك يهوذا فعلهم خلع إشعيا ملابسه ومشى فى البلاد عارياً ثلاث سنين يعلن أن عريه آية ضد مصر التى يعتمدون عليها، لأن ملك آشور سوف يغزو مصر ويعريها كما يسير هو عارياً. (اشعيا ٢٠ / ٢ - ٦).

وفى ربيع ٧١١ ق.م كانت جيوش آشور قد ابتلعت الأحلاف السورية وتجنبت يهوذا هذا المصير مؤقتاً. وفى ٧٠٥ ق.م مات سرجون الثانى ومرة أخرى حاولت دول سوريا وفلسطين خلع النير الآشورى بمحالفه مصر، وتوجهوا ليهوذا لتحالفهم، ومن جديد وقف اشعيا ضد هذا التحالف، لكن الملك حزقيا رفض نصيحة إشعيا وأرسل لمصر بعثة للتحالف ضد آشور بينما أخذ إشعيا يندد بهذا التحالف.

وفى ٧٠١ ق.م. اجتاح سنحاريب خليفة سرجون سوريا جميعاً، وحطمها بينما كانت يهوذا قد حصلت من مصر على دعم عسكري كاف جعلها تصمد أمام الحصار الآشورى. وأرسل سنحاريب كبير جنده

ربشاقى إلى أورشليم مع كبار الضباط يحملون رسالة لأورشليم، ووقفوا خارج أسوارها يحدثون المتحصنين بالداخل وعلى الأسوار، ينادونهم بصوت عال لإسماع سكان يهوذا، يتساعلون ساخرين من اعتمادهم على مصر " على هذه القصة المروضة، على مصر التى إذا توكأ عليها أحد دخلت فى كفه وثقبتها، هكذا فرعون ملك مصر لجميع المتوكلين عليه / ملوك ثانى ١٨ / ١٩ - ٥١ .

ثم يلعب الوفد الآشورى بالعواطف الدينية لشعب يهوذا وينادى مؤكداً أن الملك الآشورى جاء يحتل يهوذا بأمر من يهوه نفسه:

" والآن هل بدون يهوه صعدت على هذه الأرض لأخربها؟ يهوه قال لى اصعد إلى هذه الأرض وأخربها . " وخشى حكام يهوذا استماع شعب يهوذا لهذا الكلام المقنع فطلبوا من الوفد الآشورى محادثتهم بالآرامية " كلم عبيدك بالآرامية لأننا نفهمه ولا تكلمنا باليهودى فى مسامع الشعب الذى على السور " ، لكن وفد سنحاريب استمر يحرض قائلاً: " هل إلى سيدك وإليك أرسلنى سيدى لأتكلم بهذا الكلام؟ أليس إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا عذرتهم ويشربوا بولهم معكم . "

ثم قام ربشاقى ينادى بصوت عظيم على شعب يهوذا يحرضهم على الثورة ضد ملكهم حزقيا " اسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور . . لا يخذعكم حزقيا . . أعقدوا صلحا معى واخرجوا إلى . . حتى آتى وأخذكم إلى أرض مثل أرضكم، فسكتوا ولم يجيبوه بكلمة لأن أمر الملك كان قائلاً: لا تجيبوه . " ومع الهلع أرسل الملك حزقيا يستدعى النبی إشعيا بحثاً عن مخرج وخلاص. ولم يكن بيد إشعيا سوى رفع الروح المعنوية لشعبه والصمود مدة أطول أمام الحصار حتى يحدث أى طارئ يمكن نسبته إلى يهوه وتدخله، وطمأن الناس معلنا نبوءة جديدة " كطيور مرفة هكذا يحامى يهوه رب الجنود عن أورشليم . ويسقط آشور بسيف غير رجل وسيف غير إنسان / اشعيا ٣١ / ٤ ، ٨ . "

ثم نجد في كتاب اشعيا خطاب من اشعيا موجه لوفد من الملك اليهودى حزقيا يقول: " هكذا تقولون لسيديكم: هكذا يقول يهوه: بسبب الكلام الذى سمعته الذى جدف على به غلمان ملك آشور. ها أنذا أجعل فيه روحا فيسمع خبرا ويرجع إلى أرضه وأسقطه بالسيف في أرضه، . . لا يدخل هذه المدينة ولا يرمى هناك سهما .. وفى الطريق الذى جاء فيه يرجع / اشعيا ٣٧ / ٦، ٧ و ٣٣ / ٣٤ . "

والمعنى أن يهوه سيجعل سنحاريب يسمع خبراً من بلاده يعود على إثره إلى بلاطه حيث يقتل هناك بالسيف، وهذا الكلام أمام العين الفاحصة لا يمكن أن يكون قد صدر من إشعيا، إنما هو إضافة متأخرة، لأن سنحاريب عاد فعلاً إلى آشور ورفع الحصار عن أورشليم وسقط ضحية انقلاب في البلاط إذ قتل بيد ابنه أسرحدون. ويبدو أن مصر لم تكن بريئة من هذه الأحداث، لكن كل تلك الأحداث لم تتم وتحدث إلا بعد عشرين عاماً من الحوار الذى دار عند أسوار أورشليم أى في عام ٦٨١ ق.م وبالطبع لم يكن بوسع إشعيا أن يعرف ذلك. وبالطبع لم يكن يهوه هو الذى يقف وراء ما يحدث إنما كانت مصر التى كانت تحكمها في هذا الوقت أسرة كوشية في دولة واحدة تجمع مصر والسودان الشمالى، وهو ما يرد في فلقته بسفر ملوك ثانى تقول أن سنحاريب قد سمع " عن ترهاقة ملك كوش قولاً: قد خرج ليحاربك ١٩ / ٨، ٩ . " وكان ترهاقة قد خرج بالفعل لكن سنحاريب كان قد قرر عدم الاشتباك وفضل رفع الحصار عن أورشليم والانسحاب إلى آشور، وشجعه على ذلك سر آخر لم يعلنه لنا سفر اشعيا ليجعل الفعل كله ليهوه، وهو أن ملك يهوذا أرسل لسنحاريب يقول: " قد أخطأت إرجع عني ومهما جعلت على حملته ، " فطلب سنحاريب جزية تعويضية باهظة، اضطر معها الملك اليهودى إلى إفراغ خزينة الدولة والمعبد، بل وقلع الكسوة الذهبية عن أبواب معبد يهوه وأعمدته. أما العهد القديم فكان يروى في موضع آخر أن حزقيا استلم رسالة تهديد من سنحاريب ونشرها أمام يهوه ليقرأها بنفسه، فأرسل الإله ملاكاً من عنده " فخرج ملاك يهوه وضرب من جيش آشور مئة وخمسين ألفاً، فلما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة، فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى . "

ولحسن الحظ أن سنحاريب قد ترك نصوصاً واضحة حول هذا الأمر تؤكد أن اشتباكا قد حدث فعلاً مع جيوش مصر وأشور في يهوذا، والنتائج تشير إلى هزيمة الآشوريين وتراجعهم، لكن الملك الآشورى فضل أن يبدى أنه قد انتصر وأن الجزية التى أخذها من حزقيا هى أسلاب ومغانم المعركة المظفرة. ويحكى أن مدينة عقرون الفلسطينية كانت ضمن الحلفاء الذين تجمعوا لصد آشور، وأن الشعب فيها قبض على ملكها (بادى) لأنه عقد عهداً مع آشور وخان الحلف، وسلموه إلى ملك يهوذا حزقيا الذى تحالف مع مصر بدوره،

فرمى بادی ملك عقرون في السجن " رماه في السجن وعامله معاملة الأعداء، ثم خاف فدعا لمساعدته قوات ملك مصر وأثيوبيا التي لا تعد، فجاءوا لمساعدته، وفي سهل تقووع انتظمت صفوفهم ضدى وشحذوا أسلحتهم، وبعد استخارة نبوءة الإله آشور مولای هاجمتهم وهزمتهم " (٢)

والواقع يؤكد عكس ذلك فالحصار رفع عن أورشليم، وعاد سنحاريب إلى بلاده فقط بجزية الفداء التي دفعها حزقيا رعبا وخوفا.

ويسترسل مرسوم الملك سنحاريب يحكى ما حدث: " أما حزقيا اليهودى الذى أبى الخضوع لى فقد ألقيت الحصار على ٤٦ من مدنه الحصينة وقلاع المسورة وعدد لا يحصى من القرى حولها وأخذتها . . أما حزقيا نفسه فقد صار حبيسا في قصره الملكى فى أورشليم كعصفور في قفص . . لقد غمره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي أتى بها إلى أورشليم لمعاونته قد احتلت صفوفها إلى جوارى وتركته، فأرسل إلى في نينوى عاصمة ملكى ثلاثين وزنة من الذهب و ٨٠٠ وزنة من الفضة وأجارا كريمة وكميات من الأثمد وقطع الصخر الأحمر ومقاعد وكراسى مزينة بالعاج وجلود الفيلة وخشب الأبنوس وصناديق خشبية وكل أنواع النفائس كما أرسل إلى بناته ومحظياته وموسيقييه من بنات وشبان " (٣)

وقد ساعد في انسحاب جيوش سنحاريب نقشى وباء الطاعون في جيشه مما اجبره على الانسحاب، وأتاح الفرصة لإشعيا للقول بتدخل يهوه في الأمر، وهو الأمر الذى ظهر لشعب يهوذا كمعجزة سماوية فعلا، لكن بعد أن فقدت يهوذا قسما من أرضها ومن سكانها مع اعتراف من حزقيا بالتبعية لآشور.

كان إشعيا قبل المحاولة الفاشلة للغزو الآشورى يتنبأ بأن يهوه سينتقم من الآشوريين، ومن وجهاء يهوذا وأثريائها الذين كانوا يضطهدون بقية شعب يهوذا، وجاء الغزو الآشورى ثم انسحب، لكن يهوه لم ينتقم من الأغنياء ولم يقم العدل في أرضه من أجل شعبه المختار.

كان حديث النبوءات عن أسر في آشور وأن هناك بقية من الشعب سترجع إلى فلسطين، ومن ثم تحول تعبير " البقية التي ترجع " والذين سوف يأكلون خيرات الأرض في " مملكة السلام والحق " إلى فكرة ومفهوم عن بعث بنى إسرائيل مرة أخرى على يد الملك حزقيا، لكن الواقع كان نقيض التوقعات. ورغم انسحاب الجيش الآشورى فإن خطره لم يزل قائما، واستمر وجهاء بنى إسرائيل في تجاوزاتهم وقسورهم للفقراء، وهنا قام اشعيا يؤجل زمن مملكة الحق والبقية التي ترجع إلى زمن غير محدد. وكما ينبت الفرع من ساق البلوطة المقطوعة سوف تنبت إسرائيل جديدة ولكن " في آخر الأيام / اشعيا ٢ / ٢ " والكلمة (آخر) في اليونانية هي (إسختا) التي أدت لمفهوم (الإسختولوجي) أى آخر الأيام حيث يوم يهوه الذى وضع اصطلاحه من قبل النبی عاموس. وهذا اليوم سيكون آخر يوم للعالم القديم وبداية انبعاث إسرائيل وفق مثل أعلى عند الأسلاف البطارقة، سيكون الانبعاث كما كان عند الأسلاف، ويصور اشعيا اللوحة الاسختولوجية بقوله:

ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت يهوه يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال ويجرى إليه كل الأمم، وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل يهوه، إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طريقه ونسلك في سبله . . فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا (أى محاريث) ورماحهم مناجل، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد

إشعيا ٢ / ٢ - ٤

وسيتكفل بإقامة مملكة السلام والحق شخص يختاره يهوه كما اختار موسى، سيكون هو ممسوحه أو مسيحه أو رسوله، وهذا المسيح سينقذ شعب الله. المشكلة أننا لا نعلم متى ظهرت فكرة المسيح المنقذ بالتدقيق فربما تعود لنبي جاء بعد اشعيا وأضيف كلامه إلى كتاب إشعيا، ومن الشروط التي يجب أن تتطبق على هذا المسيح أو النبي الآتى أنه من الدم الملكى، سليل سليمان ودادود بن يس " قضيب من جذع يس " وهذا الذى تجرى في عروقه الدماء الملكية " يحل عليه روح يهوه روح الحكمة والمشورة والقوة وروح المعرفة ومخافة يهوه " . وسيكون حاكم بالحق على كل الأرض " يقضى بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض ويضرب الأرض بقضيب فمه ويميت المنافق بنفخة شفثيه "، وستختفى كل الشرور من على

(٢) نفسه: ١١٤ .

(٣) نفسه: ١١٥ .

الأرض، حتى بين الوحوش الضارية، " فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل المسمن معا وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدب ترعيان، تربض أولادهما معا، والأسد كالبقر يأكل تبننا ويلعب الرضيع على سرب الصل (الثعبان) ويمد الفطيم يده على جحر الافعوان لا يسوؤن ولا يفسدون في كل جبل قدسى الآن الأرض تمتلئ من معرفة يهوه كما تغطى المياه البحر/ اشعيا " ١١ / ١ - ٩ .

وفي ذات الزمن الذى كان فيه اشعيا يرسل نبوءاته كان في يهوذا نبي آخر يرسل تبشيريه ونبوءاته هو النبي (ميخا) الذى كان يعيش في القرية الريفية (مورشه) بعكس اشعيا ابن المدينة العاصمة، وكان يرى العاصمة أورشليم مركزا لكل الشرور (ميخا ١ / ٥ و ٣ / ١٠)، لذلك تنبأ لأورشليم بالدمار التام بعكس اشعيا الذى تنبأ لها أنها ستبقى " مدينة العدل القرية الآمنة / اشعيا ١ / ٢٦ "، ويكرر ميخا تقريبا نفس أقوال عاموس وهوشع وإشعيا حول الظلم الاجتماعى والدعوة إلى التطهر والتوبة النصوح كي يحدث الصلح مع يهوه، لكنه أعطى صورة دقيقة وفظيعة للأثرياء في يهوذا

يأكلون لحم شعبي ويكشطون جلدهم عنهم ويهشمون عظامهم، ويشققون كما في القدر وكالحم في وسط المقلى

ميخا ٣ / ٣

يشتهون الحقول ويغتصبونها، والبيوت يأخذونها، ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه

ميخا ٢ / ٢

ثم يرسم صورة لمصدر ذلك الظلم في فساد النظام والحكومة وانتشار الرشوة والنهب في كل مكان الرئيس طالب والقاضى بالهدية، والكبير متكلم يهوى نفسه

ميخا ٣ / ١١

ورغم إصلاحات حزقيا ومطاردته للعبادات الأجنبية، فإن الشعب كان لا يزال يتعبد للتماثيل والأنصاب والسواري المقدسة (المسلات على الطريقة الفرعونية) (ميخا ١٢/٥ - ١٤)، لهذا كان ميخا بعكس اشعيا شديد التشاؤم لأن يهوه سينزل على أورشليم عاصمة يهوذا والسامرة عاصمة إسرائيل غضبه فيتحوّلان إلى كومات من الأنقاض (ميخا ٣٦/١ و ٦/١٢ - ١٦). ولن يقبل القرايين والذبايح حتى لو كانت أولادهم " هل يسر يهوه بألوف الكباش، ببروات أنهار زيت / ميخا ٦/٦ ، ٧ " لقد أمسى يهوه يطلب أمراً آخر هو " أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعا مع إلهك / ميخا ٨/٦ . " ولأن ميخا كان مشدوها مما يحدث من فساد في بيوت الأثرياء وأهل الحكم والسلطان، فإنه وجد الفساد أكثر مما يمكن إصلاحه، لذلك فالكارثة قادمة لاشك فيها بعد أن حكم يهوه على شعبه قائلا: أسلمك للخراب، وسكانها للصغير

ميخا ٦ / ١٦

لكن كتاب ميخا يحوى نقبضا تاما لهذا ذو طابع إسخاتولوجى بتعزية تتحدث عن نهوض شعب الله مرة أخرى لأن الله لن يسمح بقاء شعبه تماما: والآن قد اجتمعت عليك أمم كثيرة، الذين يقولون لتتدنس ولتتقرس عيوننا في صهيون، وهم لا يعرفون أفعال يهوه ولا يفهمون قصده؟

إن ميخا يؤكد أن هؤلاء الأجانب الذين يرسلون جيوشهم على شعب الرب لا يعلمون أن يهوه يدفعهم لذلك، بعد أن دبر لهم مكيدة كبرى وشرك عظيم إنه جمعهم كحزم إلى البيدر وهنا سيسمع شعب الرب أمر يهوذا وينفذ. قومي ودوسى يابنت صهيون ... فتسحقين شعوبا كثيرين وأحرم غنيمتهم ليهوه وثروتهم لسيد كل الأرض

ميخا ١١/٤ - ١٣

وهناك إضافات واضحة لكتاب ميخا أضيفت بعده بزمان، كالتنبؤ بأن بنت صهيون أى أورشليم سوف تسمى بسكانها إلى بابل، لكن يهوه سينقذها، رغم أن عدو شعب الله زمن ميخا كان آشور وليس بابل. مما يؤكد أن تلك إضافة حدثت لمحرر عاش زمن الأسر، لأنه يتحدث عن إعادة بناء سور جديد لأورشليم بينيه

العائدون من أسر بابل، بعد أن سبق ودمره البابليون. ويؤكد هذا الفرض أننا نجد في سفر اشعيا وميخا نصين متطابقين تماما مبنى ومعنى يتحدث عن مكان إسرائيل المقبل في آخر الأيام، وهو النص الذى يقول ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت يهوہ يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال، تجرى إليه الشعوب وتسير أُمم كثيرة ويقولون: هلم نصعد إلى جبل يهوہ وإلى بيت يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله، لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة يهوہ، فيقضى بين شعوب كثيرين، ينصف لأُمم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل، ولا ترفع أمة على أمة سيفاولا يتعلمون الحرب فيما بعد.

ميخا ١/ ٤ - ٣

إشعيا ٢/ ٢ - ٤

وهو ما يعنى أن محرر تلك الإضافات فى السفرين كان واحداً، وأنه قد تمت إضافتها مع أخبار السبى البابلى زمن السبى البابلى أو بالأحرى بعده، بعدما أعاد قورش المسيبين وسمح لهم ببناء الهيكل والمدينة والسور مرة أخرى. ويبدو أن هذا المحرر قد أراد التخفيف من اللهجة القاسية القائمة فى نبوءات أشعيا وميخا حول المصير الأسود للشعب المختار.

ثم يتنبأ هذا المحرر المتأخر عبر كتاب ميخا قائلاً:

أما أنت يا بيت لحم إفراثة، وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا، فمَنك يخرج الذى يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل، لذلك يسلمهم إلى حينما تكون قد ولدت والده، ثم ترجع بقية إخوته إلى بنى إسرائيل . . ويثبتون لأنه الآن يتعظم إلى أقاصى الأرض . . ويكون هذا سلاماً

ميخا ٥/ ٢ - ٥

وقد رأت الديانة المسيحية فى هذا المقطع نبوءة بمقدم السيد المسيح الذى ولد فى بيت لحم، بينما الأمر ببساطة كان تنبؤاً بمجئ ملك من نسل داود، وداود كان مولوداً فى بيت لحم (صموئيل أول ١٧ / ١٢)، ولأن الفكرة الاسخاتولوجية عن المسيح لم تظهر قبل القرن الثالث ق.م، فلاشك أن محرر هذا الجزء عاش بعد بداية هذا القرن.

ويموت الملك الصالح حزقيا ملك يهوذا ويخلفه ابنه منسى فى ٦٤٢ - ٦٨٧، بينما كان أسر حدون قد اضحى ملكاً على آشور ثم تبعه آشور بانيبال ٦٥٥ - ٦٧١. وكان ملوك يهوذا يتصرفون كتابعين لملك آشور، وأدخل العبادة الآشورية لجند السماء (عبادة الأجرام السماوية) إلى هيكل أورشليم والمعابد الأخرى.

وعلى مستوى علم التاريخ كانت وثائق أسرحادون تعدد أتباعه من ملوك ومنهم " منسى Me - na - si - i ملك يهوذا Ia - u - di " (٤) ومنسى هو ابن حزقيا اليهودى ملك أورشليم الذى دون عنه المقدس التوراتى أنه

عمل الشر فى عيني يهوہ . . وعاد فبنى المرتفعات التى أبادها حزقيا أبوه . . وسجد لكل جند السماء وعبدها فى دارى بيت يهوہ

ملوك تانى ٢١/ ٢ - ٥

بل وعاد منسى إلى عبادات كنعانية قديمة كانت تشرع التقرب من الإله بذبح الأبناء الذكور البكر على مذبح الإله وحرقه على محرقة استرحاما، لكن منسى كان يذبح ويتقرب بالبشر ليهوہ، وهو ما يشعنا بفطاعة إحساسه بدنو نهايته على يد الآشوريين حتى أنه أقدم على هذا القربان الرهيب بتقديم ابنه شخصياً للنار.

ولا شك أن منسى كان يفعل ذلك من باب استرضاء الآلهة الأخرى الأجنبية التى ربما كانت أقوى من يهوہ بدليل قوة جيوشها ودولتها . . وفجأة يأتى ملك آشور ويأسر منسى، ويغفل المحرر الأسباب حتى تقف فقط عند عصيان منسى الدينى، لكن التاريخ هنا يفصح عن السبب الحقيقى وهو تمرد وعصيان منسى بعد اتفاق تم بين دول بلاد الشام على العصيان الجماعى لآشور زمن ملكها أسرحادون، مما دفع أسرحادون

(٤) نفسه: ١١٧ .

إلى تجريد حملات جيوشه على تلك البلاد وإعادتها إلى الطاعة، وأنه جاء بملوك دويلات تلك البلاد واستخدمهم خدماً في قصره ومنهم
بعلو ملك صور ومنسى ملك يهوذا وكوش جبرى ملك إيدوم وموصورى ملك موآب وسلبيل ملك غزة وميتينى ملك أشقلون^(٥)

وهو ماررد العهد القديم صداه إذ يحكى

ولكن منسى أضل يهوذا وسكان أورشليم ليعملوا أشراً من الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل، وكلم الرب منسى وشعبه فلم يصغوا، فجلب عليهم رؤساء الجند الذين لملك آشور، فأخذوا منسى بخزامة وقيده بسلاسل وذهبوا به إلى بابل

أخبار أيام ثانى ٣٣ / ٩ - ١٢

ولم تتمكن مصر هذه المرة من نجدة حليفاتها الصغيرة، لأن مصر نفسها كانت زمن اسرحادون قد وقعت فريسة الغزو الآشورى الذى اجتاحتها حتى بلاد النوبة، لكن لتكتب آشور بذلك بداية قصة نهايتها، فكانت دوما بحاجة لتكثيف جيوشها فى مصر إزاء ثورة لم تنقطع أو تهدأ فى مساحات شاسعة من أرض يعرف دروبها الثوار وحدهم، مما أعطى الفرصة لثورة أخرى على آشور فى بلادها ذاتها، لقد كانت ثورة بابل الصاعدة.

ترك الملك منسى ولده آمون على العرش، ولم يمض على حكمه عامين حتى قام يوشيا ابنه بانقلاب سريع ضده استولى معه على العرش حوالى ٦٤٠ ق.م (ملوك ثانى ٢١ / ٢٠ - ٢٤)، وخلال العقدين التاليين زمن وملك يوشيا أحرز يهوہ وكهنته انتصارات واضحة ضد العبادات الغريبة، وظهر خلالهما ثلاثة أنبياء دخلوا التوراة وسجلت كتبهم فيها وهم صفنيا وناحوم وإرميا.

وخلال ذات الفترة كانت مصر قد خلعت نير الآشوريين عن كاهلها وبدأت تستعيد قوتها، وكان الانتصار المصرى قد استنزف فى ثورته قوى آشور، وفى عام ٦٢٦ انتفضت بابل أيضاً ضد آشور لتقيم دولة الكلدانيين القوية، بينما كان الميديون من سكان إيران يحتلون المقاطعات الشرقية لآشور، ويعقدون حلفاً مع بابل الجديدة من أجل إسقاط العاصمة الآشورية نينوى. وفى هذه الظروف جاءت نبوءات الأنبياء الثلاثة صفنيا وناحوم ثم إرميا.

وقد وصلنا من كتاب صفنيا ثلاثة إصحاحات فقط خلاصتها: أن يهوہ يهدد يهوذا وأورشليم عاصمتها بالعقاب لخطايا شعب يهوذا، مما يشير إلى أن تلك النبوءة قد وضعت قبل إصلاحات يوشيا لصالح يهوہ. لأنه بعد تلك الإصلاحات نجد نبوءات أخرى لصفنيا تهدد وتتوعد بدمار دول المحيط وبخاصة العاصمة الآشورية نينوى التى كان من السهل ومن قراءة الأحداث التنبؤ بسقوطها الوشيك.

ومعاصراً لصفنيا كان ناحوم الذى ركز نبوءاته على نينوى فكتابه يبدأ بعنوان يقول: "وحى على نينوى، سفر رؤيا ناحوم الألقوشى / ناحوم ١ / ١" و(ألقوش) مدينة صغيرة من مدن يهوذا يعنى أنه كان من مواطنى المملكة اليهودية. بالطبع لم يقل ناحوم أن نينوى باتت مهددة من تلك الشعوب المحيطة بها، ولا أنها زمنه قد بدأت تتلقى أولى ضربات الحلف الميدي البابلى، لأن الأمر كله لا بد أن يعود إلى يهوہ الذى سينقم لشعبه من آشور، فقد وجه يهوہ غضبه ضد نينوى لأنه منها "خرج المفكر على يهوہ شراً" وبالطبع يقصد سنحاريب ملك آشور. وأعلن يهوہ على لسان ناحوم حكمه على آشور "لايزرع من اسمك فيما بعد / ناحوم ١ / ١٤" لقد جاء انتقام يهوہ على يد الحلف الميدي البابلى وهو ينادى نينوى التى أوشكت على السقوط "تفتتح لأعدائك أبواب أرضك / ناحوم ٣ / ٥".

لكن فرحة ناحوم الشامتة لم تستمر طويلاً لأن بابل الناهضة كانت فى طريقها للاستيلاء على ميراث آشور فى المنطقة الشرق أوسطية، بعد أن دمرت آشور فى ٦١٤ ق.م وتقاسم الحلفاء ممتلكاتها.

ورغم أن سفر ملوك ثانى يؤكد إخلاص الملك يوشيا وغيرته الشديدة على يهوہ، وأنه طارد كل العبادات الأخرى وقام بمذابح هائلة ضد أتباعها وكهناتها، وأنه "لم يكن قبله ملك مثله، قد رجع إلى يهوہ

(٥) نفسه: ١١٨ .

بكل قلبه وكل نفسه وكل قوته حسب شريعة موسى، وبعده لم يقيم مثله / ملوك ثاني ٢٣، " فإن يهوه أبدى نكرانا للجميل، فبينما مات منسى الكافر على سريريه هائلا، فإن يوشيا المخلص ليهوه قد مات إيان معركته مع الفرعون نخاو عندما فضل يوشيا اعتراض جيوش مصر الخارجية لإيقاف الزحف البابلي على المنطقة.

ومعلوم أن أسفار موسى لم تظهر إلا زمن يوشيا هذا حيث قيل أنه قد عثر عليها خبيثة بالمعبد، وهى التى عرفت باسم كتاب أو سفر التثنية. والقوانين والأحكام فى هذا الكتاب أبداً لا تتفق مع زمن موسى لأنها تتحدث عن شعب يعيش حياة حضرية ويشغل بالزراعة وليس شعبا بدويا تائها، شعب يملك مدنا ونظاما سياسيا وسلطة ملكية وإدارة مدنية (تثنية ١٦ / ١٨) ولديه مجمعه الكهنوتى الهرمى.

وفى سفر التثنية سقطت توكد أن هذا السفر قد تم جمعه أو إعادة تدوينه من أوراق قديمة زمن يوشيا، حيث يقول فى موضع منه " فى عبر الأردن فى أرض موآب ابتداء موسى يشرح هذه الشريعة قائلا / تثنية ١ / ٥، " والتعبير فى عبر الأردن أى فى الجانب الغربى من نهر الأردن، وهذا يشير إلى أن الكاتب وليس موسى هو من كان يعيش فى عبر الأردن، بينما نعلم أن موسى مات ولم يعبر هذا النهر إلى غربه أبدا.

هذا ناهيك عن أسلوبه ومفرداته التى لا تمت بصلة إلى زمن موسى إنما هى بحق لغة متطورة من مميزات القرن السابع قبل الميلاد بل ويجب افتراض أن أنبياء مثل صفنيا وناحوم بل وإرميا كانوا ضمن جامعى ذلك القديم أو مؤلفى سفر الشريعة / التثنية.

وفى ذات الزمن ما بين ٦٥٠ و ٦٤٠ تقريبا ولد نبى آخر هو النبى الشهير إرميا، سليل أسرة الكاهن أبنثار الذى كان رأس كهنة أورشليم زمن داود وسليمان، وكان فيما يبدو ميسورا متقفا قارئا للمقدس لأنه ينقل فى كتابه نقلا حرفيا نبوءات سبق وقرأناها عند عاموس وهوشع وإشعيا. ويبدأ كتابه بمدخل تصديرى يقول: " كلام إرميا بن حلقيا من الكهنة الذين فى عناثوث فى أرض بنيامين، الذى كانت كلمة الرب إليه فى أيام يوشيا بن أمون ملك يهوذا / إرميا ١ / ١،٢ "

ثم يميز إرميا نفسه وكيف أصبح نبيا قبل أن يولد وكيف اختاره يهوه واصطفاه وهياه للنبوة، وكيف أنه مرسل إلى شعوب العالمين وهى نعمة جديدة ستؤثر فى نبى آخر بعيد فيما بعد ذلك بأزمان وفى مكان بعيد، يقول إرميا.

فكانت كلمة الرب إلىّ قائلا: قبلما صورتك فى البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك، جعلتك نبيا للشعوب، فقلت آه ياسيدى الرب إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد. فقال الرب لى: لا تقل إنى ولد لأنك إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما أمرك به. لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لأنقذك، يقول الرب. ومد الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى: هاقد جعلت كلامى فى فمك، انظر: قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس.

إرميا ١ / ٤ - ١٠

وهكذا كان من تكلم صبيا هو إرميا، وكان إرميا مشاركا فى الرعاية التمهيدية لسفر الشريعة / التثنية الذى كان آنذاك قيد الإعداد، وقام يهاجم العبادات الوثنية ويطالب بعدم السجود سوى ليهوه إيان كان فى قريته عناثوث المنسوبة لربة الخصب الكنعانية (عنات / عناث) حتى أن أهل قريته تأمروا عليه لقتله (إرميا ١١ / ٢١) مما اضطره إلى الهرب إلى أورشليم. وبقي إرميا حيا خلال زمن يوشيا ثم ابنه يهو آحاز ثم يهو ياقيم ويهو ياكين وصدقيا. ورأى بعينيه ما أسسه ليهوه زمن الملك يوشيا ينهار زمن أخلافه الذين عادوا للعبادات المتعددة والآلهة الغريبة، لذلك لم يكل إرميا من التنديد بشعبه لغدره بيهوه وزناه مع الآلهة الغريبة التى تم ترميمها من جديد، خاصة عبادات البعل وربة السماء إيزيس المصرية وعشتار البابلية، وكان يهوه يغلى غيظا وكمدا وغيرة على لسان إرميا إذ يقول له:

أما ترى ماذا يعملون فى مدن يهوذا وفى شوارع أورشليم؟ الأبناء يلتقطون حطباً والآباء يوقدون النار والنساء يعجنّ العجين، ليصنعن كعكا لملكة السماوات . . لكى يغيظونى

إرميا ٧ / ١٧، ١٨

بعدد مدنك صارت آلهتك يا يهوذا وبعدد شوارع أورشليم وضعت مذابح للخرى مذابح للتبخير للبعل

إرميا ١١ / ١٣

كان غضب يهوذا قد تفجر على الجميع أغنياء وفقراء، لكن الأغنياء كانوا أكثر مكرراً ومعصية:
مثل قفص ملآن طيوراً هكذا بيوتهم ملآنة مكرراً، من أجل ذلك عظموا واستغنوا، سمنوا، لمعوا، أيضاً
تجاوزوا في أمور الشر . . أفلاجل هذه لا أعاقب؟ يقول الرب، أولاً تنتقم نفسى من أمة كهذه؟!

إرميا - ٢٧ / ٢٩

أتسرفون وتقتلون وترنون وتحلفون كذبا وتبخرون للبعل وتسبسون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها، ثم تأتون
وتقفون أمامى فى هذا البيت الذى دعى باسمى عليه وتقولون أنقذنا؟!

إرميا ٧ / ٩ ، ١٠

محرقاتكم غير مقبولة وذبائحكم لا تذللى

إرميا ٦ / ٢٠

ثم يستدير إرميا يكيل الطعن لزملائه الأنبياء فكل الشر يأتى منهم بتعاونهم مع الكهنة فهم
يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون ايادى فاعلى الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن شره . . . هكذا قال يهوه
رب الجنود: لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فإنهم يجعلونكم باطلا . . يتكلمون برويا قلبهم لا عن
فم يهوه . . ويقولون لكل من يسير فى عناد قلبه لا يأتى عليكم شر وقد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا
باسمى بالكذب . . عار أبدي وخزي أبدي

إرميا ٢٣ / ١٤ - ٤٠

وبالطبع كان بقية الأنبياء يقولون عن إرميا ذات الأقوال ويرمونه بذات الاتهامات، لكنه كان يعتبر
نفسه الصادق وهم الكذبة، وبقي حوالى ثلاثين عاما يطلق نبوءاته ويغامر بحياته ويعرض نفسه لأكثر من
مؤامرة، حتى قال أنه قد أصبح " إنسان خصام وإنسان نزاع مع كل الأرض ١٥ / ١٠ " . وقد انعكست
معاناته تلك فى رغبة دفينه فى الثأر والانتقام من الجميع، فينادى يهوه بكل رغبته الدموية:

لا تصفح عن إثمهم . . سلم بنيهم للجوع وادفعهم ليد السيف، فتصير نساؤهم ثكالى وأرامل، ويصير رجالهم
قتلى الموت، وشبانهم مضروبي السيف فى الحرب.

إرميا ١٨ / ١٨ - ٢٣

ويردد إرميا ما سيرده بعد ذلك نبي فى مكان بعيد وزمن أبعد منطقاً يتناول عبادة الأصنام التى لا
تستحق السجود

لأنها شجرة يقطعونها من الوعر، صنعة يدى نجار بالقنوم، بالفضة والذهب يزينونها، وبالمسامير والمطارق
يشدونها فلا تتحرك، هي كاللعين فى مقنأة فلا تتكلم، تحمل حملاً لأنها لا تمشى، لا تخافونها لأنها لا تغير
ولا فيها أن تصنع خيراً . . الآلهة التى لم تصنع السماوات والأرض تبديد من هذه الأرض ومن تحت هذه
السماوات

أما يهوه فهو الإله الحقيقى لأنه هو :

صانع الأرض بقوته، مؤسس المسكونة بحكمته، بفهمه بسط السماوات . . مصور الجميع وإسرائيل قضيب
ميراثه . .

وهو أيضاً إله عالمى

لا مثل لك يارب، عظيم أنت وعظيم اسمك فى الجبروت، من لا يخافك يا ملك الشعوب لأنه بك يليق، لأنه
فى جميع حكماء الشعوب وفى كل ممالكهم ليس مثلك.

إرميا ١٠ /

وتزداد الضغوط النفسية على إرميا وهو يجد نفسه يصرخ ولا مجيب، يكرهونه ويدبرون لاغتياله مرة ويسبونه مرة، فينادى شعب يهوذا الضال الذى خان آلهته بعقاب قادم، فسيمنع يهوه المطر ويموت الناس جوعاً، ثم يرسل جحافل شعب غريب عليهم فيقتلونهم ويسبونهم إلى بلاد غريبة، لكن يهوه سيرأف بهم فى النهاية إذا تابوا وندموا عما فعلوه من شر (إرميا ١٥/ ٥ - ١٩ و ١٠/ ١٨ و ١٠/ ٣٣ - ١٢)

ومع ذلك فإن إرميا لم يكن فيما يبدو قد وصل إلى التوحيد المجرد، كل ما فى الأمر أنه يريد يهوه وحده سيداً، أما طقوس عبادته فكانت هى ذات طقوس الآلهة الأخرى، ولم يبدِ عدواً لتقريب الضحايا والتخير لربه، لأنه يرى مستقبل يهوذا التائب يوم يقوم الكهنة اللاويون بإصعاد المحرقات والتقدمات وتهيئة الذبائح ليهوه (إرميا ٣٣ / ١٨). فلم يكن ليهوه أية مطالب أخرى سوى ذات المطالب التى تطلبها الآلهة الأخرى.

ويبدو أن مواقف إرميا السياسية كانت وراء ملاحقته واضطهاده، فكما علمنا انفصلت بابل عن آشور بعد موت (آشور باني بعل) عام ٦٢٦ ق.م وخلال العقدين التاليين كانت بابل والميديين قد حطموا الإمبراطورية الآشورية تماماً. وبدأت تطلعات بابل لميراث الإمبراطورية، وكانت لمصر زمن الفرعون (نخاو) ذات الطموحات، وهو ما دفعها لمساعدة حاميات آشور فى شمالى سوريا أملاً فى الاستيلاء عليها، لكن نبوخذ نصر الكلدانى أنزل بها الهزيمة فى قرقيش، فراجع نخاو بجيوشه لتجميع قواه ومتابعة الصراع ضد بابل. وهو ما شجع يهوذا على إيقاف دفع الجزية لآشور المتهالكة وكانت يهوذا تابعة فى الوقت نفسه لمصر. ويبدو أن يهو آحاز بن يوشيا أزعج الفرعون فعزله وأخذ أسيراً إلى مصر حيث مات هناك، ونصب الفرعون نخاو بدلاً منه يهو ياقيم شقيقه ملكاً على يهوذا. وفى كل ممالك بلاد الشام كان يجرى النزاع بين اتجاهين فى السياسة الخارجية، اتجاه يميل نحو مصر والآخر نحو بابل، فكان فى بلاط الملك يهو ياقيم حزب قوى موال لمصر، وحزب آخر موال لبابل قوى شأنه بعد هزيمة الفرعون نخاو، وكان إرميا من هذا الحزب الأخير الذى يرى أن الخلاص من الدمار والانقراض الشامل هو الخضوع لبابل باستسلام كامل دون مقاومة. لأن الهزيمة العسكرية أمام مصر قد تعنى مجرد تبعية سلمية، أما الهزيمة العسكرية أمام بابل فكانت تعنى الدمار الشامل. ومن هنا لم يكن إرميا موالياً لحزب بابل حبا فيها بل رعباً منها وإشفافاً مما قد يحدث ليهوذا لو حالفت مصر وهزمت مصر أمام بابل ثانية، فمعنى ذلك الإبادة الشاملة لشعب الرب من قبل البابليين. هذا بينما كان فريق ثالث يعتقد أن يهوه لن يسمح لهؤلاء أو أولئك من وثنيين بالسيطرة على شعبه، لكن إرميا كان على يقين من اجتياح بابل لبلاده، لكن يهوه فى النهاية لن يسمح بفناء شعبه " وأيضاً فى تلك الأيام يقول يهوه لا أفنيكم ١٨/٥ ". ومثل هوشع وإشعيا يتنبأ إرميا ببعث جديد لشعب إسرائيل من البقية التائبة أو الراجعة لكن فى مستقبل غير محدد بشكل دقيق. لكن قبل ذلك ستدمر أورشليم تماماً " يكون هذا البيت وتكون هذه المدينة خربة بلا ساكن "، وكان رد فعل الناس على إرميا غضباً شديداً " وكل الشعب أمسكوه قائلين تموت موتاً ٨/٢٦ " لكن البعض الآخر انقذ إرميا من غضبة الناس، فى ذات الوقت الذى لقي فيه النبى أوريا بن شمعي - الذى كان يردد ذات كلام إرميا - حقه، " أتوا به إلى الملك يهو ياقيم فضربه بالسيف وطرح جثته فى قبور بنى الشعب ٣٢/٢٦ ".

وبالفعل السحرى المتبع بكسر الجرار الفخارية رمزاً على كسر أصحابها وفنائهم، تجرأ إرميا أمام شيوخ الكهنة والشعب فى وادى بن هنوم وكسر هناك إناء فخارياً وهو يقول كلمة يهوه " هكذا أكسر هذا الشعب وهذه المدينة كما يكسر وعاء الفخارى "، وكان ذلك مجلبة للنحس فى اعتقاد الناس، لذلك أمر فشحور كاهن معبد أورشليم بضرب إرميا ومنعه من دخول المعبد (١/١٩ - ١١ و ٢/٢٠).

ويبدو أن ملك يهوذا (يهو ياقيم) قد اضطر فى النهاية إلى إعلان خضوعه لبابل، لأنه قام أولاً بقطع اتصالاته مع مصر، ثم أرسل جزية إلى نبوخذ نصر، ثم عاد بعد ثلاث سنوات يتردد محالوا العودة إلى مصر التى فقدت ثقتها به، وحتى يؤكد عودته توقف عن دفع الجزية لبابل، فأمر نبوخذ نصر اتباعه الموابيين والآراميين والعمونييين بتأديبه فهاجموا بلاده. ومات يهو ياقيم عام ٥٩٨ تاركا العرش لا بنه يهو ياكين، فى الوقت الذى وصلت فيه جيوش بابل وضربت الحصار على أورشليم واستسلم يهو ياكين ٥٩٧ ق.م، وسبى نبوخذ نصر الملك اليهودى وبلاطه وكهنته وجيشه إلى بابل، وترك سكان الريف وأقام عليهم صدقيا الابن الثالث ليوشيا ملكاً منوباً من قبله على يهوذا.

وإلى الأسرى فى بابل أرسل إرميا رسالة باسم يهوه ينصحهم بالخضوع التام للملك البابلى ولا يعولوا على عودة سريعة لأورشليم لأنه " هكذا قال يهوه، إني عند تمام سبعين سنة لبابل أتعهدكم وأقيم لكم كلامى الصالح بردكم إلى هذا الموضع / إرميا ٢٩/١٠. **إذن فلا عودة من الأسر البابلى قبل سبعين عاما.** هكذا كانت نبوءة رميا.

ونتالى الأحداث وتجتمع كلمة الشعوب الواقعة تحت النير البابلى موآب وآدوم وعمون وصور وصيدا بتحريض من مصر، وأرسلوا سفراءهم إلى صدقيا ملك يهوذا لينضم للحلف. وما أن رأى إرميا السفراء حتى نادى:

هكذا قال يهوه رب الجنود إله إسرائيل . . أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض . وأعطيته لمن حسن فى عيني، والآن قد دفعت كل هذه الأراضى ليد **نبوخذ نصر ملك بابل عبي** . . ويكون أن الأمة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل . . إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء - يقول يهوه - حتى أفنيها بيده . . والأمة التى تدخل عنقها تحت نير ملك بابل وتخدمه، أجعلها تستقر فى أرضها - يقول يهوه - وتعملها وتسكن بها.

إرميا ٢٧ / ٤ - ١١

لكن الحزب المعادى لبابل قدم نبيه حنانيا يقول باسم يهوه

هكذا قال يهوه . هكذا اكسر نير نبوخذ نصر ملك بابل فى سنتين من الزمان

إرميا ٢٨ / ١٠ - ١١

وبينما تضرب جيوش بابل الحصار الثانى على أورشليم كان حنانيا يعلم أن جيوش مصر قد خرجت لمعونة يهوذا وحلفائها بقيادة الفرعون إبريس، ورفع نبوخذ نصر حصاره عن أورشليم محركا جيشه باتجاه مصر فانتعشت آمال يهوذا فى الخلاص، بينما تم القبض على إرميا فى يهوذا بحسبانه جاسوسا لبابل وأودع السجن، لكنه كان يصر على أن يهوه قد أمر بتسليم أورشليم لبابل " هذه المدينة ستدفع دفعا ليد جيش ملك بابل فيأخذها / إرميا ٣٨ / ٢،٣. " مما دفع جنود يهوذا لمطالبة الملك بقتل إرميا الذى يضعف روح المقاومة عند الناس.

ليقتل هذا الرجل لأنه بذلك يضعف أيادى رجال الحرب الباقين فى هذه المدينة . . هذا الرجل لا يطلب السلام لهذا الشعب بل الشر

إرميا ٣٨ / ٤

وهزم البابليون جيش الفرعون إبريس الذى عاد إلى مصر، وفى عام ٥٨٦ ق.م اخترقت جيوش بابل أورشليم وتم تهديمها بشكل شبه كامل، فقد أمر نبوخذ نصر بهدم أسوارها، وحرق معبد يهوه، وقتل الملك صدقيا، وسبى الصناع والحرفيين وغيرهم إلى بابل وترك فقراء يهوذا فقط يفلحون الأرض. كما أمر بإكرام إرميا وتخيره بين البقاء فى يهوذا أو السفر إلى بابل ففضل البقاء فى يهوذا، ومن هناك تم اختطافه إلى مصر هو وتابعه الذى كان يلزمه باروك، ورغم أن إرميا كان قد تنبأ بأن مصر ستلقى مصير يهوذا على يد البابليين فإن نبوءته لم تتحقق، وفى مصر مات واختفى ذكر إرميا من التاريخ. كذلك أخطأ إرميا فى تحديد مدة أسر اليهوديين ببابل سبعين عاما، لأنه حتى أولئك الذين ذهبوا إلى السبى الأول لم يلبثوا أكثر من ٥٨ عاما، منذ الحصار الأول ٥٩٧ ق.م وحتى ٥٣٩ ق.م على وجه التدقيق.

والنظرة الفاحصة لكتاب إرميا ستكشف أن هناك إصحاحات قد أضيفت إلى هذا الكتاب ليست لإرميا بأية حال وهما الإصحاحين ٥١ و ٥٢ تكرر حرفيا ذات الإضافات التى حشيت بكتاب إشعيا، وتحدث حول هجوم الميديين على بابل (إرميا ٥١ / ١١). ودمار بابل التى ستتحول إلى كومة من الأنقاض، وهو ذات ما رددته إصحاحات إشعيا ١٣ و ١٤، بينما نجد الإصحاح ٥٢ فى إرميا يردد ما جاء فى الإصحاح ٢٥ من كتاب ملوك ثانى، بل ويشهد على ذلك إن تلك الإصحاحات قد أضيفت بعد ما ورد من إشارة ختامية فى الإصحاح ٥١ " إلى هنا كلام إرميا "، والمرجح أن كاتبها كان رفيقه باروك الذى أراد إصلاح وتهذيب شأن خيانة إرميا الواضحة وعاملته لبابل.

ولم تعمر المملكة البابلية الكلدانية طويلاً، فقد ظهرت قوة جديدة فى إيران هى قوة الفرس الذين اخضعوا الميديين هناك، وتمكن قورش الفارسى من توحيد إيران جميعاً تحت سلطانه، وفى ٥٣٩ ق.م. كان قد فتح بابل. لكنه أبداً لم يحقق نبوءات إشعيا وإرميا، فلا هو هدم معابدها ولا دمر تماثيل آلهتها ولا تركها كومة أنقاض، بل أبدي نحوها شديد الاحترام، وكانت حكمته دليلاً لأخلافه الذين تمكنوا من إقامة إمبراطورية كبرى طوت شرقى المتوسط تحت جناحيها حتى وادى النيل، لكن إرميا رغم موته شريداً غريباً فى مصر فإنه لم يعدم من يشاطره آراءه من بعد، ذلك كان (حزقيال) المنحدر من نسل الكهنة الصدوقيين المقدسين، والذي ذهب إلى بابل أسيراً فى صباه عام ٥٩٧ ق.م، وبعد أن أمضى خمس سنوات فى الأسر قرر أن يكون نبيا. أما كيف كان ذلك؟ فقد ظهر له يهوہ ونشر أمامه كتاب " وهو مكتوب من داخل ومن قفاه وكتب فيه مرات ونحيب وويل ". ثم أمر يهوہ حزقيال أن يأكل ذلك الكتاب، وعند ذلك أصبح حزقيال نبيا (حزقيال ١/٣ - ١٤) يتحدث بلسان يهوہ عن مستقبل شعبه المختار.

لم تكن هناك مصائب باقية أكثر مما حدث لشعب الرب، لكن حزقيال كان يرى مصائب أكثر وأخطاراً أعظم هى الخطر المحيق بديانة يهوہ. وكان حزقيال شاهداً على الخيانة التى قام بها شعب يهوذا لربه يهوہ بعبادة آلهة أخرى (حزقيال ٨/).

ونجد عنده إشارات إلى عبادة بشر حيوانات بمعبد أورشليم تشير إلى آلهة مصرية واضحة (حزقيال ١٠/١ و ٦/٤٣)، وكانت تلك الآلهة ذات الرؤوس الحيوانية إضافةً لشبيهاها فى بابل كما فى الثيران المجنحة (قيراب) أو (كروبيم) قد أصبحت فيما بعد أساساً لظهور ما يعرف بالملائكة فى أفق الديانة اليهودية، ويروى حزقيال كيف كان الكروبيم (الثيران المجنحة) تنقل يهوہ من بابل إلى أورشليم إلى أى مكان آخر.

ويرتد حزقيال عن النقلة التقدمية التى أسسها إرميا بعالمية يهوہ الذى كان يرعى الأراميين والكوشيين والفلسطينيين، يعود حزقيال إلى يهوہ العنصرى الذى يقف فقط إلى جوار شعبه المختار، وأنه سينتقم من الشعوب المحيطة بيهوذا من عمون إلى موآب إلى آدوم إلى الفلسطينيين، لأنهم نجسوا معبد الإله بدخولهم إليه، وتشفوا فى هلاك يهوذا على يد نبوخذ نصر (حزقيال ٢٥/٣).

ويرتد حزقيال إلى طلب يهوہ للقرايين والذباح وليس للتقوى (حزقيال ٤١ / ٢٢)، ويعد يهوہ حزقيال بأنه فى مملكة إسرائيل التى سوف تبعث، سيعمل الكهنة " على المذبح محرقاتكم وذبائحكم السلامية فأرضى عنكم / حزقيال ٢٧/٣٤ "، والسبب الواضح أن حزقيال كان كاهناً من سلالة الكهنة، وكان يشغله وضع الكهنة المميز. لكن كان يشغله أيضاً طمأنة شعبه على مستقبله وهو أسير فى بابل، فإله قد قال له:

فبددتهم فى الأمم فنذروا فى الأراضى .. أنا يهوہ .. وأخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضى وآتى بكم إلى أرضكم .. وأجعلكم تسلكون فى فرائضى وتحفظون أحكامى وتعملون بها

حزقيال / ٣٦

لكن السؤال كان: هل يستحق شعب الرب كل هذا العقاب العظيم؟ وإذا هلك يهوذا فذلك معناه انتهاء عبادة يهوہ، ثم لماذا هذا العقاب للجميع بينما يوجد بالشعب عباد مخلصين ليهوہ؟ ولماذا يعانى الأبرياء مع الخاطئين المذنبين فى حق يهوہ بعبادة آلهة أجنبية؟ كانت إجابته ذات إجابة هوشع فإسرائيل الشمالية ويهوذا الجنوبية كانتا مثل امرأتى زنى خانتا زوجها الشرعى يهوہ مع عشاق آشوريين ومصريين وبابليين. لكن الزانية ستنتوب ويعددها يهوہ بالغفران (حزقيال ١٦ / ٥٢ - ٦٠).

ولتبرير عدل يهوہ إزاء عباده المخلصين الذين يعانون مع الخونة وربما أكثر معاناة من خونة يهوہ، فإن حزقيال يكرر تفسيرات إرميا، ثم يضيف إضافات جديدة تماماً متأثرة بالعقائد المصرية الأخروية:

فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياہ التى فعلها وحفظ كل فرائضى .. فحياة يحيا ولا يموت. كل معاصيه التى فعلها لا تذكر عليه.. وإذا رجع البار عن بره وعمل إنما وفعل مثل كل الرجاسات التى يفعلها أفحيا؟ كل بره الذى عمله لا يذكر فى خيانتہ .. يموت.

حزقيال ١٨ / ١ - ٢٤

ومن ثم يفتح حزقيال أبواباً جديدة للأمل والتوبة، ضمن مدرسة الكهنة ذوى الامتيازات، وحرصاً على هذه الامتيازات قاموا يقدمون وحياً منسوباً لموسى يعرف باسم القانون الكهنوتى، يعكس مصالحهم

وتطالعناهم. أدرجوه تعشيقا هنا وهناك فى التوراة الخماسية، فى مناطق متفرقة منها، حتى تجد فى التوراة القديمة المنسوبة لموسى فصولا كاملة مكرسة لوظائف الكهنة وطقوسهم وقرابينهم، لأن إسرائيل المقبلة يجب أن تكون تحت سلطان الكهنة.

ومن هنا نجد ثمانية إصحاحات كاملة من كتاب حزقيال من ٤٠ إلى ٤٨ عبارة عن مشروع كامل لبناء يوتوبيا إسرائيل المقبلة تحت سلطان الكهنة. ويقدم حزقيال تصورات من خلال أقصوصة يقول فيها أن يهوه أخذه وطار به إلى المستقبل كى يشاهد إسرائيل الآتية الباقية، ودور المعبد الضرورى للكهنة وسيادتهم فى المملكة المقبلة، ويضع ضمن تلك التصورات كيف سيكون الكهنة فى أعلى درجات السلم الاجتماعى، وهناك سوف يعلمون الشعب

التمييز بين النجس والطاهر، وفى الخصام هم يقفون للحكم يحكمون حسب أحكامهم ويحفظون شرائعهم وفرائضهم، فى كل مواسمهم يقدسون سبوتهم

حزقيال ٤٤ / ٢٣ ، ٢٤

ومعنى ذلك أن الكهنة سيجوزون أيضاً السلطة القضائية بينما تقوم السلطة المدنية بدور هامشى تماماً، ويبدأ الحديث عن رئيس ستكون مهمته تقربب الضحايا ليهوه ورعاية المعبد وممارسة الشعائر الدينية، لهذا سيجتمع الإتاوة من الشعب لصالح المعبد وكهنته. من هنا كانت الطقوس عند حزقيال أهم كثيراً من الواجبات الأخلاقية .

ولم يعيش حزقيال حتى يرى معظم نبوءاته وهى تطيش خاصة تلك النبوءات المحددة الواضحة المباشرة، وفى بداية نبوءاته فى بابل تنبأ بمحاكمة الملك اليهودى صدقيا فى بابل (٢٠/١٧) وهو مالم يحدث، وتنبأ بدخول نبوخذ نصر صور (إصحاحات ٢٦ و ٢٧) وهو مالم يحدث أيضاً.

وفى بابل كان أنبياء آخرون يتنبأون بمستقبل شعب الرب لم تصلنا أسماؤهم لأنه تم إدخالها فى كتب أنبياء أكثر شهرة، منها تلك التى نسبت زورا إلى النبى إشعيا ابتداء من الإصحاح ٤٠ وحتى نهاية كتاب إشعيا، واصطلحت مدارس نقد التوراة على تسميتها بكتابتى إشعيا الثانى وإشعيا الثالث كاصطلاحات فقط مجازية لا علاقة لها بإشعيا صاحب الكتاب. لأنها أبداً لم تدون بأحداثها زمن إشعيا إنما بعد ذلك، زمن الأسر البابلى وفى الأسر البابلى، وبعض تلك الإضافات تعود إلى زمن أكثر تأخراً من زمن الأسر البابلى.

يعلن النبى المجهول المتسلل إلى كتاب إشعيا إعلاناً إلهياً هو أن يهوه قد قنع بما أنزله على يهوذا من عقوبات استحققتها، وأن آثامها قد تمت مجازاتها وأنها قد قضت فترة عقوبتها وأن أوان تصالحها مع ربها بعد أن انتهت من توقيع الجزاء المناسب الذى ارتاحت له نفسه المكرومة من شعبه المختار.

عزوا عزوا شعبى، يقول إلهكم، طيبوا قلب أورشليم ونادوا بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفى عنه، أنها قد قبلت من يد يهوه ضعفين عن كل خطاياها.

إشعيا ٤٠ / ١ - ٢

وكان كورش يكتسح إيران يوحدتها ثم يخرج بجيوشه ليجزع المدن اليونانية فى آسيا الصغرى، وتنتالى الأنباء عن التهبؤ الفارسى لاكتساح بابل، وهنا يقوم إشعيا المزيف يتنبأ بانتصار كورش الفارسى على بابل (إشعيا ٤١/٢٥ و ٤٦/١١) ويعلن النبى المجهول أن يهوه قد وقع اختياره على كورش ليكون هو ممسوحه المسيح

هكذا يقول يهوه لمسيحه كورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أما وأحقاء ملوك أُحُلُّ لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق .. لأجل عبدى يعقوب وإسرائيل مختارى دعوتك باسمك، لقبتك وأنت لست تعرفنى

إشعيا ٤ / ١ - ٤

وفى إضافات إشعيا الثانى تجد كلمات وصفات أبداً ليس لها مثل فى بقية إشعيا الأصلية، ثم كلمات لم تعرفها لغة العهد القديم إلا بعد البقاء فى الأسر البابلى مدة سمحت بنحت ألفاظ جديدة واصطلاحات جديدة، ودلالات جديدة لألفاظ قديمة. ويعلن إشعيا الثانى عن كورش الفارسى.

هو بينى مدينتى .. ويطلق سببى لا بثمن ولا بهدية

اشعيا ٤٥ / ١٣

ثم ينقل بالحرف من كتاب ملوك ثانى (١٣ / ١٨ - ١٩) ويدونه فى اشعيا (٣٩ / ٣٦)، ناهيك عن كون الإصحاحات من ٣٦ إلى ٣٩ تتحدث عن النبى إشعيا بضمير الغائب، أما نبوعته بدخول قورش بابل فهو أمر كان يستطيع أى شخص أن يتنبأ به، لذلك قام يكتبه وينسبه إلى النبى إشعيا.

ولما أفرج قورش عن المسبيين بعد سقوط بابل، لم يتحمس اليهوديون الأسرى للعودة من رفاهية بابل وخيرات الفرات، بل لقد رأى بعضهم أن رب بابل مردوك أقوى كثيرا من يهوه الذى يملك على مقاطعة فقيرة وشعب جاهل ومتخلف. إضافة إلى أنهم هناك تزوجوا من الرافديات وتاجروا وأثروا بل وأصبحوا يحملون أسماء بابلية ويسلكون عادات البابليين، ولم يجد إشعيا الثانى أذانا صاغية لدعوته بالعودة وإقامة الهيكل والمدينة المقدسة، فقام ينادى بقول يهوه المكلوم: هوذا من أجل آثامكم قد بعتم، ومن أجل ذنوبكم طلقت أمكم، لماذا جئت وليس إنسان؟ ناديت وليس مجيب؟ هل قصرت يدي عن الفداء وهل ليس فى قدرة للإنقاذ.

إشعيا ١ / ٥٠ ، ٢

ويؤكد إشعيا الثانى لشعبه أن بابل سوف تذهب إلى السبى كما ذهبت يهوذا بل أن آلهة بابل نفسها سيتم الإطاحة بها ويحملونها معهم إلى سبيهم، لأنها مجرد أصنام تعجز عن حماية أتباعها بعكس يهوه المنقذ، فيقول عن بعل / بيل والرب نبو البابلى قد جثا بيل، انحنى نبو، صارت تماثيلها على الحيوانات والبهائم .. قد انحنيت، جثت معاً، لم تقدر أن تتجى. أنت تتجى الحمل وهى نفسها قد مضت فى السبى

إشعيا ٤٦ / ١، ٢

لا يعلم الحاملون خشب صنمهم والمصلون لإله لا يخلص

إشعيا ٤٥ / ٢٠

أليس أنا يهوه ولا إله آخر غيرى وبعدي لا يكون؟

إشعيا ٤٣ / ١٠

وأنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى

إشعيا ٤٤ / ٦

لقد سجل إشعيا الثانى مجده بدءاً من تلك اللحظة عندما جعل من يهوه ربا واحداً مطلقاً عالمياً دون منافس. ثم ينتقل فى تبرئه يهوه مما حدث لشعبه نقلة أخرى، فيهوّه لم يعاقب شعبه لأنه أسوأ من الشعوب الأخرى بل لأنه الأفضل، الشعوب الأخرى تضرب فى ظلمات الوثنية أما الشعب المختار فقد استضاء عقله وطريقه بشريعة يهوه، لأنه المختار ليكون "نورا للأمم / إشعيا ٤٢ / ٦". والجهل راحة والمعرفة عذاب وهذا شأن أقوياء الروح ودورهم فى التاريخ، أن يتحملوا جهل الآخرين وذنوبهم على عاتقهم ويتعذبون بسببهم، إن الشعوب الجاهلة تزدري شعب الرب وتشتت فيه وتعذبه (إشعيا ٥١ / ٢٣). لكن كل هذا هو الثمن النبيل المدفوع سلفاً للمجد الآتى، لأن شعب الرب عندما يصل إلى ختام أداء رسالته سوف يصبح أعظم العالمين بقرار يهوى، وستعلم الشعوب الأخرى أن شعب الرب قد تعذب من أجل خلاصها، وأطاعت إسرائيل ربها بعبودية ووفاء. وتبدأ كلمة العبودية لله تظهر فى أفق العقيدة اليهودية لتطلق على أحباريه وأنبيائه (عباد الله جمع عبد الله)، لتؤثر بعد ذلك فى الصيغ النبوية التى سنسمع لها صدى فى الزمن الآن تردد أن النبى ليس سوى عبداً لله مبلغاً ونذيراً، يقول إشعيا الثانى

أما أنت يا إسرائيل عبدى، يا يعقوب الذى اخترته .. الذى .. دعوته وقلت له أنت عبدى، اخترتك ولم أرفضك .. لأنى إلهك

إشعيا ٤١ / ٨ - ١٠

أذكر هذه يا يعقوب، يا إسرائيل فإنك أنت عبدى، قد جبلتك عبداً لى أنت يا إسرائيل، لانتس متى قد محوت كغيم ذنوبك، وكسحابة طايك، ارجع إلى لأنى قد فديتك (يقصد الرجوع من بابل إلى أورشليم دون التأويل)

ثم يعلن للجهلاء من شعوب المحيط

هذا الشعب جبلته لنفسى يُحدث بتسيحي

هوذا عبدى يعقل، يتعالى ويرتقى ويتسامى جدا

ويبدو أن إشعيا الثانى ذلك المجهول كان يعيش حياة شديدة القسوة، تلقى بظلمها الغامض على الإصحاح ٥٣ الذى يصور حياة قديس معذب يقول عنه يهو " عبدى البار / إشعيا ٥٣ / ١١ "، وأن هذا العبد المحب ليهوه كان محتقرا بين الناس وانصرف عنه الجميع لشكهم فى أنه يتلقى عقابا من الله على آثامه، رغم أن هذا القديس المعذب فى الواقع: أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مضروبا من الله ومذلولاً وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا، تأديب سلامنا عليه وبحبره يشفينا

والسبب أن

يهوه وضع عليه إثمنا جميعا

(وغنى عن الذكر أن المسيحية بعد ذلك وجدت فى ذلك نبوءة بمسيحها المعذب من أجل البشرية). وفى هذا الإصحاح نجد حديثاً عن سجن القديس المعذب ومحاكمته وربما إعدامه (بغموض) فهى تقول " قطع من أرض الأحياء "، لكن النبى وهو ينتظر الإعدام أعلن قوله أنه قد: جعل نفسه ذبيحة إثم، يرى نسلا تطول أيامه، ومسرة بيد يهوه تنجح

ويعضده يهوه ويعلن

لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء، يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه، وأحصى مع إثمه، وهو حمل خطية كثيرين وشفع فى المذنبين.

وفى المستقبل الآتى مع النجار يسوع بن مريم نجده قد وجد لديه فى عذابات قديسنا المجهول نظرية كاملة عن المعذب الذى جاء يحمل خطية البشر، وليس من الضروري أن يكون العذاب على ذنب بقانون النار لا تحرق مؤمنا، فربما يكون العذاب خاصا بالمتقين بقانون المؤمن مُصاب. ويمكن أن يتعذب البرئ النقى بعلم الله وإرادته ليفسح المجال للخاطئين كي يتوبوا، وتلك الفكرة وإن كانت فلسفة غامضة غير منطقية أو مقبولة عقلا، فإنها كذلك لأنها من أسرار يهوه غير المفهومة، أسرار المحبوبة على أفهام البشر، ويشرح يهوه فلسفته الجديدة:

لأن أفكارى ليست أفكارهم، ولا طرقكم طرقى، يقول يهوه، لأنه

كما علت السماوات عن الأرض، هكذا علت طرقى وأفكارى
عن أفكاركم.

إشعيا ٥٥ / ٨ ، ٩

وهكذا تمت صياغة فكرة الرسالة الفدائية لإسرائيل من أجل البشرية، لأنه عبد يهوه وبشيره ونذيره
الذى يجب عليه أن يتحمل ويحمل شريعة الرب إلى
"الجزائر .. والأمم .. البعيدة / إشعيا / ٤٩ / ١". وهكذا سجل هذا القديس لأول مرة فتحا مبينا فى تاريخ
اليهودية التى لم تعد تقتصر على شعب بنى إسرائيل، لأن شعب بنى إسرائيل لفضله وأصالته قد تم اختياره
ليحمل الرسالة ويتحمل العذاب إلى الشعوب الأخرى بالدعوة لمجد يهوه.

ومن أجل مجد يهوه لم يلتفت إشعيا المجهول إلى أن قورش كان من غير بنى إسرائيل بالدم والعنصر،
ولم يهتم بكونه كان وثنيا تماما حتى مماته، فهو أول المهديين الذين تم هداهم لخدمة يهوه، وأن يهوه بنفسه
هو من مسحه مسيحا لأنه كان رسول يهوه المنتظر من زمن طويل، الذى سينفذ إرادة يهوه. ويرسم إشعيا
المجهول صورة فصيحة لدمار بابل القريب، وأن يهوه سيسير أمام قورش ليفتح له أبواب سور بابل

أنا أسير أمامك والهضاب أمهد أكسر مصراعى النحاس،
ومغاليق الحديد أقصف /

إشعيا ٤٥ / ٢

(وقد ذهب البعض أن فتح بابل قد تم عبر اتفاقات سرية مسبقة بين اليهوديين المسيبيين وبين قورش،
وكان اليهوديون فى بابل يعيشون كمواطنين داخل المدينة)

وبينما يذهب شعب بابل إلى المنفى حسب تلك النبوءة، فإن شعب إسرائيل سيعود إلى وطنه ويصبح
صاحب مجد عظيم، وأن كأس الألم ستشربه شفاة الذين عذبوا شعب الرب (٥١ / ٢٢ ، ٢٣) والظالمون
سيأكلون أجسادهم ويشربون دمهم كالخمر (٤٦ / ٢٦).

وسوف تأتى كل الشعوب بجزياتها وكنوزها إلى دولة شعب الرب (٤٥ / ١٤)، وسيلحق بالوثنيين
الخزى والعار، لكن بعضهم سيؤمن بيهوه ويأتون إليه يقولون :

فيك وُحد الله وليس آخر إله

إشعيا ١٤ / ٤٥

وستقوم أورشليم عاصمة كبرى مقدسة يناديها النبى:

أخرجوا من بابل، اهربوا من أرض الكلدانيين بصوت الترنم
أخبروا، نادوا بهذا

إشعيا ٤٨ / ٢٠

ولكن الشعب المقدس يتمسك بالإقامة فى بابل ولا يرغب فى العودة، مما كان مبرراً مصلحيا لعدم
تصديقهم نبوءات الأنبياء عن الغد الذهبى فى أورشليم.

المهم أن قورش بعد فتح بابل سنة ٥٣٨ ق.م بقليل، أعلن مرسومه بعودة اليهوديين إلى يهوذا، وقد
ورد فى كتاب عزرا

فى السنة الأولى لكورش ملك فارس، عند تمام كلام يهوه
بفم إرميا، نبّه يهوه روح كورش ملك فارس، فأطلق نداء
فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا: هكذا قال كورش ملك
فارس: جميع ممالك الأرض دفعها لى يهوه إله السماء، وهو
أوصانى أن أبني له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا. من
منكم من كل شعبة ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التى
فى يهوذا، فيبنى بيت يهوه إله إسرائيل، هو الله الذى فى

أورشليم. وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو مُتغرب،
فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبهائم، مع التبرع لبيت
يهوه الذى فى أورشليم

عزرا الأول ١ / ١ - ٤

لقد حل النبى المشكلة، الفقراء يعودون، أما الذين ارتبطوا بمصالح اقتصادية فى بلاد الكلدانيين
البابلية، فإنه يمكنهم البقاء لكن عليهم التبرع والتمويل لإعادة بناء الهيكل الذى سبق وهدمه نبوخذ نصر،
بناء البيت، وبناء مدينة أورشليم وسورها المهديم. أى أنه على من يرغب فى البقاء أن يتقدم بمعونة
سنوية لمعبد كهنة أورشليم.

وبينما نبى التوراة المجهول يتحدث عن قورش باعتباره المسيح المختار لدمار بابل، كان كهنة الإله
البابلى مردوك يسجلون بأوامر قورش، أن الإله مردوك رب بابل قد استدعى قورش لفتحها، وذلك فى
المرسوم القائل على لسان مردوك، أنه

بعد أن نظر فى كل البلدان ومحصها بحثا عن ملك تقى، يكون
من قلبه، فلأخذ بيده. نادى الملك كورش .. باسمه، وناشده
السيطرة على الكون .. وأمره بالسير إلى مدينته هو (مدينة
مردوك) بابل، ودون معركة أو قتال سمح له بدخول بابل. (١)

لقد كان قورش يرفع مصالحه السياسية عبر إيمان المتدينين، فهو يفتح بابل ويحترم آلهتها ويوقرها
بعكس كل نبوءات التوراة، ويقول أنه جاء ليأخذ بابل بناء على طلب كبير أربابها، كذلك فعل مع بقية آلهة
الدول المفتوحة، كذلك فعل مع يهوه، ويقول فى مرسوم آخر.

حين دخلت بابل، أخذت برعاية شئون بابل الداخلية ومقدساتها
.. ففرح مردوك الملك العظيم لأعمالى المباركة، وباركنى انا
كورش الملك الذى يجله (٧)

وتمكن قورش من اجتذاب كهنة ديانات البلاد المفتوحة إلى جانبه، وهم من جانبهم ضمنوا له ولاء
رعاياهم بما لديهم من أوامر إلهية يوحى بها، ولم تفكر بابل فى الانتفاض عليه لافى عهده ولا فى عهد ولده
قمبيز. وهو قد سمح لليهوديين بالعودة إلى أورشليم ليس لأنه تلقى أوامر يهوه بذلك، ولكن لأنه كان يهوى
نفسه للاستيلاء على مصر، وكان يشغله أن يكون الملك الملاصق لبوابة مصر من أتباعه هو وأتباعه، أن
يكون شعب الحدود المصرية وفيا لفارس. بل ودفع قورش جزءا من مصاريف بناء الهيكل، لأنه كان يريد
إخلاص الكهنوت اليهودى، مع تبعية كاملة، فهى عودة لكنها تحت ظل السلطان الفارسى الكامل، بل أن
قورش قد عين عليها واليا فارسيا من قبله، مع حاكم يهودى محلى هو زربابل الذى اختاره الكهنة بحسبانه
سليل البيت اليهودى الملكى، سليل داود وسليمان.

لكن عند العودة لم تعد سوى قلة من اليهوديين الذين ضاقت بهم سبل الرزق فى بابل، بعد أن شكوا فى
وعود يهوه لأن أقواله كذبت أكثر من مرة، فهو أكثر من مرة أكد أنه سيفنى البابليين وبابل، لكن ما حدث
كان بالعكس تماما، بل ازدهرت بابل أكثر، وأضيفت إليها معابد جديدة، وإلى تجارتها زيادات هائلة،
وتحولت إلى كبرى عواصم الدولة الفارسية نفسها.

وعاد البعض، ودفع البعض، وقام العائدون بينون وينتظرون كل ليلة إطلالة المجد اليهودى بالخير على
شعبه المخلص، لكن لتجتاح الأرض موجة جفاف نادرة المثال، وتصاب المزروعات بالدمار، حتى الأشجار
المتثمرة ضربة ضربتها الآفات
(حجى ٥/١ - ١١ و ١٩/١٥)، ثم جاء الجراد يكتسح فى هجوم متكرر، مع مشاكل أخرى نتجت عن كون
القائمين فى يهوذا من فلاحين لم يتم سبيهم، كانوا قد استولوا على أراضى المسبيين، ويرفضوا الآن إعادتها
مما خلق مشاكل كبرى بينهم بين الكهنة.

(١) ريجسكى: أنبياء التوراة .. سبق ذكره، ص ٢٠١.

(٧) نفسه: ص ٢٠٢ .

وامتد تشييد معبد يهوه المتواضع جداً حوالى عشرين سنة كاملة، كانت فيها أورشليم تعاني ويلات الجوع، وعاش الناس فى حطام أطلال لم تبين منذ الغزو البابلى، لئيزغ فى التاريخ نجم نبى مجهول جديد، لم يجد أمامه سوى سفر إشعيا فدرس فيه لفائفه الجديدة، واصطلح على تسميته إشعيا الثالث. وكان حديثه يقع زمن بناء الهيكل والدعوة إلى بناء سور أورشليم (إشعيا ٦٠ / ١٠ — ١٣)، وسط النزاع بين الأتقياء وبين الكفار. والكفار عند إشعيا الثالث ليسوا الشعوب الوثنية ولكن هم اليهوديين أنفسهم الذين قد أصبحوا نصف وثنيين، يقدموا القرابين ليهوه فى أورشليم، ثم يذهبوا ويرتّبوا موائد الإلهين جاد ومنسى (إشعيا ١١/٦٥) ويأكلون الخنزير المحرم (١٧/٦٦). وظهر مفهوم الكافر فى أفق التاريخ ليعيد إلى يهوه غضبه ويقول إن يهوه قبل أن يعيد بناء أورشليم سيبيد أولاً الكافرين، وبعدها سيكون لإسرائيل أمجاداً عظيمة وتبنى كأزهى البلاد (إشعيا ٤/٦١) إن الأزمة عندما استحكمت ذهب الحلم الغاضب إلى تكفير بنى الملة، وهو ما يردد صده اليوم فى بلاد المسلمين. وبينما يعود عزراً عما كان قد أسسه أشعيا الثانى من عالمية يهوه ودعوته للتبشير وفتح دينه للآخرين، يعود عزراً إلى عنصرية الشعب المختار بالدم والعنصر وحده، لأنهم عندما عادوا من الأسر فوجئوا بمن بقى منهم هناك وقد تزوجوا من نساء الشعوب المختلفة وعبدوا آلهتها، وهو ما يسجله كتاب عزرا فى تقرير يقول:

لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويين من شعوب الأرض من رجاساتهم، من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموابيين والمصريين والأموريين، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيتهم، واختلط الزرع المقدس بشعوب الأرض، وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيانة أولاً.

وهنا نلمح فى زمن إشعيا الثالث ومواصفاته ما يمكنها من تحديد زمنه وقت أو أيام كان كهنوت أورشليم لم يبلغ سطوته كاملة، ووقت كان يلح فقط على فروض العبادة، ونستمع إليه يعرض إشعيا الثانى ويؤكد فتح باب اليهودية للشعوب الأخرى، حتى يجد حلاً لمشكلة الزواج الكثيف من الأجانب، وحتى يجعل أبناء تلك الزيجات يهوداً، وهنا يقول يهوه لأبناء الشعوب الأخرى.

فلا يتكلم ابن الغريب الذى يقترب بيهوه لخدمته، وليحيوا اسم يهوه، ليكونوا له عبيداً، كل الذين يحفظون السبت لئلا ينجسوه ويتمسكون بعهدى، أتى بهم إلى جبل قدسى وأفرحهم فى بيت صلاتى، وتكون ذبائحهم ومحروقاتهم مقبولة على مذبحى، لأن بيتى بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب.

إشعيا ٥٦ / ٣ - ٢٨

وأنباء الشعوب الأخرى المؤمنون بيهوه سيعيشون فى مملكة إسرائيل المزدهرة (إشعيا ٦١ / ٥)، لكن خدمة معبد يهوه تظل من اختصاص اليهوديين فقط. ويدفع إشعيا الثالث بيهوه نحو تطور أرقى حين يؤكد يهوه - مع الصعوبة القائمة فى بناء المعبد - أنه ليس بحاجة ماسة لمعبد، والسبب هكذا قال يهوه : السماوات كرسى، والأرض موطئ قدمى. أين البيت الذى تبنيون لى؟

إشعيا ٦٦ / ١

(وفى الإسلام أصبحت الأرض كلها معبداً طهوراً)، وهكذا تدل مداخلات إشعيا الثالث على أنه لم يكن كاهناً منتقياً من المعبد، لأن هناك آخر كان ينتفع لأنه كان كاهناً لذلك كان يقول كلاماً آخر، ويؤكد على وجوب استكمال المعبد لأن يهوه يحتاج إلى السكن فى الأرض :

هكذا قال يهوه رب الجنود قائلاً: هذا الشعب قال إن الوقت لم يبلغ وقت بناء البيت !! هل الوقت لكم أن تسكنوا فى بيوتكم المغشاة، وهذا البيت خراب؟؟

حجى ١ / ٤٢

ووجد حجى فى تباطؤ شعبه عن البناء حجة تبرر ما نزل بهم من كوارث جديدة، فيهوه يقول لحجى:

لأجل بيتي الذي هو خراب، وأنتم راکضون كل إنسان إلى بيته، لذلك منعت السماوات من فوقكم الندى، ومنعت الأرض غلتها، ودعوت بالحر على الأرض وعلى الجبال وعلى الحنطة وعلى المسطار وعلى الزيت، وعلى ما تنبتة الأرض، وعلى الناس، وعلى البهائم.

حجى ١ / ٩٦ - ١١٠

اصعدوا إلى الجبل وأتوا بخشب وابنوا البيت فأرضى عليه وأتمجد. قال يهوه

حجى ٨ / ١

واستغرقت عملية البناء خمس سنوات أخرى، وكان المعبد الثانى أكثر تواضعا من البيت الأول المتواضع أصلاً بجوار المنشآت المعمارية لدول الجوار، وينظر حجى إلى البيت الجديد حزينا قائلاً بمرارة: من الباقي فيكم الذى رأى هذا البيت فى مجده الأول، وكيف تتظرونه الآن؟ أما هو فى عينيكم كلاشيء.

حجى ٣ / ٢

ويعلن يهوه على لسان حجى أنه سيبنى البيت مع البنائين، محفزاً لهم مبشراً أن (زربابل) سليل بيت داود وسليمان الملكى سيكون بداية البشرى لقيام دولة اليهود الكبرى، ولقبه بلقب (مُشتهى الأمم)، يقول يهوه:

تشددوا يا جميع شعب الأرض يقول يهوه، واعملوا فإنى معكم .. لا تخافوا لأنه هكذا قال يهوه رب الجنود، هى مرة بعد قليل فأززل السماوات والأرض والبحر واليابسة وأززل كل الأمم، ويأتى مشتهى كل الأمم فأملأ كل هذا البيت مجداً

حجى ٧ - ٤ / ٢

وإلى زربابل بن شلتائيل من يسرى فى عروقه الدم الملكى السليمانى يتوجه يهوه بالقول عبر حجى:

كلم زربابل والى يهوذا قائلاً: إنى أززل السماوات والأرض، وأقلب كرسى الممالك وأبيد قوة ممالك الأمم، وأقلب المركبات والراكبين فيها، وينحط الخيل وراكبوها كل منها بسيف أخيه. فى ذلك اليوم يقول يهوه رب الجنود: آخذك يازربابل عبنى بن شلتائيل يقول يهوه، وأجعلك كخاتم لأنى قد اخترتك. يقول يهوه رب الجنود

حجى ٢٣ - ٢١ / ٢

كان حجى كما هو واضح يشير إلى اضطرابات شديدة فى الأمم المحيطة بمؤامرات يدبرها يهوه لأجل عيون شعبه، وهو ما يلتقى فعلاً مع مجموعة أحداث كانت تجرى حينذاك، فقد قتل قورش فى حملة على آسيا الوسطى وتحطم جزء كبير من جيشه، وانتقل العرش إلى ولده قمبيز الذى حاول تعويض تلك الهزيمة بفتح جديد، فدفع بجيوشه نحو مصر وتمكن من احتلالها. ولكن ليقوم الميديون فى فارس بمؤامرات عاد بموجهها قمبيز من مصر لكنه مات فى الطريق. وتمكن الكاهن الميذى جوماتا من الوصول بثورته إلى البلاط الفارسى وتم تنصيب (برديا) ملكاً، ثم قام انقلاب آخر بالبلاط الفارسى انتهى بقتل (برديا) وتمكن أحد المتآمرين الميديين من الاستيلاء على عرش فارس، وهو من عرفه التاريخ باسم دار يوش. ونتيجة هذه الخلطة فى قوة الإمبراطورية قامت عدة ثورات فى البلاد المفتوحة، فى بابل وفارس وميديا وعيلام وآسيا الوسطى ومصر، لكن دار يوش كان رجلاً حديدياً تمكن من قمع تلك الثورات جميعاً وتوطيد ملكه عند نهاية عام ٥١٩ ق.م. ومن جانبه احتسب حجى تلك الاضطرابات بداية النهاية للجميع حول يهوذا، لأنه لما كانت يهوذا لا تملك مقومات القوة لترفع رأسها وسط هذه القوى الكبرى، فإن يهوه رأى تدمير تلك القوى الكبرى

سلفا لأجل مجد شعبه. وأنه قد أعد زربابل ليكون ملكا للملكة الرسولية الآتية. لكن نبوءة حجي ذهبت مذهب نبوءات زملائه السابقين، فقد صمدت الإمبراطورية الفارسية، بل وبلغت زمن دار يوش الأول اقتداراً لم يسبق له مثيل، لكن إلى هذا الزمن تعود نبوءات نبي آخر من الأنبياء الكهنة في معبد أورشليم هو النبي زكريا الذى كان يرى مثل حجي أن الأحداث العاصفة التى جرت خلال السنتين الأولتين من حكم دار يوش دلالة أكيدة على اقتراب اليوم الأخير يوم يهوه، وحلول المملكة اليهودية الرسولية الجديدة. لكن زكريا تفاجئه الأحداث واستقرار الأمور لدار يوش تماماً.

ويصوغ زكريا نبوءاته فى شكل دراما تخيلية تصور الأمم فى هيئة وحوش قوية ذات قرون، ولأول مرة لا يتكلم يهوه بنفسه، **فتظهر فكرة الملاك حامل الوحي للرسول فى أفق التاريخ الدينى**، ويتساءل ملاك الوحي: متى سينزل يهوه رحمته بيهودا التى ما برح يغضب عليها؟ ويتراءى لزكريا فيما يشبه الحلم أو اليقظة أربعة قرون، ويشرح له الملاك حامل الوحي أن تلك القرون الوحشية هى التى دمرت يهوذا، زوجان منهما مصر وبابل بالطبع وقد تم تحطيم هذين القرنين على يد دار يوش، ثم قام ينادى اليهوديين المستوطنين فى بابل للهرب والعودة لأورشليم لأن أورشليم على أول سلم الوعد والمجد لأن ربها يناديها " ترنمى وافرحى يا بنت صهيون، لأنى ها أنذا أتى وأسكن فى وسطك " وكى يحدث ذلك كان لابد من التطهير الرمضى، فيظهر يهوشع كاهن أورشليم الأول (رمزيا) بثياب قدرة، فيأمر الملاك برفع وزره الذى أنقض ظهره ويأمر: " انزعوا عنه الثياب القدرة " استعداداً لمجيء سليل بيت داود الملكى، الغصن من شجرة سليمان

انظر يا يهوشع الكاهن العظيم .. لأنى ها أنذا أتى بعبدى
الغصن .. وأن الإله سوف يزيل إثم تلك الأرض فى
يوم واحد

زكريا / ٣

أما الأمر الواقعى فى تلك الصورة فيوعز بأن يهوشع الكاهن قد لطمخ نفسه بتصرفات غير لائقة، مما دفع زكريا الكاهن لشرح ذلك باعتباره آية للناس وضرب مثل، وأن الله لا يرضى الهجوم على خدامه الكهنة، **كـ نـ مـ نـ هـ و " غـ صـ نـ جـ نـ ذـ ع**
داود ؟" هو الذى كان باقيا من سلسال داود: (زربابل).

هكذا كلمة يهوه إلى زربابل قائلاً: لا بالقدرة ولا بالقوة بل
بروحى .. إن يدى زربابل قد أسست هذا البيت فيداه تتممانه

زكريا / ٤

لكن زكريا كان كاهنا وتشغله سيادة الكهنوت على الملك المدنى، لذلك قام بصناعة الذهب المرسل من يهود بابل تاجا ملكيا، وكى تتدعم سلطة الكهنوت ألبسه للكاهن يهوشع وليس زربابل، مما دفع زربابل إلى الغضب ومغادرة أورشليم والعودة إلى بابل. وقد سعد الكهنة بخروج هذا المنافس بعد أن استثمر اسمه كثيراً، وتوقيا لأى نزعات تمردية أو انفصالية قد يسعى لها. ويبدو أن زربابل قد ذهب إلى بابل يطلب دعم اليهوديين المقيمين هناك، لكن ليختفى بعد ذلك ذكره تماماً، ويختفى النسل الملكى ولا يظهر إلا بعد ذلك خلال القرن الأول الميلادى عندما جاء يسوع الناصرى ليعلن أنه البذرة الباقية من فرع داود وغصن سليمان وأن فى عروقه يسرى الدم الملكى.

وفى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد كان هناك نبي آخر يطلق نبوءاته مؤكداً على اقتراب يوم يسود شعب يهوه بقدوم يوم يهوه، ذلك كان عوبيديا الذى قام يؤلف نبوءاته فى الأيام الأخيرة للأسر البابلى، ووقف يتذكر ضعف شعب إسرائيل، وكيف قامت الشعوب المجاورة بنهب يهوذا : موآب وعمون وبالذات: آدوم ليرى الآن آدوم تلقى ذات العقاب حيث قام أعرايب الجزيرة بمهاجمتها ونهب أرضها، كان هذا دليلاً على أن يهوه لم ينس شعبه فعاقب آدوم، كما كان دليلاً على اقتراب يوم يهوه الذى سيحكم فيه كل الشعوب التى أدت شعبه الدليل. ويعطى العلامات المنبئة بقدوم هذا اليوم

دمار ونار وأعمدة دخان، تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم
قبل أن يجئ يوم يهوه المخوف .. لكن فى جبل صهيون وفى
أورشليم تكون نجاة .. وتعلمون إنى أنا وسط إسرائيل
وإنى أنا يهوه إلهكم وليس غيرى

عوبيديا ٣٠/٢ - ٣٢ و ٢٧ - ٢٩

فى تلك الأيام وفى ذلك الوقت عندما أرد سبى يهوذا وأورشليم،
أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادى يهو شافاط وأحاكمهم هناك،
على شعبى وميراثى إسرائيل الذين بددوهم بين الأمم .. مصر
تصير خراباً وآدوم تصير قفراً خرباً من أجل ظلمهم لبنى
يهوذا، الذين سفكوا دماء بريئة فى أرضهم

عوبيديا ٣ / ١ ، ٢ ، ١٩

وعند ذلك ستصبح يهوذا جنة الله فى الأرض :

ويكون فى ذلك اليوم أن الجبال تقطر عصيراً والتلال تفيض لبناً،
وجميع ينابيع يهوذا تفيض ماء، ومن بيت يهو يخرج ينبوع
ويسقى وادى السنط

عوبيديا ٣ / ١٨

كان عوبيديا يحاول تعزية العائدين من الأسر زمن جفاف وقحط لم يحدث مثله من قبل، بينما كان
زميله يوثيل يؤكد أن هذا القحط والجراد المتتالى الدورى علامة على اقتراب يوم يهو، وفى أفق التاريخ
يسجل الدين اليهودى قفزة نوعية على يد يوثيل عندما يرى أن ذلك اليوم سيكون يوم الدينونة العظمى لكن
ليس لشعب الرب، بل للشعوب الوثنية، لأن شعب يهوذا لن يحتاج محاكمة فقد دفع سلفا كل ديونه وتطهر من
آثامه بما لقيه من عذابات وتشريد. وستسكب روح يهو على شعبه المختار ويصبحوا جميعاً أنبياء مطهرين.
ومع كتاب عوبيديا الصغير ظهر كتاب ملاخى النبى، إبان كانت يهوذا مقاطعة هزيلة ضمن الإمبراطورية
الفارسية، وبعد إقصاء زربابل والتحكم الكامل لكهنة يهو فى بلاد يهوذا، حيث لا نرى إطلاقاً أية سلطة
مدنية (ملاخى ٢ / ٢٧)، وتحول الأنبياء عن الثورة للشعب الفقير إلى سند أيديولوجى للكهنة. وحاول أن
يجيب على سؤال الشعب للرب « أحببتكم قال يهو وقتلتم بم أحبينا؟ »، بأنه على الأقل لم تتعرض يهوذا لهجوم
العربان الذى قضى تقريباً على آدوم، لذلك على يهوذا أن تشكر الله. أنها لم تدمر مثل آدوم لذلك عليها ألا
تتدمر على ربها، ثم أن يهو ليس مغمض العينين، فشعب يهوذا لا يقرب قرايينه ليهو فى معبده إلا من
مواشيه المريضة ونباته المعطوب !!؟

وإن قربتم الأعرج والسقيم أفليس ذلك شراً؟ قربه لواليك
أفيرضى عليك؟

ملاخى ١ / ١٢

ثم أن شعب الرب قد فقد خوفه من يهو

أقولكم اشتدت على قال يهو، وقتلتم ماذا قلنا عليك؟ قلتم عبادة
الله باطله، وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره، ولأننا نحن
مطوبون المستكبرين وأيضاً فاعلوا الشر يبنون، جربوا الله
ونجوا.

ملاخى ٣ / ١٣-١٥

لقد أتعبتم يهو بكلامكم وقتلتم بم أتعبناه؟ بقولكم كل من يفعل
الشر فهو صالح فى عيني يهو وهو يسر بهم، أو أين
إله العدل؟

ملاخى ٢ / ١٧

أيسلب الإنسان الله؟ فإنكم سلبتمونى فقلتم بم سلبناك؟ فى
العشور والتقدمة. لقد لعنتم لنا وإياى أنتم سالبون هذه الأمة

كلها. هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليكون فى بيتى طعام،
وجربونى بهذا

ملاخى ٣ / ٨ - ١٢

أما السبب عند ملاخى فى بداية انتشار الإلحاد والكفر بيهوه فهو محاولة الانفتاح على الشعوب الأخرى لهدايتها لدين يهوه، وبالزيجات المختلطة مع الوثنيين

غدر يهوذا وعمل الرجس فى إسرائيل وفى أورشليم لأن
يهوذا قد نجس قدس يهوه وتزوج بنت إله غريب

ملاخى ١١ / ٢

وكالأنبياء السابقين يتنبأ مؤلف كتاب ملاخى باقتراب يوم يهوه الذى لن تكون عليه أية علامات كما قال عوبيديا، بالعكس سيأتى يوم يهوه فجأة وبغته، وحينها سيرسل ملاكا من عنده يظهر يهوذا بالنار " ويصفيهم كالذهب والفضة " وبعد ذلك سيأتى يهوه ليحكم بنفسه، وعندئذ يستعير ملاخى صورة رب الشمس رع المصرى بأجنحته مناديا " لكم أيها المنقون اسمى، تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها / ملاخى ٤ / ٢ "، وعند ذلك ستخدم كل الشعوب يهوه رعبا منه وخوفا.

وبينما عزراً ومؤيديه ينشرون سفر الشريعة الذى تم تأليفه فى بابل وينسبونه إلى موسى، ويطلبون تطهير البلاد من الرجس الذى أفقدهم رعاية يهوه، يطلبون طرد وتطليق الزوجات الأجنبية، ويشكلون لجان الفرز والفسخ فى وقت لم يعد يحتمل مثل تلك الإجراءات، بعد أن جرب شعب الرب العلاقات مع الشعوب الأخرى والعيش معها والكسب من تجاراتها ونعيم أربابها واختلط بالأجانب. ناهيك عن كون يهوه ظل طوال الوقت ينعى على شعبه وينعب ولا يقدم له سوى الدمار والشتات، كان أصحاب الاتجاهات الجديدة المتمدنة المتأثرة بالآخرين يتجرأون على إعلان آرائهم بوضوح، وتمكن بعضهم من التسلل إلى المقدس ليدونوا كتبهم بداخله، ومن هذه الكتب المحتجة كان كتابا راعوث ويونان.

وقد زعم مؤلف الكتاب أن القاضى صموئيل هو من ألف كتاب راعوث فى الزمن السالف البعيد، بينما لغة الكتاب لغة شديدة الحداثة سواء من حيث التعبيرات أو الأفكار التى تنتسب إلى زمن إصلاحات عزرا ونحميا وربما بعد ذلك، فلا يمكن لباحث مدقق أن ينسب سفر راعوث إلى ما قبل ذلك.

ويلقى المؤلف المجهول المحتج الذى لاشك كان متزوجا محبا لزوجته غير يهودية بقصته داخل العهد القديم، لكن ليقوم شخص آخر من الكهنة بإلقائها فى رحم الزمان الغابر بادئا بالقول أن ذلك قد " حدث فى أيام حكم القضاة " قبل حتى قيام مملكة شاول وداود وسليمان.

يحكى كتاب راعوث حكاية مؤثرة عن عائلة اضطرت لمغادرة بيت لحم بيهوذا نتيجة الجوع والقمط إلى بلاد موآب، وهناك مات رب العائلة وترك أرملته نعمة وولدين، فتزوج الولدان امرأتين موآبيتين، كان اسم إحدهما (راعوث)، وبعد فترة مات الولدان، وسمعت الأرملة نعمة أن الخير قد عاد إلى يهوذا فقررت العودة إليها سعيا إلى اللحاق بأحد أقاربها الموسرين فى يهوذا وكان يدعى (بوعز). لكن (راعوث) لم تترك حماتها نعمة إخلاصا لها ولزوجها المتوفى وتركت بلادها موآب وسافرت مع حماتها العجوز إلى يهوذا، إلى بيت لحم، وأوعزت نعمة إلى راعوث بإغواء قريبها الثرى بوعز.

ومعلوم أن هناك تقليد يهودى قدسى يلزم زواج الأخ بزوجته أخته الميت لينجب ولدا يحمل اسم أخيه الميت فلا ينقطع ذكره، وكان هدف الأرملة العجوز إحياء اسم ابنها فأوعزت لكنيتها بإغواء بوعز للزواج منها لينجب طفلا يحمل اسم زوجها السابق الميت ابن نعمة. وبالفعل تزوجت راعوث من بوعز وأنجبت ولدا عوبيدا منسوبيا إلى زوجها السابق الميت. ثم ينتهى كتاب راعوث بتقرير يقول أن راعوث هذه الموآبية هى التى أنجبت سلسالا انتهى إلى داود الذى أصبح ملكا على إسرائيل، لأن " عوبيد ولد ليس ويس ولد لداود ". وهكذا جعل المؤلف امرأة موآبية جدة لملك إسرائيل ليعلم رأيه للجنة الفرز أنه ليس ضروريا أن تكون النساء الأجنبية شريرات وضد يهوه، بل أنه من الممكن أن يكن تقيات ويلتزمين بتقاليد يهوذا وأوامر يهوه بل وينجبن ليهوذا ملوكا عظاما. وكان ذلك ردا على شريعة موسى المزعومة فى كتاب نحميا " إن عمونيا وموآبيا لا يدخل فى جماعة الله إلى الأبد / نحميا ١٣ / ١ ".

أما كتاب الاحتجاج الثانى فيعود إلى بطله يونان بن أمتاي، وتم إلقاءه فى مرآة الأيام الخوالى زمن الملوك يهو آحاز ويهو آش وبربعام الثانى، أى تمت إعادته إلى نهاية القرن التاسع وبداية القرن الثامن من قبل الميلاد. ويبدأ سفر يونان بالعبارة " وصار قول يهو إلى يونان بن أمتاي قائلاً: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد سعد شرهم أمامى ". وكان على يونان أن ينفذ أمراً يهوي بأن يذهب لأهل نينوى يعلن لهم أن يهو قد قرر تدمير مدينتهم بعد أربعين يوماً.

وخاف يونان وهرب من تنفيذ أوامر يهو فذهب إلى يافا وركب سفينة متجهة إلى ترشيش بأسبانيا هرباً " من وجه يهو "، فيغضب يهو ويرسل على البحر أعاصيره، ويلقى البحارة بيونان مصدر البلوى فى البحر فيهدأ البحر. " أما يهو فأعد حوتا عظيماً ليلتلع يونان، فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال. فصلى يونان إلى يهو إلهه من جوف الحوت وأمر يهو الحوت فقذف يونان إلى اليابسة / يونان ١ / ١٧، ٢ / ١، ١٠، " وهو النبى الذى جاء ذكره فى الإسلام باسم يونس مُصرفاً بالتصريف اليونانى.

وعرف يونان أنه لا مهرب له فذهب وأعلن أهل نينوى بقرار يهو تدميرها بعد أربعين يوماً، فأمن أهل نينوى وصاموا لله وهجروا الإثم، وأمر ملك نينوى شعبه بالتطهر خشية يهو.

فلما رأى الله أعمالهم، أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذى تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه.

يونان ٣ /

وشعر يونان بالمهانة والخذلان بعد أن ظهر إنذاره كاذباً، وتجراً على تعنيف يهو لأنه سيبدو فى نظر الناس نبياً دجالاً، حتى أنه تمنى الموت وقال ليهو: " خذ نفسى منى لأن موتى خير من حياتى، فقال يهو: هل اغتظت بالصواب؟ ".

وبالطبع لا يمكن نسبة سفر يونان للتأريخ الذى وضعته له التوراة لأن لغته متأخرة، ويحوى كثيراً من الكلمات الأرامية المحدثة التى دخلت العبرية زمن السيطرة الفارسية.

والواضح أن المؤلف المجهول كان يحمل كتابه رسالة إلى أتباع يهو المتعصبين مثل عزرا ونحميا، وأن يهو بإمكانه أن يكون رحيماً لا غضوباً حتى مع الشعوب الوثنية، ويقدم ليهو صورة جديدة تماماً بحيث يظهر رباً للخير رحوماً صبوراً شفوفاً حتى على نينوى عاصمة الوثنية والتجبر، لقد كتب المؤلف المجهول كتابه ليتحدى به كهنة أورشليم والأنبياء المتعصبين المنغلقيين.

أما أكثر الكتب تحدياً حتى ليهو نفسه، ويموج بالنزوع الإلحادى الصريح فهو كتاب أو سفر أيوب. والكتاب من حيث اللغة والأفكار يعود إلى مرحلة ما بعد الأسر وأبداً ليس قبل القرن الخامس قبل الميلاد.

والكتاب بعد تشذيبه على يد الكهنة يحكى أن الواشى / شاطان / الشيطان أرشد يهو إلى فكرة هى أن إيمان عبده أيوب وتقواه إنما لكى يزداد ثراء وصحة ونعمة، فهو إيمان غير خال من الغرض، وهنا يسمح يهو للشيطان بتجربة عبده الوفى بامتحانات قاسية لإيمانه، فينزل الشيطان بالعبد النقى مصائب هائلة فيخسر ثروته ويموت أبناؤه وبصاف هو بالقرح فى جسده. لكن الكهنة الذين تدخلوا فى النص أكدوا أن أيوب كان طوال الوقت راضياً وأوجز موقفه بالقول " يهو أعطى ويهو أخذ فليكن اسم يهو مباركاً / أيوب ١ / ١٢ ".

لكن ذلك لم يطغ على النعمة الساخطة الواضحة لعدم عدالة يهو مع أيوب الذى لم يذنب، ويرى أيوب كل الشعب يتعذب والظلم سائد ويهو يسمح بذلك. وهنا يأخذ أصدقاء أيوب دور المدافع عن الله فى مشهد درامى، بينما يأخذ أيوب دور الناقد المهاجم فى نقاش فلسفى، اتهم فيه أيوب مجادلةية بأنهم " ملفقى الكذب " و " أطباء باطلين "، فالإله يमित الطيب النقى كما يमित الشرير (٢٢/٩) بل ويؤازر الأشرار ويحيطهم برعايته (٣٠/٢١) والكافر يعيش حياة طويلة ثرياً مطمئناً ويترك ذرية كثيرة (وكان ذلك من علامات رضى يهو).

وعلى لسان أيوب يقول هؤلاء الأشرار المنعمين " من هو القديم حتى نعبد وماذا ننفع إذا التمسناه؟ أيوب ٢١ / ١٥ " هذا بينما الأنقياء يعانون الذل والجوع ويموتون على يد الأشرار " من الوجع الناس يثنون ونفس الجرحى تستغيث والله لا ينتبه إلى الظلم / أيوب ٢٤ / ١٢، " ولا يوافق أيوب على أن يهو سينتقم من أبناء الشرير " الله يخزن إثمة لبنيه؟! ليجاز نفسه / أيوب ٢١ / ١٩ - ٢١ ".

هكذا نلاحظ أن كاتب سفر أيوب لم يكن يعلم بظهور العقيدة الأخروية في أفق الديانة اليهودية، ولم يكن موضوع الحياة الآخرة والثواب والعقاب قد ظهر بعد، بل أن أصدقائه الذين أخذوا دور الدفاع عن يهوه لم يخطر ذلك ببالهم، فهم جميعاً يعتقدون أن الموت هو نهاية كل شيء، نهاية السعادة ونهاية الأحزان « أما الرجل فيموت ويبلى الإنسان، يسلم الروح، فأين هو الإنسان؟ يضطجع ولا يقوم، لا يستيقظون حتى لا تبقى السماوات، ولا ينتبهون من نومهم ١٤ / ١٠ ، ١٢ ».

وتتعالى النعمة فإذا كان الله هو القدير وهو المقدر لكل شيء، فهو إذن مصدر كل الأفعال، لأنه « عنده العز والفهم، له المضل والمضل / أيوب ١٦/٢ » **ويعلم سلفاً ما سيحدث، ويعلم نتيجة امتحانه لعباده فلماذا يمتحنهم بالبلاء؟**

وينتهي الكتاب الحقيقي لأيوب بكلمات صارمة تؤكد أن أيوب كان محقاً « فكف الرجال الثلاثة عن مجاوبة أيوب لكونه كان باراً في عينى نفسه / أيوب ٣٢ / ١ ». لكن لتبدأ مداخلات أخرى من شخص تقليدى يستكمل السفر لصالح يهوه، فيقول إن يهوه جاء بنفسه ليؤازر المدافعين الثلاثة ويلقى خطبة طويلة ضد إلحاد أيوب (الإصحاحات من ٣٨ إلى ٤١)، وأنه ليس بحاجة لتبرير سلوكه مع عباده ولا يحق لعبد الاعتراض (أيوب ٣٩ / ٣٢)، وهنا يعترف أيوب بهزيمة منطقته أمام منطق الإله ويعلن توبته، وينتهي الكتاب بأن أيوب بعد رجوعه إلى الله وندمه عن فلسفته الهرطقة كافأ أيوب بعودة ثروته وولادة أبناء جدد له وأنه أمد في عمره حتى عاش ١٤٠ سنة (الإصحاح ٤٢)، وهكذا انتصرت قوة يهوه الغشوم على منطق وحق أيوب.

وهكذا ثم تشذّب كتاب أيوب في الأعداد (٨/٢٧ - ١٠ و ٢٣/١٣) على يد أيوب مزيّف، ليعلن أن الشرير ينتظره عقاب شديد من الله رغم كل إدانة أيوب الحقيقي طوال الكتاب لربه الذي لا يميز ولا يقدر، وهو ما يوضح أيضاً أن العددين (١٦/٢١ و ٢٢/٢١) إضافات لا حقة، بحيث تم تقديم شكوك أيوب في عدالة يهوه كضعف مؤقت اعترى أيوب المعذب لكنه تجاوز ذلك بالتوبة فغفر له يهوه.

وهناك كتاب آخر لا يقل تنديداً بيهوه ونقداً مريراً للعقيدة اليهودية هو كتاب الجامعة، والجامعة لقب عبرى في الأصل (كولهيت) أى المبشر أو الداعية، وقد نعت بهذا النعت سليمان بن داود، وبذلك تمت نسبة الكتاب إلى سليمان في الزمن الماضى البعيد وهكذا أمكن لمؤلف الكتاب الاجترار بنسبة كلامه إلى أشهر ملوك إسرائيل القديمة طراً. لكن التحليل النقدي للكتاب يثبت أنه يقع ضمن آخر أدبيات العهد القديم، ولم يكتب على الإطلاق قبل القرن الثالث قبل الميلاد، وأفكاره تكاد تتطابق مع أفكار كتاب أيوب، حتى أنه يكرر نفس المقاطع حرفياً (الجامعة ٥ / ١٤ وأيوب ١ / ٢١، والجامعة ٣/٦ - ٥ وأيوب ٣ / ١١ - ١٣ .. إلخ). ويعلم المؤلف موقفه صريحاً يقول:

يوجد باطل يجرى على الأرض، إن يوجد صديقون يصيبهم
مثل عمل الأشرار، ويوجد أشرار يصيبهم مثل عمل
الصديقين، فقلت أن هذا أيضاً باطل

جامعة ٨ / ١٤

وقد يكون بار يبيد في بره، وقد يكون شرير يطول في شره

جامعة ٧ / ١٥

وأن شر الموت يطل الجميع الصالح والطالح، بل ويصف موقف يهوه بإماتة الجميع بحيث يكون الموت نهاية الطيب والخبيث، بأنه موقف من أشر ما يعمله أحد تحت الشمس

حادثة واحدة للصديق وللشرير، للصالح وللطاهر والنجس،
للذابح وللذى لا يذبح، كالصالح الخاطيء، الحالف كالذى يخاف
الحلف، هذا أشر كل ما عمل تحت الشمس !!

جامعة ٩ / ٢ ، ٣

وكل شيء عنده باطل حتى يهوه وديانته ويردد مراراً أن الكل « باطل الأباطيل ». وإذا كان ذلك كذلك فلماذا السعى في الحياة ولماذا اقتناء ثروات بعدها موت، وما الحكمة إذن في خلق الناس؟ ولماذا الحكمة أصلاً

في كثرة الحكمة كثرة الغم، والذي يزيد علما يزيد حزنا

جامعة ١ / ١٨

والفكرة الساذجة بأن الميت الطيب يترك ذكرى طيبة فكرة مضحكة
لأنه ليس ذكر للحكيم ولا للجاهل إلى الأبد، كما منذ زمان
كذلك الأيام الآتية، الكل ينسى

جامعة ٢ / ١٦

لذلك

الكلب الحي خير من الأسد الميت، لأن الأحياء يعلمون أنهم
سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئا وليس لهم أجر بعد لأن
ذكرهم نسي

جامعة ٤ / ٩ ، ٥

ويسخر ملحد كتاب الجامعة من نداء " إخشى الله / ٥ / ٧ "، لأن الله لا يقدر الورع والتقوى، ويتبع
ذلك بسخرية مرة مناديا " لاتكن بارا كثيرا ولا تكن حكيما بزيادة "، ثم يعلن عدم احترامه للصلوات والندور
(جامعة ٥ / ١ ، ٢) لأن الله في السماوات ونحن في الأرض والله فيما يبدو يترفع عن الاهتمام بمتابعة سلوك
كل منا (جامعة ١ / ٤ و ٢٤ / ٩).

لكن داخل هذا الكتاب، وبين سطورهِ التي ينز منها التشكيك والإلحاد الحزين الناقم، تتدخل يد أخرى
مجهولة بدورها لتضع تأكيدات مخالفة تماما لسياق النصوص وهدفها، فنجدها تقول " سيكون خيرا للأتقياء
ولا يكون خيرا للشرير / جامعة ٨ / ١٢ ، ١٣ ". ويظهر تأخر هذا التدخل إلى ما بعد ظهور فكرة الدينونة
والحساب مأخوذة عن مصر، فالجامعة الذي يؤكد طول الوقت على عدم العدل بالموت للجميع يقول فجأة بقلم
المحرر التالي أنه " سيجلب الإله جميع الناس إلى الدينونة / جامعة ١١ / ٢ ".

ومن ثم كشف كتاب أيوب وكتاب الجامعة مأزق الديانة اليهودية بعد الأسر الذي ظل يصر على
مجازاة الإنسان في حياته حسب أفعاله، وباتت الضرورة ماسه للاستسلام للعقيدة المصرية في البعث
والحساب ثم الجزاء بثواب أو عقاب، وقد برز ذلك متجليا عند نبي آخر مشهور هو النبي دانيال، الذي له
علاقة مجهولة بمدينة الإسكندرية التي كانت تموج بالفلسفة المصرية واليونانية، حتى نرى اليوم بالاسكندرية
شارعا هاما يحمل حتى اليوم اسم شارع النبي دانيال، فهل كان صاحب كتاب دانيال مصرياً من الأصل؟ المهم
أن الكتاب قد اضطلع بمهمة كبرى بمحاولته الإجابة على سؤال الأتقياء التعساء: هل من العدل أن تظل
تضحياتهم بلا ثواب؟ لقد رأى دانيال أو المؤلف أيا كان اسمه الحقيقي أنه بالإمكان الحصول على المكافأة من
بعد الموت، وبدأ يشرق في سماء اليهودية تعليم جديد حول قيامة الموتى والثواب الأبدى.

وعند دراستنا لكتاب دانيال سنكتشف أن دانيال شغل مناصب هامة في بلاط ملوك وثنيين (! من ؟)
لكنه حافظ على عبادة يهوه وتقواه، كما ارتكب دانيال أخطاء فادحة تدل على جهله بتاريخ قومه إن كان
منهم، ورغم ذلك اجترأ الكهنة على نسبة دانيال إلى الشعب اليهودي، ثم نسبته هو وكتابه إلى القرن السادس
قبل الميلاد، وأنه كان يعيش في الأسر البابلي، رغم ما يفصح به الكتاب عن كونه قد كتب في القرن الثاني
قبل الميلاد، وليس قبل ذلك.

يحكي دانيال المزعم عن أحداث جرت في الماضي وأحداث ستجرى في المستقبل لإثبات نبوته، لكنه
يكشف عن جهل وخطأ فيما وصله من معلومات، فأى شخص عاش في القرن السادس كان يعلم أن نبوخذ
نصر الكلداني البابلي قد احتل يهوذا بعد موت ملكها يهوياقيم سنة ٥٩٧ ق.م وسبى يهوياكين بن يهوياقيم
(ملوك ثاني ٢٤ / ٦ ، ١٢) لكن مؤلفنا هنا يرتكب خطأ فاضحا فيؤكد أن نبوخذ نصر قد احتل أورشليم
وسبى الملك يهوياقيم وليس ولده يهوياكين (دانيال ١ / ١)، ثم يذكر اثنين من ملوك بابل هما نبوخذ نصر
وولده بيلشاصر آخر ملوك بابل (دانيال ٥ / ٢ ، ١١)، الذي حكم بعده دار يوش المادي (دانيال ٥ / ٣١)، لكن
بيلشاصر أبدا لم يكن ولدا لنبوخذ نصر، كما أن الذي حكم تاريخيا بعد نبوخذ نصر أويل مردوك وتشهد بذلك
سفر (ملوك ثاني ٢٥ / ٢٧ - ٢٣ وإرميا ٥٢ / ٣)، ثم حكم بعده ملكان وكان الثاني هو نابونيد ولم يكن من

يكن من الأسرة المالكة بل مغتصب للعرش، ونابونيد أنجب في النهاية بيلشاصر لكنه لم يعزل كرسى العرش قط، لأن مملكته سقطت على يد كورش الفارسي.

ويقول دانيال إنه بعد موت بيلشاصر احتل مملكته دار يوش (دانيال ٥ / ٣٠) وهو عنده ابن أحشويروش من نسل الماديين / دانيال ٩ / ١، لكن الألواح المسمارية تشهد أن قورش الفارسي وليس دار يوش الميدي هو من احتل بابل سنة ٥٣٩ ق.م. ولو كان يقصد دار يوشا فارسيا فقد وجد بالفعل، لكنه كان دار يوش الأول ابن ويشتا سب، لكنه لم يحكم إلا بعد قمبيز بن قورش.

لذلك نجد من الصعوبة بمكان تصور أن دانيال عاش في القرن السادس. خاصة أن رواية دانيال للأحداث تصبح أكثر انضباطا مع حوادث التاريخ بشكل تدريجي، كلما اقتربت روايته من القرن الثاني قبل الميلاد في عصر أنطيوخس، ذلك العصر الذي يحتاج إطلالة سريعة عليه حتى نفهم كتاب دانيال. وقبل ذلك نعود إلى زمن داريوش الأول، عندما دفع جيوشه نحو المدن اليونانية الغنية بتركيا حيث هُزم هناك في معركة مارثون عام ٤٩٠ ق.م. مما دفعه إلى تعويض ذلك بفتح زينة زمانها مصر، وكان سقوط مصر العظيمة إشارة خطر كبيرى لليونان وبدأت حقبة من الحروب بين فارس واليونان امتدت حوالي خمسين عاما، وفي النصف الثاني من القرن الرابع ق.م انتقل المقدونيون بعد توحيد بلاد اليونان من الدفاع إلى الهجوم.

وفي ٣٣٠ قتل داريوش الثالث إبان هربه من الجيوش اليونانية التي احتلت بلاده نفسها بقيادة الاسكندر الأكبر المقدوني، الذي أقام أكبر إمبراطورية في العالم حتى زمنه، فملك من البحر الأيوني حتى حوض نهر السند، ومن ليبيا حتى بحر قزوين. وما كان بالإمكان السيطرة على هذه الأصقاع الشاسعة، لذلك وبموت الاسكندر عام ٣٢٣ تفجرت الإمبراطورية شظايا مثلت كل شظية دولة مستقلة، ووضع قادة الاسكندر كل منهم يده على واحدة منها وأعلن نفسه ملكا عليها. بطليموس على مصر، وسلوقس على بلاد الشام وأنتيجونس على اليونان، وكانت ضمن أملاكه في البداية من سوريا حتى الهند. ومرة أخرى وجدت يهودا نفسها بين جارين جبارين مصر البطلمية وسوريا السلوقية، اللذان كانا دائما الشقاق على الثمرة الفلسطينية.

في البداية وقعت فلسطين وفينيقيا وسوريا الجنوبية تحت السيطرة البطلمية المصرية، لكن الملك السلوقي أنطيوخس الثالث تمكن في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد من انتزاع تلك المناطق لسوريا، وبعد موته ورث سلطاتها ابنه أنطيوخس الرابع أبيفان (١٧٥ - ١٦٤ ق.م).

وفي عهد أنطيوخس أبيفان قامت يهودا بثورة ضد الاحتلال اليوناني وضد السلطات اليهودية المدنية والكهنتية من ذوى العلية الذين حالفوا اليونان المحتلين، وذلك في عام ١٦٧ تحت قيادة الإخوة (حشمون) الذين برز منهم القائد يهوذا مكابي أى المطرقة، وتمكن يهوذا المكابي من طرد المحتلين وحصلت على الاستقلال ورضيت بحكم الكهنة الحشمونيين.

وكانت حملة الإسكندر فاتحة حقبة تاريخية تسمى بالهلينستية في العالم القديم، وانتشر تأثيرها اليوناني في أشكال المجتمع والاقتصاد والعبادات والعادات والتقاليد يجتازها البلاد المستعمرة من اليونان بما فيها يهوذا، وكان تأثير الثقافة اليونانية أعلى على الطبقة الأعلى.

ووصل التأثير إلى حد أن مينيلاوس الكاهن الأول ليهوه في اورشليم، تبرع بالأواني الذهبية المقدسة لإقامة ألعاب مقدسة للإله هرقل، وفرض أنطيوخس عبادة زيوس اليوناني، واستبدل مذبح يهوه بتمثال لزيوس في ١٦٨ ق.م، ومنع تقريب القرابين ليهوه وعاقب الملتزمين بالسبت والأعياد والختان. وتعرض المتقنون للتعذيب والموت، فهرب اليهود الغاضبون إلى الصحراء وتجمعوا في فصائل بقيادة يهوذا المكابي الذي رفع السلاح للنضال، بينما كان هناك فريق آخر يحمل اسم الحاشيدي أى الوريين يرون أن الثورة المسلحة غير مجدية لأن يهوه سيأتى بذاته لتحرير شعبه، وكانت تلك بداية فكرة مجئ الإله من السماء، التي تجلت في العقيدة المسيحية من بعد. المهم أن المكابي استقل بيهوذا ولو فترة عن الاحتلال اليوناني.

وفي هذا الزمن يلمح دانيال في المقطع (٤٠/١١ - ٤٣) ملك الشمال الوقح المستكبر - على حد وصفه له - أنطيوخس الرابع يتجه جنوبا، فيتنبأ بأنه سوف ينهب كنوز البلاد ويحتل مصر، ولكن التاريخ كان له رأى آخر إذ لم يحقق لدانيال نبوءته.

كما تتبأ دانيال لملك الشمال هذا أنه سيموت بين البحور وبين جبل بهاء القدس أى جبل صهيون (دانيال ٤٥/١١)، ومرة أخرى يرى التاريخ رأيا آخر إذ يموت أنطيوخس الرابع فى طريق عودته من إيران عام ١٦٤ ق.م.

إذن فكتاب دانيال لم يُكتب فى القرن السادس فى الأسر البابلى، إنما فى فلسطين فى القرن الثانى قبل الميلاد، وبالتحديد ليس قبل عام ١٦٨ ق.م، لأن ذلك هو العام الذى نصب فيه تمثال زيوس فى معبد أورشليم. لكن المرجح أن دانيال انتهى من كتابته قبل عام ١٦٤ ق.م والسبب أن المؤلف أيا كان اسمه، دانيال أو غيره، لم يكن يعلم بموت أنطيوخس الرابع بعيداً عن فلسطين فطاشت نبوءته، ومما يؤكد ذلك أن كتاب دانيال لم ترد بشأنه أية إشارات بالكتاب المقدس أو غيره خلال القرون الأربعة السابقة على القرن الثانى قبل الميلاد، بل كان مجهولاً لمحررى تلك الفترة تماماً.

وتبريراً لذلك احتاط المؤلف الأريب فقال إن دانيال بعد تدوين كتابه أمره يهوه أن يخفيه إلى زمن تم تحديده بأنه " وقت النهاية "، وأن زمن ظهور هذا الكتاب - أى القرن الثانى قبل الميلاد - سيكون بشارة ودليلاً على أن نهاية زمن الآلام قد اقتربت.

ويكشف التحليل اللغوى لكتاب دانيال أنه قد كتب باللغتين العبرية والآرامية من الإصحاح ٤/٢ وحتى الإصحاح ٧، وهى سمة القرن الثانى قبل الميلاد وليس قبل ذلك. كذلك هناك أسماء يونانية واضحة لجميع الآلات الموسيقية مثل بيسانطرين وكاتروس وسيمفونيا، إضافة إلى أنه قد أورد طقوساً وأفكاراً يهودية هى فقط من سمات اليهودية المتأخرة، كالصلاة فى ساعات محددة ثلاث مرات فى اليوم، والتوجه إلى قبلة هى أورشليم (١٠/٦) وطقوس تناول الطعام (٨/١).

إن كتاب دانيال وفق هذا التحليل يكون قد كتب بالضبط ما بين عامى ١٦٨ و ١٦٤ ق.م إبان الاضطهاد الدينى الذى أمر به أنطيوخس أبيفان، ومن هنا قسم دانيال المؤمنين إلى صنفين أو إلى فريقين: المتقين الصامدين ضد الاضطهاد، و " الفاهمون من الشعب ٣٣/١١ " وهم الأرقى، ويشرح الفاهمين أنه حين تأتى القيامة للأموات فإن " الفاهمين يضيئون كضيء الجلد كالكوكب إلى أبد الدهور / دانيال ٣/١٢ ".

ويبدو أن هؤلاء الفاهمين فى نظره كانوا حزب الحاشيدى، ويدعم ذلك أن مؤلف كتاب دانيال انتظر تدخل يهوه ولم يشارك فى ثورة المكابيين، ولم يبق وقت كثير لصمود المضطهدين المحافظين على دينهم رغم التعذيب، فمن لحظة إزالة المذبح وإقامة التمثال الرجس لزيوس مكانه لم يبق سوى وقت قصير

من وقت إزالة المحرقة الدائمة وإقامة رجس المخرب ألف
ومائتان وتسعون يوماً. طوبى لمن ينتظر ويبلغ إلى الألف
والثلاث مئة والخمسة والثلاثين يوماً

دانيال ١١/١٢ - ١٢

وليس مفهوماً وضع ميعادين مختلفين لمجئ الخلاص، لكن يبدو أنها إضافة تمديدية للزمن من كاتب آخر بعد انتهاء الموعد الذى حدده دانيال ولم يأت يوم الخلاص.

ولأول مرة يظهر اسم الملاك حامل الوحي، فهو جبريل الذى جاء يقول لدانيال أنه من لحظة الأمر بتجديد أورشليم وبنائها إلى ظهور مسيح يهوه الآتى سبعة أسابيع واثنين وستون إسبوعاً (دانيال ٩/٢)، وهنا لا يفوت اللاهوت المسيحى بعد ذلك هذه الفرصة، ويقترح أن دانيال كان يتتبأ بذلك بمقدم يسوع بأزمنة رمزية يجب تأويل فهمها. بينما كان دانيال يتابع شارحاً أن خطأ إرميا فى تحديد سنوات السبى بسبعين سنة بدلاً من ٤٩ سنة ليس خطأ، لأنه حسب سبعين سنة حتى مجئ المخلص ملك إسرائيل ونسل داود الذى سيمسح بالزيت المقدس مسيحاً ملكاً.

بالحسبة الرقمية العبرية ٤٩ سنة أسراً تساوى سبع أسابيع من السنوات ٧ × ٧ = ٤٩ وهكذا كان إرميا يعنى بالسنوات (أسابيع السنوات) أى أن الحسبة هى ٤٩ سنة، هى المدة التى حددها يهوه حتى يُكفر شعب الرب بالآلام عن آثامه ويخرج طاهراً ومستقلاً عن حكم الوثنيين.

وعليه أولاً يجب بدء العد من لحظة الأسر تسعاً وأربعين عاماً لنجده زمن زربابل آخر نسل داود المعروفين فى زمنه، لقد كان دانيال يقصد المسيح زربابل وليس المسيح يسوع.

وقد علمنا أنه قد تم تنصيب زيوس بدلاً من يهوه في معبد أورشليم في ١٥ يناير ١٦٨ ق.م، وهو ما بصوره لنا سفر ملوك ثاني قائلا: " فاشتد انفجار الشر وعظم على الجماهير وامتأ الهيكل عهرا وقصوفا، وأخذ الأمم يفسقون بالمأبوينين ويضاجعون النساء في الدور المقدسة، ويدخلون إليها ما لا يحل، وكان المذبح مغطى بالمحارم التي نهت الشريعة عنها ٣/٦ - ٥ . ويوم تنصيب زيوس بحسابات دانيال يوافق عام ١٧١ ق.م .

وبهروب زربابل إلى بابل نظر دانيال إلى الكاهن عونيا الثالث ورأى فيه المسيح الجديد، وهو ما دفع إلى الوشاية به من البعض وهلك، وهو ما يصوره في (٩ / ٢٧) عن المسيح الشهيد ومداخلة إرميا الخاطئة حول السنوات السبعين دفعت دانيال لمحاولة التبرير إذن، فقام يقول أن ٤٩ عاما في الأسر كانت الأسبوع الأول من الأسابيع السبعين، وموعد مملكة يهوه ومسح الملك القدوس، وذهب اللاهوت المسيحي بعد ذلك وراء سحر الأرقام المغلوطة ليؤكد أن مقدم يسوع تم التنبؤ به سلفا قبل خمسة قرون من حدوثه عند دانيال.

أما القسم السردي فيشرح ما وقع من عقوبات على شعب الرب.

وفي هذا الوقت جرت احتمالات كثيرة منها أن مصر قد تتمكن من استجماع قواها لتحطيم عدوها وربما تتدخل روما الناهضة الناشطة في المنطقة، وربما تحدث متغيرات عنيفة في المملكة السلوقية بسوريا، ومن ثم كان المطلوب من الشعب المختار أن يصبر ويظل أمد الصمود أمام اضطهاد أنطيوخس أبيفان، رغم أنه لم تحدث أية مطاردات للعقيدة اليهودية في بابل حيث يزعم المؤلف أنه قد تم تأليف الكتاب هناك.

ولكن حتى يلتقى ما يحكى دانيال، مع مرسوم أبيفان بعبادة زيوس والملك أنطيوخس أبيفان نفسه، فقد قام دانيال بتأليف مرسومين نسب أحدهما إلى نبوخذ نصر (الإصحاح الثالث) والآخر إلى دار يوش الأول (الإصحاح السادس)، بينما الحقيقة تؤكد أنه لم يوجد في التاريخ إطلاقا مثل هذين المرسومين المخترعين. وأن ما تتجلى به صورة هذين الإصحاحين من تصفيات وحشية للمؤمنين لم تحدث قط قبل حكم أنطيوخس أبيفان، ولم ير دانيال بأسا في سرد بعض التفاصيل الملحمية كالقاء دانيال وأصدقائه الثلاثة في النار ومع ذلك رفضوا السجود للصنم، ثم كيف ألقى دانيال إلى حفرة ملأى بالأسود الجائعة.

وكي يعطى مؤلف هذا الكتاب مصداقية فقد لجأ إلى كتابي عزرا ونحميا حيث قوائم أسماء كاملة لمن عادوا من الأسر البابلي وانتقى منها اسم (دانيال) الوارد في عزرا ٢/٨.

وإذا كان اليهود قد أطلقوا على أنطيوخس أبيفان لقب المجنون، فقد عمد دانيال إلى سرد روايات وأساطير تثبت أن نبوخذ نصر كان هو المجنون حتى يكون زمنه زمن تأليف الكتاب، أما الحادث في القرن الثاني قبل الميلاد أن اليونان أنفسهم قد قاموا يسجعونه على وزن أبيفان لقب يبيمان أى المجنون سخرية من هذا الملك « الإله الجديد » .

لكن ما يحسب لدانيال المزعم أنه أول من أدخل فكرة واضحة عن قيامة الموتى وحسابهم ثم ثوابهم الأبدى، لكن لم يوصلها إلى آخرها فلن يقوم الجميع بل البعض

كثيرون من الرافدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء
إلى الحياة الأبدية هؤلاء إلى العار، للزدرء الأبدى

دانيال ٢/١٢

وهكذا وجد الحل الأمثل لتبرئة يهوه الذي سيعطى كل ذى حق حقه عند حلول ذلك اليوم لكن يجب ألا نتصور أن دانيال فعل فعل المصريين بتمامه فتصور مملكة القديسين الخالدة خارج الأرض، لأنها عند دانيال يجب أن تحدث على الأرض وبشكل واقعي في قيامة جسدية، وأن كل هذا سيحدث لقيام مملكة شعب الرب في أرض فلسطين لا في جنة سماوية أو تحت أرضية. ولم تبلغ هذه الفكرة تطورها الآتى إلا مع أسفار الأبوكريفا غير المعتمدة في الكنيسة الأرثوذكسية، ثم بعد ذلك مع مجيئ الدعوة المسيحية، ليستقيم عودها وتكتمل صورتها بعد المسيحية بستة قرون في بلاد العرب مع ظهور العقيدة الإسلامية. حيث أمكن تبرئة الإله نهائيا مما يحدث من كوارث لعباده المخلصين.

مصر والتوراة

علاقة القبيلة الإسرائيلية ببلاد مصر علاقة وطيدة تلمسها بطول الكتاب المقدس / العهد القديم وعرضه، هناك مصر دوماً وباستمرار. ويحكى المقدس التوراتى أن أول علاقة للقبيلة العبرية بمصر قد حدثت فى زمن أول البطارقة وأبيهم، ذلك الذى عرفه التاريخ باسم أبى الكثرة أو أبى الرهام أو إبراهيم. كناية عن وصف الكتاب المقدس لنسله الآتى بأنه كرمال الصحراء ومياه البحر، رغم أنه لم ينبج إلا بعد أن بلغ من عمره عتياً.

ولنبداً الحكاية التوراتية من البداية . .

يأتى البطرك إبراهيم إلى فلسطين غرباً من بلاد بعيدة، يقول المقدس مرة أنها أور الكلدانيين، ومرة أنها بلاد حاران داخل الحدود التركية الآن شمالى بلاد الشام الأقصى، وقد انتهينا فى كتابنا النبى إبراهيم والتاريخ المجهول إلى قدمه من منطقة أرمينيا الحالية، وأن وصف التوراة لسلف القبيلة الإسرائيلية بأنه كان أرامياً " أرامياً تائهاً كان أبى " كان يعنى بلاد أرمينيا الحالية تحديداً.

وعند وصول إبراهيم إلى فلسطين كان يعيش إلى جوار أهلها الكنعانيين أقواماً أخرى، منهم الفلسطينيون القادمين من جزر البحر المتوسط، والحيثيين القادمين من تركيا، مع عدد آخر من العروق البشرية دونتها التوراة بتكرار مفصل.

ومن البداية تظهر مصر فى تاريخ التوراة فتحكى التوراة أنه قد حدثت فى فلسطين مواسم من الجفاف دفعت بإبراهيم لنزول مصر هرباً من المجاعة. والغريب أن إبراهيم فى تلك الرحلة يتمكن من الاقتراب من القصر الملكى المصرى عن طريق ملاحه زوجته سارة وجمالها، ثم يخرج من مصر بأموال جزيلة أهداها له الفرعون، لكن المقدس لا يعلمنا بمن كان هذا الفرعون ولا باسمه ولا فى أى مدينة كان يعيش، ولا السر وراء اهتمامه بهذا الراعى البسيط سوى حكاية سارة غير المقبولة.

ويعود إبراهيم إلى فلسطين ثرياً موسراً، يعيش جنوبها ينتقل بين مدائن الجنوب أو النقب، يعيش حياة البداوة فى الخيام مع سوائمه التى ترعى وتتحرك ويتحرك معها وراء الكلاً.

وينجب إبراهيم من سريته المصرية هاجر ولده إسماعيل، لكن السياسة الأيديولوجية التأسيسية للكتاب المقدس تستبعد إسماعيل من التركة المقدسة، لأن إبراهيم قد أنجب ولداً حراً من زوجته سارة هو إسحق. وينجب إسحق: عيسو ويعقوب، ومرة أخرى تتم التصفية والغربة فيستبعد عيسو السلف البعيد للشعب الآدمى ليقبى يعقوب وحده فى المصفاة، ويحمل يعقوب اسم إسرائيل فى شبابه، وينجب اثنى عشر ولداً أو سبطاً. ومع الأسباط يعود ذكر مصر مرة أخرى، فقد حنق الأسباط المكرمين على أخيهام الحلو الصغير يوسف، لما تميز به عند أبيه يعقوب من حظوة، ومن هنا يتآمرون على الصغير المليح ويلقونه فى بئر جاف، فتلتقطه قافلة تجار وتبيعه فى مصر. وفى مصر يشتريه (فوطى فار) رئيس الجند أو " .. رئيس الشرط "،

وهو اسم مصرى قح (بـادى بارع) أى (من يعطيه رع)، و(رع) هو رب الشمس المصرى ورب الدولة.

ويرتفع شأن يوسف فى مصر زمن مجاعة نجت منها مصر بالحكمة اليوسفية، ويرتقى سدة الوزارة العظمى آنذاك وهى وزارة الخزانة أو المالية، وكان تولية شئون مصر الاقتصادية مدعاة لدخول متغيرات جوهرية على أنظمة مصر الاقتصادية، ومن ثم الاجتماعية. فبعد أن كان الناس يعيشون أحراراً يملكون أرضهم ويتعبدون لمن شاءوا بين مئات الآلهة، ليس لملكهم عليهم سوى سلطان مركزية الدولة ومصالحها، يقول المقدس:

اشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله، لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون . . فقال يوسف للشعب: إني اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، فقالوا أحييتنا ليتنا نجد نعمة فى عينى سيدي، فنكون عبيداً لفرعون، فجعلها يوسف فرضا على أرض مصر إلى هذا اليوم.

تكوين ٢٨/٢٠ - ٢٦

ويستدعى يوسف أهله ليقبوا معه فى مصر " وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً / تكوين ٢٧/٤٧ ."

وهذه أسماء بنى إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر، مع يعقوب جاء كل إنسان وبيته. رؤبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالى وأشير. وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً، ولكن يوسف كان فى مصر، ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً، امتلأت الأرض منهم. ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه: هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتى مخازن: فيثوم ورعمسيس

خروج ١ / ١١

وكثيراً ما أثار دهشة الباحثين تعبير التوراة أن السبعين شخصاً الذين دخلوا مصر قد صاروا أكثر عدداً من المصريين أنفسهم، ويعطى سفر التكوين صورة هائلة لعدد هؤلاء عندما خرجوا من مصر تحت قيادة موسى " فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد / خروج ٣٧/١٢ ". وبحسبة بسيطة تضع الأولاد والنساء في التعداد سجد الخارجين لا يقلون بحال عن المليونين من البشر، هذا ناهيك عن زيادة أخرى على هذا الرقم، لأنه " **صعد معهم لفيف كثير أيضاً** "، ولا نعلم من هم هؤلاء اللفيف (سيأتي الحديث عنهم في موضعه من هذا الكتاب)، لكنهم على أية حال كانوا زيادة عددية أخرى.

ويطرح السؤال نفسه: كم قضى هؤلاء من الزمن في مصر حتى يبلغوا هذا العدد الهائل، وتأتي الإجابة " وأما إقامة بنى إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمئة وثلاثين سنة / خروج ١٢ / ٤٠ " لكن الأغرب والأكثر تناقضاً في هذه الرواية أن الإسرائيليين منذ دخولهم أسباطاً زمن شقيقهم يوسف إلى زمن خروجهم لم يستغرقوا سوى أربعة أجيال فقط. حيث تروى التوراة إن لاوى شقيق يوسف أنجب قهات، وأن قهات قد أنجب عمران، وأن عمران قد أنجب موسى الذى خرج بهم من مصر (خروج ١٤/٦ - ٢٠) فقط، وهكذا؟! أربعة أجيال عاشت أربعة قرون وثلث القرن، بل وأنجب هؤلاء الأربعة الملايين من البشر !! لكن في موضع آخر نجد المقدس يحيطنا علماً أن فترة إقامتهم في مصر لم تتجاوز حياة جيل واحد، وهو لم يصرح بذلك لكنه ما يفهم مما سجله، ففي سنوات يوسف الأخيرة يشهد يوسف ولادة أولاد أحفاده " وأولاد ماكير بن منسى [ابن يوسف] أيضاً ولدوا على ركبتى يوسف / تكوين ٢٣/٥٠ " ثم نرى أولاد ماكير أبناء حفيد يوسف (لأن ماكير بن منسى بن يوسف) يخرجون مع موسى من مصر إلى فلسطين (يشوع ٣/١٣ و ١/١٧)، وهو ما يعنى أن المدة الفاصلة بين دخول مصر والخروج منها لم تتجاوز المئة عام، لأن الذين ولدوا في مصر في حياة يوسف هم من خرجوا من مصر مع موسى وهم من دخلوا فلسطين مع يشوع خليفة موسى.

وما أكثر المدهشات بالكتاب المقدس لكن أكثرها إدهاشاً ما تعلق منها بقصة موسى الذى قاد بنى إسرائيل في رحلة خروج كبرى عبر سيناء إلى فلسطين، فقد هرب هؤلاء من تسخير وعبودية مصر ومعهم مواشى وأغنام كثيرة (خروج ٣٨/١٢)، الأمر الذى يتناقض والأوضاع المعلومة للعبيد.

والفرعون حسب التوراة قد خشى من الكثرة العددية للمستعبدين لديه في بناء مدينتيه الكبيرتين فيثوم أو بالمصرية بى توم أى مقر الإله آتوم، ورعمسيس / مدينة رمسيس، لذلك أمر الفرعون بقتل من يولد لبنى إسرائيل من الذكور " كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها / خروج ٢٢/١ ". وفي هذا الظرف العصيب ...

ذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى، فحبلت المرأة وولدت ابناً، ولما رأته أنه حسن خبائه ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت له سبطاً من البردى وطأته

بالحمر والزفت، ووضعت الولد فيه ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به؟ فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريتها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحت رأت الولد وإذا هو صبي يبكي فرقت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وارضعيه لى وأنا أعطيك أجرتك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة الفرعون فصار لها ابناً، ودعت اسمه موسى وقالت: إنى انتشلته من الماء.

خروج ٢ / ١ - ١٠

لكن موسى حسب رواية التوراة بعدما يفع واجتاز مرحلة الصبى إلى الرجولة لم ينس أصله رغم أنه قد أصبح أحد نبلاء البلاط، فقتل مصرياً انتصاراً لإسرائيل، فطلبه القصاص القانونى، فهرب من مصر إلى مكان تصفه التوراة بأنه " أرض مديان / خروج ٢ / ١٥"، ويبدو أنها كانت أرضاً صحراوية لأن موسى عندما ذهب هناك " جلس عند البئر / خروج ٢ / ١٥". ويبدو أنها كانت قرب مخرج مصر حيث لا تفاصيل بالتوراة عن رحلة طويلة لموسى حتى مديان.

والتقى موسى ببعض غيد مديان عند البئر فاستقى لهن بشهامة، فذهبن وأخبرن أبيهن " فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة وأنه استقى لنا / خروج ٢ / ١٩"، ولحسن حظ موسى كان أبوهن كبيراً من وجهاء مديان، فهو (رعوثيل) أو (يثرון) سيد وكبير كهنة مديان. وتنتهى أحداث هذا الجزء بالحدث السعيد ويتزوج موسى من صفورة بنت يثرון وينجب منها ولدين هما جرشوم وألغاز.

واشتغل موسى برعى غنم حميه يثرון، وبينما هو مع أغنامه عند سفوح الجبل المقدس المعروف بجبل الله أو جبل حوريب " جبل الله حوريب / خروج ١ / ٣"، رأى ظاهرة عجيبة، نبات مضىء؟ نبات يبدو مشتعل بالنار لكنه لا يحترق؟ واقترب موسى المشدوه بالمشهد لكن ليكتشف أن ذلك الضوء ضوءاً إلهياً مصحوباً بصوت يناديه " لا تقترب إلى ههنا، إخلع حذاءك من رجلك، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسه / خروج ٣ / ٥".

ويتعارف الاثنان، ويقدم هذا الإله نفسه لموسى هكذا: " أنا إله أبائك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب . . رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر . . فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة / خروج ٣ / ٦ - ٨".

ويبدو أن موسى كان يجهل اسم (إيل) رب البطارقة الأوائل المفترض أنهم أسلافه، لذلك سأل الإله عن اسمه وصدق إجابته فوراً في حوار سأل فيه موسى ربه " فإذا قالوا لى ما اسمه فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى: أهيه الذى أهيه . . يهوه إله آبائكم . . هذا اسمى إلى الأبد / خروج ٣ / ١٣ - ١٥ ."

وكانت خطة يهوه هى إخراج بنى إسرائيل من مصر إلى فلسطين بترتيبات إلهية مدعومة بالمعجزات، فأعطى موسى آيات سحرية كالعصا الثعبانية وإضاءة يده إذا أدخلها فى جيبه أو (عَبَّه) بتعبير التوراة. وكانت الخطة هى إيهام الفرعون أن الإسرائيليين بحاجة إلى إقامة احتفال دينى خاص بهم يذبحون فيه حيوانا مقدسا عند المصريين، لذلك فهم بحاجة إلى الابتعاد عن مساكن المصريين " نمضى ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلها / خروج ٣ / ٥ "، وبعد ابتعاد مسيرة ثلاثة أيام فى الصحراء يكونوا قد أصبحوا بعيدين بمسافة كافية، ويمكنهم الاستمرار فى الهرب وهم آمنون من اللصوص بهم. لكن كان عليهم أيضاً بأمر يهوه أن يستعبروا حُلَى المصريين الذهبية زينة للعبد، ثم يفروا بها، أو كما أمر يهوه موسى قائلاً: " وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين، فيكون حينما تمضون لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب ووثيابا، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين / خروج ٣ / ٢١ ، ٢٢ . لكن موسى كانت لديه حجة أخرى جعلته متردداً فى تنفيذ أوامر يهوه وهو أنه ثقيل الفم واللسان، فجعل له يهوه من أخيه هارون ناطقا بما يريد ومبلغاً.

" وقال الرب لموسى فى مديان: اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك / خروج ٤ / ١٩ "، وبموت الفرعون، الذى كان يطلب القصاص من موسى لقتله المصرى، بات موسى آمناً فى العودة إلى مصر. وذهب موسى وهارون فور العودة إلى قصر الفرعون يطلبون منه الارتحال بالمستعبدين فى أعمال المعمار إلى البوادي الشرقية ليذبحوا لإلههم، فرفض الفرعون. لكن يهوه أعلن لشعبه " أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أُنقال المصريين وانقذك من عبوديتهم، وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم إلها / خروج ٦ / ٦ ، ٧ . وهكذا اختار يهوه شعبا خاصا له ليتأله عليه، وحمل هذا الشعب من يومها لقب (الشعب المختار).

ويبدأ يهوه ألامه ليتثبت أنه أشد سحراً من السحرة المصريين، وأنه أقوى من فرعون الذى كان أقوى ملوك العالم، وكان الانتصار عليه انتصاراً عالمياً بل كونياً، مع تركيز غضب يهوه على عصب الحياة والاقتصاد والزراعة المصرى. فيقوم بضرب نهر النيل ليتحول إلى دم، ليضطر المصريون إلى الحياة كالبدو الرعاة بحفر الآبار للشرب كى لا يموتوا عطشا (خروج ٧ / ١٩ - ٢٤) وينشر الضفادع فى بلاد النيل (خروج ٨ / ٥ ، ٦) ثم البعوض (خروج ٨ / ١٦) ثم الذباب (خروج ٨ / ٢٠ - ٢٤) ثم ينشر الوباء بين البشر والسوائم (خروج ٩ / ٣ - ٦) مع دمار وبثور (خروج ٩ / ٨ - ١٠). ثم يسلط ظواهر الطبيعة الرديئة على الوادى الغنى ليفقره، كالبرد الثلجى والنار والرعود (خروج ٩ / ٢٢ - ٢٦)، ويلحق بها الجراد ليقضى على البقية الباقية من خيرها (خروج ١٠ / ١٢ - ١٥)، ثم ينزل بالبلاد جميعها ظلام دامس وقت النهار

(خروج ٢١/١٠ - ٢٣)، حتى تأتي ضربة يهوه العاشرة وهى قتل الصبية المصريين من الأبنكار وكذلك أبكار السوائم أيضاً:

وقال موسى: هكذا يقول الرب: إني نحو منتصف الليل أخرج في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحا؛ وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر

خروج ١١ / ٤ - ٦

وإبان ذلك جميعه، تصرّ دراما الفزع والرعب التوراتي على تأكيد أن المصريين وحدهم هم من عانى تلك الضربات، بينما كان الإسرائيليون يسكنون أرض جاسان في مصر، ولم تصبهم ولا أرض جاسان التي سكنوها أيا من شرور يهوه الكونية تلك. لكن يبدو أن المحرر التوراتي لم ينتبه وهو يؤكد تلك العناية والرعاية من يهوه لشعبه المختار، أنه قد جعل من جاسان حيث يقيم شعبه، مقراً للبلاط الملكي الذي استحق كل هذا الدمار والغضب اليهودي، والذي لاشك لم يلحقه بدوره هذا الدمار لوجوده في مقاطعة جاسان التي لم تصب بأى أذى، ولكن ذلك لم يكن شاغلا للمحرر، فهو متأكد من وجود جاسان بعيداً عن الضربات هو ما أصر المحرر على تأكيده مع كل ضربة يهوية، انظره يقول مثلاً:

أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلى بيوت المصريين ذباناً وأيضاً الأرض التي هم عليها. ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لا يكون هناك ذبان.

خروج ٨ / ٢١ ، ٢٢

فماتت جميع مواشى المصريين وأما مواشى بنى إسرائيل فلم يمُت منها واحد.

خروج ٩ / ٦

فأعطى الرب رعوداً وبرداً وجرت نار على الأرض . . إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد

خروج ٩ / ٢٣ ، ٢٦

ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر . . لكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور في

خروج ١٠ / ٢١ ، ٢٣

ثم يختتم يهوه وعصاته تلك المغامرات المدمرة واللذات الشاذة بإغراق المصريين جميعاً مع فرعونهم وجيوشهم في لجج البحر المفلوق بالعصا السحرية الثعبانية (خروج ١٤).

لكن وسط كل هذا الصخب الأسطوري والضجيج السحري يضع المحرر شروحات جغرافية بينية لحظ سير الخروج، تلتقى إلى حد مدهش مع أوضاع الجغرافيا في شرقي الدلتا المصرية المتصل بالصحارى السينائية. فهناك كان بداية طريق حورس الحربى الكبير المؤدى إلى فلسطين، والمسمى أيضاً طريق فلسطين، لكن يهوه ينحرف بشعبه عن هذا الطريق الأسهل لتحاشى قتال متوقع ويأمر أتباعه بالاتجاه نحو بحر باسم بحرسوف. ومن مدينة باسم (سكوت) - وردت بالوثائق المصرية القديمة أيضاً - يتحركون نحو بادية باسم إيثام في طرف الصحراء، ومن هناك ينزلون على بحر سوف بين ثلاث إحداثيات جغرافية هى: مجدل وبعل صفون وفم الحبروث. وعند نقطة فم الحبروث تفلق العصا الحية البحر ليعبر الإسرائيليون بينما يغرق الفرعون وجنده (خروج ١٣).

والغريب أن الخارجين لم يكتفوا باصطحاب أنعامهم الوفرة، بل حملوا معهم من مصر ذهباً هائل الوفرة، لم يجد له المحرر التوراتى سوى تكرر تفسير يقول: " وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعسيس / خروج ١٢ / ٣٥ - ٣٧ ".

وهكذا يخرج بنو إسرائيل من مصر تحت قيادة موسى فى خط سير جغرافى شديد التدقيق (بالتوراة) يتجهون معه نحو جبل الله حوريب المقدس فى عمق سيناء، ويستغرق رحيلهم سنتين كاملتين حتى يحطوا فى قادش فى أقصى شرقي سيناء، ليعيشوا هناك ثمان وثلاثين عاماً كاملة، ومن قادش تبدأ رحلة غزوهم لفلسطين بعبور الأردن من شرقية عند جبل نبو إلى غربية عند أريحا.

نظريات الخروج

نظرية أن الإسرائيليين هم الهكسوس :

تعد أقدم نظرية طرحت بشأن خروج بنى إسرائيل من مصر، تلك التى تربط بينهم وبين الهكسوس الذين ورد ذكرهم فى الوثائق المصرية القديمة كمحتلين أجنب للبلاد، وتعتبرهم مع بنى إسرائيل شيئاً واحداً، وكان صاحبها هو المؤرخ اليهودى (فلافىوس يوسفيوس / ٣٧ - ١٠٠م)، الذى حصل على تكريم الإمبراطور الرومانى (فيسييان)، وقام بتأليف كتب ثلاثة، هى على الترتيب: (العاديات اليهودية)، ويتناول فيه تاريخ بنى إسرائيل، ثم (الحروب اليهودية)، ويعالج فيه ثورات القبائل الإسرائيلية بفلسطين ضد الحكم الرومانى، أما الثالث - وهو الأهم لموضوعنا - فهو الكتاب الذى وضع فيه نظريته، حول خروج بنى إسرائيل من مصر، وهو الكتاب المعروف بعنوان (ضد آبيون). وقد ألفه رداً على (آبيون النحوى السكندرى) المصرى، الذى كان يبغض الجنس الإسرائيلى ويكن للإسرائيليين كراهية شديدة ومقتا عظيماً، ودون عنهم رواية تقول: إنهم كانوا نوعاً من الأجناس القذرة الدنسة بين بنى البشر، وأنهم عاشوا فى مصر عبيداً دون أن يتعلموا من أهلها قواعد النظافة والتطهر، فأصابتهم علل القذارة، مثل البرص والقراع وما يشوب الجلد من قرح، فلما خشى المصريون تفشى الوباء بينهم، طردوهم من بلادهم، وقادهم فى رحلة خروجهم من مصر إلى فلسطين عبر سيناء، ذلك الشخص المدعو (موسى).

وقد رد (يوسفيوس) على (آبيون النحوى) فى كتابه: (الرد على آبيون)، ليؤكد أن هؤلاء الأجناس الدنسين لم يكونوا سوى الهكسوس، الذين دخلوا مصر بلد آبيون غزاة فاتحين، حكموها كملوك ولم يعيشوا فيها كعبيد، ولم يكونوا أجناساً ولا ملاعين. وقد دعم (يوسفيوس) رده هذا بكلام المؤرخ المصرى (مانيتون السمنودى)، وكان (مانيتو) كاهناً مصرياً، عاش زمن الملك (بطلميوس الثانى) ملك مصر، الذى حكم حوالى ٢٨٣ - ٢٤٦ ق.م، ودون تاريخ بلاده باللغة اليونانية بتكليف من ذلك الملك، ليقدّم للإغريق صورة عن تاريخ مصر.

وقد تمكن (مانيتو) بجهد وحذق، وبمعرفة بلغته بلاده وباللغة الإغريقية، أن يتابع بمهارة نقوش مصر القديمة ومدوناتها الحجرية والبردية، التى كانت قائمة حتى زمانه، وأن يجمع منها تاريخاً متكاملًا لوطنه. هذا إضافة إلى سبع كتب أخرى، جاءنا منها فقط بعض أسمائها، ومنها (تون فيزيكون أبيتومه) وخصصه للالهوت المصرى والقصص الدينى فى التكوين والخلق، وكتاب (فى صنع بخور المعابد)، وكتاب فى التقويم المصرى والتقسيم الزمنى بعنوان (كتاب الشعرى اليمانية سيتوس)، إلا أن الكتاب الذى حاز الشهرة، ونقل عنه المؤرخ اليهودى (يوسفيوس)، ويعد عمله الرئيس، هو كتاب تاريخ مصر (إيجبته ياك)، وهو مصنف فى مجلدات ثلاثة، يغطى المجلد الأول منها تاريخ الأسرات المصرية الحاكمة الأولى، من الملك (ميناء) موحد القطرين

حتى الأسرة الحادية عشرة، ويتناول المجلد الثاني المساحة الزمنية الممتدة ما بين الأسرة الحادية عشرة وبين الأسرة العشرين، ثم يتابع معالجة بقية الأسرات في المجلد الثالث، الذي ينتهي عند حكم آخر ملك مصرى وطنى، وهو الذى أسماه (نيكتا نيبوس).

وقد ألف (مانيتو) كتابه (إيجبته ياكأ) باللغة اليونانية، لكن لسوء الحظ لم تصلنا منه أية نسخة، سوى تلك الشذرات التى نقلها عنه (يوسفوس) فى كتابه (الرد على آبيون)، إضافة إلى ما نقله آخرون مثل (يوليوس الأفريقى / أفريكانوس / ت ٢٢٠ م)، و (سنكلوس / ت ٨٠٠ م) فى كتابه (تاريخ العالم من الخليقة حتى دقلديانوس).

ومن الجدير بالتنويه هنا، أن خبر نجاسة الجنس الإسرائيلى وإصابته بأوبئة عدم النظافة، لم يكن بدعا من (آبيون) المصرى، حيث نجد بعد ذلك حوالى عام ٩٠٠م، ترجمة عربية لكتاب قديم ألفه كاهن كنسى هو (هروشيوش) باسم (تاريخ العالم)، بتكليف من القديس المسيحى (أوغسطين) شخصيا، يقول فيه (هروشيوش) نقلاً عن مؤرخ قديم باسم (قرناليس):

قال قرناليس: اتفقت دواوين أصحاب الأمر، على أنه أصابت القبط [المقصود هنا المصريين / المؤلف] جوائح أفستت أبدانهم، وشوهت أجسامهم، وأن ملكهم بخوريم Boccorim رأى أن يعالج ذلك، بنفى من ظهرت عليه الجائحة، فتجمعت من المنفيين جماعات، كان على رأسهم رجلاً يدعى موسى، حضهم على أن يتخلوا عن الاستنصار بالأوثان، ويتبرأوا من عبادتها، ويفوضوا أمرهم لرب السماء لينصرهم ويشفيهم من دأهم^(١).

والواضح فى تأريخ (هروشيوش)، أنه لا يرى الإسرائيليين جنسا يتميز بذاته، قدر ما يحتسبهم صنفا من المصريين، أصابهم وباء معدى، فنفاهم أهلهم خارج البلاد، تحسبا من انتشار المرض بين بقية المصريين. وفى رده على (آبيون)، يؤكد لنا (يوسفوس) أنه سينقل عن (مانيتو) المصرى بكل أمانه، حتى أنه سينقل ذات الكلمات بالحرف، وهو بصدد ذلك يروى الرواية التالية:

توتيمايوس؛ فى عهده، لسبب لا أعرفه، حلت بنا ضربة الإله، وفجأة، تقدم فى ثقة بالنصر، غزاة من إقليم الشرق، من جنس غامض، إلى أرضنا،

(١) أورسيوس: تاريخ العالم، الترجمة العربية التى تمت فى منتصف القرن الرابع الهجرى، تحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٢، ص ١٠٣.

واستطاعوا بالقوة أن يملكوها بسهولة، دون أن يضربوا ضربة واحدة.

ولما تغلبوا على حكام الأرض، أحرقوا مدننا بغير رحمة، وقوضوا أرض معابد الآلهة، وعاملوا المواطنين بعدوان قاس، فذبحوا بعضهم، وساقوا زوجات آخرين وأطفالهم إلى العبودية، وأخيراً عينوا واحداً منهم ملكاً يدعى **سالاتيس**، وكان مقره ممفيس، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى، وكان يخلف وراءه حاميات فى الأماكن الهامة.

وفى المقاطعة السيتورية، وجد مدينة ذات موقع طيب، تقع على الضفة الشرقية من الفرع البوباستى للنيل، وكانت تسمى **أفارس**، تبعا للتراث الدينى المصرى، فأعاد بناء هذا المكان، وحصنه بأسوار ضخمة، ومات سالاتيس بعد أن حكم تسعة عشر عاما.

وخلفه ملك آخر يدعى **بنون**، حكم أربعة وأربعين عاما، تلاه بعدها **أباخان** الذى حكم ستة وثلاثين عاما وسبعة شهور، ثم **أبوفيس** الذى حكم واحد وستين عاما، ومن بعده **ياناس** مدى خمسين سنة وشهراً واحداً، وأخيراً جاء **أسيس** الذى حكم تسعة وأربعين عاما وشهرين.

وهؤلاء الملوك الستة، هم أول من حكم منهم، وكانوا يعملون جاهدين أكثر فأكثر لاستئصال العنصر المصرى، وكان جنسهم عادة يسمى الهكسوس، أى الملوك الرعاة، لأن هيك فى اللغة المقدسة: ملك، وسوس فى اللغة الدارجة: راعى. (٢)


(٢) جاردنر مصر الفراعنة: ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧، ص ١٧٨ .



هذا؛ وقد نقل (بوليوس الأفريقي) بدوره عن (مانيتو)، أسماء لستة حكام من الهكسوس، قال: إنهم حكام الأسرة الخامسة عشر، وأضاف أنهم فينيقيون، وإن أوردتهم بنطق مختلف قليلاً عما أوردته (يوسفوس)، وبالمقارنة يصبحون كالتالي:

الأول : عند يوسفوس — سيتلاتيس Sutchlatis

وقد حكم تسعة عشر عامًا، ويبدو أن تلك الأسماء القديمة كانت غير واضحة تماماً أو دقيقة لزمّن هؤلاء المؤرخين لذلك أسماء بوليوس الإفريقي سيتيس وأعطاه ذات المدة الزمنية للحكم، وكما هو واضح فالاسم هو (الستى) نسبة إلى الإله سيت المصرى رب الصحارى (Sutch / set) ونظراً لوجود أسماء هكسوسية أخرى فى الآثار المصرية تكتشف على التتابع، فقد تمت مطابقة واحد من هؤلاء جاء ذكره فى قائمة منف. وتمت قراءة اسمه (شارك) أو (شالك) أو (شليك)، بالملك سيتلاتيس أو سيتيس، ويحتمل أنه هو ذات الاسم الوارد بالآثار المصرية (مى إيب رع شيشتى).^(٣)

الثانى : دونه يوسفوس بالنطق بنون Benon

ويرجح المؤرخون أنه الذى ورد فى بردية تورين بلفظ بنيم، ويحتمل أيضاً أنه هو من جاء اسمه على بعض الآثار مكتوباً (سكا)، وبالنظر إلى الكلمة الهيروغليفية لاسمه وتتضمن رجلاً يحمل محراثاً، ولأن الكلمة (سكا) فى العربية تعنى سلاح المحراث، فربما كان يعنى الحارث، كما سنرى فى داخل هذا البحث أن (سكا) هى (إسحق)، وهو اسم سامى معلوم. وقد وردت سكا فى الآثار هكذا:  وقد ذكره بوليوس الإفريقي أيضاً باسم بنون وبذات مدة الحكم .

الثالث : كتبه يوسفوس: أبا خنان أو أبخناس Ibikhnas، وربما كانت تعنى أبا الغنم من (خنم) المصرية فنحن نجد إلهاً مصرياً قديماً باسم (خروف) ويرسم خروفاً ويكتب (خنوم) هو الذى كان يشكل البشر من صلصال كالفخار فى العقائد المصرية القديمة، ويرجح المصروولوجيون، أن يكون هو الوارد فى الآثار المصرية باسم (نب خبش رع ) والمعروف بلقب (أبوفيس الأول )، وأعطاه يوسفوس مدة حكم تصل إلى ست وثلاثين عاماً، وأطلق عليه بوليوس الإفريقي اسم (بخنان) مع مدة حكم مضاعفة فقد حكم مدة واحد وستين عاماً.

والمعلوم أن (أبوفيس) هو الاسم المصرى للحية الثعبانية الأفعى الضخمة (الإفعان) وهو فى الأساطير المصرية إله شرير يقوم الإله رع بقتله وينطق اختصاراً أببى، وهو المقابل المصرى لذات الأفعى فى المأثورات السامية التى وردت باسم لويثان، وقد وجدت مدونة فى آثار مدينة أوغاريت على الساحل السورى، وقد تكفل بقتلها الإله بعل، كما وردت فى التوراة وتكفل بقتلها رب التوراة يهوه.

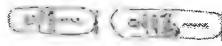
(٣) Hayes. W.C, Egypt of from the death of Ammenes II, p. ١٩- ٢٠,


الرابع : عند يوسفوس يحمل اللقب مباشرة أبوفيس Ibuphis وهو أبو فيس الثانى / أبيبى، وقد أعطاه يوسفوس مدة حكم واحد وستين عاما، ومن المحتمل أن يكون هو عاقن رع أى الحمار الشجاع^(٤)، وسنعرف فيما بعد أن الهكسوس قد عبدوا الرب الشيطانى سيت، وأنه ضمن تمثلاته التجلى فى هيئة الحمار الأحمر اللون، ومن هنا أطلق عليه يوليوس الإفريقى اسم (ستان) وجعل مدة حكمه خمسين عاما، ومن جانبنا نرى أن (ستان) هى (شيطان) كما سنرى داخل هذا العمل.



الخامس : عند يوسفوس هو: يان - س Jaynas ويحتمل أنه المذكور فى الآثار باسم خيان Khayan وقد حكم عند يوسفوس خمسين عاما، وقد تأكد أنه الذى حمل اللقب المصرى (سازوسر إن رع) / ابن رع، بعد أن عثر السير آرثر إيفانز سنة ١٩٠١م بقصر كونسوس فى كريت على غطاء مرمى يحمل الاسم (سازوسر إن رع) مع (حيان) فى خرطوش واحد^(٥). كذلك عثر على ذات الأسماء على صدر أبى هول صغير جىء به من بغداد^(٦).

وفى المأثور التاريخى العربى حديث عن ملك حكم مصر باسم (الريان) وهو ما يلتقى مع الاسم (إيان) أو (يان - س)، وكان الريان فى المأثور العربى من ملوك العرب الذين حكموا مصر باسم العمالقة وهو أمر سنتعرض له فيما بعد بالتفصيل.

وهكذا فإن خيان أو يان بالتأكيد كان هو سازوسر إن رع  إلا أن يوليوس الإفريقى أطلق عليه اسم أرخليس وأعطاه مدة حكم تصل إلى تسعة وأربعين عاما.

السادس : يكتبه يوسفوس أسيس، وأعطاه مدة حكم واحد ستين عاما، وربما كان هو المذكور فى الآثار باسم (عاوسر رع)، وهو اسم مصرى انتقل إلى الساميين فى المسميات (عازر) و (عزرا) و (عزير)، ناهيك عن كون اسمه (أسيس) هو (عزيز)، وقد دونت الآثار المصرية اسمه عاوسر رع هكذا  لكننا نعلم من يوليوس الإفريقى أنه قد حمل اللقب أبو فيس ويصبح بذلك أبوفيس الثالث، وقد أعطاه يوليوس ذات مدة الحكم، ويعتبر آخر حكام الهكسوس الستة، ويحتمل أنه الوارد بلقب خمودى أو حمودى فى بردية تورين^(٧).

ويمكن تلخيص ذلك فى الجدول التالى :

(٤) سليم حسن: مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٤، ص ٨٥ ، ٨٢ ، ٦٢.

(٥) Efans. A, The palace of Minos at Konassos, ١٩٢١, p ٤١٩.

(٦) Save. St, J.E.A, ٣٧, p ٦٣-٢١٧.

(٧) Hayes, Egypt from ..., p ٢٤

| م | اسم الملك عند يوسفوس | مدة حكمه | اسم الملك عند يوليوس | مدة حكمه | الاسم الفرعونى | تخريج الاسم / للمؤلف |
|---|--------------------------|----------|----------------------|----------|--|------------------------|
| ١ | سالاتيس = (شالاد) | ١٩ | سايتيس = (سيت) | ١٩ | مى إيب رع شيشى، ربما هو شليك = أو شارك | الستى |
| ٢ | بنون = (بيبون) | ٤٤ | بنون | ٤٤ | بنيم سكا | سكا = إسحق = الحارث |
| ٣ | أباخان = (أبو فيس الأول) | ٣٦ | بخان | ٦١ | نب خبش رع أبو فيس | أبو الغنم |
| ٤ | أبو فيس الثانى | ٦١ | ستان | ٥٠ | ابيبى أبو فيس عاقن رع | الشيطن |
| ٥ | يان — س | ٥٠ | أرخليس | ٤٩ | خيان = سازوسر إن رع | الريان |
| ٦ | أسييس = (أبو فيس الثالث) | ٦١ | أبو فيس | ٦١ | عاوسر رع = خمودى | عزير = حمودى |

لكن المربك فى الأمر هو وجود أسماء أخرى فى الآثار للهكسوس غير تلك التى تمت مطابقتها مع لائحة الملوك الستة لمانيتو، وتلك الأسماء يحمل بعضها لقب (حقا خاسوت) أى الهكسوس بالنطق المصرى، منهم واحد باسم سمقن وآخر باسم **عفات** هر. وأسماء أخرى تحمل لقب (الإله الطيب) وردت على جعارين وهم حوالى ثمانية ينتهى اسم كل منهم باسم إله الشمس المصرى رع. ومجموعة أخرى تحمل لقب (ابن الشمس) مثل ابن الشمس **يعقوب** هر وابن الشمس **عامو** وابن الشمس قار. ولا حل سوى القول أن هؤلاء جميعاً شيوخ قبائل، (والتوراة تشير لشيوخ القبائل باعتبارهم ملوكا)، وأنهم كانوا من الشيوخ البارزين فى الطاقم الهكسوسى المتميز، فحازوا مكانة تركت بموجبها أثرها فيما وصلنا من آثار: وهو الأمر الذى انتهى إليه جاردنر فى تفسير هذا اللغز وأوضحه (محمد بيومى مهران) فى قوله عن الأسماء الهكسوسية الواردة فى بردية تورين بقوله: " إن الحصر الإحصائى للبردية يضم ملوكا كثيرين كانوا موجودين معا فى وقت واحد.

ومن المحتمل أنهم كانوا فى أنحاء متباعدة من البلاد، وينظر إليهم كمجرد رؤساء لقبائل آسيوية مختلفة وعديدة متجمعين تحت لواء ملك الهكسوس الكبير " . (٨)

المهم أن (يوسفوس) يتابع روايته عن الهكسوس، نقلا عن (مانيتو)، فيقول: إن الحال قد استمر كذلك حتى قام الفرعون المصرى (تتموزيس) Tethmosis بالتمرد عليهم، وطردهم من بلاده فى حرب هائلة (٩)، حيث لم يكن حكام الهكسوس قد تمكنوا من القضاء على الحكم المصرى الوطنى، المتحصن طوال الوقت فى طيبة جنوبى مصر. أولئك الذين خاضوا حربا طويلة ضد الهكسوس، وبعد أن استمر الاحتلال خمسمائة عام وإحدى عشرة سنة، تمكن (تتموزيس) من طرد المحتلين، فانسحبوا إلى سوريا (يقصد بسوريا كل بلاد الشام / المؤلف) حيث أسسوا هناك المدينة المعروفة باسم أورشليم (١٠).

ولما كان (مانيتو) قد زعم أن البعض اعتبر الهكسوس عربا، وأن البعض الآخر رأهم فينيقيين، فقد رأى (يوسفوس) من جانبه أن خروجهم من مصر إلى يهوذا تحديداً وتأسيسهم أورشليم بالذات، وصفتهم كعرب (بدو ساميين)، وكفنيقيين، شواهد قاطعة على أنهم كانوا من بنى إسرائيل، وأنهم دخلوا مصر ملوكا ولم يدخلوها عبيداً أبداً.

ويستمر (يوسفوس) ناقلا عن (مانيتو): " أن الهكسوس تركوا منهم بقايا لم يستطيعوا الفرار، فوقعوا أسرى بيد المصريين، حيث سيموا العذاب الطويل، وفرضت عليهم السخرة انتقاما منهم، "وبعد أن قضى أولئك الذين أرسلوا للعمل فى المحاجر، زمنا طويلاً فى تلك الحالة البائسة، طلبوا من الملك أن يخصص لهم مدينة أفاريس Avaris - وكانت قد خوت على عروشها بعد أن تركها الرعاة الهكسوس - لتكون لهم مسكنا ووقاء. فاستجاب للرغبة وحققها لهم، والواقع أن هذه المدينة كانت مدينة الإله Typho تيفون / ست، وفقا للديانة القديمة. ولكن لما دخلوها وجدوا المكان صالحا لإشعال الثورة، فأقاموا على أنفسهم من بين كهنة هليوبوليس (أون / عين شمس) حاكما عليهم، وأعطوه العهد أن يطيعوه فى كل شئ. وكان أول ما فعله أن سن لهم هذه الشريعة، التى بموجبها حرم عليهم أن يعبدوا آلهة المصريين، وأن يمسكوا عن عبادة أى حيوان من تلك الحيوانات المقدسة التى يعظمها المصريون أيما تعظيم، بل أمرهم أن يقتلوا ويدمروها جميعاً، كذلك نهاهم أن ينضموا إلى أحد غير رابطتهم.

وبعد أن وضع أمثال هذه الشرائع - والكثير من غيرها - المعادية فى أغلبها لعادات المصريين، أمرهم أن يستخدموا ما يملكون من سواعد كثيرة لبناء سور حول المدينة، وأن يعدوا أنفسهم لقتال الملك أمينوفيس Amenophis آمنحتب Amenhotep، أما هو نفسه فقد أنشأ صداقات مع الكهنة الآخرين، ومن كانوا قد أفسدوهم، وأرسل السفراء إلى الرعاة / الهكسوس، الذين كان تتموزيس Tethmosis قد طردهم

(٨) محمد بيومى مهران: دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٩) لويس عوض: مقدمة فى فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، ص ١٤.

(١٠) غطاس الخشبة: رحلة بنى إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٤٣.

من البلاد إلى أورشليم. وعن طريق السفراء أبلغهم بأحواله وبأحوال أولئك الآخرين الذين عوملوا بكل تلك الشناعة، وطلب إليهم أن تجتمع كلمتهم على أن يخفوا لمساعدته في حربه ضد مصر، كذلك وعدهم بأنه سيبادر إلى إعادتهم إلى مدينتهم ودولتهم القديمة أفاريس، وبأنه سيمون جموعهم بالغذاء الوفير، وبأنه سيحميهم ويقاثل من أجلهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وأن في ميسورة أن يخضع البلاد لسلطانهم.

وقد اغتبط هؤلاء الرعاة بهذه الرسالة أيما اغتباط، وخفوا جميعا على وجه السرعة، وكان عددهم ٢٠٠,٠٠٠ رجل، وبلغوا أفاريس في وقت قصير، ولما بلغ أمينوفيس ملك مصر نبأ غزوهم، اضطرب اضطرابا عظيما، وتذكر ما كان قد أخبره به آمحتب بن بابيس (آمحتب بن حابو / المؤلف)، وبدأ يجمع حشود المصريين ويتشاور مع قادتهم، وأرسل في طلب الحيوانات المقدسة ليأتوا بها إليه، ولا سيما الحيوانات التي كانت معبودات رئيسية في معابدهم، وأصدر أمرا خاصا وواضحا للكهنة، أن يخفوا أوثنان آلهتهم بعناية تامة، كذلك أرسل ولده سيتوس Sethos وكان يسمى أيضا رمسيس Ramses من أبيه رهامبيس Rhempes إلى صديق من أصدقائه، وكان الغلام لا يزال في الخامسة من عمره.

وبعد هذا سار مع بقية المصريين، وكانوا ٣٠٠,٠٠٠ رجل من أعند المقاتلين، لمواجهة العدو، الذي التقى بهم في المعركة، غير أنه لم يشترك في المعركة مع رجاله، فقد كان يعتقد أن الحرب عمل ضد الآلهة، ولذا عاد أدراجه ووصل إلى منف Memphis، حيث أخذ آبيس (العجل المعبود) وغيره من الحيوانات المقدسة التي كان قد طلب إحضارها له. وسار لفوره إلى أثيوبيا Ethiopia ومعه كل جيشه وحشود المصريين، فقد كان ملك أثيوبيا تحت ولايته، فاستقبله ورعى كل من كان معه من الحشود، بينما قدمت تلك البلاد كل الغذاء الكافي لرجالهم. كذلك خصص مدنا وقرى لهذا المنفى الذي كتب له أن يكون في بدايته، خلال تلك السنوات الثلاث عشرة التي قضى بها القدر، كذلك كرس معسكر الجيش الأثيوبي، ليتولى حراسة الملك أمينوفيس عند حدود مصر.

هذه كانت حال الأمور في أثيوبيا، أما شعب أورشليم فعندما نزلوا مع المصريين الفاسدين، عاملوا الرجال بوحشية بالغة، جعلت كل من رأى قهرهم للبلاد المذكورة، وما ارتكبه من فظائع بشعة، يستتكر فظائعهم أشد الاستنكار. فهم لم يكتفوا بإحراق المدن والقرى، بل استمرعوا خطيئة تدنيس الأحرار وتحطيم الأوثان، وأشعلوا النيران في التماثيل المقدسة، واستخدموها في شى الحيوانات المقدسة، وأرغموا الكهنة والأنبياء على أن يكونوا الجلادين الذين يذبحون تلك الحيوانات. كذلك قيل أن الكاهن الذي وضع سياستهم وشرائعهم، كان بالمولد من هليوبوليس، وكان اسمه أوزرسيف Osarsiph (المأخوذ من اسم إله هليوبوليس أوزيريس Osiris).

وبعد هذا عاد أمينوفيس من أثيوبيا بجيش عظيم، وكذلك ابنه رهامبيس بجيش آخر، واشتركا معا في قتال الرعاة والناس الفاسدين، وهزموهم وفتكوا بعدد عظيم منهم، وطاردوهم حتى سوريا " (١١)

(١١) لويس عوض: مقدمة .. سبق ذكره، ص ١٤ ، ١٥ .

وهنا وجد (يوسفوس) الدليل الأقوى فى مجموعة أحداث تتشابه فى بعضها مع قصة التوراة عن الخروج، أما الأقوى والحاسم فى الأمر، فهو (أوزرسييف) الذى رأى فيه (يوسفوس) شخص موسى نفسه. ومن ثم انتشرت تلك القصة عن (يوسفوس) فى العالمين: الإغريقى والرومانى، وظلت زمناً طويلاً يمتد قرونًا، التفسير شبه التاريخى، شبه الموثق، لقصة الخروج، المؤسسة على المزج بين الهكسوس وبين بنى إسرائيل ومن ثم كان ذلك كافياً لتفسير عدم ذكر المصريين فى نصوصهم لبنى إسرائيل، ودخولهم أو خروجهم من مصر، لأن مصر قد عرفتهم بالفعل، وعرفت أنهم دخلوها وأنهم خرجوا منها، ولكن باسم (الهكسوس).

وهنا يضيف (يوسفوس) إلى تلك الرواية خبراً غريباً يجب أخذه بحذر، وذلك فى كتابه (العاديات اليهودية)، نوجزه فى قوله: عندما كان موسى فى مصر حدثت حرب بين مصر وأثيوبيا، واشترك موسى فى المعركة كضابط بالجيش المصرى، ووصل الأثيوبيون حتى تخوم منف، لكن موسى ببراعته حاربهم مع رجاله ودمرهم حتى عادوا ديارهم، وحاصر مدينتهم، وهناك من على الأسوار رآته بنت ملك أثيوبيا فدخل حبه إلى قلبها فأرسلت تخطبه لنفسها، وهنا ساومها موسى على الحب مقابل استسلام مدينتها.

ثم يؤكد يوسفوس رغبة الآلهة المصرية فى التحالف بين المصريين والإسرائيليين بقوله: " فلما وصل الغزاة الأثيوبيون إلى أبواب منف لجأ المصريون لاستشارة الآلهة طلباً للنبوءة واستلهم الوحي، وإذا النصيحة تأتى من الإله: أن اتخذوا من اليهودى حليفاً " (١٢). وهى الرواية التى قصد منها الالتقاء بما ورد فى التوراة حول زواج موسى من امرأة كوشية / زنجية سوداء " وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية، فقالوا: هل كلم الرب موسى وحده، ألم يكلمنا نحن أيضاً / عدد ١٢ / ١، ٢. "

لقد حاول يوسفوس أن يجد تعليلاً لزواج موسى من سوداء زنجية كوشية فى سيناء، فقال بحرب بين مصر وأثيوبيا التى تقع جنوبى مصر انتهت بزواج من بنت ملك كوش، وهو ما يتناقض تناقضاً صارخاً مع بقية روايته التى تتحدث عن صداقة أمنوفيس / أمنتب لملك أثيوبيا ولجؤه إلى بلاده إبان حربه مع الغزوة الهكسوسية الثانية التى تحالفت مع الثائر الكاهن أوزرسييف.

والواضح أن المحرر قد استخدم كلمة أثيوبيا مرتين للدلالة على العنصر الأسود وليس على المكان، لأننا سنرى فى هذا البحث أن أثيوبيا التى لجأ إليها الفرعون جنوبى مصر أمر، وأثيوبيا التى كانت فى حالة عداء مع الفرعون آنذاك أمراً آخر وموضعاً آخر، موضع ضم عدداً من الأجناس من بينها الزنج / الكوشيين، ناهيك عن كوننا نعلم أن موسى تزوج صفورة بنت يثرون أو رعوثيل كاهن مديان بسيناء، ولا شك لدينا أنها هى التى وصفت بكونها سوداء كوشية.

(١٢) عبد المحسن الخشاب: تاريخ اليهود القديم فى مصر، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٠، ٣١.

وهكذا يمكن تفصيل المكونات الرئيسية لنظرية ما نيتون حسب رواية يوسفوس فى عناصر هامة أبرزها:

- أن فرعون مصر زمن غزو الهكسوس لمصر كان باسم (توثيما يوس) وهو ما يغطى لنا صمت الوثائق المصرية عن الحديث بشأن اسم الفرعون المصرى زمن غزو الهكسوس.
- أن الهكسوس كانوا هم ذات عين الإسرائيليين وأنهم ربما كانوا عربا أو فينيقيين.
- أنهم أقاموا عاصمة عسكرية فى مدينة باسم أفاريس / أواريس / حواريس / هواره / حاوهره بالمصرية القديمة.
- أنهم عبدوا هناك الإله المصرى رب الصحارى وسيد الشر (سيت) بالنطق المصرى، أو (سوتخ) أو (سوتتش) بالنطق الهكسوسى، وهو من أطلق عليه اليونان اسم تيفون رب الأوبئة والدمار.
- أن فرعون باسم (تتموزيس) كما نقل يوسفوس أو (أموس) كما كتبه يوليوس الإفريقى قد حاربهم وطردهم من مصر، فانسحبوا منها إلى فلسطين، وأقاموا فى إقليم يهوذا الجنوبى، وأسسوا هناك مدينة أورشليم.
- بقى من الهكسوس فى مصر أسرى بعدد غفير، واستخدمهم المصريون فى الأعمال الشاقة، وفى زمن آمنوفيس / آمنحتب التمسوا فيه بعض الرحمة فطلبوا منه أن يمنحهم لسكناهم مدينة الهكسوس القديمة أفاريس، فمنحهم المدينة ليسكنوها، وهناك لحق بهم كاهن مصرى من كهنة عين شمس يدعى أوزرسيف، الذى ربما كان هوموسى ذاته، وقد استولى على قيادة أمرهم ووضع لهم شرائع جديدة تخالف كل شرائع المصريين.
- أن هناك غزوة هكسوسية ثانية حدثت زمن الملك المصرى آمنحتب / آمنوفيس، جاءت متحالفة مع ثورة أسرى أفاريس وزعيمها أوزرسيف، وعادة لا يأخذ المؤرخون المحدثون قصة الغزوة الهكسوسية الثانية التى أشار إليها يوسفوس نقلا عن مانيتون مأخذ الجد أو حتى الاعتبار.
- أن فرعون مصر آنذاك آمنوفيس / آمنحتب، كان له ولد، والغريب أن الرواية هنا شديدة الالتباس والغموض فهذا الولد مرة اسمه سيتوس، ومرة أخرى رمسيس، ومرة ثالثة رهامبيس.
- أن هذا الولد الملكى قد استبعد من مصر وهو طفل صغير حرصا على حياته عند أصدقاء أوفياء للملك، وكان عمره حينذاك لم يتجاوز بعد الخمس سنوات.
- أنه كان فى حواريس مع بقايا الهكسوس الأسرى عنصر مصرى منفى بدوره لأسباب غير معلومه، ووجود هؤلاء فى مدينة العبيد الأسرى مع زعيمهم أوزرسيف لم يزل لغزا محيراً غير محلول.

□ أن الرعاة قد هُزموا للمرة الثانية، وتم طرد الحملة الهكسوسية الثانية إلى فلسطين أمام دفاعات الجيوش المصرية التي قادها آمنوفيس وولده ذو الاسماء الثلاثة، بعد أن يفع ونضج وأصبح قائدا عسكريا مظفراً، والمفترض أنه آنئذ كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما حيث استبعد وله من العمر خمس سنوات، وعاد بعد ثلاثة عشر عاما ليحارب مع أبيه ضد الغزاة.

زمن الغزو الهكسوسي لمصر

من المعلوم أن الوثائق المكتشفة في تاريخ مصر القديمة لم تمدنا حتى الآن بتحديد

دقيق لزمن غزو الهكسوس مصر ولا من هم الهكسوس ولا جنسهم. ويقول لنا (محمد بيومي مهران): " ولقد اختلف المؤرخون القدامى منهم والمحدثون في تقدير مدة حكم الهكسوس في مصر، فهناك من وصل بها إلى أكثر من تسعة قرون، بينما نزل بها آخرون إلى قرن واحد ". (١٣)

وكل ما نعلمه عن محاولات المصروولوجيين ترمين وقت غزو الهكسوس لمصر، أنها قد اتفقت على مجيء الهكسوس بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة آخر أسر الدولة الوسطى حوالى عام ١٧٨٨ ق.م. وأن الاحتلال قد استغرق خمس أسر حاكمة هي: ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، حتى مجيء فراغة التحرير من الأسرة السابعة عشر وأشهرهم (أحمس) مؤسس الأسرة الثامنة عشر، حوالى عام ١٥٧٥ ق.م - ١٥٥٠ ق.م، والتي تعد الأسرة الأولى في سلسلة أسر الدولة الحديثة (الإمبراطورية).

ولما كان سقوط الأسرة الثانية عشرة، قد حدث حوالى ١٧٨٨ ق.م، فقد اعتبر ذلك هو التاريخ المرجح للغزو الهكسوسي لمصر، وبذلك يكون مجموع سنوات حكم الهكسوس لمصر، إضافة للأسر المصرية الحاكمة التي لم تقع تحت النير الهكسوسى، أو التي ظلت تحكم تحت سيطرتهم، لا تتجاوز ٢٣٨ سنة، وإن كان التقدير الدقيق في ترجيح المصروولوجى (جاردنر)، لا يتجاوز ٢١٥ سنة (١٤)

وتشمل هذه المدة خمس أسر كاملة، وهو التقدير الذى يخالف بشدة الزمن الذى رصده (مانيتو) لذات المدة، وقدره بحوالى ١٧٧٠ سنة، منها ٥١١ سنة للحكم الهكسوسى، و ١٢٥٩ سنة لأسر مصرية، تقع جميعاً بين نهاية الأسرة الثانية عشرة، وبداية الأسرة الثامنة عشر.

والمشكل فى الأمر هنا، أن المؤرخين - أنفسهم - الذين رصدوا زمنا قدره ٢٣٨ سنة لمجموع الأسر الخمس، يعترفون بعسر قبول ذلك، حيث الزمن قصير جداً بالنسبة لعدد الأسر، ولما لم يجدوا حلاً لهذه المشكلة، نظراً لاعتمادهم فى ذلك التقدير على معطيات آثارية، ومتشابهات ومتزامات لا تسمح بغير ٢٣٨ سنة للأسر الخمس، فقد لجأوا لحل المعضل، بما ذهبوا إليه - كمثال موجز - موسوعة تاريخ العالم، مستندة إلى (مانيتو) مرة أخرى، بالقول أن مصر انقسمت أقاليم فى ذلك الزمان، وتعاشرت الأسر المختلفة فى الحكم على تلك الأقاليم، فحكمت الأسرة المصرية الثالثة عشر فى طيبة متحصنة هناك بعيداً عن يد البطش

(١٣) بيومي مهران: دراسات .. سبق ذكره ، ص ١٣٧ .

(١٤) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره ، ص ١٨١ .

الهكسوسى، وفى ذات الوقت تعاصرت معها أسرة مصرية حكمت فى سخا بوسط الدلتا كانت خاضعة تماماً للهكسوس، هى الأسرة الرابعة عشر، أما الأسرتين الخامسة عشر والسادسة عشر فكانت أسر هكسوسية خالصة، حكمت خلال ذات الزمن والمدة المرصودة، ثم قامت الأسرة السابعة عشر فى طيبة، بعد أسرتها الثالثة عشر، وهى الأسرة التى قاد ملوكها الأماجد، حملات التحرير ضد الهكسوس، وبطرد الهكسوس على يد أحمر أحد رجال تلك الأسرة العسكريين، تأسست معه، وبداية به، الأسرة الثامنة عشر، أولى أسرات الدولة المصرية الحديثة، دولة الإمبراطورية. x

أما (جاردنر) فوضع حلاً فريداً لمشكلة الحجم الزمني الضئيل لمجموع الأسر التى أخبرنا التاريخ بها، فافترض بداية أن هناك امتداداً للدولة الوسطى، خلال أسرتين مصريتين حكمتا لمدة ١٠٧ سنة، هما الأسرة الثالثة عشر الضعيفة، والأسرة الرابعة عشر التى استغرقها حكم الفرعون القوى (نفرحوتب) الذى حاول ترميم ضعف الأسرة السابقة، وبنهاية (نفرحوتب) جاءت غزوة الهكسوس التى شكلت الأسرة الخامسة عشر، التى دام حكمها فى رأى (جاردنر) ما لا يزيد عن ١٠٨ سنة، وحكم خلالها الملوك الستة الذين أشار إليهم (مانيتو)، لكن (جاردنر) اعتبر (مانيتو) مضللاً فى قوله: إنهم أول الملوك الهكسوس الأقوياء، حيث اعتبرهم (جاردنر) هم كل من حكم مصر من ملوك الهكسوس، وقد استند (جاردنر) فى ذلك إلى ما جاء فى بردية تورين، التى ذكرت ست ملوك هكسوس حكموا مصر لمدة ١٠٨ سنوات.

ثم قام (جاردنر) بإلغاء أسرتين هما السادسة عشر والسابعة عشر دفعة واحدة، واعتبر ذلك خطأ من (مانيتو) ^(١٥)، ومن ثم أعاد ترتيب الأوضاع كالاتى :

| | | |
|--------|---------|------------------|
| الأسرة | ١٣ ، ١٤ | أسر مصرية صميمة |
| الأسرة | ١٥ | أسرة هكسوسية |
| الأسرة | ١٦ ، ١٧ | غير موجودة أصلاً |

وعليه لن يكون هناك سوى ثلاث أسر فقط وليس خمس تقع فى الفترة ما بين سقوط الدولة الوسطى، وبين قيام الدولة الحديثة. وقد عمد (جاردنر) وهو بسبيل إثبات خطأ (مانيتو) إلى مقارنة تاريخية، بتاريخ عالم رصين هو (إدوارد ماير) الذى انتهى بعد دراسته للتأريخ بحسب النجم سايروس/ الشعري اليمانية حيث جرى ترمين المصريين لتأريخهم بحسابات ظهوره واختفائه، وقال (ماير) أن أبعد نقطة يمكن الوصول إليها فى ترمين بداية أول أسرة مصرية حاكمة، لا تبعد عن عام ٣٢٠٠ ق.م.

ومن المعلوم أن هناك ثلاثة جداول أخرى للملوك تم اكتشافها وترجمتها، تحصر ملوك مصر عبر الأسرات الحاكمة، وهى: جدول أبيدوس المنقوش على جدران المعبد الكبير بالعراية المدفونة، وجدول سفارة الذى عثر عليه (وبدى جونيرى) عام ١٨٦١م، فى مقبرة رئيس عمال منف، وجدول الكرنك المنقوش بمعبد طيبة. وقد اشتركت الجداول الثلاثة فى الاتفاق على عدم تسجيل عدد من الملوك، اعتبرهم المصريون غير

(١٥) الموضوع نفسه .

شرعيين، وهو ما جرى على ملوك الهكسوس من الأسرة الخامسة عشر حتى السابعة عشر، كما لوحظ استبعاد الجداول الثلاثة لملوك أسرة العمارنة بدورها، والتي تمثل (آمنحتب الرابع) المعروف باسم (إخناتون) وخلفائه المباشرين من أعضاء أسرته. (١٦)

وقد علل المصريون ذلك بمروق إخناتون الدينى، بحيث اعتبرت فترة حكمه لا تقل سوءاً وكرهية عن فترة حكم الهكسوس، لكن السؤال هنا الذى يقف بلا إجابة: إذا كان ذلك جائزاً بحق (إخناتون) نفسه، فكيف يجوز بحق أخلافه الذين عادوا إلى عبادة آمون، وانتقلوا من (أخت آتون) بالعمارنة إلى (طيبة) مرة أخرى الفراعنة سمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآى؟ إن المسألة بحاجة إلى تفسير أكثر إقناعاً من ذلك. المهم أن سقوط أسرة العمارنة من تلك الجداول، أدى بالمؤرخين قبل اكتشاف تل العمارنة ومعرفة تلك الأسرة، إلى الوقوع فى أخطاء شديدة، حيث كانت هناك فجوة تاريخية هامة غير معلومة لديهم بالمرّة.

وعملاً بقاعدة إهمال المصريين تدوين ملوكاً بعينهم، مع سنى حكمهم، نجد جدولى الكرنك وأبيدوس - كمثال - لا يوردان إطلاقاً أى ذكر لحكام الأسر ١٣، ١٤، ١٥، رغم أن جدول الكرنك ذكر ملوكاً من الأسرة الحادية عشرة لا يستحقون ذكراً، وسجل أسلاف الملك (أحمس) فى الأسرة ١٧ وهم غير مهمين بالمرّة، كذلك سجل جدول أبيدوس ملوكاً لاقية لهم إطلاقاً من حكام الأسرة الثامنة عشر، وإذا أخذنا بقاعدة الإهمال فى التدوين، لأن الملوك فى تلك الحال غير شرعيين أو أجنبى، فينبغى فى تلك الحال اعتبار حكام الأسر ١٣، ١٤، ١٥ حكاماً غير شرعيين ويستنتج أنهم لابد كانوا هكسوساً.

وهكذا كانت الخدعة المبيتة فى التاريخ المصرى، والتي تأكدت لنا فى محاولة الفهم: لماذا اعتبر (مانيتو) أن (رهامبيس) الذى يجب - بمطابقة الأسماء - أن يكون (حورمحب) آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر وأول ملوك الأسرة التاسعة عشر وجاء بعد انتهاء حكم أسرة العمارنة، يجب أن يكون (رهامبيس) هذا ابناً مباشراً للفرعون (آمنحتب)؟ والإجابة هى أن الفرعون السابق مباشرة لحورمحب، بعد حذف ملوك العمارنة الذين لم تدوتهم جداول الملوك المصرية المذكورة هو (آمنحتب الثالث)، ومن ثم احتسب (مانيتو) أن (رهامبيس) أو (حورمحب) ابناً لـ (آمنحتب الثالث).

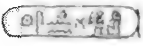
المهم أن ذلك كله يشير إلى قدر كبير من الصدق التاريخى فى تاريخ (مانيتو)، لكنه لا يعنى من جانب آخر التسليم بكل تاريخه، لوقوعه فى خلط كبير أحياناً، لبعد الشقة الزمنية بينه وبين زمن الأحداث التى أرخ لها، لكن حتى ذلك الخلط كان يحمل خيوطاً من حقائق وأحداث، لكنها التبتت عليه فتبدل فيها الأبطال كما تبدلت المواضع، وهو ما سنلمسه مع السير فى خطوات بحثنا هذا.

وعليه فقد وضع (مانيتو) لحكم الهكسوس زمناً يصل إلى ٥١١ سنة، وهو رقم مبالغ فيه بعض الشيء، هذا بينما وضع مصريون مثل (جاردنر) زمناً يقع ما بين ٢١٥ سنة و ١٠٨ سنوات اعتماداً على بردية تورين، وهو بالمقابل زمن هزيل تماماً بالنسبة لضخامة الحدث وما احتواه من أمور جسام، وعليه فلامناص

(١٦) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره ، ص ٦٨.

من محاولة تحديد مدة زمنية تتأرجح بين المديتين المرصودتين، وهو الأمر الذى لا يفصل بشأنه إلا تحديد زمن الفرعون الذى حدث الغزو إيان اعتلائه العرش، والذى ذكر (مانيتو) باسم (توثيمايوس)، أو بحذف التصريف الاسمى اليونانى (توثيماوى)، وهو مالم يجد المصروولوجيون بشأنه أى أثر حتى الآن. ثم تحديد زمن فرعون التحرير الذى ذكره (يوسفوس) نقلا عن مانيتو بالقراءة (تثموزيس)، بينما قرأه (يوليوس الأفريقى) بالرسم (آموس)، وقرأه يوسابيوس نقلا أيضاً عن (مانيتو) باسم (آموزس)، واتفقت أراءهم جميعاً، أنه حكم فى طيبة خمسا وعشرين عاما.

ومن الجدير بالذكر الإشارة لاتجاه هام، يرى الهكسوس قد كونوا إمبراطورية كبرى، مستتدين إلى العثور على اسم الملك الهكسوسى (خيان) والمحمّل أنه ابا خنان / أبا الغنم (حنا) الهكسوسى الثالث منقوشا على عدد من الجعول، وعلى غطاء مرمى عثر عليه (إيفانز) فى كونسوس بكريت، و (خيان) هو الاسم الذى يلتقى مع (يان) أو (ياناس) فى جدول (مانيتو)، ووجدت له آثار فى سوريا وفلسطين وبغداد، وبين الآثار كان تمثال لأبى هول صغير فى بغداد عليه النقش: " خيان الإله الطيب سوسرن رع " (١٧). والمهم أن هذه الآثار الهكسوسية المتناثرة فى مساحة واسعة، ما بين الأناضول شمالاً ومصر جنوباً، والعراق شرقاً وكريت غرباً، أدت إلى استنتاج أن الهكسوس قد أقاموا إمبراطورية كبرى تشمل كل تلك المنطقة، وهو الرأى الذى لا يلقى قبولاً واسعاً بين المهتمين، وهناك أعلام مثل (جاردنر) يرفضون قبول تلك النظرية تماماً. (١٨)

وتأتينا أول النصوص المصرية حول حرب التحرير، فى نص (قصة الملك أبو فيس وسقننرع)، والتى تحكى لنا بداية المقاومة الوطنية، فى عهد ملك من ملوك الأسرة السابعة عشر، المتحصنة فى طيبة جنوبى البلاد، ويدعى سقنن رع تاعا  وكان معاصراً لملك هكسوسى يدعى (أبو فيس) ، يؤكد (سليم حسن) أنه الوارد فى الآثار باسم (عاقننرع)، وكان يحكم من مقر عاصمته العسكرية (أفارس) أو (أواريس) أو (حواريس) شمال البلاد.

وبمطابقته مع اللوحة السادسة لملوك الهكسوس يكون ترتيبه الرابع بينهم، ويكون هو أبوفيس الثالث حيث سبقه إلى حمل لقب أبو فيس اثنان من الملوك الهكسوس.

وتلك القصة التى تروى ذلك الصراع من أجل طرد الغزاة، دونت بعد عصرها بزمان، فى عهد الملك (مرنبتاح بن رمسيس الثانى) فى الأسرة التاسعة عشر، ويبدو عليها أنها كانت تمرينا مدرسيا وصلنا به أخطاء عديدة نتيجة جهل التلميذ الذى نقلها عن أصل لا نعرفه الآن، وبها تكرار لبعض الجمل وبعض الأحداث، وغموض فى نواح كثيرة، نشأ عن تهشم بعض أجزائها، ونقول الفقرة الأولى منها:


حدث أن أرض مصر كانت فى جائحة شنعاء، ولم يكن

(١٧) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٤، ص ٩١ ، ٩٢.

(١٨) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

للبلاد حاكم يعد ملكاً في هذا الوقت. وقد حدث أن
الفرعون سقنن رع كان حاكماً على المدينة الجنوبية،
لكن الجائحة الشنعاء كانت في بلد العامو. وكان الأمير
أبو فيس في أواريس، وكانت كل البلاد خاضعة له،
وكذلك كل حاصلاتها بأكملها، كذلك كل طبيبات تميراً
(مصر). وقد اتخذ الملك أبو فيس الإله ستخ ربا له ولم
يعبد أى إله آخر في البلاد سوى ستخ، وقد بنى معبداً
ليكون حصناً خالداً بجانب قصر أبو فيس. وقد كان
يستيقظ كل يوم ليقرب الذبائح اليومية للإله ستخ، وكان
موظفو جلالته يحملون الأكاليل من الزهر، كما كان
يفعل تماماً في معبد رع حر أختى^(١٩).

ويتوالى سرد القصة فتروى أن حاكم الهكسوس أراد التحرش بملك المملكة الجنوبية (طيبة / الأقصر)،
فأرسل له زاعماً أن أفراس النهر الموجودة في بحيرات طيبة تصدر في الليل ضجيجاً يمنع من النوم ويقلق
راحته. وللأسف فإن ما تلى ذلك من أحداث ينقطع عنا بسبب التشوه الذي لحق بالوثيقة، وكل ما أمكن
استنتاجه أن حرباً قد بدأت بين الطرفين، وأن الملك المصري الوطنى سقنن رع قد وقع صريعاً، وهو ما تم
استنتاجه من فحص مومياء الملك التى تقلصت تقلصاً شديداً، وهو ما يشير إلى آلام فظيعة عانى منها سقنن رع
وهو في سكرات موته. وظهر بالمومياء جروح غائرة في الرأس والعنق من المرجح أنها ضربات بلط، ولم
يكن الملك قد تجاوز عامة الثلاثين بعد حسب تقديرات الأطباء الذين فحصوا المومياء.^(٢٠)

ويستنتج (محمد بيومى مهران) من ذلك نتيجة يلخصها في قوله: " إن سقنن رع قد قُتل فى ساحة
الوغى .. وأن المصريين تمكنوا من حمل الجثمان وتحنيطه، وذلك دليل على سيطرة الجيش المصرى على
أرض المعركة " ^(٢١). وفى عام ١٩٥٤ اكتشف الأركيولوجيست المصرى (محمد حماد) بالأقصر لوحة كبيرة
تروى بإفاضة الجهود الحربية التى قادها (كامس)  خليفة سقنن رع ضد ملك الهكسوس أبو
فيس أو (أبوى) الذى حمل هذه المرة لقبه المصرى (عا أو سر رع أبوى)، وهو الكشف الذى دعم شبيهاً له
سبق أن كشفت عنه حفائر (اللورد كارنارفون) بحوالى خمسين عاماً، وكان لوحة هيراطيقية تروى مراحل
الصراع الأولى، وكانت بدورها نسخة نقلها كاتبها عن نص تاريخى أصيل أقيم بالمعبد، وهو التعدد الذى
يشير لأصالة الرواية التى تروى :

السنة الثالثة، حور الظاهر على عرشه، وصاحب

(١٩) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٤، ص ١١٦.

(٢٠) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ١٨٥ .

(٢١) بيومى مهران: دراسات، سبق ذكره، ص ١٠٢ .

الإلهتين، حور الذهبى، الذى يجعل الأرضين
مسرورتين، ملك الوجه القبلى والوجه البحرى، واز
خبر رع ابن الشمس، كامس، مُعطى الحياة مثل رع أب
الآبدى، محبوب آمون رع سيد الكرنك، الملك القوى
فى ربوع طيبة، كامس معطى الحياة مخلداً، كان ملكاً
محسناً وقد جعله رع ملكاً حقيقياً، وسلمه القوة بالحق
المبين، وقد تكلم جلالته إلى مجلس كبار الدولة الذين
كانوا فى حاشيته قائلاً: إلى أى مدى أدرك كنه قوتى
هذه؟ عندما أرى حاكماً جالساً فى أواريس وآخر فى
بلاد كوش، وأنا أجلس مشتركاً مع رجل من العامو
وزنجى، وكل رجل منهما مسئول عن جزئه من مصر
هذه، وذلك الذى يقاسمنى الأرض لن أجعله يمر فى
ماء مصر حتى منف، تأمل إنه يسيطر على
الأسمنيين، ولا يرتاح رجل لصيرورته عبداً للستيو،
إنى سأصارعه وأبقر بطنه، وإن رغبتى هى تحرير
مصر والقضاء على الآسيويين . . . وعندئذ قال عظماء
مجلسه: تأمل ، لقد تقدم الآسيويين حتى وصلوا
القوصية، وقد أخرجوا ألسنتهم لنا حتى آخرها، إننا فى
طمأنينة نملك نصيبنا من مصر وألفنتين، والقوم
يجرثون لنا أحسن أرضهم، وما شيتنا ترعى فى
مستقعات الدلتا البردى، والشعير يدرس لخنازيرنا،
ومواشينا لم تغتصب . بسبب ذلك، وهو . . ويستولى
على أرض العامو، ونحن نمتلك مصر، ولكن كل من
يأتى إلى أرض ليناهضنا سننافضه . .

وكانوا قد أغضبوا قلب جلالته (بقولهم هذا): أما عن
مجلسكم هذا . . فإن هؤلاء العامو الذين . . تأملوا إنى
سأحارب العامو، وإن النصر سيأتى، وإذا . . بالبكاء،
فإن الأرض قاطبة سترحب بى، بوصفى الحاكم القوى
داخل طيبة، كامس حامى مصر.

ولقد أقلعت منحدرًا فى النيل بوصفى محارباً، لأهزم

العامو بأمر آمون صادق النصيحة، وقد كان جيشى شجاعا يسير أمامى كأنه عاصفة من نار، وكان جنود المازوى فى مقدمة معاقلنا، ليتجسسوا على مواقع الستيو، وليد مروا مواقعهم شرقا وغربا، ومعهم طعامهم وأدمهم، وقد كان جيشى المكتظ بالمؤن فى كل مكان.

وقد أرسلت جيشاً من المازوى، فى حين أنى قد أمضيت يومى .. لأحبس .. تيتى بن بيوبى داخل نفروسى، وكنت لا أريد السماح له بالهرب، ثم جعلت العامو الذين اعتدوا على مصر يولون الأدبار، وقد كان مثله كمثّل رجل ... قوة العامو، وأمضيت الليل فى سفينتى وقلبى فرح، وعندما أضاء النهار انقضضت عليه كالصقر، وعندما جاء وقت تعطير الفم كنت قد هزمته وخربت أسواره، ذبحت قومه وجعلت زوجته تنزل إلى شاطئ النهر. وكان رجال جيشى كالأسود عندما ينقضون على الفريسة، ومعهم العبيد والقطعان والأدم والشهد، فقسّموا غنائمهم وقلوبهم فرحة، وكان إقليم نفروسى على وشك السقوط، ولم يكن بالأمر العظيم أن تحبس زوجة ... وكان برشاق غير موجود عندما وصلت، وهربت خيولهم من الداخل والحامية (٢٢) .


وهنا يتهشم النص الهيراطيقى، فنكمله بما جاء فى لوحة الأقصر التى تقول على لسان (كامس) وهو ينادى عدوه (أبوب / أبوفيس) الذى لا شك كان فى عاصمة الهكسوس (حواريس):

إن قلبك معطل أيها الآسيوى الوضيع، الذى اعتاد أن يقول: أنا سيد، وليس لى هناك ند من خمون وبى حتور حتى أفاريس (٢٣) .

(٢٢) نشره جاردنر، وجن، فى جرنال الأركيولوجيا المصرية

J.E.A, III, P ٩٥ .

انظر كذلك لافى

ويبدو أن كامس لم يتمكن من تحرير أفاريس/ حواري، فنتحدث خاتمة اللوح عن عودة كامس منتصراً إلى عاصمته حيث جن الناس به فرحاً، ومع ذلك لم يكن هو القاهر النهائي للهكسوس، حيث ادخر هذا العمل المجيد لخليفته وشقيقة أحس  الذى يلتقى باسمه مع آموس عند يوليوس الإفريقى، ومع آموزس عند يوسابيوس، ومع بعض التحريف عند يوسفيوس : تثموزيس، وهو الفرعون الذى مجده الأجيال اللاحقة باعتباره محرر مصر من الهكسوس ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة المأجدة.

وقد علمنا بأمر أحس وانتصاراته من مقبرة فى الكاب فى أقصى جنوبى مصر، تخص واحداً من ضباط جيشه يحمل ذات اسم الفرعون (أحس بن أبانا) الذى حكى فى نقوش مقبرته كيف أبحر مع سيده الملك أحس شمالاً لمهاجمة الآسيويين (العامور / السيتو) ليتابعوا حصار قلعة الهكسوس فى حواري، وكيف انسحب العامو عبر سيناء حتى شاروهين جنوبى غربى فلسطين، وهناك استمر أحس يحاصرهم لمدة ثلاث سنوات على التوالى، إلى أن استسلموا مرة أخرى وتم إجلاءهم عن المنطقة نهائياً. ^(٢٤) وإن كان خبر إجلاءهم عن جنوبى فلسطين من وجهة نظرنا محل شك كبير، ويبدو أنهم ظلوا هناك، وفى مناطق متفرقة بشبه جزيرة سيناء يتمتعون ببعض قوتهم، التى كانت تحتاج من الفراعين إلى تجريد الحملات بين حقبة وأخرى لتأديبهم. ومما يدل أيضاً على وجودهم القوى ما جاء فى تاريخ تحتمس الثالث بعد قرن من تلك الأحداث، حيث وجد (زيتة) فى مقدمة تاريخ تحتمس الثالث إشارة لوجود هكسوس فى قلعة شاروهين نفسها، وقد ترجم زيتة تلك الفقرة كالآتى:

السنة الثانية والعشرون، الشهر الرابع من فصل الشتاء،
اليوم الخامس والعشرون، مر جلالته بقلعة ثارو فى
أول قلعة مظفرة، ليطرد الذين هاجموا حدود مصر
بشجاعة ونصر وقوة وفوز.

وقد مرت مدة طويلة من السنين كان فيها الآسيويون
يحكمون البلاد اغتصاباً، والكل يخدمون أمام ... وقد
أتفق فى أزمان أخرى أن الحامية التى كانت هناك
كانت فى مدينة شاروهين، وهم الآن من يرد إلى نهاية
الأرض فى استعداد للثورة على جلالته ^(٢٥).

الواضح خلال التاريخ أن سيناء ظلت مرتعاً للبدو الخارجين على السلطان المصرى المركزى طوال الوقت، وأنهم كانوا من القوة بحيث جعلوا من سيناء شبه مملكة لهم أو مجموعة ممالك وكثيراً ما دون التاريخ اعتداءهم على حدود الدلتا الشرقية، كما يشهد بذلك النص السالف، وكان الفراعين دوماً بحاجة إلى تقوية


(٢٤) نفسه: ص ١٩١ .

(٢٥) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

حدود مصر الشرقية لهذه الأسباب تحديداً حتى أقاموا أثراً مشهوراً في تاريخ مصر القديمة هو (سور الأمير الذي يصد الآسيويين) على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء^{٢٦}.

وأحيانا كان تمردهم يصل إلى درجة الهجوم على المدن المصرية العامرة شرقى الدلتا كما حدث فى عهد الملك ستى الأول، فى السنة الأولى من حكمه ١٣٠٢ ق.م عندما هاجموا مدينة بى توم أو فيثوم مما اضطره إلى تجريد حملة تأديب كبرى^(٢٧). وعند حملته على الشام اصطدم مرة أخرى عند رفح بجماعات الشاسو^(٢٨) أو بدو سيناء، ولم يتمكن من دخول فلسطين إلا بعد أن أحرز نصراً شديداً عليهم.

المهم أنه إذا كانت الوثائق قد أفادت باسم فرعون التحرير (أحمس) فإنها لم تفدنا حتى الآن باسم فرعون مصر وقت الغزو، باستثناء ما ورد عند مانيتو عن فرعون باسم (توتيمايوس) أو (توتيمايو) بعد حذف التصريف الإسمى اليونانى. وقد لجأ المتأولون المتعجلون إلى تصحيفه بالقراءة إلى (تحتمس)، لكن ذلك لم يحل الإشكال، فلدينا بين الفراعين أكثر من تحتمس، ومانيتو لم يحدد لنا من هو الـ (تحتمس) المقصود بين الفراعين؟ ثم أن ما يفصل فى الأمر، أن الملوك التحامسة لم يحكم أحدهم قط قبل الأسرة الثامنة عشر، أى أنهم حكموا بعد طرد الهكسوس من مصر، وأولهم (تحتمس الأول)، الملك الثالث فى ترتيب ملوك الأسرة الثامنة عشر، بعد أحمس وآنحنتب الأول.

إلا أن الباحث (غطاس الخشبة) نبهنى إلى أمر هام بالفعل، حيث أنه تابع قراءة جداول بردية تورين للملوك، المرفقة بكتاب (جاردنر): مصر الفراعنة، وطابق اسم (توتيمايو) مع الاسم المذكور فى العمود السادس تحت رقم ٢٤^(٢٩). إلا أن الأرجح بالفعل أن يكون هو الفرعون الذى ورد بذات البردية فى العمود رقم ٧ تحت رقم ٥، باسم (سعنخ رع أن سوا دج / تو)، الذى حكم ثلاث سنوات وشهرين، وهو الاسم الذى ينقح إلى اسم مشهور دون سبب واضح لتلك الشهرة، هو (سخم رع سوا دج / توى)، واشتهر باسم (سبك حتب الثالث)  ولا سبيل لتفسير تلك الشهرة إلا بحدث كبير مثل حدث غزو الهكسوس.

ولما كان حرف (ت) ينطق - فى تلك الحال - (دج)، مع تعطيش الجيم، كما فى نطق اسم مدينة (أبيدوس) بذات الطريقة (آبدجو) بدلا من (أبيدو) المعتادة، فإنه يمكننا أن نطق اسم الفرعون نطقا يوافق زمن مانيتو بتخفيف (دج) إلى (ت)، ليقراً: (سخم رع / سوا / ت / تو وى)، وهو الاسم الذى يحوى كل المكونات الفونيطيقية للاسم الذى أورده مانيتو (توتيمايو) ويقع ترتيبه فى سلسلة الملوك - بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة - الثامن والعشرين، وهو بذلك أحد ملوك الأسرة الثالثة عشر، التى حدث الغزو إبانها بالفعل،

(٢٦) برستد: فجر الضمير، مكتبة الأسرة، ص ٢١٨، ٢١٧.

(٢٧) غطاس الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ١٣٧.

(٢٨) سامى سعيد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٢٢.

(٢٩) غطاس الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ١٣٧.

وهو ما يعنى وجود أسرة بهذا الرقم فعلاً فى طيبة، ولا يصح أن نذهب مع من ينصحون بإلغائها، لصالح عمليات التزمين السالف الإشارة إليها.

والمطالع لقائمة سنى الملوك الذين حكموا بعد الأسرة الثانية عشرة، سيلحظ فوراً أن هذا العدد من الملوك قد حكم مدداً قصيرة جداً، حيث أن الملك منهم لم يحكم أكثر من شهور، وبعضهم لم يحكم سوى أيام، وأطول مدة حكمها ملك من بينهم لا تتجاوز سنواتها أصابع اليد الواحدة، كما فى حالة (توتيموى / سبك حتب الثالث)، وحالة أخرى وحيدة نادرة استمر فيها أحدهم ثلاث وعشرين سنة، وهو الأمر الذى يشير إلى قصر عمر قياسى للأسرة الثالثة عشر، وصراع هائل على السلطة، أدى إلى تفكك نظام الدولة وانهيار البلاد، إلى الحد الذى سمح بدخول الهكسوس إليها. لكن فى ضوء تضارب التزمين لا يمكن بحال أن ندقق بشكل قاطع الزمن الذى دخل فيه الهكسوس مصر، على الأقل فى هذه المرحلة من البحث، وإن كان العلماء قد حددوه بعام ١٧٨٨ ق.م أو نحو ذلك، وهو العام الذى حددوه لسقوط الأسرة الثانية عشرة.

أما الدليل الأوفى على صدق (مانيتو) فهو إشارته لاتخاذ الهكسوس عاصمة فى شمالى مصر باسم (أواريس / أفاريس / حواريس) واتخاذهم إلهاً رئيسياً باسم (تيفون)، وهى أمور لا جدال بشأن صحتها، حيث حدثتنا الوثائق المصرية المكتشفة عن مدينة الهكسوس باسم (حواريس)، وقد وردت باسمها هذا عدة مرات فى وثائق التحرير، وطبقاً لما نقله (يوسفوس) عن (مانيتو)، فإن حواريس كانت تقع فى مقاطعة باسم (المقاطعة الستروية)، وتبعاً لما بين أيدينا الآن من تصنيف لمقاطعات مصر، لم نعثر على مقاطعة بهذا الاسم.

وقد ظلت نظرية (مانيتو) - التى أخذ بها المؤرخون القدامى، مسيطرة وسائدة، إلى مايزيد عن سبعة عشر قرناً على التوالى، والتى تؤكد - بتفسير (يوسفوس) - أن بنى إسرائيل، هم ذات عين الهكسوس، وأن طردهم قد تم على يد فرعون باسم (أحمس)، وأن بعضهم بقى أسيراً فى مصر، ثم اشعلوا نار ثورة ضد فرعون باسم (آمنحتب)، ومن علوم المصريات، وحسب جدول الملوك، نعلم أن هناك أربعة ملوك حكموا بهذا الاسم خلال الأسرة الثامنة عشر المصرية، أولى أسر الدولة الحديثة، دولة الإمبراطورية، وقد تم ترتيب ملوك تلك الأسرة وفق قوائم الملوك القديمة (أبيدوس، الكرنك، بردية ليدن .. إلخ)، مع الاستعانة بالكشوف الحديثة فى علوم المصريات لآثار مصر، لملء الفراغات التى أسقطتها تلك الجداول، بحيث جاءت كالتالى:

| اسم الفرعون | باليهروغليفية | التاريخ الافتراضى لسنة حكمه ق.م |
|-----------------------|---|---------------------------------|
| أحمس |  | ١٥٧٥ - ١٥٥٠ |
| آمنحتب الأول |  | ١٥٢٨ - ١٥٥٠ |
| تحتمس الأول |  | ١٥٢٨ - ١٥١٠ |
| تحتمس الثانى |  | ١٥١٠ - ١٤٩٠ |
| حاتشبسوت |  | ١٤٩٠ - ١٤٦٨ |
| تحتمس الثالث |  | ١٤٦٨ - ١٤٣٦ |
| آمنحتب الثانى |  | ١٤٣٦ - ١٤١٣ |
| تحتمس الرابع |  | ١٤١٣ - ١٤٠٥ |
| آمنحتب الثالث |  | ١٤٠٥ - ١٣٦٧ |
| آمنحتب الرابع/ خناتون |  | ١٣٦٧ - ١٣٥٠ |
| سمنخ كارع |  | ١٣٥٠ - ١٣٤٧ |
| توت عنخ آمون |  | ١٣٤٧ - ١٣٣٩ |
| آى |  | ١٣٣٩ - ١٣٣٥ |
| حور محب |  | ١٣٣٥ - ١٣٠٨ |

{ بينهما فترة حكم
مشترك

أسرة العمارنة
ساقطة من الجداول
المصرية القديمة

لكن علوم المصريات الحديثة، رغم أخذها - بعد تأكيدها - بما ذكره (مانيتو) عن أحمس كفرعون للتحرير، فإنها لم تظمن إزاء المعطيات الأثرية المكتشفة إلى فكرة أن الأسرى الإسرائيليين قد خرجوا بعد ذلك زمن فرعون باسم (آمنحتب)، ومن هنا طرحت عدة نظريات تحاول تزيين خروج بنى إسرائيل من مصر، وإذا أخذنا عينات منها على الترتيب الزمني، سنجد منهم من ذهب إلى خروجهم زمن الفرعون (حتشبسوت)، ومنهم من أرجأ ذلك لزمن شريكها فى العرش وخليفته الفاتح المظفر (تحتمس الثالث)، بينما ذهب آخرون إلى تأخير ذلك الزمن إلى أيام (آمنحتب الثالث) أو (الرابع / إخناتون)، باعتبار ما ذكره (مانيتو) عن صفات الفرعون المحب للسلم واسمه أمنوفيس، واحتسابه هو فرعون التسخير والاستعباد. وأن الخروج تم فى عهد ابنه (رهامبيس) أو (رمسيس) كما قال (مانيتو) والذى سيتأرجح ما بين كونه إخناتون (آمنحتب الرابع) وبين

كونه (حور محب)، لكن ذلك الفرض جاء قبل أن تلقى علوم المصريات الأركيولوجية الضوء على كثير من المجهول، واكتشفت أنه لا (رمسيس) ولا (حور محب) كانا أبداً أبناء لآمنحتب، بل أنهما قد أتيا بعد ذلك بفترة، وفي أسرة أخرى هي الأسرة التاسعة عشرة. ثم أخيراً تأتي آخر النظريات وأكثرها شيوعاً ورسوخاً الآن، وهي التي تقول باستعبادهم زمن الفرعون (رمسيس الثانى / ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشر وأجلهم شأنًا، وخروجهم زمن ولده (مرنبتاح / ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م).

نظرية الخروج زمن (حتشبسوت) :

وهي القائلة بخروج بنى إسرائيل من مصر زمن الفرعون (حتشبسوت) و (تحتمس الثالث) الذى شاركها فى الحكم فترة من الوقت، ثم أزاحها عن العرش وانفرد به، وقاد جيوش مصر ليقم أكبر إمبراطوريات ذلك الزمان، ويمثل تلك النظرية أصدق تمثيل الأستاذ (جارستانج) عضو بعثة مارستن Marston التابعة لجامعة ليفربول، للتقريب فى فلسطين. وقد ملأ (جارستانج) الدنيا صخباً وضجيجاً بما زعمه عن كشف أركيو لوجى حاسم فى الأمر جميعه، حيث عثر على جعران فى مقابر أريحا الملكية، عليه إشارات فسرهما كأدلة قاطعة، تثبت أن (موسى) قد أنجبته الفرعون (حتشبسوت) عام ١٥٢٧ ق.م بالتحقيق، عندما كانت أميرة، وقبل أن تتربع على عرش مصر، أى خلال حكم الفرعون (تحتمس الأول) أو (تحتمس الثانى). وأن (موسى) قد تربى فى بلاطها وبين حاشيتها بعد ذلك، ثم فر من مصر عندما نجح الانقلاب الذى قام به (تحتمس الثالث)، ثم عاد ليقود الخروج أثناء حكم (تحتمس الثالث) عام ١٤٤٧ ق.م. وأن بنى إسرائيل وصلوا أريحا وفتحوا فلسطين بعد سبعة وأربعين عاماً من خروجهم من مصر، أى عام ١٤٠٠ ق.م على وجه التحديد.

وكما ظهرت ضجة (جارستانج) فجأة، خفتت فجأة، وانتهى (جارستانج) إلى الصمت التام، ولم يعد أحد يتحدث عن جعرانه الأعجوبة، ويبدو أن المصروlogيين لم يقتنعوا تماماً بتأويلاته لنقوش جعران أريحا، ربما لسقوطه فى أخطاء هامة تبرر ذلك الخوف، فالتلشى لكشف بهذه الخطورة.

وممن ذهبوا إلى ترمين الخروج بأيام حكم الفرعون (حتشبسوت) الباحث (هانزجيدك H.Jedic) الذى أكد هذا المعنى، وحاول إيجاد تبرير معقول للقناعة بغرق الفرعون وجيوشها، رغم عدم وجود أى وثيقة تاريخية فى كل مدونات حوض المتوسط، تشير إلى غرق أى جيش أو أى فرعون. فأرجع الأمر إلى انفجار بركان جزيرة تيرا Tira المعروفة الآن بجزيرة سانتورين Santorin، الواقعة شمالى جزيرة كريت بحوالى سبعين كيلو متراً، حيث زعم أنه قد تصادف خروج الإسرائيليين عقب الانفجار، ولحظة وصولهم إلى بحيرة المنزلة لى يسلكوا الطريق الساحلى إلى أرض كنعان، وفى اللحظة التى كانت فيها جيوش (حتشبسوت) تدخل المنطقة، و (موسى) وأتباعه على ربوة عالية بعد مرورهم من جنوبى البحيرة، وصلت موجه المد الهائلة التى سببها البركان، فأدى إلى غرق المصريين. و (جيدك) بذلك يفترض أن بحر سوف الذى عبره

الإسرائيليون، لم يكن بحراً بالمعنى المفهوم، بل موضعاً بساحل بحيرة المنزلة الجنوبي شمال الدلتا، ويكون المد الذى أغرق المصريين قادماً من البحر الأبيض المتوسط.

ويبدو لنا أن من ذهبوا إلى تزمين الخروج بعهد الفرعونة (حتشبسوت)، قد ازدادت قناعتهم بمذهبهم، استناداً إلى النقوش التى خطت زمن حتشبسوت بحروف هجائية عبرية فى صورة بدائية، عند موضع جبل الشريعة (سانت كاترين وموسى بسيناء)، وورد فيها أكثر من مرة الاسم (منشه Manassah)، الذى دفع إلى الظن بأنه اسم (موسى) نفسه، هذا مع الاعتقاد الراسخ أن جبل سانت كاترين بسيناء، كان هو الجبل الذى توجه إليه الخارجون من مصر، إلا أنه لوجه الحق، أن حل رموز تلك النقوش غير محقق، إضافة إلى أن الصفات التى وردت فى تلك المخربشات عن المدعو (منشه) تخالف إلى حد بعيد ما ورد بشأن (موسى) فى التوراة، فمنشأة هذا كان عاملاً مصرياً فى المحاجر هناك، يعبد آلهة مصرية كثيرة، وكان فيما يبدو مقرباً فى زمن سابق من الفرعونة حتشبسوت. (٣٠)

وربما انبنت قناعة (جارستانج) و (هانزجيدك) على ذلك النص المصرى عن (حتشبسوت)، والذى وجد منقوشاً على واجهة أحد معابدها، فى منطقة اسطبل عنتر بمصر القديمة وهو معبد إقليمى، أطلق عليه اليونان اسم (سبيوس أرتيميدس) ويحمل علامات شديدة الدلالة يمكن تأويلها مع قصة الخروج، وهو نص مدهش بالفعل، يقول:

إصغ إليّ؛ إن جميع الناس من البدو هم على ترحالهم، وإنى لم آخذ فى اعتبارى أعمالهم الشاذة، ولم تشغل خاطرى، فإنى لم أنس أن أشيد وأصلح ما قد دمره وأتلفوه من قبل، وكان من بينهم حشود تقوم بهدم ما سبق تشييده، كانوا يحكمون بغير مشورة رع، ولم يحدث أن تم التصرف طبقاً للأمر الإلهى، حتى عصر جلالتي.

وحكم جلالتي الآن ثابت بقوة رع، لأنه قد سبقت النبوءة بمولدى، بأنى سأكون من الملوك القادرين المنتصرين، ولذلك جئت كالحية النارية الملهبة ضد أعدائى، ولما سمحت لأولئك الذين أغضبوا الآلهة بالخروج، فكان الأرض ابتعلت آثار أقدامهم، وهذه إرادة أبى الآلهة، التى رتبت ذلك فى حينه، وهم لا يوافقون على إلحاق الضرر بمن جاء بإرادة الإله آمون، وإنى أتمتع بقوة احتمال حين تسطع عليه أشعة الشمس النورانية، فوجود جلالتي ولقبي شرعى وقانونى، والإله حورس الصقر هو الذى يحمينى بجناحيه، وينشر اسمى الملكى إلى أبد الآبدين (٣١).

(٣٠) روبنسون: إسرائيل فى ضوء .. سبق ذكره، ص ١٠٧ .

(٣١) الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ١٩٣، ١٩٤ .

الواضح لدينا هنا أن (حتشبسوت) تريد تأكيد شرعية ملكها بإرادة الإله (آمون) وهناك نصوص عديدة حاولت فيها تأكيد تلك الشرعية، مع دليل آخر يدعم ذلك الشك، حيث اصطنعت قصة تقول: أنها ابنة مباشرة للإله آمون بالجماع الجسدي مع والدتها وهو الأمر الذي تكرر مع أكثر من فرعون، وهو ما يقول بشأنه (عبد العزيز صالح): " وعادة ما ازداد تمسح هؤلاء بالدين وكرامات آمون، كلما أحس أحدهم بشبهة يمكن أن تمس شرعية ولايته للعرش، حيث يسارع إلى تأكيد بنوته المباشرة له، نتيجة تقمصه روح أبيه حين أنجب، وعبرت عن هذه الادعاءات أربع روايات للفراعنة: **حتشبسوت**، و**تحتمس الثالث**، و**تحتمس الرابع**، و**آمنحوتب الثالث**" (٣٢).

ويشير كل من (دريتون) و (فاندييه) إلى: " إن فكرة تدخل الإله تدخلاً مباشراً فى إنسال الملك الجالس على العرش، كانت شائعة فى الأسرة الثامنة عشر، إذ تمثل النقوش فى معبد الدير البحرى عن حتشبسوت، ومعبد الأقصر عن آمنحوتب الثالث، مراحل الاقتران الإلهى.. أى اجتماع آمون مع الملكة الوالدة، بعد أن يتخذ مظهر الملك الوالد" (٣٣).

أما الجزء الخاص بالبذو فى ذلك النص، فقد جاء عرضاً لإثبات اقتدارها وسلطانها، ولم يكن مقصوداً لذاته، ويبدو لنا لونا من الادعاءات الكثيرة المتكررة فى حوليات الفراعنة غير الشرعيين أو الضعاف. فيدعى أحدهم أنه أسقط حضارة دولة معادية قبل زمنه بمئات السنين، أو يزعم أنه ببنى المعبد الفلانى وليس له، أو يكتفى بمحو اسم الفرعون صاحب الأثر العظيم ويضع عليه اسمه، وهى أمور معتادة ومعلومه مع دارس التاريخ المصرى القديم. والنص هنا يتحدث عن بدو كانوا يحكمون مصر لا عن عبيد بمصر، إنه إشارة للهكسوس الحكام وليس للإسرائيليين المستعبدين ، مما يشير إلى أنها أرادت أن تنسب لنفسها تحرير مصر من الهكسوس الذين حكموا مصر بالنص، وهدموا معابد الآلهة وحكموا بغير مشورة الإله رع، النص هنا لا يمكن تفسيره إطلاقاً بأنه يتحدث عن بنى إسرائيل، فلا التوراة ادعت انهم حكموا مصر، ولا مصر دونت ذلك، النص يتحدث إذن عن الهكسوس تحديداً فى فخر لفرعون مشكوك فى شرعية حكمها.

أما الجملة " ولما سمحت لأولئك الذين أغضبوا الآلهة بالخروج، فكأن الأرض ابتلعت أقدامهم "، فيبدو أنها تشير إلى اغتصابها عمل الفرعون (أحمس) الذى سمح للهكسوس بالخروج من حواري بعد حصار طويل ومفاوضات ليتجهوا إلى شاروهين، أما الباحث (غطاس الخشبة) فيبدو أنه لم يلتفت إلى مسألة حكمهم لمصر وهدمهم لمعابدها، ووقف فقط عند تلك الجملة، ليستنتج أنهم بنى إسرائيل.

وقد رتب الباحث نتائج عمله وأجملها فى قوله: " إن الهكسوس طردوا من قلعة (حواري) سنة ١٥٦٨ ق.م، فى السنة الخامسة لحكم (أحمس الأول)، وظل يطاردهم حتى دخلوا فلسطين، وأن (موسى النبى) ولد

(٣٢) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة للطباعة الأميرية، ج ١، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٩٩ .

(٣٣) إتيين دريتون، وجاك فاندييه: مصر، ترجمة عباس بيومي، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص ٩٢، انظر أيضاً: جيمس هنرى برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقد العصور إلى الفتح الفارسى، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٢٩، ص ١٧٩.

سنة ١٥٤٨ ق.م، فى أول حكم الملك (آمنحتب الأول)، وانتشل من السفط تحت رقابة أخته مريم بنت عمران، وأن خروج بنى إسرائيل كان فى نهاية حكم (حتشبسوت) عام ١٤٦٨ ق.م بقيادة موسى، حيث كان له من العمر ثمانون عاما، والأشبه إن صح هذا، أنها ماتت غرقا عندما لاحقتهم مع الجيش فى أطراف بحيرة المنزلة، أو أنها حُمت بسبب ذلك، ودفنها تحتمس الثالث سراً، لاغتصابها الملك منه، ويبين من ذلك أن تاريخ طرد الهكسوس من مصر سنة ١٥٦٨ ق.م، كان سابقا لخروج بنى إسرائيل من مصر سنة ١٤٦٨ ق.م بمائة سنة، الذين كانت متاعبهم قد بدأت فى مصر منذ ذلك الحين، عقب طرد الهكسوس" (٣٤).

والواضح أن (الخشبة) قد حاول باجتهاد أن يوفق فى بحثه، بين رواية التوراة وبين رؤيته وترميناته هو الاجتهادية لوقائع التاريخ، وفى ذلك لا مثله عليه، لأننا لا نملك مصدراً آخر يتعلق بتفاصيل الخروج الإسرائيلى سوى التوراة، ولا مناص من أخذه كمصدر أساسى، عند بحث أى شأن من شئون الخروج الإسرائيلى من مصر.

إلا أن تحديد زمن الخروج الإسرائيلى من مصر، بزمان الفرعونة حتشبسوت، سيتضارب تماماً مع تقارير التوراة التى اعتمدها هو نفسه واعتمدها غيره، كما نعتمدها نحن، حيث قررت التوراة أن الإسرائيليين قد عاشوا فى مصر ٤٣٠ عاماً، وحيث أن الأستاذ الباحث قرر بحساباته أنهم دخلوا فى عهد الملك الهكسوسى الثالث، الذى ذكره (مانيتو) باسم (أبخان)، فإنه بحسبة بسيطة، سنجدهم قد دخلوا مصر بعد ٦٣ عاماً من غزو الهكسوس، ولما كان غزو الهكسوس لمصر قد تم حوالى ١٧٨٨ ق.م، فإن ذلك سيعنى دخول بنى إسرائيل مصر حوالى ١٧٢٥ ق.م، ولما كان باحثنا يقول بخروج بنى إسرائيل زمن (حتشبسوت) التى توفيت عام ١٤٨٠ ق.م، فمعنى ذلك أن الإسرائيليين لم يقضوا فى مصر أكثر من ٢٤٥ عاماً.

ثم أننا لو احتسبنا النص المعتمد صادقاً تماماً فهو يشير لحكام غزاة وليس لعبيد إسرائيليين، مما يعنى أن مستنده الأساسى لا يعطى التفسير الذى يذهب إليه هو نفسه. وإن كان ذلك لا يقلل من جهده المحمود.

نظرية الخروج زمن الفرعون تحتمس الثالث :

وممن اقتربوا بتزمين الخروج من زمن الفرعونة (حتشبسوت)، من ذهب إلى أن الخروج قد حدث زمن الفرعون (تحتمس الثالث) شريكها فى الحكم، وخليفها المباشر، وقد قال بهذا الرأى عدد من الباحثين نأخذ منهم نموذجاً الدكتور (أحمد سوسة). فى كتاب واسع الانتشار بين قراء العربية، معنون باسم (العرب واليهود فى التاريخ)، وفيه قام سوسة بمزج النظرية التى أسسها (جارستانج) بأرائه الخاصة، التى توصل إليها بشأن جنس هؤلاء الخارجين من مصر، وهو ما يستحق المعالجة، فقط بسبب الانتشار الواسع للكتاب المذكور وليس لأى سبب علمى، وحيث اعتمد (سوسة) على تأسيس يعتمد اسم الفرعون المذكور عند (مانيتو) كفرعون للخروج، وقرأه (يوسفوس) بالاسم (نثموزيس)، ليصحفه (سوسة) إلى

(٣٤) الخشبة: رحلة .. سبق ذكره ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

(تحتمس) وليس (أحمس)، مهملًا قراءة (يوسابيوس) و قراءة (يوليوس الأفريقي)، اللتان كانا بإمكانهما تصويب ذلك التصحيف مقدما، فهو عندهما (آموزيس) أو (آموس) أى (أحمس).

يقول الدكتور (سوسة): إن جماعة يعقوب / بنى إسرائيل، قد دخلت مصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد، لحوقا بالهكسوس الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك، وأن تلك الجماعة عاشت هناك حوالى خمسة قرون، أخذاً بذلك بتقدير (مانيتو) حول زمن وجود الهكسوس فى مصر، وبزيادة من سبعين إلى مئة عام عن تقدير التوراة لمدة بقاء بنى إسرائيل فى مصر. ودليله على دخولهم زمن الهكسوس، ما عثر عليه من آثار الهكسوس فى مصر، من أسماء ذكرها هى: (يوسف إيل) أو (يعقوب إيل) (٣٥).

وقد أخطأ الرجل بداية فى ذكر الأسماء، فما تم العثور عليه تدقيقا هو الاسم (يعقوب هر)، وقد ترجمها المؤرخ (فيليب حتى): " ليحم هور إله الجبل"، واعتبرها إشارة قاطعة ليعقوب، المعروف فى التاريخ الدينى باسم إسرائيل. (٣٦) بينما نرى من جانبنا أن صدق الترجمة هى (ربوة يعقوب)، وليس (ليحم هور إله الجبل). ومعلوم فعلا أن المفردة (هور) تعنى فى العبرية (الجبل)، لكن التوراة كانت تشير إلى العشيرة أو القبيلة أو النسل بكلمة (ربوة)، التى تشبه عدد النسل بتراكم الرمال ليصنع ربوة كالجبل. وتكرر هذه المعانى فى التوراة، كما فى القول: " وأجعل نسلك كتراب الأرض / تكوين ١٣/١٦، وباركوا رفقة وقالوا لها: أنت أختنا، صيرى ألوف ربوات، وليرث نسلك باب مبغضيه/تكوين ٢٤/٦٠ ". ومن ثم فالمقصود بيعقوب هور هو جبل يعقوب أو ربوة يعقوب أى قبيلة يعقوب أو نسل يعقوب. المهم أن (سوسة) يستمر متابعاً فيقول: إن النتيجة الحتمية، لبقاء سبعين شخصا مع نسلهم فى مصر مدة خمسة قرون متصلة، أن ينصهروا بالكامل ثقافيا وعرقيا فى الشعب المصرى. وهو قول مقبول تماما وبالفعل، ويستند قبوله لدينا إلى ملاحظاته من إشارات فى (مانيتو) وفى (التوراة)، عن لفيف مع الخارجين، ليسوا من الإسرائيليين، وهو ما وجدناه عند (مانيتو) فى حديثه عن أثاروا الشغب فى حواريس ووصفهم بـ (المصريين الفاسدين)، وهو لا شك مأثور قديم معلوم ظل يتواتر حتى وصل (مانيتو). وهو المأثور الذى كان يعلم أن هؤلاء كانوا مصريين، لكنهم فاسدين، وهو الوصف الذى كان المصرى القديم يطلقه على المارقين بالمعنى الدينى، أو على الخونة بالمعنى الوطنى، أما التوراة فقد وجدناها تقول لحظة الخروج من مصر:

فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو
ستمائة ألف ماش من الرجال، عدا الأولاد، وصعد
معهم لفيف كثير أيضاً / خروج ١٢ / ٣٧، ٣٨.

(٣٥) أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، ط٢، د.ت، ص ٢٧.

(٣٦) اليوسف: سبق ذكره ... ص ٣٨.

وإذا كان النص هنا لم يوضح جنس هذا اللقيف، فإن البحث وراء الأمر في الكتاب المقدس يكشف لنا عن جنس هذا اللقيف، في حديث لموسى أمام شعبه في قادش وهو مالم يذكره سوسة، حيث وقف يخطب فيهم ويردد على مسامعهم وصايا الرب، ومن بين تلك الوصايا الوصية التي تقول:

لا تكره مصر يا لأنك كنت نزيلا في أرضه، والأولاد
الذين يولدون لهم في الجيل الثالث، يدخلون منهم في
جماعة الرب / تثنية ٧/٢٣.

هو ما يعني وجود مصريين بين الخارجين ثم يقول (سوسة): إنه قد بقي بعد تحرير مصر من الهكسوس شراذم أسرى لا يمكن تصنيفهم جنسيا، كما لا يمكن القول أن هؤلاء الباقيين هم تحديداً بنى إسرائيل فقط، ويرى (سوسة) أن هؤلاء قد أخذوا بديانة التوحيد الآتونية التي تدعو إلى عبادة إله واحد باسم (آتون)، والتي دعى إليها الفرعون (أمنحتب الرابع / إخناتون). وقد أدى سقوط (إخناتون) وانهيار ديانته إلى اضطهاد تلك الجماعة، فحاصروهم (تتموزيس) كما قال (مانيتو) في مدينتهم (حواريس)، وقد احتسب (سوسة) أن (تتموزيس) هو (تحتمس الثالث ١٥٠١ - ١٤٤٧ ق.م) الفاتح المصري المظفر، وهنا أول سقطاته الشديدة، وخطئه، وسوء تقديره. لأنه بمقارنة بسيطة مدققة في قوائم الملوك المصرية، كان يمكنه أن يعلم أن (تحتمس الثالث) سابق لإخناتون بحوالي ثمانين عاما، وليس بعده، وأن هناك ثلاثة فراعنة تقع مدة حكمهم في المرحلة الفاصلة بين تحتمس الثالث وبين إخناتون هم على الترتيب: (أمنحتب الثاني ١٤٣٦ - ١٤١٣)، و(تحتمس الرابع ١٤١٣ - ١٤٠٥) و(أمنحتب الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٧).

ويستمر (سوسة) في عرض نظريته، فيقول: إنه لما فشل (تحتمس الثالث) في التغلب على هؤلاء المتحصنين في حواريس، هذا رغم ما نعلمه عن (تحتمس الثالث) كصاحب أعظم وأنجح حملات عسكرية في الشرق القديم، على وجه الإطلاق، ووصلت حملاته إلى سبع عشرة حملة، وصل بها إلى عمق الأراضي التركية والأرمينية الحالية. المهم أن (تحتمس الثالث) لما فشل في ذلك الحصار - فيما يرى سوسة - لجأ إلى مصالحتهم، على أن يخرجوا مع ممتلكاتهم وأنعامهم من مصر.

ثم يؤكد لنا الدكتور (سوسة) أن هذا الخروج كان حملة مصرية بحث على فلسطين، والقول بمصريتهم يدعمه اقتباسه مما ذهب إليه (غوستاف لوبون)، حول وجود عدد كبير من العبيد المصريين الفارين من سادتهم، إضافة إلى بقايا الهكسوس الذين أخذوا بعقيدة التوحيد الآتونية مع هؤلاء المصريين، والجميع عند (سوسة) كانوا يتكلمون المصرية القديمة. ويرى أن (موسى) نفسه - كما ذهب كثيرون - مصري مائة بالمائة، وهو ما سبق وأكدته (مانيتو) عن (أوزرسيف)، وبديل قول بنات كاهن مديان لإبيهن، بعد أن سقى لهن موسى الغنم: " فقلن رجل مصرى أنقذنا من أيدي الرعاة، وأنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنم / خروج ١٩/٢ ".

ثم يستند (سوسة) إلى أكثر التآريخ عمومية وفضفاضة، فيعمد لتأكيد مصرية موسى، من تاريخ الحضارة لول ديورانت، حيث يقول: إن (موسى) كان اسماً مصرياً، وأنه اختصار للاسم (أحموس)، وأن (موسى) المصري هذا ذهب إلى العبيد المصريين وبقايا الهكسوس الموجودين بمدينة (حواريس)، وقام بتعليمهم قواعد النظافة المتبعة عند الكهنة المصريين، باعتباره كان كاهناً مصرياً كما أفاد (مانيتو). وذلك لاتقاء شر وباء البرص الذى تفشى بينهم، وكان (موسى) من أتباع (إخناتون) ومن المخالفين للوثنية المصرية، وقد قال (مانيتو): إن (أوزرسيف) كان كاهناً مصرياً خالف ديانة المصريين، وفى المآثور الدينى أن ابنة فرعون أقامت عليه اساتذة من الكهنة المصريين، ليفقهوه فى علوم المصريين، هذا إضافة إلى ما جاء عند العلامة (ويج) ^(٢٧)، لينتهى إلى أن (موسى) لا علاقة له باليهود (يهوه)، إنما كان موسى من أتباع (إخناتون) وإلهه (آتون)، وأن نسبة (يهوه) لموسى لون من التزوير التوراتى. كذلك استند (سوسة) إلى آراء (سيجموند فرويد) بهذا الشأن، والتى سنفصلها بعد قليل، وأهم ما فيها أن تلك الفرقة الفارة من مصر، قد أخذت بعادة الختان، وهى عادة مصرية قح، أخذتها عنهم الشعوب الأخرى، ولم يكن تقرير التوراة لتلك العادة على بنى إسرائيل من بعد، إلا لأن الخارجين كانوا مصريين بالأساس، كما أخذ بملاحظة فرويد للقب الإلهى التوراتى (آدون)، ومطابقته لاسم إله التوحيد الإخناتونى (آتون).

وإعمالاً لكل تلك المقدمات، ينتهى (سوسة) إلى أن الخروج كان مصرياً خالصاً، وأنه كان حملة كآى حملة مصرية معتادة على فلسطين، وكل الفارق بين تلك الحملات جميعاً، وتلك الحملة بالذات، هو أن حملة (موسى) كانت منشقة على الدولة الفرعونية الأم، ولا تتمتع بالتنظيم العسكرى المألوف، ولا بإسناد الدولة، كما لم تكن ضمن أهدافها مصلحة الدولة المصرية، إنما كان فراراً من اضطهاد المجتمع المصرى الوثنى.

وعليه، فإن جماعة الخارجين كانت غريبة على أرض كنعان، مصرية، لا صلة لها ببنى إسرائيل الذين اختلطوا بالهكسوس عند دخولهم مصر، وذابت بذرتهم وضاعت تماماً مع طرد الهكسوس من مصر، فقامت التوراة مع هذا الضياع بتنسيب الجماعة المختلطة الخارجة من مصر، إلى جماعة بنى إسرائيل ويعقوب.

ومن هنا يستمر (سوسة) فى سرد تصوره للأحداث، فيقول: إن الخارجين بقوا فى سيناء أربعين سنة، هى المعروفة تقليدياً بسنوات التيه، لكنه عند (سوسة) لم يكن تيهها، بل انتظاراً وترقباً مقصوداً داخل سيناء وهو كلام معقول. لكنه يحدد لذلك أسباب كان أهمها أنه لم تكن لديهم آنذاك القوة الكافية لطرد سكان فلسطين والحلول محلهم، ثم يزيد فى إيراد الأسباب فيقع فى مجموعة أخطاء، من قبيل أنهم بسيناء أمنوا شر الآشوريين. ولو أجرى مراجعة تاريخية بسيطة لعلم أن الآشوريين كانوا واقعين آنذاك تحت الاحتلال الكاسى. والسبب الآخر أنهم بسيناء كانوا بمأمن من الآراميين، رغم أن الآراميين آنذاك لم يبلغوا بعد قوة تمكنهم من المغامرة. إضافة إلى حكمة أخرى هى أن أرض كنعان كانت حينذاك ساحة لمعارك بين رمسيس

الثانى والحيثيين، والخطأ هنا فادح حقاً، فهناك فارق عظيم بين زمن (تحتمس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) وبين زمن (رمسيس الثانى ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) يتجاوز تلك الأربعين عاما المفترضة للتيه، بمئتى عام إضافية، أى أن الفارق بين الزمنين كان ٢٤٠ عاما كاملة؛ هكذا؟! . . .

المهم أنه يقول بتجنب (موسى) التوغل فى فلسطين تلك السنين الأربعين (لم يحاول بالطبع إجراء أى حسابات ليعلم أن ماذهب إليه جعل سنوات التيه ٢٤٠ سنة)، وبعدها تمكن الخارجون من الدخول إليها بقيادة (يشوع) بعد موت موسى، بالعبور من شرقى الأردن إلى غربة فى عمق فلسطين. وقد تم ذلك دون مشاكل، لأن مصر كانت عاجزة عن التدخل فى شئون فلسطين، ومد يد العون لملوك كنعان، وهو بدوره خطأ هائل وتناقض عظيم، فلو أخذنا أخطائه بحساباتها صادقة، واحتسبنا الخروج قد حدث زمن (تحتمس الثالث)، وأن التيه قد حدث زمن (رمسيس الثانى)، فإنه فى كلا العهدين كانت مصر فى أوج اقتدارها وعزتها^(٣٨).

نظرية الخروج زمن خلو العرش بعد سقوط إخناتون :

ويمثل هذه النظرية العالم النفسى الأشهر (سيجموند فرويد)، وهى تأخذ ثقلها العلمى، ليس من وثائق التاريخ، بقدر ما تأخذه من تطبيق (فرويد) للتحليل النفسى على القبيلة الإسرائيلية الخارجة من مصر، ومحاولته حل بعض الغوامض فى تاريخهم بمنهج الفريد والممتع. وهو يسلم برواية التوراة عن الدخول إلى مصر والخروج منها، ولا يناقش التفاصيل إلا فيما لا يبدو متسقاً مع المنطق، لذلك فإن نظريته هى محاولة للتفسير أكثر منها محاولة لبحث علمى تاريخى جغرافى مقارن، لكنه توصل أثناءها إلى بعض الفروض لتحديد زمن الخروج وما حدث فى شبه جزيرة سيناء فى سنوات التيه، وأثر ذلك على تطور المفاهيم الدينية لبنى إسرائيل.

وقد لاحظ (فرويد) أن قصة إلقاء (موسى) فى اليم، قصة متواترة فى مآثورات الحضارات القديمة بالمنطقة، وفى أساطير الرافدين وبلاد اليونان القديمة وغيرها، حول أبطال الأساطير. ومن هنا رصد لنا أهم العلامات البارزة التى تشكل العناصر الأساسية، لقصة إلقاء البطل الأسطورى فى اليم، أو استبعاده عن بيت أبيه وأهله بأى أسلوب آخر، ليربى بين قوم غرباء. ليلفت نظرنا إلى أن الأسطورة التقليدية تقول بعدة عناصر، أولها استبعاد البطل وهو طفل، وثانيها إنقاذ البطل الطفل المستبعد، بواسطة الرعاة أو أناس بسطاء عموماً أو حتى حيوانات، فترضعه أنثى الحيوان المنقذ أو المرأة البسيطة، وحين يشب عن الطوق يعثر على أهله بعد مغامرات عديدة، وعادة ما تقول الأسطورة النمطية بانتقام الشاب اليافع من أبيه الذى فرط فيه، وبعدها يحظى بالشهرة والمجد.

لكن المشكلة فى قصة النبى (موسى)، هو أنها تختلف عن الأسطورة النمطية، إلى حد السير بعكس الاتجاه التقليدى للأسطورة، فالأسرة التى تتخلص منه وضعية جداً وليست أسرة نبيلة، فموسى سليل لاويين

(٣٨) أحمد سوسة: العرب واليهود .. سبق ذكره، ص ٢٣٤ : ٢٩٨ .

ضمن بنى إسرائيل المستعبدين بمصر، وتنقذه أسرة من البيت الملكى المصرى وتقوم الأميرة على رعايته، وهو عكس للأسطورة التقليدية التى تقول بإنقاذ الطفل المستبعد من بيت نبيل على أيدى أسرة وضيعة ليشب ويصلب فى البرارى والغابات. وقد كان إختلاف أسطورة موسى عن الأسطورة النمطية التقليدية، مثيراً دائماً لدهشة الباحثين فى الميثولوجى. والمفترض فى تفسير الأسطورة أن تكون الأسرة النبيلة التى ولد بها الطفل هى الواقعية، والأسرة الوضيعة هى الوهمية التى اصطنعتها الأسطورة، لتجعل نجاته البطل ميلاداً غير عادى أو مألوف، ليكتسب البطولة أو الملكية أو القدسية. أى أن الأسطورة النمطية تحوى أسرتين: الحقيقية فيها هى الأسرة النبيلة أو الملكية أما الأسرة الوضيعة فهى الأسرة الخيالية المتهومة، لكن حتى هنا نجد قصة (موسى) تغلب الوضع فنقول أنه ولد بأسرة وضيعة، ونما ونشأ فى أسرة نبيلة. لذلك وحسب قواعد الأسطورة النمطية لم يجد (فرويد) مفراً من احتساب الأسرة التى تخلصت من الطفل (الأسرة الإسرائيلية) هى الأسرة الوهمية، بينما كانت الأسرة الحقيقية هى التى ربته فى البيت الملكى، ومن ثم لابد أن يكون (موسى) مصرياً بالفعل، جنساً ونشأة وتربية وثقافة، من أصل مصرى نبيل. لكن حتى تحقق الأسطورة التوراتية أغراضها التى صيغت من أجلها، تجعل هذا المصرى يهودياً (٣٩).

وقد لاحظ (فرويد) أدلة هامة على صدق نظريته فى مصرية (موسى)، حيث قال: إن هذا المصرى الذى وهب لليهود دينهم الجديد، قد أسس بينهم عادة الختان، والمعلوم أنها عادة مصرية صميعة، كان أول من ابتدعها فى الشرق هم المصريون (٤٠)، وكان الشعب المصرى فريداً بها بين الشعوب. أما الأكثر دلالة فهو أن الديانة اليهودية، كانت تجهل العالم الآخر والحياة بعد الموت، بالرغم من التلازم بين عقيدة التوحيد وعقيدة العالم الآخر الخالد، وهو الأمر الذى قاد (فرويد) إلى أن ذلك النفى للبعث فى ديانة توحيدية يجب أن تأخذ بالعقيدة الأخروية يعطينا إشارات لكشف الأمر، فالمصريون يؤمنون طوال تاريخهم تماماً بالعقيدة الأخروية، ولكن يوجد زمن قصير جداً ومحدد فى مصر نفى الآخرة ورفض الاعتقاد بالعالم الآخر ويجب أن يكون هو زمن الخروج حيث ترك تأثيره بنفى الآخرة عند الإسرائيليين الخارجين، وهو ما يحدد لنا زمن الخروج. ونحن نعلم أن الفرعون الذى نفى الآخرة من عقيدته، ولا يوجد غيره فعل ذلك، هو (آمنحتب الرابع / إخناتون / ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م)، الذى دعى لعبادة إله واحد هو (آتون)، وألغى كل العبادات الأخرى، وأغلق بالقهر معابد الآلهة المتعددة. وفى نضاله ضد الخرافات الوثنية كان لابد أن يصطدم بأعمق العقائد فى نفوس المصريين، التى يمثلها الإله (أوزيريس / أوزير) إله الموتى والعالم الآخر وقاضى الحساب أمام الموازين، وفى سبيل التوحيد ضحى (إخناتون) بأوزير وبعالمه الآخر، ورفض الفكرة حتى لا تستدعى إلها يشارك (آتون) وحدانيته.

ويبقى لغز المفارقة بين أسطورة استبعاد موسى طفلاً وبين استبعاد الطفل البطل فى الأسطورة النمطية، وهو الأمر الذى وجد (فرويد) حله فى وضع (موسى) زمن (إخناتون)، وإنه كان بينهما صلة من

(٣٩) سيجموند فرويد: موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الكشاف، بيروت ط٤، ١٩٨٢، ص ١٢ : ١٧ .

(٤٠) نفسه: ص ٣٥ .

نوع ما. حيث ربما كان موسى أحد أعضاء الأسرة الملكية الحاكمة فى تل العمارنة مدينة إخناتون، وربما كان عظيم الطموح قوى التصميم. وبحكم مركزه السىادى، كان يحلم بقيادة تلك الإمبراطورية المصرية الواسعة، التى تسيطر على معظم الشرق الأوسط القديم، ومن ثم قام يؤيد الديانة التى دعا إليها سيده الملك بشدة، واعتنقها بتفان. لكن بموت إخناتون وارتداد مصر إلى آلهتها التقليدية، كان على ذلك النبيل الملكى (موسى) أن يتنازل عن أحد أمرين عزيزين عليه: فإما أن يتنازل عن عقيدته ليأمن شر كهنة آمون ويعيش أميراً فى القصر بعد الارتداد، وبذلك لن يحقق شيئاً بسبب تاريخه وعلاقته بالفرعون إخناتون، والتى لا شك ستكون لعنة دائمة تجعله يعيش فى القصر - إن عاش فيه - مراقباً منبوذاً. وإما أن يرفض مصر المرتدة عن عقيدة التوحيد ويتمسك هو بالعقيدة وبحلمه القيادى معها، ومن ثم يرى فرويد أن الأمير المصرى موسى اتخذ قراره التاريخى، فأضاع وطنه وتمسك بآماله وطموحاته، بالتخطيط لتأسيس إمبراطورية جديدة، يعطيها ديانة آتون التى رفضتها مصر. كان يريد أن يقف ببطولة نادرة فى وجه القدر، باحثاً عن تعويض عما أصابه بانهييار ديانة التوحيد فى مصر.

وربما كان (موسى) آنذاك حاكماً أميرياً للإقليم الحدودى الذى ذكرته التوراة باسم (جاسان) كمسكن لبني إسرائيل وقت سقوط إخناتون، حيث استقرت بعض القبائل السامية منذ أيام الهكسوس، وهناك قرر من هو شعبه الذى سيعطيه عقيدته وطموحاته، لقد اختار أولئك العبيد.

وهكذا قاد (موسى) عبيد جاسان خارجاً بهم من مصر، فى فترة خلو العرش بعد موت (إخناتون)، حيث لم تكن هناك سلطة مركزية لتضع العصى بين عجالاته. وهو ما يعنى رفض (فرويد) لقصة مطاردة المصريين للخارجين، التى ذكرتها التوراة، لذلك لابد أن يكون الخروج قد حدث بين عامى ١٣٥٨ و ١٣٥٠ ق.م، فى الفترة الواقعة بين نهاية (إخناتون) وبين اعتلاء (حورمحب) العرش وتوطيده سلطان الدولة، ولم يكن أمام هؤلاء الخارجين هدفاً ممكناً سوى فلسطين، حيث العشائر السامية، التى تمت بصلات قرابة جنسية للبدو الخارجين من مصر (٤١).

أما أبلغ دليل على مصرية (موسى) هو إشارة التوراة لثقل لسانه، مما اضطره للاستعانة بهارون، الذى تزعم الأسطورة أنه كان أخيه، وهو ما يعنى أن (موسى) كان يتكلم لغة غير أولئك البدو الساميين، الذين كانوا يقطنون (جاسان) تحت إمرته كحاكم إقليمى، ومن ثم كان اتصاله بهم بحاجة إلى مترجم، وهو ما يعنى أن (موسى) كان مصرياً لا يعرف اللغة العبرية.

وكان (فرويد) يعلم الخلاف الخطر فى أطروحته، بين (موسى) الذى يقدمه لنا كمصرى مهيب، يهب بدو (جاسان) ديانة صارمة قوية، تحرم تماماً جميع طقوس السحر والشعوذة. وبين (موسى) التوراتى، الذى يجعل من تمثال الثعبان إلهاً للشفاء، لكنه ذاته هو التفسير للتناقض بين الإله (آتون) السمع الرافى الرعوف،

(٤١) نفسه: ص ٣٥ : ٣٩ .

وبين (يهوه) إله التوراة الذى يسكن جبلا كالشياطين، قاسيا، ناريا، لا يرحم^(٤٢). ومن ثم يجب علينا أن نفترض مرحلة كان فيها المصرى (موسى) بكل جلاله مستمراً حتى اختفى بالموت، ثم تستأنف التوراة قصتها بموسى آخر وهمى يمد حياة (موسى) المصرى الأصلى، وتنسب إليه كل الخرافات التوراتية وقسوة البدو وربهم الشيطاني.

وقد استند (فرويد) فى ذلك إلى استنتاجات (سيللين) فى كتابه (موسى وأهميته فى تاريخ بنى إسرائيل اليهودى)، وأهمها أن سفر (يشوع) ينبئ عن نهاية مفاجئة لموسى، أثناء تمرد قام به الشعب البدوى العنيد المشاكس، وأن الدين الذى أسسه تم هجره والنكوص عنه فوراً^(٤٣). (وهو الأمر الذى حدث لإخناثون من قبل)، ومن ثم يتمسك (فرويد) بكشف (سيللين): أن ديانة (موسى) المصرى تم هجرها بعد اغتياله، ثم انضم الخارجون من مصر، إلى قبائل أخرى نسيية فى قادش بسيناء، حيث اعتنق الخارجون ديانة أقاربهم القوادش، ديانة (يهوه). وهناك تم الانصهار والامتزاج بين الشعبين، الذى أنتج شعب إسرائيل، ويرى أن ذلك قد تم بتأثير أنسباء (موسى) المديانيين القاطنين فى تلك المنطقة، وبعد فترة، عندما استشعروا بأنفسهم قوة كافية، شرعوا فى غزو فلسطين.

وهذا إنما يعنى أن (موسى) الحقيقى الخارج من مصر، سليل الملوكية والنبالة، لم يسمع قط باسم (يهوه) ولم يصل قادش، بل قتل قبل ذلك التحول، أما (موسى) الثانى الخيالى الذى يعبد (يهوه) ويجهل كل شئ عن (آتون)، فهو الاختراع التوراتى الذى التبس بعقائد (مديان)، ونسب لشخص (موسى) الذى تمت نسبته لبنى إسرائيل، وهنا تظهر الأسرة الوهمية الخيالية فى الأسطورة لأول مرة، أما فى الأصل فلم تكن هناك أبداً أسرة إسرائيلية نبت فيها موسى كما تقول الأسطورة.

لكن ذلك الخلاف الأصلى بين عنصريين متحدين، أحدهما عاش فى مصر، وتأثر بها، والثانى كان فى بدو واضحة، أدى إلى انفصال العنصرين، عندما انقسمت مملكة سليمان بموته إلى مملكتين: إسرائيل فى الشمال، ويهوذا فى الجنوب، وجغرافيا، لأن الجنوب هو الملاصق لمصر، فإن فرويد يقول: "نؤكد أن من بقى مقيما فى البلاد كان موجوداً فى الشمال، وأن من رجع من مصر استقر فى الجنوب"^(٤٤)

أى أن هناك أسباط لم يدخلوا مصر إطلاقاً كانوا يسكنون شمالى فلسطين وظلوا هناك طوال تلك الأحداث، وأسباط دخلوا مصر وخرجوا منها وهم الذين عاشوا جنوبى فلسطين، وزمن الملك سليمان ثم توحيد أسباط الجنوب وأسباط الشمال فى مملكة واحدة أطلقت عليها التوراة "كل إسرائيل"، لكنهم ما لبثوا بموت سليمان أن انقسموا مرة أخرى عندما عاد الشمال لينشق عن الجنوب فى مملكة عرفت باسم مملكة إسرائيل، بينما حمل الجنوب اسم مملكة يهوذا.

(٤٢) نفسه: ص ٤٨ .

(٤٣) نفسه: ص ٤٩ .

(٤٤) نفسه: ص ٥٠ .

ولأن شخصا مثل ذلك النبيل المصري، كان لابد أن ترافقه حاشية فقد رأى (فرويد) أن تلك الحاشية كانت مصرية، والتي لاشك كان أفرادها أشد المخلصين لديانة (آتون)، وهى من شكلت بعد ذلك من عرفتهم التوراة باسم (اللاويين)، الذين جعلهم (موسى) كهنة ديانتهم، واستمروا فى عملهم بعد مقتله، لذلك فإن اللاويين لم يكونوا من بنى إسرائيل، بل كانوا حاشية مصرية لمصرى عظيم. وبمرور الزمن لن نجد أسماء مصرية فى التوراة إلا بين اللاويين، وقد ظل هؤلاء على وفائهم لذكرى قائدهم، وحافظوا على ميراثه، لكنهم مع الاندماج فى البدو الآخرين بالتمازج الذى حدث، كانوا أقلية فاعلة، لأنهم كانوا الأكثر علما وتحضراً. وقد صمم هؤلاء المصريون على التمسك بمصر، فظلوا يركزون على قصة الخروج من مصر للتذكير بالأصل المصرى، كما ظلوا يتمسكون بشخص (موسى) وعبادة الختان المصرية، بينما على الجانب الآخر كان الباقون يخترعون (موسى) المديانى القادشى، لكنهم لم يتمكنوا من التخلّى عن عادة الختان، لكن حتى ينزعوا عنها أصلها المصرى، قاموا ينسبونها للأبناء الأوائل من زمن البطرك إبراهيم.

وهناك علامات يسوقها (فرويد) تشير إلى تلك الأحداث الافتراضية، فالكتاب المقدس يميل باستمرار لنفى أن (يهوه) كان إلها أجنبيا، وهو أمر غريب، فهل كان ثمة شك فى ذلك؟ إن (يهوه) يدون مزاعمه بالتوراة، ويؤكد أنه كان إله البطارقة القدامى (إبراهيم)، و(إسحق) و (يعقوب)، رغم المعلوم أنهم كانوا يعبدون إلها باسم (إيل).

ثم علامة أخرى تتمثل فى أمر عجيب إلى حد بعيد، فالشعوب جميعا تختار آلهتها، لكن إله التوراة هو الوحيد الذى يختار شعبا بعينه ليتأله عليه، إن تلك الواقعة الفريدة فى التاريخ الدينى، تشير إلى ما حدث، فموسى قد اختار هؤلاء ومنحهم ديانتهم وجعلهم بذلك شعبه، وهو ما يفسر الاصطلاح المتواتر (الشعب المختار)؟

مع علامات أخرى تشير إلى ما حدث، فقصة ردة الشعب وعبادته العجل الذهبى، توضح خلافا حاداً أدى إلى قتل (موسى) وارتداد الشعب عن ديانة (آتون)، كما نجد فى حادثة تحطيم (موسى) لألواح الشريعة رمزا آخر لنهاية ديانتهم، وليس كما فسرتها التوراة بسذاجة شديدة، فقالت: إن (موسى) كسر الألواح نتيجة غضبه (خروج / ٣٢) (٤٥).

وجاء وقت ندم فيه أولئك الهمج على قتل قائدهم، وسعوا إلى نسيان جريمتهم، ولاشك أن ذلك تم أثناء اجتماع (قادش)، الذى عقد بين كافة الأطراف، ولا جدال أنه تم حوالى عام ١٢١٥ ق.م حسبما يرى فرويد. (٤٦) وفى تسوية (قادش) تحزب اللاويون لسيدهم القليل، وفى العصور التالية انصهر اللاويون المصريون فى الشعب، ولأنهم الكهنة، فقد حافظوا على المدون القديم المقدس، ونقحوه فى الاتجاه المناسب بمرور الزمن، على أيدي مجموعة أنبياء عادوا للتبشير بالموسوية المصرية التوحيدية القديمة (٤٧).

(٤٥) نفسه: ص ٥٠ : ٦٥ .

(٤٦) نفسه: ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٤٧) نفسه: ص ٧٠ .

ويفترض (فرويد) أن (موسى) زمن (إخناتون) كان يحمل اسماً من الأسماء المركبة، وتحمل في شقها الثاني اللفظ (موسى)، وليكن افتراضاً (تحت موسى = تحتمس) لكنه كان بعكس قريبة الملك إخناتون العكوف الخيالي رجلاً ذا عزم. ولعل عزمه هذا هو الذى جعله يفرض شرائع أشد صرامة من إخناتون، وهو الأمر الذى لم يتحملة البدو الهمج، مما أدى إلى ثورتهم عليه بعد ذلك وقتلوه فى سيناء^(٤٨). ثم انصهروا بعد ذلك فى قبائل أخرى نسبية كانت تقطن سيناء، وفى قادش اعتنقوا - بتأثير المديانيين - ديانة إله البراكين (يهوه)^(٤٩) وإن كان (فرويد) يبدى شكاً شديداً فى أن يكون اسم (إسرائيل) خاصاً بأى من تلك القبائل، بقدر ما كان اسماً لشعب من الشعوب التى اندمجوا فيها بعد دخولهم إلى فلسطين^(٥٠).

والمسألة السيكولوجية فى كل تلك الأحداث الافتراضية التى قدمها (فرويد)، دون أن تستند إلى وقائع تاريخية مدروسة دراسة ضافية، هى تلك التى يلخصها فى عقدة (أوديب) التى يقتل الابن فيها أباه، وهنا يقول: " نظراً لأنه لم يعد هناك مجال ليحتل الحقد المميت على الأب مكانه فى إطار الدين الموسوى، فقد كان رد الفعل الجامح الوحيد، الذى يمكن أن يعلن عن نفسه، هو الشعور بالذنب، الذى ما ونى الأنبياء يغذونه ويؤججون جذوته، والذى سرعان ما امسى جزءاً لا يتجزأ من النظام الدينى، كان له أيضاً دافع سطحي.. فقد مر الشعب بأوقات عصبية، ولم تأخذ الآمال التى كان قد علقها على الله طريقها السريع إلى التنفيذ، وبات من الصعب على الشعب أن يثابر على إيمانه بأنه الشعب المختار، وحتى لا يتخلى عن هذه السعادة، كان لابد أن يأتى شعور بالذنب، ووعى بالخطيئة التى اقترفت، لتبرئة ساحة الإله فى الوقت المناسب، وبالفعل إن الرب لم يعاقب الشعب، إلا لأنه انتهك حرمة شريعته " ^(٥١) أن الشعب قد عوقب لأنه قتل أباه موسى وهجر ديانتهم، لذلك كانت العودة إلى المأثور المصرى - مع الشعور بالذنب - بعد ذلك بقرون، مما صنع من عقيدة هذا الشعب نموذجاً للتوحيد.

والمشكلة الكبرى فى نظرية (فرويد) هنا، أنها بالكامل مجرد فروض وتصورات، لم يحاول أن يعثر لها على أى سند وثائقي حقيقى، أو يجمع لها من القرائن الموضوعية ما يدعمها، رغم أنها تتسم بروح القبول والاتساق، بحيث لا يصح استبعادها كلية، بل أننا نرى أنه لو أنهك (فرويد) نفسه بالبحث فى الجانب التاريخي، لقدّم لنا دعماً فريداً لنظريته، لكنه كان لابد سيقوم ببعض التعديلات فيها، وهو الأمر الذى سيشغل جزءاً من بحثنا هذا.

نظريات الخروج زمن مرنبتاح بن رمسيس الثانى:

تعد نظرية الخروج؛ التى تقول: إن اضطهاد الإسرائيليين فى مصر، قد حدث زمن الفرعون عاشق المعمار (رمسيس الثانى)، وأنه هو من استعبدهم فى أعماله الإنشائية الواسعة، وأن الخروج قد حدث زمن

(٤٨) نفسه: ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٤٩) نفسه: ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٥٠) نفسه: ص ٨٧ .

(٥١) نفسه ص ١٨٥ .

ولده (مرنبتاح)، من أشهر النظريات القائمة اليوم، وأحوزها للثقة بين المصنولوجيين، كذلك بين علماء التوراتيات، وقد اتفقت معظم الآراء اليوم حولها، وسلم بها كبارهم أمثال: (ألبرايت) و (نافيل) و (بترى) و (سايس) و (بروغش) و (بيرمونتييه) . . إلخ.

وفى تسليم (نافيل) يقول : " إني لا أزال مسلماً بوجهة النظر التى أدلى بها ليبسيوس عن موضوع خروج بنى إسرائيل، وهى التى يفتقها معظم الأثريين : أن مضطهد اليهود هو رعمسيس الثانى، الذى كان حكمه الطويل، بداية انحلال الإمبراطورية المصرية، وأن الفرعون الذى ينسب إليه خروج بنى إسرائيل، هو مرنبتاح " (٥٢) .

أما (سايس) فيقول: " إن الآثار المصرية تحصر هذه الحادثة، فى حكم الفرعون مرنبتاح، بورقة أنستاسى السادسة، وتشمل خطاباً من كاتب الملك مرنبتاح جاء فيه:

إن بعض بدو إيتام، قد سمح لهم على حسب التعليمات التى لديه، أن يجتازوا حصن إقليم سكوت، ليتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من بلدة بتوم، فى ضياع الفرعون العظيم " (٥٣)

(يجدر هنا التنويه أن الكلمة [إيتام] فى تلك الترجمة، هى فى الأصل آدموم، وأن الكلمة [بدو] هى فى النص الأصلى شاسو فهى فى الأصل: إن بعض شاسو آدموم).

ولما كان هذا الخطاب مؤرخاً بالسنة الثامنة من حكم (مرنبتاح)، فإن الأمر يعنى أن هؤلاء البدو كانوا خارج حدود مصر حينذاك، و (سايس) يراهم عين الإسرائيليين، ومن ثم يفترض أنهم خرجوا من مصر قبل هذا التاريخ، وعادوا يتطفلون القوت مرة أخرى (٥٤). أما (أولبرايت) فيجزم بحدوث الخروج زمن (رعمسيس الثانى) نفسه، فيقول: إن لوح (مرنبتاح) المسمى بلوح إسرائيل، مؤرخ بعام ١٢٢٩ ق.م، ويقول فيه مرنبتاح أنه ضرب إسرائيل، فيعنى ذلك أنهم خرجوا قبل تدوين اللوح، ومن ثم يحدد لخروج الإسرائيليين من مصر عام ١٢٩٠ ق.م، واحتلوا فلسطين عام ١٢٦٠ ق.م.

وهكذا، يظل لوح (مرنبتاح) فيصلاً وقاسماً مشتركاً بين المصنولوجيين، فى تحديد زمن خروج الإسرائيليين من مصر، ويميل أغلبهم إلى أن الحدث قد وقع فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولما كان (رعمسيس الثانى) فرعوناً قوياً مقتدرًا، بلغت مصر فى زمنه شأواً بعيداً فى قوتها، فإن مسألة الخروج فى زمانه لابد سيشوبها شك كبير، خاصة مع إفادة الكتاب المقدس التى ربطت بمصر، والتى تقول: " وحدث فى تلك الأيام أن ملك مصر مات / خروج ٣ / " ومن ثم كان الاستنتاج أن (موسى) عاد إلى

Navil, Archelology of the old Testament, ١٩١٣, p ٩٣ .

(٥٢)

(٥٣) سليم: حسن مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٧، ص ١٠٩ .

(٥٤) الموضع نفسه .

مصر من مهربه المديانى، بعد موت (رعسيس الثانى)، الذى يجب أن يكون فى تلك الحال هو فرعون الاضطهاد، ولما كانت مصر قد تعرضت فى عهد ولده (مرنبتاح) لعدة هجمات متتابعة، جاءت مترامنة، فهاجمها الليبيون (التحنو) من الغرب، وهاجمتها شعوب البحر من الشمال والشرق، فإن انتصارات مرنبتاح استنزفت قوى مصر، لم تستطع معه استعادة عافيتها إلا بعد ذلك بزمان، وأثناء فترة الضعف تلك تحديداً، استغل بنو إسرائيل الفرصة وانتزعوا حريتهم من العبودية، وهربوا خارج البلاد.

رأى (دى بوا - إيميه) :

حتى الزمن الذى أخرج فيه (دى بوا إيميه) نظريته، ضمن كتاب (وصف مصر)، كانت نظرية (يوسفوس) ومعاصريه هى النظرية السائدة فى الأوساط العلمية والكهوتية، وهى النظرية التى تقول: إن الإسرائيليين هم ذات الهكسوس. ومن ثم قام (دى بوا إيميه) بتفسير بعض الغوامض، وإضافة بعض المسائل الجوهرية، حيث اعتبر الهكسوس والإسرائيليين فصيلين مختلفين، وإن كانا من أصل عرقى واحد، وربما تجمعهما ثقافة مشتركة، لكن الإسرائيليين وصلوا مصر متأخرين عن الهكسوس حيث لحقوا بهم، وعاشوا فى كنفهم.

وبداية وقف (دى بوا إيميه) مع الإشارات المتكررة لدى المؤرخين، عن إصابة الإسرائيليين - فى مصر - بوباء مرض جلدى نقشى بينهم، وأن ذلك المرض كان سبب طردهم من مصر منعاً لانتشاره بين المصريين. ليقول إن انتشار وباء البرص أو الجذام، كان عادة ما ينتشر بين البدو لجهلهم بمبادئ النظافة والتطهر مع ندرة الماء، وطول عسرتهم للحيوان، مع جهلهم بفروض النظافة التى جعلتها الديانة المصرية واحدة من طقوس الإيمان الملزم للعباد. ومن ثم أطلق المصريون على مرض البرص (مرض الرعاة)، كما أطلقوا على الرعاة أنفسهم لقب (الأنجاس)، وكانوا يشيرون لغزاة بلادهم من الهكسوس بلقب المجذومين والأنجاس.

وقد لاحظنا من جانبنا فى روايات التوراة، نصوصاً وحكايات تشير لانتشار مرض جلدى بالفعل بين الإسرائيليين، والمدقق فى تلك الروايات سيجد مبرراً قوياً لانتشار تلك الفكرة فى كتب المؤرخين القدامى، وأول تلك الإشارات توضح لنا مدى تقزز المصريين من ذلك الجنس ونفورهم الشديد منه، وهو ما نجده فى قصة (يوسف) عندما جاءه أخوته إلى مصر، يمتارون الحنطة زمن المجاعة، فقام بإعداد وليمة ضيافة لهم، ويشرح النص ذلك الموقف بقوله:

وقال: قدموا طعاماً، فقدموا له وحده، ولهم وحدهم،

وللمصريين الأكلين عنده وحدهم، لأن المصريين لا

يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند

المصريين / تكوين ٤٣ / ٣١ ، ٣٢.

وعندما عاد إخوة يوسف إلى مصر مع أبيهم ليستقروا فيها مع يوسف، نبههم يوسف إلى أمر هام يجب أن يضعوه باعتبارهم، وذلك فى قوله لهم:

فيكون إذا دعاكم فرعون وقال: ما صناعتكم؟ أن تقولوا: عبيدك أهل مواش، منذ صبانا وإلى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكى تسكنوا فى أرض جاسان، لأن كل راعى غنم رفس للمصريين / تكوين ٤٦/٣٢ ، ٣٣.

ومع المزيد من التدقيق، يمكنك أن تجد إشارات واضحة، فى مناطق متقطعة من التوراة، تشير إلى وباء المرض الجلدى، البرص المصوب بالقرح وبيض الجلد وظهور نتوءات فيه وبثور، وهو ما تظهره التوراة بداية كما لو كان معجزة خاصة بموسى فى النص

ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك فى عبك، فأدخل يده فى عبه ثم أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج / خروج ٤/٦.

وأحيانا كان يظهر الوباء كما لو كان عقابا من رب إسرائيل على آثام بعينها، وهو ما نجده فى رواية تقول:

وتكلمت مريم وهرون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية .. فحمى غضب الرب عليها ومضى، فلما ارتفعت السحابة على الخيمة، إذا مريم برصاء كالثلج، فالتفت هارون إلى مريم، وإذا هى برصاء / عدد ١٢/٦، ١.

بينما هناك نصوص أخرى تحدثنا عن الأمر كوباء منقش بين الإسرائيليين، فبعد ابتلاع الأرض لقورح (قارون إسلاميا) وجماعته، تقول التوراة:

فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل فى الغد على موسى وهارون قائلين: أنتما قتلتما شعب الرب .. فكلم الرب موسى قائلاً: إطلعاً من وسط هذه الجماعة فأنى أنفيهم بلحظة، فخرا على وجههما ثم قال موسى لهارون: خذ المجرمة واجعل فيها ناراً على المذبح وضع بخوراً، واذهب بها مسرعاً إلى الجماعة، وكفر بها عنهم، لأن السخط قد خرج من قبل الرب، قد ابتدأ الوباء، فأخذ

هارون كما قال موسى، وركض إلى وسط الجماعة،
وإذا الوباء قد ابتدأ في الشعب، فوضع البخور وكفر
عن الشعب، ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء،
فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفاً وسبعمائة /
عدد ١٦ / ٤١ : ٤٩.

وهناك نص آخر يحدثنا عن حرب بين الإسرائيليين وبين أنسبائهم المديانيين، وخالف فيها الإسرائيليون
تعاليم الحرب التي تأمر بالإبادة التامة والشاملة للعدو، حتى الحيوان والنبات والأطفال والنساء، باصطلاح
(حرم) أى (إبادة تامة)، ولما خالف بنو إسرائيل ذلك واهتموا بسبى الغنائم بدلا من حرقها، غضب عليهم
الرب وضربهم بالوباء مرة أخرى، وهو ما يقول نصح:

وكلم الرب موسى قائلاً: انتقم نقمة لبني إسرائيل من
المديانيين .. فتجنّدوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل
ذكر .. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا
جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم، وكل أملاكهم، وأحرقوا
جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار .. فسخط
موسى على وكلاء الجيش .. وقال موسى: هل أبقيتم كل
أنثى حية؟ .. خيانة للرب .. فكان الوباء في جماعة
الرب، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة / عدد
٣١ / ١، ٧ - ١٧.

أما تهديدات الرب لشعبه باستمرار، لردعه عن العصيان، فكانت:

□ يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك: تنبيه ٢٨
١٢/.

□ يضربك الرب بقرحة مصر، وبالبواسير،
والجرب والحكة، حتى لا تستطيع الشفاء
/ تنبيه ٣٧/٢٨.

□ يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى
الساقين، حتى لا تستطيع الشفاء، من أسفل
قدميك إلى قمة رأسك / تنبيه ٣٥/٢٨.

وفى مواضع أخرى نجد الوباء الجلدى إصابة جماعية، لاعلاقة لها بغضب يهوه أو رضاه، فيغص سفر اللاويين بدءاً من الإصحاح الثالث عشر، بالتعليمات التى يجب اتباعها مع المصابين بأمراض الجلد، والتى تصنف ضمن البرص، ومن أمثلتها فقط وليس حصراً:

إذا كان إنسان فى جلد جسده ناتئ أو قوباء
أو لمعة، تصير فى جلد جسده ضربة برص . . فى
الضربة شعر قد أبيض ومنظر الضربة أعمق من جلد
جسده، فهى ضربة برص، فمتى رآه الكاهن يحكم
بنجاسته .. إنها برص / لاويين ١٣/٢ ، ٣ .

ويظل السفر يحدد الأعراض وأساليب عزل المرضى، ومعاملة البيوت والخيام المنكوبة، بعرض واف
تفصيلي يثير التقزز، حتى نهاية الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين، بطول ثلاثة إصحاحات كاملة.
رغم وعد الرب لشعبه إن آمن به وخرج مع موسى من مصر وأطاعة، وعداً يظهر فى قول الرب: " وأزيل
المرض من بينكم / خروج ٢٣/٢٥ ."

ومثل هذا السرد الطويل، يبرر قول (آبيون) النحو السكندري، أنهم طردوا من مصر طرداً، ولم
يهربوا، ولم تطاردهم جيوش مصر، وذلك خشية تفشى الوباء فى البلاد، وهو ما وجدناه فى التوراة يصادق
على قول آبيون تصديقاً واضحاً لا التباس فيه يقول: " فقال الرب لموسى : الآن تنتظر ما أنا فاعله بفرعون،
فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه / خروج ١٠/٦ ."

ونعود إلى (دى بوا إيميه):

يستند (دى بوا إيميه) إلى الروايات المنقولة عن (مانيتو) فيقول: إنه بعد غزو الهكسوس لمصر،
واحتلالهم لمنف، لاذ ملوك مصر الشرعيين بصعيد مصر، وكونوا هناك دولة مستقلة، ثم قام أحدهم وهو ما
ينقل اسمه عن القدماء فى صيغة (أليسفرا جموتوفيس)، بتجريد جيوشه على منف بمساعدة الآثيوبيين
والمصريين الثائرين، وأحرز انتصارات هائلة على الهكسوس العرب؟!، واضطروهم إلى التقهقر شمالاً حتى
تحصنوا فى مدينة حواريس.

ونظن أن (أليسفرا جموتوفيس) هذا ليس سوى (كامس)، من (جامس)
أو (جوميس)، وهو المعروف فى المدونات كأول ملك مظفر حارب الهكسوس، وسجل عليهم انتصارات،
ويؤيد ذلك أن الرواية التى بين أيدينا هنا تقول: إن أخيه هو الفرعون الذى ذكره يوسفوس باسم تثنوزيس،
والذى ذكره يوسابيوس ويوليوس الأفريقي باسم (أحمس)، حيث كشفت علوم المصريات بعد ذلك، أن أحمس
كان ابناً لكامس هذا مع الإشارة إلى كونه الفرعون الذى حاصر حواريس، ولما طال الحصار وافق على
خروجهم مع أملاكهم إلى بلاد الشام، ولما خرج هؤلاء من مصر، تحاشوا عبور بادية الشام خشية بأس

الآشوريين، فدخلوا فلسطين من جنوبها، واستقروا فى جبال اليهودية (يهودا)، حيث أسسوا هناك مدينة أورشليم.

أما الإسرائيليون فقد واصلوا البقاء فى مصر، وجرت عليهم أقدار المهزومين وانسحبت عليهم كراهية المصريين للرعاة المحتلين، وأخذ المصريون يشيرون إليهم بالأنجاس والمجذومين. لكنهم عاشوا فى مصر يتمتعون على تخومها الشرقية بقدر من الحرية، حتى عصر الملك (آمنحتب)، والد الملك الشهير (سيروستريس)، ودفع كهان مصر ملكهم (آمنحتب) إلى التقرب للآلهة، باضطهاد الرعاة فجمعهم ودفع بهم إلى الأعمال المعمارية الشاقة.

وبعد فترة، دفعت بعض المخاوف الأسطورية والمتطيرة الملك (آمنحتب)، ليسمح لهؤلاء المستعبدين بالانسحاب إلى أرض جاسان، وهناك اختاروا لهم رئيسا مصريا، كان من كهنة هليوبوليس يدعى (أوزرسيف). وكان قد نفى معهم مع عدد من الكهنة المصريين، ومصريين آخرين، بسبب معتقداتهم الدينية المخالفة لعقائد البلاد، كما تبعهم عدد آخر من المصريين الفارين من الاضطهاد، أو يخشون وقوع اضطهادات جديدة، لاعتناقهم ذات العقائد المخالفة، وقد أعطى (أوزرسيف) لهذه الألوف من المصريين المنشقين، وللرعاة الإسرائيليين، ديانة خاصة، كانت بالضرورة خليطا من ديانتى الشعبين، ثم أمرهم (أوزرسيف) بالأيتزوجوا إلا من داخل جماعتهم الجديدة، لكى يحول دون أى انحراف أو تصالح مع المصريين، كما أباح لأتباعه أكل الحيوانات التى كانت مقدسة عند المصريين، كما أمرهم بتدمير ما يستطيعون من آلهة مصر.

وكانت النتيجة حنقا شديداً من المصريين، والرد بقهر أشد، كان لابد معه أن يبحث هؤلاء لأنفسهم عن موطن جديد، ويذهب (دى بوا إيميه) إلى أنه فى تلك الفترة نشأت مستعمرات جديدة فى بلاد اليونان، وأن مؤسسيها كانوا فريقا من هؤلاء الهاريين من مصر، وأن (موسى) قد ولد فى عهد (آمنحتب) هذا، وأن أول الاضطهادات تمت فى عهد هذا الفرعون.

وكان للخوف من فرعون، والرغبة فى الانتقام، دافعا لأوزرسيف ليطلب من هكسوس أورشليم اللحق به ليزحفوا معا لفتح مصر، فاستجابوا له وحملوا على مصر، " ولم يكن ثمة ضرب من ضروب القسوة لم يرتكبه كما يقول مانيتون، ولم يكتفوا بإحراق المدن والكفور وتحطيم صور الآلهة، إنما قتلوا حتى الحيوانات المقدسة، وأرغموا الكهنة المصريين والعرافين أن يكونوا هم ذابحيها، ثم اطلقوهم بعد ذلك عراة كما ولدتهم أمهاتهم".

وانسحب (آمنحتب) إلى ماوراء الشلالات جنوبا، وثبت هناك مدعوما من الأثيوبيين، لمدة ثلاثة عشر عاما يناوئ الرعاة، وفى النهاية تمكن من الهجوم وهزيمة (أوزرسيف) ومطاردته مع رجاله حتى سوريا.

ولاجدال عند (دى بوا إيميه) أن (أوزرسيف) هذا هو ذاته (موسى)، لكنه يفترض أن جبال اليهودية بفلسطين، كان قد تم احتلالها من قبائل أخرى أثناء تواجد الجميع فى حملتهم على مصر، وذلك لتفسير الحروب التى خاضها الإسرائيليون الخارجون من مصر لدخول فلسطين.

لكن مرة أخرى يقع عدد كبير من الرعاة فى الأسر المصرى، بعد أن هزمهم (أمنحتب)، لتفرض عليهم أقسى درجات العبودية، وكان أكثرهم من القبائل الإسرائيلية، وقد ظلوا كذلك حتى عهد الفرعون الشهير (سيزوستريس) ومن جانبنا (المؤلف) نوضح أن اسم (سيزوستريس) كعلم على فرعون مصرى مشهور، نجهل أول من أطلقه من اليونانيين على فرعون مصرى، إعجابا بشخصه وبأعماله وبزمانه. لكن اليونانيين من بعده، أكدوا أن المقصود بهذا الاسم فرعوناً قويا حاز شهرة عظيمة، لجأوا إلى بلاده، وعملوا مرتزقة فى جيشه، لثراء مصر فى زمانه ويميل الباحثون اليوم إلى احتسابه الفرعون (رعمسيس الثانى)، أعظم فراغة الأسرة التاسعة عشر، وصاحب أعظم وأكثف الأعمال الإنشائية، وصاحب بطولات عسكرية كبرى، حدث إبان صراعه مع دول الشرق القديم. ويذهب الباحثون إلى أن لقب (سيزوستريس) ربما كان ناتجا عن أحد الألقاب الكثيرة لرعمسيس الثانى، ومنها (مرى آمن أوسر ماعة رع)، و (سنب أن رع) و (ميامورع ميسو) الذى ميزه عن بقية الرعامسة فليل عنه (رعمسيس ميامون)، و (سيزو أريس). ثم هناك لقب آخر هو (سماره تبين رع) ومعناه القوى الذى اختاره (رع) ^(٥٥)، ومن هذا اللقب أطلق على مدينته المشهورة بشمال الدلتا اسم مدينة (سمارة)، إضافة إلى الاسم (بى رعسه) أو (رعمسيس). ومن ألقابه الأخرى (سيسى رع)، لذلك أطلق على ذات المدينة اسم (سمارة سيسى) أى القوية التى لرعمسيس.

وقد اهتم (هيرودت) فى تاريخه بالفرعون (سيزوستريس) المظنون عند المؤرخين المحدثين أنه رعمسيس الثانى، وركز على الأعمدة التى كان يقيهما تسجيلا لا انتصاراته فى البلاد المفتوحة، وكان ينقش عليها اسمه ووطنه وكيف أخضع ذلك المكان لسطوته، وهى الأعمدة التى يسميها المصريون: أنصاب النصر، وأحجار الحدود، لتبين إلى أى مدى وصلت حدود الملك.

ويشير (هيرودت) إلى أن فتوحاته وصلت أقصى جنوب البحر الارتيوى (الأحمر) جنوبا، ثم يعقب بالقول: " ومع أن أغلب الأعمدة التى أقامها ملك مصر سيزوستريس فى الأقطار اختفت، ولم يبق منها شئ بعد، إلا أنى لحظت بنفسى أن بعضها مازال موجوداً بفلسطين السورية، وعليها النقوش التى تحدثت عنها ". ^(٥٦) وتلك الأعمدة لابد أن تذكرنا بوصف القرآن الكريم لفرعون موسى بأنه " فرعون ذى الأوتاد ".

ولأن (سيزوستريس) عرفه اليونان بشدة البأس، فقد رأى (دى بوا إيميه) ^(٥٧) أنه من الصعب أن ننسب إلى عهده الكوارث التى لحقت بمصر فى حديث التوراة، ومن هنا يرى أن تلك الأحداث التى انتهت

(٥٥) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٥٦) هيرودت يتحدث عن مصر: ترجمة د. محمد صقر خفاجى، تهقيقات د. أحمد بدوى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧ ، ص ٢١٧ : ٢٢٢ .

(٥٧) دى بو إيميه: كتاب الحملة الفرنسية وصف مصر، دراسات دى بوا إيميه حول البحر الأحمر والخروج.

بالخروج، يجب نسبتها لعهد ولده الذى أسماه (هيرودت) باسم (فيرون)، وأطلق عليه (ديودور) اسم (سيزوستريس الثانى)، ولا شك عند (دى بوا إيميه) أن (فيرون) لم يرث فضائل أبيه ومواهبه، حيث يصوره التاريخ أميراً ضعيفاً متطيراً يؤمن بالخرافات، مع ما حدث فى عهده من فيضان النيل إلى حد التدمير، مع ما صلب ذلك من عواصف وأعاصير وسيول، مما أقنعه بأن ذلك غضب إلهى، وهو ما أدى به إلى إطلاق الأسرى من مصر.

وبالمراجعة وراء (دى بوا إيميه) رجعنا إلى (هيروت)، فوجدنا (فيرون) عنده مذكوراً باسم (فيروس)، ولا بأس فهما واحد بحذف الـ (ن) وإضافة التصريف الإسمى اليونانى المعتاد، لكن المثير فى المسألة أن (فيرون) هنا ستتطق أيضاً نطقاً مصرياً وعبرانياً صحيحاً باللفظ (فرعون)، ويبدو أنه يعود بدوره إلى أحد الألقاب المصرية الخاصة بهذا الفرعون، وأنه اسم خاص تماماً بفرد بعينه، وهو ما يبدو لنا الأصل فى انسحاب اللقب على بقية حكام مصر (الفراعنة)، لكن إذا كان هذا الفرض صحيحاً، فإنه كان هناك فرعوناً واحداً باسم (فرعون)، وأنه يبدأ من لحظة تاريخية أولى كانت مع بنى إسرائيل زمن الخروج، ويعاضد ذلك تماماً الفهم الدينى المتواتر عن الفرعون زمن موسى، كما لو كان لمصر طوال تاريخها فرعون واحد هو ذاك الذى غرق فى بحر سوف. والأمر بهذا الشكل يستدعى إعادة النظر فى التخريج القائل أن كلمة (فرعون) مأخوذة من كلمة (برعو) المصرية القديمة، والتى تعنى السور العظيم، أو ربما يعود الأمر للسببين معا.

ومن ثم، فقد احتسب (دى بوا إيميه) أن (سيزوستريس) المظنون الآن أنه (رعسيس الثانى) ابناً للفرعون (آمنحتب) سيراً مع (مانيتو)، لكن المهم أنه رتب الأمر بحيث كشف عن نظرية الخروج زمن (مرنبتاح) الذى هو عنده (فيرون)، قبل فك رموز الهيروغليفية، ومعرفة كشوف أركيولوجية أدت إليها. وأهم تلك الكشوف ذلك اللوح الذى تركه لنا (مرنبتاح ابن رعسيس الثانى)، وذكر فيه للمرة الأولى والوحيدة واليتيمة اسم إسرائيل، فى تاريخ مصر طويلاً وعرضاً، وقد جاء الاسم فى ذلك اللوح ضمن انتصاراته على عدد من الشعوب. واللوح لون من اللوحات التذكارية، مصنوع من الجرانيت الأسود، ويعرف الآن فى المتحف المصرى بلوح إسرائيل، وكان قد أقيم أصلاً فى معبد الجنازى، ثم نقل إلى المتحف المصرى حيث يحفظ الآن. كما أقيم له مثيلاً فى الكرنك وجدت منه قطعة هناك، أما الفقرة التى تعنى موضوعنا هنا فى ذلك اللوح، فهى تلك التى تقول:

يقول الرؤساء وهم منطرحون أرضاً:

السلام

ولم يعد واحد من بين قبائل البدو (التسعة أقواس) يرفع رأسه

والتحنو قد خربت

وبلاد خاتى أصبحت مسالمة

وكتعان أُسرت مع كل خبيث

وأزيلت عسقلان

وجازر قبض عليها

وينو عام أصبحت لا شئ

وإسرائيل خربت وليس لها بذر

وخارو أصبحت أرملة لمصر^(٥٨)

وتبعاً لهذا اللوح، بعد الكشف عنه، أعاد الباحثون النظر فى كل ما انتهوا إليه قبلاً، وتم رفض فكرة أن بنى إسرائيل هم الهكسوس، حيث تم طرد الهكسوس من مصر زمن أحمس حوالى ١٥٧٥ – ١٥٥٠ ق.م، وهو آخر زمن الأسرة السابعة عشر وبداية الأسرة الثامنة عشر، وهو تاريخ يسبق زمن (مرنبتاح) ١٢٢٥ – ١٢١٥ ق.م، بما يزيد على ثلاثة قرون كاملة، ومن ثم ذهب بعض الباحثين إلى القول: إن بنى إسرائيل هم بقايا أسرى هكسوس تخلفوا فى مصر طوال تلك السنين، حتى خرجوا زمن (مرنبتاح). وبعضهم ذهب بحدث الدخول مذاهب شتى، لكن الأغلبية اتجهوا إلى القول: إن (رعمسيس الثانى) كان هو فرعون الاضطهاد، وأن ابنه (مرنبتاح) هو فرعون الخروج.

ويبدو أن (مانيتو) هو الواضع الحقيقى لأصول تلك النظرية، حيث قال: إن ثورة أسرى مدينة حواريس بقيادة الكاهن المصرى (أوزرسيف)، قد حدثت زمن الملك (آمنحتب)، الذى طاردهم مع ولده الذى حمل عند (مانيتو) أسماء ثلاثة متضاربة هى: (رهامبيس / سيتوس / رمسيس)، فى قول غامض وملتبس يقول: إن ابن (آمنحتب) كان اسمه: (سيتوس)، وكان يسمى أيضاً (رمسيس) من أبيه (رهامبيس).

وقد أتضح لنا أن (مانيتو) كان معذوراً تماماً فى ذلك اللبس، فالرجل قد اعتمد على المدونات المصرية القديمة، التى كانت موجودة حتى زمانه، وقد علمنا مما بقى من قوائم ملكية، إسقاطها جميعاً لفترة أسرة العمارنة، وهى فترة حكم الملك (آمنحتب الرابع / إخناتون) وأتباعه الثلاثة المباشرين. وعدم ذكرهم أو الإشارة إليهم، وعندما تم الكشف عنهم بعد ذلك، سواء فى حفائر تل العمارنة، أو فى مقبرة توت عنخ آمون، كان الأمر كشفاً مدوياً، أعيد بموجبه إعادة ترتيب قوائم الملوك، وإدخال أسرة العمارنة فى دائرة الضوء لأول مرة، ليتم إدراجها مباشرة بعد حكم الملك (آمنحتب الثالث).

ومعلوم أن الباحثين قد برروا إسقاط المدونات المصرية لأسرة العمارنة، بالهرطقة الدينية التى قادها (إخناتون) وهاجم بموجبها كل آلهة البلاد، وطاردها لصالح عقيدته فى إلهه الأوحد (أتون)، مع تعصبه الشديد

(٥٨) سليم حسن: الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة: مطبوعات كتاب اليوم، القاهرة، ١٥ ديسمبر ١٩٩٠، ج ٢، ص ٢٢٩.

ومطاردته للآلهة الأخرى مع فرض عقيدته بالقهر. ومن ثم اعتبره المصريون مارقاً دنساً هو وأسرته لا يصح ذكرهم، ووصمة عار يجب تناسيها ومحوها تماماً من ذاكرة التاريخ، بالضبط كما فعلوا مع فترة الاحتلال الهكسوسى التى اسقطت تماماً ولم تدخل فى المدون التاريخى المصرى القديم. وظلت دوما فجوة نحاول ملأها بالنتف التى يمكن العثور عليها، من آثار الهكسوس أنفسهم، أو من أصحاب التواريخ القديمة مثل (مانيتو)، أو من بردية تشكل حالة خاصة مثل بردية تورين. ومن ثم أسقطت من قوائم مصر أسرة العمارنة كاملة، فكانت القوائم الملكية تقفز مباشرة من زمن (آمنحتب الثالث) منهيّة به الأسرة الثامنة عشر، إلى (حور محب) مؤسس الأسرة التاسعة عشر، الذى قضى تماماً على بقايا عبادة (آتون) الهرطقية.

ولما كان اسم (حور محب) باللسان اليونانى هو (رهامبيس) فقد سجلها (مانيتو) كذلك، معتبراً إياه ابناً لآمنحتب، وأباً لمشاهير الأسرة التاسعة عشر (رعمسيس الأول، ستى الأول، رعمسيس الثانى، مرنبتاح . . إلخ).

وعليه فلا جدال أن (آمنحتب) المقصود عند (مانيتو) هو (آمنحتب الثالث) قطعاً وتحديداً، ولم يكن أمام (مانيتو) سوى احتساب (رهامبيس / حورمحب) و(رمسيس الأول) و (ستىوس / ستى الأول) و (رمسيس ، رعمسيس الثانى) أبناء مباشرين للملك (آمنحتب الثالث)، أو أسماء متعددة لابن واحد لذلك الفرعون، لكنه أبدى حيرته لنا فى قوله أن (ستىوس) هو (رمسيس) من أبيه (رهامبيس)، بحيث بدا متشككاً ما بين وجوب نسبة (رعمسيس) إلى (آمنحتب الثالث) آخر الأسرة الثامنة عشر، وبين وجوب نسبته إلى (حور محب) مؤسس الأسرة التاسعة عشر.

ومن بعد، وبمرور الوقت، تدعمت نظرية (مانيتو) لكن المؤرخين استبعدوا معركة (آمنحتب الثالث) مع ثورة عبيد حواريس التى قادها (أوزرسيف)، ووقفوا مع من بقى منهم أسرى زمن (رعمسيس) المفترض عند (مانيتو) ولداً لآمنحتب الثالث، ليعتبروه فرعون الاضطهاد، ويحددوا ولده (مرنبتاح) فرعوناً للخروج. ومن المفيد هنا بشأن اللبس الحادث عند (مانيتو) أن نذكر باللوحة التى شاهدناها بالكرنك للفرعون (آمنحتب الثالث) وإلى جواره ابنه طفلاً، دون اسمه (حور محب)؟!

فقد لاحظنا إبان زيارتنا للكرنك، انه قد صورت على الواجهة الخارجية الجنوبية بقاعة الأعمدة بالصرح البحرى، رحلة لمركب الإله (آمون) ومعه الملك (آمنحتب الثالث) واقفاً داخل المركب مرتين، وبصحبه شخص تمت إزالة صورته لكن عملية الإزالة تركت الأثر السابق واضحاً، ولا شك أن الصورة كانت تمثل ابن (آمنحتب الثالث)، ومحل الصورة تم تدوين اسم (حور محب). ولما كنت أعلم أن ابن (آمنحتب الثالث) هو (آمنحتب الرابع / إخناتون)، بالقطع واليقين. ومن ثم فلا جدال أن لوحة مثل تلك، كانت كفيلة بإقناع (مانيتو) أن (رهامبيس، حورمحب)، ابنا مباشراً لآمنحتب الثالث، دون أن يضع بحسابه - بالطبع - الخدعة المتمثلة فى إهدار المصريين لأسرة العمارنة بكاملها، والتى تشمل الفراعنة: (إخناتون) و (سمنخ كارع) و (توت عنخ آمون) و (آى).

ولأن رواية مانيتو تقول بفتنة شخص اسمه أوزر سيف زمن فرعون باسم أمنوفيس / آمنحتب فقد قام (دى بوا إيميه) بمزج ما وصله من تاريخ الكلاسيك القدماء برواية التوراة ليضع سيناريو للأحداث مصدقا بالتوراة، وأن موسى قد ولد بين الإسرائيليين المستعبدين فى مصر، وألقت به أمه فى اليم زمن الفرعون آمنحتب ليجرفه التيار إلى قصر الفرعون، فتتقده ابنة الفرعون وتحسن إليه وتتبناه وتأمر بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم. فنشأ موسى نشأة مصرية كاملة، لكن يبدو أن تلك التى تنبته قد ماتت ففقد الحماية، ثم فى لحظة غضب قتل مصرى فطارده القصاص القانونى المصرى، فهرب إلى عرب مديان بسيناء عند خليج العقبة. وهناك عند جبل حوريب المقدس جبل الإله حسب نص التوراة، واصل التأمل ليضع خطة كبرى لمشروع عظيم، وعندما علم بموت الفرعون آمنحتب قرر العودة إلى مصر، وذهب يدعو بنى جلدته المستعبدين هناك للهروب من تلك العبودية إلى آفاق الحرية. وبسبيل ذلك ابتدع للفرعون قصة مختلفة وهى أنه مع شعبه لديهم مناسبة مقدسة سنوية، يذبحون فيها حيواناً مقدساً لدى المصريين، لذلك يحتاجون إلى مغادرة المدينة إلى الصحراء لمدة ثلاثة أيام يقيمون فيها احتفاليتهم ثم يعودون، بينما كان موسى يضمم الهروب بشعبه. كان يريد مجرد الخروج الآمن من المطاردة بتلك الحجة، وأن الأيام الثلاثة كفيلة بقطع مسافة تجعل اللحاق بهم صعباً عندما يكتشف المصريون الخدعة. لكن الفرعون (فيرون ابن سيزوستريس) رفض ذلك، فى الوقت الذى تصادف فيه حدوث بعض الكوارث الطبيعية فى مصر، فتطير الفرعون شراً وتصوره غضباً إلهياً بسبب عدم إطلاقه الإسرائيليين فدعا موسى وهارون وأعطاهما تصريحاً بالخروج^(٥٩)، أو بحسب النص التوراتى :

فدعا (أى فيرون ابن سيزوستريس/ ولاحظ أن آمنحتب هنا اسمه سيزوستريس كما سبق واستتجنا) " فدعا موسى وهارون ليلا وقال: قوموا اخرجوا من بين شعبى أنتما وبنى إسرائيل جميعاً، اذهبوا وابدوا الرب كما تكلمتم، خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا / خروج ١٢ / ٣١ ، ٣٢ ."

ومن (رعسيس) مدينة الاستعباد قادم موسى فى رحلة طويلة نحو فلسطين عبر البوادي السينائية الكبرى، وكانت أول محطة استراحة بعد الخروج من رعسيس باتجاه فلسطين تلك تذكرها التوراة باسم (سكوت)، أو بنص التوراة :

فاتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سكوت نحو ستمائة
ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير
أيضاً، مع غنم وبقر ومواشى وافرة جداً.

خروج ١٢ / ٣٧ ، ٣٨

وبعد ذلك ارتحلوا عبر عدة محطات حتى لحظة العبور الإعجازى من البحر فيما ترويه التوراة قائلة:

(٥٩) دى بوا إيميه: الدراسة السادسة والسابعة من كتاب وصف مصر ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤ ، ج٣، ص ٣٢٧ : ٣٦٧ .

وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى طرف البرية .. وكلم الرب
موسى قائلاً: كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم
الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون .. ومد موسى
يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل
الليل، وجعل الرب البحر يابسة، وانتشق الماء، فدخل بنو
إسرائيل وسط البحر .. وتبعهم المصريون فقال الرب
لموسى/ مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين ..
فدفع الرب المصريين فى وسط البحر .. ثم ارتحل موسى
بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور

خروج ٢/١٣ و ١٤/١٢، ١، ٢٢، ٢٦، ٢٧ و ١٥ / ٢٢

ويرى دى بوا إيميه أن أرض جاسان بمدينة فيثوم ورعسيس تقع فى النهاية الشرقية لوادى
طميلات الممتد من الدلتا نحو الشرق حتى بحيرة التمساح ثم البحيرات المرة. وأن المدينة التى خرجوا منها
تقع قرب السبع أبيار على رأس بحيرة التمساح فى موقع تل المسخوطة الحالى، وأنهم ساروا من هناك عدة
محطات حتى عبروا البحر من عند منطقة تقع إلى الجنوب من المسخوطة بجوار مدينة السويس الآن على
رأس خليج السويس الذى كان يعرف بالخليج العربى حتى زمن دى بوا إيميه. ويرسم لنا سيناريو الأحداث
فيقول أن الركب كان متجهاً فى البداية نحو الطريق المباشر إلى فلسطين، وهو الطريق الذى نعلم اليوم أنه
كان باسم طريق حورس الحربى، لكنه خشى المرور بهذا الطريق فيقترب من فلسطين ويتعرض لهجوم
مباشر من سكانها، لذلك سار برجاله جنوباً ليخفى - أيضاً - عن المصريين نيتهم فى الهرب وليوهمهم أنه
يبحث فى الصحارى عن مكان بعيد للاحتفال الدينى، فقام يقودهم بالتقافة طويلة نحو بلاد أنسبائه سكان مديان
بشرقى سيناء.

ويضع دى بوا إيميه تصوراً لجغرافية المنطقة زمن الخروج، فيرى أن الخليج العربى / السويس
الآن، كان يمتد زمن الخروج ليلتحم بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح حيث السبع أبيار، مدلاً على ذلك بعدد
وافر من القرائن المفترضة، وأهمها ما جاء فى عرضه التالى:

يقع الطرف الشمالى للبحر الأحمر (يقصد خليج السويس) على بعد ستة أو سبعة آلاف متر إلى
الشمال من مدينة السويس. وفيما وراء ذلك ثمة حوض ينتهى بعد حوالى ستين ألف متر إلى الشمال من هذه
المدينة، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الحوض ١٢ : ١٥ ألف متر، ويضيق كثيراً عند الجنوب .. هذا الحوض ..
يدل على أن البحر كان يغمره فيما مضى فهناك يعثر المرء على طبقات الملح البحرى، تتخذ فى بعض
المناطق شكل القباب .. وعلى عمق أربعة أو خمسة أمتار مياها نتعرف فيها على نفس مذاق مياه البحر.
وفى مناطق أخرى نجد الأرض موحلة، ونعثر هنا وهناك على مستنقعات من مياه مالحة .. والأرض فى

هذا الحوض تغطيها القواقع وتنخفض عن سطح البحر إلى حد كبير (بالحاشية: يبلغ الفرق في أماكن عديدة من ١٢ : ١٥ متراً). وعلى الرغم من ذلك لا يفصلها عن البحر سوى كتلة من الرمال يبلغ عرضها من أربعة إلى خمسة آلاف متر .. ونلمح فوق التلال المحيطة به (أى بالحوض) خطا يتكون من مخلفات نباتات بحرية تشبه تمام الشبه ذلك الأثر الذى تتركه البحار فوق الشواطئ. لكن ما يلفت النظر بشكل كبير هو أن هذا الخط يوجد على نفس مستوى المد العالى للخليج العربى ^(٦٠) .. بوضوح نحن هنا بصدد أرض كانت تغطيها فيما مضى مياه البحر .. وأن ترعة القدماء تلك التى يتحدث عنها هيرودت وبليني واسترابون .. إلخ [يقصد القناة المعروفة باسم قناة سيزوستريس التى كانت تصل النيل بخليج السويس / المؤلف] كانت تنتهى عند الطرف الشمالى للحوض الذى انتهيت لتوى من تحديده ^(٦١) [أى أن ترعة سيزوستريس كانت لا تصل لقمة خليج السويس الحالى عند مدينة السويس / القلزم قديما / المؤلف]. إنما كانت تأتى بماء النيل من شرقى الدلتا لتصل حتى تل المسخوطة قرب الإسماعيلية الآن، حيث كانت نهاية رأس خليج السويس / الخليج العربى فى ذلك الزمان قبل أن ينسحب بالتدريج جنوبا عبر السنوات ليتوقف عند السويس الآن.

وكى يزيد دى بوا إيميه فى تدعيم نظريته العبقريّة، يعمد إلى ما جاء عند بليني بالفصل ٢٧ من الكتاب السادس إذ يقول عن القناة التى نهض بإتمامها سيزوستريس لتربط النيل بالخليج العربى على البحر الأحمر كانت تبلغ حوالى ٦٢ ميل / ٩٣ كم، وفى تاريخ هيرودت الكتاب الثانى الفصل ٥٨ أن هذه القناة كانت تتفرع من الفرع البوبابسطى للنيل جنوب بوباسطه بقليل (بوباسطه من أحياء الزقازيق الآن)، وذلك فى المنطقة التى يصنع فيها ذلك الفرع كوعا يتجه نحو الشرق متفرعاً من فرع دمياط الحالى، لكننا لو قسنا الآن المسافة من هذه النقطة حتى رأس خليج السويس الحالى سنجدها ١٣٥ كم وليس ٩٣، بينما المسافة ما بين بوبسطة عبر وادى طميلات حتى مدينة السبع أبيار على بحيرة التمساح تساوى ٩٠ كم كما ذكر بليني ^(٦٢) .

وفى الجزء الشرقى من وادى طميلات نجد أنقاضا عظيمة تخلفت عن الأزمان الفرعونية عند موقع بلدة أبو كيشيد، [وهى الآن أبو خشب أو الخشبى أو تل المسخوطة إلى الشرق من أبى صوير بثلاثة كيلو مترات / المؤلف]. ويعتقد دى بوا إيميه أن رعمسيس أوبيتوم التى ذكرتها التورة المازورية هى هيروبوليس التى ذكرتها التورة السبعونية، هى ذاتها مدينة المسخوطة الحالية التى لاشك عنده كانت تقع عند رأس الخليج العربى / السويس عندما كان يملأ حوض البحيرات الحالى زيتصل بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح فى خليج واحد، وأن تلك القمة هى بحيرة التمساح الآن مع قرينة أخرى يضيفها لرصيده وهو أن اليونان كانوا يطلقون على البحر الأحمر اسم البحر الأرتيرى، وعلى خليج السويس الخليج العربى مرة، والخليج الهيروبوليتى مرة نسبة إلى هيروبوليس ^(٦٣) .

^(٦٠) لاحظ أن خليج السويس ظل يحمل اسم الخليج العربى حتى زمن الحملة الفرنسية.

^(٦١) دى بوا إيميه: الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدراسة الأولى من وصف مصر، ص ١٣٧، ١٣٨ .

^(٦٢) نفسه: ص ١٤٠ .

^(٦٣) نفسه: ص ١٤٢ .

ويتأرجح دى بوا إيميه حول كون هيروبوليس كانت هى رعمسيس أو بيتوم، ويذكرنا أن المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين ذكروا مدينة باسم Patumos وهى لاشك عند دى بوا إيميه هى بيتوم هى هيروبوليس هى المسخوطة، حيث ذكر هيرودت أن القناة التى كانت تحمل مياه النيل للخليج العربى كانت تقع عليها مدينة باسم باتوموس.

ولمزيد من التدقيق يقول دى بوا إيميه «ولقد قمنا بتتقيقات عديدة فى حوض القلزم [يقصد المساحة الممتدة من خليج السويس الآن حتى بحيرة التمساح شمالاً]، دون أن نعثر على أقل شقفة طمى، فى حين وجدنا هذا الطمى فى شكل طبقات أفقية فى وادى السبع أبيار»^(٦٤). وإذا كان موطن القلزم الممتد من السويس حتى البحيرات المرة ليس به سوى آثار مياه البحر المالح، وأن وادى السبع أبيار / طميلات يمثلان بطمى النيل، فمعنى ذلك أن خليج السويس كان يمتد حتى بحيرة التمساح، وأن قناة سيزوستريس كانت لاتصل إلى السويس الحالية إنما إلى المسخوطة هيروبوليس التى قد تكون هى بيتوم أو رعمسيس التوراتيتان عند بحيرة التمساح الحالية.

ويؤكد ذلك رفيقه من علماء الحملة الفرنسية المسيوى دى فيليه Divilliers الذى أكدت دراساته أن الماء كان يصل حتى وقت قريب منحدرًا من النيل بشكل طبيعى زمن الفيضان حتى يصل السنة كراش عند بحيرة التمساح وعند البلاح إلى الشمال منها^(٦٥).

ولاحظ دى بوا إيميه أن مد البحر الأحمر فى الخليج العربى يعلو فى منسوبه عن منسوب مياه النيل التى كانت تصل هناك كما جمع من معلومات^(٦٦)، لهذا رجع إلى بلينى يستعيد نصه الذى يشرح الجغرافيا قادمًا من عند خليج العقبة متجها نحو مصر قائلاً:

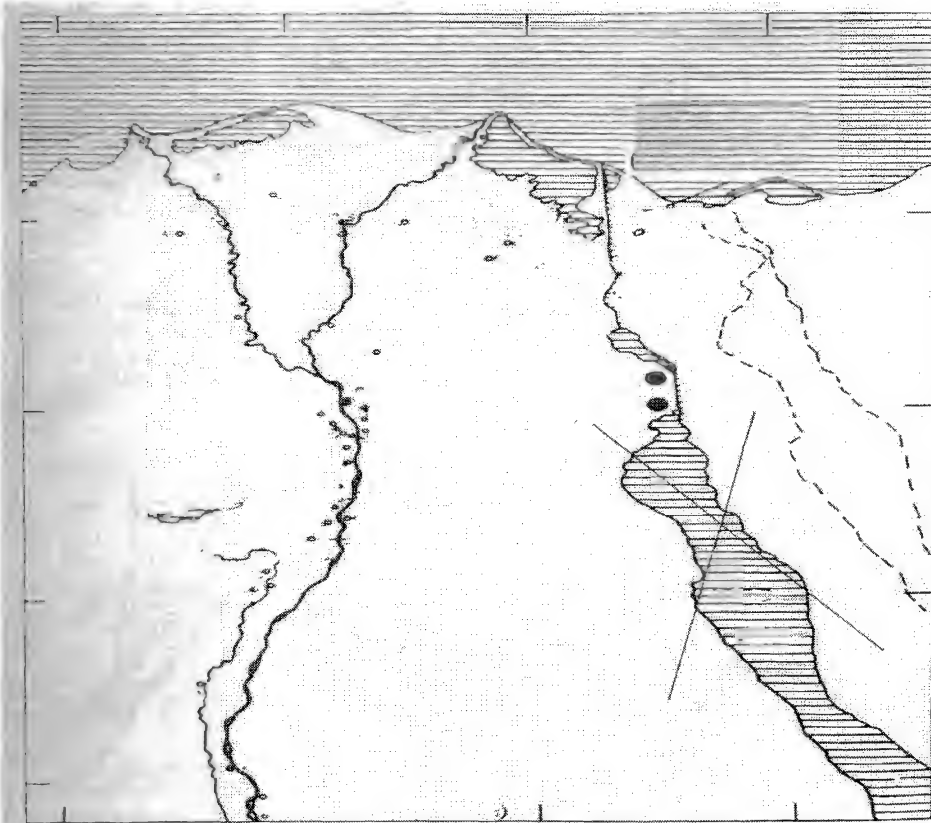
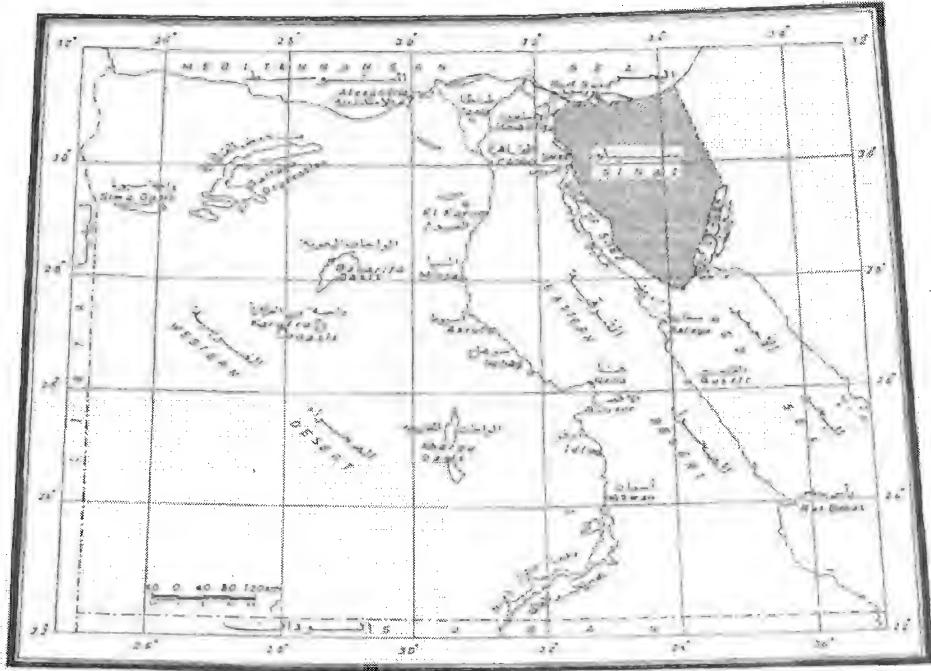
بعد خليج إيلانيتيك AELANITIQUE [أى خليج إيلايت / العقبة الآن / المؤلف]
نجد خليجاً آخر يطلق عليه العرب اسم إيوانت EAANT هناك توجد مدينة الأبطال [يقصد هيروبوليس / المؤلف]، كما توجد هناك .. مدينة قمبيز [كبريت حالياً] التى كان ينقل إليها مرضى الجيش. تأتى بعد ذلك أمة العمالقة Tyres ثم ميناء دانيون Daneon التى أريد أن تبدأ منها حتى الدلتا ترعة ملاحية يبلغ طولها ٦٢ ألف قدم هى المسافة بين النيل والبحر الأحمر. وكان أول من فكر فى هذا المشروع سيزوستريس ملك مصر ثم داريوس ملك الفرس وبعد ذلك بطلميوس الثانى الذى أمر بحفر ترعة تصل إلى البحيرات المرة يبلغ عرضها ١٠٠ قدم وعمقها ٣٠ قدم فى حين يبلغ طولها ٣٧٥٠٠ قدم، لكن بطلميوس لم يتم

(٦٤) نفسه الدراسة الثانية، ص ١٦١ .

(٦٥) نفسه: ص ١٦١ : ١٦٣ .

(٦٦) نفسه: ص ١٦٩ .

مشروعه، خشية غرق المنطقة، إذ وجد أن مستوى البحر الأحمر يعلو بمقدار ثلاثة أذرع
عن مستوى سطح أرض مصر.



وإن كان ثمة تفسيرات مخالفة عند الآخرين، حيث يرى هؤلاء أن بطلميوس قد خشى أن يتلف البحر مياه النهر إذا صب الأول مياهه في النيل وهي المياه الوحيدة القابلة للشرب . . . وتؤدي هذه الطرق المختلفة إلى مدينة أرسينويه والتي أطلق عليها اسم أخته، وهذا الحاكم هو أول من أخضع Troglodytiques أى سكان الكهوف^(٦٧) (سيأتي حديث طويل يفسر لنا حكاية سكان الكهوف في موضعه من هذا الكتاب) .

ويلخص دى بوا إيميه تلك النتائج التأسيسية في قوله:

أما عن مدينة هيروبوليس ولعلها هي نفسها مدينة أفاريس (حواريس عاصمة الهكسوس بمصر / المؤلف)، فإننى مُصرّ على أن أضعها في نفس المكان الذى تشغله اليوم أبو كيشيد (المسخوطة) .

ثم يعقب فى الحاشية قائلاً :

أوضحت فى مذكراتى عن الحدود القديمة للبحر الأحمر رأى البعض ممن يرجحون أن تكون هيروبوليس هي التى تشير إليها التوراة باسم بيتوم Pithom ، والراجح أن المدينة التى أسماها العبرانيون باسم بيتوم كانت هي تلك التى أطلق عليها الإغريق اسم باتوموس Patoumos وأطلق عليها الرومان اسم توم Thoum .. وهذه الاعتبارات المختلفة تفسر بطريقة بالغة اليسر لماذا كانت تلتصق هيروبوليس فى روايات الأقدمين على الدوام فى المنطقة التى كان ينتهى إليها الخليج العربى باتجاه مصر (يقصد عند السويس الآن / المؤلف)^(٦٨) .

ويسير دى بوا إيميه مع الخارجين، حيث يتجهون شمالا بعد تجاوز رأس الخليج العربى القديم عند بحيرة التمساح، حيث أول محطة ذكرتها التوراة باسم (سكوت)، وسكوت عنده هي الكلمة العبرية سيخوت أى المخيمات أو العشش. ومن هناك يعود موسى خشية الحرب مع الفلسطينيين فينتجه برجاله جنوبا بحذاء الشاطئ الغربى للخليج العربى حيث يستريحون فى محطة إيتام ويرى أنها حاليا بير السويس. ومن بير السويس يرتدون غربا حيث كانت تمتد مياه الخليج نحو المنطقة التى أسمتها التوراة فم الحيروث. ويرى أنها تبعد عن

(٦٧) نفسه: ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٦٨) نفسه: ص ١٧٩ ، ١٨٢ .

بئر السويس غرباً بثلاثة فراسخ وأنها حصن عجروود الحالى بجبل عجروود، ويطابق قم الحيروث أو بالعبرية (هـ حيروث) وبين (ع - جروت) أو (عجروود) ليراهما موضعاً واحداً.

ويرسم لنا دى بوا إيميه جغرافية منطقة العجروود بدقة العالم الحضيف، فيرى هناك كتلة رمال جنوب شرقى العجروود، يسعى وراءها فيجدها تتصل بشكل منقطع بخليج السويس، مع وجود خواص عند تلك التقطعات يشير إلى وجود ماء قديم كثيف، ثم أنها منخفضة عن مستوى الماء بالخليج، وهنا يرى أنها كانت بحيرة تقع فى طرف لسان الخليج من شماله الغربى.

ولما كان موسى قد تربى بحكمة المصريين وعلومهم، فلاشك أنه كان يعرف إمكانات العبور من هذه النقطة سيراً على الأقدام إلى الضفة الأخرى. وكان المد يأتى فيغطى البحيرة فيصلها بالخليج، ثم ينحسر فتصبح بحيرة منفصلة عن الخليج. ووقت وصول الفرعون وجيشه كان المد يغطى البحيرة مما جعل الجيش المصرى ينشد الراحة بعد المطاردة المجهدة وهو يجد الخارجين أمامه مرتعبين محاصرين وراءهم البحر وأمامهم الجيش. ولم يخطر ببالهم أى خشية لافلتات الخارجين، بينما كان موسى يستفيد من دوامات الرمال والغبار والضباب ليبدأ التحرك مستغلاً أول ساعات الجذر فيتبعه خائضاً برجاله فى البحيرة الجافة، وعندما لاحظ المصريون متأخرين، مؤخرة الإسرائيليين وهى تتسحب نحو الشرق، كان المد التالى قد بدأ فى العودة. ووسط حماس المطاردة دخل المصريون فى المد بسرعة يريدون مسابقة ارتفاعه بالوصول إلى الشاطئ وراء الإسرائيليين، مما قلل من إمكانية بلوغ الشاطئ فى الوقت المناسب وأدى لتراجع الجيش وغرق بعضه وانفلات الخارجين. ويطابق دى بوا إيميه نظريته المتناسكة بقول التوراة: "قدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم / خروج ١٤ / ٢٢". ويراها مجازاً تمت صياغته فى رواية إعجازية تعبر عن حالة جغرافية طبيعية لاعلاقة لها بالمعجزات، فقد عبروا عند مخاضه جانبها بحيرة وجانبها الآخر خليج السويس / العربى وقت الجذر فكانوا يبدون محصورين فى مساحة ضيقة كما لو كانوا بين بحرين أو داخل بحر مفلوق.

لكن علينا أن نلاحظ أن نيبور Niebuhr الرحالة، ولوكليز Leclerc قد سبقا دى بوا إيميه إلى تحديد رأس خليج السويس بالتحديد موقعا للعبور.

المهم يستكمل دى بوا إيميه مشهده الخروج، ويعرج على بعض الظواهر الإعجازية ليجد لها تفسيراً عقلياً مقبولا، ومنها ما جاء فى رواية التوراة يقول:

وكان الرب يسير أمامهم نهراً فى عمود سحب ليهدىهم
فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضيئ لهم، لكى يمشوا
نهراً وليلاً .

خروج ١٣ / ٢١

وقدم تفسيره بأنه لابد كان هناك بركان يقع فى جبل الله حوريب المقدس بسيناء (كاترين وموسى الآن). وقرأ هذا التفسير على المجمع العلمى الفرنسى الذى انعقد بالقاهرة فى ١٦ من برميير من العام التاسع للحملة الفرنسية، ودلل على وجهة نظره بما يستخدمه البحارة الآن فى مدينة الطور بالخليج العربى من أحجار لحفظ التوازن، وأن هذه الأحجار بركانية، ولاشك مجلوبة من الجبل المقدس. لكن الرجل تراجع عن هذا الرأى بعد التقرير الذى قدمه عالمان آخران بالحملة، قاما بدراسة جبل كاترين وموسى هما السيدان كوتل Coutelle وروزيير Roziere وأكدوا أنه لا وجود هناك لأى أحجار بركانية وأن الجبال هناك جميعاً جرانيتية تماماً.

وأسقط فى يد عالمنا الجليل لكنه كان يصير على العقلنة، فقام يقدم للآية تفسيراً جديداً بعد سقوط نظرية البركان، فقال إن هذا الإله السحابى النارى ليس سوى الشعلة النارية الضخمة التى يحملها البدو إبان سيرهم جماعات فى الصحارى ليلاً ونهاراً حتى لا يفقد المرتحلون بعضهم، بدليل أن التوراة تؤكد أن دليلهم فى الصحراء كان شخصاً يعرف دروب المنطقة ومن أهلها هو حباب المديانى شقيق صفورة زوجة موسى نظير جعل من المال جعله له موسى، والآية تقول: "وقال موسى لحوباب ابن رعوئيل المديانى حمو موسى : إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه ، اذهب معنا فنحن نحسن إليك .. بنفس الإحسان الذى يحسن الرب إلينا نحسن نحن إليك / عدد ١٠ / ٢٩ : ٣٢ ". ولو كان الرب هو الذى يسير أمامهم فما حاجته لرشوه نسيبه ليدله على الطريق فى دروب البوادر السينائية؟

ويعرج دى بوا إيميه على قصة المن والسلوى ويفسر بقوله: إن السلوى هو طائر السمان الذى يتساقط بكثرة فى سيناء نتيجة الإنهاك فى رحلته الفصلية. وقد حدثنا ديودور الصقلى عن مصريين منفين فى عهد اكتيزانيس فى صحراء برزخ السويس كانوا يغتزون من الطيور المهاجرة التى يسهل اصطيادها بعد سقوطها مجعدة. أما المن فما برح يجمع من شجر وفير فى المناطق المحيطة بجبل سيناء. أما النار التى كانت تزحف على خيام الإسرائيليين فى ذلك الجبل وتحرقهم فكان ممكناً تفسيرها بالبركان الذى نفاه السيدان كوتل وروزيير، لكن نتيجة بحثهما دفعت دى بوا إيميه لتفسير آخر قال فيه أن تلك النار كانت ناراً انفجارية مصنعة هى التى عرفها اليونان بعد ذلك باسم النار اليونانية، وبالتأكيد عرفها المصريون قبلهم كأسلوب حربى متطور، ولا شك أن موسى تعلمها من وجوده بالقصر حين كان يتعلم كل حكمة المصريين.

وتبقى من تلك الخوارق الأصوات الهائلة التى كانت تصدر من الجبل المقدس التى لن تكون بركانا بل أصوات رعد ملأت الإسرائيليين البدائيين رعباً وهم يعيشون طفولة عقلية اسمها الإيمان. (٦٩)

رأى هنرى بروجش

يعد هنرى بروجش Henirich Brugsch من أبرز المصنولوجيين الذين أولوا اهتماما خاصا لمسألة علاقة الإسرائيليين بمصر. وهو من أنصار المدرسة التى توقفت الاستعباد بزمان رمسيس الثانى والخروج بزمان ولده مرنبتاح. وقد قدم بروجش ما وصل إليه من محاولات تدقيق لموضع مدينة الاستعباد رعمسيس ونقطة عبور البحر وما هو هذا البحر؟ فى شكل محاضرة ألقاها بحفل المدارس المجانية بالقاهرة عام ١٨٧٩ م. قدم فيها نتائج بحوثه فى نقوش وبرديات مصر القديمة وفى التوراة، ورسم فيها تصويره لخريطة الخروج. يشرح بروجش أن مدينة رعمسيس كانت فى المصرية القديمة (بى رعمسيس) و (فيثوم) هى (بى آتوم) أى بيت آتوم ومدينته. ثم يعمد إلى إيراد موجز سريع لقصيدة ألقاها شاعر مصرى قديم أمام جلاله الفرعون فى حفل افتتاح مدينة رعمسيس. ومن جانبنا قمنا بمقارنة ذلك الموجز مع الأصول فاكتشفنا أن بروجش قدم مزيجا مختصراً من برديات ثلاث، ورأينا من جانبنا العودة للنصوص الثلاثة الأصلية، بادئين بالقصيدة الأولى المعروفة بالقصيدة الصغرى فى مديح رعمسيس :

يابنرع محبوب آمون

أنت السفينة الرئيسية

والعصا التى تهشم

والسيف الذى يذبح الشعوب الأجنبية

وحربة اليد.

إنه نزل من السماء وولد فى عين شمس

وكتب له النصر فى كل أرض

ما كان أجمل يوم حضورك

وما كان أجمل صوتك عندما تكلمت

حينما بنيت مدينة رعمسيس محبوب آمون

فهى بداية كل أرض أجنبية ونهاية مصر

هى المدينة ذات الشرفات الجميلة

والقاعات التى تخطف الأبصار

باللازورد والزمرد

والمكان الذى تستعرض فيه فرسانك

وتجند رجالك

وحيث ترسو سفينتك حينما يحضرون لك الجزية
الثناء عليك حينما يأتى عبيدك المختارين من بدو آسيا
وهم رجال وجوههم كاسرة
وأصابعهم محرقة
يتقدمون حينما يرون الأمير واقفا ومقاتلا
لاقدرة للجبال على الوقوف أمامه
وهى تخاف بطشه
يا بنرع محبوب آمون
ستبقى ما بقيت الأبدية
وستبقى الأبدية ما بقيت
وستمكث على عرش والدك رع حور أختى (٧٠)

والبردية الثانية ليست قصيدة، إنما تقرير فى شكل رسالة مرسله من كاتب من كتاب البلاط هو (بينبس) إلى
رئيس قلم كتاب القصر (آمنوبى) يقول له فيها:

أن الكاتب بينبس
يرحب بسيدته الكاتب آمنوبى
فى حياة وفلاح وصحة
وقد حرر هذا ليكون سيدى على علم به
ترحيب ثان بسيدى
لقد وصلت إلى مدينة بيت رعسيس محبوب آمون
ووجدتها فى غاية الإزدهار
هى عرش جميل منقطع النظير على طراز طيبة
وإن رع هو الذى أسسها بنفسه
فهى مقام تلد فيه الحياة

(٧٠) سليم حسن: الأدب المصري القديم، كتاب أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة .. ، ج٢، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

حقولها مملوءة بكل ما طاب
ولديها مؤن وذخيرة كل يوم
بركها تزخر بالسماك
وبحيراتها بالطيور
حقولها يانعة بالبقل
وشواطئها محملة بالبلح
ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح
فيها الثوم والكرات للطعام
وخس الـ (تقّب) جنينة
وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين من البساتين
وخمر كنكمة اللذيذ الذي يفوق الشهد حلاوة
وفيها سمك وز الأحمر من قناة (تقّب)
وسمك بتن من بحيرة (تقّب)
وسيهور تنتج الملح
ويستخرج من بحيرة هر النطرون
وسفنها تروح وتجيئ إلى الميناء
وفيها المؤن والذخيرة كل يوم
وينشرح الإنسان بالمقام فيها
ولا أحد يقول: ليت كذا
والصغير فيها مثل العظيم
تعال، وتعالى تحتفل بأعيادها السماوية
وأوائل فصولها السنوية
إن مستنقعات زوف تنتج لها البردى
وسيهور تمدّها باليراع،

وغرائس العنب تأتى إليها من البساتين
وتيجان الأزهار من الكروم
وتجلب إليها الطيور من الماء البارد
والبحر فيه سمك بج وسمك أد
والمستنقعات تهدى إليها (تقب)
وشباب عظيمة الانتصارات يلبسون حلل العيد كل يوم
ورؤوسهم مضمخة بزيت زكى الرائحة
فى الشعر المرجل حديثا
ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور
وبالنبات الأخضر من بيت حتحور
وبالكتان من بحيرة حر ،
فى اليوم الذى يدخل فيه رعمسيس
هو منتو فى كلتا الأرضيين صبيحة عيد كيهك
وعندئذ يدلى كل إنسان بملتمسه
ونسيم عظيمة الانتصارات حلو
وشرابها تبنى مثل الفاكهة شاو
وشرابها خيو طعمه كطعم الفاكهة إنو
فهو يفوق الشهد حلاوة
وجعه كدى ترد من الميناء (بلاد كدى بالشام / المؤلف)
والنبيذ والكروم والروائح العطرة
يؤتى بها من مياه سيجبين
وتيجان الأزهار من (تقب) جنينة
أما مغنيات عظيمة الانتصارات ذوات الصوت العذب
فقد تعلمن الغناء فى منف

اسكن هناك سعيداً وامشى مرحاً ولا تغادرها

ياوسر مارع المختار من آمون

يامنتو فى الأرض

يا رعمسيس محبوب آمون

أنت أيها الإله (٧١)

ثم نأتى إلى النص الثالث وهو قصيدة فى مديح رعمسيس تعرف بالقصيدة الكبرى، لنستمع إلى الشاعر يقول:

لقد بنى جلالته لنفسه قلعة تسمى :

عظيمة الانتصارات.

وهى واقعة بين فلسطين ومصر

وهى ملأى بالذخيرة والأرزاق

وهى مثل أرمنت وخلودها كخلود منف

فالشمس تشرق فى أفقها وتغرب فيها

وجميع الناس يهجرون مدنهم ويسكنون فى ربوعها

حيها الغربى معبد آمون

والجنوبى معبد الإله سوتخ

والإلهة عشتار فى شرقها

والإله بوتو فى الجهة الشمالية منها

والحصن الذى فى وسطها مثل أفق السماء

ورعمسيس محبوب آمون إله

ومنتو فى الأرضين رسول

وشمس الأمراء وزير له وفرح لمصر

ومحسوب أتوم محافظ تذهب الدنيا إلى سكنه

ورئيس بلاد الخيما الأعظم يكتب إلى ملك بلاد كدى:

(٧١) نفسه: ج ١، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

تجهز لنسرع إلى مصر حتى يمكننا القول: إرادة الإله تنفذ

وحتى يمكننا أن نتكلم كلاماً جميلاً أمام رعمسيس

إنه يعطى نفس الحياة من يريد

وكل بلد يحيا حسب رغبته

وبلاد الخيتا تعيش حسب إرادته فقط

وإذا لم يتسلم الإله (يقصد رعمسيس / المؤلف) قربانه منها

فإنها لا ترى مطر السماء

وذلك فى استطاعة وسر مارع

الثور الذى يحب الشجاعة

الإله الطيب مثل منتو المظفر

الذى ولد من رع

طفل ثور هليوبوليس

الذى يقف فى ساحة القتال ويحارب بشجاعة

مثل الواحد القوى فى سفينة السماء حاكم الأبدية

وهو الذى كان ملكا وهو فى البيضة

مثل جلالة الإله حور

وقد استولى على الأرض بانتصاره

وأخضع الأرض بخطته

والشعوب التسعة وطأها بأقدامه

وكل الشعوب الأجنبية تساق بهداياها

وجميع الممالك تسعى إليه على الطريق الوحيد

ليس له خصم

وأمرأ البلاد الأجنبية لاقوة لهم

يصيحون كالماعز الوحشية ذعراً منه

إنه يدخل بينهم كابن نوت

وعلى ذلك

يسقطون أمامه خوفا من نفسه النارى

اللوبيون يتساقطون لذبحه إياهم

والناس يسقطون بنصل سيفه

وقد منح قوته إلى الأبد

وإرادته تحيط بالجبال

آه يارعمسيس محبوب آمون رب القوة

يامن يحمى جنوده

أنت يا ابن آمون أيها الجسور

أيها الثور القوى الذى يثتى المتحالفين ضده

ويقف ثابتا على عربته الحربية مثل رب طيبة

قوته تقهر كل الممالك الأجنبية

ويخترق الأراضى باحثا عن مهاجميه

ونداؤه الحربى للموقعة يؤثر فى قلوب من يخافون وجهه

هو الحاكم الطيب اليقظ الممتاز النصيحة

هو الذى يضع اسمه فى كل الأراضى

بوصفه الفرد الشجاع

نعم ياملك الأرضين وربهما مثل جلالة الإله حور

إن أمراء الأرض قد أصبحوا فى وجل منك

.....

.....

وجنود الشردانا الذين حملتهم إلى بلادك بقوتك

يأسرون لك رجال الصحارى

ما أجمل ذهابك إلى طيبة
وعربتك الحربية متقلة بالأيدى
ورؤساء القبائل يمشون أمامك مكبلين
وستقودهم إلى والدك المبجل آمون ثور أمه
ياقصر سيسى الذى تكرر فيه الأعياد
يا عرش تنن إنك تضى مثل (تقب)
كأتوم
كمصباح والدك رع (٧٢) .

هذه نصوص البرديات الثلاث التى دمجها بروجش موجزة، ليأخذ عناصرها الأساسية لبحثه، وأهمها أن مدينة رعمسيس كانت ميناء عظيمًا على بحر، وكانت مقر عليه القوم وضيافة الملوك الأجانب، ومليئة بالخيرات، وتقع بين مصر وفلسطين وهو ما يعنى وقوعها على أطراف الدلتا الشرقية، وأنها تتصل بقناة تمدها بالمياه العذبة، وفى محيطها مجموعة بحيرات ومستنقعات.

ويتطابق وصف التوراة للمدينة بحسبانها ميناء يقع على بحر سوف مع النصوص المصرية التى أكدت من جانبها أنها كانت ميناء دوليا، وهى النتائج التى وصل لها المؤرخون من دراسة النصوص المصرية التى تتعلق برمسيس وتم إيجازها فى القول: "من خلال وصف مدينة بر رمسيس يمكننا أن نستنتج أن تلك العاصمة كانت تقع على أحد فروع النيل وأن ثغرها كان يستقبل أسطول البلاد التجارى والحربى، يرسو فيه ويبحر منه عند قيامه بالغزوات الحربية أو البعثات التجارية" (٧٣)

ويرى بروجش أن بناء مدينة بهذه المواصفات لا شك قد احتاج إلى عمالة ضخمة، وهو ما يراه بروجش شرحا يوافق ما ذكرته التوراة عن استعباد بنى إسرائيل فى بناء مدينتى فيثوم ورعمسيس.

ثم ينتقل بروجش إلى نتائج حفائر المصروولوجيست مارييت فى خرائب مدينة صان الحجر، فى أقصى شمال شرقى الدلتا قرب بحيرة المنزلة، حيث عثر مارييت على تمثالين للملك رعمسيس الثانى عليهما نقوش تؤكد أنه قد بنى مدينة باسمه، ويرى أن تلك المدينة هى صان الحجر، وأنها هى المعروفة لدى اليونانيين باسم تانيس.

وقد حظيت صان الحجر بعدة حفائر على يد المصروولوجيست الشهير بيير مونتيفيه، ومن بعده على يد البعثة الفرنسية برئاسة جان بوبوت من معهد آثار جامعة باريس. وقد تمكن مونتيفيه من اكتشاف مجموعة

(٧٢) نفسه: ج ٢، ص ٢١٥ : ٢١٧ .

(٧٣) كامل: ١٠١ .

مقابر مشيدة فى صان الحجر من أحجار الجرانيت. كما تم التعرف على مقبرتين ملكيتين للملك بشنس الأول والملك شيشنق من الأسرة الليبية التى حكمت مصر، وهى الأسرة الثانية والعشرين .

ويرى بروجش أن صان الحجر هى تانيس هى مدينة صوعن المذكورة بالتوراة، ثم يلجأ إلى نقش على جدار هيكل الكرنك عن مدينة رعمسيس يرجع إلى زمن ستى الأول أبو رعمسيس الثانى، حيث يمكن رؤية جانبى المدينة مرفوعتين على شاطئ ومتصلتان بقنطرة، مع رسوم توضيحية زيادة فى الشرح، حيث نرى على جهة من القنطرة تمساح ونباتات نيلية نهريه ليعرفنا الفنان أن المدينة تقع على أحد فروع النيل، وعلى الجهة الأخرى رسم الفنان أسماكاً بحرية ليعلمنا أنها تقع من الجانب الآخر على بحر مالخ ويرى بروجش أن تلك المدينة قد اكتسبت أهميتها الخاصة لوقوعها على طرف بداية الطريق الكبير الموصل لفلسطين. ويقول إنه بجوار هذا الطريق كانت توجد بئر ذكرها الرومان باسم مجدولان، ويراها بروجش هو مجدول المذكور بالتوراة عند موقع الخروج من البحر "أمام فم الحيروث بين مجدول والبحر أمام بعل صفون / خروج ١٤/".

ويعتقد بروجش جازماً أن مدينة رعمسيس هى صوعن هى صان الحجر هى تانيس الشهيرة فى التاريخ، وأنها كانت عاصمة مديرية من مديريات شرقى الدلتا أو عاصمتها جميعاً، وأن اليونان أطلقوا عليها اسم (تراموس تانيسيس). ويرى أن جغرافيتها تجعل جزءاً كبيراً منها يقع على الشاطئ الشرقى لفرع نيلى، وغربها يقع على بحيرة المنزلة، بينما تتماس حدودها الجنوبية مع إقليم آخر من مديريات شرقى الدلتا هو المعروف باسم (توكو) أو (توكوت)، وهو الذى أشارت إليه التوراة باسم (سكوت)، وأن المؤرخين اليونان أسموا هذا الإقليم باسم (سينوزيدس)، ويؤكد أن الآثار المكتشفة أسمت هذا الإقليم باسم بى توم وهو المذكور فى التوراة باسم فيثوم.

ثم يدعم نظريته برسالة محررة على بردية بمتحف ليدن من كاتب حكومى يدعى كويسرا / كويس رع إلى رئيسه بيكوبتاح زمن رمسيس الثانى يقول فيها محررها كويسرا :

وقد أطعت الأمر الذى أصدره سيدى فأعطيت قمحا
للعسكر والإسرائيليين الذين ينقلون الأحجار إلى حصن
رمسيس العظيم، تحت ملاحظة إيمان رئيس الضباط،
وأعطيتهم القمح كل شهر طبقاً للأمر الصادر إلى .

ومن هنا، وإزاء هذا النص الخطير الحاسم، يستنتج بروجش أن عاصمتى الإقليمين: إقليم صان الحجر وعاصمته رعمسيس أو تانيس، وإقليم سكوت وعاصمته بى توم أو فيثوم، كانا يتصلان ببعضهما عند جنوبى بحيرة المنزلة، وأن هناك أقيمت حصون ظل بعضها موجوداً حتى بعد مرور عشرة قرون إلى زمن اليونان بمصر، حيث نسب المؤرخون اليونان بناء حصن مجدولان للفرعون الشهير سيزوستريس الذى يرى بروجش أنه رمسيس الثانى تحديداً. وقد تأكد من وجود ذلك الحصن (مجدول) من وثيقة تعود لزمان مرنبتاح

ابن رمسيس الثانى وكان يحمل اسم حصن مرنبتاح، والرسالة محررة على بردية بالمتحف البريطانى ويقول نصها:

كن مسرور خاطر ياسيدى، فإن قبائل بدو آدوم قد
مروا بحرية تامة من حصن الفرعون مرنبتاح الذى فى
إقليم سوكونت بالقرب من برك مدينة ييثوم التابعة
للملك مرنبتاح الموجودة فى أرض سوكونت. وقد
صرف لهم ولدوا بهم الزاد، الذى هو أرزاق فرعون
شمس العالم .

ويعود بروجش إلى اسم المقاطعة التى سكنها الإسرائيليون بمصر وجاءت باسم جاسان فى التوراة محاولا العثور عليه على خريطة الدلتا الحالية، فيقول إنه الإقليم الذى أطلق عليه اليونان اسم الإقليم العربى ويسمى اليوم الصحرجية (بحثنا من جانبنا فلم نجد أية صحرجية، لكن ربما كان بروجش يقصد صهرجت الكبرى وصهرجت الصغرى إلى الجنوب من الموضع الذى يتحدث عنه وليس عند صان / المؤلف). وكانت عاصمة هذا الإقليم تلك المدينة التى أسماها اليونان (فاقوسة) وهى الآن صفت الحنة بجوار الزقازيق وبسطة. وقد تم العثور على آثار فى صفت الحنة تشير إلى أنها كانت فى إقليم ترجم اسمه (جوسيم)، ويرى أن المؤرخين قد خلطوا بين اسم (جوسيم) أو فاقوسة الموجودة فى صهرجت وبين اسم مدينة رعمسيس التى هى عنده صان الحجر. أما جوسيم فقد صارت فاقوسة بعد ذلك بإضافة حرف (فا) أو (با) أو (بى) المصرية المعتادة لأسماء البلدان مثل (بى رعمسيس) ومثل (بى) التى أضيفت إلى نوم فأصبحت (فيثوم)، وعليه أصبحت جوسيم (فاجوسيم) التى نطقت (فاقوسة) التى هى جاسان التوراتية .

ويرى بروجش أن القوم الذين ذكرتهم المدونات المصرية باسم الخالو وكانوا يستقرون هناك، هم بعض الساميين الفينيقيين الذين سكنوا جاسان كجالية أجنبية، وأنهم وراء إطلاق التسميات السامية على مواضع تلك المناطق المصرية، لأن مجدل كلمة عبرية تعنى حصن أو قلعة، وسكونت كلمة عبرية تعنى المخيم أو العشش أو المظلات، وصان هى التى كتبتها التوراة صوعن.

ويسير بروجش مع الخارجين من رعمسيس، فيتبع الطريق الفرعونى الكبير (طريق حورس الحربى)، وأنه قد خرج معهم لفيف كثير حسب التوراة هم عنده الفينيقيين / الخالو، وأنهم استراحوا فى أول محطة هى سكونت فى إقليم بى نوم، ومن هناك اتجهوا شرقا نحو صحراء أسمتها التوراة إيتام، لكنهم عادوا لتجنب الطريق الكبير المعروف، ليس لأنهم كانوا يخشون حربا كما قالت التوراة، إنما لأن موسى كان يعلم بمعاهدة السلام التاريخية التى ربطت مصر بمملكة الحيثيين زمن رمسيس الثانى، والتى تنص على إعادة الرعايا الهاربين من أحد المملكتين إلى الأخرى، ومن جانبنا رأينا إيراد ذلك البند من بنود الاتفاقية.

المعروف أن حربا طاحنة قد جرت بين مصر وتركيا، قادها رمسيس الثانى ضد حاتوشيليش الثالث ملك خيتا (بلاد الحيثيين) لوقف اعتدائه على أملاك مصر فى آسيا، وكان ذلك فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى. وانتهت المعارك بمعاهدة سلام هى الأولى من نوعها، دونت بنودها على لوح فضى وضع عند قدمى الإله رع وتم العثور عليه بمصر، بينما حمل الوفد الحيثى النسخة المدونة بالحيثية على لوح فضى وتم وضعها عند قدمى إله العاصفة الحيثى تيشوب، وقد عُثر عليها بدورها.

ونقول فقرة بالمعاهدة فى نصها الحيثى

هذه كلمات رعمسيس الثانى ملك أرض مصر العظيم
قاهر جميع البلدان، ابن منمورا (اسم العرش لأبيه ستى
الأول) الملك العظيم، ملك مصر القاهر .. قالها إلى
حاتوشيليش الملك العظيم، ملك بلاد الحيثيين الشجاع
ابن مورشيليش الملك العظيم ملك بلاد حاتى .. بالنسبة
لنا فإننا إخوة والسلام بيننا قد عقد وسيكون خيراً من
الأخوة

أما البند الذى يقصده (بروجش) فقد جاء مدونا بالوثيقة المصرية يقول :

إذا هرب نبيل من بلاد الحيثيين وجاء إلى رعمسيس
العظيم إلى بلاد مصر كى يدخل فى خدماته، سواء كان
رجلاً
أم مدينة، فإن ملك مصر سيلقى القبض عليهم ويرجعهم
إلى ملك الحيثيين. وإذا هرب نبيل من رعمسيس ملك
أرض مصر وأتى إلى بلاد الحيثيين فإن حاتوشيليش
ملك بلاد الحيثيين سيلقى القبض عليه، ويرجعه إلى
رعمسيس الملك العظيم ملك مصر، أخيه (٧٤).

وعليه فإن بروجش يرى أن موسى كان على علم بنود تبادل المارفين الواردة بتلك المعاهدة الدولية، لذلك فضل سلوك السبل غير المطروقة فى سيناء، فعاد برجاله إلى مجدولان، ويرى أنها كانت تقع بين (الفرما / بيلوز) وبين سيله قرب القنطرة، أما بحر سوف الذى عبروه فلا بد أن يكون سهل الطينة جنوبى خليج الطينة وشرقى بحيرة المنزلة، فتبعهم المصريون لكن ليغرقهم مد البحيرة العالى.

(٧٤) سامى سعيد: الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨، .. ص ٥٦ ، ٥٩ .

ويستشهد بروجش على صدق نظريته بخطورة المد في تلك المنطقة ومفاجأته الكارثية لأكثر من مرة معلومة بالتاريخ، منها المرة التي ذكرها سترابون عندما ساح في مصر خلال القرن الأول قبل الميلاد، وقال فيها:

وقد حدث في مدة إقامتي بالإسكندرية مد وجذر
عظيمين في مدينة بى لوز قرب جبل كاسيوس، فأغرق
الماء تلك الجبال حتى صار الجبل كأنه جزيرة، وكانت
السفن تجرى على الطريق المجاور الذى كان يمتد إلى
فلس _____ طين حى _____ ث
غطاه الماء .

ويستشهد بشهادة أخرى من ديودور الصقلي في معرض حديثه عن حملة ارتكزكتيس ملك الفرس على مصر، عندما وقع في شرك تلك المنطقة الجهنمية مع رجاله، عندما وصل زحفه إلى البركة التي تجاور سهل الطينة حيث منطقة المهالك، وهناك فقد جانباً كبيراً من جيشه في هذا المكان بالتحديد. ^(٧٥)

رأي بئر مونثيه :

ومن بين النظريات الهامة التي اهتمت بحدث الخروج الإسرائيلي وعلاقة التوراة بمصر القديمة نظرية المصروولوجيست بيير مونتنيه التي طرحها في كتابه مصر والتوراة، وتعد بدورها من النظريات المشهورة والمعتبرة بين الباحثين ولم تزل صامدة حتى الآن، ونوجز لها هنا ملخصاً سريعاً يبدأ مع دخول يعقوب وأبنائه إلى مصر زمن ولاية يوسف الخزانة المصرية، حسب رواية التوراة، وأنهم سكنوا أرض جاسان التي يجب أن تتموضع شرقي الدلتا لاعتبارات ساقها مونتنيه، أبرزها أن يوسف حسب التوراة قد عاش في عاصمة البلاد قرب الفرعون. وأن يوسف عندما علم بوصول أبيه حدود مصر أسرع فركب عربته العسكرية وتوجه للقاء أهله، ثم عاد ليخبر الفرعون. وأن ذلك حسب التوراة السبعونية قد استغرق يوماً واحداً. ثم نعلم أن يوسف استسمح الفرعون لإسكان أهله بأرض جاسان ومن المحال أن تكون جاسان في طيبة جنوباً أو حتى في منف لأن الراكب منها إلى حدود الدلتا الشرقية يحتاج أياماً للوصول وليس يوماً واحداً.

هذا بالإضافة إلى إفادات ماسبيرو عن المواصلات في مصر القديمة التي كانت تعتمد على الإبحار في النيل وقنواته العديدة، لذلك كان لابد أن تستخدم العجلات في مناطق تسمح بها على الأطراف بعيداً عن الأنهار والقنوات، وهو شرقي الدلتا حيث الصحارى الممتدة المتصلة بسيناء، وعليه لابد أن تقع جاسان هناك

(٧٥) اقتبسها غطاس عبد الملك الخشبة في: رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠

ويرى مونتيه أن جاسان كانت المقاطعة الهكسوسية التي كانت تقع فيها عاصمتهم المصرية حواريس، ولا يشك مونتيه أنها هي مدينة صان الحجر الحالية. ويؤكد لمونتيه أن يعقوب وأولاده دخلوا مصر زمن الهكسوس، أنها كانت الفترة الزمنية الوحيدة التي تسمح بذلك حيث كانت عاصمة الهكسوس تقع شمال البلاد المصرية قرب الحدود السينائية، ولأن عاصمة مصر قد عادت بعد التحرير إلى مقرها القديم العريق في طيبة (الأقصر) بأقصى الجنوب.

ثم يسير مونتيه مع الخارجين ليدقق موقع العبور البحرى الإعجازى ويعقلنه، فيراهم ينطلقون من حواريس أو رعمسيس اللتين هما عنده مدينة واحدة هي حالياً صان الحجر، ليسيروا بمحاذاة شاطئ بحيرة المنزلة يريدون الطريق الحربى الكبير المعروف بطريق حورس، لكنهم يخشون الاصطدام بالتحصينات المصرية القوية على الحدود وهو الذى أطلقت عليه التوراة خطأ "خشية حرب مع الفلسطينيين" لأن فلسطين كانت بعيدة تماماً، وهو ما اضطر موسى ورجاله إلى تغيير خط سيرهم من الاتجاه شرقاً إلى الاتجاه جنوباً.

وللعثور على النقطة المفصلية وهي عبور البحر يقف مع المحطة التي ذكرتها التوراة باسم بعل صافون، حيث عبروا عند إحدائيات حددتها التوراة بأنها " أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون". فيرى أن (بعل صافون) كانت فيما يبدو معبداً للإله الكنعانى الذى يحمل ذلك الاسم، وتعنى (رب الشمال). ويعلمنا أن اليونان كانوا يدمجون بين بعل صفون وبين الرب اليونانى زيوس كاسيوس، وقد لاحظ أن اليونان قد أطلقوا اسم زيوس كاسيوس فى زمنهم بأرض مصر على منطقة الكسارون الحالية بجوار الفرما / بى لوز على شاطئ البحر المتوسط بسياء، وبذلك تكون هذه النقطة هي بعل صافون المذكور بالتوراة وأن المعبد لاشك كان يقوم هناك، على الشريط الساحلى الممتد أقصى شمال سيناء.

ويصر مونتيه على متابعة التوراة ويصدق قصة غرق أكبر جيش فى العالم آنذاك إبان مطاردة الخارجين، ويجد لها تبريرات جغرافية حيث تقع بحيرة البردويل / سيربونيس على الشاطئ السينائى على البحر المتوسط فى بقعة منخفضة عن سطح البحر بعدة أمتار، وعادة ما تجف مياهها ويمكن عبورها دون خطر، لكن ذلك لم يمنع أحيانا من مفاجآت مهلكة للعابرين نتيجة الهبوب المفاجئ وغير المتوقع لعواصف شمالية قادمة من البحر المتوسط، وعادة ما ذكر المؤرخون أحداثاً مأساوية حدثت للعابرين على الشريط الضيق بين البحر والبحيرة، أو خلال البحيرة إبان جفافها.

ويرسم مونتيه صورة تأملية للحدث الأكبر فتشاهد معه الإسرائيليين يسبرون فى طابور طويل على الشريط الضيق بين البحر والبحيرة متجهين إلى الطرف الآخر نحو العريش، فى الوقت الذى بدأت فيه مطاردة الجيش المصرى للإسرائيليين، وفضل المصريون عبور البحيرة إبان جفافها ليقطعوا الطريق على الخارجين، لكنهم ما أن وصلوا وسط وعمق هذا الدن الهائل حتى هبت الأعاصير العاتية قادمة من المتوسط بأعواج هائلة ملأت البحيرة الفارغة وأغرقت من فيها. وكان عرض البحيرة حوالى عشرين كيلو مترا

وطولها سبعين كيلوا متراً مما لم يعط الفرصة لمن في وسطها بالوصول إلى أحد شواطئها فلاقى المصريون جميعاً حتفهم. (٧٦)

ويذهب مونتييه مع النظرية التي تقول بالاستعباد زمن رمسيس الثاني والخروج زمن مرنبتاح. وإزاء إشكالية وجوب وجود بركان في طريق الخروج يفسر أحداث سيناء، مع عدم وجود أثر لأية براكين بسيناء حسب تقرير علما الحملة الفرنسية كوثل وروزيير، ومع إصرار مونتييه على تفسير الأحداث التي روتها التوراة بضرورة وجود بركان، فقد ذهب بالخارجين بعد خروجهم من مضيق الشريط الساحلى شمال البردويل نحو العقبة داخل الأراضي الشمالية للسعودية الآن، ليتمكن من العثور على بركان حيث كانت المنطقة هناك بركانية بالفعل حتى زمن قريب.

رأي على شافعى

وتعد هذه النظرية من النظريات المحترمة الجديرة بالاهتمام وبالاعتبار فى محاولة رسم سيناريو لخط سير الخروج من رعمسيس إلى سيناء بعبور البحر الإعجازى، مع عقلنة ذلك العبور بعيداً عن أسطورة العصا الثعبانية. ومبدئياً يأخذ شافعى بدوره بنظرية الخروج زمن مرنبتاح، ثم يسلم بكشوف محمود حمزة فى حفائر مدينة قنتير الواقعة شمالى فاقوس، ويعتبر قنتير هى رعمسيس بشكل قاطع.

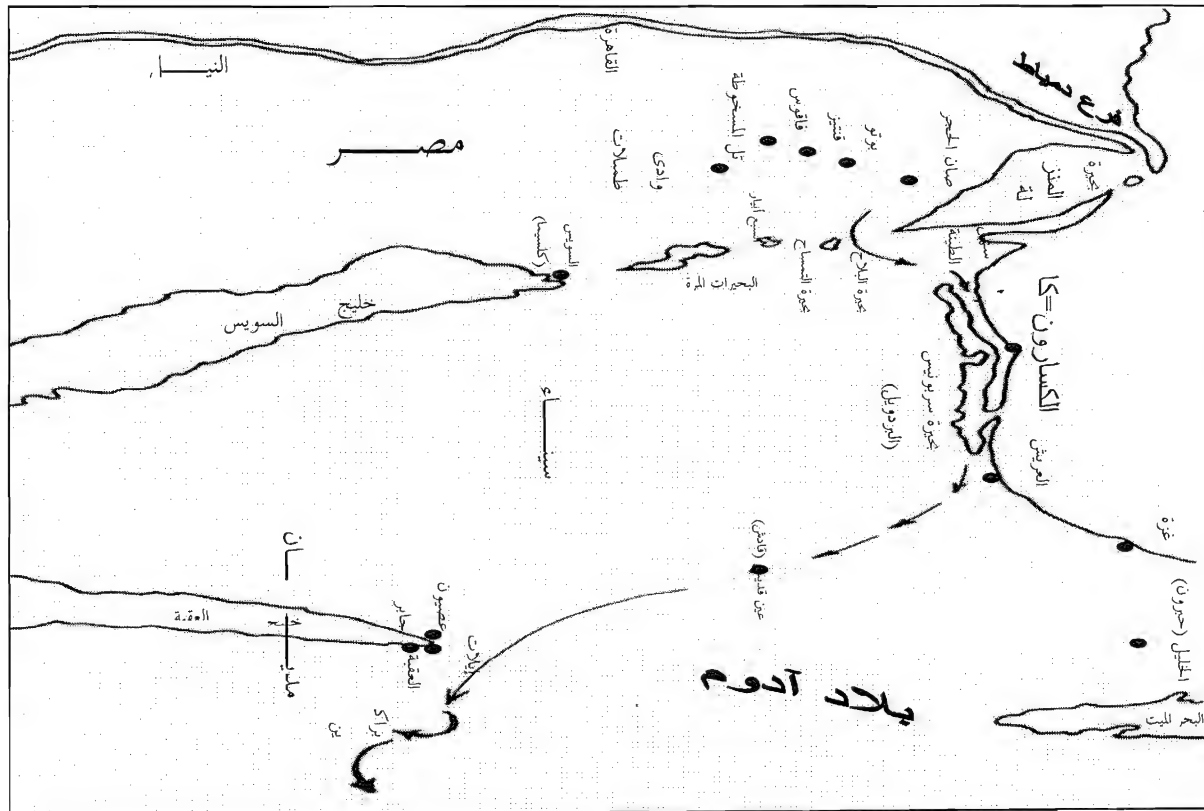
ويستند إلى ما وصل إليه جوتييه حول مدينة رعمسيس باعتبارها كانت المقر الصيفى لملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، تحاشياً لرده بأن مقر الملك كان طيبة فى الجنوب. ويروى لنا قصة عن راهبة تدعى (إيثيريا) تركت لنا حكاية أدائها لفريضة الحج بالأماكن المقدسة، وأن رحلتها بدأت من جاليا نربونيس Gallia Narbunis ودونت خط سيرها حوالى عام ٥٣٣ / ٥٤٠ ميلادية، وهى مودعة الآن فى مكتبة أرزو. ومن خط سير تلك الرحلة يحاول شافعى أن يتعرف على مواقع الإسرائيليين بمصر ومن أين خرجوا؟

تقول الراهبة إيثيريا إن بلدة رعمسيس تقع على مبعدة أربعة أميال من مدينة كانت تعرف فى زمنها باسم أرابيا. ويرجع شافعى إلى المصور الجغرافى الذى وضعه الأمير عمر طوسون نقلا عن وصف جورج القبرصى الذى عاش فى القرن السابع الميلادى، فيكتشف أن رعمسيس كما جاءت فى قائمة المقاطعات المحفوظة بأكسفورد هى فاقوسة، لكنه لا يرى فاقوسة هى صفط الحنة كما هو متفق عليه لدى المؤرخين الكلاسيك، بل هى فاقوس الآن جنوبى قنتير بحوالى عشرة كيلو مترات، وهى ما تطابق الاسم فاقوسة تماماً. وعلى نفس البعد من فاقوس توجد آثار تل الضبعة ومعبد أمنمحات الأول على يمين ويسار ترعة الديدمون، ويرى أن تلك الخرائب هى امتداد للخرائب الشاسعة التى حدثتنا عنها الراهبة إيثيريا فى قصة جهها.

(٧٦) كاسيدوفسكى (زينون): الواقع والأسطورة فى التوراة ترجمة حسان ميخائيل، أبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠ .. ص ٨٠ ،

تقول إيثريا إنها عبرت من بلدة أرابيا إلى مدينة رعسميس لمسافة أربعة أميال خلال حقول حتى وصلت رعسميس وكانت بدورها حقول دون أية مبان، لكن المنطقة كانت مفروشة بأحجار وآثار مبان متهدمة، فقط شاهدت أثراً كان باقياً حتى زمانها لتمثالين ضخمين ربما كان لأحد الفراعين، لكن الناس كانوا يزعمون زمن إيثريا من سكان المنطقة أنهما للأخوين موسى وهارون، مما يعبر عن ذكريات قديمة تواترت حتى وصلتهم، وتؤكد صلة الإسرائيليين بهذه المنطقة من مصر، وعليه فلا بد - عند شافعى - أن تكون رعسميس هي قنثير التي كشف آثارها محمود حمزة.

ومع رحلة الخروج يسير شافعى باحثاً عن موضع يمكن أن يكون هو استراحة المحطة الأولى للخارجين المذكور في التوراة باسم (سكوت)، فبيحث في المناطق المجاورة لقنثير ويرى أن الموضع المناسب لمدينة سكوت هو الصالحية الحالية التي تبعد حوالى عشرين كيلو متراً إلى الشرق من قنثير. وهى مسافة مناسبة للرحلة تستوجب الراحة بعدها. لكن معنى ذلك أن يعبر الخارجون عدداً من قنوات النيل بين قنثير والصالحية وهو مالم تذكره التوراة، ولتبرير ذلك يقول إن وقت خروجهم كان النيل فى أدنى منسوب له حيث تتحول كثير من القنوات إلى حياض جافة، ومن ثم لم يكن هناك داع لى تذكر التوراة عبور مناطق جافة. ومن جانب آخر عمد شافعى إلى الصالحية بحسبانها سكوت المذكورة بالتوراة اعتماداً على ورقة أنستاسى التى تعود إلى الأسرة التاسعة عشر ونصف سكوت بأنها متاخمة للحدود ويسكنها أجانب وبها قلعة باسم (ختم) سكوت يحتمل أنها مجدل التوراة، بينما كان الرعامسة يسكنون على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً شمال غربى سكوت / الصالحية بمدينة قنثير / رعسميس .



الخريطة رقم (٥)
خط الخروج حسب مونتيفيه



الخريطة رقم (٦)
خط الخروج حسب بيبير مونتيفيه من الشريط اليابس الضيق شمالي بحيرة البردويل /
صورة بالأقمار الصناعية للشريط اليابس والبحيرة

ومع شافعى نسير على خط السير بحذاء الشاطئ الأيمن لفرع النيل الشرقى، لنجده يعتمد وثيقة أخرى من أوراق أنستاسى، وهى وثيقة تتحدث عن مطاردة عبيد هاريين تقول الوثيقة:

وبعد، فقد أرسلت من بلاط القصر الملكى وراء هذين العبدین، فى اليوم التاسع عشر من الشهر الثالث من فصل الصيف وقت المساء. ولما وصلت حصن سكوت فى اليوم العشرين من الشهر الثالث، علمت أن أخبار الجنوب تقول: فرا ذاهبين .. اليوم .. من الشهر الثالث من فصل الصيف. ولما وصلت القلعة أُخبرت أن السائس قد حضر من الصحراء وأعلن أنهما تخطيا الحدود شمالي حصن مجدول سبتى.

ولما لم يكن هناك قصوراً ملكية - برأى شافعى - فى هذه المنطقة سوى فى قنثير، فإن سكوت يجب ألا تبعد سوى مسيرة يوم و احد حسب الوثيقة المذكورة (من اليوم التاسع عشر إلى اليوم العشرين من الشهر الثالث) عن قنثير باتجاه سيناء .

أما الطريق الذى سلكوه على وجه التدقيق، فهو الممتد وراء دفنة (تل دفنه الآن) ثم الفرما (بى لوز)، وكان هناك فرع نيلى يأخذ ماءه من عند دفنه ليصل إلى تل أبو سيفاء، ويفترض شافعى أن هذا التل هو محل القلعة التى حدثتنا عنها النصوص المصرية كثيراً وحددت مكانها أقصى الحدود الشرقية للدلتا، وأسماها سيالة أو ثارو أو زالو أو شور .. وفى هذه الحال يجب أن تقع مجدل شرقى سياله على أول الطريق نحو فلسطين. وكان فرع النيل الذى ينتهى إلى سياله / أبو سيفاء هو ما ذكرته النصوص المصرية باسم ماء حور أو بالمصرية القديمة سى حور، أما الفرع الأصلى الذى يتفرع منه سى حور فكان يسمى ماء رع أو سى رع .

ولتفسير العبور من عند (فم الحيروث) يقول على شافعى: إن حور كان الإله المحلى لمدينة سيالة / ثارو / أبو سيفاء الواقعة بين بحيرة البلاح وبحيرة المنزلة، وكان الملح يستخرج من جنوب شرقى بحيرة المنزلة حيث كان يصب الفرع النيل دون منفذ على البحر فملح الماء فى هذه المنطقة، وهذا هو الملح الذى كان يتحدث عنه الكاتب بينبس فى تقريره لسيده آمنوبى - وهو الموضع الذى رسمه على شافعى على خريطته مع التعقيب: "يمكن ملؤه بالماء إذا احتاج الأمر". وهو المكان أو المصب لماء حور وتترجمه اليونانية (فم حور)، وهو بالضبط يساوى فم الحيروث المذكور بالتوراة كموضع لعبور البحر الإعجازى.

والبحر الذى عبروه ذكرته التوراة باسم بحر سوف، وكلمة سوف كلمة عبرية تعنى البوص وهو نبات لا ينمو إلا بالماء الضحل ومصبات الترع والمصارف العذبة فى ماء مالح، وقد ذكر الكاتب بينبس أن رعمسيس كانت تأخذ حاجتها من البوص من ماء حور الذى لا بد أن يكون هو بحيرة ماء حور، وأن تلك المنطقة بالتحديد هى بحر سوف.

ويبحث عن موقع مجدل، ويستند إلى وثيقة مذكرات أنتونين التى وضعت فى مكان ما بين سيرابيوم عند رأس البحيرات المرة وبين الفرما / بيلوز، وإلى المصروولوجيست بترى الذى احتسب تل الحير الحالى جنوبى الفرما هو مجدل التوراة، كما أن العرب قد بنوا فى تل الحير قلعة لا شك أنها كانت تجديداً لمجدل التوراتية .

ويبقى موضع بعل صافون المقابل لموقع العبور من فم الحيروث على شاطئ بحر سوف، فيستعين على شافعى بما كتبه الأثرى نويل جيرون عن ورقتين اكتشفتا فى سقارة عام ١٩٤٠، واحدة ديموطيقية والأخرى فينيقية. وأكدت إشارات الورقة الديموطيقية أنها معاصرة للفينيقية، وأنهما كتبتا خلال القرن الخامس قبل الميلاد. ومضمون الورقة الديموطيقية تضرعات من شخص للإله "بعل صافون وكل آلهة دافنى" أى تل دفنه، مما يعنى أن بعل صافون كان الإله الرئيسى فى تل دفنه، وقد عقب جيرون بالقول: إذا قبلنا اعتبار مجدل هى تل الحير، فإن بعل صافون يجب أن يكون هو إله هذه المنطقة الرئيسى.

ويخلص على شافعى إلى وضع خريطة لتفاصيل مواضع الخروج، فموسى يجد نفسه هو وأتباعه فى مأزق شديد الوعورة، فبحيرة البوص عن يمينه (بحر سوف) وحسن مجدل أمامه بالحامية المصرية القوية تسد عليه الطريق إلى فلسطين، بينما تحصره من اليسار مستنقعات نهاية الفرع النيلوزى للنيل، وخلفه الفرعون على رأس الجيش المصرى. وفى هذه اللحظة الحاسمة تقول التوراة إن الله أرسل ريحا شرقية قوية جففت بحر سوف. ويقول شافعى إن تلك الظاهرة تتكرر هناك حتى الآن، حيث لم يزل منسوب ماء بحيرتى المنزلة والبرلس وهما من البحيرات الكبرى يتأثر تماما بالرياح، حتى أن الماء يغطى الطريق من بلطيم حتى برج البرلس عندما تهب الرياح الغربية، بينما يجف تماما عندما تهب الرياح الشرقية. لكن الذى لا يرب فيه عند شافعى أنه لم يغرق أحد لا الفرعون ولا جنوده، لأنه لا يمكن تصور الغرق فى ماء ضحضاح لا يزيد ارتفاعه مهما ارتفع عن قدمين. (٧٧)

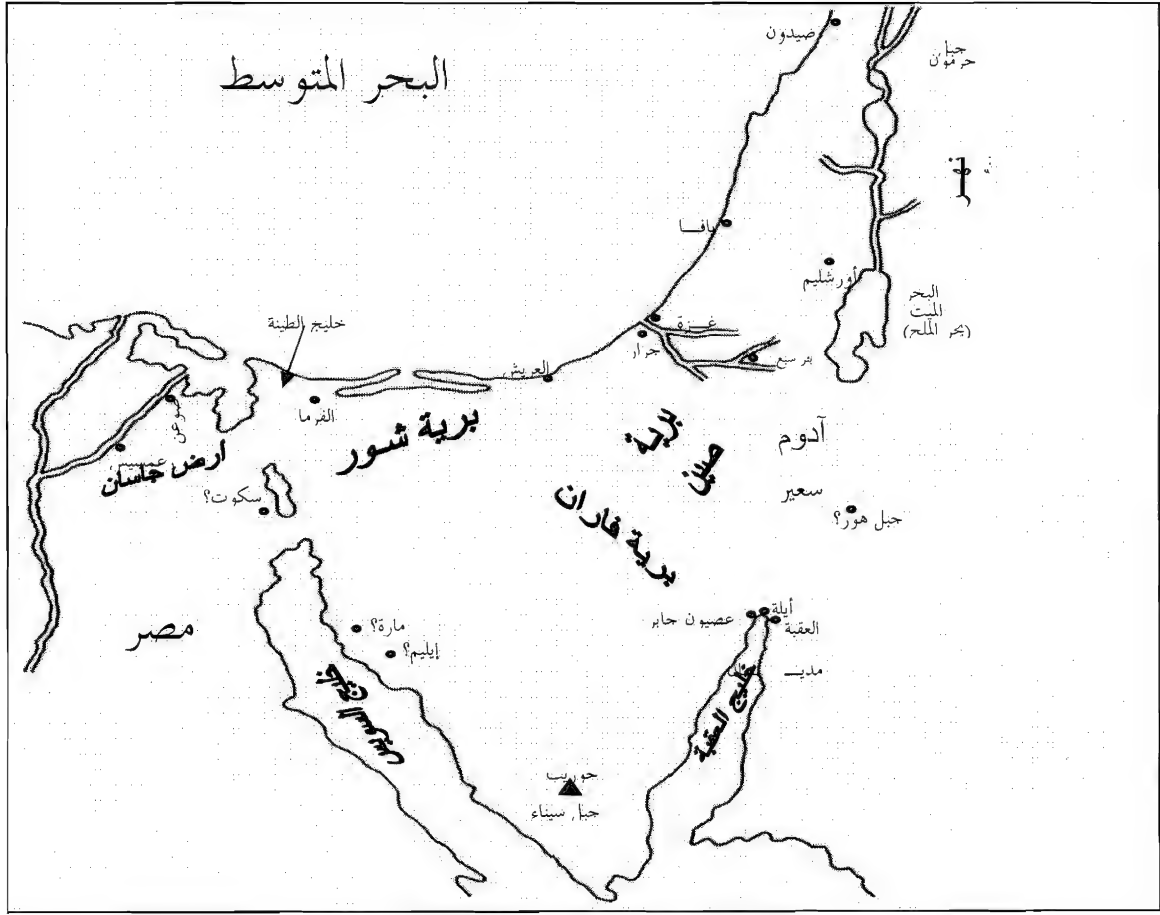


الخريطة رقم (٧)
الخروج عند على شافعي

Ballin, de la Societe royale de geographie d'Egypte, Tom xx¹, ۳۳۱, ff, (۷۷)

Historical notes on the pelusiac branch, The Red Sea Conal and the Reteief The Exodus

انظر أيضاً سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٧، ص ١١٧ .





خريطة رقم (١٠)



واعتباط آخر مرفق بالكتاب المقدس أعاد المؤلف رسمه، وعلامات الاستفهام بالخريطة دلالة شك وليست من عندنا وإنما وضعت بأصل الخريطة


الجزء الثاني

إعادة ترتيب أحداث التاريخ

لغز بلاد بونت

يتكرر ذكر بلاد (بونت)  أو (أرض الإله) في النصوص المصرية القديمة بشكل متواتر، كما في نصوص أمنمحات الأول  مؤسس الأسرة الثانية عشرة بالدولة الوسطى الذى حكم حوالى ٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق.م حيث يذكر أنه أرسل ثلاثة آلاف جندي برئاسة القائد (حنو)، لإحضار المر (البخور) من بلاد بونت، وإحضار الأحجار من هناك ^(١).

وقد تكرر ذلك فى عهد  (أمنمحات الثانى ١٩٣٨ - ١٩٠٣ ق.م) حيث أكدت لوحة نصر تخصه " أن جلالة الفرعون قد قام بتوطيد سلطانه، فى أرض الإله فى بونت ^(٢) "، كما وصلت إلينا قصائد غزلية مصرية قديمة، منها قصيدة رائعة فى ست مقاطع، تتضمن مجموعة من بلاغيات التشبيه الجمالية، تليق بمفاهيم الجمال فى ذلك الزمان، حيث نجد الحبيب يشبه حبيبته بجواد الفرعون، الذى تم اختياره من بين ألف حصان أصيل، كما يشبهها بالطيور المهاجرة إلى مصر، قادمة من بلاد (بونت). ^(٣) لذلك سجل الفرعون المقاتل (رمسيس الثالث)  الذى حكم حوالى ١١٨٢ - ١١٥١ ق.م، خلال الأسرة العشرين، أنه قد أرسل سفنه فى حملة بحرية وبرية إلى أرض الإله، المعروفة لدى المصريين باسم بلاد (بونت) لإحضار المر لمحرقات الإله ^(٤).

أما أشهر الرحلات المصرية إلى بلاد (بونت / أرض الإله)، على الإطلاق، فقد كانت حملة الجيوش المصرية السلمية إلى (بونت) زمن الفرعون  التى حكمت حوالى ١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م خلال الأسرة الثامنة عشرة من الدولة الحديثة، المعروفة بدولة الإمبراطورية. وهى الرحلة التى سجلت تفاصيلها على جدران معبد روعة الروائع، المقام بالدير البحرى بالأقصر، والذى أمرت الفرعونة ببنائه خصيصاً، لتسجل عليه تقريرين بأهم حدثين فى حياة الفرعونة: وكان الحدث الأول هو اصطفاء الإله (آمون) رب الدولة المركزية المصرية لها، لتكون حاكماً مطلقاً للبلاد، أما الحدث الثانى فكان رحلتها السلمية إلى أرض الإله، بلاد (بونت).

وقد تم تدوين أمر تلك الرحلة الكبرى بكثير من التفاصيل الدقيقة، مما سمح للمؤرخين بوضع مجموعة فروض لتحديد أين تقع بلاد (بونت)؟ فى ضوء تلك التفاصيل، ومع ذلك، فقد جاءت هذه الفروض شديدة التباعد عميقة التنافر. فهناك من افترض أنها تقع فى قارة أفريقيا، استناداً إلى ما جاء ذكره مكتوباً أو مرسوماً بالنقش عن منتجات بلاد (بونت) خاصة الحيوانات التى تشى بأفريقية واضحة. ولما كانت الرحلة قد

(١) آلن جاردنر: مصر الفراعنة، سبق ذكره . . . ص ١٤٥ .

(٢) نفسه: ص ١٥٩ .

(٣) سامى سعيد الأحمد: الرعامسة، سبق ذكره.

(٤) نفسه: ص ١٦١ .

خرجت من العاصمة طيبة / مدينة الأقصر، واتجهت إلى قفط شمالا منها مباشرة، ومنها أخذت طريقها برية عبر الصحراء الشرقية حتى ميناء القصير على ساحل البحر الأحمر، ومن هناك انطلقت السفن إلى بلاد (بونت)، فقد ذهب الفرض إلى أن الرحلة قد أبحرت في البحر الأحمر جنوبا إلى بلاد الصومال أو ربما أثيوبيا، وهو ما سنرى نموذجة عند المصروولوجيست جاردنر وآخرين.

وقد ارتسم هذا الفريق الخطوط الرئيسية التي وضعها المصروولوجيست (ماريت / Mariette)، صاحب الفضل الأول في كشف لوحات بونت على جدران معبد روعة الروائع بالدير البحري عام ١٨٧٧م، حيث أكد (ماريت) أن الرسوم جميعا تشير إلى أن بلاد بونت تقع على الساحل الإفريقي الشرقي شمالي الصومال، وقد اعتمد في ذلك على تحليل نقوش رحلة حتشبسوت، من حيث شكل المساكن، وصفات الملكة التي تشير ملامحها إلى عنصرها الأفريقي، وتحليلها بخلاخيل المعدن أسفل السيقان وهي عادة إفريقية مستمرة حتى الآن، إضافة إلى علامة لا تجعل بونت خارج إفريقيا على الإطلاق، وهي وجود حيوان الزراف ضمن منتجات بونت، والزراف حيوان أفريقي قح، مع أشجار البخور وهي أشجار تنمو على ساحل الصومال حتى الآن^(٥).

ورغم تركيز معظم الفروض على الساحل الإفريقي الشرقي، فقد أعمق بعضها داخل القارة، مثل (هيرتسوج / Herzog) الذي أكد وقوع بونت في المنطقة الحدودية الواقعة بين السودان والحبشة الآن، وبين النيلين الأزرق والأبيض، وأن رحلة حتشبسوت وصلت هناك بالإبحار في النيل وليس بالإبحار في البحر الأحمر^(٦). وقد رد عليه (كيتشن Kitchen) مؤكداً أن بونت هي المنطقة الممتدة من بور سودان حتى شمالي أريتريا على الساحل الصومالي^(٧) وحول ذات الجهات ذهب (كرال / Krall) الذي وضع بونت في المنطقة الممتدة من سواكن وحتى مصوع، باعتبارها مناطق منتجة للصمغ العربي، وهو ما كان يستخدم كبخور مثل المر^(٨)، وضمن هذا الفريق يأتي عبد المنعم عبد الحليم الذي يرى أن بونت بلا جدال هي الساحل الصومالي تحديداً^(٩).

ولم يزل الخلاف قائما حول النخيل المرسوم في لوحات حتشبسوت هل كان نخيل أشجار الدوم كما ذهب هيرتسوج وكيتشن، أم هو نخيل البلح كما يعتقد (عبد المنعم عبد الحليم)؟.

٦٣-٨٢ p. ١٩٧٧, Leipzig, A. Deir el Bahri, (٥)ariette.

Herzog, PUNT in Abhand Lungen des Deutschen Archiologischen in Stitutes Kairo ٦, ١٩٦٨ p. ٢٩. (٦)

Kitchen, Punt and How to out there in Orientalia ٤٠, ١٩٧١, P. ١٨٨. (٧)

Krall, studien zur Gesehichte des Alten Aegyptien IV "Das Land punit wien, (٨)

١٨٩٠".

(٩) عبد المنعم عبد الحليم: محاولة لتحديد موقع بونت، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، دراسات أثرية وتاريخية، العدد الخامس، ١٩٧٤، ص ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٩.

وقد أضاف لرصيد الذاهيين ببلاد بونت إلى الصومال، أن التقرير المصرى صور لنا أربعين نوعا من الأسماك والكائنات البحرية بينها خمس سمكات واضح أنها نهريّة وليست بحرية، وهو ما يشير إلى أن الميناء البونتى الذى رست فيه سفن حتشبسوت، كان يقع عند مصب نهر صغير، وفي الصومال لدينا نهر الفيل المعروف الآن باسم نهر جلوين. (١٠)

واتجهت فرضيات أخرى إلى أن أرض الإله/ بونت كانت تقع على الساحل الغربى لجزيرة العرب فى منطقة جبال عسير، كما نجد عند (الصليبي) و (زياد منى)، مع اتجاهات أخرى نزلت إلى الفانتازى كالقول أن تلك الرحلة كانت نحو الأمريكتين، وأن المصريين هم من اكتشف أمريكا قبل الجميع، وأنها هى التى دونت فى مدونات مصر القديمة باسم بلاد بونت. وبسبيل ذلك تم إجراء مقارنات لبعض المفردات المصرية بلغات الهندو الحمر وموروث حضارات المايا والأنكا. (١١)

هذا بينما افترض آخرون أن بلاد بونت المذكورة فى الوثائق المصرية هى ذات بلاد (أوفير) التى جاء ذكرها بالكتاب المقدس. وكانت محلا لبعثات مشابهة أرسلها الملك الإسرائيلى سليمان بن داود أشهر ملوك إسرائيل الموحدة. إلا أن (أوفير) نفسها وجدت فى تحديد موضعها تضاربا فى الفروض أشد اتساعا من التضارب حول موضع بلاد بونت. ولم تنزل حتى اليوم بلداً مجهولا بدورها.

ولحل الإشكال تم اللجوء إلى حل وسطى أو تفيقى يلخص الأمر فى إنهاء يأس للإشكال يقول: إن المصريين قد استخدموا اسم بونت بمعنيين: الأول معنى عاما يشير إلى أى موقع جغرافى يزرع اللبان / المر، ومعنى خاصا قصدوا به سواحل إفريقيا من الصومال جنوبا وحتى السودان شمالا.

ورغم أن حل لغز بلاد بونت يمكن أن يؤدى إلى حلول تسلسلية لمجموعة من المتشابكات التاريخية الملغزة، كما يمكن أن يفصح عن تدقيقات هامة لتحديد ملامح العالم القديم، مع فرز واضح للأجناس والهجرات، فقد ظلت جميع الفروض ناقصة التمام والإقناع، وظلت أرض الإله بونت لغزا يبحث عن حل.

وعلى متون صروح معبد روعة الروائع بالدير البحرى، نقش الفنان المصرى القديم صوراً وكتابات جدارية تصف أهم حدثين فى حياة الفرعونة حتشبسوت. الحدث الأول هو قصة ميلادها الإلهى من أبيها الإله آمون نفسه، إضافة إلى الحدث الثانى والأهم تاريخيا، وهو مجموعة جداريات بونت التى تصف رحلتها إلى أرض الإله.

وتصور اللوحات الرائعة طريق الرحلة البرى من قفط حتى القصير، مع رسوم للسفن البحرية الضخمة المجهزة بصفوف المجاديف أذواراً، وخلفها تظهر لوحة بلاد بونت فى هيئة تلال كثيرة جميلة تزينها النباتات. ثم نشاهد ثلاثة أجناس من البشر بخلاف المصريين، يحددهم لنا (عبد المنعم عبد الحليم) فيقول: " إن

(١٠) Neville. E, Le commerce de L'Ancienne Egypte avec Les Nations voisne,

Geneve, ١٩١١, P ٦٧

(١١) انظر: محمد نجيب البهيتى: المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب فى ١٩٨١. مجلدان

سكانها خليط من عدة سلالات: أ- السلالة التي تنتمي إليها الطبقة الحاكمة أى البونتيين أنفسهم ويشبهون المصريين. ب- السلالة الزنجية. ج - سلالة ثالثة لعلها المسماة إرم وهى قريبة الشبه بالبونتيين^(١٢). هذا إضافة إلى تصوير اللوحة لمجموعة متنوعة من الحيوانات منها القردة، مع صور واضحة لجلود فهود أو نمور وكثير من الأشجار والنباتات التى تشبه إلى حد بعيد نباتات الساحل اليمنى.

وقد عادت البعثة بكثير من تلك الأشجار بجذورها، وهو ما يعنى أن هناك أشجاراً بعينها قد استجلبت من بلاد بونت لتستزرع فى أرض مصر، مع كميات من خشب الأبنوس والعاج، إضافة إلى معادن تتضح فيها الفضة ومعدن آخر ربما كان ذهباً، مع أحجار كريمة. ويحيطنا (فليكوفسكى) علماً أن الفنان المصرى وهو ينقش بإزميله اسم بونت فى مواضع متعددة، لم يضع فوق الاسم تلك العلامة الهيروغليفية التى كان المصريون القدماء يضعونها فوق أسماء البلاد الأجنبية^(١٣). مما أوعز بشدة إلى أن المصريين القدماء كانوا يرون أن هناك رباط من نوع ما بين بلاد بونت وبين مصر. وأنها ربما كانت تابعة لمصر أو أن المصريين كانوا يعتقدون أنها جزء من مصر، ناهيك عن تقديرها بحسبانها أرض الإله. لكن النصوص المصرية لم تسم لنا هذا الإله أو تقدم له أى تعريف ولا مرة واحدة.

وفى الجزء الأسفل من جداريات بونت فى معبد روعة الروائع، يمكنك أن تشاهد مرسى بحرياً رسمت تحته الأسماك فى المياه للتوضيح، وعلى يمين المرسى يقف الملك البونتي الذى دون بالاسم (بارح) أو (فارح) أو (فرح) أو (باروخ) مع اللقب (عظيم عظماء إرم). أما الملكة فكانت ضخمة الجثة ورسمها الفنان بواقعية شديدة، أراد بها أن يبرز ما يكتب باعتباره تقريراً تسجيلياً.

ويصف لنا المصروولوجست الأشهر (السير آلن هنرى جاردنر) معبد روعة الروائع بقوله: " إن المعبد الجنائزى لحتشبسوت فى الدير البحرى، يقع داخل نصف دائرة من القمم العالية، وهو يدين بكثير من وحيه إلى أثر منتوحتب الأول الأكثر بساطة والواقع على الخط نفسه جنوباً. ولم يبق سوى آثار الممر الصاعد فى رفق إلى الأسوار التى يؤدى مدخلها إلى بهو واسع يرى فيه الزائر فى مواجهته رواقاً بالأعمدة فوق رواق بالأعمدة. لكنها تصعد من المنحدر الرئيسى إلى المستوى العلوى. ويكشف صف من أعمدة الحجر الجبرى بشمال البهو عن جمال المبنى قبل أن يحوله الزمن والتدمير البشرى إلى حالته الراهنة. ومع ذلك فليس فى مصر اليوم عمارة فى مثل هذا السمو يمكن رؤيتها .. أما الرواق التالى إلى أعلى ففيه منظر أكثر تشويقاً، فعلى الجانب الجنوبى منه مثلت الرحلة إلى بونت فى السنة التاسعة لحكم حتشبسوت كما مثل على الجانب الشمالى حمل أم الملكة بها عن طريق معجزة ثم ولادتها. وتصور المجموعة السابقة من الصور سفن الملكة حتشبسوت وهى تبدو فى هذه المرحلة كملك تصل إلى هدفها عند باب المندب ". [ملاحظة للمؤلف: ليس فى اللوحات أية إشارات أو كتابات توعز إلى باب المندب، وكانت تلك إضافة من جاردنر لاعتقاده أن الرحلة قد

(١٢) عبد المنعم عبد الحليم: موجز رسالتيه للماجستير والدكتورة، جامعة الإسكندرية، ص ١٧ .

(١٣) فليكوفسكى: عصور فى فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سينما، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٤٢.

اتجهت جنوباً عبر البحر الأحمر إلى الصومال التي يعتقد أنها جاردنر ذات بلاد بونت]. ويتابع جاردنر وصفه: " ثم يقدم رئيس ملتح وزوجته المشوهة تشويهاً فظيماً، وهناك عدد من الرؤساء أقل أهمية يخرون على وجوههم أمام شعار الملكة يتحدثون، إنهم يلتمسون السلام من جلالته بقولهم: المجد لك يا فرعون مصر، أينما الشمس الملكية التي تضيء كقرص الشمس. ويعيش الأهليون وسط أشجار النخيل وفي أكواخ ذات قباب مستديرة، يمكن الوصول إلى أبوابها عن طريق سلال. وقد أقام الرسول المصري خيمته في ناحية قريبة، ثم قدم الهدايا من الجعة والنبذ واللحوم والفواكه كأمر حثببوت، لكن الواضح أن جيوشها أفادت أكثر من عملية التبادل، فهناك صوراً متقنة لكل الأشياء الثمينة التي حملت من هناك إلى السفن. ومن بين هذه المنتجات أشجار المر والأبنوس ثم العاج والذهب والقرود وجلود الفهود، ويُرَى الأسطول في الصف العلوي من اللوحة وهو يبدأ طريق العودة إلى الوطن، وقد تجاهل الرسام أمر الانتقال من الصحراء إلى النيل " (١٤).

والواضح تماماً أن حثببوت كانت ترى في تلك الرحلة أهم إنجازاتها على الإطلاق، وهو الأمر الذي تشي به ببساطة ووضوح روايتها المدونة، ناهيك عن تكريسها كل هذا البناء الهائل لتسجل عليه ذلك التقرير عن بعثة بونت. كما تتضح الأهمية في أن الفرعونة قد أولت عظيم اهتمامها إلى الجانب المعرفي العلمي فأرقت برحلتها خبراء يقومون بدور الصحفيين الذين كتبوا بالفعل ريبورتاجاً مصوراً علمياً دقيقاً رائعاً. وصفوا فيه أرض الإله وصفاً طبيعياً وبيئياً، وراعوا الجغرافية البشرية لبيان الأجناس التي تسكن تلك البلاد، كما أولوا عنايتهم لبيان عادات وتقاليدها أهلها، مع دراسة علمية ممتعة لمختلف أنواع الأسماك والحيوانات البحرية. إضافة إلى مسح تفصيلي لمنتجات بلاد بونت من أخشاب ثمينة وجلد الفهد وسبائك الذهب والفضة، مع أحمال البخور والطور والتوابل، والأعشاب التي ربما كانت للكيمياء العلاجية. ولم ينس التقرير أن يوضح أهمية أشجار بلاد بونت، التي دفعت البعثة المصرية إلى الإتيان بها بجذورها إلى مصر، مما يعنى أنها أشجاراً لا تنمو في مصر، وأنها نوع خاص ببلاد بونت. حتى التفاصيل الصغيرة لم تفت عين الصحفي المدققة، مثل إحضار البعثة لكحل العيون (الأثمد)، مع تصوير واضح لأنواع الحيوانات المستجلبه من هناك. فترى كلاباً أشبه بالكلاب السلوقي الموجودة اليوم، مع القردة التي تعلقت بصواري السفن لتضيف إلى اللوحة بهجة تستدعي الابتسامة، مع الزراف وتوزيعات أخرى قصد بها أن يكون التقرير مشوقاً إلى جانب كونه مستوفياً.

وقد سجلت الموسوعة الأثرية العالمية، تحت مادة (بونت) الآتي:

PUNT : بلاد تقع جنوبى بلاد مصر، كان الوصول إليها عن طريق البحر الأحمر .. وقد صور الناس يعيشون فى بيوت تشبه خلايا النحل،

(١٤) جاردنر: سبق ذكره، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

وصورت الملكة التى كانت تحكمهم بدينة جداً. ومن
بونت كان يأتى الذهب والبخور، ومختلف أنواع
السلع لأغراض دينية، وموقع بونت غير مؤكد،
لكن حسبما يتضح من منتجاتها، لابد أنها كانت تقع
فى مكان ما بالقرب من الصومال

أما (حتشبسوت) نفسها فقد سجلت :

لقد منحتهم الذهب

فتلقيت منهم الذهب الأخضر

من بلاد الآمو ..

وأشجار يانعة من المر بأعداد كبيرة

من عجائب أرض بونت

ولم يحدث ذلك من قبل فى عهد أى إله

منذ خلق العالم

لقد أحضرت إحدى وثلاثين شجرة

من خشب البخور

لم يعرف لها مثيلاً منذ فجر الخليقة^(١٥)

وهنا ملاحظة لا تفوت مدقق، نضعها فى الاعتبار حتى يأتى حين معالجتها، وتتمثل فى السؤال: ما
معنى أن تهدى الملكة ذهباً لتتلقى ذهباً، فى رحلة قصد منها تبادل منتجات مصر مع منتجات بونت؟ فهل كان
ذهب بونت يختلف عن ذهب مصر؟ يبدو ذلك، لأن النص قد ميز ذهب (بونت) بأنه ذهب أخضر، فماذا كانت
تعنى بالذهب الأخضر؟ أما الملحوظة الثانية التى ننبه إلى وجوب تذكرها، فهى القول: إن هذا الذهب من بلاد
الآمو، والآمو أو العامو هى الكلمة التى استخدمها المصريون القدماء، للدلالة على بدو آسيا الساميين
عموماً، وعلى الهكسوس - خصوصاً - الذين سبق واحتلوا بلادهم فى نهاية الدولة الوسطى وقد طردوا
منها زمن أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشر، وحكم حوالى ١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م، أى قبل زمن حتشبسوت
بحوالى ستين عاماً أو تزيد قليلاً.

ولا يصح أن نتغافل عن عبارتها "منذ فجر الخليقة" وتكرارها، وهو ما يؤكد على أهمية تلك الرحلة
للكملة ولتقديرها الأمور. أما الغريب حقاً فكان مسألة تجاهل الفنان لطريق العودة من البحر الأحمر. من

(١٥) فليكوفسكى: عصور فى فوضى .. سبق ذكره ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

ميناء القصير حتى قفط على النيل شمالى الأقصر، فى رحلة عودة برية عبر الصحراء الشرقية الممتدة ما بين البحر الأحمر وبين النيل، فعاد بالسفن فوراً من (بونت) إلى الأقصر عبر النيل دون المرور بالطريق البرى. رغم انه فصل ذلك بوضوح فى رحلة الذهاب، فهل تجاهل الفنان الدقيق الدؤوب الفاحص المدقق الطريق البرى؟ أم أنه كان لم يزل يقدم لنا تقريراً دقيقاً وعلمياً وحقيقياً؟ وإذا كان ذلك كذلك فإن لغز (بونت) يكون قد ازداد تعقيداً، فكيف وصلت السفن إلى طيبة دون المرور بالطريق البرى من البحر الأحمر إلى الوادى؟

ونظراً لأن التحف التى جلبتها (حتشبسوت) من بلاد (بونت) تتشابه إلى حد بعيد مع التحف التى ذكرها الكتاب المقدس، والتى أحضرتها بعثة الملك الإسرائيلى (سليمان) إلى بلاد باسم (أوفير)، فقد ذهب الباحثون إلى احتساب (بونت) هى ذات بلاد (أوفير) المجهولة وتحت مادة (أوفير) بموسوعة تاريخ العالم نقرأ تلك الفقرة الموجزة.

أوفير - OPHIR : موقع أوفير التوراتية التى كان الملك سليمان يحصل منها على سفن محملة بالذهب والأحجار الكريمة - سفر ملوك أول ١٠ : ١١ موضع اختلاف كبير دون الوصول إلى حل مقبول. والتخمينات تمتد من الساحل العربى حتى سيلان أو ساحل مالا بار

هذا بينما سجل (زينون كاسيدوفسكى) اشكالية (بونت / أوفير) فى قوله: " لا يزال الباحثون حتى الآن يختلفون .. بعضهم يقول: إن أوفير التوراتية هى الهند، وبعضهم الآخر يعتقد أنها الجزيرة العربية، وفريق ثالث يؤكد إنها مدغشقر، أما المستشرق الأمريكى أولبرايت فيعتقد أنها الصومال. بينما يلفت فريق آخر من العلماء الانتباه إلى اللوحات الجدارية التى اكتشفت فى معابد طيبة، حيث وجدوا هناك رسماً لمملكة سوداء من بلاد تدعى (بونت). ويفيد النص المثبت أسفل اللوحة: إن السفن المصرية كانت تحمل من تلك البلاد الذهب والفضة والأخشاب السوداء والحمراء وجلد النمر والسعادين (القردة) الحية والعبيد السود، وقد أدى ذلك إلى نشوء افتراض مؤداه: إن بونت هى أوفير التوراتية^(١٦).

إلا أن المشكلة الحقيقية والمستعصية أمام كل تلك الفروض، هى تكرار القول فى النصوص المصرية: " حينما أوجه وجهى إلى مشرق الشمس، فإنى أولى وجهى إلى بلاد بونت " ^(١٧)، وهو ما دفع باحثين آخرين إلى افتراض مواضع أخرى لبلاد بونت تتفق وهذه الإشارة، وذلك مثل د. عاطف عوض الذى افترض لبلاد بونت بلاد الساحل العماني الحالي، حتى أن سلطنة عمان رأت فى نظريته أمراً يستحق الاحتفاء به. فتم

(١٦) زينون كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة فى التوراة، ترجمة حسان ميخائيل، أبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠، ص ٤٢٩، ٤٣٠.

(١٧) فليكوفسكى: عصور .. سبق ذكره، ص ٣٥.

تحديد زمن افتراضي لوصول سفن الفرعونة إلى عمان، وأقيم بهذه المناسبة احتفال كرنفالي شعبي تمثيلي، يصور وصول البعثة المصرية إلى بلاد عمان. هذا بينما ذهب د. رمضان عبده علي إلى وقوع بونت في بلاد اليمن. وقد اعتبرت صحيفة الأهرام القاهرية ذلك كشفاً جديداً يستحق التسجيل والإعلان (وهو ما فضلنا نقله من الصحيفة بالتصوير (كما في الشكل رقم ٣)). وإن تكرار الإشارة إلى وقوع بونت جهة مشرق الشمس بالنسبة لمصر أمر لا يجعل بونت تقع ابداً جنوبى مصر، فهى بهذا المعنى يجب أن تقع فى منطقة ما شمالى بلاد الحجاز الحالية، أو فى سيناء، أو شرقى سيناء، وهو الأمر الذى يؤكدته تقرير مسئول حكومى اسمه (خنوم حتب)، عاش خلال الأسرة السادسة الفرعونية، يقول: إنه قد زار ببيلوس [جبيل الآن جنوبى بيروت بلبنان] وبونت، إحدى عشر مرة، وذلك بصحبة سيدة (خوى) مرة، وبصحبة سيده (تتى) مرة أخرى^(١٨) وهو الأمر الذى ما كان ممكناً حدوثه فى حياة فرد واحد فى ذلك الزمان، لو كانت بونت هى الصومال أو اليمن أو الهند، ناهيك عما يوحى به التقرير، أن زيارة ببيلوس وبونت كانت تتم فى رحلة واحدة، مما يعنى وجوب وقوع بونت على الطريق ما بين مصر وبين ببيلوس بلبنان، وهكذا تكتمل دائرة الالتباس ويستغلق اللغز تماماً، إلى حد عدم إمكان تصور واضح يحل مشكلة موقع بلاد بونت.

^(١٨) K. Sethe, U.R.K, pp ١٤٠-١٤١

أنظر أيضاً



شكل رقم (٣)
الأهرام ١٩٩٧/٢/٢٧



شكل رقم (٤)



شكل رقم (٦)
ملك ه ملكة بلاد به نت فر له حات حتشسه ت

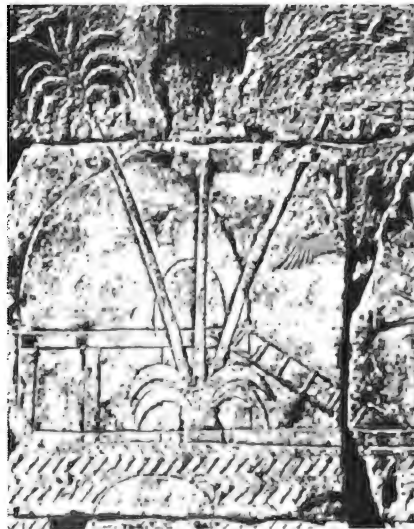


شكل رقم (٥)



شكل رقم (٧)

حاملوا الهدايا من أهل بونت (شعب إرم)



مساكن بلاد بونت كما صورتها لوحات حتشبسوت
شكل رقم (٨)

ولغز بلاد الحور

والألغاز غير المحلولة في التاريخ كثيرة وحاشدة، ونموذجاً لتلك الألغاز (لغز بلاد الحور)، وبلاد الحور تلك التي يخبرنا علم التاريخ أنه قد قامت فيها دولة باسم الدولة الحورية، عاصرت زمن الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية، وجاء اسم هذه الدولة في نصوص مصر تحت اسم (دولة ميتان) أو (ميتاني). وأنه في ميتاني قد سكن الشعب الحوري، وكانت لتلك الدولة تسمية أخرى ترد في النصوص على التبادل مع تسمية ميتاني هي (نهارين). ولنطالع معا ماسجلته موسوعة تاريخ العالم عن بلاد ميتاني تحت مادة ميتاني :

" أعالي ما بين النهرين: ميتاني : .. ربما كان موطن الحوريين في بلاد النابري، وهو الاسم الذي أطلقه الآشوريون على الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة فان. تحرك الحوريون من هناك جنوباً في أوائل القرن السابع عشر ق.م. إلى شرق آشور وغربها وأسسوا عدداً من الإمارات اتحدت بعد ذلك تحت حكم ملوك ميتاني. امتدت مملكة ميتاني من قرقميش على الفرات حتى قرب نهر دجلة الأعلى، مشتملة على وديان البلخ والخابور ومقاطعة نصيبين، وفي شرقي دجلة تشتمل أيضاً على منطقة (أرابخا / كركوك الحالية) التي كانت قبل ذلك مملكة حورية منفصلة. وليس من المعروف إذا كانت قد شملت إربيل أيضاً .. انتشر الحوريون كذلك في أجزاء من آسيا الصغرى وسورية وفلسطين دون أن ينظموا ممالك دائمة. ثبت وجودهم حوالى منتصف الألف الثاني في بوغاز كوى عاصمة الحيثيين - الأناضول - وفي رأس شمرا (أوغاريت على الساحل السوري قرب اللاذقية). وفي أورشليم وطناخ، وفي بلاد آدم - الحور - . وربما اشتملت جموع من الهكسوس على فئات من الحوريين ."

موقع بلاد الحوريين إذن غير مؤكد " ربما كان موطن الحوريين في بلاد النابري .. إلى الشمال والشرق من بحيرة فان "، " وليس من المعروف " إن كان قد شمل مساحات بعينها من الأراضي، لكن دلائل وجودهم تتناثر في " أجزاء من آسيا الصغرى وسورية وفلسطين " .. وفي بوغاز كوى وفي رأس شمرا .. وفي أورشليم .. وفي بلاد آدم "، وقد وصفت الموسوعة بلاد (آدم) تحديداً بأنها بلاد (الحور)، ثم " ربما اشتملت جموع من الهكسوس على فئات من الحوريين " . إذن ليس هناك شعب في المنطقة أثبت وجوده على تلك المساحة الواسعة، وفي الوقت ذاته ليس من المؤكد بل وليس من المعروف عنه أشياء كثيرة، و (ربما) التي تتكرر لتؤكد عجزاً واضحاً عن تحديد موطن واضح لدولة واضحة اسمها دولة (الحوريين) الميتانية؛ وهو الموقف من بلاد (بونت) وبلاد (أوفير). ويضيف المؤرخ العراقي (طه باقر)، متحدثاً عن بلاد (ميتاني) باسمها الذي يرد معها على التبادل: بلاد (نهارين)، فيقول: " من الدويلات الأرامية آرام النهرين،

ويعنى اسم هذه الدولة: آرام ما بين النهرين، أى الفرات والخابور، وورد ذكرها فى المصادر المسمارية باسم نهارينا، ويبدو أنها اختفت من الوجود فى حدود القرن التاسع ق.م، عندما قضى الآشوريون على جميع الدويلات الأرامية تقريبا فى تلك المنطقة^(١)، ويؤكد لنا ذلك المؤرخ الرصين، أن فى تلك المنطقة الأرامية عاش ذلك الشعب المعروف بالشعب الحورى، وذلك استناداً إلى نص الملك الآشورى (شلمنصر الأول) الذى حكم فى العصر الآشورى الوسيط حوالى ١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق.م، والنص يتحدث عن حملات ذلك الملك العسكرية إلى بلاد (أرمينيا) وأرارات فى أقصى شمال العراق، داخل حدود أرمينيا الحالية شرقى تركيا، وأنه فى طريقه إلى هناك قد غزا موطن الحوريين، الذى لابد أن يقع فى تلك الحال فى طريقه إلى أرمينيا، ما بين النهرين الأعلى، وأنه قد ورد ذكر إحدى القبائل الأرامية الكبرى هناك باسم **أحلامو** أو **أحلامو ومعناها الأحلاف**^(٢)

أما المصروولوجست (جاردنر)، فيؤكد ذات المذهب، فيقول: إن الحوريين قد جاءوا إلى منطقتنا قادمين من عند إقليم بحر قزوين، وأنهم هم الذين مهدوا الطريق للحثيين، الذين وفدوا بعدهم إلى منطقتنا قادمين من الأناضول فى نهاية عام ١٦٠٠ ق.م. وأن سقوط دولة الحوريين (ميتان) كان على يد الملك الحثي (شوبيل-وليوماش) والمعلوم أن دولة ذلك الملك، قد قامت فى تركيا الحالية^(٣).

ويذهب الأركيولوجست (جارستانج) ذات المذهب، بحثاً عن الموطن الأصلي للحوريين، فيؤكد أنهم قدموا إلى منطقتنا من أرمينيا كموطن أول لهجرتهم، وأنهم قد انحدروا من هناك إلى الفرات الأعلى بينه وبين الخابور، ليؤسسوا مملكة ميتانى، التى ورد ذكرها فى نصوص مصر والرافدين، وهى مملكة آرية، ولا تنتمى فى رأيه إلى مجموعة الشعوب السامية المتاخمة لها، وأن تلك المملكة قد سقطت فريسة للغزو الحثي، عندما تخلت مصر عن مساعدتها، زمن الفرعون (أمنحتب الرابع / اخناتون) لتنتهى دولة (ميتانى) من التاريخ، وإلى الأبد.^(٤)

وقد خرج (جاردنر) من قراءته لوثائق مصر القديمة، بأن (ميتانى) منذ بداية ظهورها كدولة، قد وقعت تحت الهيمنة المصرية، حيث ترافق ظهورها مع خروج مصر خارج حدودها، وتأسيسها للإمبراطورية المصرية، وحيث أرادت مصر بتلك الهيمنة إيقاف زحف الحثيين الذين بدأوا يهاجمون بلاد الشام الواقعة تحت النفوذ المصرى، وذلك بغرض تأمين الحدود الشمالية للولايات المصرية فى الشام. لكن الحثيين تمكنوا زمن الفرعون (اخناتون) من القضاء على الدولة الميتانية، وتوسيع حدودهم جنوباً فى بلاد

(١) طه باقر: الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والإعلام، بغداد فى ١٩٨٦ ،

ص ٤٩٥ .

(٢) نفسه: ص ٤٩٠ .

(٣) جاردنر: سبق ذكره .. ١٧٩ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٤) جار ستانج: سبق ذكره .. ص ٢٤ : ٢٦ .

الشام، على حساب الإمبراطورية المصرية، التي بدأت تخسر بعض نفوذها هناك، نتيجة لانغماس الفرعون (إخناتون) في فلسفته الدينية، وإهماله للشئون العسكرية والسياسة الخارجية^(٥).

ونعود لموسوعة تاريخ العالم نتابع سردها الرصين والموضوعي، الذي يسوق المعلومة غير المؤكدة في صيغة الاحتمال والظن، لنستمع إليها وهي تقول: " تُعرف اللغة الحورية معرفة غير تامة من خطاب دوشراتا ملك الميتانيين، إلى أمنتب الثالث الملك المصري والد إخناتون ومن بضع نصوص من مكتبة بوزازكوى (عاصمة الحيثيين شمالي الأناضول) ومن بضع كلمات ذكرت هنا وهناك على اللوحات المسمارية التي وجدت في نوزى وبالقرب من كركوك. وربما كانت هذه اللغة قريبة من اللغة الفانية والعيلامية، غير أنه لا يمكن إدماجها في أية فصيلة لغوية معروفة، أما صلات الجنس الحورى بأجناس أخرى فهي غير معروفة. والأسرات الملكية والأمراء الميتانيون من أصل هند وآرى إذ كانوا يحلفون بآلهة هندوآرية مثل أندرا وميترا وفارونا وناستيا، وكان أعظم عمل للهوريين، أو على الأصح لقاداتهم من الهندوآريين، هو إدخال العربة ذات العجلتين التي تجرها الخيل، إلى مصر وغرب آسيا، حيث أصبحت معروفة، وربما كانت النحوت الغائرة المعروفة بالحيثية، التي اكتشفت في شمال سوريا: قرقيش، سنجرلى، تل أحمر، وفي أعالي ما بين النهرين: تل حلف، والتي يرجع تاريخها من منتصف الألف الثاني إلى القرن التاسع ق.م، ربما كانت هذه النحوت حورية في أسلوبها إن لم تكن في أصلها، كما يتضح من مقارنتها بالأختام الحورية، أما أهم آلهة الحوريين فهي: تيشوب إله الزوابع، وهبات إلهة الشمس، ولا يعرف عن آلهة أخرى عديدة سوى أسماؤها ". وتتابع الموسوعة القول: إن عاصمة مملكة ميتانى قد حملت اسم (واشوكانى) وأنه في زمن الملك الميتانى أرتاتاما حوالى ١٤٤٠ ق.م زمن الفرعون حتشبسوت سادت علاقات ودية مع مصر، وأنه قد ازدادت عرى الصداقة مع مصر زمن الملك الميتانى التالى (شورتانا) حوالى ١٤٣٠ ق.م، حيث تزوج الفرعون المصرى (أمنتب الثالث) ابنة (شورتانا) وكانت تحمل اسم (جبلوخيا). لكن لتتحول العلاقات إلى حالة عداة واضحة زمن الملك الميتانى (توعى)، ثم يخلفه (دوشراتا) ليعيد التحالف مع (أمنتب الثالث) ملك مصر، ولا يطول الأمر حتى يلهو (إخناتون) ابن (أمنتب الثالث) بفلسفته الدينية، ويترك حليفته (ميتانى) تسقط فريسة الغزو الآشورى، زمن (شلمنصر الأول) حوالى ١٢٧٥ ق.م، ليزيلها تماما من على صفحات التاريخ.

أى هذه التزمينات لسقوط دولة (ميتانى / نهارين) نصدق!!؟ هل سقطت على يد الآشوريين في القرن التاسع ٩٠٠ ق.م قبل الميلاد كما أفادنا طه باقر المؤرخ المعروف والمعتبر بين طبقات المؤرخين المحدثين؟ أم أنها سقطت على يد الآشوريين بالفعل لكن زمن شلمنصر الأول الآشورى حوالى ١٢٧٥ ق.م. كما قررت موسوعة تاريخ العالم؟ أم أنها لم تسقط على يد الآشوريين بل على يد سكان تركيا القدماء المعروفين بالحيثيين زمن الفرعون المصرى إخناتون، أي حوالى ١٣٤٠ ق.م فيما يؤكده المؤرخ الشهير جارستانج؟ أو

(٥) جاردنر: سبق ذكره ... ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

وحتى الآن نجد كل ما جاءنا عن ميثاني، جاء مدوناً في عدد من السجلات، ولم يعثر على تلك السجلات أبداً في الموقع الذي حدده المؤرخون لها بين الفرات والخابور في الفرات الأعلى. وكل معلوماتنا عن ميثاني قد جاءت من تلك السجلات التي عثر عليها في مصر أو آشور أو أوغاريت أو العاصمة الحيثية بشمال تركيا، دونما أثر أركيولوجي حقيقي في موطنها الذي تم التواضع عليه، ذلك الموطن الدولة الذي تم تحديده في ضوء السجلات غير الميثانية، وفق فروض معقدة تم فيها تتبع خط سير الحملات المصرية نحو ميثاني، وعبوراً على أية مواضع؟ مع دراسة الإشارات التي وردت في الرسائل الميثانية إلى فراعنة مصر، ولم يعثر أبداً على الخطابات المماثلة في موقع أعالي النهرين. مع دراسات مطولة معقدة انتهت إلى فرض يضع تلك المملكة في الرافدين الأعلى، مع حيرة غير خافية حول ذلك الانتشار والتشظى الواسع للشعب الحوري بطول المنطقة وعرضها في الأناضول وفي جميع بوادي الشام وفي داخل فلسطين وأما الأشد أهمية فهو التواجد الذي أشار إليه الجميع، وأهمله الجميع، في بلاد باسم آدم حملت أيضاً اسم بلاد الحور، وهو الأمر الذي نراه أمراً.



بلاد آدم وبلاد آدوم ؟

(اللغة الكارية) وردت إليها إشارات عدة فى المصادر القديمة، وربما كانت أقدم تلك الإشارات إشارة (سترابون) المؤرخ الكلاسيكى اليونانى إلى اللغة الكارية بوصفها لغة لمن يسميهم (سكان الكهوف) كذلك وردت إشارات بالكتاب المقدس إلى قوم يسكنون الكهوف، لكن على مستوى التاريخ كعلم، ظلت اللغة الكارية لغة مجهولة لشعب مجهول يسكن كهوفاً مجهولة فى بلاد مجهولة.

ومع علوم التاريخ الحديثة التى فكت رموز كثير من اللغات القديمة، يعود الحديث عن اللغة الكارية إلى الظهور، بعد أن تم إسقاطها من حسابات البحث العلمى منذ زمن بعيد. فقد بدأت نصوص الحضارات القديمة تفصح عن إشارات إلى اللغة الكارية، فنجد النصوص الأكادية تحدثنا عن لغة باسم (اللغة الخورية) التى يتحدث بها شعب يعيش فى بلاد تحمل اسم أصحاب تلك اللغة، ووردت تلك البلاد باسم (بلاد الخور). كذلك وردت إشارات متكررة فى النصوص المصرية القديمة إلى لغة باسم (لغة خارو). وعند فك رموز الهيروغليفية الحديثة بتركيبا القديمة، وجدت إشارات عديدة إلى اللغة الحورية، بل وتم العثور على ألواح مكتوبة بتلك اللغة، وهو الكشف الذى ترافق مع اكتشاف سجلات تل العمارنة بمصر. لنجد بالعمارنة رسالة تتكون من ستمائة سطر مكتوبة بتلك اللغة، موجهة من ملك باسم (دوشراتا) يحكم فى بلاد باسم (ميتانى)، والرسالة موجهة إلى الفرعون آمنحتب الثالث. وهو الأمر الذى أدى إلى إلقاء اللغتين أو بالأحرى اللغة الواحدة (الحورية / الخورية) فى رحم اللغة الكارية، إذ سنكتشف بعد قليل أنها جميعاً ليست سوى لغة واحدة. والربط بينها وبين البلاد التى ذكرت فى تلك الرسائل باسم بلاد ميتانى، واعتبر سكان تلك البلاد هم أصحاب تلك اللغة. ومرة أخرى يعود الاعتبار إلى كلام سترابون والكتاب المقدس حول اللغة الكارية لغة سكان الكهوف. ذلك الكلام الذى جاء فى شكل ومضات سريعة تشير إلى شعب يسكن الكهوف ويتكلم الكارية، واحتسب لوقت طويل من خيالات سترابون ومبالغات المحرر التوراتى.

وبمرور الوقت تزايد الكشف عن تواجد تلك اللغة وانتشارها، فى ألواح عثر عليها فى تل تعنك وفى وادى جرزيل بفلسطين. ثم كانت المفاجأة. وهو أن تلك اللغة لم تكن مجرد لغة بدائية مجهولة لشعب مجهول. حيث تم العثور على الأقل على مدينة واحدة من مدن شرقى المتوسط كان أهلها خليطاً من عدة أجناس، ويتحدثون عدة لغات بينها اللغة الحورية، بل وضح أنهم كانوا يستخدمونها فى المكاتبات الرسمية، وكانت تلك المدينة هى (أوغاريت) على الساحل السورى قرب اللاذقية وتحمل الآن اسم (تل شمرا). ثم كان من بين الإشارات التى وردت فى أوغاريت على ساحل المتوسط الشرقى وتل العمارنة بمصر إشارة أخرى تقول إن البلاد التى سكنها الشعب الحورى الذى تكلم اللغة الحورية كانت تعرف باسم بلاد (آدم)، والتى أطلقت عليها نصوص تل العمارنة اسم بلاد (ميتانى) وأيضاً (نهارين).

ووفق الإشارات التى وردت إلى بلاد ميتانى فى نصوص أكاد ومصر وبلاد الحيثيين، وتفسير تلك الإشارات لدى المؤرخين، فقد انتهى هؤلاء إلى وجوب وقوعها بين الفرات والخابور بالفرات الأعلى. ورغم

ذلك فإنه أبدأً لم يعثر هناك حتى الآن على دلائل واضحة تشير إلى دولة بذلك الاسم (بلاد ميثاني) أو (بلاد آدم). ليست هناك أية كهوف سكنية تشير إلى أصحابها. فقط عثرنا على مخلفات مدينة تدعى (نوزي) ربما كانت بعض سجلاتها باللغة الحورية أو على التدقيق كما ذكرت موسوعة تاريخ العالم (بضع كلمات). وتلك الكلمات البضع أبدأً لم تتحدث عن نفسها باعتبار أن اللغة المدونة بها هي لغة نوزي، كما لم تقصص لنا عن اسم شعبها أو دولتها أو هويتها.

وهكذا تم وضع اللغة الحورية وشعبها الحوري (شعب آدم الميثاني ساكن الكهوف) في ملف صغير يؤكد أن بلاد الميثاني تقع أعالي الفرات، وربما كانوا هم احتمالاً أولئك الذين حملوا اسم بلاد آدم الحورية وتكلموا اللغة الحورية، لكن الملف وضع مرة أخرى بين عدد من الملفات المسجلة تحت عنوان (غير مؤكد وأقرب للمجهول).

وهنا نمسك من كل ذلك الشتات بطرف خيط يتمثل في واحد من الأسماء المتعددة لذلك الشعب، الاسم الذي فضل أن يطلقه على نفسه، (شعب آدم)، الذي ورد له مثيل بالكتاب المقدس لكن باسم (آدوم). وسنحاول الآن تحديد موقع (آدوم التوراتي) الجغرافي للتأكد من مدى التقائه من عدمه مع شعب آدم الحوري الميثاني (التاريخي). وهذا التحديد سيعتمد بالضرورة على ما جاء بالكتاب المقدس عن الشعب الذي سكن بلاد آدوم، إضافة إلى ما يمكن أن نعثر عليه في نصوص المنطقة إن وجدنا. ثم علينا محاولة التأكد والتيقن إن كان شعب (آدوم) التوراتي فعلاً هو المذكور في المدونات التاريخية باسم (آدم / الحور / الميثاني / نهارين)، وفي حال الوصول إلى إجابة سنحاول تقديم القرائن والأدلة الممكنة.

يمكن التعرف على موضع بلاد (آدوم) التي جاء ذكرها بالكتاب المقدس من عدة مواضع ومتكررات بهذا الكتاب، أبرزها النص الذي يحدثنا عن حدود دولة إسرائيل جغرافياً، وكيف تتماس حدودها الجنوبية مع دولة تجاورها من جنوبها. ويصف موقع تلك الدولة بقوله :

تخم آدوم(*) : برية صين نحو الجنوب، أقصى التيمين .. أقصى بحر الملح من اللسان المتوجه نحو الجنوب.

يشوع ١٥ / ١ - ٣

وهو ما يعنى أن الحدود الجنوبية للدولة اليهودية - حسب سياق النص الذي ورد به الاقتباس - كانت على خط حدودى واحد مع بلاد تسمى آدوم، وأن على تلك التخوم / الحدود تقع برية باسم برية (صين). ومن جانبنا جهدنا بحثاً على تلك الحدود في خريطة المنطقة الحالية حتى وجدنا برية تحمل اليوم اسم برية (تسين) دون تغيير لسانى يذكر عن برية (صين)، وتقع في ذات الموضع الذى حددته التوراة لبرية صين. ثم أن هذه التخوم تقع عند أقصى بحر الملح جنوباً، و (بحر الملح) هو الاسم التوراتي للبحر الميت، وأن تخوم / حدود آدوم هذه تبدأ عندما ينتهى لسان البحر الميت الممتد جنوباً.

(*) كلمة تخم تعنى حدود.

وتقول التوراة: إن سكان تلك المنطقة سموا آدوميين، لأسباب صاغتها التوراة على طريققتها، وأهم تلك الأسباب: أن جد الآدوميين البعيد كان يدعى آدوم، وأن آدوم هذا كان شقيقاً توأماً ليعقوب بن إسحق بن إبراهيم المعروف باسم إسرائيل. لقد كان المحرر التوراتي يعلم أن هناك لونا من القرابة القبلية بين سكان بلاد آدوم وبين الشعب الإسرائيلي، فجعل الآباء الأسطوريين للشعبين أشقاء بل وتوائم.

ومع استمرار القراءة نفهم أن آدوم لم يكن الاسم الأصلي الأصيل لجد الآدوميين، لأنه كان يحمل إسماً أولاً هو (عيسو)، ثم بعد زمن وبعد أن كبر وأصبح شاباً يافعاً اكتسب اسم (آدوم). ومرة أخرى تشرح لنا التوراة على طريققتها: لماذا حمل عيسو عندما يفع شاباً اسم (آدوم)؟ لتفسر لنا صفة أخرى لهذا الشعب الآدومي تضيف لمعلوماتنا عنه مزيداً من الرصيد. وفي هذا التفسير يقدم لنا الكتاب المقدس قصة تتضمن معلومة كان يعرفها المحرر التوراتي عن يقين، تحكى أن عيسو كان ذات يوم جائعاً، فلجأ لأخيه التوأم يعقوب ليطعمه وكان يعقوب قد طبخ عدساً، ويقول النص فى ذلك:

فقال عيسو ليعقوب : أطمعنى من هذا الأحمر لأنى قد

أعبيت. لذلك دعى اسمه آدوم .. فباع بكروريتيه

ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس .

تكوين ٢٥ / ٣٠ - ٣٤

النص يقول: إن عيسو عندما أكل العدس الأحمر حمل بعدها اسم آدوم. فماذا يعنى هذا الكلام الساذج؟ يمكننا أن نجد مزيداً من التوضيح فى نص آخر يحكى لنا قصة ميلاد السلفين الأسطوريين للشعبين الإسرائيلى والآدومى، حيث يقول:

إن رفيقه زوجة إسحق حبلت .. فلما أكملت أيامها لتلد

إذا فى بطنها توأمان. فخرج الأول أحمر كله كفروة

شعر فدعوا اسمه عيسو. وبعد ذلك خرج أخوه وبده

قابضة بعقب عيسو. فدعى اسمه يعقوب.

تكوين ٢٥ / ٢٤ - ٢٦

مرة أخرى تفسر لنا القصة ذلك الأمر الذى كان يعرفه المحرر التوراتي، وهو أن الشعب الآدومى كان شعباً أحمر. كما هى عادة التوراة فى وضع معان لأسماء الأعلام، مثل بنيامين أى ابن اليمين، ويعقوب سمي كذلك لأنه كان يمسك بعقب أخيه التوأم عيسو، كذلك سمي عيسو بهذا اسم لأن اسم عيسو يعنى الأحمر، واسمه الثانى آدوم يعنى أيضاً الأحمر. وكان الترميز إلى اللون الأحمر فى الاسم عيسو " فروة شعر "، والترميز إلى اللون الأحمر فى الاسم آدوم: " طبيخ عدس ". أما معنى كلمة (آدوم) فى اللغتين العبرية والعربية فهو الصخر أو التراب الأحمر. والمقصود هو اللون الأشقر الضارب إلى حمرة، أو الأحمر

الضارب إلى غبرة. وهو الأمر الذى يرجح استنتاجات المؤرخين أن الشعب الميتانى - حسب موسوعة تاريخ العالم - من الجنس الهندوآرى. وعادة ما يحمل هذا الجنس صفة الشقرة الضاربة إلى حمرة. وهذا أول القطر فى محاولة التيقن من تطابق القصة التاريخية عن شعب آدوم الحورى الميتانى التاريخى مع الشعب الذى ذكره الكتاب المقدس باسم شعب آدوم.

ومع محاولة البحث عن تطابق، نحاول أيضاً تدقيق الموقع الجغرافى. لبلاد آدوم التى سكنها الشعب الحورى صاحب اللغة الحورية الكارية نمسك بتلابيب (آدم) التى رأيناها ذات (آدوم) لنطالع خريطة المكان الذى حدثنا عنه الكتاب المقدس جنوبى البحر الميت. فنجد امتداداً طويلاً على الجهتين الأصليتين الشمال والجنوب يسير مع امتداد جبال السراة أو السراة التى تطلق عليها التوراة اسم جبال سعيم التى يوازيها من الغرب واد عظيم يمتد بنفس الطول يسمى وادى عربية.

لكن المصادر التاريخية وصفت شعب (آدم / التاريخى) بأنه شعب حورى فهل نجد أية إشارة بالكتاب المقدس تشير إلى أن شعب (آدوم / التوراتى) بدوره كان يحمل تلك الصفة (حورى)؟ هنا نقفز بين أيدينا نصوص واضحة ونحن نقف دفتى المقدس نقول:

وفى سعيم سكن قبلا الحوريون ، فطردهم بنو عيسو
وأبادوهم من قدامهم وسكنوا مكانهم.

تنبيه ١٢/٢

ها قد بدأت الأمور تتجلى بين أيدينا ولدينا الآن قرينة جديدة تتمثل فى أن شعب (آدم) المزعم أنه سكن أعالي الفرات كان يحمل الصفة (حورى)، وهى ذات الصفة التى أكد المقدس على أنها كانت صفة شعب (آدوم) الواقع على امتداد جبال السراة / سعيم ووادى عربية جنوبى البحر الميت.

لكن النص هنا حاول القول أن (آدوم) أناس و (الحور) أناس آخر، لكن الحدث حدث فى ذات المكان حيث أباد الآدوميون (بنو عيسو) الحوريين واستوطنوا بلادهم. ونظن أن ذلك يعود إلى سبب تأسيسى، فلما كان الحوريون أشقاء للإسرائيليين، وكان معلوماً أنهم هندوآريين وليسوا ساميين، وحتى لا تلحق الهندوآرية بإسرائيل، فقد تمت الصياغة بهذا الشكل، لكنها لم تلحق باستنتاجنا أى خلل، فنحن لازلنا فى ذات المكان الذى حددته التوراة. وما يشغلنا الآن هو أن ذلك الموضع كان سكناً لشعب الحور الذى نعتقد الآن أنه ذات شعب آدوم (وهو ماسنقدم عليه قرائن كافية)، شعب آدوم الذى سكن جبال عسير / السراة ووادى عربية، ذلك الوادى الذى كان سبباً فى إطلاق اسم العرب أولاً على سكان آدوم وسيناء وبعض بوادى الشام القريبة، ولم يتم تعميم اسم عرب على سكان المحيط الأوسع إلا بعد ذلك بزمان طويل، فظل العرب هم سكان عرابة / عربية ومحيطها فى النصوص الرافدية التى بدأت ذكرهم حوالى ق ٨ ق.م أو قبله بقليل، حتى زمن

المؤرخين الكلاسيك قبل القرن الميلادي الأول الذين أخذوا يتحدثون عن عرب جزيرة العرب المعروفة الآن. وهو أمر سيأتي تفصيل بيانه في مكانه من هذا العمل.

ونعود نمسك بأول القرائن الدالة والشاهدة (آدم = آدوم = بلاد الحور) نحاول العثور على مزيد من التحديد الدقيق خاصة الجغرافى، وليس فى أيدينا عن البلاد الذى ذكرها علم التاريخ باسم (آدم) سوى شذرات يسيرة تماما إضافة إلى ما ورد عنها بالكتاب المقدس، وأن نصا بالمقدس أو نصان كما أوردنا لا يؤكدان شيئاً ولا ينفيان شيئاً إزاء قضية كبرى كتلك التى بين أيدينا . نحاول فيها تحديد موضع مخالف تماماً لما تعارف عليه رجال التاريخ كموطن ومستقر للشعب الحورى الميثانى فى منطقة المتوسط الشرقى الذى أسكنوه أعالي الفرات، دونما دلائل وبيانات حاسمة واضحة كافية مؤكدة. أو حتى شبه مؤكدة.

وعليه نعود للوثيقة التاريخية الكبرى المتاحة، الكتاب المقدس، ننقب فيها بحثاً عن مزيد من التأكيد على أن بلاد (آدم) التاريخية فى موقع (بلاد آدوم) التوراتية، وأن ذلك الموقع يتموضع فى المساحة الواقعة بطول وادى عربة شرقى سيناء. ونقرأ قصة عن يعقوب بن إسحق الذى سبق وذهب فى رحلة طويلة إلى الشمال السورى، ثم عاد يريد دخول فلسطين مع أنعامه وعبيده، بالعبور من جنوبى البحر الميت. لكن هذا العبور كان يعنى اختراق منطقة شعب أخيه عيسو / آدوم. وهنا نجد يعقوب يضطر إلى دفع رسوم عبور عالية ليتمكن من العبور عبر آدوم إلى النقب جنوبى فلسطين. وهو ما نفهمه من النص:

وأرسل يعقوب رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعيير
بلاد آدوم .. وأخذ مما بيده هدية لعيسو أخيه. مئتي عنزة
وعشرين تيساً ومئتي نعجة وعشرين كبشاً وثلاثين ناقه
مرضعة وأولادها.

تكوين ٣٢/٣، ١٣، ١٤

ومثل تلك الهدية أو ضريبة العبور تعنى أنه كان مع يعقوب مثلها عشر مرات على الأقل، لو افترضنا أنه دفع العشر ضريبة العبور المتوافق عليها فى الزمن القديم. وهو ما يفسر لنا عدم تمكنه من عبور نهر الأردن مباشرة إلى فلسطين، واضطراره للدوران من جنوب البحر الميت بما معه من سوائم لأن عددها سيصل على الأقل إلى ألفى عنزة ومئتي تيس وألفى نعجة ومئتي كبش وثلاثمائة ناقه وأولادها، وعبوره بذلك كله على بلاد آدوم. التى وضح موضعها الجغرافى هنا كحاجز كبير يفصل شرقى المنطقة فى البوادرى شمالى جزيرة العرب عن غربىها شبه جزيرة سيناء بحيث لم يكن بإمكان يعقوب أن يجد أى منفذ للعبور، مما يعنى أن سيطرة آدوم قد امتدت من جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة، لتغلق المنطقة تماماً على أى عبور، وأن تلك البلاد كانت قبائل أو عصابات تقطع الطريق أو دولة قوية مقتدرة تأخذ رسومها ممن يعبرون أرضها، أو تستولى على ممتلكاتهم.

وهكذا كان المحرر التوراتى يعرف بصلة قوية بين القبائل الآدومية والقبائل الإسرائيلية، وكان يعلم بالتحديد وبالقطع وباليقين الموضع الدقيق لبلاد آدوم ومساحة سيطرتها. وأن آدوم قد سكنوا جبال سارة سعيير

ووادى عربية جميعاً " فسكن عيسو فى جبل سغير وعيسو هو آدوم / تكوين ٨/٣٦ . أما بلاد سغير نفسها فقد اكتسبت اسمها حسب التخريج التوراتى من اسم ساكنيها الأوئل " بنو سغير الحورى / تكوين ٢٠/٣٦ .

لازلنا ندعم موقعنا الجغرافى لبلاد (آدم الحورية التاريخية) فى بلاد (آدوم الحورية التوراتية) لمزيد من اليقين. ونعتمد إلى الكتاب المقدس لنؤكد أن محررى التوراة كانوا يعلمون يقيناً معلومة معروفة لديهم بشكل واضح تماماً لا تقبل الالتباس، يعودون إليها كل مرة دون خطأ واحد. مما يشير إلى أنهم بين الأساطير والتميزات كان لديهم طوال الوقت خريطة واضحة تتأكد دوماً. ونموذجاً لذلك حكاية جاءت ضمن حكايا التوراة عن خروج بنى إسرائيل من مصر عبوراً على سيناء، فى عدد هائل من البشر تحت قيادة النبى موسى. ونقول الرواية أن النبى موسى بعد أن وصل مع أتباعه حدود فلسطين الجنوبية كان بالإمكان أن يتعرض من ساكنها لرد فعل عسكرى قوى، ففضل مفاجأتها بعبور الأردن من شرقيه إلى غربيه والهبوط الصاعق على أريحا. لكن ذلك كان يعنى أولاً عبور وادى عربية وجبال سغير كى يصبح فى الموضع المطلوب حسب خطته. وبالفعل تم العبور وفق التخطيط المُعد له. ولم يخبرنا المقدس إن كان موسى قد دفع رسوم عبور أم لا، لكن الصورة التى تحكيها التوراة تصور ذلك العبور تسلسل هادئ ساكن مرتعب رافقته أوامر إلهية بعدم التحرش أبداً بسكان بلاد آدوم، وهو ما جاء فى شكل أوامر من يهوه إلى نبيه موسى قائلاً :

أوص الشعب قائلاً: أنتم الآن مارون بتحكم إخوتكم بنى
عيسو الساكنين فى سغير فيخافون منكم فاحترزوا
جداً. لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم أرضهم ولا
وطأة قدم. لأنى لعيسو أعطيت جبل سغير ميراثاً ..
فعبّرنا عن إخواننا بنى عيسو الساكنين فى سغير
على طريق العربية [أى وادى عربية / المؤلف] وعلى
أيلة [حالياً ميناء إيلات / المؤلف] وعلى عصيون
جابر [فى الجوار منه / المؤلف]. ثم تحولنا ومررنا
فى طريق برية موآب.

تنثية ٨٠١/٢

مرة أخرى يسجل المحرر التوراتى بشديد الدقة ذكرياته عن بلاد آدوم فهى بلاد عيسو الساكنين فى سغير، وأن بلادهم تقع فى جبال سغير ووادى عربية، ومن موانئها المشهورة ميناء أيلة، وكلها تقع فى المساحة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة. ويؤكد هذه الموضوعة الجغرافية أن النص يقول إنه بعبور وادى عربية وجبل سغير يعبرون إلى طريق برية موآب. وموآب دولة تاريخية معلومة تقع إلى الشرق من

البحر الميت فى قسمه الجنوبى. أى تلاصق بلاد آدوم المفترضة فى هذا الموضع من الشرق. والشمال الشرقى. وهو الأمر الذى يفيد بمدى وضوح الجغرافيا عند المحرر التوراتى.

والآن هل نجد فى وثائق التاريخ كعلم ما يؤيد ما ذهبنا إليه؟ وهل ثمة إشارة إلى بلاد (آدم) كما نقصدها نحن (آدوم سعير) فى وثائق التاريخ؟ وهل نجد فى هذه الوثائق أية إفادات تدعم الموقع الجغرافى الذى حددته التوراة لبلاد آدوم؟


نظن أننا عثرنا على أول تلك الإشارات وأنها أول من عثر عليها فى أكثر من وثيقة حقيقية، أولها ملحمة (كارت ملك صيدون). وتروى تلك الملحمة قصة حملة عسكرية كبرى يقوم بها كارت (ملك صيدا على الساحل اللبنانى) على بلاد حددت الملحمة موقعها إلى الجنوب من بلاد صيدا وليس إلى الشمال منها بين الفرات والخابور وكان هدف الحملة بلداً يحمل اسم (آدوم الكبرى) ^(١). وهو الاصطلاح الذى لا يشير لآدوم كمجرد دولة جنوبية، إنما دولة تستحق أن توصف بأنها كبرى.

وتحكى الملحمة بالأسلوب الرمزي الغنائى الملحمى قصة تحرك جيوش عظيمة من صيدا تحت قيادة ملكها الذى حمل اسم كارت، ليتزوج ابنة ملك آدوم، فيما يبدو أنه كان فرضاً لاتحاد بالقوة، حيث كان الزواج هو عقد الوحدة والأحلاف بين الأسر الملكية. ولا يفوتنا التنبيه إلى أن اسم (كارت) نفسه يلتقى مع اللغة (الكارية)، ومع اسم مدينة أوغاريت التى عثر فيها على تلك الملحمة فهى (أو كارت)، وورد اسمها فى سجلات العمارة (أوكات). فالاسم كارت يعنى إذن الكارى أو الحورى.

ومع البحث نمسك بوثيقة أخرى تؤكد صدق ما نفترضه هنا، فنقرأ عن حملة قام بها الفرعون (رمسيس الثالث) اتجهت إلى بلاد يسكنها شعب يسمى بالسعيريين، وجاء النص على لسان الفرعون وهو يقول:

لقد قضيت على السعيريين من قبائل
شاسو. ^(٢)

ونحن نعلم أن السعيريين تعنى سكان جبال سعير، لكن النص هنا لا يحدد لنا مكاناً، فقط يقول: " السعيريين من قبائل شاسو ". والكلمة شاسو كانت تعبيراً مصرياً شائعاً يشير إلى بدو شبه جزيرة سيناء مع اصطلاحات أخرى مثل (عامو) و (ستيو) التى تطلق على الآسيويين عموماً وعلى الهكسوس خصوصاً.

لكن ألم يكن المصريون القدماء يعلموا ما عرفناه فى بحثنا هنا، وهو أن شاسو (سعير) هم الآدوميون؟ وإذا كانوا قد عرفوا ذلك فهل يمكننا أن نجد نصاً مصرياً قديماً يفيد ذلك؟ نعم هناك نص آخر جاء فى تقرير رسمى لموظف من عهد الفرعون مرنبتاح  من الأسرة التاسعة عشرة، حوالى ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م يقول فيه:

(١) أنيس فريجة: ملاحم وأساطير من الأدب السامى، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ص ٨٩.

(٢) جاردنر: مصر الفرعنة .. سبق ذكره، ص ٣١٧، انظر أيضاً: سامى سعيد : الرعامسة .. سبق ذكره، ص ١٦٠ .

انتهينا من السماح لقبائل الشاسو الآدومية بتخطف قلعة
مرنبتاح التي فى زيكو، ليظلوا هم وقطعانهم أحياء
بفضل إحسان فرعون.^(٣)

هكذا وصف النص قبائل الشاسو بأنهم من الآدوميين والنص الأسبق يتحدث عن الشاسو بوصفهم من
جبال سعيير، وهكذا أصبح لدينا قرائن كافية على رؤيتنا التي تموضع مركز دولة (آدم) الحورية الرئيسى فى
بلاد آدوم فى وادى عربية وسراة سعيير، لأنها هى فقط التي تحمل اسم سعيير وليس أى مكان آخر. ولكننا
نطمح إلى المزيد من القرائن التي يمكن أن ترقى بفرضنا من مستوى الفرض المحتمل إلى مستوى النظرية
التي تحمل أدلة كافية على صدقها.

وبسبيل ذلك نتذكر النص التوراتى السالف إيراده ويحدثنا عن ميناء باسم عصيون جابر يقع إلى
الجوار من ميناء يدعى إيله، وأن كلا المينائين يقع فى بلاد آدوم حيث عبر موسى برجاله. وأن ما يؤكد لنا
أن كلا من المينائين كان يقع على خليج العقبة، وأن إيلات الحالية هى بالفعل ميناء أيلة القديم وليس مجرد
تطابق بين أسماء متشابهة، وأن عصيون جابر ربما كانت ميناء يقع بجوار العقبة الحالية. هو أن محررى
التوراة كانوا يطلقون على البحر الأحمر اسم بحر سوف. والشديد الدلالة هنا هو أن محررى التوراة رغم
اختلافهم مشربا وزمنا بتعدد الأسفار، فإن الجغرافيا كانت واضحة لديهم لأنها معالم مستقرة وثابتة. وليس
هناك أية حاجة واضحة للعّب بها لصالح أسطورة الشعب المختار كما هو دأب الكتاب المقدس. فيقول لنا
سفر ملوك أول: " وعمل الملك سليمان سفنا فى عصيون جابر التي بجانب أيلة فى أرض آدوم / ملوك أول
٢٦/٩ ". والنص هنا يشير إلى اتساع ملك سليمان — حقيقة أو مبالغة من المحرر التوراتي — على حساب
دولة آدوم، حتى أنه اتخذ من الميناء الآدومى عصيون جابر ميناء له على البحر الأحمر.

وللمزيد نبحث عن أسماء مواضع وردت فى التاريخ ضمن بلاد آدم، وعن أسماء مواضع وردت فى
الكتاب المقدس تقع ضمن بلاد آدوم، لنحاول مطابقتها معا ومع واقع الجغرافيا. لذلك نسير مع الأسفار شوطا
بعيدا، إلى ما بعد قيام مملكة إسرائيل الموحدة زمن شاول وداود وسليمان، وانقسامها بموت سليمان إلى
إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب، لنستمع إلى حديث عن حرب وقعت بين المملكة الجنوبية يهوذا زمن
ملكها المعروف باسم أمصيا، وبين مملكة آدوم، يقول ذلك الحديث: " هو [أى أمصيا / المؤلف] قتل من آدوم
فى وادى الملح عشرة آلاف وأخذ سالع بالحرب / ملوك ثانى ١٤/٧ ". والمعنى أن الملك الإسرائيلى أمصيا
احتل بلاد آدوم بمجازر واستولى على عاصمتها سالع. و(سالع) كلمة عبرية كنعانية تعنى (الصخرة)، وظلت
سالع تعرف بهذا الاسم حتى زمن اليونان الذين أطلقوا عليها اسما جديدا، لكنه يحمل ذات المعنى الذى كان
يحملة اسم سالع، فأسموها (بترا) أى الصخرة واستمر ذلك الاسم بعد ذلك زمن الرومان وحتى الأزمنة
الحديثة والمعاصرة فهي لم تزل تحمل اسم البتراء، ثم نعلم أنه فى زمن الرومان كانت بترا هى عاصمة

(٣) جاردنر: مصر الفرعنة .. سبق ذكره ، ص ٣٠٢ .

البلاد الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة. وهكذا تكون سالع التي ذكرتها التوراة تقع في الموقع ذاته. وهو ما يؤكد لنا طول الوقت أين تقع بلاد آدوم التي افترضنا أنها بلاد آدم الحورية (ميتاني) التاريخية، التي موضعها المؤرخون بالفرات الأعلى بين الفرات والخابور.

ويستمر بحثنا على دأبه لتأكيد موقع بلاد آدوم بين العقبة والبحر الميت، فنجد سفر أشعيا يقول: " وحى من جهة دومه صرخ إلى صارخ من سعيير / اشعيا ١١/٢١ ". وعندما كانت التوراة تغضب على شعب لأنه عادى شعب الرب، فإنها كانت تستنزل عليه اللعنات المرتجاة في قابل الأيام. وهو ما حدث في مراحل متأخرة من التاريخ الإسرائيلي حيث قلبت الأيام العلاقات وتحولت القرابات والود إلى معارك دموية، ويبدو أن بلاد آدوم كانت صلبة في صراعها مع الإسرائيليين إلى الحد الذي دفع أشعيا ليجأر بنبوءاته تستنزل الدمار الإلهي على آدوم:

هوذا على آدوم ينزل وعلى شعب حرمة للدينونة ..
للرب ذبيحة في بصره، وذبحا عظيما في أرض آدوم،
وتتحول أنهارها زفتا وترابها كبريتا، وتصير أرضها
زفتا مشتعلا ليلا ونهاراً لا تنطفئ

اشعيا ٥/٣٤ - ١٠

كما هو واضح إشعيا الأريب يلحظ الأرض البركانية في المنطقة فيتنبأ بأن فناء آدوم سيكون بالزفت المشتعل والكبريت. وطوال الوقت نجد آدوم بلاداً لا تقع عند الفرات الأعلى، فالنص يذكر من مدن آدوم مدينة باسم (بصره)، وليس في أعالي الرافدين أي (بصرة)، لكننا نجد حتى الآن بصرى شمالي البتراء في سراة سعيير. ثم لا يفوت المدقق أن نص اشعيا يشير إلى أن بلاد آدوم كان بها حتى زمنه أنهاراً تسقيها، تلك التي يتنبأ أن مياهها ستتحول إلى كبريت.

ومثل النص السالف نجد نصا آخر يقول بلسان الرب في نبوءة النبي الإسرائيلي حزقيال :

وأمد يدي على آدوم وأقطع منها الإنسان والحيوان
وأصيرها خرابا من التيمن إلى ددان .. وأجعل نقمتي
في آدوم بيد شعبي إسرائيل.

حزقيال ٢٥ / ١٣ ، ١٤

ويضيف النص هنا إلى معلوماتنا الجغرافية كى نرسم خريطة واضحة لبلاد آدوم، فيقول أن من مدن بلاد آدوم إضافة إلى (بُصرى) مدينتين أُخريين هما (التيمن) و (ددان) وتقع (التيمن) فى شرقى جبال سعيير شمالى جزيرة العرب كذلك (ددان) هو الاسم الثابت تاريخيا لبلدة العلا الحالية شمالى السعودية، مما يشير إلى توسع جغرافى نحو الشرق يتبع دولة آدوم قد يصل بنا إلى تيماء وجنوبا فى شمالى الجزيرة حتى مدينة العلا، وجميعها كما نرى لا تقع فى الرافدين الأعلى، فليس هناك أى موضع باسم (التيمن) ولا باسم (ددان).

وفى الروايات التاريخية نلمس صلات وطيدة بين مصر وبين بلاد آدم الحورية، فنسمع من علم التاريخ عن زيجات تمت بين البلاط المصرى وبلاط بلاد آدم الميثانى. وهى ذات الصلات التى نلمسها فى روايات الكتاب المقدس عن علاقة آدوم بمصر، وذلك فى رواية يرويهها محرر الكتاب المقدس حول الصراع الذى دار بين ملك الدولة الإسرائيلية الموحدة سليمان وبين جيرانه الآدوميين، فيروى لنا أن الملك داود ومن بعده سليمان قاما بحروب احتلا بها بلاد آدوم، فهرب رجال القصر الآدومى الحاكم بولى العهد الصغير إلى مصر، وكان اسمه (هداد) أو (حداد). ويقول النص :

إن هدد هرب هو ورجال آدوميون من عبيد أبيه معه
ليأتوا إلى مصر. وكان هدد غلاما صغيرا. وقاموا من
مديان وأتوا إلى فاران. وأخذوا معهم رجالا من فاران
إلى مصر إلى فرعون مصر، فأعطاه بيتا وعين له
طعاما وأعطاه أرضا. فوجد هدد نعمة فى عينى
فرعون جداً وزوجه أخت امرأته. أخت تحفيس الملكة.
فولدت له أخت تحفيس جنوبث ابنه، وفطمته تحفيس
فى وسط بيت فرعون. وكان جنوبث فى بيت فرعون
بين بنى فرعون.

ملوك أول ١٤/١١ - ٢٥

وتلك الرواية تشى بأكثر من سر، فهناك صلة حارة بين ملوك آدوم وبين الفراعنة، وهى الصلة الحارة التى حدثت عنها وثائق تل العمارنة مع الميثانيين فى بلاد آدم الحورى. لكن الملحوظة الهامة هى أن التقليد المصرى كان يسمح للمصرى بالزواج من أجنبية لكنه لم يكن يحق للمصرية إطلاقا أن تتزوج من غير مصرى، فما بالنا والنص هنا يقول أن المصرية التى تزوجت الأجنبى الآدومى كانت أميرة من البيت المالك بمالها من قداسة دينية وقانونية. إنه أمر لا يجب أن يمر بسرعة نضيفه إلى رصيدنا نحو الكشف المأمول، حيث لم يصلنا من علم التاريخ فى الوثائق المصرية أن هناك أميرة مصرية تزوجت إجنيا سوى فى حالة ميثانى فقط وهو ما تؤكد التوراة أنه حدث مع آدوم. أفلا يعنى ذلك أن ميثانى هى ذات عين آدوم؟

وربما حدث مرة أخرى فى حالة زواج سليمان من بنت الفرعون الذى لم تذكر التوراة اسمه وربما كان شيشنق لأن شيشنق هجم على دولة سليمان بعد موته مباشرة، على أن نقبل رواية التوراة عن هذا الزواج بتحوط وتحرز وربما يشك عظيم فقد تكون كاذبة تماما. أو ربما نصدقها إذا نظرنا إلى زمن شيشنق كبدائية لانحطاط القوة المصرية الصلابة، ناهيك عن كون هذا الزمن زمن حكم الشناشقة لم يكن زمن حكم مصرى لأن الشناشقة وشيشنق هذا لم يكونوا مصريين بل ليبيين، لأن شيشنق الأول هو مؤسس لأسرة ليبية حكمت عرش مصر، ومن هنا يمكن أن نفهم عدم حرصهم على التقاليد المصرية المقدسة.

ونعاود البحث وراء وثائق التاريخ نبحث عما يؤيدنا، فنجد نصا يمكن أن يعطينا دليلاً جديداً هو نص آمنحتب الثانى  ١٤٣٦-٤١٣ ق.م يسوقه لنا جاردنر مع تعقيباته قائلاً: " نفهم من النص أن الفرعون المصرى كان فى مجلس شراب فانطلق لسانه بالاحتقار لأعدائه الأجانب بمن فيهم العجوز رباح وقوم نخسى الذين لا جدوى منهم .. وأنه بعد أن عاد جلالته من رنتو العليا، وبعد أن قهر أولئك الذين لم يستشعر حبه له، وبعد أن مد حدود مصر فى حملة النصر الأولى له، عاد جلالته فرح القلب إلى أبيه آمون. ووضعهم مقلوبين على مقدم سفينة جلالته التى كان اسمها: عا خبرع مثبت الأرضين، وقد علق ستة من هؤلاء الأعداء على واجهة سور طيبة، أما السابع فقد أرسل بسفينة إلى النوبة وهناك علق على جدار سور نبتة ليكون عبرة. ونخسى لا تبعد كثيراً عن قادش على نهر الأورنت، وهى الحملة نفسها التى جاء ذكرها على تمثال لأنمحات عثر عليه فى مدامود يشير فيه انه شهد جرأة وإقدام مولاه حيث غزا ثلاثين مدينة فى ناحية نخسى .. وملتقى بفقرة تصف تدمير مكان يدعى شمس آدوم لا يبعد أكثر من مسيرة يوم عن قطنا. وهى مدينة هامة على بعد أحد عشر ميلاً إلى شمال شرقى حمص " (٤).

وحتى يمكن فهم النص، فإن بلاد رنتو العليا اصطلاح مصرى يشير إلى بلاد سوريا ولبنان الحالية، بينما كان يعبر عن فلسطين ومحيطها الجنوبى باسم رنتو السفلى. ويبدو لنا أن الاسم (رنتو) من (ردن) ومنه الكلمة (أردن). وهكذا يكون هناك أردن أعلى يقصد به نهر العاصى الذى يحمل اسم (أورنت) ويلتقى تماماً مع كلمة (أردن) بظاهرة القلب، ويكون هناك رنتو سفلى يقصد به نهر الأردن الحالى ومحيطه.

وحول قراءة أسماء الأعلام فى اللغات القديمة يبدى الباحثون قلقهم " من صعوبات البحث فى التاريخ القديم عموماً، إذ أن كتابة الأسماء القديمة .. لا تخضع لأية قواعد متعارف عليها، فإذا أخذنا أسماء باللغات التى لها قرابة عائلية مع اللغة العربية مثل: الأوغاريتية والآرامية والعبرية والأكدية وغيرها. نجد اختلافاً فى تهجئة أسماء العلم قد يؤدى إلى فوضى فى هوية الأسماء الشخصية وأسماء الأماكن " (٥)

ونعود إلى قصة حملة آمنحتب الثانى الذى اضطر عند عودته من بلاد رنتو إلى تدمير موضع باسم (شمس آدوم). وليس فى المناطق الشمالية أى آدوم، وليس هناك موضعاً باسم شمس آدوم. فقط لدينا آدوم

(٤) نفسه: ص ٢٢٢ ، ٢٢٥ .

(٥) حسنى حداد و د. سليم مجايعص : بعل هداد، دار أمواج ، بيروت ، ١٩٩٣ ، المقدمة ، ص/ط .

التي نتحدث عنها الواقعة في البلاد الصخرية في محيط جبال سראة ووادي عربية. ومن هنا يجب استبعاد ملاحظة جاردنر التوضيحية التي ليست بالنص المصري والتي تقول: إن شمس آدوم تبعد عن قطنا / حصص مسيرة يوم. ويجب في ظل ما جمعناه حتى الآن أن نفهم أن حملة آمنحتب الثاني عند عودتها إلى مصر، هبطت إلى بلاد سكير الحورى في حملة تأديبية اضطر معها إلى تدمير شمس آدوم أو عاصمة آدوم. ويدعمنا في ذلك التفسير أنه قد ترافق في النص مع اسم شمس آدوم اسم لموضع آخر باسم قادش، فيماذا تفيدنا قادش هنا؟

إن الدارس للجغرافيا القديمة للمنطقة سيكتشف أنه كان هناك أكثر من (قادش)، فالكلمة تعني الحرم والمقدس والقدس والقديس (قديش بالعبرية)، فهناك واحدة من تلك القوادش في الشمال السورى على نهر العاصى، ثم هناك أخرى في الجليل الفلسطيني تعرف في التوراة باسم قادش نفتالى، ثم لدينا أهم القوادش قادش أورشليم التي استقر اسمها في العربية (القدس). ثم نعلم من التوراة بوجود قادش أخرى تقع في سيناء وجنوبى فلسطين وردت معرفة مرتين: مرة باسم (قادش برنيع)، ومرة أخرى باسم (قادش عين مشفاط)، وورد ذكر قادش سيناء هذه أكثر من مرة في قصة البطرك إبراهيم، وفي قصة الخروج الإسرائيلى من مصر، حيث كانت محطة كبرى للخارجين من مصر عند آخر حدود سيناء الشرقية. وقد استقروا فيها ثمان وثلاثين عاما بعد رحيل في سيناء استمر سنتين، وهو ما جعل رحلة التيه تستغرق أربعين عاما.

ووفق الإحداثيات المعطاة لنا بالتوراة حول قادش سيناء، فإنها لابد أن تكون قد قامت على الحدود الغربية لبلاد آدوم الجنوبية لبلاد فلسطين، الشرقية لشبه جزيرة سيناء، ونظنها هي بالتحديد المقصودة في نص آمنحتب الثاني بالترافق مع شمس آدوم.

وللتبسيط السريع نقتطع بعض الإحداثيات التي أعطانا إياها الكتاب المقدس وتتعلق بالموضع (قادش) لتأكيد ارتباطها بشمس آدوم وبلاد آدوم فيما نزع.

في قصة ميلاد إسماعيل بن إبراهيم يتم طرده هو وأمه هاجر فيذهب لبيستوطنا في بادية تحمل اسم " برية فاران / تكوين ٢١/٢١ ". وفي موضع آخر بالتوراة نجد قادش سيناء تقع في محيط بريتين، الأولى باسم " برية فاران / عدد ٢٦/٣ " والثانية باسم " برية صين / عدد ١/٢٠ ". وبالبحث علمنا أن برية فاران هي برية (باران) الحالية التي تقع على حدود سيناء الشرقية، وتتأخم من الغرب بلاد آدوم الحورية. وإلى الشمال من (باران) عند لسان البحر الميت الجنوبي غربا، نجد برية باسم برية (تسين) وهي ما يطابق (صين) التوراتية. وقد أكد الإصحاح العشرون من سفر العدد أن قادش كانت تقع في طرف تخوم آدوم الغربية وبذلك تقع جنوبى فلسطين ويؤكد ذلك بشكل آخر سفر يشوع ضمن المدن الواقعة على الحدود الجنوبية لفلسطين:

وكانت المدن القصوى التى لسبط يهوذا إلى تخم آدوم
جنوبا: قبصئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعدة
وقادش وحاصور وبثان .

يشوع ٢/١٥ ، ٣

وفى تحديده لأرض يهوذا بفلسطين، أوضح الكتاب المقدس أن حدودها الجنوبية « جانب الجنوب يمينا
من تامارا إلى مياه مريبوت قادش النهر إلى البحر الكبير / حزقيال ٤٧ »^(٦) . بل إن المسافة بين قادش النهر هذه
وبين جبال سكير بأدوم قد تم تحديدها فى قول المقدس: « أحد عشر يوما من حوريب على طريق جبل سكير إلى
قادش برنيع / تثية ١/١ ، ٢ ».

وإعمالاً لهذه المعطيات الإحداثية تم تحديد قادش سيناء عند (ترامبول) بموضع عين قديس الآن شرقى
سيناء، وكان معنى أن يسكنها عدد هائل من البشر الخارجين من مصر تحت قيادة موسى لمدة ثمان
وثلاثين سنة، أنها كانت عامرة ومؤهلة طبيعياً بكميات من المياه لإيواء هذا العدد من البشر. وتتكرر إشارة
الكتاب المقدس هنا إلى أنهار بالمنطقة فهى "قادش النهر/حزقيال ٤٧"

وهكذا نرى أن قادش سيناء هى المقصودة فى حملة آمنحتب الثانى حيث يقول بعد تدميره شمس آدوم
أنه عاد إلى قادش فقدموا له الولاء، وعاد إلى مصر بعدد كبير من الأسرى يصل إلى ١٥٠٧٠ من النجاسو
(٧). ولا نعرف الآن - ومؤقتاً - ماذا تعنى كلمة النجاسو. مع ملحوظة لها أهميتها وردت فى نص الجملة
وإن كانت غير مقروءة بوضوح تشير إلى (العابيرو) وهى الكلمة التى كانت تفسر كلما وردت بأنها تعنى
العبرانيين^(٨) .

وفوق كل ما سلف فإنك تلمس فى قراءتك للمقدس التوراتى إشارات واضحة إلى أن شعب آدوم لم يكن
شعباً عادياً فى المنطقة، بل كان شعباً من الكبار الأذكىاء الحكماء، وهى صفات تشير إلى كيان هام بالمنطقة
يردد عنه الكتاب المقدس الذكريات بلسان الرب الإسرائيلى مهدداً:

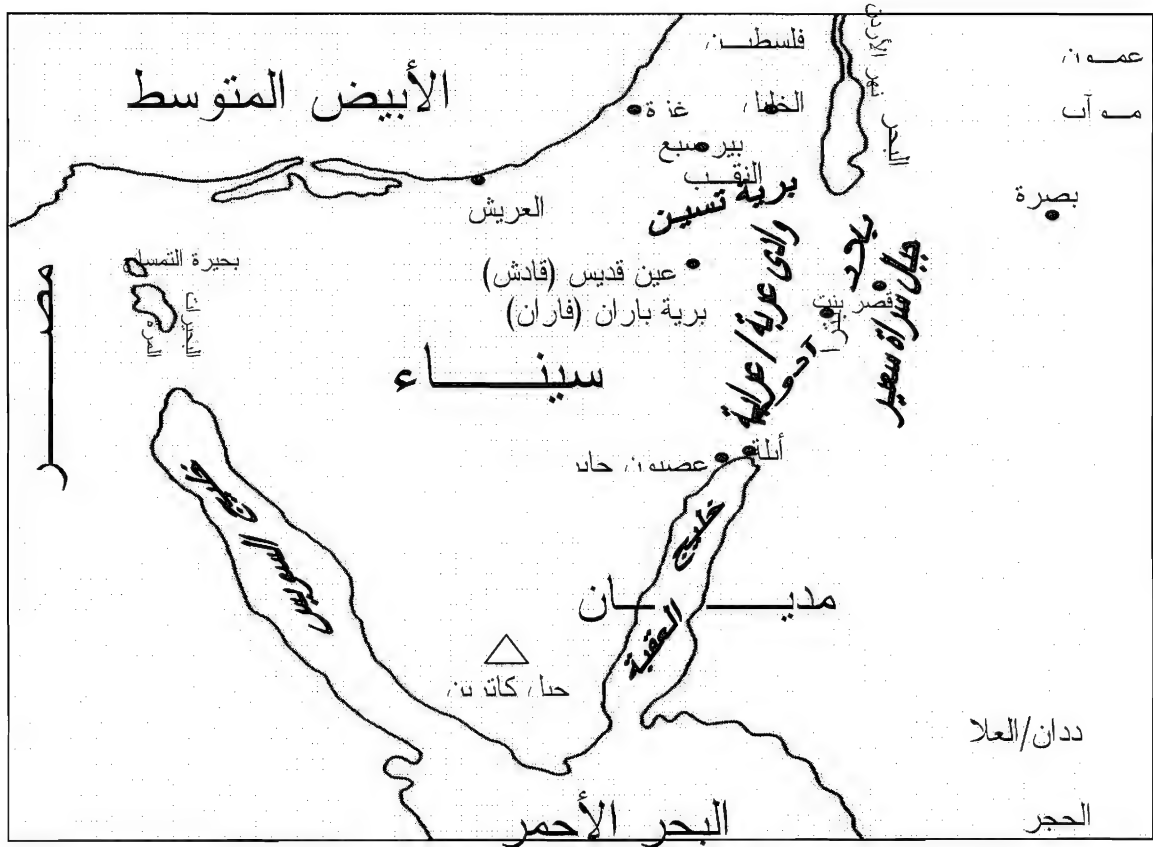
ألا أبعد فى ذلك اليوم - يقول الرب - الحكماء من آدوم
والفهم من جبل عيسو؟ فیرتاع أبطالك ياتيمان لكى
ينقرض كل واحد من جبل عيسو بالقتل، من أجل ظلمك
لأخيك يعقوب، يغشاك الخزى وتنقرض للأبد.

(عوبديا ٨/١ - ١٠)

(٦) يقصد بالبحر الكبير البحر الأبيض المتوسط .

(٧) جاردنر: مصر الفراعنة .. سيق ذكره ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٨) نفسه: ص ٢٢٨ .



الخريطة رقم (٢٣) خريطة تبين موقع بلاد أدوم

سالع / البتراء / ونظرية جديدة

كانت مدينة البتراء، الواقعة تقريبا فى منتصف المسافة ما بين البحر الميت وبين خليج العقبة، آخر عاصمة لآخر دولة كبرى قامت فى تلك البلاد، تلك الدولة التى عرفت باسم دولة الأنباط. وجاعنا ذكر البتراء مع الشعب الذى عاش فى تلك المنطقة زمن الإمبراطورية الرومانية باسم شعب الأنباط. وهى مدينة لا مثيل لها ولا شبيهه فى العالم أجمع، وتقع على بعد ستين ميلا شمالى العقبة ، على تقاطع خط طول ٣٥,٢٦ شرقا مع خط عرض ٣٠,٢٠ شمالاً، إلى الغرب مباشرة من معان، وهى معان التاريخية التى كانت محطة ترانزيت كبرى باسم (معان مصران) أى معان المصرية، وترتفع البتراء بحوالى ٢٧٠٠ قدم عن سطح البحر، وتحيط بها سلسلتان من المرتفعات يفصل بينهما مقدار ميل.

وتقع مدينة البتراء وسط مجموعة جبال هضبية، بعضها أقماع صخرية هائلة، يغلب على صخرها اللون الأحمر، الموشى بكل ألوان قوس قزح، مع الدرجات اللونية الانتقالية بين الألوان الفصيحة.

وتبعد البتراء عن عمان العاصمة الأردنية بحوالى ٢٦٢ كم إلى الجنوب منها، وتحدها من الشمال قرية وادى موسى ذات الينابيع الشهيرة بمياهها المعدنية المتميزة، والتى كانت لا شك أشد تدفقا من الآن فى القرون البعيدة الخوالى. وإلى الغرب من (البتراء)، وعلى الحدود مع شبه جزيرة سيناء، يقع وادى عربية بجباله الجليل، وفيه يقع الجبل المعروف باسم هارون، والذي يقول الكتاب المقدس أن اسمه كان أيضاً (جبل موسى)، وتزعم أنه حمل اسم (هارون) لأن هارون مات ودفن فيه، لكن رواية المقدس ذاته تقول: إنه كان يحمل اسم جبل هارون قبل أن يعرفه هارون شقيق موسى. أما إلى جنوبى البتراء، فيقع وادى صبرة وجبل تمناع الذى تكتبه التوراة جبل (تمنه)، حيث توجد هناك بقايا مناجم النحاس وأفران قديمة لتصنيعه، وقد سبقت بشأن تلك المناجم والأفران فروض كثيرة، لتحديد زمن إقامتها هناك فنسبها البعض إلى المصريين، وهناك من نسبها إلى الملك الإسرائيلى سليمان. أما شمال البتراء فهو الامتداد الطبيعى لوادى موسى والبيضا.

وعند زيارتك للبتراء ستكتشف أنك أمام موقع من أشد المواقع المحصنة تحصينا طبيعياً فى العالم، فى جبالها تنتثر الكهوف التى تكشف كل يوم عن آثار تركها لنا أهلوها. لكن ما يعلمه التاريخ الآن عنها بثقة لا يبعد أكثر من القرن الثالث قبل الميلاد، حيث قامت فى تلك البوادر مع اتصالها ببادية الشام، دولة كبرى وسعت حدودها جنوباً، حتى بلغت وادى القرى، وشمالاً حتى دمشق، وغرباً حتى السويس بمصر. ووصلت إلى مجدها القصى فى القرن الأول الميلادى، فأصبحت فى زمنها دولة تجارية كبرى فى العالم آنذاك، وساعدها مركزها الاستراتيجى جغرافياً على الإمساك بعنان تجارة العالم حينها، فما كان ممكناً أن تمر تجارة عبر أى خط من خطوط الجهات الأصلية للعالم القديم، دون المرور على دولة الأنباط. وقد أمسى واضحاً أن توسع تلك الدولة حتى دمشق شمالاً، كان القصد منه الإحاطة بمساحة الخطوط التجارية جميعاً بين الشرق

والغرب والشمال والجنوب، فتحكمت تماما فى طرق التجارة، ووقفت تضغط بمكوسها وجباتها الجمركية الباهظة على عصب حياة الدول المحيطة بها جميعاً، فاكسبت عداها جميعاً.

وكانت منتجات العالم القديم من بخور و عطور و مواد طبية و منسوجات و حرائر، تجد طريقها أولاً - عند العبور - إلى مخازن مدينة البتراء، ومن ثم وجدت روما أن دولة الأنباط قد توسعت على حسابها أكثر مما ينبغي، وحققت ثراء فاحشاً قد يغريها بمزيد من الأطماع التوسعية. فدخلت البتراء صراعاً مريعاً مع روما الإمبراطورية، ووقفت نداً شديداً لمراس لها. ولم يجد الرومان من سبيل سوى خطة طويلة النفس، بدأت بإيجاد طرق أخرى فرعية بديلة لطرق التجارة التى تمر ببلاد الأنباط لضربها اقتصادياً. وما إن بدأت بؤادر الضعف تظهر على دولة التجار، حتى حان وقت الضربة القاضية، فوجهت روما نحوها حملتها الكبرى، لتحتلها عام ١٠٦ ميلادية، وتحولها إلى ولاية رومانية تابعة، ثم عاملتها بإهمال شديد نكاية فى مقاومتها السالفة. ولم يأت القرن السابع الميلادى، حتى كان آخر ضوء خافت للبتراء يضيع باهتاً فى الألوان البارزة لأفق التاريخ، وضاعت معالمها من ذاكرة الإنسانية تماماً، وظلت فى عزلتها الصخرية، حتى أعاد اكتشافها وتذكير العالم بها، الرحالة السويسرى (بوركها ردت).

وإلى الشمال الغربى من عاصمة الأنباط تقع بركة (باران) [التي نراها تلك المذكورة فى الكتاب المقدس باسم (فاران)]، وهى البركة التى تقول الأسطورة: إن هاجر محظية إبراهيم قد أخذت إليها ولدها إسماعيل بعد ما طردها سيدها إبراهيم هى وولدها بأوامر من زوجته سارة، بدوافع الغيرة والصراع على الميراث، حسبما جاء بالمقدس التوراتى. ونعلم من سلسال النسب التوراتى أن (إسماعيل) نشأ وربى يافعا فى بركة (باران) / فاران)، وتزوج من العماليق، مما يعنى أن العماليق كانوا من سكان تلك المواضع، وأنجب أولاداً كان أشهرهم ذلك الذى حمل فى التوراة الاسم (نابوت)، وهو بلا شك ذلك الذى ذكره التأريخ الإسلامى باسم (نابت) ابن إسماعيل. وهنا لابد أن تبرق فى الذهن علاقة نابت الذى سكن غربى البتراء فى فاران، والشعب الذى جاعنا ذكره قاطناً للمنطقة ذاتها، باسم (الأنباط) جمع (نابط) أو (نابت)، بالبلاد التى أطلق عليها المصريون اسم (بنط) أو بنت.

وكى تدخل مدينة الصخر، فعليك فى حال قدومك من الشمال، أن تمر عبر ممر طبيعى شديد الضيق، ينتهى بك مباشرة إلى قلب العاصمة، يطلق عليه سكان المنطقة الآن اسم (السيق)، ويبدو أن الاسم تلوين لهجوى على كلمة الشق، فهو بالفعل شق - يثير الرهبة العظيمة - فى جبل هائل، ويبلغ عرض السيق فى أغلب المناطق مترين، ويتسع فى بعضها إلى عشرة أمتار تقريباً، أما بعض مناطقه فربما لا يمكنك أن تدور فيها بحصانك.

ويعتمد الأهليون هناك الآن فى معاشهم على السياحة، وأهمها تأجير الخيول للسائحين لعبور السيق، وهو العبور الذى يستغرق حوالى نصف ساعة رهبانية، بين حائطين جبليين عظيمين يكادا ينطبقا، ويكادا يخفيان ضوء النهار فى ذلك الشق الأخدودى الذى ترتفع حوائطه الجبلية حوالى مائة متر أو يزيد حسب تقديراتى الشخصية.

وبعبور السيق تخرج إلى ضوء النهار الفسيح الفصيح مرة أخرى، لتجد في مواجهتك مباشرة ذلك الأثر الهائل الذى يخطف بصرك وعقلك وقلبك معاً، ذلك الجمال المتفرد الذى يطلق عليه أهالى المنطقة اسم الخزنة أو خزنة فرعون، وهو حفر عظيم ونحت هائل فى صخور الجبل المواجه لمخرج السيق. يشهد لبُناة بالعظمة القادرة، ويعد من بين أروع آثار الدنيا، وأعجب فنون النحت فى تاريخ العالم، فى صخر ملون يقع فى النفس موقع الجليل، لا تملك معه النفس من الرهبة سوى أن تسرى برجفتها فى الجسد تواضعاً أمامه.

وعند دخولك الخزنة ستجد نفسك فى غرفة كبرى، مساحتها حوالى أربعون قدماً مربعاً، غير مزخرفة، تقضى بالداخل إلى غرف كثيرة صغيرة، منها غرفتان كثيفتا الزخرف. وعندما يهدأ روعك وتبدأ فى متابعة دليلك، ستذهب معه إلى مدرج المسرح الكبير، الذى نحت بدوره فى الصخر نحتاً، كل شئ هنا منحوت فى الصخر، حتى مقاعد المتفرجين الأربعة آلاف قد حُفرت على هيئة مدرجات فى الصخر، مكونة من ثلاثة وثلاثون صفاً من المقاعد المنحوتة، كذلك ضريح الجرة، وهو حفر عميق فى الصخر صنع من المكان قاعة شبه مربعة، يبلغ طول الضلع فيها حوالى عشرين متراً. ولا تملك سوى الانبهار بكم العروق الملونة فى الصخر والحجر، الأبيض والأسود والأحمر والأخضر، وما بينهما من درجات لونية، أحجار ليست ككل الأحجار، فهى إعجاز فنى، لكنه من فنون الطبيعة البكر.

وبعد المسرح بمسافة قصيرة تصل إلى وادى بتراء، وكله معالم أثرية نحتت على الجانبين. فعلى يمينك جدار الخبئة الكثيف، وعلى يسارك سلسلة جبل العطوف، وهناك ممر رملى يستدير حول العطوف متجهاً نحو الغرب، حتى يصل إلى بداية الشارع المسقوف. وهناك منحدران: الأول يستمر قدماً حتى يصل إلى مسافة أبعد نحو الشمال الشرقى، حيث يوقفك فى مواجهة قصر (بنت) أو قصر (البنت)، كما يسميه السكان الآن هناك، وكان فيما يبدو قصر الحكم ومركز الإدارة، أو أن تختار المنحدر الثانى عن يمينك، فيصل بك إلى ما يسمى القبور الملكية. وعند الاقتراب من الشارع المسقوف لابد أنك ستصاب بدهشة بالغة، عندما تجد بقايا نافورة عامة كبرى، تقع عند ملتقى وادى موسى بوادى متاهة، وهو الأمر الذى يشير إلى وفرة عظيمة فى الماء فى ذلك الزمان.

وبالعودة إلى الطريق الرئيسى الذى ينفث على الجبال المحيطة بالمدينة، ستجد مساحة واسعة كانت فيما يبدو سوق المدينة فى عصور ازدهارها، وينتهى ميدان السوق بشارع تم تهيئته بالصخر وتزيينه بقوس نصر، وعلى يساره يقع قصر (بنت) الذى يرتفع سامقاً عشرين متراً أو يزيد، أما الأكثر دلالة فهو أن أهل المنطقة يطلقون عليه تبادلياً مع اسمه (قصر البنت) اسماً آخر هو (قصر الفرعون) ثم اسماً ثالثاً هو (قصر بنت فرعون). لكن الصيغة المتواترة عند سكان المنطقة هى فقط (قصر البنت).

وإضافة إلى ظاهرة النحت تترافق ظاهرة إقامة المباني عالية فوق أعمدة منحوتة من الصخر، ونموذجاً لها قصر البنت هذا، كذلك المبنى المسمى بالدير، وعدد آخر من البيوت المقامة فوق أعمدة، لتفسير لرفعها هذا عن الأرض، سوى تعرض تلك الأراضي فى بعض فترات العام إلى الغمر بمياه السيول المتدفقة من الوديان إلى البتراء.

وقد بنى قصر (بنت) على مرتفع عظيم من الحجر الملون، مزخرف من الداخل بالجص، ويقف على منصة عالية من أفاريز الأعمدة، ومن هنا يمكنك أن ترى غير بعيد منك، صخرة الحيس المسماة بالقلعة، والتي لم يتبق من آثار فوقها سوى كسر فخار وبعض الخرائب. وعلى الجانب الشرقى لصخرة الحيس يمكنك الاستمتاع بزيارة معبد قوس قزح، الذى يطابق مسماه واقعه، فهو قطعة فريدة من الجمال اللوني المتمازج.

وفى الجوار قمة شاهقة منيعة تسمى الآن أم البيار، اكتشفت عليها كسر خزفية قديمة من زمن الآدوميين، وبقايا قلعة آدومية. وقد ذهب البعض إلى أن أم البيار كانت هى عاصمة بلاد آدوم الواردة فى التوراة باسم (سالع). وترتفع أم البيار من زاويتها الشمالية الغربية نحو ٣٧٧٢ قدما فوق سطح البحر، ومن هنا يمكنك أن تعد حولك على مدى بصرك ثلاثة عشر مبنى تطل جميعا على العاصمة، ومن حواليك فوق صخره الحيس ستجد أحواضا ضخمة عميقة، كانت فيما يبدو مخازن للمياه زمن مجد البتراء، ويمكنك ببعض الجهد أن تصل إلى القنوات التى حفرت فى الصخر لتجرى المياه من خلالها .

وبعد المبنى الذى يطلق عليه الآن اسم الدير، أضخم آثار مملكة الأنباط، ويقع على قمة جبل (إنهم شعب يسكن دوما المرتفعات والعليات)، ويرتفع هذا الجبل حوالى نصف كيلو متر، تصلك به من السفح سلالم صخرية تم نحتها فى ذلك الجبل تدرجا نحو القمة. أما الدير نفسه فترتفع مبانيه حوالى خمسة وأربعين مترا، ولا تقل واجهته بحال عن سبعين متر طولاً، وهى الواجهة التى تقف بدورها على أعمدة تعلوها النيجان ومن فوقها الشرفات المنحوتة تذكرنا بنموذج الدير البحرى الذى أقامته حثشبوت بعد بعثتها إلى بلاد بونت.

أما بقايا آثار الحياة القديمة، التى كانت تضج بها عاصمة الأنباط فتظهر واضحة فى القنوات الجافة المحفورة صناعيا فى الصخور، وتمتد حتى وادى موسى، عندما كانت مياه العيون فى عنفوان تدفقها تروى جنة البتراء. وحتى الآن تنتشر فى المنطقة شجيرات برية تكاد تكون خاصة بهذه المنطقة، وزهوراً برية تضى على المكان مزيداً من الجلال، وحتى الآن لاتزال قرية وادى موسى تزرع على مياه الينابيع التى أخذت فى الخفوت بعد مرور عشرات القرون، القمح والشعير والبقوليات، مع مزارع كروم ورمان ونفاح وتين.

ورغم أن زمن الأنباط كان آخر أضواء المنطقة، مما يشير إلى ذبول مماثل قد حدث على الترافق للينابيع المتدفقة هناك، فإن (ديودور الصقلى) قد سجل فى القرن الأول الميلادى، أن الأنباط كانوا أغنى أهل زمانهم، وأن ثروتهم الرئيسية جاءتهم من التجارة التى كانوا يحملونها من الجنوب إلى الشمال، وإلى بلاد مصر والشام وإمبراطورية الروم، وأنهم كانوا يتاجرون بكل شئ يقع تحت أيديهم، حتى الزفت والقار الطافح على سطح البحر الميت، كانوا يحملونه إلى مصر، باعتباره من مواد التحنيط الرئيسية.

وهنا يتساءل المؤرخون: " كيف تأتى لهم أن يصبحوا أمة زراعية، تعنى بأدق طرق الرى وسائله، ومتى أحرزوا تلك القدرة على الفن المعماري، ومتى قبض لهم أن يتفوقوا فى فن النحت، ومن أين ومتى

اقتبسوا ذلك النظام الإدارى الدقيق، وتلك الديمقراطية الفذة؟ أسئلة كثيرة لا نملك إجابة لها. ولكن الحقيقة تقف أمامنا ساطعة، وهى أننا إزاء تطور خطير جرى .. ويشهد استرابو .. أن بلادهم كانت غنية بالفواكه، وأن مدينتهم نفسها كانت تشتمل على حدائق .. حتى ليقول استرابو أنهم جد شغوفين بالإحتياز والملك .. وأصبحت بترا ملتقى الناس من شتى الأمم، وأصبحت قاعات المحاكم فيها تغص بالغرباء .^(١)

وإذا كان الدلفين من الآلهة الهامة المعبودة فى ذلك المكان الصخرى، حسب التماثيل الكثيرة التى وجدت هناك للحوت من نوع الدلفين، فهو يشير إلى علاقة واضحة بالبحر، وأن النشاط التجارى هناك لم يقتصر على الرحلات البرية وحدها.

أما الأشد إبهاراً، فهو أن تجول عينك فى الجبال حولك، لتطالع تلك الأبنية المقامة على الأعمدة، والتى تتوازي مع فوهات الكهوف التى حفروها فى الجبال حفراً، على مدرجات الصخور، وهى الكهوف التى لا شك كانت مساكن لاقبور كما يقال الآن. مساكن فريدة تنتثر فى صفحات واجهة الجبال فى الأعلى، كما لو كانت أعشاشاً للنحل لمن يراها من بعيد، يصلون إليها بمدرجات صخرية، ثم سلال خشبية بينما تنتشر الدرجات الصخرية المؤدية إليها فى منحنيات السفوح لتصلك بأعلىها، لكنك دوماً وفى أى موقع، بحاجة إلى سلم خشبى نقال، يضعك فى مواجهة فتحة غائرة لكهف من كهوف بيوت الصخر.

والآن يمكننا القول: إن كل هذا العرض لم يكن فقط لمجرد التعرف على منطقة بلاد آدوم، وعاصمتها (سالع) بل بغرض أشمل من ذلك وأكبر، حيث تقوم فرضيتنا الأساسية فى هذا الجزء من العمل، على أن بلاد بونت التى جاء ذكرها متكرراً فى النصوص المصرية، وما جاء بشأن تفاصيلها الدقيقة فى لوحات حتشبسوت بالدير البحرى، والتى عرفت باسم (أرض الإله)، وكانت بلاداً تستحق تجريد الحملات عليها بين حين وآخر، كما تستحق الزيارات الودية للتبادل التجارى فى أحيان أخرى، وباعتبارها مع ذلك بلاداً ذات صلات حميمة بمصر، للحد الذى لم يرسم فيه المخصص الهيروغلى للبلاد الأجنبية، عند ورود اسم بونت فى المدونات المصرية. إن بونت هذه إطلاقاً لم تكن تقع فى إفريقيا، ولا على سواحل عمان، ولا فى اليمن، ولا على سواحل عسير بجزيرة العرب الغربية، ولا هى فلسطين زمن سليمان كما ذهب (فليكوفسكى)، حيث ارتحل (فليكوفسكى) ذات الرحلة بالحمة من مصر إلى العقبة لكن كى تزور حتشبسوت الملك سليمان الإسرائيلى فى أورشليم بحسبانها هى ملكة سبأ فيما يزعم، ولا هى فى بلاد الهند أو أمريكا، إنما هى على وجه التحديد حسبما جمعنا من مادة علمية هائلة كما وكيفا، وما حشدنا من قرائن وبراهين وأدلة ستتالى فى مواضعها من هذا العمل، هى تلك البلاد التى ذكرتها نصوص مصر باسم آخر هو بلاد ميتانى. وحسب نظريتنا لا تقع (ميتان) بعاصمتها الكبرى فى أعالي الرافدين بين الخابور والفرات، إنما تقع تماماً فى المساحة التى ذكرها الكتاب المقدس باسم آدوم، على الحدود الشرقية لسيناء، حيث عاش الشعب الحورى الغامض، بلغته الغامضة، وتاريخه الغامض، ذلك الشعب الموصوف بأنه شعب أحمر، وفى هذه الحال يكون الميناء الذى استقبل سفن حتشبسوت فى بلاد بونت، هو أحد الموانئ القديمة الواقعة على رأس خليج العقبة.

(١) إحسان عباس: تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق، عمان، ١٩٨٧، ص ٣٥، ٣٦.

وإذا كانت عاصمة تلك البلاد زمن الآدوميين القديم قد حملت اسم سالع، فإننا نجد لهذا الاسم مطابقاً مدهشاً في نصوص حتشبسوت التي تحدثت عن مدينة كبرى في بلاد بونت تحمل اسم (أوزالت) ^(٢) أو (أوسالعت) الذي يتطابق مع اسم سالع تماماً، وهي المدينة التي حملت اسم البتراء مع آخر ضوء باهت لها زمن الأنباط. والحقيقة أن كليهما (سالع) و (البتراء) يعنيان معنى واحداً يدل على طبيعة المكان ومناعته، فالمعنى هو كما سلف (صخرة).

وفي قاموس الكتاب المقدس نقرأ تحت مادة (سالع) :

اسم عبراني معناه: صخرة، وهي أمتع موقع في أرض آدوم، كان يهرع إليها الآدوميون كقلعة حصينة لا تقهر وقت الحصار الحربي، لأنها تقع على قمة جبل .. وقد أقام سكانها في الأعلى في شقوق الصخر .. في القرن الرابع قبل الميلاد انتقلت بترا من الآدوميين إلى العرب النبطيين، الذين جعلوها أفضل البقاع الزراعية، بفضل نظام الري الرائع وخزانات المياه، فعمروا الصحراء، كما استخدموا أفضل الأساليب الحربية المعروفة وقتئذ وأدخلوا عليها التحسينات، وكانت بلادهم مركز التجارة القادمة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، وكانت الأسرة الحاكمة تضم عدداً من الملوك باسم الحارث، وقد ورد ذكرهم في : ٢ كورنثوس ١١ / ٣٢ .

انتهت مملكة النبطيين سنة ١٠٥ بعد المسيح، عندما هاجمها الإمبراطور الروماني تراجان، وصارت مدينة الصحراء العربية الجميلة مقاطعة رومانية. وقد كشف مكانها المستكشف والرائد المشهور بركهاردت عام ١٨١٢ م، بعد أن أُخربت في عام ٦٢٩ فتمت فيها نبوءة إرميا ١٦/٤٩ ، ١٧. ويزور سالع اليوم سياح كثيرون، ويمكن الوصول إليها من جهة الشرق عن طريق جسر اسمه السيق، ويبلغ طوله ميلاً واحداً، وهو محاط من جميع نواحيه بصخور ذات ألوان طبيعية رائعة، تختلف من فعل الماء، ويسمى هذا الجسر أيضاً

(٢) عبد المنعم عبد الحليم: موجز رسالتيه للماجستير والدكتوراه، (كراسة على الآلة الكاتبة) ص ٢٦ .

بواى موسى، ويزعم الأعراب الساكنون هناك أنه
تخلف عندما ضرب موسى الصخر بعصاته، ويخترق
الوادي. طولاً نهر صغير اسمه عين موسى، وجدران
الوادي من صخور رملية منضدة بألوان قرمزية ونيلية
وصفراء وإرجوانية .. واسم قلعة سالع اليوم
أم البيار

والتعبير (أم البيار) يشير مرة أخرى إلى تلك الأزمنة الخوالي عندما كانت العيون المتدفقة بأنهارها
تروى جنات آدوم، لأن البيار هي البقعة الخصيبة، فما بالنا وهي (أم البيار). وبالكتاب المقدس سفر باسم
(عوبيديا) كرس نفسه وقصرها على صب اللعنات على بلاد آدوم، تقول بعض مقاطعه:

رؤيا عوبيديا: هكذا قال السيد الرب عن آدوم .. إني قد
جعلتك صغيراً بين الأمم، انت محتقر جداً ، تكبر قلبك
قد خدعك أيها الساكن في محاجئ الصخر، رفعه مقعده
القائل في قلبه: من يحدرنى إلى الأرض؟ إن كنت
ترتفع كالنسر، وإن كان عشك موضوعاً بين النجوم،
فمن هناك أحدرك، يقول الرب.

عوبيديا / ١ - ٤

أما أن ذلك الموضع الفريد، كان من بين أغنى المواضع الخصيبة المزروعة بالمنطقة، فهو ما يمكن
استنتاجه من قصة لوط بالتوراة، وهو يرحل بأهل بيته وممتلكاته ميمماً إلى المنطقة الواقعة شمالى آدوم
المعروفة بدائرة الأردن، عند جنوبى البحر الميت، ليقيم هناك، شارحاً سبب هذا الاختيار فى قول النص:

.. فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن، أن جميعها
سقى الرب قبلما أخرب سدوم وعمورة، كجنة الرب
كأرض مصر. حين تجئ إلى صوغر .

تكوين ١٣/١٠

ولم تزل صوغر حتى الآن قائمة باسمها القديم التاريخي جنوبى البحر الميت فى بلاد آدوم. أما قول
التوراة أنها كانت جنة قبل أن يخربها الإله، فهو ما يستدعى ذكريات قديمة دونها المؤرخ (أورسيوس /
هروشيوش) فى قوله:

وقد وصف الفلاسفة فى كتبهم بلداً كان يقع فى أفنية
العرب، يدعى فى ذلك الزمان (بنطابلس) سكنه قوم
من بنى كنعان، أحرقتة نار نزلت عليه من السماء (٣)

والتعبير (بنطابلس) تعبير يونانى يعنى المدن الخمس أو الخماسية، لكنه أيضاً (بنط - بوليس) الذى
يعنى أيضاً (بلاد بونت). وسنرى أن تلك المنطقة قد اشتملت دوماً على بلاد سميت بالأرقام، فأصحابها كان
لهم اهتمام خاص بالأرقام لأنهم تجار، مثل مدينة (أربع) وهى حبرون (الخليل حالياً) ومثل مدينة السبعة أو
(ببر سبع) .. إلخ . والمعلوم أن المنطقة الخماسية كانت هى بلاد آدوم تحديداً لاشتمالها على خمس مدن
ممالك متحالفة، سيأتى تفصيل ذكرها فى حينه.

ومثلما كانت بلاد بونت لغزاً غير محلول، فإن اسمها نفسه لم يجد حلاً ولم يزل يحير العلماء حتى
الآن، وهل كان اسماً له معنى؟ وهنا نسوق اجتهادات افتراضية ربما تكون مصيبة وربما تكون خاطئة، فربما
كانت تعنى ما تعنيه فى اليونانية (البلاد الخماسية)، ثم هناك افتراضات أخرى نؤجلها لموضعها من البحث،
ونطرح الثانى وهو أن بونت مؤنث (بون)، والبون هو الحجر القمعى المخروطى الهرمى، وهو ما تجده فى
تسمية الحجر الهرمى المقدس فى مصر القديمة (بن - بن)، وعادة ما كانت قمة المسلة ترمز إلى ذلك
الحجر. والمقصود أن (بونت) تحمل بذلك شرحاً لمعنى وصورة جغرافية صادقة لجبال البتراء الحورية، أى
أن (بونت) بدورها كانت تعنى الصخرة، واسمها يلتقى مع الأنباط، أى سكان الصخر أو الصخريين، وهم من
قلنا أنهم ينتسبون باسمهم إلى نابت أو (نبت) ابن اسماعيل بن إبراهيم، واسمه بالقلب (بنت). وإذا كانت
البتراء هى بلاد بونت كما نزعم، فإن ذلك يفسر لنا الحكمة فى رحلة حتشبسوت إلى بونت، ومن قبلها فيالوق
القائد العسكرى حنو، وكليهما كان أهم ما سعى لجلبه من هناك إضافة إلى البخور، أحجار بلاد بونت. وما
كان ممكناً إدراك الحكمة فى بعثة تسافر عبر المياه وعبر الياوس لتحضر أحجاراً، لولا أن أحجار البتراء
تحديداً ليست ككل الأحجار، لأنها كانت إعجازاً طبيعياً فنياً حقيقياً. أما اسم بلاد بونت فقد حفرت - فى رأينا
- الأجيال، ممثلاً فى الأثر الذى يطلق عليه الأهالى هناك اسم (قصر البنت) أو (قصر بنت)، الذى كان
مركزاً للحكم والإدارة.

لكن التفسير المعتاد لبيوت بلاد بونت فى لوحات حتشبسوت، يقول: إن تلك البيوت أكواخ من القش
بنيت فوق أعمدة وتناثرت وسط غابات أشجار اللبان، ولأنها أكواخ فقد تطابقت لدى الباحثين مع الأكواخ
الأفريقية بالصومال. وحتى لو افترضنا أنها أكواخ، فربما كانت تصوراً لمساكن أحد موانئ العقبة الذى
نظنه عصيون جابر الميناء القديم فلم يزل الأهليون فى هذه المناطق يبنون بيوتهم (ويسمونها : عشش) فوق
أربعة أعمدة من فلول النخل غالباً، ويصعدون إليها بالسلم النقال الذى يتم رفعه ليلاً، وهو الموجود أيضاً فى
محيط نوبيع وطوبية والترايين الآن، لكن بالإمكان هنا أن نضيف توضيحاً شارحاً للوحات بيوت بلاد بونت

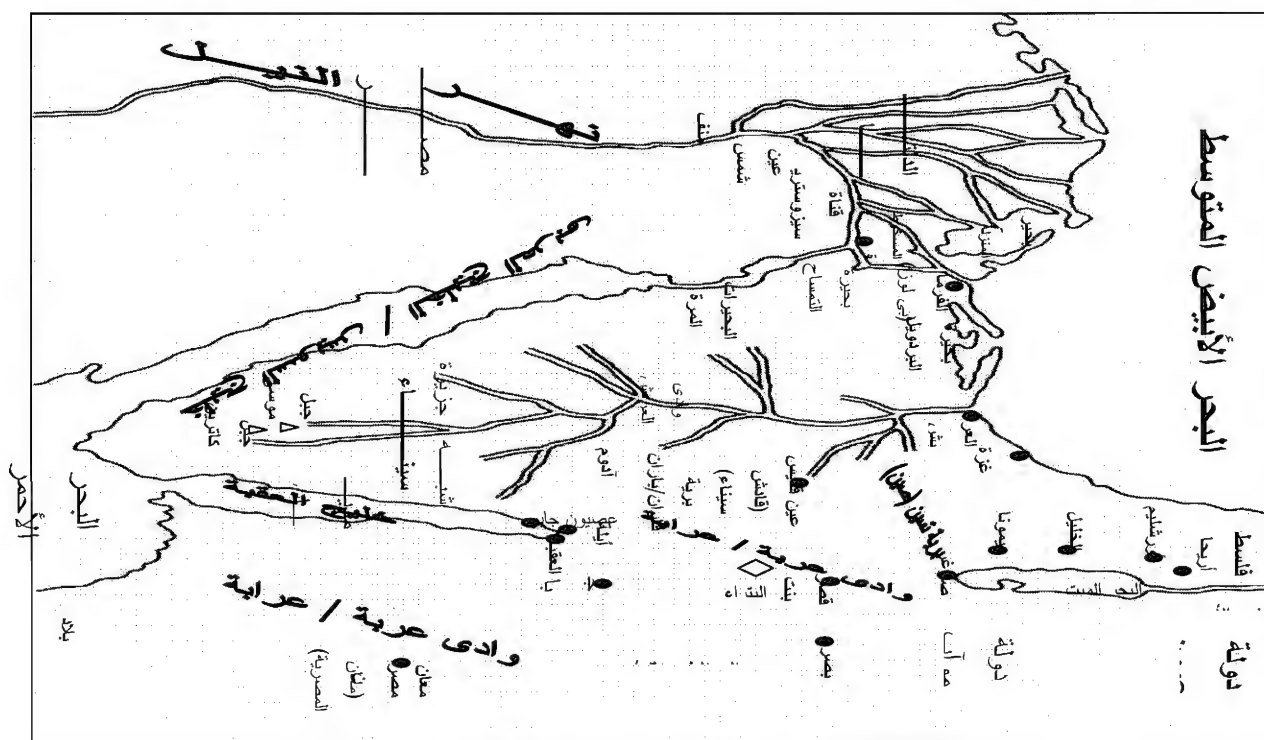
(٣) أورسيوس: تاريخ العالم .. سبق ذكره ، ص ٩٤ .

فى جداريات حتشبسوت يمكن أن يحيلها إلى البتراء نفسها، وأن عناصر اللوحات جمعت بين الميناء والعاصمة. حيث نجد فى اللوحات متكررات مع اسم الزعيم البونتي، للمخصص الهيروغليفى لعلامة الجبال يتكرر عدة مرات، ومن هنا نفترض أن الجبال كانت هى خلفية اللوحات التى نقشت عليها بقية التفاصيل. أما القول أن تلك المساكن كانت أكوخا تنتشر بين أشجار اللبان ونوع من النخيل، فهو القول الذى دعانا لإعادة تأمل اللوحات، لنكتشف أن خطوط تلك البيوت لم تتقاطع مرة واحدة فوق خطوط النخيل والأشجار، بل العكس كان هو القائم فى كل اللوحات، حيث تتقاطع خطوط الأشجار فوق خطوط البيوت، مما يشير إلى أن الفنان وهو يقدم تقريره للملكة وللتاريخ، يريد القول أن البيوت لم تكن تنتشر بين الأشجار، إنما هى فى خلفية اللوحات ومؤخرة المنظر، لصيقة بالخلفية الجبلية، أو منحوتة فيها.

ولعل تلك الصورة القديمة لبيوت بونت فى لوحات حتشبسوت، هى الأصل القديم الابتدائى للنماذج الفنية الراقية، التى تطورت بعد ذلك حتى بلغت غايتها زمن الأنباط، بتأثير الفنون المصرية والرومانية، لتدخل على الأعمدة القديمة الزخرفة والتيجان، وبالمقارنة بين مشهد مثل مشهد الخزنة فى البتراء، وبين مشهد لبيت بونتي فى لوحات حتشبسوت، يكشف لنا أن بيوت بونت كانت الخطوط الرئيسية الأولى القديمة لمساكن الآدوميين الحور والتى ظلت فكرتها قائمة حتى زمن الرومان فى النحوت الحالية هناك.

ومن جانبه يفيدنا علم النبات، أن اللبان يحتاج فى زراعته إلى مواضع جبلية مرتفعة، بحيث يحيطه مناخ ملبد بالسحب والغيوم، مع جفاف نسبي، وهى جميعاً الأمور التى تجد نموذجها المثالى فى البتراء ومحيطها. وقد اختلف الباحثون حول نوع البخور المستقدم من بونت إلى مصر لذلك سنستخدم كلمة اللبان بشكل عام كلما وردت الإشارة إلى بخور بونت. وهكذا يكون تحديد بلاد آدوم بأنها هى ذات بلاد بونت حلا لمشاكل كثيرة غير محلولة، فالآن يمكننا أن نفهم لماذا لم يضع المصريون علامة البلاد الأجنبية على بلاد بونت؟ لأنها كانت آخر الحدود المصرية الشرقية. ثم نفهم لماذا سمح الفرعون بتزويج أميرة من البيت المصرى المالك (ملك آدومى لاجئ إلى مصر) رغم أن القانون المصرى كان لا يسمح بزواج المصرية من أجنبي. فقد كان الملك الآدومى فى عرف الاستراتيجية المصرية مصرىاً يحكم فى مقاطعة مصرية. ثم نفهم أيضاً لماذا سجل الفنان المصرى رحلة الذهاب أولاً عبر الصحراء الشرقية المصرية من فقط إلى القصير على البحر الأحمر، ثم سجل الرحلة البحرية من ميناء القصير إلى بلاد بونت، ثم عودته بالرحلة مباشرة بالسفن إلى طيبة / الأقصر عاصمة الإمبراطورية المصرية، وقد كان هذا مثار حيرة الباحثين طويلاً، أولئك الباحثين الذين ذهبوا بالرحلة عبر البحر الأحمر جنوباً إلى الصومال وأريتريا واليمن، حيث كان لابد عند العودة على البحر الأحمر النزول فى ميناء القصير مرة أخرى، ثم اتخاذ الطريق البرى عبر الصحراء إلى النيل عند فقط شمالى طيبة مباشرة، وهو ما لم يسجله الفنان المصرى. وهنا قيل أن الفنان قد أغفل ذكر الطريق البرى فى العودة، وهو الأمر غير المقنع إطلاقاً مع ذلك التقرير الدقيق الشامل. وظل التساؤل: كيف عادت السفن مباشرة بالنيل إلى طيبة دون المرور بطريق برى؟ وهو ما سبق إلى إكتشافه فليكوفسكى لكنه قال إن الرحلة كانت لزيارة الملكة حتشبسوت لملكة سليمان اليهودية، وهو أيضاً الأمر الذى دعا الباحث

(هيرتزوج Hrzog) إلى القول أن الرحلة كانت إلى الصومال بالإبحار في النيل نفسه إلى السودان وليس عبر البحر الأحمر. المهم أن تجاهل الفنان العودة بطريق البر بعد الوصول إلى ميناء القصير على البحر الأحمر ظل لغزاً يبحث عن حل، لكن في ضوء اكتشافنا لبلاد آدوم باعتبارها بلاد بونت لن تكون هناك أية مشاكل في العودة بالسفن مباشرة إلى طيبة. فهذه السفن سبق وبنيت في ميناء القصير على البحر الأحمر لرحلة الذهاب البحرية، وانطلقت من القصير إلى بلاد آدوم ثم عادت بالالتفاف حول مثلث شبه جزيرة سيناء لتدخل خليج السويس. وتستلم أول أطراف النيل الشرقية عبر القناة الفرعونية المشهورة باسم قناة سيزوستريس التي كانت تربط السويس بالفرع البوابسطى للنيل. وهو الأمر الذي ناقشناه تفصيلاً للتأكيد على وجود قناة سيزوستريس في ذلك الزمن. إن الفنان المصرى لم يتجاهل أمر العودة البرية إذن بل كان يقدم تقريراً مفصلاً وأفياً ودقيقاً.



جغرافية حقل الأحداث (من وضع المؤلف وتخرجه)



شكل رقم (٩)



شكل رقم (١٠)
بانوراما الخزنة



شكل رقم (١١)
الخنزة صورة لله احمدة



شكل رقم (١٢)
مساكن آدم الكهفية



شكل رقم (١٣)
الخنزة صورة لله احمدة



شكل رقم (١٤)
صورة عن قرب للمساكن الكهفية



شكل رقم (١٥)
صورة عن بعد للمساكن الكهفية



شكل رقم (١٦)
المسرح من عهد تراجان



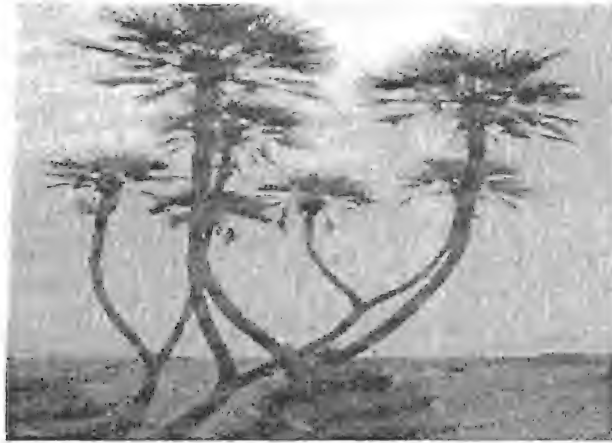
شكل رقم (١٧)
قاعة المحكمة



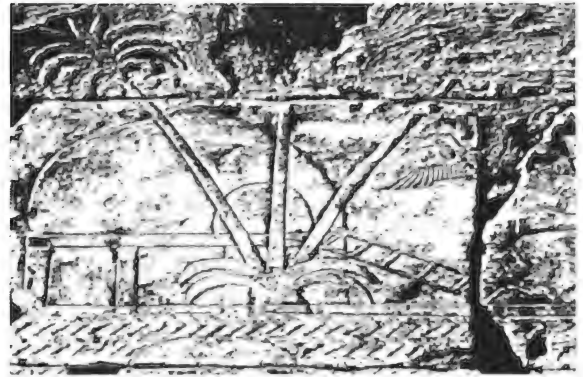
شكل رقم (١٨) قبر القصر



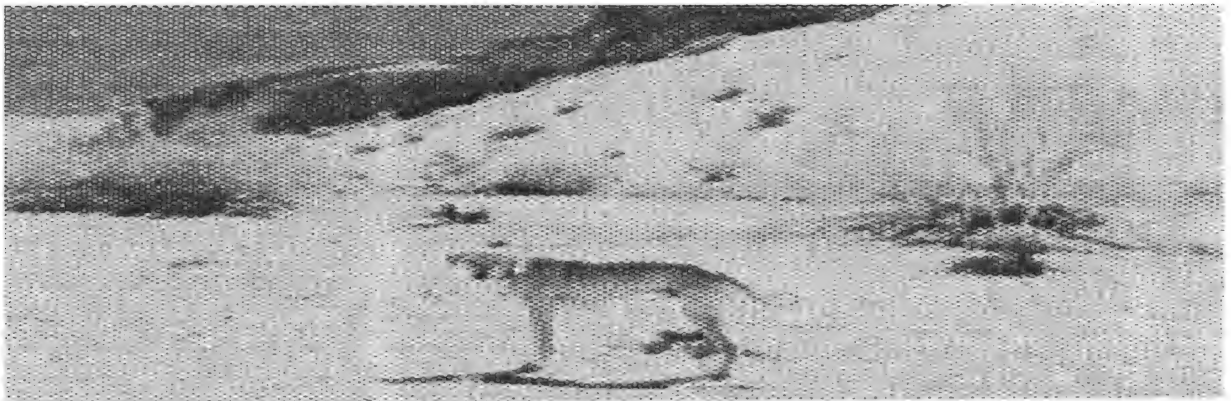
شكل رقم (١٩)
بقايا قصر بنت



شكل رقم (٢١)
نخيل الدوم في العقبة حتى اليوم. يقارن بنخيل يونت في الشكل
المجاور مع ملاحظة تطابق اسم نخيل الدوم مع بلاد أدوم،
ويبدو أنه أخذ اسمه منها.



شكل رقم (٢٠)
نخيل بنت في له حات حتشسبت



شكل رقم (٢٢)
الكلب سلوقي الأصل للفصيلة السلوقية في وادي رم وهو ما سجلته لوحات حتشسبت

حملة تحتمس الثالث على بلاد الفينيقي

طائر الفينيق PHOENIX

فى القصيدة الغزلية السالف الإشارة إليها يشبه الحبيب حبيته جواد الملك الذى تم اختياره من بين ألف حصان أصيل، كما يشبهها بالطيور المهاجرة من بلاد (بونت). فأى طيور تلك التى عرفها المصرى القديم تأتى مصر مهاجرة قادمة من بلاد (بونت)؟

يقول المؤرخ اليونانى (هيرودت) وهو يتحدث عن مصر:

فأما عقوبة الموت فلا مفر منها لمن يقتل أبا منجل أو باشقا سواء ارتكب القتل عمداً أو دون عمد. وهناك طائر آخر مقدس يسمى الفوينكس لم أره إلا مصوراً إذ أنه يزور البلاد فيما ندر، يزورها كل خمسمائة عام على حد قول أهل هليوبوليس (عين شمس). بعض ريش جناحيه ذهبى وبعضه أحمر وهو قريب الشبه جداً من النسر فى هيئته وحجمه .. ويروون أن هذا الطائر يغادر بلاد العرب حاملاً أباه إلى معبد الشمس ليدفنه بهذا المعبد (١).

وهنا نقف فى هذا القص الأسطورى مع اسم الطائر القادم من بلاد العرب (فونكس). وبحذف التصريف الإسمى يصبح الاسم السليم (فون)، ومع اختلاط الفاء بالباء بين اللهجات واللغات فكليهما حرف شفائى فىجب قراءته فى أصله الصادق: طائر (بون) ويؤكد ذلك الذى نسوقه أن المصرى القديم قد دونه منطوقاً باسم طائر (ب.ن.و. B.N.W)، فهو الطائر البونى. وهنا يضيف هيرودت: "يقطع هذا الطائر المسافة كلها من بلاد العرب إلى مصر طائراً حاملاً أباه داخل قالب من المر" (٢). والمر كما نعلم هو صنف من اللبان، إن رموز الأسطورة تفصح عن معانيها.

والطائر البونى لم يكن طائراً عادياً بل طائراً مقدساً، طائراً إلهياً، فقد خلق نفسه بنفسه من رماد شجرة تحترق جاء اسمها باليونانية شجرة البيرسيا المقدسة. والاسم يشير إلى معنى الكلمة لأن بيرسيا تعنى الفارسية، وهى شجرة التين، ويقول معجم أوكسفورد: "البيرسيا شجرة مقدسة فى مصر وفى فارس".

وهنا ننتذكر أن الجنس الحورى الذى سكن بلاد آدم حيث شجر اللبان، كان قيادة الأحلاف وكان من الجنس الآرى، ثم نقرأ بلوتارك إذ يقول: "من بين جميع نبات مصر تُقدس شجره البيرسيا على وجه خاص للإلهة إيزيس لأن ثمرتها تشبه القلب وورقتها اللسان" (٣). والتين نبات سيناوى مشهور، وأقسم به القرآن وربطه بطور سينا

(١) هيرودت يتحدث.. سبق ذكره، ص ١٦٩، ١٧٨.

(٢) أ.ج. أيفانز: هيرودت، ترجمة أمين سلامة، الدار القومية، القاهرة، د.ت، ص ٨٦.

(٣) استرابون: سترابون فى مصر، ترجمة وهيب كامل مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٠٠.

وقصة موسى " والتين والزيتون وطور سينين ". ولو أراد سترابون بها شجرة الجميز لقال ذلك بوضوح، حيث ذهب البعض إلى أن اليبيريا هي شجرة الجميز، حيث يقول سترابون في موضع آخر مفرقا بين الشجرتين: " والسيكامينوس شجرة الجميز تخرج الثمار المسماه سيكومورس لأنها تشبه السيكوم / التين ".^(٤)

ثم نستدعي هنا ما كتبه (سليم حسن) إذ يقول في معرض سرده لقصة بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت، أنها أحضرت من أرض الإله أشجاراً بجذورها وأعادت استزراعها أمام معبد روعة الروائع بالدير البحري. ويقول: " وتدل الكشف الحديثة على أن الأشجار العطرية التي أتت بها من بلاد بونت قد غرست فعلا في حفر نقرت في الصخر أمام المعبد وملئت بالطين الخصب. وقد عثر على هذه الحفر الحفاريون المحدثون في الردهة التي أمام المعبد. وقد وجدوا أن بعضها كان لا يزال محفوظا فيه جذوع الأشجار الجافة، غير أن هذه الأشجار ظهر أنها أشجار بيرييا " ^(٥)

ومن هنا نفهم أن بعثة حتشبسوت قد جاءت بأشجار التين المقدسة لأن علماء الحملة لاشك كانوا يعلمون باستحالة نمو الكندر أو اللبان الذكر/ المر على أنواعه في طيبة حيث معبد روعة الروائع، وفي هذا تحديداً علامة واضحة على أن بلاد بونت إطلاقاً لم تكن الصومال كما يصير بعض أساتذة التاريخ المصري القديم حيث تنمو أشجار الكندر، بل لم تكن في أفريقيا جميعاً.

والكلمة (فونيكس) تنسب الطائر إلى موطنه فهو الفوني أو البوني - كما أسلفنا. منسوباً إلى تلك البلاد الموصوفة بكونها بلاد العرب. وأن تلك البلاد العربية هي موطن مقدس يأتي منه طائر مقدس.

والنصوص المصرية تشير دوماً إلى بلاد بونت بأنها أرض الإله، ومعلوم أيضاً أن الكلمة المصرية القديمة المدونة بالشكل (ب.ن.و) كانت تطلق عموماً على فصائل الطير المعروف في مصر الآن باسم (أبي قردان)، وعلى جميع أقاربه من ذات الفصيلة على مختلف الألوان والأحجام، فمنه الكبير الضخم الذي يزور مصر في هجرات فصلية يتواجد فيها قرب الشहरين، وهو في حجم النسر الضخم فعلاً. وينقل معجم أوكسفورد ذات الأسطورة فيقول: " هو في الأسطورة طائر فريد من نوعه، يحرق نفسه بعد أن يحيا خمسة أو ستة قرون في صحراء العرب، ثم ينتفض من الرماد بشباب متجدد، ليعيش دورة أخرى من الزمان. وقد جاء اسمه من اليونانية PHOENIX التي تعني فينيقي وأرجواني "، والأرجوان هو اللون الأحمر. وهو مايطير بنا إلى بلاد الصخر الأحمر وأصحابها الحمر، بلاد آدوم أو الصخر الأحمر، بلاد الصخر سالع، البتراء، بونت. أما العربية فقد أطلقت على هذا الطائر اسم **العنقاء**. (المصريون أطلقوا عليه أيضاً: **عنقت**) والصفة PHOINOS بوني، كلمة يونانية تعني **الأحمر**، ويذهب (إيفارلسنر) إلى أن الاسم قد أطلق فيما يبدو على أناس ذوي بشرة حمراء ^(٦)، والمعروف أن تلك البلاد جميعاً حتى الساحل اللبناني كان يطلق

(٤) نفسه: ص ١٢٨.

(٥) سليم حسن: مصر القديمة. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٣٣.

(٦) إيفارلسنر: الماضي الحي، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨١، ص ١٠٤.

على شمالها بلاد فينيقيا، وعلى جنوبها بلاد كنعان، والجذر (ك ن ع) بدوره يحمل معنيين: الوديان أو الأرض المنخفضة، واللون الأحمر الأرجواني (٧) .

وعن أصول الجنس الكنعاني يروى لنا (هيرودت) في الفقرة الأولى من الكتاب الأول :

إن هؤلاء القوم جاءوا من سواحل بحر أريتريّة إلى شاطئ
بحرنا، سافروا في البحر مدة طويلة، وحالما استقروا في
البلاد التي اتخذوها موطناً لهم الآن، طفقوا يتاجرون
بالبضائع المصرية والآشورية، بأن ينقلوها إلى عدة
أماكن منها.

وفي الفقرة التاسعة والثمانين من الكتاب السابع، يعود (هيرودت) إلى الفينيقيين فيقول:

والفينيقيون كانوا يسكنون سواحل بحر أريتريّة كما يقولون
هم أنفسهم، وعندما اجتازوا من هناك إلى سواحل سوريا
قطنوها، وهذا القسم من سورية مع كل البلاد التي تمتد إلى
تخوم مصر، يسمى فلسطين.

وبحر (أريتريّة) زمن هيرودت كان اسماً يطلق على البحر الأحمر الآن، (لاحظ: الأحمر مرة أخرى)،
والمدهش أن كلمة أريتريّة نفسها كلمة يونانية تعني الأحمر !!!، لذلك حمل البحر الأريتري بعد ذلك اسم البحر
الأحمر. أما صنعة هؤلاء الحمر المهاجرين من الأحمر فكانت التجارة العالمية، وقد عثر في بيروت على قطعة نقد
هليلينية تؤكد أن الجنس الفينيقي هو ذات عين الجنس الكنعاني، فعلى أحد وجهيها توصف مدينة بيروت بأنها تقع في
كنعان، باللغة الفينيقية، وعلى وجهها الآخر توصف مدينة بيروت في أنها تقع في فينيقيا^(٨). ولو حاولنا هنا العثور
على مؤيد، فإن الحفر اللغوي يجعلنا نعثر على مشابه شديد الشبه لتلك القطعة الهليلينية من النقد، فالكلمة (فينيكيان /
فينيقي) هي بالضبط (بنى كنعان)، لاختلاط الفاء الأولى في فينيقي، بالباء في كلمة (بنى)؛ ومعلوم أن النصوص
المصرية كانت تسميها (باكنعان)^(٩)، وعليه فهي

| | | |
|-------|-----------|-----------------------|
| با | ك ن ع ا ن | (با كنعان) بالمصرية |
| ب ن ي | ك ن ع ا ن | (بنى كنعان) بالسامية |
| ف ن ي | ك ي ا ن | (فينيقيان) باليونانية |

(٧) عز الدين الخير: أضواء عربية في الأسطورة الإغريقية، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق،
عدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨، ص ١٣٢.

(٨) Zallig, S. Harris, A grannar of Phoenician Language, New Haven,

Comm, ١٩٣٦, p,٧ note ٢٩.

(٩) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج٦، ص ٣٨.

أما الكتاب المقدس فكان لازال يصر على تذكيرنا بصفة الأحمر فيقول:
" من ذا الآتى من آدوم بثياب حمراء؟ اشعيا ١/٦٣ " بينما كانت النبوة (دبورة) ترنم أنشودتها:

يارب بخروجك من سعير

بصعودك من صحراء آدوم

الأرض ارتعدت

قضاة ١/٥

فالرب هنا فى صحراء آدوم، إنها صحراء مقدسة، إنها أرض الإله؟! إله عرفه المصريون كإله للمصريين ثم عبده الإسرائيليون من بعد، ويحمل ذلك المكان المقدس اسم سعير، والسعير هو اللهب الأحمر، أما الاسم آدوم نفسه فهو ما يعنى الصخر الأحمر، أما الحمرة واللون الأحمر فهو لون اللهب.

والعنقاء أو الطائر البونى أو البونتى. ينتفض حيا من لهيب شجرة تحترق، وقد ذهب المصروlogي (بدج) إلى أن شجرة البيرسيا يقصد بها شجرة ضخمة تعرف فى الانجليزية باسم SYCAMOR TREE (الجميزة) وهو شجر معمر يعيش قرونا ولا شك أن (بدج) هنا قد أخطأ المراد فهى شجرة التين تحديداً (البيرسيا)، ويرى (بدج) أن مقابلها الهيروغليفى هو (ن ع ر - ت) الذى نطق فى القبطية NIR وفى اليونانية NERION، والغريب أن ذات الشجرة تسمى فى العربية (ناريون) والجذر لجمعها من (نور) و (نار). وقد أطلق المؤرخون على بلاد ميتانى المزعم أنها تقع فى أعالي الفرات بلاد (النايرى) ، وهو الاسم الذى أطلقه الآشوريون على ذات الدولة التى ذكرتها نصوص مصر باسم ميتانى أو نهارين أو (نارين) بإسقاط الهاء بالتخفيف أو تحويلها إلى ألف كما فى هريق الماء وأريق الماء (١٠).

ويبدو أنه كانت هناك شجرة مقدسة فى بلاد (بونت) تعيش عليها طيور مقدسة، وأن هذه الشجرة كانت تسمى الشجرة الحمراء أو النارية، ولا شك لدينا أن (ن ه رن) أو (ن - ح رن) المصرية تتصل فى الجذر مع كلمة حورى وحوريين، والحورى أيضا هو الأحمر، أما أشجار الحور فهى الشجرة المعروفة بزهورها الحمراء القرمزية. ويقول المؤرخ (أحمد بدوى) " إن طائر الفونيكس PHOENIX هو العنقاء بالعربية، أما اسمه المصرى فهو BNW من الفعل المصرى WBN بمعنى أشرق ولمع، فهو البراق أو اللامع، لذلك يتصل بالحجر الهرمى BBNB الذى يرمز به للتل العتيق، الذى برز بدوره من الماء الأزل نون، والطائر يتألا فوقه فيملاً نوره الكون، ويكون صوته أول دوى فى الوجود، وكان كهنة هليوبوليس ينتظرون عودة ذلك الطائر فى شوق " (١١).

وتقول القصص التوراتى: إن النبى موسى عندما هرب من مصر بعد ما قتل مصرى ظلماً، ذهب إلى بلاد تدعى مديان، وتزوج هناك من صفورة ابنة كاهن مديان المدعو باسمين: (رعوئيل / يثرون). والقصص الاسلامى يسمى ذلك الكاهن (شعيب) ويعتبره نبيا. وتقول تلك القصص أنهم كانوا يعبدون شجرة مقدسة سميت (الأيكة)،

(١٠) جاردنر: مصر الفراعنة.. سبق ذكره، ص ٢٢٠.

(١١) أحمد بدوى: حاشية شارحة بكتاب هيروت بتحدث عن مصر.. سبق ذكره، ص ١٧٨.

وأطلقت على السكان هناك اسم (شعب الأيكة)، وتقول أن الله قد أهلك شعب الأيكة، لأنهم كانوا تجاراً جشعين يطففون في الموازين، كما كانوا قطاع طرق وقراصنة محترفين.

ونعود إلى الطائر البونى الذى يسمى المصريون نوعه الصغير الآن بأبى قردان، لنجد أحد تنويعاته فى ذلك الطائر المعروف باسم الفلمنجو، وهو طائر طويل العنق فيه ريشات سوداء، ويغلب عليه اللون الأحمر القرمزى، واسمه الانجليزى FLAMINGO أى الملتهب بحمرة، من FLAME أى لهب، وهو الفصيلة المعروفة باسم البشروش أو النحام، ويكنى بأبى لهب، وهو تحديداً الذى لم يزل يزور مصر للآن فى هجرته الفصلية.

ويساعد الحفر اللغوى هنا على إلقاء الضوء على موطن هذا الطائر الجغرافى بالنسبة لمصر، فالكلمة الكنعانية التى تعنى أحمر تكتب (شرق) أى أن الكلمة الكنعانية شرق تعنى أحمر، وفى العربية: شرق الشئ شرقاً فهو شرق، أى اشتدت حمرة بدم، ومقلوبها بالميتاتيز: قشر، والأقشر هو شديد الحمرة. وفى لسان العرب لابن منظور نقرأ: «الشرق طائر، وجمعه شروق، والشرقاق طائر يكون فى أرض الحرم فى منابت النخيل بقدر الهدد (وكثيراً ما يترافق طائر بهذا الشبه مع وصول هجرة البشروش إلى مصر حتى اليوم / المؤلف) مرقط بحمرة» ومادة شرق والنحام فى مادة نعم «النحام طائر أحمر على خلفة الأوز يقال له بالفارسية سرخ آوى» وآوى كلمة تعنى طائر أما سرخ فهى الأحمر».

هو إذن بالنسبة لمصر: الطائر الشرقى الأحمر، وبلاد (بونت) أو آدوم أو البتراء تقع إلى الشرق من مصر، أما ترنيمة المصرى فكانت « عندما أوجه وجهى نحو الشرق، فإنى أولى وجهى إلى بلاد (بونت)، أرض الإله ».

حملة تحتس الثالث

يقول سليم حسن المؤرخ والمصروولوجست: « إن الرأى السائد الآن، هو .. ان تحتس الأول قد أعقبه على عرش مصر ابنه تحتس الثانى الذى تزوج من أخته من أبيه المسماة (حتشبسوت)، وبعد وفاته خلفه ابنه تحتس الثالث الذى رزقه من زوجة ثانوية تدعى إيزيس، وقد أصبح ملك مصر رسمياً وهو لا يزال طفلاً لم يبلغ الحلم بعد وقد نصبت حتشبسوت.. وعندما قبض على مقاليد الأمور أخذ ينكل بأعدائه، وهم أولئك الذين كانوا فى ركاب حتشبسوت أو عاملين فى بلاطها، ثم أخذ بعد ذلك فى القضاء على كل اثارها بصورة مروعة، يشهد بشناعتها وعنفها ما أحدثته من التدمير والتهشيم فى الدير البحرى » (١٢).

ويتابع (سليم حسن) تحت عنوان: « تحتس الثالث يعلن الحرب على بقايا الهكسوس فى أسيا » قوله إن بقايا الهكسوس بعد طردهم من مصر، انتشروا فى البرارى الشرقية للمتوسط، ولما تولت حتشبسوت اتخذوا - على ما يظهر - من هذا الحادث ذريعة لإعلان الثورة ليتحرروا من ربة الاستعمار المصرى، وقد أعلنت سوريا كلها

(١٢) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٣٨٨، ٣٩٠.

العصيان على مصر .. حتى أصبح لزاماً على الفتى الجسور، ان يقابل حلفاً قوياً مؤلفاً من قبائل أسيا، والولايات التي وطدت العزم على خلع النير المصرى الذى انقل على عاتقهم به تحتتمس الأول وسلفاه من قبله، منذ خمسين سنة مضت،.. كان كل أولئك قد ألفوا حلفاً بقيادة ملك قادش، وهى بلدة على نهر الأورنت/ نهر العاصى حالياً، على مسيرة مائة ميل تقريباً شمالى دمشق.. وسوريا وقتئذ لم تكن مملكة واحدة متحدة الكلمة بطبيعتها، بل كانت مقسمة ولايات صغيرة، يحكم كل منها أميراً أو ملك،.. وأغناها مملكة قادش، وقد أفلح ملكها مؤقتاً فى أن يضم الولايات الأخرى تحت قيادته.

وتعد موقعة مجدو التى قابل فيها تحتتمس الثالث جيوش الحلف السورى، بإمرة حاكم قادش، أول معركة حربية فى تاريخ العالم القديم، قد بقى عنها تفاصيل تذكر، ويرجع الفضل فى ذلك الى اليوميات التى خلفها تحتتمس على أحد جدران معبد الكرنك .. وقد سار بجيشه من قلعة سيلة وهى القنطرة الحالية، فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع، فى فصل الشتاء فى السنة الثانية والعشرين من حكمه، وهذا التاريخ حسب قول (نلسن)، يوافق ١٩ ابريل سنة ١٤٧٩ ق.م. مخترقاً الصحراء التى تقع على الحدود الشرقية لسيناء، والحدود الجنوبية لفلسطين، فوصل غزة بعد مسيرة عشرة أيام، قطع فيها نحو مائة وخمس وعشرين ميلاً، .. ولم يمكث تحتتمس فى غزة إلا سواد ليلة، وفى الصباح المبكر سار على رأس جيشه ميمما شطر يحم/ يحتمل أن تكون يما الحالية، وتقع على مسافة ثمانين ميلاً من غزة « (١٣).

ونطالع الآن معا مادونه المؤرخ المصرى على جدار الكرنك، فنسمعه يطرق بإزميله القصة التالية: « السنة الثالثة والعشرون الشهر الأول من فصل الصيف، اليوم السادس عشر فى بلدة يحم، لقد أمر جلالته أن يعقد مجلس حربى ليتشاور فيه مع رجال جيشه قائلاً: إن ذلكم العدو الخاسئ صاحب قادش، قد جاء بجيشه ونصب خيامه فيها، وهو مقيم بها فى تلك الآونة، وقد ضم إليه كل أمراء الأقاليم، الذين كانوا يدينون بخضوعهم لمصر حتى نهر الفرات، ومعه السوريون وقوم قود، بخیلهم وجنودهم وعشيرتهم، وأنه يقول حسبما وصل إلى مسامعنا: سأقف هنا لمحاربة جلالته فى بلدة مجدو، فحدثونى بما يدور بخلدكم فى هذا الخطب، فأجابوا جلالته قائلين: كيف يتسنى للمرء أن يسير فى هذا المضيق؟ وقد وصلتنا الأخبار بأن العدو على تمام الاستعداد هناك فى خارج المدينة؟ وأن عددهم قد أمسى هائلاً، وهل يكون السير مستطاعاً إلا إذا سار الجواد إثر الجواد والجندى إثر الجندى أيضاً؟ وهلا ستكون مقدمة الجيش - بهذه الطريقة - فى ساحة القتال، فى حين أن المؤخرة لا تزال واقفة هنا فى عارونا عاجزة عن محاربة العدو؟ على أنه يوجد طريقان آخران: واحدة منها تؤدى إلى (تاعناخ)، والأخرى تقع فى الجهة الشمالية من بلدة زفتى مؤدية إلى شمال مجدو، وبذلك لا نضطر إلى سلوك هذا المضيق الوعر »

وهكذا فضل القواد أحد الطريقين: الطريق المؤدى إلى (تاعناخ) ، والطريق الواقع شمال (زفتى) ويؤدى إلى شمال بلدة (مجدو)، واستبعدوا فى الوقت نفسه الطريق الثالث، لأنه كان طريقاً شديداً الضيق، محصوراً بحيث لا يستطيع الجيش عبوره إلا إذا سار الحصان خلف الحصان، والجندى خلف الجندى، وهو ما قد يؤدى إلى كارثة عسكرية، حيث سيظهر جيش مصر لأعدائه فرادى بينما بقية الجيش ستكون قد تكومت عند الطرف الخلفى للطريق فى عارونا، تنتظر دورها فى عبور ذلك المضيق.

(١٣) نفسه: ج ٤، ص ٣٩٥: ٣٩٨.

وهنا نستكمل المشهد من الراوى المصرى على جدار الكرنك، لنستمع إلى الفرعون الشاب وهو يقول:

" إنى ما دمت حيا، وما دام الإله رع يحبنى، وما دام والدى الإله آمون يرعانى، وما دام نفس الحياة ينعشنى بالحياة والقوة، فلن أسلك إلا هذه الطريق المؤدية إلى عارونا، وليذهب منكم من يشاء فى إحد هذين الطريقين الآخرتين اللذين تحدثتم عنهما، وليتبعنى منكم من يريد أن يسلك الطريق التى سيتخذها جلالته لأن الأعداء الذين يمتقتهم رع سيقولون: هل سلك جلالته طريقاً آخر لأنه خاف بأسنا وبطشنا؟ وعندئذ أجابوا جلالته قائلين: ليت الإله آمون والدك رب تيجان الأرض ومساكن الكرنك، يرعى شعبك ويتعهد، تأمل: إننا سنكون فى ركاب جلاتك حيثما توجهت، لأنه من واجب الخادم أن يتبع سيده دائماً، وعندئذ أمر جلالته بإصدار منشور لكل الجيش جاء فيه: إن سيدكم المظفر سيكون فى طليعتكم لاقتحام ذلك المسلك الوعر الضيق، تأملوا: لقد أقسم جلالته يمينا قائلاً: لن أسمح لجيشى المظفر أن يشق طريقه إلا فى هذا المكان، لأن جلالته عزم على أن يتقدم طليعة جيشه بنفسه وقد وزعت التعليمات على كل جندى بالأمر بالزحف، على أن يكون الجواد فى إثر الجواد فى حين أن جلالته كان يسير فى مقدمة جيشه.

وفى السنة الثالثة والعشرين من الشهر الأول من فصل الصيف، اليوم التاسع عشر، استيقظ الفرعون فى السرادق الملكى، الذى كان قد ضرب له فى بلدة عارونا، ثم سار جلالته فى رعاية الإله آمون رب تيجان الأرضين ليفتح الطريق أمامه، وكان الإله آمون يشد ساعد جلالته، وزحف جلالته على رأس جيشه المنظم فرقاً، ولم يجد للعدو أثراً، بل كان قد عسكر بجناحه الأيسر عند بلدة (تاعناخ) فى الوقت الذى كان جناحه الأيمن قد ضرب خيامه، فى المنحنى الجنوبى من وادى قنا.

وقد نادى جلالته: أن سيروا فى هذا الطريق، فالتقى بالعدو فكسره وولى العدو الخاسئ الأذبار ، فيا أيها الجند مجدوا المليك، وتغنوا بشجاعة جلالته، لان ساعده أشد بأساً من أى ملك .. وقد كانت مؤخرة جيش جلالته المظفر لا تزال فى بلدة عارونا، فى حين كانت مقدمته قد برزت فى وادى مجرى قنا حتى ملؤا فم هذا الوادى.

وبعد ذلك انطلق جلالته فى عربته المصنوعة من الذهب النضار، مدججا بدرعه وزرده مثل الإله حور القوى الساعد رب البأس، ومثل الإله منتو إله طيبة، وكذلك كان والده آمون يشد ساعده، وكان جناح جيش جلالته الأيسر يقف على ربوة جنوبى قنا، أما الجناح الأيمن فكان معسكراً فى الشمال الغربى من مجدو، وكان جلالته فى وسطها يحميه الإله آمون فى حومة الوغى، وكانت قوة بأس الإله ست تدب فى أعضائه، ففاز جلالته فوزاً ميبناً، وهو على رأس جيشه؛ وقد رأى الأعداء جلالته والنصر حليفه، لذلك ولوا الأذبار نحو مجدو، بوجوه يغمرها الذعر، تاركين خيلهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة وتسلفوا أسوار هذه المدينة باستعمال ملابسهم لأن أهل المدينة قد أغلقوا أبوابها، لكنهم دلو ملابسهم ليجروهم بها إلى داخل المدينة، ولو أن جنود جلالته لم يتهاكوا على نهب متاع العدو لكان فى استطاعتهم الاستيلاء على مجدو وقتئذ، عندما كان عدو قادش الخاسئ وعدو هذه المدينة، يجرون متسلقين الأسوار ليدخلوا المدينة هرباً، لأن الخوف من جلالته كان قد سرى فى أجسادهم، وضغفت أسلحتهم، لأن الثعبان الذى على جبينه قد طغى عليهم وهزمهم، واستولى جلالته على خيلهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة، غنيمة سهلة، أما صفوف جنودهم فكانوا قد طرحوا أرضاً مثل السمك فى حبال شبكة جيش جلالته

المنتصر.. وقد أخذ كل الجيش بأسباب الفرح، مقدماً الشتاء لآمون لما وهبه من نصر لأبنه في هذا اليوم، وكذلك قدموا الشكر لجلالته مادحين انتصاره، ثم احضروا الغنيمة التي استولوا عليها « (١٤).

وينهى الكاتب المصرى نقشه بقصة حصار مجدوا التي انتهت بسقوطها ثم عودة الملوك المتأمرين إلى بلادهم خاضعين، ونواباً عن فرعون في حكم بلادهم (١٥).

عندما قفزت الفكرة إلى ذهني، أخذت أبحث عن مؤيدات فروضي، فأعدت قراءة ذلك المدون الجداري (تحتمس الثالث) عدة مرات، مما أوقفني على عدة أمور، فربما تحيل الحملة جميعاً على شرقى سيناء، حيث بلاد آدوم الحورية. وقام افتراضى على أن دويلات بلاد الشام وممالكها الصغيرة، التي تتوف على الثلاثمائة مملكة، قد تحالفت جميعاً للقيام بحملة على مصر، شبيهة بحملة الهكسوس، أو أنهم تحالفوا بعدما رنا إلى علمهم ما ينتويه (تحتمس الثالث) فقرروا استباقه وانتقوا أشد المواقع تحصيناً طبيعياً للقاء الجيوش المصرية على حدود مصر الشرقية، وهو ما يعنى وفق هذا التصور الجامح أن المعركة لم تقع عند مجدو/ تل المتسلم حالياً شمال غربى فلسطين، إنما وقعت فى محيط البتراء عاصمة وشمس آدوم، وأن ما حدث كان محاولة من تحتمس الثالث لإجبار تلك الدويلات على الخضوع صاغرة، مع رفضه لأسلوب حتشبسوت السلمى الذى اتبعته برحلتها إلى بونت، والذى أدى إلى تمرد ملوك تلك الدويلات، بعدما لمسوه من تراخى القبضة المصرية زمن حتشبسوت.

وربما وجدت وجهة نظرنا هنا مؤيداً قوياً من المصروولوجى (زيتة) الذى وجد فى مقدمة تاريخ تحتمس الثالث المهشم ما يعتبره إشارة إلى استقرار حامية هكسوسية بعد طردهم من مصر فى شاروحيين جنوبى فلسطين وترجمة الأستاذ زيتة لهذه الفقرة جاءت كالتالى:

السنة الثانية والعشرون، الشهر الرابع من فصل الشتاء،
اليوم الخامس والعشرون، مر جلالته بقلعة ثـارو أول
قلعة مظفرة، ليطرد الذين هاجموا حدود مصر، بشجاعة
ونصر وقوة وفوز. وقد مرت مدة طويلة من السنين كان
فيها الآسيويون يحكمون البلاد اغتصاباً، والكل يخدمون
أمام .. (المكان تالف) وقد .. (تالف) فى أزمان أخرى
.. (تالف) أن الحامية التى كانت هناك كانت فى مدينة
شاروحيين، وهم الآن من يرذ حتى نهاية الأرض، فى
استعداد للثورة على جلالته (١٦)

وقد دفعنا إلى هذا الافتراض دفعاً عدد من العناصر، أهمها ما سبق وحددناه كموقع لقادش سيناء غربى البتراء، على تخوم دولة آدوم مباشرة فى الوضع الذى قدر المكتشف (رولاند) عام ١٨٤٢ م أنه عين قديس الوارد فى التوراة باسم (قادش برنيع) (وقادش عين مشفاط) وأيده فيه بعد حوالى أربعين عاماً المكتشف (ترامبول). وعين

(١٤) نفسه: ج٤، ص ٣٩٨ : ٤٠١.

(١٥) Breasted . J.H, Ancient Egyptian Records, Vo ١٢, P٥٥٤

(١٦) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج٤، ص ١٤٨، ١٤٩.

قدیس هو المقابل العربی رسماً ومعنی لاسم قادش، وقد علمنا أن زعیم الأحلاف المعادية لمصر كان ملكاً على قادش، التي تم افتراض أنها تلك الواقعة على نهر العاص بسوريا، أما من جانبنا فقد فضلنا للموضع المقصود فى حملة تحتمس الثالث قادش سیناء أو (عین قدیس) الحالية.

أما القرينة الثانية فتتضح فى إجابة مجلس أركان حرب الفرعون حول طرحه الاستشارى للطريق الواجب اتباعه للهبوط على العدو، وحيث، تخير الفرعون ذلك الطريق الذى يختبر القوة والبأس، الطريق الخطر الضيق، الموصوف بأن عبوره سيكون فرداً فرداً. وهو ما يعنى ضرورة وجود شخص قوى أو مجموعة أشخاص فدائيين، يخرجون من الممر الضيق لمصاولة العدو وتحجيم هجمته، حتى يسمح بخروج بقية الجند فرادى للمشاركة فى المعركة، ويفيد النص بأن الفرعون نفسه هو من أخذ على عاتقه تلك المهمة بمساعدة قواده الذين قرروا اتباعه حتى لو خاض بهم لجاج الموت. والأمر الثالث، أنه إذا كانت (مجدو) قد طويقت تاريخياً مع تل المتسلم الحالية شمالى فلسطين، فإنه لم يتم العثور هناك حتى تاريخ كتابة هذه السطور على مثل ذلك الطريق الذى وصفته نقوش النصر المدونة على جدران الأقصر، فقط يمكن أن يكون السيق المؤدى الى ساحة البتراء العظمى. هو الطريق الأوحـد النموذجى المطابق للرواية المصرية.

هذا ناهيك عن تطابق أسماء بعض المواضع، وتطابق مواقعها فى محيط بلاد آدوم، ومع أسماء تلك المواقع التى سجلها تقرير تحتمس الثالث لوقعة مجدو، إضافة الى قادش، هناك (عارونا) وهو الاسم الذى يلتقى تماماً مع جبل (هارون) الموجود الآن الى الغرب مباشرة من البتراء، ويقع فى منطقة وسطى بينهما وبين قادش/ عین قدیس، كذلك يلتقى وادى (قنا) مع الموقع الذى حددته التوراة للحدود الجنوبية لفلسطين، ضمن عدد من المواقع هى آخر البلاد الجنوبية لسبط يهوذا، وذلك باسم (قينة)، فى النص:

وكانت المدن القصوى لسبط يهوذا إلى تخم آدوم جنوباً:

قبصئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعدة وقادش
وحاصور وبتان.

يشوع ٢٣/١٥

كما ورد لدى المؤرخ (اسطفانس) البيزنطى، لدى حديثه عن الحملة الثانية التى قام بها (أنطيوخس الثانى عشر) ضد العرب، حوالى ٨٨ ق.م، زمن الملك النبطى (رب إيل الأول ابن حارثة الثانى)، حديثاً عن انتصار الأنباط على جيوش الرومان، حيث تم قتل (أنطيوخس) وفرجيته إلى، قانا، التى لم يتعرف الدارسون على موقعها حتى الآن وهلك معظمهم جوعاً (١٧)

كما يلتقى وادى قنا مع ذكريات تاريخية دونها المقدس عن المديانيين الذين سكنوا فى محيط المنطقه حول خليج العقبة، حيث كان المديانيون يدعون أيضاً بالقينيين، والقينى هو صانع المعادن أو السباك صانع السباك، فهو الحداد أو السباك أو النحاس، ويضيف إلى صدق ذلك مزيد من الدعم، مناجم ومشاعل تصنيع النحاس التى عثر عليها جنوبى البتراء، عند جبل تمناع المذكور فى التوراة باسم (تمنة)، ولم تزل هناك علامات اسمية شاهدة على تواجد

(١٧) احسان عباس، تاريخ دولة الأنباط.. سيق ذكره، ص ٤١.

القينيين بهذا المحيط الجغرافى حتى اليوم، ففي جنوب سيناء وعلى خليج العقبة نجد مدينة (قنى)، أما وادى قنا فينطلق من عند جبال كاترين تقريباً، ليصب فى خليج العقبة قرب مدينة (قنى).

وتبقى المشكلة التى تقف فى وجه هذه القرينة - لتأييد فرضنا - لا تتزحزح، وبدون حلها تسقط هذه القرينة تماماً والمشكلة تتحدد فى اسم (مجدو) المدينة التى تجمعت عندها الأحلاف السورية، فهل حدث خطأ ما من الكاتب المصرى؟ أو من الآثارى الذى قرأ النصوص، فقرأ مدينة الأحلاف باسم (مجدو) بينما كان يجب قراءتها على نحو آخر؟ هذا وقد عقب (فليكوفسكى) على استغاثات نائب الفرعون (أمنحتب الثالث) على مجدو الواردة فى رسائل تل العمارنة بقوله: « إن الاختلاف البسيط فى هجاء الأسماء يعود ليس فقط إلى أسماء الأشخاص وحدها، إنما أيضاً لأسماء الأماكن الجغرافية، التى كانت تنطق بطرق عديدة مختلفة، وعلى سبيل المثال فإن بريديا - وفى إحدى الرسائل كتب اسمه بحيث يقرأ بريدى - أعلن للفرعون أنه يحمى مكيدا أو يدافع عنها، وفى مرة أخرى ذكر أنه يدافع عن ماجيدا، وهناك أمثلة كثيرة أخرى فى الرسائل ».(١٨)

فى هذه النقطة ربما كان مفيداً العودة إلى نص لرمسيس الثالث، حيث سجلت النقوش أنه قاد حملة تجارية إلى بلاد (بونت) أرض الإله المقدسة، لاستجلاب منتجاتها التجارية، بالمبادلة مع المنتجات المصرية، وتذكر النصوص أنه قد أبحر من، وأولى مكان يقع قرب بحر أو نهر، وأن هذا المكان يحمل اسم (موقيدع) أو (موقيده) وقد ذهب المؤرخون به مذاهب شتى، وصلت فى فروضها إلى الخليج العربى ونهر الفرات. كما تذكر نصوص الفرعون (رمسيس الثالث) أنه عندما وصل هناك، أرسل رسله إلى إقليم (عتيقة) (ATIKE) للحصول على النحاس^(١٩)، والكشوف الحديثة قد قدمت لنا اكتشافاً لمناجم ومصانع النحاس عند جبل تمناع فى بلاد آدوم، ومن ثم لا بد أن (موقيده) تقع فى ذات الجوار، فهل كان يجب أن تُقرأ كلمة (مجدو) فى نصوص (تحتمس الثالث) بالرسم (موقيدة)؟ وهى ما يتطابق فونيطيقياً مع (مجدو)، ويتطابق جغرافياً مع بلاد آدوم الحورية؟

مجرد احتمالات لا نصر على احتسابها أحد قرائن دعم فروضنا، إنما نسوقها كقرينة تحتل الخطأ الشديد لكنها أيضاً ربما تحتل الصدق.

أما ما لا يجب أن ننساه فهو قول (تحتمس الثالث) مبرراً لإصراره على حصار (مجدو) حتى سقوطها: « إن الإستيلاء عليها يساوى الاستيلاء على ألف مدينة »^(٢٠)، وهو الإصرار الذى أراد به الفخار، لمعرفة عالم ذلك الزمان لمعنى كلامه، الذى يجب أن نستعيده فى صورة سردها لنا قاموس الكتاب المقدس وهو يقول: « سأل اسم عبرانى معناه صخرة، وهى أمنع موقع فى أرض آدوم ، كان يهرع إليها الأدوميون كقلعة حصينة لا تقهر وقت الحصار الحربى، لأنها تقع على قمة جبل »^(٢١).

(١٨) فليكوفسكى: عصور فى فوضى.. سبق ذكره، ص ٣٣٤.

(١٩) سامى سعيد: الرعامسة.. سبق ذكره، ص ١٦١.

(٢٠) فليكوفسكى: عصور.. سبق ذكره.

(٢١) قاموس الكتاب المقدس: مادة سأل.

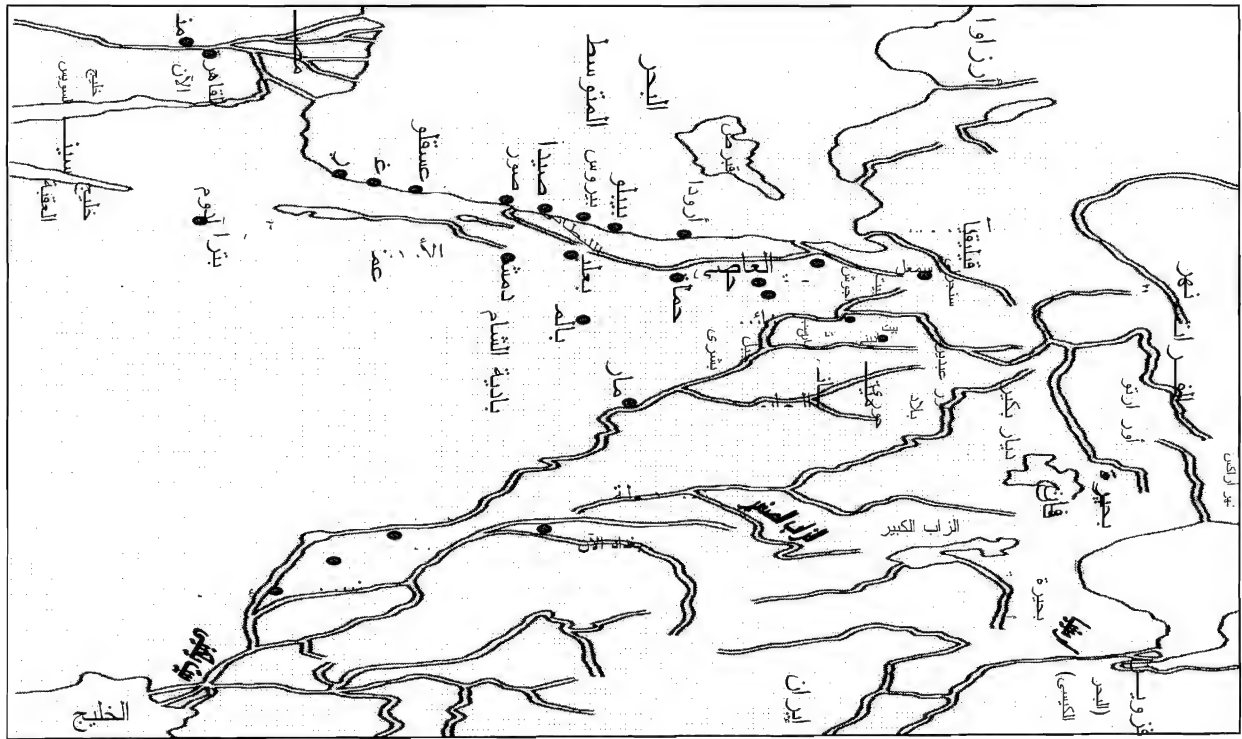
ولكن مع احتمال الخطأ فى تفسيرنا لحملة (تحتس الثالث) على مجدو، ومع ما بذلنا فيها من جهد، نروح عن النفس بتذكر نص كلام الإله أمون للملكة حتشبسوت، المدون على جدران معبد روعة الروائع، إذ يقول لها:

سأجعل جنودك تطأ (بنت) لأنى أقودهم بحرا وبراً،
وجاعلهم يخترقون مضائق عالية لايمكن اختراقها، وقد
جعلناهم يصلون إلى خمائل البخور وأرض الإله^(٢٢).



ويزيد فى
الاطمئنان أن نعلم أن
فرض (تل المتسلم)
كموضع مفترض لمدينة
مجدو، إطلاقاً لم تقم عليه
البينة الأركيولوجية، حتى
قال كمال الصليبي: " إن مجدو
التوراتية لم يعثر عليها إطلاقاً
فى فلسطين بهذا الاسم " ^(٢٣).

الخريطة رقم (٢٧)

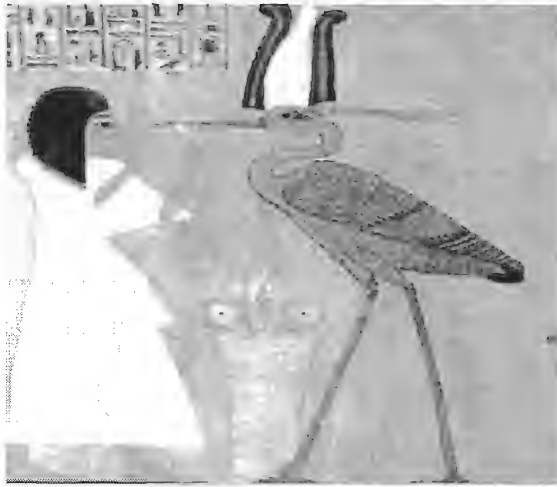


خريطة رقم (٢٨)

شرقى المتوسط زمن الأحداث

(٢٢) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج٤، ص٣٣٢.

(٢٣) كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت، ط٢، ص١١٩.



شكل رقم (٢٤)
طائر الفينيق وكاهن متبتل



شكل رقم (٢٣)
الفرعون تحتمس الثالث



شكل رقم (٢٥)
البنو / طائر الفينيق كما صورته المصري القديم على بردية آني
بالمتحف المصري



شكل رقم (٢٦)
العنقاء تخرج من بيضتها / تصوير فني معاصر



شكال، رقم (٢٧)

لغز بلاد موصري (!؟)

فى منطقة شرقى المتوسط فى بواى الشام والهلال الخصيب، تناثرت جماعات عرقية باسم الحوريين، فى شكل مدن دول، وقد أكد لنا علم التاريخ أن هؤلاء الحوريين قد عرفوا باسم شعب آدم، وأنهم أقاموا لأنفسهم دولة قوية مركزية باسم دولة ميتانى وباسم نهارين، وأن الموضع المحتمل لدولة نهارين الميتانية، دولة شعب آدم الحورية، يقع بين الفرات والخابور فى أعالى الفرات.

وقد خالفنا ذلك التحديد الجغرافى لدولة الحوريين المركزية، وأكدنا من جانبنا أنها أبدا لم تقم بين الفرات والخابور، إنما قامت فى الأرض التى جاءت اسمها التاريخى (مديان) أو (مدين)، وأنها تموضعت فى شبه جزيرة سيناء وسيناء الشرقية حيث البلاد التى ذكرها لنا الكتاب المقدس باسم آدم، وأن ميتان هى بالقلب اللغوى مديان، وأنها فيما نرى قد تمركزت فى محيط جبال السراة/ سكير، ووادى عربية. وقد ذهب فرضنا إلى أن تلك البلاد الصخرية قد أعطت لعاصمتها اسم من صفاتها الجغرافية، فسميت بالصخرة، فهى (سالع) بالعبرية وتعنى الصخرة، وهى (بترا) زمن اليونان ثم الرومان وتعنى أيضاً الصخرة، وقد ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك فاحتسبنا بلاد مديان الحورية هى تلك البلاد التى كانت تذكرها النصوص المصرية بأنها (أرض الإله / بونت)، وأن اسم بونت بدوره كان يعنى الصخرة حسب تخريجنا، كما يعنى الحمراء أيضاً لأن البونى هو الفونى أو الفينيقي التى تعنى بدورها (أحمر) كما يعنى البلاد الخماسية.

وهنا نتابع البحث عما يمكن أن يدعم فرضنا ويضيف إلى رصيد ما قدمنا من شواهد وقرائن. وبين رتل أكوام المادة العلمية التى جمعناها لعملنا هذا خلال السنوات السوالف، وجدنا فى نص الفرعون مرنبتاح (لوح الانتصارات) أو (لوح إسرائيل)، ما يدعم فرضنا، فاللوح يذكر بلسان الفرعون أنه قد احتل بلاداً باسم بلاد الحور ووضعها تحت السيطرة المصرية أو بنصه جعلها "ارملة لتوميرى" (توميرى هى مصر). وبمتابعة النص يمكنك أن تجد ما وجدناه وتفهم من النص ما فهمناه وهو أن بلاد الحور الواردة فى لوح مرنبتاح، هى بالضبط بلاد الحوريين التى حددناها فى شرقى سيناء حيث مديان / آدم. وأن بلاد الحور تقع عند وادى عربية وفى محيط خليج العقبة.

لدينا هنا إذن قرينة جديدة على صدق فروضنا تتمثل فى قصيدة طويلة يعدد فيها الفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثانى الذى حكم ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م انتصاراته، كما يعدد أهم الشعوب التى انتصر عليها والبلاد التى أخضعها ويعطينا من تلك القصيدة المطولة فقراتها الختامية التى يقول فيها الفرعون:

يقول الملوك وهم ينطرحون أرضاً: السلام. ولم يعد
أحد من الأقواس التسعة يرفع رأسه (الأقواس التسعة
تعنى البدو/ المؤلف) والتحنو (اليبىا/ المؤلف) قد

خربت، وبلاد خاتى (دولة الحيثيين بالأناضول/المؤلف)
أصبحت مسالمة.

وكنعان (القسم الشرقى من فلسطين/ المؤلف) قد
أسرت مع كل خبيث. وأزيلت عسقلان. وجازر (مدينة
فلسطينية قرب الساحل/ المؤلف) قبض عليها، وبنوعام
أو (بنوآم وهى مدينة مجهولة/ المؤلف) أصبحت لاشئ
وإسرائيل خربت وليس لها بذر.

وحور أصبحت أرملة لتوميرى (توميرى هى مصر/
المؤلف)^(١)

الملك المظفر يعدد هنا الشعوب التى أخضعها، ملوك جميع البلاد يسجدون على الأرض يطلبون
السلام من جلالته. وجميع البدو المحيطين بمصر لم يعد بإمكانهم أن يرفعوا رؤوسهم، فقد تم دحر الليبيين
الذين هاجموا مصر. وهو ما نعلمه من نصوص أخرى لذات الزمن والأحداث. ثم ينتقل النص بعد ذلك
جغرافيا إلى دول شرقى المتوسط، بادئا ببلاد خاتى/ دولة الحيثيين بتركيا القديمة في أقصى الشمال، ويؤكد
أن الحيثيين قد أصبحوا مسالمين ونحن نعلم أن ذلك حدث بعد موقعة قادش الكبرى على نهر العاص، التى
خاضها أبوه رمسيس الثانى ضد الحيثيين، وانتهت بتوقيع حدود الولايات بين المصريين والحيثيين، فى
معاهدة صلح عثر على نسختيها المصرية والحيثية، وقد عثر على النسختين كاملتين مونتتين فى مصر وفى
حاتوساس عاصمة الحيثيين القديمة المعروف موضعها الآن بأسم بوزازكوى.

ثم نلاحظ أن خط حملات النصر يهبط بنا من تركيا جنوباً نحو كنعان، ثم يتخذ الفرعون طريق
الساحل وهو لم يزل ييمم جنوباً، فيدمر على التوالى مدينة عسقلان ثم جازر إلى الجنوب منها. ثم ينحدر
شرقاً ليهزم إسرائيل ومدنها، ويستمر فى مسيرة نحو الجنوب حتى يصل إلى مدينة باسم (بنوآم). وقد عدت
بنوآم مدينة مجهولة طوال الوقت لأنهم كانوا يبحثون عنها شمالا. بينما نطن من جانبنا أنها مدينة كانت
معلومة فى ذلك الزمان، وأنها كانت تقع أقصى جنوبى فلسطين بالنقب على الحدود السينائية حسب قراءتنا
لخط سير حملة مرنبتاح وتفسيره، ونظننا قد عثرنا عليها مع تحديد موقعها فى نص بالكتاب المقدس يحدد
أسماء المدن المنتشرة جنوبى دولة يهوذا المتاخمة بحدودها الجنوبية لحدود سيناء وأدوم، فيقول إن تلك المدن
هى:

بنوم وبيت تفوح وأفيقة وحمطة وقرية أربع وهى
حبرون وصيعور. تسع مدن مع ضياعها.

يشوع ١٥/٥٣.

(١) سليم حسن: الأدب المصرى .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٢٢.

لقد كان تفسير خط سير الحملة يذهب بها إلى فلسطين الشمالية وبلاد الشام، ومع سيره المستمر يصل إلى بلاد باسم (حور) و (خارو) ثم افترض أنها بلاد الحوريين الميثانية المزعوم أنها تقع بين الفرات والخابور، ثم تمت إعادة النظر مرة أخرى حيث تضارب ذلك مع خط السير الواضح بلوح مرنبتاح ومع معطيات أخرى أسقطت ذلك الاتجاه الشمالى، وحينئذ أصبحت بلاد حور مشكلة تم الانتهاء منها بالقول: إن المصريين منذ زمن مرنبتاح والأسرة التاسعة عشرة صاروا يطلقون على بلاد فلسطين اسم بلاد حور أو خارو أو حورى (!؟) هذا بينما يوضح فرضنا التأسيسى أن بلادا تقع جنوبى فلسطين، وجنوبى مدينة ينوم التى تقع جنوبى يهوذا، تحمل اسم بلاد مديان وآدوم هى البلاد الحورية المقصودة فى نص مرنبتاح فرضنا يجعل تفسير لوح مرنبتاح مستقيماً ومقبولاً فى حال اتجاهه جنوباً وليس شمالاً، ليتناغم لوح مرنبتاح مع منظومتنا تناغماً واضحاً ويتحول إلى دليل وقرينة تضاف إلى رصيدنا. لأن البلاد الواقعة جنوباً بعد ينوم ستكون خارج دائرة فلسطين، وليس بعدها جنوباً سوى بلاد آدوم /آدم الحورية. ولم يزل الوادى الواقع جنوبى وادى موسى عند البتراء يحمل حتى اليوم اسم وادى حور. ويقول الفرعون فى نهاية نصه حيث وصل نهاية حملته "وحر أصبحت أرملة لتوميري".

وهنا نتذكر شكل مساكن بلاد بونت الكهفية، ثم كهوف سالع البتراء المحفورة فى الصخر، فى تلك البلاد الحمراء، ثم نقف مع كلمة حور نبحت عنها فى العبرية القاموسية فنجدها تبليغنا شديد تأييدها لفروضنا، حيث تحمل الكلمة معنيين: الأول هو: (أحمر) ، أما الثانى فهو (كهف)، فيما يسجل قاموس الكتاب المقدس. وهكذا حفظت لنا اللغة تحديداً واضحاً للمكان بل وصفة هذا المكان القديمة، فهم الجنس الأحمر الذى سكن الكهوف فى بلاد آدوم .

ثم ندفع الآن بقرينة أخرى أكثر وضوحاً وأشد قوة تستشهد على مدى توفيقنا فيما ذهبنا إليه نأخذها بدورها من التاريخ المصرى القديم، من زمن الفرعون شيشنق من الأسرة الثانية والعشرين، الذى حكم حوالى ٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م. ومعه نستعيد ذكريات تعيد أمجاد الفراعين، فقد قام شيشنق الأول بحملة كبرى على دويلات شرقى المتوسط، وضمن جدولته الكبير المسجل بالكرنك نجد ضالته، إذ يبدأ مقدمة الجدول بغارته الكبرى التى شنها على ما أسماه " الإقليم الآدومى " (٢). وهى المقدمة التى تقول إنه فى الآن ذاته قد " أخضع جيوش ميتانى ". وهو الأمر الذى يعنى أن الفرعون كان يتحدث عن غارة بعينها على موضع واحد اعتبره الموضع الأجدر بالتسجيل فى مقدمة جدولته الكبير، وأن هذا الموضع كان " الإقليم الآدومى"، وأن هذا الإقليم تُعرف جيوشه باسم " جيوش ميتانى" (٣) وبعد ذلك يتابع حملاته نحو الشمال.

لكن المؤرخين لهذه المنطقة من العالم وحسب تقديراتهم لتأريخ وتزمينات قيام وانهيار دول المنطقة، قد أكدوا أن بلاد ميتانى التى كانت تقع - فى زعمهم - كمملكة بالفرات الأعلى وقد بلغت قمة ازدهارها إبان

(٢) جاردنر: مصر الفراعنة.. سبق ذكره، ص ٣٦١.

(٣) وليم لا نجر: موسوعة تاريخ العالم ، مادة ميتانى.

القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأن تلك المملكة قد زالت تماماً من الوجود خلال القرن الرابع عشر فى أحد التخمينات، أو أن شلمناصر الأول الآشورى أزالها حوالى عام ١٢٧٥ ق.م، أو اختفت على يد الآشوريين فى ق ٩ ق.م حسبما يفيدنا طه باقر^(٤). وهكذا نجدنا إزاء لغز غريب، فمعنى ذلك أن شيشنق كان يتحدث عن غارة على بلاد زالت قبل زمنه بحوالى خمسة قرون كاملة، أو ثلاثة قرون أو بقرن واحد (لاحظ مدى التضارب).

وكان الحل السهل والبسيط هو القول بأن شيشنق الأول كان يفاخر كل هذا الفخر بضرب جيوش ميتانى، فخراً كاذباً من باب تضخيم حجم آلهة العسكرية ومجده الملكى، حيث أن مملكة الميتانى حسب وضعها بين الفرات والخابور زمن شيشنق كانت بلاداً آشورية بالقطع وباليقين، والمظنون لديهم أن الآشوريين قد ضموا إلى مملكتهم الكبرى قبل زمن شيشنق بقرون أو أن الحيثيين هم من قضوا عليها فى قول آخر. ويلخص لنا (فراس السواح) ما جاء بشأن ميتانى وشيشنق لدى المؤرخين فى قوله: "نعترف بوجود نص واحد غامض هو سجل حملة الفرعون شيشانق الأول ٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م، ومعظمها [يقصد معظم البلاد التى ذكر أنه استولى عليها/ المؤلف] لم يمكن التعرف عليه إلا بشكل تقريبي .. يضاف إلى ذلك تناقض معلومات النص مع بعض الحقائق التاريخية. فمملكة ميتانى التى كان يتباهى الفرعون بإخضاعها، لم تكن قائمة فى زمنه"^(٥).

وهكذا يوقفنا هذا التفسير دهشين من أمر فرعون عظيم وفاتح كبير يفاخر أهل زمانه أنه قد أخضع دولة زالت قبل زمانه بزمان كان كفيلاً بنسيان ميتانى واسمها زمن شيشنق، ولا شك أن أهل زمانه إما كانوا لا يعرفون ما هى ميتانى؟ أو كانوا يعرفونها ويعلمون يقيناً أنها زالت من صفحة التاريخ منذ قرون. أما الأغرب فهو أن يفاخر الفرعون كاذباً وهو منتصر انتصاراً عظيماً أعاد لمصر أمجاد فتوحات التحامسة والرعامسة. لكن لن تكون هناك أية غرابة لو كان فرضنا المؤسس لهذا العمل صحيحاً، ذلك الفرض الذى يقول إن بلاد ميتانى لم تقع دولتها المركزية على الفرات الأعلى الذى نعرف أنه كان ذلك الوقت بلاداً آشورية بلا منازع وتحت سيطرة آشور من فجر مطلعها، إنما كانت هى بالتحديد بلاد مديان الحورية الآدومية الواقعة فى سيناء الشرقية ووادى عربة وسراة سكير، وأنها هى بلاد بونت الصخرة/سالع/ البتراء التى ظلت قائمة حتى زمن الرومان. ولم يكن شيشنق يفاخر كاذباً بل هاجم بلاداً كانت قائمة بالفعل فى زمانه هى بلاد آدوم نهارين كما ذكر أسمها فى مقدمة جدولته الكبير بالكرنك.

أليست تلك بقرينة مبينة ؟ لكننا نعلم أننا نقول كلاماً جديداً وشديد المخالفة، ولكل جديد دهشة، وما أكثر التقليديين الذين سيرفضون أمرنا هنا. لهذا يستحق فرضنا مزيداً من البحث عن قرائن وبراهين تدعم خراسانته، وإعمالاً لذلك نتابع التنقيب فى مدونات المنطقة القديمة، لنقرأ بين ما عثرنا عليه نصوص للملك

(٤) طه باقر : الوجيز .. سبق ذكره ، ص ٤٩٥.

(٥) فراس السواح : الحدث التوراتى .. سبق ذكره ، ص ٧٣.

الآشورى (تجلتليزر الأول) فنجد بينها نصاً يحدثنا عن فتوحات واسعة قادها ذلك العاهل الكبير حتى وصل إلى بلاد (نهارينا) وفتح إقليما باسم (مصرى) فى ذات النص، وأنه فى إقليم (مصرى) هذا دحر القبائل الآرامية!^(٦).

ومع الوضع المزعوم لبلاد ميتانى/ نهارين أونهارينا بالفرات الأعلى، كان لابد أن يقف المؤرخون جميعاً يتساءلون ذلك السؤال الغريب المستغرب عن بلاد (مصرى) التى تقع بالفرات الأعلى، وهو ذات السؤال العجيب المستعجب الذى أورده المؤرخ طه باقر وهو يقرأ لنا نصوص الملك الآشورى (تجلتليزر الأولى)، بينما كان الباحث فراس السواح يلخص لنا ما انتهى إليه علماء التاريخ بشأن إقليم مصرى أو مصرى بقوله: " إن مصرى هى مملكة مجهولة حتى الآن " ^(٧).

وهكذا كان لاقتراح إقليم مصرى مع بلاد نهارينا بفتوحات فى الرافدين الأعلى مدعاة لافتراض إقليم (مصرى) إقليماً ميتانياً ، أى أحد الأقاليم التابعة لبلاد ميتانى نهارينا الواقعة زعماً بين الفرات والخابور، لكنه الآن مجهول تماماً مثله مثل ميتانى ولا توجد عليه قرينة أركيولوجية واحدة. لكن إطلاقاً لم يكن إقليم (مصرى/ مصرى) هذا وهما، ولا قراءة ملتبسة ننتظر صلاح الحال لنطقها الصحيح، لأنه تكرر فى نصوص رافدية أخرى حدثنا مرات عديدة وفى إشارات متباعدة عن إقليم مصرى، ونتيجة التباين فى الإشارات التى احدثت التباسات فى تحديده الجغرافى، فمرة يمكن تفسير النصوص بأنه يقع فى منطقة ما جنوباً، ومرة شمالاً.

فقد اقترح الباحثون أحد موضعين لا ثالث لهما لإقليم مصرى، وما أبعدهما عن بعضهما: الموضع الأول فى الفرات الأعلى حيث الموضع المزعوم لبلاد ميتانى/ نهارينا، أما الموضع الثانى وهو الذى يعيننا بشدة، فهو احتمال وقوع إقليم مصرى - حسب قراءات أخرى لنصوص أخرى - فى المنطقة المحيطة بخليج العقبة وبعض شبه جزيرة سيناء، ربما نصفها الشرقى كاملاً حسبما يقسمها وادى العريش العظيم.

وإطلاقاً لا يصح احتساب أن إقليم مصرى هذا كان يعنى مصر الدولة العظمى آنذاك لسبب بسيط، وهو أن نصوص العمارة المصرية قد حدثنا بدورها عن ذات الإقليم (مصرى) فى صيغ متعددة وإشارات تضعه فى مكان ما شرقى مصر، وتراوحت تنغيمات نطقه ما بين: مصرى، موصرى، موصر، مسرى، مصر، مصارى، مشرى^(٨).

والمعلوم تاريخياً والمؤكد يقيناً أن المصريين أنفسهم لم يعرفوا بلادهم فى ذلك الزمان باسم مصر بعد أن ثبت أن تسمية مصر النيل باسم مصر تسمية متأخرة، فقد أطلق المصريون على بلادهم عدة أسماء ليس من بينها اسم مصر، ومن تلك الأسماء المعلومة الآن بشكل يقينى الاسم (كمت KEM-T) أى الأرض

(٦) طه باقر : الوجيز ، سبق ذكره ، ص ٤٩٢ .

(٧) فراس السواح: الحدث التوراتى .. سبق ذكره، ص ٩٨ .

(٨) عبد المجيد عابدين : لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده، مطبعة الشيكشى بالأزهر، القاهرة، ١٩٦٤ ، ص ٥ .

السوداء BLACK LAND ليقابلوا بها ما هو عكس وادبهم الخصيب من صحراوات وجبال وقفار وبرارى أسموها دوشراتا أو (د. ش. رت) التى تترجم إلى الأرض الحمراء RED- LAND أى الصحارى.

ومن الأسماء الأخرى التى أحب المصريون إطلاقها على بلادهم الاسم المعروف توميرى أو (ت. م. رى TA. MERE) ونطقها الإغريق تيموريس أى أرض الحقل والفلحة والحرث. وفى تاريخ مانيتون MANITHON المصرى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد نجد لمصر أسماء ثلاثة هى: أيريا AERIA ومسترايا MESTRAIA وباللاتينية آيجبتون AIGYBTON، والمعروف أن الاسم الأخير كان أكثرها انتشاراً ، وأصبح الكلمة الدالة على مصر فى كل اللغات ذات الأصول اللاتينية، وهو فيما يذهب جلة من الباحثين تحريف للاسم المصرى الأصلى للكلمة وهو (حت. ك. ع. ب ت ح) أى بيت عز بتاح أو بيت مجد الإله بتاح وهو إله منف منذ أقدم العصور. إلا أن بعض المجتهدين رأى أن اسم (إيجبت) مأخوذ من كلمة (قبط) التى أطلقها العرب على بلاد مصر، وأن السبب فى إطلاق العرب على مصر هذا الاسم هو أن العرب كانوا يعبرون من جزيرتهم البحر الأحمر إلى مصر، فينزلون أول ما ينزلون عند مدينة عامرة هى (قفط)، ومعلوم أن حرفى (ف) و (ب) يتبادلان، لذلك تنطق (قبط) أيضاً . لكننا هنا نضع احتمالاً ثالثاً يذهب إلى مدينة (جباتا) الواقعة عند خليج العقبة فى بلاد آدوم القديمة، كمعبر أول على الطريق السينائى الذى يصب عند دلتا النيل، فتكون جباتا أول مدينة فى طريق مصر، يحتمل أنه قد اشتق منها (قبط) ثم (إيجبت) بحسبان عبور عرب الجزيرة للبحر الأحمر أمراً مستبعداً فى ذلك الزمان.

ثم أخيراً أشتهر من أسماء مصر الاسم (نيلوس NELOS) الذى أطلقه على نهرها لأول مرة الكاتب اليونانى الملحمى (هزiod) فى القرن الثامن قبل الميلاد، وتعود الكلمة إلى الأصل (NEL) بعد حذف التصريف الاسمى، والكلمة (NEL) تعود بدورها إلى الكلمة (NEHL) التى هى فى الساميات NEHR نهر ينطق فيها حرف الراء لاما (نهر ← نهل)، ثم اسقطت الهاء بالتخفيف فأصبحت (نيل NEL) وأضيف لها التصريف الاسمى اليونانى لتتطو (نيلوس NELOS) . وهكذا فإن اسم النيل هو اسم سامى الأصل من الكلمة (نهر) أعيد تصديره عبر اليونان فأصبح نيل، ليدل زمناً على مصر، ثم يقتصر بعد ذلك على نهرها العظيم. وقارئ الكتاب المقدس سيجده إطلاقاً لا يذكر نهر مصر باسم النيل ألا فى أسفاره المتأخرة الخاتمة التى دونت بعد هزiod اليونانى، لكنه كان طوال أسفاره السابقة يطلق على نيل مصر فقط لفظة (النهر) غفلا من أى تسمية مميزة.

لكن لدينا رأى آخر يقول إن الاسم المتأخر الذى أطلق على مصر: (مصر) رغم وضوح تنغيمة السامى إلا أنه يعود بدوره إلى أصل مصرى من اللفظ الهيروغليفى (مجر) الذى يعنى الحصن أو السور العظيم أو الحد الفاصل بين دولتين أى الحدود الدولية.^(٩)

(٩) عبد الحميد زايد : أسماء مصر ، مجلة كلية التربية، جامعة الكويت ، العدد ٢ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٣.

وهنا نعود إلى الإقليم (مصرى/ موصرى) نطرح الحل البسيط والسهل: إذا كان المؤرخون قد وضعوا لإقليم مصرى احتمالين جغرافيين، أحدهما يقع فى بلاد آدوم وسيناء، وإذا كانت الكلمة المصرية (مجر) تعنى الحدود الدولية، فلا شك أن (مجر) أو (مصرى) لم تكن تعنى مصر بلاد النيل إنما تعنى منطقة حدود مصر الدولية، أى أنها كانت بلاد آدوم بالتحديد والتدقيق المبين، ويكون العاهل الآشورى (تجلا تبليزر الأول) قد هاجم بلاد آدوم عندما قال إنه هاجم بلاد موصرى. ولأنه كان يتحدث عن إقليم موصرى ضمن هجوم أشمل على بلاد نهارينا، فإن بلاد نهارينا المقصودة لن تكون بالفترات الأعلى إنما بلاد آدوم. وتصبح الألفاظ الواردة بنصوص تل العمارنة بمصر عن (مشرى، مصر، موصرى، مسرى .. الخ) تشير إلى حدود مصر الدولية عند بلاد آدوم التى حملت اسم (مصر) قبل أن تحمله مصر المعروفة الآن. فهى الحد الفاصل بين مصر وبين بادية الشام والبادى العربية، وهى سور عظيم فعلاً لأنها سلسلة جبال منيعة طبيعياً. وهو الأمر الذى يفسر لنا لماذا لم يضع المصريون على لفظة بلاد بونت العلامة الهيروغليفية الدالة على البلاد الأجنبية. وفيما سلف عرضنا فرضنا فى أن بلاد بونت هى الاسم المصرى الأشهر لبلاد آدوم المديانية. وهو ما يوعز أن المصريين كانوا يعتبرون بلاد (آدوم /بونت) حداً شرقياً فاصلاً للحدود المصرية مع البلاد الأجنبية.

وهناك تفاسير أخرى لاسم بونت تناسب هذا المقام أوردها (عبد المنعم عبد الحليم)، فهى ربما تكون الباب وهو ما يشير إلى الحدود الدولية بدوره فى معنى الباب أو الحد الدولى، وفسرها آخرون بأنها تعنى الحصن، وهو ما لا يخرج بدوره عن المعنى الذى طرحناه.^(١٠)

وإن كان التاريخ يشى دوماً باستقلال واضح لتلك البلاد عن الوطن الأم فى فترات تاريخية متعددة، وأن وجهة نظر المصريين لم تفرض على بلاد آدوم الأمر الواقع

بالتبعية، وهو ما كان يستدعى حملات تأديب مصرية متتابة يتم تجريدتها على سيناء وآدوم، كلما ارتكبت آدوم ما يعتبره الفرعون بحاجة للتأديب والتهذيب. وعليه فإن لفظة مصر بدأ إطلاقها على بلاد آدوم جميعاً من جانب سكان المتوسط الشرقى ولسانهم السامى الذى غلب على المنطقة بعد ذلك، بينما ظل لفظ (قبط) ثابتاً فى اللسانى اللاتينى (إيجبت).

وتضيف اللغة مزيداً من القرائن لنظريتنا التأسيسية، لأن الكلمة (مجر) المصرية القديمة المنطوقة فى اللسان السامى (مصر) على اختلاف تنغيماته (مشر، مشارى، مصر، مسرى، مصرى، موسير .. الخ) تعنى دوماً فى الساميات معنى واحد هو: الحمراء. وتذكر ماسلف بيانه أن بلاد آدوم وصفت بأنها بلاد حمراء، وأن عيسو آدوم سمي كذلك لأنه كان أحمر اللون حسبما ورد بالكتاب المقدس. لقد كانت مصر هى بلاد سيناء فى امتدادها حتى آدوم، فى زمن كانت فيه مصر المعروفة تحمل أسماء أخرى معلومة هى: كيمت، توميرى، آيريا، مسترايا، نيلوس، ولم تكن حمراء بل سوداء.

(١٠) عبد المنعم عبد الحليم: موجز رساليته.. سبق ذكره، ص ١٩.

وإن كنا اليوم لا نجد في بلاد آدوم علما يحمل اسم مصر، فقد حملت واحدة من مدنها اسم (جباتا) ومنه (قبط)، ثم أن الكتاب المقدس يورد لنا أسما قديما علما في بلاد آدوم، اذ يحكى قصة موت هارون شقيق موسى ودفنه على حدود آدوم السينائية، يقول النص.

مات هارون ودفن في جبل موسير

تنشئة ٦/١٠.

و(موسير) تلوين لهجوى آخر لاسم مصر، أما أن يطلق الرافديون على بلاد ميتاني اسم بلاد النابري أو نهاريننا ويطلق المصريون عليها اسم (ن ه ر ي ن NHRN) ، ويعطوا الفرد من الشعب الحورى صفة (ن ه ر ي NHRN) نسبة إلى (ن ه ر ي ن) بمعنى "رجل من بلاد ن ه ر " ، والتي خففت فيها الهاء في النطق الآشورى فلفظت (ن ي ر ي / نابري) فهو ما أدى إلى التباسات وغموض في أبحاث الباحثين، خاصة أن اللفظ يشير إلى نهر أكدوا أنه الفرات الأعلى، فإننا من جانبنا نرى اللفظ يشير إلى نهر آخر - إذا كان يعنى النهر فعلاً - وهو ما عثرنا عليه في تعبير التوراة عن قادش سيناء على حدود آدوم الغربية: (قادش النهر). وهو التعبير الذى يتطابق معناه مع جغرافية وادى العريش الذى يتحول فى الشتاء إلى نهر عاصف جبار- أطلقت عليه التوراة اسم " نهر مصر / تكوين ١٨/١٥ "، وأكدت أنه كان فى محيط هذا النهر كان يعيش الحدادون النحاسون أو كما أسمتهم التوراة القينيين فى سفر التكوين (١٩/١٥). ثم يلتقى الاسم نابري من جانب آخر إضافة للنهر - مع النار ، ومعلوم أن بلاد آدوم التى حملت اسم سعيير كانت بلادا للسعيير والنار، حيث تفصح الأرض هناك عن نشاطها بركانى عظيم قديم خمد الآن، ولا ننسى الحمراء صفة تلك البلاد.

مع احتمال آخر أن كلمة (نهارين) تشير إلى مثنى كلمة النهار، فهى بلاد النهارين، وهو تعبير يشير إلى التصور القديم للعبور خلال السيق أثناء النهار فى بتراء، وهو عبور من نهار إلى ظلمة داخل السيق نتيجة ارتفاع الحائطين العظيمين، ثم الخروج من تلك الظلمة إلى نهار آخر حيث البتراء بآثارها الكبرى، وربما كان ذلك فى عرف ذلك الزمن عبوراً ليلياً بين نهارين كانا سمة تلك البلاد، ومن ثم مُسماها (نهارين) وهو التخريج الذى نميل إلى اعتماده.

ميتانى ومديانى

حتى زمن ظهور الدعوة الإسلامية فى بلاد الحجاز، كان محيط خليج العقبة جميعاً يحمل اسم بلاد مديان أو مدين، ويقول (ابن هشام) فى السيرة النبوية إن النبى محمد (ﷺ) قد أرسل مولاة زيد بن حارثة فى سرية مقاتلة مفاجئة على بلاد باسم مدين فيما نصه: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث زيدا بن حارثة نحو مدين .. فأصاب سببا من أهالى ميناء وهى السواحل وفيها جماع من الناس " (١)

ورغم أن التوراة قد اصطلحت على تسمية تلك المنطقة ببلاد (عيسو/ آدوم)، إلا أن هناك إشارات أخرى عديدة بها، تؤكد أنها قد عرفت ذات الموضع باسم بلاد مديان نسبة إلى قبيلة كبرى قطنت هناك بهذا الاسم. فنجد فى سفر إرميا (٢٥/٢٠) أن بلاد مديان تقع بين مصر وفلسطين (أى شبه جزيرة سيناء). وفى ذات السفر يذكر النبى إرميا بلاد مديان بحسبانها تقع فى طريق المسافرين من مصر إلى بابل، بل ويموضعها فى بلاد آدوم (إرميا ٤٦/١)، وهو الموضع الذى افترضناه موضعاً لبلاد بونت، التى عرفت فى سجلات المنطقة التاريخية باسم بلاد (ميتانى/ نهارين/ الحور). وهو ما يجد له صدى بالكتاب المقدس الذى أكد لنا أن سكان النصف الشرقى لسيناء قد حمل بعضهم اسم المديانيين، ولذلك كانت تطلق على تلك البلاد مجموعة مسميات على التبادل: مديان نسبة لقبائل مديان/ سكير نسبة لجبال سرة سكير وهى الحدود التى سميت موصرى / آدوم نسبة للأدوميين الأوائل / بلاد الحور وهو الاسم الثانى للأدوميين / سالع بالعبرية أى الصخرة وهو اسم العاصمة/ بتر باليونانية ويعنى الصخرة أيضاً / بونت أى الخماسية وهو فرضنا نحن.

ولمزيد من تدقيق موقع مديان فيما ورد بالكتاب المقدس، نقرأ قصة صراع الملك الإسرائيلى سليمان ومن قبله أبيه داود مع دولة آدوم الجنوبية، وهو الصراع الذى أدى إلى فرار الوريث الملكى الآدومى بعد هزيمة بلاده إلى مصر، وفى مصر عاش عيشة الأمراء فى البلاط الملكى، بل وتزوج أميرة فرعونية، ثم ساعده بعد ذلك الفرعون فى استعادة عرشه، وتقول القصة:

وأقام الرب خصماً لسليمان هدد الآدومى. كان من نسل الملك فى آدوم. وحدث لما كان داود فى آدوم عند صعود يوأب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر فى آدوم. لأن يوأب وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى آدوم أن هدد هرب هو ورجال آدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر. وكان هدد غلاماً صغيراً. وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران. وأخذوا معهم رجالاً من فاران وأتوا إلى مصر

(١) السهيلي : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، فى ١٩٧٨، ج٤، ص ٢٤٤.

إلى فرعون ملك مصر، فأعطاه بيتاً وعين له طعاماً
وأعطاه أرضاً. فوجد هدد نعمة في عيني فرعون جداً
وزوجه أخت امرأته، أخت تحفيس الملكة، فولدت له
أخت تحفيس جنوبث ابنه، وفطمته تحفيس في وسط
بيت فرعون وكان جنوبث في بيت فرعون بين بنى
فرعون. فسمع هدد في مصر بأن داود قد اضطجع مع
آبائه [أى مات/ المؤلف] وبأن يوأب رئيس الجيش قد
مات، فقال هدد لفرعون: أطلقنى إلى أرضى.

ملوك أول / ١١ / ١٤ - ٢١

وهذا إنما يعنى أن منطلق الرحلة كان من مديان " وقاموا من مديان "، وأن مملكة هدد الآدومى كانت
هى مملكة مديان. وخط هروب الوريث الآدومى يحدد لنا بدقة أين تقع مديان، فالنص يقول " وقاموا من
مديان وأتوا إلى فاران ". وبالبحث سبق ووجدنا برية باسم (باران) قائمة باسمها حتى الآن تقع إلى الغرب
مباشرة من بلاد آدوم التى حددنا موقعها بين خليج العقبة والبحر الميت، و(باران) بالضبط هى (فاران)
فحرف الباء والفاء يتبادلان، ثم (باران) أو (فاران) محطة واضحة على خريطة سيناء للمتجه غرباً من آدوم
نحو مصر. وإذا كان هدد الملك الآدومى قد أخذ معه رجالاً من فاران كأتباع له فهو ما يعنى أن سلطان آدوم
كان يصل تقريباً إلى وادى العريش الآن. إن النص يؤكد بلاليس أن بلاد آدوم هى التى حملت أيضاً الاسم
التاريخى مديان اسم كبرى القبائل الآدومية.

ثم لمزيد من التأكد نتابع البحث فى نصوص الكتاب المقدس فنقرأ قصة هروب النبى موسى من مصر
بعد قتله المصرى ظلماً وعتوا إلى بلاد باسم مديان. وأنه عاش هناك زمناً هارباً من قوانين العدل المصرية،
وتزوج هناك من صفورة بنت كاهن مديان الذى كان يحمل اسمين يردان فى المقدس التوراتى على التبادل
هما: رعوئيل ويثرون، ويحدد لنا المؤرخ (فيليب حتى) الموقع الجغرافى لتلك البلاد التى فر إليها موسى
بأنها:

مدين التى تضم جنوبى سيناء والأرض الواقعة إلى
الشرق منها. واتخذ موسى لنفسه امرأة غريبة وهى ابنة
كاهن مدين، وأبوها مؤمن بديانة يهوه فتعلم منه موسى
أسرار العبادة الجديدة.^(٢)

ومن جانبهم يفترض المؤرخون الإسلاميون أن يثرون هذا هو الذى ورد فى التاريخ الإسلامى باسم
شعيب صاحب شعب الأيكة، والأيكة هى الشجرة الضخمة المعمرة أو الغابة. والأيك هو العيك بتبادل الهمزة

(٢) فيليب حتى: تاريخ العرب، دار الكشاف، بيروت، ١٩٦٥، ج ١، ص ٥١.

مع العين فى الساميات، وهو ما يذكرنا بأتيكا أو عتيقة التى وردت فى نصوص مصر بحسبانها موقعاً فى بلاد آدوم كما أسلفنا.

ويقول أصحاب قصص الأنبياء عن مدين:

مدين : قيل اسم البلد، وقيل إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين ابن ابراهيم .. وشعيب قد اختلف فى نسبه .. وكان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين القريبة من أرض معان من أطراف الشام [لتتذكر أنها معان مصران أو معان المصرية على التخوم الشرقية الجنوبية لآدوم/ المؤلف] وكانوا بعدهم بمدة قريبة.. وكانوا كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة. وهى شجرة من الايك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة. يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيها (٣).

وكلام المأثور الإسلامى هنا عن المكيال والميزان يعبر بوضوح عن صدق فروضنا التى قلنا فيها أن سكان تلك المنطقة كانوا طبقة من التجار العسكريين تركزوا على طريق قوافل تجارة العالم فى هذه المنطقة الحساسة من العالم المعروف آنذاك.

ويقص علينا الكتاب المقدس فى سفر الخروج أن النبى موسى عندما خرج من مصر مع أتباعه ميمما نحو فلسطين عبر سيناء، اتجه من فوره إلى بلاد مديان التى سبق وعاش فيها عندما هرب من جريمة قتله المصري، وارتبط بأهلها بأواصر النسب والسنين، حيث التقى هناك بحماه يثرون / رعوثيل واتخذ من شقيق زوجته حباب المديانى دليلاً له فى دروب سيناء الشرقية. إلا أن هذا الود لم يبق على حاله الصافى فلم تلبث التناقضات أن ظهرت بين الفريقين: فريق موسى وأتباعه الخارجين من مصر، وفريق المديانيين، لتتصاعد تلك التناقضات إلى صراع دموى انتهى بأمر إلهى جاء فى النص التوراتى يقول:

وكلم الرب موسى قائلاً : انتقم نقمة لبنى إسرائيل من مديان.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم: آوى وراقم وصور وهور ورابع، خمسة ملوك مديان .. وأحرقوا جميع مدنهم ومسكنهم وجميع حصونهم بالنار وأتوا إلى المحلة إلى عربات موآب

(٣) محمد الفقى: قصص الأنبياء والمرسلين، أحداثها وعبرها، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١١٩: ١٢١.

النص هنا يعطينا مزيداً من التأكيد لموقع بلاد مديان، حيث دارت الموقعة العسكرية بين الاسرائيليين والمديانيين فهو إلى الجوار من " عربات موآب " أى الجزء القريب من دولة موآب من وادى عربة، كما يوضح لنا أن منطقة آدوم المديانية كانت تنقسمها خمسة ممالك متحدة (بنط بوليس = البلد الخماسية)، وبين أسماء ملوك تلك الممالك يحتفظ لنا المقدس باسم الملك المديانى (حور) الذى لم يزل اسمه علماً هناك حتى اليوم على وادى حور فى محيط البتراء الجنوبى. وفى موضع آخر بالكتاب المقدس نجد حديثاً عن إبراهيم الخليل وابن أخيه لوط وحديث عن خمسة مدائن كبرى تقع فى بلاد آدوم جاءت أسماءها على الترتيب، بأسماء ملوكها، فى زمن أقدم من زمن موسى كالاتى:

با - رع ملك سدوم. وير - شاع ملك عمورة. وشن

- آب ملك أدمة. وشم - إير ملك صبوييم. وملك بالع

التي هى صوغر.

تكوين ٢/١٤

وواضح فى تلك الأسماء النغمات المصرية (با-رع) والنغمات السامية العربية (شم - إير) الذى هو (شمر) ولا زالت قبائل عربية كبيرة تحمل هذا الاسم حتى الآن فى تلك المناطق تحديداً (الشمريين). إضافة إلى العموريين أو الأموريين (ولدنا فى التوراة مدينة عمورة فى بلاد آدوم) والآدوميين أدمة بالتوراة. وبمقارنتنا للوحيان المنزرعة التى تتخلل المنطقة الصخرية لبلاد آدوم، والتى تصلح لقيام دول مدن بها، سنجدها الآن وديان خمس تلتقى مع المدن الخمس التى أوردها الكتاب المقدس، وهى بأسمائها الحالية: وادى موسى ووادى جلواخ ووادى الصدر ووادى المقر ووادى الزرابة وهى بالتحديد المبين كل وديان المنطقة دون زيادة أو نقصان ، وديان خمس تطابق مدنا خمس، وهى التى أطلق عليها المؤرخون القدامى مثل هروشيوش بونتبوليس (بنط - بوليس) أى البلاد الخماسية.

ولمزيد من التعرف على مديان ومدى مطابقتها لبلاد آدوم نقرأ فى موقع آخر بالكتاب المقدس زمن القضاة ما بين الخروج وبين قيام مملكة داود، عن استمرار الصراع بين الإسرائيليين والمديانيين، وأن الكفة مالت لصالح المديانيين حتى أخضعوا الإسرائيليين سبع سنوات، وهو ما يعبر عنه نص المقدس بقوله:

وعمل بنو إسرائيل الشر فى عيني الرب فدفعهم الرب

ليد مديان سبع سنين فاعتزت يد مديان على إسرائيل.

بسبب المديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف

التي فى الجبال والمغاوير والحصون. وإذا زرع

إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو

المشرق، يصعدون عليهم وينزلون عليهم ويتلفون غلة

الأرض إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل
قوت الحياة، ولا غنماً ولا بقرأً ولا حميراً لأنهم كانوا
يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد فى
الكثرة وليس لجمالهم عدد ودخلوا الأرض لكى
يخربوها.

سفر القضاة / ٦ / ١ - ٥

ويفهم من النص أن المديانيين كانوا يشكلون حلفاً قوياً مع العمالة، والعمالة شعب مجهول إلى حد بعيد، لكن شجرة الأنساب التوراتية تعيد العمالة إلى أب أسطورى بعيد اسمه (عماليق) وتقول إن عماليق هذا من نسب آدومى فهو حفيد عيسو آدوم الجد الأسطورى البعيد لشعب آدوم (أنظر سفر التكوين ١٢/٣٦).

وفى التوراة نصوص عديدة يفهم منها أن العمالة أو العماليق كانوا ينتشرون فى سيناء وآدوم والنقب والمناطق الجنوبية من فلسطين. أما بنو المشرق فهو اصطلاح معلوم بالكتاب المقدس يشير إلى القبائل الأرامية. والنص السالف يشير إلى كثرة عددية هائلة فى جيوش هذا الحلف " كالجراد فى الكثرة " ، لكنه يشير إلى أن المديانيين قد دفعوا الإسرائيليين لحفر الكهوف التى فى الجبال وهو كلام ملتبس إذ يبدو لنا أن كاتب هذا الجزء من التوراة كان قد عرف مساكن بونت آدوم الكهفية المحفورة فى الصخور ورأى عظمتها وعابنها فنسب فعلها إلى الإسرائيليين، وهو دأب توراتى يعلمه المعتاد على التعامل مع الكتاب المقدس حيث يحاول المحرر التوراتى دوماً أن ينسب الأعمال الكبرى لبني إسرائيل.

ومن إشارات أخرى بالكتاب المقدس نفهم أن هؤلاء المديانيين قد عرفهم الناس كصناع مهرة للمعادن فهم قينيون حسبما أطلق عليهم المقدس أى حدادون. وكان الحداد فى ذلك الزمن هو مؤسسة المصانع الحربية. ويقول لنا قاموس الكتاب المقدس تحت مادة قينى:

قينيون: اسم سامى معناه حداد، والقين باللغة العربية معناه الحداد، وبنو القين قبيلة من قبائل العرب والنسبة إليها قينى. ومن سفر التكوين ١٩/١٥ نرى أن القينيين كانوا أمة مجاورة للقدمونيين والقنزيين الساكنين فى آدوم. وقد تطلع بلعام من مرتفعات بعل مواب فرأى القينيين وشبه موضعهم بالعش فى صخرة/ سفر العدد ٤١/٢٢ و ٢٤ / ٢١ ، ٢٢..
ليكن مسكنك متيناً وعشك موضوع فى صخرة.

وهنا نتذكر أن بيوت بلاد بونت قد صورت كأعشاش النحل فى الصخور وأنها ذات عين مساكن الحوريين فى بلاد آدوم. وسفر القضاة يقدم لنا تقريراً واضحاً يؤكد أن القينيين هم ذات المديانيين وأن القينى صفة للمديانى وذلك فى قوله: " وبنو القينى حمو موسى / قضاة / ١٦ / ١ " ونحن نعلم أن حمو موسى كان مديانياً.

وللمزيد من التأكد من القينيين وأنهم كانوا ذات عين المديانيين حلفاء العمالة وبنى المشرق نرحل إلى زمن أول ملوك إسرائيل المعروف باسم شاول عندما قام بحملة عسكرية على عاصمة العماليق. وطلب من القينيين أن يفكوا حلفهم مع العمالة كي لا يبيدهم معهم وأن يهجروا مواطنهم التي سكنوها معهم، أو بالنص :

أذهبوا وحيدوا وانزلوا من وسط العمالة لئلا أهلككم

معهم وأنتم قد فعلتم معروفا مع جميع بنى إسرائيل عند صعودهم من مصر. فحاد القيني من وسط عماليق.

سفر صموئيل أول ١٥ / ٦

وهو ما يعنى أن القيني كان هو المديانى حليف العمالة وبنى المشرق، وعلى مستوى علم التاريخ يحيطنا المؤرخ سليم حسن علماً بقوله: " .. نعلم من الفخار الذى جمعه جلوك من مناجم النحاس فى عرابة.. أنه كانت تقوم هناك أعمال عظيمة فى عصر الحديد المبكر. بيد أنه لا يمكن تحديد تاريخ بعينه لذلك. ولما كان إقليم مدين الواقع فى الجنوب والجنوب الشرقى فى العقبة أغنى بكثير فى النحاس.. فإنه لا يبعد أن يكون أهل موسى قد بدأوا تثميرها وبخاصة أنه كان بالقرب منهم عملاء ممتازون ولشراء هذا المعدن، وأعنى بذلك مصر وكنعان .. وكانت عشيرة مدين فضلاً عن ذلك تنعت بلفظة القينيين أى النحاسيين «^(٤).

ومن جانبه يحيطنا الكتاب المقدس علماً أن القيني هو ذلك الصانع الضارب على آلات الحديد والنحاس بتعبير سفر التكوين ٢٢/٤. وكان (نيلسون جلويك) الذى أشار إليه سليم حسن من هنية قد اكتشف عام ١٩٣٧ منجم نحاس هائل محفور فى الصخر فى جنوبى وادى عربية، لكنه ذهب الى أنه كان منجماً للملك سليمان. كما اكتشف جلويك فى وقت سابق أنقاض ميناء بلاد آدوم على خليج العقبة واحتسبه ميناء عصيون جابر الوارد بالتوراة كميناء لآدوم على خليج العقبة وذلك تحت طبقة من الرماد على مساحة واسعة من الأرض محاطة بسور حصين وبداخلها مجموعات ضخمة من أفران صهر النحاس ^(٥).

ومن جانب آخر عثر علماء الدولة الإسرائيلية أثناء وقوع سيناء المصرية تحت الاحتلال بعد هزيمة ١٩٦٧ على بقايا ميناء فى جزيرة فرعون المصرية المقابلة لميناء إيلات، فذهبوا إلى أن هناك كان موقع ميناء عصيون جابر الذى استخدمه الملك سليمان قاعدة لأسطوله إبان توسعه على حساب آدوم.

وبعد تحرير سيناء توجهت بعثة من المجلس الأعلى للآثار المصرية للتحقق من صدق ما وصل إليه علماء إسرائيل حيث عثروا على تحصينات حربية ترجع إلى عهد صلاح الدين الأيوبي. كما عثروا على فرن يستخدم فى إسالة المعادن بغرض التصنيع الحربى مبنى من الطوب الحرارى، إضافة إلى بعض أبراج المراقبة وخزانات المياه وأبراج حمام زاجل كانت تستخدم فى عمليات الإتصال العسكرى والمراسلة. وعندئذ

(٤) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٧، ص ١٣٢، ١٣١.

(٥) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ٢٣٠.

صرح المشرف على البعثة المصرية أن أهمية كشف تلك المنشآت التي تعود لزمن صلاح الدين الأيوبي تكمن في دحضه لمزاعم الأثاريين. وكان الإسرائيليون قد عثروا على بقايا معدن الحديد المنصهر، ولما كان عصر الحديد في المنطقة قد تم ترمين بدايته بحوالى عام ١٠٠٠ ق.م فقد تم ربط المكتشفات بزمن سليمان الذى حكم حوالى ذلك الزمن، لكن رئيس البعثة المصرية نفى أن يكون لهذا الحديد علاقة بزمن سليمان إنما يعود إلى فترة حكم الأيوبيين.

وقد عقب على الأمر الباحث أحمد عثمان بقوله: " إن رئيس البعثة المصرية وجد أن أفضل الطرق لدحض المزاعم الإسرائيلية بخصوص تبعية عصيون جابر للملك سليمان أن ينفى وجود هذا الميناء كلياً خلال ثلاثين قرناً من الزمان، ويرجع نشأته إلى عصر صلاح الدين الأيوبي فى الأزمنة الحديثة.. ووقد أظهرت الحفريات الأثرية التى تمت فى أواخر الستينات [يقصد الحفريات الإسرائيلية] أن أقوام سيناء المديانية المصرية كانت أول من قام ببناء هذا الميناء فى العصور القديمة فى جزيرة فرعون الواقعة فى خليج العقبة على بعد ١٢ كم جنوبى ميناء إيلات الحالى، قبل زمن سليمان فى القرن العاشر ق.م بخمسة قرون. بل تبين وجود علاقة قوية بين جزيرة فرعون وميناء عصيون جابر وبين مواقع المناجم فى وادى عربة الممتد جنوب فلسطين إلى البحر الميت.. وعند وادى منانية/ تمنا على بعد عشرين كيلو متراً شمال إيلات عثر الأثريون على بقايا أدوات صهر النحاس وتشكيله ترجع إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.. وتم الكشف عن معبد وسط تلك المناجم لمعبودة سيناء حات حور " (٦)

وإذا كنا من جانبنا نزع أن بلاد بونت التى أوفدت إليها الفرعون حتشبسوت بعثتها هى ذات بلاد آدوم عند العقبة، فإننا لم نجد فى نصوص حتشبسوت أى ذكر لا للحديد ولا للنحاس فى منتجات بونت، لكن ما لا يصح التغافل عنه ذلك النص الذى تقول فيه الفرعون: " لقد منحتهم الذهب فتلقيت منهم الذهب الأخضر من بلاد الأمو ". وإذا أخذنا العبارة بظاهرها فلن يكون مفهوماً أن تهدى الفرعون ذهباً لتتلقى ذهباً، خاصة وأن مصر كانت غنية بالذهب الذى يأتى من مناجم النوبة بوفرة عظيمة، إلا أن الكلمة الإلحاقية التوضيحية بالنص " الذهب الأخضر " تعطينا معنى يطابق النحاس والحديد مطابقة مدهشة، فكليهما يأخذ اللون الأخضر مع التأكسد. وأن يقال عن تلك المعادن أنها نوع من الذهب فلكون الحديد ثم النحاس الممزوج بالقصدير الذى يعطى سبيكة البرونز، كان فاتحة عصر جديد فى أساليب الحروب وأسلحتها فكان ربما أثمن من الذهب فى ذلك الزمن.

أما الإشارة فى نصوص حتشبسوت إلى أن تلك البلاد التى كانت تصنع هذا الذهب الأخضر فى بونت هى بلاد الأمو، فهو باب آخر يفتح النص أمام بحثنا هنا، لأن كلمة أمو أو عامو هى الاصطلاح المصرى المعلوم الذى أطلقه المصريون على غزاة بلادهم باسم الهكسوس، الذين احتلوا مصر فى زمن سابق حوالى ١٧٨٨ - ١٥٧٥ ق.م، وهو الأمر الذى سنتم معالجته تفضيلاً مع السير فى العمل بهذا البحث. لكن ما

(٦) أحمد عثمان: صحيفة الحياة العدد الصادر فى ١٨ / ١٠ / ٩٦ ص ١٢.

نوضحه هنا في إشارة سريعة هو أن بلاد بونت وفق هذا المعنى التي هي بلاد العامو كانت موطناً للهكسوس، وإذا كان الهكسوس العامو حسب نص حتشبسوت هم سكان بلاد بونت، فمن المستحيل أن تقع بونت في الصومال أو أثيوبيا أو سواحل اليمن، إنما يجب أن تقع في الشرق من حيث جاء الهكسوس . هذا ناهيك عن كون كثير من المدارس يرجح أن يكون الهكسوس من شعب قديم عرف باسم العمالقة. وهنا نتذكر فوراً نص الكتاب المقدس السالف الذي أحاطنا علماً في قصة حملة الملك الإسرائيلي شاول على العمالقة، بأن المديانيين أو القينيين كانوا يعيشون مع العمالقة بذات المواضع الجغرافية.

وكما سلف في النص المذكور يأمر النبي موسى بقتل ملوك مديان وبينهم ملك باسم (رابع)، وفي موضع آخر بالكتاب المقدس نعلم أن اسم (رابع) هذا اسم كنعاني يعنى العدد أربعة، وذكر في مواضع أخرى باسم (أربع) صريحة مع وصفه بأنه كان أعظم ملوك العماليق. وهنا نتساءل هل كان رابع هو رابع، كان اسماً متواتراً لملوك مديان منذ بارح أو رباح أو رابع في نصوص حتشبسوت؟. وأنه كان أيضاً بارح أو رابع في زمن آمنحتب الثاني الذي كان يحلو له — كما أسلفنا — التحدث باحتقار عن رابع وقوم نخسى! والمقدس التوراتي يذكر للعماليق اسماً آخر يأتي على التبادل مع (عمالقة) هو الاسم (عناقين) و (بنى عناق)؟ وقد سميت مدينة الخليل باسم كنعاني هو (أربع) زعيم العمالقة قبل أن يتغير اسمها إلى حبرون ثم إلى الخليل (أنظر سفر يشوع ١٥/١٤ و ١٣/١٥) وهو ما يؤكد صدق تحديدنا للمواطن التي اخترناها للمديانيين والعمالقة.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن لوحات بونت في معبد الدير البحري قد أشارت إلى اسمين لموضعين أو لمدينتين يعطيان رؤيتنا هنا مزيداً من الدعم والتأييد. الاسم الأول هو (أو سالعت) أو (أوزلت) ويذهب الباحث عبد المنعم عبد الحليم إلى موضعها عند ميناء (زيلع) الحالي بجنوبي الصومال حسب رأيه^(٧) بينما نجد (أو سالعت) من وجهة نظرنا تحيل فوراً إلى اسم (سالع) عاصمة آدوم وليس (زيلع) على ساحل الصومال.

أما الاسم الثاني فهو يبدو كما لو كان وصفاً للمكان الذي التقى فيه مصريو بعثة حتشبسوت بالبونتيين بميناء على سواحل بلاد بونت، والصيغة كما جاءت هي (حرجسوى واج ور) وتعني أن المقابلة قد تمت " على شاطئ البحر "، وهو برأينا تسمية لواقع حال المكان كعادة المصريين والشعوب القديمة عموماً في التسمية على واقع الحال وشكل البيئة، ونعتقد أن " على شاطئ البحر " هو اسم المدينة لوصفها بأنها ميناء. فهي باختصار تعني (الميناء) التي تلتقى مع ذات التسمية التي أطلقها المأثور الإسلامي في غزوة زيد بن حارثة زمن الدعوة الإسلامي على بلاد مدين، المكان الواقع عند العقبة باسم "ميناء" في النص السالف "إن رسول الله ص بعث زيداً بن حارثة نحو مدين.. فأصاب سبياً من أهالي ميناء". لقد كانت كلمة ميناء المعنى الذي أصبح اسماً من كلمة "حرجسوى واج ور" للميناء الذي استقبل سفن الفرعونة حتشبسوت باسم (ميناء).

(٧) عبد المنعم عبد الحليم: موجز رسالتيه.. سيق ذكره ص ٢٦.

ونميل هنا بشدة إلى الاعتقاد أن جزيرة فرعون هي بالتحديد ذلك الميناء القديم (حرجسوى واج ور) رغم أنها تبعد الآن عن يابس خليج العقبة باثنتى عشر كيلو متراً، وهو الأمر الذى يمكننا تفسيره بربطه بما جاء عند جمال حمدان فى قوله بارتفاع مياه البحر فى أكثر من منطقة، وأنه قد أدى الى انفصال مماثل فى مدن الساحل المصرى الشمالى وأغرق كثير من المدائن الرائعة كما فى آثار كوم الشقافة، وأصبح مكان الفنار القديم على الشاطئ يقبع الآن بعيداً داخل البحر، كما طغت مياه البحر على دلتا النيل وأدت إلى توسعة البحيرات الشمالية مثل بحيرة المنزلة والبرلس وغيرهما. وقد أورد جمال حمدان شهادات قديمة حفظت الحدث، كما جاء فى رواية المخزومى عن نشأة بحيرات الدلتا بواسطة طغيان البحر، وكان ذلك عام ٩٦١ ميلادية^(٨) ونظنه ذات الأمر الذى قضى على آثار عصيون جابر القديمة التى لا يزال البحث جارياً عنها حتى اليوم، مع احتمالات أنها ربما تكون إيلات وربما تكون العقبة. فالاسم (حرجسوى واج ور) ، يتطابق تماماً مع محاولة نطق اللسان العبرى للاسم المصرى (حرجسوي واج ور) ممثلاً فى الاسم العبرى (عصيون جابر).

ويشير جمال حمدان إلى تطابق حديث المخزومى مع ما جاء عند جرا سبان الأب عن ارتفاع مستوى سطح البحر منذ القرن الثانى للميلاد، ودلل على ذلك بالأطلال والبقايا الغارقة التى وجدها فى بحيرة البرلس^(٩).

ويبدو أن ذات الحدث الكونى هو الذى أدى إلى ضياع مدينة تنيس العظيمة واختفاءها من على صفحة التاريخ فيقول المسعودى والمقرئى من بعده إن المنزلة كانت جزءاً من نطاق برى عظيم لا يضارع أو يناظر فى مصر ظل كذلك إلى ما قبل الفتح الإسلامى لمصر. ونقرأ فى مروج الذهب « إن تنيس كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيبة، وكانت نخلاً وشجراً ومزارع، وكانت فيها مجارى ماء على ارتفاع من الأرض، ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جناتها وكرمها، ولم يكن بمصر كورة يقال أنها تشبهها إلا الفيوم.. لكن البحر أخترق خط التلال الرملية التى كانت تعمل كمنازل طبيعية، وسنة بعد أخرى زحفت مياهها وتوغلت إلى أن اكتسحت كل الأراضى المنخفضة الوطينة ببلدانها وقراها، تاركة فقط عدة جزر عالية بما فيه الكفاية لتتجو من الخراب »^(١٠)

وربما نبالغ لو استعنا بالمسعودى فى رواية أخرى تبدو خيالية، لكنها ترصد لنا مناطق قد غطاها البحر ولم تكن كذلك فهو يقول: « وكان فيما بين العريش وقبرس طريق مسلوكة إلى قبرس، تسلكه الدواب ببسا، ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس إلا مخاضة »^(١١).

(٨) جمال حمدان: شخصية مصر.. سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٦.

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) نفسه: ج ١، ص ٢١٧، ٢١٦.

(١١) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د. ت، ج ١، ص ٣٤٨.

ويبدو أن ذلك قد ترافق مع ارتفاع تدريجي عبر قرون لدرجة الحرارة عما كان معتاداً مما أدى إلى ذوبان الجليد القطبي الذي أدى بدوره إلى ارتفاع مستوى البحار، حيث وجدنا ما يدعم ذلك عند هروشيوش إذ يقول " وفي ذلك الزمان ذكر الفلاسفة في كتبهم أن الشمس خرجت عن طريقها في أيام القبط حتى جاوزت حد الإحراق في جميع الدنيا، وكادت أرض الحبشة لا يبقى بها إنسان ولا بهيمة، وقد اعتل بذلك بعض كتاب المجوس الجاحدين لقدرة الله بأن أنزلوا ذلك من قبل الكوكب الأحمر" ^(١٢) والكوكب الأحمر هو كوكب الزهرة عند العرب.

ومن ثم لا شك أنه قد ضاعت بهذا الفعل الطبيعي معالم كثيرة كان يمكن أن توفر كثيراً من العناء لحل ألغاز التاريخ، وضمن ذلك لا شك مساكن ومزارع وحياة كاملة لم يبق منها إلا آثار صهر النحاس في جزيرة فرعون، وبعض المباني التي تشير إلى ضجيج قديم كان يملأ المكان، أما باقي تلك المساكن كالأكواخ التي تقوم على أعمدة، فلا زالت تنتشر هناك وفي سيناء بمحيط الترايين ونوبيع ومواقع أخرى. أكواخ تحملها قوائم يصعد إليها الأهلون هناك بسلالم خشبية، وهو ما يلقي بنا في مرآة زمان بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت، فلم يزل أهل تلك المناطق يستخدمون الأسلوب القديم في بناء المساكن كما هو وبذات الأسلوب البنائي البدائي.

وهكذا فإن بلاد بونت/ بلاد الصخر/ قد عاش فيها شعب يسمى الشعب الحوري منسوباً إلى جد أسطوري باسم سكير الحوري، حتى جاء الآدوميون أبناء عيسو/ آدوم فاقتحموا المكان واستوطنوه، وفي ذات المكان استوطن فرع قبلي من فروعهم هو الفرع المدياني الذي اشتغل بالحدادة والنحاسية فسمى القيني. وفي ذات المكان وعلى امتداد نحو الشمال الفلسطيني استوطن بطن نسيب آخر هو الفرع العماليقي أو العناقي. وامتدت المساحة التي شغلها تلك الممالك أو البطون المتحالفة من جبال سرة سكير (موصري) ووادي عربة حتى عمق سيناء غرباً ربما إلى وادي العريش، مع جزء واسع من بادية شمال جزيرة العرب شرقاً، وجمع الحلف والمكان بين ثلاثة عناصر بشرية متميزة بوضوح: **العنصر الحامي الزنجي الأسود والعنصر الأحمر الذي نظنه هند وأرى، والعنصر القادم من جنوب جزيرة العرب ويمكن الاصطلاح على تسميته هنا (الجنوب جزيري).**

وقد رأت التوراة من جانبها أن تجد علاقة بين تلك القبائل الممالك، فوضعت لها شجرة أنساب جعلت فيها اسم القبيلة اسماً لسلفها البعيد، وقالت أن بين هؤلاء الأسلاف كانت روابط دم وعلاقات رحم. ومن هؤلاء الأسلاف الأسطوريين السلف الأول لشعوب المنطقة (نوح) الذي انجب أبناء ثلاثة هم: **سام أبو الساميين وحام أبو الحاميين أو الكوشيين الزنج ويافت أبو الهندوآريين،** وأنه من حام جاء أخلاف هم المصري والكوشي أشقاء، والكوشي هو الزنجي. وأنجب الكوشي سباً وحويلة وددان. أما الابن الآخر لنوح وكان يحمل اسم سام فقد أنجب أرام أبو يقطان / قحطان وحضرموت وأوفير. ومن نسله جاء البطرك إبراهيم

(١٢) أورسيوس: تاريخ العالم .. سبق ذكره، ص ١٠٤، ١٠٥.

الخليل. وأنجب إبراهيم عدداً من الأولاد منهم إسماعيل، ومن أبناء إسماعيل كان نبايوت (نابت) وقيدار ودوما وتيما وكان لإسماعيل أخ يعنينا اسمه هو مديان، ثم كان له شقيق آخر هو إسحق الذى أنجب عيسو/آدم، ويعقوب/إسرائيل. ومن عيسو جاء نسل الإخوة تيمان ورعوئيل وعماليق.

ولأن المقدس التوراتى قد رأى أن الكوشى/ الزنجى شقيق المصرى فلاشك أنه كان يردد ذكريات ذلك الترابط، مع ربط آخر للمصرى بأهل سبأ وددان وحويلة. وقد سبق وعلمنا أن ددان هو الاسم القديم لمدينة العلا الحالية شمالى السعودية وددان أو ديدون اسم أشهر آلهة النوبة المصرية^{١٣}، وسبأ تروى حولها أساطير كثيرة سنتناولها لاحقاً. أما حويلة كمكان فلم يزل موضعها مجهولاً ويحتاج منا بعض الجهد لتحديد ولو افتراضاً سياًتي في موضعه.

المهم أن ذكريات الكتاب المقدس لديها علم بصلة قديمة قوية بين منطقة سيناء وآدم وشمالى الجزيرة وبين بلاد مصر النيل، وهو ما يلتقى مع اعتبار المصريين لتلك المنطقة كحد شرقى مصرى لبلادهم. كما أن تلك الذكريات كانت تعلم أن هناك صلة وثيقة بين عيسو/آدم الحورى وبين المديانى، فجعل المحرر التوراتى عيسو ينجب رعوئيل الذى عرفناه حمياً للنبي موسى ونعلم أنه كان مديانياً قينياً. كما ربطت شجرة الانساب التوراتية تلك بين عيسو/آدم وبين العمالة، فجعلت جد العمالة (عمليق) حفيداً لعيسو/آدم، ثم أعادت تلك القرابات جميعاً إلى إسماعيل ابن إبراهيم تارة، وإلى إبراهيم نفسه تارة أخرى. فى محاولة لتفسير التحالف السياسى بين مجموع تلك الممالك الصغيرة بأعدادها الكبيرة معاً. ربما لأن لغتهم كانت متقاربة، وربما لأن ثقافتهم توحدت بحلفهم، ناهيك عن التطابق المدهش بين ذكريات المحرر التوراتى وبين نصوص الفرعونة حتشبسوت عن بلاد بونت. إذ كان العنصر الزنجى فى لوحات حتشبسوت مدعاة طوال الوقت عند المؤرخ التقليدى للذهاب بموقع بلاد بونت إلى أفريقيا، وذكريات التوراة تقول إن الكوشى/ الزنجى كان شقيقاً للمصرى. لكن نفس الذكريات كانت تقول كلاماً شديداً الغرابة وهو أن أبناء كوش كانوا يعيشون فى منطقة تقع شرقى مصر وليس جنوبها. وشرقى مصر فى سيناء وآدم، فى آسيا وليس فى إفريقيا. وأن واحداً من أبناء كوش/ الزنجى نحن على يقين من موضعه الجغرافى وهو (ددان/ العلا حالياً جنوب شرقى آدم). وسيتضح لنا فيما بعد مدى مصداقية ذلك القول التوراتى العجيب بشأن وضع الكوشى الزنجى فى آدم ومحيطها وليس فى أفريقيا.

وابتداءً يمكن القول بهذا الشأن إن العلاقات التجارية بين آدم وبين اليمن والساحل الإفريقى الملاصق لليمن عبر مضيق المندب، قد استدعت اختلاطاً للعناصر وانتقالاً وهجرات، الأمر الذى سمح بوجود العنصر الزنجى فى بلاد بونت/آدم. أما الذى نعتز بالكشف عنه فهو أن البلاد التى كانت النصوص المصرية تطلق عليها اسم (ميتان/ن ح ر ن) أو بلاد الحوريين هى ذات بلاد مديان/آدم / النابرى/ أو النهرية أو النارية أو ذات النهارين، هى ذات بلاد موصري/ مديان الواقعة فى وادى عربية وجبال سراة سكير فى حضن

(١٣) سليم حسن: مصر القديمة، ج ٤، ص ٣٤٦، ٣٠٩.

الصخور، وإن العاصمة كانت هي الصخرة الكبرى/ آدوم الكبرى/ شمس آدوم/ بونت/ سالع/ البتراء، وكلها تعنى معنى واحد هو الصخرة.

وقد سبق وعلمنا أن علماء المصريات قد عثروا ضمن ما عثروا عليه من آثار مكتوبة تعود إلى دولة ميتاني (المزعوم أنها تقع أعالي الفرات) على خطاب ضمن مكتبة تل العمارنة بمصر، مرسل من قبل الملك الميتاني (دوشراتا) إلى صديقه الفرعون (آمنحتب الثالث) ومع اسم (دوشراتا) هذا نقف هنيهة.

لو افترضنا وجوب البحث عن معنى كلمة دوشراتا في المصرية القديمة فسيكون - كما سلف بيانه - أرض الصحراء أو الجبال أو الصخور، فهذا الاسم كان الاصطلاح الذي يطلقه المصريون على الصحارى (دشرت) وكذلك على اللون الأحمر الأمغر وهو لون صحارى سيناء وآدوم. ولو افترضنا وجوب البحث عن معنى الاسم في الساميات فيجب قراءة الكلمة (ذو الشرى) الذى ربما كان معناة (صاحب السراة)، ونحن قد وضعنا الملك ومملكته في جبال سراة سكير. وليس في الموضع المزعوم لميتاني بأعالي الرافدين فهل نجد في بلاد آدوم أى دليل أو أية إفادة بشأن هذا الملك واسمه؟ إن ما نعلمه يقينا أنه من بين أبرز آلهة آدوم كان إلهها يحمل اسم (ذو الشرى) ظل يعبد هناك حتى ظهور الإسلام. وفي الحديث عن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تصطك إليات عذارى دوس على ذى الشرى " (١٤).

ولمزيد من المعرفة بشأن ذى الشرى أو دوشراتا نجد حكاية لدى المؤرخ (هيرودشوش) عن الزمن الذى مات فيه (إسرائيل/ يعقوب) تقول: " وفى ذلك الزمن مات شرايس أمير مصر الذى زعموا أنه صار من الأوثان " (١٥). وهو ما يشير إلى ملك باسم شرايس حكم مصر وبعد موته تحول إلى إله معبود، لكننا أبداً لم نجد فى قوائم ملوك مصر جميعاً فرعوناً حكمها باسم (شرايس). ولما كان هرشوش قد كتب تاريخه باليونانية فعلياً هنا أن نحذف التصريف الاسمى اليونانى فيصبح (شرى). أما أين تقع مصر هذه التى كان أميرها يدعى شرى وتم تقديسه وعبادته بعد موته فهو ما يأتى واضحاً فى حديث هرشوش:

وأما مصر الأقصى فإنه بلد ممتد إلى ناحية المشرق،
وحده فى الجوف [الجنوب/ المؤلف] خليج العرب]
يقصد خليج السويس / المؤلف] وفى القبلية [الشمال /
المؤلف] البحر المحيط. وفى الغرب مبتدأ من مصر
الأدنى .. وفيه من الأجناس ثمانية وعشرون
جنساً. (١٦)

(١٤) د. إحسان عباس: تاريخ دولة .. سبق ذكره، ص ٣٦.

(١٥) أورسيوس: تاريخ العالم .. سبق ذكره، ص ٩٧.

(١٦) نفسه: ص ٦٢.

إنها إذن شبه جزيرة سيناء فى امتدادها من خليج السويس (خليج العرب) نحو المشرق عند هيروشيوش، وسنلاحظ بعد ذلك كيف أن صفة خليج العرب قد أصبحت تطلق على خليج (السويس)، منذ زمن سابق على المؤرخين الكلاسيك. ومصر الأقصى عند هيروشيوش تبدأ فى غربها من مصر الأدنى (السفلى/ الدلتا)، وهو الموقع الذى يتطابق مع تفسيرات المؤرخين للموطن مصرى الذى ورد فى الكتابات الرافدية وكتابات العمارنة، وقلنا أنه هو سيناء وآدم وجزء من شمالى جزيرة العرب.

والطريف أن ملوك تلك العهود فى منطقة الشرق الأوسط كانوا يعلمون أن تلك المنطقة رغم استقلالها النسبى كانت تابعة لسلطان الفراعين، فجدد رسائل ملوك بابل وآشور بمكتبة العمارنة بمصر تخاطب الفرعون عندما تتعرض قوافلهم التجارية للنهب فى آدم بقولهم: " إن قومك قد تعرضوا لقوافلنا ونهبوها " (١٧).

وإذا كانت منطقة وادى عربية هى الأصل الأول والأصيل للعرب والعربية، وإن أصول اللغة العربية قد انطلقت من عند انباط وادى عربية، فإن ما يجب ألا يفوتنا هو أن علوم اللغات قد توصلت الآن إلى حقيقة مبهرة تؤكد تبعية تلك البلاد لمصر حتى فى ثقافتها. إذ أمسى معلوماً أن اللغة المصرية القديمة كانت أصلاً مؤسساً فى اللغات السامية وبخاصة العبرية والعربية، بعد أن تم تحقيق أكثر من ثلاث آلاف كلمة مشتركة بين الهيروغليفية وبين العربية القاموسية مبنى ومعنى. وأن هذا العدد بذاته يعد لغة كاملة بالنسبة لذلك الزمان. (١٨) وهو الأمر الذى سيثبتته نشاطنا الباحث بين اللسانين بطول هذا الكتاب .

أما القاطع فى علاقة مديان/ آدم الحورية بالوطن الأم مصر فهو ما جاء فى رواية المصروولوجيست (نافيل) عن الأساطير المصرية التى تتناول أصول العنصر المصرى، وتؤكد أن المصريين قد جاءوا من بلاد النوبة السوداء إلى مصر، وأنهم انتشروا من هناك حتى وصلوا إلى مناطق بعيدة شرقى الفرع البيلوزى للنيل. والمناطق البعيدة شرقى الفرع البيلوزى ليست شيئاً سوى سيناء وآدم، لأن الفرع البيلوزى كان آخر فروع الدلتا شرقاً فى التحامها مع البوادر السينائية. وتختتم الأسطورة سطورها بقولها إن المصريين كانوا يعبدون من زمن سحيق الإله الصقر حور أو حورس " وقد أقام رجال حورس [الحوريين / المؤلف] هناك وكانوا يسمون الحدادين " (١٩).

أليست تلك بقريئة شديدة الوضوح والدلالة على صدق كل ما وصلنا إليه حتى الآن؟

ومن المفيد هنا أن نستمع إلى الدكتور عبد المنعم عبد الحليم وهو يسلم بمسلمة منتهية رغم تناقضه فى أبحاثه مع هذه الحقائق وهى أن الإله حور والإله مين والإلهة حتحور هى مجموعة آلهة ترتبط ببلاد بونت. ورغم أنه من أتباع المدرسة التقليدية التى تذهب ببلاد بونت إلى الصومال، إلا أنه فى الوقت ذاته يعيد تلك

(١٧) عز الدين خير: أضواء عربية.. سبق ذكره ص ٣٤.

(١٨) مرعى عبد الرحمن: الإمبريالية اليهودية، المطابع الموحدة، ١٩٨٧، ص ١٣.

(١٩) شيخ انتاديبوب: الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة ١٩٩٥، ص ١١٧.

الآلهة إلى أصول عراقية رافدية قديمة^(١٩) وأنها قدمت من الرافدين لتعبد في مصر منذ زمن مبكر عبر الطرق الصحراوية الشرقية. ونحن نعلم أن حتحور ظلت طوال تاريخ مصر القديمة ربة سيناء العظمى. ثم يقول: إن خط انتقال هذه المؤثرات كان يمر عبر مناطق أفريقية وآسيوية، وعلى هذا فمن المرجح أن انتقال هذه المؤثرات إلى مصر قد تم بواسطة شعب أو جماعات كانت تسكن مناطق متوسطة بين مصر والعراق، وتقوم بدور الوسيط في الاتصالات بين الطرفين، وربما كان هذا الشعب أو الجماعات نوعاً من الوسطاء التجاريين. ولعلمهم كانوا الوسطاء الذين يشتغلون بتجارة البخور الرائجة على السواحل الإفريقية والآسيوية للبحر الأحمر منذ العصور المبكرة، كما يشير إلى ذلك نص من عصر حتشبسوت فيما بعد .

لكن لأن الدكتور عبد الحليم يرى أن بلاد بونت لا بد أن تقع على الساحل الصومالي حيث الكندر أو لبان الذكر . الذى يزعم أنه هو الذى استجلبته بعثة حتشبسوت من الصومال وأعدت استزاعه أمام ساحة معبدها بالدير البحرى وليس ما ثبت الآن أنه شجر برسيا/ التين، فقد استطرده يقول: دون أن يشعر بأى تناقض " وربما كان الوسطاء من سكان الساحل الإفریقی للبحر الأحمر (بونت) هم الذين نقلوها مباشرة إلى مصر حيث استقرت فى مراكز عبادة الآلهة التى ارتبطت ببونت " ^(٢٠). هكذا^(١٩). لقد قام الصوماليون بالسفر إلى العراق وعادوا عبر البوادي الشرقية لمصر بهذه الآلهة. هذا ما يقوله عبد الحليم ^(٢١) .

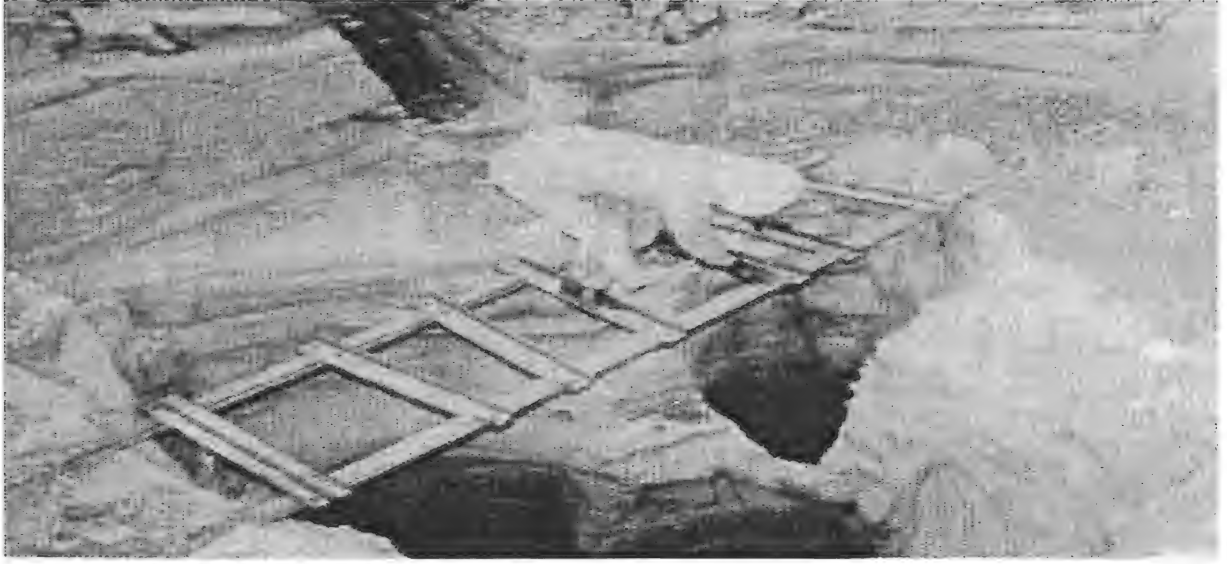
وبالنسبة للتأثير العراقى فإنه سيتضح فى الفصول القادمة، أما أن يكون الإله حور قادما من بلاد الحوريين الذين حددنا موضعهم فى بلاد آدوم فهى قرينة أخرى نضعها ضمن رصيدنا.

وإذا كانت الكلمة (كيميت) تعنى مصر فإنها تعنى أيضاً: حامى، أسود، زنجى، أبنوس ^(٢١) وهو خشب أسود نادر. وفى تاريخ هيرودوت معلومة حول الأثيوبيين تعيننا هنا فهو يقول إنهم كانوا يسمون المعمرين وإن أثيوبيا كانت مصدراً لرجال يتفوقون على بقية الجنس البشرى بارتفاع قاماتهم^(٢٢). وهو ما يطابق صفات نعلمها فى شعب سكن بلاد آدوم أطلقت عليه العربية والعبرية اسم العماليق/ العناقين. وهو موضوع آخر يحتاج إلى جهد آخر.

^(٢٠) عبد المنعم عبد الحليم: موجز رسالتيه .. سبق ذكره، ص ٣٥.

^(٢١) شيخ أنتاديوب: الأصول .. سبق ذكره ، ص ٢٦.

^(٢٢) نفسه: ص ٨٠.



شكل رقم (٢٨) نموذج للمناجم القديمة العديدة في آدوم، فوهة منجم بوادي فنان



شكل رقم (٢٩) تمثال نبطي للمعبود القديم ذي الشرى

المديانيون والإسماعيليون والعماليق والأراميون

يفيدنا المؤرخ (هروشيوش) أن المنطقة السيناوية الواقعة بين ذراعى البحر الأحمر، أو كما أسماه اليونان البحر الأريتري، أو بحر سوف كما أسمته التوراة، مع امتداد هذه البوادي السيناوية شرقاً إلى شمالي الحجاز، قد سكنها ثمانية وعشرون جنساً. وهى فى رأينا بطون وأفخاذ وفروع وأسابط لعدد من الأجناس الرئيسية، ساعدت ظروف تاريخية على التقائها فى هذه المساحة من العالم القديم. وهو الأمر الذى سيتم بحثه تفصيلاً فى مواضعه من هذا البحث . لكننا حتى الآن قد أمسكنا على الأقل بشعبيين منهم يجمعان بين عدة أسماء نطقته ألسن مختلفة، للدلالة على المكان أحياناً، وللدلالة على الشعب نفسه حيناً، وللدلالة على صنعة هذا الشعب طوراً، أو صفاته الجسدية طوراً آخر، ذلك الشعب الذى حمل اسم الشعب الحورى / الآدومى / الأحمر / والشعب المديانى / القينى الذى يعيش فى سراته سعيير حول وادى عربة.

والشعب المديانى واحد من أوائل الشعوب التى سكنت تلك المواضع القديمة وذكره الكتاب المقدس تفصيلاً، وهو ما نقابله أول ما نقابله فى قصة السبط يوسف وإخوته الأحد عشر أبناء البطرك يعقوب بن إسحق بن إبراهيم. وتحكى الأقصوصة أن الأسباط المكرمين قد أرادوا التخلص من أخيه المتميز فتاك الجمال يوسف، فأخذوه بحجة قضاء يوم مرح فى البرارى وقد أضمروا له السوء. وهناك - نقول التوراة -:

جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا، وإذا قافلة
إسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم حاملة كثيراء
وبلسانا ولادنا، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال
يهودا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه؟
تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه
أخونا ولحمنا، فسمع له إخوته . واجتاز رجال مديانيون
تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر.

تكوين ٣٧ : ٢٥ : ٢٨

النص واضح وبسيط ومباشر، فالإخوة الكرام من أسباط النبوة فكروا فى التخلص من أخيهم الحالم بالحلم المختال بنفسه، مع تحقيق فوائد إضافية ببيعة لقافلة من قبائل التجار الإسماعيليين، لكن فجأة يختلط الأمر بالنص فيخبرنا أن قافلة من القبائل المديانية شاهدت يوسف بالبئر الجاف فسحبوه منه. لكن ليعود الكتاب المقدس ويقول: إن إخوته..

باعوا يوسف للإسماعيليين فأتوا بيوسف إلى مصر .

تكوين ٣٧ / ٢٨

ثم لمزيد من إرباك المؤمن والباحث معاً وعميقاً للالتباس تعود قصة التوراة الى المديانيين فنقول

وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار رئيس
الشرط

تكوين ٣٧ / ٣٦

وتكرر التوراة ذهابها ومجيئها بين الإسماعيليين والمديانيين لتعود فنقول:

وأما يوسف فأنزل به إلى مصر واشتراه فوطيفار
خصي فرعون رئيس الشرط. رجل مصرى. من يد
الإسماعيليين

تكوين ٣٩ / ١

فهل كان الكاتب التوراتي يحمل هذا الكم من الإرباك والارتباك في نص واحد صغير بالكتاب المقدس ؟ الواضح لنا أن المحرر التوراتي لم يكن يشعر بأى تناقض وهو يروى تلك الرواية. لأنه كان يعلم أن الإسماعيليين هم ذاتهم المديانيين، خاصة إذا تذكرنا أن البرية التي سكنت فيها هاجر مع ولدها إسماعيل في قصة طرد إبراهيم لهما، كانت تحمل اسم برية فاران والتي حددنا نحن موقعها بشرقى سيناء عند وادي باران إلى الغرب مباشرة من البتراء حيث سكن المديانيون. أما الصفة اللاصقة بالإسماعيلي والمدياني فكانت التجارة وضمنها تجارة العبيد بحسبان بيعهم يوسف في مصر .

ولمزيد من التأكد من صحة زعمنا أن المدياني كان هو ذات عين الإسماعيلي، وإن محرر التوراة كان يعلم ذلك يقيناً، نتصفح الكتاب المقدس على أناة لنجد كثيراً من الشواهد الواضحة التي تؤيد زعمنا هذا. ففي الحروب التي حدثت زمن قضاة إسرائيل، وقفت إسرائيل ضد مديان في معركة شرسة كان قائد الإسرائيليين فيها يحمل اسم جدعون، وهنا يقول الكتاب المقدس:

فقام جدعون وقتل زبح وصلمناع وأخذ الأهلّة التي فى أعناق جمالهم. وقال رجال
إسرائيليون لجدعون. تسلط علينا أنت وابنك وابن ابنك لأنك خلصتنا من يد مديان .. فقال
لهم جدعون : أطلب منكم طلبه، أن تعطونى كل واحد أقراط غنيمته، لأنه كان لهم أقراط
من ذهب لأنهم إسماعيليون.

قضاة ٨ / ٢١ - ٢٤

النص هنا يعطينا كثيراً من المعلومات التاريخية القديمة التي حفظتها لنا ذاكرة المحررين التوراتيين، فنفهم أن القبائل الإسماعيلية كان رجالها يترينون بأقراط ذهبية مصنوعة على هيئة الهلال ويزينون جمالهم

بها، وهو ما يشير إلى اليسار المادى كما يشير إلى قدسية الهلال، ومعلوم أن الهلال كان دوماً كبير أرباب البوادي والبرارى. ولم تنزل الأهلّة (جمع هلال) الذهبية فى بلادنا هى الزينة المستحبة لدى نساء العربان المتبدين على حافة الوادى. وكان شرط جدعون كى يستمر فى قيادة الإسرائيليين ضد المديانيين أن يأخذ مكافأته ونصيبه من الغنيمة ذلك الذهب المصنوع فى شكل أهلّة . ثم يوضح النص أن لبس الأهلّة كان خاصية إسماعيلية فلماذا يلبسه المديانيون؟ هو ما يجب عليه النص بوضوح كاشف " لأنهم إسماعيليون ". مرة أخرى نؤكد أن المحرر التوراتى كان يعلم أن كليهما كان واحداً، أو أن المديانى كان بطناً إسماعيلياً، وأنهم كانوا معاً يتوطنون ذات المنطقة فى جبال سرة سعيير ووادى عربة.

وعادة ما يلمح الكتاب المقدس إلى حلف كبير كان يربط بين مجموعة القبائل التى استوطنت جنوبى فلسطين فى العربة. وأهم تلك التلميحات المتكررة ما جاء يربط بين المديانيين أو الإسماعيليين وبين قبائل عاشت فى ذات المواطن حملت اسم العمالقة. وقد ذكر العمالقة كجنس باعتبارهم نسلاً لآدوم عيسو الحورى فهم آدوميون حوريون بدورهم وأنهم كثرة عددية هائلة كالرمل الذى على شاطئ البحر أو كالجراد، وأن جمالهم لا عدد لها ولا تحصى. وقد أورد المقدس تكوين هذا الحلف أكثر من مرة بحسابه يتكون من المديانيين والعمالقة وبنى المشرق. و(بنو المشرق) هو الاصطلاح التوراتى الذى يأتى على التبادل مع اصطلاح (الأرامى). والأرامى نسبة إلى آرام وإرم، والإرم هو فى اللغات السامية كومة من الأحجار المرتفعة أو هرم أو هضبة أو جبل أو صخرة . وبالطبع يعيننا هنا معنى الصخرة التى نحيلها فوراً إلى سالع / البتراء / الصخرة / بونت.

وهنا فقط يمكن أن نلمس امتداداً لهؤلاء فى عدد من الممالك المتناثرة بالفرات الأعلى، حيث أنشأ الأراميون فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد عدداً من الممالك هناك، يغلب على ظنى أنها مما أوعز للمؤرخين بوضع بلاد آدم فى / ميثانى بأعلى الفرات لعل أشهرها مملكة بيت جبارى التى سميت أيضاً (سمعل) ومملكة بيت أدينى^(١). ومملكة بيت أدينى هى مملكة بيت أدون أو عدن أو آتن على مختلف التنغيمات وأدينى تعنى السيد أو الرب. أما سمعل فكما هو واضح تحيل إلى الاسم (إسماعيل). وإسماعيل حسب تقسيم الأجناس على الشجرة التوراتية فرع إبراهيمى شقيق للفرع الإسرائيلى.

والمدهش حقاً أنه ما أن يظهر الأراميون على صفحة التاريخ حتى يبدأ ذكر القبائل الإسرائيلية على الترافق، مع ذكر لقبائل تحمل اسم العابيرو / الخابيرو / الأبيرو / العبرى فى نصوص المنطقة، والأكثر انسجاماً هو اصرار الكتاب المقدس على تذكير الآباء التوراتيين بأصلهم الجنسى، فيشير دوماً إلى ذلك الجنس أو الأب البعيد والجد السالف بقوله:

أراميا تائها كان أبى

تنثية ٢٦ / ٥.

(١) أ. ر. جرنى : الحثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر، مطبوعات البلاغ، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٦٣ : ٦٥.

والمقدس يسفر عن صلات نسب وقربى وأصل واحد بين البيت الإسرائيلي عبر الفرع الآدومى وبين البيت الإسماعيلي، وان تلك الصلات الحميمة تمثلت فى زيجات متبادلة كما حدث فى زواج عيسو آدوم من بنت إسماعيل:

« فذهب عيسو إلى اسماعيل وأخذ محلة بنت إسماعيل

بن إبراهيم أخت نبايوت زوجة له على نسائه »

تكوين ٢٨ / ٩

كما تزوج موسى بحسبانه إسرائيليا من مديانية هى صفورة بنت رعوئيل / يثرون. ورغم ذلك فقد بدأت العداوات بين الإسرائيليين والمديانيين مبكراً، خاصة بعد خروج بنى إسرائيل من مصر عائدين إلى كنعان. ثم أخذت شكلها الصريح فى صراع اشتد أوره زمن قيام مملكة بنى إسرائيل فى فلسطين، فدخل الإسرائيليون غمار حروب عدة مع أسلافهم الأراميين الذين انتشروا فى المنطقة جميعاً وأسسوا عددا من الممالك فى سوريا على تخوم إسرائيل الشمالية، وكانوا دوما شوكة فى حلق الإسرائيليين. وفيما يبدو أن عداة الأقارب الإسرائيليين والأراميين كان عريقاً. فماذا يقول علم التاريخ عن الأراميين؟

يمثل الأراميون واحدة من بين آخر الموجات المهاجرة التى تدفقت على منطقة بلاد الشام، ويميل بعض المؤرخين إلى ترمين ظهورهم فى التاريخ لأول مرة بحوالى عام ١٠٠٠ ق.م^(٢). وبعضهم يبعد بالأراميين إلى الوراء قليلاً فيحدد ظهورهم بما بين عامى ١٤٠٠ و ١٢٠٠ ق.م^(٣) لكن ليس قبل ذلك إطلاقاً. ويبدو أن أصل الأراميين ظل مثار تخمينات عديدة، ولم يستقر علم التاريخ على المنطلق الأصلى والوطن الأول لهم. فهم يظهرون فجأة كعنصر جديد فى المنطقة، ويتدفقوا على بواى الشام ويزيحوا منها الأموريين والحيثيين فى وادى العاصى ويحتلوه جميعه، ثم يستوطنوا الفرات الأعلى ويقيموا عدداً من الممالك فى المواضع المفترض زعماً أنها كانت من قبل ذلك مملكة ميتانى الحورية فى أعالى الفرات. على أنهم أخفقوا فى إقامة وحدة سياسية تجمع شتات ممالكهم الصغيرة، ورغم إخفاقهم السياسى فقد انتشر تراثهم اللغوى والثقافى لينتشر فى المنطقة وتصبح لغتهم لغة رئيسية ولغة للحوار الدبلوماسى بين دول المنطقة. وقد حدث ذلك فيما يقول المؤرخون بعد أن أخذوا الحروف الهجائية الفينيقية، وعن الأراميين أخذ الإسرائيليون خطهم المربع فى القرن السادس قبل الميلاد^(٤). وتحيطنا المراجع العراقية القديمة علماً أن أشهر القبائل الآرامية الأولى التى ظهرت فى المنطقة قد دونت باسم قبائل الأخلامو التى تترجم إلى الأحلاف. وكان ذكرهم قد جاء فى مدونات حداد نيرارى الأول الآشورى عام ١٣٠٠ ق.م حيث سجلت نصوصه أن والده قد حارب الأخلامو^(٥).

(٢) موسوعة تاريخ العالم: ج ١ ص ٧٨.

(٣) طه باقر: الوجيز: سبق ذكره، ص ٤٩٤.

(٤) نفسه: ص ٤٩٧، ٤٩٨.

(٥) نفسه: ص ٤٩٤.

ومن الممالك التى أسسها الأراميون فى بلاد الشام وتذكرها لنا موسوعة تاريخ العالم ممالك: قرقميش وأرباد وحلب وإنطاكية وقادش العاصى وحماه وتدمر ودمشق. وترى الموسوعة أن هجرتهم التى أدت إلى ظهورهم المفاجئ هذا ربما كانت نتيجة لطرد الهكسوس من مصر حوالى ١٥٨٠ ق.م^(٦). وهو ظن يفترض ضمنا أنهم كانوا غزاة مصر الهكسوس.

وهكذا، ورغم اتفاق المؤرخين على عام ١٤٠٠ ق.م كأبعد زمن يمكن تحديده لظهور الأراميين فى المنطقة، فإن هناك ما يشير إلى تواجدهم فيها منذ زمن أبعد مما تواضع عليه المؤرخون، فنقول الموسوعة ذاتها : « أن (نرام سين) شن حملات عسكرية على أرام »، وتعقب الموسوعة « والإشارة إلى أرام فى نقوش نرام سين تدعو إلى الحيرة »^(٧).

أما المؤرخ العراقى طه باقر فيستند إلى رأى يحل المشكلة حلا سهلا فهو يقول : « من المستبعد أن يكون الموضع الوارد بهيئة أرامى ARAMI وأسماء بعض الأعلام مثل أرامو ARAMU فى نصوص العصر الأكدي وسلالة أور الثالثة لها صلة بالأراميين بالنظر إلى قدم العهد. ولذلك فيرجع أن يكون ذلك مجرد تشابه لفظى ولا يُعرف بالتأكيد معنى كلمة أرامى هنا »^(٨).

هذا ما كان من شأن الأراميين فهم شعب مجهول الموطن والأصل، أسمهم يعنى الصخرة أو بالأحرى الصخريين ظهوروا فجأة فى انتشار سريع وكثيف فى بلاد الشام بعد طرد الهكسوس من مصر، لكن هناك نصوص ربما تشير إلى وجودهم قبل ذلك أربكت المؤرخين، حتى أن تلك النصوص تعود إلى حوالى ٢٤٥٠ - ٢٣٥٠ ق.م، أى قبل أبعد زمن مفترض لوجود الأراميين بالمنطقة بأكثر من ألف عام إلى الوراء . ثم أن نصوص حتشبسوت قد حدثتنا عن عنصر قائد سيادى فى بلاد آدوم وأسمته (إرم)؟!!

هذا مع ما علمناه أن الأراميين كانوا أصلا لعدد من الشعوب فكان منهم الأب إبراهيم وبالتبعية الإسماعيليون المديانيون والآدميون والإسرائيليون. فماذا عن العمالة ؟ وأين استوطنوا؟ التوراة تدخل العمالة فى ذات البطون النسبية، فهم نسل عمليق حفيد عسيو / آدوم وهم بهذا المعنى كانوا عضوا ضمن أعضاء حلف الأخلامو أو الاحلاف فأين عاش العمالة؟ سؤال تأتى عليه إجابة أولى أنهم قد استوطنوا بلاد آدوم لا شك، بحسبانهم أحفاد الجد الأسطورى البعيد عيسو آدوم. لكن التوراة تعطينا إفادات أخرى حيث نجد أنهم ينتشرون فى شبه جزيرة سيناء حيث التقى بهم الإسرائيليون عند خروجهم من مصر فى منطقة باسم رفيديم قرب الجبل المقدس (جبل الله حوريب/ جبل موسى وكاترين الآن)، وأنه قد دارت بينهم موقعة حربية يشرحها نص الكتاب المقدس إذ يقول:

وأتى عماليق وحارب إسرائيل فى رفيديم.. فقال الرب

(٦) موسوعة تاريخ العالم: ج ١ ص ٧٨.

(٧) نفسه ج ١ ص ٧٩.

(٨) طه باقر : الوجيز .. سبق ذكره ، ص ٤٩٣.

لموسى اكتب هذا تذكاراً فى الكتاب وضعه تحت
مسامع يشوع،، فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت
السماء .. وقال: إن اليد على كرسى الرب، للرب
حرب مع عماليق من دور إلى دور [أى من جيل إلى
جيل / المؤلف].

خروج ١٧ / ١٦، ١٤، ٨.

كما نجدهم - حسب ذات المقدس - فى مدينة حبرون / الخليل الحالية جنوبى فلسطين فى التحامها
مع امتداد سيناء الشرقى. وتبدو حبرون فى القصص التوراتى أحد المعاقل الكبرى للعمالقة، ويحيطنا قاموس
الكتاب المقدس علماً بشأن حبرون فيقول تحت مادة: حبرون:

حبرون اسم عبرى معناه: **عصبة، صحبة، رباط،**
إتحاد.. مدينة فى أرض يهوذا الجليلية (يشوع ١٥ /
٤٨، ٥٤) ودُعيت أصلاً مدينة **أربع ..** (تكوين ٢٣ /
٢ ويشوع ٢٠ / ٧) .. وقد بنيت سبع سنين قبل
صوعن فى مصر (عدد ١٣ / ٢٢)، وكانت موجودة من
وقت مبكر فى أيام إبراهيم الذى سكن بعض الزمن فى
جوارها تحت بلوطات أو بطمات ممرا (تكوين ٣ /
١٨، ٣٥ / ٢٧). وماتت سارة هناك فاشتري إبراهيم
مغارة المكفيلة لتكون قبراً، وقد اشتراها من الحيتيين
الذين كانوا يملكون المدينة حينئذ (تكوين ٢٣ / ٢ -
٢٠) .. وزارها جواسيس موسى ووجدوا **العناقين**
ساكنين فيها (عدد ١٣ / ٢٢). وكان ملكها هو هام أحد
أربعة ملوك **تحالفوا** مع أدونى صادق ضد يشوع..
وعندما احتل الآدوميون جنوب يهوذا وقعت حبرون
ضمن أماكن أخرى فى أيديهم .. وحبرون الآن هى
مدينة الخليل .. وحبرون واقعة فى الوادى وعلى
منحدر وتعلو ٣٠٤٠ قدماً فوق سطح البحر وعلى بعد
ثلاثة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربى من أورشليم .

كما انتشر العمالقة الذين يحملون أيضاً اسم بنى عناق أو العناقين فى النقب الذى يشير إليه التوراة باسم
الجنوب، وهو ما جاء على لسان جواسيس موسى قائلين:

رأينا بنى **عناق** هناك **العمالقة** ساكنون فى أرض

الجنوب .. هناك الجبابرة من بنى عناق من الجبابرة.

عدد ١٣ / ٢٧ - ٣١

وعند موقع من المواقع المتطرفة فى رحلة الخروج على الخط الشرقى لشبه جزيرة سيناء جاءنا اسمه فى التوراة (حرمة)، دارت معركة كبرى بين الإسرائيليين وبين العمالقة، وهو الموضع الذى كان أصلاً فيما يبدو باسم حرمة أو الحمراء:

فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون فى ذلك الجبل
وضربوهم وكسروهم إلى حرمة.

عدد ١٤ / ٤٥.

وموقع حرمة هنا تم تحديده بإحداثيات تؤكد أنه قرب جبال سعين، فيما بين قادش سيناء (عين قديس حالياً) وبين عصيون جابر على خليج العقبة، وأنه كان على الحد الغربى لبلاد آدوم بالتدقيق والتحديد وربما كان فى الموقع المعروف الآن باسم وادى حور. ثم لدينا نص آخر يحدد بدقة موقع معركة حرمة على لسان موسى وهو يخطب فى شعبه :

فكلمتكم ولم تسمعوا بل عصيتم قول الرب وطغيتم
وصعدتم إلى الجبل. فخرج الأموريين الساكنون فى
ذلك الجبل للقائكم وطردوكم كما يفعل النحل. وكسروكم
فى سعين إلى حرمة، فرجعتم.. وقعدتم فى قادش
أياماً كثيرة.

تنثية ٤٣ / ٤٦

والمعلوم أن هذه الرواية كانت تتحدث عن محاولة اختراق الركب الخارج من مصر مع موسى لبلاد آدوم متحركاً من مستقره السينائى قادش.

ثم نفهم من المقدس أن العمالقة كانوا ينتشرون داخل فلسطين ذاتها، حيث يقول سفر التنثية لشعب إسرائيل عند عبوره الأردن إلى فلسطين:

إسمع يا إسرائيل: أنت اليوم عابر الأردن لى تدخل
وتملك شعوباً أكبر وأعظم منك، ومدناً عظيمة
ومحصنة إلى السماء. قوما عظاماً وطوالاً . بنى عناق
الذين عرفتهم وسمعت. من يقف فى وجه بنى عناق؟
فاعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك ناراً آكله،
وهو يببدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعاً.

وكانت وصية الرب لإسرائيل شعبه:

أذكر ما فعله بك عماليق فى الطريق عند خروجك من مصر. كيف لاقاك فى الطريق وقطع من مؤخرتك كل المستضعفين ورائك وأنت كليل متعب ولم يخف الله. فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك نصيباً كى تمتلكها، تمحو ذكر عماليق من تحت السماء. لا تنسى.

وقد حرص يشوع الذى قاد رحلة الخروج بعد موت موسى على تعميق العداء للعمالق العناقين وهو ما يقوله النص:

وجاء يشوع فى ذلك الوقت وقرض العناقين من الجبل من حبرون ومن عناب ومن جميع جبل يهوذا.

وقد سبق وأشرنا إلى أن حبرون التى تعنى (الحلف) كانت مقر الملك الأعظم للعمالقة وكان يدعى أربع وسميت باسمه وكانت قبل ذلك تدعى ممراً. وهو مادونه نص التوراة: واسم حبرون قبلاً قرية أربع الرجل الأعظم فى العناقين.

وهكذا يبدو واضحاً أن العمالق كانوا البطن الأقوى بين بطون الأحلاف أو الأعلام، وكانوا ينتشرون انتشاراً واسعاً فى سيناء وسعير وفلسطين الجنوبية. لذلك نجدهم بحاجة لمزيد من البحث وراءهم لتحديد هويتهم ودورهم فى الأحداث بشكل أكثر تفصيلاً.

وبفينا الكتاب المقدس أن الإسرائيليين بعد خروجهم من مصر وغزاهم لبلاد كنعان الفلسطينية، عاشوا حوالى أربعة قرون فى ظل نظام بدوى ابتدائى يُعرف بنظام القضاة، حيث يحتكمون فى شئونهم إلى قاض أعلى عادة ما يكون هو الكاهن فى الوقت ذاته، ويمثل شئون التقديس والسلطة العليا فى المجتمع.

وبعدها تحولوا إلى النظام الملكي وكان أول ملوكهم الذى حمل اسم شاؤول أو شاول الذى قضى حياة نشطة حافلة بالأحداث، وأهم هذه الأحداث صدامه مع العماليق فى معركة كبرى حدثت فيما يقول الكتاب المقدس بأمر من يهوه الرب نفسه، وهو ما يروييه الكتاب المقدس فى قوله:

هكذا يقول رب الجنود: إني افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له فى الطريق، عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرّموا (أى: أبيدوا) كل ما له ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً بقرّاً وغنماً، جماً وحماراً، فاستحضر شاؤول الشعب وعدّه فى طلائيم، مئتى ألف راجل، وعشرة آلاف رجل من يهوذا، ثم جاء شاؤول إلى مدينة **عماليق**، وكمن فى الوادى، وقال شاؤول للقينيين: اذهبوا وحيدوا وانزلوا من وسط العماقة لئلا أهلككم معهم، وأنتم قد فعلتم معروفاً مع جميع بنى إسرائيل عند صعودهم من مصر، فحاد القينى من وسط عماليق، وضرب شاؤول عماليق من **حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر**.

صموئيل أول ١٥/٢-٧

ورغم أنه لم يتم تحديد موضع حويلة، إلا أن المظنون أنها كانت تقع على أطراف سيناء الشرقية، وهو ما يعنى أن شاؤول خاض معركة كبرى فى مدينة العماقة المجهولة بدورها، انتهت بضعفهم تماماً، وكانوا حسب النص ينتشرون من حويلة حتى حدود الدلتا حيث " شور التى مقابل مصر "، ويبدو أن هذا الضعف الذى أصاب العماليق قد سمح لسبط إسرائيلى، كان يسكن جنوبى فلسطين هو سبط شمعون، لى يغزو العماليق فى مركزهم الرئيسى، الذى هو جبل سعين فى النص التالى:

ومن بنى شمعون ذهب إلى **جبل سعين** خمسمائة رجل، وضربوا بقية المنفلتين من **عماليق**، وسكنوا هناك إلى هذا اليوم

أخبار أيام أول ٤ / ٤٢، ٤٣

وإذا كان العماليق قد سكنوا فى المساحة الواقعة من حويلة حتى شور على حدود دلتا مصر الشرقية حسب المتكررات التوراتية، فهو ذات الأمر الذى تقوله التوراة عن الإسماعيليين:

وهذه سنو حياة إسماعيل، مئة وسبع وثلاثون سنة،

واسلم روحه ومات وانضم إلى قومه، وسكنوا من
حويلة إلى شور التي أمام مصر.

تكوين ٢٥ / ١٧،١٨

وبحيطنا المقدس التوراتي علما أن ذلك المكان الذي عاش فيه العماليق كان موضعاً مقدساً، أو أشبه
ما يكون بأرض إله، وذلك في نص مغرق في الاسطورة يحدثنا عن فجر الخليقة وسكن الأرض بالشعوب
فيقول:

وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض، وولد لهم
بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهم
حسناء، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا ..
كان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضاً،
إذ دخل بنو الله على بنات الناس، وولدن لهم أولاداً،
هؤلاء هم الجبابرة، الذين منذ الدهر ذووا اسم.

تكوين ٦ / ١ - ٤

ولما كنا نعلم أن التوراة تستخدم ثلاثة مترادفات على التبادل للدلالة على شعب واحد هي: العمالقة،
العناقين، الجبابرة، فإن المعنى أن أناس ذلك الزمان قد اعتقدوا، أن العمالقة صنف من الناس نصف إلهي
ونصف إنساني، أما الموسوعة الميسرة تحت مادة (عمالقة) تشير بإيجاز إلى وجهة النظر التي تتبناها
الكتابات العربية بشأن العمالقة فتقول:

عمالقة: قدماء العرب ، خاصة شمالي الحجاز مما يلي
شبه جزيرة سيناء، فتحوا مصر باسم الشاسو،
ويسميه اليونان هيكسوس، وأصل لفظة العمالقة
مجهول، والغالب أنه منحوت من اسم قبيلة عربية كانت
مواطنها بجهات العقبة أو شمالها، كان البابليون
يطلقون عليها اسم مالىق
أو مالموق، وأضاف اليهود إليها لفظ عم بمعنى شعب،
فقالوا عم مالىق أو عم مالموق، فقال العرب عماليق أو
عمالقة، ثم أطلقوه على طائفة كبيرة من العرب
القدماء.

كان العمالقة على علاقة بالكنعانيين والأموريين
والإسرائيليين، وعلى الرغم من أن علم الإثنولوجيا

اليهودى يجعلهم فرعاً من الآدوميين، ويربطهم بقبيلة
إفرايم، فإنه يصورهم باعتبارهم أعداء للإسرائيليين،
نهب العمالة الشعب اليهودى فى أثناء هروبه من
مصر، واندمجوا بينه وهاجموه، ولكنه انتصر عليهم
بزعامه يشوع، وكان العمالة جزءاً من الجيش الذى
جرده أجلون [صحها عجلون / المؤلف] ملك موآب
لمضايقه إسرائيل.^(٩)

وفى لسان العرب:

العَمَلِيق: الجور والظلم .. وعملق مأوهم: قل،
والعملاق الطويل، والجمع عماليق وعمالقة.. والعمالقة
من عاد، وهم بنو عملاق، قال الأزهرى: عملاق أبو
العمالقة، وهم الجبابرة الذين بالشام على عهد موسى
عليه السلام.. قال بن الأثير: العمالقة: الجبابرة الذين
كانوا بالشام من بقية قوم عاد، قال: ويقال لمن يخدع
الناس ويخلبهم عملاق.. قال الجوهري: العماليق
والعمالقة قوم من ولد عملق بن لاوذ بن إرم بن سام
بن نوح، وهم أمم تفرقوا فى البلاد.

وفى المرادف التبادلى لكلمة عمالقة بالتورا، (عناقين)،
نبحث فى لسان العرب فيطالعنا تحت مادة (عنق):

العَنَق: طول العنق وغلظة .. والأنثى عنقاء، ..
وهضبة معنقة وعنقاء: مرتفعة طويلة .. والأعناق
الرؤساء والعنق: الجماعة الكثيرة من الناس .. وجاء
القوم عنقاً عنقا، أى طوائف، قال الأزهرى: إذا جاءوا
فرقاً، كل جماعة منهم عنق .. ويقال: جاء القوم عنقا
عنقا، أى رسلا رسلا وقطعاً قطعاً .. وقيل الأعناق:
الرؤساء الكبار .. والمعنق: ماصلب وارتفع من
الأرض وحوله سهل .. وقال الأزهرى: العناق: الأنثى
من أولاد المعزى إذا أتت عليها سنه.

(٩) الموسوعة العربية الميسرة: مادة عمالقة.

والعنق: شئ من دواب الأرض كالفهد، وقيل عنق
الأرض: دويبة أصغر من الفهد طويلة الظهر تصيد كل
شئ حتى الطير، قال الأزهرى: عنق الأرض: دابة
فوق الكلب الصينى، يصيد كما يصيد الفهد، ويأكل
اللحم وهو من السباع، يقال: إنه ليس شئ من الدواب
يؤبر أى يخفى أثره إذا عدا غيره، وغير الأرنب،
وجمع عنوق، والفرس تسمية سياه كوش قال: وقد
رأيت بالبادية وهو أسود الرأس أبيض سائرة ..
والعنقاء طائر ضخم ليس بالعقاب وقيل: العنقاء
المغرب: كلمة لا أصل لها، يقال أنها طائر عظيم لا
ترى إلا فى الدهور .. وقيل سميت عنقاء لأنه كان فى
عنقها بياض كالطوق .. قال ابن الكلبي: كان لأهل
الرس نبى يقال له حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم
جبل يقال له دمخ، مصعده فى السماء ميل، فكان ينتابه
طائرة كأعظم ما يكون، لها عنق طويل من أحسن
الطير، فيها من كل لون، وكانت تقع منقضة، فكانت
تتقض على الطير فتأكلها، فجاءت وانقضت على صبي
فذهبت به فسميت عنقاء مغرباً، لأنها تغرب بكل ما
أخذته .. فشكوا ذلك إلى نبيهم فدعا عليها فسلط الله
عليها آفة فهلك، فضربتها العرب مثلاً فى أشعارها،
ويقال: ألوت به العنقاء المغرب، وطارت به العنقاء،
والعقاب، وقيل: طائر لم يبق فى أيدي الناس من
صفتها غير اسمها، .. والعنقاء اسم ملك .. والأعناق
فحل من خيل العرب معروف، إليه تنسب بنات أعناق
من الخيل.

أما مختصر كتاب البلدان للهمدانى فيقول:

وكانت منازل العماليق فى موضع صنعاء اليوم ثم
خرجوا فنزلوا مكة، ولحقت منهم طائفة بالشام،
ومصر، وتفرقت طائفة فى جزيرة العرب والعراق،

ويقال أن فراعنة مصر كانوا من العمالق^(١٠).

ومع المرادف التبادلي لكلمة عمالقة (عناقين) من عنق وعنك نستقري المتشابهات بلسان العرب، فيخبرنا واضحا فصيحاً يقول تحت مادة (عنك) باستبدال القاف كافاً:

عنك: وعناك بالنون.. الرمل.. والعناك الأحمر، يقال
دم عانك، وعرق عانك إذا كان في لونه صفرة ..
والعناك من الرمل في لونه حمرة .. والعيك الشجر
الملتف. نُعة في الأيك، واحدته عيكة.

وتتويعات على ذات المادة (علك) وتحتها يقول لسان العرب " والعلك ضرب من صمغ الشجرة كاللبان "، و (علق) وفيها يقول:

علق: العلق ماء الفحل، لأن الإبل إذا علقت وعقدت
على الماء انقلب ألوانها حمراء.. والعلقى شجرة تدوم
خضرتها في القيظ ولها أفنان طوال.. والعوالق الغول
وقيل الكلبة الحريصة.

.. وقولهم طويل العوالق أى طويل الذنب .. والعلق
نبات معروف يتعلق بالشجر ويلتوى عليه.. وزعموا
أنها الشجرة التى أنس موسى عندها النار.. وقيل
العلق القامة، والمعلاق اللسان البليغ .. والعلق الدم ..
وهو ما اشتدت حمرة.

والغريب فى بابه بل والمدهش أن نجد مقابل عنق فى الهيروغليفية كلمة (عنخ) الدالة على مفتاح الحياة، تعنى أيضاً إكليلاً من الزهور، وعادة ما كان المصريون يضعون الأكاليل حول العنق كما كانوا يعلقون بالرقبة (العنخ) نفسه مفتاح الحياة وهو على هيئة الصليب وهنا يحكى لنا الأركيولوجست (شيفمان) الباحث فى أركيولوجيا أوغاريت (رأس شمراء قرب اللاذقية على الساحل السوري): " تبين المواد الأركيولوجية التى وجدت فى أوغاريت .. أنه كان يعيش على تخوم الألف الثالثة - الثانية قبل الميلاد، وفى القرن الأول من الألف الثانية قبل الميلاد شعب أطلق عليه فى الأدبيات التاريخية ذوو الأطواق، أما الأصل الذى انحدر منه هذا الشعب فغير معروف، وبظهوره يرتبط عصر ازدهار تصنيع البرونز وظهور ضروب جديدة من الأسلحة، رماح ذات نهايات مسكوبة، الخنجر الثلاثى ذو القبضة، وفؤوس ذات شفرة لها تقبان، ويرتبط بهذا الشعب التمثالين الفضيين ذوى الطوقين الذهبين للإله والإلهة اللذين وجدوا إلى الغرب من معبد

(١٠) الهمدانى: مختصر كتاب البلدان، اقتبسه غطاس الخشبة فى كتابه: رحلة.. سبق ذكره، ص ١٣٠.

بعل فى أص محاط بالحجارة.. ويلفت النظر شكل الصليب الموجود على صدر الإله والإلهة فهو يحمل طابعاً مقدساً واضحاً لم يتسن فك رموزه حتى الآن» (١١).

لكن الخط السليم لسير التاريخ لاينى يدعمنا بالشرح والتفصيل فيعيد الأمور إلى نصابها والأطواق إلى مكانها، فيعلمنا إحسان عباس وهو يتحدث عن البتراء أن الإله الادومى (ذو الشرى) كان ذو علامة مميزة واضحة تخصه، وهى أنه « كثيراً ما يظهر هذا الإله لابسا أطواقاً» (١٢).

ومعنا تلتقى كلمة (عنخ) المصرية مع كلمة عنق العربية، وبنى عناق العمالقة أو العناقين، ومؤنثها المصرى القديم هو (عنخت) وتشير فى مدلول آخر إلى أنثى الماعز، وهو ذات المعنى الذى يورده لسان العرب عن الأزهرى وهو يقول : « العناق: الأنثى من أولاد المعزى » و (عنخت) إلهة مصرية هى زوجة الإله المترجم عن الهيروغليفية إلى الأحرف اللاتينية (خنوم) الإله الكبش صانع البشر من صلصال كالنفار، والواجب نطقها نطقاً صحيحاً تماماً الإله (غنم). والكلمة غنم دالة على الخراف والماعز كليهما، ونحن نعلم من قواعد الهيروغليفية أن هناك أبدالاً جائزاً بين الخاء والزاي، فتصبح عنخ هى عنز، كما يتم ذات الإبدال بين الخاء والقاف فتصبح عنخ هى عنق (١٣).

ومن جانبه يحيطنا إريك هورننج علماً أن الإلهة المصرية عنقت Anukis ، أو عنقة كانت تعبد فى مصر فى هيئة بشرية تلبس تاجاً من الريش، والريش على الرؤوس فى نقوش مصر القديمة يشير إلى البدو الرعاة، ويزيدنا علماً أنها كونت ثالوثاً فى جزيرة الفنتين هو (Anukis عنقت + Khnum خنوم أو الخروف + Satis سيت) والمعلوم أن الفنتين كانت مقر جالية يهودية عاشت هناك ردحاً طويلاً من الزمان كما سيأتى بيانه. أما الأكثر دلالة فهو أن حيوان هذه الإلهة العنقاء الرمزى فكان العنز أو المعز (١٤).

ومما هو جدير بالذكر أن Aegyptus اليونانية التى تطلق على مصر Egypt، المأخوذة من جباتا الواقعة فى بلاد آدوم على حدود سيناء الشرقية كما أسلفنا الاجتهاد، تعنى أيضاً فى اليونانية « عنز متسلق ». ويرى الباحثون أن مادة عنز من الأصل (عز)، العنز فى الأوغاريتية عز والأكدية Azzatu وبالسيرانية عيزا وبالعبرية عز، ومن هذا الفعل جاء معنى العزة والقوة، (١٥) ومنها أيضاً العزيز.

ويقول (على الشوك) عن المواضع التى حددناها لمجئ هجرات الأحلاف نحو سيناء وآدوم، أنها كانت مواطن العنز، فالعنز أبداً لم يكن حيواناً منتشراً فى بقاع الأرض، فقد « أظهرت الحفريات الأثرية أن

(١١) أ. ش. شيفمان : ثقافة أوغاريت، ترجمة د. حسان ميخائيل إسحق، الأبجدية للنشر، دمشق ١٩٨٨، ص ١٢٥.

(١٢) إحسان عباس: تاريخ دولة .. سبق ذكره، ص ١٢٩.

(١٣) د. على فهمى خشيم: آلهة مصر العربية، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ج ١، ص ٤٨٠ : ٤٨٢.

(١٤) إريك هورننج: ديانة مصر الفرعونية، الوجدانية والتعدد، ترجمة محمود طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٧٥.

(١٥) على الشوك: جولة فى أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٤، ص ٤٨.

موطن الماعز هو جنوب غربى آسيا وبالتحديد غربى إيران وشمال العراق وجنوب تركيا.. والماعز كان معروفا فى البيضا جنوبى البحر الميت.. والماعز مع الخراف أو بدونها تم رعيها بمراحل تدريجية عبر سيناء، التى لم تكن صحراء قاحلة بالتأكيد كما هى عليه الآن، بل ليست تلك الصحراء التى يتصورها البعض ^(١٦).

وقد استخدم المصريون للدلالة على بدو آسيا ثلاثة أسماء على التبادل هى: (ستيو) واتفق على أنها تعنى الآسيويين، وهذا فيما نرى خطأ شائع لأن الأصل فى نسبتهم - حسبما نرى - إلى رب البوادرى والصحارى الإله (سيت) رمز الشر فى مصر القديمة وتعنى ستيو أيضاً الجنوبيين بالنسبة لمصر، وربما فى عصور لاحقة بعد الدولة القديمة أخذت كلمة ستيو منحائها للدلالة على عبادة الإله سيت، فصبغت البدو الشرقيين باسمه فأصبحوا السيتين / ستيو، وهو ما يعنى أن آسيا أكتسبت اسمها من المصطلح المصرى الدال على أتباع الإله سيت.

والاسم الثانى الذى أطلق على بدو آسيا وهو (شاسو) فيعنى الدائب الحركة دون توقف، فهى تشير عندنا إلى البدو الرحل، وعادة ما كانت تطلق (شاسو) على بدو سيناء تحديداً . وأخيراً لدينا (عامو) أو (آمو) وكانت الأكثر استخداماً للدلالة على غزاة مصر المعروفين بالهكسوس، والكلمة المصرية (ع م و) جمع بالواو لكلمة (عم) وفى لسان العرب:

العرب تقول للرجل إذا سُوّد: قد عُمم، وكانوا إذا سودوا رجلاً عموه عمامة حمراء .. والعميم الطويل من الرجال والنبات. ومنه حديث الرؤيا: فأتينا على روضة معتمة أى وافية النبات طويلة وكل ما اجتمع وكثر فهو عميم.. ويقال اعتم النبت اعتماماً إذا التف وطال .. ونخله عميمة: طويلة .. والعم عظم الخلق فى الناس وغيرهم، فالعمى العام والقصرى الخاص.. وعمم الرجل إذا كثر جيشه بعد قلة.. والعم الجماعة، والعمام الجماعة المتفرقون.

وعم فى الثلاثى عنم هى

العنم أغصان تنبت فى سوق العضاة، رطبة لا تشبه سائر أغصانها، حُمِر اللون ، وقيل هو ضرب من الشجر له نور أحمر تشبه به الأصابع المخضوبة.. قال ابن الإعرابى .. العنم الشجر الحمر .. والعنمى

(١٦) نفسه: ص ٩٣، ٩٤

الحسن الوجه المشرب **بحمرة**.. وقال بعضهم : العندم
دم الغزال بلحاء الأرضى يطحنان جميعاً حتى ينعقدا
فتختصب به الجوارى.

ومن تلك المعطيات نجد العمالقة يحملون لقب الجبابرة، وأنهم كانوا طغاة وهو ما يعنى أنهم كانوا حكاماً. والمحمّل وفق معطيات الموسوعة العربية الميسرة أن يكونوا من عرفهم اليونان باسم الهكسوس غزاة مصر، وأنهم كانوا يسكنون العقبة وشمالها، وربما كانوا من العرب القدماء، وهم فرع من الأدوميين. أما لسان العرب فيقول أنهم من قوم عاد، وينتسبون إلى الشخص الأسطوري المعروف باسم إرم ابن سام، الأمر الذى يذكرنا بآيات القرآن عن عاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد.

وإذا أخذنا بالإسم المرادف عناقين جمع عناق، فهو أيضاً يحمل معنى العملاقة، فالهضبة المعنقة هى المرتفعة الطويلة، ويحمل أيضاً معلومة حفظها لنا اللسان فى كلمة الأعناق وهى : الأعناق أى الرؤساء إضافة إلى كون الكلمة تحمل معنى **الكثرة الشديدة**، مما يشير إلى كونهم كانوا شعباً غفير العدد. ناهيك عن كونهم كانوا طوائف، أى **مجموعات بشرية متحدة** أحيانا متحالفة أحيانا أخرى وهو ما يذكرنا بالتعبير الآشورى (أخلامو) أو أحلاف، وأنهم كانوا أصحاب (ماعز)، وفى بلادهم كان يعيش حيوان مفترس فى هيئة الكلب الطويل الشبيه بالسلوقي. وتحكى عنهم أساطير: فكان يعيش فى بلادهم طائر ضخم باسم **العنقاء** الذى سبق وعرفناه باسم الفوينيكس أو الطائر البونتى. وتكرر الأسطورة العربية الاسطورتين المصرية واليونانية، فهو يظهر كل دهر وبعد زمان بعيد من ظهوره الأول " طائر عظيم لا يرى إلا فى الدهور" ونسب العرب إلى العناقين **الجياد العنقاء** أى الفحول الأصيلة منها، ثم إن منهم كان بعض فراعين مصر، وعلم التاريخ يؤكد لنا أن مصر لم تعرف الخيول طوال تاريخها إلا مع غزو الهكسوس. فالآثار المصرية والنصوص القديمة قبل الغزو الهكسوسى تخلو تماماً من أى ذكر للحصان أو العربية، كما لم توجد أى دفنة لحصان واحد، أو حتى لعظام من حصان فى أى من المقابر أو الدفنات أو الطبقات الأركيولوجية قبل الغزو الهكسوسى. كذلك تخلو النقوش والرسوم المصرية قبل الغزو الهكسوسى خلوا تماماً من صورة الحصان رغم أن المصريين قد سجلوا ورسوموا صوراً لكل حيوانات البيئة المصرية وطيورها ونباتها بشكل إحصائى دقيق. وهو ما يعنى أن المصرى حتى غزو الهكسوس كان يجهل تماماً أن هناك كائناً من هذا النوع يوجد فى العالم^(١٧).

ومن جانب آخر إذا أخذنا بالتسمية المصرية لغزاة بلادهم الهكسوس (عامو) فيظهر أن لهم علاقة وطيدة باللون **الأحمر**، وأنهم كانوا قوما عظام الطول، ضخام الجسد. ويفرق لسان العرب بين التسمية المصرية رجل من العامو (رجل عمى) أى متبدى صحراوى بدائى، وبين أهل المدر والحضر والخصب، الذين هم سكان القصور (رجل قصرى). ويعود اللسان لتذكيرنا أن (عم) هو الجماعة المتشظية، وباسمهم هناك شجرة حمراء لها نور أحمر وهى شجرة طويلة عظيمة، تستحق اسم (الأيغة).

وهنا نستمع إلى (جاردنر) وهو يحدثنا عن حجر القاهرة المعروف باسم (حجر باليرمو) وفيه إشارة إلى ما حدث في عهد الملك الثاني من ملوك الأسرة الأولى التأسيسية، وفي هذا الزمن المبكر زمن الملك المدعو (جر) إشارة إلى ضرب الملك لمناطق (ستية).^(١٨)

ثم بعده نقرأ عن ملك باسم (عخاب) أنه قد ضرب شعب (الأيونتيو) أو (عنيتو) والعنتيو هو البخور الأبيض في اللسان المصري القديم، ويعنى أيضاً عند جاردنر وعبد العزيز صالح " أصحاب العمد " ومع تعقيب يقول: " وهذا إصطلاح مبهم ربما يشير إلى شعوب قطنت شمال شرقى الدلتا أو بدو الصحراء الشرقية وسيناء وما وراءهما " ^(١٩)، هذا بينما كان عبد المنعم عبد الحليم لم يزل يصصر على أن شعب العنتيو / اللبان الذكر هم سكان الصومال!!

ويضيف نجيب ميخائيل على ذات النصوص شارحا من هم العنتيو أصحاب العمد بقوله: " وقد أطلق عليهم سترابو اسم سكان الكهوف ، الذين كانوا يعيشون على النهب والسلب والتجارة فى قوافل تقطع صحراء العرب " ^(٢٠) . لقد كان العنتيو هم العماليق ضمن سكان بلاد آدوم ومحيطها، أصحاب البخور، أم ياترى عنتيو أو أنيتو هى مقلوب (تينو / تين) تلك الثمرة المقدسة التى أتت بها بعثة حتشبسوت لتستزرعها أمام معبدها؟ ربما! ونشترك (عنتيو) فى جذرها الثلاثى مع (عتى) و (عاتى) و (عتو) من القوة والشدة والعملة. وهنا نقف نستمع إلى ديودور الصقلى يروى قائلاً: " بعد أن جعل الملوك فى الاسكندرية طريق البحر ميسرة لإبحار تجارتهم، لم يكتف هؤلاء العرب بمهاجمة من تحطمت بهم سفنهم، بل أنزلوا إلى الماء سفن قرصنة تطارد التجار والمسافرين، محاكين بتلك الأعمال الوحشية الجامحة للطائوريين من أهل بنطس " ^(٢١) .

وهو ما يعنى أن عرب وادى عرابة يشبهون فى لوصيتهم سكان بلاد بنطس شرقى البحر الأسود بأرمينيا. لقد أدرك ديودور التشابه لكنه لم يدرك أن من سكان عرابة جنس قادم من أرمينيا من منطقة بنطس (بنط) حيث كان يقوم ميناء بونت على البحر الاسود ولم يزل ، وان هؤلاء المهاجرين قد منحوا موطنهم الجديد فى عرابة اسم موطنهم القديم بونت.

ثم يدخل هيرودت ليعطينا دعما خراسانيا لنظريتنا فيقول عن حدود مصر الشرقية، حيث المواطن التى عرفها هيرودت ورفاقه من مؤرخين بأنها البلاد العربية.

وتضيق مصر ابتداء من مدينة هيروبوليس جنوبا فعلى
أحد جانبيها تمتد سلسلة الجبال العربية [الهضبة

Gardiner, Egypt of the pharaohs, ١٩٦٤, p٤٤

(١٨)

Op. Cit, p٤١٤

(١٩)

(٢٠) نجيب ميخائيل: مصر والشرق.. سبق ذكره، ج ١ ص ١٤٢.

(٢١) إحسان عباس: تاريخ دولة .. سبق ذكره، ص ٣٤.

الشرقية الآن/ المؤلف] من الشمال إلى الجنوب ..
ويستمر امتدادها حتى البحر المسمى بحر إروترى]
هنا يشرح د. أحمد بدوى فى الهامش أن بحر إروترى
هو البحر الأحمر وبالتحديد الخليج العربى منه /
وهو خليج السويس حالياً] وهنا توجد مقالع الاحجار
وقد وجدت بالفعل هناك مقالع الاحجار وبخاصة
الفيروز / المؤلف] .. وأقصى اتساع مسيرة شهرين ..
وحدودها الشرقية تنتج البخور (٢٢).

هيرودت ٧٧ ، ٧٨

إن هيرودت هنا يحدثنا عن المسافة بين الخليج العربى (السويس) وبين خليج العقبة عبر سيناء حيث
الوصول عبر سيناء يستغرق مسيرة شهرين، وهناك عند خليج العقبة أو الحدود الشرقية لمصر منطقة تنتج
البخور أو بتعبيره " وحدودها الشرقية تنتج البخور ". ولأنه يريد بالضبط المسافة بين السويس والعقبة يستمر
شارحا اتجاهها آخر من خليج السويس (أو خليج العرب) نحو الجنوب فى عمق البحر الأحمر المتجه نحو
المنذب فيقول:

ويوجد فى بلاد العرب غير بعيد عن مصر خليج يوغل
فى الداخل من البحر الذى يسمى ببحر أروترى، وهو
خليج طويل وضيق جداً كما سأوضح. إذا بدأ المسافر
من جوف الخليج وضرب فى عرض البحر فإنه
يستغرق فى عبوره طولا أربعين يوما مع استخدام
المجاديف.

هنا لا يقول هيرودت أن المسافة مسيرة إنما إبحار بالمجاديف يستغرق أربعين يوماً ، ثم يحدثنا عن
عبور الخليج العربى عرضا فى أوسع أجزائه بقوله: "فى حين أن اجتيازه عرضا فى أوسع أجزائه يستغرق
إبحار نصف يوم وبه يحدث مد وجذر كل يوم".

ولمزيد من تحديد المكان الذى يتحدث عنه يقول " : فمناطق الساحل العربية مأهولة بالسوريين (٢٣) "
وكلمة السوريين للتعبير عن البدو الآسيويين لدى هيرودت.

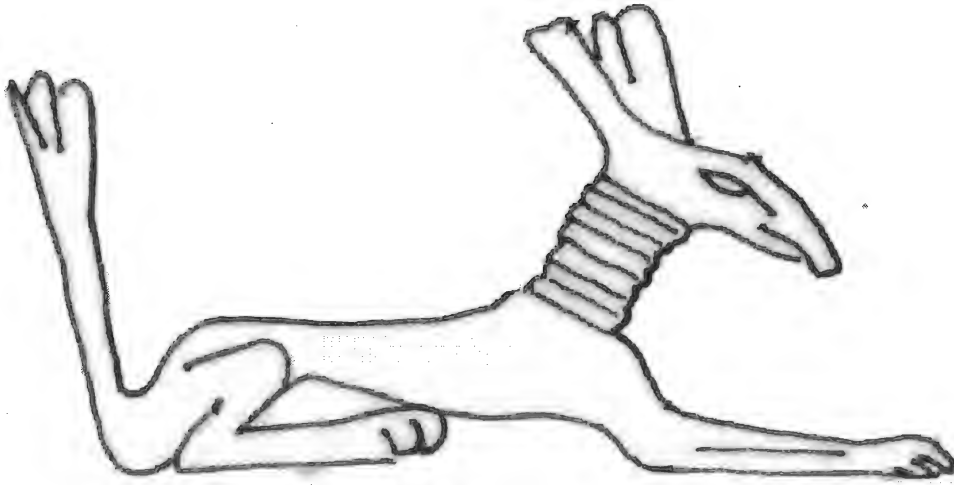
(٢٢) هيرودت يتحدث عن مصر .. سبق ذكره، ص ٧٧ ، ٧٨.

(٢٣) محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلدان المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة قسم البلدان المدرسة، ص ٨٥.

لقد عمدنا إلى تفصيل رواية هيرودت حتى لا يكون هناك أى لبس بين الابحار من خليج السويس جنوبا وبين الاتجاه من خليج السويس شرقا بالسير البرى، وهناك كما قال فى أقصى الحدود الشرقية سنجد الخليج الثانى [العقبة] حيث أكد هيرودت أن البلاد هناك كانت " تنتج البخور " .



شكل رقم (٣٠)
مفتاح الحياة المصري (عنخ)



شكل رقم (٣١)
لم نتمكن من العثور على لوحة الإله المدياني يلبس أطواقاً، لكن لدينا الإله ست يلبس أطواقاً،
ويطابق بذلك ذي الشرا أو (شرا)، وتشترك (شرا) في جذرها مع فعل الـ (شر) صفة ست.



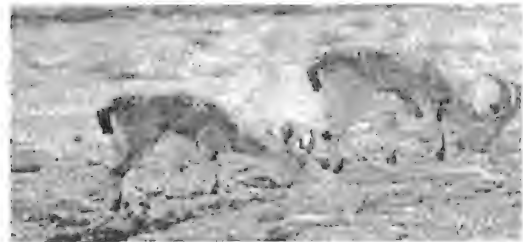
شكل رقم (٣٢)
بدو ساميون في لوحات مصرية يزورون مصر، بصحبتهن العنز والحمار من
ضريح (خنوم حتب). الشخصان في مقدمة الصورة العلوية مصريان



شكل رقم (٣٣)
رسوم العنز القديم في صخور ثمودية في سيق الخز على بوادي رم



شكل رقم (٣٥)
عنز مدجن



شكل رقم (٣٤)
ماعز / عنز / سيناء ووادي عربة

سر الملكة السوداء

على جداريات معبد روعة الروائع بالدير البحرى بالأقصر، نقش الفنان المصرى ضمن تقريره الدقيق رسماً لملكة بلاد بونت: سوداء شديدة الامتلاء، ومعها عنصر بشرى يبدو أنه ينتمى إلى ذات جنس الملكة: أسود تبدو فى ملامحه إفريقية واضحة، كذلك العنصر الأحمر المشار إليه باسم إرم مع عنصر ثالث يشبه المصريين وتنتضح عليه السمات السامية .

ويحدثنا الكتاب المقدس زمن حكم الملك سليمان، المؤسس الحقيقى لمملكة بنى إسرائيل فى فلسطين، عن زيارة ملكة لم يذكر لنا الكتاب المقدس اسمها وعرفها فقط بأنها (ملكة سبأ). فى رواية أراد بها الكاتب التوراتى الإشادة بعظمة الملك سليمان، الذى يزعم ذلك المقدس أن حكمته وشهرته قد طبقت الآفاق، وأن ملوك الأرض قد سعوا إليه يطلبون مودته. ومع ذلك لا نسمع أية رواية فى ذلك المقدس عن زيارة ملكية حدثت لبلاد سليمان سوى زيارة (ملكة سبأ). وتقول الرواية:

وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب، فأتت
لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً،
بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة،
وأنت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبيها.. وأعطت
الملك مئة وعشرين وزنه ذهب، وأطياباً كثيرة جداً
وحجارة كريمة، لم يأت بعد ذلك مثل ذلك الطيب فى
الكثرة، الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان، فعمل
سليمان خشب الصندل درابزيناً لبית الرب، وببيت
الملك، وأعواداً ورباباً للمغنين، لم يأت ولم ير مثل
خشب الصندل ذلك إلى اليوم.

ملوك أول ١٠ / ١ - ١٢

ولنلاحظ أن خشب الصندل لا يأتي إلا من جنوب شرقي آسيا وجنوب الهند (وخاصة مع القول: أنه لم يعرف مثل هذا الخشب من قبل)، وفى سفر أيوب، ذلك العبرانى الذى كان يعيش على حدود فلسطين الجنوبية فى جوار آدوم، نجد ذكراً متكرراً لشعب باسم سبأ والسبأيين ومثال ذلك:

نظرت قوافل تيماء، سيارة سبأ رجوها

أيوب ١٩/٦

وتيماء فى الجوار الشرقى لبلاد آدوم، لكن النص قد يفهم منه خاصة من كلمة (سيارة سبأ) بلاد اليمن، حسبما اعتدنا من معلومات متواترة تحدثنا عن كون ملكة سبأ عاشت فى اليمن. خاصة أنهم فى هذا النص التوراتى يظهرون جماعات تاريخية متحركة (سيارة)، وهو ما يذهب بنا فوراً إلى اليمن، مع ما نعلمه من التاريخ المتواتر عن مملكة سبأ اليمنية. لكن المشكلة هنا أن الكتاب المقدس لم يذكر لنا إطلاقاً أن ملكة سبأ كانت ملكة يمنية، أما اللغز فهو أن إشارات الكتاب المقدس يفهم منها تارة أن سبأ كانت بلاد بعيدة عن فلسطين، وتارة أخرى لا يمكن أن نفهم إلا أن السبائيين كانوا جيرانا مباشرين بل وملاصقين لمملكة سليمان. وهناك نص يشير إلى أن السبائيين من ديار بعيدة ويمثل ذلك فى القول:

وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بنى يهوذا، لبييعونهم
للسبائيين، لأمة بعيدة، لأن الرب قد تكلم.

يوئيل ٧/٣

بينما هناك نصوص أخرى تؤدى معنى مخالفاً تماماً، كما فى رواية أيوب الذى يحكى كيف هبط عليه مهاجمون استولوا على ثروته، ويقول:

البقر كانت تحرث، والإتن ترعى بجانبها،
فسقط عليها السبائيون وأخذوها، وضربوا الغلمان
بحد السيف.

أيوب ١٤/١، ١٥

وتعبير (سقط) هنا يشير إلى قرب شديد لموقع السبائيين من فلسطين الجنوبية، ويدعمه أن الكتاب المقدس كان يربط دوماً بين عدد من الشعوب يعتبرها من نسب واحد وجنس واحد ونموذجاً لذلك قوله:

وبنو حام: كوش ومصر ايم وفوط وكنعان، وبنو
كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا، وبنو
رعمة شبا وددان.

تكوين ١٠/٦، ٧

ويتكرر ذات النسب فى موضع آخر يقول:

وبنو كوش: سبأ وحويلة وسبتا ورعما وسبتكا، وبنو
رعمة شبا وددان.

أخبار إيام أول ٩/١

ولنلاحظ هنا أولاً ذلك الربط بين المصريين والسبائيين، فالمصرى (مصر ايم) حامى من بنى حام، و (كوش) ويقصد به الجنس الزنجى وهو أيضاً حامى من بنى حام، فهما اذن شقيقان. ومن ابناء (كوش) بنو

رعمة، ومن أبناء رعمة (شبا) الذى يأتى مقترباً باسم (ددان). ويتكرر ذلك الاقتتان مما يشير إلى تجاوز جغرافى، و(ددان) هى (العلا) شرقى (آدوم) الآن، ويبدو أيضاً أن الموضع (حويلة) فى ذات الجوار لأنه دوماً يتكرر مقترباً بذات اسماء الموضع حول آدوم ، تلك التى تقدمها التوراة لنا باعتبارها أسماء أشخاص قداماء أسطوريين.

ويكرر الكتاب المقدس ربطه المستمر بين الجنس الزنجى (الكوشى) وبين السبائين فعدا كونه قد اعتبر سباً ابناً من أبناء كوش ، فقد كان الكوشى والسبأى حليفين، كما فى النص:

هكذا قال الرب: تعب مصر وتجارة كوش والسبئيون
ذوو القامة، إليك يعبرون ولك يكونون، خلفك يمشون،
بالقيود يمشون، لك يسجدون، إليك يتضرعون قائلين:
فيك وحدك الله وليس آخر إليه.

أشعيا ٤٥/١٤

ولمزيد من التحديد وراء اتساق ذلك المبعثر، نقرأ بالكتاب المقدس:

بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا، تحمل ذهباً
ولبانا وتبشر بتسابيح الرب.

أشعيا ٦٠/٦

فهذه جمال مديان بلاد التجار الآدومية تحمل منتجات نعرف نوعها ومصادرها منها: الذهب واللبان (البخور)، وربما يكون المقصود أن تجار مديان يأتون بمنتجات سباً من بلادها البعيدة ، أو أن تكون مواطن مديان هى ذات مواطن سباً. (١٢)

وحتى لا يتصور القارئ أن بنا جموحاً أهوجاً، لا يستند إلى مقومات تدعمه لمزيد من تأييد مذهبنا فى موطن التجار الميتانيين أصحاب بلاد نهارين الحورية ، فإننا لابد أن نقر بصدق ما وصلنا من كشوف فى بلاد اليمن أكدت قيام مملكة كبرى باسم سباً فى تلك البلاد حوالى عام ٩٠٠ ق.م. وأن تلك الكشوف تملأ المنطقة ولا ينكرها عاقل، ومن ثم سنحاول الإمساك بطرف الخيط للوصول إلى الغرض من أقصر السبل، فنبدأ بقول العالم الأركيولوجى فى حضارات الجنوب العربى (فرتز هومل): " إن الأماكن التى عثر فيها على آثار عربية جنوبية خارج حدودها ، وجدت فى أقصى الشمال الغربى، أى بلاد مدين القديمة " (١). أى أنه قد عثر على آثار عربية جنوبية فى بلاد مدين القديمة بشرقى سيناء حول العقبة، بعيدة عن بلاد

(١) فرتز هومل: التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، بحث ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٥٦.

العرب الجنوبية أصحاب تلك الآثار بمسافات شاسعة من الصحارى الكبرى. ومن ثم يطرح (هومل) سؤالاً غريباً مستغرباً يستريب فى أى المكانين كان هو الموطن الأصلي للحضارات التى اصطلح علي تسميتها حضارات الجنوب العربى؟! وكانت تلك الحضارات تتمثل فى أربع ممالك هى: قتبان وحضرموت ومعان وسبأ، ثم يخص سبأ بالذكر فيتساءل عن حضارتها التى قامت فى بلاد اليمن ويقول: " هل هذه الحضارة قد بلغت هذه الدرجة من النمو والاكتمال فى البلاد ذاتها، أو أنها جاءت إلى البلاد من الخارج كاملة ناضجة؟ (٢) "

ثم يجيب على السؤال الذى طرحه باكتشاف جديد تماماً، وهو أن الشعب الذى ظهر فى بلاد العرب الجنوبية حوالى عام ٨٠٠ ق.م أو ٩٠٠ ق.م ، كان يعيش فى منطقة أخرى قبل ذلك بأزمان وأنه كان له فى تلك الفترة تاريخ هام، وأن تلك المنطقة الأخرى كانت بداية التاريخ الحقيقى للسبأيين، وأن هذا الوطن الأول أو الخارجى كان يقع فى شمالى بلاد العرب.

ثم استنتج (هومل): أنهم عاشوا فى الإقليم العربى الشمالى الذى كان يطلق عليه الآشوريين: بلاد (عريبى)، وأن لدينا معلومات أخرى عن ذلك الإقليم، من المآثور الآشورى، فالكتابات الآشورية تذكر هذا الإقليم، مع عدد من الملكات على التوالى، منهن الملكة زيببى ملكة بلاد عريبى، ومنهن الملكة سمسى حوالى ٧٣٨ ق.م ، وذكر لملكة أخرى باسم يتعى أيام الملك سنحاريب الآشورى، وملكة رابعة زمن الملك أسر حدون الآشورى باسم (تبوءه).

وهنا ننقل عن (هومل) نصيا قوله:

" ورد مرة لفظ سبأ فى نقش معينى، وكان هذا النص يشير إلى أن هذا اللفظ يدل على قبيلة بدوية، كانت تسطو على الطريق التجارى، الممتد بين بلاد العرب الجنوبية، وبين معان الواقعة فى شمال بلاد العرب ، وكانت تسطو أيضا على القوافل المعينية القادمة إلى مصر. ثم نقرأ القصة التى تحدثنا عن زيارة ملكة سبأ لسليمان، فهذه القصة لا يمكن فهمها جيدا إلا إذا قدرنا أن السبأيين كانوا يقطنون فى شمال بلاد العرب، وليس الإنسان فى حاجة هنا إلى تأويل، ونستطيع أن نعتقد أن هناك نواة تاريخية لهذه القصة. كذلك مما يؤيد وجود وطن للسبأيين أصلى فى شمال بلاد العرب، وردود لفظ سبأ مصحوباً بلفظ ددان فى العهد القديم.. كذلك من العبارات التى تذكر وطن السبأيين الأصلي فى شمال بلاد العرب، ما جاء فى النقوش السبائية ذاتها حيث نجد سبأ ويهليلج، وكذلك سبأ وييشان، وما إليها، ولا نجد لفظ سبأ مستقلاً، وذلك لأن يهليلج هى دقلة فى بلاد الجوف فى شمال بلاد العرب، وييشان هو وادى الدواسر " (٣)

وهكذا ، وجد هومل إشارات أركيولوجية ونصوصية قديمة، استنتج منها أن السبأيين كانوا خارج بلاد اليمن، فى شمالى بلاد العرب، قبل أن يهبطوا جنوباً إلى اليمن، ليبدأوا هناك حضارة جديدة حوالى عام ٩٠٠

(٢) الموضع نفسه.

(٣) نفسه ٦٣، ٦٤.

ق.م. وأن موطنهم الشمالى الأول هذا، هو المكان الذى أطلقت عليهم نصوص الرافدين (بلاد عريبي) أى (العربية) أو (العربة). وأن تلك المملكة اشتهرت بحكم النساء لها، ومنهن ملكات شهيرات، وهو الأمر الذى يلتقى مع ماورد بالكتاب المقدس عن ملكة سبأ التى زارت سليمان. على أن (فرتز هومل) أبداً لم يحدد لنا مساحة بعينها أو موقع معلوم بعينه أو تسمية أخرى قديمة لتلك الأرض التى قامت فيها مملكة سبأ الأولى، ولا حدود تلك الأرض.

لكن فى نص آخر لعالم آخر لا يقل شأنًا هو (رينيه ديسو)، نفهم أن هناك قبائل عاشت شمال بلاد العرب، جاءت إليها من الجنوب اليمنى، وهو ما يقوله نصا " ومن المحقق أن السكان الذين أقاموا فى اللجة ببادية الشام فى قرية باسم نجران، قد أتوا من جنوب الجزيرة العربية لأن اسم هذه القرية يذكرنا باسم المدينة المشهورة فى جزيرة العرب، أما في βορεια ορεινα التى توجد أيضا فى اللجة، فقد كان الرومان يطلقون عليها اسم
أى بوريكة السبأيين " (٤).

وهذا يعنى أن السبأيين جاؤوا من الجنوب إلى الشمال من زمن بعيد، وأقاموا لهم ممالك فى الشمال إذا أخذنا بالقولين ، ثم جدت أحداث اضطرتهم إلى العودة مرة أخرى إلى مواطنهم الأولى فى اليمن، لإقامة حضارة جديدة، حوالى عام ٩٠٠ ق.م

ثم تستوقفنا لفظة (بوريكه) أو (بوليكة) لنجد لها صدى فى لسان العرب إذ يقول تحت مادة أيك:

فى التهذيب: فى قوله تعالى: كذب أصحاب الأيكة
المرسلين، وقرئ أصحاب ليكة، وجاء التفسير أن اسم
مدينتهم كان ليكة.

ولو صرنا الاسم (بو - ليكة) بإضافة ب، فستصبح (بوليكيس) أو (بلقيس)، ذلك الاسم الذى تواتر فى المأثور الإخبارى العربى بحسبانه اسم ملكة سبأ زمن الملك سليمان.
وهنا نقف مع (هومل) نتأمل:

البلاد بأسم بلاد عريبي، والوادي الممتد بين العقبة والبحر الميت منذ وصلنا اسمه مدونا ، يحمل اسم وادى عربية وبقع فى شمالى غربى جزيرة العرب، وهومل يقول: إن بلاد عريبي لا شك تقع شمالى جزيرة العرب.

فهل نجازف ونقول : إن الموقع الذى اخترناه للأحداث منذ بداية هذا البحث، هو الموقع الذى كان لابد أن يبحث عنه هومل حتى يجد بلاد عريبي حيث قامت سبأ القديمة بعيداً عن اليمن؟ ثم نرجح مع المرجحين الآن أن الملكة العربية التى ذكرتها أخبار العرب وأشعارهم وأساطيرهم باسم الزباء، ليست زنوبيا ملكة تدمر زمن الرومان، خاصة أن هومل نفسه يقول أنه جاءنا اسم لملكة من ملكات بلاد عريبي باسم

(٤) رينيه ديسو: العرب فى سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٠.

زيبى فى نصوص رافدية قبل زمن الرومان بقرون طويلة حوالى عام ٧٣٨ ق.م ، وهو تاريخ قريب من تاريخ قيام دولة سبأ اليمنية من بعده وربما كان هناك خطأ بسيط فى الحسابات التاريخية. فإذا كان ذلك كذلك، فإن الملكة زيبى كانت ضمن الخط الأخير لمملكات سبأ الشمالية، وربما كان اسم زيبى اسماً متواتراً فى مسميات مملكات سبأ الشمالية ويبدو أن واحدة من سلسلة المملكات (الزباء) قد اكتسبت شهرة لأسباب لم تنزل مجهولة لدينا، فذكرتها أساطير العرب وأخبارهم.

ولنلاحظ أن اسم (الزباء) أو (زباء) العربى يتطابق لسانياً مع اسم المملكة والشعب المعروف باسم (سبأ)، وهو الأمر الذى يعنى أن المجد الذى حققته الملكة الزباء أو سبأ، جعل الإشارة بعد ذلك إلى بلادها باسمها وإلى شعبها منسوباً إليها، بلاد الزباء أو بلاد الملكة سبأ.

وربما كانت (زباء) التى قيل أنها من مملكات سبأ كانت هى ملكة سبأ التى زارت سليمان، وأغفل الكتاب المقدس ذكر اسمها دون سبب واضح، اللهم إلا إذا كانت الترجمة قد حولتها من (الملكة زباء) إلى (ملكة سبأ). وهو الفرض الذى يجد تأييده فى فراسة (فليكوفسكى) الذى قضى شطراً من عمره يدرس التلمود، ليخرج ضمن ما خرج به بالقول: " إن رأى الواضح فى التلمود كله أن سبأ فى تسمية ملكة سبأ ليست تسمية جغرافية تعود إلى مكان معين، بل أنه اسم شخص، حتى المخطوطات العديدة عن جنوب شبه الجزيرة العربية أغفلت أى ذكر لملكة سبأ هذه، عدا الكثيرين من الرحالة والباحثين الذين قلبوا كل حجر فى جنوب شبه الجزيرة، بأمل العثور على أى دليل ولكن بلا أدنى أى نجاح يذكر فى الكشف عن هذا اللغز " (٥)

أما أصحاب الأخبار العرب فقد رووا نقفا عارضة عن الزباء، فهى عند ابن قتيبة ابنة ملك الجزيرة، وأنها قتلت زوجها جذيمة الأبرش (٦)

وإن ذهبنا الأغلبية منهم إلى أن الزباء من العمالقة، ويخلصه القول إن: " العمالقة من ملوك حمير كانوا بالشام، ومنهم الزباء قاتلة جذيمة الأبرش الملك الأردى، وهم من ولد عمليق بن السميدع بن الصوار بن عبد شمس، والعماليق من ولد عملاق بن لاوذ بن سام، منهم الفراعنة ملوك مصر " (٧)

أما المؤرخ (ابن العبرى) فيقدم لنا تعريف بالملكة التى زارت سليمان بقوله: " وأنته ملكة التيمن وقدمت له مائة وعشرين قنطاراً من الذهب وطيباً وجواهر ثمينة " (٨)، والتيمن ليس اليمن إنما هو واحدة من كور بلاد آدوم. وقبل (الملكة سبأ) ومملكة سبأ نجد ذكراً لحضارة جنوبية تجارية كبرى باسم معين، وأنها أقامت لها محطات تجارية كبرى، وأنها قامت فى الجنوب وامتدت حتى حدود الجزيرة الشمالية عند معان

(٥) فليكوفسكى : عصور.. سبق ذكره، ص ١٣٢.

(٦) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١، ص ٦٤٥.

(٧) حسين الويسى: اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٧٤.

(٨) غرغوريوس الملطى المعروف بابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، دن، د.ت ص ٣٢.

المصرية. والظن أن معان المصرية اكتسبت إسمها من كونها أصلاً محطة معينية، ثم نعتت بموضعها فى جوار مصر الأقصى (آدوم وسيناء)، فسميت معان المصرية (معان مصران). أما النص المعينى أو المعانى الذى جاء به (هومل) من بلاد اليمن واكتفى بترجمته دون أن يخبرنا بدلالته فهو القائل: إن القوافل التجارية المعينية كانت تذهب بتجارها إلى غزة ومصر (بالنص) وذلك:

" عبر نهران وآدوم ". !!! ؟

أن وصول التجارة المعينية إلى مصر المعروفة كان يمر أولاً مخترباً منطقة تحمل اسم نهران ولازلنا نذكر نهارين/ ميتاني/ مديان، ثم منطقة آدوم في الجوار، وفى النقش رقم ٥٣٥ الذى جاء به من الزمن الأركيولوجى (هليفى) نجد حديثاً يترجم بلا معنى بدوره، يتكلم عن علاقات تجارية لمعين اليمنية مع مصر وآشور، وأن الطريق التجارى كان يمر:

" عبر نهران "

التي يترجمها

" أرض النهر "

ويضيف، لابد أنها غزة؟! ثم لا يعطينا تفسير لماذا غزة (?!). أما الأغرب أنه ضمن نقوش (هليفى)، وبالتحديد فى النقش رقم (٥٠١)، نجد فى بلاد مدين عند العقبة ملكاً معينياً والمفترض أن معين باليمن (?!). وأن هذا الملك يحمل اسم (وقهى إيل نبط)^(٩) وهو ما يذكرنا باسم تلك البلاد الذى افترضناه بلاد (بونت) التى عرفت بعد ذلك باسم (النبط) أو (الأنباط). ثم نجد المؤرخين المسلمين من الإخباريين القدامى، يذكرون لنا (بثرون) كاهن مديان نسيب موسى باسم (شعيب) وأن " شعيب النبى من حمير " (١٠).

أليست تلك بقرائن مبينة؟؟ وأن زمان المعينيين كان يعرف بلاد (آدوم/ مدين) بأنها (نهران) أو (أرض النهر)، وأن العلاقات بين الشمال والجنوب وصلت حد الالتحام حتى حكم بلاد (مديان/ آدوم) ملكاً معينياً؟ وعاش فيها (شعيب) الحميرى، وشعيب مديانى كما نعلم عادة، مما يعنى أن بعض سكان مدين كانوا من اليمن.

ومما يثرى رصيدنا هنا ذلك النص الآشورى الذى وردنا من زمن الملك (سنحاريب)، ويذكر فيه الجزية التى دفعها له ملك سبأ (كرب إيلو) ، وهى الجزية، التى تتكون من منتجات العطور والأحجار، كانت تليق ببناء مطعم بالذهب والفضة والأحجار النادرة، فقد كانت لببيت الإله أكيو، أو كما يقول النص مؤكداً على أن الأحجار، تلك الأحجار التى لا شك لم تكن ككل الأحجار لكنها أحجار تليق ببلاد آدوم:

عند وضع الأساس لببيت أكيو، قدمت الهدية التى أمر

(٩) فرتر هومل: التاريخ العام لبلاد.. سبق ذكره، ص ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٢.

(١٠) الويسى: اليمن.. سبق ذكره، ص ١٧٤.

ملك سبأ بإحضارها، وهى عبارة عن أحجار كريمة
وروائج، وأحجار، ومن هذه الهدية وضعت أنا الأحجار
والروائج فى بيت أكيثو .. فضة وذهبا، وحجر أوكنو
وحجر ساندو وحجر خالو وحجر مشجر وحجر أورس
وحجر أودشش، وسكبت ماء النهر^(١١).

ويعنينا هنا أن نورد مقطعا من المؤرخ اليمنى محمد عبد القادر بافقيه يشير فيه إلى أن الدكتور فرتز
هومل يقول :

إن الفترة السابقة لتاريخ سبأ الحقيقى بدأت خارج
اليمن، ويرجح أن هذا الوطن الخارجى كان فى الأصل
شمال بلاد العرب، ومثل هذا هذا سبق أن أوصى به
سترابو ، حين ربط بين الأنباط والسبأيين لكونهم أول
من سكن العربية السعيدة. وتمشيا مع هذا رأى اقترح
الأستاذ و. ف. ألبرايت، تاريخا لهجرتهم من الشمال
إلى الجنوب اليمنى حوالى ١٢٠٠ ق.م، ذاهبا فى نفس
الوقت إلى أن هجرتهم تلك تأتى بعد هجرة القبائل
الأخرى (معين وحضرموت وقتبان)، والتي حدثت فى
تقديره حوالى ١٥٠٠ ق.م، ولكننا لا نستطيع أن
نقطع برأى فى هذه القضية الشائكة، التى يكتنفها الظلام
من كل جانب،...

وقد ورد اسم سبأ بكثير من التفخيم فى الكتابات
الكلاسيكية ومنهم بلينى، بأنهم أشهر من عرف من
قبائل البلاد العربية، وأفرد لهم سترابو فقرة مطولة نقلها
عن ارتميدوس وصف فيها بلادهم، وذكر فيها أنهم
شعب كبير التعداد ، وأن بلادهم شديدة الخصوبة، تنبت
المر واللبان، وأنواع أخرى من الأعشاب ذكية
الرائحة، وزعم أن لها أفاع حمراء داكنه، طول
الواحدة منها شبر، تقفز إلى خصر الإنسان وأنها إذا
لدغت فإن لدغتها غير قابلة للشفاء.^(١٢)


(١١) هومل: التاريخ العام لبلاد.. سبق ذكره ، ص ٧٦، ٧٧.

(١٢) محمد عبد القادر بافقيه: تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥١ ، ٥٢.

أما الكتاب المقدس فكان يذكر على الدوام الكوشيين بالتفاف مع السبأيين والكوشيون هم الجنس الزنجي الأسود. أما الغريب حقاً ويلتقى مع أطروحتنا إلتقاءً مدهشاً، فهو أنه **يجعل الكوشى أخاً للمصرى وللكنعانى**. لقد كان الكوشى أو السبأى يعيش على الحدود المصرية فى بلاد آدوم، وعلى حدود فلسطين (بلاد كنعان) الجنوبية، وقد وجدت لغة الكتاب المقدس تعبيرها عن تلك العلاقة الجغرافية بقولها أن الكوشى أخو المصرى والكنعانى ساكن فلسطين. خاصة إذا لم ننس أن على تلك الحدود كانت تقع مصر الأقصى حسبما أخبرنا هروشيوش ويصبح مفهومنا لنا نص التوراة الذى كان شديد الغموض يقول:

بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا

أشعيا ٦٠/٦

وعند الأركيولوجست (ديتلف نيلسن) نجد ذكراً لنصوص جنوبية تحدثنا عن مدينة تجارية باسم (كانى )، وقد رجح أنها ربما كانت هى حصن الغراب اليوم. ^(١٣) لكن ألا تشير (كانى) تلك إلى (قبنى) أو (القينيين) الحدادين؟! وهل تلك هى المدينة التى قال لنا المؤرخون أنها كانت عاصمة بلاد (ميتانى / نهرين/ الحور)، الواقعة زعماً فى أقصى شمال الرافدين الأعلى باسم (واشو كانى)؟ وهل يمكن وضع (واشو - كانى) تلك فى محيط بلاد آدوم بدورها؟

وهل التواصل الغريب بين الجنوب والشمال لجزيرة العرب يمكن ملاحظته فى تشابه أسماء الأعلام؟ وما يعيننا منها ذلك الاسم الذى تم العثور عليه فى حفائر بابل، وذلك فى قبر لعربى جنوبى كان يدعى (هنشور بن عيسو) ^(١٤) وعيسو كما عرفنا هو (آدوم الحورى). فى الشمال.

وفى نصوص تجلات بلاسر الثالث الآشورى تقع على جدول بالجزية التى وصلت عاصمته، والبلاد التى أرسلتها وأسماء ملوكها، وفى آخر ذلك الجدول نقرأ بترتيب جغرافى الجزى التى وصلته من ملوك متجاورين كالاتى:

سابينو بعل ملك بيت عمون، وسلمانو ملك موآب،

وميتى ملك عسقلان، وأحاز ملك يهوذا، وكوش

ماليكو ملك ايدوم، وملك غزة ^(١٥).

وكلها فى ذات الموقع لأن عمون وموآب تلاصقان شرقى البحر الميت وعسقلان على الساحل الفلسطينى ويهوذا جنوبى فلسطين ملاصقة لآدوم، ثم آدوم الممتدة من البحر الميت إلى خليج العقبة، وملوكها اسمه الأسود أو الزنجى (كوش) وغزة على المتوسط فى ذات الجوار.

(١٣) ديتلف نيلسن: تاريخ العلم، ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٩٥٨، ص ٨.

(١٤) الموضوع نفسه.

(١٥) فراس السواح: الحدث .. سبق ذكره، ص ١٠٦.

وفى زمن أسر حادون ابن سنحاريب الآشورى ٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م ، تجرى حرب مع عدد من الملوك منهم " كوش جبرى ملك إيدوم " (١٦).

ولعله من الواضح هنا أن بعض ملوك آدوم حتى هذا الزمن المتأخر كانوا يحملون صفة (كوش) وفى النص الأول يمكن أن نرى فيه صيغة (الملك الكوشى)، وفى الثانى صيغة من معنى جبار وجبروت (كوش جبرى)، فهو الكوشى الجبار، أو جبرى الكوشى.

والنصان يرددان نظريتنا المتواضعة بكل فصاحة بشأن العملاقة فقد قلنا أن من ألقابهم الجبابة، وعم لاق أو عملاك، وهنا يأتى كوشى الزنجى مرة بكونه (ماليكو) وهى بزيادة عم تصبح (عملاقى)، ثم مرة بكونه (جبرى) أو جبار.

والكتاب المقدس وهو يسجل قرابات الشعوب وأصولها، يجعل الكوشى أبا للمصرى، يسكن إلى جواره، ونسل ذلك الكوشى الذي سميت بأسمائهم مواضع جغرافية يمكنك أن تجده جميعا فى حدود سيناء الشرقية، مثل سبأ وددان وحويلة حسب شجرة الأنساب التوراتية. وأنهم كانوا أبناء عمومة للكنعانيين بمدنهم الواردة بأسماء أشخاص كأبناء لکنعان بن حام، مثل صيدون (صيدا) ويبوس (أورشليم)، الأموريين الذين عاشوا فى بلاد الشام.. إلخ

ثم يفرق الكتاب المقدس بين جنسين من الشعوب هما الجنس السامى والجنس الحامى، لكنه يجعلهما أخوين. ثم يذهب بنسل سام جميعه مع خلط شديد إلى فلسطين وجنوبها، وإلى جنوب جزيرة العرب، وكل هؤلاء الساميين عنده إخوة لأب واحد أو فروع لجنس واحد. فمن نسل سام جاء عابر الذى أنجب يقطان، ومنه جاء حضرموت ودقوله وأوفير وشبا، وكلها أسماء لمواضع تقع جنوبى الجزيرة. ومن عابر أيضاً جاء إبراهيم ونسله الإسرائيلى والآدومى والإسماعيلى وكلها أسماء لمواضع تقع شمال غربى الجزيرة على الحدود السينائية.

ومع تذكرنا لما ورد فى تاريخ (هيرودت) عن قدوم العنصر الفينيقي الكنعانى من البحر الأريتيرى إلى المواضع التى استقر فيها على سواحل المتوسط الشرقية، نجد أنفسنا فى حيرة والتباس لا يحله إلا افتراض أن المملكة التجارية التى قامت فى بلاد آدوم كانت على تواصل مع منابع تجارتها فى الجنوب اليمنى والإفريقى طوال الوقت، الأمر الذى أدى إلى هجرات وتداخل بين شعوب المنطقة. وكان طبيعياً تماماً أن نجد العنصر الزنجى الأسود - حيث العاج والذهب والقردة وجلد الفهود - أحد العناصر الأساسية للشعوب التى وصلت بلاد آدوم واستوطنتها، وربما من ذلك العنصر كانت (الملكة زباء) أو الملكة (سبأ). ولايفوتنا الإشارة هنا أنه لا يوجد مسمى لتلك الملكة بالإسم الشائع (بلقيس) داخل المقدس التوراتى أو القرآنى. إنما ورد هذا الاسم فى روايات شارحة لحقت بالنصوص المقدسة. أما الثابت فهو أن (حبشتان) بلغة الجنوب

العربى وتعنى (الأحباش) كانوا يسكنون حسبما ذكر (أورانيوس) على شاطئى البخور. ^(١٧) وإن أول ملك لسبأ اليمنية حسبما يخبرنا به نقش (جلازر) رقم (١٤٤٧)، كان يحمل اسم (سمو هو عليا) أو (شوموهو عليا) كما كتبه هومل ^(١٨)، ويترجمه المؤرخ فؤاد حسنين (سمه على) الذى يتحدث عن نفس النقش ويقول: " إن سمه على يتحدث فيه عن تقديمه البخور والمر إلى الإله السبأى القومى المقه باسمه ونيابه عن قبيلته التى قادها فى الفيافى والقفار إلى الأرض السعيدة، التى تفيض لبنا وعسلا " ^(١٩)

وهنا يجب ألا يفوتنا أن (سمه على) هو بالنطق الصحيح دون أية تجاوزات لغوية يمكن نطقه (سماعيل) أو (إسماعيل). ويستمر فؤاد حسنين ليذهب أبعد من (هومل) فيرى أن كل حضارات الجنوب قنبان ومعين وحضرموت وسبأ، إنما قدمت إلى الجنوب مع أهلها فى هجرة قادمة من الشمال وذلك فى قوله " إن هجرة القبائل السبئية، - التى تمتاز باستخدام السين فى صيغة السبئية وضمير الغائب وهى القنبانىة والمعينية والحضرمية - من الشمال إلى مواطنها التاريخية قبل عام ١٥٠٠ ق.م، أما هجرة القبائل الهائية وتمتاز لهجتها باستخدام الهاء فى صيغة السبئية وضمير الغائب، وهى السبائية، من الشمال قبل عام ١٢٠٠ ق.م ... " ^(٢٠)

وعليه فإذا تحدثنا عن سبأ فإنه يمكن نطقها (هبا) أو سبا فكلاهما صحيح، وكانت (هبات) كما سبق وأسلفنا إلهة ميثانية معبودة، واعتبر المؤرخون أن مقر عبادتهما كان بالرافدين الأعلى حيث بلاد ميثانى المزعومة. و(هبات) هى مؤنث (هبا) أو (سبا)، وإلى (هبا) هذا انتسبت الاميرة الميثانية (جيلوهبا) التى يكتبها البعض (جيلوخيبا) والبعض (جيلوهيبا) والبعض (يلوكابا)، وهى التى تزوجها الملك المصرى (أمنحتب الثالث) عاقدا بها صداقته الحميمة مع سكان البلاد التى عرفت باسم ميثان التى تصورها المؤرخون واقعة فى الرافدين الأعلى باسم (ميثانى). ولاننسى أن زوجة عمران العبرانى والد النبى (موسى) وأم هذا النبى كان اسمها (يوكابد) أو (يوكابا) حسبما جاء بالتوراة .

وقد لاحظ (لويس عوض) أن حرف السين يتم تبادله مع حرف (هـ) ما بين اللغتين السامية والحامية، فالعربى يقول مثلاً: سأذهب سأعمل والمصرى يقولها نفسها: هأذهب، هاعمل ^(٢١).

وهنا يفيدنا (فرتز هومل) أن سكان سبأ فى الجنوب العربى مع انتشارهم الواسع كانوا ينقسمون إلى طبقات حسب وظائفهم، ومن هذه الطوائف تلك الطائفة التى حملت اسم (أ.د.و.م.ت) ^(٢٢). فهل كانت (أدومت) طائفة وظيفية كما قال ؟ أم أنها يجب أن تحيلنا إلى بلاد (آدوم)؟ والأكثر غرابة أنه قد وجد لقب

(١٧) فرتز هومل: التاريخ العام.. سبق ذكره ص ٩٣.

(١٨) نفسه: ص ٧٧، ٧٨.

(١٩) فؤاد حسنين: تعقيبات على ترجمته لكتاب التاريخ العربى القديم بعنوان استكمال../ سبق ذكره، ص ٢٧٩.

(٢٠) نفسه: ص ٢٨٣.

(٢١) لويس عوض: مقدمة فى فقه اللغة، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١١١.

(٢٢) هومل : التاريخ العام .. سبق ذكره، ص ١٣٠.

(قين) ينتشر في بلاد سبأ واعتبره أيضا لقباً لطائفة وظيفية(٢٣)!! ونحن نعلم مما سبق ان القينى هو المديانى صانع الحديد والنحاس ، كما يضيف لقباً آخراً يعتبره لقب الشيوخ الكهنوتيين، هو (خليل) (٢٤)، ويقول إنه اقتصر على أحد أفخاذ سبأ ، و(خليل) هو لقب البطرق (إبراهيم) كما نعلم، خاصة وأنه يقول: إن ذلك الفخذ كان من أسرة قرأ أسمها في النقوش (حذفر) (٢٥)، وهو فى رأينا ما يلتقى مع الاسم (آذر) أبى إبراهيم كما ورد بالقرآن الكريم.

وبدون أن يقيم (هومل) أية علاقة مما نجازف نحن به هنا، أراد التأكيد على تواصل الجنوب بالشمال عند مدين تحديداً زمن الدولة المعينية فقال: « وفى تلك البلاد ظهر موسى واحتضنته بلاد مدين المعينية » (٢٦).

وبين قوائم الملوك المكاربة لسبأ ممن حكموا باليمن من حوالى ٨١٥ ق.م حتى ٥١٠ ق.م نقف مع أسماء لا يصح إغفالها، وهى أسماء مركبة، من قبيل أسماء الملوك (أنمارم يهو امين) و (نشى كرب يهو امين) و (كرب ايل وتر يهونعم). (٢٧) ولنا هنا ان نرتاح لاستنتاج (هومل) وهو يقول أن الاسم (يهو) الوارد فى تركيب تلك الاسماء يشير الى الإله الإسرائيلى (يهوه) ونحن نعلم ان يهوه كان إلهاً سينائياً مصرياً قابله موسى فى عليقة مشتعلة. أما الطريف حقاً، فهو أن بين الأسماء التى عددها لنا (ديتلف نيلسن) لآلهة الجنوب اليمنى، يطالعنا منتصباً ذلك الإله الذى تكرر ذكره فى النصوص باسم (ذوشرى) (٢٨).

وهكذا يمكننا أن نستنتج أن السبئيين قد عادوا جنوباً حوالى عام ٩٠٠ ق.م الى مواطنهم الأصلية، ولم يأتوا اليمن مهاجرين من أصول جنسية بعيدة إنما كانوا فيها وعادوا إليها .وقد ترافق تاريخ قيام دولتهم فى الجنوب قبل ظهور مملكة سليمان فى فلسطين. مما يعنى أنهم كانوا موجودين فى بلاد آدوم منذ زمن طويل قبل قيام مملكة سليمان، وأنهم كانوا متواجدين فى آدوم زمن الأحداث الكبرى التى تروىها التوراة عند دخول بنى إسرائيل إلى مصر وخروجهم منها، وأنهم كانوا يعبدون إله مديان (يهوه) الذى اكتشفه موسى فى نبات مضئ فى بلاد مديان السينائية وكذلك الإله ذى الشرى. أما أسباب ذلك الرحيل جنوباً للسبئيين فيجد صداه فى تلك المعارك التى دارت بين الأقارب فى شرقى سيناء مع التفكك الذى أصاب الأحلاف، عند خروج الهكسوس ثم الإسرائيليين من مصر، وازداد أواره عند قيام مملكة إسرائيل على يد منشئها الأول شاول الذى تركها لداود وولده سليمان، وفى زمن شاول نقرأ بالكتاب المقدس:

وقال صموئيل لشاول: إياى أرسل الرب لمسحك ملكاً

(٢٣) نفسه ص ١٣٩.

(٢٤) نفسه: ص ١٤١.

(٢٥) الموضع نفسه.

(٢٦) نفسه: ص ١٠٧.

(٢٧) نفسه: ص ٨٩.

(٢٨) نيلسن: الديانة العربية .. سبق ذكره، ١٩٠.

على شعبه إسرائيل، والآن فاسمع صوت كلام الرب،
هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق
باسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من
مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرّموا كل
ماله، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً
ورضيعاً، بقراً وغنماً جملاً وحماراً، فاستحضر شاول
الشعب وعده في طلائيم مئتي ألف رجل، وعشرة آلاف
رجل من يهوذا، ثم جاء شاول الى مدينة عماليق وكمن
في الوادي، وقال شاول للقينيين: اذهبوا حيدوا وانزلوا
من وسط العمالة لئلا أهلككم معهم، وأنتم قد فعلتم
معروفاً مع جميع بني اسرائيل عند صعودهم من
مصر، فحاد القيني من وسط عماليق، وضرب شاول
عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التي مقابل
مصر.

صموئيل أول ١/١ - ٧

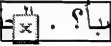
وإذا كان الكتاب المقدس قد وصف العمالة بأنهم جبابرة طوال القامة فإنه هو نفسه يصف السبائيين
بقوله: " السبائيون ذوو القامة / أشعيا ١٤/٤٥ ". كما أن قاموس الكتاب المقدس يقول لنا تحت مادة سبائيون: "
أهل سبأ وهم المذكورون في سفر أيوب ٥/١ وهم شعب طويل القامة، وكانوا يغيرون على البلاد ويسبون
ساكنيها كما فعلوا مع أيوب، وهم يتنقلون من بلد إلى بلد (أيوب ١٩/٦) وكانوا يتاجرون في العبيد (يوئيل
٨/٣). ويعتقد دلمان أنهم فرع من الكوشيين.. وكانوا أهل حضارة، ويشغلون بالتجارة، فتاجروا في الذهب
والعطور ولم تقتصر تجارتهم على حاصلاتهم المحلية بل امتدت إلى حاصلات الهند والحبشة، وانتشر أهل
سبأ في الأراضي حتى وصلوا إلى شمال غربي بلاد العرب.. ووصلوا إلى شمال الصحراء مع النبطيين،
كما امتزجوا بالقبائل الأخرى عن طريق الزواج والارتباطات السياسية. وكان من تأثير ذلك أن اختلطت
سلاسل أنسابهم " ويضيف تحت مادة (شبا) أنهم كانوا مشهورين بأنهم تجار ذهب وتوابل وأحجار كريمة،
وهم أيضاً تجار رقيق (يوئيل ٨/٣). ورغم أن الكتاب المقدس لم يقل أبداً بمملكة سبائية شمالية جوار فلسطين
فإن قاموس الكتاب المقدس قد لاحظ أن السبائيين كانوا " حراس صحراء أيوب ١٥/١ و ١٩/٦ " وأيوب كان
يعيش جنوبي فلسطين على حدود بلاد آدوم، مما يعني أنهم كانوا في ذات الجوار.


وفى الحديث النبوى أن رسول الله محمد (ص) قد سأل عن سبأ فأجابه رجل من نسابة العرب بقوله أنه كان رجلاً « أولد عشر، تيامن منهم ستة (أى سكنوا اليمن/ المؤلف)، هم حمير وكنده وهمدان ومذحج والأشاعر وأنمار، وتشاعم أربعة (أى سكنوا الشام/ المؤلف) هم جذام ولخم وعاملة والأزد » (٢٩).

وهنا لا نفوت العين المدققة أن النبى موسى كان قد تزوج (صفورة) بنت الكاهن المديانى (يثرון) أو (رعوئيل)، ولا نعلم عنها أكثر من ذلك حتى يفاجئنا الكتاب المقدس دون أى تفسير أن تلك الزوجة كانت سوداء زنجية (كوشية) وهو ما يعنى أن المديانيين كانوا جنساً أسوداً وهو ما تفيدنا به قصة الخلاف بين الأشقاء هارون ومريم فى جانب وموسى فى جانب آخر:

وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة
الكوشية التى اتخذها، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية.

عدد ١/١٢

ويبقى السؤال: هل عرفت نصوص مصر سكانا قطنوا شرقى سيناء باسم سبأ؟ .  حقيقة أننا لم نعثر على ذلك الاسم دالا على شعب ما، لكننا وجدنا الاسم بذات الرسم مكتوباً س ب ء فتقول نصوص الأهرام « إن الأفعى فى السماء، س بء. ح ور على الأرض (٣٠) » فماذا تعنى (سبأحور)؟

يمكن الاستنتاج أن سبأحور إشارة إلى (سبأ) التى عاشت فى وادى حور فى بلاد آدم الحورية. على أن النص هنا يتحدث عن ثعبان باسم (سبأ)، يعبد فى عين شمس كتعويذة ضد الحيوانات الضارة وأعداء الأرباب، وألحقت عبادته بمقابر الموتى، واعتبر أحد تجليات أوزيريس إله الموتى. وهو عين الأمر الذى يحيطنا به علما (بدج) فى معجمه حيث يقول إن (س . ب ) تعنى دودة كما تعنى أفعى، و(س ب ء) الإله الأفعى رئيس الأرواح السبعة التى تحرس أوزيريس، و(س بء ور) اسم الإله، و(س بء ح ر) معبود قبيح الوجه. ويمكن أن نلمس فى الاسم (س ب ء - ور) تشابها يكاد يصل حد التطابق مع اسم زوجة موسى المديانية (صفورة) س ب ء ور

س ف وره

وإذا رجعنا إلى العربية وجدناه فى صيغة (سف)، وإن كان لسان العرب قد خصصها فى مادة سف بنوع من الحيات فى قوله


« السف حية تطير فى الهواء»، وأنشد الليث:

وحتى لو أن السف ذا الريش عضنى

(٢٩) الويسى اليمى .. سبق ذكره، ص ١٦٥ .

(٣٠) فهمى خشيم: آلهة مصر .. سبق ذكره، ص ٤٢٦ .

لما ضرني من فيه ناب ولا شعر .

و(الشعر) هو السم. أما (صفورة) زوجة موسى فقد كتبتها اللغة العربية (صفية) التي يجب أن تقارن مع (سف). والغريب في بابه أن هيرودت في القرن الخامس قبل الميلاد أثناء حديثه عن بلاد العرب وبخورها العطري يقول في الكتاب الثالث فقرة ١٠٧ - ١١٣: " وهم لكي يجمعوا اللبان يحرقون تحت أشجاره نوعاً من الصمغ يدعى ستيراكس  أي الميعة.. لكي يطردوا أسراباً كثيرة من الحيات الطائرة المختلفة الأنواع التي تحرس أشجار اللبان، فتتجه تلك الحيات بمجموعها شطر مصر " . (٣١)

وفي تاريخ هيرودت يسجل عن زيارته لشرقي دلتا مصر على الحدود السينائية، أن هنا تبدأ بلاد العرب، ثم يردف " ويوجد في بلاد العرب مكان يقع تقريباً تجاه مدينة بوطو، وقد ذهبت إلى هذا المكان في أثناء بحثي عن الحيات ذات الأجنحة، ولما وصلت رأيت كميات تفوق الوصف من عظام الحيات ومن أعمدتها الفقرية " . ثم يشرح لنا شكل ذلك المكان بقوله " وهو عبارة عن ممر ضيق بين الجبال ينتهي بسهل فسيح، ذلك السهل يتأخم حدود مصر ويقال إن الحيات ذات الأجنحة تطير عند بدء الربيع من بلاد العرب إلى مصر، وأن أباً منجل يتصدى للقاءها عند مدخل هذا الممر، ولا يسمح لها بدخول مصر، بل يهلكها .. أما الحيات ذات الأجنحة فتشبه في شكلها حيات الماء، أجنحتها بغير ريش تشبه على وجه التقريب أجنحة الخفافيش (٣٢) " .

لقد كانت الحية المعروفة باسم (سفا) أو (سبأ) أحد أنواع الحيات الطائرة، وهو النوع الذي يطير كالسهم ليرشق بجسد فريسته، ويفلطح جلد بطنه ليتحول إلى ما يشبه الأجنحة التي تساعد على الطيران. وكان محل تواجدها بلاد العرب عند واد ضيق بين جبال يفضى إلى واد فسيح، وأن في هذا المكان مدينة تدعى (بوطو). ونحن نعلم من جغرافية مصر القديمة أن مدينة باسم (بوتو) كانت تقع في وسط غربي الدلتا وليس في شرقيها، فهل التبس الأمر على هيرودت؟ وهل ياترى قد كتب (بوطو) وهو يقصد (بونت)؟ هنا يجب أن نظن ذلك ..

ثم نتابع هيرودت إذ يقول : إن هناك كان طائر من نوع أبى منجل يتصدى للحيات الطائرة السبائية على حدود مصر ليمنعها من الدخول . وأبو منجل طائر يقع ضمن فصيلة طيور سبق وعرفناها باسم طائر الفينيق أو الطائر البوني أو البونتي .

ويسوق لنا (بلوتارك) معلومة كانت تتواتر عند شعوب زمانه وما قبل زمانه، عن طائر عدو للحيات القتاتلة، وأنه قد تم تقديسه لهذا السبب تحديداً في أكثر من موطن وفي أكثر من بلد. يقول بلوتارك: " إن

(٣١) نفسه: ج١، ص ٤٢٦، ٤٢٧.

(٣٢) هيرودت يتحدث .. سبق ذكره، ص ١٨٠ ، ١٨١.

الطائر أبو منجل هو الذى يقضى على الزواحف الخطيرة « (٣٣) لهذا » يكرم أهل تساليا القلق لأن هذا الطائر يظهر عندما تخرج الأرض من جوفها أسراباً من الثعابين، فيبيدها عن بكرة أبيها. ومن أجل ذلك سنوا قانوناً يحكم على كل من يقتل لقلقاً بالنفى من البلاد « (٣٤)

وتأكيداً لرأينا فى العلاقة الوطيدة الرابطة بين موطن طائر الفونيكس وبين البوننيين/ الفينيقيين/ الكنعانيين/ شرقى مصر، نقرأ عند (عبد المنعم عبد الحليم) قوله عن نفسه أنه قد « بدأ بدراسة النشاط البونتي وعلاقته بمصر، وناقش الآراء التى تربط الفينيقيين والبوننيين وتنسبهما إلى مناطق البحر الأحمر، وأنه درس الأسماء المصرية والإغريقية للبوننيين والفينيقيين واشتقاقاتها ومعانيها، وخاصة المعانى المختلفة للاسم الإغريقى **Βουτιν** والاسم المصرى **بنو** والمسميات الأخرى التى تشير إلى اللون الأحمر، أو تشير إلى المناطق الصحراوية. وقد لاحظ الباحث (أى عبد المنعم عبد الحليم) أن الاسم **بنو** وهو الاسم المصرى للطائر الخرافى المسمى فى الإغريقية **Βουτιν**، يطلق على المقاطعات المصرية الواقعة شرقى النيل التى تنتهى عندها الطرق الصحراوية القادمة من البحر الأحمر والصحراء الشرقية. وبمقارنة هذا الاسم بالكلمة المصرية **وبن** بمعنى يشرق، رجح الباحث [أى عبد المنعم عبد الحليم] أن المصريين ربما أطلقوا الاسم **بنو** أو اسماً مشتقاً منه على الجماعات التى كانت تفر إلى مصر من المناطق الشرقية ومنهم البوننيين وأنهم ربما أطلقوا هذا الاسم على سائر المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر، ومن بينها بلاد العرب. وأن هذا الاسم قد تحول فى العصر البطلمى إلى كلمة تعنى رجل من بلاد البخور. وأن هذه التسمية ربما كانت الأصل فى الرواية التى ردها هيرودت بشأن العلاقة بين طائر الفنكس وهو طائر البنو فى المصرية، وبين بلاد العرب (٣٥) ».

ولكن لأن (عبد المنعم عبد الحليم) من أنصار النظرية القديمة التى تضع بونت على الساحل الصومالى، فإنه أبداً لم ينتبه إلى كل الشواهد المترامية المتراخمة فى هذا النص الصغير والتي لو دقق النظر فيها لذهبت به إلى اكتشاف بلاد بونت فى بلاد العرب فى وادى عربه. وحيث كان اصطلاح بلاد العرب آنذاك قاصراً على وادى عربة وسيناء وشمالى الجزيرة الحالية فقط، المهم أنه يتابع فيقول: « وبالنسبة للتشابه الملفت للنظر بين نشاط البوننيين ونشاط الفينيقيين فى البحر الأحمر، والآراء التى تعتبر الفينيقيين أحفاداً أو **حلفاء** للبوننيين، وكذلك الروايات الكلاسيكية التى تنسب الفينيقيين إلى البحر الاريتري الذى كان يشمل البحر الأحمر مثل رواية هيرودت. فإن الباحث [أى عبد المنعم عبد الحليم] يرى أن الشواهد الكثيرة ترجح ذلك. لكن نتيجة عدم وجود أدلة حاسمة حتى الآن على هذه الصلة، فإنه من الممكن افتراض أن الفينيقيين بوصفهم إحدى الجماعات التى خرجت مع الهجرة الكنعانية من شبه الجزيرة العربية، عندما لاحظوا أوجه كثيرة

(٣٣) بلوتارك: إيزيس وأوزيريس، ترجمة حسن بكرى ومحمد خفاجى، دار القلم، القاهرة، د.ت، ص ١٠٨.

(٣٤) نفسه ١٠٧ .

(٣٥) عبد المنعم عبد الحليم: موجز رساليته .. سبق ذكره، ص ٣١، ٣٢.

للتشابه بينهم وبين البنونتين الذين يرجعون فى أصولهم البعيدة إلى الجزيرة العربية أيضا، فربما دفعتهم حاستهم التجارية إلى الاستفادة من ذلك التشابه فنسبوا أنفسهم إلى البحر الأريتري كما جاء فى رواية هيرودت حتى يكتسبوا حقوقا فى استغلال تجارته الرائجة إزاء الشعوب الأخرى التى كانت تنافسهم فى هذا الاستغلال « (٣٦).

وهكذا، وبسبيل تمسكه بالنظرية التقليدية، يلقى عبد الحليم فى المهملات ما لاحظته من تشابه بين البونتي والفينيقى، ويضع تخريجا لطيفا سريعا على عادة مؤرخينا يقول أن الفينيقيين أرادوا الشهرة التجارية فنسبوا أنفسهم إلى التجار القدماء المشهورين بالبنونتين؟ هكذا بكل بساطة !!؟ هذا بينما نرى نحن بعد كل ماقدمنا ومع كل المقل فى بحثنا هذا، أن الفينيقيين الذين ظهروا متأخرين على الساحل السورى اللبناى، هم أحفاد البنونتين الذين سكنوا وادى عربية، وكانوا ضمن الهكسوس الذين شتتهم ملوك التحرير المصريين، وذهبت بطون أخرى جنوباً مثل سبأ، وأنهم أبداً لم يظهروا على الساحل السورى إلا بعد طرد الهكسوس من مصر، وما أجراه ملوك التحرير من عمليات قمع منظم على بلاد التجار فى وادى عربية، وأدى إلى تفكك واضح للأحلاف ، فذهب بعضهم جنوبا وبعضهم شمالا.

ونعود للكاتب التوراتى، وطيد الصلة بالمنطقة الآدومية السيناىية، لنجده يحدثنا عن ذكريات شعوب المنطقة القديمة، حول الكثير من دواب سيناء والنقب وآدوم فيقول:

وحى من جهة بهائم الجنوب:

فى أرض شديدة وضيقة ، منها اللبؤة والأسد. الأفعى
والثعبان السام الطيار. يحملون على أكتاف الحمير
ثروتهم، وعلى أسنمة الجمال كنوزهم، إلى شعب لا
ينفع. فإن مصر تعين باطلا وعيثا، لذلك دعوتها
رهب الجلوس.

إشعيا ٣٠ / ٦ ، ٧

لقد كانت تلك الأحداث تجرى فى بلاد آدوم بلاد الحيات التى عرفها المصرى القديم باسم حيات سبأ، حيث تقع البلاد التى حددناها باعتبارها تلك التى عرفها المصريون باسم بونت، أرض الإله والعطور والبخور والتين والمواد العلاجية. فهل ياترى قد عرف العرب بلادهم القديمة آدوم باسم: بونت؟ على اختلاف نطقها؟ فهى تنطق عند جاردنر عن الهيروغليفية (بوينى) وعند إرمان (بونة)؟ مثلاً

يقول ابن منظور فى لسان العرب تحت مادة بون:

(٣٦) نفسه: ص ٣٢.

البون موضع... قال الجوهرى: ألبان ضرب من
الشجر، واحدتها بانه .. وشعب بوان من أطيب بقاع
الأرض وأحسن أماكنها، وإياه عنى أبو الطيب المتنبى
بقوله:


يقول بشعب بوان حصانى

أعن هذا يسار إلى الطعان؟

أبوكم آدم سن المعاصى

وعلمكم مفارقة الجنان

.. والبونة هى البنت الصغيرة

وشجر البان اسمه باللاتينية  أى الطرفاء الشرقية،
ويؤخذ من حبه دهن طيب الرائحة، ومن أسمائه العربية البر واليسار والشوع والسياع^(٣٧).

ويقول لسان العرب تحت مادة: بين، ومادة لبن:

غراب البين هو الأحمر المنقار والرجلين، .. والبائن: المفرط
طولا، الذى بعد عن قد الرجال الطوال .. ونخلة بائلة: فاتت
كبائسها الكوافير ، وامتدت عراجينها وطالت .. قال الجوهرى:
أبين اسم رجل ينسب إليه عدن، يقال: رجل أبين، والبان شجر
يسمو ويطول فى استواء مثل نبات الإثل، وورقة أيضا هذب
كهذب الإثل، وليس لخشبه صلابة .. شديد الخضرة، وينبت فى
الهضب، وثمرته تشبه قرون اللوبياء إلا أن خضرتها شديدة،
ولها حب ومن ذلك الحب يستخرج دهن اللبان، وفى التهذيب:
البانة شجرة لها ثمرة تربرب بأفاوية الطيب، ثم يعتصر دهنها
طيبا، وجمعها البان، ولاستواء نبتها ونبات أفنانها بها وطولها
ونعمتها، شبه الشعراء الجارية الناعمة ذات الشطاط بها، فقل
كأنها بانه، وكأنها غصن بان.. وليبنى اسم ابنة إبليس، واسم
ابنة لقيس.

(٣٧) على الشوك: جولة .. سبق ذكره، ص ٥٨.

وهكذا احتفظ اللسان العربى بأصل كلمة (لبان) منسوبة إلى بوان أوبونت ، تلك الشجرة العملاقة ذات الأهداب التى لا تتبث إلا فى الهضاب، ولأن (اللبان) هو ذات عين (المر)، نجد لسان العرب يقول تحت مادة (مرر):

المرمر هو الرخام .. وأبو مرة كنية إبليس .. قال المدائنى: بلغنا أن أول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من أهل الحيرة، وقال سمرة بن جندب: نظرت فى كتاب العربية فإذا هو قد مر بالانبار قبل أن يمر بالحيرة، ويقال: سئل المهاجرون: من أين تعلمتم الخط، فقالوا: من الحيرة.

والحيرة - كما هو معلوم - هى الإمارة التى قامت قبل الإسلام فى ذلك المكان الذى قامت فيه من قبل دولة الأنباط فى بلاد بونت، ونحن نعلم وكما سيأتى بيانه ، أن اللغة العربية والخط العربى قد تطورا أصلاً عن الخط النبطى وهو ما يتفق مع ذكريات اللسان العربى عن (مرامر) الذى من الحيرة أول من كتب. ولا يفوتنا أنه من بلاد المر أو اللبان يأتى اسم الحجر الجميل المعروف بالرخام، لكن تحت اسم المرمر، منسوبا إلى بلاد المر، بلاد شجر اللبان الضخم الكثيف، بلاد الأيك، التى يشرح لسان العرب بشأنها، فيقول تحت مادة (أيك):

الأيك: الشجر الكثير الملتف .. وقيل الأيك جماعة الآراك .. على أن الأصل: الأيك، فالقيت الهمزة فقبل اليك، ثم حذفت الألف فقبل: ليكه، .. قال الجوهرى: من قرأ: كذب أصحاب الأيك المرسلين، فهى الغيضة، ومن قرأ ليكه فهى اسم القرية


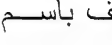

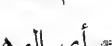


وفى العبرية مجموعة الأشجار هى ~~אילנות~~ ^{אילנות} إيلون، وعادة ماتخص البلوط، ومن البلوط تستخرج مواد عطرية علاجية أهمها زيت التربينتين وهو أحد أشهر العلاجات القديمة، ومعلوم أن البلوط كان أهم أشجار منطقة النقب فى محيط آدوم. ويقول على الشوك بصدد تلك الأشجار (إيلون): " وإيلون اسم مدينة فلسطينية قديما واسم رجل أيضا، وهناك مدينة إيلات على خليج العقبة الشرقى وهى مدينة آدومية، يعتقد أن اسمها مشتق من إيلون وتعنى : أشجار، أيكة، وقد سماها بطلميوس إيلانا كما سماها يوسفوس المؤرخ اليهودى إيلانه، وأسمها عند العرب آيلة " (٣٨). فهلا يثبت لنا ذلك أن الموضع الذى اخترناه، كان يغص بغابات من أنواع مواد التبخير وأشجار التين / البيرسيا؟

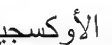
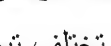
ومع الزمن الطويل الذى قضيناه فى بحثنا، كنا نعثر طوال الوقت على علامات مضيئة وكاشفة، مثل تلك التى وردت فى العقائد الأوغاريتية (رأس شمرا قرب اللاذقية) عن اعتقاد فى إلهة عظمى مبدئة هى الشجرة العالمية المقدسة بيد أن الباحث (شيفمان) يعتبر عقيدة الشجرة العالمية أصلا لجميع العبادات التى


(٣٨) نفسه: ص ٦٦.

انتشرت في حوض المتوسط الشرقي. وكانت تقام لها طقوس عبادة عند الأشجار التي تنبت على الجبال العالية، وسميت مقار تلك العبادة (المرتفعات) و (العليات)^(٣٩). وقد مارس الإسرائيليون هذه العبادة وأشار إليها الكتاب المقدس مئات المرات كما لا تفوتنا المتكررات الدائمة في بلاد الرافدين التي تشير إلى شجرة عالمية مقدسة، وهو ذات الاعتقاد الذي نجده في عقائد مصر القديمة.

والآن لنلمس بسرعة القصة الموسوية لنعود لمتابعة التأسيس:

قديمًا لاحظ الفيلسوف اليوناني (أرسطو) أن بعض جذوع النبات تصدر ضوءاً^(٤٠)، أما شجر المانجروف وشجر اللبان، فكان كثيرًا ما يجذب مخلوقات متألقة تعرف باسم   أشهرها الخنافس/ الحباب المعروفة باسم  أي الفراشات النارية، وعلى التخصيص إناتها المعروفة باسم  أي الوهاجة، ومثل تلك الكائنات المضيفة المتعددة، نشأ بخصوصها علم خاص باسم علم  أي علم السطوع، بينما الظاهرة نفسها أصبحت معروفة تمامًا لعلماء الطبيعة تحت اسم (ظاهرة التألق الحيوى ). وتحيط إناث الخنافس الأشجار أو الأيك بهالة ضوئية، هي إشارات لجذب الذكور إلى الشجرة.

ويشرح البروفيسور (جون بوك) من المعهد الأمريكي القومى للصحة ميكانيزم الضوء الحيوى الذى تصدره مثل تلك الكائنات بأن الجزئ يندفع إلى مستوى طاقة أعلى وغير مستقرة فى آن واحد. وعندما يعود الى وضعه الطبيعى يصدر فوتونا أى جسيمًا ضوئيًا، وأن ذلك يحدث بوسائل كيميائية وفيزيائية معقدة، ليس هنا مجال تفصيلها لشدة تخصصها. وقد أطلق العلماء على الجزئ الكيميائى الذى يقوم بهذا الدور اسم  أى حامل الضوء، وعندما يتحد اللوسفرين مع الأوكسجين، بوجود إنزيم يعرف باسم لوسيفيريز  وجزئيات أخرى تختلف تبعاً للنوع المشمول، ينتج عن الاتحاد جزئ يحمل طاقة أعلى تكفى لإصدار الضوء^(٤١).

وهنا نقف دهشين من قدرة اللغة على حمل كل هذه المعانى وكل تلك الذكريات القديمة، لأن لوسيفر  حامل الضياء، كان لقب الملاك الذى عصى الله، وكان يسمى لو سيفر لقربه من الله إلى الحد الذى كان يعكس ضياء الله على وجهه، وهو الذى تحول بعد الغضب الإلهى عليه لعصيانه، إلى شيطان باسم إبليس^(٤٢).

وهنا لابد أن تتداعى مضامين لسان العرب وهو يتحدث عن أيك اللبان أو المر، إذ يقول: "ولبني اسم ابنة إبليس" ثم يقول عن اللبان باسم المر: "وأبو مرة هو كنية إبليس"، أما الحباب الضوئية فكانت تحيل أيك اللبان إلى شجرة مضيفة متوهجة كما لو كانت تشتعل، ولو لم

(٣٩) شيفمان: ثقافة أوغاريت .. سبق ذكره، ص ١١٧.

(٤٠) إبراهيم عبد الله العلو: كائنات وضاءة، مجلة العربى، الكويت، عدد يناير ١٩٩٥، ص ١٤٠.

(٤١) نفسه: ص ١٣٩ : ١٤١.

(٤٢) سيد القمنى: الأسطورة والتراث .. سبق ذكره، انظر ص ٢٩: ٥٣ انظر هناك عدداً من المصادر.

تمسسها نار، وهو الأمر الذى كان كفيلا لدى إنسان تلك العصور الخوالى بإحاطتها بالأساطير والتبجيل والعبادة، ناهيك عن كون عصاريتها تستخدم فى أجل الشئون، فكانت تحرق ليتصاعد دخانها العطرى إلى أنوف الآلهة، فقد كانت بخور المعابد وهياكل الآلهة. ولم يزل تبخيرها حتى اليوم يطرد الأرواح الشريرة ويفتح أبواب الرزق فى المعتقدات الشعبية، أما الأهم فهو أنها كانت المادة العلاجية الطبية الأولى فى ذلك الزمان. وعندما نربط بين شجر اللبان (الأيك) وبين الحيات التى تعيش فى غياضه، تلوح فوراً صورة الكيمياء العلاجية (الصيدلة) ورمزها الذى يتمثل فى حية تلتف حول كأس الدواء.

أما الخنفساء السوداء الأنثى المضيفة، فتعرف باسم (الملكة السوداء) لأنها تفعل فعل أنثى العنكبوت، فتبدأ فى التهام الذكر وهو منهمك فى تلقيحها، ثم تأتى عليه بعد أن ينهى مهمته وهو عاجز عن الدفاع نفسه. ويبدو أن تلك البلاد الأدومية التى تموج وتترخر بثرء هائل للشعوب والسلع كانت مصدراً لأشياء مضيئة متنوعة، وربما كان ذلك هو السر وراء الانبهار بها وتقديسها كأرض للآلهة، ناهيك عن جمال طبيعتها المبهر. ويضئ أماننا الآن نص فى تقرير بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت كان مستعصيا على الفهم تاماً، وهو النص الذى يقول: إن حتشبسوت قد استوردت من هناك مادة اسمها (السام) وأن تلك المادة تضى بنفسها كما لو كانت نوعاً من الفوسفور، وإن الملكة قد دهنت جسدها جميعه بتلك المادة، فأضاعت، والنص هو :

وكانت جلالتها تعمل بيديها، فوضعت أحسن العطور على
أعضائها، حتى أن عبيرها كان كالأنفاس القدسية، وانتشر شذاها
حتى اختلط بشذى أرض بونت، وكان جسمها مرصعاً بالسام
يسطع كالنجوم فى قبة السماء، على مرأى من كل الأرض^(٤٣).

ويتكرر ذكر مادة (السام) فى متون مصرية أخرى كما فى النص "وأن كل الأواني التى أعدت لها كانت من السام والذهب وكل حجر ثمين"^(٤٤) ولم يلتفت سادتتنا المؤرخون إلى نص آخر يأتي بمادة السام من بلاد سوريا وليس من بلاد الصومال (والمقصود بسوريا كل الشرق الشامى بدءاً من سيناء) وهو الذى يعدد الجزية القادمة من سوريا وأهمها مادة (السام)^(٤٥).

أما شعر المتنبى الذى أورده لسان العرب، فيبدو لنا أنه كان يدور حول بلاد بونت فى مغرب أيامها، فالأبيات تقول:

يقول : بشعب بوان حصانى أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

(٤٣) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٤، ص ٣٣٢.

(٤٤) سليم حسن: مصر القديمة، ج٤، ص ٤١٣.

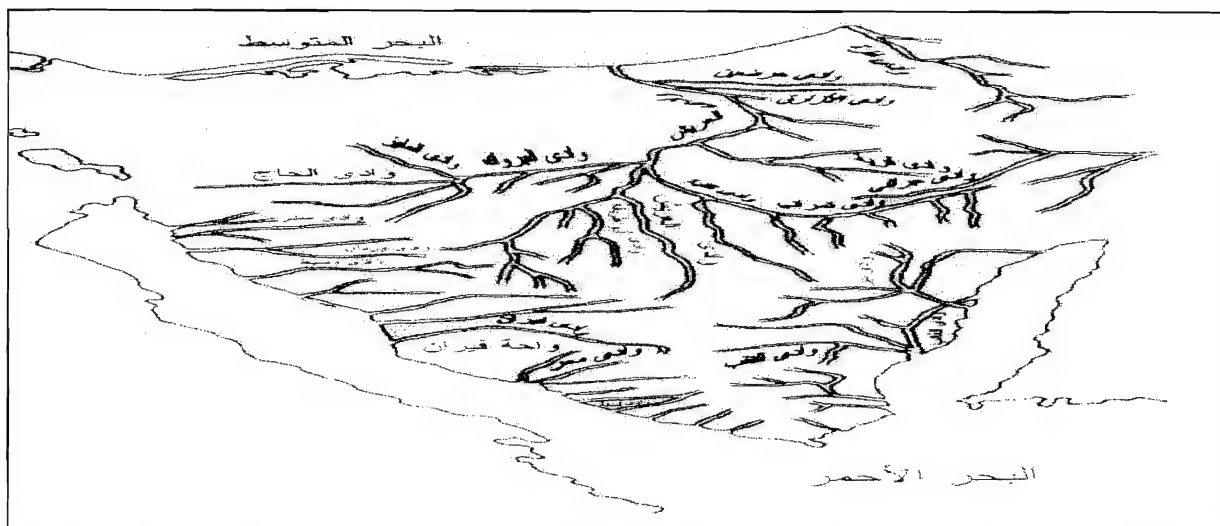
(٤٥) نفسه: ص ٤١٤.

فالرجل هنا يستحضر ذكريات قوم أصحاب خيول، عاشوا فى مضيق
أو شعب باسم (بوان)، ارتكبوا المعصية، فكتب عليهم مفارقة بلادهم التى كانت جنات . وهى عين الذكريات
التي تجد صداها فى القرآن الكريم بعد ذلك، حيث يقول واضحا فصيحاً بليغاً، مسجلاً تلك الذكريات الخوالى
التي تلتقى التقاء مدهشاً وتنضبط مع ما قدمناه فى عملنا هذا:

لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية، جنتان عن يمين وعن
شمال، كلوا من رزق ربكم وأشكروا له، بلدة طيبة ورب
غفور، فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم
بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمص، وأثل وشئ من سدر قليل،
ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجزى إلا الكفور (؟) وجعلنا
بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا
فيها السير، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين، فقالوا : ربنا
باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم، فجعلناهم أحاديث،
ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور،
ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، فاتبعوه إلا فريقا من
المؤمنين/ ٢٠:١٥ سبأ.

ولا شك أن السؤال الذى بات يلح الآن: أى إله تقصد النصوص المصرية القديمة، عندما كانت تصف بلاد
بونت بأنها أرض الإله؟ ولماذا لم تسم تلك النصوص ذلك الإله باسمه الواضح؟ وما علاقته بالشيطان إبليس
ذلك المتكرر دوما والمصاحب دوما لبلاد الأييك؟

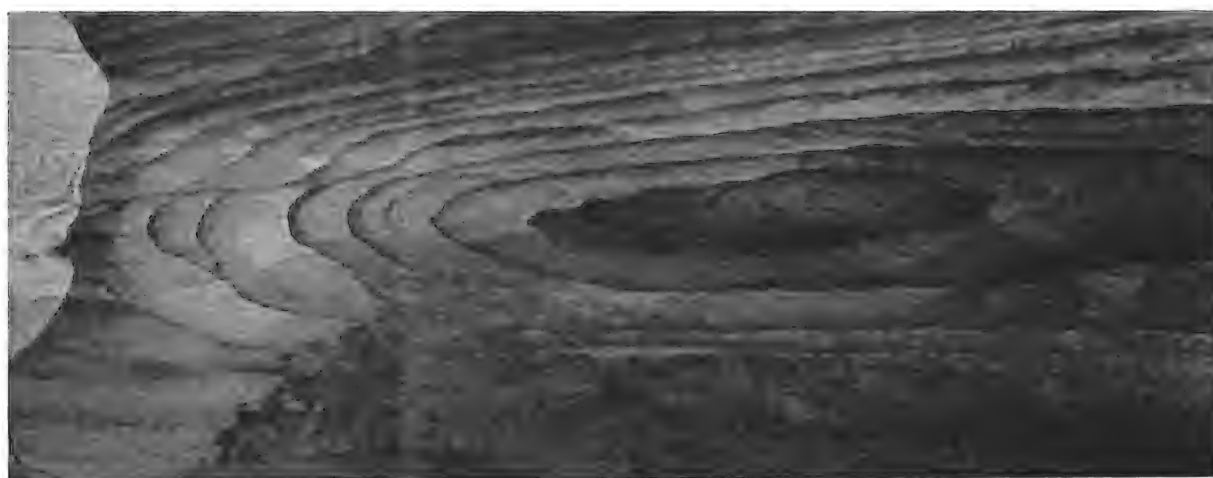
إذا كانت فروضنا حتى الآن صحيحة، وإذا كانت بلاد بونت هى بلاد آدوم، الواقعة شرقى مصر
على امتداد الحد الشرقى لسيناء ما بين البحر الميت شمالا وخليج العقبة جنوباً، حيث البوادر والجبال
الشاهقة، والصخور الملونة، وأشجار الأييك المضيئة، والثعابين الطائرة، وطائر الفينيق. فعلينا إذن العودة إلى
نصوص مصر القديمة، نستنطقها سر إله اعتقد فيه المصريون القدماء وكان على علاقة بشرقى مصر
وبالصحارى وبالجبال وباللون الأحمر رمز الشر المستطير.



خريطة رقم (٢٩)
وديان سيناء

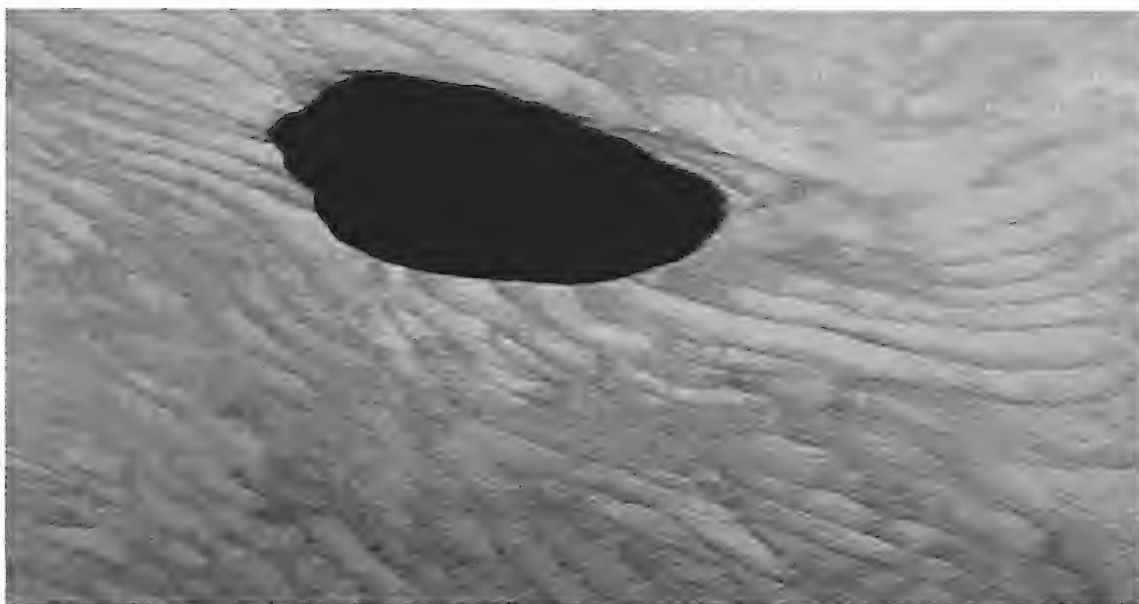


شکل رقم (۳۶)
وادی فیران .. من و دیان سیناء

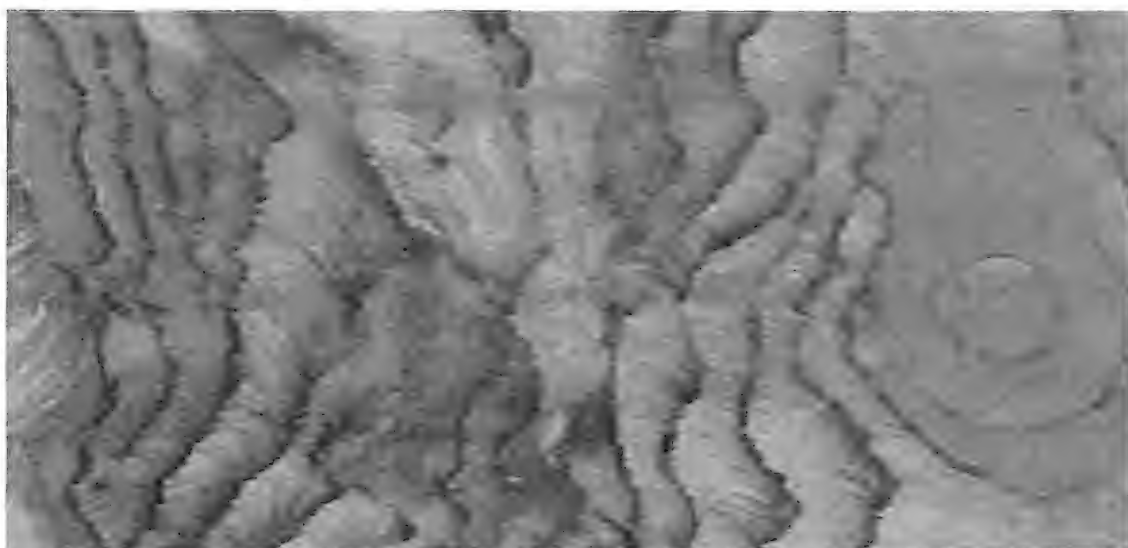


شكل رقم (٣٧)

أحجار بلاد بونيت أو بلاد آدم، من البتراء. توضح قيمتها وندرتها وبهائها اللوني وتستحق التصنيف إلى حجر أوكنو وحجر



شكل رقم (٣٨) التداخلات اللونية من كل لون في أحجار آدم

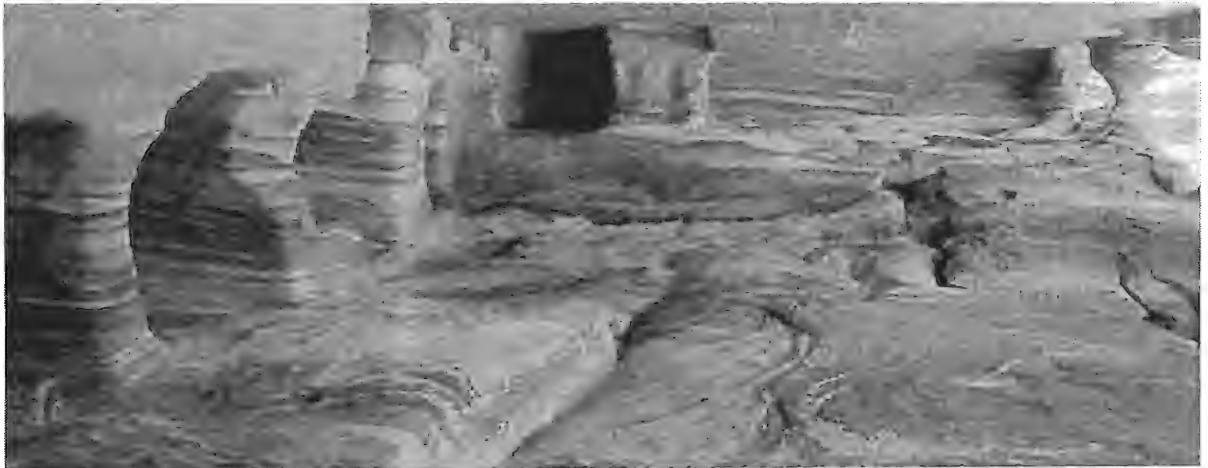


شكل رقم (٣٩) هكذا أحجار البتراء





شكل رقم (٤٠) من كل الوان الطيف (أحجار بلاد الكهوف



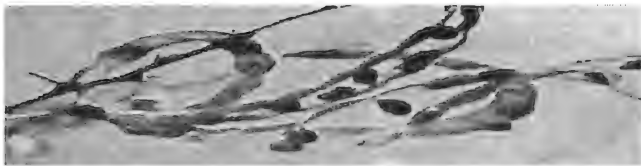
شكل رقم (٤١)
بين هذا البهاء سكن الآدوميون



ش. ٤٢ - ق. ١٤٤١

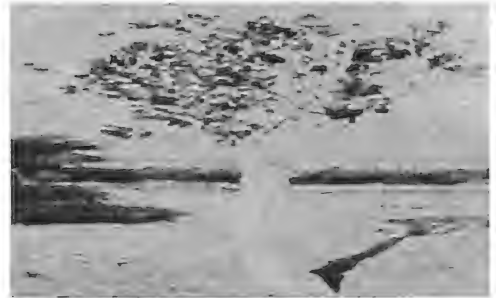


شكل رقم (٤٣)



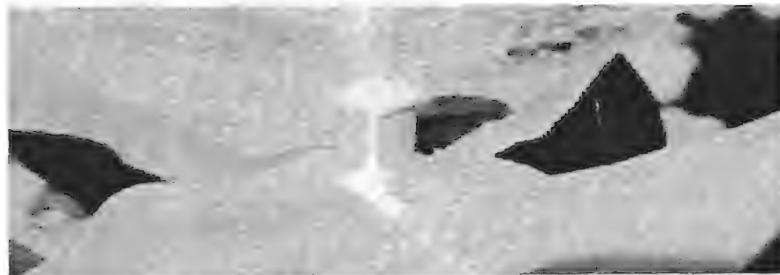
شكل رقم (٤٥)

ثمرة شجر البان تشبه قرون اللوبيا ولها حب يستخرج منه
دهن اللبان ويعتق دهنها طيباً



شكل رقم (٤٤)

شجر البان لم تزل حتم، الآن علم، شاطئ البحر الميت



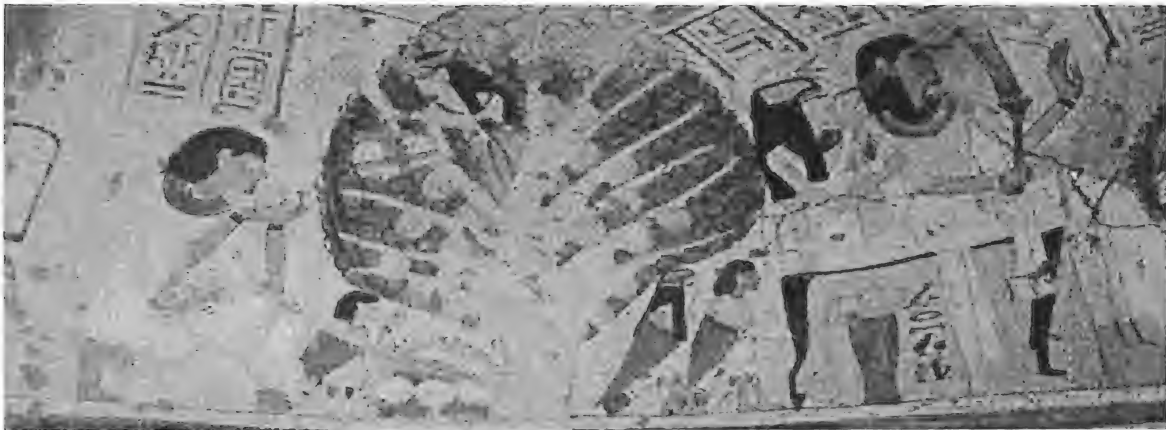
شكل رقم (٤٦)



شكل رقم (٤٧)
صمغ / بخور البطم في وادي عربة



شكل رقم (٤٨)
شجرة تين سيناوى برى لازالت باقية وسط السية، ويجوار مكان لتقديم القرابين



شكل رقم (٤٩)
الشجرة الإلهية المقدسة في مصر القديمة وهي كما هو واضح شجرة تين



شكل رقم (٥٠)

الربة الشجرة مرسومة على عمود في غرفة الدفن بمقبرة تحتمس الثالث وهي تقدم تديها للملك المتوفي ونقرأ العلامة
الهيروغليفية من خبر رع اسم العرش لتحتمس الثالث

الرب الأحمر

نحن نبحث إذن عن إله بلاد بونت، وحتى نصل إلى ذلك لابد من هذا السرد الذي سيلقي بنا في النهاية بحرم ذلك الإله.

في مصر القديمة أسطورة من أشهر وأهم الأساطير العالمية في التاريخ الديني، هي تلك المعروفة بأسطورة (أوزير / أوزيريس) رب الزرع والخضرة والخصب والنماء والخير والضياء، الذي يمثل أرض النيل الخصيبة، ويرمز للخير في الأسطورة. وحتى يتم تفسير دورة فصلى الخصب والجذب، الصيف والشتاء، قالت الأسطورة: إنه كان لأوزير أخ شرير اسمه (سيت)، وإن هذا الشرير كان يغار من حب الناس لأخيه الطيب، حتى دفعه شره إلى مؤامرة انتهت بقتل (أوزير) وتمزيق جسده قطعاً دفنت في مواطن متفرقة من أرض مصر. لكن لتعلن الأسطورة من بعد عن قيامة الحياة الخصيبة من الأرض بعد انتهاء فصل الجذب، ذلك الفصل الذي حدث بموت أوزير رب الزرع على يد أخيه الشرير، رمز الشر والموت والفقر والجوع والصحراء.

ومن هنا كان موت رب الخير موتاً مؤقتاً، لأن الخير وإن تراجع أو اختفى فهو قائم كائن عائد، لأنه مثلما تدفن الحبوب في أرض موات، فإنها تعود إلى الحياة بالقيام من الموت في حياة جديدة زاهية خضراء، كذلك الشهيد (أوزير) قام من بين الأموات جسداً حياً في قيامه مجيدة، بعد موته بأيام ثلاثة. مما استدعى في مصر عيداً سنوياً كرنفالياً احتفالاً بتلك العودة، وهو العيد الذي ترسمت خطاه من بعد العقيدة المسيحية في احتفالها الكرنفالي بعيد القيامة المجيد.

ومن ثم كان احتفال المصريين بقيامة أوزير فرحاً رسمياً وشعبياً يعبر عن الإيمان بعودة الخير رغم الشرور، والقيام من الموت رغم أنف رب الموت الشرير سيت، فتعم الفرحة البلاد يوم الانقلاب الربيعي للشمس، إذاننا بعودة الحياة الخضراء إلى الأرض، ومن هنا جاء اعتقاد المصريين أنهم من الموت سيقومون كما قام (أوزير)، وأنهم من بعد الموت لن يذهبوا إلى فناء لكن إلى حياة متجددة تحت الأرض، حيث يعيشون هناك تحت رعاية رب الخير (أوزير).

ومن هنا أمسى الإله (سيت) رمزاً لكل ما هو قبيح سيئ شرير، ورمزاً للجذب والفناء والموت، رمزاً للصحارى والجفاف. وفي الوقت ذاته فإن سيت هو الإله الوحيد في الأسطورة الذي يتسم بغموض شديد، فطوراً نفهم أنه كان إلهاً لجنوب مصر العليا قبل اندماج مصر شمالاً وجنوباً في دولة مركزية متحدة. وكان المصريون يطلقون على جنوب مصر (ط. س. ت. ي) أي الأرض (ط. س. ت. ي) الستية (س. ت. ي) نسبة إلى الإله (سيت). وطوراً آخر نجده إلهاً للصحارى وبخاصة الصحراء الشرقية السيناوية، إذ يبدو هنا رباً للبدو والقفار. وقد تم تعليل ذلك بحسبان الإله (سيت) رباً لكل ما هو غير خصيب، وكان جنوب مصر يحوز أقل المساحات الزراعية بالنسبة إلى الشمال المصري، وكانت تلك المساحات لاتقارن بأراضي الوجه البحري

والدلتا الخصيبة ولم تزل، نتيجة لضيق وادى النيل جنوبا، واقترب الهضبتين الصحراويتين الشرقية والغربية من بعضهما إلى الحد الذى لا يسمح بزراعة سوى شريط ضيق على ضفتى النهر، ولا يسمح بأى توسع زراعى كما فى الشمال.

ويقول المصرولوجست (ياروسلاف): " أما الرمز الحيوانى للمعبود سيت Setekh .. فكان يمثل حيوانا يشبه الحمار .. ويبدو أن المصريين الأوائل حوروا ذلك الرمز من الدولة القديمة على الأقل، إلى شكل حيوانى غريب، أقرب إلى كلب رابض، بعنق طويل وأذان مربعة، ومقدمة وجه طويلة مقوسة وذيل قائم، ولم يكن من المستغرب أن فشلت جهود علماء المصريات فى تمييز أصله " (١).

ويلخص لنا الباحث (سامى سعيد) أمر الإله (سيت) فى قوله: " الإله ستخ أو سيت أو سيثوس، هو أخو الإله أوزيريس والإلهة إيزيس، وطابقه اليونانيون مع الإله اليونانى تيفون، واعتقد المصريون أن الخنزير والحمار وفرس الماء وغزلان المها فى الصحراء، هى حيوانات ستخ، وقد صوروه بجسم رشيق وجسم انسان ورأس كلب سلوقى وذيل ملتو وأذنين طويلتين، وجعلوا اللون الأحمر خاصاً به، وقرنوه بالعاصفة والعنف والشر، وجعلوه قاتل أخيه أوزيريس، والذى انتقم له حورس فأخصى ستخ، واعتقدوا أنه طعن الوحش أبوفيس برمحه لتخليص الشمس من شره، وطابقه الهكسوس فى خلال مدة احتلالهم مصر، مع الإله السامى بعل، وكان رمسيس الثانى من أنصاره " (٢).

أما الباحث الكبير (على فهمى خشيم) فقد أوضح موقف العلماء من سيت فى قوله: " إن المصريين القدماء، قد مثلوا سيت بحيوان حارت البرية فيه .. وداخ علماء المصريات فى رمزيت الحيوانى، فقال جاردنر.. هو حيوان لعله نوع من الخنازير ، وقال شورتر .. هو حيوان غير محقق النوع قد يماثل الكلب بشكل ما، ذو فرطوسة طويلة وأذنين منتصبين، وقد يشبه الخنزير واحتار بدج.. حتى قال: إنه يشبه الجمل، أو لعله حيوان انقرض لكثرة ما صيد، لكونه رمز سيت المكروه، فقضى عليه قضاء مبرما، أما لوركر .. فعنده أنه كلب أو وعل أو لعله حمار، ثم جعله حيوان يدعى أرفاك، وجعله مرة أخرى يشبه حيوانا يسمى الأوكابى.. فكان المصريون تخيلوا حيوانا غير موجود أصلا .. للدلالة على الشيطان " (٣).

وللمزيد حول الإله (سيت)، نستمع للمصرولوجت (سليم حسن) وهو يقول: " لقد برهن الاستاذ يونكر JANKER على أن الإله سيت كان الإله المحلى لبلدة سيترت STRT، وهى سيترويت SETHROITE فى العهد الأغريقى، الواقعة فى الشمال الشرقى من الدلتا، كما يعتقد يونكر.. وأن سيت كان هو المعبود المحلى للبقعة التى أقام فيها الهكسوس تحصينات عاصمتهم العظيمة، التى اتخذوها بمثابة نقطة الاتصال بين أجزاء دولتهم الضخمة، وهى التى كانت تضم بين جوانبها مصر وفلسطين

(١) ياروسلاف تشيرنى: الديانة المصرية القديمة. ترجمة أحمد قدرى، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ١٦١.

(٢) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ١٣٢.

(٣) فهمى خشيم: آلهة.. سبق ذكره، ج ١ ص ٤٣٩.

وسوريا.. وأن الهكسوس على ما يظهر كانوا خليطا من أجناس متباينة.. ونعلم أن كلا من الإلهين بعل وتشوب قد وحدا بالإله سيت « (٤)

ويؤكد ذات المعانى (مهران) وهو يقول: « حين أراد الهكسوس إقامة ديانة رسمية على طراز الديانة المصرية، اختاروا معبودا ذا مظهر غريب لا يشير إلى أى حيوان موجود .. ترجع عبادته فى شرقى الدلتا إلى أقدم العصور، وربما بدأت هناك فى مكان يقال له سزرت منذ أيام الأسرة الرابعة، أما ترجمة الهكسوس لمنطوق الكلمة ست التى تكتب بالبابلية وكأنما تنطق سوتخ، فكانت من غير شك آسيوية فى مظهرها « (٥) ويضيف هيس تأكيده أن مظهر سيت كان واضحا فى جعران هكسوسى على هيئة آسيوية بلا لبس (٦)، وأدلة ذلك رداءه ورأسه التى تجعله مشابها للإله بعل السامى وتشوب الحيثى.

إلا أن المشكلة التى واجهت الجميع لتضيف مزيدا من الغموض على الإله (سيت)، هى أن مقاطعة (سيثرويت) المنسوبة إلى سيت أو (الستية)، والتى يُعتقد أنها كانت مقر عاصمة زمن الهكسوس، لم يتم التعرف على موقعها حتى تاريخنا هذا، كل ما فى الأمر أنها لابد كانت على الأطراف الشرقية للدلتا، فى اتصالها مع الصحراء السينائية.

وفى مؤلف آخر يضيف (سليم حسن): « وكان سيت فى عهد الرعامسة، أو بعبارة أخرى فى عهد الدولة الحديثة، يعتبر إله الحرب والقوة وقد تبذدت بمضى الزمن شهرته السيئة الماضية، وكان كذلك يعتبر إله البلاد الأجنبية، ولذلك أوصت الإلهة نيت بأن يزوج من الإلهتين الساميتين: عنات وعشتار، وهما إلهتان آسيويتان، ونرى فى آخر الأمر أن رع إله الشمس، رغب فى أن يتخذه ابنا، يعيش معه، ويكون إله الرعد فى السماء، وفى ذلك ما يشير إلى أن رع قد انحاز إلى جانب سيت فى النهاية، حتى بعد أن غلب على أمره، لأنه كان عدو أوزيريس، الذى كانت له السيادة والكلمة العليا فى ذلك الوقت. وبذلك أصبح سيت يسكن مع رع فى السماء، وترك العالم السفلى لأوزير ، يحكم فيه كيف شاء « (٧). ويكون المعنى أن سيت كان إله العالم الموتى السفلى التحت أرضى، ثم تركه وصعد ليعيش مع الإله الأكبر (رع) فى السماء.

وهكذا فنحن هنا مع إله شديد الالتباس، بدأ إله الموت، ثم صعد إلى السماء تاركا مملكة الموت لأوزيريس، الذى أصبح إله للحساب من بعد الموت. وبدأت تجليات سيت المصورة فى هيئة الحمار، ثم دخلت عليه تعديلات جعلته أشبه بالكلب، لكنه ليس بكلب، لأن رسومه التى وصلتنا فى النقوش صورته فى هيئة حيوانية غير معروفة لدينا الآن، مما أدى إلى حيرة واضحة فى تحديد أمره لدى علماء المصريات،

(٤) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٥، ٦٦.

(٥) بيو مى مهران: دراسات .. سبق ذكره، ص ١٥٢.

(٦) Hayes, Egypt From The Ammenemes II, p ١٧.

(٧) سليم حسن: الأدب المصرى.. سبق ذكره، ج ١، ص ١٤٦.

فانقسموا حوله شتى. ورآه اليونانيون صورة من إلههم (تيفون) أو (طيفون) الوحش الأسطوري الضخم الذى حدثنا عنه المؤرخ (بلوتارك) فقال إن تيفون قد تمرد على كبير آلهة اليونان (زيوس)، ودخل معه فى صراع انتهى بأن هزمه زيوس ودفنه تحت جبل أتنا بصقلية. وجاءت الأسطورة بذلك لتفسر سر دمدمات بركان جبل أتنا وانفجاراته التى لم تكن سوى صوت الإله تيفون الحبيس الغاضب ^(٨) وكان تيفون ربا للرعْد والأعاصير والزلازل والكسوف والخسوف وكل مظاهر الاضطراب فى الطبيعة، ومسببات الموت والهلاك ^(٩).

ونستمر فى البحث وراء (سيت) لنقرأ ما كتبه (عبد المجيد عابدين) شارحا " إن المصريين قد كرهوا الأرض الحمراء أى الصحراء واعتبروا سيت رمزاً لها، وتصوروا فيه القسوة والغلظة .. وأن له صيحات منكرة هى الرعد ، وهو الذى يهز الأرض بالزلازل، وتصدر عنه أعمال كريهة حمراء، وله بشرة ذات لون أحمر أمغر "

ويواصل (عابدين) قائلا:

" ولم يقف المصريون عند تصورهم كسبب للجذب والفناء والعواصف، بل عدوه حامياً للأعداء وولياً للقبائل الآسيوية، وفى بعض جوانب الأسطورة القديمة نجده خصماً للشمس، وممثلاً للظلام، وشيطانا بين الآلهة. ثم انتهى الأمر بإخراجه من بين المعبودات المصرية، فبطلت عبادته ومحى اسمه وصورته أنى وجد، ولما وقف الإغريق الأقدمون على قصته، قرنوه بإله الشر عندهم: تيفون، العدو الخرافى لزيوس " ^(١٠)

ولما كانت صورته الأولى هى صورة الحمار، فيبدو أن المصريين قد رأوا بينهما صفات مشتركة، كالشهوة وغلظ الحس وفجاجة الصوت وحمرة اللون، وكان اللون الأحمر هو الشائع لهذا الحيوان فى بلاد الشرق القديم، وقلما عرف أهلها الحمير البيض.

ولفظ (حمار) فى الساميات، له صلة اشتقاق باللون الأحمر، ويقال فى لغة العرب: الجأب: الحمار الغليظ، والجأب أيضاً : المغرة أو الطين الأحمر ، ومن هنا كره المصريون كل ذوى البشرة المغراء أو الحمراء من الناس، ولم يحبوا الاختلاط بهم. وأفادنا (بلوتارك) أن المصريين كانوا يحاولون تهدئة شره واستدرار عطفه بتقديم الضحايا، وتارة أخرى كانوا يسبونهم فى احتفالات بعينها، ويضطهدون ذوى البشرة الحمراء، ويدهورون حمراء من قمة جبل، وهو ما كان يفعله أهل فقط. أما أهل بوزيريس ولوكونبوليس فكانوا يحرمون استخدام البوق، لأنه يصدر صوتا شبيها بصوت الحمار، ومن ثم اعتقدوا أن الحمار حيوان دنس، أما قرابينه فكانت من العجول المغر، الحمراء فى صفرة، بشرط ألا توجد أى شية بها، أى يجب أن تكون مغراء أو صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ^(١١).

(٨) شفيق مقار: قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص ولندن، ص ٢٤١.

(٩) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٤٣٠ .

(١٠) عبد المجيد عابدين: لمحات .. سبق ذكره، ص ٢٠٣.

(١١) بلوتارك: ايزيس وأوزيريس .. سبق ذكره، ص ٥٢، ٥١.

وقد عثر الأركيولوجست إثنين دريتون على دفنات للحمير المعبودة في مدينة إنشاص^(١٢). وإنشاص كلمة من أصل هيروغليفي هو (عا إن شاسو) أى مكان عبادة الشاسو للحمار، والشاسوهم بدو سينا. ولم يزل الفلاح المصري حتى اليوم يزرع حماره بندااء يطابق (عا إن شاسو) فهو (حا - شي)

وفى اشتقاقات اللسان العربى، نجد الصحراء فى أصله لفظ يدل على الصحرة، والصحرة هى الحمرة التى تضرب إلى غبرة، فيقال: رجل أصحر وامرأة صحراء فى لونها، والأصحر الذى فى رأسه شقرة، وإصحار النبات أخذت فيه حمرة ليست بخالصة ثم هاج فاصفر. ويقال: حمار أصحر اللون، والصحير صوت الحمير . وقد فعلت اللغة العربية فعل المصرية ، فقسمت الناس إلى جنسين: الجنس الأحمر والجنس الأسود، واشتقت اسم الصحراء من الصحرة أى اللون الأشقر، وأطلقت لفظ السواد على الخضرة والعمران فالسواد جماعة من الشجر والنخل، وفى حديث النبى محمد (ﷺ): " بُعثت إلى الأحمر والأسود من الناس ."

ويقول العالم الكوفى (ثعلب): " إن العرب لا تقول رجل أبيض من بياض اللون، لأن الأبيض هو الطاهر النقى من العيوب، فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا: أحمر " وكما ارتبطت الحمرة فى المصرية القديمة بالجفاف والفناء، كذلك كانت فى العربية، فقالوا: سنة حمراء أى شديدة الجذب، والموت الأحمر لشدة هوله، وقالوا: الحُسْن أحمر، أى أن من أراد الحُسْن صبر على أشياء يكرهها، وسمى الرجل الذى عقر ناقلة صالح، فأهلك الله بفعله ثمود، (أحمر ثمود)، وضرب المثل بثئومه ف قيل: أشأم من أحمر ثمود وسجلت الروايات العربية فى أساطيرها ماجاء ذكره عند الجاحظ فى قوله: " ومن لاعلم عنده، يروى أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرة، وذلك أن نوحا لما دخل السفينة، تمنع الحمار بعسره ونكده، وكان إبليس قد أخذ بذيله، وقال آخرون: بل كان فى جوفه، فلما قال نوح للحمار: أدخل يا ملعون، دخل الحمار ودخل إبليس معه إذ كان فى جوفه، ومنها ما روى فى شرح هذه الأمثال: أكفر من حمار، تركه جوف حمار، أخرب من جوف حمار، أخلى من جوف حمار " (١٣).

أما الطريف حقا فهو أن صحارى شرقى مصر، تقع جميعها فى محيط البحر الأحمر الذى حمل ذات المعنى فى اسمه اليونانى (البحر الإريتري) نسبة الى إريتريا وأريتريا اسم له معنى، فهى الحمراء ، أما الشعب الذى سكن جنوبى الجزيرة ، على ساحل البحر الأحمر، وأقام هناك حضارات متعددة امتدت شمالا حتى وادى عربية، على تنوع دوله، قد أطلقت عليه الكتابات التاريخية العربية اسما عاما شاملا هو : حضارة حمير، أما أهلها فكانوا الحميريين.

(١٢) د. محمد حماد: كامس، دار الجيل القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٢.

(١٣) عبد المجيد عابدين: لمحات .. سبق ذكره، ص ١٦، ١٧.

ونعود نسعى وراء أخبار الإله (سيت) فنجده يكتب مصرياً (س. ت. SET)، ثم يكتب زمن الهكسوس مع تصريفه إسمياً، فيأتى هكذا: SETESH و SUTEKH، وذلك فى وقت أصبح فيه سيداً لجميع الأرباب، بحكم سيادة أتباعه الحكام الهكسوس.

وبعد طرد الهكسوس من مصر، زمن الأسرة الثامنة عشر المصرية احتفظ الإله سيت بمكانته. وعندما جاءت الأسرة التاسعة عشر، وهى أسرة محاربة تم تكريس (سيت) كإله من الآلهة الكبرى، بحسبانه إله حرب ودمار، ويبدو أن (سيت) كان فى البداية إلها محبوبا ضمن آلهة مصر القديمة حتى نشب الخلاف بينه وبين (أوزير) فى الأسطورة المعروفة ، فتحول (سيت) إلى رمز لكل قوى الشر ضد قوى الخير. وإلهها للظلام والنار والطوفان والرياح الحارق العقيم وللصحارى وللليل المخيف وسيدا لعالم الشرور جميعا، إلها أحمرأ ملتها، ينفث دخانه النارى وينشر الموت فى كل مكان . أما الواضح لدينا فهو أن كل تلك الصفات قد لحقته بعد غزو الهكسوس لمصر وتكريسهم للإله (سيت) كإله رسمى لحكومتهم، فاقترن بهم فى نظر المصريين ، ولحقته كراهيتهم للهكسوس، فأصبح رمزا لكل ما هو شرير وضار.

وقد لاحظ (على فهمى خشيم) أن تلك الرحلة التطورية التى مر بها الإله (سيت)، تطابق ما وصلنا عن أسطورة الشيطان الذى كان ملاكاً ثم صار راعيا للشرور، ويقول: إن ذات الواقعة نجدها فى جميع الديانات، وتتحدث عن التحول من النورانية إلى النارية ولنتذكر هنا لقب إبليس فى لسان العرب (أبو مرة)، وأنه يرتبط بشجرة اللبان/ المر، لنجد أشهر ألقاب (سيت) فى مصر القديمة هو (مُر MR)، وتعنى الملعون حسب ترجمة معجم بدج^(١٤). أما مقابلة اليونانى (تيفون) فترجع إليه كلمات مثل Typhoid أى الحمى المعوية (التيفود) المحرقة ، ولو رجعنا إلى اللسان العربى لوجدنا لطيفون معانى عديدة فى مادة (طوف)، أهمها: المرض المهلك، الحمى، الإغراق، الموت.

وفى المصرية القديمة نجد من أسماء (سيت) الاسم (جب) ، وفى القرآن يتردد اسم غريب ليدلل على الشيطان، وهو ما يرد باسم « الجبب والطاغوت ».

وفى القرآن عدد من الآيات تتعلق بالطوف (ولا ننسى طيفون) كما فى النماذج:

* فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع ١٣٣ / الأعراف.

* فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون ١٩ / القلم.

والآية الأولى تحديداً تحدثنا عن قدرات رب إسرائيل زمن موسى النبى، وتذكر بما قاله سفر الخروج بالكتاب المقدس حول قرار الرب تأديب المصريين بضربات متلاحقة، فأرسل على مصر الجراد والقمل والضفادع. لكن قصة التوراة لم تقل أبداً أنه أرسل عليهم الطوفان، لكن فى المقابل نجد تفسير الطوفان فى تأكيد التوراة، أن الرب قد قرر قتل كل بكر من أبكار المصريين ليلة الخروج الإسرائيلى من مصر، بيد ما

(١٤) معجم بدج ٣١٤ عن خشيم.

سمى فى التوراة باسم (المهلك). وعلى هذا النحو يلتقى الطوفان، أو طيفون، مع المهلك التوراتى تم تأتى الآية: إن الذين انتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا / ٢٠١ / الأعراف، ليطلب منا (خشيم) ملاحظة ربط الآية بين (طائف) وبين (الشيطان)، و (طائف) تأتى من مادة طيف وخيال وشبح^(١٥).

وكما أسلفنا، فقد ذهب (بدج) فى حديثه عن (سيت) إلى أنه كان رب الجنوب المصرى، والجنوب بالمصرية القديمة هو (س و ت SUT)، ومنها فى رأيه جاء اسم الإله (سيت) وفى الهيروغليفية تسمى بلاد (الكوشيين) بلاد السوت أو بلاد السود جنوبى مصر عند النوبة: (ط.ع. س ت ي TA-STY) أى أرض الجنوب، ويسمى أهلها (س ت ي و) أى الجنوبيون وهو ما نراه أصلاً لكلمة السود واللون الاسود والجنوب هو البلاد الحارة، ولحر فى اللغة العربية تسميات من الجذر الثنائى (شط) هى: (ست) شاط، شوط، شيط، شياط، شواط، يشوط، تشويطا، شوط، شواط^{١٦}، وفى القرآن: " يرسل عليكم شواط من نار ونحاس فلا تنتصران / ٣٥ / الرحمن ".

وفى معجم فولكنر نجد معانى (س و ت SWT) المصرية: قوة الريح Force of Wind^(١٧)، وهنا نجد المقابل العربى سوط: " فصب عليهم ربك سوط عذاب / ١٣ / الفجر " وفى آيات أخرى كان سوط العذاب هو ريح عظيم يخرج من تحت الأرض، ومقلوبها سطو وسطوة، وهو ما يفيد السلطان والقوة والملك. أما المدهش فهو أن كلمة (س و ت SWT) (س ت ت STT) فتعنى ملك وملكى، وفى السبائية فإن (وص ت WST) تعنى حرق وإحراق، أما فى المصرية فتتعدد كلمة (س ت) فهى :

س ت ي STI أوقد النار، أشعل، شيط.

س ت ي STY حرق، برق، نظر بحرارة أو غيظ.

س ت ع STA حرارة، شياط، شوط

س ت ع TAT مصباح، موقد نار، سطح^(١٨).

أما كلمة شيطان، فهى فى لسان العرب: " الشيطان حية له عرف، والشاطن الخبيث "، وهى من شاط أى احترق، ومنها جاءت عبارة استشاط غضباً. ومادة شيط تقلب شوط، منها مشتقات تدور جميعاً حول النار والحرق، والهلاك وسفك الدماء والذبح، وأمراض الحمى وغيار الصحارى، وتعود جميعاً إلى الجذر الثنائى (شط) الذى هو ببساطة (شيت أو سيت) الإله المصرى الشرير نصير الهكسوس.

وفى فصل لنا (خشيم) الأمر فيقول: إن اسم سيت يكتب فى الهيروغليفية محددًا بصورة أوزة، ويقرأ ذلك الرمز أى الأوزة ST و ZT و ZA وتعنى ابن، وتدخل تلك الصورة باعتبارها محددًا فى كلمات مثل (ح ت م

(١٥) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٤٢٨ : ٤٣٠.

(١٦) نفسه: ص ٤٣٣، ٤٣٢.

(١٧) معجم فولكنر ٢١٥.

(١٨) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٤٣٥ .

(HTM) وتقابلها فى العربية (حطم)، وفى كلمة (س ن ح م SNHM) أى جراد، وهو ما يؤكد صلتها بمعنى الدمار والهلاك. وحسب التصور العربى فقد خرج إبليس من بيضة، والمدهش أن الخط المصرى الهيروغلىفى، عندما تطور نحو مزيد من التجريد إلى خط هيراطيقى، اختزل صورة الأوزة فى جسدها البيضاضاوى فقط، دون بقية الأطراف، وهو ما نجده فى دلالة المصرية (ZA) التى تعادلها فى العربية (زأأ)، وفيها معانى الخوف والغرق، وهى مقلوب (أرز) ومنه الأزيز، الغليان، الالتهاب، الرعد، الهياج، وهى صفات سبت التى تلتقى مع الشيطان فى القرآن حيث تقول الآيات: ألم تر إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً / ٨٣ / مريم .

ومن الثنائى (سبت) نجد فى اللسان الثلاثى (سنت)، مادة دون تحتها : " أسنت فهو مسنت إذا أجذب ، ويقال: تسنت فلان كريمة آل فلان إذا تزوجها سنة القحط .. والسنة والمسنة الأرض التى لم يصيبها مطر فلم تنبت .. ورجل سنوت: سبىء الخلق "، وفى مادة الثلاثى (شأت): " شأت شئيت استشئت وتشئت إذا انتشر .. وقيل يجمع ناسا ليسوا من قبيلة واحدة .. والشئ هو المتفرق "، وفى مادة الثلاثى (شرت): " شرت. الشرنتى طائر " ، وفى مادة الثلاثى (شيت): " الشيطان من الجراد "، وكلها تشمل معانى تشير إلى قبائل متفرقة من أماكن صحراوية مجدية، قد تعاقدت وتحالفت فى مكان واحد، مع معانى الشر والهلاك فى نفس الآن. (١٩)

تحول إذن إله الشر المصرى (سبت) عن رمز الحمار إلى رمز تصويرى مُحير، فقليل إنه ربما كان ذنباً أوكلباً، وربما غير موجود الآن بعدما انقرض لكثرة ما صاده المصريون القدماء، كراهية له باعتباره رمزاً للشر ، ولأنهم اعتقدوا أنه كان رب الموت بذاته. وهو بذلك يختلف عن أوزير إله الموتى فى العالم الآخر، لأن (سبت) بدأ أشبه بما نعرفه اليوم عن ملاك الموت. فأوزير رب حياة لأنه يحيى الموتى ويحاسبهم على أعمالهم. أما (سبت) فكان ملك الموتى وراعى المرض والهلاك. وقد جعل المصريون للموت عدداً من الرموز الحيوانية كلها من فصيلة ابن آوى الذى كان ينتشر فى مصر القديمة ولم يزل. وهو حيوان معروف باغذائه على الجثث والجيف فهو من الحيوانات المعروفة بالحيوانات الرمامة . فهو لا يأنف الموت ويسير فى جماعات يقودها زعيم يتشمم المواضع لينادى رفاهه لدى شعوره برائحة الموت. ولأنه كان ينبش القبور بحثاً عن غذائه الجديد فكان طبيعياً أن يتكاثر فى الجبانات، ليلحظه المصريون هناك دوماً فيحتسبون به رب الموت ذاته.

وقد أطلق المصريون على ابن آوى ملك الموت اسم (أنوبيس) الذى يلحد الموتى. وتم تصويره فى جسد آدمى برأس ابن آوى، وأحياناً بشكل ابن آوى الحيوانى كاملاً . وبالرجوع إلى مفتاح اللغة المصرية القديمة وجدنا أن الياء والسين فى اسم (أنوبيس) تصريفاً إسمياً يونانياً. أما اسمه المصرى فهو (أنبو) (٢٠) الذى

(١٩) نفسه: ج١، ص ٤٤٠، ٤٤١.

(٢٠) أنطون ذكرى : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواعها وخطوطها وأهم إشاراتها، دن، القاهرة، دت ، ص ١٠٩.

ربما كان يحمل فى طيات حروفه تعبير الـ (بونى) نسبة إلى (بونت) . ومثله كان رب الجبانات الملقب بفتاح الطريق (وب و ا ت) وينطق أيضا (و ف و ا ت) وهو ما يعادل فى العربية كلمة (وفاة) أى موت. وهو من فصيل الذئاب بدورة. والمعلوم أو الشائع أن مصر لم تعرف الذئاب الكبيرة، لكن مرحت فى احراشها وحقولها وبواديها كل أنواع الذئاب الصغيرة من فصيلة ابن آوى، ومنها كان الفصيل الذى دون المصرى القديم اسمه (آش) أيضاً، ويحيطننا فهمى خشيم علماً أن آش ASH كان يقُرَن عادة بالإله سبت، وكان آش احد رموز الموت وارتبط بالصحراء والجذب مثل سبت، ويعلمنا إريك هورنونج علماً أن آش كان يرسم عادة برأس الحيوان الخاص بالإله سبت^(٢١). ويعد آش ربا للرماد وبقايا النيران، ونظنه رماد البخور تحديداً، الذى كان يحرق للموتى عند المقابر وفى المعابد والتبخير البيئى، لطرد آلهة الموت الشرير.

ويقول ابن منظور فى لسان العرب إن الآس هو بقية الرماد فى الأثافي، بينما يحيطننا المصروولوجست بدج علماً أن سبت كان نوعا من الذئاب انقرض لكثرة ماصاده المصريون. وعند ابن منظور ثروة أخرى فهو يقول أن الأوس هو الذئب ومصغره أويس، كذلك آس هو القبر. وفى الانجليزية آش ASH تعنى رماد^(٢٢) كما تعنى أيضاً: قبر، شجرة دائمة الخضرة هى النورية أو (ناريون)^(٢٣)، أو كما عرفناها نحن فى نظريتنا المطروحة بهذا البحث بأنها شجرة نهارين: أيكه مديان. والجميل فى شأن حفظ اللغة لمحتواها عبر الأزمان أن نجد الآس أيضاً اسماً لشجرة؟! شجرة الآس التى يعالج بزيتها، وربما اشتقت منها كلمة الآسى فى الساميات وفى العربية أى الطبيب مداوى، ويبدو وأن لها علاقة بالكلمة السومرية التى تطلق على الطبيب وهى A-ZU، ولكن معناها الحرفى هى: خبير بالزيت، وتعنى أيضاً نبى، والزيت المقصود هو زيت النباتات العطرية والطبية.

وفى دراسته للموسيقى يقول الباحث (على الشوك): " إن أقدم رمز استعمله السومريون للدلالة على الموسيقى هو رأس ابن آوى .. واسم هذا الحيوان - ابن آوى - واحد فى كل اللغات السامية، فهو فى العبرية إى وهى ترخيم لكلمة أوى من الجذر آوى. وكلمة عوى الآرامية تعنى يعوى ويصرخ. ويقال بالعربية: ما سمعت إلا وعوة الذئاب ووأوة الكلاب. و وأوأ هى عوى و وة و وهوة فى صوته: ردد حزنًا وجزا. والمناحة بالعبرية يقال لها: أوى وهى تذكرنا بصوت ابن آوى أيضا. ويعتقد أن هذا الحيوان سُمى كذلك من صراخه فى الليل الذى يشبه عويل أو صراخ طفل الإنسان. وإذا علمنا أن موسيقى وادى الرافدين القديمة والحديثة مغرقة فى نكهتها الحزينة .. أدركنا لماذا استعار السومريون رأس ابن آوى لهذا الفن " (٢٤).

(٢١) اريك هورنونج: ديانة مصر .. سبق ذكره، ص ٢٦٧.

(٢٢) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٢٩٥: ٢٩٧.

(٢٣) نفسه: ج ١، ص ٣٠.

(٢٤) على الشوك: بين الخطاب الموسيقى والخطاب اللغوى، مجلة النهج، دمشق عدد ٤، ١٩٩٥، ص ١٣٩.

وهنا لا يفوت لبيب أن ابن آوى ذلك الفصيل الذئبى، كان يصدر صوتا هوال (وهوة) وهو ما يستدعى على الفور اسم الرب الإسرائيلى (يهوه) . ثم نستحضر بقوة ما سبق وأوردناه عن لسان ابن منظور تحت مادة: عناق، إبان حديثنا عن العناقين العمالقة حيث يقول:

والعناق شئ من دواب الأرض كالفهد. وقيل عناق
الأرض دويبة أصغر من الفهد طويلة الظهر، تصيد كل
شئ حتى الطير. قال الأزهري : عناق الأرض دابة
فوق الكلب الصينى يصيد كما يصيد الفهد ويأكل اللحم.

لقد كان (سيت) رب الشر المصرى الذى أصبح رب الهكسوس الأعظم يصور فى هيئة حيوان من فصيلة الذئاب. لكن شكله حير العلماء طويلا. ولم يتح للعلماء التعرف عليه بين حيوانات البيئة المصرية المعروفة، ولانظنه إلا العناق البونتي الأدومى، الذى عاش فى الصحارى الشرقية وسيناء وبلاد آدوم، ويبدو أنه كان أكثر انتشاراً فى آدوم البلاد الحمراء النارية، يعيش فى أحراش المر وأيك اللبان. وكان ربا للصحارى كما كان ربا للهكسوس، وهو ما جاء مرسوما فى نقوش رحلة حتشبسوت إلى بلاد بونت على جداريات معبد روعة الروائع بالدير البحرى، لكن قيل فى تفسيرها أنها كانت كلابا سلوقية لأنها أطول فصائل الكلاب عنقا. وكان لذلك الإله علاقة بالموت والموتى والدمار والهلاك والنار الجهنمية ورماد البخور. كما كان له علاقة بالإله الذى التقى بموسى فى شجرة نارية لا تحترق ببلاد مديان / آدوم، المعروف باسم (يهوه).

وأذكر هنا إبان تلمذتى صغيراً فى مسقط رأسى مدينة الواسطى من أعمال محافظة بنى سويف أول محافظات صعيد مصر - وكان ذلك حوالى عام ١٩٦١ ولى من العمر أربعة عشر عاماً - أن شاعت فى البلدة قصة عن حيوان مفترس نزل البلدة من مكان مجهول، وأنه يهاجم الإنسان كما يهاجم الحيوان، وسريع سرعة مذهلة، وكانت تلك شهادة الشباب الذين وجدوا فى مطاردة الوحش متعة ومغامرة تكسر رتابة البلدة الريفية ومللها، فقد أجمعوا على رؤيته مرات عدة، كما أجمعوا على أنه يقفز ففزات هائلة سريعة متتابعة يختفى بها على الفور عن الانظار. وبالغ بعضهم فقال إنه يطير ثم هذى بعضهم فأقسم أنه قد رأى له أجنحة فقد رآه يقفز طائراً وراء حمامة ليقنتصها، ولا أعلم لماذا أطلق الناس عليه حينذاك اسم (السلعوة) . كما أذكر أن صحيفة الأخبار القاهرية قد نزلت البلدة ممثلة فى اثنين من الصحفيين وسجلت الحدث وسعت مع المطاردات لكن لم يظفروا بشئ سوى الحالات التى كانت تظهر بين يوم وآخر لأناس هاجمتهم السلعة. وكانت البلدة جميعاً تبيت ساهرة الجفون بعد أن تغلق أبوابها قبل مغرب الشمس ولا يدور فى شوارعها إلا رجال البوليس وطلاب المغامرة والقنص. ولم تظمن البلدة ويهدأ روعها إلا بعد أن تم وضع السم فى تيس مذبوح وترك فى الشوارع، وبعدها تم العثور على حيوان ميت قيل أنه السلعة، وأثبت طبيب البلدة البيطرى والذى لم يعد يحمل من علم الجامعة غير الذكرى، أنه نوع غريب من الذئاب طويلة العنق، وانتهى الأمر ونامت البلدة ومر الحدث بليداً على علمائنا الطيبين طيب الله أرزاقهم من حيث لا يحتسبون.

وقد عدت إلى الإضافة لهذا الفصل مجدداً بعد أن طالعتنا مجلة روز اليوسف القاهرية إبان كتابتي لهذا الفصل من العمل، بتحقيق صحفى تحت عنوان: « الوحش المجهول الذى يهدد الصعايدة » وقد كتب الموضوع تحت عناوين أساسية ذات دلالة وإيحاءات فهي:

□ أرجله الخلفية أطول وقفزته عشرة أمتار ويتمتع بصفات الثعلب والكلب.

□ الفيضان ودق الطرق وتفجيرات الجبال دفعته للهروب للقرى.

□ ظهر فى الستينات فى طره والمقطم .

ومن التحقيق نقتطع بعض الفقرات التى تعين على تحديد مواصفات (السلعوة) كما فى قوله: « يظل هذا الحيوان الغريب مهدداً لعدد هائل من المواطنين فرض عليهم حظر التجول الإرادى ليلاً، خشية التعرض لهجوم من سلعوة والتفسير القاهرى للاسم الغريب .. هو أن هذا الاسم أطلق على الحيوانات الشرسة البرية منذ الستينات فى منطقة جبال المقطم وطره بعد ظهورها وتعيدها على الأطفال والمواطنين فى تلك المناطق التى كانت تضم معسكرات للجيش هجرت، فانتشرت هذه الحيوانات ولم يستطع أحد اصطيادها أو السيطرة عليها، واستمرت الظاهرة وقتها أكثر من أربعة أشهر ثم اختفت بعدها نهائياً.. »

ثم فى موضع آخر يقول التحقيق: « المفاجأة العلمية الثانية بعد العودة إلى قنا كانت على لسان الدكتور . . . مدير عام الحياة البرية فى مصر، الذى قال إنه لا يستطيع أن يحدد اسم هذا الحيوان أو فصيلته إلا بعد دراسة شاملة له.. وقال إن هذه النتائج سوف تظهر عقب عودة البعثة من قنا ».

وفى موضع ثالث نقرأ « تسبب السلعوة فى مقتل أربعة أشخاص هم ...[يسميه]م فضلاً عن إصابة ٢٦ شخصاً بجروح وأمراض خطيرة وتكمن المشكلة فى أن البعض أصيب منذ أكثر من ٤٠ يوماً وما زال فى حالة خطرة ولم تستطع الأمصال المضادة لسعار الكلب شفاؤه من مرضه، بالإضافة إلى نفوق ٢٨ رأساً من الماشية نتيجة اصابتها بهجوم الحيوان المفترس عليها. بل أن كلاب الحراسة التى كانت تحمى الحقول قتل عدد كبير منها .بهجوم من هذا الحيوان المخيف الذى أطلق عليه الأهالى اسم سلعوة ».

ويقابل الصحفى أهالى القرية بعد مقتل واحد من تلك السلعوات ويستمتع من بينهم لأحد كبار السن يقول: « إن اسم السلعوة يعود لاسم فرعونى قديم تخيله المصريون القدماء كشئ لا يطيقه الإنسان ولا يستطيع أن يتغلب عليه ثم صار لقبا يخيف أى شخص دون أن يدرك أية معلومة عن صاحبه، ورآه الحاج

ويقول عنه: بعد صيده وجدت شكله يختلف عن الكلب وعن الذئب، فهو حيوان ساقاه الخلفيتان أعلى وأطول من الاماميتين، سريع في قفزاته لا يستطيع أحد اللحاق به « (٢٥).

ونستعيد ما قال ابن منظور عن عناق الأرض الذى يصيد كل شئ حتى الطير ، لنتابع الاستماع إليه يقول:

إنه ليس شيئاً من الدواب يؤبر - أى يخفى أثره - إذا
عدا، غيره وغير الأرنب.

وفى ضوء تلك المعلومات ألا يكون محتملاً أن السلعوة هى البقية النادرة لذلك الحيوان القديم عناق /
سيت؟ ثم نتذكر أن عاصمة بلاد آدوم كان اسمها سالع ومنتساع فى دهشة: هل اسم السلعوة هذا بقية مأثورة
لذكريات غامضة كانت تتسبب هذا الحيوان لموطنه الأشهر سالع / سلعوة ؟

وعن معبودات مصر القديمة يحدثنا دوماس عن بعض الآلهة غير محدودة المعالم، منها مثلان (نون)
المحيط الأزلى الأول الذى كان موجوداً قبل خلق العالم، (وماعت) ربة العدالة والصدق وكل المعانى
الرفيعة، و(سيا) الذى هو مجرد التصور عقلى، أى هو رب الأفكار، لذلك هو فكرة بدوره، واسمه يعنى
التصور الذهنى المطلق والمجرد للإله — ثم يعبر دوماس عبر كتابه المحتشد بمئات الآلهة فى سطر واحدة
على إله كان يحمل اسم (هو Hou) ^(٢٦) وهو ما يستدعى على الفور (هبا) زوج (هيات)، أو (هفا) أو (هوى).
كذلك جاء ذكر هذا الإله باسم (هو) عند ياروسلاف ^(٢٧)، بنفس الإشارة السريعة التى توغز بعدم وجود
معلومات كافية عنه.

ويشرح إريك هورنونج عن (هو) قائلاً إنه « تجسيد للنطق الخلاق الذى دعا به الإله الخالق كل
الأشياء إلى الوجود، وهو أحد القوى الخلاقة الثلاثة مع حكا Hike وسيا Sia التى تصاحب إله الشمس دائماً،
والإله (هو) ليس له عبادة فى المعبد » ^(٢٨)، وهو الأمر الغريب والمدهش إذا علمنا أن (يهوه) رب
الإسرائيليين كان إلهاً برياً ليس له معبد، ولم يقم له المعبد بعد ذلك على يد الملك داود ثم سليمان، إلا لأسباب
تدعيم المركزية الحاكمة.

ومعنى أن يكون (هو) عند المصرى القديم إلهاً يرمز إلى النطق الذى دعا به الإله الخالق الأشياء
للوجود، فهو ما يستدعى فكرة الخلق بالكلمة (كن — فيكون). فالإله (هو) ينطق مثل فعل الكينونة TO BE،
وسنرى كيف أن الإله العبرى يهوه كان بدوره فعل كينونة (يكون).

(٢٥) عصام عبد الجواد: الوحش المجهول الذى يهدد الصعادية، مجلة روز اليوسف، عدد السابع من أكتوبر ١٩٩٦، ص
٨١:٧٩.

(٢٦) فرانسوا دوماس : آلهة مصر، ترجمة زكى سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦، ص

(٢٧) ياروسلاف تشيرنى: الديانة.. سبق ذكره، ص ٦٥.

(٢٨) إريك هورنونج: ديانة مصر .. سبق ذكره، ص ٢٨٨.

وفى نصوص مصر القديمة نجد حكاية بعنوان قصة الرياح الأربع عبر فيها المصرى عن اسم أحد آلهته نظنه الإله (هو) تحديداً ، بنقش كريش وعصافير تطير تؤدى كلها المؤدى الصوتى IAUEE ي هـ و ي. وتم تصوير الحرف الأخير من تلك الكتابة التصويرية فى شكل مروحتين من ريش متعارضتى الاتجاه تعبيرا عن شهيق ذلك الإله وزفيره للهواء (٢٩).

وأسماء الإله التوراتية تعطينا تنغيمات مختلفة كعزف متعدد على نوتة أصلية فهو ياو، ياهوه، ياه، إهيه، يهوه، جاهوفاه، يهوى، ويعطيك النغم صوت الريح خاصة لو أخذنا بنصح (لودز) فى صحة نطق الاسم، فهو ينبهنا إلى وجوب نطق الاسم جاهوفاه بفتح ثم مد فسجول طويل (٣٠). ويرى (شتاده STADE) أن معنى الاسم هو المُسقط أى الذى يسقط البروق على الأعداء لأن هوى بمعنى سقط (٣١). بينما يذهب (فلها وزن Wellhawsen) إلى أن الاسم (يهوه) من هوى العربية بمعنى الهواء فمعناه يهب، أى أنه كان إلها للريح والعاصفة (٣٢). وهو ما نراه يتصل بعبادة القمر البدوية كما سنرى.

ومعلوم فى الدراسات الميثولوجية أن القمر كان فى نظر الأقدمين معبوداً وكان معلوم أيضاً أنه جرم كبير كالشمس، لكنه غير مستقر الأحوال فسلوكه (هوائى). وحتى اليوم نقول عن الشخص المتقلب أنه هوائى.

ومع قيام الدولة الأكادية السامية فى الرافدين القديم يبرز بين الآلهة السومرية القديمة الإله (إنليل) واسمه مركب من ملصقين (آن = سيد أوروب) + (ليل = الليل أو الهواء)، وقد اعتبر رب الليل وانتمى الناس إليه بالعبودية حتى زمن الدعوة الإسلامية كما يأتينا فى اسم (عبد ياليل) (٣٣). ولم يزل المطرب الشعبى فى بلادنا يغنى لهذا الرب بمواله: ياليل ياعين، وعين هنا هى عين الليل، القمر، أما أهم صفات (إنليل) التى وصلتنا فهى أنه كان رب الريح والعاصفة. ولما كان الأقدمون يرسمون للكواكب والنجوم خرائط تخيلية تحدد لها لتسهيل مقاربتها، ولأن التجريد الخطى لم يكن قد نضج بعد، فقد جعلوا خرائط الفلك على أشكال الحيوانات . وكان حظ القمر من تلك الخرائط رمز الحيوانات ذات القرون، لأن القرنين يشبهان الهلال. فقاموا يرسمون تحت الهلال رمزه الأرضى: الثور والتيس والخروف، لكن الصورة التى حازت الانتشار كانت صورة الثور، لأنه على الجانب الآخر كان يمثل قوة الخصوبة فى الطبيعة لفحولته الجنسية. وهنا ما علينا سوى أن نتبع نصح (لودز) فى نطق يهوه (جاهوفاه) بفتح فسجول طويل لنستمع لأنفسنا نخور خواراً فصيحاً. إنه بدوره صوت الريح ولا ننسى أن من معانى كلمة سوت Swt إحدى مشتقات سبت فى معجم

(٢٩) جارودى: فلسطين أرض.. سبق ذكره

(٣٠) Lods. A, Israel From its Beginnings to the middle of eight century London, ١٩٦٣, pp. ٣٢١-٣٢٢

(٣١) Stade. B, Le herbuch der hebraischen Grammatik, Libzig, ١٩٧٩, p ٤٢٩.

(٣٢) Wall hawseen . J, Die biblischen Atertu mer, clu an Stuttgart .

أقتبس د. يعقوب السيد بكر فى هوامشه على ترجمة كتاب موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، دار الكتاب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٨٦

(٣٣) ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، مج ٣، ص ١٠٠٧، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة، مج ٣، ص ٥١٢.

فولكنر ٢١٥: معنى قوة الريح. وكثيرا ما قيل فى الأساطير القديمة أن الريح الأعصارى يخرج من منخار ثور أسطورى.

لكن المدهش حقا - وسر الدهشة سينجلى بعد قليل - أن نجد المصرى القديم يدون لنا عن ذلك الإله المذكور فى هيئة مراوح من ريش تزفر الهواء تنبئها يقول: "إنه الإله الذى يحرم النطق باسمه" (٣٤). وهو ما ترك صداه فى الأساطير الدينية حول اسم الإله الأعظم أو اسم الإله الخفى، وهو الاسم الذى إذا عرفه شخص تقى أو محظوظ يمكنه أن يكتسب قدرات الفعل الإلهى، ويكسر به قوانين الطبيعة ويفعل المعجزات. وقد شرح المصريون وبعدهم علماء المصريات السر فى تحريم النطق باسم هذا الإله، والمتمثل فى كونه ليس كائنا بل هو نطق. هو الكلمة الخالقة. هو فعل وليس كيانا ماديا، لذلك استخدمت فى التعبير عنه حركات الريح زيادة فى تجريده عن المحسوس. وهو ما يلتقى مع الاسم (هفا) أو (هوا) زوج ربة الشمس (هبات) فى بلاد الحوريين المديانية، وإليه انتسبت باسمها الأميرة المينانية التى تزوجها أمحتب الثالث وعرفت باسم (جيلوخيا) أو (ايلوها) وترجمتها (الإله هوا).

ولو أمكننا الاطمئنان الكامل لكلام (برستد) حيث لم نجد هذا الكلام إلا عنده، لأمكن القول أن (هوا) أو (هفا) هو نطق لاسم نفس الإله (يهوه) لأنهما كانا يعبدان فى ذات المكان وذات الزمان فهو يقول: إن أهل مديان قبل موسى كانوا يدينون بديانة إله وثنى باسم (يهوه). (٣٥) وهذا كله إنما يلتقى مع صفة عناق الآدمى شديد السرعة كالريح وبقيت عنه ذكريات جاءت فى لسان العرب وهو يقول:

إنه ليس شيئا من الدواب يؤبر - أى يخفى أثره - إذا
عدا، غيره وغير الأرنب، وجمعه عنوق، والفرس
تسمية سيا كوش.

ثم نجد لدينا قطعة أدبية كنهوتية مصرية تعود إلى زمن من الأسرة التاسعة عشرة ربما من زمن رمسيس الثانى، معنونة بعنوان شديد الدلالة هو (الإله واسم قوته الخفى)، تروى كيف كان للإله عدة قوى، ولكل قوة اسم مقدس معبود، وبين تلك الاسماء كان ذلك الاسم الذى لا يعرفه أحد وهو سر قوته (٣٦).

هذا بينما على الجانب الآخر نجد (موسكاتى) يقول: "كان إله إسرائيل يظهر وسط السحاب ويبدى قوته فى البرق والعاصفة" (٣٧). وكان (سيجموند فرويد) يؤكد "أن الإله يهوه هو الذى أهده موسى المديانى شعبا جديداً لم يكن كائنا أعلى، بل كان إلها محليا محدوداً وشرسا، عنيفا ودمويا" (٣٨) إن فرويد كان مثل

(٣٤) جارودى: فلسطين أرض .. سبق ذكره، ص ٩٩

(٣٥) برستد: فجر الضمير، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص ٣٨٦.

(٣٦) سامى سعيد: الرعامسة.. سبق ذكره، ص ١١٧.

(٣٧) موسكاتى: الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧، ص

١٤٩.

(٣٨) سيجموند فرويد: موسى .. سبق ذكره، ص ٦٨.

(جيمس برستد) يعتقد جازماً أن يهوه كان إلهاً مديانياً سيناوياً آدومياً أما الذى يجب إبرازه هنا أن المصرى القديم كان دائماً يتحدث عن أرض الإله أى بلاد بونت، لكنه أبداً لم يذكر لنا اسم هذا الإله ولا مرة واحدة، ونفهم الآن السبب الواضح، لأن هذا الإله كان فعلاً، لم يكن اسماً وليس له اسم، إنه فقط (هو).

ويشرح (كمال الصليبي) معنى اسم الإله الإسرائيلى (يهوه) فيقول: " يهوه: قد تعتبر هذه الكلمة بالعبرية على أنها الاسم الذى تطلقه التوراة على الله .. وهو اسم لا يلفظ فى القراءة إجلالاً بل يُكنى عنه بكلمة الرب، وهكذا يترجم الى العبرية. ويعتبر علماء اللغة أن يهوه هى أيضاً صيغة مضارع لفعل هيه بمعنى كان، والمضارع من هذا الفعل هو عادة يهيه . كلمة يهوه إذن قد تعنى: الرب وقد تعنى: يكون " (٣٩).

وللباحث نفسه كتاب آخر يعقب فيه على نص التوراة الذى يحكى عن لقاء موسى لربه فى نبات مضئ بسيناء " فناداه الرب يهوه من وسط العليقة وعرفه بنفسه قائلاً: هيه هيه هيه، أى أكون الذى أكون، أو بمعنى آخر: أنا من أنا، وطلب منه أن يسميه باسم أهيه أى أكون. والاسم هذا من الناحية اللغوية هو اشتقاق من هيه بمعنى كان أو بأى معنى آخر، والجذر نفسه يرد أيضاً فى العبرية التوراتية بشكل هو . والواضح على كل حال أن الاسم هوه هو ذاته اسم الرب يهوه " (٤٠).

بينما الترجمة العربية للتوراة الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية تسجل نص خطاب الرب لموسى هكذا: " أنا هو الكائن، قل لبنى إسرائيل الكائن أرسلنى إليكم " ويعقب (انيس فريجة) على ذلك بقوله: " إن كلمة يهوه هى اسم الإله وهو فعل مضارع من هوى " (٤١).

وفى مصر القديمة إله للهواء أو للهوى معلوم مشهور هو المعروف باسم (شو SHU) الذى يحمل قبة السماء. ويقول لنا (فهمى خشيم) أن المقابل العربى لهذا الاسم بالجذر الثنائى ينطق (هو) أو (هواء) رب الهواء ويرسم بشكل ريشه. وقد صور المصرى القديم ذلك الإله برجل على رأسه ريشة أو مجموعة من الريش للدلالة على الهواء. ونحن نعلم أن الريشة كانت علامة الملوكية عند البدو الذين يضعون الريش على رؤوسهم علامة السيادة (٤٢) تيمناً برب الهواء.

وهكذا فإن الإله (سيت) كان فى نظر المصريين راعياً للموت ورباً له. وكان له عدد من التجليات فارتبط بنوعين من الحيوان: الحمار لأن لونه أحمر، وبالحيوان البونتى الآدمى (عناق). وربما ارتبط بكائنات مصاحبة عاشت فى المنطقة وكانت من علاماتها الدالة، مثل حية السف الطائرة . كما ارتبط بطائر صياد للحيات هو طائر الفينيق، وكان عند المصريين رباً لذوى البشرة السوداء أو الكوشيين، لذلك رأوه رباً

(٣٩) كمال الصليبي: التوراة جاءت.. سبق ذكره، ص ١٢٩.

(٤٠) كمال الصليبي: خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقي، لندن، ١٩٨٨، ص ٢١٥.

(٤١) أنيس فريجة: دراسات فى التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٧٩.

(٤٢) فهمى خشيم: آلهة.. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٢٧.

للجنس الأسود الزنجى الذى كان يعيش جنوب الوادى وكان يطلق على تلك المنطقة الجغرافية اسم بلاد كوش - كما كان إلها للجنس الأسود الذى عاش على حدود مصر الشرقية فى سيناء وآدوم.

والكتاب المقدس يروى لنا فى سفر الخروج رواية شديدة الدلالة إذ يقول إن يهوه رب إسرائيل بعد أن ضرب مصر بكثير من الضربات المهلكة، وجعلها بلاداً قحطاً قفراً ، كتحويل مياه النيل إلى دم نتن، وإرسال الريح المحملة بالبرد والنار على البلاد مما قضى على الزرع والناس والحيوان، وتسليطه الحشرات كالجراد على المزارع، والأوبئة التيفودية الفتاكة على الحيوان والإنسان. قرر فى الليلة الأخيرة قبل خروج بنى إسرائيل من مصر فى الصباح، قتل كل بكر فى مصر سواء كان إنساناً أم حيواناً ونستمع معاً لهذا المقطع التوراتى الذى يوعز بأن ذلك القتل كان عنيفاً، صاحبته إسالة دماء هؤلاء الأطفال كما لو كان قد تم تمزيقهم إربا. يقول هذا المقطع:

فدعا موسى جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم : اسحبوا
وخذوا لكم غنما بحسب عشائركم واذبحوا للفصح،
وخذوا باقة زوفا واغمسوها فى الدم الذى فى الطست
ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست.
وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح فإن
الرب يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على
العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب، ولا يدع
[المهلك] يدخل بيوتكم ليضرب .. فحدث فى نصف
الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر، من
بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى
فى السجن وكل بكر بهيمه. فقام فرعون ليلاً هو وكل
عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم فى أرض
مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت.

خروج ١٢/٢١-

٣٠

لقد كان المحرر التوراتى يعلم بالتباس الإله يهوه بكائن اسمه (المهلك) أى المفترس، وحاول الفصل بينهما لكنه لم يتمكن من ذلك تماماً فظهر كائنا واحداً، وهو ما يذكرنا بالإله (سيت) المصرى رب الموت، المعروف لدى الإغريق باسم (طيفون) سيد عالم الأوبئة والدمار، الذى زعمناه **عناق** وفضلنا وصفه بعناق البونتي. لتبقى عنه ذكريات حفزية انتقلت عبر الأجيال حتى زمن دعوة الإسلام، ليعبر عنها القرآن فى قوله: " فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون / ١٩ / القلم " ومن المدهش أن يفلت من المحرر التوراتى تصورا واضحاً لهيئة ذلك المهلك الإلهى اليهودى ، فيتابع سرد كيف أهلك المهلك أبكار المصريين فى قوله:

وقال موسى: هكذا يقول الرب: إني نحو منتصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحي وكل بكر بهيمه. ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن قبله ولا يكون مثله أيضاً. ولكن جميع بنى إسرائيل لا يسنون كلب لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم، لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل.

خروج ١١ / ٤ - ٧

إذن فالمهلك التوراتي من الفصل الكلبية، ونحن نعلم أن أحد سلالة يهوذا بن يعقوب قد حمل اسم تلك الفصلية، فهو (كالب بن يفتة) أبو قبيلة الكلبين، ويحيطنا على الشوك علماً في عبارة سريعة لكنها تعنى لنا الكثير، نقول: «إن الكلبين هم الآدميون حلفاء اليهود»^(٤٣).

وفي نص مصرى ورد لأول مرة في نصوص ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد فيما يسمى نصوص اللعنات، التي كانت تكتب على جرار فخارية تسجل أسماء أعداء مصر وبلادهم وحكامهم، ثم يتم تحطيمها في طقس سحري تماثلي يفترض فيه أن الشبيه ينتج الشبيه لجلب الأذى على أصحاب تلك الأسماء. والنص الذي نقصده يحدد ملوك وبلاد نقف مع اسم أحدهم دهشين لكن مطمئنين به إلى فروضنا، إذ يذكر النص اسم ملك لبلاد تشغلنا فيقول .

وإيدوم حاكم إى عناق وجميع بطانته

ويقرب آمو حاكم أورشليم وجميع بطانته

ويستمر سجل الأعداء المطلوب إنزال اللعنة عليهم بالطقس السحري فيذكر أثنى عشر ملكاً ببلادهم^(٤٤). إلا أن الملحوظة الهامة على نص اللعنة المذكور هنا أنه قد حدثت فيه حالة تبادل ما بين اسم الملك واسم البلاد الآدمية، فحمل الملك اسم (إيدوم) أو (آدوم) وكان يحكم فى (إى - عناق)، والكلمة (إى) كلمة سومرية هندو آرية ورثتها الساميات عن السومرية، وترد على التبادل مع كلمة (بيت BIT) التي تحمل ذات الرسم والمعنى فى اللغة العربية، فبلاد آدوم كانت (بيت عناق) ومقره.

(٤٣) على الشوك : سبق ذكره

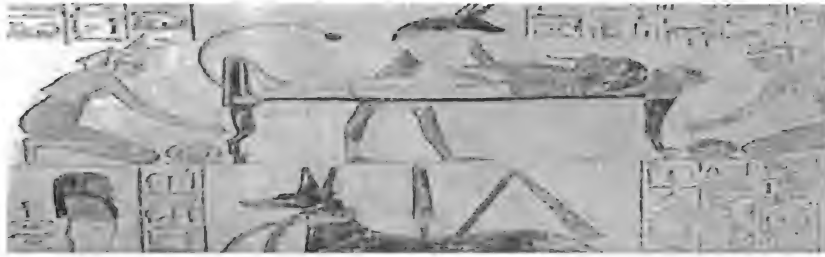
(٤٤) فراس السواح : الحدث ... سبق ذكره ، ص ١٤١.



شكل رقم (٥٢)
أنوبيس رب الموت في مصر القديمة



شكل رقم (٥١)
أنوبيس / المتحف المصري، لاحظ مدى اشتراكه في هيئته الجالسة وأذنيه المرتفعتين مع الإله سيت، ولاحظ الطوق الذهبي حول العنق.



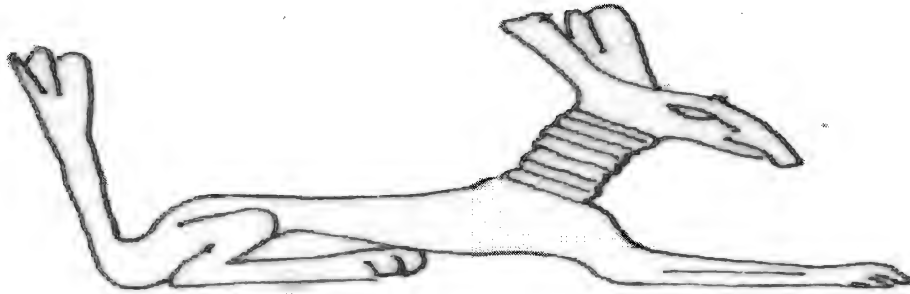
شكل رقم (٥٣)
ابن آوي يلحد الموتى في مقبرة سبتاح التعويذة رقم ١٥١ من كتاب الموتى



شكل رقم (٥٥)
سيت تفصيل علوي



شكل رقم (٥٤) رب الشر سيت يلبس تاج



شكل رقم (٥٦) سيت يلبس أطواقاً؟! مدياني!؟

معان المصرية

تقيم التوراة فى شجرة أنسابها وتقسيمها للأجناس، علاقات قرابة ونسب ما بين الجنس العربى والجنس العبرى، فتجعلهم من أصل واحد، وتعيدهم دوماً إلى سلف واحد مشترك، وأدرجوا تحت هذا السلف المشترك: العبريين، والعرب الشمالية والجنوبية، بإرجاعهم جميعاً إلى أب بعيد واحد هو (عابر)، والواضح على المستوى اللسانى بالقلب اللغوى (الميتاتيز) أن عبرى مقلوبها عربى.

ومن هنا يمكن الظن أن هذا المزج يعود إلى ذكريات تاريخية، إلى زمن هجرات وتحالفات وحروب وتداخلات حدثت بين مجموعة شعوب فى المنطقة، وأصرت التوراة من جانبها على ربطها جميعاً بصلات قرابية، لتمييز من بينهم شعبها المختار (إسرائيل). ومن جهتنا نعتبر ذلك ترديداً لكشفنا للملكة التجارية الكبرى التى قامت فى بلاد آدوم، بين حلفاء من أجناس مختلفة وألسن متباينة، واقتضت مصلحتها إقامة كونفدرالية شكلت لونا من قومية المصالح التى اقتضت تنظيراً قليباً، قام المقدس برتقها ببعضها باعتبارها بطون وأفخاذ لأصل واحد امتد من حدود الدلتا الشرقية المتصلة بسيناء، حتى الرافدين والخليج الفارسى شرقاً، ومن الشمال السورى والرافدى حتى اليمن جنوباً.

وغنى عن البيان أن ما حدث فى آدوم قد وجد صده فى عود تاريخى يكاد يطابق ما حدث فى بلاد آدوم بعد ذلك بقرون طوال، عندما قامت مكة فى بلاد الحجاز بدور الوسيط التجارى لعالم الإمبراطوريات، حين توفرت لها الظروف القديمة، والتى أهلتها لتقود القبائل المنفرقة نحو دولة واحدة مركزية، لتكرر ذات ما حدث فى بلاد آدوم، فحين استوت لها أسباب القوة تحولت عن قبض عشور التجارة إلى التجارة بأموالها الخاصة ثم إلى توحيد الشركاء فى منظومة واحدة، ثم احتلال دول المحيط احتلالاً مباشراً واستيطانياً، هاجرت فيه القبائل العربية لتسكن البلاد المفتوحة وتحكمها حكماً مباشراً فى ولايات، بالضبط كما حدث زمن الهكسوس وتكوينهم إمبراطورية تجارية كبرى توزعت فيها الولايات على القبائل الكبرى داخل الحلف الواحد. حتى أن مكة قد ضمت مدن الخط التجارى القديم القادم من اليمن حتى مصب ذلك الخط فى دول المتوسط الشرقى، كما ضمت فى عضويتها أجناس متعددة يأتينا ذكرها فى صحابة نبي الإسلام أنفسهم ما بين الزنجى الكوشى بلال الحبشى وبين الهندوآرى الرومى صهيبي، وما بين الفارسى سلمان.

وفى المأثور العربى ترديد متكرر ومتواتر لأمر كان يحتفظ به قدامى العرب من ذكريات الأزمنة الخوالى، وهو أن جزيرة العرب كان يعيش فيها من فجرها جنس أطلقوا عليه العرب العاربة، أى العرب الأصلية الراسخة فى العروبية والمتجذرة فيها من فجرها القديم، وهم من حظوا بلقب العرب القحطانية، وهم المفترض أن يكونوا سلسلة من الأخلاف لشخصية وردت فى شجرة الانساب التوراتية باسم (يقطان). وتقول لنا المصادر الإخبارية العربية أنه قد وفد على جزيرة العرب من بوابتها الشمالية جنس آخر وافد هبط إليها هبوطاً غير منطقى لأسباب مجهولة، هجر مناطق الخصب فى بلاد حوض المتوسط الشرقى لينزل جنوباً إلى

صحارى شمالى جزيرة العرب ومنطقة الحجاز، وكانت أشبه بهجرة استيطانية حمل أصحابها اسم العرب المستعربة، أى العرب غير الأصلاء أو الدخلاء الذين اكتسبوا العروبية ولم يكونوا من ابنائها، وقد اصطلح على تسميتهم العرب العدنانية نسبة إلى سلف بعيد باسم عدنان وهنا يخالف النسابة العرب شجرة الانساب التوراتية، حيث لا نجد (عدنان) هذا فى تلك شجرة التوراة. لكن أخبار العرب تلتقى مع أخبار العبر فى اسم آخر أطلقه المؤرخون العرب على العرب العدنانية، فهم اسماعيلية يعودون إلى إسماعيل ابن الخليل إبراهيم، والاسماعيلية هو الاسم الذى فضله التوراة للعرب الشمالية المستعربة العدنانية.

وهكذا نفهم أن هناك ارتباطاً، يشير إليه كلا المأثورين العربى والعبرى، بين عرب الحجاز وبين الجنس الإسرائيلى عبر الخط الإسماعيلى، وأن الفرع الإسماعيلى أو العدنانى للعرب قد هاجر من موطنه فى الفترة الهكسوسية حول بلاد آدوم والنقب ومحيطها، ليهبط بلاد نجد و الحجاز، نتيجة ربما لخلافات قبلية أو تناقضات مصلحة، حدثت داخل البطن الإبراهيمى حسب رواية التوراة التى وافقتها الرواية الإسلامية، فى ترميزات أسطورية لوقائع قديمة وأحداث تغيب عنا الآن تفاصيلها الدقيقة، ومن ثم انفصل الفرع الإسماعيلى وترك الفرع الإسرائيلى فى فلسطين.

ورغم أن التوراة من جانبها لم تذكر أية معلومات واضحة عن هبوط الفرع الإسماعيلى إلى بلاد الحجاز، فإنها أكدت عروبة هذا الفرع عندما دونت ذكرياتها التاريخية عن سكنى الإسماعيليين لبلاد آدوم ووادى عربة، وأن (عيسو/ آدوم) كان من أنساب الإسماعيليين لزواجه من محلة بنت إسماعيل شقيقة (نبايوت/ نابت) ابن إسماعيل. ويقول لنا (المسعودى): « وإن اسماعيل بن إبراهيم إنما تكلم العربية حين نشأ فى العماليق.. ولا خلاف أيضاً أن إبراهيم لم يكن عربياً ولا إسحاق ابنه، وإن ابنه إسماعيل أول من نطق بالعربية ^(١) ».

والمأثور العربى يجعل أول من تولى أمر الكعبة المكية هو (نابت) ابن إسماعيل ونسله من بعده، ليربط بين العقيدة الدينية وبين أصولها الواردة من الشمال مع نابت بن إسماعيل، مع العرب الشمالية العدنانية المستعربة. والتوراة من جانبها تحيطنا علماً بأن البطرك إبراهيم كان أرومة كل من الإسرائيليين والإسماعيليين الذين اعتبرهم التأريخ الإسلامى عرباً مستعربة. وهنا يجب أن نتذكر أن على خط الممالك الأخير فى غسق الممالك الأدومية، كانت مملكة الأنباط التى تحيل إلى الاسم (نابت) إحالة قوية. مع دعم آخر لتلك الإحالة إذ تحيطنا علوم اللغات القديمة معرفة بأن الخط العربى هو تطوير للخط النبطى الذى تطور بدوره عن الخط الأرامى، وهى جميعاً الإشارات التى تشير إلى أن العرب المستعربة العدنانية الإسماعيلية الحجازية يعودون بأصولهم التاريخية إلى محيط بلاد آدوم وسيناء وجنوبى فلسطين، وأنهم قد هبطوا جنوباً ليشكلوا هناك فرعا عربياً جديداً باسم المستعربة، نتيجة لأسباب لم تزل حتى الآن ضمن إرثيف التاريخ أسباباً مجهولة.

(١) المسعودى: التنبيه والإشراف، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٣، ص ٨٦.

ويبدو أن منطقة آدوم القديمة ومحيطها، وضمن ذلك المحيط جزيرة سيناء جميعاً، بل والبرارى الملاصقة لدلتا النيل الشرقية، بما فيها من مدن مصرية، قد سكنتها أجناس عرفت بأنها (عربية). وأن اسم عرابة الذى كان يخص الوادى الممتد من البحر الميت إلى العقبة، قد اتسع ليشمل كل تلك المساحة، ويضم معها مناطق الحجر وشمالى الحجاز. ومن هنا نفهم لماذا أطلق المؤرخون الكلاسيكيون مع مطلع العصر الإغريقى على إقليم شرقى الدلتا اسم (الإقليم العربى)، كما أطلقوا على خليج السويس من البحر الأحمر (الخليج العربى من البحر الأريتري)، حتى أن عاصمة ذلك الإقليم الدلتاوى المصرى حملت لقب (المدينة العربية باتومى) أو باسم (بوتو) كما وردت عند المؤرخ اليونانى الأشهر (هيرودت). ويؤكد هذا المعنى ليصبح حقيقة تاريخية، ما ذكرته التوراة عن استعباد الإسرائيليين فى مصر فى بناء مدينتين واحدة باسم رعسيس والثانية التى تعينا هنا باسم فيثوم التى تمت إعادتها لنطقها المصرى لدى المصرولوجيين باسم (بر - ثوم) التى حرفت (بى - توم) التى هى (باتومى) عند هيرودت، ومعناها فى المصرية القديمة (مقر الإله أتوم أو مسكنه). هذا إضافة إلى أن هذا الإقليم جميعاً أسمته التوراة (إقليم جاسان) أو (جاشان) أو (جشم)، وهو ما يستدعى (الطاسة النذرية) التى عثر عليها بوادى طميلات فى ذلك الإقليم شرقى الدلتا، مهداة للآلهة من الملك الآدومى (جشم بن قينو). ثم قبيلة (غسان) التى ظهرت بعد ذلك بزمن أيام الرومان لتقيم دولة فى ذات المكان عند خليج العقبة، مرددة فى اسمها اسم (جسان) أو (جاسان) ذلك المكان الذى كان يقع شرقى مصر على حدود الدلتا الشرقية وقالت التوراة أنه كان موطناً سكنه الإسرائيليون عند دخولهم مصر، ومنه خرجوا إلى بوادى سيناء. ويبدو أن هذا الاسم قد حفر لنفسه طريقاً عبر التاريخ وامتد لتحمله قبائل سكنت فى مناطق آدوم القديمة، مكان (جشم بن قينو) لتقيم دولة الغساسنة زمن الرومان، ولاحظ (جاسان = جشم = غساسنة).

ورغم أن المؤرخ (رينيه ديسو) لم يذهب إطلاقاً إلى ما ذهبنا إليه نحن حتى الآن، فإنه يلقى بقول عابر يلتقى تماماً مع ماوصلنا إليه إذ يقول : « إن النبطيين كانوا يتكلمون الآرامية .. وأقاموا فى جنوب فلسطين، حيث كانت مدينة سالع Patra هى العاصمة، ثم أصبحوا مهيمين على الطرق التجارية ^(٢) »

هذا بينما كان (إحسان عباس) يعبر عن دهشته وهو يؤرخ لمدينة البتراء زمن الأنباط بقوله: « بين الأنباط وأهل اليمن عنصرا هاما مشتركا، وهو طرق تخزين المياه وأساليب الري والمهارة الزراعية بعامة »، ثم يحاول البحث عن الأسباب وراء ذلك الاستقرار الحضارى فى المنطقة الآدومية فيستطرد: « إن السؤال عن السبب الذى حداهم لسكنى تلك المنطقة .. نفترض أن حاجة قطعانهم إلى المرعى والماء هدتهم إلى ذلك المكان، ورويدا رويدا وجدوا فى الاستقرار وفى طبيعة المكان نفسه، حماية لأنفسهم وقطعانهم، ثم اكتشفوا بعد ذلك صلاحية المكان للتجارة وللاستقبال السلع من جهات مختلفة، وتفتحت عيونهم على بريق الثراء وحين أحرزوا كل ذلك لم يطلبوا عن ذلك المكان تحولا. ثم أنهم لما بدأوا هم أنفسهم يتاجرون، ولم يعودوا

(٢) رينيه ديسو : العرب فى سوريا.. سبق ذكره ص ١٥.

نقله لمتاجر غيرهم مقابل أجر معلوم، اكتشفوا حاجتهم الماسة إلى الكتابة.. فكتبوا بالأرامية .. لكن العربية الشمالية لم تكن يومئذ لغة مكتوبة، اعنى لم تكن قد اشتقت لها أبجدية محددة الرموز، إذ يكاد الباحثون يتفقون على أن الحرف العربى اشتق من الحرف النبطى .. وبدأوا يكتبون العربية بحروف آرامية « (٣).

والمعلوم أن أهم أعمدة تلك التجارة كانت المواد العطرية، وعمودها مواد التبخير من زيوت واللبان بأنواعه، لذلك تساءل المؤرخون طويلا عن السر العجيب وراء رواج مادة اللبان، وكل تلك الأهمية التى تحملها للعالم القديم. ومن ثم نرى أنه إضافة إلى السبب الواضح فى قدسيته لأهميتها التعبدية للتبخير للأرباب، يمكن الركون إلى سبب أكثر وضوحا وراء غلاء تلك المادة والطلب العالمى عليها كمادة من المواد الثمينة. وهو أن علم الطب فى مراحل الإبتدائية، وفى كافة المدونات الطبية وعلوم الصيدلة القديمة، قد اعتمد اعتماداً كلياً على عنصر أساسى مشترك هو اللبان / المر/ العلك، باعتباره المشترك فى أى تركيب علاجي، وبخاصة للجروح، وهى الحدث الدائم فى حياة الإنسان أيام شظف عيشه القديم، حيث كان الجرح قاتلاً لصاحبه إذا تلوث، واستمر فى النزف، فكان عزله باللبان بعد معالجته الكيميائية مع التسخين، ما نعا للتلوث والنزف، وقد استمر هذا العلاج حتى زمن متأخر أيام المسيح، وحتى اليوم نجد فى الطب الشعبى مادة اللبان/ العلك/ مادة أساسية لعلاج الأمراض الصدرية والمعوية وأمراض الدم، وهنا نقرأ لسان العرب يحدثنا تحت مادة نبط:

« النبط: جمع أنباط .. ونبط الماء نبع.. والنبط ما يتحلب من الجبل كأنه عرق يخرج من أعراض الصخر.. وشاة نبطاء: بيبضاء الشاكلة محورة ، فإذا كانت بيبضاء فهى نبطاء بسواد ، وإذا كانت سواء فهى نبطاء بيباض، .. وفى حديث ابن عباس: نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثى وربما [لاحظ أن كوثى بجنوبى العراق/ المؤلف]، وقيل أن إبراهيم الخليل ولد بها وكان النبط سكانها.. وعلك الأنباط هو الكامان المذاب يُجعل لزوقاً للجروح ».

ويوضح (فهمى خشيم): أن علك الأنباط ربما كان هو ما نسميه اليوم الصمغ العربى، أما اسمه الكامان، فهو أصلاً من المصرية (ق م إى ت qmiyt) أى صمغ، ومن (ق م إى qmiy) وهو سائل من مواد الصمغ، و(ق م إى . ت . ن . ع ن ت . ق م إى qmiy. t. nt. anty) أى صمغ شجرة المر، و (ق م إى qamiy) أى نبات زيتى و (ق م إى qamiy) أى دهان. وهو فى معجم المصرولوجست (بدج) نوع من اللزوق، وجذره (ق م أو ج م) الذى أخذته اليونانية بالكاف (كومى Kommi) وكذلك اللاتينية (qummi). ومن هنا

(٣) إحسان عباس: تاريخ دولة .. سبق ذكره ، ص ٢٣: ٢٥.

نعلم لماذا كان المطاط فى الفرنسية القديمة هو (gomme) وفى الإنجليزية (gum = صمغ = علك = مطاط)، وقد أبدلت (q) و (g) من العربية (ك)، فهى فى العربية من المصرية (كم) ومنها جاء اسم الكامان علك الأنباط. ولا يفوتنا التأكيد على أن اللبان أو الكامان (ع.ن.ت.ى) جاء هنا غير منسوب لا للصومال فى أفريقيا ولا لليمن ولا للهند، إنما للأنباط، لبلاد آدوم. وهى الوراثة اللغوية لواقع أحداث بعيد يؤكد على الرباط بين اللبان والأنباط، ويؤكد مانقوله من بداية هذا حتى الآن. ولا نستطيع هنا أن نمنع الذهن من تداعياته، وهو يتذكر المملكة التى قامت جنوبى مصر حوالى ١٦٠٠ ق.م واستمرت حتى ٣٠٨ ق.م، وحملت اسم مملكة (نباتا Nabata)، والتساؤل الملحاح يقفز طوال الوقت عن علاقة الجنس الأسود باسم نابت ونبايوت ونباتا ونبط وبلاد بونط، خاصة أن مملكة نباتا قامت فى منطقة النوبة، التى كانت تكتب وتتطق بفتح التاء الأخيرة / الهاء، (نوبت)، التى حملت أيضاً الأسم المصرى (اء ح س iahs) واسما ثالثا (ك ش ت kst) أى كاسى واسما رابعا (إك ش iks) أى كوشى. ^(٤) وهى ذات المملكة التى كانت تنتظر رسالة من ملك الهكسوس الأخير (أبو فيس) أو (أسيس)، يأمر فيها ملك كوش بالهجوم على طيبة من الجنوب، بينما يهاجمه الهكسوس من الشمال، ويناديه فى رسالته بلقب (ولدى)، ومعلوم أن الجند المصرية قد قبضت على هذا الرسول عندما كان قادما من حواريس عاصمة الهكسوس بالدلتا الشرقية، متجها نحو الجنوب عبر الصحراء. ومع بداية الألف الأخيرة قبل الميلاد نجد الجنوب اليمنى قد بدأ يفصح عن حضارة تمثلها أربع ممالك، هى معان وسبأ وقتبان وحضرموت، التى لفتها جميعا الصبغة لحميرية، وورثتها جميعا بعد ذلك دولة حملت اسم حمير.

وعن المرحلة المتعددة الممالك فى بلاد اليمن ذهبت مدارس إلى اعتبارها بالفعل ممالك متعددة، لكن ليست متجاوزة زمانيا، لأن تجاورهم جميعاً فى تلك المساحة الضئيلة كممالك مستقلة، أمر يصعب قبوله تماماً. لكن فى ضوء فروضنا وما نطرحه يمكن قبول تزامن تلك الممالك، مع التحالف، خاصة أن منها ما وجدنا له امتداداً شمالياً أصيلاً وأولاً، مثل معان، ومثل سبأ التى هيبتت من الشمال إلى اليمن. ومن هنا نميل إلى رأى المدارس التى تقول بتزامن تلك الممالك، ونراها معبرة عن ذلك الحلف العظيم. وهنا ننقل عن مظفر نادوتى قوله: « إن العلماء الذين يرون أن المعينيين والسبئيين كانوا يعاصرون بعضهم بعضاً، بينون هذه النظرية على نقش معينى، هو [جلاسرقم ١١٥٥ وهاليفى رقم ٥٣٥] الذى يقول أن المعينيين كانوا يتبادلون تجارة الكندر/ اللبان الذكر، مع الآشوريين عبر نهريين، وقد أدى ذلك إلى قيام حرب بين المادهى ومصر .. وفرتز هومل يرى أن لفظة Madhi تقوم مقام المديانيين Midiantes أو المانتى Manti ، لأن بدو سيناء كانوا يعرفون بهذا الاسم » ^(٥)

(٤) فهمى خشيم: آلهة .. سيق ذكره، ج ١، ص ٦٣.

(٥) سيد مظفر نادوتى: التاريخ الجغرافى للقرآن، ترجمة د. عبد الشافى غنيم، لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٥٦، ص

ولنا أن نرى نحن من جهتنا في لفظ (مانتي) تحريفاً للفظ (مديان) حيث هو اللفظ الذي يلتقي مع الكلمة التي تكررت في نصوص مصر القديمة (مونتيو) على النسبة إلى مانتى (ميتان/ مديان) أو (مونت/ بونت) .

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن مملكة الهكسوس مثل السادة الحاكمين فيها، سادة من قبائل أو أجناس متحالفة في منطقة آدوم، التي كانت تابعة لمصر من بدايتها باعتبارها حد مصر الشرقى، وأن شأنها قد تضخم إلى حد التسلط على الوطن الأم، وأن في بلاد آدوم ومحيطها كانت معان المصرية ومديان. فإن (بلليني) يقول في خطاب شارد " إن المعينيين كما يتضح من أسمهم يرجعون إلى مينوس ملك كريت " (٦). وبلليني هنا يريد إرجاع أصل ذلك الشعب الشرقى إلى أصول يونانية، وهو لن يقول بذلك إلا إذا كان ذلك الشعب جديراً بالانتساب إلى أصول حضارية راقية. ولذلك فمعان تعود عنده إلى الحضارة المينوية الكريتية، وأنهم من نسل الملك الأسطوري مينوس ، وهكذا قلب الرجل الأوضاع لكن ليعطينا معلومة تؤكد أن الإمبراطورية الهكسوسية قد حملت شعوباً من مواضعها ونقلتها بين أفلاك إمبراطوريتها، لتفكيك عراها القبلية لتكون أسهل أنقياداً. وهي سياسة معلومة قديمة مارستها إمبراطوريات العالم القديم لتهجين شعوبها وتذويبها في بعضها وتقليم أطراف الشعوب القوية. ومن ثم فإن كريت المينونة يمكن أن تعود إلى أجناس أخرى، خاصة أن تلك الحضارة نفسها قد دونت أن حضارتها وأصولها تعود إلى ملك أسطوري يدعى مينوس قد جاءها مهاجراً من بلاد الشرق، من مصر تحديداً، ويعتقد البعض أنه ربما كان هو الملك مينا مؤسس الأسرات المصرية، والدولة المركزية الموحدة.

ويقول (صمويل لانج) في كتابه أصل البشر: " ومن بين النقوش التي عرفت ما يدل على أن سلطة بعض الملوك المعينيين، لم تكن تقتصر على مقر ملكهم الأصلي في الجنوب، لكنها كانت تمتد إلى كل البلاد العربية وإلى حدود مصر وسوريا " (٧).

وقد كشفت التنقيبات الأركيولوجية في جنوب جزيرة العرب عن لوحة نذرية، جاءت ترجمتها عند (نادوثي) في حالة من الخلط مع ترجمة تالية إلى العربية زادت الأمر سوءاً، مما أجهدنا وقتاً لتحقيق هذا النص المهم على أصوله. لوحة شكر مقدمة إلى الإله (عستر) الذي ساعد مقدميها على العودة إلى بلادهم مرة أخرى سالمين، وهم يصفون أنفسهم بأنهم رعية الملك المعينى (أبى ياداياتى، Abi - Yada - yathi) أو أبى عطى في ترجمات أخرى. أما الغريب أن هؤلاء العائدين يقرروا أنهم قدموا من حيث كانوا يعيشون حكماً على بلاد باسم (شور ونهرين) (٨).

ولأول وهلة يمكن للمطالع أن يتصور قدومهم من بلاد (آشور) ويغفل عن أنها جاءت بدون همز (شور)، وربما يذهب به ذلك إلى آشور المملكة الكبرى التي تموضعت بين النهرين دجلة والفرات. لكن

(٦) نفسه: ص ٢١١.

(٧) نفسه: ص ٢١٤.

(٨) نفسه :

قراءة أخرى وفق ما قلناه حتى الآن، يجب أن تذهب بنا إلى بلاد آدوم/ نهرين حيث عرفنا أن (شور) كانت الحد الشرقي لمصر حيث تموضعت عاصمة الهكسوس، خاصة أنه في ذات اللوحة نجد إشارة إلى مدينة (غزة)، وإلى حرب نشبت بين المادهي Madhi التي ترجمها فرتز هومل (مديان) وبين المصريين. إن هذه اللوحة في رأينا تسجيل فصيح بطرد الهكسوس من مصر، وعودة بعض عناصر الهكسوس إلى مواطنهم التاريخية، وندعم ذلك فوراً بما ذكره بللييني الذي عاش حوالي ٧٩٩ ق.م، أى في زمن قريب من الأحداث، حيث قال « إن السبائيين كانوا سادة ما بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر »^(٩).

وقد ظل كلام بللييني لونا من المبالغة، وتعرض لسوء الفهم لزمن طويل، لكن مع بحثنا هذا يتضح أن الرجل كان يسجل حقائق تاريخية بالفعل.

ونتذكر الآن النص الذي سقناه عن حملة (زيد بن حارثة) زمن النبي محمد إلى بلاد مديان على العقبة، وأن كتب السيرة قد ذكرتها باسم (أهالي ميناء) أيضاً، وهو ما حيرنا بعض الوقت، لكن بالرجوع إلى النصوص اليونانية التاريخية نمسك بمفاتيح الفهم، حيث كانت (معين) تكتب (Minai) وهو كما هو واضح تلوين لهجوى لقبائل تهمل العين، بالضبط كما كتبها اليونان (ميناي) أو بالعربية (ميناء).

وفي دائرة المعارف الإسلامية كتب فرتز هومل عما جاء في النقوش البابلية بصدد بلاد تحمل اسم (مجان Magan) ويحكمها ملك باسم (مانئوم)^(١٠). كذلك عقب المصروولوجست بدج على أرض مجان بكونها تحديداً مناجم حجر الديوريت الفاخر في سيناء.

ولما كانت العربية في لهجاتها كأي لغة سامية بلهجاتها، تخطط بين أو تستبدل الحرفين (ج) و (ي) مثل (جاهوفاه = يهوه)، وبين القبائل العربية اليوم نقول العربية (سجادة) بينما تنطقها القبائل الشرقية (سيادة)، وعليه فإن (مجان) في نطق، تصبح (ميان) في نطق آخر، التي هي عندنا معان/ معين/ مينا/ ميناء.

أما اسم الملك ما نيئوم أو (مانئ أوم) فيجب أن يكون (معانئ أوم) والأوم هو العمود وجمعه أوام وهو الاسم القديم لبلدة يمنية قديمة تحوى آثاراً عديدة، أهمها الأعمدة أصبحت تحمل اليوم اسم (العماييد)^(١١)، وكل ما حدث هو استخدام مفردة جديدة تدل على ذات المعنى القديم. وعليه فإن (معانئ أوم) ليس اسماً للملك بقدر ما هو وصف له أو لقب فهو (عمود معان)، والعمود كما علمنا أحد صفات العمالقة ودلالة الملوكية، كما استنتجنا من لسان العرب في الفصول السالفة.

ومما يؤكد رأينا في كون الساميين قد عرفوا سيناء وحدودها الشرقية باسم مصر، بينما مصر كانت تحمل اسماً آخر (كيميت / توميري)، وأن الاسم السامي لبلاد النيل هو الذي ساد وانتشر حتى أصبح دالا

(٩) نفسه: ص ٢١٢.

Vol I, Arab p٣٧٧ E.A. Walis Budge, Life and History, pp. ١٧٧-١٧٨

(١٠) الموسوعة البريطانية

(١١) سيد القمنى: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٠، ص ١٨٤. انظر هناك مزيداً من المصادر.

على مصر الوادى جميعاً (باسم مصر)، إن ذلك قد أدى إلى التباسات فى تفسير أحداث التاريخ، ونموذجاً له ما جاء عند المصروولوجت (سايس) وعقب عليه المؤرخ المصرى (عبد العزيز صالح) بقوله: وهناك رأى غريب وبعيد عن المنطق الزمنى والمنطق التاريخى، اعتمد على ما سجله نارام سين عن أحداث عصره، وروى فيه أنه قبض بنفسه على (مانو دانو) ملك (مجان)، وفسرت طائفة من المؤرخين ذلك بأنه قبض على الفرعون مينا مؤسس الأسرات وأول ملوك مصر^(١٢).

وهكذا نجد عملنا يعيد الأمور الى صحتها ونصابها، حيث كانت (مجان) هى (معان / معين) شرقى سيناء وبلاد آدوم، وأنها كانت تعنى آنذاك (مصر)، بلاد (موصرى) وعليه فإن الملك الرافدى (نرام سين) يكون قد هزم (مانو دانو) ملك مصر الأدومية، وليس مصر (كيميت/ توميرى) المعروفة فى وادى النيل. وما يؤكد ذلك بشدة أن الكلمة (مجان) تعود الى الجذر السومرى MA بمعنى الماء الميناء وأرض السفن، وهو ما يشير إلى شهرة أهل (مجان) فى ركوب البحر وتشهد عليه تماثيل الدلفين المنتشرة فى فنون الأنباط، وقد دعم تلك الترجمة نص من أيام الملك (دونجى) ملك (أور) حوالى ٢٤٥٠ ق.م ، يتحدث فيه عن صناع السفن فى بلاد مجان.

أما الأشد إضاءة، فهو أن تصف النصوص السومرية بلاد (مجان) بأنها: جبل النحاس وأرض الدولريت وبلاد الماعز^(١٣)، وكلها تحيل إلى بلاد آدوم المديانية حيث مناجم ومصانع النحاس ، والأحجار المتميزة عن أحجار الدنيا، وماعز الهكسوس الذى شرحنا بشأنه طويلاً، وهو الماعز الذى تنتسب إليه قبائل عربية كالقبيلة التى لم تزل تحمل اسم عنزة الى اليوم والنسبة إليها (عنزى)، ونجد أفراد قبيلة قديمة باسم معزة تعمل مرتزقة فى جيش الرعامسة مع أفراد من بلاد النابرى وهو ما نجده فى قول حماد:

وفى عهد الرعامسة الأول نجد أن الفرقة كانت مكونة من ١٩٠٠ مجند مصرى يعاونهم ٣١٠٠ من المساعدين المتطوعين وهؤلاء كانوا من الآسيويين من النيارين Nearin وأصيل اسمهم مشتق من اللفظة السامية نار Naar أى شاب وكذلك بدو من بدو الصحراء ..ومن النوبيين من قبيلة ميزا Meza معزة، ويرى حماد أنهم نوبيون لأنهم سود [ونحن نراهم كوشى آدوم / المؤلف] وكانوا يشكلون فرقة الشرطة منذ أقدم العصور .. والجنود المساعدون أو المتطوعون مثل الميزاى Mizay فكانوا تحت قيادة ضباط من شعوبهم " (١٤).

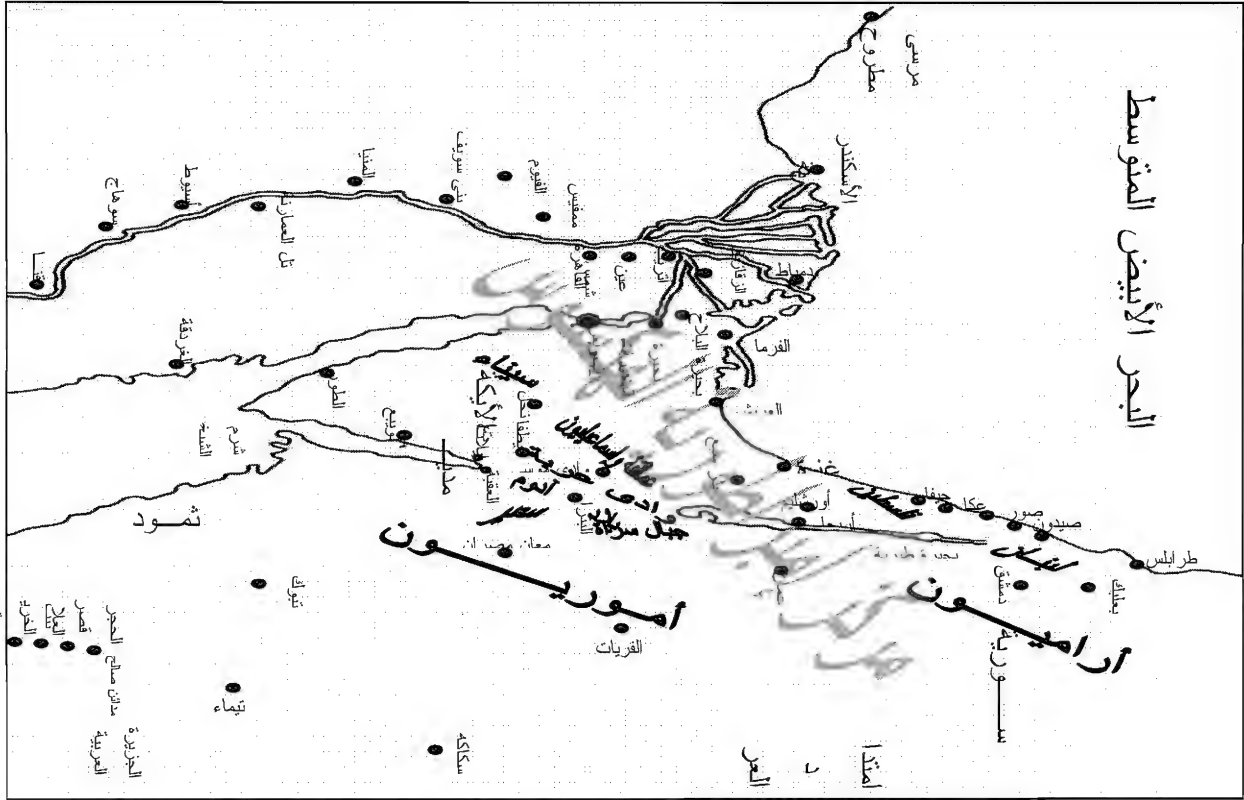
لقد كانوا المعزيين أو العنزيين وكانوا فى آدوم وليس فى أفريقيا.

Sayce. A.H, Menes and Naram Sin, J.E. A, ٦, ١٩٢٠, p٢٩.

(١٢)

(١٣) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص ١٢٣.

(١٤) محمد حماد : كامس.. سبق ذكره، ص ١٩.



خريطة رقم (٣٠)
 حقل الأحداث زمن إمبراطورية الهكسوس

أين تقع حويلة التوراتية

والسؤال الأول هنا: ولماذا البحث وراء أسماء توراتية مثل حويلة ؟ وما الغرض من تحديد موضعها الجغرافى؟

الإجابة تتمثل فى عنصرين أساسيين، الأول هو أن تحديد مكان حويلة سيساعد فى تأكيد مذهبنا حول المواضع التى عاش فيها الإسماعيليون المديانيون وحلفاؤهم، لأنها دوماً ترد كإحداثيات جغرافية يضعها المحرر التوراتى كإحدى العلامات لمواطن معيشة هؤلاء .

أما العنصر الثانى فهو أن هناك التباساً شديداً حول موضع حويلة التوراتية أدى لكم غفير من الأخطاء فى استنتاجات زملائنا من باحثين، وقد وجدنا فى محاولة التحديد تلك فائدة بحد ذاتها يمكنها أن تقدم للباحثين تحديداً دقيقاً يؤدى إلى نتائج بحثية دقيقة.

هذا إضافة إلى اعتقادنا أن هناك أكثر من مدينة حملت هذا الاسم أدت الى تلك الالتباسات، وإن أهم هذه الحويلات ثلاث حويلات : الأولى فى أقصى شمال فلسطين وأعطت اسمها لبحيرة الحويلة والثانية هى المتواترة فى الكتاب المقدس وهى مدينة عماليقية على حدود فلسطين الجنوبية بشبة جزيرة سيناء كما سنرى، ومدينة أخرى هى الأهم، وهى تلك التى عرفناها عاصمة للهكسوس فى مصر باسم حواريس بالتبادل بين اللام والراء، وبموضعها المؤرخون فى مكان ما غير متفق عليه شرقى الدلتا المصرية.

ونبدأ بالسؤال الملحاح الذى لم يجد حتى الآن إجابة قاطعة بين مبعثرات التاريخ القديم وشظاياها: أين تقع المدينة التى اتخذها الهكسوس مركزاً عسكرياً وإدارياً فى مصر، وجاءنا ذكرها عبر المؤرخ المصرى (مانيتون ق ٣ ق.م) باسم (حواريس) أو (أواريس) بالنطق اليونانى، أو (حواعرة) أو (هواره) بالنطق المصرى، وأنها كانت تقع فى مقاطعة مصرية باسم (سترويت)؟ وهو ما نقله عن (مانيتو) مؤرخو العصر الكلاسيكى أمثال يوسفيوس ويوليوس الأفريقى وغيرهم.

إن البحث عن مقاطعة الإله سيت التى تمركز فيها الهكسوس (سترويت) فى جداول المقاطعات المصرية التى دونها المصريون القدامى بأنفسهم، وعلى تغير اسمائها عبر الزمن، أمر غير مجد، فقد سعينا وراء تلك الجداول ولم نجد أى ذكر لمقاطعة باسم (سترويت).

وللحل افترضنا احتمالين: الأول أن تكون جداول المقاطعات المصرية قد ذكرتها باسم آخر، والاحتمال الثانى يرتبط بالأول، إذ يحيل الاسم (سترويت) فوراً إلى الإله (سيت) ، ومن ثم يحتمل أن يكون (مانيتو) قد نحت لها اسماً منسوباً إلى ربها المعبود (سيت) فأسماءها (سيترويت) نسبة إليه، بمعنى المقاطعة (السنية).

وحتى الآن، ورغم ما بذل من جهود، لم يوفق علماء المصريات إلى اتفاق واضح حول موضع (حواريس) وهو في أصله المصري (حواره) مع إضافة التصريف الإسمي (يس)، وهو التلويح اليوناني الذي لحق إله المقاطعة (سيت)، فحمل الاسم اليوناني (تيفون)، لما يجمع بين الإلهين: المصري واليوناني من صفات الشر والجذب والأفعال الرديئة الحمراء. ويتضح ذلك الدأب اليوناني في إطلاق أسماء يونانية على جميع المدن والآلهة المصرية الأخرى.

وقد جاء ذكر الإله (سيت) في نص (قصة الملك أبو فيس وسقنرع)، وهي القصة التي تحدثنا عن أول احتكاكات عسكرية بين الفرعون المصري الطيبى (سقنرع) وبين الملك الهكسوسى (أبو فيس)، جاء باسم (سوتخ) أو بالقراءة الصائبة (سيت - تنش)، وهي صياغة الحقت بها الآداة التصريفية، فحملت اللاحقة (نش) وفق اللسان الهندوآرى الذى كان منتشرا بين الحكام الهكسوس، ونحن نعلم أن الهكسوس حملوا اللسانين السامى والآرى فيما تركوه لنا من وثائق قليلة. ويقول (جاردنر): إن الهكسوس كتبوا اسم ست بالبابلية ونطقوه (سوتخ) ورسموا ملابسه ورداءه بشكل يطابق البعل السامى^(١). وقد صور المصريون (سيت) فى هيئة حيوانية غريبة تماماً عن كل الآلهة المصرية القديمة، وهو ما أدى إلى خُلف شديد حول تحديد هويته الحيوانية وحرار علماء المصريات فى تفسير رسومه حسبما أفادنا (درينتون) و(فاندييه)، ما بين « الكلب السلوقي.. أو الخنزير، أو حمار مرسوم رسماً تخطيطياً »^(٢) أما نحن فقد سبق وانتبهنا إلى أنه قد بدأ حماراً وانتهى عناقاً آدمياً من فصيلة أقرب إلى الضباع، أو هى بين الكلب أو الذئب وبين الضبع أو هو (السالعوه) التى تظهر فى البلدان المصرية المتاخمة للصحراء الشرقية بين زمن وآخر.

وتعتقد جلة محترمة من الباحثين أن مدينة الهكسوس (حواريس) أو (حاويرة) هى ذات المدينة التى عرفت بعد ذلك باسم (تانيس)، إلا أن المشكل يظل قائماً إذ لم يتم إتفاق الرأى حول موقع (تانيس)، ذاتها؟ ولم يتم الاتفاق حول موضعها بشكل قاطع، وإن كان من المتفق عليه وجوب البحث عنها على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء، استناداً إلى كون الإسرائيليين وهم ساميون، قد عاشوا فى تلك المناطق، وربما كانوا على علاقة بالهكسوس. وقد أطلقت التوراة على المدينة التى عاش فيها الإسرائيليون اسم (صوعن / سفر العدد ٢٢/١٣)، ولأن (صوعن) تعتبر عند بعض الباحثين هى ذات عين (تانيس) فقد انتهوا بالقياس إلى أنها هى ذات (حاويرة/ حواريس)، وإن كان هذا التأكيد برمته فيما يرى (جاردنر)^(٣) لم يزل موضع جدل شديد حول مصداقيته التى لم تزل قائمة على افتراضات وتخمينات وأنها تتوقف أساساً على اليقين بأن بنى إسرائيل عاشوا فى (حاويرة) الهكسوسية. وأن (حاويرة) هى (تانيس) حقاً، وأنها المدينة المعروفة فى التاريخ والمذكورة فى التوراة باسم (رعسيس). ومعنى (حاويرة) فى المصرية القديمة هو المدينة المتطرفة أو الواقعة على الحدود، وأسمائها اليونانيون (أفارس)، الذى حُرِف إلى (أوراس) و (أواريس) و (هواريس) و

(١) جاردنر: مصر الفراغة .. سبق ذكره، ص ١٨٧.

(٢) إثنين درينتون، وباك فاندييه: مصر، ترجمة عباس بيومى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ٧٥.

(٣) جاردنر مصر الفراغة ... سبق ذكره، ص ١٨٧.

(هواره) و(حواريس)، وعادة ما تسمى بها مدن البدو المتطرفة فى مصر حتى اليوم كما لو كانت بقية من مآثور قديم، فيطلق المصريون على مدن الحواف الصحراوية اسم (الهواره).

وسبق وأفادنا (مانيتو) أن حواريس كانت تقع على الضفة الشرقية للفرع النيلي الدلتاوى المعروف باسم البوباسطى، نسبة لوقوع مدينة (بوباسطة) على ساحله الغربى، والتي تعرف اليوم باسم (تل بسطة)، وكانت مقراً لتقديس الإلهة القطه (باستت)، (علما بأن هذا الفرع قد ضمّر الآن، وحلت محله ترع ومصارف، مثله مثل الكثير من الفروع الكبرى الأخرى للنيل، والتي بلغ عددها أيام هيروت سبع فروع كبرى فى الدلتا، وحدثنا عنها فى تاريخه ولم يبق منها سوى فرعين رئيسيين هما دمياط ورشيد). ونفس القول حول وقوع حواريس على الفرع البوباسطى للنيل، يأتى فى قصة (أحمس ابن أبانا) لتؤكد ولا تدع مجالاً للشك فى ذلك. وهناك تيار قوى بين العلماء يذهب إلى أن مدينة (حواريس) هى بالضبط مدينة (صان الحجر) الحالية، استناداً إلى شواهد أهمها الشاهد الأركيولوجى المعروف بلوح الأربعمئة سنة، الذى عثر عليه بين مجموعة كبيرة من الأنقاض التى تشير إلى مدينة مصرية كبرى كانت تقوم فى هذا المكان.

ويذكر نص اللوح الأربعمئى أميراً باسم (رعمسيس) يقوم على احتفال كبير سمي الاحتفال الاربعمئى، فتم الربط بين (رعمسيس) هذا و(رعمسيس الثانى) من ناحية، وبينه وبين اللوح الأربعمئى من ناحية أخرى، وأخيراً بين اللوح الأربعمئى وبين عبادة الإله (ست) فى تلك المدينة. حيث معلوم أن (رعمسيس) وفراعنة الأسرة التاسعة عشرة قد قدسوا (ست) الإله الذى سبق و قدسه الهكسوس فى مدينتهم، حتى أن والد الفرعون (رعمسيس الثانى) انتسب باسمه إلى الإله (ست) وتسمى باسم (ستى) (أى (الستى)). ومن ثم كان الإستنتاج أن (رعمسيس الثانى) قد أقام مدينة باسمه فى ذلك الموضع الذى كان يعبد فيه (ست)، وأن عبادة (ست) قد تكرست — حسبما جاء باللوح الأربعمئى — فى ذلك المكان منذ أربعمئة عام سبقت (رعمسيس). وعلى تلك الارتباطات تم الافتراض التزمينى عند جاردنر لمدة حكم الهكسوس لمصر ب ١٠٨ سنة، مع إضافة سنى الملوك الذين حكموا مصر بعد الهكسوس حتى زمن (رمسيس الثانى) لتكمل الأربعمئة سنة. ومسألة بداية تكريس (ست) فى مدينة باسم حواريس لدى الهكسوس واردة فى تاريخ (مانيتو)، وأكده (قصة الملك أبوفيس وسقنر) وقد برهن المصروولوجست (يونكر) على أن (ست) كان الإله المحلى لبلدة باسم (سترت STRT) وأنها سميت (سيترويت Sethroite) فى العهد الإغريقى والتى ذكرها (مانيتو) كمقاطعة مصرية سكنها الهكسوس، وأكد (يونكر) أنها لابد تقع فى شمال شرقى الدلتا^(٤). لكن أين بالتحديد؟ لا يجيبنا (يونكر). المهم أن علماء المصريات وضعوا استنتاجاً يقول: إن مدينة الهكسوس (حواريس) هى ذاتها التى أعاد (رعمسيس الثانى) بناءها بعد ذلك بأربعمئة سنة، وأنها حملت اسم (رعمسيس) وبعد ذلك أطلق عليها اليونان اسمها المشهور تانيس، وهى ذاتها التى أطلقت عليها التوراة اسم (صوعن) واسم (رعمسيس)،

(٤) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٤، ص ٦٥ .

وقالت: إنها المدينة التي اضطُهد الإسرائيليون في بنائها، وهى التي تحمل اليوم اسم (صان الحجر) ^(٥)، حيث عثر هناك على اللوح الأربعمائي، الذى يقول فيه (رعمسيس) عندما كان أميراً.

السنة الأربعمائة من الشهر الرابع فى فصل الصيف،
فى اليوم الرابع من حكم ملك الوجهين البحرى والقبلى
ست Sotch ، عظيم القوة ابن الشمس نبتى المحبوب
من رع حور أختى، الذى سيبقى مخلداً. حضر الأمير
الوراثى المشرف على العاصمة، والوزير، والمشرف
على البلاد الأجنبية، والمشرف على حصن شارو،
ورئيس المازوى، والكاتب الملكى، والمشرف على
الخيالة، ومدير عيد كبش منديس، والكاهن الأول للإله
ست، والمرتل للإلهة بوتو فاتحة الأرضين، والمشرف
على كهنة الإلهة ستير.

لقد حضر الأمير الوراثى رعمسيس المرحوم، الذى
وضعت ربة البيت المغنية تيا المرحومة، ليقول : الحمد
لك ياست بن نوت، ياصاحب القوة العظيمة فى سفينة
الملايين، الذى طرح الشعبان المعادى لرع أرضنا،
والذى على رأس سفينة رع، ومن صوته العظيم فى
الحرب، ليتك تمنحنى حياة جميلة، لأجل أن أخدمك،
ولأجل أن أبقى فى حظوتك ^(٦).

ولنلاحظ أن ذلك اللوح الاربعمائي، وحتى تدوينه ونصبه فى مكانه، لم يكن يتحدث عن (رعمسيس الثانى) بوصفه فرعوناً، إنما بوصفه أميراً وارثاً يحمل تلك الألقاب العديدة. لذلك ذهب الاستاذ (زيتيه) إلى الظن أن ذلك العيد الأربعمائي قد حدث فى عهد الملك (حور محب) حوالى عام ١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م، والذى يفصله عن الملك (رعمسيس الثانى) ملكين هما: (رعمسيس الأول) و(ستى)، وأنه ربما كان (رعمسيس الثانى) إيان حكم حور محب أميراً وقائداً عسكرياً مهماً، قبل أن يتولى سدة الحكم بعد ذلك ^(٧).

أما أول ذكر لمدينة (رعمسيس) باسم (بررعمسيس)، فقد ورد فى السنة الثانية لحكم (رعمسيس الثانى) حوالى عام ١٣٠٠ ق.م، فى نصب (أبيدوس)، الذى تعرض لأعمال (رعمسيس الثانى)، وإكماله معبد والده

(٥) Montet, Le Nouvelles Fouilles des Tanis, P. ١٥ - ٣٢ .

انظر أيضاً:

Will, The problem of sit of Avaris, J.E.A, V. XX١, ١٩٣٥ p. ١١ ff.

(٦) غطاس الخشبة: سبق ذكره، ص ١٦٣.

(٧) سليم حسن: مصر الفراعنة، سبق ذكره، ج٤، ص ٨٠.

(سيتى الأول) فى معبد (أوزيريس) بمدينة المقدسة (أبيدوس). وقد وصف نصب أبيدوس رحلة بحرية قام بها (رعسيس الثانى) حتى وصل إلى مدينة (بررعسيس) ^(٨)، وقد استنتج الباحثون من ذلك ما يؤيد رأى (زيتيه)، وهو أن المدينة كانت موجودة وقتذاك، وأنها شيدت فى عهد سابق، وأن (رعسيس الثانى) أضاف إليها وجددها.

ويبدو أن أصحاب هذا الاتجاه الذى يرى أن (رعسيس الثانى) قد استكمل تشييد المدينة وأطلق عليها اسمه، وكانت تقوم على انقاض (حواريس) الهكسوسية القديمة، وأنها هى ذات (تانيس) المذكورة بعد ذلك فى المدونات، وأنها ذات المدينة المذكورة باسم (صوعن) فى التوراة (انظر: متكررات منها مثلاً ما جاء فى الآيات ١٢، ١٣ من المزمور ٧٨، فى قوله: قدام آبائهم صنع أعجوبة، فى أرض مصر بلاد صوعن، شق البحر، فعبرهم، ونصب المياه كسد) وأنها هى ذات (صان الحجر) الحالية. إضافة لما تشير إليه تلك الأسماء من علاقة لسانية تجيز ذلك الاستنتاج، فكلمة (صان) يمكن أن تكون فى الأصل (صوعن) بعد إهمال بعض المخارج اللفظية بالتخفيف مع مرور الزمن، وهى أيضاً ما يمكن قراءته (تان) بعد حذف التصريف الإسمى (ى س) من (تانيس) والتاء والصاد يتبادلان فتصبح (تان) هى (صان).

وعليه فإن المعلومة التى أوردها (مانيتو) حول اسم مدينة الهكسوس (حواريس) صحيحة مئة بالمئة، دعمتها نصوص التحرير المكتشفة، وإن كان مكانها غير محدد باليقين حتى الآن. كذلك المعلومة الثانية حول المعبود الأول للهكسوس (ست) أيضاً صادقة مئة بالمئة، وهو ما يضيف باستمرار رصيذاً مستمراً لمصادقية (مانيتو) المصرى السمنودى. المهم الآن أن حواريس لم يزل مختلفاً عليها وعلى موقعها أشد الاختلاف. وقد ذهبت جلة محترمة من علماء المصریات إلى أن (حواريس) هذه هى ذات المدينة التى حولها الملك رمسيس الثانى فيما بعد إلى مدينة عامرة، وأعاد بنائها حتى كانت أزهى مدن الزمان، وأطلق عليها اسمه (رعسيس) إلا أن ما يحبط أى باحث هنا، أن مدينة (رعسيس) نفسها، والتى ذكرتها التوراة باعتبارها مدينة الاضطهاد الإسرائيلى فى مصر، لم يتم الإتفاق على موقعها حتى اليوم بشكل قاطع، وإن كان مجمل الاتجاهات يذهب بها إلى شرقى الدلتا، على الحدود السينائية. وتناثرت الاقتراحات على خريطة محافظة الشرقية الحالية أو حدودها الشرقية مع سيناء، فقد ذهب (دى بوا إيميه) العالم المصاحب للحملة الفرنسية إلى أن مدينة (رعسيس) كانت تقع قرب مدينة (السبع أبيار) الواقعة على الساحل الغربى لبحيرة التمساح، وموضعها الآن تل المسخوطة قرب مدينة الإسماعيلية. أما (جاردنر) فقد ذهب إلى أنها (بى لوز) أو (بيلوزيوم) المعروفة الآن بالفرما أو بالوطة إلى الشرق من بور سعيد، لكنه تراجع عن (بى لوز) واقترح مدينة (صان الحجر) الحالية على شاطئ بحيرة المنزلة الجنوبى، وذلك بعد أن ذهبت مجموعة متميزة من المصرولوجيين إلى موضعها هناك، ومن هؤلاء (يونكر) و (بروغش) و (بيير مونييه). هذا بينما ذهب آخرون إلى وضعها على الخط الواصل بين شرقى الدلتا وبين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، فى الوادى

(٨) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٩٨.

المعروف الآن بوادى طميلات، ومن هؤلاء (نافيل) الذى اقترح (صفت الحنة) غرب هذا الوادى موقعا لرعمسيس لكن بعضهم ذهب بها شرقا على ذات الخط فاقترح (تل رطابة) مثل (بتري)، وذهب آخرون إلى مزيد من الشرق فاقترحوا (تل المسخوطة) كما عند دى بوا - إيميه. أما آخر الإقتراحات وهو السائد الآن، فهو ماجاء بعد كشف أثرى كبير قام به (محمود حمزة) واقترح معه أن تكون رعمسيس هي (قنتير) الحالية إلى الشمال من فاقوس شرقى الدلتا.

والمعنى أننا لو أخذنا بأن (حواريس) هي ذات مدينة (رعمسيس)، فإن علينا الاتفاق على موضع (رعمسيس) أولاً . وحول الاسم (حواريس) من الأصل (حوارة) أو هواره، يفيدنا (جاردنر) بأن معناه الإدارة المدنية للدولة. وإذا أخذنا بالنظرية القائلة أن الهكسوس قد كونوا إمبراطورية فلنا أن نفترض وجود أكثر من مركز إدارى لهم فى المنطقة ، وهو ما يقود إلى افتراض وجود أكثر من (حوارة)، وهو المفتاح الذى سيدلنا الآن على الموضع الذى تكرر كثيراً فى التوراة باسم (حويلة) . وما نقصده أنه لاختلاف على أن حواريس التى ذكرتها النصوص المصرية القديمة كانت مركزاً للإدارة الهكسوسية فى مصر وأنها كانت على الطرف الشرقى للدلتا الذى هو الطرف الغربى لسيناء، وإن لم يتمكن الباحثون من تدقيق موضعها هناك.

وكثيراً ما ربطت التوراة بين مدينة الهكسوس الكبرى فى جنوبى فلسطين. (حبرون/ الخليل)، وبين حواريس المصرية. والتوراة تذكر حواريس باسمين يراد على التبادل، الأول والقديم هو (صوعن)، والثانى الأحدث هو مدينة (رعمسيس)، وتشير فى تواتر متعدد فى مناطق متفرقة بالتوراة إلى أن (صوعن) قد بُنيت بعد (حبرون) بسبع سنين، يبدو أنها الفارق الزمنى بين استيلاء الهكسوس تماماً على حبرون / الخليل / جنوبى فلسطين عند تحولهم من دولة تجارية إلى دولة توسعية إمبراطورية وبين دخولهم مصر وإقامتهم فى صوعن / رعمسيس/ حواريس. لكن بالإضافة هنا أنه كان هناك حواريس أصلية أقرب إلى المركز الرئيسى للهكسوس نظنه هو ذات المركز الذى جاء اسمه فى التوراة باسم (حويلة).

الواضح لدينا على المستوى اللسانى وحده (الآن) أن (حويلة) التى تكررت فى الكتاب المقدس، أنها بالتبادل بين حرف اللام والراء باعتبارها حروف سقف حلقيه، فإن (حويلة) ستكون (حويرة) وبهذا يصبح معناها (الحوارية). وهى المسمى الذى يلتقى تماماً مع اسم عاصمة الهكسوس (حواريس) بعد حذف التصريف الاسمى فتصبح (حوار) وهى التى أطلق عليها المصريون (حواعة). وفى المعركة التى قادها أول ملك إسرائيلى، الملك (شاول) ضد العماليق العناقين، يؤكد لنا الكتاب المقدس نتيجة المعركة بقوله: " وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر / صموئيل أول ٧/١٥ . وهذه النتيجة تعنى أن شاول بضربه مدينة العماليق امتد تأثير تلك الضربة على العماليق بطول المنطقة الممتدة من (حويلة) إلى (شور) التى أمام مصر. وحتى الآن لم يتم تحديد أين تقع (حويلة) التوراتية على الإطلاق، إنما ذهب الجميع إلى تحديد (شور) بأنها على حدود الدلتا الشرقية مباشرة، حتى تكون أمام مصر. استناداً إلى مجموعة إحدائيات أعطتها لنا التوراة، حيث يتكرر ذكر (شور) مرات متعددة. وأول الإحدائيات وأوضحها تأتى فى حدث عبور البحر بالعصا المعجزة، حديث نجد أول موضع ينزل به الإسرائيليون بعد عبور البحر من الدلتا

المصرية إلى سيناء هو برية باسم شور " ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف، وخرجوا إلى برية شور/ خروج ١٥ / ٢٢ "، مما يعنى أنها على الحدود مباشرة مع المدن المصرية العامرة فى شرق الدلتا، والتي كان أهمها (صوعن) أو (رعسيس) مدينة الفرعون التى يزعم الإسرائيليون أنهم أضطهدوا فى بنائها، وعبروا من جوارها البحر فى قصة العصا الحية. ويبدو أن هناك طريقاً كان يبدأ من الموضع شور حتى يصل إلى شرقى سيناء نحو فلسطين، أطلقت عليه العبرية (درك شور)، وجاء فى الترجمة العربية " طريق شور/ تكوين ١٦/١٧ " ومن المتكررات التى تذكر الموضع (شور) بالتوراة ذلك النص الذى يحدد موطن سكنى الإسماعيليين، ويضعه فى ذات الموضع الذى سبق للتوراة وحددته موطننا لسكنى العمالقة، والذى ذكرناه من هنية فى نص الملك شاول. والنص الجديد هنا لسكنى الإسماعيليين يؤكد أنهم قد " سكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر / تكوين ١٨/٢٥ "، وهو ما يضيف قرينة جديدة إلى ما سبق وذهبنا إليه فى كون الإسماعيليين عمالقة، أو أنهما بطنين لقبيلة واحدة. ثم لدينا إشارة أخرى تتحدث عن المواطن التى أقام بها البطرك إبراهيم إبان ارتحالاته بالمنطقة، والإشارة تقول: إنه قد " سكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار / تكوين ٢٠ / ١ "

وإذا كان قد تم تحديد (قادش) بأنها (عين قديس) فى أقصى الطرف الشرقى بسيناء على الحدود الآدمية الغربية، وأنه إذا كانت شور فى أقصى الطرف الغربى لسيناء، أى على حدودها مع شرقى الدلتا المصرية، فإنه يجب البحث عن (حويلة) التوراتية بجوار قادش سيناء فى أقصى الطرف الشرقى لسيناء، وبالتحديد عند طرف الطريق القديم الذى أسمته التوراة (درك شور)، واكتسب اسمه من وقوع (شور) على طرفه الغربى. وبذلك تكون المسافة الواقعة بين (حويلة) شرقى سيناء و (شور) غربى سيناء، هى المسافة الكبرى التى سكنها العمالق والإسماعيليين، وتكون (مدينة عماليق) التى ضربها شاول بعد حصارها، هى ذات عين (حواريس) أو (حويلة) التوراتية وليست حويلة / حواريس الموجودة شرقى الدلتا المصرية باسم رمسيس وفى هذه الحالة يجب البحث عن حويلة التوراتية فى مكان ما شرقى سيناء فى جوار قادش وعلى حدود آدوم الغربية وحدود فلسطين الجنوبية.

وحتى يمكن الوصول إلى تحديد دقيق يلاحظ أن الإسماعيليين رغم انتشارهم فى سيناء جميعاً من حويلة التى نبحت عنها شرقاً حتى شور غرباً، فإن أول استقرار إسماعيلى ألمحت إليه التوراة، كان فى ترميزها القصصى الذى أكد أن هاجر وابنها إسماعيل بعد طردهما من بيت إبراهيم هبطا من فلسطين جنوباً ليسكنوا فى برية فاران (تكوين ٢١) التى افترضناها باران الحالية، أى قرب قادش، وذلك لأن هناك نص توراتى آخر يحدد لنا موقع (قادش) ، بأنها تقع بدورها فى برية فاران (عدد ١٣ / ٢٦) وأن فى محيط برية فاران برية أخرى دعتها التوراة برية صين. فالتوراة تقول أن قادش رغم وقوعها فى محيط بريه فاران، فإنها تقع فى محيط برية أخرى باسم (صين) وذلك فى (عدد ١/٢٠)، وقد اتفقنا على أن برية (صين) هى (تسين) الحالية فى الجوار ذاته إلى الشمال قليلاً من (باران).

أما ما يؤكد لنا صدق تلك الأحداثيات، وأن موطن سكنى إسماعيل وأمه كان فى برية (فاران) و (صين) قرب (قادش) على حدود سيناء الشرقية التى هى حدود آدوم الغربية، وأن هذه المنطقة كانت الطرف الشرقى لطريق أودرك (شور) يؤكد كل ذلك قول التوراة إن ملاك الرب قابل (هاجر)، وأن ذلك اللقاء قد تم فى موضع تحدده التوراة بقولها: " فوجدها ملاك الرب على العين التى فى طريق شور/ تكوين ١٦/٦، ٧ ". أما (قادش) نفسها فقد حددت التوراة موضعها بقولها " قادش على تخوم آدوم / عدد ٢٠ / " وبذلك تقع قادش سيناء أيضاً جنوبى فلسطين أو مملكة إسرائيل القديمة، وهو ما جاء فى نص توراتى يرسم الحدود الجنوبية لأرض تلك المملكة " وجانب الجنوب يمينا من ثامارا إلى مياه مريوت قادش النهر الى البحر الكبير/ حزقيال ٤٧ / " .

الآن أمكننا حصر منطقة أضيق للبحث فيها عن (حويلة)، فأى موضع فى هذا الصقع الممتد من غربى آدوم إلى جنوبى فلسطين يحتمل أن يكون هو موقع حويلة التوراتية ، تلك التى حارت فيها الأفهام؟ بالبحث لا يمكنك أن تجد موضعاً يحمل فى سماته اللسانية اسم حويلة أو حويرة أو حواريس، ويقع فى تلك المساحة أو تحديداً، على الطرف الشرقى لطريق قديم فى سيناء يربط شرقها بغربها، سوى مدينة العريش الحالية، التى تلتقى التقاء مدهشاً مع المعطيات التى لدينا، على المستوى اللسانى، وعلى مستوى الإحداثيات الجغرافية.

وفى هذه الحال، يجب أن تكون مقاطعة سترويت المنسوبة إلى الإله (سيت) أى الستية)، وكما علمنا غير موجودة بالمرّة فى الجداول المصرية لمقاطعات مصر القديمة، هى منطقة نفوذ إله الصحارى، هو شبه جزيرة سيناء المتصلة بالدلتا المصرية الشرقية.

وإعمالاً لذلك نضع حلنا الافتراضى، وهى أن تكون شبه جزيرة سيناء هى التى عرفت فى أعمال المؤرخين الكلاسيكيين باسم مقاطعة (سيثرويت) نسبة للإله (سيت) //، وهنا علينا أن نلاحظ أن (سيثرويت) هى المقلوب اللسانى للكلمة المصرية (دوسريت) أو (دوشريت)، الدالة على الصحارى الشاسعة.

وقد أفادتنا المصادر المتخصصة فى الساميات، أن (سيناء) قد حملت اسم (سيناء) نسبة إلى إله القمر المنطوق باللسان السامى (سين) أو (زين)، وأنه كان ينطق مختصراً (سى) بإمالة السين إمالة طويلة، و (سى)، وحدها دلالة إسمية على السائمة من الحيوانات ذات القرون، ومنها جاءت كلمة (ساة) أو (شاة). وقد اقترنت السوائم المقرنة بإله القمر خاصة فى حالة الهلال ، بعد أن قرن الإنسان القديم بين قرنى السوائم وبين قرنى الهلال، فاعتبر القمر ثوراً أوتيساً أو خروفاً سماوياً، وسنعلم لاحقاً كيف اقترن الإله ست بالإله القمر رب الصحارى والبدواة والبودادى، وهو ما يرجح أن يكون اسم (سين للقمر)، جاء أصلاً من المفرد. (س) فى (سيت)، مضافاً إليه أداة التعريف السامية الجنوبية (ن)، التى كانت تلحق بآخر الكلمة للتعريف، كما فى (رحمن) التى كتبتها نصوص المستند اليمنى (رحمن - ن)، ويبدو لنا أن (ن) لحقت أولاً بالثنائى (ست) فأصبحت (ستن) التى ستصبح بعد ذلك الشيطان كما سيأتى بيانه، وهى صفات الإله (سيت) المصرى. إلا أن

ما يهمننا هنا هو أن سيناء اسم منسوبة للإله المصرى (سيت) فى إحدى تجلياته وتمثلاته، وهو هنا التجلى القمري لقربه من حال سيناء البدوى، تصبح (سيناء) أو (سيترويت) كليهما وعلى اختلاف نطقهما منسوبة الى الإله (سيت) المصرى.

وهنا نتذكر ما جاء فى حديث التلمود عن الشيطان، وأنه كان يطلع بين قرنى ثور، والثور هنا هو قمر هلالى لتجلى سيت.. والثور فى السامية القديمة وبخاصة البابلية كان ينطق (شيد) وهى ببساطة (سيت). أما التوراة فقد جاءت بكلمة (شيد) بمعنى عفريت، والعوام حتى اليوم يقولون عن العفاريت (الأسباد)، وهو تسمية تشير إلى أصحاب (سيت) باعتبارهم أصحاب سيادة/ هكسوس/ كما سلف البيان، والكلمة (سيت) نفسها تنطق أيضاً (سيد) وتحمل معنى السيادة. أما الرب التوراتى زمن النبی إبراهيم فقد جاء فى التوراة العبرية باسم (الرب القدير) وتلك ترجمة عن الأصل العبرى المازورى لذات الكلمة بالعبرية (إيل شداى)، وهى كلمة تتركب من ملصقين: الأول (إيل) أى رب، والثانى (شداى)، وشداى تحيلنا إلى (سيت) مرة أخرى (سيت / شيت / شيتاى / شيد / شيداى) وقد أشرنا فى كتابنا (قصة الخلق) إلى علاقة واضحة بين (شداى) هذا وبين (الشذى) أو الريح، وكلها تلتقى مع ما جمعناه من معطيات حتى الآن بشأن ذلك الإله، وتتناغم معنا تناغما بينا واضحا.

أما المصريون فقد كانوا يتقربون الى الإله (سيت). إنقاء لشربته الصحراوية بتقديم القرابين إليه من الثيران والأبقار الحمراء أو المغراء، التى لاشية فيها، ولو وجدوا فيه شعرة واحدة من لون مخالف لعدوه غير صالح للقربان، الأمر الذى يربطه بالبلاد الحمراء فى آدوم، فكان قربان سيت ثوراً أو بقرة (شيد) صفراء فاقع لونها^(٩).

ولم يزل الفلاح المصرى يخاطب السوائم ويحثها على السير والحرث باسمها القديم، والجزر اللغوى الأصيل (سى)، مع إمالة إمالة طويلة منطوقة (شى). ويتبادل مع لفظ الحث هذا لفظ آخر خصص فقط للحمير هو (حا)، وقد علمنا أن بداية ست فى الرسوم التخطيطية كانت تصوره حماراً. والمبهر هنا أن (حا) هو اسم القمر فى حالة الهلال باللسان المصرى القديم^(١٠)، وقد انتسب للإله القمر (حا) فراغة مرموقين مثل الذى نطقه اعتباطياً (أحمس)، بينما يجب نطقه نطقاً صحيحاً (حا - مس) أى ابن القمر، وهو بالترجمة الدقيقة (حا أعطى إينا)، ولأنه كان قائد تحرير مصر من الهكسوس، وكان عسكرياً مظفراً، فيبدو أنه قد ترك أثره اسماً واضحاً فى اللسان العربى (الحماسة).

ولأن المصادر التاريخية ترضن علينا بأية إضافات يمكن التعامل معها بشأن وارييس الهكسوسية، التى قامت داخل الحدود المصرية فى الدلتا الشرقية، فسنعمد الآن - وإلى حين فقط - إلى حواريس أخرى، هى حويلة التوراتية التى حددنا موضعها بالعريش شرقى سيناء، بحسبانها (حوارييس) متقدمة، للإشراف على

(٩) عبد المجيد عابدين: سبق ذكره، ص ٤ .

(١٠) أنطون ذكرى: مفتاح اللغة .. سبق ذكره، انظر صفحات ٧٨ ، ٨٨ .

أرجاء الإمبراطورية الهكسوسية، وفي بلاد الشام وجزر المتوسط ومصر نفسها. أما الأهم فهو قريبها من المركز الرئيسى لإنطلاق الهكسوس، الذى انعقدت عنده أحلافهم فى آدوم.

وهنا نفتح قاموس الكتاب المقدس فى مادة (حويلة) فيطالعنا بوجود قراعتها بفتح الحاء، فهى (حويلة)، وهو ما يلتقى مع فتح الحاء فى (حواريس)، ثم يقول بتأن يؤكد كل ما وصلنا إليه حتى الآن:

حويلة: اسم سامى معناه رملية .. هو اسم لرجل من بنى كوش
(تكوين ٧/١٠)، واسم لرجل من بنى يقطان تكوين (٢٩/١٠)،
واسم لمقاطعة من بلاد العرب يسكن بعضها الكوشيون،
ويسكن البعض الآخر اليقطينيون، وهم شعب سامى، (تكوين
٧/١٠ و ٢٩، وأخبار أيام أول ٩/١ و ٢٣)، والصلة بين
حويلة وحضرموت وأماكن أخرى، تشير إلى موقعها فى وسط
البلاد العربية، أو فى جنوبها وفى حويلة نهر فيثون، والمنطقة
غنية بالذهب والمقل، وهو صمغ عطرى طبى، والأحجار
الكريمة (تكوين ١١، ١٢/٢)، ويفضل البعض أن يحققها
بمنطقة خولان، فى القسم الغربى من بلاد العرب شمالى اليمن،
ولا يُعرف إلى أى حد كانت تمتد الحويلة شمالا، ومن قصة
محاربة شاول مع العمالقة قد نستنتج أن قسما من الصحراء
العربية، يمتد عدة مئات من الأميال شمال اليمامة، ويحمل اسم
حويلة (صموئيل أول ٧/١٥ وتكوين ١٨/٢٥).

إذن و وفق ما ساقه لنا قاموس الكتاب المقدس الذى اشترك فى إعداده جلة محترمة من علماء الكتاب المقدس، فإن كلمة (حويلة) تعنى (الرمل) فحويلة تقع فى منطقة صحراوية، وكذلك العريش، وعلى عادة المقدس التوراتى فى تصنيف المواضع والأجناس منسوبة الى أشخاص قدامى أسطوريين، آباء لأقوام وشعوب، فإنه يقول: إن حويلة كان اسما لرجل (كوشى) أى من الجنس الأسود الزنجى وقد قلنا أن هناك عنصراً زنجياً قد سكن المنطقة، ورفض المؤرخون بل ولم يتصوروا وجود عنصر زنجى فى هذه المنطقة رغم ما جاء فى المدونات التاريخية الكلاسيكية والكتاب المقدس، وأسقطها الباحثون دوما من حساباتهم لذلك نحن أول المفسرين بلا منازع ينازعنا. ثم أن الأسم كان فى الوقت ذاته اسما لرجل من نسل (عابر) العبرى هو (يقطان)، وبالعبدية هو قحطان. ونحن نعلم أن قحطان جنوب جزيرى سكن الجنوب اليمنى، لكنه وفق نظريتنا جاء من الجنوب إلى الشمال يرتحل إلى آدوم تاجراً ومقاتلاً. ثم أن القاموس المقدس يضيف لحويلة معنى ثالثاً، فهو اسم لمقاطعة يسكنها العرب والزنوج ويصفها بأنها عربية، ونحن نعلم مما أوردناه أن المؤرخين الكلاسيكيين قد أطلقوا على المنطقة جميعاً من آدوم حتى الدلتا الشرقية اسم العربية، أو المقاطعة العربية. أما الأشد فصاحة لأمرنا هنا فهو القول أن تلك المقاطعة كانت تنتج المر/ البخور/ اللبان / الصمغ

الطبي العطري، ولكن لأن القاموس وأصحابه لم يصلوا الى ما وصلنا إليه حتى الآن في بحثنا، فقد ذهبوا يضعون حويلة في شبيهها اللساني خولان غربى جزيرة العرب عند اليمن. ويكون شاول الملك بذلك قد قام بأكبر حملة في التاريخ، حملة أسطورية اكتسح بها فيافي الجزيرة من فلسطين حتى اليمن ويأتينا الخل الجغرافي الشديد وفق هذا الرأي، فأين خولان من شور التي أمام مصر؟ المهم أن القاموس يستمر فيؤكد لنا مذهبنا، فحويلة بها الأحجار الكريمة والذهب.

ونستفيد هنا من الباحث على فهمى خشيم الذى يبحث فى شأن آخر بعيد عن شأننا هنا، إذ يتحدث عن (حواريس) الهكسوسية بمصر فيقول أن المقابل السبأى لها هو فى مادة (ح و ر)، وتفيد معنيين نقيضين، فهى بمعنى ذهب، وبمعنى قعد واستقر (أليست تلك حال أولئك موضوع بحثنا حتى الان، بل وألا تنطبق إلا عليهم؟)

ولنلاحظ أن ذهب هنا بمعنى المشى دوماً، وهو ما يذكرنا بتفسيرنا للكلمة المصرية التى كانت تشير اليهم (الشاسو). ويقارن خشيم (ح و ر) بالآية القرآنية « ظن أن لن يحور / ١٤ / الأنشاق »، أى لن يعود، وبالأثيوبية حورا Hora أى يذهب، والأصل فيها من التردد والدوران، أى الحيرة، وهنا يجب علينا التذكير بالنص التوراتى « أراميا تائها كان أبى »، أما معنى الاستقرار، فقد جاء من (حور) بمعنى أحاط وشمل، إذ تبنى المدينة فتحاط بسور يحورها، وهو ما يلتقى مع الأسوار ذات النمط الخاص جداً الذى كانت تبنى به مدن الهكسوس. والتى يشابهها تماماً وبشكل مذهل ذلك الخط العسكرى الذى أقامته إسرائيل بعد الهزيمة العربية على قنال السويس، والذى عرف باسم (خط بارليف). ويمكن قرن كلمة (ح و ر) بكلمة (حارة) و (ح ي ط) أو (حائط)، ومثلاً لها المصرية (ح ت . و ع ر . ت HT. WR.T) عاصمة إقليم (إم ن. ت IMN.T) ومعناها حائط أو قلعة إقليم إمنت، وتقترب باليونانية. ثيولوجيا أوارين أو أفارين، أى أوارين المقدسة^(١١).

ومن ثم فالاسم حواريس يضم عدداً من المعانى، فهى مدينة كبرى مقدسة مسورة سكانها من البدو المرتحلين الذين استقروا مؤقتاً، أو استقروا ثم عادوا فتشتتوا، زيادة على كونها مركزاً رئاسياً إدارياً.

وفى سفر التكوين نص يرد فيه ذكر الموضع (حويلة)، يقول:

وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذى جبله، وأثبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة فى وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر، وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد فيثون وهو المحيط بجميع

(١١) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٩٠ : ٩٢.

أرض الحويلة حيث الذهب ، وذهب تلك الأرض جيد،
هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثانى جيحون
وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث
حداقل وهو الجارى شرقى آشور، النهر الرابع الفرات/
تكوين ٢ / ٧ - ١٤.

الأسطورة هنا تحكى عن خلق آدم ووضعه فى جنة باسم عدن، وهذه الجنة تقع على هذه الأرض،
ونظراً لأن العلم بجغرافية الأرض لم يكن قد اتسع بعد، فقد رددت الأسطورة تصوراً متواتراً لدى الشعوب
القديمة، يعتقد أن الأنهار جميعاً تنبع من منبع واحد على اختلاف مواضعها، وأن ذلك المنبع لا شك عند مقر
الآلهة، نظراً لتشابه الظواهر النهرية وكائناتها على اختلاف مواضعها. وضمن تلك التصورات ذلك التصور
الذى وضعه سكان منطقة الشرق الأوسط وتبنته التوراة، فنقول أنه فى تلك الجنة نهر أول هو منبع وأساس
تنفرع منه الأنهار الكبرى الأربعة، وأول تلك الأربعة نهر باسم فيثون، وهو المحيط بجميع أرض حويلة.
ووفق ما طرحناه فإن هذا النهر سيكون هو نهر وادى العريش الذى يحيط فعلاً بالعريش وينطلق من مواضع
متعددة بالمرتفعات السينائية الوسطى والجنوبية ليصب عند العريش، وقد اعتادت التوراة على تسميته (نهر
مصر). خاصة إذا ربطنا ذلك بما سبق وقلناه أن سيناء وآدم هى التى كانت تحمل مصر قبل أن تتسحب
التسمية على مصر المعروفة الآن، وأنها كانت تسمى على التنعيم مصرى وموسرى ومصرى وموسير
ومشرى، وكان هذا النهر هو آخر الحدود الغربية الجنوبية لدولة إسرائيل الموحدة القديمة حسب زعم
التوراة. وأبرز النصوص التوراتية لتحديد تلك الحدود ما جاء فى الوعد لإبراهيم بالنص القائل: « لنسلك
أعطى هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات / تكوين ١٥ / ١٨ »

كما تم تحديد وادى مصر هذا أو نهر مصر مع تحديد التوراة لآخر النقاط الحدودية الجنوبية - لسبط
يهوذا - مع مصر، فى النص « أشدود وقرها وضياعها الى وادى مصر والبحر الكبير وتخومه (يقصد البحر
الأبيض / المؤلف) يشوع ١٥ / ٤٧ ».

وفى عبقرية المكان الجغرافى المصرى، يقول لنا (جمال حمدان): « وادى العريش ليس فقط أكبر
الأودية الصحراوية طولاً وتشعباً ومساحة فى حوض سيناء وحدها، لكنه أكبر ما فى مصر كلها.. كان يسمى
منذ أقدم العصور نهر مصر، ولعله المقصود بنهر مصر فى التوراة.. ورغم أنه جاف معظم السنة فهو
سيلى بالشتاء، أما فى موسم فيضانه فيكاد يبدو نهراً جليلاً القدر عظيم الخطر يزحف كالسيل مقتلعا المباني
والمزارع » (١٢).

(١٢) جمال حمدان: شخصية .. سبق ذكره، ج١، ص ٥٩٧ .

أما النهر الثانى فهو **المحيط بأرض كوش** (الجنس الأسود) واسمه جيحون، حسب رؤيتنا هنا هو ذلك الذى يحمل اليوم اسم النيل، حيث كان فى جنوب مصر دولة تابعة لمصر باسم بلاد كوش، وكان يحكمها وال من قبل الفرعون منوباً عنه بلقب (ابن الفرعون فى بلاد كوش). أما النهر الثالث (حداقل) الذى اتفقت عليه الترجمات بكونه نهر (دجلة) أحد الرافدين لأن النص التوراتى يضعه شرقى دولة آشور الرافدية القديمة، لذلك، فإن النهر الرابع منطقياً يجب أن يكون (الفرات).

وفى المأثور الإسلامى يأتينا نفس التصور مع تحريف بسيط فى بعض الأسماء، كما فى الحديث الشريف عن أبى هريرة عن النبى (ﷺ) "فُجرت أربعة أنهار من الجنة: الفرات والنيل وسيحان وجيحان" (١٣). أما الكتاب المقدس فيصر على تأكيد معنى الجنة فكان نموذجها وهو يصف منطقة وادى عربية بأنها "كجنة الرب كأرض مصر / تكوين ١٠/١٣".

ثم تأتينا القرينة المبينة، وتتمثل فيما رواه سترابو STRABO عن قرار الإمبراطور الرومانى عام ٢٥ ق.م بإرساله حملة رومانية إلى جزيرة العرب للإستيلاء على محطات التجارة الكبرى وموانئها، وكلف بذلك إيلبيوس جالوس AELIUS GALLUS قائدا للحملة، انطلاقاً من العقبة مستعيناً بملك الأنباط العربى (أبو دعس الثانى OBODAS II)، لكن الملك النبطى ضلل الحملة وساقها إلى عمق الصحارى حيث تاه الجنود وماتوا عطشاً. إلا أن روما لم تخرج صفر اليدين، فاستولت على ميناء عربيا شمالياً "كانت التجارة الآتية إليه تنقل من هناك برا فى القوافل إلى البتراء" وهو ميناء غير محقق المكان الآن عند الباحثين أما اسمه حسبما جاء بلسان سكان المنطقة ودونته المراجع الرومانية، فكان (حوارة) (١٤).

وكما لدينا (حويلة) التى تقع عند قادش سيناء التى قلنا أنها العريش، فإن هناك حويلة أخرى باسم (حواريس)، وتقع بمكان ما شرقى الدلتا المصرية، وحويلة ثالثة عند البحيرة التى حملت اسمها شمالى فلسطين (الحولة). ومعلوم أن هناك أكثر من موضع فى التاريخ التوراتى، والتاريخ القديم عموماً حمل اسماً واحداً مثل قادش، ومثل دان، ومثل حاصور فهناك أكثر من دان وأكثر من حاصور، لكن يبدو لنا أن (حويلة) سيناء التى حققناها بموضع العريش الآن، هى ذات المدينة التى ذكرتها التوراة باسم آخر هو (حصرون) و(حاصور) التى تقع جنوبى فلسطين فالنص يعدد لنا مدن يهوذا الحدودية الجنوبية مع بلاد آدوم فى قوله:

هذا نصيب سبط بنى يهوذا حسب عشائريهم، وكانت
المدن القصوى التى لسبط بنى يهوذا إلى تخم آدوم
جنوباً: قبصئيل وعيدر وياجور وقينة وديمونة وعدعدة
وقادش وحاصور ويثان، وزيف وطالم وبعلوت،

(١٣) ابن كثير: البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨، ج١، ص٢٢.

(١٤) فيكتور سحاب: إيلاف قريش، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٢، ص٥٢: ٥٤.

وحاصور وحدته وقريوت، وحصرون هى حاصور

/يشوع ٢٠ / ٢٥ - ٢٥.

وفى هذا النص تختفى حويلة من تعداد المدن لتظهر بدلا منها حاصور، ويقول قاموس الكتاب المقدس تحت مادة (حاصور) أن حاصور كانت تتبعها قرية باسم (حاصور وحدته) بالجوار، وأن (حاصور) كانت مقاطعة فى الصحراء العربية. ويدل على أنها كانت مدينة عظيمة ذات شأن انها كانت محل طمع العاهل البابلى نبوخذ نصر، الذى هاجمها ونهبها (أنظر سفر إرميا ٤٩ / ٢٨ - ٣٣)، ثم يضيف القاموس نصياً: " ويذكر بيروسوس أن نبوخذ نصر قد هزم العربية، وربما يكون الاسم اسم مجموعة ".

فى الوقت الذى دون فيه هذا الكلام كان الجنس العربى قد أخذ بالتحدد فى جزيرته ونطاقها الشمالى، أما البلاد التى عدت عربية فى كتابات المؤرخين الكلاسيك فهى آدوم ومحيطها من شمالى الجزيرة إضافة إلى سيناء. أما البليغ هنا فهو المعلومة التى تواترت حتى وصلت محررى الكتاب المقدس ليسجلوا فى قاموسهم إن (العربية) ربما يكون اسما لمجموعة، أى لحلف بين مجموعات بشرية. وهو الأمر الذى انتهينا من تقريره بقرائن وأدلة وافية.

وزيادة فى البلاغ المبين يقول الكتاب المقدس الذى اهتم بشئون تسميات المواضع، فقد أفرد لمدينة حاصور التى نظنها اسما ثانيا لمدينة حويلة تقريراً يعطيها شأنًا خاصاً يقول:

حاصور كانت قبلا رأس جميع الممالك

يشوع ١١ / ١٣

وهو مايفيد أن حاصور كانت مدينة رئيسية رئيسة بين ممالك المنطقة الآدومية فى النقب، وهكذا أيضاً كان شأن حواريس عاصمة الهكسوس الاحلاف فى شرقى دلتا مصر. وحاصور فى حال الاستبدال السهل بين الحاء والعين تصبح ببساطة (عريش)، وإذا كنا نعلم أن كلمة (عريش) بالعربية تعنى الحظيرة، فإن الكتاب المقدس القاموسى يعلمنا تحت مادة حاصور بمعناها قائلا تحت مادة حاصور " حاصور: اسم عبرى معناه حظيرة ".

بعل صفون : لغز آخر !!

فى القصة التوراتية لخروج بنى إسرائيل من مصر نجد إشارات إلى موضع حدودى مصرى باسم (بعل صافون)، يقع على الحدود الشرقية للدلتا المصرية مع البحر الذى عبره الإسرائيليون فى أسطورة شق البحر، ومن المفترض حسب القصة أن تكون تلك الحدود حدوداً صحراوية ملاصقة لمناطق الخصب الدلتاوية. ويقول الكتاب المقدس أن ذلك الخروج أو عبور البحر قد تم عند نقطة اسمها (فم الحيروت) وهى بالعبرية (بى - ه حيروت) أى فم الحيروت . والمقدس التوراتى يفيدنا بموضع كان يقع إلى الجوار من فم الحيروت مباشرة يحمل ذلك الاسم الغربى على اللسان المصرى: (بعل صافون).

فما هو بعل صافون؟

بالبحث وراء بعل صافون وجدناه اسماً يرد فى الملاحم التى عثر عليها بمكتبة أوغاريت (تل شمرا اللاذقية الآن بسوريا) بحسبانه اسم لإله من أشهر الآلهة الكنعانية، فكيف أصبح علماً على موضع جغرافى بالبلاد المصرية؟.

ونحن نعلم من الملاحم الدينية للبلاد الشامية أن البعل تعنى السيد عموماً أو الرب، وعادة ما تشير إلى رب بعينه ارتبطت به تلك الصفة (بعل) بحيث إذا وردت وحدها دون ذكره نعرف أنها تشير إليه. هو رب الحرب والخصب والدمار والأوبئة معاً ، الإله (هدد) أو (هذ) بتشديد حرف الدال، وينطق أيضاً (حد) و(حدو) و (حداد) و (أد) و (أدد) وأيضاً (ود) وكلها اختلافات لهجوية باختلاف السنة قبائل المنطقة لكنه دوماً كان بعل صافون، وصافون هنا صيغة نسبة لمكان جغرافى حيث يقع معبد أو هيكل ذلك الإله فهو رب صافون أو إله الموضع صافون.

وتحيطنا ملحمتان على الأقل من الملاحم الأوغاريتية علماً بشأن السيد البعل (بعل صافون) هما: ملحمة البعل، وملحمة كارت ملك صيدون. والملحمة الأولى (ملحمة البعل) تحكى لنا قصة هذا الإله رب الصاعقة والمطر والحرب والوباء، وقد ترك عابده لنا نقوشاً له يمسك بصاعقة ذات ثلاثة شعب تشبه المذراة، فى شكل أداة حرب حديدية. مما يشير إلى أنه ربما كان أيضاً ربا لصناعة الحديد والمسبوكات المعدنية، وهو ما يطابق اسمه (حداد) أى صانع الحديد أو القينى . وهذا الاجتهاد من جانبنا لا يتعارض مع ما استنتجه الباحثون من كونه رب خصب لشعوب متبدية تستوطن الجبال و البرارى وتعتمد على المطر وبرقه ورعده فى زراعتها. لكن مثل هذا الإله فى بلد مثل مصر سيغدو إله نقمة وليس رحمة ، فهى تعتمد بالكامل فى ربيها على نيلها الهادئ اللطيف المنضبط، وشهور المطر فيها هى شهور الشتاء، والشتاء فى مصر فصل جذب ومرض للنبات وموت للخضرة، لذلك عادة ما قرن حداد أو هدد البعل عند المصريين برب الصحارى الشرير (سيت) قاتل أخيه أوزويريس رب الخصب والزرع، وهو تناقض بين حالين طبيعيين

فى المنطقه ادى الى تناقض مماثل فى تصور الالهة ووظائفها. وهكذا فالبعل فى الأسطورة السامية إله خصب يحمل اسم حداد أما صافون فهو المكان الذى ورد بالأسطورة كمقر لهيكل البعل وكمسكن له، وللبحث عن الموضوع الشامى للإله صافون نرجع إلى ملحمة البعل نقتطع منها المقاطع التالية:

رفعت (شمش) صوتها تقول: اسمع يا (عشتر) (ثور إيل) أبوك يميل إلى (يم) (

يؤثر (القاضى نهر)

إذا سمعك (إيل)

يغضب، يزيل عرشك، يحطم صولجانك

أجاب (عشتر) :

لا هيكل لى كما لسائر الآلهة، لا قصر لى كما لسائر
أبناء القدس

لكن (إيل) ثبت سلطان (يم) قائلاً: لا زوجة لك يا (عشتر) أنت قاصر لا تصلح للملك. ونادى (إيل)
(كاسروخاسس) وقال له: هيا ابن هيكل لـ (يم) هيا ابن قصر لـ (القاضى نهر)

أرسل (يم) رسلاً إلى (إيل) أبى السنين قائلاً لهم :

اذهبوا إلى مقام (إيل) عند نبع النهرين قرب أفقا. أمام (إيل) تسجدون، تقولون ... [تلف بالنص]

(البعل) لا هيكل له كما لأبناء (أشيرة) ربة البحر

هيا سيرى يا (عناة) إلى (أشيرة) ربة البحر توسلى إلى خالقة الآلهة أن تذهب إلى (إيل) تستعطفه فيسمح
ببناء هيكل لى .

ها (كاسروخاسس) قد هيا كيره أخذ الملاقط بيده هاهو يعد الفضة يرقق ألواح الذهب

إسرج مهرأ يا غلام

ضع سرجا غنيا بالحلى يا (قادش)

سر بنا إلى مقام (إيل) عند نبع النهرين بالقرب من أفقا

سار (قادش) أمام المهر

أضاء لها الطريق كوكب

بلغت حمى (إيل)، دخلت هيكل أبى السنين، أمامه انحنت وسجدت بإجلال

رفع (إيل) بصره ورأى (أشيرة) ..

ليكن له بيت أيها الإله (إيل)

فيرسل المطر فى حينه

تمطر السماء زيتا وتسيل الأودية عسلا عندما يرسل صوته رعدا وضياءه برقاً

فليكن للبعل بيت كما لسائر الآلهة.

سيكون لك بيت كما لإخوتك

هيكل كما لسائر بنات (أشيرة)

أدع البنائين إلى بيتك.

الجبـال ستخرج لك أجود فضتها والتلال خير ذهبها

اسرع يا (كاسر) فى بناء الهيكل ستبنيه فى أعالى جبل صافون بالفضة والذهب سترفع بنيانه، جاء الحطابون

بأرز لبنان اتجهوا نحو سريون

الأرز أجمله فى سريون أجوده فى لبنان ..

ها إننى قد بنيت بيتى من فضة

من ذهب خالص شيدته

راح البعل يطوف البلاد

ضم إلى ملكه ستين مدينة بل ضم إليه ثمانين، تسعين ..

اسمع يا (جفنة) يا رسولى الأمين.

اسمع يا (حقلة) يا رسولى الأمين.

قبل طلوع الفجر تتوجهان إلى طور غزى وشور ماجى الجبلين المحيطين بأقصى الشمال .. [تلف بالنص]

الآن وقد قتلت الحية الملتوية

الحية الملعونة ذات الرؤوس السبعة ..

صعد البعل إلى مسكنه فى أعالى جبل صافون ..

على قمة جبل الشمال

فى جبل (إيل) سكنائى..

فى جبل الله سكنائى.^(١)

تذكر ملحمة البعل كما رأينا عدداً من الأسماء يمكن الاستعانة بها لتحديد المواقع الجغرافية للملحمة الأسطورية، ونظراً للحديث عن جبل صافون بوصفه فى ترجمة النص الملحمى جبل الشمال، فقد افترض الباحثون أن يكون هو **الجبل الأقرع** الآن فى أقصى الشمال السورى، خاصة أن التسمية (جبل صافون) أو (سابون) أو (جبل سابان) - ولا خلاف - كانت تأتى فى الأساطير الأوغاريينية على التبادل مع التسمية (جبل أقرع)

ويوجز لنا (شيفمان) ما وصل إليه الباحثون بشأن التحديد الجغرافى لموضع جبل صافون وأسماء صافون المتشابهة لدى شعوب مختلفة فيقول: « وإلى الجنوب من المسير الأدنى لنهر العاصى يتوضع جبل القصير الذى يتراوح ارتفاعه بين ٤٧٠ - ٤٩٠ متراً . وتتصل معه من جهة الغرب قمة **جبل سابانو/ صافون فى التوراة، وخازى فى اللغة الأكادية، وكاسى عند اليونان والرومان، وهو مانسميه اليوم جبل أقرع** »^(٢). ثم يحدثنا (شيفمان) عن أوليمب الآلهة الأوغاريينية يشير إلى مكان مماثل للبلاد التى فيها **جنة عدن التوراتية** أما المكان الذى اختاره بعلو الجبار لسكناه فهو **جبل سابانو** وهو جبل موجود فعلاً فهو جبل الأقرع حالياً، ويقع على مسافة قريبة من أوغاريت .. لكن فى نص آخر يوجد بعلو فى جبل سابانو الذى فى السموات »^(٣).

ووفق منظومة بحثنا هذا سيجد قارئنا فى فصوله السالفة واللاحقة ما يؤكد أن التسمية الأكادية (خازى) واليونانية (كاسى) هى هى التسمية التوراتية والمصرية (كوشى). وفى بلاد الرافدين والشام الأعلى كان اسم الكاسيين علما على القبائل التى غزت بلاد بابل ضمن الموجة الهكسوسية التى احتلت مصر حوالى ذات الزمان تقريباً، وهم لدينا عين الكوشيين، حيث أكدنا ونؤكد أن الكوشيين/ الزنج كانوا عناصر ضمن عناصر الهكسوس ومن العناصر المتقدمة فى بلاد آدوم / بونت / مديان. وأنهم كانوا رفاق العنصر السبأى أوهم ذاته، واقتربوا هناك مع العنصر الآرى الهابط من الشمال، وبذلك يكون جبل صافون/ خازى/ كاسى هو الجبل الكوشى أيضاً، جبل الإله البعل حداد/ هدد/ ود.

(١) أنيس فريجه : ملاحم وأساطير فى الأدب السامى، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩،

ص ١١٧، ١١٨.

(٢) شيفمان: ثقافة أوغاريت .. سبق ذكره، ص ٧.

(٣) نفسه: ص ٥٤، ٥٣.

وفى الملحمة وردت أسماء آلهة منها الإله (يم) ويعنى البحر، والإله (القاضى نهر) ويكتب (أور - دان) أى قاضى المدينة أو قاضى النهر والنهر القاضى^(٤). ويبدو أن النهر كان موضعاً لاختبار الخاطئين بجريمة الزنا بشكل خاص، باعتبار النهر هو سائل الخصب الذى يروى الأرض فتتبت، كسائل الخصب البشرى الذى يروى الفرج فيلد، ويقول (جيمس فريزر) أن القضاء النهري كان ينتشر انتشاراً واسعاً لدى الشعوب القديمة. وكان يمارس وظيفته بوضع الطفل المشكوك فى شرعيته فى سبط وتركه للنهر وقتاً محدداً ، فإن نجا كان طفلاً شرعياً وإن غرق كان نغلاً^(٥). لكن هذا القاضى نهر بالملحمة يشير إلى نهر بعينه أصبح يحمل اسم القاضى (دان) من (يدين) و(أدان) هو نهر (أوردان) أو (الأردن)، ونهر الأردن كما نعلم فى الجنوب وليس فى الشمال كما تحدد الملحمة مواضع أحداثها. إضافة إلى علامات أخرى تشككنا فى ذلك الشمال، فالعبرة (أبناء القدس) فى الملحمة يجب إعادتها إلى أصلها (أبناء قادش)، ونعتقد أن قادش سيناء أو عين قديس الآن الملاصقة لبلاد آدوم هى قادش المقصودة . خاصة أنها جاءت مرتبطة فى الملحمة بموضع آخر هو (طور غزى) والطور هو أى جبل مزروع وقد تم تمييزه، بنسبته إلى مدينة غزة، ثم أنه يقع بالقرب من موضع (شور - ماجى) الذى يحمل فى تركيبه شقاً معلوماً هو (شور) الحد الشرقى للدلتا مع سيناء أو كما تقول التوراة متكررات حول شور التى امام مصر.

أما الإشارة إلى أن ذلك الجبل بأنه جبل إيل وجبل الله فهو ما يذكرنا بالوصف التوراتى الدائم لجبل سيناء بأنه **جبل الله** حوريب كما فى النص:

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى ما وراء البرية وجاء إلى **جبل الله حوريب**

خروج ٣ / ١

ثم يذكرنا أيضاً بالوصف المصرى لبلاد بونت - التى زعمنا أنها بلاد آدوم بأنها - **أرض الإله**.

والآن ليلحظ معنا قارئنا أن الأسطورة الملحمية قد أوردت أحياناً تشير إلى إله باسم (كاسروخاسي) وان هذا الإله مهمته صناعة المعادن. فهو ينفخ الكير ويعد الملاقط ويطرق الفضة ويرقق ألواح الذهب لصناعة عرش الإله بعل صافون، وإن كان شيفمان يفضل ترجمة اسم (كاسر وخاسيس) إلى (كوثروخاسيس)، وحرف الواو هو حرف إلحاق فهو كاسر أو كوثر الكاسى، وأصلها الأوغاريتى جاء هكذا KTR- W- HSS ، لكن من جانبنا نذهب إلى وجوب ترجمته وقراءته سوكار أو شوكار الكاسى. فنحن نعلم أن سوكار أوسوكاريس هو الإله الصقرى رب مدينة منف المصرية الذى أعطى اسمه لها فأصبحت سكاره أوسقارة، وأنه رمز الإله المصرى أوزيريس. ويدعمنا فى هذا المذهب ما جاء عن (كوثروخاسيس) عند (شيفمان) حيث يقول: هو الإله الحرفى ومقره فى **خيكوبتا/ ممفيس** .. ونشاطه الأساسى يتركز فى صناعة السلاح

(٤) كتاب لا يحمل اسم مؤلف بعنوان: شبهات وهمية حول العهد القديم، نشر كنيسة قصر الدوبارة، القاهرة ١٩٩١، ص ٤١.

(٥) جيمس فريزر: الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٢، ج ٢، ص ٥٤٠.

والواضح أن خيكوبتا هي (ايجبت/ مصر) في اللسان الأوغاريتي، وهو ما يفيدنا به (شيفمان) ^(٦) إذا يقول: إن كوثر الكاسي كان يعيش في منف في اعتقاد أهل أوغاريت ويفيدنا إريك هور نونج علماً في حديثه عن آلهة مصر القديمة أن سوكر Sokar كان « إله الحرفية والموتى وعبد في منف » ^(٧).

وهكذا، كما مزج الهكسوس بين الإله سيت والإله بعل حداد، أخذوا أيضاً إله سقارة / منف المنسوبة إلى ربها سوكر ثم نسبوه للكوشيين فأصبح كوثر الكاسي لكنه في ملحمة البعل أصبح تابعاً لسيت أو للبعل بعكس القصة المصرية.

وما لا يفوت عين فاحصة إشارة الملحمة إلى أن بعل ما إن تمكن من بناء مركز سيادي له رمزاً للسيادة الهكسوسية، فإنه قام يضم مئات المدن إلى ملكه، تعبيراً عما فعله الهكسوس لإقامة إمبراطوريتهم.

وإذا كنا قد قلنا أن المركز الرئيسي الذي تجمعت فيه عزمات الهكسوس كان هو بلاد آدوم التي زعمنا أنها ذات بلاد بونت في النصوص المصرية، فإننا نجد في الكشف الأوغاريتية دعماً واضحاً لما قلنا حيث نجد البعل في الملاحم الأوغاريتية ينجب ولداً مقدساً يحمل اسماً فصيحاً هو « الإله بونت » ^(٨). وأن (بونت) أنجب الإله (صيدون) الاسم المعلوم للمدينة الرائدة على الساحل المعروفة باسم صيدا . وتاريخ ديانات المنطقة يفيدنا بأن أسماء المدن أسماء معبودات تعود إلى آلهة أسطورية أسستها. ولعل أشهرها عبادة مدينة (بيت إيل) في فلسطين فقد عبد الأراميون والإسرائيليون إلها باسم (بيت إيل) ^(٩) كما عبدوا إيل نفسه رب المدينة، مما يشير إلى تقديس لبعض المواضع ورفعها إلى رتبة القداسة وتتم عبادتها كآلهة. وهو ما يفسر تقديس المصريين لبلاد بونت ووصفها بأنها أرض الإله. وفي (تدمر) كان يكنى عن اسم الإله (بونت) ولا يلفظ اسمه ويشار إليه بأنه « ذلك الذي اسمه مجد إلى الأبد » ^(١٠) وهو تقليد مصري بالأساس حيث كان المصريون لا يذكرون الإله أوزيريس باسمه بل بالإشارة إليه ولا يبيحون نطق اسمه إجلالاً له كذلك الإله سيت كانوا لا يذكرون اسمه دفعا لشريته ولحضوره السحري، وحتى اليوم يشير المصري إلى الشخص الشرير ب (المخفي)، و(إلي ما يتسماش)، ويكنى عن المرض والموت بالقول: (الشر بره وبعيد) إيعاد لحضوره بعملية إقصاء سحري، وهو الأمر الذي تكرر بعد ذلك في العقيدة اليهودية التي كانت تشير لربها بفعل الكينونة يكون أو الإشارة بضمير الغائب المذكر (هو) أو (يهوه). أما الأشد دلالة هنا فهو أن نعثر في أوغاريت على الإله باسم (المهلك) ^(١١). وهو ما يذكرنا بالمهلك الإلهي الإسرائيلي لأبكار مصر ليلة الخروج، ثم يستدعي ذلك وصف التوراة لربها بذات صفات الإله طيفون/ سيت رب الأوبئة إذ تقول: «

(٦) شيفمان: ثقافة أوغاريت،، سبق ذكره، ص ٧

(٧) إريك هورنونج: ديانة .. سبق ذكره، ص ٢٧٩.

(٨) شيفمان: ثقافة أوغاريت،، سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٩) الموضع نفسه.

(١٠) نفسه: ص ١٥١.

(١١) نفسه: ص ١٥٠.

قُدَّامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى/حقوق / ٣ / ٥ . ويبدو لنا أن المهلك هذا كان البعل حداد على التحديد حيث تنسب إليه نصوص رافدية ذات الوظائف التي مارسها المهلك يهوه التوراتى فى مصر من تدمير للزرع والخضرة وكل مظاهر الخصب. وهو ما نقرأه فى نصوص الملك الآشورى (أدد نيرارى الأول / ق ١٣ ق.م) يستدعى قدرات أدد على أعدته قائلاً:

ليقهزه أدد (حداد/ هدد) بشؤبوب مدمر ولتستمر فى أرضه الفيضانات والعاصفة والتشوش والإضطراب والحاجة والعوز والجفاف والجوع. وليأت على أرضه مثل الطوفان جاعلاً منها خرائب و أنقاض وليخرب أدد أرضه بالبرق المدمر و ليسلط عليه الجوع (١٢).

وكما كان بعل حداد يوصف بأنه إله رعد وريح وبرق وصاعقة، ووصف فى الملاحم الأوغاريتية باللغة الحورية الكارية بأنه " راكب السحب " وأنه " يعطى رعدده ويرسل ضيائه إلى الأرض بروقاً " (١٣)، فإن يهوه العبرى يوصف فى الكتاب المقدس بأنه " الجاعل السحب مركبته، الماشى على أجنحة الريح/ مزامير/ ٣ / ١٠٤ ."

ويقول لنا المهتمون بالمصريات القديمة أنه فى عصر الدولة الحديثة المعروفة بدولة الإمبراطورية، انتشرت فى مصر عبادات سامية الأصل، فمثلاً، تم تكريس الحى الشرقى من مدينة رعمسيس للإلهة السامية عشتروت، حسبما علمنا من قصيدة تصف تلك المدينة، كما شيد للبعل عدة معابد. وكان رمسيس الثانى عابداً متبتلاً للإلهة السامية (عناة) زوجة البعل ولقبها بعلات. وكذلك أنشأ معبداً للإلهة (أشيرة). أما (بعلات صافون) زوجة (بعل صافون) فقد حازت على شعبية واسعة ووصلت من حدود الدلتا لتعبد فى منف إلى جوار آلهتها المصرية العريقة (١٤).

وهنا نستمع إلى عالم المصريات (ياروسلاف) وهو يقول : " إن المصريين قد رأوا فى الآلهة المشابهة ذات الطابع الحربى أو القتالى [وهى صفات بعل وزوجته عناة / المؤلف] فى فلسطين وسوريا إلههم ست .. وهناك رواية أعطيت فيها الأرض السوداء أى مصر إلى حورس، بينما أعطيت الأرض الحمراء أى البلاد الأجنبية إلى ست.. وفى عصر الدولة الحديثة .. تعرفوا .. على عدد عظيم من آلهة وإلهات المدن المسماة بعل Ba'al - سيد فى اللغة السامية - وبعلات Ba'alat أى سيدة. ومن المناطق التى أخضعت جُلب العديد من الأسرى إلى مصر واستقروا بها كرقيق. وأتبع ذلك التدفق الاختيارى للمهاجرين والصناع والجنود .. جلبوا معهم جميعاً عبادات آلهتهم المحلية .. ولقد أضحى ضرباً من المودة عند المصريين تقليد النمط الآسيوى فى العادات، فالكلمات السامية تطرقت إلى اللغة المصرية، ومع هذه الكلمات عقائد الآلهة الأجنبية للوافدين الجدد، من بعل وبعلات .. وميكال MIKAL ورشب RESHEP أو إرشوب ERSHEP وعبادة

(١٢) حسنى حداد وسليم مجاصص: بعل هداد.. سبق ذكره، ص ١١.

(١٣) على الشوك: جولة .. سبق ذكره، ص ١٩.

(١٤) سامى سعيد : الرعامسة .. سبق ذكره، ص ١١٠.

الإلهات عشتار ASTARTE وعناة ANAT وقادش KADESH وكسرت KESRET وأخريات .. وفى رأس الشمراء - أوغاريت - بسوريا كرسى لوحة من ميمي MIMI إلى **بعل زيفون** BA, AL ZEPHON أو بعل الشمال .. ولقد كان مركز عبادة الآلهة السورية فى مصر هى منطقة منف، وفى الأسرة الثامنة عشرة كان حيا من المدينة يسمى **حى الحيثيين** وربما كان ذلك الحى هو الذى ذكره هيرودت فيما بعد تحت اسم معسكر التيرانيين CAMP OP THE TYRIANS باعتبار أنه مستقرا أو مقر الإلهة إفروديت الأجنبية أى عشتار غير المصرية. وهناك بردية مصرية تعدد أسماء .. **بعلات وقادش وعنات وبعل زيفون** .. ويبدو أن رمسيس الثانى كان متعبداً متحمساً لعناة فضلاً عن أنه أطلق اسم عناة على فرسه، وكذلك أطلق على ابنته المفضلة اسم بنت عناة BINT - ANAT ، .. وكان رمسيس الثانى محبوب **حورون** BE LOVEED OF HAURON وهو إله سامى نعلم القليل جداً عنه حتى فى موطنه الأصلي بأسيا " (١٥).

ومن جانبه يحيطنا (شيفمان) علماً أنه " كانت عبادة الإله الكنعانى الآمورى بعل صفون وهو الأوغاريتى بعلو الجبار منتشرة فى مصر فى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد. وهذا ما تؤكد التوراة / تكوين ١٤ / ٢ / ٩ والعدد ٣٣ / ٧. والبردى الفيئى الذى وصلنا من مصر ويعود تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد (١٦). " ثم يضيف " وإلى زمن متأخر أكثر - بداية حكم الأسرة التاسعة عشرة أى بداية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد - يعود الرسم النافر للكاتب المصرى (مايمى) [سابق ذكره عند ياروسلاف باسم ميمي / المؤلف] الذى وجد مشوهاً جداً فى معبد بعلو. وكان مايمى هذا رئيس الخزانة لدى الملك المصرى، ولعب فى أوغاريت دور ممثل الإدارة المصرية. وتحتوى الكتابة التى ترافق النصب إياه إهداء إلى الإله المحلى، الأرجح إلى بعلو .. لقد نفذ هذا الرسم الكاتب فى وضعية المصلى رافعاً يديه أمام إله واقف يرتدى قلنسوة عالية فوق رأسه .. أما صورة الإله فهى تقابل الرسم المصرى للإله السورى **سيت بعلو** " (١٧).

وهنا يجب ألا ننسى مسألة الحى الحيثى فى منف حيث ستكشف لنا الفصول المقبلة أنه كان بقايا لجالية هكسوسية، وأن نتذكر قلنسوة من يسمى (مايمى أو ميمي) العالية فلها دور شارح لغوامض سنتاتى فى مكانها من هذا البحث. أما دمج شيفمان للإلهين سيت وبعل معا فى التعبير (**سيت بعلو**) فهو ما يعنى أن المصريين والسوريين قد تكونت لدى كليهما فكرة واحدة عن إله واحد **أسماء السوريين بعل وأسماء المصريين ست**، وبينما رأى فيه السوريون ربا للخصب فقد ركز المصريون على جوانبه السلبية ك**رب للحرب والدمار**. وسعياً وراء التيقن من هذا الدمج بين سيت وحداد بعل صافون نقرأ المعاهدة التى تمت بين المصريين والحيثيين زمن رعمسيس الثانى، لنجد الابتهالات تقدم إلى (سيت السماء) و (سيت حاتى) أى

(١٥) ياروسلاف تشيرنى: الديانة .. سبق ذكره، ص ١٨٣، ١٨٤.

(١٦) شيفمان ثقافة أوغاريت .. سبق ذكره، ص ١٤٢ .

(١٧) نفسه: ص ١٢٠، ١٢١.

سيت بلاد الحِيثيين أى بعل الحِيثى، وإلى (سيت حلب) أى إلى بعل حلب، مع طائفة ألقاب تتفق مع ألقاب الحِيثيين لرب العاصفة.

ثم نجد ذات الدمج فى قصيدة تخلد انتصار الفرعون رمسيس الثانى فى موقعة قادش، إذ نجد بيتا من الشعر يقول:

يهتف أعداء الفرعون

ليس إنسانا هذا الذى بيننا

بل هو سيت عظيم القوة

أو بعل بذاته.^(١٨)

والغريب أن الحِيثيين الذين عاشوا فى بلاد تركيا القديمة كانوا قريبين فى تصورهم لرب العاصفة تيشوب/ بعل / ست من تصورات المصريين فمعظم النصب الحِيثية تصور إله العاصفة بمظاهر قتالية متسلحا بهراوة أو فأس وراكبا عربية حربية، وقليل ما تشير إلى أية صفات إخصابية^(١٩). وهو ما يعنى لدينا أكثر تأثراً من جانب الحِيثيين بالتصورات المصرية رغم هذا البعد الشاسع جغرافيا، وهو ما سيجد مبرراته فى الفصول القادمة التى نتحدث عن الحِيثيين.

ومعلوم أن أكمل القصص التى وصلتنا عن إله الشر المصرى سيت قد جاءت ضمن رواية بلوتارك اليونانى لأسطورة أوزيريس رب الخير وصراعه مع سيت رب الشر. وبعد استشهاد أوزيريس يستمر الصراع يقوده حور أو حورس ابن أوزيريس انتقاما لأبيه من عمه الشرير سيت، لينتهى الصراع بهزيمة سيت الشرير على يد حور، يقول بلوتارك:

" وبعد أن هزمه حورس.. هرب ست من المعركة راكبا على حمار، واستغرقت رحلته سبعة أيام على ظهر الحمار.. فكان لاستعمال ست للحمار ولغناء الحمير ولونهم الأحمر أن انتسب الحمير إلى تيفون [تيفون الاسم اليونانى للإله سيت/ المؤلف] وكان ذلك سببا فى كره المصريين لهم فى عقيدتهم، لذلك لقبوا أوخوس أفسى ملوك الفرس وأشهرهم [هو ارتكسيركسيس الثالث/ المؤلف] لتعسفه وشدة ظلمه بالحمار، فكان رده على المصريين: إن هذا الحمار سيحتفل بأكل عجلكم. أما القائلون بأن رحله ست فى هربه كانت سبعة أيام على ظهر حمار ونجاته وأنه أصبح أباً لهيروسوليموس HIEROSOLYMOS ويودايوس JUDAEOS ، فهؤلاء كانوا يريدون أن يدخلوا التقاليد الإسرائيلية فى الخرافة المصرية .. فالواقع إذن أن المصريين بعد أن عرفوا بنى إسرائيل.. ألحقوهم بأبناء من أب هو ست إله الشر والشیطان، الإله العدو فى عقيدتهم.. وأصبح بنو إسرائيل فى مصر أولاداً لست الذى يسميه اليونانيون تيفون. أى أنهم ينحدرون من أصل شرير. جعل منه

(١٨) حسنى حداد وسليم مجاصص: بعل هداد .. سبق ذكره، ص ٢٤، ٢٥.

(١٩) نفسه: ص ٧٩

المصريون .. رمزا لكل الحيوانات والنباتات الضارة والبحر المالح والحوادث المفجعة .. وهيروسوليموس وياهو دايوس هما آباء العبرانيين اليهود^(٢٠)..

وهكذا ردد بلوتارك ما يؤيد ما قلناه حول أحد صور التجلي للاله سيت فى هيئة الحمار واللون الأحمر، وكان اللون الأحمر رمزاً على الجذب كما كان علامة على بلاد آدوم وسيناء وسكانهما، ونسبة الإسرائيليين إلى ذلك الإله تشير إلى لون من القرابة تربطهم بقبائل آدوم وسبق لنا أن شرحناها وأكدناها. ولعله من الواضح هذا أن هيروسوليموس هى (أورشليم) وأن (ياهو دايوس) هى اليهودية أويهوذا، مما يؤدى إلى التباس الإسرائيلى بالهكسوسى وهو ما يتأكد دوماً بشكل مستمر منذ بداية هذا البحث، فنجد الإسرائيليين هنا أبناء للتشوير ست الذى سبق وأختاره الهكسوس رباً خاصاً لهم إبان احتلالهم لمصر.

هنا يفيدنا شيفمان المتخصص فى أركيولوجيا أوغاريت أن بعلو الجبار الذى هو حداد / هدد وهو زوج الإلهة (هبات) ^(٢١) ربة العاصفة التى تهب والتى سبق وأشرنا إليها كربة فى بلاد آدوم من الاسم (هفا) أى (هوا) أو الهواء فى صيغة المؤنث (هبات). ثم نعلم من جانب آخر أن الإله الحيثى (تيشوب) كانت له زوجة تحمل ذات الاسم (هبات) أو (حبات) ^(٢٢)، وتيشوب هو رب العاصفة بدوره، هو البعل . وفى وثيقة معاهدة الصلح المصرية الحيثية نجد الابتهاال إلى (ست حلب) و (هبا حلب) ^(٢٣)، و (هبا) هنا مذكر (هبات) وست حلب هو بعل حلب، مما يعنى أن ست/ تيشوب / بعل حداد طيفون / رب العاصفة أو (الهوا) هو (هبا) زوج (هبات) أو (هوا) زوج (هوات). وعلى ذات التنغيم يأتينا اسم الرب الإسرائيلى (يهوه) الذى فسره فلهاوزن بأنه يعنى (يهب) من هبوب الهواء والريح إضافة للتفسير الآخر أنه من فعل الكينونة (الكائن).

أما اسم ذلك الإله الأشهر حداد أو هداد أو هدد فنجد اسماً لأحد أبناء إسماعيل (الكتاب المقدس / سفر أخبار الأيام الأول ٣٠/١) ثم الأكثر إدهاشاً والتقاء مع كشوفنا أن نجد اسم ذلك الإله قد تسمى به ملوك بلاد آدوم تيمناً، ولدينا منهم على الأقل ثلاثة: الأول هو هداد بن بداد (تكوين ٢٦/٢٥) والثانى هو هداد الذى عاصر زمن جدعون الإسرائيلى (تكوين ٢٦/٢٩) وأما الثالث فهو هدد وريث العرش الآدومى الذى هرب إلى مصر عندما احتل الملك الإسرائيلى سليمان بلاده، فى قصة سبق وأسلفناها (انظر سفر ملوك أول ١٤/١١).

وملمح آخر يؤكد التطابق بين يهوه وبين رب العاصفة فنحن نجد وصفاً اعتيادياً للإله فى التوراة بأنه (رب الجنود/ إيل صباوت فى العبرية/ سفر الخروج ٣/١٥ وصموئيل أول ٤٥/١٧) مع وصف آخر يقول « الرب رجل حرب »، وهى صفات البعل حداد/ سيت / تيشوب/ هفا. لكننا نعثر على ما يكاد يكون تطابقاً نصياً

(٢٠) بلوتارك: إيزيس و أوزيريس .. سبق ذكره، ص ٥٢، ٥٣.. انظر أيضاً عبد المحسن الخشاب: تاريخ اليهود.. سبق ذكره، ص ٣٧، ٣٨.

(٢١) شيفمان ثقافة أوغاريت .. سبق ذكره، ص ١٢٢.

(٢٢) حسنى حداد: بعل هداد.. سبق ذكره، ص ٢١: ٢٣.

(٢٣) نفسه: ص ٢٨، ٢٩.

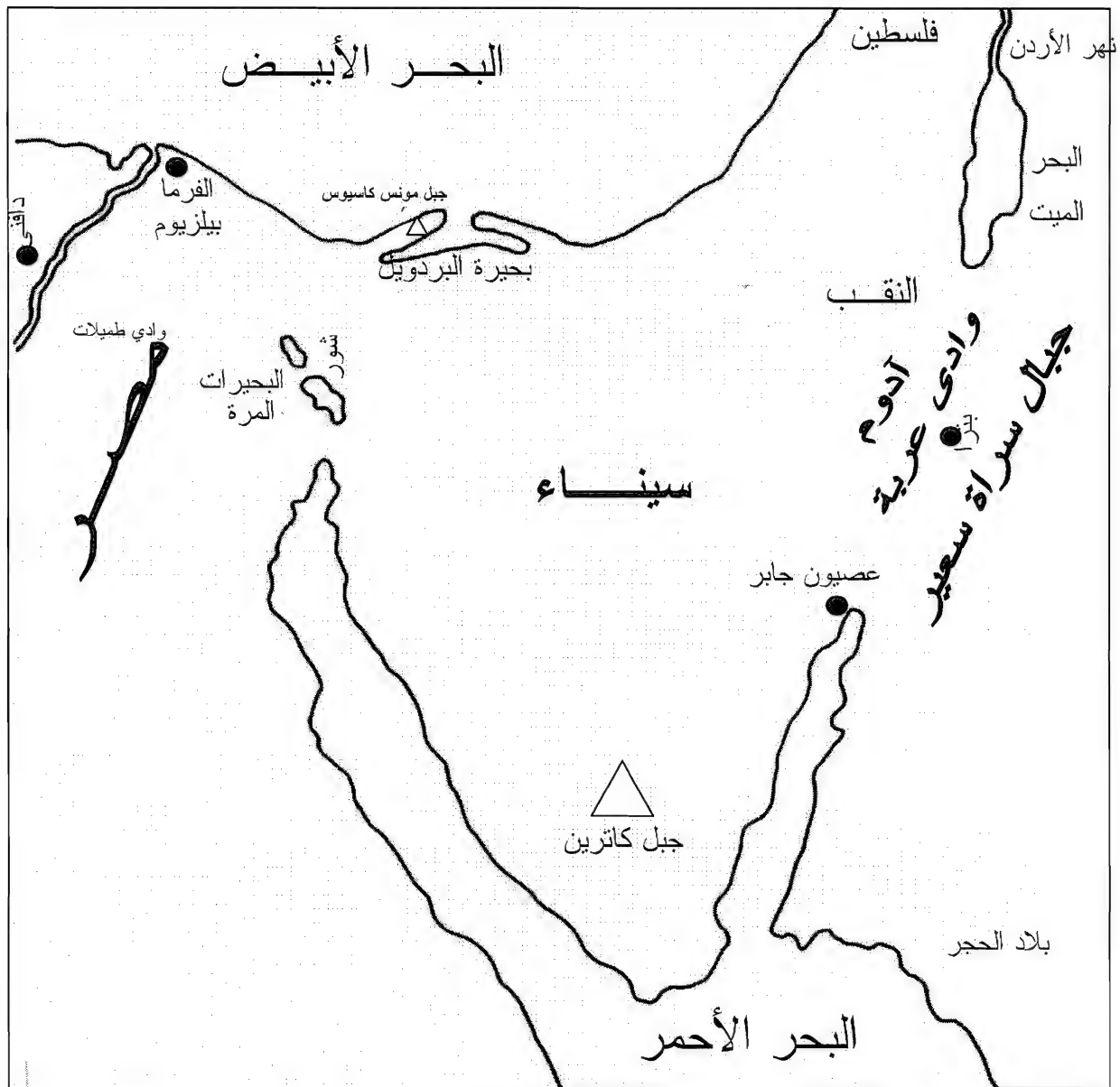
فى نص جاء بمكتبة أوغاريت عن الإله رشب وهو بدوره تسمية بعلية لرب العاصفة، ويقول النص حسب ترجمة شيفمان " إله الحرب صاحب السهام راشابو الجنود ^(٢٤) ". ولا معنى لهذا الكلام إلا إذا كان حرف الشين زيادة فى اسم الإله المحارب (راشابو) تم إهمالها فى النطق بعد ذلك ليصبح النص تماماً تورانيا لأنه سيصبح " إله الحرب صاحب السهام رب الجنود ".

وحول اسم رب البحار الإله (يم) أو (يمو) وهو أحد أبطال ملحمة البعل الأوغاريتية يعقب شيفمان بالقول: " إن يموسمى أيضاً يافو الذى يقارنه بعضهم باسم الإله البيروتى يفو والتوراتى يهو ^(٢٥) ". وفى بحثه عن خط سير رحلة الخروج الإسرائيلى من مصر يقول (بيير مونتنيه) أن اسم الموقع الوارد فى التوراة باسم بعل صافون بمصر كان يقع عند قمة جبل مونس كاسيوس، وهى تسمية إغريقية للجبل تحمل اسم إله يونانى أدمج بالإله بعل صافون هو كاسيوس ومعناه (الكاسى) وأن موضع بعل صافون يقع تحديداً عند قمة ساحل بحيرة البردويل الآن بشبه جزيرة سيناء ^(٢٦).

(٢٤) شيفمان: ثقافة أوغاريت .. سبق ذكره، ص ٨٦.

(٢٥) نفسه / ٨٤.

(٢٦) زينون كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة.. سبق ذكره، ص ٨٠، ١١٥، ١١٦.



خريطة رقم (٣١)
موقع كاسيوس وبيليزيوم



شكل رقم (٦٠)

تيشوب من تل برسيب ١٠٠٠ ق . م متحف
حلب نموذج بعلي حيثي (لاحظ الأساور على
العضد وذات حركة بعلي يحمل الصاعقة والرمح)



شكل رقم (٥٩)

نصب من رأس شمرا يمثل الإله الأوغاريتي بعلي هداد
مع الرمح / الصاعقة / متحف اللوفر / باريس (لاحظ
أنه يلبس تاجا عاليا له قرنين مع ذوابة تتدلى خلف
رأسه حيث سنقارن هذا التاج فيما بعد بتاج آخر أكثر
أهمية لشخصية تاريخية عظيمة



شكل رقم (٦٢)

تمثال مصري للإله سيبت في هيئة البعل
وحركته برأس خنوم



شكل رقم (٦١)

تمثال من البرونز والفضة والذهب للإله بعلي هداد وجد في
دأس، شمرا / أه غاربت

لغز أرام النحاسية

لكننا حتى الآن لم نجب إجابة دقيقة على السؤال: من هم شعب إرم الوارد فى لوحات حتشبسوت، كاسم لشعب كان يعيش فى بلاد بونت؟ إن محاولة الإجابة على هذا السؤال بحد ذاتها ستعطينا دليلاً آخرًا ودعماً آخرًا لكل دقائق وتفاصيل بلاد بونت التى لم تصبح الآن بلاداً غامضة، بل نظن أننا قد تمكنا من رسم لوحة كبيرة واضحة التفاصيل والدقائق، جمعناها من شوارد شتى لنؤكد بها صحة نظريتنا التى ستزداد مع البحث عن شعب إرم استقامة وثباتاً ورسوخاً.

وإبان ذلك سيتأكد لنا أن العرب قد عاشوا بهذا الاسم فى محيط سيناء وشمالى الحجاز فى أزمنتهم الغابرة، وأنه من تلك المنطقة هبط أولئك الذين أعطوا شبه الجزيرة اسمها (العربية)، وهو ما ستفصح عنه أكثر الفصول المقبلة، كما سنرى اللغة العربية وهى تولد أيضاً هناك وتأخذ خط تطورها الخفى مع (شعب إرم) ثم الأنباط من بعد.

أما الذى سيضيف الى رصيدنا فى البحث وراء شعب إرم البونتي، فهو مزيد من التوضيح والإضاءة لوجود شعب زنجى فى هذه المنطقة من العالم، ذلك الشعب الذى كان ظهوره فى لوحات حتشبسوت مدعاة للمدارس التقليدية لوضع بلاد بونت على الساحل الصومالى.

ونعود إلى (الأخلامو) أو (الأحلاف)، وهو الاصطلاح الذى أطلقه سكان الرافدين على ذلك الشعب المعروف بالشعب الأرامى، وقد ذهب المؤرخون إلى أن الأراميين قد ظهوروا فى بواى الشام حوالى ١١٠٠ ق.م، وبعضهم أعمق فى التاريخ قرناً آخر فقالوا بظهورهم حوالى ١٢٠٠ ق.م، ومن تهوّر قال بظهورهم حوالى ١٤٠٠ ق.م، لكن ليس قبل ذلك مطلقاً، وقد علمنا ببداية تواجدهم من بقايا المدن التى أنشأوها، وأعادها الباحثون إلى تلك التآريخ، والتى انتشرت فى بلاد الشام حتى أقصاه الشمالى. ومنها ممالك أصبحت نعرف أسمائها مثل مملكة بيت جبارى أو سمل وبيت أدنى وقرقميش وأرباد وانطاكية وحلب وقادش العاصى وحماة وتدمر ودمشق، هذا إضافة لمدن أخرى ذكرها المقدس ولم تفصح الأرض بعد عن آثارها، مثل فدان آرام معكة وأرام نهرين وأرام صوبه، والأخرتين تأتيان عادة على التبادل مما يشير إلى احتمال أنهما كانا مملكة واحدة.

ويقول لنا المؤرخون: أنهم عند ظهورهم فى المنطقة، أراحوا منها جنساً عريقاً قديماً كان يستوطن تلك الأماكن منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وهو الجنس الذى عرف التاريخ أصحابه باسم الأموريين، وبعد أن أراحوا الأموريين استوطنوا أماكنهم فى وادى العاصى والفرات الأعلى. رغم أن الأراميين ظلوا ممالك صغيرة متشظية، وأخفقوا فى إقامة أى وحدة بينهم فيما يذهب المؤرخون، والأغرب أن التراث اللغوى والثقافى الأرامى الوافد الجديد قد ساد المنطقة [كيف؟ لا يقولون لنا]، بل وتجاوز الأمر ذلك إلى أن لغتهم أصبحت فجأة ودون إنذار هى اللغة السائدة فى المنطقة، بل ونجدها دون مقدمات هى لغة التخاطب

الدبلوماسى بين عواصم الدول الكبرى فى المنطقة، ذات الحضارات العريقة السامقة، مثل مصر وآشور وبابل وبلاد تركيا الحيثية ودول المدن فى فلسطين والشام [كيف ؟ أيضاً لا يقولون لنا أية إجابة وعلينا أن نستسلم، فقط هذا ما أمكن معرفته، وفقط هذا ما قد حدث !!؟]

ونستمر نتابع أهل التاريخ فيقولون لنا أن اللغة الأرامية تطورت عنها لغات أخرى فى خطوط فرعية، أهمها الكنعانية؟! [رغم أن الكنعانية وفق حساباتهم هى الأقدم لتزمينهم وصول الكنعانيين فلسطين فى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد]، والنبطية. وأن الأرامية ربما سبقت وربما لحقت اللغة الكاربية الحورية، فبينهما تشابه أصيل يشير الى وحدة قديمة، وعن الأراميين أخذ الإسرائيليون خطهم المربع، أما النبطية فقد تطورت التى أصبحت اللغة العربية التى نعرفها فى خط شمالى الجزيرة ولغة قريش بعد ذلك.

وتلخص لنا موسوعة تاريخ العالم أمر اللغة الأرامية وأصحابها الأراميين فى قولها:

أصبح الأراميون هم التجار الدوليين فى العالم ، منذ
القرن العاشر حتى القرن الرابع ق.م، وأصبحت لغتهم
هى اللغة الدولية فى غرب آسيا .. ومعظم الآداب
الدينية اليهودية والمسيحية (السريانية) مكتوبة باللغة
الأرامية.

ومن جانب آخر نقف نستمع للباحث (فليكوفسكى)، يقول: إن العلماء قدروا أن وصول الحوريين للمنطقة كان فجراً لحضارة جديدة، وأنهم كانوا قوة هائلة ومنتشرة انتشاراً واسعاً ما بين أرمينيا حتى جنوبى فلسطين والمتوسط، وشرقاً حتى فارس، ثم يعقب يائسا: " واللغة الحورية تبدو كلغة بلا شعب، فلا هى سامية ولا هى هندوآرية ^(١) " أما نحن فقد قلنا وعدنا وزدنا حول الاندماج الجنوب جزيرى مع الحامى مع الكوشى مع الهندوآرى فى وادى عربية، والذى لاريب قد انتج هذه اللغة التى حيرت الأفهام، لغة الحوريين، اللغة الأم للساميات فيما نريد تأكيده.

إلا أن الموسوعة تلمح من طرف خفى وحذر إلى أن ظهورهم المفاجئ جاء نتيجة طرد الهكسوس من مصر سنة ١٥٨٠ ق.م، لكنها تلتوى ولا تقول صراحة ولو بصيغة الاحتمال والظن: إن الأراميين الذين ظهروا فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد فى بوادى الشام، ربما كانوا من الهكسوس الذين طردوا من مصر، إنها متشككة فتسوق قولاً يحتمل الالتباس المقصود نتيجة عدم اليقين.

لكن الكل يغض عينيه تماماً عما جاء فى نصوص سرجون الأكدي حوالى ٢٤٥٠ - ٢٣٥٠ ق.م، من إشارات واضحة لآرام، والتى لم تكن الإشارات الوحيدة اليتيمة حتى يمكن التغاضى عنها، بل تكررت مثل هذه الإشارات، لكن لأن التاريخ علم مهيب رزين لا يعرف المجازفات، فقد عقب المؤرخ العراقى

(١) فليكوفسكى: عصور فى فوضى.. سبق ذكره، ص ٢١٩.

المرموق (طه باقر) يقول: « من المستبعد أن يكون الموضع الوارد بهيئة أرامي ARAMI ، وأسماء بعض الأعلام على هيئة أرامو ARAMU ، صلة بالأراميين، بالنظر إلى قدم العهد، لذلك يرجح أن يكون ذلك مجرد تشابه لفظي، ولا يُعرف على وجه التأكيد معنى الكلمة أرامي، على أنه قيل في أرام وإرم - ولعل الكلمة الواردة في القرآن لها صلة بالأراميين - إنها تعني النجد أو الهضبة »^(٢) ورغم أن معنى النجد أو الهضبة يدخل في معنى الصخرة، ورغم أن معنى إرم في الأرامية هو الصخرة على وجه التدقيق، فإن (باقر) لم يلمح حتى إليه، ربما لأنه رآه بلا معنى (فماذا تعني الصخرة؟!) لأنه لم يكن يعلم ما كشفناه عن علاقة الأراميين بالبتراء. لكن قارئى يرى الآن أى معنى معناه؟

ومثل (باقر) عقت موسوعة تاريخ العالم على ورود إشارات للأراميين فى ذلك العهد البعيد القدم بقولها:

حوالى ٢٤٥٠ - ٢٣٥٠ قاد سرجون ملك أكاد، ونارام سين، حملات حربية إلى شمال سورية، والإشارة إلى أرام فى نقوش هذين الملكين تدعو إلى الحيرة.

أما حسب منظومتنا التى ننسجها هنا يكون مفهوما أن تتحدث نصوص سرجون ونرام سين عن الأراميين قبل الألف الثانى للميلاد، لأنهم إذا كانوا هم الهكسوس كما ألمحت الموسوعة ، فلاشك أنهم لم يسقطوا على مصر من السماء، إنما كانوا موجودين بالمنطقة قبل دخولهم مصر، وأنهم قضوا فترة زمنية كافية تسمح لهم بتكوين قوة مقتدرة تمكنهم من احتلال كبرى دول المنطقة.

وفى نص بسفر صموئيل حكاية تعنى ما نحاول قوله هنا وإيضاحه بل وإثباته، والنص حكاية عن الأسلاب التى غنمها الملك الإسرائيلى داود، بعد أن هاجم جميع الدول التى تجاوره من الشرق ومن الجنوب، يقول النص:

وهذه أيضاً قدسها الملك داود للرب من الفضة والذهب الذى قدسه، من جميع الشعوب الذين أخضعهم: من أرام ومن مؤاب ومن بنى عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق.

صموئيل الثانى ٨ /

١٢

وعجبنا هنا من عدم ذكر آدوم فى نص يعدد بالحصص جيران مملكة داود من الشرق والجنوب، وعدنا نقاب صفحات المقدس نبحت عن تعليل، فوجدنا ذات الإشارة تتكرر بعد ذلك فى سفر أخبار الأيام

(٢) طه باقر: الوجيز .. سبق ذكره ، ص ٤٣٩ .

الأول، بل بذات الكلمات لم يتغير فيها غير كلمة واحدة، لم يلتفت الكاتب إلى اختلافها عن النص الأول، بحسبان أنه كان يعلمهما كلمة واحدة ومعنى واحد وإن اختلفتا، والنص يقول:

هذه أيضاً قدسها الملك داود الرب مع الفضة والذهب
الذى أخذه من كل الأمم، من آدوم ومن مؤاب ومن
بنى عمون ومن الفلسطينيين ومن عماليق.

أخبار الأيام الأول ١٨ / ١١

وهنا جاءت آدوم بديلاً عن أرام، بل وفى ذات مكانها من النص مع عدم تغيير يذكر فيما عدا ذلك، ولمزيد من التأكيد نستتق المحرر التوراتى: هل كان يعلم أن أرام بالفعل هى آدوم، أو حتى أن الآدومى هو بطن من البطون الأرامية، ومرات ومرات كدأبنا طوال بحثنا نقلب أسفار الكتاب المقدس، فنعثر على نصين آخرين حدث معها ذات ما حدث مع النصين السالفين، محرر كتب هذا ومحرر كتب ذاك، لكنهما كانا يتفقان على أن ما اختلف بينهما من أسماء ليس إلا أسماء لشعب واحد، يقول النص الأول:

ونصب داود تذكارا عند رجوعه من ضربه ثمانية
عشر ألفا من أرام فى وادى الملح، وجعل فى آدوم
محافظين ، ووضع محافظين فى آدوم كلها، وكان
جميع الآدوميين عبيدا لداود.

صموئيل الثانى ٨ / ١٣ ، ١٤

أما النص الثانى الذى دونه محرر أخبار الأيام فيغير فقط كلمة واحدة هى (آرام) الواردة فى أول النص، ويكتبها آدوم: انظر:

ضرب من آدوم فى وادى الملح ثمانية عشر ألفا،
وجعل فى آدوم محافظين، فصار جميع الآدوميين عبيد
لداود

أخبار أيام أول ١٨ / ١٢ / ١٣

واضح إذن أن التوراة تتحدث عن أرام باعتبارها آدوم ولمزيد من حسن الطالع لنا، أن التوراة تذكر الموضع الجغرافى لأرام فى النص الأول، فهى تقع فى وادى الملح، الذى يقع جنوبى بحر الملح (البحر الميت) حيث تقوم دولة آدوم.

هل يمكن أن نجد المزيد لتدعيم معمارنا هذا؟

فى الكتاب المقدس نص آخر لا يحمل لبسا، يؤدى إلى المعنى الذى نقوله هنا، والنص يؤكد أن ميناء (أيلة) على العقبة كان ميناء أراميا، والنص يحكى عن تعاصر الملك اليهودى (أحاز) مع الملك (رصين)

ملك آرام دون تحديد أى آرام يقصدها بين مدن كثيرة عددها لنا عند حديثه عن آرام فيما سبق، كقوله آرام معكة وأرام بيت رحوب وأرام صوبا وفدان آرام.. الخ، يبدو لنا أنه قصد بالفعل آرام بعينها لا تحتاج تحديداً، يكفي أن يقال بشأنها آرام، آرام مركزية لا تحتاج توضيحاً، ثم يحكى النص أن رصين هذا قد تحالف مع مملكة إسرائيل الشمالية، مع ملكها فقح بن رمليا، ضد أحاز ملك يهوذا، فالنص يقول:

كان أحاز ابن عشرين سنة حين ملك، وملك ست عشرة سنة فى أورشليم، ولم يعمل المستقيم فى عيني الرب .. حينئذ سعد رصين ملك آرام و فقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم للمحاربة، فحاصروا أحاز ولم يقدروا أن يغلّبوه، فى ذلك الوقت أرجع رصين ملك آرام أيلة للأراميين وطرد اليهود من أيلة.

ملوك ثانى ١٦ / ١ - ٦

رصين ملك آرام غير المحددة ولا المعرفة، استرجع مدينة أيلة — الواقعة على خليج العقبة الآن باسم إيلات — من يد مملكة يهوذا الجنوبية حيث يبدو أن إيلة خضعت ليهوذا منذ زمن سليمان، لكنه هنا لم يسترجعها لآدوم بل للأراميين، الواقع أن رصين كان ملكاً آدومياً تتبعه ميناء أيلة التى كانت مستلبة من بلاده منذ زمن، فتمكن من استعادتها لآدوم أو آرام، النص كما هو واضح لا يرى هنا أى فرق.

لكننا هنا ندفع بالأمر دفعة أخرى، فنتابع آرام هذه المعلومة والمعروفة ولا تحتاج تعريفاً، تلك التى وردت فى مواضع أخرى بالكتاب المقدس باسم (أرام صوبا)، التى لم يتم التعرف فى علم التاريخ على مكانها حتى الآن، رغم علمنا باسمها من مصادر أخرى غير الكتاب المقدس. فيفيدنا (طه باقر) - مشكوراً - أنها لابد واقعة فى الأنحاء الجنوبية من بلاد الشام، وقد خرج بهذه النتيجة من دراسة النصوص الرافدية القديمة التى تحدثت عن آرام صوبة، لكن أقصى جنوب وصل إليه هو البقاع جنوبى رحلة بلبان، فموضعها هناك (٣).

معقباً بالقول " والمرجح أن مدينة صوبا هى المذكورة فى المصادر الكلاسيكية الرومانية باسم **خلسيس** " (٤).

وبهذا الشأن يقول الباحث (فراس السواح): " فيما يتعلق بمملكة صوبا، احتار الباحثون بشأن موقعها وحدودها، وخرجوا باستنتاجات واهية، من شأنها خلق صورة مضخمة عن هذه المملكة، والباحث هاليفى يقول: إن صوبة هى تحريف لكلمة صهوبة، التى تعنى بريق الذهب أو النحاس .. ومن المرجح أن صوبة

(٣) طه باقر: الوجيز .. سبق ذكره ص ٤٩٥، انظر أيضاً قاموس الكتاب المقدس .

(٤) الموضع نفسه .

كانت تشمل الأراضي الممتدة إلى الشمال الغربي من دمشق.. وقد سار بقية الباحثين على منوال هليفي، ويقول واين بيتار في كتابه: دمشق في العصور القديمة ما يلي: في أيام داود كانت مملكة صوبة أقوى وأهم دولة في وسط وجنوب سوريا، وخصما عنيدا للمملكة الإسرائيلية الجديدة، أما عن موقع هذه الدولة وحدودها، فإن معظم الباحثين يضعونها اليوم في البقاع الشمالي، مع امتدادات نحو الشرق تصل إلى سهول حمص وتتجاوزها حتى البادية «.

ويتابع السواح: « لقد ورد اسم صوبة لأول مرة في سفر صموئيل الأول، الذي يذكر أن الملك شاول قد ضرب ملوك صوبة: وحارب جميع اعدائه حواليه، موآب وعمون وآدم وملوك صوبة والفلسطينيين / صموئيل أول ٤/٤٧، وهذا يعنى أن صوبه منطقة جغرافية وليست مملكة، وأن الملوك المذكورين هنا ليسوا سوى مشايخ قبائل، نظراً للإشارة إليهم بصيغة الجمع، ولكننا في عصر داود نجدها فجأة وبعد عدة سنوات عبارة عن مملكة يحكمها ملك واحد اسمه حدد عزر »

ثم يضيف « ولم تتوفر لدينا من منطقة البقاع الشمالي حتى الآن أية لقى أثرية، يمكن أن تشير إلى وجود هذه المملكة أو عاصمتها ».

ويستمر مشيراً إلى ما جاء في الكتاب المقدس في عبارة مبهمة وملتبسة تقول « فجاء أرام دمشق لنجدة هدد عزر » ويعقب عليها بالقول: « ويستنتج المؤرخون من هذه الإشارة أن مدينة دمشق كانت في ذلك الوقت تابعة لهدد عزر ملك صوبة «، « وفي المعركة مع أرام صوبه يقول النص: إن « هدد عزر قد أبرز أرام الذي في عبر النهر، فأتوا إلى حيلام وأمامهم سوبك رئيس جيش هدد عزر، وبينى المؤرخون على هذا الخبر أن ملك صوبة كانت له سلطة غير مباشرة على الدويلات الأرامية القائمة عند الفرات»^(٥).

الأمر بهذا الشكل لا يلتقى أبداً مع مملكة تقع في البقاع الشمالي إنما يلتقى مع بلاد آدوم التقاء واضحاً، لأن (خلسيس) التي أطلقها المؤرخون اليونان على مملكة صوبا هي (كلسيس) التي أطلقها المؤرخون اليونان على مملكة صوبا. يلتقى مع بلاد آدوم التقاء واضحاً، لأن (خلسيس) هي (كلسيس) و (كلسيس) تعنى (النحاس) والكلمة صوبة نفسها هي صهوبة هي بريق النحاس كما أفادنا السواح منذ قليل، وهو ما يستدعى مناخم نحاس تمنة في آدوم. أما صوبة فلا نشك أنها بقايا باهتة من المملكة الآدومية الكبرى، في حالة نزاعها الأخير بن المد والجذر، وان (صوبا) ليست سوى تنويعاً لهجويًا للكلمة (سبا)، فأرام صوبا هي (أرام سبا) على التخصيص. وإذا كانت النصوص التوراتية قد أطلقت على الجنس الأسود اسم (كوش)، فإن النصوص المصرية أطلقت عليه ذات الاسم مع اسم آخر هو (نحاسي)، وكان الحد الذي أقامه سنوسرت الثالث لمنع سكان الجنوب المصري السود الكوشيين من عبور الحدود المصرية الجنوبية، قد ذكر كالتالي: «

(٥) السواح: أرام .. سبق ذكره، ص ١٢٨، ١٣١.

الحد الجنوبي الذى أقيم فى العام الثامن .. لمنع أى (نحاسى) من المرور شمالاً «^(٦). أما الذى يلتقى معنا هنا، وما أكثر ما التقانا، فهو أن نجد لقب (نحاسى) فى بردية تورين، لقباً لأسرة من الأسرات الهكسوسية إبان الاحتلال^(٧).

ثم لا يغيب عنا معبد روعة الروائع طوال الوقت، فتستوقفنا فى تقريره عبارة تؤكد: إن رئيس بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت حمل لقب أو اسم أو صفه هى (نحاسى)؟!... لقد أرسلت حتشبسوت فى رئاسة بعثتها ترجمانا من ذات الجنس يعرف لغة البلاد التى ارتحل إليها.

أما البليغ فهو التعقيب الهيروغليفى المكتوب أمام رسوم الصف الأول فى لوحات حتشبسوت، وفى الصف الأول فى بلاد بونت يقف الملك ويقول الشرح المكتوب: «عظيم عظماء إرم»^(٨).

ثم لا يدهشنا أبداً قول جيمس العابر، الذى لا يعبر علينا دون تدقيق، وهو يقول: «لما أصبحت مصر تحت حكم الهكسوس لم يبق لها قوة فى النوبة، وانتهزت بعض القبائل المغيرة الفرصة وتسربت إلى النوبة، وكانت تجمع بين الجنس الحامى والجنس الزنجى .. واستطاعت تلك القبائل أن تكون دولة مستقلة عاصمتها بوهن.. وعقدوا حلفاً مع الهكسوس .. ويعزز هذا التقارب رسالة الملك الهكسوسى أبو فيس إلى الملك الكوشى جنوباً، حيث يبدأ رسالته بلفظة ولدى»^(٩).

وإذا كانت الكلمة (ن ح س و NEHSU) تعنى الزنوج السود فإن جذرها (نحس)، والنحاس فى العربية بفنح النون هو: ضرب من الصفر والآنية شديدة الحمرة، وهو بضم النون دخان أسود لا لهب فيه، ومنها نحش فى العبرية وهى حنش أى ثعبان فى العربية!!... لقد جمعت لنا كلمة واحدة فى اللغة، حفريات معانى قديمة عن الجنسين الأسود والأحمر من الناس، وثعبان شجر البخور.

والإله المصرى القديم (أبيب)، وينطق بالتصريف اليونانى (أبو فيس)، تسمى باسمه بعض ملوك الهكسوس القادمين من بلاد التين والبخور، وكان المصريون يرسمون أبيب فى صورة حية متلوية، تحمل فى كل طية من جسمها مدية ماضية، وتصورها تكمن لإله الشمس مع شياطينها عند المغيب. وقد وصفت النصوص المصرية تلك الشياطين التابعة للحية بأنها «شياطين سوداء وحمراء»^(١٠). وهو إشارة واضحة لسكان آدوم من الجنسين الأسود والأحمر كذلك نجد كلمة (النوبة) التى أطلقها المصريون على بلاد كوش الجنوبية تحمل عدداً من المعانى، من الجذر (ن ب)، فهو فى المصرية القديمة يدل على عدد من المعانى: كل

(٦) Wilson, J.E.A, the clature of Ancient Egypt, V.S.A, ١٩٧٥, pp ١٣٦- ١٣٧.

(٧) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ١٧٢.

(٨) عاطف عوض الله: بلاد بونت ومحاولة لتحديد موقعها، مجلة نزوى العمانية، عمان، العدد السادس، أبريل ١٩٩٦.

(٩) James. T.S, Egypt from the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I, in C.A.H, Vol II Part I

(١٠) عباس محمود العقاد: إبليس، كتاب الهلال، عدد ١٩٢، القاهرة، ص ٥١.

ما ارتفع من الأرض وهو صفة بلاد آدوم، كما يعنى أيضاً الذهب، والذهب الأحمر، وفى العربية تتبادل اللام والذال المعجمة التى تنطق فى ذهب (دهب) لتصبح لهب.

وفى العربية تلتقى نحاس ونحاسى، والنحاس والنحاس أصلاً فى المصرية القديمة هو العبد الأسود (الزنجى/ الكوشى) ، ثم تطورت لتصبح النحاس الدالة على تاجر العبيد.

وتعود العين لتجول فى مدون (تجلات بليرز الأول) ملك آشور الذى سبق وأوردناه، ويتحدث فيه عن غزوة لإقليم باسم مصرى، الذى عرفناه إقليم آدوم وسيناء، لنقرأ المدون مدققين فنجده يقول: إنه قد «
دحر هناك القبائل الأرامية» (١١).

ثم نقلب مرة أخرى ما سبق وسجلناه للفرعون (أمنحتب الثانى) وتدميره لشمس آدوم، وعودته من تلك الحملة بعدد ١٥٠٧٠ من الأسرى النجاسو^(١٢)، وقد اعتبرت كلمة النجاسو ذات دلالة غير معلومة لنا الآن، على شعب مجهول، أو طائفة بعينها لا نعلمها، فهل يمكن الآن القول إننا نعلم من هم النجاسو، فى ضوء غزوة أخرى لذات الموضع الذى عاش فيه النجاسو؟ ثم يورد لنا طه باقر أهم المنتجات التى وصلت الملك الآشورى (آشور ناصر بال الثانى ٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م)، بعد أن اكتسح البلاد الأرامية والآمورية، حتى وصل « البحر العظيم بحر الأموريين »، وهو إما البحر الأبيض أو البحر الأحمر، وقد عدت سجلات هذا العاهل الآشورى أهم السلع التى وصلتته من ذلك المكان كالتالى:

« تضمنت الجزية الذهب والفضة والقصدير والنحاس

وأنسجة الكتان .. وقردة صغيرة وكبيرة، والعاج

والأخشاب النفيسة مثل الأبنوس والبقس .. إضافة إلى

ذلك الحيوانات الوحشية .. والنباتات الغريبة .. » (١٣).

ولا تعقيب لدينا هنا سوى سؤال: أليست تلك ذات منتجات وسلع بلاد بونت؟ لاينى تقرير بعثة حتشبسوت يضىء المنطقة أمامنا، وتتفك ألغازها مع ترميزاته فى خطو بحثنا، فنعرف شعباً من بين شعبين مجهولين، وشعوب أخرى، كانوا يعيشوا فى بلاد بونت، أحدهما أحمر والآخر أسود، لنسمع سليم حسن يردد فقرة من تقرير علماء حملة حتشبسوت فى نقش يقول :

السياحة إلى الوطن والوصول بسلام، إن السياحة إلى

طيبة قد قام بها بقلب فرح جنود رب الأرضيين،

ورؤساء هذه الأرض بونت، وقد أحضروا معهم أشياء

(١١) طه باقر: الوجيز .. سبق ذكره، ص ٤٩٢

(١٢) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٢٤، ٢٢٧

(١٣) طه باقر : الوجيز .. سبق ذكره، ص ٥٠٢.

لم يحضرها من قبل أى ملك

ثم يقرأ سليم حسن أسماء الشعوب هناك ليقول لنا تعقيباً على الرسوم:

ويلى هذا مشاهدة رئيس آرام ورئيس نيميو، وهما

قبيلتين غير معروفتين من بلاد بونت. (١٤)

لكننا نعتقد أننا قد أصبحنا نعرف القبيلة الحمراء الأدومية التى تعود إلى أصول آرامية، وكانت تعرف باسمها (أرام) منذ زمن قديم بدليل وروده فى سجلات رحلة حتشبسوت إلى بلاد بونت الأدومية الأرامية. كذلك أصبحنا نعرف شعب (نيميو) فالواو جمع ومفردها (ن.م.ى) وهى بالقلب ي.م.ن، فشعب (نيميو) هو القادم إلى بلاد آدوم / بونت من جنوبى الجزيرة / اليمن .

ولمزيد من التأكد حول كون مملكة سبأ فى آدوم هى المملكة التى جاءت إليها إشارات التوراة باسم مملكة صوبية، نتابع المؤرخين وهم يحصون الدويلات الأرامية التى تأسست على أطراف كنعان / فلسطين فى القول: " إن الدويلات الأرامية التى تأسست على أطراف كنعان .. هى موآب والعمونيين وآدوم وملوك صوبية (١٥) ". وتأتى صوبية هنا ملحقة بآدوم على التجاور ومع موآب وعمون الواقعتان شرقى البحر الميت ونهر الأردن. ونعلم من مصدر آخر أن تلك الإمارات الأرامية الجنوبية قد تحالفت مع إمارات شمالية مثل مملكتى صور وصيدا لمواجهة هجوم آشورى محتمل، وضد عميل الآشوريين فى المنطقة، هو ملك دويلة يهوذا. وأن هذا التحالف قد ضم " سمس ملكة العرب .. وآدوم انضمت للتحالف، وبقيت يهوذا وحدها غير راغبة فى الانضمام " المهم هنا ألا تفوتنا الإشارة إلى (سمس) ملكة العرب، لنربطها بأصول العرب جميعاً التى تعود إلى النابتيين أو الأنباط سكان وادى عربة الذى غطى باسمه مساحات شاسعة للجنس الذى حمل بعد ذلك اسم العرب. (١٦)

ويسوق (فهى خشيم) رأياً للأستاذ (عبد الحق فاضل)، ويصفه بأنه " رأى لطيف " حول كلمة عربى وكلمة أرمى، وأنها كلمة واحدة سواء فى الدلالة التى تشير إلى بلاد صخرية، وفى اللفظ حيث يمكن تبادل العين فى (عربى) والهمزة فى (أرمى)، كذلك الباء والميم من جهة أخرى، وهو ما يعنى أن كلمة (عربى) كانت فى فجرها تنطق (أرمى)، وباختصار فالعربى هو الأرمى، ويضرب لذلك مثالا بتبادل الباء والميم فى كلمة (مكة) التى أوردتها القرآن بلفظها هذا ثم أوردتها أيضاً (بكة) (١٧).

(١٤) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٤، ص ٣٣١.

(١٥) بولس: الأراميون .. سبق ذكره، ص ١٠.

(١٦) نفسه: ص ١٤٠.

(١٧) فهى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج١، ص ٥٤.

ثم يحدثنا (مراد كامل) و (محمد البكرى) عن أول ظهور عربى صريح لمملكة عربية فى تدمر التى تقع إلى الشمال الشرقى من بلاد آدوم، ونعتبرها من جانبنا الامتداد الطبيعى للمملكة التجارية الآدومية، فيقول:

" ظهرت تدمر بهذا الاسم فى بداية الألف الثانية ق.م. وكان أهلها فى البداية من الكنعانيين، ثم سكنها جماعة من البدو من أشراف الأراميين، .. تمر بها طرق التجارة .. وقد قضى أورليان على استقلالها عام ٢٧٣م فى عهد زنبوية زوجة أذينة .. خلف التدمريون العديد من الآثار منها معبد بعل، ووجدت فى هذا المعبد أشكال لنساء محجبات .. وكانت اللغة المستخدمة فى تدمر هى الآرامية، أما القرارات العامة فدونت باليونانية والآرامية .. أما عن مملكة الأنبط فقد شملت الرقعة التى شغلتها بعض الممالك التى ظهرت قديماً منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهى آدوم ومؤأب وعمون وجلعاد، وكانت هذه كلها كنعانية وأرامية، وأول ظهور الأنباط كان فى القرن السادس ق.م كقبائل بدوية عربية، وكان ملوكهم بنى الحارث وأكثر أسماء الأعلام الواردة فى نقوشهم عربية، مثل حارثة ومالك ومليك وجذيمة وكليب ووائل ومغير وقصى وعدى وعميرة ويعمر وكعب ومغن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله " (١٨) ونستكمل من مصدر آخر يقول: " واتخذوا البتراء عاصمة لهم .. وتدخلت روما فى شئون هذه الدولة حتى قضى عليها عام ١٠٦ م القائد الرومانى كورلينوس بالما نائب تراجان فى سوريا .. واستخدم الأنباط اللغة الآرامية، وفى منتصف القرن الأول ق.م. أصبح للأنباط خطأ مميزاً ذا شكل معروف حتى أن الأحرف العربية أخذت من الحروف النبطية، ومن الآلهة التى عبدها الأنباط ذو الشرى واللات ومناة والعزى وهبل واطرجاتيس وعبادة الأفعى " (١٩).

ويتابع (خشيم) دراسته المتميزة فى المقارنة اللغوية بين الهيروغليفية والعربية لتصلنا منه الكلمة المصرية القديمة (إ أ ب I A B) وتعنى الشرق، كما تعنى اليسار لأن المصرى كان يوجه وجهه عند تحديد الاتجاهات الأصلية إلى منبع النيل مصدر الحياة (الجنوب) ومن ثم فإلى اليسار يكون الشرق وإلى اليمين يكون الغرب، ويرى أن الهمزة الأولى من إ أ ب مبدلة من العين، وذلك مثل (ك أ ب = كعب ، إن ق = عنق ، ج م أ = جمع)، وهو ما أحاطنا به امبير EMBER. ثم أن العربية أيضاً تبدل العين همزة كما فى أربان وعربان (اللسان مادة أرب)، أما الهمزة الثانية فهى مبدلة من الراء، فالأستاذ أمبير يقدم لنا معجماً لمفردات طويلة أبدلت فيها الهمزة المصرية براء عربية، وذلك مثل: ب أ ك = برك، ش أ ع = شرع، ح أ م = حرم ، وأح = ورخ (القمر)، ع أ ب = عرب، ومن ثم فإن إ = ع ، أ = ر ومعنا باء أصيلة، وهو ما يعنى أن إ أ ب IAB = عرب ، وهى كلمة تفيد الشرق (٢٠). وهذا يعنى من وجهة نظرنا الإشارة إلى وادى عربية تحديداً الذى يقع شرقى مصر.

(١٨) مراد كامل ومحمد البكرى.. تاريخ الأدب السريانى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٨.

(١٩) بولس: الأراميون .. سبق ذكره، ص ١٩.

(٢٠) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره ج ١، ص ٦٦، ٦٧.

وهنا ننبه بوضوح أن كلمة عرب، التي كانت تعنى عند المصرى القديم الشرق، لا تؤدى المعنى الذى نفهمه منها اليوم عن الجنس والقومية، لأن الحس القومى لم يبرز عند قبائل الجزيرة عشية ظهور الإسلام، أما قبل ذلك فكان فيما يؤكد لنا (جواد على) هو: البداوة والفقر والجفاف، ويستمر قائلا: "بمعنى البداوة والإعرابية إذن وردت لفظة العرب فى اللغة العبرية ولغات سامية أخرى، مثلما هو الحال فى سفر إشعيا وسفر إرميا من العهد القديم، وقد وجد الباحثون أول نص ذكر فيه العرب هو نص آشورى من أيام شلمنا صر الثالث أو الثانى ملك آشور، والمقصود باللفظة إمارة أو مشيخة يتزعمها رجل بلقب، ملك اسمه (جنديبو... / جندب...) .. واختلف العلماء فى قراءة الاسم الثانى لهذا الملك وكان واضحا أنه لقب له هذا ما بين (ARIBI, ARBI, URBI, ARABU, ARIBU). التي تعني بوضوح الكلمة (العربي).

وقد وردت فى الكتابات البابلية كلمة ماتوأربى MATU - A - RABI أى أرض العرب، وفى نقش برستون لدار الأكبر بالإخمينية جاءت لفظة أربايا (عربية ARABAYA) كذلك جاءت فى العيلامية، وفى المواقع الأرامية كان هناك موضعا باسم بيت عربية BETH ARABAYA وأول مرة ورد فيها ذكر العرب لدى الكتاب اليونانيين كانت عند اسخليوس ٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م ثم هيرودوت ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م، ... وكان معنى البداوة هو المقصود عند الحديث عن العرب .. ويذكر استرابون أن كلمة أرمبى EREMBI تعنى عرب عند البعض، ولعلها تحريف لكلمة ARABI « (٢١).

أما نحن فنتساءل: هل كانت كلمة أرمبى تحريفا لكلمة عربى، أم أنها كانت حصرية لغوية تعيش حتى زمن استرابون منذ كان العربى أرمى أو أرامى؟ لكن مالا يفوت فطن أنه عند بلاد آدوم، قامت بعد تلك الأحداث إمارة عربية استمدت اسمها من التاريخ القديم هى مملكة (الحيرة) الحورية. وفى موسوعة تاريخ العالم نجد محاولة لحصر الممالك الأرامية فى أعالي الرافدين، فتذكر لنا: بيت معكة وبيت أدين أو أدينى (أى بيت عدن / المؤلف)، وجوزان (تل حلف الآن) وجرجوم (مرعش حاليا)، وسامعل التى كانت تحمل قبل ذلك اسم هو : ياودى ثم أعيد تسميتها باسم سمعل أو بيت جبارى نسبة لمنشئها، وتقول الموسوعة أن مكانها الحالى هو سنجرلى، وكان من ملوكها حيان بن جبار وشاعول أو ساولم ونلاحظ أن مواضع تلك الممالك جميعا تقع فى محيط المنطقة المزعومة كمكان تموضعت فيه بلاد ميتانى الحورية المركزية.

الملاحظة الأولى أن اسم حيان بن جبار الذى ملك على مملكة سامعل أو ياودى، يحيل إحالة قوية إلى أشهر ملوك إمبراطورية الهكسوس الذى عرفناه باسم (حيان).

الأمر الثانى والهام والغريب، أن الكتاب المقدس رغم زيادته وتكراره وتعددته للدويلات الأرامية، بحيث ذكر دولا لم يتم الكشف عنها إلى الآن، فإنه لم يعرف مدنا أرامية كشفت عنها الآثار. نعم ذكر بعض المدن التى كشفت عنها الآثار مثل بيت أدينى أو بيت عدن كما فى قوله : " وأقطع الساكن فى بقعة أون

(٢١) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت، ج ١، ص ٢٥:١٦

وماسك القضيب من بيت عدن وينفى شعب أرام إلى قير / عاموس ١ / ٤ ، ٥ « لكنه لم يذكر مدينة شديدة الأهمية جاء ذكرها في المصادر الرافدية باسم (سمعل)، وهي ذاتها التي ذكرت على التبادل مع اسم آخر هو (ياودي)، وأن من ملوكها كان (شاعول) الذي يرد على التبادل مع (ساوالم)، فهل حقاً لم تعرف التوراة مملكة سامعل أو ياودي وملوكها شاعول أو ساوالم؟

إن ما يبدو لنا أن مملكة سامعل هذه قد قصد بها جماعة بشرية بعينها، لكن هذه الجماعة لم تعيش أبداً في شمالي الرافدين عند سنجرلي، إنما جنوباً في دولة أرام صوباً أو أرام سبأ الآدومية، وأنها كانت تمتد لتتصل بمملكة أخرى تقع إلى الشمال منها، جاء اسمها ياودي مشيراً بوضوح إلى اسم اليهودية أي مملكة يهوذا، خاصة أن تلك المملكة قد جاء ذكرها مصحوباً باسم شاول وساولم، وهما في رأينا اسمين يستقل كل منهما عن الآخر، فالأول هو شاول أول ملك لمملكة إسرائيل الموحدة أما الثاني فهو أشهر ملوك تلك المملكة ساوالم/سليمان. وأن الخلط الذي حدث بين اليهودية وسامعل ، أو الإسرائيليين و الاسماعيليين له تبريره التاريخي فيما أسلفنا، وفيما سيأتي ناصعا في حينه.

وتشير المادة التاريخية المكتشفة في المدونات الرافدية إلى إقليم وصف بأنه أرامي، وأنه كان يحمل اسم لاق، وأنه كان تابعا لمملكة بيت عدن ^(٢٢)، وهو ما يستدعي اسم العمالقَة واحتمالاً آخرًا للتسمية، فبإضافة (عم) بمعنى شعب أو أبناء إلى (لاق) تصبح (عملاق).

هكذا يمكن استنتاج أن الأراميين هم الشعب الذي حمل صفة الجنس الأحمر في بلاد آدوم، بكافة بطونه المذكورة آنفاً، وهو الذي ظهر في نقوش رحلة حتشبسوت إلى بلاد بونت، إلى جوار جنس آخر يختلف عنه تماماً، جنساً زنجياً نحاسياً، وموطنه معلوم بالمستودع الأفريقي على الساحل الأفريقي المقابل لليمن، والذي وصل آدوم بصحبة القادمين من الجنوب إلى الشمال في شكل مستعمرات تجارية استقرت شمال غربي جزيرة العرب.

وكان طبيعياً أن تتزاوج الثقافات كما تزوجت الأجناس، فتظهر اللغة الحورية التي ظلت مشكلة ولغزاً بلا حل، في أصلها، وأصحابها، وأنها لغة تحمل سمات مشتركة بين السامية والهندوآرية والهامية، وهي الاشكاليات التي انسحبت على جنس الهكسوس وانقسام علم التاريخ حوله إلى رأيين يرفض كل منهما التنازل للآخر. الأول يقول إن أصلهم سامي من جزيرة العرب، والثاني يرى أن أصلهم هندوآري بلا جدال، وكل لديه حججه وبراهينه. أما المشكل حقاً الذي ظل مستعصياً على الفهم ناهيك عن الحل، فهو إشارات الكتاب المقدس إلى وجود الجنس الزنجي الكوشي بكثافة ضخمة في مناطق جنوبي إسرائيل بالنقب وسيناء وآدوم. كذلك أشارت إليه الكتابات التاريخية الاغريقية الكلاسيكية، وقالت أن Kissians يسكنون شرقي المتوسط، وتعنى الكوشيون، ثم جاء بطليموس المؤرخ ليؤكد من جانبه أن Kossaeans كانوا يتموضعون في

(٢٢) بولس .. الأراميون .. سبق ذكره، ص ١٦.

تلك المنطقة، وتم إهمال تلك الإشارات لاستحالتها التاريخية. لقد كان وجود الأفارقة الزنوج بكثافة كجنس يسكن مواضع ما شرقي المتوسط مشكلة إما مهمة أو لغز يطلب حلاً.

ومثال للحلول المتسارعة والسهلة ذلك الحل الذي اعتمد على أن الكتابات التاريخية والدينية التي كانت تتحدث عن منطقة شرقي سيناء وجنوب فلسطين، كانت تبدأ الحديث عن العمالة لتنتهي إلى الكوشيين، فاعتبرت العمالة هم الكوشيين، لكن ذلك الربط السريع وقف حائراً ما بين الأصل السامي والأصل الهندوآري، بذلك رأت تلك الحلول العجلى أن هناك عمالة كاسيين أو كاشيين جاءوا من الشمال الآسيوي، من عند أعالي الرافدين، وعمالة كوشيين جنوبيين، ذاك هندوآري وهذا سامي، وذلك كما في قول (غطاس الخشبة): " والأصل في الجابرة: العمالة من الناس.. طائفتان: العمالة الكوشيون وكانوا يقطنون أعالي دجلة والفرات بين النهرين، وهم من نسل نمرود ابن كوش بن حام بن نوح، وهؤلاء كان البابليون القدماء يسمونهم ماليق، ثم تفرقوا في أنحاء العراق وجزيرة العرب، ثم العمالة السوريون من نسل عوص بن أرام بن سام بن نوح وهؤلاء هم الأخص عند العرب باسم الماليق، وكانوا يقطنون أرض قادش جنوب فلسطين " (٢٣).

وفي هيرودت خبر يذكر حادثة إرسال قميز الفارسي رسلاً إلى أثيوبيا، وعودة هؤلاء الرسل للشعب الأثيوبي بالوصف التالي:

" إن الأثيوبيين الذين ذهب إليهم أولئك السفراء، أطول الناس في العالم كله وأكثرهم أناقة، كما أنهم يختلفون عن سائر البشر في عاداتهم خصوصاً الطريقة التي يختارون بها ملوكهم، فهم يبحثون عن أطول رجل بين جميع المواطنين، على شرط أن تتناسب قوته مع طوله، ثم يعينونه ملكاً يحكم عليهم " (٢٤). والغريب أن ذلك المبدأ ذاته هو ما عملت به مملكة إسرائيل الموحدة من بعد. أنظر مثلاً تولية أول ملك إسرائيل باسم (شاو)، وسر اختياره ملكاً " شاو شاب وحسن ولم يكن في بني إسرائيل أحسن منه، من كنفه فما فوق كان أطول من كل الشعب / صموئيل أول ٩ / ٢ ".

أما أن نجد في الآثار الهكسوسية مفردات لغوية حامية، ومفردات من أصول هندوآرية، ومفردات سامية، ثم أسماء أعلام من كلا اللغات المتباعدة، فكان بدوره مشكلة مؤرقة مستمرة غير محلولة. لذلك رأى فريق أن الهكسوس جاءوا من براري آسيا استناداً إلى الهندوآرية، وأن محطتهم الأولى كانت حول محيط بحر قزوين ومن هناك انحدروا جنوباً على الشرق الأوسط، أما الفريق الآخر فيراهم عرباً أقحاحاً قدموا في هجرة كبرى من جزيرة العرب. حتى أصبح الساميون أنفسهم كعرق وكلغة محل تضارب شديد، فتأتى بهم جلة محترمة من المؤرخين، من المستودع الصحراوي الكبير في جزيرة العرب، بينما تأتى بهم جماعة أخرى من المؤرخين لا نقل احتراماً من بلاد أرمينيا حول بحر قزوين.

(٢٣) غطاس الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ١٣٥.

(٢٤) إيفانز: هيرودت، سبق ذكره، ص ١٢٠، ١٢١.

وإعمالاً لذلك نجد لدينا مذهباً يرى شبه جزيرة العرب مهداً أولاً لكل الشعوب السامية، ويمثله شبرنجر Sprenger وشرادر Schrader^(٢٥). والعلامة كيتاني Coetani الذى يرى أن كل حضارات الهلال الخصيب من العراق إلى الشام الكبير إلى ساحل المتوسط الشرقى حضارات سامية، حدثت نتيجة نزوح الفائض من بدو جزيرة العرب إلى الشام. ويؤيد كيتاني فى مذهب العلامة موسكاتى. وبعض أصحاب هذا المذهب يفترضون أن جزيرة العرب كانت فى زمن موغل فى القدم أكثر خصوبة ثم أصابها الجفاف، مما أدى إلى هجرة سكانها إلى وديان الأنهار والسهول الشمالية فى الشام والعراق، إلا أن موسكاتى نفسه يرفض مثل تلك التفسيرات التى ليس عليها شواهد علمية، بل أن تلك الشواهد تؤكد أنه إذا كانت مثل هذه التغيرات الطبيعية الكبرى قد حدثت، فكانت قبل فجر التاريخ بقرون طويلة وربما تعود إلى أبعد من مئة ألف عام قبل الميلاد، وتأسيساً عليه فإن مثل تلك الافتراضات خاطئة تماماً بمقاييس الأنثروبولوجيا الطبيعية والجغرافيا الجنسية^(٢٦).

وعلى الخط الآخر النقيض تماماً نجد اتجاهاً آخر يأتى بالجنس السامى من أرمينيا بالاستناد إلى ترميزات الكتاب المقدس، الذى يعيد الأصول البشرية السامية إلى أرفكشاد Arpachsad / تكوين ١٠/٢٢ - ٢٤، وهو اللقب التاريخى لبلدة Arrapachitis المسماة اليوم البك Albak بأرمينيا. مع ترميزات أخرى تشير بالكتاب المقدس إلى بداية الأصول البشرية من نوح، والترميز هنا تقول إن السفينة النوحية قد رست على جبل باسم أرارات. ولا زال هذا الجبل بنفس الاسم يقع بأرمينيا عند بحيرة فان بالمحيط الجنوبى لبحر قزوين .. وهو ما يعنى مجيئ السامى والهندو آرى من موطن واحد، هو بلاد أرمينيا القديمة^(٢٧).

وقد انسحب ذلك التناقض حول الأصول على الشعب الأرامى، فرغم الأصل الإسمى الواضح للأراميين، حيث أرم = أرب التى تحيل إلى (أرب - خيتيس) أو أرابخيتيس فى أرمينيا، وحيث عثر هناك على كتابات باللغة الأرامية القديمة، وحيث لم تزل توجد جماعات هناك تتكلم الأرامية القديمة حتى اليوم، ناهيك عن اسم أرمينيا نفسه كشاهد على موطن الأراميين. فإننا نجد عالماً حجة مثل كريلنج يلتبس عليه الاختلاط الجنسى الناتج حسب نظريتنا عن التقاء شعوب آدوم فى أحلاف أو أخلامو وما نتج عنه من اختلاط ثقافات ولغات، فيؤكد سامية الشعب الأرامى حتى أنه يعيدهم إلى بلاد نجد بجزيرة العرب، ويأخذ من المدونات التاريخية اسمهم القبلى الذى اشتهروا به وهو سوتى، وهو ما رأيناه ليس دلالة مكانية جغرافية، إنما نسبة للإله (سيت) المصرى^(٢٨). أما (دى بنسومير Du Pont - Sommer) فيرى أنه ليس هناك أى دليل وثائقي حقيقى يقطع بموطن الأراميين الأصلي^(٢٩).

(٢٥) تيودور نولدكه: اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٣، ٢٢.

(٢٦) لويس عوض: مقدمة .. سبق ذكره، ص ٢٤.

(٢٧) نولدكه: اللغات السامية .. سبق ذكره، ص ٢٣، ٢٢.

(٢٨) Kraeling. E.G, Aram and Israel, New York, ١٩١٨, p١٥ - ٢٠.

Les Armeens, Paris, ١٩٤٩, p. ١٥

(٢٩) دى بنسومير فى

والمعلوم أن منطقة فلسطين ومحيطها عموماً ومنطقة آدوم بشكل خاص وبلاد الشام بشكل أعم، قد تعايشت فيها أجناس عديدة ولغات مختلفة لم تنصهر معا إلا بعد مرور وقت كاف، وانتهينا إلى القول بسيادة اللغة الكارية بسيادة الأرامية المتطورة، وهو الأمر الذى كثيراً ما حدث فى التاريخ، وقد نبه لويس عوض إلى مثل ذلك بقوله: « إنه فى الشعوب المستقرة تتعايش اللغات داخل القومية الواحدة، وتتعايش الأجناس والسلالات داخل القومية الواحدة، بل وتتعايش الأديان داخل القومية الواحدة » (٣٠).

والقومية الواحدة فى حال نضوجها تصاحبها دولة مركزية واحدة، وهو بالضبط ما نظنه قد حدث فى آدوم ومدينتها الرائدة (الصخرة)، وأنها لم تكن فقط مجرد دولة مركزية، بل كانت مركزاً رئيسياً لإمبراطورية عظمى امتدت من المحيط الهندى جنوباً حتى تركيا شمالاً، ومن العراق شرقاً حتى حدود مصر الليبية غرباً، وشملت ضمن ما شملت جزر البحر المتوسط. وهى الإمبراطورية التى أطلق المصريون على زعمائها اسم الهكسوس وكما يفسر لنا كيف خضعت مصر لسيادتهم، فهم لم يكونوا شرانم بدوية كما يصورهم علم التاريخ، بقدر ما كانوا قوة لها مركزها التأسيسى الجغرافى، لقد كانوا إمبراطورية تجارية كبرى، تليق باحتلال بلد عظيم كمصر.

ووفق هذا الطرح يمكن تفسير السر فى التضارب الهائل فى إثنيات سكان فلسطين وآدوم وسيناء وتعدد أعراقهم ولغاتهم، ذلك التضارب الذى نعلمه من وثائق علم التاريخ ومن الكتاب المقدس، وهو التضارب الذى لحق بمحاولة البحث عن الأصول الأرامية. فالأراميين عند البعض قادمين من الشمال الأرمينى، وعند البعض الآخر أنهم جاءوا من جزيرة العرب، لكن ما نعلمه الآن بعد ما قدمنا وعدنا وزدنا، أن المنطقة قد حوت عدداً من الأجناس أبرزه الأسود الزنجى الحامى القادم عبر مضيق باب المندب والبحر الأحمر بادئاً بالتواصل مع سكان جنوب الجزيرة ثم ممتداً معهم حتى معان المصرية، ليلتقى بالآرى القادم من الشمال الأرامى ممثلاً فى الأراميين الهندوآريين، لتقوى المملكة التجارية ويستفحل شأنها فى حلف الأخلامو، وتتضم إليها ممالك المنطقة تكسبا، أو تخضع لها بالقوة، ليصلوا أوج قوتهم فى جيوش هائلة فى أحلاف تكتسح المنطقة وتقيم فيها إمبراطورية كبرى، حتى وصل الائتلاف حداً تعلم معه أنه قد تم تنصيب حاكم على بلاد بابل يعرف باسم (نمرود)، وأن نمرود هذا كان كوشياً زنجياً أسوداً (٣١).

لقد بدأت آدوم مركزاً لتجمع شرانم من الشمال ومن الجنوب طلباً للرزق التجارى، عبر تواصل المركز مع محطات الأطراف، فى المساحة الشاسعة الواقعة ما بين أرارات شمالاً واليمن جنوباً، لتتوحد فى النهاية وتشكل تياراً جارفاً يضم تحت جناحيه المنطقة جميعاً.

وأن ترتبنا للأحداث على هذا النحو يفسر لنا سر الاعتقاد الطريف لكنه الراسخ لدى الأحباش الزوج اليوم، فهم يعتقدون جازمين، وهو اعتقاد يدخل فى عداد الإيمان الدينى، أنهم أبناء لرجل أبيض هو منليك.

(٣٠) لويس عوض: مقدمة - سبق ذكره، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٣١) انظر مادة نمرود بقاموس الكتاب المقدس.

ومنليك هذا هو ابن الملك الإسرائيلي سليمان، نتيجة علاقة جسدية له مع ملكة سبأ. وقد كانت تلك القصة تدخل في عداد الأساطير لعدم إمكان هذا التواصل أصلاً، حيث كان معتقداً أن سبأ قامت فقط في الجنوب اليمنى، ثم تم رفض تحقيق القصة تماماً لأنه ما العلاقة بين فلسطين والاسرائيليين وبين الجنس الحبشي الأسود لكن في ضوء ما قدمنا تصبح القصة مفهومة فلا يفرق الأحباش بين أصولهم البعيدة وبين سبأ في الجوار عبر المنذب، كانا حلفاً متوحداً قطن شمالاً عند العقبة بجوار مملكة سليمان، وهناك كان بالإمكان حدوث لقاء أو تحالف تاريخي تم الترميز له بعلاقة سليمان بالملكة (سبأ). وتقول القصة الحبشية أن منليك هذا قد أصبح السلف البعيد لسلسلة من الأباطرة الأكابر حكموا إمبراطورية كبرى، ثم تضاعل ملكهم مع الأيام حتى اقتصر على بلاد الحبشة. وأنه من هذا النسل العظيم كان الإمبراطور هيلاسلاسى الذى لقب نفسه بلقب ينسبه إلى جنسه الأبيض البعيد، فحمل لقب (أسد يهوذا). لقد حملت القصة في ترميزها أصولاً كشفنا عنها في تزواج النحسى الكوشى والقحطانى أو القبطانى اليمنى الجنوب جزيرى مع الشعب الهندوآرى القادم من أرمينيا، وتقيم الشعوب الثلاث مع التهجين المصرى الحامى في بلاد صخرة الشرق الإمبراطورى فى آدم، ليترك اجتماعها بصمتها فى التوراة وهى تؤكد أن أجناس البشر الأوائل كانوا ثلاثاً: (حام وسام ويافث) وأنهم كانوا يجتمعون فى مكان واحد تفرقوا منه بعد ذلك على سطح البسيطة.

ومن جانبها كانت التوراة تؤكد طوال الوقت على الأصل الأرامى للقبيلة الإبراهيمية، ممثلة فى آبائها الأوائل الأبعد، وتردد: " أراميا تائها كان أبى "، لكنها وضعت فى مصهر التاريخ الجنسين العربى والعبرى فأعادت كليهما إلى أب واحد هو عابر، حتى حملت الأسماء ذلك التلازم على الوجهين بالتبادل الميتاتيزى، لأن عبرى بالقلب هى عربى، وبذلك وضعتهما فى بوتقة واحدة، كان سببه ومكانه الدولة المركزية الكبرى فى بلاد آدم، الملتقى التجارى والجغرافى للجهات الأصلية الأربع .

ثم تأتى الكشف الأركيولوجية لتؤكد صلة الشعب الإسرائيلى الإبراهيمى العبرى بالقبائل الأرامية، فى النصوص التى اكتشفت فى مدينة مارى الأرامية القديمة، فيقول لنا كاسيدوفسكى: " إن أسماء المدن المذكورة فى النصوص تلك: ناحور، تارحى، ساروج، تاليكى. تتشابه مع أسماء أقارب إبراهيم، زد على ذلك أن هذه النصوص تتحدث عن قبائل أبام رام، ويعقوب إربل، وعن قبيلة تدعى بنيامين .. ومما لاريب فيه أن إبراهيم نفسه وحفيده يعقوب وأصغر أبناء هذا الأخير بنيامين لهم علاقة مباشرة بأسماء هذه القبائل " (٣٢).

وفى زمن أحدث، حدثت هجرات يهودية إلى مصر، إبان الحروب التى خاضتها دولة يهوذا مع جيرانها، وأقام المهاجرون لأنفسهم جيتو خاص فى ألفنتين عند أسوان بجنوبى مصر، وهنا يعقب باحث مهتم على الوثائق التى تركتها الجالية اليهودية فى جنوبى مصر بقوله:

" من العسير معرفة الأرامى من اليهودى، فبعض

الأشخاص اعتبروا أنفسهم تارة آراميين وتارة أخرى

(٣٢) زينون كاسيدوفسكى: الأسطورة والواقع.. سبق ذكره، ص ٥٥، ٥٧.

يهوديين، وخاصة فى البرديات المدونة فى عصر
مبكر، ومن هؤلاء محيسة بن يدينة، فقد ذكر فى بعض
البرديات أنه أرامى من أسوان، وفى برديات أخرى أنه
يهودى من ألفنتين، كذلك مسلم بن زكور ذكر فى
بعض البرديات أنه أرامى من أسوان وفى برديات
أخرى أنه يهودى من ألفنتين، وأيضاً عنتى بن حجى
بن مسلم، ذكر فى إحدى الوثائق أنه أرامى من ألفنتين
وفى وثيقة أخرى أنه يهودى " (٣٣).

وهنا نستعيد أبيات المتنبي عن (شعب بوان) مرة أخرى وهى تقول:

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

وقد قيل فى تفسير تلك الأبيات، أنه كان يصف موضعاً فى بلاد فارس، باسم (شعب بوان)، ونحن
نعلم أن بلاد بوان أو بونت / آدوم، قد جمعت فى دولتها الهندو آرى فارسى الأصل مع الكوشى زنجى
المنبت مع الجنوب جزيرى. ثم لنتذكر المناسبة الخاصة التى قال فيها المتنبي شعره هذا، فقد غضب من
سيف الدولة الحمدانى عندما أهمل قدره، فتركه مغاضباً وذهب إلى مصر يمتدح حاكمها آنذاك كافور
الاخشيدي. لكنه لقى هناك ما هو أسوأ، فخرج من مصر عائداً إلى الشام مصالحاً سيف الدولة ومغاضباً
لكافور، وألقى بين يدي سيف الدولة تلك القصيدة التى يذكر فيها موضعاً مر عليه فى رحلته من مصر إلى
الشام. موضعاً تلتقى فيه بقايا ألسن قديمة متعددة مختلفة، وبقايا أجناس متباعدة، تعبر عنها أبيات أخرى
بالقصيدة تقول:

مغانى الشعب طيباً فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وقصد بالدنانير التى تفر من البنان ضوء الشمس المتسلل داخل أيك شعب بوان

ليطبع على ثيابه ما يشبه الدنانير، لكنها تفر من اليد، وهو ما دفع سيف الدولة ليقول له مع عطائه
إعجاباً بشعره: " والله لأقرنها فى يدك - يقصد الدنانير " (٣٤).

(٣٣) بولس: الأراميون .. سبق ذكره، ص ٣.

(٣٤) ديوان المتنبي: تحقيق عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٥٥٧، ٥٥٨.

إن ما يمكن فهمه من هذا أن شعب بوان حتى زمن المتنبى كان جنة، كان لم يزل أيكاً وغيضاً، وكان يحمل اسمه القديم بوان أو بونت، وكان ما زال يجمع بقايا الأخلامو الذين لو سار فيهم سليمان على قدرته الأسطورية في فهم اللغات، ومحادثة كل الكائنات، لاحتاج هناك إلى ترجمان، هذا إذا لم نكن قد أخطأنا في تحديد موقع شعب (بوان). وعلى أية حال فهو قرينة واحدة ضمن مئات من القرائن التي قدمناها، فإن فرت من بين أيدينا فرار الدنانير فلا أسف عليها ولا تثريب علينا.



شكل رقم (٦٣)
بجوار هذا المعبد (معبد إيزيس) بجزيرة فيلة عاشت الجالية اليهودية الآرامية

العامو أو العموريون

اسم الأحلاف الجامع

فى حديث ملتبس يقول لنا المؤرخون : " لقد بينت الدراسات اللغوية للنصوص المسمارية التى اكتشفت فى إرشف ملك مارى، أن منشأ اليهود قريب من الأموريين، وفى الزمن الغابر اندفعت من منطقة الخليج العربى باتجاه الشمال موجة عارمة من القبائل الأمورية المهاجرة .. حيث طردت السومريين وشغلت منطقة ما بين النهرين كلها تقريباً. ولقد أقام الأموريون على اطلال الدول الصغيرة التى أخضعوها - دولهم العديدة التى ما لبثت أن توحدت كلها فى دولة كبرى واحدة، كان حمورابى أعظم ملوكها، وفى زمن متأخر غزت بلاد الرافدين فى الشمال قبائل غير سامية الأصل. واضطرت القبائل السامية المطرودة أمامها أن تنزع إلى الجنوب الغربى [أى باتجاه فلسطين وآدوم/ المؤلف] وأثناء هذه الهجرة الجديدة استوطن الآراميون سورية، وسكن الموآبيون والعمونيون والآدوميون فى جنوب وشرق أرض غزة وبعد فترة جاءت إلى هنا قبيلة الإبراهيميين " (١)

ثم نجد تقارباً فى زمن ظهور الكنعانى والأمورى وتتطابق أيضاً عمورى، فى القول التاريخى " إن الكنعانيين والأموريين الذين ينتسبون إلى ربهم أمورو قد هاجروا من شبه جزيرة العرب إلى الشام عام ٢٥٠٠ ق.م . واستقر الكنعانيون فى الساحل بينما استقر الأموريون فى الداخل " (٢)

ولما كانت الدراسات اللغوية تفيدنا بأن الرافدى وبخاصة الآشورى كان ينطق حرف (ع) أقرب إلى الهندوآرية (أ)، فإن الإله (أمورو) هو فى السامية الغربية (عمورو) أو (حمورو) ، أى الحمار، والأحمر ، وإليه كاله انتسب الملك البابلى باسمه (حمورو - أبى) أى (الحمار أبى) أو (الأحمر أبى) ، فلا فرق.

والأهم هنا ذلك الإتجاه الذى ينزع إلى تنسيب الإسرائيلى للعنصر الأمورى أو العمورى أو الحمورى. ويبدو أن حرف (م) قد أهملت بالتخفيف فى (حمورى) لتصبح (حورى)، فكليهما كما نعلم بمعنى واحد هو الأحمر والحمار (وربما كانت لكلمة حوري علاقة بكلمة حوزي أى سائس الحمير). وقد ورد فى رسائل تل العمارنة إشارات إلى جنوبى بلاد الشام (فلسطين) باسم KHAKHNI وهى ما تعنى الصبغ الأحمر القرمزى بدورها، ثم وردت فى ذات الرسائل الإشارات إلى القسم الشمالى من بلاد سوريا باسم بلاد (أمورو) (٣).

(١) زينون كاسيدوفسكى: الأسطورة .. سبق ذكره، ص ٥٧

(٢) يوسف سامى: تاريخ فلسطين .. سبق ذكره، ص ٢٥

(٣) أحمد سوسة: العرب واليهود .. سبق ذكره، ص ٩

ومن جانب آخر نعرف فى مختلف الكتابات التاريخية، والكتابات المقدسة التوراتية أن منطقة الشمال السورى كانت بالتأكيد بلداً أرامية، ومع ذلك تشير إليها الكتابات المصرية باسم (أمورو) أى أنها كانت بلداً أمورية أيضاً .

ولا نندهش أبداً عندما نجد التاريخ ينقسم برجاله على نفسه، فبعد أن قال لنا بعضهم منذ قليل إن الأموريين قد قدموا من جزيرة العرب، فإن البعض الآخر يقول: " إنهم قد وصلوا حوالى ٢٦٠٠ ق.م مما وراء القوقاز ، كما تدل على ذلك أوانى الخزف ذات الطابع الجديد والتي عثر عليها فى خربة كرك .. وكانت أقوى موجات هذه الغزوات هى موجة الأموريين .. وعلى الرغم من أن الملك شوسن SHU SIN ٢٠٤٨ - ٢٠٣٩ ق.م كان قد بنى خط دفاع عن بلاده، فإن إحدى الرسائل الموجهة إلى خلفه أبى سين IBBI-SIN ٢٠٣٩ - ٢٠١٥ تعلمنا أن الأموريين = مارتو MAR-TU بقضهم وقضيضهم قد اخترقوا البلاد واستولوا على قلاعها الكبرى واحدة تلو الأخرى. إن نصوص هذا العصر تترجم هذا الرعب الذى ساد المنطقة أمام أناس لم يكونوا يعرفون زراعة القمح ولا المنازل ولا المدن، وتصف لنا أسطورة زواج أمورو - الإله الذى سمى باسمه الأموريون - .. الذى ينبش الأرض بحثاً عن الكمأ فى سفوح الجبال، ولا يعرف كيف يثتى ركبتيه .. ولا يملك بيتاً طيلة حياته ولا يدفن بعد موته. ولم يكن الذعر بأقل من ذلك على الطرف الآخر من الهلال الخصيب، ففي مصر شيد الفرعون امنحات الأول ١٩٩١-١٩٦٢ ق.م خطاً من القلاع الحصينة هو حائط الأمير .."

ويحيطنا هؤلاء علما أن كلمة (أمورى) تعنى عند أهل الرافدين عدة معانى منها (الغرب)، فالأموريين بالنسبة للعراقيين هم أهل الغرب (٤)

وهنا نسمع (كوبر) يحدثنا فيقول : إن تلك القبائل الأمورية اشتهرت فى رسائل مدينة مارى باسم SUTIUM التى ترجمناها من جانبنا السيتيين نسبة إلى الإله سبت، وأنهم عنصر سامى غربى بالنسبة لأهل العراق الساميين الشرقيين، وأن هؤلاء السيتيين قد عبدوا آلهة أهمها: داجون ويشكر، أو كما قرأناه نحن إله الحرف المصرى (سوكر) أو (شوكاريس) إله موتى مدينة منف، كما عبدوا إلهها باسم (سومو)، والمحمتمل لدينا أنه يشير إلى السلف البعيد المعبود (سام)، كما عبدوا الإله البعل باسمه (حداد) (٥).

أما مدينة مارى فقد جاء فى رسائلها ما يفيد أن هناك معارك طاحنة كانت تدور بين ملك حلب، وبين قوم ذكرهم باسم (بنى يمين) (٦)، ولا يفوتنا هنا التنبيه إلى أن (بنى يمين) اسم يلتقى تماماً مع اسم السبط الإسرائيلى (بنيامين).

(٤) روجية جارودى: فلسطين أرض .. سبق ذكره، ص ٧٥، ٧٦

(٥) Kupper, Les Nomades en mesopotamie au Temps der rois de rori, ١٩٥٧

انظر أيضاً: طه باقر الوجيز .. ص ٤١٠

(٦) على القيم: المرأة فى حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالى دمشق، ١٩٨٧، ص ٩٢، ٩١.

و(بنى يمين) تعنى فى التوراة، كما تعنى بالضبط فى نصوص مارى: سكان الجنوب، والجنوب هو النقب وكلمة جنوب تستخدم فى الكتاب المقدس للدلالة على النقب، حيث كان المركز الرئاسى للأخلامو حسب فروضنا، ويرى الباحث (عطاس الخشبة) أن الأمورى والحمورى لفظ واحد متعدد المعانى ومن تلك المعانى (الشديد) ^(٧)، والشدة هى العملة والقوة، وكان الإله الإسرائيلى زمن البطرك إبراهيم يحمل لقب (إيل شداى)، أى الإله شداى، وبتخفيف حرف (د) فى شداى يصبح (إيل - ستاى) أى الإله ستاى، أو كما ذهبنا نحن الإله ست.

أما السور الذى بناه (شو - سين) لصد الهجوم الأمورى فقد سمى (مورق تدنم) أى السور الذى يصد الأموريين، وكان طوله ٢٦ بيزو أى فى حدود ٢٧٥ كم، لصد سكان بواى الشام وسمى سكانها الغربيين أو الأموريين ^(٨). هذا فى الوقت ذاته الذى كان المصريون يقيمون على حدودهم الشرقية عند بواى الدلتا سوراً مماثلاً باسم (سور الأمير الذى يصد الآسيويين وعابرى الرمال).

هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد الكتاب المقدس يحدثنا عن الأموريين باعتبارهم قوم ينتشرون فى فلسطين غربى نهر الأردن وشرقية فى بواى الشام، بل فى آدوم وفى سيناء، وفى إشارات كثيرة ومتعددة، نقتطع بعضها هنا.

يصف الكتاب المقدس بلاد فلسطين جميعاً كأرض موعودة لبنى إسرائيل، يقول الرب لشعبه:

وأنا أصعدتكم من أرض مصر، وسرت بكم فى البرية
أربعين سنة، لثرتوا أرض الأمورى

عاموس ١٠/٢

ثم يفيدنا أن جبال سيناء وآدوم وفلسطين كانت جبالا أمورية، وذلك فى قوله على لسان موسى وهو يخاطب شعبه فى قادش سيناء:

ثم ارتحلنا من حوريب [اسم للجبل المقدس فى شبه
جزيرة سيناء/ المؤلف] وسلطنا كل ذلك القفر العظيم
المخوف الذى رأيت فى طريق جبل الأموريين كما أمرنا
الرب وجئنا إلى قادش برنيع.

تثنية ١ / ٩

وقد سبق وعلمنا أن قادش برنيع تقع أقصى شرقى سيناء على حدود آدوم ، وها هو المقدس يعود ليصف جبال تلك المنطقة السينائية بأنها (جبل الأموريين). وسنجد الكتاب المقدس يصر على ذلك فى عدد

(٧) عطاس الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ٧٨.

(٨) طه باقر: الوجيز .. سبق ذكره، ص ٣٩٢.

آخر من النصوص، كما فى حديثه عن العبور على جبال آدوم، فوردت مرة باسم جبال آدوم كما اسلفنا فى نصوص توراتية عديدة، وذات الجبال تأتى هنا مرة أخرى باسم جبال الأموريين، أنظر معى إلى موسى يقول لشعبه:

الرب إلهنا كلمنا فى حوريب قائلاً: كفاكم قعوداً فى هذا الجبل، تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين، وكل ما يليه من العربة [أى وادى عربة / المؤلف].

تنثية ٦/١

هذا عدا نصوص عديدة تشير إلى جبال آدوم وفلسطين باعتبارها مسكناً للأموريين، وعادة ما ذكرت حديثها حول سكن الأموريين الجبال كما فى النص :

جميع ملوك الأموريين الساكنين فى الجبل

يشوع ٩/١٠

ولتحديد موضع ذلك الجبل الذى يسكنه الأموريون نقرأ عن تمرد الإسرائيليين على قائدهم موسى فى سيناء بعد الخروج من مصر، وكيف وقف يقول لهم موسى فى قادش سيناء:

وقلتم: الرب بسبب بغضه لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدى الأموريين لكى يهلكنا. إلى أين نحن صاعدون؟ قد آذاب إخواننا قلوبنا قائلين: شعب أعظم وأطول منا، مدن عظيمة محصنة إلى السماء، وأيضاً رأينا بنى عناق هناك.

تنثية ١ / ٢٦ - ٢٨

النص كما هم واضح - مع النصوص السابقة - يفصح عن الأموريين كشعب يسكن جبال جنوبى فلسطين، وأنه شعب طويل القامة عظيمها، ومدنه محصنة ترتفع نحو السماء، وأن فى هذا الجبل يسكن بنوعناق العناقين العمالقة.

ويتكرر النص الذى يحكى عن الموقعة ذاتها فى موضع آخر من التوراة، لكنه يستبدل العمالقة باسم آخر، إذ يقول موسى وهو يتذكر ويذكر شعبه عند استقرارهم الطويل فى محطة قادش سيناء، على تخوم آدوم، محدداً موقع الموقعة على حدود جبال سعيير الآدومية:

فكلمتكم ولم تسمعوا؛ بل عصيتم قول الرب وطغيتم وصعدتم الجبل، فخرج الأموريون الساكنون فى ذلك الجبل للقائكم، وطرّدوكم كما يفعل النحل، وكسروكم فى سعيير

إلى حرمة، فرجعتم .. وقعدتم فى قادش أياما كثيرة كالأيام
التي قعدتم فيها.

تنبيه ٤٣/١ - ٤٦

وفى زمن الفرعون المصرى ستى الأول نشاهد ضمن المنحوتات البارزة فى معبد الكرنك (فى طيبة /
الأقصر حالياً) مشهدا يصور حصاراً لمدينة قادش العاصى، ويشير إليها باسم البلاد الأمورية حيث دون
تحت النقش نصاً يقول: « صعود الفرعون لتدمير قادش وبلاد أمورو » ، وقد تم العثور هناك على حجر
تذكارى للفرعون سىتى يؤكد صدق المدون الطبى^(٩).

وسيراً على خطنا نعود إلى لغة العرب، نستطرق لسانها ما حواه من ذكريات الماضى وحفائر المعانى
الدارس منها والباقي، حول شأن بلاد أدوم الحورية الكوشية الأرامية الأمورية (أو العمورية أو بنى عمرو)
السوداء الحمراء البيضاء، بلاد المعز والخيل، ومدينتها الثانية حويلة العريشة، ومدينتها الأولى المنبسطة فى
سهل تحرسه أعلام سعير باسم الصخرة، بأيكها المضى وثعابينها الطائرة ووحشها المعبود عناق البونتى ،
الذى انتسب إليه عمالقتها بالنسب والبنوة، فنجد فى لسان العرب ونحن نبحت عن الحوريين تحت مادة حرر:

الحررة .. هى التى أعلاها سود وأسفلها بيض ، والحر حية ..
وزعموا أنه الأبيض من الحيات .. والحر طائر .. وحر زجر
للمعز

وتحت مادة حور نقرأ:

الحور أن يشد بياض العين وسواد سوادها، والحور شدة سواد
المقلة فى شدة بياضها .. وقال كراع : الحور أن يكون البياض
محدقاً بالسواد .. والأحورى الأبيض الناعم.. والحور الأديم
المصبوغ بحمرة .. وقال الجوهري: الحور جلود حمر ..
والحائر المكائن المطمئن يجتمع فيه الماء فيتحير فلا يخرج
منه.. وتحيرت الأرض بالماء إذا امتلأت .. وطريق مستحير
يأخذ فى عرض مسافة لا يدرى أين منفذه، .. والحارة كل
محلة دنت منازلهم فهم أهل حارة .. والحير بالفتح شبه
الحظيرة.

هكذا تحمل كلمة (حور) فى طياتها ذكريات أيام أوائل، ونحن نعلم أن العربية تطورت عن النبطية التى
تطورت بدورها عن الأرامية، وأنها جميعاً تداخلت مع لغات المنطقة وبخاصة المصرية، لذلك نجد مادة حور

Wilson. J.A, Egyptian Historical texts in James Pritchard

(٩)

Ancient Near Eastern Texts, p ٢٧.

تعطينا الأحمر أو الأبيض مع الأسود دوماً، ثم الحور هو الأديم والأديم هو تراب الأرض الأحمر، ومنها جاء اسم بلاد آدوم، والحائر هو مكان البحيرات الناتجة عن عيون، ونلاحظ أن بحر وبحيرة ذات علاقة واضحة بالحر وبالحرور، ثم الحير هو الحظيرة أو العشيش أو العريش.

ووراء آدوم موطن الأحلاف الذين توافقوا واتفقوا ما بين زنجى وأحمر وأسمر عند شجر الأيكة فى جبل عظيم هو سعيير بجواره واد عظيم هو عربية، موطن الأرامى والعمورى أو بنى عمرو، نتابع البحث فى لجج اللسان العربى، فيفصح تحت مادة آدم:

الأدمة القرابة .. وقيل الأدمة **الخط** وقيل الموافقة ، والأدم الألفة والاتفاق .. قال الكسائى: يؤدم بينكما يعنى أن تكون بينهما المحبة والاتفاق .. والأديم **الأحمر** .. وأديم النهار بياضة.. والأدمة السمرة .. قال ابن سيدة: الأدمة فى الإبل لون مشرب سواداً وبياضاً [..] .. والأدمة فى الإبل البياض مع سواد المقلتين، قال وهى فى الناس السمرة الشديدة .. والآدم من الأطباء، بيض تعلوهم حدد فيهن غبرة، فإن كانت خالصة البياض فهى الأرام .. والأدمة هو الأبيض والأسود المقلتين .. والادمان شجرة .. الإيدامة الأرضى الصلبة .. قال ساعدة بن جؤية:

كان بنى عمرو يراد بدارهم بنعمان راع فى أديمة معزب

يقول: كأنهم فى امتناعهم على من أرادهم، فى جبل وإن كانوا فى السهل.

وهكذا أصبحت آدوم تاريخاً يشق منه معانى اختلاط الناس ببعضهم وموافقتهم واتفقهم وقرابتهم، وأن الأديم يعنى الأحمر والأبيض والأسود، لكننا نركز على اللسان وهو يمنحنا تأكيداً أن البياض بين هؤلاء كانوا الأراميين لقوله : " فإن كانت خالصة البياض فهى الأرام " ، وهو ما سنحاول التيقن منه لاحقاً، أما بنو عمرو العموريون فقوم أشد منعه من بقية الناس لأنهم يسكنون فى سهل يمتنع بالجبال (أو العموريون).

ووراء الأمورى نبحث فى اللسان تحت مادة أمر فيقول:

الأمر معروف نقيض النهى .. والأمير ذو الأمر والأمير الأمر .. قال أبو عبيدة فى قوله مهرة مأمورة، أنها كثيرة النتاج والنسل .. يقولون أمر الله المهرة أى كثر ولدها وأمر القوم أى كثروا .. والأمر الصغير من الحملان ..

والأنثى إمره، وقيل هما الصغيران من أولاد المعز .. قال
ثعلب : رجل إمر قال يشبه بالجدى ، والأمر الحجارة
واحدتها أمرة .. والأمر بالتحريك جمع أمرة وهى العلم ..
والأمرة الرابية .. قال ابن شميل: الأمرة مثل المنارة فوق
الجبل، عريض مثل البيت وأعظم، طولها فى السماء
أربعون قامة، صنعت على عهد عاد وإرم .. والتأمورة
عريشه الأسد، وقيل أصل هذه
الكلمة سريانية.

وهكذا ورثت لغة العرب اقتران السيادة بالأموريين والتي احتسبناها هكسوسية، وأن من معانى
الأمورى كثرة النسل، وأنه له علاقة بالماعز والجدى، وأنها تعنى الحجارة، ولمزيد من الإيضاح يذكر العرب
أثراً فوق علم (جبل) عريض كالبيت يرتفع فى السماء أربعين قامة (فهل يكون ذلك مطابقاً لأم البيرة فى
البتراء؟)، وأن ذلك الأثر صنع منذ عهد عاد وإرم، ثم يكرر أن من معانيها العريش، وأن أصل الكلمة
سريانية، أى أرامية.

ولأن الأمورى هو العمورى، نقرأ تحت مادة (عمر):

عمرى الشجرة القديمة .. وقيل هو العبرى من السدر،
والميم بدل. قال الأصمعى: العمرى والعبرى من السدر
القديم ... يقال للسدر العظيم النابت على الأنهار : عمرى
وعبرى على التعاقب .. والعمار والعمارة كل شئ على
الرأس من عمامة أو قلنسوة أو تاج ، والعمار الآس
وقيل كل ريحان عمار .. والعمارة القبليّة والعشيرة ..
والعوامر الحيات .. والعمرة الاختلاط .. واليعمور
الجدى .. والعمر ضرب من النخيل هو السحوق الطويل
.. وأم عمرو وأم عامر هى الضبع .. يقال للضبع أم
عامر، كأن ولدها عامر.

وهكذا يصل ثراء ما تحفظه مورثات جينات اللغة حداً احتوت معه أسماء بطون القرابات فالعمورى
هو العمرى ولأن الميم تختلط بالباء فهو العبرى (والعبريين - حسب التوراة - هم قبيلة إسرائيل)، وأن
لهؤلاء العموريين ميزة التاج أو السيادة والقلنسوة. وسنرى فيما بعد أهمية تلك القلنسوة الأمورية، ثم أن لهم
علاقة بالآس، ولعلنا لم ننس بعد الآس والإله آش، ثم أن من معانى الاسم اختلاط الناس ببعضهم وأن لهم
علاقة بالجدى، وبالماعز وبالعلاقة لأن العمر نخل طويل، وأم عمرو هى الضبع، وهو ما يستدعى عناق

البونتي ذو الوجه الضبعي، وأن العموريين ينتسبون إليه كأنهم أولاده، فالعموريين يعبدون ربا أشبه بالضباع تسموا باسمه .

وللمزيد يفيدنا (ابن قتيبة) بقوله عن سلف قبيلة سبأ المعروف باسم سبأ وعرفناه نحن أنثى أسمها الزباء أو الملكة سبأ فيقول: « واسم سبأ عامر »^(١٠). وفي مادة ضبع يقول لسان العرب:

ضَبَعٌ أسرع، وفرس ضابع شديد الجرى، والضبع الجور وفلان يضبع أى يجور .. والضبع ضرب من السباع أنثى .. وفي قصة إبراهيم عليه السلام وشفاعته فى أبيه، فيمسخه الله ضبعانا أمدرا، والضبعان ذكر الضباع .. وجار الضبع المطر الشديد.

ولنلاحظ هنا مسألة شديد الجرى لأنها ترتبط بفصل آت عن الشاسو، أما الأهم فهو أن يظهر لنا إبراهيم الأرامى العبرى من نسل رجل مسخ ضبعاً فهو ابن الضبع، أو هو من نسل عناق البونتي.

ولنتأمل الآن صورة الإله ست التى رسمها المصرى القديم، ولا ننسى أن عم تعنى قوم، وبالنسبة إلى عناق يصبح المنتسب إليه ابن عناق أو عناقيا وقد عرفنا أن العناقيين هم العمالقة.

وفي التوراة نجد الجبل الذى عبره الخارجون من مصر تحت قيادة موسى يسمى جبل الأموريين، وفي مواضع أخرى بالتوراة يسمى هو ذاته جبل العمالقة، ففي رحلة الخروج يقف موسى فى قادش سيناء يخطب فى رجاله قائلاً:

ثم أرتحلنا من حوريب وسلطنا كل ذلك القفز العظيم المخوف الذى رأيتم فى طريق جبل الأموريين .. وقتلتم الرب بسبب بغضه لنا أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين ليهلكنا

تنبيه ١٩،٢٧/١

وفى قاموس الكتاب المقدس تحت مادة عمالقة نقرأ:

وكان العمالق يتجولون من مكان لآخر، وكان مجال تجولهم وسیعاً، من حدود مصر إلى شمال العربية إلى بادية فلسطين (صموئيل أول ٧/١٥ و ٨/٢٧) .. وآخر ذكر لهم كان أيام حزقيا الذى طارد دخولهم من جبل سعيير (أخبار أيام أول ٤٣/٤)

(١٠) ابن قتيبة: المعارف .. سبق ذكره، ص ١٠١ .

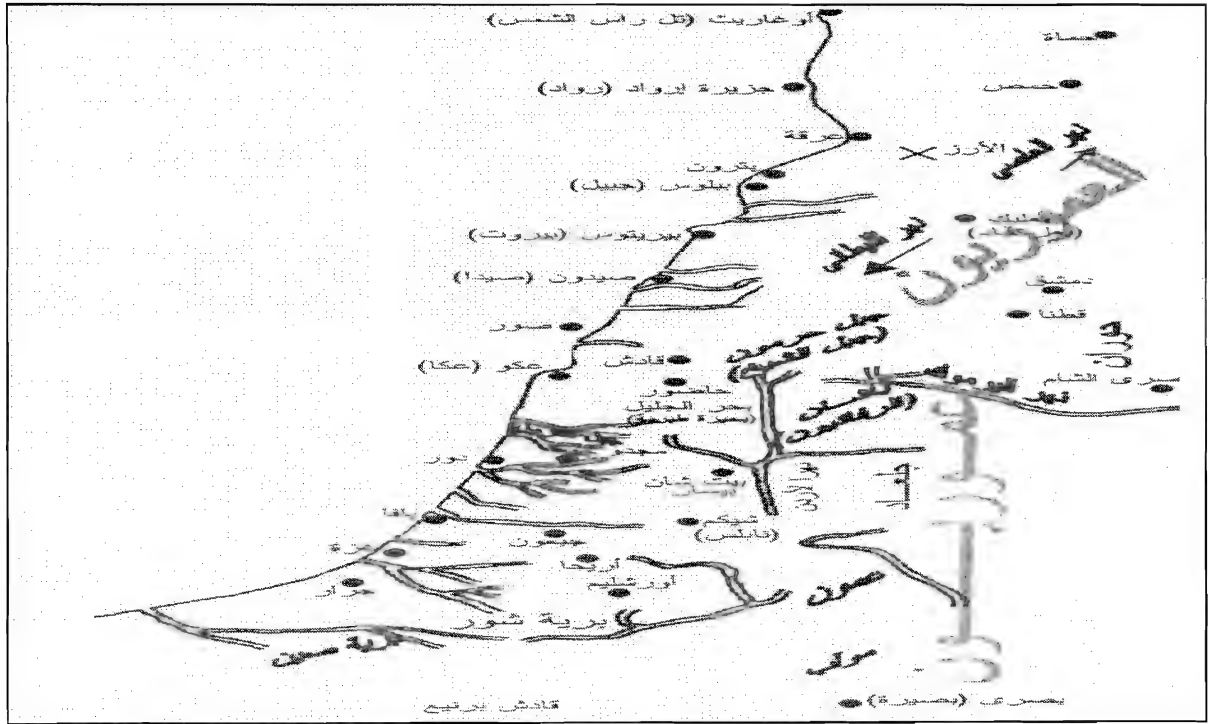
وتحت مادة جبل العمالة يقول القاموس

جبل العمالة كان من نصيب إفرايم وقد حمل اسمه نسبة إلى

العمالة الذين سكنوه (قضاة ١٥/١٢/٥).

لكن عنصرًا من بينهم وصف بالعمالة، لاشك أنه كان القادم من إفريقيا السوداء، أو هجينا منهم ومن أهل جنوب الجزيرة.

لقد كانت بلاد آدوم كما قلنا وأكدنا وزدنا وعدنا موثلاً لجماعات وعناصر جنسية متباعدة، فكان فيها الكوشى العملاق الزنجى، ثم كان فيها الحامى المصرى القادم بالضرورة عبر سيناء فى صلات دائمة، ثم كان فيها الأرامى القادم من شمال الرافدين وبلاد أرمينيا عند أرارات، وهو الشعب الذى أولد بنى إسرائيل من بعد، ثم ذلك القادم من جنوبى الجزيرة الحميرى، والذى ربما اختص باسم العامو أو العموريين، قبل أن يصبح اسما عاما يطلق على جماعة الأحلاف.



خريطة رقم
خريطة فلسطين وفق التقسيم التوراتي

ملحق

إيان مراجعة بروفات هذا الكتاب، وكانت بروفة هذا الفصل بين يدي أضفت هذه الفقرات بعد أن طالعت بصحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٢/١١/١٩٩٧ الخبر التالي وقد رأيت أن أضعه كما هو (بالتصوير):

اليهود ينحدرون من أصل أرمني

باريس من - سعيد اللاوندي: كشفت دراسة تاريخية بالفرنسية، النقاب عن مجموعة من الحقائق المذهلة التي أحدثت دويًا في الأوساط اليهودية، منها أن مدينة القدس كانت في القرون الأولى بعد الميلاد، مدينة مختلطة يسكنها العديد من الأجناس من بينهم اليهود، بمعنى أن العنصر الغالب للسكان في فلسطين، كان هذا الخليط الذي يجمع بين المصريين والعرب والفينيقيين. وأكدت الدراسة التي تعتمد على الوثائق والآثار القديمة في مصر والمشرق العربي منذ الألف الثالثة قبل الميلاد - نقلًا عن الجغرافي اليوناني «سترابون» المعاصر للسيد المسيح - أن المصريين والفينيقيين كانوا يسكنون نصف القدس الشمالي أما النصف الجنوبي، فكان يقيم فيه العرب الآراميون، والعرب النبطيون ثم هنا وهناك، يتناثر بعض السكان من أصل إغريقي. وأثبتت الدراسة - التي صدرت أخيرًا في كتاب بعنوان «عيسى اللايهودي» - أن اليهود ينحدرون من أصل أرمني، وليس من أصل سام، كما هو ذائع ومعروف. وخلصت الدراسة إلى القول بأن الحق العربي والفلسطيني في القدس أقوى وأعمق من كافة الادعاءات اليهودية والإسرائيلية التي دأبت على تشويه الحقائق التاريخية.

شكل رقم (٤٢)

والخبر إذ يؤكد ما قلنا حتى الآن في كتابنا، فإن القول بمجئ الإسرائيليين الآراميين من أرمينيا قد سبق ووصلنا إليه في كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول) المنشور في طبعته الأولى بتاريخ ١٩٩٠ عن دار سينا بالقاهرة قبل أن تكتشفه تلك الدراسة الفرنسية بسبع سنين.

الشاسو و الكاشو والحاثو

فى مواضع متعددة من النصوص المصرية القديمة، نجد اصطلاحات متعددة للدلالة على البدو الشرقيين الآسيويين، منها (ستتيو) الوارد فى لوح كارنارفون، و(مونتيو - ست) الواردتين فى نقش أحمس بن أبانا^(١)، وعرفنا أن الاسم هنا منسوباً إلى الإله (ست)، وباختلاط الحرفين الشفائيتين الباء والميم فإن (مونتيو) هى (بونتيو) أى البونتيين. إضافة إلى اصطلاحات أشيع استخداماً هى (شاسو) و (عامو)، وبالنسبة للاحتلال الذى عانت منه مصر فى نهاية الدولة الوسطى، فقد أطلق المصريون على أصحابه اسم كاره هو الطاعون، بينما وصلنا اسمهم فى وثائق متأخرة زمن يوسفوس والمؤرخين اليونان الكلاسيك بالصيغة (هكسوس).

وهنا يقول لنا المؤرخ والمصروولوجست المصرى الحجة سليم حسن:

عندما يطرح السؤال: من هم الهكسوس؟ فإنه لا يسعنا

إلا الاعتراف بالجهل التام!!^(٢).

ورغم هذا التواضع العلمى الراقى الصريح الواضح المباشر، فإن ذلك لم يمنع الباحثين من وضع افتراضات حول أصل محتلى مصر، فى محاولات متعددة لكنها متضاربة للبحث عن منطلقهم المكانى وأصلهم العرقى، فهناك من ذهب إلى أنهم من الجنس السامى، لكن أصحاب هذا المذهب اختلفوا حول أى نوع من الساميين كانوا؟ فقال بعضهم أنهم كانوا بابليين، وذهب آخرون إلى أنهم كانوا كنعانيين، بينما أكد فريق ثالث أنهم جاءوا من عمق بواى جزيرة العرب^(٣).

وعلى الجانب الآخر وقف باحثون لا يقلون علماً وقدرًا ويؤكدون أنهم أبداً لم يأتوا من فلسطين ولا العراق ولا جزيرة العرب، لأن المنبع البشرى الذى تدفقوا منه على الشرق القديم، كان المستودع الكبير المعروف فى عصر الهجرات الكبرى فى محيط بحر قزوين وبحر الأورال وبحر الأسود، وبحيرة فان وجبال أرارات، وهو الجبل الذى زعمت التوراة أنه كان مرسى السفينة النوحية. فى ترميزة أسطورية حفظتها الذاكرة الإنسانية لتشير إلى المنبع الأصيل لتلك الهجرات^(٤)، وهو أيضاً الموضع الذى يعرف علم التاريخ أنه كان موطناً لقبائل متبربرة أسماها (سكيث). ولنتذكر هؤلاء الـ (سكيث) لأن لهم فى الفصول المقبلة دور عظيم.

(١) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٢

(٢) نفسه: ج ٤، ص ١٨٥

(٣) فهمى خشيم: آلهة.. سبق ذكره، ج ١، ص ٨٥

(٤) لويس عوض: مقدمة.. سبق ذكره، ص ٢٢.

وكان تعبير (العامو) هو الأكثر شيوعاً في الكتابات المصرية، للدلالة على غزاة بلادهم، وقد وردت (ع أم و A M U) في صورة (ع م و A M W) ومفردها (ع م A M)، لتشير إلى سكان شرقى وادى النيل حيث الهضبة المتصلة مباشرة بصحراء سيناء، وترجمها معجم فولكنر إلى (أسيوى) و (رجل أسيوى) وجمعها (SEMITES ساميين) ومؤنثها (ع م ت امرأة أسيوية).

وفى معجم بدج نجد الكلمة تعنى: رعاة، بدو رحل، ويترجم (ع م ي ت AMYT) إلى امرأة أسيوية، والعميت هو العبيط بخلط الميم بالباء والعبيط فى لسان العرب هو العملاق القوى قوة عمياء. لذلك نجد (ع م AM) تعنى حيوان أوسائمة أوبهيمية). وفى معانى (عامو) نجد اللغة تحمل فى جيناتها إشارة إلى الجهة الأصلية التى وفدوا منها على مصر، لأن (أم و AMW) تعنى أيضاً إلهة الفجر، وهو ما يشير إلى الشرق حيث تشرق شمس الفجر، ويرى أمبير أن إبدالا قد حدث بين الراء والهمزة وبين الباء والميم، بين المصرية والسامية فى كلمتى (ع م AM) و(عرب)، وتقيد معنى البداوة والارتحال مطلقاً، ولا تدل على جنس بعينه^(٥).

وعند بروغش أن كلمة هكسوس كانت التسمية الشعبية لكلمة العامو، وأنهم كانوا آدوميين^(٦)، لكن دون أن يتكرم بروغش بأى جهد واضح يؤكد به هذا الرأى السليم فعلاً، فقط رأى أنهم آدوميين استناداً لنص مصرى واحد لاعلاقة له بالأمر برمته، ثم أصدر قراره، وحتى قوله هذا قول غير دقيق، لأنهم وان كانوا يعودون بمركزهم الرئيسى إلى بلاد آدوم، فإنهم كانوا اخلاطا من البشر، كانوا أخلامو أحلاف.

ويذهب فهمى خشيم إلى أن الهمزة فى (ع م) مزيدة، والأصل هو (ع م)، وضرب المثل لذلك أمثلة عديدة منها [و ع ح ت = واحة، ح ع ت = حيط، خ ع ب ع س = قبس، خ ع ر = خار (صوت الثور)، س ع ب = صب]، وقد احتج لذلك بأن الهمزة العربية نفسها قد تهمز ما لا يهمز عادة وقد تفعل العكس فتحذف الهمزة، فنقول عن البئر (بير) والفأس (فاس) و الذئب (ذيب)، وإعمالاً لذلك فإن (ع م) هى فى العربية (عم)، و(عم) إذا تثلثت دلت على العملاقة والقوة، فنجد (عمت) أى قسر، و (العمثل) هو الضخم الثقيل، و(العميثل) الضخم الشديد العريض، و(عمد) طال ومنها العماد والعمود، و(العملة) الناقة الفارسة القوية، و(العامل) هو الوالى أو الحاكم.

وفى معجم بدج نجد الكلمة المصرية (إ م ت I A M T) تعنى النخلة، وجاء فى الحديث النبوى " أكرموا عمتكم النخلة " ^(٧)، ونتذكر قول ابن منظور فى لسان العرب: عُم إذا طول، وعم إذا طال، والعم شقيق الأب وأصله المساند القوى، والعمامة ما يوضع على الرأس وهى تيجان العرب، وكل ما اجتمع وكثر فهو عميم، والعم عظم الخلقة، فالجذر عم والثلاثى عمم ورباعيه عملق ومنه العملاق الطويل والجمع

(٥) فهمى خشيم: آلهة، ج ١، ص ٥٣، ٥٤.

(٦) Brugh. H,H istory of Egypt under the phorahs, vol I, p ٢٣٢-٢٤١

(٧) فهمى خشيم: آلهة: سبق ذكره، ج ١ ص ٥٥.

عماليق وعمالق، والعمالقة عند ابن منظور من عاد وهم بنو عملاق، قال الأزهري: عملاق أبو العمالقة وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام على عهد موسى عليه السلام.

ومن العامة يأتي معنى الكثرة الوافرة، ومفردها بصيغة النسبة عامي وتجمع عوام، ومن عامي تطورت الدلالة إلى معنى الجهل وعدم المعرفة، ومنها أمي الذي يجهل القراءة والكتابة في مواجهة الخاصة، وهنا نتذكر أن فترة حكم الهكسوس في مصر كانت مظلمة تماما من حيث المدونات، فلم يتركوا شيئا مدونا بلغتهم، وما وجدناه كتبه لهم المصريون بلغتهم وهو نادر ندرة شديدة إلى جوار ما هو معتاد في مصر القديمة. ولم نعلم بمدونات حقيقية إلا بعد خروجهم من مصر وانتشار اللغة الأرامية كلغة للمراسلات الدولية، بعد أن أخذت الأرامية الطريقة الرافدية في الكتابة بالمسمار على الطين، وأخذت أيضاً الخط البابلي، وكتبته بالكارية أو الحورية.

أما (عم) فهي تعني في لغة جزيرة العرب أبناء أو شعب، وهي كذلك في الكنعانية، وهي ذاتها (ع م) (أى أناس، وينتهي فهمي خشيم إلى أن كلمة (ع م) تؤدي إلى (الأميين) كاسم علم بمعنى الأقوياء الجبابرة العماليق من الجذر (أ م) و(أمم)، وهو ذات لجذر (عم) و(عمم) وفيه معنى الكثرة الغالبة^(٨).

وفي الجزء الأول من هذا العمل سبق وأشرنا إلى أن المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) الذي نقل عن المؤرخ المصري (مانيتو)، قد كرس من وقته زمنا ليثبت أن الهكسوس كانوا هم ذات الإسرائيليين. وضمن شواهد ترجمته لكلمة (هيك - سوس) بحسبانها تعني (الأسرى - الرعاة)، لأن بني إسرائيل قد تم أسرهم بمصر بعد ثورة المصريين على حكمهم. إلا أن (وادل) يحيطنا هنا علما: أن يوسفوس قد تلاعب بكلمة هكسوس التي تتركب من ملصقين: المقطع الأول فيها (هيك)، وقد قرأه يوسفوس وكتبه (ح أ ق haq) التي تعني: يقبض على، يأسر، أسر، بينما كتابتها وقراءتها الصحيحة هي (ح ق hq) وتعني معنى نقيضا تماما، فهي: حكم، وجّه، قاد، تسلط، ويفيدنا (مارسيل كوهين) أن تلك الكلمة هي بالضبط الكلمة العربية حق وهي Legalite أى شرعية الحكم. أما المقطع الثاني الذي جاء في صورة (SôS)، فيعني عند (مانيتو المصري) راع أو رعا، ورأى (وادل) أنها من القبطية Shôs أى راعي، وأنها من الأصل (ش أس و) أى بدو. وهنا اختلف (بدج) مع الجميع وأكد أن معنى (سوس) هو: المشى، السعى، السفر، ومنها البدو الرحل. ويدعم ذلك (إمبير Ember) إذ يقابل الكلمة المصرية بالأثيوبية (SOS) أسرع في المشى، هرول، وبالعبيرية (SIS) التي تعني حصان، وهي جميعاً المعانى التي تقيد المشى والحركة الدائبة دون استقرار، وفي معجم المصرية (س س م SSM) وتعني زوج من الخيل، ومنها في معجم بدج كلمة (س س م ت SSMT) أى فرس.

(٨) نفسه: ج ١، ص ٥٩.

ويعقب هنا فهمى خشيم بقوله: " وعلى هذا الأساس ترجمت هكسوس إلى الملوك الرعاة .. لكننا عرفنا أن الجذر س س يعنى .. الحصان، ومن المسلم به تاريخياً أن وادى النيل لم يعرف أهله استخدام الحصان قبل هجرة الهكسوس إليه ".

ومما هو جدير بالذكر هنا أن مدينة الهكسوس (حواريس) التى هى فى الأصل المصرى (حوارة) أو (هواره)، لم تزل تطلق على كثير من المدن الصحراوية المتطرفة المتاخمة للصحراء فنجد الهواره فى صعيد مصر وفى الفيوم، كذلك تحمله قبائل من أصله عربية تمصرت.

وينقل ابن خلدون عن الصولى البكرى أن قبائل الهواره تنتسب إلى (حمير بن سبأ)، ويزعمون الانتساب إلى قبائل كندة، وبالتحديد إلى قبيلة (السكاسك)، وهو ما يلتقى مع كلام الصولى البكرى حول أصولهم الحميرية السبائية، لأن لسان العرب يقول:

سكسك بن أشرس من أقيال اليمن، والسكاسك
والسكاسكة حى من اليمن، أبوهم ذلك الرجل،
والسكاسك أبوقبيلة من اليمن، وهو السكاسك بن وائلة
بن حمير بن سبأ، والنسبة إليهم سكسكى.

ومن جانبه؛ ينسبهم ابن خلدون إلى (هوار بن أوريج بن حمير بن سبأ)، وعليه يرى فهمى خشيم أن الكلمة سكاسك ربما كانت تحريفاً للكلمة اليونانية هكسوس، التى كانت بدورها تحريفاً للكلمة المصرية (ح ق س س) ^(٩).

وعن أصل بربر أفريقيا يقول ابن خلدون: " إنهم من أبناء إبراهيم وأوزاع اليمن " والخلط هنا واضح بين جنسين متباعدين جنس إبراهيم الأرامى الشمالى وجنس الجنوب، ثم يقول: " فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوك مصر من النزول، فعبروا النيل وانتشروا فى البلاد، وهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ " ثم فى إشارة فصيحة. يقول: " إنهم " تلاقوا بالشام واستجاشهم أفريقش لفتح أفريقية ".

فالهكسوس فى الذكريات العربية ينتسبون من جانب إلى عرق شمالى يعود إلى إبراهيم الأرامى، وعرق جنوبى يعود إلى سبأ وإلى حمير الحمورى أو العمورى أو الأمورى، وأن هؤلاء الجنوبيين من قبائل يمنية كانت تحمل اسم السكاسك، وهو فيما نرى يفسر لنا اسم أحد مواضع تكثفهم فى مصر، فهو لم يزل يحمل فى طياته اسم السكاسك، لأنه الآن (الزقازيق) ^(١٠). وبدعم ذلك التفسير ما جاء فى أزمنة سواف على دبوس قتال الفرعون المعروف بالملك العقرب، حيث وردت إشارات إلى صراع خاضه العقرب مع البدو، وقد أطلق عليهم اسم (قوم الزقزاق / السكاسك). و(الزقزاق) اسم لطائر تم تصويره بأعلى دبوس الملك

(٩) نفسه: ج ١، ص ٧٦، ٧٧، ٨٨، ٨٩.

(١٠) ذهب البعض أن اسم الزقازيق ينسب لسمك بهذا الاسم.

العقرب، وقد وردت قصص مصرية قديمة عن ذلك الطائر باعتبار أنه كان غذاء لبحارة مصريين ضلوا الطريق ونفذ طعامهم، فعاشوا على الاغتذاء بهذا الطائر المهاجر الذى كان يحط فى طريقهم^(١١)، وهو ما سنعرفه بعد ذلك فى التوراة باسم السلوى، ونعرفه اليوم فى مصر باسم السمان وهو ما عرفناه فى بحثنا باسم السقاسق أو الزقزاق. وهو طائر مهاجر تعد شبه جزيرة سيناء محطته الكبرى فى رحلته الفصلية الكبرى، ولم يزل حتى الآن يُصدّر إلى الوطن الأم بعد ما يفيض عن حاجة السكان فى سيناء.

وفى لسان العرب نبحث عن السكاسك فى مادة (سكك) فنجده يعطينا مضامين تطابق كل ما علمناه حتى الآن عن الهكسوس بحسبانهم كانوا يعيشون فى بلاد أليك تين وبخور وغياض ملتفة، وكانوا أصحاب صناعة الحديد والنحاس لذلك لقبوا بالقينيين، وأهم حديد كان السيف وسكة المحراث، ولاحظ (سكة) و أيضاً (سك) من ضرب المعدن وصنعه، كما نقول: سك النقود، وأنهم كانوا تجار الطيوب والبخور، يقول ابن منظور فى اللسان:

استك النبات أى التف...

... السك تضبيب الباب أو الخشب بالحديد .. ويروى

السكى بالكسر وقيل هو المسمار .. وسكة الحراث

حديدة الفدان .. والسكاكة من الرجال هو المستبد ..

والسك ضرب من الطيب.

ومدينة الزقازيق تقع ضمن مقاطعات شرقى الدلتا على تخوم الصحراء السينائية مباشرة، وسنكشف عن اسم مدينة الاضطهاد وموضع خروج الإسرائيليين قرب الزقازيق، فى الجزء الأخير من هذا العمل.

المهم أن لدينا الآن مزيداً لتدعيم ما قلناه حول السكاسك والزقازيق، فقد جاء فى الآثار المصرية أنه بين مقاطعات الدلتا الشرقية كان يوجد إقليم باسم (عنزتى Anzti) نسبة إلى إله قديم بذات الاسم، وهو من الجذر (ع ن ز Anz)، وهى كلمة تعنى عند (بدج) فى معجمه: ملك، قوى، مضىء، شديد، ثابت، مشرق، قادم من الشرق. وكلها كلمات تحيل إلى الملوكية القادمة من الشرق. والثنائى من الكلمة (ع ن ز AZ)، وتعنى: الكون فى حالة طيبة، ولو زدناها (ت ي Ti) فإن معناها يصبح الحامى أو المانع Protection، وهى المطابق المصرى للكلمة العربية بذات الصوت والمعنى (عز) (١٢).

وفى مادة (عزز) يقول اللسان معان أهمها: " العزيز، الممتنع الذى لا يغلبه شئ، القوى الغالب، الشدة، الرفعة. وبزيادة (م) تصبح (معز)، والمعز هو الشدة، أما العنز فهى أنثى المعز، والعزيز من أسماء الله، وعنزة اسم قبيلة عربية ". ثم نتذكر ما قلناه عن الحمورى والأمورى الذى يعنى (الشديد)، وأن اسم إله

(١١) سعيد محمد ثابت: فرعون موسى، دار المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٩٢، ج ٢، ص ٣٣، ٣٤ (من المهم هنا الإشارة إلى أننا أخذنا المعلومة فقط بغض النظر عن الكتاب فهو لا علاقة له بالعلم ولا بمنهج البحث العلمى بقدر ما هو هلوسات غيبية).

(١٢) خشيم: آلهة.. سبق ذكره، ص ٦٨، ٦٩.

البطرك إبراهيم كان (إيل شداى)، وان كلمة (حُر) زجر للمعز، وأن العناق هو الأنثى من أولاد المعز، وأن عنخ المصرية هي عنز العربية، وأن عنخت زوجة الإله عنوم الذى هو عنوف أو خروف وهو من الغنم، وكلها معان تشير إلى بدو رحل رعاة عنز، شاسو، لا يستقرون أبداً، أما مسكنهم فهو ما نحتسبه موصوفاً فى لسان العرب تحت مادة شساً:

شساً: مكان شئس: الخشن من الحجارة .. الشس
والشسوس: الأرض الصلبة الغليظة اليابسة التى كأنها
حجر واحد.

يكاد ابن منظور يقول كل ما يحمل اسم عاصمة آدوم/ الصخرة من معان كشفنا عنها، أما الشاسو فهي برأينا أصل كلمة سوس فى المركب (هيك — سوس)، وسوس هي شاس أو شاسو فى كشكشة الكاف فى سكاسك. وتعنى البدو الرحل من أصحاب المعز من قبائل السكاسك السبئية العمورية أو الحميرية، والقبائل الأرامية الإبراهيمية، أما (هيك) فهي كما سبق القول تعنى (حق) أو الحكم بالحق وتشير إلى الملك، لذلك فالكلمة هيكسوس تعنى لدينا الحكام الشاسو أو الحكام البدو أو بشكل أكثر تدقيقاً شيوخ القبائل البدوية.

وإيان رصده لسلسلة أنساب اليمن يحيطنا ابن قتيبة علماً أن (سبأ) لقب لأن اسم الشخص الحقيقى كان (عامر)^(١٣)، وعامر يمكننا أن ننسب إليه ببساطة العامريين أو العموريين، وهو ما يدعم رؤيتنا فى قدوم العموريين/ الأموريين السبئيين من الجنوب. ويضيف ابن قتيبة أن سبأ قد أنجب (حمير) أو الأحمر، وأن من أحفاد حمير كان (بنو القين)^(١٤) أى أبناء القينى، أى الحدادين/ السباكين/ النحاسين. وضمن هذا النسب عند ابن قتيبة يأتى شخص باسم سعد هزيم كان عبداً حبشياً زنجياً احتضن عامر فنسب إليه، وهو ما يشير إلى ما قلنا عن احتضان شعب لآخر، زنجى، وجنوب جزيرى عمورى (نقصد المعروف بجنوب الجزيرة الآن)، أو التوحد معه فى حلف (جنوب جزيرى + زنجى).

وقد انفرد هذا الزنجى بحديث لدى ابن قتيبة له لدينا دلالة، فهو شقيق أفريقيش الذى فتح مصر وأفريقيا، وبه سميت إفريقيا، أما هذا الزنجى فهو المعروف باسم (العبد أبرهة) وكلمة العبد فى الكتابات العربية تساوى كلمة الكوشى فى التوراة، والعبد أو الكوشى أو الزنجى أبرهة غير أبرهة المعروف فى التاريخ الإسلامى بغزوة الفيل، لأن ذلك الأخير متأخر عن الأول بقرون طوال. وهذا الزنجى الكوشى العبد أبرهة قد حاز عند ابن قتيبة لقب " ذو الأذعار، وسمى بذلك لأنه كان غزا بلاد النسناس .. فذعر الناس منه فسمى ذو الأذعار "، وبلاد النسناس هي بلاد القردة، ولعلنا لم نزل نذكر بلاد البابون فى بونت بلوحات حتشبسوت، " ثم ملك بعده حداد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش وهو أبو بلقيس صاحبة سليمان عليه

(١٣) ابن قتيبة : المعارف .. سبق ذكره، ص ١٠١.

(١٤) نفسه ١٠٣، ١٠٤.

السلام » (١٥). ومن نسل حمير جاء السكاسك بن وائلة، ثم من السكاسك جاء (قيدار)، فيما قدر ابن قتيبة. (١٦) وقيدار جماعة عربية سكنت بدورها وادي عربية في أزمنة متأخرة، ثم من قيدار جاء غسان أو جاسان أبو الغساسنة الذين سكنوا ذات المنطقة (١٧).

وهكذا كان بين الهكسوس عناصر وأجناس، خلطت بينهم أقدار التاريخ وشطحات الحراك الإنساني المهاجر، وتركت اسماً دالاً عليهم فهم (الأحلاف) أو (الأخلامو)، والأكثر دلالة أنهم أطلقوا على أنفسهم اسماً يشير إلى تحالفهم، وذلك إيان إحتلالهم مصر، فقد أطلق ملوك الهكسوس على أنفسهم اسم (الملوك الإخوة) (١٨)، مما يشير إلى أكثر من ملك يحكم في نفس الوقت، وهو ما يؤكد ما قلناه حتى الآن عن إمبراطورية واسعة يحكم كل إقليم منها ملكاً من أحلاف الملوك الإخوة.

والآن ننقل نقلة أخرى لمزيد من تضفير استنتاجاتنا، فنحن نعلم أن (الكشكشة) في اللسان العربي، تعني أن هناك عرباً ينطقون الكاف (تش) أو (ش)، ولو افترضنا أن ذلك قد حدث للكلمة (شاسو)، فأصلها سيكون (كاسو) أو (كاشو)، وهو ما يطابق اسم الهكسوس فسيكون (هيك كاسو) بدلاً من (هيك شاسو)، وهو ما يفتح أمامنا باباً آخر لمعرفة أصل الهكسوس، وهو الباب الذي سيصادق تماماً على ما وصلنا إليه حتى الآن، أما هذا الفرض فسيظهر الآن صحيحاً تماماً .

يقول (سليم حسن):

عُدت كل من هجرة الهكسوس وهجرة الكاسيين مشهدة من هجرة عظيمة جداً، وفدت إلى الشرق الأدنى في باكورة الألف الثاني قبل الميلاد... وأول ظهور معروف للكاسيين في بابل كان في خلال حكم الملك حمورابي ١٩٤٧ / ١٩٠٥ ق.م، والظاهر أنهم كانوا في هذه الفترة سكاناً مسالمين في هذه البلاد، وعلى إثر موت حمورابي انتقل عرش الملك لأبنة سامسو إيلونا، الذي صد في السنة التاسعة من حكمه غارات الكاسيين، التي انقضوا عليها من الجبال .. وعلى إثر غارة الخيتا على بابل، أضحت البلاد تحت سيطرة الأسرة الكاسية ١٧٤٩ ق.م (١٩) .

وتقول الموسوعة الأثرية العالمية:

(١٥) نفسه: ٦٢٨، ٦٢٩.

(١٦) الموضع نفسه.

(١٧) نفسه: ١٠٧.

(١٨) خشيم: آلهة.. سبق ذكره، ج ١، ص ٢٩١

(١٩) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٧٥.

الكاشيون Kassite ترجع أهمية هذه القبيلة بخاصة إلى الدور الذى لعبته فى تاريخ بابل، ويُعتقد أن الكاشيين هم الكوشيون Kossaeans الذين ذكرهم بطليموس المؤرخ، والكيشيون Kissians الذين ذكرهم الكتاب الإغريق الأقدم منه، وقد ذكرت السجلات أنهم هاجموا بلاد بابل .. فى عام ١٧٨٠ ق.م استولوا عليها وأسسوا فيها أسرة حاكمة استمرت أكثر من ٥٧٠ عاماً .. ومن المحتمل أن الكاشيين أدخلوا الحصان حيوانهم المقدس فى بلاد الرافدين^(٢٠).

ويتحدث (كارلتون كون) عن استعمال الأسلحة البرونزية والعجلات التى تجرها الخيول فيقول:

واستخدمتها أقوام غازية هاجمت البلاد (يقصد الشام) من مكان ما فى الشمال فى نحو ١٧٠٠ ق.م وفى هذا الوقت غزا الهكسوس مصر وتولوا حكمها.. وغزا الكشيون وهم من الشعوب المتكلمة بلغة هندو أوروبية أرض العراق^(٢١) ويضيف (إيفار لسنر).

ولم يلبث تتابع الملوك البابليين أن توقف عندما سيطر عليها الكاشيون Kassires وهم شعب بربرى من أصل غير سامى.. بعد موت حمورابى، وتوالى منهم على السلطة فى عاصمة الفرات ستة وثلاثون ملكاً بلغت مدة حكمهم ٥٧٧ عاماً^(٢٢).

أما التدقيق فمع المؤرخ العراقى الرصين (طه باقر) وهو يخبرنا عن هؤلاء الكاشيين أو الكاشيين الذين هاجموا بلادهم واحتلوها، وفى الوقت ذاته - أو قريب منه - أحتل الهكسوس مصر، حيث يقول:

انتهى حكم سلالة بابل الثانية الأولى على إثر غزو الحيثيين بلاد بابل فى حدود ١٥٩٤ ق.م، وجاء الكشيون إلى بابل وأقاموا سلالة حاكمة فى البلاد عرفت باسم سلالة بابل الثالثة، التى دام حكمها زهاء أربعة قرون ١٥٩٥:١١٦٢

(٢٠) الموسوعة الأثرية العالمية: ص ٥٨٠

(٢١) كارلتون كون: قصة الإنسان، ترجمة محمد توفيق وعبد المطلب الأمين، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥، ص ٣٢٥

(٢٢) إيفارلسنر : الماضى الحى، ترجمة شاكر إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٧.

ق.م، واسم هؤلاء القوم الجدد من الكلمة البابلية كشو التي لايعلم أصل اشتقاقها بالضبط، .. أما موطنهم الذى نزحوا منه فيرجح أنه كان فى مكان ما من الأجزاء الوسطى من جبال زاغروس الفاصلة بين العراق وإيران .. والمرجح أن يكونوا هم القبائل الجبلية الذين ورد ذكرهم فى المصادر الكلاسيكية باسم كوساى Kossaii .. لم يخلفوا لنا من بعد حكمهم فى العراق شيئاً مدوناً بلغتهم بل إنهم اتخذوا اللغة البابلية.. ولما برزوا فى التاريخ بصفتهم قوة عسكرية فى عهد سلالة بابل الأولى اتجهوا فى توسعهم — لعله بسبب ضغط أقوام أخرى — إلى وادى الرافدين، ولكن خلفاء حمورابى ولا سيما سمسو إيلونا وأبى يشوخ استطاعوا أن يصدوهم، فاتجهوا عبر نهر دىالى ودجلة إلى الجهات الشمالية الغربية.. وتمركزوا فى منطقة الفرات الأوسط أى فى منطقة خانة القديمة .. وأخيراً حانت الفرصة المواتية على إثر غزو الحيثيين لبابل، وهناك مشاكل تاريخية تعترض المؤرخ عن بدء الحكم الكشى فى العراق، وعلاقتهم بالحيثيين الذين غزوا بابل، فأولاً أن بداية حكمهم لا تنطبق مع نهاية سلالة بابل الأولى، ولذلك فينبغى أن يكون الملوك السبعة الأوائل من السلالة الكشية ابتداء من كنداش المعاصر لملك بابل سمسو إيلونا، قد حكموا خارج بلاد بابل، وأن السلالة الكشية بدأ حكمها فى بلاد بابل ابتداء من الملك الكشى المسمى آكوم الثانى / آكوم كا كريمة Agum kakrime وأن هذا الملك هو الذى انتهز فرصة الغزو الحثى فزحف على بابل فى حدود ١٥٩٥ ق.م، لكن ماذا كانت علاقة هذا الملك الكشى بالملك الحثى مورشيليس.. هل تحالف مع الملك الحثى، فكانت حملة عسكرية مشتركة على بابل؟ لعل التساؤل أقرب إلى الواقع التاريخى لأنه يفسر لنا سبب انسحاب الحيثيين من بابل، إن الملوك الكشيين حكموا مملكة واحدة، من أقصى الجنوب إلى حدود بلاد آشور فى الشمال .. وكان الكشيون أقلية حاكمة بالمقارنة مع الأغلبية من سكان البلاد .. وأهم ما

يميز العهد الكشي الطويل الأمد قلة ما وقع من أثنائه فى اصطدامات حربية مهمة سواء كان ذلك مع الآشوريين المجاورين أم مع دولة الشرق الأدنى المعاصرة مثل دولة ميتانى فى شمالى ما بين النهرين أم مع الدولة المصرية .. اتخذ الملوك الأوائل من السلالة الكشية مدينة بابل عاصمة لحكمهم، لكنهم أسسوا فى منتصف عهدهم تقريبا مدينة جديدة ضخمة أطلق عليها اسم دور كوريكالزو وتعرف بقاياها الآن باسم عقر قوف على بعد نحو ٢٠ ميلا غرب مركز بغداد.. ويشير اسم هذه المدينة الذى يعنى حصن أو مدينة كوريكالزو إلى أن مؤسسها أحد ثلاث ملوك سمو باسم كاريكالزو.. شيدت فى زمن قديم من العصر الكشي يرجع إلى ما بين القرن الخامس عشر والرابع عشر ق.م والملك كوريكالزو الثانى يرجح أن يكون هو الذى شيد برج المدينة (الزقورة) .. وبرج المدينة بقى من ارتفاعه الآن زهاء ستة وخمسين مترا .. وقد تميزت جدران العهد الكشي بالضخامة المفرطة، فجدران قصر عقرقوف وجدران معابدها بلغ معدل سمكها ثلاثة أمتار مشيدة باللبن الكبير الحجم .. والاسم الجغرافى الجديد الذى أطلقوه على بابل هو كار دنياش.. أى بلاد أو قطر دنياش وهو اسم أحد آلهتهم

ودانياش بدون التصريف الاسمى هو دون أو تون أو أدون. ويتابع طه

باقر القول:

ويرى جمهور المؤرخين أن الكشيين هم الذين أدخلوا استعمال الخيل فى بلاد وادى الرافدين .. الأمر الذى أحدث تبدلات جوهرية فى أساليب الحرب والقتال وسرعة المواصلات .. وما قبل العهد الكشي لم تكن الخيول شائعة الاستعمال فى العراق .. جاء ذكرها فى النصوص المسمارية ولا سيما فى عهد سلالة أور الثالثة ٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م، وقد دعيبت فى هذه النصوص - Anshu - Kar - Ra أى حمار الجبل أو حمار البلد الأجنبى، ويرادف ذلك فى

اللغة الأكادية سيسو Sisu.. الكشيون استبدلوا طريقة التأريخ بالحوادث المشهورة المتبعة في العصور السابقة للعصر الكشي، بطريقة أسهل في تأريخ الحوادث وتقويمها هي **التأريخ بسنى الملوك**، فصاروا يؤرخون من السنة الأولى التي تعقب تنويع الملك الجديد.. وشاع في العهد الكشي استعمال ما يسمى بأحجار الحدود.. واسمها باللغة الأكادية كودورو Kudurru.. وانتشرت في العصر الكشي اللغة البابلية بخطها المسماري.. بحيث اتخذت من هذه اللغة لغة للمراسلات الدولية الدبلوماسية بين ملوك الشرق الأدنى وحكامه، كما تدل على ذلك رسائل تل العمارنة الخاصة بفراعنه مصر في القرن الرابع عشر ق.م. حيث كان الفراعنة في أوج قوتهم واتساع ملكهم، فلا يمكن تفسير اتخاذ اللغة البابلية من جانبهم بتسلط أو نفوذ من الملوك الكشيين، وانتشر مع استعمال اللغة البابلية أدب وحضارة وادى الرافدين، وترجمت جملة قطع أدبية مشهورة مثل ملحمة جلجامش إلى اللغة الحثية والهورية (٢٣).

وهنا يجدر التنبيه أن الأستاذ طه باقر لم يشير إلى أن تلك المكاتبات البابلية كانت فعلاً بالخط المسماري وبالأحرف البابلية، لكنها كانت باللغة الكارية أو الحورية حقاً وصدقاً.

ثم يقول لنا علم التاريخ أن هناك خطأ قديم تم إصلاحه في مؤلفات المؤرخين، حيث كان يطلق على ممالك بلاد الشام اسم الممالك الحثية الحديثة، لكن مع مزيد من الكشف تأكد أنها كانت ممالك أرامية تأثرت بشدة في فنونها بالتقاليد الفنية الحثية. (٢٤)

إذن الكشيون أو الكاشيون أو الكاشو، قبائل متبربرة هبطت على العراق القديم وقضت على أسرة بابل الأولى، وحكموا البلاد ٤٣٣ عاماً، وليس معلوماً لدى المؤرخين معنى اسمهم أو أصله، لكن المؤكد لديهم أنهم كانوا هجرة هندوآرية، وأنهم لم يدونوا شيئاً بلغتهم الأصلية واتخذوا من لغة بابل لغة لهم، وكان غزوهم بابل بعد غارة حثية مفاجئة قدمت من الأناضول، قام بها الملك الحثي (مورشيليش)، الذي هاجم البلاد وأسقط أسرتها الحاكمة ليركها للكوشيين أو الكاسيين دون أسباب مفهومة أو واضحة. أما الأكثر غرابة فهو أن بدء الحكم الكاشي لا ينطبق مع نهاية سلالة بابل الأولى التي أسقطها (مورشيليش) الحثي، مما أدى إلى استنتاج أن هناك سبعة ملوك كشيين حكموا في مكان ما خارج الرافدين قبل أن يحتلوه، والجديد هنا

(٢٣) طه باقر: الوجيز.. سبق ذكره، ص ٤٤٨: ٤٥٩.

(٢٤) فراس السواح: أرام دمشق.. سبق ذكره، ص ١٤٨.

أن الملوك الكاشيين قد حكموا القطر جميعه موحداً، بينما كانوا أقلية حاكمة، ولم يتصادموا فى معارك واضحة مع جيرانهم فى منطقة المتوسط الشرقى بل كانوا على وئام معهم، وإن أحد ملوكهم المعروف باسم (كوريكالزو الثانى) هو الذى شيد الزقورة أو البرج المشهور فى بابل، وبقي منه بعد أن تهدم حوالى ستين متراً، وقد أطلقوا على بلاد الرافدين اسم (كار دويناش) أى قطر (دويناش) وهو اسم إله لهم، ومن المرجح أنهم هم من جاءوا بآلة عسكرية جديدة على المنطقة هى العربة العسكرية السريعة التى تجرها الخيول، حتى أن الخيول لم تكن معروفة فى المنطقة قبل ذلك، وكان الأكاديون فى الرافدين يتحدثون عن رؤيتهم للكائن المعروف بالحصان، بحسبانه كائناً خاصاً ببلاد أجنبية اسمه (سيسو) وأسموه Anshu Kar Ra أى الحمار الجبلى، كما ابتدعوا تقويماً جديداً يعتمد على التأريخ بسنى حكم الملوك، وأن الكاشيين أو الكاشيين قد أخذوا الخط المسمارى واللغة البابلية وطوروها واستخدموها، ولأسباب غير معلومة أصبحت تلك اللغة لغة عالمية، ويرفض (طه باقر) وجلة المؤرخين أن يكون ذلك بسبب قوة وتسلط أونفوذ للكاشيين خارج الرافدين، وإن هناك آداباً بابلية مكتوبة بالخط المسمارى قد وجدت خارج الرافدين (كما فى تل العمارنة بمصر)، ولكن باللغة الحورية.

وهنا عدة مسائل بحاجة إلى توضيح وحلول تتمثل فى تساؤلات بسيطة لكنها إشكالية فى التاريخ أهمها:

- من هم (الكاشيون/ الكاسيون) الذين احتلوا الرافدين ما يزيد على أربعة قرون؟
- ما هى علاقتهم بالحيثيين والملك الحيثى مورشيليش؟ وما هو السر الذى دفع الملك الحيثى لفتح بابل وتركها ببساطة للحكام الكاشيين الذين أصبحوا قلة حاكمة فى بلاد الرافدين.
- لماذا لم يدونوا شيئاً بلغتهم وأخذوا الخط واللغة البابلية وطوروها إلى اللغة الحيثية والحورية؟
- كيف نفسر الفجوة الزمنية بين مادونته المراجع الكوشية عن بدء حكمهم، والفارق الزمنى بين هذه البداية وبين نهاية حكم الأسرة البابلية الأولى؟ وإذا كان الملوك السبعة الأول قد حكموا خارج البلاد... فأين كان حكمهم هذا؟
- معلوم أن بلاد بابل لم تقم دولة مركزية مستقرة متماسكة للقطر جميعه إلا فى حالات نادرة وقصيرة، لكن زمن الكاشيين كان القطر كله وحدة مركزية واحدة، فكيف نفسر ذلك؟
- ومعلوم أن العراق القديم كان دوماً مفتوحاً على جيرانه فى معارك هجومية أو دفاعية طوال الوقت، وهو ما لم يحدث زمن الحكم الكاشى، لماذا؟
- نعلم من المأثور الدينى الاسرائيلى والإسلامى أن باني برج بابل هو المعروف باسم نمرود بن كوش، ونعلم من التاريخ أن بانيه هو كوريكالزو الثانى، فهل كانا شخصاً واحداً؟
- من أين جاء الكاشيون بحمار الجبل (سيسو) أو الحصان؟

وسبق وافترضنا أن الشاسو المدونيين فى المدونات المصرية هم الكاشو أو الكوشيين الذين تموضعوا فى بلاد آدوم، فهل ثمة علاقة بين هؤلاء الكاشو أو الكاشيين وبين محتلى بلاد الرافدين باسم الكاسو أو الكاشو أو الكاشيين؟

مجموعة من التساؤلات لا إجابة واضحة عليها إلا بمزيد من البحث وراء تلك الهجرات التى غمرت المنطقة، نضيف إليها الآن مزيداً من التساؤلات الإشكالية التى تتمثل فى العنصر الحليف للعنصر الكوشى، أقصد: الحيثيين. وهو ما سيزيد من البلبلة لكنه واسطة العقد لحل كثير من الإشكاليات.

فى الوعد المعروف بالكتاب المقدس، الذى قطعه الرب على نفسه لخليله إبراهيم يقول النص:

فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات،: القينيين والقنزيين والقدموين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين

تكوين ١٥ / ١٨-٢٠

من بين الشعوب التى يعددها المقدس التوراتى لسكان المنطقة الممنوحة لإبراهيم ونسله نجد ذلك الاسم (الحيثيين)، ثم تتواتر النصوص المقدسة لتؤكد أن العنصر الحيثى كان عنصراً قائماً ومستقراً فى أرض فلسطين، بل كانوا ملاكاً للأراضى، لكنهم فى الوقت نفسه يظهرون كما لو كانوا عنصراً غير أصيل بالمنطقة، لأن أرض فلسطين كانت تخصص بكونها أرض كنعان تحديداً.

والملاحظة المهمة بشأن الحيثيين، فى النصوص التوراتية، هو الهيئة السيادية التى يتخذها الحيثيون هناك ، التى أوجبت على البطرك إبراهيم السجود لأشخاص عاديين من بينهم، وهو يطلب منهم شراء مغارة بفلسطين ليدفن فيها جسد زوجته سارة، والنص يقول:

وماتت سارة فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان .. وقام إبراهيم .. وكلم بنى حث قائلاً: أنا غريب ونزىل عنديكم ، إعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى .. فقام إبراهيم وسجد لشعب الأرض لبنى حث .. وبعد ذلك دفن إبراهيم سارة فى مغارة حقل المكفيلة أمام ممراً التى هى حبرون فى أرض كنعان، فوجب الحقل والمغارة التى فيه لإبراهيم ملك قبر من عند بنى حث.

تكوين ٢٦

والواضح فى التوراة من البدء أنها تنسب أرض فلسطين إلى الكنعانيين دوماً، وإلى الأموريين أحياناً، لكنها تجعل الحيثيين عنصراً أصيلاً فيها، فشجرة الأنساب التوراتية تجعل الحيثيين أبناء كنعان بن سام بن نوح، فتتسبب لكنعان بن سام ابناً اسمه (حثا) / تكوين ١٥/١٠، مع إشارة أخرى تجعل أورشليم رمزياً بنت سفاح لرجل أمورى من أم حيثية

قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض
كنعان أبوك أمورى وأمك حيثية

حزقيال ١٦ / ٣

وقد قصد النص إيضاح أن أورشليم رمز الشعب الإسرائيلى نفسه، هجين من شعبين متباعدين: الأب
أمورى وعرفناه حمورى عمورى قادم من جنوب الجزيرة والأم حيثية.

وظل الحيثيون يتواجدون كعنصر هام وبارز فى فلسطين حسبما جاء بالكتاب المقدس، إلى زمن يبعد
إلى ما بعد ملك سليمان، وكان أبرز قواد جيش داود من العنصر الحيثى (أوريا الحيثى مثلاً)، كما تزوج ولده
سليمان من نساء حيثيات (ملوك أول ١١/١)، والأموريين كما قلنا كانوا عنصراً جنوب جزيرى قادم برفقة
الكوشيين، بينما الحيثيين من أصول شمالية هندوآرية فصيحة.

وقد سبق وأوردنا نصاً يوزع عناصر سكان فلسطين على خريطتها (سفر العدد ١٣ / ٢٧ - ٣٢)
ويجعل الحيثيين من سكان جبال فلسطين، ولدينا هنا نص آخر يجعلهم يشغلون جميع المساحة الشمالية الواقعة
بين جبال لبنان ونهر الفرات، وجبال لبنان فى التوراة كان اسماً يطلق على جبال فلسطين بدءاً من الكرمل
وصولا إلى جبال لبنان الشمالية، والنص يقول ليشوع خليفة موسى بلسان الرب:

قم وأعبر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التى
أنا معطيها لهم .. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير
نهر الفرات، جميع أرض الحيثيين. وإلى البحر نحو
مغرب الشمس يكون تخمكم.

يشوع ١ / ٢ - ٤

وهذا إنما يعنى احتلال الحيثيين لجبال فلسطين التى تعد امتداداً جنوبياً طبيعياً لجبال لبنان، واننا كلما
اتجهنا شمالاً اتسعت الرقعة التى يشغلونها بالمنطقة نحو نهر الفرات ونحو البحر المتوسط. لكن المثير
للاضطراب والدهشة معاً، أننا نجد نصوصاً أخرى تشير إلى الحيثيين باعتبارهم يعيشون خارج فلسطين،
ليس ذلك فقط بل أن لهم ممالك ودول، وهو ما نجد التوراة تقوله فى أزمنة تالية أحدث، حول استيراد سليمان
للخيل من مصر، والتجارة بها مع " ملوك الحيثيين وملوك آرام/ أخبار الأيام الثانى ١ / ١٧ "، وهو الأمر
الذى يتكرر فى نص آخر يقول " وكان مخرج الخيل التى لسليمان من مصر .. وكانت المركبة تصعد

وتخرج من مصر يستمئة شاقل من الفضة، والفرس بمئة وخمسين، وهكذا لجميع ملوك الحيثيين وملوك آرام (ملوك أول ١٠ / ٢٩) " ثم بعد زمن سليمان أيام ملوك مملكة إسرائيل المنقسمة إلى إسرائيل شمالاً ويهوذا جنوباً، نجد نصاً يؤكد ذات المعنى، جاء فى معرض الحديث عن حرب جرت بين الملك الأرامى بهندد وبين مملكة إسرائيل الشمالية، عندما فر الجيش الأرامى من المعركة هارباً، لما سمع جنوده ضجيج هائل لسلاح وعربات وخيول، وقال أفرادهم لبعض : " هاهوذا ملك إسرائيل فقد استأجر ضدنا ملوك الحيثيين، وملوك المصريين .. فقاموا وهربوا فى غيش الليل/ ملوك ثانى ٧ / ٦ ، ٨،٧ "

الحيثيون بهذا الشكل مشكلة، فهم ملوك على دولة تقع خارج فلسطين، بل وملوك أقوياء يثيرون الفرع، وهو لغز كبير لا يمكن فهمه فى ضوء احتساب التوراة فى أسفار أخرى أن العنصر الحيثى عنصر يعيش فى فلسطين الكنعانية.

هذا ما كان عن نصوص المقدس التوراتى، أما علم التاريخ فيروى لنا رواية أخرى مبهرة، لكنها للأسف ستزيد الأمر غموضاً واضطراباً وإلغازاً، فقد جاء فى نصوص مصر القديمة ما يشير إلى علاقات وطيدة لملوك مصر مع ملوك قطر يسمى قطر (خيتا) التى ترجمت أيضاً إلى الحيثيين. وهناك أيضاً نصوص مشهورة لمعاهدة سلام جرت بين الفرعون (رمسيس الثانى) وبين الملك الحيثى (حاتوشيليش) بعد معركة قادش الشهيرة. وقبل ذلك بسنوات، فى الأسرة الثامنة عشر، تقدم الفاتح الأعظم فى تاريخ الشرق القديم (تحتمس الثالث) ١٤١٣ - ١٤٠٥ ق.م شمالاً متجاوزاً سورياً، ليعبر الفرات الأعلى فى هضبة الأناضول خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ليضرب قوما جاء اسمهم فى مدوناته (أهل خيتا).

وقبل ذلك بقرون، حوالى عام ٢٢٠٠ ق.م حارب (نرام سين) رابع ملوك أسرة أكد Akkad الرافدية، حلفاً مكوناً من سبع عشرة ملكاً، بينهم ملك باسم بامبا (Bamba) وصفته نصوص الرافدين بأنه ملك حاتى، وضمن الحلف ملك آخر لكنه آمورى اسمه حوار واس Huwruwas، وهو الاسم الذى يعبر لدينا عن أصل حورى واضح. وبعد ذلك بما يزيد على ألف عام، أى حوالى ١١٠٠ ق.م نجد فى نصوص الملك الآشورى تجلاتييلزر الأول، أن سوريا الشمالية العليا تظهر باسم خاتى وأن عاصمتها زمن تجلاتييلزر كانت مدينة قرقميش داخل الحدود التركية الحالية، وهى ذات العاصمة التى اجتاحتها تحتمس الثالث زمن فتوحاته الكبرى (٢٥).

واضح إذن أن المادة المتجمعة لدينا حول العنصر الحيثى تتفجر بالتناقضات الحادة، فالكتاب المقدس يظهر الحيثيين كعنصر كنعانى يسكن فلسطين مرة ومرة أخرى يظهرهم كقوة كبرى لها ملوك أقوياء خارج فلسطين، وعلم التاريخ يوضح لنا أنهم كانوا سكان الأناضول التركى ولا علاقة لهم بفلسطين، بل يجب استبعاد هذه العلاقة تماماً لأن الوثائق الحيثية المكتشفة حتى الآن، لم نجد بها ما يشير إلى هبوط الجيوش الحيثية جنوباً، فى أوج عظمة المجد الحيثى، لأبعد من دمشق، ولا نجد إشارة واحدة لدخولهم فلسطين إطلاقاً.

(٢٥) أ. ر. جرنى: الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، مطبوعات البلاغ، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٣، ٣٧، ٣٨.

وحتى المنطقة التي خضعت للحيثيين من بلاد الشام، فكانت على حساب التوسع الحيثي الحدودي الجنوبي، واقتصرت على المنطقة الواقعة شمالي قادش على نهر العاصي. ويقول المؤرخون أنه بعد انهيار دولة الحيثيين وتفككها إلى دويلات، لم نجد بين تلك الدويلات الحيثية دويلة واحدة تقع إلى جنوب حماة السورية. وقد شكلت مملكة دمشق الأرامية الناهضة حينذاك، حاجزاً بين الدويلات الحيثية شمالها وبين فلسطين جنوبها. حتى صرح (جرني) أهم باحث في تاريخ الحيثيين بقنوط بالغ:

إن وجود الحيثيين في فلسطين قبل غزو إسرائيل لها]
يقصد قبل خروجهم من مصر وغزوهم فلسطين/ المؤ
لف] يشير مشكلة عجيبة. وتجمع المعلومات المتزايدة عن
أهل حاتى لم يوضحها وإنما جعلها أكثر تعقيداً. (٢٦)

ومن هنا أخذ جرني - حلاً للمشكلة - بالفرض الذي قدمه زميله (فورر) واعتبره جرني حلاً بارعاً، إذ يرجع (فورر) إلى سكان الأناضول قبل الحيثيين والمصطلح على تسميتهم (بروتوحيثيين) أحياناً و (الحاثيين أو الخاثيين Hattians) أحياناً أخرى، وأن لغتهم التي تكلموها أطلق عليها الحيثيون من بعدهم اسم لغة خاتيلي أو حاتيلي Hattili. وينطلق (فورر) من ذلك إلى افتراض أن تلك اللغة كانت في وقت ما وسيلة تخاطب في منطقة واسعة جداً شملت فلسطين، وربما كان يقصد ما أشرنا إليه حول اللغة الكارية الحورية، وأن الحيثيين الذين رحل بعضهم جنوباً وسكنوا فلسطين زمن الخروج حسبما نفهم من التوراة، إنما كانوا بروتوحيثيين يتكلمون اللغة الخاتيلية، وأدت ظروف لاستمرار بقائهم في فلسطين، فأسماهم المأثور التوراتي باسم لغتهم وهي اللغة التي استخدمها الحيثيون، فأصبحوا بذلك حيثيين يسكنون فلسطين في التاريخ التوراتي (٢٧). [لاحظ هذا نموذج حل المشاكل السريع لدى المؤرخين المتخصصين].

وتدلنا رسائل تل العمارنة المصرية المحفوظة في مدينة إخناتون، على أن العالم في ذلك الوقت حوالى (١٣٧٠ ق.م زمن آمنحتب الثالث وولده إخناتون) كانت تنقسمه أربع دول كبرى هي: مصر التي امتدت سيطرتها إلى فلسطين وسوريا، وبابل التي حلت في ذلك الزمن اسم كاردونياش، وميتاني المملكة الحورية الخورية التي تواضع المؤرخون على وضعها على حوض الفرات الأعلى وكانت تحكمها طبقة أرستقراطية من أصل هندوأوروبي. ثم المملكة الحيثية في بلاد الأناضول.

وقد ظل أمر مملكة الأناضول الحيثية مجهولاً، فقط كنا نعرف أن هناك شعب اسمه الحيثي يعيش بفلسطين وذلك من الكتاب المقدس، حتى تم اكتشاف رسائل تل العمارنة عام ١٨٨٧م، وتحوى رسائل دبلوماسية وإدارية للملك آمنحتب الثالث وولده إخناتون، فتغطي الفترة ما بين ١٣٧٠ و ١٣٤٨ ق.م، ورسائل كتبها ولاة مصر في سوريا وفلسطين، وقد جاءت في تلك الرسائل إشارات متعددة لملك على دولة اسمها (حاتى) وإلى تحركات جيوش حاتى. كما تم العثور على خطاب كتبه الملك الحيثي (شوبيلو ليوماش) يهنئ

(٢٦) نفسه: ص ٨٣.

(٢٧) نفسه: ٢٠.

فيه (إخناتون) لتوليهِ العرش. لكن شوبيلو ليوماش ظل ملكا مجهولا لدولة مجهولة حتى عام ١٨٧٢ م. حين تمكن (وليم رايت) من نقل خمسة أحجار كانت ضمن أحجار منازل مبنية في حماة السورية وفي حلب، بعد أن اكتشف عليها هيروغليفية شبيهة بالمصرية لكنها ليست مصرية، فأطلق عليها اسم الخط الحاماتي Hamathit نسبة إلى حماة حيث عثر على الأحجار. ولم يمض غير بضع سنوات حتى تم اكتشاف نقش صخري عظيم على ترعة أوريز Ivriz في جبال طوروس بالخط الحاماتي، وهو ما وجه الاهتمام إلى آثار وأطلال ونقوش كانت مهملة، وتقع عند بوغاز كوي Boghaz Koy والجاهويوك Alaja Huyuk عند منحى نهر الهاليس Halys المعروف الآن باسم قيصل يرموق في شمال تركيا الحالية.

لفتت أنظار الباحثين بوابة حجرية كبرى يقف على جانبيها تماثلان لأبى الهول، فبدأت حفائر المتحف البريطانى عام ١٨٧٩ لتكشف عن كثير من النقوش الهيروغليفية الحاماتية، حتى تمكن (هوجو فنكلر Hugo winckler) من الحصول على تصريح بالحفر سنة ١٩٠٦ فى بوغاز كوي ليكتشف كشفه الهائل، حيث عثر على حوالى ١٠,٠٠٠ لوح مسمارى مكتوبة بلغة غامضة تشبه ما عثر عليه فى مكتبة رسائل تل العمارنة.

وبالبحث الدعوب أعلن أن تلك الثروة الهائلة ترجع إلى عاصمة لمملكة عظمى كان مقر عاصمتها حيث عثر على تلك الألواح، أى فى بوغاز كوي التى اكتشف أنها وأن تلك المملكة كانت تحمل اسم خاتوشاش Hattusas وان تلك المملكة كانت تعرف فى زمانها بمملكة الحيثيين، وأنها استخدمت فى الكتابة خطها الهيروغليفى، أما العجيب فهو أن الألواح الهائلة العدد فقد كشف أنها باللغة الحورية التى كتبت بها ألواح العمارنة فى مصر. وكان المؤرخون يعلمون أن هناك دولة مجهولة دفعت الجزية للملك رمسيس الثانى كانت تحمل اسم خيتا العظمى، لكنهم افترضوا لها موقعا فى بلاد سوريا إلى جوار ميتانى، حتى أعاد ذلك الاكتشاف العظيم الأمور إلى نصابها، ثم تالت الاكتشافات المبهرة فى العاصمة خاتوشاش الواقعة على مبعده مائة ميل شرقى أنقرة الحالية. ولما كان قد وضح أن الحيثيين يصرفون الأسماء بحرف (ش SH) و (تش CH) تلحق بنهاية الاسم، فإن اسم العاصمة دون تصريف يصبح (خاتوشا) أو (حاتوسا) وهو اسم يحمل فى طياته اسم الحيثيين.

ومن الرسوم والنقوش وبقايا جماجم هؤلاء القوم، أمكن تكوين فكره واضحة عن سماتهم الجسدية، فهم قوم مكتنون، عظام أوجههم بارزة، أنوفهم طويلة قليلا وأشبه بمنقار الببغاء، ذقونهم قصيرة.

واكتشف أنه فى ذات المكان وقبل ظهور الحيثيين أو مجيئهم من مكان ما فى الشرق، كان يعيش قوم يتحدثون لغة باسم الحاتيلية ويطلقون على أنفسهم عبارات رجال حاتى، نساء حاتى، أبناء حاتى، ويرى (إيفارلسنر) أنه من هنا جاء اسم الحيثيين الذى أطلق على الأقوام الجديدة التى احتلت الأناضول وتركت لنا هذا التراث العظيم. ويرى (موتمارت) و (زومر) أن ثقافة الحيثيين جميعاً تعود إلى أبناء حاتى الأصليين، مما يشير إلى أن الحيثيين حين وفدوا على الأناضول كانوا بلا ثقافة محددة تقريبا، فأخذوا بثقافة البلاد التى

احتلوها. وقد أكد ذلك (بيتل) الذى عاش سنوات فى خاتوشا يبحث ليكتشف أن الحيثيين الذين سيطروا هناك كانوا متخلفين ثقافيا على السكان الأصليين، وبعد ذلك اكتسبوا حضارة الحاثيين وتشربوها^(٢٨).

ويحيطنا (وليم كون) بخبر شديد الأهمية لعملنا هذا، فيقول: إن الحيثيين كانوا أول أمة عرفت خام الحديد واستخرجته وصنعتة، وأنهم كانوا يتكلمون لغة هندوآرية، ويبدو أن ذلك معرفة تعدين هذا المعدن كانت معروفة لديهم ككشف خاص فى وطنهم الأصلي الذى هاجروا منه بوسط آسيا. أما السمة الأخرى التى لاتفوتنا، فهى أن الخيل لم يظهر فى المنطقة الشرق أوسطية وكذلك العربية التى يجرها الخيل، قبل ظهور الحيثيين فيها. ويبدو لنا أن إشارات أهل الرافدين إلى حمار البلد الأجنبى أنشوكرا كانت نتيجة مشاهداتهم له فى بلادجيرانهم الجدد فى شمالهم الغربى. وقد ثبت أنهم أقدم أمة عرفت الحديد وتصنيعه من رساله وجهها الملك الحيثى حتوشيليش إلى ملك من أصدقائه يعتذر له فيها عن تلبية طلبه لأن موسم إنتاج الحديد ذلك العام كان رديئاً، مع وعد بإرسال المطلوب إلى أخيه الملك حالما ينتهى الصناع من ذلك^(٢٩).

وفى الموسوعة الأثرية العالمية نجد تحت مادة عصر الحديد Iron Age إشارة إلى خطاب وصل الفرعون رمسيس الثانى من الملك الحيثى يقول فيه أنه قد أرسل إليه خنجراً حديدياً يليق بالملك. وتشير الموسوعة إلى أن الحديد وصل بلاد اليونان قادما من منطقة تقع فى محيط بحيرة فان وبحر قزوين، وأنه حول ذلك الوقت عرفت المملكة الحورية المجاورة للحيثيين صناعة الحديد منهم. (الموسوعة تذهب مع الفرض المعتاد فى وضع الملكة الحورية ميتانى بأعلى الرافدين). وأن من منتجات الحديد الميتانى ذلك الخنجر المحلى بالذهب والأحجار الكريمة الذى تم العثور عليه فى مقبرة (توت عنخ آمون)^(٣٠).

وقد عبد الحيثيون إلها يظهر فى هيئة رب جنود، فى نقش يؤكد معرفتهم المبكرة للعجلة والحديد، فهو يركب عجلة قتال ممسكا ببلمة حديدية فى يد وبالبرق فى يد أخرى يركض بها على قمم الجبال^(٣١)، فهو إله رعد وبرق مثل البعل، ويرمز له بدوره بالثور، ثم تنسب له الأساطير الحيثية أنه هو الذى قتل التتين متعدد الرؤوس المعروف باسم لواباثان^(٣٢)، وهو ذات الفعل التأسيسى الذى قام به الإله فى الديانة الكنعانية عندما قتل تتيناً بنفس الصفات وبذات الاسم، فى ملحمة البعل التى عثر عليها فى أوغاريت/ رأس شمرا، ثم كرر الإله يهوه ذات البطولة بقتله لواباثان الحية متعددة الرؤوس بالكتاب المقدس. (للمزيد: ارجع لكتابتنا الأسطورة والتراث).

ومع دراسة الوثائق الحيثية أمكن معرفة أنهم كانوا يحبون الرجوع إلى أصل ملكى مع أول ملك لهم باسم لابارناس Labarnas ، لذلك يبدأ المؤرخون به تاريخ الحيثيين، ويقولون أنه فى عهد خليفته خاتوشيليش

(٢٨) إيفارلسنر: الماضى الحى.. سبق ذكره ، ص ٨٨ ، ٨٩.

(٢٩) كارلتون كون: القافلة، قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجانى، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص ٣٢٥ : ٣٢٧.

(٣٠) الموسوعة الأثرية العالمية ٣٧٩.

(٣١) كارلتون كون: القافلة، سبق ذكره ص ٣٢٨.

(٣٢) جرنى: الحيثيون.. سبق ذكره، ص ١٨٩ .

الأول Hattusilisi تم نقل العاصمة من مدينة باسم كوسارا إلى خاتوشا، وبعده بدأت المملكة تتسع وتخرج جيوش مملكة حيثي من خلف الحواجز الجبلية في طوروس نحو الجنوب، اصطدمت بداية بمملكة يمدخ Yamhad الغنية وكانت عاصمتها حلب Aleppo الحالية وذكرها الحيثيون باسم خالاب Khalap ، وفي عهد الملك الحيثي مورشليش قام الحيثيون بغزوة على مملكة بابل وأسقطوا دولة بابل الأولى، حيث نجد في آثارها نصاً يؤكد تلك الغزوة يقول: " إلى شمشو ديتانا زحف رجال حاتي، وزحفوا إلى بلاد أكد " وقد ربط ذلك الحدث بين ثبت التاريخ البابلي والتاريخ الحيثي^(٣٣) وبدأ تأريخ الحيثيين من ذلك العام أي حوالي عام ١٥٩٤ ق.م، لكن الغريب الذي يشكل لغزا غير مفهوم، هو انسحاب الحيثيين من بابل بعد فتحها ليركوها فريسة لغزاة عرفهم التاريخ الرافدي باسم الكاسيين، فاحتلوا بابل عام ١٥٩٥ في إثر الغارة الحيثية مباشرة، وسيطروا عليها أربعة قرون متصلة، حتى عام ١١٦٢ ق.م^(٣٤) ولمزيد من الدهشة لا يأتي عام ١٤٠٠ ق.م حتى نجد الثقافة الحورية واضحة تماماً من بلاد الأناضول شمالاً حتى العقبة جنوباً عند آدم^(٣٥).

وفي عهد متأخر زمن الملك الحيثي (تود خالياش الرابع) ثم (آرندوانداس الرابع) تظهر في الغرب قوة جديدة حول الجزر اليونانية (الفريجيون) في موجة كاسحة نحو الشرق والأناضول قادمة من جزر بحر إيجه وكريت وسردينيا، وتهاجم مصر في نفس الوقت لكنها تنكسر هناك^(٣٦)، وتتتالي الضربات على الدولة الحيثية بينما في ذات الزمن تقص علينا سجلات (رمسيس الثالث) كيف أن الجزر اضطربت، وكيف غزت تلك الجزر الأناضول وهرب الحيثيون وشعوب أخرى إلى الجنوب السوري، ليصبح الفريجيون سادة الأناضول بعد الحيثيين، لتنتهي الدولة الحيثية، وتبقى ثقافتها في المقاطعات الجنوبية السورية ضياء غسق باهت، استمر حوالي خمسة قرون. بينما استمرت وثائق آشور تشير لسوريا وطوروس باسم بلاد حاتي، التي سقطت بعد ذلك بزمان في قبضة الآشوريين، لينتهي ذكر الحيثيين وثقافتهم من التاريخ، وينسى عالم الإنسان ذلك الشعب وتلك الإمبراطورية، ويظل ذكرهم في الكتاب المقدس حكاية أسطورية لا معنى لها. واحتسبوا في أحيان أخرى مجرد قبائل كأي قبائل كانت تعيش في منطقة فلسطين وجنوبها، وعندما توغل الرحالة الإغريق في بقاع تركيا وجدوا هناك مقاطعات آشورية فحسب، ونسى اسم حاتي والحيثيين^(٣٧)، وظل ذكرهم في الكتاب المقدس يثير سؤالاً محيراً لزمناً طويلاً. من هم الحيثيين؟ وحتى بعد اكتشاف دولة الحيثيين ووثائقها، ظل وجود الحيثيين بفلسطين مشكلة تستعصى على الحل، حيث لم يقدم لنا التاريخ كعلم ما يفيد بأن الحيثيين قد دخلوا فلسطين أو ضموها لإمبراطوريتهم يوماً، ولم يبق مفهوماً بالكتاب المقدس سوى النصوص التي وردت في سفر ملوك ثاني ٧ / ٦ وأخبار أيام ثاني ١٧/١ وتتحدث عن ملوك الحيثيين، وهي الإشارة التي رآها عالم الحيثيات (جرني) تتحدث عن مقاطعات سورية ظلت حيثة الثقافة واللغة بعد سقوط دولة الحيثيين

(٣٣) نفسه: ص ٤١ : ٤٣

(٣٤) طه باقر: الوجيز سبق ذكره، ص ٤٤٩، ٤٤٨

(٣٥) جرني: الحيثيون.. سبق ذكره، ٦٦: ٣٨.

(٣٦) سامي سعيد : الرعامسة.. سبق ذكره، ص ٦٧

(٣٧) جرني: الحيثيون.. سبق ذكره، ص ٦٦: ٣٣.

بخمسة قرون تقريباً، وقتما كانت الوثائق الآشورية تشير لتلك المقاطعات السورية الشمالية باسم (حاتى)^(٣٨) وهو بدوره ما لا يفسر وجود الحيثيين داخل فلسطين كعنصر ضمن عناصر الشعوب المقيمة فيها.

وإضافة لمشكلة وجود الحيثيين كعنصر مستوطن أصيل بفلسطين، فإن هناك أمراً آخر يشكل لغزاً، فحيث سجلت المصادر الحيثية أن دولتها القديمة التى أسسها (لابرناس) كانت دولة إمبراطورية، لا نجد شيئاً واضحاً فى مدونات المنطقة الأخرى عن توسع الحيثيين فيما عدا وصوله سوريا، وإسقاط الملك الحيثى مورشيليش لدولة بابل الأولى، ثم انسحابه دون سبب واحد واضح، ليتركها طواعية لغزو آخر مجهول الشأن يستولى عليها جاء ذكر أصحابه باسم العنصر الكاسى أو الكوشى. هذا ناهيك عما ذكرته النصوص الحيثية أن جزيرة ألشيا/ قبرص كانت تابعة للحيثيين، وهو ما يراه (جرنى) أمراً غير مفهوم، لأننا لو صدقناه فذلك يعنى خروج الحيثيين من وراء جبال آسيا الصغرى^(٣٩)، ومعنى ذلك أنهم قد بدأوا تكوين إمبراطورية لم تزل التفاصيل بشأنها مجهولة تماماً .

هنا يمكن العثور على طرف الخيط فى شبكة الخيوط المعقدة التى أدت إلى تضارب شديد فى تحديد الأصل الجنىسى للهكسوس، وهو ماسيساعد بعد قليل فى تفسير وجود المفردات والصياغات الآرية إلى جوار السامية فيما تركه الهكسوس من آثار قليلة، كما يمكن أن يساعد فى حل مشكلة الموطن الأصلي للهكسوس، والتى تأرجحت بدورها بين جنوبى جزيرة العرب وبين محيط قزوين فى أرمينيا. ثم تفسير مذهب بعض المؤرخين إلى القائل بأصول إفريقية للساميين استناداً لمقاربات لغوية مُقنعة. فكما قلنا ذهب فريق كبير إلى أن جزيرة العرب كانت أصلاً منشأ الساميين ثم خالفهم فريقان: الأول يقول بمجئ الساميين من بلاد أرمينيا والثانى فريق يتوارى فى الظل ذهب إلى أن الوطن الأصلي للساميين هو شمال شرقى أفريقيا (سيناء) حيث عثر على أدلة لغوية بالكتابة المعروفة بالسينائية، وأن تلك الكتابة تجمع سمات سامية مع سمات مصرية قديمة فى اللفظ وفى المعنى. وأن تشابه السامية مع المصرية بعد ذلك يمتد إلى اللغة القبطية ولغات البربر والكوشيين والصومال وأثيوبيا. كما أن العنصرين السامى والهامى يتشابهان فى الصفات الجسدية، خاصة إذا ما نظرنا إلى جنوبى بلاد العرب وبلاد أثيوبيا، حيث لم تكن الحبشة منفصلة عن اليمن وكانتا تحسبان دولة واحدة وأطلق اليونان عليهما معا اسماً واحداً هو (أثيوبيا).^(٤٠)

أما الحيرة الناتجة عن الحلف الهكسوسى العظيم فقد تجلت فى قول صموئيل لانتج: " من الأمور التى يحوم حولها قدر كبير من الشك معرفة أصل هؤلاء الغزاة الذين عرفوا بالهكسوس أو ملوك الرعاة، وقد كانوا يتألفون على الأرجح من قبائل بدوية من الكنعانيين والعرب وعناصر سامية أخرى. لكن يبدو أن الحيثيين الطورانيين، كانوا على صلة بهم، وأن قادتهم كانوا من الطورانيين، إذا حكمنا بما نشاهد من صور

(٣٨) نفسه: ص ٦٠

(٣٩) نفسه: ص ٧٢

(٤٠) مظفر نادوى: التاريخ الجغرافى.. سبق ذكره، ص ١١٥:١٢١

وتمائيل ملكين من آخر أسرة من الهكسوس، كشفهما حديثا نافيل Naville فى بوباسطة، وتدل دلالة قاطعة على أنها طورانية الملاح بل أصيلة « (٤١).

وهى الحيرة ذاتها التى تضاعفت بعد كشف مدينة أوغاريت فى رأس شمرا بجوار اللاذقية، فقد كشفت الألواح أن شعب أوغاريت الصغير هذا قد تمازج فيه أكثر من شعب وعنصر، فقد كانت فيه فى وقت واحد جماعات أكادية وحيثية ومينوية ومصرية وعمورية « لكن الجماعة الأكثر عددا كانت جماعة الحوريين » (٤٢). ويقول الأركيولوجى (شيفمان): « وكان التخاطب فى أوغاريت يتم بلغتين محليتين هما: السامية التى يسميها علم الساميات المعاصر بالأوغاريتية وبالحرورية، أما اللغة الثانية فهى الأكادية التى اقتبست عن بلاد الرافدين وقامت بدور الوسيط العام كوسيلة للتخاطب المكتوب بين الدولة الأوغاريتية وبقية الدول، وبين الجماعات الإثنية، وكذلك كانت لغة الشؤون العملية والمراسلات»، ثم يعود إلى اللغة الحورية ليقول : « كانت اللغة الحورية نسبية اللغة الأوغاريتية وعدد آخر من لغات شمال القفقاس المعاصر » (٤٣).

وهكذا بعد أن أكد لنا شيفمان أن الحورية لغة سامية، يعود ليقول أنها نسبية لغة شمال القفقاس وهى لغة هندو آرية (!!) دون أن يشعر بأي اختلال (!!).

وما يعضد أمرنا من وثائق أوغاريت ذلك النص الذى يشير إلى خضوع المدينة مكرهة لمحتل غريب الشأن، هو مزيج من الكوشيين والحوريين والحيثيين والقبارصة، وأنهم ينتمون إلى مدينة جامعة واحدة، والنص يتحدث عن قربان يتقدم به شعب أوغاريت للإله .. والنص يقول:

ويقدمون ضحية حماراً ويغنى ابن أوغاريت
الأغانى ويزينون أطراف الجدران فى أوغاريت
ويتزين (بامعان) ويتزين (عروماتو)
ويتزين... (تلف بالنص) ويتزين (نقمد)

وقبائل الحوريين
وقبائل الحيثيين
وقبائل الآلاشين
(الاشياهى قبرص/ المؤلف)

والقبائل المكروهة، القبائل التى نهبتكم القبائل
التي أدلتكم.

(٤١) نفسه: ١٦١.

(٤٢) شيفمان: ثقافة أوغاريت .. سبق ذكره، ص ١١٣

(٤٣) نفسه: ٣١.

قبائل المدينة المتسلطة

هانحن نقدم قربانا ونذبح ذبيحة فليعلو هذا الحمار

إلى عشيرة أبناء (إيلو) (أبناء إيلو أى أبناء الله/

المؤلف).^(٤٤)

ثم نتابع السعى وراء كل ما يؤيدنا فنجد وثائق مدينة دولة (إيبلا) التى تعود بتاريخها إلى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، تحدثنا عن مجتمع باسم ديتانو بالكتابة (ديدانو)، ويقول (شيفمان) أن هذا الاسم أطلقه أهل إيبلا على جبال باسم (آمور). ويلحظ شيفمان أن اسم ديدانو يتطابق مع اسم ددان شرقى آدوم، وأن اسم جبال آمور ويتطابق مع اسم جبال الأموريين، لكنه لا يرى وجوب مخالفة الرأى السائد فيقول: " ويبدو أن تطابق هذا الاسم مع اسم احد مجتمعات شمال شبه جزيرة العرب.. مجرد مصادفة ^(٤٥) ؟! . هكذا(٤٦)

ثم يقف (شيفمان) مع اصطلاح (رباتى RP.THT) الذى يرد بكثرة فى الألواح الأوغاريتية وهو ذات اصطلاح (رفائى) و (رفائيين) الذى يرد بكثرة فى التوراة للإشارة إلى الشعب الطويل العملاق. ويكتشف شيفمان فى نصوص أوغاريت أن الرباتيين قد اتحدوا مع شعب ديدانو وشكلوا جماعة واحدة ينتمى إليها جميع أهل منطقة (ددان) جنوب شرقى آدوم، وأن هذا الاتحاد جاء تفصيله بمكونات الأحلاف فيه فى سفر التكوين ١٩/١٥ - ٢١، وقد رجعنا من جانبنا نبحت وراء هذا النص فوجدناه يعدد أطراف ذلك الحلف كالآتى:

القينييين والقنزييين والقدمونييين والحيثيين والفرزييين

والرفائييين والأمورييين والكنعانييين والجرجاشيين

والليوسيين.

ثم يضيف شيفمان أن الرباتيين وصفوا فى وثائق أوغاريت بأنهم " شعب عظيم كثير العدد طويل القامة " ^(٤٦) أما الأشد تلاقيا مع فروضنا فهو التصور الأوغاريتى عن الرباتيين باعتبارهم جنساً متميزاً هجيناً ينتمى من جانب لجنس البشر لكنه من جانب آخر ينتمى إلى عنصر الآلهة ^(٤٧). وهو ما يذكرنا بالأسطورة التوراتية عن الجبابرة الذين كانوا نسلاً مميزاً من أبناء الله وبنات الناس، الذين اصطلح التاريخ على تسميتهم بالعمالقة.

ومن الطيب فعلاً ثراء تاريخنا العربى الذى سجل ذكريات تاريخية قديمة عن انتشار العماليق فى المنطقة والمناطق التى حكموها، وأن بنى حام (المصريين) قد طردوهم من تلك المناطق، وقد تم ذلك

(٤٤) نفسه ٨٨.

(٤٥) نفسه ١٠.

(٤٦) نفسه ٧٣.

(٤٧) نفسه ٧٤.

التسجيل مع بعض الالتباسات التي عادة ما شابَت الكتابات التاريخية العربية، ونموذجاً لذلك ما جاء عند ابن قتيبة الدينوري في كتاب المعارف إذ يقول:

وكان من بينهم العرب العمالة الذين كانوا يتألفون من قبائل مختلفة، والذين انتشروا في بلاد متعددة، ومن بينهم ملوك مصر وبابل .

وما جاء عند ابن خلدون عالم الاجتماع العربي في كتاب (العبروديان المبتدأ والخبر) إذ يقول:

إن عاداً والعمالة حكموا العراق، ويقال أنه لما طردهم أبناء حام هاجروا من بابل إلى بلاد العرب^(٤٨).

وما جاء عند اليعقوبي وهو يشرح أن ملك العمالة على مصر كان طارئاً عليها وحدث لأسباب آنية حينذاك، فيقول:

ولما اتخذ المصريون النساء ملكات عليهم، طمع العمالة ملوك سوريا (تعنى بر الشام جميعاً / المؤلف) في غزو مصر، ومن ثم عاث الوليد بن دومة فيها فساداً، وأجبر المصريين على الاعتراف به ملكاً عليهم، وقد حكم مصر مدة طويلة، وخلفه بعد موته ملك آخر من العمالة هو ريان بن الوليد الذي عاصر يوسف.

وهنا يورد لنا ابن خلدون سبباً آخر لاحتلال العمالة مصر لأنه لم يقتنع بسوء حكم النساء، فيقول :

وقد طلب بعض الملوك القبط في مصر المعونة من أحد ملوك مصر العمالة في مصر فاستجاب لرغبته لكنه احتل مصر لنفسه.

هذا بينما يؤكد ياقوت الحموي:

إن فراغت مصر كانوا من العمالة، وكذلك كان فرعون إبراهيم وفرعون يوسف وفرعون موسى^(٤٩).

وفي كتب الأنساب نجد أن:

العمالة من ملوك حمير كانوا بالشام. منهم الزباء قاتلة

(٤٨) مظفر نادوثي التاريخ الجغرافي سبق ذكره، ١٤١، ١٤٠

(٤٩) نفسه: ص ١٤٩: ١٥١

جذيمة الأبرش .. والعماليق من ولد عمليق بن لاوذ

بن سام، منهم الفراعنة ملوك مصر .. والعنقاء لقب

ثعلبة بن عمرو بن عامر الأزدي^(٥٠).

ومن المدهش حقاً أن يطلق المؤرخون العرب على أول ملك هكسوسى لمصر هو فاتحها اسم (شداد) وهو الأكثر تواتراً في الكتابات العربية كأول ملك عماليقى على مصر وليس الوليد بن دوماً، وهو ما يلتقى تماماً مع اسم أول ملك هكسوسى حدثنا عنه مانيتون المؤرخ المصرى وكذلك بردية تورين باسم (شلات) أومع التصريف اليونانى (شلاتيس) أو (شلاد)، وهو ما لا يلتقى معه مبنى فقط بل فى المعنى أيضاً فكلمة شداد تعنى القوى الشديد وكذلك تعنى ذات المعنى كلمة Sallat فى اللغات السامية ومنها (شلات) ومنها أيضاً سلطنة وسلطان وسلطة.

ويلخص لنا (جاستانج) أمر الحِيثِيِّين، فنراهم مجموعة أجناس وأحلاف وذلك فى قوله إن " القبائل الحِيثِيَّة .. كانت تتكلم بما لا يقل عن ست لغات مختلفة إلا أنه لم يتضح بعد إلى أى حد يدل اختلاف طرق الكلام ولغات هذه القبائل على وجود تباين حقيقى بين أجناس الناطقين بها.. وقد أظهرتها الرسوم المصرية المتأخرة على أربع أو خمس سلالات من الفصائل التى حاربت فرعون .. بل أن آسيا الصغرى (تركيا/ المؤلف) ما برحت حتى اليوم أهلة بأقوام غير متجانسة. منها الجركس والأرمن والأكراد واليونان .. يحتفظون بجنسياتهم ويتكلمون لغتهم الخاصة.. وكانوا يجنحون أول ما ظهروا إلى الاندماج فى حلف سياسى يؤلف بينهم ... وخضعوا بصفة عامة لسلطان قبيلة خيتى " ^(٥١) لكن جاستانج يذهب مع الجميع إلى موضوعة ميتانى فى أعلى الرافدين بجوار الجانب الشرقى للحِيثِيِّين فيقول: إن الملك الحِيثِي سبليوليوماس " استغل اتفاقه مع الحريين فأخذ يرسم خطه على نطاق عسكري أوسع أفقاً، فها هو ذا يعبر الفرات عند منابعه العليا، ولعل ذلك كان عند ملطية. فيجتاح أرض عيسووه المقابلة التى كانت لا تزال تعترف بنفوذ دوشراتا على ما يظهر. فأذل أهلها وأمن بإذلالهم على سلامة هذا الطريق البالغ الأهمية.. وأنجز استعداداته فعبّر الفرات بكامل قوته .. ثم انتهى به الزحف إلى مشارف واشوكانى Wassukkanni عاصمة الميتانيين نفسها، وهى التى يُظن أنها كانت واقعة عند منابع نهر الخابور " ^(٥٢).

أما نحن فلا نرى فى ذلك إلا مزيداً من الدعم لنظريتنا، فأرض عيسووه التى أشارت إليها نصوص سبليوليوماس الملك الحِيثِي باعتبارها بلاداً يحكمها دوشراتا وان فيها عاصمة الميتانيين، لاتقع عند منابع نهر الخابور فليس هناك أى (عيسووه) بعد بحث وتقصى دقيق استغرق وحده من بحثنا وجهداً زمنياً، إنما تقع بين

(٥٠) الويسى: اليمين .. سبق ذكره، ص ١٤٨

(٥١) جاستانج: إمبراطورية الحِيثِيِّين، ترجمة درينى خشبة، تاريخ العالم الثانى المجلد الثانى، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ٨، ٩.

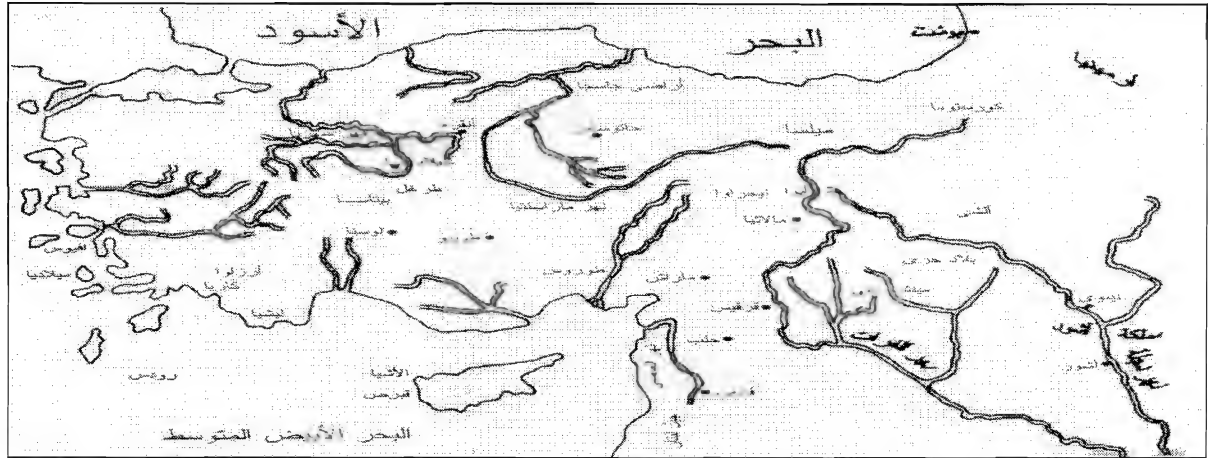
(٥٢) نفسه: ص ٢٥

البحر الميت وخليج العقبة فى بلاد مديان الآدمية فى بلاد عيسو/ آدوم. أما الطريق البالغ الأهمية فهو طريق التجارة العالمى الذى كانت تمسك بعنقه بونت / سالع البتراء.

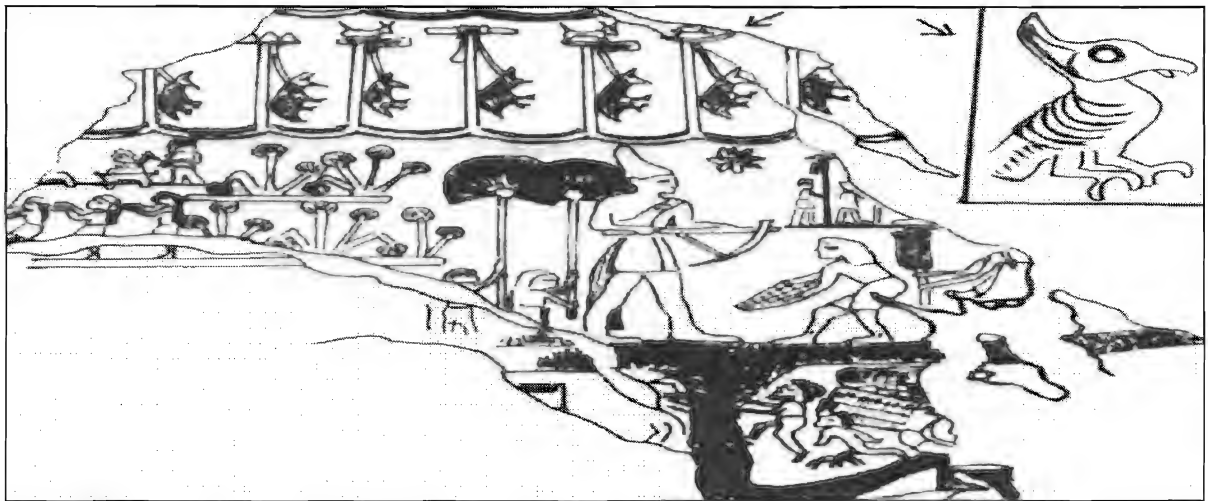
وهكذا نعرف كيف حدث التوحد قياساً على هذا النموذج المتأخر فهو توحيد ثانٍ قاده ملوك الحيثيين، أما الأول فقد حدث بنفس الطريقة النموذج، فهبط الحيثيون واستولوا على عنق الطريق التجارى، وضموا تحت جناحهم تلك العناصر والشعوب، وقادوها لفتح دول الجوار الكبرى فيما عرفه البابليون بالكاسيين وعرفه المصريون بالهكسوس. وهناك، إلى الشرق من تركيا على البحر الأسود يقع الميناء المعروف حتى الآن باسم بونت، ثم منح الحيثيون سلسلة الجبال الكبرى شمالى الهلال الخصيب اسم جبال بونتس، ومن هناك هبطوا جنوباً مبكرين، ربما قبل أن تصل بقية الهجرات الكثيفة بأزمان، ليمنحوا منطقة العقبة ووادى عربة أسماء بلادهم القديمة، وهو الأمر الذى يعضد نظريتنا فى تحديد هذه المنطقة القديمة بحسبانها هى بلاد بونت التاريخية، وجاء الاسم (بونت) مع الحيثيين الوافدين من بلاد بونت عند البحر الأسود إلى شرقى سيناء/ آدوم.

أما أتباع مدرسة جارسنانج ورفاقه فما زالوا يبحثون عن عاصمة بلاد الميتانى عند نهر الخابور فى الفرات الأعلى.

أما نحن فقد علمنا أن المصريين قد عرفوا محتلي بلادهم (الهكسوس) باسم الشاسو وأن الشاسو مزيج هجين من الكوشيين (الكاشو) الزنوج السبأيين القادمين من الجنوب والحاثوا (الحيثيين) الحوريين القادمين من الشمال وبين هذا وذاك تتأثرت البطون والأفخاذ الشمالية والجنوبية عمورية جنوبية عملاقة وأرامية شمالية حمراء وكثير من العناصر المزيج. شكلوا ما يزيد على ثمانية وعشرين جنساً فيما أخبر المؤرخ (هوروشوش)، ليتمركزوا فى بلاد آدوم وينطلقوا منها لتكوين إمبراطورية تشمل المحيط جميعه، وهو الأمر الذى سيزداد تأكيداً ووضوحاً فى الصفحات التالية من هذا العمل.



خريطة رقم (بلاد الحيثيين)



شكل رقم (١)

طائر الزقزاق مشنوقاً على رأس دبوس قتال الملك العقرب، وهو المعروف بطائر السماء اليوم



طائر الزقزاق وأمامه المن العسلى (المن والسلوى؟)

عاد وثمرود

يفهم من المادة التى قدمها لنا (سليم حسن) أن مدونات الملوك الحيثيين قد ورد بها ذكر الحوريين مرات عديدة، كما جاء فى ذات المدونات حديثاً عن الخابيرو. ويقول (سليم حسن): إن تلك المدونات تفصح عن علاقات قوية ومتينة بين أولئك الذين حملوا فى تلك المدونات اسم (الحوريين) وبين أولئك الذين حملوا اسم (الخابيرو). وهكذا يبدو سليم حسن ميالاً إلى ربط الخابيرو بالحوريين، أو التأكيد على أن المدونات الحيثية هى التى ترى ذلك، ومع ذلك يؤكد سليم حسن من جانبه أن الخابيرو كانوا من العنصر السامى بينما الحوريين من عنصر مخالف تماماً هو الهندوآرى^(١).

وفى موضع آخر، وفى إشارة عابرة، يبدى ذلك المؤرخ الكبير دهشته من الانتشار الواسع للمواد الحورية بطول حوض المتوسط الشرقى وعرضه، دون سبب واضح، خاصة أنه ينظر إليهم كبقية المؤرخين بوصفهم شعباً منكور الشأن ينزوى على استحياء بين شعوب المنطقة. ويجد أن فنون الفخار الحورى تتطابق فى كل المنطقة فهى فى فلسطين كما فى أعالي الرافدين كما فى مصر كما فى قبرص. يضاف إلى ذلك أن مصر بداية من عهد الدولة الحديثة، قد أخذت تشير إلى فلسطين باسم بلاد حور/ حورى، مما يفيد بغلبة هذا العنصر على منطقة شرقى المتوسط^(٢). بل وصل مد الآثار الحورية حتى وجدناه ضمن آثار الحيثيين بشمالى الأناضول^(٣).

إن ذلك جميعه يؤكد نظريتنا حول الإمبراطورية الحورية التى قامت بذرتها فى بلاد آدوم، ثم توسعت لتضم المنطقة جميعاً فيما عرفه التاريخ باسم إمبراطورية الهكسوس.. ونستعيد المشاهد الأولى لدخول الهكسوس مصر فى حديث (كاسيدوفسكى) وهو يؤرخ قائلاً:

فى حوالى ١٧٨٠ ق.م اجتاحت بلاد مصر أحداث
ثورية عاصفة هزتها هزاً عنيفاً.. واهتزت القوة
المصرية بشدة عانت فيها مصر من انهيار سياسى
حقيقى. حلت بالبلاد كارثة رهيبية. فقد اندفعت من
الشرق جحافل لا حصر لها من الجنود الأغراب،
واجتاحت مصر كسيل جارف، وكان هؤلاء الجنود
يركبون عجلات سريعة تجرها الخيول ويحملون سيوفاً

(١) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٩٥، ١٩٤.

(٢) نفسه ص ١٨٢.

(٣) نفسه ص ١٨٧.

طويلة، ويلبسون دروعاً من حديد^(٤).

ويضيف (سليم حسن) أن معدن البرونز المصنوع من سبيكة خليط من القصدير والنحاس، والذي ظهر في مصر مع الهكسوس، كان معروفاً في الأناضول منذ عام ٢٥٠٠ ق.م. وأن ذلك يعد في علم التاريخ من **الحقائق الثابتة**. مع ملاحظات عدة أخرى تؤكد أن الهكسوس قد أتقنوا في موطنهم الأصلي فن صناعة المعادن القوية بشكل لم تعرفه مصر من قبل^(٥).

ويجد المؤرخون تبريراً معقولاً لسقوط مصر بحجمها المعلوم أمام - ما كان مظنوناً أنه - شراذم بدوية، يكون هؤلاء كانوا « يتسلحون بأسلحة صنعت من الحديد. وهذه النوعية من التسليح لم تكن معروفة بعد في مصر .. هذا إضافة إلى الصلافة والشراسة التي طبع عليها الهكسوس، من طول الحياة البدائية التي قضاها في الصحراء »^(٦).

وعن الحوريين تقول موسوعة تاريخ العالم: إنه « كان أعظم عمل للحوريين، هو إدخال العربة ذات العجلتين التي تجرها الخيل إلى مصر وغربي آسيا حيث أصبحت معروفة بعد عام ١٦٠٠ ق.م. عثر الباحثون في سجلات بوغازكوى [عاصمة الحيثيين / المؤلف] على كتاب في تدريب الخيول كتبه أحد الحوريين المعروف باسم كيوكولى ويحتوى الكتاب على كثير من التعبيرات الفنية الهندية ».

والمعلوم من علم التاريخ أنه « لم يظهر الحصان في مصر حتى عصر الهكسوس عندما أدخل من آسيا لجر العربات أصلاً »^(٧) ويؤكد (بترى) أن الحصان قد ذكر في لوح كارنافون باسم (حترو) وهى كلمة حورية تنبهننا إلى الأصل الحورى للحصان^(٨).

وعن الحصان يحدثنا تشيلد: « إن الحصان له علاقة أصيلة بالأقوام الآرية والظاهر أنه يمكن اقتفاء أثر الكلمة المصرية والسامية الدالة على لفظ الحصان إلى اللغة الآرية وهى (أسوا) من السنسكريتية (آسفا). ومن الواضح أن الكلمة المصرية (سسمت) مشتقة من اسم الجمع العبرى (سوسيم) وكلمة سسمت لا تمثل إلا الحروف الساكنة للاسم، وحرف التاء فيها للتأنيث. وعلى أية حال فإن وجود وسيط سامى فى نقل الكلمة إلى المصرية، يجعلنا، نظن بعض الشيء أن الجنس الآرى .. يحتمل أنه اختلط بعنصر سامى من بين الهكسوس.

(٤) زينون كاسيوفسكى: الأسطورة .. سبق ذكره، ٧٧، ٧٨.

(٥) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٦٥.

(٦) جوليا سامسون: نفرتي، ترجمة مختار السويفى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٠٥.

(٧) جاردنر: سبق ذكره، ص ٥٧.

(٨) Petrie, Ancient Gaza, Landon ١٩٢١, p.٤

ولدينا كلمة أخرى هي **ميرين** ومعناها خيال وسائق عربية، والظاهر أنها تنتسب إلى الكلمة الميثانية مارينا، وهذه الكلمة الأخيرة قرئت بالكلمة السنسكريتية **ماريا** ومعناها الرجل الفتى الشاب ^(٩).

هكذا تجمع الدلائل إلى درجة القطع واليقين على أن الهكسوس هم أول من أدخل إلى منطقة شرقي المتوسط فن صناعة المعادن الثقيلة كالحديد، وأن معدن البرونز تحديداً كان معروفاً في بلاد الحيثيين بالأناضول منذ وقت مبكر. ولعلنا نتذكر الآن رسالة الملك الحيثي حتوشيليش الثالث لملك صديق يعتذر عن الوفاء بطلباته لأن موسم الحديد كان رديئاً ^(١٠). ثم نلمس علاقات قوية بين الكوشيين الذين احتلوا بابل (الكاسيين) وبين الحيثيين، وصلت حد التضامن الكامل. فتضرب جيوش حيثي بلاد بابل لتتركها فريسة سهلة للكوشيين، مع علاقة أخرى طوال الوقت تجمع الحيثيين بالحوريين.

وإن نسبة الخيل والعربة العسكرية والحديد إلى الحوريين مرة، وإلى الحيثيين مرة أخرى، لا يشكل سوى مشكلة ظاهرية. لأن الحوريين الذين ظهروا في فلسطين وآدوم يعودون بأصولهم إلى هجرة قدمت من منطقة أرمينيا ومحيط بحر قزوين، بينما تموضع الحيثيون إلى الغرب منهم مباشرة في الأناضول. وهناك رواية تاريخية تقول أن الحوريين قد سبق لهم التوضع في الأناضول حتى ظهر الحيثيون وأزاحوهم من هناك ودفعوهم جنوباً، لكن الواضح ويجب استنتاجه دون جهد هو أن هناك حلفاً قد قام بين كليهما، وأن كلا الشعبين: الحوري والحيثي قد تسربا جنوباً عبر نسيج هذا الحلف وخيوطه الرابطة، بحيث نجدهم يظهران بالكتاب المقدس كشعبين من شعوب فلسطين وبلاد آدوم.

وهكذا يظهر بالتدريج أن منطقة آدوم التجارية قد استوعبت في شريط ضيق لكنه طويل وهائل كل هذا التداخل التدريجي لشعوب هندوآرية (أرامية) قادمة في بلاد أرمينيا، عنصره آري (فارسي)، ومكوناته حوري وحيثي، في حلف امتد على الخط التجاري العالمي القادم من أعلى بوادي الشام عند الرافدين الأعلى، ممتداً عبر بوادي الشام وبلاد آدوم، مستمراً في امتداده عبر بلاد الحجر والخط التجاري الحجازي الواصل إلى اليمن ليلتقي في وادي عربية وجبال سعيير حلفاء الشمال الأراميين بحلفاء الجنوب من شعوب (عمورية) قادمة من جنوب الجزيرة العربية بصحبة العنصر الزنجي الذي عبر المندب إلى الجزيرة ببضائعه الإفريقية.

وحتى يتضح سر هذا التضارب علينا الآن العودة إلى مشكلة أصل الساميين، فقد نشأ القول بأن هناك أصلاً واحداً للمتكلمين باللغات الأكادية (بابلية وآشورية) وبالكنعانية والعبرية والفينيقية والأرامية والحبشية والنبطية والعربية، بحساب المشتراكات اللغوية التي تجمع بين لغات هذه الشعوب. فجذور الأفعال فيها جميعاً ثلاثية، وتتطابق فيها جميعاً الألفاظ الدالة على القرابة والعلاقات الاجتماعية، وهو ما يشير إلى مشترك أول جمع بينهم جميعاً في تنظيم المعاملات وبخاصة التجارية. وهو ما أدى جميعه بالعالم النمساوي لودفيج

Childe, The Aryans, New York, ١٩٢٦, pp ١٨، ١٩، ٨٣، ١٠٩

(٩)

(١٠) كارتوكون: القافلة .. سبق ذكره، ص ٣٢٥: ٣٢٧.

شلو تسر عام ١٧٨١م إلى إعلان عام أن الشعوب التي تتكلم هذه اللغات تتحدر من أصل واحد أطلق عليها اصطلاح الساميين، وأنهم لاشك بهذا المعنى قد جاءوا من أصل وطنى قديم واحد هو وطن الساميين الأم.

لكن ما حدث هو أن الباحثين تضاربوا تضاربا هائلا عند محاولة تحديد هذا الوطن الأم الأصلي للعنصر السامى الذى انتشر فى حوض المتوسط الشرقى بدءاً من شرقى الدلتا المصرية وسيناء وآدم وفلسطين وبوادر الشام وصولاً إلى تركيا فى أقصى الشمال واليمن فى أقصى الجنوب. فذهب فريق كبير إلى أنهم قدموا من جزيرة العرب فى هجرات كبرى، ويمثل هذا الفريق الجانب الأعظم من العلماء الذين اهتموا بتلك المشكلة. ومنهم دى جوييه De Goege وشرادر Shradar وونكلر Wincklr وتيلي Tiele وماير Mayer وروبرتسون سميث Robertson Smith ولانج Samuel lang وساييس Wright Sayce وروجرز R.W. Rogers.

وخلاصة ما توصل إليه أصحاب هذا رأى هو أن شبه جزيرة العرب لم تكن منطقة صحراوية جافة فى كل عصورها القديمة. فقد تعرضت لهطول أمطار غزيرة طوال عصر البلايستوسين (آخر العصور الجيولوجية) شأنها فى ذلك شأن بقية المناطق المدارية، ونتيجة ذلك غطتها الغابات والنباتات التى تسكنها المجموعات البشرية. وانتهى عصر البلايستوسين بأبطاره حوالى سنة ١٠,٠٠٠ ق.م. وبدأ الجفاف يزحف على المنطقة لتحل الصحراء محل الغابات إلا حيث نحتت الأنهار لها مجار كنهر النيل ودجلة والفرات.

نتيجة لذلك بدأت تتضاءل إمكانيات الحياة وأضطر الناس إلى النزوح منها كلما زحف الجفاف والإجذاب، وهو ما أدى إلى موجات متتالية من الهجرات من شبه الجزيرة إلى المناطق الخصبة على تخومها، وكانت آخر تلك الهجرات تلك التى جاءت مع الفتوح الإسلامية فى القرن السابع الميلادى وقد حملت هذه الهجرات لغتها معها وهو ما أدى إلى تعدد فى الشعوب السامية وتقارب فى اللغة سواء فى الألفاظ أو فى التراكيب أو فى التصريف.

وقد رتب أصحاب هذا رأى هذه الهجرات استناداً إلى ما استنتجوه من شواهد تاريخية .. على النحو التالى:

١. الأكديون وقد استقروا فى وادى الرافدين فى الألف الرابعة قبل الميلاد.
٢. الكنعانيون بما فيهم الفينيقيين والأموريين وقد استقروا فى المنطقة السورية ووادى الرافدين خلال الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد.
٣. الآراميون وقد استقروا فى كل مناطق الهلال الخصيب والعبرانيون الذين استقروا فى المنطقة السورية فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد.
٤. الأنباط وبعض القبائل العربية الجاهلية وقد استقروا فى منطقة الهلال الخصيب بين القرن الثانى والقرن السادس قبل الميلاد.
٥. العرب المسلمون وقد استقروا فى منطقة الهلال الخصيب وشمال أفريقيا منذ القرن السابع الميلادى.

ويدعم هؤلاء نظريتهم بالقواقع الحجرية التى عثر عليها فى شبه الجزيرة وهى لاتعيش إلا فى الماء العذب، وبقايا عظام وأدوات حجرية تشير إلى وجود الماء والحياة فيما قبل التاريخ، إضافة إلى عدد من الوديان الجافة الآن مثل وادى الدواسر ووادى الرمة ووادى السرحان التى يحتمل أنها كانت أنهاراً عظيمة. هذا مع حيوانات وأشجار كانت معروفة فى جزيرة العرب أيام الكتاب الكلاسيك يونان ورومان ٥٠٠ ق.م - ٥٠٠ م. أو الكتاب العرب وقد أندثر بعضها الآن مما يشير لاستمرار زيادة الجفاف والتصحر.

لكن أصحاب النظرية اختلفوا حول أى موطن كثيف فى الجزيرة كان يعيش الساميون، بعضهم رأى أنه اليمن وأنه من الخط المسند اشتقت سائر الخطوط التى كتبت بها الشعوب السامية. وبعضهم رأى ذلك الموطن هو شرقى الجزيرة على ساحل الخليج أما البعض الثالث فرأى أن موطن الساميين هو حافة شبه الجزيرة الشمالية الغربية وهو ما يعنى محيط بلاد آدوم وسيناء^(١١).

أما الفريق الآخر من علماء الأجناس فقد نحى منحى مخالفاً ويعتمد أصحابه على أدلة لغوية تربط ما بين السامية وبين الأحباش للقول أن الجنس السامى جاء من أفريقيا الشرقية عبر باب المندب والبحر الأحمر وأن أفريقيا هى أصل الساميين والحاميين معاً، الساميون عبروا مضيق باب المندب إلى جزيرة العرب والحاميون عبروا عن طريق سيناء قدوماً من مصر^(١٢).

أما الفريق الثالث فيذهب بعيداً تماماً ليأتى بالجنس السامى من أرمينيا حيث هضبة آسيا الوسطى، الوطن الأصلي للجمل، وقد جاء الجمل من هناك مع الساميين المهاجرين من جنوب شرقى وجنوب بحر قزوين مروراً بإيران^(١٣).

وقد رأى الباحثون المحدثون أن افتراض فكرة موطن أصلى واحد ليس ضرورياً لتفسير التشابه والتقارب بين اللغات، فليس ضرورياً أن تنتمى الشعوب التى تتقارب لغاتها إلى عنصر واحد ووطن واحد، لأن هناك احتكاك دائم بين الشعوب خاصة فى تلك المنطقة المتوسطة من العالم وهى منطقة مفتوحة طوال تاريخها كما أن الاختلاط وتشابك المصالح غالباً ما يؤدى إلى ازدواج لغوى^(١٤). ولأننا نعتقد أن ظهور الشعوب السامية لم يكن كما صورت النظريات الدينية تنحدر من أسلاف يعودون إلى أب واحد تفرقت منه البشرية إلى زنجى حامى وأسمر سامى وأحمر يافئى. بل نعتقد أن ما حدث هو العكس تماماً، وهو الموافق لروح العلم حيث تلاقت أجناس متفرقة وتلاقحت فى مساحة جغرافية أفرزت عنصراً جديداً، وأن ذلك تكرر فى جهات متفرقة من العالم. وبين الشعوب التى ظهرت نتيجة التلاحق الجنسى كان ذلك الشعب السامى الشمالى الذى حمل فى جيناته أصولاً حامية زنجية ومصرية، مع أصول هندوآرية وحملت لغته أصول لغات تلك الشعوب، وأن ذلك قد حدث فى سيناء وآدوم وبوادي الشام ويبدو أن هذا التلاقى والتلاحق قد بدأ مبكراً

(١١) لطفى عبد الوهاب يحيى: العرب فى العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩، ص ٥٨.

(١٢) نفسه: ص ٤٩: ٥١.

(١٣) نفسه: ص ٥٥، ٥٦.

(١٤) نفسه: ص ٧١: ٨١.

جداً وأقصى ما يمكن قوله هنا أن عنصراً زنجياً كان عبوره المندب بالمنتجات الأفريقية امتداداً طبيعياً للطريق التجارى الكبير ليصبح عضواً بعد ذلك فى الحلف الهكسوسى العظيم عندما يلتقى فى بلاد آدوم بالعنصر الهندوآرى القادم من برارى آسيا. وهو ما يفسر لنا كيف كان بنى زقورة بابل ملكاً حكم فى بابل باسم نمروود، ونمرود فى المأثور التوراتى والتاريخ الإسلامى زنجى أسود من أبناء كوش. ثم نقول لنا الوثائق التاريخية أن بنى البرج حمل اسماً يحمل فى تكوينه حامية زنجية واضحة فهو (كوريكالزو)، وكان ضمن سلسلة حكام تأكد تاريخياً أنهم كانوا أقلية حاكمة على بلاد بابل.

ثم نفسر لنا تلك الرؤية انتشار العنصر الحورى الأرامى بطول المنطقة من الفرات الأعلى حيث تموضعت مملكة (أرابخا) الحورية. حتى المملكة الحورية فى آدوم، كما يفسر لنا انتشار العنصر الحيثى فى فلسطين، يحمل فيها سمات سيادية واضحة كما يظهر من قصة شراء إبراهيم مغارة المكفيلة منهم وسجوده لهم. ولايفوت فطن أن اسم المملكة الشمالية (أرابخا) بلسان هندوآرى ينطق عربياً دون التباس (العربية). ثم أن المنطقة التى هبط منها العنصر الهندوآرى تسمى الآن (البك) لكن اسمها التاريخى كان (آراب - خيتيس Arrapa-chitis^(١٥))، وهى كلمة تحمل تصريفاً اسمياً حائلياً حوريا يشبه ما نراه فى نطق اسم الإله سبت باسم سيتنش أو سوتخ، فالكلمة ارابخيتيس هى (آراب) أو (عرب)!!

وقد نسبت التوراة الشعب العبرى إلى جد بعيد باسم (أرفكشد) أو (أربكسد)، وأعادت موطن هذا الجد إلى منطقة أارات بأرمينيا، بحسابه من أحفاد نوح حيث رست السفينة الأسطورية. وفى سلسلة أنسابها تؤكد التوراة أن هذا المكان مرموز له باسم (أربكسد) أو (آراب خيتيس) أصل لسلسلة من الأنساب العبرية والعربية فى نفس الآن (ولنلاحظ أن عربى هى عبرى بالميتاتيز). ويحيطنا (آرثر كيث Sir Arther Keith) أستاذ علم الأجناس - وفق المنهج الأنثروبولوجى - أنه قد « ظلت القوقاز وميديا [شمالى فارس/ المؤلف] وعامة منطقة بحر قزوين حتى العصور التاريخية القريبة نسبياً ١٠٠٠ - ٥٠٠ ق.م. مجتمعات رعاة فى المقام الأول رغم معرفتها بالزراعة». وقد أسفرت حفائر (ليونارد وولى Leonard Woolley) و(لانجدون Langdon) و (دى مورجان De Morgan) عن نتائج أساسية. هى أن الرعاة وليس الفلاحين هم من نزلوا من بحر قزوين فى كل اتجاه بالمنطقة، لامتلاكهم وسائل النقل السريع كالخيل والجمال، لأسباب ديموغرافية كالأنفجارات السكانية أو بسبب كوارث طبيعية كالجفاف، أو بسبب السيول كما سجلتها التوراة رمزياً فى قصة الطوفان^(١٦). أما المؤكد عند (آرثر كيث)، فهو أن الجنس العربى المعروف الآن كان من أصول قوقازية تتكلم السامية، مما يعنى اختلاطاً شديداً بين السامى والآرى فى العنصر الجيسى وفى اللغة. وهو ما يمكنك ملاحظته فى مأثور التوراة وذكريات المحررين عن الجنس الآرى مرموزاً له بيافت بن نوح والجنس السامى مرموزاً له بسام بن نوح فنقول: « ليفتح الله ليافت فيسكن فى مساكن سام/ تكوين ٨ / ٢٧ » لكن ما يجب التنبيه عليه هنا هو أن هؤلاء الذين هبطوا من الشمال الأرمينى إلى بلاد آدوم، قد حملوا من أصل مواطنهم

(١٥) نولدكة: اللغات السامية .. سبق ذكره، ص ٢٢.

(١٦) لويس عوض: مقدمة.. سبق ذكره ، ص ١٠٧، ١٠٨.

إشارات لتسمية تلك الأصول (آرامية)، ومنهم كان أولئك القائلون " أراميا تائها كان أبى " ومنهم كان سكان وادى عربية الذين أعطوا للعرب اسمهم. وهنا يفيدنا زياد منى بأن المراجع العربية القديمة تعيد اسم العرب إلى نشأتهم فى وادى عربية فنسبوا إلى بلادهم^(١٧). وذات المعنى يؤكد مظهر نادوثى إذ يقول عن اسم العرب وأصله البعيد: " نعرف أن هذه الكلمة أطلقت بادئ ذى بدء على شمال جزيرة العرب وليس على جنوبها .. ويبدو أن ما ذهب إليه الجغرافيون من أن أول اسم سميت به بلاد العرب هو عرابة صحيح، وقد أصاب هذا الاسم التحريف على مر الزمن فأصبح بلاد العرب، وتبع ذلك أن سمي الشعب باسم العرب نسبة إلى بلادهم، وتعنى كلمة عرابة فى كل اللغات السامية صحراء. ومعنى هذا اللفظ فى العبرية حقل أو غابة " ^(١٨). وهو ما يصادق على ما قلنا ويشهد على أن بلاد الغابة أو الأيكة كانت وسط الصحارى الصخرية فى بلاد وادى عربية.

ولما كنا قد قلنا أن تجمع الأحلاف كان فى وادى عربية، وأن الحصان والعجلة قد جاءا إلى المنطقة مع الهكسوس، فإن ذلك يفسر لنا لماذا تسمى العجلة حتى اليوم عربية، ولماذا يسميها المصريون عربية. وهنا نستمتع لزياد منى يؤكد أن اصطلاح عرب واصطلاح عبر (عربى/ عبرى) بمعنى واحد هو البدو المرتحلين دوماً ^(١٩) أو كما قلنا (شاسو). وهكذا أعطى سكان عرابة لجنس العرب اسمه، بينما سكان جزيرة العرب أنفسهم كانوا لا ينظرون لسكان عرابة على أنهم أصلاء، بدليل أنهم أصرروا على توضيح ذلك وتسجيله بالتفريق بين عرب أصلاء سكنوا جنوبى الجزيرة هم العرب العاربة أى الراسخة فى العروبية بتعبير ابن خلدون، وبين عرب دخلاء اكتسبوا العروبية اكتساباً عندما سكنوا بين العرب، واستحقوا اسم العرب المستعربة أى التى استعربت ولم تكن كذلك. ومقصود ذلك هو عروبة مكانية، عروبة الجزيرة، مقصود يرى الجزيرة موطناً للجنس العربى على امتداد تاريخه ولم تكن كذلك كما هو واضح.

ويقول المؤثر التاريخى العربى أن العرب المستعربة أى القادمين من عرابة كانوا يتكلمون السريانية المنفرعة عن الآرامية الأرمنية. وفى الزمن الذى لم يكن العرب بلغتهم كعنصر مميز قد ظهر فى جزيرة العرب، كانت إشارات المؤرخين الكلاسيك عن العرب تشير فقط إلى وادى عربية. ثم اتسع المدلول بالتدريج ليشمل عرب سيناء والشام، ولم يتسع مفهوم المكان الجغرافى العربى ليشمل جزيرة العرب المعروفة الآن إلا زمن الرومان^(٢٠). ولكن قبل ذلك، عندما لم يكن عرب آرام/ أرمينيا قد تواروا تاريخياً من أرمينيا، نقرأ عند اسخيلبوس المسرحى اليونانى فى مسرحية Prometheus السطر ٤٢٠ عبارة شديدة الدلالة، تؤكد أن معنى كلمة عرب أطلق فى مبدأ الأمر على أهل البرارى والخيول فى برارى أسيا (أرمينيا) قبل أن يمنحه مهاجروها لوادى عربية، ولنقرأ هذه العبارة البليغة نقول: " زهرة شباب Arabia يحمون بأسلحتهم الحصن

(١٧) زياد منى: جغرافية الجذور .. سبق ذكره، ص ٨٥، ٨٦.

(١٨) مظهر نادوثى: التاريخ الجغرافى .. سبق ذكره، ص ٥٨، ٥٩.

(١٩) زياد منى: جغرافية الجذور .. سبق ذكره، ص ٨٦، ٨٧.

(٢٠) لطفى: العرب .. سبق ذكره، ص ٩٦:٩٨، أنظر أيضاً عثمان: الشعر .. سبق ذكره، ص ١٠٣.

المنيع على حدود القوقاز » (٢١). وهنا نقرأ ما ورد عند عبدة بن شرية أن أحد أبناء سام بن نوح أنجب ولدين أحدهما هو إرم الذى ينتسب العرب المستعربة إلى بنييه. (٢٢) ومن جانبه يحيطنا فراس السواح نقلا عن طومسون قوله: « أما عن جزيرة العرب فيبدو أن اللغة العربية السامية قد جاءت عن طريق فلسطين وسوريا الجنوبية في أواخر عصر البرونز المبكر وأوائل عصر البرونز الوسيط أى حوالى عام ٢٠٠ ق.م. » (٢٣).

أما التاريخ العربى نفسه فقد أعطى لسكان جزيرة العرب قبل أن تكون عربية وقبل أن تتكلم العربية اسم القحطانيين أى عرب الجنوب مجازاً، أما العرب الشمالية مع انفتاح الجزيرة الواسع دون حدود جغرافية مانعة حتى الأناضول، فقد حملوا اسم العرب العدنانية نسبة إلى جد باسم عدنان، يبدو أنه ترميز لأصولهم غير الجزيرية العائدة إلى أصول أسطورية توراتية، فى مكان أول لهم على الأرض كان منطلق البشرية باسم جنة عدن. (٢٤)

وهكذا تفسر لنا نظرية الحلف التجارى الكبير كثيراً من الغوامض والألغاز، مثل إصرار التوراة طوال الوقت على وجود عنصر زنجى كوشى فى محيط جنوبى فلسطين دون منطق واضح كاشف يبرر هذا التواجد هناك. فالكوشيون هم فى التوراة الأحباش الزنوج سكان أفريقيا السوداء تحديداً، لكنهم فى التوراة كثيراً ما يظهرون جنوبى فلسطين كشعب له جيوشه. وقد ذهب مرجليوث لتفسير نص التوراة الذى يقول إن الفلسطينيين والعرب الذين بقرب الكوشيين قد هاجموا جنوبى مملكة يهوذا، بأن المقصود بالعرب هنا عرب اليمن الذين بجوار الحبشة عبر مضيق باب المندب (!!!) بينما ذهب موسيل Musil إلى أن المقصود هم عرب سيناء الذين بجوار المصريين باعتبار المصريين حاميين من أبناء حام الذى أنجب مصرام وكوش، فهم المقصودون بالكوشيين (٢٥).

أما نحن فتفسيرنا هو هذا الكتاب جميعه.

كذلك تفسر لنا ذلك نظرية الحلف التجارى حكم الكوشيين لبابل، وأنهم لم يدخلوا فى معارك مع جيرانهم كعادة سكان الرافدين المفتوحة على محيطها مما كان يخلق دوماً توتراً عسكرياً لحماية الحدود، وكان حكم الكاسيين أو الكوشيين فى الرافدين على اتصال حميم ودائم مع الجيران بالمنطقة، مما يشير إلى أن زمن حكمهم لبابل كان هو ذات زمن حكم الحلف لبقية المنطقة، كان هو ذات زمن الامبراطورية، بعد أن بلغ الأحلاف من القوة ما يسمح لهم بالخروج عن الشريط التجارى الطويل لاحتلال دول المحيط شرقاً وغرباً.

(٢١) لطفى: العرب .. سبق ذكره، ص ١٩٧.

(٢٢) وهب بن منبه: التيجان فى ملوك حمير، حيدر آباد، الدكن، ١٣٤٧ هـ، وعبيد بن شرية: أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، وكتابات الملوك وأخبار الماضين (ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه) ص ٣١٦ - ٣١٩.

(٢٣) فراس السواح: أرام دمشق .. سبق ذكره ص ١٦، ١٧.

(٢٤) نفسه ص ٢٢، ٢١.

(٢٥) لطفى : العرب .. سبق ذكره، ص ١٨٦.

وكذلك تفسر نظريتنا انتشار التعدين فى أقصى آدوم بينما أصوله الابتداعية كانت فى أقصى الشمال الحىثى. كما يفسر لنا مجئ الخيل والعربة العسكرية مع أسماء سامية وأسماء هندوآرية حيرت الباحثين الذين اعتبروا جزيرة العرب مهد الشعوب السامية، والإشكال أن طبيعة جزيرة العرب لايمكن أن تكون مهداً للحصان لأن الحصان والعربة فرز لا يصلح لفيافى الرمال، بقدر ما هو فرز مسطحات صخرية وجبلية صلبة كما فى الشمال الحىثى الحورى وكما فى بلاد آدوم الصخرية، حتى أن أهل الرافدين أطلقوا عليه اسم (آنشوكرا) أى حمار الجبل ولم يطلقوا عليه حمار الصحراء.

ثم يفسر لنا الحلف ذلك التوافق العجيب الذى أفرز فى النهاية لغة أرامية مشتقة من البابلية مكتوبة بالمسمارية كلغة عامة فى المنطقة ولغة مكاتبات رسمية، فقد كانت لغة الأحلاف التى تم التوافق عليها، فبدأت بابلية ثم تطورت إلى كارية / حورية عرفت بعد ذلك بالأرامية، أما الأعجب الذى أصبح مفسراً الآن وفق عملنا فهو الرصد الذى قام به لويس عوض ليكتشف أن اللغة العربية فى كثير من مفرداتها وتراكيبها تعود إلى أصول هندوآرية أما الأكثر عبقرية فهو أن تكشف لنا علوم اللغات كشوفا حديثة تؤكد ما قلناه، فالجنوب الحميرى أو الجنوب جزيرى الذى تدفق محتضنا زنج أفريقيا نحو الشمال بصحبة تجارته، كان عنصراً له لغة تختلف تماماً عن اللغة العربية التى جاءت مع عنصر وافد هبط جزيرة العرب من آدوم. وقبلها كان مجيئه إلى آدوم من أرمينيا، وهم العرب المعروفة باسم القيسية العدنانية، والباحثون يؤكدون لنا الآن " أن اللغة الحميرية شئ، واللغة العربية شئ آخر، وأن الحميرية أقرب إلى الحبشية القديمة منها إلى العربية " (٢٦).

ثم نعلم إلى أى حد تأثرت أطراف المنطقة بحدث الهكسوس عندما نكتشف مدى العلاقات والمشاركات التى حدثت بين اللغة المصرية القديمة وبين اللغات السامية وبخاصة العربية، فذات الباحثين يقولون: " إن اللغة المصرية القديمة كانت تشترك مع اللغات السامية فى العديد من التركيبات الجهرية، وإن كان بها بعض التشابه أيضاً مع لغات إفريقية، مثل الصومالية فى الشرق والبربرية فى الشمال، فالمصرية تشترك مع السامية فى خاصتها الأساسية التى تجعل كلماتها تستخدم مصدراً واحداً غالباً ما يتكون من ثلاثة أحرف، كما تشتمل على كلمات مشتركة عديدة.. وتحتوى اللغة الهيروغليفية على أصوات اللغات السامية الأساسية، مثل الحاء والعين والضاد، لكنها لا تعرف حروف الثاء والذال والطاء مثلها فى هذا مثل العامية المصرية الحالية " (٢٧).

ومن ثم نتأكد لنا علاقة اللغة المصرية القديمة باللغة العربية (القاموسية) التى ظهرت واضحة طوال عملنا هذا، ويتم تفسير وجود ألفاظ مصرية أحصاها بعض الباحثين بـ ٣٠٠٠ مفردة مصرية قديمة دخلت

(٢٦) أحمد عثمان: فى الشعر الجاهلى واللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة ١٩٩٦، ص ١٥.

(٢٧) نفسه ص ٥٥ ، ٥٧.

إلى العربية، ناهيك عن الألفاظ الهندوآرية الموجودة بالعربية، وكذلك المفردات التي تعود إلى لغات ساحل إفريقيا القادمة مع العنصر الزنجي.

وعليه فإن اللغة العربية الحالية لم تكن لغة جزيرة العرب، لأن تلك الجزيرة كانت لها لغاتها التي عرفناها بخط المسند بالجنوب اليمنى وهي غير العربية الشمالية التي جاءت جزيرة العرب مع العرب العدنانية المستعربة المتأثرة إلى حد بعيد بالمصرية القديمة، حتى تكاد تكون في ٦٠% منها مصرية قديمة. وأن العرب العدنانية هم من منح جزيرة العرب صفة العرب، أما قبل ذلك وإن أردنا لغة الجزيرة حقاً قبل أن تأتيتها عربية الشمال (مصرية + هندوآرية + اللغة الجعزية القادمة مع الزنوج)، فإن تلك اللغة القديمة للجزيرة كانت لغة اليمن أو لغات اليمن أو اللغة الجنوب جزيرية. أما العربية الشمالية القاموسية فالظل المصرى يغطي أكثر من نصفها حتى أننا لو بحثنا اليوم عن اللغة المصرية القديمة فسنجدها تغطي العالم (العربي) أما لو بحثنا عن اللغة القديمة لسكان الجزيرة فهي تلك التي كانت في الجنوب اليمنى وانقرضت وأصبحت من مهام علماء الحفائر والاركيولوجيا.

كذلك تحل فرضية الحلف الإمبراطوري لغز وصول الحيثيين إلى (الآشيا / قبرص) لأنها ببساطة كانت تابعة ضمن مجموعة جزر المتوسط للإمبراطورية الهكسوسية.

وفي ذات الجزر عثر على آثار للملك الهكسوسى خيان ملك مصر آنذاك، الذى يبدو أن زمن حكمه كان زمن أكبر توسع قوى للأحلاف الهكسوس فيقول (سليم حسن): " كان الملك خيان الذى جاء ذكره فى قائمة مانيتون وعلى الآثار أعظم ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر، وقد ورد اسمه فى قائمة مانيتو على ما يظهر باسم يناس Jannas وآثاره منتشرة فى جهات مختلفة. وقد عثر على جعارين عدة وأختام باسمه ومنها نعلم أنه كان يحمل الألقاب التالية: حاكم البلاد الأجنبية خيان، الإله الطيب خيان، الإله الطيب سوسرن رع، حاكم المجندين خيان، ابن الشمس سوسرن رع، ابن الشمس خيان.. وأهم ظاهرة فى حكم خيان هى وجود آثار له خارج القطر المصرى فى جهات نائية بعيدة جداً لدرجة أن بعض المؤرخين ظن أن مملكته قد مدت أطرافها إلى تلك البقاع، فقد وجدت له آثار فى سوريا وفلسطين من جهة، وفى بغداد وكريت من جهة أخرى. أما عن وجود جعارين باسم هذا الملك فى سوريا وفلسطين فلا غرابة فيها، لأننا نرى أن هذين القطرين كانا ضمن البلاد التى يسيطر عليها الهكسوس أيام عظمة مجدهم " (٢٨). وفى كريت كشف الأثرى إيفانز فى أثناء الحفر بقصر كونسوس على غطاء أنية مرمية باسم خيان (٢٩).

ثم لعلنا نذكر أن المصريين قد بنوا حائط الأمير الذى يصد الأسويين وعابرى الرمال، فى الوقت ذاته الذى بنى البابليون سوراً عظيماً مماثلاً باسم (مورق تدنم) أى الحائط الذى يصد الأموريين، مما يشير إلى تزامن فى انتشار الوافد الجديد بقوة.

(٢٨) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ص ٤، ص ٩٢، ٩١.

Evans, The palace..., ١, p ٤٩

(٢٩)

والمؤرخ اليهودي (يوسفوس) لم يعلم أن الإسرائيليين بطن آرامي صغير وظنهم ذات عين الهكسوس الذين حكموا مصر، وقال إنهم بقوا في مصر مدة زمنية تصل إلى ٤٥٠ عاماً، والجميل في هذا الشأن أنها ذات المدة التي أقرها علم التاريخ لحكم العنصر الكاسي/ الكوشي لبلاد بابل(١٩)

ويحكي لنا الكتاب المقدس عن زواج البطرك إبراهيم بعد موت زوجته سارة من امرأة في النقب في محيط آدوم بقوله: « وعاد إبراهيم وأخذ زوجة اسمها قطورة / تكوين ٢٥ / ١ »، وأنجب منها شعب مديان، ترميزاً لعلاقات واضحة بالمديانيين.

ثم يحكي لنا أيضاً عن هروب موسى من مصر بعد قتله المصري وزواجه من صفورة المديانية بنت كاهن مديان رعوثيل/ يثرون.

ثم يأتي المؤرخ ابن العبري فيلخص لنا الحدثين في عبارات كانت غير مفهومة بالمرة، لكنها تصبح واضحة في بحثنا هنا، جمع فيها ابن العبري ذكريات ذلك التاريخ المتناثرة، ليقول في نص شديد الأهمية لنا رغم أنه كان من المهمات تماماً:

فهرب موسى إلى أرض العرب، وتزوج صافورا

الزنجية ابنة يثرون بن رعويل المدياني ابن ددان بن

يقش بن إبراهيم من زوجته قطورا التركية (٣٠).

هل أصبحت شهادة ابن العبري إذن ليست من تهريفات القداماء كما يوصف عادة؟ ونحن نعلم أن الأرض التي هرب إليها موسى كانت بلاد مديان/ آدوم في سيناء الشرقية عند وادي عربية، وهي ما يسميها ابن العبري « أرض العرب » مصادقاً على كل ما قلنا، وفي هذه الأرض العربية أجمع إبراهيم العبري الأرامي مع الدداني مع المدياني مع - وهنا كان الغريب غير المفهوم - الزنج والأتراك وهكذا لا يصح أن نندهش لاسم ددان وهو اسم إله مصري لبلاد النوبة وما والاها من جنوب وهي بلاد الزنج، ولا لمعرفة أن كلمة تركي في العربية تعني الجوال أو المشاء أو غير المستقر أبداً.

وهكذا عرف المصريون محتلي بلادهم وبلاد بابل باسم الشاسو وهم الكاشو أو الكاشين، وكان هؤلاء الهكسوس عناصر خليط من شعوب متعددة تضافرت بطونه في ثلاث أعراق واضحة استظلت بالثقافة واللغة المصرية: هي (النحسي الزنجي الكوشي الكاسي)، و(العموري السبأي القادم من جنوب الجزيرة) و(الهندوآري الأرمني الأرامي وتفاصيله في العبري والحوري والحيثي، القادم من براري محيط بحر قزوين). اجتمعت في دولتها المؤسسية التجارية بلاد آدوم، وانطلقت عزوماتها من بونت سالع البتراء عاصمتها الكبرى ، وحملوا في بابل اسم الكاسيين وحملوا في مصر اسم الهكسوس الذي ترجم مرة إلى الحكام الرعاة ومرة الملوك الرعاة ومرة الرعاة الأسرى ومرة شيوخ البدو، وفي رأينا أن أصدق ترجمة هي الحكام الشاسو أو

(٣٠) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول.. سبق ذكره، ص ١٧.

الكاشو من (حق = حاكم بالحق الإلهي = ملك) + (شاسو = كاشو = كوشى) فهم الملوك الكوشيون، ولما كانت كاشو وشاسو تعنى المتحرك دوماً إشارة للبدو فهو ما يؤدى إلى ترجمتها (شيوخ القبائل البدوية).

وتشير المدونات القديمة وتفسير المؤرخين أنه كان فى ذلك الحكم الهكسوسى طبقتان: طبقة دنيا من الجند المرتزقة من عناصر وقبائل شتى، وطبقة عليا هى الحاكم الفعلى المسيطر وكانوا غالباً من العنصر الهندوآرى. ويؤكد لنا (جاردنر) أن اصطلاح حق شاسو أو حق كاشو أو كما دونه (حقيق خاصه) يعنى رئيس البلد الجبلية، وأن الاصطلاح يشير فقط إلى الحكام وحدهم وليس كما ظن يوسفوس أنه يشير إلى الهكسوس جميعاً^(٣١) هذا بينما اختلط فى نسيج الطبقة الدنيا الزنجى بالجنوب جزيرى بالهندوآرى.

ويؤكد ذات المعنى (زينون كاسيدوفسكى) فى قوله: « إن الهكسوس أنفسهم لم يشكّلوا سوى فئة قليلة العدد كانت على رأس المقاتلين، أما الجماهرة الرئيسية من هؤلاء فقد تألفت من شذاذ الآفاق الذين كانوا يقطنون الصحارى والمغامرين والمنتشدين.. وقد أظهرت التنقيبات الأثرية فى مدينة أريحا أن الهكسوس شغلوا هذه المدينة القديمة لوقت ما. وهكذا يجوز لنا أن نفترض أن مستعبدى مصر كانوا يسيطرون على فلسطين أيضاً.. ويتوقع أن تكون عشيرة يعقوب قد جاءت مصر مع زحف الهكسوس أو بعد أن أقاموا سيطرتهم فيها. وقد استقبل يعقوب ومن معه استقبالا طيبا فى مصر لأنهم كانوا أقرباء المحتلين.. ومن جهة أخرى ليس من الصعب أن نتوقع أن الفراعنة الهكسوس لم يتقوا بالمصريين، وكانوا يتقنون بأنسابهم الأسويين الذين يجمعهم معاً المنشأ واللغة »^(٣٢).

وعليه نفهم تقسيم السيادة بين بقية عناصر سادة الإمبراطورية، فبينما تركت بابل للسيادة الكوشية، وضعت مصر تحت سيادة النخبة الحيثية التى كانت بظننا الجنس القائد للإمبراطورية.

ويؤكد ما ذهب إليه كاسيدوفسكى، أن التوراة تكشف عن علاقة حميمة بين سكان المنطقة السامية وبين قيادة الهكسوس التى احتسبناها حيثية، حيث تقول التوراة بترميزها عن عيسو / آدوم « ولما كان عيسو ابن اربعين سنة اتخذ زوجة، يهوديت ابنة بىرى الحيثى وبسمة ابنة إيلون الحثى / تكوين ٢٦ / ٣٤ »، ثم تتأكد علاقة الحثى بالإسرائيلى فتفصح عنها الزوجة الأولى لعيسو / آدوم وكان اسمها (يهوديت). فهى حيثية تنتسب باسمها إلى رب إسرائيل يهوہ.

وعلى ذكر مدينة أريحا، يمكننا أن نأخذها كنموذج واحد فقط يدلنا على عدد القبائل المتعددة التى توحدت فى أحلامو الهكسوس، فيقول الكتاب المقدس عن المساحة من سيناء حتى الفرات الأعلى ..

من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات.
جميع أرض الحيثيين.

(٣١) جاردنر: مصر القديمة .. ص ١٤٩.

(٣٢) زينون كاسيدوفسكى: الأسطورة.. سبق ذكره، ص ٧٨، ٧٩.

يشوع ١ / ٤

ثم يعدد لنا سكان أريحا على أصولهم فيقول:

أصحاب أريحا: **الأموريون**، والفرزيون،
والكنعانيون، والحيثيون، والجرجاشيون، والحويون،
واليبوسيون.

يشوع ١١، ١٢ / ٢٤

أما أقرب مصرولوجيست إلى ما قلناه حتى الآن فهو مارييت Mariette الذى قال عبارة عابرة لم يكررها أو يستقيض فيها في صدفة عبقرية:

إن قبائل الهكسوس كانوا **أخلاطا** من العرب وأهل
الشام وأكثرهم من الكنعانيين كما ذكر مانيتون،
وكانت أكبر قبيلة حاكمة عليهم تسمى بالقلم الهرمسي
خيتا وفي التوراة هم **الحيثيون** وفي التواريخ العربية
العمالقة^(٣٣).

ولا يغرب على عين فاحصة أن تلاحظ منقار البيغاء الأنفى أو الأنف البيغائى المقوس القادم من الشمال
الأرمينى الحورى الحيثى، فى سمات العنصر الإسرائيلى وفى الأدوميين وعرب الحجاز الشمالى المستعرب
حتى الآن. وكان هبوط هذا الأنف إلى الحجاز فى رأينا قد جاء بعد تشتيت قوة الهكسوس على يد أحمس
وملوك مصر الذين خلفوه، فتشردت قواهم ليهبط بعضها الحجاز وتبقى بعضهم فى البلاد الحيثية والبابلية
متماسكا ليستمروا هناك زمنا أطول وصل إلى مايزيد على أربعة قرون. ويدعم رؤيتنا حديث التاريخ عن
عدم توافق بداية الحكم الكوشى فى الرافدين مع نهاية الأسرة البابلية الأولى، واحتمال أن يكون الحكام
الكاسيين السبعة الأوائل قد حكموا خارج بلاد بابل، لأن ذلك يلتقى مع ستة ملوك هكسوس حكموا مصر
خلال ١٠٨ سنة على التوالى فيما يقول لنا علم المصريات الحديث. ويبدو أن الهكسوس قد نقلوا عاصمة
الإمبراطورية إلى مصر إبان احتلالها وقبل طردهم منها. ويزيدنا دعما أنه بعد التحرير تأتىنا من مصر
أخبار: أن أمنحتب الثانى واجه عصيانا فى بلاد الشام، وكان رؤساء ذلك العصيان يحملون أسماء **حورية**
^(٣٤)، لقد كان الهكسوس الحوريون مازالوا حتى زمن أمنحتب الثانى سادة فى الهلال الخصيب.

وتحمل العجلة التى تجرها الخيل القادمة من برارى قزوين لتتمركز ردحا فى وادى عربية فتصبح
(عربية) أو فى اللسان المصرى (عربية) بدلالة لاتحمل لبسا فيما وصلنا إليه من نتائج حول مركز تجمع
قوى الهكسوس مركزيا فى وادى عربية، حيث من هناك هبط جنوباً فرع أرامى أرمينى هو الفرع الإسماعيلى

(٣٣) غطاس الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ١٣٤.

(٣٤) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٤.

ليسكن الحجاز ويستعرب كما ظن المؤرخون العرب أنه استعرب. بينما هو من منح الجزيرة عربيته ولغته العربية التي تقع في ثناياها اللغة المصرية القديمة فصيحة. بينما كانت ذكريات المنطقة تتواتر في مدونات التأريخ العربية فيقول برهان الدين الحلبي راوى السيرة: " إن إسماعيل عليه السلام أول من ركب الخيل.. وقد قال (ﷺ) اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل " (٣٥).

وهنا ينبه (لويس عوض) في قراءته لتاريخ الهكسوس إلى أن اصطلاح (حق - كاش) الذى يقرأه (حكا خاز - Heqa - Khase) يرتبط فونيطيقيا باسم الحجاز بجزيرة العرب، ويرى أن " الهكسوس لم يأتوا إلى مصر من الحجاز ومن شبه جزيرة العرب، وإنما استقروا فيها بعد طردهم من مصر، أما المنبع البشرى الذى تدفقوا منه على الشرق القديم، ثم عبروا إلى مصر سواء على مراحل أو دفعة واحدة، فهو.. حول بحر قزوين. وربما كان هذا المنبع ذاته مجرد محطة وسطى استقروا فيها زمناً منذ هجرتهم من وسط آسيا، شأن كافة القبائل التى كانت تسمى آرية وطورانية وسامية. والهكسوس إذن ليسوا بنى إسرائيل، إنما بنو إسرائيل على الأرجح قبائل دخلت كنفهم ثم طردت من مصر بعد رحيل الهكسوس بقرون .. ولعل بنى إسرائيل هم العموم Ammou التى كثيراً مايرد ذكرها مع الخازو Khasou أو الهكسوس فى النقوش المصرية القديمة، وكانت متمركزة معهم فى شرق الدلتا بصفة أساسية " (٣٦).

ورغم بعض الخلط عند الدكتور عوض، فإن التقاطه تطابق اسم الهكسوس مع اسم الحجاز، وإن الحجاز قد اكتسب اسمه من الشرانم المطرودة من مصر وهبوط بعضهم إلى شمالى الجزيرة، هى لقطة شديدة الإضاءة والتميز. ثم نتذكر فرع (سمعل) أو (إسماعيل) الأرامى ومملكة بيت عدن أو أدنى أو آدون أو عدن، والإله الذى كان ينتشر شرقى المتوسط باسم عدن أو أدن أو أدونيس ويعنى الرب أو السيد مرادف البعل. ونجد الإسرائيلى ينادى ربه بالتوراة: أدوناي أى ياسيدى ولم تزل أدون بمعنى سيد فى العبرية من الأصل عدن أو السيد الرب الذى تتسب إليه قصة جنة عدن، التى تتحدث عن ذكريات عالم سعيد عاش فيه الأسلاف تحت رعاية ذلك السيد، قبل أن يغضب عليهم فيشتتهم من جنته رباعية الأنهار، وهى الجنة التى لو دققنا فى مواصفاتها الجغرافية بالتوراة لأعطينا مساحة الإمبراطورية الهكسوسية من دجلة والفرات إلى نهر النيل.

وربما كان سيجموند فرويد محقا وهو يربط الاسم الإلهى آدون باسم الإله الذى تبناه أخناتون وعرف باسم (آتون) والذى يلتقى مع اسم بلاد (آدوم) قياسا على استخدام التوراة كما فى عمران وعمرام. كما تلتقى مع الذكريات الأسطورية للإنسان الأول فى جنة السيد المعروف باسم (آدم) وهى تسمية الجنوب اليمنى لسكان بلاد آدوم كما أسلفنا التوضيح، ومن ثم كانت بلاد آدوم هى بلاد آدون أو بلاد آتون وبلاد عدن. وكانت

(٣٥) على برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص ٣٠، ٣١.

(٣٦) لويس عوض: مقدمة .. سبق ذكره، ص ١١، ٢٢.

تقع شرقي مصر حيث تشرق منها الشمس على مصر كل يوم لذلك استحققت أن ينعته المصريون باسم أرض الإله لأن (أتون) في المصرية القديمة كانت تعني قرص الشمس وتتسب تلك الأرض أيضاً للإله ست الذي يمنع أبوفيس في الأسطورة المصرية من ابتلاع الشمس.

وبين سكان تلك البلاد الآدومية أو الآتونية أو العدنانية كان العنصر القادم من بلاد أرابخيتيس أو بلاد (عرب) الذين هبطوا وسكنوا الحجاز مستعربين، وفق رأى يرى جزيرة العرب هي موطن العرب وأن من دخلها واستوطنها استعرب، لكن مانراه قد حدث هو العكس حيث منح هؤلاء اسمهم أولاً لوادى عربية ثم منحوه لجزيرة العرب عندما استوطنها. ومن هنا احتسب الرأى العربى فى كتاباته التاريخية أن العرب الأفحاح هم عرب الجنوب، أما عرب الشمال الوافدة فهي ليست من أصول عربية إنما استعربت. رغم أن امتداد الجزيرة مستمر حتى بلاد الأناضول دون عوائق جغرافية حتى أن اصطلاح جزيرة العرب جغرافياً يدل على المنطقة من المحيط الهندى حتى جبال زاجروس شمالاً.

وقام النسابة العرب ينسبون المستعربة إلى جد أسطورى بعيد باسم عدنان على وزن فعلان من (عدن). والكلمة عدن معرفة بلسان الجنوب بأداة تعريف هي (ن) تلحق بآخر الكلمة، كما فى (رحمن) و (رحمنن)، فالكلمة عدن فى أصلها غير المعرف هي (عدّ) و (أدّ) و (حدّ) والإله حداد هو أدّ أيضاً ويمكن أيضاً ببساطة أن تكون (ودّ) دون خلل، ونحن نذكر الإله البعل حداد أو هداد أو أد كما لا شك نعرف الإله (ود) الذى عبد فى بلاد آدوم وجزيرة العرب على نطاق واسع، وهو ذات الإله البعل حداد أو عدّ.

وهو ما يستدعى آيات القرآن الكريم التى كانت تحدثنا عن مدينة كبرى اشتهر أمرها فى العصور الخوالى فى دولة مركزية كبرى أطلقت عليها الآيات اسم (عاد إرم ذات العماد)، ويؤيدنا تماماً هنا أن (عاد) عند ابن قتيبة الدينورى هو اسم علم لأب قبلى، يعطينا اسمه موافقا لكل ما قلنا فهو (عاد بن عوص بن إرم) فعاد هنا قبيلة من نسل عيسو وعيسو من نسل إرم. وإرم تلقى بنا فى عمق التاريخ مع الآراميين القادمين من أرمينيا، ومع الإرم بمعنى الصخرة والصخرة عاصمة آدوم.

وبشأن عاد والعماد نقرأ لسان العرب فيطالعنا تحت مادة (عدد):

العد هو الكثرة .. عادّ هم الشئ تساهمونه بينهم
فساواهم .. والعدائد.. الشراكة. ويعنى ابن الأعرابى
بالشركة جمع شريك، أن يقتسموها .. والعديد الذى
يعد من أهلك وليس معهم .. والعد ماء الأرض الغزير
.. وعدان الشباب والملك.. ومعد أبو العرب وهو معد
بن عدنان.

ثم نستطلع كلمة العماد فتأتينا فى مادة عمد فى قوله:

العماد الأبنية الرفيعة.. وفى قوله تعالى: إرم ذات العماد

قيل معناه أى ذات الطول .. ورجل طويل العماد إذا كان
معمداً أى طويلاً .. وعميد القوم وعمودهم سيدهم ..
والعمود القضيب الحديد .. والمعمد والعمد والعمدان
والعمدانى الشاب الممتلئ شباباً وقيل هو الضخم الطويل..
والرباعى منه عمرد:

والعمرود والعمرد: الطويل، يقال ذئب عمرد .. ويقال
العمرد الشرس السيئ الخلق .. والعمرد الذئب الخبيث..
والعمرد السير السريع الشديد.

والثلاثى منه عود:

وعاد قبيلة وهم قوم. قال: هود الليث: وعاد الأولى هم عاد
بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله .. أما عاد
الأخيرة فهم بنو تميم ينزلون رمال عالج، عصوا الله
فمسخوا نسناسا.. والعيدية ضرب من الغنم والعيدانة
النخلة الطويلة، والعيدانة شجرة صلبة قديمة..

وهى جميعاً المعانى التى جمعت فأوعيت قصة أولئك الذين تحالفوا ولم يكونوا على قرابات أصيلة، مع
صورة واضحة للمكان وللشجر ومايلفت النظر تكرار صفة الشباب الممتلئ شباباً لدى العاديين، وهى ما يلتقى
مع تلك الصفة فيهم والتى سجلها عنهم التاريخ، عندما قال أن قواد الخيول الأرامية يسمون ماريانو أو مرين،
لذلك نعود إلى اللسان نقرأ تحت مادة: مرن

مرن: لين فى صلابه.. قال ابن برى: صوابه معك
بالكاف، يقال رجل معك أى مماطل (نتذكر هنا أرام معكة
الأرامية وصفه تجار شعب الأيكة المماطل/ المؤلف)..
ومرنه عليه فتمرن: دربه فتدرب .. والمرن الأديم الملين
المدلوك (نتذكر أن الأديم هو التراب الأحمر صفة بلاد
آدوم / المؤلف).. والمارن: الأنف، وقيل طرفه، وقيل
المارن ما لان من الأنف منحدرأ عن العظم وفضل عن
القصبة.. وبنو مرينا.. هم قوم من الحيرة.. وليس مرينا
بكلمة عربية.

ويقترن الحديث فى الآيات عن إرم ذات العماد وقومها عاد بالحديث عن الذين جابوا الصخر بالواد،
أى الذى حفروا (جاب = حفر) فى صخر الوادى وهو ما يحيل إلى بلاد آدوم، وربما أحالت إحالة قوية إلى

الجوبان أى الارتحال وهو ما يذكرنا بقول التوراة: " أراميا نائها كان أبى ". لكن الغريب هنا أن تقتزن قصة عاد إرم فى الآيات بفرعون الطاغية، وهو ما انتهى بكارثة قضت على قوم عاد أو العاديين أو (عدن). وهو ما يستدعى ما جاء فى تاريخ هروشيوش عن النار التى أحرقت بنط بوليس أو بلاد بونت أو البلاد الخماسية، لأن (بنت) أيضاً تعنى باليونانية رقم خمسة، ومنها جاءت تسمية التوراة بالأسفار الخمسة (بنتاتك / Pentateuch)، ثم نجد تفسير معنى بونت/ الخماسية فى الكتاب المقدس الذى يفيدنا أن مدائن بلاد آدم فى وادى عربية كانت خمس ممالك هى سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم وبالع، وتحمل بالع أحيانا اسما آخر هو صوغر (سفر التكوين ١٤ / ٨). وتقع صوغر باسمها هذا حتى الآن جنوبى البحر الميت مباشرة (صغر).

ونستعيد الاسم الذى أطلقه الكاسيون على بلاد بابل عندما احتلوها فهو (كاردونياش)، أى قطر الإله (دون - ياش) مع التصريف الاسمى، وبدون هذا التصريف تصبح (دون) أو آدون أو عدن أو أدن أو آتون أو (دان) أى الإله السيد القاضى.

وإذا كان معنى (عد) فى اللسان هو كثرة يتساهمون فى شركة يقتسمونها، فقد كان معناها أيضاً الشباب والملك والسيادة، ومن الكلمة جاء اسم معد بن عدنان أبو العرب. وكلها من الأصل الثنائى (عد) مما يحيل إحالة قوية إلى أن الاسم (عدن) هو من الأصل (عد) بعد حذف أداة التعريف الجنوبية (ن)، وعليه فقبايل عاد هى قبايل عد أو الإله عد، أو وُد، أو آدون، أو عدن. القرآن الكريم إذن يقرن عاد بإرم فتكون عاد إرم، أو (أدإرم)، وذكر الجغرافيون الإغريق هذا الشعب تحت اسم (أدرميتاي)، وقد ظن البعض أن تلك الكلمة اليونانية Adramitae تعنى حضرموت، وهو التباس وخطأ واضح حيث أن حضرموت كانت تكتب باليونانية Chataramotitae وهى غير أدراميتاي التى تتركب من مقاطع هى على الترتيب.

Ad عاد

Ram إرم

Tae شعب أو قبيلة

= قبيلة عاد إرم

وفى إشارة عابرة لا تحمل كل ما قدمنا من جهد، يقول المؤرخ الفرنسى سدل Sadles على محمل الظن والصدفة فى كتابه (تاريخ بلاد العرب):

" إن عاداً قد امتلكت مصر وبابل سنة ٢٠٠٠ ق.م. وقد عرفوا حينئذ بالهكسوس " (٣٧).

ثم نلاحظ أن كلمة (عاد) فى العبرية تعنى: مرتفع، وشهير، وهو ذات معنى كلمة إرم وكلمة سام فى العربية فهى الصخرة والتل المرتفع الشهير. وقد وصف الجغرافيون اليونانيون موضع سكنى هؤلاء فقالوا إنه

(٣٧) مظفر نادوثى: التاريخ الجغرافى ... سبق ذكره، ص ١٣٥.

كان على خليج العقبة، وأطلقوا عليهم اختصاراً اسم Oaditae أى العاديين، وبعدهم جاء بطليموس ليقول فى زمانه (أى بعد عودتهم جنوباً) أن العاديين قد أصبحوا سكان بلاد اليمن (٣٨).

وإعمالاً لكل ذلك فقد وفد إلى وادى عربية العرب القادمون من آراب خيتيس وهم آريون مع القادمين من الجزيرة التى عرفت بعد ذلك بجزيرة العرب. وفى وادى عربية يلتقون بالكوشيين. ويفيدنا سميث أن أول ما ذكر اسم العرب ذكر منسوباً إلى وادى عربية وسكان هذا الوادى المعروف باسم عربية وهى الكلمة التى تحمل معنى صحراء فى كل اللغات السامية إلا فى العبرية فمعناها غابة (٣٩). وهو ما يعنى أن العبريين كانوا يعرفون أنها أيكّة. وبهبوط شرادم من هذا النسيج إلى جزيرة العرب أعطى الجزيرة اسمها فانقسم أهلها إلى أصيل ووافد: عرب قحطانية عاربة وعرب عدنانية مستعربة، أو عرب يمنية وعرب قيسية والقيسية هى المستعربة، وقيل فيهم قيسية نسبة الى جد بعيد باسم قيس، وخلال التاريخ بطوله نجد تنافساً شديداً داخل جزيرة العرب وصراعات طويلة بين اليمنى والقيسية يمتد حتى اليوم. ويمن فى العبرية تعنى جنوب وقيس تعنى شمال ولاشك أننا لم ننس أن هؤلاء القيسيين الشماليين كانوا يحملون فى منظومة الأخلامو اسم الكاسيين الذين احتلوا بابل.

وهنا أسجل إضافة هامة فقد زارنى فى بيتى بالهرم يوم الخميس ١٩٩٦/٣/٧ العالم الجليل على فهمى خشيم إبان زيارته لمصر، وهو رجل قد تخصص ببراعة تستحق الإكبار فى كثير من اللغات القديمة وبخاصة المصرية القديمة وقد اعتمد كتابنا كثيراً من تخرجاته المبهرة وتحادثنا طويلاً وجرنا الحديث إلى ما أكتبه الآن بين يدي قارئى وجاء ذكر لغز الملكة بلقيس. ذلك الاسم المتواتر فى كتب التراث باعتباره اسم الملكة التى زارت سليمان. رغم أنه لم يذكر أبداً لا بالكتاب المقدس ولا بالقرآن الكريم. وطرح الدكتور خشيم فهما جديداً لاسم بلقيس فاقترح أن يكون كلمة مركبة من ملصقين الأول هو بعلّة أى سيدة أو ربه أو ملكة والملصق الثانى هو قيس فهى بعلّة قيس، وبالتخفيف سقطت العين لتصبح بلقيس. وهو التخرج الذى يأتقى بشدة مع كل ما وصلنا إليه فى تناغم مدهش رائع.

وهكذا كان سقوط كثير من المعلومات التاريخية فى مصر إبان الفترة غير الكتابية زمن إمبراطورية الهكسوس، قبل أن يأخذوا الخط البابلى ويطوروه إلى الأرامية الذى تطور بعد ذلك إلى نبطية، مدعاة لألغاز كبرى فى التاريخ، يمثلها تأريخ (إحسان عباس) فى كتابه عن الأنباط سكان جبال سعيّر السراة ووادى عربية إذ يقول:

مع أن الأنباط عاشوا على المشارف الشمالية من
الحجاز، فليس لهم أى ذكر فى مصادرنا العربية، ..
عرف العرب .. من يدعون النبط بأنهم أهل سواد
العراق.. أو السكان الأصليون فى الشام والعراق ..

(٣٨) نفسه : ص ١٨٥، ١٨٤.

(٣٩) نفسه: ص ٥٩.

وعرفوا أنهم حاذقون فى الزراعة وعماراة الأرضين وفى استنباط المياه واستخراج المعادن، وأن لهم لغة خاصة بهم هى النبطية، أى الأرامية والسريانية، وكل هذه الخصائص التى ذكرت تنطبق على أنباط بترا.. ولعل العرب عرفوها باسم آخر.. إن عرب الجنوب أنفسهم الحريصين على التدوين، لم يذكروا اسم النبط فى رقمهم المنقوشة، مع أن الأنباط كانوا على الدوام يعاملونهم تجارياً. نعم عرف العرب الجنوبيون ن . ب . ط لقباً لشخص، و ن . ب . ط / ك . ر . ب . ط علماً على آخر، أو ن . ب . ط . م اسماً لعلم أيضاً، ولكنهم لم يعرفوا قوما بهذا الاسم، مما قد يرجح الافتراض بأن يكون أنباط بترا قد عرفوا باسم آخر ترجيحاً قوياً.. ومن الباحثين من ربط بينها وبين لفظة نبايوت .. ومنهم من قرنوها باللفظة النيباتيين والنبأيتى التى وردت فى مدونات تجلاتبلاسر الثالث، وفى مدونات أسر حادون، ومن بعد لدى آشور بانبيال. ويبدو أن اللفظة كانت تشير إلى قبيلة آرامية كانت تعيش فى القرن الثامن ق.م، ويقرن بالأنباط عادة شعبان هما: الإيديوميون أو الآدوميون وبنو قيدار، وقد كانت بلاد الإيديوميين منطقة يمثل حدها الشرقى - على وجه التقريب - خط ما أصبح يسمى طريق الحج من دمشق إلى مكة، وربما كان وادى العريش هو حدها الغربى، أما جنوباً فقد كانت المنطقة تمتد حتى رأس خليج العقبة، ويقف حدها الشمالى عند النهر المعروف اليوم بوادى الإحسى، وهو يجرى إلى الشمال الغربى مخترباً غور الصافية / الصافى، ويصب فى الطرف الجنوبى من البحر الميت ^(٤٠).

وهنا علينا أن نقدم اجتهاداً واضحاً يفسر السر وراء ذلك التحول الكبير لمنطقة بلاد آدوم، ونشوء ذلك الخط التجارى العظيم فى المنطقة، وأنا نعتقد أن ذلك قد حدث تحديداً مع هبوط العنصر الأرامى الحيثى الحورى القادم من برارى آسيا منطلق هجراته الأولى، والذى جاء معه بثلاثة أعمدة كانت أساس ذلك التحول

(٤٠) إحسان عباس: تاريخ دولة الأنباط .. سبق ذكره، ص ١٧: ١٩.

نحو إمبراطورية تجارية مركزية. الأول منها هو الجمل ذلك الحيوان الذى حل مشكلة النقل التجارى من أطراف المحيط الهندى جنوبا حتى تركيا شمالا، حيث لم تعرف بلاد الشرق المتوسطية الجمل إطلاقا قبل ظهور الهكسوس فى المنطقة، وكان مجئ الجمل إيذانا بنقل تجارى أسهل وأقل مخاطرة من الإبحار فى البحر الأحمر، ذلك البحر الملى بنتوءاته الصخرية والمرجانية مع سفن بدائية. وجاء مجيئ الجمل عوضاً حميداً عن تلك المخاطر فالجمل الواحد يمكنه حمل أربعة قناطير (أى ما يقرب من حمولة سفينة كاملة حينذاك) يقطع بها ستين ميلا فى اليوم فى الصحراء (وبذلك يكون أسرع من أى سفينة بحرية)، زد على ذلك أنه بإمكانه أن يسافر عشرين يوماً بدون ماء فى درجات حرارة عالية (وهو غير متوفر بالسفن البحرية)، ثم يمكنه أن يسافر أكثر من ذلك إذا أُعطى شيئاً من الكأ الأخضر، ويمكنه أن يواصل السفر خمسة أيام أخرى بدون كأ أو ماء قبل أن يموت^(٤١).

وعليه فقد صدق التعبير (الجمل سفينة الصحراء) الذى لا شك لم يأت من فراغ بل من مقارنته بالسفن فعلا وقولا. فأنشأ خطا تجاريا آمنا عبر الصحراء أدى إلى اجتذاب التجارة إلى مركزها الرئيسى فى سالع البتراء. وكان لابد أن يجذب هذا النشاط التجارى العالمى مجاميع وصنوف من البشر، سيطرت عليها القوة الأكبر (الحيثيون) الذين تحولوا بالطريق التجارى إلى إمبراطورية كبرى .

أما العنصر الثانى فهو الحصان، الذى ارتبط بالعنصر الثالث وهو المعدن القوى من البرونز، أو الحديد الأكثر تطوراً من البرونز، حيث أصبح بالإمكان صناعة عجلات قتالية حديدية قوية، وخفيفة فى الوقت نفسه تعمل بالبرامق (مثل عجلات الدراجة الآن). وتحتل الصعاب، لتشكل مع الحصان والسيف الحديدى تحولا هائلا فى عالم تسليح ذلك الزمان. والمتفق عليه أن الحديد جاء تحديداً مع الحيثيين الذين تدفقوا فى البداية كعناصر متاجرة، وجند لحماية القوافل، وشركاء فى التجارة، ثم فى المكان. ويبدو أنهم قد أقاموا معامل التعدين فى جبال تمناع عند العقبة، وبعضهم حمل اسم القينى أى الحداد. وبعد فترة وجدوا فى أنفسهم من القوة ما يمكنهم من السيطرة الفعلية على المنطقة حولهم، فى وقت كانت المنطقة نفسها مهينة لذلك، فمصر تمر بصراعات داخلية وثورات مزقتها تمزيقا وهيأتها للغزو المرتقب، بعد أن كانت القوة الكبرى فى المنطقة التى عليها العول والمعتمد من بقية دول حوض المتوسط الشرقى.

وهنا نستمع إلى عبد المنعم أبو بكر يربط بين الميثانيين الحوريين (يضعهم بالفرات الأعلى كالعادة / وهم مديانيون فى رأينا) وبين الحيثيين والهكسوس جميعا دفعة واحدة فيقول: " تعرض العالم القديم منذ القرن العشرين قبل الميلاد لهجرات متعددة قامت بها قبائل جبلية غير متمدنة تسكن المناطق الوسطى من آسيا وتعرف فى التاريخ باسم القبائل الهندو أوروبية .. كانت فلور منهم عرفها التاريخ باسم القبائل الكاشية قد وصلت إلى أوسط العراق وهاجمت مدينة بابل بعد موت حمورابى بثمانى سنوات، فقضت على الأسرة الملكية، وتولت فئة منهم الحكم فى بابل لفترة من الزمن، كما نزل البعض الآخر إلى المناطق الشمالية من

(٤١) لطفى : العرب.. سبق ذكره، ص ١١٣ ويقول إن الجمل يمكنه حمل أربعة أطنان !؟

العراق واستقروا فى وادى الفرات الأعلى وكونوا هناك دولة الميتانى التى امتدت حتى قاربت حدود الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط، وهؤلاء من عرفهم التاريخ تحت اسم الحوريين، وهناك القبائل التى استمرت فى هجرتها نحو الغرب ووصلت آسيا الصغرى واستقرت فيها وظهرت فى التاريخ باسم الحيثيين، ومنها أخيراً لك الفلول التى استمرت فى هجرتها البطيئة نحو الجنوب ووصلت إلى مناطق سوريا فلسطين. وبعد أن استقرت فيها بعض الوقت وامتزجت بأهلها عاودت التحرك نحو مصر التى كانت تعاني من التفكك والاحتلال فى عصر الأسرة الثالثة عشرة، فدخلت الدلتا حوالى عام ١٧٨٨ ق.م واستقرت فيها ومدت سلطانها على البلاد حتى أسيوط جنوباً، وعرفهم التاريخ باسم الهكسوس « (٤٢) » .

ومن التلاقح الذى حدث بين الجنس الجنوب جزيرى وبين الجنس الزنجى الكوشى الحامى، وبين الجنس الهندو آرى، ظهر على صفحة التاريخ جنس أحدث نسبياً هو الجنس السامى فى بلاد سيناء / آدوم وبوادي الشام، ومازلنا نذكر النظريات الثلاث حول أصل الجنس السامى، ومن بينها النظرية التى تعيده إلى شمال شرقى أفريقيا فى التقائه مع آسيا عبر سيناء، وهو كلام كان قد تم إلقاءه إلقاءً رغم صحته الشديدة التى برهنت عليه نظريتنا حتى الآن.

وقد حدثنا القرآن عن قوم (عاد) وأنهم كانوا يسكنون الأحقاف ببلاد اليمن، لكن المؤرخين الكلاسيكيين حدثونا عن زياراتهم لدراسة البلاد القابعة عند خليج العقبة وأن اسمها كان (عاد) لكنهم لم يحدثونا عن سكنى عاد لليمن، وفى آيات أخرى من القرآن الكريم نجد موطنهم ليس فى الجنوب إنما فى الشمال بالقسم الشمالى الغربى للجزيرة عند العقبة وسط غابة من الكتابات الثمودية التى تنتشر فى تلك المنطقة بآلاف النماذج. وهو الأمر الذى أدى إلى القول بعادين يمثلان مرحلتين زمنييتين فى مكانين مختلفين لقوم عاد، فهناك عاد الأولى التى كانت فى أحقاف اليمن وأرسل الله لهم رسولا هو النبى (هود)، ثم عاد الثانية التى أقامت عند العقبة، وقد أشار القرآن الكريم لمساكن عاد لكن ليس فى اليمن إنما حول خليج العقبة، فتحدث عن آثارهم الباقية فى مساكن منحوتة بالجبال .

وإلى مدين أخاهم شعبيا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا
اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين، فكذبوه
فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. وعادا
وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم ..

٣٥ : ٣٨ / العنكبوت

وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ...

واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى
الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال
بيوتا ..

(٤٢) عبد المنعم أبو بكر: إخناتون، المكتبة الثقافية، القاهرة، عدد ٢٥، ص ٥٦.

وظل ذكر قوم عاد حتى وقت متأخر، فهم يظهرون في خرائط الجغرافى المصرى اليونانى بطليموس كلاوديوس Ptolmaios Claudios ١٢١ : ١٥١ ق.م المعروف عند العرب بـ (القلوذى) تحت اسم Oaditae العاديون عند العقبة بالتحديد.

وقد أوجز (لطفى عبد الوهاب) ما جاء بالقرآن بوجودين فى مكانين متباعدين لعاد على مرحلتين زمنيتين هى عاد الأولى وعاد الثانية بقوله: " أما عن وجود مكانين مختلفين لعاد الأولى والثانية فتفسير ذلك هو الهجرات التى عرفها عرب الجنوب إلى شمالى شبه الجزيرة .. إن هجرات قد تمت من الجنوب إلى الشمال بشكل أو بآخر ، وأن بعض هذه الهجرات اتخذ شكل مستوطنات أقامها التجار أو الحكام الجنوبيون فى شمال شبه الجزيرة لمحطات تجارية لقوافلهم فى البداية، لكن هذه المستوطنات لم تلبث أن تحولت إلى كيانات قائمة بذاتها .. وقد كان بعض هذه المستوطنات يتخذ اسم القوم أو البلد الذى جاء منه لمستوطنون فى البداية .. " (٤٣)

وتذكر عاد وشمود فى القرآن الكريم متلازمين بشكل متكرر ومتواتر وهو ما يشير إلى تجاور مكانى، ويتحدث عن أرض الثموديين باعتبارها جنات وعيونا وزروعاً ونخيلاً (١٤٧ ، ١٤٨ / الشعراء). وإذا كنا لم نتأكد من موضع عاد الأولى، فإن الواضح رفقتها وملازمتها المكانية والزمانية لشمود التى نحن على يقين من موضعها فى شمال غربى الجزيرة. فلدينا نقش آشورى منذ حكم الملك سرجون يظهرهم يقطنون شمال الجزيرة فى القرن الثامن ق.م، كما نجدهم فى كتابات بلينوس أواسط القرن الأول الميلادى مازالوا موجودين هناك تحت اسم Tamudaei وفى النصف الأول من القرن الميلادى الثانى نجد القلوذى يرسمهم على خريطة شرقى العقبة باسم Thamydeni على التعامد مع قوم عاد الذين وضعهم القلوذى إلى الشمال منهم على الخط التجارى العالمى، وظل الثموديون فى مواضعهم حتى كتب عنهم يوسابيوس Eusebois حوالى ٢٦٠ - ٣٤٠ ق.م ، وحتى زمن بروكوبيوس Prokopios المؤرخ الرومانى الذى توفى فى ٥٦٥ م/ (٤٤).

لكن الباحثين يتضاربون جميعاً حول ترمين سيادة القبائل التى سادت وحكمت وأعطت اسمها لحضارات متأخرة فى الغسق الأخير لأضواء منطقة العقبة، فيشيرون إلى سيادة قبائل توصف بأنها قبائل عربية باسم قي دار، وقي دار هو اسم الابن الثانى لإسماعيل بن إبراهيم فى خريطة الأجناس التوراتية، وقبائل باسم الأنباط وتنتسب إلى نابت بن إسماعيل الابن الأول والأكبر. إلا أننا نعتقد من جانبنا بتعاصر قبائل شمود مع زمن قيام الحلف الكبير، وأنها كانت فى مواطنها بمنطقة الحجر المعروفة بمدائن صالح الآن، نسبة إلى نبي حدثنا عنه القرآن باسم صالح، وأنه ضمن تلك القبائل كانت قبائل قي دار أيضاً. فعلى امتداد بلاد آدم الجنوبى وعلى الخط التجارى العالمى قرب ساحل البحر الأحمر الشرقى قامت محطة كبرى للتجارة فى

(٤٣) لطفى : العرب .. سيق ذكره، ص ١٦٢، ١٦٣.

(٤٤) نفسه: ص ١٦٦ : ١٦٨.

منطقة الحجر قطنتها قبائل ثمود التي يزعم المؤرخون أنها ظهرت متأخرة إلى حد بعيد عن زمن الأحداث التي نحكى عنها زمن الهكسوس / الأخلامو فيعيدونهم في أبعد تزمين إلى ق ٩ ق.م. ثم يقولون لنا أنه مع ثمود ظهرت قبائل عربية باسم قيذار التي نراها من جانبنا ذات قبائل ثمود، كما نعتقد أنه في ذات الزمن أيضاً كان الأنباط النابتيون. كل ما في الأمر أنه بعد سقوط الحلف وتشتته بعد ضربه من قبل المصريين، وبعد فشل عدة محاولات جدية لإعادته فقد توالى أخلاف قبائل ذلك الحلف بعد ذلك - أو من بقى منهم بعيداً على الشتات - على زعامة المنطقة، فظهر حكم الثموديين والقيداريين والأنباط .. إلخ، لكن ذلك لم يكن أول ظهور لهم بل كانوا قائمين وموجودين طوال الوقت منذ زمن الأخلامو، وحتى آخر دولتهم التي ظهرت في المنطقة (الحيانين) و(الصفائين) لينتهى بهم خط تاريخ تلك البلاد إلى ظلام السكون حتى جاء بوركهارت ليعيد اكتشاف بلاد آدوم مرة أخرى.

وأول القرائن الواضحة التي تؤكد أن ثمود التي سكنت بلاد الحجر كانت امتداداً للحلف الكبير على الطريق التجارى في زمنه البعيد أن المشاهد لمنطقة مدائن صالح / الحجر سيجد نفسه أمام نسخة أخرى من البتراء من حيث النحت في الصخر والسكن في الكهوف الصخرية التي تشبه أعشاش النجل، ناهيك عن كون الحجر كان في محيط السيطرة المباشرة لسالع / بونت / البتراء، وتقع الحجر ضمن دائرة مدن كانت من أعمال العاصمة الكبرى، فمعها مدن سبقت الإشارة إليها كامتداد للعاصمة ففي محيطها الشرقى مباشرة نجد تيماء، ثم دومة الجندل التي حملت في أسمائها (تيماء، دومه) ترديداً لاسم البلاد الأم آدوم كذلك وادي القرى.

وبسبيل التأكيد من صدق ما نعتقد نستمتع إلى مظفر نادوثي يقول: " إن للإسماعيليين تسمية أخرى هي الهاجريين وقد أشير إليهم في العهد القديم بهذا الاسم. وقد اشارت التوراة إلى عشرين من الإسماعيليين في قولها: **قطعان قيذار وخراف نبايوت**. وهناك قبيلة أخرى أشير إليها باسم ماعون وهي التي أطلق عليها العرب اسم معين " (٤٥).

الإشارات هنا واضحة فالقيدياريون يعاصرون النابتين الأنباط يعاصرون معين أو معان، ومن جانبها أشارت التوراة بما يفصح عن تحالف تلك المنطقة مرموزاً لها بأسماء أشخاص ربطتهم التوراة بصلة قرابة الدم، فالتوراة تؤكد في خريطة الأجناس أن (تيماء) أو (تيماء) بدوره كان ابناً لإسماعيل (تكوين ١٥/٢٥ وسفر أيام الأول ٢٢ / ١ - ٣٠). والمبهر أنها ذكرته بالترافق مع سبأ التي تأكدنا من وجودها شمالاً بذات المنطقة (سفر أيوب ٩/٦ وحزقيال ٢٧ / ٢١ - ٢٢) ثم بالترافق مع مدينة العلا / ددان (سفر اشعيا ١٣/٢١ ، ١٤ وإرميا ٢٣/٢٥). ويلخص حزقيال تلك العلاقات لهذه المدن بدولة يهوذا بقوله:

" ددان تاجرتك بطنافس للركوب، العرب وكل رؤساء

(٤٥) مظفر نادوثي: التاريخ الجغرافى، ص ٦٨.

قيدار هم تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة. فى
هذه كانوا تجارك شبا ورعمة هم تجارك. بأفخر أنواع
الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك.

حزقيال ٢٠ / ٢٢

أما إشعيا فكان ينتبأ بضرب رب إسرائيل لقوم يأتى ذكرهم فى قوله:

وحى من جهة بلاد العرب، فى الوعر فى بلاد العرب
تبتين ياقوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان،
ياسكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من
قدام السيوف قد هربوا .. يفنى كل مجد قيदार .. لأن
الرب إله إسرائيل قد تكلم .

إشعيا ٢١ / ١٢ - ١٧

واضح أن شمال الجزيرة الآن قد أخذ يكتسب اسم بلاد العرب، وأن التوراة تتحدث هنا فى زمن
متأخر، بعد هبوط العرب المستعربة الشمالية العدنانية الإسماعيلية إلى الجزيرة ليمنحوها اسمها (جزيرة
العرب). ويتواتر فى ذلك الزمن ظهور اسم العرب لوصف سكان الجزء الشمالى من الجزيرة، ونجد فى
نقوش الملك الآشورى (شلمناصر الثالث ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) ذكر لانتصاره على تحالف ملوك أرام ضده
ويطابق شلمناصر بنقوشه ما وصلنا إليه بوضوح كاشف ومضى فيعدد لنا أعضاء هذا الحلف الأرامى لنجد
منهم (جنديبو) الموصوف فى نقوش شلمناصر بالعربى، وجماعة توصف بأنها عربية بدورها باسم (أدوماتو)
وهى (آدوم) بوضوح.

ثم نجد فى نقوش الملك الآشورى (آشور بانيبال ٦٢٦ ق.م) تعداداً لحلف عربى يعدد أعضاءه يقول
أنه: السبأى والتمأى والثمودى والعاديد والمارسمانو والنبط وقيدار الذين هم : سبأ، تيماء، ثمود، عاد،
مارسمانو، (لم نعرف المقصود بمارسمانو بالتحديد)، الأنباط ، القيداريون.

ونفهم من نصوص آشوربانيبال أن هؤلاء الأحلاف كانوا تجاراً، وأن تجارتهم كانت فى التعدين الذى
برعوا فيه: الذهب والقصدير والحديد، والملابس المصبوغة باللون الأرجوانى الأحمر، والطيب من بخور
مر ولبان، والعاج، بل وتاجروا فى حيوانات لا يمكن أن يجمعها سوى مركز تجارى كبير ممتد حتى جنوب
البحر الأحمر عند المنذب، فمن تلك الحيوانات كان الفيل، ثم تاجروا بحيوانات أصبحت من حيوانات المنطقة
بعد مجيئها من الشمال الأرمينى واستيطانها بلاد العرب الأولى (آدوم وسيناء)، ومن هذه الحيوانات الجمال
والخيول، فهل تستغرب بعد ذلك وجود الزراف فى واردات بلاد بونت؟

والزائر لمدينة العلا / ددان سجد نفسه أمام نقوش وكتابات ددانية ومعينية وثمودية ونبطية معاً^(٤٦). مما يشير إلى تعاصر و تعاضد وتحالف، أما مدينة الحجر فتكتظ بالوف الكتابات التمودية المتناثرة على الصخور، ويسمىها المؤرخون مخربشات لقيمتها التاريخية المحدودة فهي فقط تحوى أسماء أفراد وأدعية للآلهة وحسابات تجارية وعوائد. وقد عثر بالحجر على أختام تجارية على شكل اسطوانات ومربعات ودوائر. وتكاد تلك الأختام خاصة تلك التى عثر عليها فى ددان/ العلا أن تكون نسخة أخرى من الأختام الرافدية القديمة، مما يشير إلى أن تلك المنطقة الجغرافية كانت رقعة واحدة فى زمن مضى^(٤٧).

وفى محيط الحجر/ مدائن صالح يقع عدد من المستوطنات أهمها القرية التى اشتهرت بكهوفها المنحوتة بالجبال وبآثار كثيرة وفخار أعادها المكتشفون إلى الحضارة المعينية، وأعادوا بعضها الآخر إلى زمن سيطرة الأنباط^(٤٨). وبدراسة مخربشات تبوك والعلا ومدائن صالح وتيماء ووادي السرحان وحائل وجبل رقم التمودية، تم اتفاق العلماء مؤخراً على أنها تعود إلى زمن موغل فى القدم، يصل إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ومن آثار تيماء قصر زلوم المعروف بالأبلى الذى اشتهر فى اساطير العرب باسم قصر السمؤال^(٤٩)، والسمؤال بالعبرية شموئيل وصموئيل، والثلاثة يتجمعون عند الاسم العربى لصاحب ذلك القصر الذى لاشك حكم منه يوما وهو اسم (إسماعيل). ويظهر لنا عند العرب اسم غريب هو (الرقيم) ظهر قبلهم عند المؤرخ اليهودى يوسفوس، وقد رجح الباحثون أنه التسمية العربية لمدينة البتراء أو لمدينة الحجر أو لكليهما. وأورد إحسان عباس رأياً يقول: إن الرقيم هى المدينة التى وردت فى المصادر الصينية باسم (لى - قن) من (رى - قم) مما يشير إلى مساحة التوسع التجارى الذى لا يمكن القيام به إلا لإمبراطورية قوية كبرى، ثم ورد اسم الرقيم فى رسالة سريانية تحدثت عن زلزال دمر الرقيم، ونحن نعلم أن هناك زلزالاً قد دمر البتراء عام ٣٦٣م^(٥٠). وهو ما يذكرنا بهروشيوش المؤرخ الذى قال أن بلاد بونت أو الدولة خماسية المدن أو خماسية الحلف (بنط بوليس) الواقعة بين العقبة والبحر الميت حسب تحديده قد نزلت عليها نار من السماء فدمرتها. وأشهر تلك المدن التى تم تدميرها سدوم وعموره، والمعلوم أن المنطقة تقع على خط زلزالي ساحن فوق امتداد الأخدود الأفريقي العظيم. وقد ذكر القرآن الكريم بدوره دماراً أصاب عاداً وثمود التى هى فى رأينا ذات سدوم وعمورة، لأن سدوم هى بالقلب سمود أو ثمود، ويبقى أن تكون عاد هى عمورة، ولا ننسى أن العاديين أو أهل عاد كانوا من العموريين التى تنتسب إليهم عمورة أو ينتسبوا إليها، ويؤكد هذا المعنى أن ترتيب المدن الخمسة يبدأ من الجنوب إلى الشمال بمدينة سدوم ثم مدينة عمورة،

(٤٦) لطفى: العرب .. سبق ذكره، ص ١٤٨.

(٤٧) موسوعة بهجة المعرفة: مجموعة من الأساتذة المتخصصين: الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، طبعت فى إيطاليا ١٩٨٢، الطبعة الثانية، المجموعة الثانية، المجلد الأول، الجزء الثالث، ص ١٢٤.

(٤٨) نفسه: ص ١٢٥.

(٤٩) مظفر نادوى: التاريخ الجغرافى .. سبق ذكره، ص ٧٤، وإحسان عباس تاريخ دولة .. سبق ذكره، ص ٧٠.

(٥٠) السواح: الحدث .. سبق ذكره، ص ٢٩٤.

وتصبح سدوم بهذا التخريج هي ثمود/ مدائن صالح، وتليها شمالا عمورة (عاد/ إرم ذات العماد/ بونت / سالع/ الصخرة/ البتراء).

ومن القبائل الإسماعيلية المشهورة كان النابتيون أو الأنباط المنتسبون رمزيا إلى الابن الأكبر لإسماعيل (نابت أو نبايوت)، ثم القيداريون نسبة إلى الابن الثاني لإسماعيل (قيدار). وفي المقدس التوراتي ذكر لملك عربي باسم جشم (سفر نحما ١٠/٢) الذي يبدو صيغة من (جاسم). وقد تطابق هذا الاسم مع اسم عثر عليه في نقش على طاسة في تل المسخوطة بوادي طميلات قرب الإسماعيلية بمصر في أقصى شرقي الدلتا على الحدود السينائية، ويقول النقش المكتوب بالأرامية: " نذر إلى هاب - إيلات من قينو بن جشم ملك قيدار " (٥١). مما يعنى أن جشم الوارد في سفر نحما كان ملكا على قيدار أما قينو فهي القينى / الحداد. وما يؤكد لنا أن القيداريين كانوا من سكان سالع/البتراء ما جاء في سفر أشعيا يقول:

لترفع البرية ومدنها صوتهها،
الديار التى سكنها
قيدار، لتترنم سالع من رؤوس الجبال،
ليهتفوا.

أشعيا ٤٢ / ١١

ويدعم لنا أن القيداريين هؤلاء كانوا من سكان الجنوب الذى هاجر شمالا للتجارة بصحبه معين وسبأ وزنج أثيوبيا في رحلة عمورية عماليقية تدريجية استوطنت حتى استفحلت وتضخمت في حلف كبير، هو أن قاموس الكتاب المقدس يقول لنا تحت مادة قيدار أنه اسم سامى يعنى الصفة اللونية (الأسود) أو (الزنجى).

لقد كانت قيدار من ثمود من العموريين القادمين من الجنوب لكن الكتاب المقدس أصر على أنها من الجنس الأرامى القادم من أرمينيا فنسبتهم بالبنوة إلى اسماعيل بن البطرق ابراهيم الأرامى لتأكيد معنى الحلف، حيث يرى الباحثون - دون أن يذهبوا مذهبنا لافى كله ولا فى تفاصيله الدقيقة - إنه " فى وقت لم يكن فيه سكان شبه الجزيرة قد عرفوا التكتل حول أيديولوجيات سياسية، كان التصور الوارد هو التكتل حول العصبية التى تقوم على أساس من رابطة العرق أو رابطة الدم والانتماء إلى أصل واحد سواء كان حقيقياً أو موهوما " (٥٢).

وهنا يتأكد ظننا فى تعاصر الجميع زمن الحلف الكبير من (فراس السواح) الذى يستنتج من المادة التاريخية " أن الأنباط لم يكونوا سوى فريق قيدارى أقام فى سالع بصفة دائمة وتحول اسمها إلى بتراء فيما بعد. واسم بتراء باليونانية يعنى الصخر وكذلك اسم سالع بالكنعانية " (٥٣). أما امتداد مدينة الصخر الجنوبى

(٥١) لطفى: العرب.. سبق ذكره، ص ٨٣.

(٥٢) السواح: الحدث .. سبق ذكره، ص ٢٩٤

(٥٣) احسان عباس: تاريخ دولة.. سبق ذكره، ص ٥٩.

فقد حمل ذات المعنى فى مدينة مدائن صالح التى كانت تحمل اسم الصخر فى اسمها (الحجر). بل أن احسان عباس يقول: « وتحولت المنشأة النبطية فى مدائن صالح الحجر إلى مدينة كبيرة وتكاد القبور المنحوتة فى الصخر هناك تضاهى الآثار المنحوتة فى الصخور فى بترا نفسها »^(٥٤) ثم يتساءل: "هل يمكن أن نوحّد بين بنى قيدار وأصحاب الحجر الذين ذكرهم القرآن الكريم؟ يصح هذا لو استطعنا أن نثبت أن بنى قيدار هم أنفسهم ثمود الذين ورد ذكرهم فى القرآن. وهنا يجب أن نعرف أن اسم عاقر ناقة صالح كان اسمه لدى المفسرين **قَدَار** »^(٥٥).

ولمتابعة (إحسان عباس) عدنا إلى التاريخ العربى نقرأ عند ابن قتيبة قوله:

إن الله بعث صالحاً إلى قومه.. وكان رجلاً **أحمر** إلى البياض.. وهو صالح بن عبيد بن عابر بن إرم وكانت منازل قومه **بالحجر**.. وعافر الناقة هو **أحمر** ثمود الذى يضرب به المثل فى الشؤم واسمه **قَدَار** بن سالف وكان **أحمر** أشقراً.. وكان صالح رجلاً تاجراً.

واضح هنا التداخل الذى حدث عند الحجر بين الجنسين الأسود والأحمر ولو فى ذكريات ذلك الماضى البعيد، فقيدار فى الرواية العربية يصبح هو الأحمر كذلك صالح، ويذهب ابن قتيبة بهم إلى الموطن الشمالى الأرامى عبر نسبتهم لأرام.

ثم يستمر شارحاً:

تزوج إسماعيل بنت مضاض بن عمرو الجرهمى فولدت لإسماعيل اثنى عشر بطناً منهم قيدار ونبت.. وكان نبت بكر إسماعيل.. وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة **ودفن فى الحجر** وفيه دفنت أمه هاجر^(٥٦).

وقد ورد فى نقش بمدينة بترا بخط وسط بين الأرامى والنبطى يتكلم عن ضرورة إكمال النقوش فى غرفة العبادة عند بداية السيق مع اسم لرجل وصف بالصلاح والورع اسمع (أصلح) وأن أصلح هذا ربما كان كاهناً كبيراً أو حاكماً لأنه طلب تكريس تلك الغرفة للإله ذى الشرى^(٥٧). وهو الأمر الذى ظل ذكريات بعيدة تتماوج فى تداخل مع روايات أخرى عن ذكريات أخرى، حتى وصلنا صالح فى القرآن الكريم نبياً مرسلاً

(٥٤) نفسه: ص ٢١.

(٥٥) نفسه: ص ٢١.

(٥٦) ابن قتيبة: المعارف.. سيق ذكره ص ٣٤.

(٥٧) إحسان عباس: تاريخ دولة.. سيق ذكره، ص ٤١، ٤٠.

إلى ثمود، فإذا كانت الآيات تردد ذكريات عن أصلح الموجود بنقش بترا فستكون بترا مسكنا لثمود وليس فقط مدينة الحجر مما يشير إلى تداخل واضح بين مختلف فئات الحلف.

لكن القرآن الكريم يؤخر ظهور الثموديين إلى ما بعد انتهاء زمن عاد فيقول:

واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى
الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون فى
الجبال بيوتا.

الأعراف ٧٤، ٧٣

والقرآن الكريم يختلط فيه الوعظ والترهيب والترغيب بالأمثلة من ذكريات تاريخية تمت قراءتها على طريقة القرآن الكريم المعتادة بهذا الشأن فيقول إن (عاد إرم) قد عصت ربها فأرسل الله إليها نبيا باسم (هود). وما يؤكد فرضنا فى أن عاد كانت البتراء أو مدينة فى محيط آدوم بل أنها آدومية الزمن وليست جنوبية يمنية أن ابن قتيبة يذكر لنا نسب (هود) مرفوعا إلى (عيسو آدوم) فيقول:

هو هود بن عبد الله بن رباح بن حارث بن عاد
بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.. وكانت عاد
ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل وبلادهم أخصب
البلاد.

لكن أهل عاد الآدوميين / الآراميين يكذبون هوداً فيغضب عليهم ربهم فيدمرهم فيرثهم الثموديون، أى أن ثمود هى امتداد فى زمن تال لعاد الآرامية، وأفسد الثموديون بدورهم فى الأرض فأرسل لهم النبى صالح، وكأسلافهم كذب الثموديون صالح فدمرهم الله بدورهم.

ويشرح المسعودى بشأن الآراميين / الأرمان بقوله موجزا تاريخا رأيناه قد حدث فى هذا المكان:

وقيل أن الأرمان إنما سموا بذلك لأن عاداً لما هلكت
قيل: ثمود إرم. فلما هلكت ثمود قيل لبقايا إرم أرمان،
وهم النبط الأرمانيون.

وكانت بلاد الكلدانيين العراق وديار ربيعة وديار مضر
والشام وبلاد العرب اليوم، وبرها ومدرها، اليمن وتهامة
والحجاز واليمامة والعروض والبحرين والشحر
وحضرموت وعمان، وبرها الذى يلى العراق، وبرها
الذى يلى الشام.. كانت جميعاً مملكة واحدة يملكها ملك

واحد ولسانها واحد سريانى (أرامى/ المؤلف)^(٥٨).

وحول عناصر من ذلك الحلف يشرح الكتاب المقدس كيف جاء الرب بكل شعب من موطنه فى قوله:

ألستم لى كبنى الكوشيين يابنى إسرائيل؟ يقول الرب. ألم
أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور
والأراميين من قير.

عاموس ٩ / ٨

ويحتمل أن تكون قير الأصلية تلك محطة بعيدة من محطات هجرة الأراميين الشمالية، وربما كانت
الأصل فى اسم منطقة قرقيزيا.

والنبي محمد كتب لبنى جعال بن ربيعة الجذاميين الذين سكنوا العقبة زمن الدعوة يقول لهم فيه " إن
لهم إرما لا يحلها أحد غيرهم لغلبهم عليها ولا يحاقهم أحد فمن حاقهم فلاحق له " ، لقد كان العرب حتى
زمن الدعوة الإسلامية يعرفون بلاد العقبة بكونها أرامية.

أما الذى كان يتأكد طوال الوقت فهو وجود الجنس الكوشى الزنجى بالمنطقة بينما كانت نصوص
التوراة التى تذكر الكوشيين بجوار دولة يهوذا وإسرائيل تصنع ارتباطا حادا لدى المؤرخين. يقول الكتاب
المقدس مثلا:

وأهاج الرب على يهورام (ملك يهوذا/ المؤلف) روح
الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا إلى
يهوذا وافتتحوها وسلبوا كل الأموال الموجودة فى بيت
الملك مع بنيه ونسائه أيضا.

أخبار أيام ثانى ١٦/٢١ - ١٧.

لقد ظل تعبير " العرب الذين بجانب الكوشيين " لغزا غير محلول يتمثل فى سؤال: كيف يكون الزنوج
بجوار العرب، وكان الظن هو التجاور على البحر الأحمر فالعربى شرقية والزنجى غربية، لكن اللغز ظل
لغزا لأن النص ونصوصاً أخرى كثيرة تضعهم بجوار دولة يهوذا مباشرة. وهنا نقف مع فراس السواح وهو
يحدثنا عن أحدث الكشف فيما يتعلق بتصنيف اللغات إلى سامية وحامية وأن العلماء لم يعودوا يركزون على
ما يسمى باللغة السامية الأصلية، ثم يقول: " يقوم العلماء الآن بتلمس خيط يربط بين اللغات السامية باللغة
المصرية وبقية لغات شمال أفريقيا وهم يرون أن الأقرب الى الواقع هو وجود لغة أفروسامية تفرعت فيما

(٥٨) المسعودى : التنبيه .. سيق ذكره ، ص ٨٤ ، ٨٥.

بعد إلى سامية وإفريقية عند نقطة معينة من التاريخ »^(٥٩). ومن هؤلاء العلماء الألمانى P.Behrens والروسى Diakonoff .

أليس هذا بكلام يلتقى النقاء عبقرى ما وصلنا إليه حول النقاء العناصر التأسيسية فى بلاد آدوم وما نتج عنه بعد ذلك على مستوى اللغات والأجناس؟ أما الأكثر إلماعا وإشراقا فهو أن نعلم أن تلك النقطة المعينة فى التاريخ التى افترضها الألمانى بهرنس والروسى دياكونوف كانت زمن قيام إمبراطورية الهكسوس الذى ظل منطقة مظلمة فى التاريخ حتى كتابة بحثنا هذا، بل وأن مكانها كان ذات المكان الذى حددناه فى بلاد مديان الأدومية العربية فى شبه جزيرة سيناء تحديداً وتديقاً . فقد عثر الأثرى البريطانى فلاندر بترى عام ١٩٠٥ عند سربيط الخادم بسياء على كتابات منقوشة على الصخور أصبحت تعرف الآن علمياً باسم الكتابات البروتو سيناتيك قرب مناجم النحاس والفيروز. وقد تبين أن البروتو سيناتيك أقدم كتابة تستخدم الأبجدية فى التاريخ حتى الآن، وقد وجد بترى اكتشافه هذا على بقايا أثرية تم بناؤها زمن الفاتح العظيم تحتمس الثالث خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر. وبعد اكتشاف بترى تم العثور على المزيد من كتابات البروتوسيناتيك بعد أن عثرت بعثة فنلندية عام ١٩٢٩ على نماذج جديدة، واتبعتها بعثة جامعة هارفارد الأمريكية لتكتشف ذات الكتابات فى مواضع أخرى، حتى بلغ ما تم العثور عليه حتى الآن خمسة وعشرين نصاً^(٦٠). نتحدث عن أعمال استخراج حجر الفيروز من جنوبى سيناء وتقديم قرابين (تسمى هنا طاعة) الى بعلات حات حور، وبعلات لقب سامى هو السيدة مؤنث بعل / السيد أو الرب، بينما تحفور إلهة مصرية معلومة الشأن مما يشير الى تمازج مصرى سامى فى تلك المنطقة استمر منذ تمازج الإلهين سيت وبعل، وهى تقع الى الغرب مباشرة من جبال كاثرين التى اتجه إليها موسى برجاله عند الخروج من مصر كموقع مقدس، وقد أخبرنا الكتاب المقدس أن تلك المنطقة كانت أراضى مديانية، وقد أكدنا من جانبنا أن المديانى هو الإسماعيلى، وتأتينا من كتابات سيناء Sinaite Inscriptions. نصوص تؤكد مذهبنا فنجد نصا يقول.

سمعا مرا رب عبادم

ومعناه إسماعيل صبى رئيس العاملين^(٦١)

أو إسماعيل رجل رئيس العبيد

فالكتبة هنا يحملون ثقافة مصرية سامية مشتركة، وكتبوها بذات اللغة التى عثر عليها فى نصوص تل العمارنة (الكارية) بأبجدية هى الأصل الأصيل للأبجدية الفينيقية التى ظهرت بعد ذلك وانتقلت إلى بلاد اليونان ثم العالم. ويعتبر الباحثان نيلسون وسيث أن اللغة الثمودية المنتشرة بطول ساحل البحر الأحمر

(٥٩) السواح: أرام .. سبق ذكره، ص ٣١ .

(٦٠) أحمد عثمان : فى الشعر .. سبق ذكره، ص ٧٦ : ٧٨ .

(٦١) نفسه: ص ٧٨ : ٨٠ .

الشرقى هى تطوير بسيط للبروتوسيناتيک^(٦٢) كما استطاع وینت أن یثبت انقسام الثمودية إلى أشكال مختلفة تمثل مراحل تطورها خلال مدة زمنية طويلة^(٦٣)، وهو ما یعنى عراقة ثمود وقدمها منذ أيام الحلف الكبير.

کذلك تم العثور على کتابات سینائية فى موقع الكنتله على الطريق الذى یصل طابا على خلیج العقبة برفح على البحر المتوسط على بعد خمسة کیلو مترات من الحدود الإسرائيلية، وكذلك فى عین القديرات بالقرب منه. والمعتقد أن هذه الكتابات قد نقشها الخارجون من مصر برفقة موسى فى رحلة الخروج. وقد قال الإسرائيليون إن تلك الكتابات عبرية، لكن الحقيقة أن العبرية نفسها هى لغو وخط کنعانى كتب بحروف آرامية. ولم يحدث ذلك إلا بعد أن القرن العاشر قبل الميلاد أى بعد أربعة قرون تقريباً على حدث الخروج، لذلك لا تخرج تلك الكتابات بدورها عن البروتوسيناتيک التى يبدو أنها كانت أصلاً للعبرية المكتوبة بالآرامية، بعد أن أصبحت الآرامية الوسيلة الأمثل للكتابة. وهو ما یعنى أن الخط الأرامى نفسه قد تطور عن البروتوستاتيک التى هى فى رأينا الكتابة أو الخط الحورى الكارى خاصة بعد ثبوت تطابقه مع الكتابات الحورية فى مكتبة العمارنة. ويعتبر أولبرايت أن البروتوسيناتيک هى الأصل الأصیل للکتابات الأبجدية بعد ذلك وصولاً إلى اللغة العربية التى ظهرت فى سیناء^(٦٤). وعندما قامت دولة الفرس حوالى ٦٠٠ ق.م اتخذت من الآرامية لغة رسمية لها مما يشير إلى مدى حميمية القرابة بین تلك الكتابة الأم للأبجدية وبين الهندوآريين، أما العربية فقد تطورت عن النبطية المكتوبة بالحرف الأرامى فى سیناء وآدم. ومع ذلك لم یزل المعنیون بهذا الأمر لا یلتفتون إلى العوامل الموضوعية التى أدت لظهور الكارية بالخط السینائى، ولم یزل قولهم: « منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد ظهرت لغة سامية مشتركة بین شعوب ممالك الهلال الخصيب ومصر لم تكن هى لغة الكلام لأى من شعوب هذه المنطقة وإنما استخدمت فى الكتابات الأدبية فقط »^(٦٥)، « وأنها تطورت وأصبحت تمثل لغة أدبية خاصة تختلف عن لغة كلام الأكاديين والکنعانيين والمصريين فهى لغة أدبية خاصة لا یستخدمها أى قوم فى الكلام »^(٦٦) ومع ذلك فإن « العربية الفصحى قد جاءت نتيجة لتطور هذه اللغة المكتوبة وأنها كانت خلیطاً من لهجات القبائل العربية »^(٦٧) بینما نحن قد كشفنا عن التقاء وحلف ولغة كهوف اسمها الكارية أو الحورية، تعددت ما بین ددانية وثمودية ونبطية وأرامية وعبرية، لكنها جميعاً كانت تعزف على نوتات متشابهة مقاربة انصهرت معاً جميعاً بعد ذلك فى اللغة العربية.

(٦٢) نفسه: ص ١٠٧ .

(٦٣) نفسه: ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٦٤) نفسه : ص ٧٤ .

(٦٥) نفسه: ص ٧٤ .

(٦٦) نفسه: ص ٦٩ .

(٦٧) نفسه : ص ٧٥ .

وهكذا امتدت المساحة المركزية لدولة التجار من البتراء إلى الحجر جنوباً وتيماء شرقاً وتبوك والبدع جنوب غربى تبوك، حيث تجد هناك مغاير وكهوفاً أطلق عليها الناس بحكم ذكريات العصور الخوالى (مغاير شعيب)، وأطلقوا على بئر هناك اسم بئر موسى ترديداً لذكريات تاريخية مختلطة. ويقول صاحب معجم البلدان أنه فى جبال السراة / سعيير تقع البلقاء التى حدثت فيها أسطورة أصحاب الكهف، والتى ترد فى القرآن الكريم مقرونة بالرقيم، وأن العماليق قد نزلوا البلقاء وكانوا ملوكها (٦٨).

وتغطى الكتابات الثمودية آثار تيماء التى تقع على خط ٣٨,٣٠ طولاً و ٢٧,٤٠ عرضاً، وتتميز تيماء بتربة حمراء وتؤكد البحوث الجيولوجية أنها كانت مغمورة بالمياه إلى زمن قريب جداً لدرجة أن أخبار ذلك الماء جاء فى أخبار عرب الجاهلية الأخيرة (٦٩).

أما مدينة الحجر نفسها فتقع على خط ٣٧,٤٥ طولاً و ٢٦,٤٦ عرضاً وقال فيها القرآن الكريم:

لقد كذب أصحاب الحجر المرسلين، وآتيناهم آياتنا فكانوا
عنها معرضين، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين
فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا
يكسبون / ٨٠: ٨٤ / الحجر.

والزائر للمنطقة يمكنه ببعض المشقة الوصول إلى تلك البيوت الصخرية لكنه لن يجد سوى غرف مربعة أو مستطيلة تحوى عظاما بشرية وبها أرفف حجرية على عدة طبقات، تطابق مثيلاًتها فى البتراء، فى تدمر التى كانت بدورها امتداداً طبيعياً للطريق التجارى وبالضرورة للحلف العظيم. وهناك يمكنك أن ترى تماثيل لعناق البوننتى فوق أحد الكهوف ذهبت فيه الآراء إلى أنه حيوان ربما كان لبؤة صغيرة لكن ذيله المعقوف مثل ذيل الكلب يشير لحيوان غريب مجهول. وعلى كهف آخر ستشاهد تماثيل أبى الهول المصرى، وعلى كهف ثالث يمكنك مشاهد طائر الفينيق ناشراً جناحيه.

أما الأفصح والأبين والأكثر إعلاناً عن هوية المكان، أنك تجد هناك بناء يحمل الاسم الذى أطلق على مثيله الضخم فى البتراء، اسمه قصر (بنت)، هذا بينما يكرر لنا القرآن الكريم ذكريات العرب عن القرون الخوالى أيام كانت تلك المنطقة من الجنات الوارفة فى قوله « كذبت ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تنقون، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين، أنتركون فى ما ههنا آمنين فى جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها عظيم، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين، فاتقوا الله وأطيعون / ١٤١: ١٥٩ الشعراء ».

(٦٨) حمود بن ضاوى القنامل: شمال الحجاز، الآثار، دار نشر العصر الحديث، بيروت، ١٩٩١، ج ١،

ص ٨٠، ٨٢.

(٦٩) نفسه: ص ١١٥، ١١٧، ١٢٦.

ويؤكد لنا الإخباريون العرب أن العرب المستعربة من أبناء اسماعيل هم من قالت الآيات بشأنهم " ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين / ٨٠ الحجر "، ويقول آخرون " كانت ثمود تقسم في جنوب شبه الجزيرة العربية، ولكنها انتقلت إلى شمال غرب الجزيرة العربية في غرب خليج العقبة .. وجاء في الأعلام لخير الدين الزركلي أن ثمود بن عابر بن إرم من بنى سام ابن نوح .. كانت اقامته في بابل ورحل عنها بعشيرته إلى الحجر.. ثم انتشروا بين الشام والحجاز .. وفيها من أعجب الآثار بيوت منقورة في الصخور".^(٧٠) ويضيف (حمود القنمى) جامعا أخبار الأولين بقوله: " واختلف في أصل ثمود ف قيل هم من بقايا عاد، لأن القرآن الكريم ذكرهم مرادفين لعاد، وقيل أنهم من العمالة الذين شيدوا لهم مملكة في مدين والبراء ووادى موسى، ولكنهم في الثابت كانوا بعد قوم نوح وعاد، قال تعالى: ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم، نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفات / ٧٠ / التوبة. وتعتبر مدائن صالح من أهم وأغنى المناطق آثاراً في جزيرة العرب " ^(٧١). ثم يتساءل مع المتسائلين من أصحاب الدراسات الأركيولوجية في المنطقة قائلاً: " لا يزال واضعوا الدراسات العلمية حول نقوش الثموديين في حيرة من أمرهم، وما زالوا يتناقضون فيما بينهم .. فالنقوش الثمودية تطالعنا في المنطقة الواقعة على امتداد الجزء الغربى من شبه الجزيرة العربية، من جوار مدينة البتراء حتى اليمن، لكن هذه المنطقة أوسع بكثير من المنطقة التى كان يسكنها الثموديون كما هو فى كتب التاريخ العربى " ^(٧٢).

وعلى الامتداد نفسه من البتراء قرب العقبة نصل إلى واد لم يزل يحمل الاسم الأرامى (رم)، وقد وصفه لورانس بقوله: " صخوره الشاهقة كأنها بنايات ضخمة عملاقة، تقع على جانبى شارع طويل، تبدو القمم العالية التى تكتنفها القباب الضخمة وكأنها الأعشاش [ولابد أن نتذكر هنا قباب مساكن بونت التى تظهر كالأعشاش / المؤلف]، يشاهد الزائر اللوحات الصخرية المتناثرة فى مختلف الأماكن من وادى رم مكتوب عليها باللغة الثمودية .. إنه من روائع جمال الطبيعة العذراء، وبقعة لا مثيل لها فى بقاع العالم، فمن خلال الأشكال والألوان يحس الإنسان أنه فى أجمل بقعة من العالم " ^(٧٣).

ثم يتساءل (قنمى) حول هذا الانتشار الهائل للمخريشات الثمودية من البتراء حتى اليمن، بينما المفترض أن ثمود قد سكنت فقط منطقة الحجر بقوله: " إذن من هم مؤلفو الثلاثة عشر ألفا أو الأربعة عشر ألفا من النقوش الثمودية، التى باتت الآن معروفة لنا، بالإضافة إلى الألفى نقش التى وجدت فى شمال شبه الجزيرة العربية، والتى اكتشفها ببيرفان دن براندان .. يقول بعضهم: إن تلك النقوش تعود إلى أصحاب القوافل التى كانت تعبر الصحراء، حاملة التجارة عبر الطرق الصحراوية، ومن الغريب أن يكون بعض

(٧٠) نفسه: ص ١٥٦ ، ١٥٩.

(٧١) نفسه: ص ١٦٠.

(٧٢) نفسه: ص ١٧٠.

(٧٣) نفسه: ص ٢١٠ ، ٢١١.

هذه النقوش من صنع أصحاب القوافل أنفسهم، والأغرب من ذلك أن حقيقة وجود أعداد كبيرة من هذه النقوش في قمم الجبال العالية، حيث يصعب على أصحاب القوافل الوصول إليها^(٧٤) إن مثل تلك النقوش فيما نرى كانت بحاجة إلى وقت وزمن وارتباط بها، لقد كانت لأناس يقيمون هناك في محطات دائمة على الخط التجارى للإمبراطورية التجارية.

وإذا كنا قد عثرنا هناك على التأكيد الواضح - فى اسم قصر بنت - على ما ذهبنا إليه حتى الآن، وعثرنا على عناق البونتي والطائر البونى، فإننا نجد أيضاً الرفائيين/ الرباتيين، فى اسم معبد الروافة النبطى (والفاء تنطق أيضاً باء)، الواقع إلى الغرب من تبوك على خط ٣٦,٥ طولاً و ٢٧,٤٥ عرضاً. وقد ذكره ديودورس الصقلى باعتباره مكاناً مقدساً لقبيلة عربية، وذكره أيضاً الدكتور جواد على، ووجد على حجر هناك نقوشاً يونانية قصيرة تذكر أن البناء يعود إلى Hierontouto وأنه قد بنى فى أرض الرباتيين أو كما دونت Rabathai، وهو ما يدفع إلى اعتبار اسم الروافة الحالى من الأصل رفائى ورباتى.

ويذهب المفسرون المسلمون إلى أن الآيات " وأسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر / ١٦٣ / الأعراف " و " قلنا لهم كونوا قردة خاسئين / ٦٥ / البقرة " إنما تعنى مدينة إيلات / أيلة أو ربما العقبة. ولكنها فى رأينا ميناء عصيون جابر التوراتى المندثر بجوار ميناء أيلة، ويحكى القرآن ذكريات العربان عمن أبادتهم الحدثنان، فيربط بين الحوت الدلفين، الذى تنتثر تماثيله فى المنطقة، وبين المدينة والبحر وبين الشعب الإسرائيلى وشرائعه فيقول: " وأسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيتهم حينئذهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيتهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون، وإذ قالت أمة منهم لم تعظمون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم ينقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين ينهون عن سوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون، فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين / ١٦٣: ١٦٦ / الأعراف "، ولا يبقى سوى أن تكون حاضرة البحر تلك هى التى استقبلت سفائن الفرعوننة حنشبسوت (عصيون جابر) .

ويتابع (حمود القنامل) ليقول عن شعب مدين: " وقد بقيت آثارهم حتى الآن، وهى عبارة عن بيوت نحتت داخل الحجر، أى أن البيوت حفرت حفرا داخل الصخور فتكونت بيوت من الصخور، وداخل هذه البيوت غرف فصلت تفصيلاً دقيقاً، بطريقة فنية تشير إلى المستوى الحضارى والفنى الذى كان عليه هؤلاء الأقوام .. ويظهر من مقابرهم أنهم طوال القامة " ^(٧٥). ويسجل عن قائد سلاح الحدود فى منطقة مقنا على خليج العقبة وصفه لها فى قوله " إن مقنا منطقة أثرية عظيمة فقد عثر على كثير من الجماجم الغريبة الشكل فى طولها، بحيث تدل على أنها لقوم عماليق فى الحقيقة، لأن الجماجم أكبر بكثير من جماجم الناس

(٧٤) نفسه: ص ٢٢٠.

(٧٥) نفسه: ص ٣٠٥ ، ٣٠٧.

العاديين » (٧٦). ولنتذكر هذه الجماعم الطويلة فسيكون لها شأن فى حل غوامض سنأتى فى مواضعها من أجزاء بحثنا هذا.

وعلى صلاية الملك نعرمر مؤسس الأسرة الأولى المصرية، نجد أول ذكر لأول معارك مع البدو الساميين وهو رأي يخالف ما استقر عليه التفسير لهذه الصلاية ونقوشها بكونها إشارات لتوحيد نارمر للقطرين المصريين الشمالي والجنوبي، أما حسب قراءتنا نحن للنقوش، فسنجد على أحد وجهى الصلاية الملك يقبض على بدوى من رأسه ويضربه بذبوس قتال، لكن الملك الجليل كان يقف حافيا، ولا يتركنا الفنان نتوهم أن المصرى القديم لم يعرف النعال، فقد نقش خلف الملك صورة لواحد من أتباع الملك يمسك بنعلى الملك بشكل واضح؟ فهل كانت هناك قاعدة ضرورية تلزم صاحب الجلالة بخلع نعليه لأنه يقف بأرض أو بواد مقدس مثلا؟ بأرض إله؟

وعلى الوجه الآخر نشهد نقشا لحيوانين يوصفان فى كتابات المؤرخين بأنهما كائنات أسطورية خرافية، فالرأس أقرب إلى اللبوء، والعنق شديد الطول كما لو كان الفنان قد بالغ فى إطالة الرقبة لتأكيد تعريفنا بهذا العناق، ويمسك برقبتى العناقين رجلان من أتباع الملك رمزا لانتصاره على تلك البلاد وسيطرته عليها ممثلة فى سيطرته وترويضه لأشهر أعلامها (التفسير التقليدى لعلماء التاريخ يرى الصلاية والوحشين رمزا لتوحيد نعرمر لوجهى مصر العليا والسفلى).

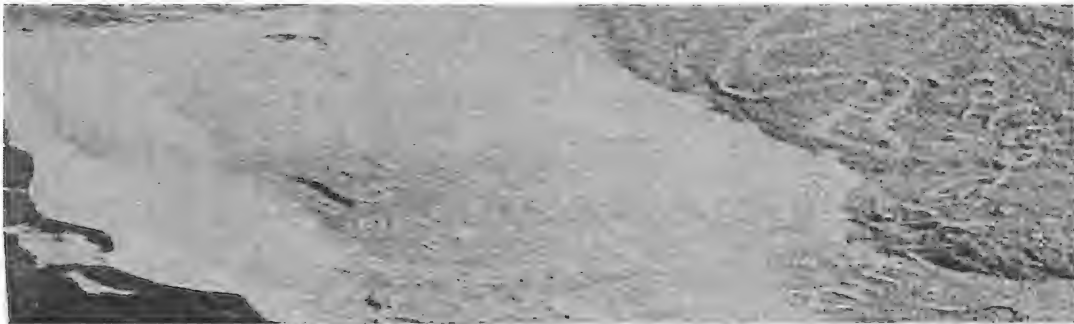
أما ذيل الحيوان فكان معقوفا، وهو الشكل الذى يطابق مشهداً لذات الحيوان، عثر عليه فوق الكهوف النمودية وقال الباحثون فى وصفه " ربما كان لبؤة صغيرة، لكن ذيله المعقوف مثل ذيل الكلب ".

ويدعم تفسيرنا أو قراءتنا هذه لصلاية نعرمر، أن على رأس الصلاية نقش الفنان نقشا آخر ليؤكد به الموطن الذى ذهبت إليه جيوش نعرمر، فصور طائر الزقزاق بشكل واضح لا لبس فيه، وعلى الجانبين رأس الإله حتحور وهى ربة سيناء الشهيرة عند المصريين.

وننتذكر الآن أن كثيراً من المؤرخين ذهب لأسباب وجيهة أن الملكة المصرية (تى) أم الفرعون إخناتون، كانت من بلاد ميتانى التى يفترض أنها كانت تقع فى أعالي الرافدين، والتى افترضناها مديان فى سيناء ووادى عربة ومحيط خليج العقبة جميعاً، ولو تطلعنا إلى إخناتون سنجد شخصاً عملاقاً، يحمل رأساً غريباً فهو رأس مستطيل وكبير، وهو ما أورثه أيضاً لبناته فى النقوش التى تركتها فنون العمارنة.



خريطة رقم (٦٣) جزيرة العرب / طرق القوافل التجارية



شكل رقم (٦٤)

نقش ثمودي تيماني من جبل غنيم (شمال غربي شبه الجزيرة) باليمن



شكل رقم (٦٥)

منظر عام لضريح أو بيت منحوت في الصخر في خربة العلا (لاحظ المشهد كأعشاش النحل)



شكل رقم (٦٦)
التموديون: مدائن صالح / الحفر في الصخر "ينحتون الجبال بيوتاً / قرآن كريم"



شكل رقم (٦٧)
التموديون: المساكن الكهفية القديمة بخرائب ددان (مدائن العلا حالياً)



شكل رقم (٦٩)
تمثال للمقارنة، الكاهن الأعلى - الأسرة الخامسة مصر القديمة



شكل رقم (٦٨)
تمثال عثر عليه في المعبد اللحياني - العلا



شكل رقم (٧٠) صلاة نارمر الوجه الأول



شكل رقم (٧١)

ربة سيناء حتحور أعلى الصلاة وتحتها سفينة تشير إلى وسيلة الوصول وبجوارها طائر
الزقراق يشير إلى شعب الأرض المقصود التعبير عنها



شكل رقم (٧٢)

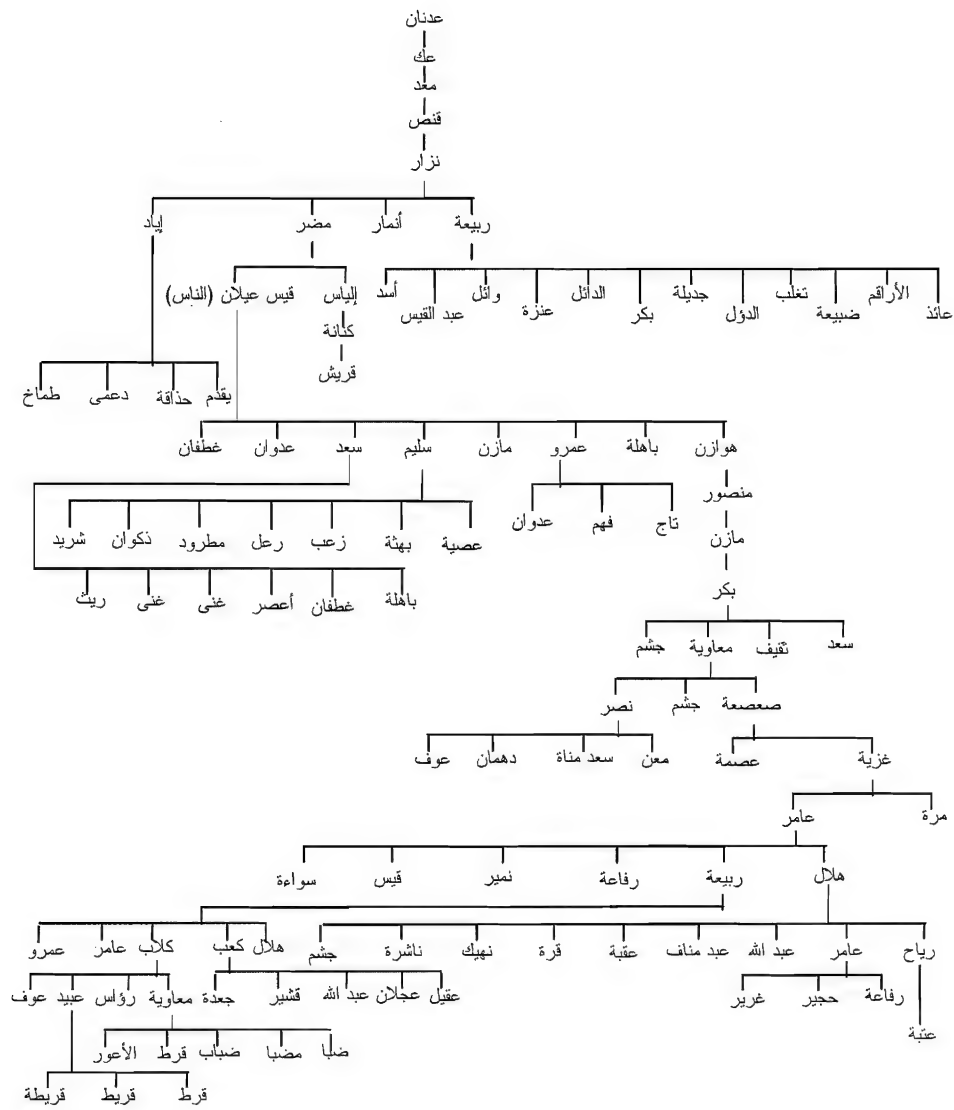
حامل نعل الملك بينما الملك يسير حافياً



شكل رقم (٧٣) صلاة نارمر الوجه الثاني

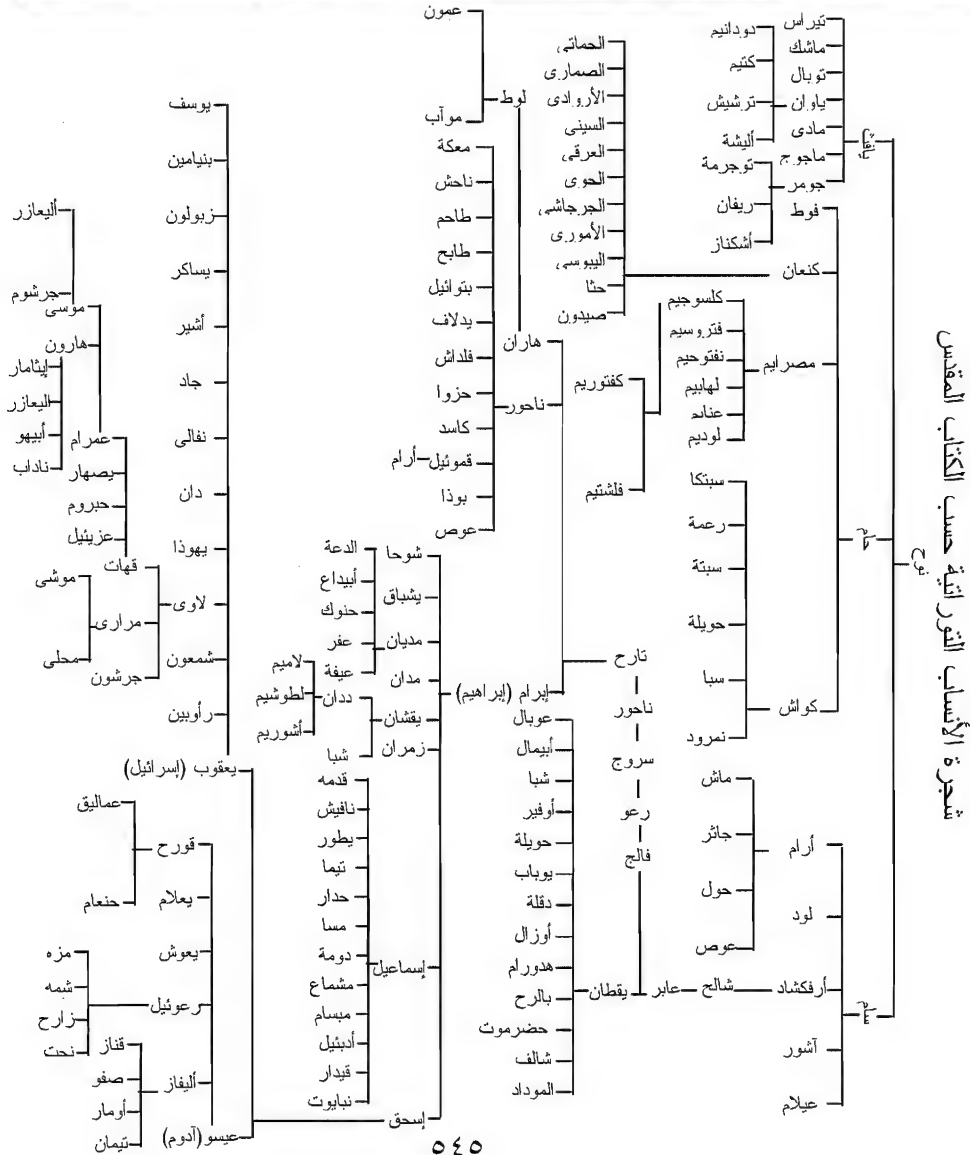


شكل رقم (٧٤)
أعداء الملك يهربون وخلفهم رمز موطنهم (كهف)



الجزء الثاني : عاد و ثمود

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة



إسحق و(الإله الضحك)

إبان بحثنا بدت لنا بعض الغوامض التي يمكن بحلها، أن تلتقى نتائجها مع ما قلنا حتى الآن، وتؤكدده. ناهيك عن كون هذا الحل يفسر لنا علاقة بنى إسرائيل بالهكسوس بتوضيح أكثر إضاءة وإدهاشاً. كما أن بعض الغوامض التي سنتناولها ستعطينا مزيداً من الأدلة على مدى تغلغل العقائد المصرية فى العقائد الإسرائيلية من بعد، مع غرض رئيسى من هذه المباحث يهدف إلى ربط كل ما وصلنا إليه بما هو آت، خاصة ما تعلق بعلاقة النبی موسى والخروج الإسرائیلی من مصر، بكل هذا الرتل الذى جهدنا وراءه حتى الآن.

وبين أبرز هذه الألغاز المطلوب حلها، هو ما ترويه لنا التوراة حول البطرك إبراهيم، الذى شاخ هو وزوجته سارة، لكن إرادة الله كانت أن ينجبا ولداً يكون أباً لنسل كثير، ذلك النسل الذى سيأتى من يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، ويعقوب هو الذى أسماه الله إسرائيل، ونسله هم (بنى إسرائيل).

ولتحقيق الخطة الإلهية ذهب الرب ليقابل إبراهيم ويشكو له مما وصل إليه شعب يعيش فى مدينتين من المدن الخمس لبلاد آدوم من تदन خلقى، إذ يأتون الرجال دون النساء شهوة، ويتعشقون الصبية المرد، وينفرون من الغيد الحسان. وإبان الحوار الذى دار بين الرب وخليله حول رغبة الرب فى القضاء المبرم على مدينتى عاد وثمود أو عمورة وسدوم الآدوميتين، يخبر الرب خليله بقرار الميلاد العجيب لإسحق ابن إبراهيم: حين يقول الرب لإبراهيم:

أين سارة امرأتك؟ فقال: هاهى داخل الخيمة، فقال: إنى أرجع لك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن . وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة وهو وراءه، وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة (حيض/المؤلف) كالنساء، فضحكت سارة فى باطنها قائلة: أبعد فنائى يكون لى تنعم؟ وسيدي قد شاخ؟ (أى إبراهيم / المؤلف). فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبا لحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شئ؟ فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك لأنها خافت، فقال: لا! بل ضحكت.

تكوين ١٨/٩ - ١٥

ومع استمرار القراءة يخبرنا الكتاب المقدس أن سارة قد ولدت فى شيخوختها طفلاً:

ودعا إبراهيم ابنه المولود له الذى ولدته له سارة: **إسحق**
.. وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحق ابنه،
وقالت سارة: قد صنع إلي الله **ضحكا**، كل من يسمع
يضحك لى.

تكوين ٢١/٣ - ٦.

وهنا ننقل السمع إلى مصادر أخرى، فننصت إلى روايات المسلمين من أصحاب السير والأخبار
وقصص الرسل والأنبياء، يحيطوننا علما نافعا يقول:

قال السدى: قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها
بالولد على حالة الكبر: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً
فلواه بين أصابعه فاهتز أخضراً، .. وقال مجاهد وعكرمة
: **فضحكت أى حاضت فى الوقت**. وتقول العرب: ضحكت
الأرنب على الصفا إذا **حاضت**، وقال السدى وابن يسار
وغيرهم من أهل الأخبار: **فحملت سارة بإسحاق**^(١).

والعارف بالتوراة لاشك يعلم دأبها على ربط أسماء المواليد (خاصة فى العصر البطركى من إبراهيم
إلى موسى) بأسماء مواضع جغرافية ومدن، أو أن يحمل اسم المولود دلالة على حدث هام أو نادر قد حدث
إبان ولادته أو ما أشبهه، فيعقوب سمى يعقوب لأنه ولد ممسكا بعقب شقيقه التوأم عيسو، وسمى يعقوب عندما
كبر باسم إسرائيل لأنه صارع الله، وعيسو حمل اسما ثانيا بدوره هو آدوم، لأن لون عيسو وشعره كان
بلون الأدمة، أى لون الأرض الحمراء، أى لون الدم أو الشقرة. وفى الأدمة شق تركيبي موروث هو (دم).
وبنيامين بن يعقوب سمى كذلك لأنه ابن اليمين أى الجنوب أو هو ابن اليمن.

ورواية التوراة هنا تحاول أن تبلغنا بسر تسمية إسحق ومعنى هذا الاسم، لكن على سرعة وعجل يتسم
بالغموض فيأتى أهل الأخبار من مؤرخى الإسلام ليجلوا لنا المعنى ويوضحوه. فقد كانت سارة عجوزا قد
انقطع حيضها، فلما أراد الله لها الحبل **ضحكت أى حاضت** على الفور تهيئة لقبول أعضائها لممارسة الحمل
والولادة.

فالضحك هو ضحك الفم والأسنان، لكنه أيضا ضحك الفرج أى انفتاحه، فالفم والفرج يفتح كلاهما عند
فعل الضحك. ولأمر معلوم لدى دارسى الأساطير القديمة لابد أن يحيل هذا الإله إلى أرباب الخصب
والخضرة، فقد كانت آلهة الخصب القديمة هى المسئولة عن نمو المحصول وعن الرى أى عن ولادة
الأرض، وعن خصب الحيوان وزيادة نسله كذلك الإنسان. وتحفظ لنا القصة الإسلامية رمز ذلك الإله

(١) الثعلبي: عرائس المجالس.. سبق ذكره، ص ٨١.

المخصب في العود اليابس الذي تحول في القصة إلى عود أخضر، كلون من الإعلان الواضح عن الفعل المطلوب وهو ممارسة خصبية تؤدي إلى ميلاد إسحق، الذي أرتبط اسمه بالخصب والضحك ودم الحيض.

وكان معلوما في تلك الأيام الغواير أن الدم هو المكون الأساسي والمادة الخام للحياة وخصبها، لتكوين الجنين، إذ لاحظ الإنسان الإبتدائي اختفاء دم الحيض مع الحمل فربط بينهما واعتبر الدم معامل الحياة المشترك لكل شيء، لذلك كان اختفاؤه النهائي يعنى توقف الخصب وامتناع المرأة عن منح الحياة والولادة.

وفي الفصول السابقة سبق وحددنا إليها بذاته يُعد أهم آلهة الأقوام السامية، ومنهم الهكسوس والإسرائيليين الذين تركزوا شرقي الدلتا المصرية، هو سيت المصرى المتحد ببعل رب الخصب السامى، وقد شهدنا له عدة تجليات كما في الحية وطائر الفينيق وفي حيوان عناق البونتي، وهنا يكشف الإله عن تجل جديد سيرتبط وشيكا بعد فقرات بإسحق.

ونقول لنا الأساطير المصرية إنه من رأس سيت - والرأس محل الحكمة والعقل - انبثق الإله تحوت، الذى ينبغى أن ينطق سليما (ضحوت Tchout) إله مدينة الأشمونين عاصمة الإقليم الثامن بمصر الوسطى، ويبدو أنه كان إلهاً حديثاً بالإقليم، لأنه اندمج هناك عند ظهوره برب قديم للإقليم يحمل اسم (ح ض - ور)، وكان (حضور) يمثل في رمزين: الأول طائر IBIS أبى قردان، والثانى هو قرد البابون، لكن هذه الآلهة نفسها رغم صعيديتها فهي ذات منشأ دلتاوى^(٢).

وما يعنينا هنا هو أن أهم رموز وتجليات الإله (ض ح - و ت) كان القمر، فهو رب القمر لكنه أيضا كان ربا شمسيا لذلك لقبه المصريون القدماء بلقب (سيد الزمان وحاصى السنين)، كذلك كان حامى الكتاب والمفكرين باعتباره مخترع الكتابة في الأساطير. وقد ربط اليونان بينه وبين معبودهم (هرمس Hermes) الذى يعود للإسم (إرم) أى الإرمى، واعتبروا ضحوت هو الصورة المصرية للإله هرمس، وقد صور المصريون ضحوت إما في صورة رجل برأس أبى قردان (الأيس)، أو بصورة أبى قردان الكاملة، أو بصورة قرد يضع فوق رأسه قرص القمر في حالة الهلال يضم بداخله صورة قرص الشمس مما يؤكد قمرية ضحوت وشمسيته معاً.

وكما اعتدنا في عملنا هنا، نعود إلى لسان العرب نبحث عما تركه الزمان متضمناً داخل معانى المفردات، فنجد الجذر (ضحا) في العربية هو من طلوع الشمس وارتفاع النهار. لكن الكلمة تقال أيضا عن القمر وطلوعه، إذ يقول العرب: ليلة ضحياء وأضحيانة أى ليلة مقمرة لاغيم فيها، كما سميت الضحية كذلك لأنها تذبح عند الضحى. وفي القرآن الكريم آيات تقسم بظواهر الكون ومنها " والضحى والليل إذا سجى " حيث قرنت الآيات بين الليل و الضحى، مما يشير إلى أن الضحى المقصود هنا هو القمر، وبالقلب تصبح

(٢) على فهم خشيم: آلهة مصر.. سبق ذكره، ج٢، ص ٣٥١.

(وضح) والثالثى منها (و ض) و (وضاً). و(الوضح) فى لغة العرب هو بياض القمر كما هو بياض الصبح^(٣).

وللمزيد من أجل جمع معانى تزيدينا إيضاحاً ووضوحاً، نجد قرد البابون على وجه التحديد رمزاً لضحوت دون بقية أنواع الفصيلة القردية. ويسمى فى الإنجليزية الوسيطة Babewin والفرنسية القديمة Babuin من اللاتينية الوسيطة Babewynus، لكن المعجم هنا يقدم لنا تقريراً حول الكلمة موجزاً يقول: وأصل هذه الكلمة مجهول. هنا يذهب الباحث على خشيم إلى أن تلك الكلمة لها أصل واضح فى العربية فهى مأخوذة من مأمون / ميمون. ويدعم هذا التخريج أن مونتجومرى وات يقول: إن معنى Baboon هو سعيد أو محظوظ Lucky. وفى العربية نجد الشق الأول من اسم الإله القردى بابون القمري (ضحوت) هو (ض ح) وهو مقلوب الشق الأول من الإله الذى اندمج معه (ح ض. ور). والشق (ح ض) هو بلا خلاف (ح ظ) والحظ يعنى السعد واليُمن، ثم أن العربية تسمى هذا القرد (سعدان) من السعد، وميمون من اليُمن التى تلتقى مع بلاد اليمن بلاد السعد أو كما سميت (العربية السعيدة)، ولم تنزل بلاد اليمن إلى يومنا مؤثلاً لقرد أو سعدان البابون الذى ينتشر فيها انتشاراً واسعاً.

والإصطلاح العلمى الذى يطلق على هذا القرد كتبته اللاتينية: Cyno - Cephalus - Hamedryas، وعلى الفور تلحظ أن المقطع الأول Cyno فى اليونانية Kuno أى كلب، ثم المقطع الثانى من الكلمة Cephalus وتعنى رأس، لتصبح الكلمة جميعاً تعنى: القرد الكلبى الرأس، وهى الصفة التى تطابق تماماً قرد البابون، فرأسه أقرب إلى رأس الكلب، أو ربما الضبع.

ويزداد ترابط هذا المعبود الكلبى الرأس بالكلب عندما نتذكر ملحوظة استرابون عند زيارته لمصر، إذ لاحظ أن فى مدينة مصرية اسمها كينوبوليس أى مدينة الكلب، كانت تتم عبادة الإله أنوبيس رب الموتى الكلبى، وأنه كانت تقام هناك مأدبة مقدسة للكلاب، كما لاحظ أن أهل بابليون (مصر القديمة جنوب شرقى القاهرة / المؤلف). فى زمانه كانوا يعظمون الكيوس وهو القينوقفالس / القرد الكلبى الرأس^(٤).

والطريف أن نجد قرد البابون/ ضحوت رب الحكمة، يرتبط تماماً بمعبود البوادرى السامية (سيت)، فهو قد خرج من رأسه، ثم نستمع إلى بلوتارك يقول: " ويسمى توفون .. سيت بابون Bebon وسمو Smu.. وفوق ذلك يسمون .. الحديد عظم توفون كما ذكر مانيتون " ^(٥).

وهكذا فإن الإله المتعدد الأسماء (سيت/ تيفون/ بعل حداد/ بعل صافون) يأخذ لقب (سيت بابون)، أى سيت القرد البابونى، وكان له لقب آخر هو (سموه) علامة على السيادة والسلطان، أما الأكثر إضاءة فهو ربط هذا المعبود فى عبارة بلوتارك العابرة بموطنه فى بلاد مديان، حيث كان القينيون صنّاع الحديد الذى هو

(٣) نفسه: ص ٣٢٥، ٣٥٣.

(٤) استرابون: استرابون فى مصر .. سبق ذكره، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٥) بلوتارك: إيريس وأوزيريس. وسبق ذكره، ص ٩٣.

فى الاسطورة عظام سيت/ تيفون. والطريف أن نصوص مصر القديمة كانت تشير إلى الطوائف السامية من الخابيرو/ العبيرو بالكلاب^(٦)، أما العابيرو فكانوا يصفون أنفسهم بها، وهو ما يرجح أنها كانت صفة مستحبة تيمنا بالمعبود^(٧) لكننا نجد اسم الإله المصرى القردى ح ض . ور / Hd.Wr لقبا أكثر منه اسما وهو ما يفضى إلى ما نقصده مع الإله الضحاك فالكلمة ح ض. ور تترجم على التدقيق بالأبيض العظيم (ح ض = أبيض + ور = عظيم)، فهل يمكن أن يسعفنا لسان العرب فى فهم سر تلك التسمية الغريبة تماماً؟ إن مادة (حضا) تقول: " حضأت النار التهبت .. وحضأت النار سعتها .. وحضو النار تحريك جمرها " وهو ما يشير إلى طبيعة البابون الشرسة الحادة، خلافا لبقية الفصيلة القردية كالشمبانزى والنسناس مثلا^(٨).

والكلمة (ح ض) أى الأبيض تطابق العربية (ح ي ض) (حيض) دون التباس، لكنها بالقلب تصبح (ض ح) لتشكل الشق الأول من اسم ضحوت، والثلاثى من الثنائى ض ح هو ضحك، أما ضحوت نفسها فهى كلمة واحدة متكاملة، هى ضحك، أو هى الضحاك، وتحت مادة (ضحك) نقرأ فى لسان العرب:

ضحك: الضحك معروف: ضحك يضحك ضحكا.. وفى الحديث يبعث الله السحاب فيضحك أحسن الضحك.. وضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرها .. والضاحكة كل سن من مقدم الأضراس مما يند عند الضحك ، والضاحكة السن التى بين الأنياب والأضراس وهى أربع ضواحك .. والضواحك الأسنان التى تظهر عند التبسم .. والضحك الثغر الأبيض .. والضحك الثلج والضحك أيضا طلع النخل حين ينشق، وقال ثعلب: هو ما فى جوف الطلحة.. وضحكت النخلة وأضحكت أخرجت الضحك .. وضحكت المرأة إذا حاضت وبه فسربعضهم قوله تعالى: فضحكت فبشرناها بإسحاق وأنشد تأبط شراً:

تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب بها يستهل
قال أبو العباس: تضحك هنا تكشر وذلك أن الذئب ينازعها على القتل فتكشر فى وجهه وعيدا .. قال ابن سيدة: وضحكت الأرنب إذا حاضت قال:

وضحك الأرنب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم

(٦) زياد منى: جغرافية.. سبق ذكره، ص ٧٤

(٧) فليكو فسكى: عصور فى فوضى.. سبق ذكره، ص ٢٦٨، ٢٧٠

(٨) خشيم: آلهة مصر.. سبق ذكره، ص ٣٥٥، ٣٥٦

يعنى **الحيض** فيما زعم بعضهم. وقال ابن الإعرابى فى قول تأبط شراً : تضحك الضبع لقتلى هذيلأ أى أن الضبع إذا أكلت لحوم الناس أو شربت دماءهم **طمثت وقد أضحكها الدم**، وقال الكميت:

وأضحكت الضباع سيوف سعد لقتلى مادفن ولاودينا

..

أراد الشاعر أنها تكشف لأكل اللحوم.. وقيل معناه أنها تستبشر بالقتلى إذا أكلتهم فيهر بعضها على بعض فجعل هريرها ضحكا. وقيل : أراد أنها تُسر بهم فجعل السرور **ضحكا** .. وقال الأخطل فيه بمعنى **الحيض**:

تضحك الضباع من دماء سليم إذ رأتها على الحداب
تمور

.. والضحوك من الطرق ما **وضح واستبان** .. والضحاك حجر أبيض يبدو فى الجبل، والضحوك الطريق الواسع، .. ويقال: **إن القرد يضحك إذ صوت** .. **والضحاك بن عدنان**، زعم ابن دأب المدنى أنه هو الذى ملك الأرض.

وعليه فإن الضحك هو الجلاء والوضوح والبيان وظهور الثنايا من الفرح، وله علاقة وطيدة بخصب الأرض والزرع والحيوان كالأرنب والضبع وكذلك بخصوبة الإنسان، والقرد يضحك إذ كشر عن أنيابه هياجا أو سرورا ، ولقب القرد فى مصر القديمة (ح ض) وتعنى الحضاء أو البسام وتضاف لها (ور = كبير) فيصبح: **الضحاك الكبير** ، وهو بالضبط ما تعنيه عبارة (الأبيض الكبير)، لأن الضحك يكشف عن بياض الأسنان ويبين عنها.

ونموذجا لذلك كمثال آخر نجد ضمن آلهة مصر القديمة إله السمك (سمك) أو (سبك) وهو التمساح، ونجد اليوم قرية من أعمال المنوفية لم تزل تحمل اسمه فهى (سبك الضحاك)، مما يشير إلى أنه قد حمل صفة الضحاك لأن التمساح يفتح فمه ساعات طويلة ليفصح عن أسنانه البيضاء.

وهكذا نجد نظريتنا تتدعم بجديد يؤكد صحة ما وصلنا إليه فى الفصول السابقة، فاللغة العربية أكثر ما **خصت الضبع بالضحك وبالحيض**، ولعلنا لم نزل نذكر عناق البونتى الشبيه بالضباع، وكيف قرنه لسان العرب بتصويت القرد (ضحوت)، وضحوت هو البابون ذو الرأس الضبعى كما لو كان قرداً قد مسخ ضبعاً أو العكس، ناهيك عن الشبه الواضح للقرد بالإنسان، وهو ما انعكس فى اعتقاد عن مسخ آخر هو مسخ البشر

إلى قردة. ونذكر أيضاً طائر الفينيق آكل الحيات القادم من بلاد العنز العربية، لأن أبى قردان المصرى يسمى فى الأقطار العربية (أبو حنش، أبو منجل، حارس، عنز)، واللاتينية تسمية Ibis religiosa أو Sacred Ibis أى أبىيس المقدس، وهذه الفصيلة بالتحديد من نوع طيور أبى منجل (أى أبى قردان) قد أطلقت عليه المصرية القديمة الاسم (هـ ب HB) وأخذتها اليونانية وصرفتھا إسمياً، فاسمه (هـ ب ى س) أو (أبىيس)، وهنا لابد أن نذكر أيضاً إله الريح (هبا)، وأبو منجل طائر يسابق الريح، ولونه أبيض واضح، و(هـب) تعنى ما يعنيه اسم ضحوت (البياض)، لأن من كلمة هب تأتى كلمة (ههب) والهبة هى البياض والصفاء والبيان، ويقال فى لسان العرب: هب النجم إذا طلع، (هـ ب)، وهى على النسبة Hby. والطريف أن المصرى لم يزل حتى اليوم يربط (هـب) بالفصيلة الكلبيّة، مبقياً على الصيغة المصرية القديمة، فهو يطلق على نباح الكلاب (ههبه) الكلاب.

هكذا يمكننا أن نفهم السر وراء اعتبار المصرى للقرد البابون وطائر أبى قردان معا رغم تباعدهما النوعى بين الأحياء، رمزين للإله ضحوت.

ولمزيد من الفهم سنجد أن الكلمة المصرية القديمة (HBY) قد أدت إلى (هـ ب ن ى Hbny) و (هـ ب ى ن Hbyn) كما عند بدج، ونقلتها اليونانية إلى لغتها فى الاسم ابينوس أو هبينوس Ebnos أى أبنوس وهو الخشب الأسود الصلب، وبهذا الشكل يكون بالمسألة خلل لأن الأبّنوس أسود بينما أصل الكلمة المصرية يعنى الأبيض الناصع. هنا يقول معجم أوكسفورد أن الكلمة الأنجليزية ebony تعنى أبّنوس، لكن المعجم يستمر شارحاً فيقول أنها ربما كانت تحريفاً للكلمة Evory أى عاج، والعاج/ سن الفيل، ناصع البياض. لكن هذا بالتحديد يشكل دليلاً على نظريتنا نضيفه إلى رصيد أدلتنا، إذ يتضح مجئ النقيضين من مركز تصدير واحد، مع الأبيض والأسود من الناس، فحملت اللغة السامية وهى تتطور هناك فى بلاد آدم جينات وراثية تشير إلى المنابت والأصول. لقد اشتقت اليونانية كلمة Ebnos الدالة على الخشب الأسود من الكلمة المصرية Hbny طائر ضحوت أبى قردان شقيق زميله البونتى (ب ن و) رمز الشروق والضيء القادم من أرض الإله فى الشرق، كما سبق وحدثنا المصرى القديم.

وللطرافة، أو للتأكيد، نجد الكلمة العبرية سن الفيل هى (شن هـ بين) أى العاج الأبيض الناصع، لكن (هـ بين) وحدها تعنى أبّنوس، لقد حملت الكلمات أيضاً تداخلات عناصر وأجناس الأحلاف الأخلامو.

وطائر (هبنى) يسميه المصريون اليوم (أبو قردان) وهى التسمية التى جمعت بين اسمى ضحوت ورمزية القرد مع طائر الأبيس فهى من مقطعين: (أبو = هـ ب ى hby + المقطع الثانى وهو تفعيل لكلمة قرد / قردان) بل أن اسم قردان يعود بدوره إلى المصرية القديمة الواضحة باللفظ والفوناتيک، لأن المصرى القديم كان يطلق على جميع أنواع القردة الاسم (ق. ن. د)

وقد ورد بلسان العرب كما قلنا من هنية أن الضحاك أيضاً هو اسم لشخص محدد هو الضحاك بن عدنان، وعدنان هو أبو العرب الشمالية المستعربة، ثم ساق اللسان زعماً يقول: إن الضحاك هذا هو الذى

ملك على الأرض جميعاً وكان مقر حكمه فى بابل. محتفظاً فى الذكرى بامبراطورية كبرى كان لعرب الشمال (وادي عربية) نصيب فيها.

وهناك أسطورة فارسية معروفة حدثتنا عن ملك باسم الضحاك حكم من عاصمته فى الرافدين القديم، وكانت الرافدين تحسب فارسية حتى الفتح الإسلامى العربى لها، فيروى لنا الفردوسى فى رائعته المعروفة بالشاهنامة أن الكتاب الزرادشتى المقدس قد ذكر الضحاك باسم (إس - ت - حاك) أو (إزى - د - ه - ا - ك ه)، وكتب الأخبار الإسلامية تقول: إن الضحاك كان ملكاً من ملوك **النبط** لكنه كان كلدانياً حكم فى بلاد الكلدانيين / الرافدين القديمة. والأنباط كما عرفنا هم السلالة الأخيرة فى التطور نحو الجنس العربى واللغة العربية قبل ظهور العرب الصرحاء والعربية الصريحة، وأنهم سكنوا بلاد العرب أو وادي عربية فى أدوم. والطبرى يرى أن النمرود كان منوباً على حكم الرافدين من قبل ملك العالم الضحاك بينما الأصل الوطنى للضحاك هو بلاد اليمن، وأنه هجرها واستقر فى بيت المقدس/ أورشليم، تلك التى قال لنا يوسفوس أنها المدينة التى بناها واستقر فيها الهكسوس بعد طردهم من مصر.

وهنا نقتطع من (مظفر نادوثنى) فقرة شاردة لم يقصد بها شيئاً محدداً، لكنها تعنى لنا هنا الشئ الكثير، فهو يقول:

بؤكد الفرس أن العرب كانوا حكام العراق وبابل
الأقدمين، وأنه بعد جامشيد Gumshid الذى كان
معاصراً لسام بن نوح احتل دهاق Dahak العربى هذه
البلاد، ويؤكد العرب أنفسهم ذلك، إذ يقول الطبرى
المؤرخ العربى المشهور: يدعى أهل اليمن أن الملك
دهاق بن علوان ينتمى اليهم كما يقال أيضاً إن الدهاق
هو النمرود الذى ولد فى عهده سيدنا إبراهيم، وأنه هو
الذى أمر بإحراقه. وقد وصف الفردوسى أكبر الثقافات
من المؤرخين الفارسيين مملكة الدهاق التى استمرت
ألف سنة فى شاهنامته^(٩).

ثم يضيف:

ويرى المؤرخ الألمانى الشهير دنكر Duncker أن كلمة
كوش Cuch المستعملة فى سفر التكوين تشمل جميع
الأمم التى عاشت فى الأراضى الجنوبية كالأثيوبيين

(٩) مظفر نادوثنى: التاريخ الجغرافى للقرآن.. سبق ذكره ص ١٤٢، ١٤١.

(١٠) نفسه: ص ١٤٢.

والنوبيين. أما قبائل جنوب العرب فيقصد بهم سلالة
كوش الذين أسسوا بابل، والذين استقروا على الخليج
الفارسي أيضاً^(١٠).

وبغض النظر عن ترمين حكم الكوشيين أو الكاشيين الذين أسسوا بابل بألف عام ممثلة ترميزاً في
شخصية الضحاك، لترمز إلى رب بعينه لجمهرة حاكمة بذاتها. فإن هناك ترميزاً آخر ينقله (نادوثي) عن
المؤرخ البابلي (بيرسوس Brushes) الذي عاش في بابل سنة ٤٠٠ ق.م، وأرخ لبلاده، وتسربت من كتبه
المفقودة إلى المؤرخين الكلاسيك واليهود، وما ينقله نادوثي يعطينا منه فكرة يقول فيها بيرسوس :

كان عدد ملوك بابل العرب تسعا، بلغت مدة حكمهم
نحو ٢٢٥ عاماً.^(١١)

ومدة ٢٢٥ سنة سنكتشف في الفصول المقبلة أنها كانت الزمن الذي أمكننا تدقيقه لوجود الهكسوس
على سدة حكم مصر بدورها.

ونعود للشهنامة لنجدها تحوكم أسطورة حول الضحاك تقول أنه نبتت في كتفه حيتان لاتهدآن إلا
بالاغتناء على أمخاخ البشر، فكان رمزه الثعبان، أو كان قرينا لثعبان أسطوري معبود^(١٢).

ومن جهتهم يصير المؤرخون العرب القدامى على أن الضحاك كان ملكاً على بلاد الرافدين القديم،
لكنه كان يمينياً، فما أبعد الشقة، وما أقربها في ضوء حدوث ذلك زمن إمبراطورية كبرى من حلفاء كبار،
لذلك يعقب المسعودي بقوله: " إن اليمانية من العرب تدعى الضحاك وترغم أنه من الأزدي .. وقد ذهب كثير
من ذوي المعرفة بأخبار الأمم السالفة وملوكها إلى أن الضحاك كان من أول أوائل ملوك الكلدانيين النبط " .^(١٣)

ونعود للشهنامة التي تخبرنا أن ملك الضحاك قد سقط على يد رمز الخير في الاسطورة (إفريدون)
الذي اعتقل الضحاك وسجنه في مغارة مظلمة، في شعب يقع بين جبلين متناطحين، يضيق ما بينهما حتى
يرى في النهار الشامس كالليل الدامس.

وإفريدون في الشهامة هو أول طبيب، فقد أنزلت إليه عشرة آلاف من الأعشاب الشافية كانت تلتف في
غيشة حول شجرة هوم البيضاء^(١٤). والأبيض هو اللبان، واللبن واللبان من جذر لغوي واحد يشير إلى
الإبانة والوضوح والجلاء، لذلك يكون منطقياً أن من هزم الثعبان طبيب، لأن المرض عادة ما كان يعزى

(١١) نفسه: ص ١٤٣

(١٢) الفردوسي: الشاهنامة، ترجمة الفتح بن علي البنداري، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢،
١٩٩٣، ج ١ ص ٢٥، ٢٦، ٢٩.

(١٣) المسعودي: التنبيه والإشراف.. سبق ذكره، ص ٩١، ٩٢.

(١٤) الشاهنامة: سبق ذكره، ص ٣٨

لسم الشعبان ونفثاته، لكن منها أيضا تؤخذ العقاقير العلاجية، ولم يزل رمز الدواء شعبانا ينفث سمه في كأس، والمدحش أن الشهنامة تقول إن إفريدون رزق بحفيد أسماء مناجهر، ومعناه عندما نترجمه من الفارسية إلى العربية يلتقى تماما مع المعانى المصرية القديمة فهو (الأبيض الضاحك) . وحتى تكتمل اللوحة نقرأ المراجع الإخبارية العربية فتقيدنا خبراً نافعاً هو: إن هذا الأبيض الضاحك أو (الضحاك) كان حفيداً لإسحق بن إبراهيم، إسحق دون غيره وبالذات (!!!) إذن بذلك نكون قد حققنا اسم اسحق بحسبانه هو ذات عين اسم الضحاك معنى ومبنى، بل وفيما تضمنته جينات اللغة الحاملة للصفات الوراثية عبر تطورها التاريخي الطويل.

وننتقل نقلة أخرى، فنربط بين اسم إسحق بالضحك، وبالضحاك الذى ملك على الأرض جميعاً، (وهو ما يعبر عن سيادته على إمبراطورية كبرى) وبخصب الأرض والحيز والنبت والولادة، وبين اسم الملك الهكسوسى الذى حكم على إمبراطورية عظمى مترامية الأطراف وهو ما انتهينا اليه فى الفصول السابقة، الملك الهكسوسى الثانى على مصر والذى جاءنا اسمه عند مانيتون (بنون Benon)، ونقله عنه يوليوس الإغريقى ويوسفوس (ببيون) وهو ما لابد أن يذكرنا بميمون / البابون، وأن الملك بنون جاء اسمه فى بردية تورين باسم (بنيم)، ووصلنا اسمه على الآثار المصرية بالرسم (سكا)، والسكة هى حديدة المحراث. والسكة عادة ما ترمز للقضيب الذكورى، ويكنى بها عن القضيب لأنها تشق تربة الأرض كما يشق القضيب الفرج، فالسكة هى التى تجعل الأرض تحيض وتلد، تجعلها تضحك، فسكا هو الضحاك. ويدعمنا بشدة هنا أن الكتابة الهيروغليفية التصويرية تكتب أول حروف اسم سكا حرفا على هيئة رجل يمسك محرثا وبإهمال الحاء المخففة فى اسم إسحق /سحق يصبح سك، وهنا فوراً نتذكر عنصرا هكسوسيا فى مصر أثبتنا أنه كان يحمل اسم (السكاسك) ومنه جاء اسم مدينة الزقازيق . ثم علينا ألا ننسى أن حكام الهكسوس كانوا بالأصل فى الأغلب عبدة للقمر، ومع هبوطهم مناطق الخصب عبدوا الشمس أيضا وتسمى ملوكهم فى مصر بأسماء تنتسب إلى رب الشمس المصرى القديم (رع)، لقد كان سكا شمسيا وقمريا فى ذات الوقت كما هو (ضحوت).

وهذا بالطبع لا يعنى أن إسحق المقصود هو إسحق التوراة بن إبراهيم تحديداً وكل ما نعينه أن جميعهم كانوا ذوى قرابات وأسماء متقاربة وأن الحاكم الهكسوس (البابون / ميمون / سكا / الضحاك) كان ملكا هكسوسيا حكم فى إمبراطورية كبرى وربما كان هو أصل الأساطير عن عظيم باسم الضحاك الذى جمع صفة الشكل الأدمى مع الضبع عناق البونتي

ونقف نعجب من اللغة المصرية القديمة وهى تطلق على قرد البابون الأسود القاتم اسم الأبيض الكبيروما فى معناها الضحاك العظيم، وأن يقال فى العاج أبوس وهو شديد السواد وأن تكنى العربية عن الصفة المعيبة بعكسها فتقول عن الأعمى (أبو بصير) وعن الكسح (أبو سريع). وإذا تصورنا فعلا أن الملك النمروذ ربما هو الضحاك، لعلمنا لماذا حمل هذا الاسم، لأن كتبنا التراثية تصوره زنجيا شديد القبح حتى شبهته بالقروذ. (وكانت آدوم موثلا لقردة البابون بكثرة).

ولا يفوتنا التنبيه الى أن لسان العرب نسب الضحاك الى عدنان، فقال الضحاك بن عدنان، وعدنان هو أبو العرب المستعربة، ثم هذا كله يفسر بقايا ذكريات ربطت بين الجنس الإسرائيلي وبين جنس القردة، وتواتر ذلك عبر الأزمنة حتى جاء عنهم في القرآن:

فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين / ٦٥ / البقرة.

فلما عتوا عن ما ينهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة
خاسئين / ١٦٦ / الأعراف

من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة / ٦٠ /
المائدة.

وفي موضع آخر بالشاهنامة رواية أسطورية تتحدث عن العنقاء، التي كانت - في الرواية المصرية - تسافر من بلاد العرب حاملة أبيها الى منف ، لكن الشاهنامة هنا تحدثنا عن شخص باسم (سام) أنجب ولداً شعره أبيض (مما يذكرنا بعيسو آدوم في الرواية التوراتية) فألقاه أبوه على **جبل العنقاء**، فقامت العنقاء بتربية الطفل بين صغارها، ثم حملته بعد أن شب صبيا الى أبيه ليصير ملكا من بعده، وأعطته ريشا من جناحها يمكنه أن يستدعيها بحرق ريشة منه إذا حزبه أمر ^(١٥). والرواية هنا قريبة مما روى عن رحيل الفينيق لأداء رسالة مشابهة، والترميز يربط بين موطن العنقاء وموطن الوليد الأحمر، وبين كليهما وبين مصر، في رمز واضح يشير الى أن **ابن العنقاء بالتبني**، **ابن الفينيق**، **ابن الأيبس**، **ابن ضحوت**، **ابن القرد**، **الضحاك**، **قد صار ملكا عظيما**.

وقد أصبح الآن لدينا عدد من التجليات لرب سيناء وآدوم، ومنها ذلك القرد القمري ضحوت الذى حمل وجه سيت عناق البونتي ونلاحظ أن البابون فى نقوش رحلة حتشبسوت الى بونت كان يتربع على صواري السفن، والشق (بى) و (بو) فى المصرية القديمة تعنى (فم)، فهو (بى - بون) أو الفم البونتي، وهو الفم المعلوم الأمر للمصرى القديم لأنه فم عناق البونتي، ومن هنا لا يكون أصل كلمة بابون مجهولا إنما كان معلوما فى مصر وآدوم. ولم يزل ملاعبو القرد فى مصر حتى الآن يقفون فى المناطق الشعبية يلعبون قردتهم بالنداء " إلب يا ميمون " .

وقد سبق وقدمنا محاولة تفسير لاسم بلاد بونت عند المصريين القدماء، فقلنا إنه الحجر استنادا الى اسم الحجر الهرمى بن بن وأنه البلاد الخماسية، وهنا اقترح آخر لتفسير اسم بونت، فربما جاء منسوباً الى الفم البونى (البابون). ثم نعلم أن مشروب القهوة/ البن كان منتوجاً من جنوبى الجزيرة/ يميناً، ولا شك أنه قد وجد طريقة مع التجار إلى بلاد آدوم، التى كانت تصدره كمادة عطرية ومادة علاجية، ويدخل البن فى معظم التركيبات العلاجية الشعبية، ولم يزل يستخدم فى قرى مصر كمجلط الدم وحابس للنزيف. وربما حمل هذا النبات اسم البن لعلاقته بالفم البونى/ البابون، وربما كان قرد البابون وراء اسم بونت، خاصة إذا علمنا ان

(١٥) نفسه: ص ٥٢: ٥٧.

الكلمة اللاتينية التي تدل على البن هي (كوفى) و (كافى) وهى اختصار بالأحرف الأولى لاسم البابون Ceno Cephalus -. ثم إنها بالضبط (قهوة) العربية لتبادل الفاء مع الواو، فالقهوة هى الكوفى هى القهفة/ الكهفة. فهل ثمة علاقة بين هذا الاسم وبين الكهف والكهوف مساكن آدم القديمة؟ ومن قهوة لدينا مدينة (قها) فى مصر، والعجيب ان تدهشك اللغة بقدرتها على حمل كل تلك الذكريات لأن قها كانت أحد مقار عبادة الإله الضحاك ضحوت، والأغرب أن تبقى الذكريات بشكل لا واعي ويلاحظ العامة اليوم علاقة (قها) بفعل الضحك، فيطلقوا على البلدة من باب التفكه (بلد النصف ضحكة) باحتساب الضحكة الكاملة هى قهاقها.

والدارس للأساطير يعلم أن رب القمر كان على علاقة وطيدة بالمرأة، حتى عدته بعض الأساطير إلهة أنثى، وذلك لتناغم تقلب أوجهه مع إيقاعات المرأة البيولوجية فى دورتها الشهرية الحيضية، وكان رباً للهواء والريح، وهو ما يستدعى (هوا) رب الريح و (يهوه) كأرباب خصوبة، وهو ما يفسر لنا الضحك باعتباره حيضاً، لأن الضحاك الكبير ضحوت كان هو القمر قرين الحيض الأنثوى.. ومع حيض نقرأ تحت مادة حضض باللسان:

حضض: الحض ضرب من الحث فى السير.. وهو
عقار مكى ومنه هندی، وهو عصارة شجر معروف
وقال ابن دريد: الحضض صمغ من نحو الصنوبر
والمر .. وأحمر حضى: شديد الحمرة، قال ابن
خالويه: يقال حاضت ونفست ودرست وطمئت
وضحكت وكادت وأكبرت وصامت. قال المبرد: سمي
الحيض حيضاً من قولهم حاض السيل إذا فاض.. وقيل
الحيض الدم نفسه.

وهكذا أجملت اللفظة معانيها فأوعبها، فالحيض الذى هو فعل الضحك الذى يسببه الضحاك الكبير القمر رب الخصب، فهو يفتح الأرض لتجرب ويفتح فرج الأنثى فتحيض وتلد ويفتح شجرة المر فتنتج لبانها واللبان والصمغ والمر كلها تسيل كالحيض من جرح فى الشجرة ينفلق تلقائياً. وبين معانى حاضت: درست، والدرس هو استخدام السكة فى شق الأرض. وكان الفرعون الهكسوسى الثانى على مصر يحمل اسم سكا، وللتأكيد تم تدوين اسمه برمز فلاح يحرث الأرض بسكته.

وفى القصص الإسلامى حكايات عن النبى موسى لم تعرفها التوراة على الإطلاق، ويبدو أنها كانت ماثورا تاريخيا شفاهيا لم يجد طريقه إلى التدوين بالكتاب المقدس، استمر متواترا حتى زمن الدعوة الإسلامية حيث أعلمنا به القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ومن نماذج تلك الحكايا قصة النقاء موسى فى موضع يسمى مفرق البحرين لشخصية تراثية باسم الخضر الذى صورته الآيات بحسبانه حكيما عظيما يعلم الغيب، كما أضافت إليه الشروح صفات تفسر اسمه بشكل يشير إلى أنه كان ربا للخضرة والزرع، فقد كان

إذا جلس على فروة بيضاء أخضرت وأن الأرض تخضر تحت قدمية بالنبات عند مسيره، وأنه حي غائب، حي خالد في هذه الحياة الدنيا لكنه مختف عنا فقط يظهر كل حين لتحقيق غرض قدسى محدد كلقائه بموسى.

ونحن نعلم أن أوزيريس المصرى كان ربا للخضرة والزرع والنيل، وربما أيضا للحكمة يمكنه اتخاذ هيئة ضحوت الضحاك رب الحكمة فى أى وقت. كما نعلم أنه قد مات شهيدا لكنه قام حيا من بين الأموات فى اليوم الثالث يوم القيامة المجيدة، ونعلم أنه خالد فى هذه الدنيا لأنه يحكم فى عالمها التحت أرضى، لكنه كان على استعداد للعودة إلى الأرض دوما لتخصيبها بمائه المخصب ولإنقاذ المصريين من الخطوب.

ويبدو الخضر فى الروايات الإسلامية ربا أيضا للسماك فهو يركب على ظهر حوت، وكان الحوت دليل موسى إليه ليلقاه وكان أوزيريس بدوره حوتا أوربا للسماك وكل كائن مائى حي. كذلك كان ذو الشرى المعبود الآدومى الذى كان يصوره فى هيئة رجل نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل سمكة، كذلك داجون الذى عبد فى فلسطين فى عسقلان، والغريب أن جميع هذه الآلهة كانت أربابا أيضا للحنطة رمز الشبع والخير والخصب، حتى داجون نفسه من اسم الحنطة (دجن).

وكان بإمكان أوزير كرب للحكمة أن يتحد بالإله ضحوت الضحاك إسحق الذى هو المختص بالحكمة، وساعتها سيحمل اسمه الثانى حضور، والحضور ظهور النبات هو الخضور هو الخضرة هو الخضر .

لكن المصريين من جانبهم رأوا فى الحاكم الهكسوسى الأعظم رأيا آخر فقد أطلقوا عليه اسم الشيطان (أبوفيس) الحية ، والكتاب المقدس وكتب الأخبار الإسلامية ترى الشيطان متجسداً فى الحية ، ولو رجعنا إلى يوليوس الإفريقى سنجده يقول لنا أن الملك الهكسوسى الملقب بلقب (أبوفيس) هذا كان يحمل اسم (ستان) أو الشيطان بينما يوسفوس يسجل لنا اسمه (سكا) والسكه تعني الحارث ، ولو فتحنا لسان العرب لطلعنا بأن الحارث اسم من أسماء الشيطان !!؟ ومن أسماء أبي قردان فى البلدان العربية كما سبقت الإشارة (أبو حنش، أبو منجل، حارس، عنز) وفي الأساطير المصرية أن ضحوت خرج من رأس ست الذى يمثل الشيطان أو هو ذاته.



شكل رقم (٧٨)

ضحوت الضحاك إله شمسي قمرى يحمل الهلال والشمس فوق رأسه مع طائر الأبيس أو الفينيق



شكل رقم (٨٠)

ضحوت من تل العمارنة زمن إخناتون وأمامه الكاتب
جالس القرفصاء تعبيراً عن كونه رب الحكمة والكتابة
/ المتحف المصرى



شكل رقم (٧٩)

الأبيس ضحوت / هبنى / أبو قردان / الفينيق



شكل رقم (٨١)

كعادة السحرة عندما يدخلون على فرعون، كذلك الفينيق أو ضحوت الرفائى أو الرفاعى صائد
الحيات ومروضها يدخل بعضى الشعبين على الفرعون يمنحه العنخ أو الحياة

بقرة بنى إسرائيل وثورها

فى القرآن الكريم حكاية غريبة يمكن تسميتها: حكاية بقرة بنى إسرائيل، والحكاية تروى أحداثاً يفترض أنها قد حدثت إبان رحلة الخروج الإسرائيلى من مصر إلى فلسطين، وأن مكان الحدث كان شبه جزيرة سيناء. وتتناول الحكاية قصة تبدو نانتة تماماً بين بقية الأحداث، لا رابط لها بأول تلك الأحداث ولا بآخرها، بحيث أن استبعادها لا يخل بقصة الخروج مطلقاً. لكن لأن القرآن الكريم كان يسجل أحداثاً وقصصاً كانت متواترة زمن الدعوة، وقبل زمن الدعوة بأزمان عديدة، فقد احتسبنا قصة البقرة لها أهميتها الشديدة التى أدت بها أن تظل فى ذاكرة الأجيال، حتى يدونها القرآن الكريم، ليضع بين أيادينا مفاتيح لفهم بعض الأسرار الأولى التى اكتنفت تكون الديانة الإسرائيلىة فى مناشئها الإبتدائية. خاصة أنه على تلك القصة العابرة سميت أطول سور القرآن الكريم (سورة البقرة)، التى تحكى لنا عن حادثة قتل حدثت إبان خروج بنى إسرائيل من مصر، ولم يتم التعرف على القاتل، وهنا نستمتع إلى الآيات نقول:

إذا قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا: أتتخذنا هزوءاً؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا: أدع لنا ربك يبين لنا ماهى؟ قال إنه يقول: إنها بقرة لافارص ولا بكر عوان بين ذلك، فافعلوا ماتؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قال ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر قد تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون، قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها. قالوا: الآن جئت بالحق، فذبحوها وما كادوا يفعلون، وإذ قتلتم نفساً فادراًتم فيها وإن الله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا: يضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلمكم تعقلون.

٦٧ - ٨٣ / البقرة

ويجمع (على عبد الواحد وافي) ملخصاً لما قدمه المفسرون بشأن تلك الآيات فيقول: « وأشهر تفسير من تفاسير هذه الآيات جميعاً وأصحها، أنه وقعت فى عهد موسى عليه السلام حادثة قتل لم يعلم فاعلمها. فطلب بنو إسرائيل إلى موسى أن يدعو ربه أن ينبئهم بمن ارتكب هذا الجرم؟ فقال لهم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فعجبوا من ذلك إذ لم تظهر لهم علاقة بين ذبح البقرة وبين الكشف عن القاتل. وظنوا أن موسى يهزأ بهم، ولكن موسى بين لهم أن هذا هو ما أمر به الله لإظهار الحق فى هذا الحادث، فأخذوا يستفسرون منه عن سن البقرة التى ينبغى أن يذبحوها وعن لونها وعن عملها، فلما شرح لهم كل ذلك بوحي من الله، بحثوا حتى وجدوا بقرة تتوافر فيها الصفات جميعاً، فذبحوها وأوحى الله إلى موسى أن يضربوا جثة القتيل بجزء من هذه البقرة، فضربوه فأحياه الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله ثم مات ثانياً. فكان فى ذلك معجزة لموسى من جهة، وبيان حسى من جهة أخرى لقدرة الله على إحياء الموتى.. لذلك يختتم الله هذه القصة بقوله : كذلك يحيى الموتى ويريكم آياته لعلمكم تعقلون. وفيه كذلك إشارة إلى أن بعث الله تعالى الحياة مرة أخرى لا

يتوقف على سبب من الأسباب التي تدركها عقولهم، وإنما أمر الله إذا أراد ذلك أن يقول به كن فيكون، فيحدث بدون سبب ما، أو يجيء عقب أمر لا يتصور العقل أن يكون سببا له كما فى هذه الحادثة. إذ لا يتصور العقل أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة حيوان ميت يمكن أن يكون سببا لبعث الحياة فيه. وأوصاف البقرة التي ذكرها الله فى هذه المعجزة تتفق فى جملتها مع أوصاف العجلة التي ذكرها سفر التثنية فى إجراءات القسامة ^(١) .

وموضوع القسامة الوارد فى سفر التثنية بالتوراة يحكى أيضا عن بقرة لكن فى حكاية مختلفة تماما، فالمقدس التوراتى لا يبحث هنا عن قاتل قتل قتيلا لأن التوراة تغص طول الوقت بأخبار آلاف القتلى بل مئات الآلاف، وإهدار الدم فيها طبيعى غير مستكر حتى نبحت عن فاعل. بل أن الله نفسه فى تلك التوراة يأمر موسى أن يأمرهم بذبح بعضهم بعضا دون جرم واضح يبرر كل تلك الدماء المسفوكة، ولم تتم فى مرة محاولة البحث عن قاتل، لأن القتل كان جماعيا ومتواترا أما القسامة وقصة البقرة فى التوراة فهي لون من التشريع البدائى لقوم يتحولون إلى ائتلاف مركزى كتشريع قضائى للقصاص. فهي حالة العثور المفاجئ على قتيل دون حروب بينهم أدت لذلك، فهي ليست قصة قتيل بعينه، المسألة أن رب التوراة يشرع لهم شرائع عندما يستقرون فى أرضهم الموعودة لتنظيم المجتمع. والتشريع يقول: إنه إذا وجدت جثة قتيل فى العراء أو وسط حقل ولم يتم التعرف على القاتل، فعلى كبراء إسرائيل الإجتماع وقياس المسافة بين الجثة وبين القرى المحيطة بها، وعندما يتم تحديد أقرب هذه البلاد إلى مكان الجثة يطلبون من كبراء تلك القرية إحضار بقرة لم تستخدم فى العمل بعد، ويذبحونها فى جدول ماء، ويغسل أهل القرية أيديهم فى الماء المدمم ويقسمون أن أيديهم لم ترق دم القتل وأن أعينهم لم تره. وبذلك لا يتحملون وزر دمه (انظر سفر التثنية ٢١ / ١ - ٩).

ويعقب (على عبد الواحد وافي) على هذا الإجراء التوراتى التشريعى ناقداً بقوله « ولكننا نجد فى سفر التثنية.. إجراء غريبا قد أقحم على إجراءات القسامة .. لأن غسل أيديهم فى جدول ماء ملوث بدماء البقرة التي نحروها بأيديهم وصب الماء فوقها، كل ذلك لا يصلح رمزيا أن يكون رمزا لبراءتهم من جريمة القتل، بل أنه لخلق أن يكون رمزا لأقترافهم إياها » ^(٢).

من جانب آخر يخبرنا المؤرخ اليونانى (بلوتارخوس) أنه كان لكل إقليم فى مصر حيوانه المقدس، دون أن يكون لهذا الحيوان بالضرورة تقديس فى إقليم آخر (فقرة ٧٤) وغير سكان هذا الإقليم لا يأهبون بهذا الحيوان ولا يقدسونه، مما كان سببا فى احتكاك خطر بين الأقاليم المصرية فى عهود مصر المتأخرة وصل أحيانا إلى حد الأقتتال. ومن ثم نجد حيوانات يحرم ذبحها فى إقليم دون آخر، إلا وقت طقوس محددة وفى أيام يتم تعيينها كأيام عيد مقدس ^(٣). إلا أن هناك عبادة واحدة على الأقل قد شملت مصر جميعاً بطقوسها

(١) على عبد الواحد وافي: اليهودية واليهود، دار نهضة مصر، القاهرة د.ت، ص ٦١ : ٦٣.

(٢) نفسه : ص ٦١

(٣) عبد المحسن الخشاب: تاريخ اليهود. سبق ذكره، ص ١٢.

وحلالها وحرامها هي عبادة الإلهة إيزيس وأسرتها الإلهية، وأنها فرضت احترامها وتحريماتها على جميع الأقاليم.

ويروى المؤرخ اليوناني (هيرودوت) أن المصريين قدسوا للإله أوزيريس زوج إيزيس ثيرانا أطلق عليها الهلينيون (العجل أبيس)، وكان يعتقد أن الثور أبيس هو روح أوزيريس ولون أرض مصر الخصبة، ويجب أن تكون بجهة الثور علامة بيضاء أقرب إلى شكل المثلث، وعلى ظهره رسم يشبه نسرًا أو صقرا صغيراً، وشعر ذيله مزدوج، وتحت لسانه عقدة تشبه الجعران، وأحياناً يكون على إحدى جنبيه رسم يشبه الهلال (٤).

وقد حدد الكهنة هذه السمات للتعرف على ثور أبيس، لأنها السمات التي تؤكد أنه تكرار الولادة الإعجازية بلامسة جسدية، التي حدثت لأول مرة في قصة أوزيريس (أوزير) الذي التقى بالإله إيزيس (إيزي) من بعد موته لينجب منها الإله حورس حور، وكان حور تجسيدا جديداً للإله الأب أوزير، فهو أب وابن في أفنوم واحد. وتبع ذلك اعتقاد بعودة أوزير إلى الأرض بذات الأسلوب عندما تدلهم المحن والخطوب بالناس، ليقر العدل ويقم السلام. ومع عقيدة التناسخ كان بإمكان روح أوزير أن تحل في الحيوان الذي يرمز له، ويعرف باسم (عجل أبيس).

ويقول (عبد المحسن الخشاب): "إن العجل أبيس يولد من بقرة لا يخصبها ثور أرضي إنما يخصبها القمر بشعاعه. ولم تزل عقيدة التخصيب بالقمر حتى لإنات البشر تنتشر بين الطبقات الشعبية لدى عدد كبير من الشعوب، فيعتقد أنه إذا نامت الفتاة عارية تماماً على مرتفع في ضوء القمر، فإنها تحمل منه بوليد مقدس. فالعجل أبيس يولد من بقرة يخصبها شعاع من أشعة القمر المخصب وهي في حالة استعداد للحمل .. ويروى إيلياتوس أن شعاعاً هبط من السماء على بقرة وهي في حالة استعداد للخصب، فولدت عجل أبيس الذي يسميه اليونانيون إيبافوس Epaphos وعندهم أن أم هذا العجل هي أيو .. وبليني Plinius.. في كلامه عن العلامات التي تزين أبيس يذكر أن أول ما يتميز به الثور أبيس هذا بقعة بيضاء في شكل هلال قمرى على جانبه الأيمن .. وكان المصريون يعتقدون في خصب القمر، حتى أنهم رمزوا إلى ابتداء الربيع بقمر شهر فامينوث Phamenouth الجديد في هذه المناسبة، بعيد أسموه: أوزيريس في القمر. وهذا يعني أن أوزيريس هو المخصب كالربيع، وهو الذي يخصب البقرة أم أبيس بشعاع من القمر. ثم يذكر بلوتارخوس أن المصريين كانوا يركزون قوة إخصاب أوزيريس في القمر، ولذا فإن إيزيس عندما تكون حاملاً أو خصبة ترتبط بأوزيريس في القمر، لذا فمن الكهنة من يقول بأن إيزيس ليست سوى القمر، فتماثيلها التي تمثلها بالقرنين المتوجين لرأسها ما هما إلا محاكاة لشكل الإله القمري.. وقد أكد إيودوكسوس Eudoxos أن إيزيس هي الإلهة التي يحتكم إليها الناس في شئون حياتهم الجنسية، فالناس يناجون القمر في الحب وأحواله " (٥).

(٤) نفسه: ص ٩٧.

(٥) نفسه: ص ١١٢: ١١٤.

وقد سبق وعالجنا رمزية القمر الأسطورية في العقائد القديمة في كتابنا (الأسطورة والتراث)، وشرحنا فيه السر وراء ارتباط القمر بآلهة الخصب الذكور. إذ أن تقديس الخصب قد تمثل في الحيوانات ذات الفحولة الجنسية كالثور والتيس، ولأن الهلال يأخذ شكل القرنين فقد احتسب أحياناً ثوراً وأحياناً تيساً باحتساب الهلال هو قرني الفحل السماوي المختفى. ونظراً لما جاء من إشارات عدة إلى علاقة القمر بالأنثى، وتباغم تحولاته - من محاق إلى هلال إلى تربيع إلى بدر حتى يعود محاقاً مرة أخرى - مع دورة الدم الشهرى النسوى، فقد احتسبه بعض دارسى الأساطير رمزاً للأنثى في العقائد القديمة، لكننا - في كتابنا المذكور - رأيناه الرب الذى ينبج أبناءه بمعجزات، والزوج السماوي للإلهات الإناث الموكلات بالخصب والزرع والميلاد. وهو ما يفسر لنا هنا قصة حمل البقرة (أيو) بشعاع القمر المخصب، لتعيد إنتاج أوزير/ الخصب/ الزرع/ مرة أخرى ويتحول من أب إلى ابن فى هيئة الثور أبيس. ومن هنا كان لابد من تمثيل إيزيس فى بقرة أحياناً، وفى هيئة امرأة تحمل على رأسها قرنين أحياناً، لكن الواضح أن أوزير رب الخصب المرتبط بمواسم الزراعة ويصبح رباً للقمر أو هو نفسه القمر (تحت/ ضحوت/ الضحاك).

ويؤكد ذلك ما وجد على توابيت الدفن الفاخرة للثور أبيس من نقوش لمنازل القمر وأوجهه المختلفة^(٦). ويبدو أن الأسطورة قد دمجت أوزيريس بآله القمر ضحوت ونسبت لكل منهما صفات الآخر على التبادل، واصبحت ألقاب الإله القمري هى ذات ألقاب أوزير: العارف، المتمرس فى المعرفة، سيد السحر، مخترع الكتابة وواضع القوانين والناموس، أما اللقب الأهم الذى يعنى هذه الدراسة فهو أنه كان « سيد البلاد الأجنبية ». وهو لقب قديم كان يشير إلى القمر باعتباره رباً للصحارى والبادوة، فأحتسبوه دوماً رباً للساميين الرعاة الذين سكنوا سيناء وبوادي الشام^(٧). لقد أصبح أوزيريس باعتباره قمراً « سيداً للبلاد الأجنبية » ورباً للساميين من وجهة نظر مصرية. لذلك نجد الشهر المشار إليه يونانيا باسم (فامينوث) هو ذاته الذى أطلق عليه المصريون شهر ضحوت الذى خفف نطقه إلى توت ولم يزل باسمه هذا فى الروزنامة القبطية، فهو شهر القمر المرتبط بخصب الأرض وبداية الربيع.

ويرى (هيرودوت) أن المصريين أبداً لم يبيعوا نحر الأبقار الإناث لأنها مقدسة للإلهة الجليلة إيزيس، وهو ما يلتقى مع الحاجة الاقتصادية للأبقار الإناث والحفاظ عليها لأنها المصنع الإنتاجى للمواليد، وإيزيس هى التى أسماها اليونان باسم (أيو Jo) ابنة (إناخوس Inakhos) وكان الإغريق يصورونها فى هيئة امرأة ويزينون رأسها بقرنى بقرة^(٨).

وفى ترجمات أوراق البردى الأرامية الخاصة بالمجتمع اليهودى الذى عاش فى أسوان بمصر عند Elephantine زمن الإمبراطورية المصرية، إشارات واضحة إلى أن

(٦) سليم حسن: مصر القديمة: سبق ذكره، ص ١٩٦.

(٧) ياروسلاف تشيرنى: الديانة المصرية .. سبق ذكره، ص ٧٩، ٨٠.

(٨) هيرودت فى مصر .. سبق ذكره، ١١٣١.

اليهود الذين انفصلوا عن شعبهم وعاشوا هناك ولم يعرفوا التطور الذى شهدته ديانتهم بعد الخروج من مصر إلى فلسطين، حفظوا لنا مرحلة قديمة من اليهودية، حيث وجد لدى تلك الجالية عبادة الإله اليهودى المعروف (يهوه)، لكن إلى جواره إلهة انثى هى زوجته باسم (إناث ياهو) أو الأنثى يهوه أو يهوه المؤنث^(٩)، وهو الأمر الذى يلتقى بوضوح مع تسمية إيزيس باسم (ايو) التى هى (ياهو) بدون مشاكل لغوية.

وبقراءة التوراة نعلم أن موسى عندما أراد الخروج ببنى إسرائيل المستعبدين فى مصر، ساق حجة للفرعون يقول فيها أن دينهم يلزمهم بذبح ذبيحة لله فى يوم بعينه، وأن تلك الذبيحة يحرم ذبحها عند المصريين، لذلك هم بحاجة إلى الخروج من عاصمة الملك إلى الصحراء ليقيموا عيدهم، وهنا رد عليهم الفرعون بقوله:

اذهبوا فاذبحوا لإلهكم فى هذه الأرض، فقال

موسى:

لا يصح أن نفعل هكذا، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلها. وإن ذبحنا رجس المصريين أمام أعينهم أفلا يرجموننا؟ نذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلها كما يقول لنا.

(سفر الخروج ٨ / ٢٥ - ٢٧)

وهكذا كانت الحجة أو لحظة الخروج من العاصمة مسيرة ثلاثة أيام ليذبحوا حيوانا محرما عند المصريين منعا للفتن، لكن ليكون ذلك سبيلهم إلى الهرب من مصر بعد أن يبتعدوا عن العاصمة بمسافة تجعلهم بمأمن من المطاردة عندما تبدأ. لكننا لانجد بعد ذلك أية تفاصيل لأى ذبح، اللهم إلا ذبح الخراف على عتبات أبواب بيوتهم بمصر ليلة الخروج وهو ليس الذبح المقصود، ثم لا تأتينا بعد ذلك قصة ذبح أى حيوان إبان رحلة الخروج، اللهم إلا فى قصة عبادة الثور الذهبى، ولا نجد حديثا آخر عن الذبح حدث فى سيناء غير تشريع القسامة، وهو ما لاعلاقة له بالأصول التعبدية بالقرابين الحيوانية.

هنا تأتى القصة القرآنية فتسد الفجوة المفقودة، وتروى لنا ذكريات قديمة عن ذبح مقدس قد حدث فعلا بعد الخروج من مصر إلى سيناء، وتعطينا وصفا دقيقا لهذا الذبح المقدس، فهو ذبح لبقرة ذات سمات خاصة جداً، فهى صغيرة مدللة لم تحمل نير المحراث ولونها أصفر فاقع تماما دون شائبة.

وهنا نعرف من المؤرخ اليونانى (بلوتارخوس) أن المصريين كانوا يبيحون ذبح الثيران الصفراء لأنها مغراء حمراء أى بلون رب الشرست^(١٠). ثم يخبرنا (ديودور الصقلى) أن ذبح الثيران الصفراء أو الحمر كان مباحا فى العقيدة الأوزيرية، فلماذا خاف موسى من المصريين عند قراره ذبح ذبيحة صفراء لإلهه؟ يبدو

(٩) كمال الصليبي: التوراة جاءت.. سبق ذكره، ص ٥٥، انظر أيضاً سيجموند فرويد: موسى .. سبق ذكره، ص ٧٩.

(١٠) عبد المحسن الخشاب: تاريخ اليهود.. سبق ذكره، ص ١٢.

أن السر وراء ذلك هو أن الذبيحة لم تكن ثوراً إنما بقرة أنثى. لقد كان ذبحاً لإيزيس العدو الإلهي للرب سبت حسب الأسطورة المصرية القديمة.

ويردد (هيرودت) حكاية يقول أنها حدثت في زمانه، وتتخلص في أن أهل مدينتي ماريا وأبيس على أطراف مصر الغربية، أرسلوا إلى كهنة آمون يقولون أنهم ليسوا مصريين بل ليبيين، لذلك يطلبون السماح لهم بأكل لحم البقر، لكن جاء الرد من وحى معبد آمون في سيوه برفض هذا الطلب بحزم^(١١)، مما يشير إلى تحريم صارم لذبح إناث البقر. ويعقب (الخشاب) بقوله: " فالمصريون يعتقدون بأن إله الشر المصرى لونه أحمر أصهب، لذلك خصصوا للأضاحى من بين مواشيهم تلك التى يكون لونها أشقر تماماً، إذ أنهم كانوا يعتقدون أن أوزيريس أسمر، فكان اللون الأسود عندهم مقدساً " ^(١٢) ويضيف هيرودت أنه بعد تقديم الذبيحة، كانت أحشاؤها ودهونها جميعاً تحرق على مذبح الإله^(١٣). وهو ذات الأسلوب الذى أقرته التوراة بعد ذلك فى تقدماتها لربها يهوه. وتكرر العبارة " وقود رائحة سرور للرب "

ثم نقرأ فى تاريخ مصر كلاماً غير واضح وملتبس عن اعتقاد المصرى القديم فيما يسمى بالجلد الشافى، ذلك الذى نراه معلقاً على عصا فى كثير من لوحات مصر القديمة، ولونه أصفر فاقع^(١٤)، ويبدو أنه كان رمزاً للإله ست نفسه بعد ذبحه ممثلاً فى ثور أصفر. وكان المعتقد دوماً عند الشعوب القديمة أنه بعد إنزال العقاب بمرتكب الإثم يتحول إلى كائن مقدس يمكنه شفاء المرضى ولا تطفأ قدماء أرضاً إلا أصبحت أرضاً مباركة، وهو ما يمكنه تفسير مسألة الجلد الشافى الذى تحول بصاحبه (سبت) من اللعنة إلى النعمة، ونجد لذلك أمثلة كثيرة لدى أساطير الشعوب القديمة، أقصد التحول بالشرية إلى الخيرية بعد إنزال العقاب الملائم بالشرير، ومنها مثلاً قصة أوديب اليونانية، التى ارتكب فيها أوديب أفطع جرم، لكنه بعدما لاقاه من عقاب هائل تحول إلى إنسان مبارك يشفى من يلمسه. ثم يقول (عبد المحسن الخشاب): " .. فكان للون الأصفر عند بنى إسرائيل شأن خاص ومغزى هام، ولذا فقد صنعوا الثور الذى ارتدوا إلى عبادته فى سينا من الذهب، لا من معدن آخر غير الذهب الأصيل .. دليلاً على ما فى قلوبهم من إيمان شديد بالتقليد المصرى الذى كانوا يتبعونه فى مصر، من عبادة إلهم ست الذى كان البقر الأصفر الذى لاشية فيه بلون معبودهم وشدة تمسكهم برمزه الأصفر الخالص. إن الثور كان معبوداً فى الشرق الأوسط بكامله.. وكان ذكره وارداً فى ألقاب وصفات الممتازين من الحكام والقادة. وظلت هذه الألقاب الدالة على انتماء هذه الشخصيات البارزة الرفيعة القدر.. وقد وردت هذه الألقاب كقول فى النصوص الإنجيلية بلغتها الأولى العبرية بعد العصر الوثنى، ثم أبعدت الترجمات الأخرى بما يوافق روح المسيحية.. فقد ورد فى التكوين ٢٤/٢٢ إشارة إلى ذلك بعد أن انمحت صفة يوسف: الثور الصغير.. وإبعاد تعبير: ثور يعقوب وبُدل إلى

(١١) هيرودت فى مصر.. سبق ذكره، ص ٩٣، ٩٤.

(١٢) الخشاب: تاريخ اليهود.. سبق ذكره، ص ٩٦.

(١٣) هيرودت فى مصر.. سبق ذكره، ص ١٣١.

(١٤) فرانسوا دوماس : آلهة مصر .. سبق ذكره، ص ٧٤، ٧٥.

عزيز يعقوب.. لذا فقد علق كونراد على هذا التصحيح بقوله: إن ذلك كان تناسيا للأساس التاريخي للعبادة في الشرق القديم.. ويوسف كان في زمرة الهكسوس الذين عبدوا ست الإله المصري. ووصفه بالنور الصغير تكريم له كحاكم.. ثم أن ترجمة الإنجيل اللاتينية المسماة volgate — كما يذكر كونراد — تذكر أن موسى كان بقرنى ثور، ولاتقول هذه الترجمة: على رأسه هالة، وهما تعبيران بمعنى عبرى واحد، وذهب بعض المفسرين إلى أن الهالة نشأت أصلا من تتويج الرأس بقرنى ثور^(١٥). ويضيف " أن يشوع Jushua الذى قاد اليهود إلى كنعان كان من قبيلة إفرايم Ephraim وهو اسم مشتق من اسم الثور^(١٦).

أما نحن فقد ألمحنا فى كتابنا (قصة الخلق: منابع سفر التكوين) إلى أن اسم الإله اليهودى (يهوه) أو (جاهوفاه)، ليست فى وجوب نطقها السليم سوى صوت خوار الثور بكل دقة، حيث ينبها (لودز) إلى صحيح نطقه الذى يجب أن يبدأ بفتح ثم سجد طويل^(١٧).

ومن جانبه أشار (شتاده) أن معنى اسم يهوه: المسقط، أى الذى يُسقط البروق على الأعداء، لأن (هوى) بمعنى (سقط)^(١٨) إلا أن (فلهاوزن) يرى الاسم يهوه من (هوى) فى العربية بمعنى الهواء، فهو الذى يهب أو هو رب العاصفة^(١٩).

والقمر فى نظر الأقدمين كان جرما عظيما كالشمس، لكنه بالنسبة لها غير مستقر الأحوال، فسلكه (هوائى) ، وحتى اليوم نصف الشخص متقلب المزاج بأنه (هوائى).

إذن ... كان الذبح الذى يتعلل به موسى للخروج من مدينة الفرعون إلى الصحراء حتى لا يستنقر مشاعر المصريين، كان ذبحا لإله يرمز طوطميا للعشاء الربانى الذى مارسه شعوب عديدة، فكانت تأكل ربها فى يوم معلوم يكون عيدهم السنوى، وكان لونه الأشقر دلالة واضحة تشير إلى الإله المصرى (سيت)، لكنه كان بقرة أنثى. وهنا يطفر السؤال: هل كان ذبح البقرة التى ترمز لإيزيس، وتحمل أيضا اسم ايو أو يهو الأنثى لمجرد استفزاز مشاعر المصريين؟ لو كان ذلك كذلك لذبحوها داخل العاصمة المصرية، فلماذا ذهبوا بعيدا عن أعين المصريين ليذبحوها؟

نفهم من هيرودت وغيره من المؤرخين الكلاسيك، أن المصريين بدورهم كانوا يذبحون البقرة الأنثى الصفراء فاقعة اللون المدللة، لكن فى يوم احتفالى بعينه معلوم الشأن، هو يوم الاحتفال بعيد القيامة المجيد للإله الشهيد أوزير، لكن ليس لدينا أية إفادة من المصادر المصرية تفيد السر وراء ذلك التناقض الشديد، بين تحريم ذبح إناث البقر، وبين ذبح بقرة أنثى صفراء فى ذلك اليوم الدينى الاحتفالى.

(١٥) الخشاب: تاريخ اليهود.. سبق ذكره، ص ١٠٠، ١٠١.

(١٦) نفسه: ص ١٠٥

(١٧) Lods. A, I srael from its beginnings to the middle of Eight Century, London,

١٩٦٣, p ٣٢١ - ٣٢٢.

(١٨) Stade. B, Lehrbuch der hebraischen grammatik, Libzig, ١٩٤٩, p٤٢٩

(١٩) Wallhausen. J. Die Biblischen ater tu mer, Calw and Stuttgart

هنا تفسر لنا القصة القرآنية ما حدث

ثم لوحة وقفنا عليها بكتاب الموتى المصرى القديم تضيف مزيداً من الوضوح على التفسير.
اللوحة تمثل الإله أوزير ميتاً شهيداً داخل تابوته، ممثلاً فى هيئة أقنوم الابن (الصقر سوكر)، أى تجليه الجديد فى هيئة ابن ميت، وكان الاعتقاد أن أوزير يعود حياً من بعد موته بأيام ثلاثة، يحتفل فيها المصريون بعيد قيامة أوزير المجيدة. وفى اللوحة تقف أنثى فرس النهر (ميهورت) أمام الإله الميت، وتتطرق (ميهورت) أيضاً (ماروت) وهى إلهة الولادة المصرية وراعية الأجنة فى بطون الأمهات، تمسك أداة تعقب عليها شروح الباحثة (إيفلين روزينر) بأنها أداة غير معروفة على وجه التحديد

The exact nature of The object held by hathor in her right hand is uncertain

وتضرب (ميهورت) أو ماروت الإله الميت بتلك الأداة، لكل الواضح لنا وفى اللوحة أمام القارئ أن تلك الأداة ذيل بقرة، وهو ما نبهنا إلى أنه صديقى (محمد البدرى). هذا بينما تطل البقرة الإلهية إيزيس فى شكل أحد تجلياتها المعروفة باسم (حتحور) وجاءت فى الترجمة باسم (هاروت)، فى يمين الصورة فى شكل شديد التدلّل واللطافة.



قصة البقرة فى أصلها المصرى

شكل رقم (٥٤)

إن اللوحة تذكرنا بكون إيزيس هى التى أحيت أوزيريس بسحرها من الموت فى أسطورتها التى جمعها لنا بلوتارخوس، لكننا أبداً لم نعلم فى أى مصدر كان كيف أحيت إيزيس أوزير من الموت أى ماذا كانت مظاهر ذلك السحر وأدواته. هنا والآن فقط عرفنا، لقد مارست الإلهة هذا الطقس السحري. أما ربة الولادة فى اللوحة (ماروت) فترمز لعودة ولادة الإله من جديد فى أقنوم الإبن، لكنه كى يقوم من الموت فإن إلهة الولادة تضربه بذيل البقرة إيزيس (والصفرة واضحة فى لونه) ترميزاً لدورها فى عودة الإله إلى الحياة. ولأننا نفقد تماماً أى مادة أركيولوجية مفيدة هنا أو حتى اجتهادية من المؤرخين، فإننا وفق ذلك جميعه يمكننا افتراض أنه كانت هناك شعيرة يصحّ فيها أوزيريس وينطق فيها باسم قاتله وهو الشرير (سيت) ويساعد على مزيد من الفهم وعلى تأكيد الفهم، أنه كان فى مصر القديمة طقس معلوم يمارس مع الإله فى محرابه، أو

بالأحرى مع تمثاله، كما كان يمارس مع الميت بعد تحنيطه لمساعدته على الكلام والإجابة عما سيوجه له من أسئلة فى قاعة الحساب الأوزيرية بعد البعث وهو الطقس المعروف باسم (فتح الفم).

ويقول (ياروسلاف): " كان طقس فتح الفم يتكون من عدد من الطقوس القديمة وبذلك كان جسد الميت يوهب الحياة كما أن ملكاته تتجدد.. كان طقس فتح الفم يتكون من عدة أفعال يحتل فيها الفم نقطة مركزية .. ثم يذبح بعد ذلك ثور وتقطع أطرافه وينزع منه القلب .. وكانت الأطراف الأمامية والقلب تقدم إلى التمثال، ويلمس الفم بالقدم الأمامية .. ثم يقدم الماء، وهذه المراسم كان يفترض أنها تؤدى إلى فتح فم وأعين التمثال، وتهبها قدرات وملكات الشخص الحى " (٢٠) .

لقد كان ذبح البقرة (أيو) تكراراً لمشهد قيامة أوزيريس ليس أكثر، ليقوم أوزيريس من الموت وينطق باسم قاتله. وهو فى الوقت ذاته استحضار لعدو المصريين سيت عبر النطق باسمه بلسان أوزير الميت الحى، لأنه كان يحرم نطق البشر العاديين باسمه. وكان النطق وحده هو ما يسمى بالنطق الخلاق، أى النطق المعبد. كانت قصة بقره بنى إسرائيل استحضاراً سحرياً للإله ست رب الهكسوس ورب إسرائيل باسم (يهوه)، ليقود بنفسه جموع الخارجين من مصر عبر سيناء إلى فلسطين، منطوقاً بلسان الإله الشهيد أوزير، بفعل سحرى ذبحت بموجبه إيزيس البقرة الصفراء، حتى يمكن إتمام النطق المتجسد فى الإله قائد جموع الخارجين الإله (سيت).

وهكذا فإن يهود ألفنتين الذين أقاموا لهم جالية بأسوان قد احتفظوا من عبادتهم بأصول قديمة لم تعرف التطور الذى حدث لها فى فلسطين، فعبدوا ربا باسم يهوه ومعه زوجة باسم إناث يهو، ثم نعلم من الأساطير المصرية أن إيزيس كانت باسم (أيو) المؤنث من (يهوه).



طقس "فتح الفم" كما هو ممثلاً فى مقبرة "تاوسرت" يقف الكاهن "سم" أمام التمثال الملكى وقد ارتدى صديريه خاصة للاحتفال

(٢٠) ياروسلاف تشيرنى: الديانة المصرية .. سبق ذكره، ص ١٤٧، ١٤٨.

وكان معظم الخارجين من مصر من أتباع التقليد الأوزيرى الذين حافظوا عليه فلم ينطقوا أبداً باسم ربهم وأسموه الكائن احتراماً وتقديساً، وهو ما كان يفعله المصريون إزاء أوزيريس. ومع تطور آخر أصبح أوزيريس رباً للقمر فاندمج بالإله القمر ضحوت كى يتمكن من تخصيب البقرة (ايو / إيزيس) ويبدو أن هذا التطوير قد تم على يد أجانب كانوا يعيشون فى مصر، بدليل أن ضحوت المندمج بأوزير القمر قد حمل لقب (سيد البلاد الأجنبية).

والمهم هنا أن موعد ذبح إيزيس البقرة الصفراء فى الوليمة الطموطية فى العيد المصرى القديم لقيامه أوزير من الموت، هو ذات موعد خروج الإسرائيليين من مصر ليذبحوا ذبحهم وهو المسمى بيوم عيد الفصح.

وبمرور الوقت وللتغطية على الأصول الأسطورية تم تبديل اسم يعقوب من (ثور يعقوب) الذى يعنى يعقوب الثور أو الأبيسى نسبة للثور أبيس، إلى (عزيز يعقوب)، وهو يعقوب العزيزى الذى حمل بدوره أصولاً أسطورية لأن عزيز مذكر للمؤنث عزيزة، وعزيزة هى إيزى زوجة أوزير. أما المدهش فهو أن يتحول اسم يعقوب - بعد صراعه مع ربه فى نص بالكتاب المقدس إلى اسم إسرائيل، لكنه يظل يحمل فى طياته أصوله الصادقة، لأننا هنا نستبعد كل التخريجات التى قيلت فى تفسير كلمة إسرائيل، لنقول تخريجاً جديداً هو أن الاسم يتكون من ملصقين هما: (إزر) و (إيل) فهو (أزرئيل)، والشق (إزر) هو الاسم المنطوق مصرياً بكل سلامة لاسم الإله أوزيريس. وهكذا يعنى الاسم إسرائيل معنى جديداً هو (أوزير إله)، ويمكن أن يتطابق هذا التخريج أيضاً مع جبال (سراه) (سر-إيل/ اسم إسرائيل بالعبرية).

تجليات الرب السينائي

عند خروج الإسرائيليين من مصر بقيادة موسى عبر سيناء، تم تكريس هارون وأبنائه ونسله كهنة للإله (يهوه)، وهارون وموسى هما أبناء السبط لاوى بن يعقوب، لذلك أصبح الكهنة جميعاً فيما بعد من اللاويين نسل هارون، أو الليفيين. وهنا نقرأ (زينون كاسيدوفسكى) وهو يوضح لنا احتمال أن يكون اللاويون كهنة مديانيين من منطقة قادش سيناء ونظنهم من جانبنا مصريين من سكان برارى الدلتا الشرقية وسيناء أو هم نصف مصريين نصف ساميين.

ولما كنا نعلم من قصة التوراة أن موسى قد عاد إلى مصر من بلاد مديان بالعصا الحية، وأنه قد صاهر كاهن مديان بسيناء (رعوئيل/ يثرون) فإنه يمكن فهم (كاسيدوفسكى) إذ يقول: " يرى بعض العلماء أن اللاويين لم يكونوا قبيلة من قبائل إسرائيل، بل هم فئة الكهنة فى قادش، حيث أكدت الكتابات العربية التى اكتشفت فى منطقة العول التى تقع إلى الشرق من المنطقة التى كانت تسمى أرض مديان، أن كاهنات الإله ود كن يحملن لقب لو بينما حمل كهنته لقب لوى. ويزعم هؤلاء أن اللاوى اشتق منه .. وثمة وجهة نظر أخرى فى هذه المسألة تفترض أن لقب لاوى قريب من الكلمة اليهودية القديمة التى تعنى أفعى ولن ننسى هنا أن المقطع لوى هو جزء من الكلمة التى تشكل لقب الوحش الأسطورى لويathan " (١).

ولويathan وحش أسطورى فى هيئة حية ضخمة هائلة، ظهر من قبل بذات الاسم كإفغوان (من أفعى) زاحف متعدد الرؤوس فى الأساطير الأوغاريتية باعتباره كائناً مفزَعاً يقتله الإله الأعظم، وقد سُمى هذا الوحش فى الأساطير المصرية (أبو فيس). ذات الاسم الذى تلقب به ثلاثة من ملوك الهكسوس الستة (وقد قال الكتاب المقدس بدوره إن الإله يهوه تغلب على الحية المتحوية لويathan وقتلها) وفى مصر حتى الآن نقديس لشيخ يعده العامة من أولياء الله الصالحين أخضع الثعابين لمشيئته، وله أتباع يقومون حتى اليوم باستخراج الثعابين من المنازل نظير أجر يدعون بدورهم الولاية، وكان ذلك الولي هو المعروف باسم الشيخ الرفاعي وأتباعه الرفاعية أو الرفاعيون، وهو ما يستدعى على الفور الرفائى والرفائيين العمالقة.

ونتابع (كاسيدوفسكى) وهو يقول: " زد على ذلك أن أسماء اللاويين غالباً ما كانت تحمل فى أصولها معنى أفعى. ومن هنا يستنتج أصحاب هذه الفرضية أن اللاويين كانوا يعبدون الأفعى فى مصر ولم يشاءوا ترك عبادتهم تلك. كما بينت الاكتشافات الأثرية أن عبادة الأفعى استمرت قائمة فى فلسطين عدة قرون أخرى.. ومن هنا يغدو مفهوماً لماذا أقام موسى الأفعى النحاسية وسط المعسكر .. ولم ينبج من اتهام أتباع يهوه له من أنه لطخ نقاء اليهودية بسماحه بإقامة عبادة إله الأفعى " (٢).

(١) زينون كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١١٩.

(٢) الموضع نفسه.

وكاسيدوفسكى يشير هنا إلى النص التوراتى: " فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية / عدد ٢١ / ٩ " ، وما حدث بعد ذلك إبان حكم الملك اليهودى الورع (حزقيا بن أحاز) الذى قرر مع التطور الكبير الذى لحق الديانة اليهودية مع مرور الزمن استبعاد كل العبادات والتجليات الإلهية للإبقاء على وحدانية يهوه، وجاء بشأن ذلك نص بالكتاب المقدس يقول: إن الملك حزقيا: " عمل المستقيم فى عينى الرب هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى. لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان/ ملوك ثانى ٣،٤/١٨ ". ونحشتان مقلوب حنش والحنش هو الثعبان.

والمعلوم أن الإله (ود) كان إلها عربيا عريقا، وأنه عُبد فى بلاد آدوم على تتالى السادات عليها، كما عبد فى بلاد الحجر والمحيط الشمالى للجزيرة جميعا وفى بلاد الحجاز بعد ذلك، وجاء ذكره فى القرآن الكريم كمعبود جاهلى. وظل (ود) ربا جليل القدر حتى ظهور دين الإسلام الذى صفى الآلهة جميعا عدا رب الإسلام (الله). إلا أن الله حاز لنفسه أسماء الآلهة السابقة فى العربية. فهو القدوس من الإله اليمنى عستر الملقب (قدست)، وهو الرحمن من (رحمن) وهو الرحيم من (هـ — رحيم) وهو الودود من (ود) .. الخ.

ولو أضفنا لازمة التعريف الشمالية (الهاء فى أول الكلمة) إلى ود لصارت (هود) اسم النبى الذى أرسله الله إلى عاد فى القص العربى الجاهلى وفى القص الإسلامى كما يفصح اسم هود عن العلاقات الخفية بين الإسرائيليين وبقية الأخلامو ومعهم العرب فهو (يهود) كما يشير إلى أصل كلمة (يهودا).

وبالإمكان هنا أن نسوق تخريجا يعتمد على لغة قبائل الأحلاف، فأداة التعريف اليمنية كانت (ن) تلحق بآخر الكلمة، بينما كانت (هـ) أداة التعريف الشمالية تسبق المراد تعريفه، فاسم الرحمن وهو إله يمنى كان يكتب باليمينية (رحمن) وتكتبه العرب الشمالية (هـ رحيم) عند الأنباط. والأمر ذاته حدث مع الإله (ود) وحرف (د) فى (ود) مدغم من حرفين بالتشديد فهو بالأصل (ودد) الذى هو (أدد) و (حدد) أو البعل حداد. وتعريف (ود) شماليا يجعل الكلمة (هود) و(يهود)، أما تعريفه جنوبيا فيجعله (ودن) الذى هو آدون لقب البعل بمعنى السيد.

وهنا ينبه (كاسيدوفسكى) إلى مسألة بقاء الإسرائيليين فى مصر زمنا كان كفيلا بتشربهم ثقافة المصريين ومقدساتهم حيث يقول: « أخذوا يتمثلون الثقافة المصرية رويداً رويداً. بل ونشير معطيات موثوقة أنهم اعترفوا بعبادة آلهة المصريين ومارسوها، فقد قال يشوع بن نون مؤنبا الإسرائيليين: أنزعوا الآلهة التى عبدها آبائكم فى عبر النهر وفى مصر / يشوع ٢٤ / ١٥ ».(٣)

ويستمر (كاسيدوفسكى) شارحا: « يظهر التأثير المصرى بكل وضوح فى وصف التوراة للثياب التى يرتديها الكاهن أثناء تأديته لفروض العبادة. فهى عبارة عن نسخة طبق الأصل تقريبا عن الثياب التى كان يرتديها كهنة هليوبوليس [أون/ عين شمس شمالى القاهرة الحالية وعاصمة الدولة الفرعونية القديمة/

(٣) نفسه: ص ١٠٥

المؤلف] ولم يكن ثمة فارق بين كهنة الإسرائيليين وكهنة المصريين. سوى أن هؤلاء الآخرين كانوا حليقي الرؤوس والوجه. بينما أطلق الأولون شعر رأسهم ولحاهم .. لقد اقتبس موسى عن المصريين أيضا تابوت العهد والأسفاط التي كانت تظل بأجنتها شكلين.. لروحين حاميتين .. إن الكروبيين اللذين زينتا التابوت هما من منشأ مصرى أيضاً .. ولقد أقتبست القبائل البدوية عن الإسرائيليين تابوت العهد وحرم المعبد يحمل خيمة مقدسة صغيرة. وما زالت آثار هذا التقليد المصرى القديم قائمة حتى اليوم عند قبيلة الروالة، التي تنتقل فى الصحراء السورية حاملة على أحد الجمال سفطا خاصا يسمى المركب أو تابوت إسماعيل الذى يعد ما يشبه الذخر المقدس للقبيلة « (٤).

ومثل بقية الشعوب القديمة قدس الإسرائيليون/ العجل / الثور، لما له من قوة وفحولة جنسية خصيية. ومعلوم أن قدسية الثور كانت شاملة ومنتشرة بين جميع الشعوب القديمة حتى صنع الملوك تيجانهم تعلوها القرون وهو ما لحق يعقوب إسرائيل نفسه حيث يحيطنا شيفمان علما أن هناك صيغتين وردتا فى التوراة عن يعقوب فى سفر التكوين ٤٩ وفى المزمور ١٣٢، تمت ترجمتها إلى عزيز إسرائيل وعزيز يعقوب بينما هما فى الأصل المازورى ثور إسرائيل وثور يعقوب (٥).

بل أن هناك نصا صريحا واضحا يشير إلى اعتقاد إسرائيل (المملكة الشمالية) منذ فجر انقسام مملكة سليمان إلى يهوذا فى الجنوب وإسرائيل فى الشمال أن يهوه بالفعل هو الذى أخرجهم من مصر، لكنه ليس سوى الثور نفسه. فقد أمر الملك يربعام مؤسس إسرائيل الشمالية بعمل عجولين من ذهب .. وعمل عجلى الذهب وقال لهم .. هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصدوك من أرض مصر .. ووضع واحداً فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان/ ملوك أول ١٢ / ٢٨ ، ٢٩ ..

وعندما أخذت الديانة الإسرائيلية خطها التطورى اللاحق للتفرد بيهوه وحده، نسمع نبيا من مملكة يهوذا اسمه هوشع يصب نقمته على أشقائه فى مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة وعلى سبط إفرايم الإبن الثانى ليوסף. وذلك بسبب عبادتهم عجول أون، وعجول أون هى عجول عين شمس المصرية، وعجل عين شمس المعروف كان المعروف باسم العجل أبليس. كذلك نعى هوشع على إسرائيل عبادتها لشوامخ أون والشوامخ هى المسلات التى تطلق عليها التوراة اسما آخر على التبادل هو السوارى (هوشع ١٠ / ٥ ، ٨).

وفى قصة لقاء موسى بربه ليأتى بالوواح الشريعة إبان رحلة الخروج، يحيطنا (كاسيدوفسكى) علما أن النص التوراتى القائل أن موسى غطى وجهه بقطعة قماش لأن وجهه كان يلمع أو يشع من لقاء الله، كان فى أصله المازورى أن موسى بعد لقاء الرب ظهر له فوق رأسه قرنان (٦).

(٤) نفسه: ص ١٢٢، ١٢١.

(٥) شيفمان: أوغاريت .. سبق ذكره، ص ٨٥.

(٦) نفسه: ص ١٢٢.

وإعمالاً للنص الأصلي صور الفنان مايكل أنجلو تمثال موسى بقرنين، ولا بأس هنا أن تجمع المعان المضى مع القرنين. إذا تذكرنا أن الفرعونة حثشبسوت قد استوردت من بلاد بونت مادة دهنت بها جسدها فأضاعت أمام شعبها وهي ذات البلاد التي جرت فيها أحداث الخروج بمديان وآدم سيناء. ويؤكد لنا (كاسيدوفسكى) أن الكهنة المصريين كانوا يغطون وجوههم أثناء إقامة الاحتفالات الدينية والمراسم لأنها كانت تضى « أما القرون فهي راسب من رواسب عبادة الثور المصرى أبيس. وهذا ما تدل عليه حادثة العجل الذهبى، فبقيت القرون رمزا للقداسة »^(٧).

كذلك ظل البعل وهو ثور بدوره أوجدى (تيسا) إلها جليل الشأن لدى شعوب شرقى المتوسط وضمنها بنى إسرائيل، ويمكنك أن تجد بالكتاب المقدس شهادات واضحة بذلك من أمثلتها عبادتهم عجل بعل فغور (تثنية ٣٢/ ١٥، ١٦ وعدد ٢٥ / ١ - ٣) وعبادتهم البعل وعشتروت (قضاة ٢ / ١١ - ١٧) وعبادتهم البعليم جمع بعل (قضاة ٣ / ٥ - ٨)، كما مارسوا طقس الجنس الجماعى وراء بعل بريث (قضاة ٨ / ٣٣ و ١٠ / ٦) ومارسوا هذا الزنى المقدس فى باب خيمة الاجتماع (صموئيل أول ٢٢/٢). كذلك ذكر هذا المقدس أن سليمان سجد لكل آلهة المنطقة (ملوك أول ١١ / ١ - ٨). كما عبدوا عددا من العجول الذهبية وقاموا بالجنس الجماعى على المرتفعات وقدموا الأطفال أضاحى للآلهة (ملوك أول ١٣ / ٢ و ١٤ / ٢٣ و ١٦ / ٣١ - ٣٣ وملوك ثانى ١٦ / ٣، ٤ و ٢١/٢، ٢٦/٢. وأخبار أيام ثانى ١١، ٣٣/٢١ وملوك ثانى ١١/٢٣ وأخبار أيام ثانى ٣٤/٢ - ٥). كذلك سجدوا لبعل مولك عند توفه (ملوك ثانى ١٠/٢٣)، أما مركب الشمس المصرية التى كان يعتقد أن رع يركبها فى رحلته السماوية، فقد كان محل عبادة دائمة فى المملكتين إسرائيل ويهوذا، حتى وصل الأمر بالنبي إرميا وهو يرهص بتوحيد يهوه إلى التنديد بشعبه صارخا فيه: « بعدمدنك صارت آلهتك ياإسرائيل/ إرميا/ ١١ - ٣ ».

حتى أن يهوه نفسه الذى اكتشفه موسى فى أيكه مديان المضيئة لم يكن إلها واحداً، بل مدمجا لعدد من الآلهة، حيث يقول لنا (كمال الصليبي): « هناك ثلاثة مقاطع مختلفة فى التوراة تذكر اسم موسى مع تعريف لشخصه بأنه: ء يش هـ - ء لهيم، وفى الترجمة العربية وسائر الترجمات: رجل الله (المزمور ١/٩٠ وعزرا ٢/٣، وأخبار أيام أول ١٤/٢٣). ولو كانت العبارة بالعبرية هنا ء يش لهيم لصحت ترجمتها على أنها تعنى رجل الله، لأن اسم الله بالعبرية هو ء لهيم ويلفظ إلهيم، لكن العبارة العبرية هى فى الواقع هـ - ء لهيم بالتعريف وليس ء لهيم بدون تعريف، وهـ ء لهيم بالعبرية ليست هى اسم الله بل لفظة عادية تعنى الآلهة، جمع ء له أى آلهة مع سابقة التعريف »^(٨).

ولعل أهم تجليات الإله يهوه وأبرزها إضافة إلى الثعبان، هو التجلى النارى، وقد سبق وألحنا إلى خنفساء المانجروف كظاهرة يمكنها تفسير مشهد عليقة تلتهب ولاتحترق، والطريف أنه يمكنك أن تجد فى

(٧) الموضع نفسه.

(٨) كمال الصليبي خفايا التوراة، .. سبق ذكره، ص ٢١٢.

سيناء أكثر من ظاهرة للنباتات الضوئية. وقد حاول بعض الباحثين تفسير مشهد عليقة تلتهب ولا تحترق بالظاهرة المعروفة بهالات القديسين، " وهى هالات ضوئية تُرى محيطة برؤوس القديسين فى المصورات القديمة، وتطابق ما يشاع بين البسطاء عن أنوار تشع من وجوه الأنبياء والأولياء ذوى الكرامات. وهى الظاهرة التى فسرها علم الفيزياء بعد اكتشافه للكهرباء الجوية، التى تأخذ أحيانا شكل كهرباء استاتيكية مستقرة، وعادة ما تظهر فوق قمم الجبال والمناطق الخلوية الرطبة، وهى الأماكن التى اعتاد الزهاد والنسك ارتيادها للتعبد والاختلاء، كذلك الأفاقون والهاربون من العدالة، وهم أيضا ممن لوحظت معهم تلك الظاهرة، وكانت رؤيتها كفيلة بإبهار العامة^(٩).

ومن جانبنا لانجد ذلك معبراً بوضوح عن ظاهرة العليقة الموسوية، فنحن نظن موسى التوراتي قد رأى بالفعل لهباً بشكل من الأشكال، أو ضوءاً نباتياً، وليس شرطاً أخذ الأسطورة بحرفيتها أو بتفاصيلها الدقيقة على محمل الجد الصارم، حيث حاول الباحثون العثور على تفسير للظاهرة فى سيناء نفسها، فوجدوا هناك نباتاً لم يزل يسمى عليقة موسى من قبل سكان المنطقة الحاليين. واكتشف أن لهذا النبات خصائص فريدة، فهو يرسل خيوطاً من الزيت فى الأثير تتوهج بسهولة تحت أشعة الشمس، وحملوا معهم إلى بولونيا نموذجاً منه، وزرعوه فى محمية (سكورتيت)، وفى عام ١٩٦٠ خرجت الصحف نبأً مثير يقول: إن عليقة موسى المحاطة بالرعاية فى المحمية، قد اشتعلت بنار ذات لون أحمر، وكان اليوم حاراً وقائظاً^(١٠). ومن ثم تم الربط بين اشتداد الحرارة والرطوبة معا وهو ما يحدث فى أيام محددة فى ذلك الجنوب السينائى، وبين توهج ذلك النبات بالضوء، لكن أحداً فى بولونيا لم يزعم أنه رأى يهوه أو سمعه يتكلم من خلال النبتة المتوهجة!!

وظاهرة رابعة فى سيناء أيضا يمكنها بدورها تفسير مشهد عليقة نارية لا تحترق، صادفتنا إبان مشاهدتنا للتلفاز المصرى على قنواته الأولى فى برنامج عالم الحيوان، وكانت تفسيراً سهلاً وبسيطاً، حيث كان يعرض البرنامج الذى أعده سعيد محمود وعلق عليه، وأذيع خلال شهر يناير ١٩٩٣، ألواناً من الأشجار والنباتات الفطرية، التى تتعايش معها بكتريا تؤدى بالتفاعل الكيميائى إلى صدور شحنات ضوئية منتظمة نابضة تصدر عن النبات. وقدم البرنامج ألواناً من تلك النباتات فى البحر الأحمر وفى شبه جزيرة سيناء، وبالطبع لم يكن البرنامج يتحدث عن عليقة موسى، لكنه كان يتحدث عن الشوكيات وفطر المشروم السينائى الذى يضئ بالخلايا البكتيرية. كما قدم أيضاً عدداً من تلك الظواهر تحدث فى نباتات مائية فى عمق البحر الأحمر وخليج السويس والعقبة، أما الحالات التى عرضها البرنامج فكانت مذهشة حقاً حيث كان النبات يبدو بالفعل متوهجاً تماماً كما لو كان يشتعل بالنار، ولو لم تمسه نار.

(٩) سعد زغول : الأنبياء والمنتبئون قبل ظهور الإسلام، مجلة عالم الفكر، المجلد، ١٢، العدد٤، الكويت، ١٩٨٢ ص ٢١١.

(١٠) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١١١.

ومن ثم فلدينا فى شبه الجزيرة السيناوى، أكثر من ظاهرة يمكنها تفسير ما شاهده موسى، فى تلك الصحراء الحافلة بالعجائب، فلو كانت الرؤية بالنهار يمكن أن تفسرها العليقة الزيتية، وإن كانت ليلا يمكن أن تفسرها خنافس المانجروف أو المشروم المضىء.

ونبات المشروم تحديداً يمكنه أن يستدعى معان كثيرة، فالإله يهوه يبدو فى أحد تجلياته كقضيبي ذكرى، ولا ننسى أن القضيب مصدر الخصب وعلامة القوة، فالبطاركة الأوائل كانوا يمسك أحدهم بالقضيب ويقسم به فى مواضع متعددة بالتوراة، ومثالا لذلك " وقال إبراهيم لعبده كبير بيته المستولى على ما كان له: ضع يدك تحت فخذى، فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض، أن لاتأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين / تكوين ١/٢٤ - ٣ "، ويتكرر القسم بالقضيب فى عدة مواضع أخرى منها على سبيل المثال، ما جاء فى طلب يعقوب لولده يوسف إبان وجودهم فى مصر، ألا يدفنه فى بلاد مصر، بل يذهب بجثمانه إلى أرض كنعان ليدفنه هناك. وهو الطلب الذى لم يطمئن إلى تنفيذه وتهدأ نفسه إلا بعد أيمان مغلظة من يوسف فى عبارة التوراة على لسان يعقوب : " ضع يدك تحت فخذى واصنع معى معروفا معى وأمانة، لا تدفنى فى مصر / تكوين ٢٩/٤٧ ".

ولا ننسى مسألة ختان القضيب كشرعة إسرائيلية وفريضة إجبارية محتومة على كل يهودى، ورغم علمنا من قوانين الفراعين وماتركوه من رسوم لإجراء عملية الختان بسكاكين الصوان، تؤكد أنهم اعتبروا الختان ميزة خاصة تعاليا على بقية الشعوب، فإن الإسرائيليين أخذوا بهذه الشرعة المصرية، بل واحتسبوها علامة العهد بين الرب وبينهم، الرب يعطيهم فلسطين، وهم يعطونه غلات قضبانهم بالاختتان، فإذا نظر الرجل إلى قضيبه بعد قص غرلته عنه يتذكر عهده وميثاقه مع الرب:

وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدهم فى أجيالهم. هذا هو عهدي الذى تحفظونه بينى وبينكم، وبين نسلك من بعدك. يختتن منكم كل ذكر فتختتنون فى لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بينى وبينكم.. فيكون عهدي فى لحمكم عهداً أبدياً.

تكوين ٩/١٧ - ١٤

ولا يفوت لييب هيئة المشروم، فهو يتخذ شكل قضيب نموذجى الاختتان وبهذا الخصوص يعرب شفيق مقار عن رأيه فى ديانة يهوه فيقول: " هى نابعة من ديانات صحراوية من ديانات الخصب، انصبت على تقديس نوع من الفطر واسمه العلمي هو (أمانتيا موسكاريا) كان أتباع تلك الديانة يرون فيه تجسيدا لإلههم القومى، وهو إله قضيبى. ويؤمنون بأن تعاطيه يمكنهم من الاتصال اتصالا مباشرا بمعبودهم، ويتيح لهم مشاركته أسرارهِ السماوية. والمعروف أن لذلك الفطر تاجا يشبه قمة القضيب فى حالة انتصابه، ويحتوى على عقار يسبب الهلوسة لمن يتعاطاه ويشيع فى كيانه بلهنية وشعوراً بالحيوية والجزل، يصحبه اندفاع لطاقة

جسدية عارمة، ويعقبه فترات من الانحطاط الجسدى الحاد... ونفهم الأهمية القصوى التى علقها هذا المعبود القضيبى حسبما يرويه الكهنة من مبدأ الأمر على مسألة الختان. فالختان هو الذى يجعل القضيب عندما ينتصب مماثلاً لنبات الفطر المقدس، الذى رأى عبدة ذلك الإله أن معبودهم يتجسد فيه « (١١) ».

ويعلق على الشوك على تلك القطعة النحاسية بقوله عن إياهو « وكان يدعى يؤمئذ إيلات إياهو .. وكان إله الحدادة عند القينيين؟! ويظن أنه كان عشيق بعلت [أى البعلة/ المؤلف] . واسم إياهو يرجع إلى حقب أبعد بكثير، فهو قد ظهر فى مصر فى عهد الأسرة السادسة أى أواسط الألف الثالث ق.م لقبا للإله سيت Set أو سوتخ Sutech وكان إله الرعاة .. وقد ظهر فى سفر التكوين باسم شيث بن نوح « (١٢) ».

والأفعى المقدسة رمز يهوه (الإفعوان) تتخذ فى الأساطير اليونانية صورة حمامة تلقح الكون فيلد الحياة (١٣). ويضع على الشوك تخريجا للأصل الاشتقاقي لكلمة حمامة، يقول أنه غير متأكد من صحته، رغم أنه شديد الصحة، فهو عنده من مادة حمّ أى صار أسوداً (١٤). وكذلك حم فى المصرية القديمة = أسود، أفلا يحيل كل هذا إلى القينيين فى مديان الحدادين وربهم حداد، الحاميين، الكوشيين ، الزنوج.

والإفعوان هو باليونانية Ophis ومنها أبو فيس كذلك هو Ophion وله اسم آخر فى ذات اللغة هو بيثون Python، وفى اللغة الحورية الأوغاريتية اسمه ب ث ن أى الحية، وبقلب الباء فاء تصبح فتن وهى كلمة عبرية تعنى حية (١٥). وبثن بالعربية هو الناعم الطرى لذلك نجد الاسم (بثينه) أى الناعمة. لكن يبدو أن تلك النعومة اشتقت من ملمس البيثون الحية الناعمة لكنها الشريرة القاتلة لذلك جاءت كلمة فتن فى العربية وفائن لتدل على شديد الجمال الأخاذ لكنه الشرير القاتل، ومنها الفتنة التى هى أشد من القتل.

ومن بيثون يأتينا اسم PAN / بان رب الرعاة أو رب الماعز عند الإغريق فقد كانت هذه صورته المفضلة: التيس، وكان فى الوقت ذاته هو رب القضيب ورب الجماع، ثم المقابل لكلمة (بان) فى العربية هى كلمة فن / بن، والفن فى العربية هو عملية إخصاب الحمار لأنثاه، ويقال: فن الحمار بإتته أى نكحها، لذلك يسمى الفنان.

وقد لاحظ جون الليجرو أن اسم البعل نفسه مأخوذ من اسم سومرى هو BA - AL وهو ما يعنى المتقرب أو القضيب، واختلاط الباء بالفاء يؤدى بكلمة (بال) السومرية إلى فالوس Phalus اللاتينية وهى اسم القضيب الذكري فى حالة الانتصاب (١٦) ولنلاحظ أيضاً أن الشق الأول من الكلمة BA هو فى العربية القدرة الجنسية المسماة (باه). وكان المصرى القديم يتصور القضيب هو مخرج روح الرجل وكانت الروح فى المصرية

(١١) شفيق مقار: قراءة سياسية .. سبق ذكره، ص ٦٢.

(١٢) نفسه: ص ٢٦.

(١٣) نفسه: ص ٢٩.

(١٤) الموضع نفسه.

(١٥) نفسه: ص ٣٤.

(١٦) نفسه: ص ١٥.

القديمة تحمل اسم الـ (با)، وكانت ترسم وهى تخرج من القضيب فى شكل الحمامة، والحمامة اسم القضيب فى مصر حتى الآن ولم تنزل ذكريات القضيب المضى تتمثل فى المصاييح الزيتية القروية باسم الفانوس / الفالوس.

ومن الطريف أن اسم القضيب الذكري فى مصر حتى اليوم (الحمامة) وسر الطرافة أنه قد تم العثور فى أوغاريت على قطعة فنية نحاسية تعود إلى حوالى ١٦٠ ق.م تحمل اسم رب التوراة (إيا - هو / IA - HU)، وبالتدقيق النظر سنكتشف أن الاسم مركب من مقطعين (IA = أى رفيع، سامى) و (HU = أى حمامة)^(١٧) فهو الحمامة السامية أو رب الحمامة أو رب القضيب.

وفى أساطير الشعوب القديمة جميعاً تمثلت الروح فى الريح، الرياح، ربما لأن التنفس (النفس) أى الريح هو الذى يمد الكائنات بالحياة. وفى الكتاب المقدس « بنسمة الله يبيدون وبريح أنفه يفنون / أيوب ٤/٩ » ويتواتر ذكر عبارة « روح الرب / ملوك أول ١٨/١٢ »، أو كما فى « بريح أنفك تراكمت المياه / خروج ١٠ ». وتشترك مع الريح والروح كلمة الرائحة التى عادة ما تعبر عن الرائحة العطرية، وتشترك معها فى الدلالة لفظة شذى التى أحالت لدينا من قبل إلى (شرى) أو ذوى الشرى، الذى ارتبط بالخصب بدوره فولد تحت نخلة فى بلاد آدوم فى أسطوره. والنخلة باليونانية هى Phoenix وهو ذات الاسم الذى كان يطلق على العنقاء الطائر المسافر من بلاد العرب إلى مصر، وإلى العناقين العملاقة، الذين سجد بينهم - بعد فصول - قاطعى الرقاب أو قاطعى الرؤوس، أو الخناقين، والمبهر أن الكلمة فوينكس تعنى أيضاً فى اليونانية (الخناق أو قاطع الرقبة)؟! وهنا الحالة الثالثة التى نطلب من القارئ تذكرها لأن لها دوراً آتياً فى حل كثير من الألغاز فى بحثنا هذا .

وكان القدماء يتصورون الريح فى هيئة عمود ثعبانى كبير عظيم متلوى يلتهم كل شئ، وهى صورة الإعصار، ومن هنا جاء اسم الأفعى الإفعوانية التى أصبحت فى اليونانية أوفيس/أوفيون، لكنهم يطلقون عليها أيضاً الاسم بيثون، ومن الكلمات بثن وفتن يأتينا اسم بان رب الماعز اليونانى. وفى الأساطير اليونانية نجد مملكة الرياح تتكون من أربعة آلهة بعدد الجهات الأصلية، وأهمهم جميعاً هى البقرة يهو أو أيوس. وللطرافة فإن انفجارات البركان المتتالية مع كل دمدمة تعطى بغبارها السحابى الهائل بشكل الانفجار النووى، تعطى بالضبط مشهد المشروم، مشهد القضيب لكنه العظيم المهول، الذى يقذف بمواد الخصب لكن بقدرة ربانية تزلزل الجبال وتنشف المياه وتشق الأرض. واللافا البركانية بالملاحظة المستمرة أعطت إنسان العصور الخوالى فرصة اكتشاف أنها سر خصب الأرض.

وعليه نقف الآن ملياً مع مشهدية كبرى نارية قضيبية بركانية لرب التوراة (يهوه)، وهو يتجلى تجلياً لا يمكن بحال إلا احتسابه بركانا كامل المواصفات.

□ وكان الرب يسير أمامهم نهاراً فى عمود سحاب، ليهدىهم

(١٧) على الشوك: جوله.. سبق ذكره، ص ٢٥.

فى الطريق، وليلا فى عمود نار ليضىء، لكى يمشوا نهارا
وليلا/ خروج ١٣/٢١.

□ سحابة الرب كانت على المسكن نهاراً، وكانت فيها نار ليلا،
أمام عيون كل بيت إسرائيل / خروج ٤٠/٤٨.

□ وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح، أنه صارت رعود
وبروق وسحاب ثقيل على الجبل، وصوت بوق شديد جداً ،
فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة، وأخرج موسى الشعب
لملاقاة الله، فوقفوا فى أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كله
يدخن، من أجل أن الرب قد نزل عليه بالنار، وصعد دخانه
كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً .. ونزل الرب على
جبل سيناء، إلى رأس الجبل/ خروج ١٩/١٦ - ٢٠.

□ وكان الشعب كأنهم يشنكون شراً فى أذن الرب، وسمع الرب
فحمى غضبه، فاشتعلت فيهم نار الرب وأحرقت طرف
المحلة، فخرج الشعب إلى موسى، فصلى إلى الرب، فخدمت
النار، فدعى اسم ذلك الموضع تبعية، لأن نار الرب اشتعلت
فيهم/ عدد ١١/١ - ٣.

□ عندما تمرد قورح - قارون إسلاميا - على موسى: "انشقت
الأرض التى تحتهم، وفتحت فاهها، وابتلعتهم وبيوتهم، وكل
ماكان لقورح من أموال، فنزلوا هم وكل ما كان لهم من
أحياء إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين
الجماعة، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا، لأنهم قالوا: لعل
الأرض تبتلعنا، وخرجت نار من عند الرب، وأكلت المئتين
وخمسين رجلا، الذين قربوا البخور / عدد ١٦/ ٣١ -
٣٥.

□ فتقدمتم ووقفتم فى أسفل الجبل، والجبل يضطرم بالنار إلى
كبد السماء، بظلام وسحاب وضباب/ تثنية ٤/ ١١ .

□ الرب إلهك هو نار آكلة، إله غيور/ تثنية ٤/ ٢٤.

□ إنك قد أريت لتعلم أن الرب هو الإله، ليس آخر سواه، من
السماء أسمعك صوته لينذكرك، وعلى الأرض أراك ناره.

العظيمة، وسمعت كلامه من وسط النار/ تنثية ٣٦/٤.

□ هذه الكلمات كلم بها الرب كل جماعتكم فى الجبل من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم.. فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام، والجبل يشتعل بالنار.. قلتم: هو ذا الرب إلهنا قد أرانا مجده وعظمته، وسمعنا صوته من وسط النار، هذا اليوم قد رأينا أن الله يكلم الإنسان ويحيى، أما الآن فلماذا نموت؟ لأن هذه النار العظيمة تأكلنا/ تنثية ٢٢/٥ - ٢٥.

□ فاعلم اليوم أن الرب إلهك، هو العابر أمامك، نار آكلة، تنثية ٣/٩.

□ وكان منظر مجد الرب، كنار آكلة على رأس الجبل، أمام عيون بنى إسرائيل/ خروج ١٧/٢٤.

□ فانصرفت ونزلت من الجبل، والجبل يشتعل بالنار/ تنثية ١٥/٩.

□ اعبدوا الرب بخوف واهتفوا برعده/ مزمور ١١/٢.

□ يمطر على الأشجار فشاخا ناراً وكبريتاً وريح السموم/ مزمور ٦/١١.

□ فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال، ارتعدت لأنه غضب، صعد دخان من أنفه ونار من فمه، أكلت جمرًا، اشتعلت منه.. عبرت سحبه برد وجمر نار، أرعد الرب من السماوات، والعلی أعطى صوته بردا وجمر نار/ مزمور ١٨/٦ - ١٣.

□ صوت الرب يقذف لهب نار، صوت الرب يزلزل البرية، يزلزل الرب برية قادش/ مزمور ٧،٨/٢٩.

□ ناراً قدماه تأكل، وحوله عاصف جداً/ مزمور ٣/٥٠.

□ السحاب والضباب حوله، العدل والحق قاعدة كرسيه، قدماه تذهب نار وتحرق أعداءه، حوله أضاعت بروقه المسكونة، رأت الأرض وارتعدت/ مزمور ٢/٩٧ - ٤.

- الصانع ملائكته رياحا، وخدامه ناراً ملتهبة/ مزمور ٥/١٠٤.
- بسط سحابا سجفا، وناراً لتضىء بالليل / مزمور ٣٩/١٠٥.
- يارب طاطئ سماءك وانزل المس الجبال فتدخن، أبرق بروقا وبددهم، أرسل سهامك وازعجهم/ مزمور ٥٠/١٤٤.
- من حضرتك تتزلزل الجبال، كما تشعل النار الهشيم، وتجعل النار المياه تغلى، لتعرف أعداءك باسمك، لترتعد الأمم من حضرتك/ إشعيا ١٠٢/٦٤.
- يمطر على الأشرار فخاخا وكبريتا وريح السموم / مزمور ٦/١١.
- على جبل الله المقدس كنت، بين حجارة النار تمشيت/ حزقيال ٢٨/ ١٤.
- غيظه ينسكب كالنار، والصخور تنهدم منه/ ناحوم ٦/١.

والآن، هل من الممكن أن يفهم من تلك النصوص شيء، سوى أنها تصوير بليغ لبركان حقيقي؟ إن البركان هو الظاهرة الوحيدة التي إذا طالعناها من بعد، أخذت شكل عمود النار ليلا، وشكل عمود السحاب نهائياً عندما تظهر الشمس وتغطي بضوئها على ضوء النار المتلظية داخله. هو الظاهرة الوحيدة التي يصحبها أصوات القصف كالرعد والبرق مع السحاب الثقيل المصحوب بالأدخنة الصاعدة كالأتون. وهو الظاهرة الوحيدة التي تؤدي لارتجاف محيطها، وهو الظاهرة الوحيدة التي يمكن رؤيتها عن بعد بأمان تام، لكنها تصبح خطراً محققاً إن زحفت مصهوراتها إلى أماكن السكنى، كما حدث في إحراقها طرف محلة الإسرائيليين بسيناء. وهو الظاهرة التي تصاحبها الزلازل ورجف الأرض وانشقاقها وابتلاعها لما فوقها، كما حدث مع (قورح) وجماعته. وهو الظاهرة التي تظهر نيرانها في رؤوس الجبال وقممها. وهو الظاهرة التي تصحبها رياح كبريتية سامة (رياح السموم)، مع تفاعلات غازية في شكل أبخرة قاتلة. وهو الظاهرة الوحيدة التي بإمكانها أن صبت في البحر أو النهر أن تجعله يغلى ويفور ويتبخر. إنه الوصف الدقيق تماماً لإله نارى، إنه الوصف الأكثر دقة لبركان في حالة توتر في شبه جزيرة سيناء. لكن المحبط تماماً هو تأكيدات الباحثين الجيولوجيين أن سيناء لم تكن يوماً مسرحاً لأي ظواهر بركانية من أى نوع. وكان ذلك التأكيد مدعاة لارتباك طويل عانى أثناء مشاق هذا العمل، أدى - مع القناعة بوجود ظاهرة بركانية - إلى افتراضات بعيدة، للبحث عن مواضع بركانية محتملة، كانت كل مرة تتضارب مع ما جمعه من مادة علمية، وهذه المادة جميعاً لابد أن تؤدي بالخارجين إلى جبل كاثارين في جنوب المثلث السينائي، وكانت النتيجة مزيداً من جهد ضائع، ووقت ثمين ذهب هباء مع كل فرض يسقط مع الاختبار قياساً على المادة العلمية المجموعة. وعشنا متاهة كبرى كنا نخرج منها كل مرة صفر اليدين.

ولم يعد أمامنا بإزاء كل المعطيات، سوى الإصرار على أن جبلى موسى وكاثرين كانا بركانيين فعلا، ومن ثم كانت رحلتنا القاسية فى ظروف أقسى، مع ظروف صحية أشد قسوة، إلى المكان، لكنها كانت كافية للقناعة أن الجبلين كانا إضافة لجبل الطور غربا جبالا بركانية بالفعل. حيث كانت نتوءات الخفاف البركانى تتناثر بطول المنطقة وعرضها، ولكن لأن قولنا هنا لن يكون كافيا للفصل فى الأمر، فقد عدنا ندقق النظر فى جغرافية (جمال حمدان)، لنجده يدعمنا ببساطة الصدق العلمى الذى لا يحتاج معه جدلا، فيصف كتلة جبل الطور بأنها " كتلة نارية " وإن غلب عليها الجرانيت، لكن مايجاورها من مجموعة جبال كاثرين وموسى وأم شومر والثبت وأبو مسعود وسربال ومدسوس، التى تنتشر كغابة صنبورية من الأقماع المخروطية، تنتشر بها جميعا الطفوح البركانية الواضحة فى كل كل مكان"، ثم يقول بإصرار: " أن هذه المنطقة تحديداً قد تعرضت لاضطرابات تكتونية عنيفة مزقتها تمزيقا، وملأتها بالانكسارات التى لا حصر لها (١٨) .

أما (شطأ) فقد لاحظ من جانبه أن مجموعة " من الحمامات وتشمل صخور الحمامات هى عبارة عن رواسب قديمة وصخور بركانية " (١٩). وقام (عمار) يؤيده مؤكداً أن " النصف الجنوبى من سيناء هو منطقة جبال نارية مرتفعة تقطعها الوديان العميقة.. لكن هذه الكتلة النارية لا تصل إلى ساحل خليجى السويس والعقبة " (٢٠).

ومن ثم لايبقى سوى القول: إن إعلان السيدين كوتل وروزبير علماء الحملة الفرنسية: إن سيناء لم تعرف البراكين والذى سلم به الباحثون وأكدوه من بعدهم دون تدقيق، وكان وراء نفى فكرة البركان السينائى/ واحتساب المنطقة بالكامل صخوراً جرانيتية، إما ناتج خدعة الانتشار الجرانيتى دون ملاحظة دقيقة لذلك الطفح المتناثر، وإما إن الرجلين قد قاما بخدعة غير لائقة تماما، دحضا لفكرة أن يكون إله التوراة مجرد بركان، تعصبا لفكرة دينية حمقاء. وهناك عدة أسباب محتملة لاختفاء كثير من الطفوح البركانية، فيحتمل أن تكون الرمال قد أهالت عليها بمرور السنين تلولا عظيمة من الكثبان خاصة على الطفوح الكبرى. ثم هناك هواية دينية معهودة تتمثل فى جمع الأحجار المقدسة للتبرك بها. كذلك استخدمت تلك الطفوح المقلوعة فى مراكب الصيادين فقد لاحظ دى بوايميه العالم المرافق للحملة الفرنسية أن تلك المراكب جميعا تعلق فى مقدمة السفينة كتلا من الخفاف البركانى لحفظ التوازن وهى سفن خليج السويس وبالتحديد ميناء الطور. أما اسمنت القديم فكان يتأتى بقلع الخفاف البركانى وطحنه ومزجه بمسحوق الحجر الجيرى فيتحول هذا المزيج عند ابتلاله بالماء إلى أسمنت حقيقى، وعن البناء بهذا الاسمنت حدثنا محمد العزب موسى يقول: " عندما يمتزج الخفاف البركانى بالحجر الجيرى ينتج نوعا من الأسمنت القوى، وهذا ماحدث فى ثيرا

(١٨) جمال حمدان: شخصية مصر.. سبق ذكره، ج ١، ص ٥٩٥، ٦٠٥.

(١٩) عبده شطأ: جيولوجية شبه جزيرة سيناء، ضمن موسوعة جزيرة سيناء، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٢٩.

(٢٠) عباس مصطفى عمار: المدخل الشرقى لمصر، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٤٦، ص ٢٦.

وبالتحديد في جزيرة ثيراسيا التي اخذت منها في ستينيات القرن الماضي كميات ضخمة من الأسمنت لبناء قناة السويس ومدينة بور سعيد (٢١)، وما أكثر البناء في مصر القديمة. زد على ذلك استخدامه في ردم سواحل خليج السويس المستمر لحمايتها: أدى هذا كله لاشك إلى تعرية الطبقة الجرانيتية من غطاءها الناري في مواضع كثيرة، لكنه ترك لنا بعضها يتناثر هناك ليشهد أن رب التوراة النار الآكلة كان هناك، وأنه كان بركانا. ومن الطرافة ألاننسى حجر الخفاف الذي كان يملأ كل بيت في مصر لتنعيم كعوب نساء مصر القديمة، تلك العادة التي استمرت ألوف السنين وحتى اليوم.

ومع هذا كله تظل جيولوجيا سيناء تحمل شكاً كبيراً في وجود أية براكين نشطة زمن الخروج، وأن الإشارات البركانية بها تعود إلى أزمنة جيولوجية بعيدة. هنا يبقى بيدنا اقتراحاً آخر وهو أن يكون الإله البركاني كان في البلاد الآدومية شرقي العقبة، وأن موسى التوراتي قد التقاه هناك، وتربى هناك حيث ثقافة عبادة البراكين، وعاد بها وعلم بها اتباعه حتى وصلت كاتب التوراة الذي كانت تعز عليه سيناء حيث جبل الشريعة، وحيث أكثر الجبال رهبة وجلالاً في جبل كاترين وجبل موسى، فاختار سيناء ليضع فيها ربه البركاني، واستبعد آدوم لأنها كانت ملكاً لآدوم عيسو حسب الأسطورة التوراتية ولنسله، وأن التوراة أو ربها قد أعطى بلاد آدوم لنسل عيسو كما أعطى الإسرائيليين ما بين الفرات والنهر الكبير نهر مصر بسيناء، وهي من الحالات النادرة التي يمنح فيها رب التوراة في تلك العهود أرضاً يعتبرها أرضه لغير بني إسرائيل مما يشير إلى توحيد ألوهي واضح. خاصة أن هذه العطية للآدوميين أخذت شكلاً مقدساً، أنظر رب موسى عند هروبهم من مصر إلى فلسطين ينصحهم ألا يعتبروا أرض آدوم ضمن الأراضي الممنوحة للإسرائيليين ويقول لموسى "أوصى الشعب قائلاً: أنتم الآن مارون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين في سعيير فيخافون منكم فاحترزوا جداً، ولا تهجموا عليهم لأنني لا أعطيكم أرضهم ولا وطأة قدم لأنني لعيسو قد أعطيت جبل سعيير ميراثاً/ تنبيه ٢،٤،٥". (٢٢)

والآن لاشك أننا مازلنا نذكر (سيت)، وأنه كان رب (سترويت) سيناء، وأن (سيت) الذي هو (تيفون) في الأساطير اليونانية، يعيش تحت بركان عظيم، وأن انفجارت البركان ليست شيئاً سوى دمدات (سيت/ تيفون) ونفثات غضبه الملتهب، وقد حاول مؤلفو التوراة الإيعاز طوال الوقت بأن (يهوه) رب موسى كان إلهاً خاصاً جداً، لم يظهر لأحد قبل موسى، ولم يكن إلهاً لشعب من الشعوب سوى القبيلة الإسرائيلية. لكن الواضح حتى الآن أنه لم يكن سوى (سيت/ تيفون / بعل/ هفا)، رب سيناء المصرية، وإله صحارى مصر القديمة، رب الشرور والأوبئة وهو ما تصف به التوراة ربها "قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى / حبقوق ٥/٣".

(٢١) محمد العزب موسى: حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط، ١٩٩٢، ص ٥٥.

(٢٢) هذا الفرض من اقتراح صديقي الدكتور محمد سميح عيد.

وقد سبق وافترضنا أن هذا البركان القضيبى كان تجسيدا لأرب الأرض المصرى الذكر (جب) الذى كان يقذف بمخصباته إلى السماء الأنثى، ويجب أن ننطق (جب) بتعطيش الجيم وفى هذه الحالة يكون الإله المصرى القديم الذكر قد ترك اسمه فى التسمية الشعبية للعضو الذكرى (زب).

وعلى تنعيم اسم الكائن (يهوه) جاءت أسماؤه فى المقدسة التوراتى، فهو مرة (يهوه) ومرة (إهية) ومرة (ياه)، فموسى يسأل رب العليقة: " فإذا قالوا لى: ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال الله لموسى إهيه الذى إهيه، وقال: هكذا تقول لبنى إسرائيل: إهيه أرسلنى إليكم، وقال الله لموسى: هكذا تقول لبنى إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلنى إليكم، هذا اسمى الى الأبد/ خروج ١٣/٣ - ١٥ ."

لكن يبدو أن الكاتب التوراتى كان يعلم يقينا أن يهوه هذا رب جديد يدخل أفق العبادة الإسرائيلية لذلك سجل " ثم كلم الله موسى وقال له: أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب، بأنى الإله القادر على كل شئ وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم/ خروج ٢،٣/٦ . ثم يأتى إشعيا فيعطينا التنعيم الثالث فى قوله: " هو ذا الله خلاصى، فأطمئن ولاأرتعب لأن ياه يهوه قوتى وترنيمتى وقد صار لى خلاصا/ اشعيا ٢/١٢ ،" وهو ما رددته المزامير قائلا: " غنوا لله رنموا لاسمه، أعدوا طريقا للراكب فى القفار باسمه ياه واهتفوا أمامه/ مزامير ٤/٤٨ ."

وفى المقدس التوراتى إشارات واضحة الى أن هذا الإله كان إله (دوشريت) الاسم المصرى للصحارى والجبال، ومقلوبها (شترويت/ سيناء)، فهو رب القفار، " وأما عبيد ملك أرام فقالوا له: إن آلهتهم (يقصد آلهة إسرائيل / المؤلف) آلهة جبال لذلك قووا علينا، ولكن إذا حاربنا فى السهل فإننا نقوى عليهم / ملوك أول ٢٣/٢٠ ."

وبالنسبة للترجمة العربية " الإله القادر على كل شئ " فإنها فى الأصل العبرى " إيل شداى " و (إيل) كما علمنا الله، أما شداى فترجمت بمعنى الشدة أو القوة، وترجمناها نحن فى كتابنا قصة الخلق بالشذى، أى الريح و الهواء، وهو ما يلتقى مع صفات الرب السيناوى ريح الريح والعاصفة، ثم نتذكر هنا أن أول الحكام الهكسوس، الذى لاشك بلغ رتبة التقديس، لعمله المجيد، كان اسمه شالاتيس (شالات/ شالاد)، ولما كانت المصرية القديمة لا تعرف حرف (اللام) فإن شلات يصبح شت أو شد الإله الشديد (شدا) أو (شداى)، ويعضد هذا الفهم أن المؤرخين العرب أطلقوا على فاتح مصر من العماليق اسم (شداد)، وتعنى أيضا القوى الشديد " القادر على كل شئ !!"

ومن المفيد أن نعلم أن شداد وشالاد اسم الملك الهكسوسى الأول على مصر ترجع إلى أصل مصرى، فيقول إريك هورنونج إن الإله " شد Shed هو المنقذ ومساعد البشرية فى أوقات الحاجة والشدة، وبصفته إلها شابا فهو قريب من حورفى خصائصه " (٢٣). وربما كان هو ذات الإله (شرى) رب سراة سكير.

ويتبع (شلاتيس) فى ترتيب الملوك الهكسوس الستة الملك (بنون) الذى حمل أيضاً لقب سكا/ إسحاق/ الضحاك. والعربية (سكا) هى حديدة الفدان أى المحراث الحديدى الذى يشق الأرض كالعضو الذكرى فتضحك بمواليدها النباتية.

ويقول إحسان عباس إن العلماء يذهبون إلى أن " ذى الشرى لم يكن إلها عربيا، لأن العرب فى الشمال الغربى من الجزيرة كانت تسيطر عليهم العبادة القمرية بينما ذى الشرى إله شمسى " (٢٤)، وهو مايرجح ترجيحنا أنه كان المصرى (شددShed).

وعلى ذات تنعيم اسم يهوه جاعنا قبل زمن الخروج فى مكتشفات كنعان سنة ١٩٣١ على قطع من بقايا عصر البرونز تنغيما آخر لإله بالرسم (ياه) و(ياهو)، وفى ألواح أوغاريت كان كبير الأرباب ايل يؤكد للجميع " أن اسم ابنى ياو " (٢٥).

ويؤكد لنا موسكاتى أن الأراميين قد عبدوا (يهوه) حيث وجد اسمه داخلا فى تركيب أسماء أعلام أرامية ومواقع أرامية عديدة مثل (يهورام) ابن الملك (توعى) ملك حماة (٢٦).

ويقول (عصام حفى ناصف): " وكانوا يكتبون اسم يهوه بالأحرف الأربعة ي ه و ه — J. H. V. H دون أن يدعم بأحرف العلة، أى دون أن يضبط بعلامات الشكل لخلو اللغة العبرية منها إذاك.. ومن ثم كان من الممكن أن يقرأ الاسم يهوه أو ياهو .. ثم جعلوا يستخدمون بدلا من لفظ الجلالة كلمة أدوناى أو أدونا أى ربى.. وركب اليهود آخر الأمر لكلمة يهوه، أحرف العلة التى بكلمة أدوناEdona فأصبح الاسم يكتب على وزنها Je Ho Va H وينطق Jahweh يهوه " (٢٧).

ويدقق (سهيل ديب) فى أمر ذلك الاسم الغربى، فيعود إلى العبرية فى التوراة يقرأ " فقال الله لموسى: أهية أشر أهيه، وقال: هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلنى إليكم / خروج ٣/١٣، وفى النص العربى الكاثولى ليكى تترجم: أنا هو الكائن، وقال: كذا قل لبني إسرائيل: الكائن أرسلنى إليكم"، ثم تترجم النسخة العربية البروتستانتية: إهيه الذى إهيه، المعروفة وفى الترجمة الإنجليزية المعروفة بترجمة الملك جيمس

(٢٣) إريك هورنونج: ديانة مصر .. سبق ذكره ، ص ٢٨٨.

(٢٤) إحسان عباس: تاريخ دولة، .. سبق ذكره، ص ١٢٩، ١٢٨.

(٢٥) فراس السواح: مغامرة العقل.. سبق ذكره، ص ١٠٨.

(٢٦) موسكاتى: الحضارات السامية.. سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٢٧) عصام الدين حفى ناصف: اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج للطبوعات، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٧.

King James Version ١٦١١ نجدها I AM THAT IAM وهو ما يعنى أنا الذى أنا، أنا أرسلنى إليكم ، فهل كان الرب يعرفه باسمه أنه أنا أم هو؟ ناهيك عن قوله: أنا الذى تجليت لإبراهيم وإسحق ويعقوب إلها قادراً على كل شئ، والإله القادر على كل شئ هى بالإصل (إيل شداى)، فماذا كان يجب أن يقول موسى لشعبه: أهيه أم يهوه أم شداى؟

وفى المزمور ١١٠ من النص الكاثوليكي يبتدى النص هكذا: قال الرب لسيدي اجلس عن يميني، ولو رجعنا للنص العبرى سنجد قال يهوه لأدوناي، إذن كان هناك رب باسم يهوه ورب باسم أدوناي، لذلك لم تبعد الترجمة العربية البروتستانتية وهى تترجم النص العبرى إلى: " قال الرب لربي / مزمور ١١٠".

وإزاء كل ذلك الرتل من أسماء الإله باسم : إيل ، إلى يهوه، إلى إهية، إلى ياه، إلى أنا، إلى الكائن، إلى هو، إلى شداى، إلى أدون، يتساعل سهيل ديب سؤالاً هاماً ومفصلياً: " كيف يمكن أن ينسى شعب بكامله اسم ربه "؟^(٢٨).

ويجيب (كمال الصليبي): " إن الكلمة التى تدل على الإله الواحد فى العبرية هى عليهم، التى هى جمع المذكر من عله أو إله وهكذا يصح القول أن ما أصبح معترفاً به من قبل بنى إسرائيل.. بأنه إله؛ كان فى الأصل تجمعاً للآلهة أو آلهة قبلية متعددة " ^(٢٩).

ولامراء أن إجابة الصليبي إجابة دقيقة تماماً إذ كان لابد من محاولات للتوحيد الأيديولوجى للآلهة الأخلامو. مع إصرار وتغطية أسماء الآلهة التأسيسية القديمة، ومعها اختفى اسم عناق البونتي وظهر المهلك، وغام المهلك بدمجه بملك الرب يهوه، وتلاشى الشعبان (لو) لكن ليظهر فى التوراة كطرف فى صراع مع يهوه، لكن باحتسابه أفعى تنين عظيم اسمه (لويثان). واختفت المسلات وراء اسم السوارى والشوامخ وغاب الثور وراء ترجمة العزيز، واستتر ضحوت الضحاك وراء شخص إسحق. أما أدونيس الفينيقي فظل أدون لقباً للربوبية والسيادة. واختفت الأيكة لتحل محلها كل شجرة خضراء:

هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى
كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت
هناك.

إرميا ٦/٣
خطية يهوذا مذابحهم وسواريمهم عند أشجار خضر
على أكام مرتفعة.

إرميا ١٧/١٢

(٢٨) سهيل ديب: التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس، بيروت ط٢، ١٩٨٥ ص ١٧: ٢١.

(٢٩) كمال الصليبي: التوراة جاءت.. سبق ذكره، ص ٢٢٩.

وننتذكر أن الأراميين تسمية تنسب إلى الإرم والهزم وهى الأحجار والجبال، وكلمة هرم تحمل ذات المعنى فالأهرام هى الأحجار أو الجبال. ومن الطريف الذى يعضد تخريجنا فى تصور الأقدمين للجبل بحسابه قضيباً ذكرباً عظيماً أن المفردة (جبل) التى ترد فى الترجمة العربية للتوراة هى فى الأصل العبرى تنطق عير، وهى المفردة التى تترجم أيضاً إلى جبل من الأصل السومرى (ء ورو ERU وهى يرى ERI) وهو ما يحمل ذات المعنى فى المعاجم العربية^(٣٠)، ومعلوم أيضاً أن الكلمة (عير) و (إير) هى الاسم الفصحى للقضيب الذكرى. ويعود تصحيح الترجمة هنا إلى الباحث زياد منى حيث رأى أن كلمة عير تعنى جبل وليس بلدًا، وهو ذاته صاحب اجتهاد يقول: « أنا مقتنع بأن بلاد السراة - الأصح عل سر ء ه - هى نفسها ط ء نتر أى بلاد الله الوارد ذكرها فى النقوش المصرية »^(٣١).

أى أنه يرى أن بلاد بونت/ أرض الإله (ط ء نتر) تقع فى جبال السراة، لكنه يذهب إلى السراة الجنوبية امتداد جبال السراة نحو اليمن، حيث يعتقد مع كمال الصليبي أن هناك كانت بلاد التوراة، ثم تختل المسألة بين يديه فيرى أن اسم بونت ربما كان فلت أى بلاد الموت أى حضرموت؟!^(٣٢). ولكن ما يعيننا هو المادة التى جمعها الرجل فى جهد مشكور لكنه ذهب بتفسيرها جنوباً بتأثير نظرية كمال الصليبي.

(الآلهة الجبال، ولأن فى مصر لا توجد جبال مخروطية، فقد تم إنشاء الأهرام آلهة تحوى بداخلها رفات الملك تألفها).



شكل رقم (٨٢)

تمثال صغير من الأناضول يمثل إلهًا بشكل إنسان نصفه جبل (من كتاب بعل هداد)



شكل رقم (٨٣)

رسم حتى يمثل إله العاصفة تيشوب يقف على جبل بشكل قديمين إلهيين (من كتاب بعل هدد)

(٣٠) زياد منى: جغرافية .. سبق ذكره، ص ١٦٠.

(٣١) نفسه: ص ١٢٣.

(٣٢) نفسه: ص ١٨١.

لغز البلست

فجأة يظهر فى فلسطين، وعلى ساحل المتوسط تحديداً، جنس غريب جديد على المنطقة، أطلقت عليه النصوص المصرية اسم (البلست)، وهو الجنس الذى عرف باسم (شعوب البحر). وبشأن هؤلاء يقول لنا المدون التاريخي: إنه " فى سنة حكم رمسيس الثالث، سنة ١١٩١ ق.م، تقدم الملك لصد هجمات شعوب البحر على مصر، فقد أخبرنا أن هذه الشعوب، بعد أن قهر الحثيين وكركميش وقود والأشيا وكلكيليا وأرزوا، دخلوا سوريا مع نسائهم وأطفالهم بجموع غفيرة، شبهت كثرتها بالجراد، راكبين على عجالتهم التى تجرها الأبقار، وقد حشدت قواتها فى بلاد عمورو (سورية)، وشكلت حلفا من شعوبها المختلفة مثل البلست والتكر، والاثنان يضعان على قبعاتهم الريش ويستعملون الدروع المدورة، والشاكروشا والدانونا والواشاشا، وقد قدموا من البر والبحر .. وقد حدثت معركة قرب أحد فروع النيل، ويظهر أن شعوب البحر لم تكن تتوقع مثل هذه القوة المصرية المدافعة، فدمرت سفن المهاجمين، وغرقت بما تحمل من رجال وأموال .. فى وقت أمطرت به سفن شعوب البحر من الشاطئ المصرى، بوابل من سهام الجيش المصرى الواقف على طول الشاطئ ومعهم الملك " (١).

وقد سجل (رمسيس الثالث) لنا تلك المعركة الكبرى فنسمعه يقول:

شكلت البلاد الأجنبية مؤامرة فى جزائرهم .. وتفرقت
البلاد وذعرت مرة واحدة من جراء هجومهم، ولم
تستطع أية قوة أن تقف فى وجوههم أو تقاومهم. ولقد
بدأوا بخاتى وقود وكركميش وأرزوا والأشيا، وأقاموا
معسكرا فى عمورو، وعزلوا أهلها وأرضها وكأنما لم
يكونوا، .. وجاعوا واللهب معد لهم متجهين إلى مصر
.. وكان حلفهم مكونا من البلست والزكارة والشكلش
والدانو والوشش، ووضعوا أيديهم على الأرضى إلى
مدار الأرض جميعا، وقلوبهم مطمئنة واثقة قائلين: لقد
نجحت خطتنا، ولكن قلب هذا الإله سيد الآلهة، كان
مستعدا لاصطيادهم كالطيور .. لقد دعمت حدودى عند
زاهى (سوريا)، وجهزت أمامهم الأمراء المحليين
وقواد الحاميات والماريانو، وأمرت بأن تعد فوهات

(١) سامى سعيد: الرعامنة .. سبق ذكره، ص ١٥١.

النهر كحائط والقوارب، .. وجهزتها جميعا وزودتها
من قبل ومن بعد بشجعان المحاربين الذين يحملون
أسلحتهم وبالمشاة من خيرة رجال مصر، حتى أصبحوا
كالأسود تزار فوق الجبال، .. وجهزت العربات
بالمحاربين الأكفاء، وكل الضباط الممتازين، وكانت
خيولها تنبض كل أعضائها، معدة لسحق البلاد الأجنبية
تحت حوافرها، أما بالنسبة لأولئك الذين وصلوا إلى
حدودي، فإن بذرتهم لم تكن فيهم، وقلوبهم وأرواحهم
قضى عليها إلى الأبد، أولئك الذين تقدموا من ناحية
البحر .. كان اللهب أمامهم عند فوهة النهر. وكان
سياج من الحراب يحيط بهم^(٢)

لكن بعض الباحثين يميل إلى الأخذ بمذهب آخر، ويقول بموجة أبكر قليلا من البلست هاجمت مصر
زمن الملك مرنبتاح، وأن ماقاله مرنبتاح عن صد هجوم التخنو الليبيين، كان صداً لهجوم لبيى بلستى
مشترك، ويلخص تلك الرؤية تأريخ يقول: إنه " فى أواخر القرن الثالث عشر ق.م تحرك طوفان بشرى كبير
من جزائر البحر الإيجى، وأخذ يهاجم مصر بعنف على نية احتلالها ، لكن مرنبتاح تصدى لهذه الهجمة
وردها عن حدود مصر. ولكن طوفانا أكبر وأزخم سرعان ماراح يتفجر من جديد فى أوائل القرن الثانى
عشر، يوم انقضت شعوب البحر على الأناضول، ودمرت العاصمة الحثية خاتوشاش إلى الأبد، تم تابعت هذه
الشعوب زحفها متجهة صوب الجنوب ، لتدمر كركميش (جرابلس الحالية إلى الشمال من حلب)، وأوغاريت
(رأس شمرا قرب اللاذقية) وأرود، لتصل أخيرا إلى الحدود المصرية، بعدما هيمنت على الساحل
الفلسطينى. والأخطر من ذلك، أن هذا الهجوم على مصر من جهتها الشرقية، قد صاحبه هجوم آخر من جهة
البحر، وهجوم ثالث من جهة ليبيا. ولكن رمسيس الثالث آخر محارب عظيم فى مصر الفرعونية، قد راح
يتصدى لهذا الهجوم الثلاثى، ليدحره فى معركتين، إحداهما بحرية، وأخرهما برية، وذلك زهاء عام ١١٨٠
ق.م أو بعد ذلك بقليل، وسمح الفرعون المنتصر لبعض هذه الشعوب المهزومة بالاستيطان على ساحل
فلسطين، ربما تكون درعا لمصر يقيها من أى هجوم جديد. فاستقر شعب البلست الذى جاء من جزيرة
كريت بين يافا وغزة، كما استقر شعب بحرى آخر يسمى التكر إلى الجنوب من جبل الكرمل، وهو الجبل
الذى صار فاصلة تحجز بين الفينيقيين والقادميين والجدد، ولهذا ماعاد الساحل الفلسطينى إلى الجنوب من
الكرمل يدخل فى فينيقيا بعد ذلك التاريخ، وصار اسمه فلسطينا، نسبة إلى البلست، ثم انتشر هذا الاسم وشمل
القطر كله، وحل البلست فى خمس مدن كنعانية هى: غزة وعسقلان وعقرون وأشدود وجت، ونظم البلست

مدنهم الجديدة على هيئة ممالك مستقلة في إدارتها وحكومتها، إلا أن هذا الاتحاد، ربما كان مركزه في مدينة أشدود» (٣).

وهكذا ظهر الفلسطينيون في مسرح تاريخ المنطقة، وهكذا استقروا في أرض كنعان ليمنحوها اسمها حتى اليوم. ومن جانبه فقد أشار الكتاب المقدس طوال الوقت إلى الفلسطينيين الذي يسكنون الساحل، وكانوا عقبة كأداء إزاء الاستيطان الإسرائيلي لفلسطين، وظلوا دوما أعداء مصيريين للجنس الإسرائيلي، ومنافسا قويا كثيرا ما الحق الهزائم بالجيوش الإسرائيلية. وموسوعة تاريخ العالم تفيدنا بأن « لفظ فلسطين مشتق من اسم البلست، الفلستين، وكان هيرودوت أول من استعمله، أما الاسم العبري للأرض الواقعة غربى الأردن فهو كنعان ».

وقد اختلف المؤرخون حول موطن البلست الأصلي، فذهب بعضهم أنهم قدموا من جنوب شرقى الأناضول، بينما اقترح آخرون مثل هول وبرن أنهم جاءوا من جنوبى آسيا الصغرى، وذهب فريق ثالث إلى افتراض أصول إيرية للبلست، لكن الإجماع كان حول جنسهم الهندوأوروبى^(٤)، وأنهم كانوا يختلفون كليا عن سكان المنطقة القدامى فيها، حيث كانت التوراة تشير إليهم بأنهم الغلف أى غير المختونين، وكانت معظم شعوب المنطقة فى ذلك الوقت قد أخذت عن مصر عادة الختان (سفر القضاة ١٤/٣ و ١٨/١٥، وسفر صموئيل الأول ١٤/٦ و ١٧/٢٦، ٣٦ و ٤/٣١، وسفر صموئيل الثانى ١/٢٠، وسفر أخبار الأيام الأول ١٠/٤). وأن إلههم القومى كان (داجون) من (دجن أى الحنطة) وكان أيضا إلهها للسمك، وكان له مقام فى غزة وأشدود حسبما ورد فى سفر القضاة ١٦/٢١ — ٢٣ وفى سفر صموئيل الأول ١/٥. أما الأهم فهو أن البلست كانوا يستخدمون الأسلحة الحديدية على نحو شديد الوفرة، بينما كان السائد فى الشرق آنذاك استعمال الأسلحة البرونزية، ثم الحديدية لكونها نوع نادر من السلاح، ووصلت وفرة الحديد لديهم إلى حد أنهم صنعوا منه عجلاتهم الحربية، مما كان له أثر كبير فى انتصاراتهم، فضلا عن ذلك كانوا بحارة ممتازين وقراصنة موهوبين^(٥).

ولمزيد من تحصيل مادة تفيد بشأن البلست/ الفلسطينيين، نستمع إلى (زينون كاسيدوفسكى) يسجل شارحا: « فى الألف الثانية قبل الميلاد عاش فى قبرص شعب أسس حضارة متأنقة رفيعة المستوى، وأنشأ دولة تجارية جبارة فى حوض بحر إيجه. وفى الحقبة نفسها استوطنت بيلوبونيز قبائل لا نعرف منشأها ولغتها، ولكن الآخيين المدججين بالدروع البرونزية قهروها وأخضعوها لهم، وأقام الآخيون قلاعا حجرية فى ميكينى وتيرينف وغيرها من بقاع بيلوبونيز. ويخبرنا المؤرخ الإغريقى فوكيديد أن الآخيين مارسوا أعمال القرصنة، وبنوا أسطولا جباراً غدا منافسا خطراً لكريت. وابتداء من القرن الخامس عشر قبل الميلاد أخذ

(٣) يوسف سامى : تاريخ فلسطين.. سبق ذكره، ص ٥٧، ٥٨.

(٤) سامى سعيد: الرعاة .. سبق ذكره، ص ١٨٩، ١٩٠.

(٥) يوسف سامى : تاريخ فلسطين.. سبق ذكره، ص ٥٩.

الآخيون بزعامة الأتريديين الذين ينتسب إليهم أجامنون، يزيحون الكريتيين من ممتلكاتهم الاستعمارية فى بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى، وفى عام ١٤٠٠ ق.م احتلوا كريت نفسها وقضوا على حضارتها المينوية الراقية (سميت بالمينوية نسبة إلى الملك الأسطوري مينوس/ المؤلف). وفى عام ١١٨٠ قبل الميلاد حولوا طروادة إلى كومة من الأنقاض، بعد حصار دام عشر سنوات. غير أنهم لم يستمتعوا طويلا بثمار انتصاراتهم، فقد اندفعت من أعماق أوروبا قبائل بربرية أخرى هى قبائل الداريين، وأخضعت بيلوبونيز وكريت وجزر إيجه وسواحل آسيا الصغرى. وتحت ضغط تلك القبائل، حدثت فى رحاب بحر إيجه واحدة من تلك الثورات الإثنية، التى أيقظت الهجرات البشرية العظمى، فقد أرغم سكان البلقان وإيليريا وجزر بحر إيجه الذين طردوا من أرضهم، أن يندفعوا أمواجاً متتابعة باتجاه الجنوب، بحثاً عن أرض يستوطنوها. فعبروا الأناضول وآسيا الصغرى وسوريا وكنعان، وصولاً إلى دلتا النيل، حيث هزمهم الفرعون مرنبتاح شر هزيمة، وأرغمهم على التراجع. ولكن أخطر الهجمات التى شنتها الشعوب الإغريقية على مصر، وقعت عام ١١٩١ ق.م حيث اندفعت على امتداد الساحل السورى الكنعانى قطعان من المحاربين مع عائلاتهم وأرزاقهم، ترافقهم فى البحر كثرة من السفن الشراعية، فقضوا على الإمبراطورية الحثية إلى الأبد، وجعلوا من عاصمتها خاتوشاش الواقعة على هاليس كومة من الرماد والخراب. ثم أندفعوا إلى كيليكيا فنهبوا مع قطعان الخيل الأصيلة التى اشتهرت بها على امتداد القرون، أما المدن الفينيقية جبيل وصيدا وصور فقد استسلمت لهم، وتفاقت بذلك الخراب والدمار. وعبر المستعمرون أرض كنعان، واجتاحوا شمال مصر ونهبوه، فحشد رمسيس الثالث قواه كلها لصد تلك الهجمة، واستطاع أن يسحق المعتدين فى البر والبحر، وهكذا صدت أخطر هجمة استعمارية تعرضت لها مصر خلال تاريخها الطويل كله. ولم يبق لدى رمسيس الثالث ما يكفى من قوة لطرد الخصم من كنعان وسوريا، فاستوطن البلست الناجون من سيوف المصريين، الساحل الجنوبى من أرض كنعان، .. ونعلم من الكتابة التى وجدت على جدران المعابد أن المصريين قد أطلقوا على أولئك المستعمرين اسم شعوب البحر، وتشغل مكانة خاصة بينها موجات قبائل دونوى وآخاي، ومن المرجح أن يكون الدانيون والآخيون الذين نعرفهم فى التاريخ الإغريقى القديم، يخفون خلف هذين الاسمين، وبالرغم من توفر هذه المعطيات كلها، لم يتفق العلماء حتى الآن على تحديد الهوية الإثنية لتلك القبائل. لقد شكل الفلسطينيون جماعة إثنية خاصة بين شعوب البحر .. وإذا صدقنا التوراة فإن جزيرة كريت تكون هى الوطن الأصلى للفلسطينيين. إذ ينتسب الفلسطينيون حسب التوراة إلى القبائل الآخية التى أخضعت كريت، ثم جاء الآريون وطردوهم من الجزيرة. وكانت بعض الأسماء الفلسطينية ذات منشأ إيليرى، وكانت توجد فى إيليريا مدينة تدعى فيليستى، وبما أن هجرة الشعوب الدارياة بدأت من هناك بالذات، فلا يستبعد أن يكون الفلسطينيون قد سكنوا إيليريا قبل الإغريق ثم طردتهم من هناك موجة ما من موجات المستعمرين، واكتشفت بين أنقاض أوغاريت مدافن ذات طابع إيجى وقبرصى وميكينى .. كذلك الفخاريات التى وجدت بين انقاض المدن الفلسطينية الخمس فى أرض كنعان غلب عليها الطابع الميكينى ^(٦).

(٦) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ١٧٣: ١٧٥.

هذا ما قاله لنا علم التاريخ، لقد جاء البلست إلى المنطقة فى هجوم كاسح على دفعتين: الأولى زمن الفرعون مرنبتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م، لكن الهجمة انكسرت على أسنة رماح الجيش المصرى، ثم تلتها موجة أخرى زمن الفرعون رمسيس الثالث ١١٨٢ - ١١٥١ ق.م ، الذى صد العدوان، لكن قواه أنهكت مما جعله يسمح لهم باحتلال الساحل الكنعانى.

والقول طوال الوقت بأن مصر هى التى سمحت للفلسطينيين باحتلال الفلسطينيين للساحل الكنعانى، سواء لأن قوة مصر كانت قد أنهكت عن المتابعة والاستمرار لطردهم كلية، أو لأن المصريين تركوهم هناك كحراس حدود بعد أن هزموهم وأخضعوهم لتبعية مصر، وسمحوا لهم باستيطان ساحل فلسطين حتى ذابوا بعد ذلك فى أجناس وحضارة المنطقة نهائياً^(٧)، هو محاولة لتفسير ظهور الفلسطينيين على الساحل الفلسطينى، رغم أن فلسطين كانت تابعة للإمبراطورية المصرية حينذاك.

حتى الآن لا تبدو هنا أية إشكالية أو ألغاز، لكن اللغز يبدأ عندما ننقل من قراءة التاريخ كعلم إلى قراءة التوراة كتاريخ، ففى زمن الخروج الإسرائيلى من مصر باتجاه فلسطين، تحت قيادة النبى موسى، نجد الكتاب المقدس يشرح موقف سكان فلسطين من ذلك الهجوم الإسرائيلى القادم من مصر، فيقول :

يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين،
حينئذ يندش امراء آدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة،
يذوب جميع سكان كنعان/ خروج ١٥/١٥، ١٤.

وهكذا نجد أرض كنعان قد حملت اسم (فلسطين) زمن الخروج من مصر، مما يعنى أن الفلسطينيين كانوا قد استقروا هناك قبل الخروج بزمن يسمح بتعميم اسمهم على أرض كنعان، وهو المتكرر الذى نقرأه فى سفر يشوع مشيراً إلى المدن الفلسطينية الخمس على ساحل كنعان، حيث يقول:

من الشيجور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون
شمالاً تحسب للكنعانيين، **أقطاب الفلسطينيين الخمسة:**
الغزى والأشدودى والأشكلونى والحثى والعقرونى/
يشوع ١٣/٣.

وعندما استقر الإسرائيليون فى أرض كنعان، ولم يتمكنوا أبداً من القضاء على الفلسطينيين، بل عاشوا إلى جوارهم وظلوا طوال الوقت فى حروب معهم، وهو ما اعتبره الكتاب المقدس امتحاناً من الرب لشعبه حيث يقول:

فهؤلاء هم الأمم التى تركهم الرب ليمتحن بهم
إسرائيل.. **أقطاب الفلسطينيين الخمسة،** وجميع
الكنعانيين والصيدونيين والحويين/ قضاة ١/٣٥ - ٣.

(٧) مرعى عبد الرحمن: الإمبريالية اليهودية .. سبق ذكره، ص ١٤.

وعن أصل هؤلاء الفلسطينيين يشير الكتاب المقدس إلى جزيرة كريت باعتبارها موطنًا أصيلاً هاجروا منه إلى الساحل الكنعاني، وقد أطلقت التوراة على جزيرة كريت اسم كفتور على التبادل مع اسم كريت، وهو ما نجده في متفرقات الأسفار في نماذج منها:

الرب يهلك الفلسطينيين بقية جزيرة كفتور

أرميا ٤٧ / ٤

ألستم لى كبنى الكوشيين بابنى إسرائيل ؟ يقول الرب،
ألم أصعد إسرائيل من مصر، والفلسطينيين من كفتور
والأراميين من (ربما كانت قير هي قيرقيزيا الآن /
المؤلف) قير / عاموس ٧/٩.

أما كيف سكن الفلسطينيون في فلسطين، فهو ما يوضحه نص التوراة:

والعويون الساكنون في القرى إلى غزة، أبادهم
الكفتوريون الذين خرجوا من كفتور وسكنوا مكانهم
تثنية ٢٣/٢.

ثم نفهم أن (كفتور) هي (كريت) من شرائح نصوص أخرى مبعثرة نجعلها لنسمعها توضح:

هكذا قال السيد الرب: هأنذا أمد يدي على
الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين، وأهلك بقية ساحل
البحر

حزقيال ٢٥ / ١٦

ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين كلمة الرب
عليكم يا كنعان أرض الفلسطينيين. إنى أخربك بلا
ساكن ويكون ساحل البحر مرعى بآبار للرعاة،
وحظائر للغنم. ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا.

صفنيا ٢ / ٤ - ٧

وفى حديث لغلان مصرى - تابع لرجل عماليقي - مع داود يحدثه عن غزوة عماليقية على جنوب
فلسطين، يقول:

فإننا قد غزونا على جنوبى الكريتيين وعلى ما ليهوذا.

صموئيل أول ١٤/٣٠

ومن الجدير بالذكر أن السجلات المصرية قد سجلت مجئ " رؤساء بلاد الكفيتو Keftiu وجزر البحر " ليقدّموا لرمسيس الثالث الخضوع^(٨).

والآن تبدأ المشكلة بالظهور، وهي المشكلة التي تجعلك تقف مشدوها من مدى تساهل أهل التاريخ في حل الإشكاليات الكبرى أحياناً، وإغماض العين عنها أحياناً أخرى، حتى تظهر حقائق جديدة تحسم الأمر. ووجه الإشكال هنا هو أن خروج الإسرائيليين من مصر، يحتمل أن يكون قد حدث في أي زمن خلال الأسرة الثامنة عشرة التي تبدأ بأحمس ١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م بطل التحرير، لكنها لا يمكن بأى حال أن تكون بعد زمن مرنبتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م لحسابات دقيقة قدمنا بعضها وسيأتى بعضها الآخر في مكانه من هذا البحث. وهذا يعنى أننا حتى لو أخذنا بآخر التوقعات الافتراضية وأكثرها تأخراً فى الزمن، لخروج الإسرائيليين من مصر أى زمن الفرعون مرنبتاح، فإن معنى ذلك أنهم قد خرجوا بينما الفلسطينيين لم يستقروا بعد فى فلسطين، حيث أن هذا الاستقرار لم يحدث حسب قرار المؤرخين قبل زمن رمسيس الثالث ١١٨٢ - ١١٥١، الذى يأتى بعد زمن مرنبتاح بحوالى ثلاثين عاماً، ولو افترضنا أن الفلسطينيين قد استقروا هناك زمن مرنبتاح، فإن هذا الاستقرار ما كان يسمح لهم بكل تلك القوة خلال ثلاثين عاماً، وما كان ممكناً أن يمنح كنعان جميعاً اسم فلسطين. ناهيك عن كون استقرارهم فى فلسطين زمن مرنبتاح يعنى صلحاً قد حدث بين مصر وبينهم، أقطعتهم مصر بموجبه الساحل الفلسطينى، وهو الأمر الذى سيتضارب مع الهجوم البلستى الكبير على مصر والذى حدث بعد ذلك زمن الفرعون رمسيس الثالث قادماً من البحر الإيجي.

أما ما يحسم الأمر فهو أنه زمن البطرك إبراهيم نفسه حوالى ١٧٠٠ ق م، قبل الخروج بخمسة قرون كاملة - بحسابات التوراة العبرية - نجد الكتاب المقدس يحدثنا عن وجود فلسطينى فى المنطقة، وهو ما يستفاد من رواية ذلك المقدس عن زيارة قام بها البطرك إبراهيم وزوجته سارة إلى مصر، وأنه عند خروجه منها عرج على مملكة باسم جرار، لينزل ضيفاً على ملكها، وهو ما يأتى به النص يقول:

وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن
بين قادش وشور وتغرب فى جرار، وقال إبراهيم عن
سارة امرأته: هى أختى، فأرسل أبيعالك ملك جرار
وأخذ سارة

تكوين ١٢/٢٠ - ٢.

وقد ظل ذلك الملك (أبيعالك) ملكاً أيام إسحق ابن إبراهيم، حيث حدثت مجاعة فذهب إسحق لينزل ضيفاً على أبيعالك ملك جرار، فى قصة توراتية تقول لنا أن أبيعالك هذا كان ملكاً على فلسطين.

وكان فى الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان
أيام إبراهيم، فذهب إسحق إلى أبيعالك ملك

(٨) شتندورف وسبيل: عندما حكمت.. سبق ذكره، ص ١٣٢.

الفلسطينيين إلى جرار.. فأقام إسحق فى جرار..
وزرع إسحق فى تلك الأرض، فأصاب فى تلك السنة
مئة ضعف، وباركه الرب فتعاضم الرجل وكان
يتزايد فى التعاضم حتى صار

عظيماً جداً، فكان له مواش من الغنم ومواش من
البقر وعبيد كثيرون، فحسده الفلسطينيون.

تكوين ١/٢٦ - ١٤.

وهو الأمر الذى يعنى أن الفلسطينيين كانوا موجودين بالمنطقة زمن إبراهيم ولكنهم لم يكونوا
عنصراً واضح القوة كبقية العناصر التى غلب عليها زمن إبراهيم كالعنصر الحيثى سيد الأرض ومالكها،
حيث رأينا كيف سجد البطرك إبراهيم للحيثيين ليشتري منهم قبراً لسارة. كما لا نجد إشارات لممالك
الفلسطينيين الخمسة إلا زمن الخروج، وهو ما يعنى وجوداً ابتدائياً للفلسطينيين ممثلاً فى مملكة واحدة على
الأقل باسم مملكة جرار زمن إبراهيم ولم تكن الممالك الفلسطينية الخمس قد ظهرت على ساحل فلسطين بعد
فيما يبدو.

وفى بحث سابق أدرجناه بكتابنا (رب الزمان) حاولنا حل المشكلة بالاستناد إلى ما جاء من ذكر للبلست
فى مدونات رسائل تل العمارنة^(٩). والى استند إليها آخرون للقول بفرض غير مؤيد أن أولى هجمات البلست
قد حدثت زمن الملك أمنحتب الثالث ١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م التى كانت توجه إليه والى ولده إخناتون تلك
الرسائل^(١٠). وقد قلت فى حينها باحتمال استقرار البلست فى فلسطين زمن أمنحتب الثالث، استناداً إلى ماورد
عنهم فى سجلات تل العمارنة، فى محاولة لتفسير وجودهم هناك قبل الزمن التاريخى المفترض لهجوم شعب
الجزر على المنطقة، والذى تأتى أجلى صورته وأوضحها زمن رمسيس الثالث. لكننا بتنا الآن مقتنعين برأى
آخر يمكنه أن يحل المشكلة حلاً نموذجياً ويعطينا التوقيت الصحيح لزمن ظهور الفلسطينيين على الساحل
الفلسطينى زمن البطرك إبراهيم فى مملكة جرار وربما قبله بزمن وهو المقبول كما سنرى الآن. ثم تكاثفهم
بعد ذلك فى ممالك خمسة على ساحل المتوسط الشرقى زمن الخروج من مصر بعد إبراهيم بحوالى أربعة
قرون أو خمسة حسب حسابات التوراة العبرية / المازورية التى قالت أن لإسرائيليين قد عاشوا فى مصر
٤٣٠ سنة إضافة إلى عمر إسحق ثم عمر إبراهيم.

أما لو أخذنا بحسابات التوراة السبعونية التى قالت أن بني إسرائيل عاشوا فى مصر ٢٢٥ سنة فقط
وليس ٤٣٠ سنة كما قالت التوراة المازورية، ثم إضافة عمر إبراهيم وولده إسحق. يكون الفارق بين زمن
إبراهيم وزمن الخروج حوالى ٣٠٠ سنة، بفرض أن الخروج قد حدث فى أحدث التوقعات زمن الفرعون

(٩) جاردنر : ممصر الفرعونية .. سبق ذكره، ص ٣١٣.

(١٠) سامى سعيد : الرعامنة .. سبق ذكره، ص ٣٠.

مرنبتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م. وعليه فسيكون الفلسطينيون قد حلوا على الساحل الفلسطيني قبل زمن مرنبتاح بحوالى ٣٠٠ سنة أى حوالى سنة ١٥٢٤ قبل الميلاد وهى ضمن السنوات الأخيرة فى حكم الهكسوس لمصر قبل طردهم منها، والذي بدأ فى أوسع الترحيحات عام ١٧٨٨ ق.م واستمر حتى ١٥٥٠ ق.م وإذا كان زمن إبراهيم قد عاصر مملكة فلسطينية لها ملك ومؤسسة حاكمة بالمنطقة اسمها جرار، فإن هذا يعنى وجوب الرجوع بموعد وصول الفلسطينيين قبل عام ١٥٥٠ ق.م. بعدة سنوات تسمح بقيام هؤلاء الجدد بتأسيس نظام سياسى. ولتكن تلك المدة افتراضا قرن آخر من الزمان. وبذلك يجب أن يكون الفلسطينيون قد تواجدوا فى فلسطين حوالى عام ١٦٥٠ ق.م. إبان حكم الهكسوس لمصر وللمنطقة جميعاً. بل إبان أوج قوة إمبراطورية الهكسوس، فكيف حدث ذلك، وكيف أمكن للفلسطينيين القيام بهذا الغزو الاستيطانى لفلسطين إبان وقوع فلسطين بل وجزر المتوسط التى جاءوا منها تحت حماية دولة الهكسوس الإمبراطورية الكبرى؟

هنا نتذكر عادة شعوب المنطقة القديمة عندما كانت تتوسع فتحتل بلاد شعوب أخرى. كان المصريون يأتون من البلاد المفتوحة بنخبة أهلها إلى مصر، ويربى أمراؤها فى مصر على طاعة الفرعون وعلى الثقافة المصرية، وهو ذات ما كان يفعله الآشوريون وأشهره ما فعلوه مع مملكة إسرائيل الشمالية عندما نقلوا عشرة أسباط إلى بلاد آشور. وهو ما فعله البابليون مع مملكة يهوذا، وهو بالضبط ما نراه قد فعلته إمبراطورية الهكسوس التى زادت على ذلك بنقلها شعوبا بكاملها من مواطنها إلى أوطان أخرى. فنقلت سكان الجزر المتوسطية إلى ساحل فلسطين. لكن هذا النقل عادة ما يكون لأهداف ومصالح، فينقل الشباب ليحلوا فى جيوش المحتل ويصبحون من عناصره، والصناع المتميزون وبخاصة الحدادين مصانع ذلك الزمان الحربية. ولذلك نفهم سر الظهور الفلسطينى القوى على الساحل، فقد ظهوروا فجأة وأقوياء ومسلحين تسليحا حديديا متميزا. وهذا بالضبط ما كان يفعله أباطرة مثل تحتشمس الثالث ونبوخذ نصر الكلدانى وأشور ناصر بال الآشورى وغيرهم من الأمثلة - فى التاريخ - كثير.

وبالإضافة لنماذج حوادث الانتقال الإجبارى للشعوب التى وردت بالكتاب المقدس، فإن نصوص التاريخ الأركيولوجية تؤكد هذا المعنى، فمثلا يقول سرجون الثانى الآشورى فى نصوصه التى دونها تسجيلا لحدث فتحه السامرة عاصمة مملكة إسرائيل:

لقد حاصرت السامرة وفتحتها وجلوت ٢٧٢٩٠ من
سكانها، وجهزت من بينهم فصيلة بخمسين عربية
ضممتها إلى فيلقى الملكى. أما المدينة فقد أعدت
بناها بأفضل مما كانت، وأسكنت فيها شعوبا من
المناطق الأخرى التى قهرتها، ثم أقمت عليهم ضابطا
من لدنى حاكماً عليهم. وفرضت عليه جزية
الآشوريين^(١١).

(١١) السواح: الحدث.. سبق ذكره، ص ١١٠.

وهو الأمر الذى طابقه الكتاب المقدس إذ يقول:

وسبى ملك آشور إسرائيل إلى آشور. ووضعهم فى
حلج وخابور ونهر جوزان وفى مدن مادی.

ملوك ثانى - ٢٤/١٧

ويستمر المقدس التوراتى شارحا:

واتى ملك آشور بقوم من مدن بابل وكوت وعوا
وحماة وسفراويم، وأسكنهم فى مدن السامرة عوضا
عن بنى إسرائيل. فامتلكوا السامرة وسكنوا فى مدنها.

ملوك ثانى ٢٤/١٧

ويعقب (فراس السواح) بالقول : " ولم تطبق سياسة التهجير هذه على أهل السامرة فحسب، بل شملت شعوبا عديدة منها شعب مملكة حماة ومملكة قرقميش " (١٢). وهو ما يؤكد نص ذات الملك وهو يقول : " أما أهل المدينة ممن ثاروا معه فقد سقتهم أسرى إلى آشور .. ثم أحللت فى كركميش سكانا من آشور " (١٣).

وهكذا فيما نعتقد وبنفس الأسلوب كان انتقال البلست من كفتور إلى كنعان، وهو الأمر الذى ما كان يمكننا تفسيره تفسيراً مقنعا قبل بحثنا هذا عن إمبراطورية الهكسوس الكبرى. وسيتبع ذلك باليقين عدة نتائج ترتبط بالأحداث ارتباطاً مزيجا، لأن معنى ذلك أن إبراهيم قد زار مصر زمن الحكم الهكسوسى لأنه خرج من مصر إلى وجود فلسطينى فى مملكة جرار وكان تواجد الفلسطينيين فى جرار ملازما لوجود الهكسوس فى مصر. وسيكون يوسف وأسرة يعقوب جميعا قد دخلت مصر زمن الهكسوس. وهو ما يفسر لنا كيف أمكن لراع بدوى أن يحصل على جارية مصرية (هاجر)، بينما المصريون يرون البدوى رجس ونجس يجب اجتنابه. وهو ما أكدته التوراة ذاتها عند ما حكى عن الوليمة التى أقامها يوسف وهو وزير لخزانة فرعون لإخوته، عندما التقاهم بعد بعاد طويل، فتقول:

وقال قدموا طعاما. فقدموا له وحده، ولهم وحدهم،
لأن المصريين لا يقدر أن يأكلوا طعاما مع
العبرانيين لأنه رجس عند المصريين

تكوين ٤٣ / ٣١ ، ٣٢

(١٢) نفسه: ص ١١١.

(١٣) الموضع نفسه.

وعندما عرض يوسف إخوته على الفرعون منحهم مكانا يسكنون فيه بعيداً عن مساكن المصريين، أو بنص التوراة:

لكي تسكنوا في أرض جاسان لأن كل راعي غنم
رجس للمصريين.

تكوين ٤٦ / ٣٤

والعجيب أيضاً أن يطلب يوسف من أشقائه وهو يقدمهم إلى الفرعون أن يقرروا بصفاتهم كرهاة ويعلنوها :

ثم قال يوسف لآخوته ولبييت أبيه: أصدع وأخبر الفرعون وأقول له إخوتي وبييت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إلي. والرجال رعاة غنم فإنهم كانوا أهل مواشى وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ماصناعتكم أن تقولوا: عبيدك أهل مواشى.

تكوين ٤٦ / ٣١ - ٣٤

ويعقب الباحث مظفر نادوثي على إصرار يوسف على إعلان بدوية ورعوية أهله للفرعون مع علمه بكراهية المصريين الشديدة للبدو والرعاة، يحمل دلالة علاقة ما بين ملوك مصر في ذلك العهد وبين العبرانيين^(١٤).

وتتناقض قصة حصول إبراهيم على جارية مصرية مع أمثلة واضحة للقانون المصري بهذا الشأن، ومنها تلك الحادثة الطريفة التي يرويها لنا شتيندورف وهو يقول:

كانت العلاقات بين مصر والدولتين الكبيرتين في دجلة والفرات آشور وبابل قائمة على أسس متشابهة كما يبدو ذلك من سلسلة أخرى من الألواح المسمارية التي عثر عليها في العمارنة. وكان تبادل الرسائل نشيطا بصفة خاصة مع ملكي بابل كادشمان إنليل وبورنا بورياش (لاحظ أفريقية تلك الأسماء/ المؤلف). ولكن الرسائل التي في حوزتنا من هذين الحاكمين مصاغة بلهجة أكثر قوة وإحساسا بالذات من تلك الصادرة من بلاط ميتاني. وتدل على أن ملوك هذه الإمبراطورية

(١٤) مظفر نادوثي: جغرافية القرآن، سبق ذكره ، ص ٥٤.

العظيمة القوية كانوا يعتبرون أنفسهم أكفاء على الأقل للفرعون. فمثلاً لم يجرؤ أحد حكام ميتاني أن يطلب يد أميرة مصرية، وكان الأمر على عكس ذلك مع البابليين، فعندما طلب أمنتب الثالث ابنة كادشمان إنليل ليضمها إلى حريمه، أعطيت له بدون تردد ولكنه فى نفس الوقت ووجه بطلب مقابل بأن يرسل أميرة مصرية إلى بابل، وقد رفض هذا الاقتراح غير المعقول باعتباره منافياً لكل التقاليد. ولكن كادشمان إنليل رد على أخيه رداً منطقياً متماسكاً فى خطاب آخر: إنك يا أخى كتبت لى بأنك لن تسمح لابنتك بالزواج منى قائلًا: إنه لم يحدث أن أعطيت ابن ملك مصرى لأحد من قبل !! دعنى أسألك لماذا؟ إنك أنت الملك ومشئيتك نافذة، فإذا كنت راغباً فى إرسالها فمن ذا الذى يعترض؟ ثم يمضى بسذاجة قائلًا: إنه سوف يقتنع بأية امرأة جميلة أخرى إذ يمكنه أن يدعى أنها ابنة الملك ولن يجرؤ أحد على تكذيبه لكن إذا كنت من حيث المبدأ ترفض أن ترسل لى أحداً على الإطلاق فأنت لا تأخذ الأخوة والصدقة بعين الاعتبار^(١٥).

وحتى إبان سقوط القوى المصرية وانحطاطها ظل المصرى يحافظ على هذا التقليد المقدس، فيخبرنا هيرودت أنه عندما ألح الملك الفارسى قمبيز ملك العالم آنذاك فى طلب الزواج من ابنة الفرعون زمن تدهور مصر الحضارى والسياسى والعسكرى اختار الفرعون لملك العالم فتاة من خادمت البلاط وأرسلها لقمبيز على أنها ابنته وعندما اكتشفت قمبيز ذلك اتخذها ذريعة لغزو مصر^(١٦).

وفق هذا كله لا يمكن تصور أن فرعوناً مصرياً يمنح راعياً بدوياً جارية مصرية وهو أشد عناصر البشر نجاسة فى القانون المصرى. إن الحل الأوحدهو أن يكون إبراهيم قد دخل مصر على ذوى قرابته وحلفه، لقد كان الحاكم على مصر زمن إبراهيم هكسوسيا ولم يكن أبداً مصرياً.

والتوراة تقول إن إبراهيم أنجب من هاجر المصرية ولده البكر إسماعيل ثم أن إسماعيل نفسه سار على درب أبيه فتزوج مصرية " وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر/ تكوين ٢١ / ٢٢ ".

(١٥) شتيندورف وسبيل: عندما حكمت.. سبق ذكره، ص ١٣١.

(١٦) إيفانز هيرودوت .. سبق ذكره، ص ١٩٥، ١٩٤. وقد أورد جوردون تفصيل تلك القاعدة المقدسة ببحث واف فى

Gordon, The Eminent Near East, Norton, New York, ١٩٦٥, pp ٩٠-٩١

لكن لأن للتاريخ مساربه وتواصلاته عبر ذكريات عادة ما تكون غائمة أو منزوية، فإن الحدث يجد له منفذا كما عند المؤرخ هروشيوش الذى قام يردد ذكريات القرون الغواير، ويخالف التوراة مخالفة شديدة حسب الفهم السائد، بينما يتفق معها أشد الاتفاق حسب رؤيتنا لأحداث ذلك الزمان فهو يقول عن إبراهيم:

وولد له إسماعيل من جاريته **العلاقة** ، وتزوج
إسماعيل امرأة من **العماليق** ، فولدت له اثنى
عشر ولداً^(١٧).

وحيث نعلم أن إسماعيل هو ابن هاجر فمعنى ذلك أن هاجر لم تكن مصرية إنما (علاقة) وأن زواج البدو العبران من أرض مصر لم يكن من مصريات بل من علاقات هكسوسيات. وهو الأمر الذى وجد منفذه ليصل إلى مؤرخينا الإخباريين القدامى ليدونوه بدورهم، فيحكى المسعودى:

تفرق **العماليق** بعد أن أقحط الشحر واليمن
فتزوج إسماعيل منهم^(١٨).

كذلك كان يعلم ذات الخبر راوى السيرة بن هشام الذى أكد أن العماليق وليس المصريين كانوا أحوال اسماعيل وذلك فى قوله:

إن اسماعيل نبي مرسل أرسله الله إلى أحواله
من جرهم **والعماليق**^(١٩).

وهو المعنى الذى دونه الثعلبى يقول:

ثم نبأ الله إسماعيل فبعثه إلى **العماليق** وقبائل
اليمن^(٢٠).

وهو الخبر الذى يجمع الكثير لتأييدنا **فالعماليق** فى مصر وسيناء، وكان إسماعيل مبعوثا إليهم وإلى قبائل اليمن. لقد كانت بذلك قبائل اليمن فى ذات الجوار. بسيناء وآدم وكذلك بمصر ضمن **العماليق** أو الهكسوس إن نظريتنا تلتقي مع أحداث كان يتم التعامل معها بحسبانها أو هام أهل السير والأخبار، بل وتفسرها وتضعها فى تناغم واضح مع سياقها التاريخي.

وهكذا فإن الهجمة التى حدثت فى زمن مرنبتاح، وتلاها هجوم أعظم زمن رمسيس الثالث لم تكن هجمة الفلسطينيين من كريت التى احتلوا بموجبها ساحل فلسطين، إنما مجموعات خرجت من الجزر اليونانية

(١٧) أورسيوس: تاريخ العالم.. سبق ذكره، ص ٩٢.

(١٨) المسعودى: مروج الذهب .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٦، ٤٧.

(١٩) السهيلي: شرح سيرة ابن هشام.. سبق ذكره، ج ١، ص ١٧.

(٢٠) الثعلبى: عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص ١٠٠.

حملت أسماء شعوب عديدة كالشاكروشا والثر والدانونا والواشاشا والبست وهم الذين عرفهم التاريخ باسم الشعوب الآخية، وهى الهجمة الكبرى التى أسقطت الحضارة الحيثية وأزالتها من التاريخ. وكان الخلط يتم دوما بين حركة الآخيين الكبرى وبين وجود البست على الساحل الفلسطينى بدمج مبتسر ومتكلف لإيجاد تفسير لظهور الكريتيين البست على ساحل فلسطين، فى زمن كانت فيه مصر قد أصبحت إمبراطورية قوية لن تسمح بهذا الاستقرار لمهزومين - كما يقولون - فى أراض تابعة لها. بينما التوراة قد أكدت وجودهم هناك قبل تحديد المؤرخين بثلاثة قرون على الأقل. وكان هذا الاستيطان المبكر للفلسطينيين أمراً غامضاً لم يأت بشأنه مدون واضح يحدد موعد بدئه، لأنه ببساطة حدث زمن الهكسوس الذى لم يترك لنا شيئاً مدوناً يعول عليه. وهو الزمن الذى أسدل عليه المصريون ستاراً من النسيان فلم يدونوا عنه وقرروا نسيانه ولم يعودوا يذكرونه كأنه لم يكن.

وفى تلك الأثناء، وفى فترة الظلام الهكسوسى نعتقد وفق ما طرحناه، أنه قد حدث الحدث وتم نقل الكريتيين إلى الساحل الفلسطينى ليفاجئونا - عند ما يرفع الستار مرة أخرى ويبدأ التدوين بعد طرد الهكسوس من مصر - بوجودهم هناك قبل أى تواجد للعبريين أو من ذكرهم التاريخ باسم بنى إسرائيل، وهم شعب غريب تماماً عن المنطقة، جاءها وافداً مستوطناً، وهذا أمر آخر يحتاج إلى جهد آخر ومبحث جديد.

لغز الخابيرو

حول زمن خروج الإسرائيليين من مصر سيقّت عدة نظريات وفروض كان أولها تلك النظرية العتيقة، وتعد أول النظريات التي وضعت بهذا الشأن وهى نظرية المؤرخ اليهودى يوسفوس، والتي اعتمد فيها على تاريخ مانيتون المصرى ٢٨٢ ق.م. وقد زعم يوسفوس فى نظريته أن بنى إسرائيل كانوا هم حكام مصر باسم الهكسوس، إلا أن هذه النظرية لم تعد تلقى اليوم قبولا عند علماء التاريخ أو عند علماء نقد التوراة، حيث تواترت حديثاً نظريات علمية جديدة بدأت بالظهور تباعاً بعد فك رموز الهيروغليفية المصرية، وما تبعها من كشف أركيولوجية متتابعة. ووضعت فروض تزمن هذا الخروج فى مساحة تقع مابين ثلاث قرون أو أقل تقع ما بين زمن الفرعونة حتشبسوت ١٤٩٠ - ١٤٦٠ ق.م وزمن الفرعون مرنبتاح حوالى ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م، لكن ليس قبل ولا بعد، إنما تدور جميعاً بين فراعين حكموا بين هذين المُدتين ١٤٩٠ - ١٢١٤ ق.م.

وقد ذهبت مدرسة جارسنانج إلى القول بأن الخروج قد حدث زمن الفرعونة حتشبسوت، وذهب آخرون إلى تزمينه بزمن الفرعون الفاتح تحتمس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م، بينما أرجأه آخرون إلى زمن الفرعون مرنبتاح ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق.م. ويعد هذا الرأى الأخير هو الرأى السائد والمستقر الآن ويستمد قوته من اعتماده على وثيقة أركيولوجية واضحة تتمثل فى لوح مرنبتاح الذى ذكر اسم إسرائيل لأول مرة ولآخر مرة فيما اكتشف من آثار مصرية حتى الآن. ويقول فيه الفرعون إنه قد اباد إسرائيل ولم يبق لهذا بذر أى نسل أو أثر. ولأن فترة حكم هذا الفرعون لم تتجاوز عشر سنوات تسمح بكل الأحداث التى رواها سفر الخروج بالتوراة، فقد افترض أصحاب تلك النظرية أن الأحداث الكبرى المروية بالتوراة وما رافقها من اضطهاد الإسرائيليين فى مدينتين باسم (رعمسيس) و (فيثوم) إنما تعود إلى زمن أبيه رمسيس الثانى ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م. بحيث يصبح رمسيس الثانى فرعون الاضطهاد وصاحب مدينة الاضطهاد التى حملت اسمه، اما الخروج فيكون قد حدث زمن ولده مرنبتاح صاحب لوح إسرائيل المشهور.

وكان علم التاريخ قد استقر على أن العبرانيين قد سجلوا اسمهم فى التاريخ ووثائقه بعد أن ورد اسمهم فى التاريخ ووثائقه بصيغ مختلفة للدلالة على أناس بعينهم فى كل مدونات منطقة المتوسط الشرقى، على اختلاف التنعيم ما بين: عابيرو، خابيرو، خابيرى، حابيرى، حبراي، هبر، عفر، عفرم، حبرى. لكن تزمين الخروج بزمن مرنبتاح كان يعنى لهؤلاء المؤرخين خسارة كبرى اضطروا معها للتنازل عن كون تلك الأسماء المتعددة تشير إلى عبريى التوراة الإسرائيليين، لأن تاريخ تدوين هذه الأسماء للخابيرو لن يلتقى زمنياً مع العبريين الذين خرجوا من مصر، ولمعرفة السبب وراء ذلك نحن هنا بحاجة إلى بعض التفصيل.

كان أول ظهور للصفة (عبرى) عندما استخدمها سفر التكوين بالكتاب المقدس لوصف البطرك إبراهيم. ثم وردت كلمة (عبرانيون) لوصف الإسرائيليين الذين كانوا يعيشون بمصر، ثم وصفوا بذات الصفة

بعد خروجهم من مصر ودخولهم فلسطين. إلا أن الملاحظ أن تلك الصفة كانت تستخدم عند ورودها لتمييزهم جنسياً عن أصحاب الأرض وأهلها، وهو ما حدث في قصة يوسف عند نزوله مصر لتمييز الإسرائيليين عن المصريين، وكذلك تكرر ذات الأمر في قصة موسى بمصر، ثم في قصة أول ملك إسرائيلي (شاول) لتمييز الإسرائيليين عن سكان فلسطين. ثم اختفت صفة عبري مدة طويلة لتظهر بعد ذلك في سفر صموئيل أول وفي سفر يونان.

وقد تواترت الكشف الأركيولوجية بأخبارها عن الـ (خا - في رو) في النصوص المسمارية الكاشية أو الكوشية أو الكاسية، والـ (ع ف ر م) في نصوص أوغاريت، والـ (خ ا ب ي ر و) في رسائل تل العمارنة، والـ (ع ف ر) في نصوص مصرية أخرى، و (خ ب ي رو) في نصوص نوزي بأعلى الفرات ضمن مملكة ميتاني المزعوم وقوعها هناك^(١).

وفي الفترة ما بين نهاية القرن الخامس عشر ومنتصف القرن الرابع عشر ق.م. أفادت رسائل العمارنة القادمة من ملوك كنعان ومحيطها أن جماعات باسم (الخابيرو) و (الساجاز) تهدد العديد من الممالك الفلسطينية سواء في الشمال أو الجنوب^(٢). وإذا كان الخابيرو قد كانوا باسمهم المتواتر في وثائق المنطقة جميعاً، هم اللقية العظيمة للمؤرخين، على اعتبار أنها إشارة إلى العبريين فقد اضطروا للتنازل عن هذه اللقية إزاء الاتفاق على أن الخروج قد حدث زمن مرتبات، أما الساجاز فهي كلمة تعني القتلة، ويوصفوا بأنهم (قاطعوا الرقاب) أو (قاطعوا الرؤوس) وقد ظلوا مجهولين تماماً، كما ظلت كلمة (ساجاز) مجرد صفة أطلقت على بعض الهكسوس لوحشيتهم^(٣).

وللمزيد بشأن الخابيرو والساجاز نقرأ: "تفيد العديد من النقوش القديمة المؤرخة ابتداءً من الألف الثانية قبل الميلاد بوجود مجموعات من النصوص وقطاع الطرق والمرتزة. في المشرق العربي، كانت تعيش على هامش المجتمع، وقد عرفت هذه المجتمعات في النقوش السومرية العائدة للفترة الواقعة بين الأعوام ٢٠٥٠ - ١٩٣٠ و ٩٣٠ - ١٦٩٧ ق.م باسم (س.ع.ج.ع.ز) .. ومن أهل الاختصاص من يرى أن الاسم السومري (س.ع.ج.ع.ز) مشتق من المفردة الأكادية (شجج.ع.شو) بمعنى قتل، كما قرئ الاسم أحياناً (خب.ع.تو) بمعنى لصوص وبدو رحل. وبمقارنة قوائم الآلهة الحثية وقائمة الضرائب الأوغاريتية أقتنع أهل الاختصاص بأن المجموعات التي عرفت بالاسم السومري (س.ع.ج.ع.ز) هي نفسها المشار إليها بالاسم الأكادي خفيرو (خ.ع.في.رو) و (خ.ع.عب.بي.ري) .. وهناك اتجاه .. يرى أن الاسم خبيرو مشتق من المفردة خبر بمعنى يربط أو يوصل أو من المفردة عبر بما يعنى أن المقصود (خبريم) أي المتحالفين أو (خبريم) بمعنى البدو المتنقلين، ويرى اتجاه آخر أن المعنى الصحيح للاسم عفر هو (مغبرين)، وانطلاقاً من حقيقة أن البدو أي العرب في حالة ترحل مستمرة، فقد أول ممثلو هذا الاتجاه المعنى ليشير إلى بدور حل. ومن الجدير بالذكر أنه تمت قراءة الاسم بصيغته الأخيرة في نصوص مملكة ماري

(١) كمال الصليبي: التوراة جاءت .. سبق ذكره، ص ١٣٦.

(٢) أحمد عثمان: تاريخ اليهود .. سبق ذكره، ج ١، ص ١٢.

العائدة للنصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، والتي فهم منها أن المقصود بذلك مرتزقة أو عصابات تعيش من نهب المدن. ويعود الخفيرو للظهور من جديد فى نصوص عديدة تعود إلى مملكة الالاح حيث يسجل النص المؤرخ فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد توقيعهم لاتفاقية سلام مع حكام تلك المملكة، بما يظهر أنهم شكلوا حينئذ قوة عسكرية هامة ومستقلة. كما يعود الخفيرو للظهور من جديد فى نصوص هذه المملكة ذاتها والعائدة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهذه المرة يظهرهم كقوة عسكرية متمركزة فى المدن حيث عرف أن بعضاً منهم كان ينتمى الى طبقة الكهنة ويتم مدحهم فى نص ثالث لاستضافتهم الملك المعزول إدرمى.

أما النصوص العائدة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد التى عثر عليها فى مدينة نوزى الواقعة فى القطر العراقى فتظهر أن الخفيرو وضعوا انفسهم كأشخاص أو مجموعات بتصرف الدولة كمرتزقة وخدم بينما تثبت وثائق أخرى أنهم كانوا رقيقاً وظفوا فى الخدمة المنزلية. [نتذكر هنا ما حدث لىوسف وعمله الأول كخادم منزل فى بيت رئيس الجند المصرى / المؤلف].

وتعود هذه المجموعات للظهور من جديد فى رسائل تل العمارنة العائدة للنصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م. بصيغة (س.ء. ج.ء ز) .

ويرى أهل الاختصاص أن تلك الوثائق تظهر تشكيلهم من أمراء وسكان مدن أى أنهم أصبحوا من أهل الحواضر، وكما تبين تلك الرسائل أن تلك المجموعات والتى رأى فيها أهل الاختصاص نفس خفيرو النصوص الأكادية، أنهم لم يكونوا متمردين فحسب وإنما وظفوا أيضاً كمحاربين مرتزقة مما جعل كاتى الرسائل ينعنونهم بصفة: كلب، وكلاب ضالة. أما النقوش الحيثية فتشير إلى (س.ء. ج.ء ز) كمجموعة طبقية صنفت ما بين النبلاء والعامة.

كما عثر على إشارة لعفروم فى النصوص الأوغاريتية، فهم أن المقصود بها جماعات مستقرة المسكن تدفع الضرائب، وأن رئيسهم الموصوف برب عفروم كان يتمتع بموقع محدد فى إدارة المملكة. وتسجل النقوش المصرية العائدة للفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثانى عشر ق.م. وجود مجموعة مشابهة من السكان المحليين فى فلسطين أطلق عايتها اسم (عفرو) كجماعة من الرقيق والعمال الاسرى، وقد سجل الأثر المسمى نقش آمنوفيس [لوح مرنبتاح/ إسرائيل/ المؤلف] أخذ ذلك الملك المصرى مجموعات من ال (عفرو) كأسرى وإحضارهم إلى مصر " (٣).

ولفترة من الزمن تم الاعتقاد أن هذه الإصطلاحات على مختلف تنغيماتها تشير إلى العبريين بمعنى الإسرائيليين تحدياً كمجموعة قبلية عرفت فى التوراة باسم (عبريم)، وهو الاسم الذى تكرر بالكتاب المقدس ٣٤ مرة. وأنه فى عرف تلك المدرسة التى تربط بين خابيرو التاريخ وبين عبريى الكتاب المقدس، اسم يشير الى مجموعة جنسية إثنية محددة انتسبت حسب قول الكتاب المقدس إلى جد بعيد باسم عابر. خاصة أن

(٣) زياد منى: جغرافية الجذور .. سبق ذكره، ص ٧٣ : ٧٥.

التوراة تصف أرومة الإسرائيليين إبراهيم الخليل بأنه (عبرم هـ عبرى) أو إبرام العبرى في سفر التكوين ١٣/١٤. لكن الطريف أن النسخة السبعونية من التوراة قد سجلت مصطلح عبرى ٢٨ مرة فقط بفارق ست مرات عن النسخة المازورية، لأنه في تلك المرات الست كان يفهم أن عبريم تعنى عبيد أو عبيد، أو تعنى مجرد بدو أو مارة أو عابرين " (٤).

ويقول (إيفارلسنر): " إن اليهود شعب سامى شأنهم شأن البابليين والفينيقيين والعرب، عاشوا فى فلسطين فى الأزمنة الغابرة، كما أنهم فى الأصل بدو يعرفون بالعبرانيين " ويعقب على كلامه مترجم كتابه الى العربية فيقول: " ظن بعض الباحثين ومنهم مؤلف هذا الكتاب أن الاسم (عبر) هو نفسه الذى وجد منقوشا فى لوحات تل العمارنة .. وفى الكتابة المسمارية بلفظ حابيرى أو خابيرى. وقد تكررت هذه التسمية فى بعض كتابات الكشيين المسمارية البابلية فى العراق، وفى نقوش حيثية عثر عليها فى بوغازكوى بتركيا، كما وردت فى بعض نقوش أمورية فى حفائر نوزى بشمال العراق. لكن المحققين من العلماء يرفضون ارتباط كلمة عبرى بالاسم حابيرى " (٥). وللمزيد من التفاصيل نقرأ النص (No ١٩٠- EA) من رسائل تل العمارنة وهو عبارة عن رسالة من حاكم أورشليم إلى سيده آمنحتب الثالث أو ربما إلى ولده آمنحتب الرابع إخناتون، يقول فيها: إلى الملك مولاي

هكذا يقول خادمك عبد خيبا (عبد هفا):

انظر إلى ما فعله ملك إيلو Milki Lu وشوارداتا Shuwardata بأراضى الملك مولاي؟

لقد فعلوا بقوات من جازر Gezer ومن جت Geth ومن كيلة Keilah وأخذوا أراضى روبوتو Rubutu . وأراضى الملك سلمت الى شعب العابيرو. حتى بلدة فى

(٤) نفسه : ص ٧٧ .

(٥) إيفارلسنر: الماضى الحى .. سبق ذكره، ص ١٣٨. (تعقيب من المترجم).

أراضى أورشليم من أملاك سيدى اسمها بيت لحم Bit-
Lahm وقد أعطيت إلى كيله.

فليصغ ملكى لخادمة عبد خيبا ويرسل قوات تعيد
الأراضى الملكية لخادمة عبد خيبا ويرسل قوات تعيد
الأراضى الملكية إلى الملك.
وإذا لم تصل القوات.

فإن أراضى الملك ستغدو للعابيرو^(٦).

ومن جانبه يؤكد لنا (أحمد سوسة) أنه قد تم العثور حتى الآن على ست رسائل استغاثة موجهة الى
فرعون العمارنة، موجهة إليه من (عبد خيبا) وإليه على أورشليم^(٧). ونعلم بعد ذلك أن هؤلاء العابيرو ظلوا
يهاجمون أملاك مصر فى فلسطين مدة طويلة، حيث تم العثور فى موقع (بيت شان) على نصب تذكارى
تركه سبتى الأول ١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م، ورغم ما لحق النصب من تلف شديد فإنه أمكن الإفادة منه بحدث
هام، هو أن الفرعون قد صد هناك هجمات للعابيرو قادمة عبر نهر الأردن^(٨).

وفى نص من مدينة (الالاخ) بشمالى الرافدين نجد ملكا باسم (إبرم) يعقد اتفاقا مع الخبيرو ليكونوا
جنودا فى جيشه (لاحظ أن إبرم هى إبرام هى إبراهيم). وفى نصوص نوزى جدولة للمرتبات والملابس
التي كانت تصرفها مملكة نوزى للخبيرو، وفى منشور رسمى للملك الحيثى حتوسيل الثالث إعلان عن رفض
المملكة الحيثية لاستقبال الخبيرو الهاربين من أوغاريت^(٩).

ثم يحيطنا (ماكلاستر) علما أن تهديد أملاك مصر فى الشام كان على يد عصابات أرامية عرفت فى
رسائل العمارنة باسم (السوتو و الخبيرو) ويفترض أن قوة ما ضاغطة دفعت أمامها الخبيرو والبولساتى
(البلست/ الفلسطينين) من بلادهم الأصلية ليتجهوا نحو بلاد فلسطين وبوادي الشام، ثم يشرح موضحا مشكلة
الخابيرو والعبريين قائلًا:

وبعيد أن يكون هذان الفريقان من الغزاة واسمهما يكاد
يكون واحداً [يقصد الخابيرو والعبرانيين] - منفصلين
أحدهما عن الآخر تمام الانفصال. وإذا لم يكونا
منفصلين فإن قصة الخبيرو على قدر ما تستخلص من
رسائل تل العمارنة، تضاعف ما يوجه الى قصة

(٦) السواح: الحدث التوراتى .. سبق ذكره، ص ٥٧ .

(٧) أحمد سوسة : العرب واليهود .. سبق ذكره، ص ١٤٩.

(٨) السواح: الحدث .. سبق ذكره، ص ٦٤.

(٩) جارودى: فلسطين أرض .. سبق ذكره، ص ١١٣.

الخروج الواردة بالكتاب المقدس من نقد. فيجب أن نستنتج من الرسائل أن استعمار الخبيرو فلسطين استمر بدون مقاومة تذكر، وأن الكنعانيين اضطروا آخر الأمر .. إلى قبولهم جيرانا ثقلاء لا مفر من جيرتهم.. فإذا كان الأمر كذلك، وإذا قلنا إن العبرانيين من نسل هؤلاء الخبيرو فماذا يكون رأينا في قصة الخروج من مصر؟ (١٠).

ماكلاستر بذلك مثل آخرين يصر على أن العبرانيين بالكتاب المقدس هم ذات الخبيرو بنصوص أركيولوجيا المنطقة.

لكنه سيواجه بذلك مشكلة . . .

فإذا كان العبريون هم الخابيرو فكيف كانوا يهاجمون أملاك مصر في فلسطين زمن العمارنة [أمحتب الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٧ وولده إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠] كما ثبت من رسائل الاستغاثة المرسلة من حكام فلسطين الى ملوك العمارنة؟ وهو وقت يفترض أنهم كانوا لازالوا يقيمون فيه بمصر؟! ولم يكونوا قد خرجوا بعد الى فلسطين، حيث أن زمن مرنبتاح يقع بعد ذلك التاريخ بحوالى قرنين وهو المفترض أن الإسرائيليين/ العبريين قد خرجوا في زمنه من مصر نحو فلسطين.

هنا لا يفارق ماكلاستر ما استقر عليه ضميره العلمى وقرر أن الخطأ بذلك لن يكون في علم التاريخ ووثائقه وما وصل إليه العلماء بتحديد زمن مرنبتاح لحدث الخروج، إنما علينا بالبحث عن الخطأ في القصة التوراتية ذاتها وتزميناتها وربما تسمياتها، وما روته من أحداث حول الخروج.

لكن ما فات ماكلاستر أن هؤلاء المؤرخين أنفسهم الذين اعتمدوا على وثيقة لوح مرنبتاح لتزمين الخروج إبان حكمه على مصر، قد بنوا حكمهم هذا على عنصر توراتى الى جوار العنصر الأركيولوجى بحيث تطابق تزمين التوراة للخروج مع تزمين علماء الآثار والباحثين، وتمت وفق ذلك حسابات تستند الى التوراة كالاتى:

تقول التوراة: " وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت اربعمائة وثلاثين سنة " وذلك منذ دخول يعقوب وأبنائه الأسباط مصر حتى خروج موسى وأتباعه من مدينة رعمسيس، يضاف إليها التواريخ التى وردت فى سفر التكوين بخصوص يوسف تحديداً بعد أن دخل مصر حيث قضى فى السجن عامين، وانقضت سبع سنوات من الخير، وستتان من سنين القحط قبل وصول يعقوب وأولاده الى السبط يوسف فى مصر. وبذلك تكون المدة من دخول يوسف السجن الى خروج موسى ٤٤١ سنة. فإذا أضفنا ٤٤١ سنة إلى

(١٠) ماكلاستر: الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى من تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت،

أوائل حكم مرنبتاح فسيوؤدى بنا ذلك إلى زمن دخول الهكسوس مصر أو بعد غزو الهكسوس بحوالى ١٥ سنة، وإذا طرحنا ٤٤١ عاما من زمن دخول الهكسوس مصر فسيبقى بنا ذلك الى زمن مرنبتاح. وهكذا تمت مطابقة ترمينات التوراة مع ترمينات التاريخ، لكن ظلت المشكلة قائمة: كيف كان العبريون يقومون بغزو فلسطين زمن آمنحتب الثالث والرابع بينما لم يكونوا قد غادروا مصر فعلا زمن مرنبتاح الذى يقع تاريخيا بعد غزوهم فلسطين بحوالى قرنين من الزمان؟

على أية حال علينا الآن أن نتابع ما وصلنا من علم التاريخ بشأن الخابيرو حتى نكون على بينة واضحة، أو نجد ما يفصح عن حل ذلك اللغز المحير.

لقد تأكد تاريخيا أنه فى فترة قصيرة أيام حكم العمارنة تحولت ميثانى عن ولائها لمصر، وأخذ ملكها عبدى شراتا (عبد شرى و(شرى) هو الإله الذى أوضحنا أمره فى مديان وليس فى ميثانى المزعومة أعالى الرافدين) ومن بعده ولده (عزيرو) بالتوسع على حساب أملاك مصر فى فلسطين والشام، وأنهم من أجل ذلك قد دخلوا فى تحالف مع الخابيرو وقاموا بغزو أراضى فى فلسطين^(١١)، وهو ما يلخصه لنا المصروولوجيان (شتيندورف وسييل) فى قولهما:

وإلى الجنوب من فلسطين لم يكن الموقف أفضل من ذلك، فهذه المنطقة أيضاً لم ينقصها الأمراء الشغوفون بانتهاز فرصة الضعف المصرى لنيل استقلالهم أو توسيع ممتلكاتهم الخاصة. ووجدوا حلفاء جاهزين فى الخابيرو والبدو الذين يعرفون باسم سوتى Suti. أما الملحقات الموالية ومنها أورشليم، فقد حاولوا عبثا الحصول على مساعدة البلاط المصرى، وأخذوا يتوسلون الى الملك من أجل " العناية بأراضيه.. كل أراضى الملك قد انفصلت .. الخابيرو يتهبون كل أراضى الملك، إذا لم تأت القوات هذه السنة بالذات فإن كل أراضى الملك سوف تضيع " ولم تصل التعزيزات المطلوبة مطلقاً. واستطاع الخابيرو اجتياح كل ممتلكات الملك بدون عائق، وحل اليوم الذى " ضاعت فيه كل منطقة الفرعون " (١٢).

هذا وبينما يعرض لنا جاردنر غارة (آمنحتب الثانى ١٤٣٦ – ١٤١٣ ق.م.) على فلسطين، يؤكد على إشارة وردت لقبائل باسم عابيرو متحالفة مع أعداء دمرهم (آمنحتب الثانى) باسم شاسو والحوريين، ثم

(١١) شتيندورف وسييل: عندما حكمت .. سيق ذكره، ص ٢١٦ .

(١٢) الموضوع نفسه .

يعقب شارحا للفظه عابيرو: " وقد نوقش هذا المصطلح كثيراً .. فمنذ سنوات قليلة مضت كان هناك من يؤكد أن هؤلاء الأقوام هم أنفسهم العبرانيون في التوراة. لكن هذا الرأي لا يتقبله اليوم سوى قلة من العلماء.. إن الخابيرو الذين جاء ذكرهم في ألواح العمارنة، يبدو أنه اصطلاح شامل، أطلق على المنبوزين أو العصابات التي لا تنتسب إلى أية مجموعة جنسية محددة " (١٣).

وهكذا، وبكل بساطة تم حل مشكلة العابيرو، وإذا كان وجودهم على حدود فلسطين زمن أمنتب الثالث وولده إخناتون سيسبب أرقا ومشكلة، في حال احتسابهم هم ذات الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر، فليكن الحل: إن هؤلاء ليسوا هم أولئك؟ وأن المسألة مجرد تشابه أسماء؟! فإن سألنا: من هم إذن الخابيرو تحديداً إذا لم يكونوا هم العبريين أو الإسرائيليين؟ فإن الإجابة السهلة: هم مجرد شوارد قبائل وشذاذ آفاق وعصابات لا تنتسب لعنصر بشري معروف.. ويصبح الأمر كما لو ان عبري التوراة شعب ذو عنصر بشري معروف، أما الخابيرو فليسوا كذلك، وأنهم ليسوا عبري التوراة؟

لكن ذلك الأمر فيه نظر: لأنه إذا كان الكتاب المقدس قد أوعز بأن الإسرائيليين نسلا عبرانيا وكلاهما واحداً، فإنه في مواضع أخرى يهمس بنتيجة مخالفة تماماً لمن ينقب فيه، وهي أن العبريين ضموا مجموعة قبائل وشعوب متنافرة كانت تنتقل في بداوتها شرقي المتوسط. ومن ثم نراهم من جانبنا عنصراً من عناصر الحلف الهكسوسى القديم، بينما الكتاب المقدس من جانبه تحول بفكرة الحلف الى بديل قرابى، فوضع سلسلة نسب تجمع مجاميع بشرية متنافرة في جماعة واحدة وجنس مميز كما لو كانوا شعباً واحداً من الأزل .

ورغم ان سفر التكوين يضع شخصية أساسية باسم عابر سلفا لكل بنى عابر أو العبريين. ويضع ضمن العبريين شعبا من جنوبى جزيرة العرب هم اليقطنانيين أو القحطانيين الذين أصبحوا يعرفوا بعرب الجنوب العاربة أى الأصلاء فى العروبة، فإنه فى المقاطع ٢١/١٠ - ٢٩ لا يصف يقطان/ قحطان وأبناءه بأنهم عبريون. ولو كان عابر هذا ساميا حقا هو ونسله من بعده لكان وصفه (عابر السامى) نسبة إلى جده سام حسب الشجرة التوراتية، وليس كما وصفه بنسبته إلى أحفاده وتعريفه بأنه " أبو كل بنى عابر ". وهناك حوالى ٢٥ قبيلة أو شعباً احتسبها التوراة من بنى عابر ولم توصف واحدة منها ولو مرة واحدة بأنها عبرية. ونذكر هنا تأكيد هروشيوش أن بلاد آدوم كان يعيش فيها نحو ثمانية وعشرون جنسا، ومن هنا يستنتج زيادمنى " أن النصوص التى تشير الى جد أعلى باسم عابر هى إضافات لاحقة من المحرر التوراتى " (١٤).

ثم يجمع (منى) معانى كلمة (عبر) من مصادر اللسان العربى لينتهى الى أنها تعنى الارتحال مطلقا، فهى " القطع من مكان لآخر، الإبل القوية على السير، الجرى على الأسفار القوى عليها، الكثير من كل شئ وغلب على الجماعة من الناس، السحائب تسير سيرا شديداً " ويعقب: "إن هذه المصطلحات أو المفردات

(١٣) جاردنر: مصر الفرعنة .. سبق ذكره، ص ٢٢٧.

(١٤) زياد منى: جغرافية .. سبق ذكره، ص ٨٢ .

تحمل مضمون الحركة فى معانيها « (١٥)، وهو ما يلتقى تماماً مع ما انتهينا إليه من معانى الاصطلاح المصرى القديم (شاسو) الذى يعنى الارتحال مطلقاً.

ويقرن منى بين العبرى والغبرى ليجمع من المعاجم ما أفاد به علم التاريخ عن أسلوب حياة وعمل الخابيرو فيقول: « تفيد المراجع المتخصصة أن بنى غبراء هم الغرباء الصعاليق المحاويج الفقراء » (١٦)، الأمر الذى ينجلى عن تعبير التوراة (تائه) فى النص (أرامياتائها كان أبى)، كما ينجلى عن تكرار قول إبراهيم فى كل محطة كان ينزلها بعد ارتحال أنها أرض (غربته)، وحتى اليوم نجد فى لسان عرب الخليج (العبرى) هو المسافر و(العبرية) المسافرين.

ثم يعقب منى بالقول: (١٧) « إن النصوص التى تحوى قوائم الأجداد مشكلة من عدة روايات متباينة المحتوى، أدمجت ببعضها البعض بهدف نقل الانطباع بوحدة الرواية، وبوحدة أصول شعب التوراة ». ثم يطابق (منى) بين الصفات التى عرفها علم التاريخ عن هذه الجماعات كشذاذ آفاق يعيشون على السلب والنهب والحركة الدائبة، وبين ماجاء فى التوراة من تصوير لحياة الأسباط فى وصف جماعة داود بأنها تتكون « من كل رجل متضايق وكل مديون وكل رجل مُر النفس » (١٨).

ومن هنا ينتهى منى إلى أن الكتاب المقدس قد وظف المصطلح عبرى للدلالة على تحالف إعرابى قبلى، وأن محررى الكتاب المقدس لم يعرفوا معنى المفردة فتمثلوها فى شخص باسم عابر ادخلوه فى قوائم الآباء الأولين. والحقيقة أنه ليس هناك مجموعة جنسية إثنية متميزة باسم العبريين (١٩).

أما سليم حسن فيوضح باختصار أنه « كان أول ظهور للخابيرو فى التاريخ فى ميسوبوتاميا (الرافدين القديم/ المؤلف) حوالى نهاية الألف الثالثة ق.م. وقد كان لهم اتصال وثيق بالهورانيين.. وفى حين أن غالبية الخابيروساميين، فإنهم كانوا فى العادة على اتصال بالعنصر الحورانى (وهو عنصر هندوآرى عند سليم حسن / المؤلف) المنتسب إلى الهكسوس ». (٢٠)

وحول هذا الاختلاط الجنىسى الغريب بين السامى والهندوآرى عند الهكسوس يشرح (شتيندورف) بقوله: « من المحتمل أن الهكسوس لم يكونوا شعباً واحداً متجانساً. أما العنصر الغالب فيهم فكان سامياً لاشك

(١٥) نفسه: ص ٨٥ .

(١٦) نفسه: ص ٨٩ ، ٩٠ .

(١٧) نفسه: ص ٨١ .

(١٨) نفسه: ص ٧٨ ، ٨٨ .

(١٩) نفسه: ص ١٠٥ .

(٢٠) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

وأضيفت إليه عناصر أخرى ربما منها الحوريون، وهم أقوام قديمة كانت تسكن شمال بلاد الرافدين [يقصد موضع ميتاني المزعوم في الرافدين الأعلى / المؤلف] .^(٢١)

وعن مواجهة أمحتب الثاني للشاسو والحوريين والخبيرو السالف الإشارة إليها، نسمع لباحت يقول:
" وعند وفاة تحتمس الثالث ورثة ابنه أمنحتب الثاني.. المشهور بقوته الجسمية الخارقة، وخلال حكمه ١٤٣٦-١٤١٣ ق.م ، قام بحملتين على بلاد الشام، شن الأولى منهما على أواسط سورية الحالية حيث دمر وقتل وأسر. وإثر عودته لمصر أخذ بعض أمراء فلسطين يدربون بعض الكنعانيين الشاسو العابيرو ويستعدون للثورة على الفرعون بعدما تحالفوا مع الحوريين المنتشرين حول نهر الخابور [لاحظ أن الباحث هنا كبقية المؤرخين يذهب بموضع الحوريين إلى ميتاني بين الفرات والخابور شمالا / المؤلف] فعاد أمحتب الثاني إلى الشام ووصل إلى بحيرة طبرية واستولى على مجموعة من المدن الفلسطينية ."

ثم يتابع " وتراخت قبضة المصريين على الشام إبان انشغال إخناتون بثورته على الوثنية والشرك. فأخذ الحيثيون من عاصمتهم خاتوشا الواقعة في الأناضول إلى الشرق من نهر الهاليس يحرضون عبدى شراتا وهو ملك أمورى ميتاني من الطرف الشمالي لسورية [نكرر هنا نفس الملاحظة السالفة / المؤلف] على الثورة ضد النفوذ المصري الآخذ بالتراخي في بلاد الشام. وأخذ عبدى شراتا هذا يزحف ويحاصر المدن في حوض نهر العاص وسواحل سوريا ولا سيما حماة وأرود. وبالمقابل تشكل في بلاد الشام حلف موال للفرعون بزعامة رب عدى ملك جبيل. ويتألف من بيروت وصيدا وصور وعكا فضلا عن جبيل.. وحين شاخ عبدى شراتا أو مات، ورثة ابنة عزيزو الشاب الداهية الطموح.. زحف عزيزو جنوبا بعد ما تحالف مع الحيثيين وكذلك مع قبائل الخابيرو أو العابيرو، التي تحترف القتال كمرتزقة، إذ هي تحارب لكل من يدفع لها، فوصل إلى جبيل التي أثر ملكها رب عدى الموالى لمصر أن يموت على أن يخون سيدة الفرعون ."

وهنا علينا أن نلاحظ النغمة التي استقرت لحل مشكلة الخابيرو فأصبحوا في كتابات الباحثين مجرد مرتزقة يعملون لمن يدفع.

ونتابع الباحث وهو يردف قائلا: " وتوالى الرسائل من ملوك الشام على أمحتب الثالث وعلى ابنة إخناتون تطلب النجدة من مصر ضد قوات عبدى شراتا وابنه عزيزو. وهذه ضمن رسائل تل العمارنة المشهورة التي اكتشف منها زهاء ٣٧٧ رسالة .. ومن دهاء عزيزو أنه قد أخذ يرسل الفرعون هو الآخر، واقسم له بأغلظ الإيمان أنه وحده المخلص للملك وأن جميع الأمراء الذين شكوه إلى مولاه ليسوا إلا كذابين وغير مخلصين للعاهل المصري.. لكن عزيزو زحف جنوبا [هنا يفترض الباحث أن عزيزو ملكا على ميتاني المتموضعة زعما شمالا بين الفرات والخابور / المؤلف] وأنه قام يزحف من هناك نحو الجنوب بعدما

(٢١) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٤٠ .

ضم إليه ملك قادش [يفترض الباحث هنا أن قادش المقصودة . . هي فادش نهر العاصي وليس قادش سينا / المؤلف] فوصل إلى شمال فلسطين وضمه إلى دولته.. وفجأة تواجهك رسالة من رسائل العمارنة مفادها أن الخابيرو قد احتلوا شكيم قرب نابلس الحالية، وأنهم ضربوا الحصار على القدس وأن حاكم القدس عبد خيبا [عبد هفا] كاتب الرسالة يستنجد بمولاه الفرعون إخناتون. ولا يعرف أحد كيف وصل الخابيرو إلى شكيم ثم القدس، هل عبروا مرج بن عامر واحتلوا شكيم عام ١٣٦٠ ق.م؟ أم أنهم زحفوا من الجهة الشرقية لنهر الأردن والتفوا على المصريين من الجنوب؟.. وأرسلت مصر القائد حورمحب وخاض معركتين على الأرجح أنهما كانتا صغيرتين ومخففتين " (٢٢).

وهكذا نجد الخابيرو قد دخلوا فلسطين بالفعل، لكن المحبط في محاولة الفهم أن نجدهم لازالوا بمصر زمن رمسيس الثاني ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م، فهناك رسالة من الكاتب (كويسر) موجهة إلى الموظف (بكنبتاح) تحمل أمرا يقول:

" أعط الجنود قوتهم، وأعط أيضاً العبيرو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع موسى "، ورسالة ثانية من (كينا) إلى (كجناهو) يقول فيها: " أعطت مأمروني به سيدى قائلاً: أعط الجنود أرزاقهم والعبيرو أيضاً ، الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس الذى انصرفت إليه عناية رع موسى " (٢٣).

وفي نصوص أوغاريت نجد ملحمة (كارت ملك صيدون) الهبيرو hbr حراساً للملك ويوصفون في Cis-Ktu، ١،٥ بأنهم قوه عظيمة وجبارة وأن الشريحة العليا منهم حملت لقب الجبابرة (٢٤).

وبين هؤلاء الحراس الذين يسمون " ناس الملك " نجد شرائح متعددة تحمل ألقاباً متعددة مثل. (ماريانو) و (ماجاروخلى) و (سانانو) و (عشيرو). و (عشيرو) في رأينا هي (أشيرو) التى يمكن أن تشير إلى السبط (أشير) أحد الأسباط الإسرائيلية الاثني عشر. وقد أقيمت في أوغاريت أحياء خاصة للخابيرو مثل (خالابو) و (أبيرما). ومن جانب آخر يوضح اللوح ١٧. ٢٣٨ PruIV، أنه كانت توجد في بلاد الحيثيين منطقة مخصصة لسكنى فئة (الأبيرو) (٢٥).

والآن تعن بعض الملاحظات السريعة حول مشكلة الخابيرو .

أولاً: الظهور الفصيح للخابيرو في نصوص المنطقة، كان في رسائل تل العمارنة القادمة من فلسطين تستنجد بالملك آمنحتب الثالث وبولده آمنحتب الرابع/ إخناتون. وتطلب قوات مصرية لصد هجوم الخابيرو على الممالك الفلسطينية التابعة للإمبراطورية المصرية حينذاك. فإذا كان الخابيرو هم العبريين الإسرائيليين فإن ذلك — كما أسلفنا — سيحدث مفارقة لا تلتئم مع أهم نظريات الخروج وهى

(٢٢) يوسف سامى: تاريخ فلسطين .. سبق ذكره، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢٣) سوسه: العرب واليهود .. سبق ذكره، ص ٢٨٣ .

(٢٤) شيفمان: أوغاريت .. سبق ذكره، ص ٢٧ .

(٢٥) نفسه: ص ٢٤ .

النظرية السائدة التي تقول بخروجهم زمن مرنبتاح. لأن ذلك يعنى أن العبريين - إذا كانوا هم الخابيرو - قد خرجوا من مصر قبل زمن آمنحتب الثالث بحوالى أربعين سنة أويزيد قليلا، وهى المدة التي حددها المقدس التوراتى لبقاء الإسرائيليين فى سيناء بعد خروجهم من مصر وقبل غزوهم فلسطين، والمعنى هو: كيف نفسر وجودهم زمن آمنحتب الثالث فى تشكيل هجومى على فلسطين قبل خروجهم زمن مرنبتاح بحوالى ١٧٠ عاماً أو يزيد؟

ولو اعتمدنا النظرية التي تقول بخروجهم زمن حتشبسوت فسنجد أيضاً خطأ صارخاً لأن معنى ذلك أن يستغرق العبريون ما يزيد على ١٢٠ سنة من خروجهم من مصر وحتى نجدهم يهاجمون مدن فلسطين زمن آمنحتب الثالث. وهو زمن طويل جداً للسفر بين مصر وإسرائيل، بينما كان تحديد التوراة لذلك الزمن بأربعين عاماً فى التيه يعد زمناً طويلاً جداً فى نظر الباحثين حتى رفضه بعضهم تماماً واعتبروه تلوينا أسطورياً.

ثانياً: حسب قصة التوراة أن موسى قد مات على أبواب فلسطين فى جبل نبو شرقى الأردن ، وقام تلميذه يشوع بن نون بقيادة جحافل الغزاة وعبر الأردن من الشرق الى الغرب وقام بتدمير شامل لمدينة أريحا حتى سواها بالأرض وتركها كوماخرابا. وبالفعل أثبتت حفائر الأركيولوجية كاتلين كانيون التي قامت بدراسة طبقات الأرض تحت أريحا أن أريحا قد تم تدميرها مرتين: المرة الأولى عند طرد الهكسوس من مصر على يد الفراعنة، باعتبارها كانت أحد مراكز الهكسوس الحصينة، أما المرة الثانية المفترض أن الدمار قد حدث فيها بفعل يشوع ورجاله الخارجين من مصر فإن البحث الدقيق أثبت أنه قد حدث قبل زمن مرنبتاح بحوالى قرن ونصف القرن من الزمان، أو يزيد^(٢٦). وهو ما يضيف مزيداً من من الألغاز والغموض. على قصة الخروج الإسرائيلى من مصر ولغز الخابيرو. فإذا كان الخروج قد حدث زمن مرنبتاح فلا بد أن يكون دمار أريحا قد حدث بعد زمنه بحوالى أربعين عاماً هى زمن التيه، لكن ما أكده البحث الأركيولوجى أن ذلك الدمار قد حدث قبل زمن مرنبتاح بأكثر من قرن ونصف، وهو ما يعيدنا مرة أخرى الى زمن الخابيرو الذين كانوا يهاجمون فلسطين زمن آمنحتب الثالث وولده إخناتون. وهو ما عبر عنه كاسيدوفسكى بايجاز بليغ يقول:

إذا كانت القبائل اليهودية القديمة العبرية هى المقصودة بالخابيرو.. فإن رسائل العمارنة تعطينا برهاناً على أنها دخلت أرض كنعان قبل وصول الإسرائيليين إليها من مصر بحوالى قرن ونصف القرن.^(٢٧)

وهنا بدأت محاولات التوفيق، أو على الأصح التفتيق.

(٢٦) جارودى: فلسطين أرض: ص ٦٨ ، ٦٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، أنظر أيضاً أحمد عثمان: تاريخ اليهود .. سبق ذكره، ج ١، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢٧) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١٢٢ .

جاردنر مثلاً وآخرون ساروا مساره يقولون إن الخابيرو مجرد شذاذ آفاق لا علاقة لهم بالعبريين أو بنى إسرائيل، أما وادل Wadle فله رأى آخر فى كتابه Israel and Babylon يقول إن دخول القبائل الغازية إلى فلسطين من سيناء وبوادي الشام، كان أمراً مألوفاً طوال التاريخ. ثم يفترض أن الخابيرو كانوا مثل تلك القبائل الغازية لكنهم ليسو هم العبريين تحديداً، لكن ما حدث أن أحدهما قد احتضن الآخر» (٢٨) !!؟ هكذا!!

أما الأركيولوجيست (كاتلين كانيون) فقد اعتمدت على مناقشات (دى فو Devau) حول وجود طريقين محتملتين للخارجين من مصر تحت قيادة موسى، الأول يسير بحذاء المتوسط على الساحل السينائى الشمالى، والثانى يهبط لعمق سيناء ويعبر آدوم من جنوبها الى فلسطين من شرقها. ومن هنا تقدم كانيون حلها لمشكلة وجود الخابيرو على حدود فلسطين، وفى نفس الوقت لم يكن حدث الخروج قد وقع بعد، أن هناك خروجان للإسرائيليين من مصر قد حدثا: الأول اتخذ طريق الساحل ودخل فلسطين من جنوبها الملاصق للحدود السينائية، والثانى اتخذ طريقه عبر آدوم والتف من شرقى الأردن وعبر النهر الى فلسطين من شرقها إلى غربى الأردن .

والآن، وبعد العمر الذى قضيناه وراء محاولات حل ألغاز التاريخ، هل بالإمكان العثور على حل لا يجيز لباحث آخر أن يصفه بأنه تلفيقى؟.. للوصول الى الحل المرتجى علينا أولاً أن نقف مع بعض إشارات ضرورية تمهيدية.

لا يفوت لبيب ذكر ملك. باسم إبرام يعقد اتفاقاً مع الخابيرو ليكونوا جنوداً فى جيشه، وكما ألمحنا هو اسم إبراهيم بالتوراة وإن كنا لا نعى أنهما نفس الشخص، إنما أقصى ما نقصده أن الاسم إبرام التوراتى كان منتشرأ بين الخابيرو، مما يدعم فكرة أنهم كانوا هم ذات العبريين الذين ينتمى إليهم البطرك التوراتى إبرام / إبراهيم. ومن الصعب تصور أن شعبين يحمل كل منهما، نفس الاسم، ودخل كل منهما مصر، وخرج كل منهما منها، وأن كليهما كان يهاجم فلسطين، دون أن نشك شكاً قوياً فى القول أنهما كانا شعبين منفصلين!!

ثم نلاحظ بشدة أن الحلف الذى ذكرته رسائل تل العمارنة بين الخابيرو والسوتى وأنها وصفتهم بالعصابات الأرامية وتذكر أن السوتى تعني السبتيين نسبة إلى ست، وهوما يدعم ما قلناه، حتى الآن، ويضع العبريين فى مكانهم الزمانى والجغرافى الذى حددناه .

وقد علمنا منذ هنيهات أن ملوك ميتانى بأعلى الرافدين الذين تحالفوا مع الخابيرو كان بينهم الملك عبدى شراتا أو (عبد الشرى)، بينما سبق وتأكد لنا أن الشرى هو رب الشراه أو السراه/ عسير ببلاد آدوم، مما يعنى وجوب قراءة تلك النصوص منسوبة الى جغرافية آدوم لاجغرافية الرافدين الأعلى. وتقول تلك النصوص أنهم أخذوا بالتوسع على حساب الإمبراطورية المصرية فى فلسطين والشام. وهنا علينا أن نتذكر أن موسى عندما خرج من مصر مع أتباعه لم يتخذ طريق حورس الحربى السريع على ساحل المتوسط نحو

(٢٨) روبنسون: إسرائيل فى ضوء .. سبق ذكره، ص ١٠٧.

فلسطين، إنما انحدر جنوباً في رحلة شاقة طويلة ليس لها مبرر سوى نظريتنا حيث يمكنه ذلك الطريق من اللحق بحلفائه في بلاد مديان، انسبائه وأهل زوجته صفورة.

والحصادة تجعلنا نقف مع إشارة أمانحتب الثاني إلى مهاجمة أعداء مصر الذين حدد أسماءهم: شاسو، حوريين، عبيرو لنذكر قارئنا بكل ما قلنا حتى الآن. لقد خرج العبيرو من مصر الى مواقعهم القديمة حول آدوم بعد تفكك حلف الهكسوس على يد أبطال التحرير المصريين، لكن ليتجدد الحلف جزئياً مرة أخرى لمهاجمة البلاد الفلسطينية، عبر تحالف جديد للقبائل وصل الى تحالف عزيزو المدياني مع الحثثيين في أقصى الشمال، أما اسم عزيزو نفسه فليس اسماً حورياً هندوآرياً يمكن إرجاعه إلى المملكة الميتانية الآرية المزعومة شمالي الرافدين بقدر ما هو اسم سامي قح يليق بمديان، وتليق به آدوم، والعربان به أليق.

وقد مر بنا باحث مجتهد يعجب بشأن ميتاني التي أصبحت تحمل اسماً آخر هو أمورو (نسبة الى أموريين؟!) لأن الأموريين حسب التاريخ التقليدي لا علاقة لهم بالميتانيين، ثم يعجب ثانياً من كيف وصل حلفاؤهم الخابيرو الى شكيم ثم القدس؟ ويتساءل: هل عبروا مرج بنى عامر واحتلوا شكيم؟ أم أنهم زحفوا من الجهة الشرقية لنهر الأردن والتفوا على المصريين من الجنوب؟ ان السؤال برأينا هو الخطأ، لأن صاحبه يأتي بالخابيرو من الفرات الأعلى والخابور حيث موضع ميتاني المزعوم، لذلك يستعصى الحل ويصبح لغزاً ، لكنه يصبح سهلاً مفهوماً تماماً لوجاء بهم من آدوم. وهنا نستمع إلى زيادمني الذي ذهب الى اليمن وعسير بموضع هناك بلاد إسرائيل، لكن ليعود معنا في عبارة عابرة الى الموضع الذي حددناه لكل تلك الأحداث في بلاده شراة سكير عند العقبة ووادي عربية حيث الشرى في بلاد آدوم، فيقول عن قبائل لم تزل موجودة حتى اليوم، في لمحة خاطفة تحكى أن " قبيلة عبرة من الشرى من زهران ابن كعب ومقرهم بلاد السراة، وبنو عريب من قبائل حمير التي عرفتها في مؤلفي أنف الذكر بأنها هي آدوم التوراتية " (٢٩).

واضح إذن أننا مع الرأي القديم الذي عفى عليه الزمن وأهمله الباحثون تماماً، نحن مع كون العبريين التوراتيين هم ذات عين الخابيرو والتاريخيين. وأنه كان اسماً عاماً على البدو الرعاة المتنقلين قطاع الطرق المرتزقة النهائيين. لكن ذلك يعنى ضمن ما سيعنى أن الخابيرو لم يخرجوا أبداً زمن الفرعون مرنبتاح، بل خرجوا قبل زمن العمارنة لأنهم كانوا زمن العمارنة قد وصلوا بالفعل الى مهاجمة فلسطين، وبدأت رسائل الاستغاثة تتواتر من حكام فلسطين إلى العمارنة ، وهو ما يعنى أنهم قد خرجوا قبل زمن العمارنة بزمان. أما الأكثر إدهاشاً لنا قبل القارئ هو توصلنا إلى أن الخابيرو التاريخيين الذين هم عبيرو التوراة ليسوا إطلاقاً بنى إسرائيل على التدقيق إنما كان بنو إسرائيل بطناً حليفاً ضمن الأخلامو لا أكثر، وهو ما سنحاول إقامة الدليل عليه الآن.

(٢٩) زياد منى: جغرافية .. سبق ذكره، ص ١٠٢.

ريح يوسف

بإجراء الحسابات الزمنية المقارنة بين التوراة وبين ترمينات التاريخ المصري، لا يمكن الذهاب بحدث الدخول الإسرائيلي إلى مصر أبعد من زمن الهكسوس، كما لا يمكن أيضاً التقدم به بعد زمن مرتباتح. وقد تم ذلك التحديد بناء على توافق واضح بين زمن الملك سليمان و بنه رحبعام ملوك الدولة الإسرائيلية الموحدة، وزمن الفرعون الذي جاء ذكره بالكتاب المقدس (شيشق)، الذي قاد حملة كبرى على مملكة إسرائيل الموحدة في العام الخامس لحكم رحبعام بن سليمان. وهو الاسم الذي يطابق في التاريخ المصري القديم اسم الفرعون (شيشنق) أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين، الذي حكم حوالي ٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م. إذ يقول الكتاب المقدس.

وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وجميع أتراس الذهب التي عملها سليمان.

ملوك أول ٢٥، ٢٦/١٤

وهذا الحدث قد تأكد بما جاء في حوليات الفرعون شيشنق التي سجلت له جدولاً بالمدن التي انتصر عليها في بر الشام وإسرائيل. ولما كان الكتاب المقدس يؤكد أن الإسرائيليين قد قضوا ما بين زمن خروجهم من مصر إلى آخر زمن بناء الهيكل زمن سليمان حوالي خمسة قرون تحت حكم القضاة القبلية قبل قيام مملكة إسرائيل الموحدة التي حكم عليها شاول ليتبعه داود ثم ولده سليمان .
فالكتاب المقدس يقول:

وكان في سنة الأربعمئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر، في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني. أنه بنى البيت للرب.

ملوك أول ١/٦

وفق هذه الحسابات - ومع بعض التجاوزات - يجب أن تقع افتراضات الخروج في الفترة الزمنية الواقعة بين تحتمس الثالث ١٥٠١ - ١٤٤٧ ق.م مروراً بمشاهير الأسرة الثامنة عشر: أمنحتب الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م وولده إخناتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م وربما حتى زمن رمسيس الثاني ١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق.م وولده مرتباتح ١٢٢٥ - ١٢١٥ ق.م.

ولما كان الكتاب المقدس قد حدد مدة بقاء الإسرائيليين في مصر بزمن يصل إلى ٤٣٠ عاماً، فيجب أن يكون زمن الدخول قد حدث قبل الخروج بـ ٤٣٠ عاماً مما يعني أنه لو تحدد لخروجهم زمناً أيام حكم أى فرعون من الأسرة الثامنة عشر، فيجب علينا للعثور على زمن الدخول أن نتعمق في التاريخ قبلها بما يزيد على أربعة قرون كاملة.

ولو اعتمدت حساباتنا على معطيات المقدس تلك فيجب أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا مصر حوالى ١٨٥٥ ق.م أى زمن الدولة الوسطى وبالتحديد بعد حكم الفرعون سنوسرت الثانى ١٩٠٦ - ١٨٨٧ ق.م قبل دخول الهكسوس مصر بحوالى قرنين وربع القرن من الزمان. وهو ما أخذ به باحثون من شاكلة إيمانويل فليكوفسكى فى كتابه عصور فى فوضى.

ولو أخذنا بتقديرات التوراة الزمنية وذهبنا مع أبعد الافتراضات البحثية لزمن الخروج - لكنه أضعفها - بالعودة إلى أيام الفرعونة حتشيسوت ١٥٢٠ - ١٤٨٠ ق.م، فإن الدخول يكون قد حدث حوالى ١٩٥٠ ق.م. وهو زمن سنوسرت الأول الذى حكم فى الدولة الوسطى حوالى ١٩٨٠ - ١٩٣٥ ق.م، ولو أخذنا بترمين الخروج زمن مرنبتاح بن رمسيس الثانى فى الأسرة التاسعة عشر، فسيكون الدخول قد حدث كما أسلفنا حوالى ١٦٥٠ ق.م. بعد احتلال الهكسوس لمصر بعقد أو عقدين من الزمان، أو يكونوا هم ذات عين الهكسوس وهو القول الذى يستبعده المؤرخون، بعد الكشف التى تراكمت لتفتح الباب لفروض أخرى بعيدة عن فرض يوسفوس. وبشأن ذلك يلخص روبنسون موقف علم التاريخ من رأى يوسفوس فيقول روبنسون: " يرى يوسفوس أن قصة الخروج هى الرواية العبرية لحوادث الهكسوس، وأخذ البعض برأيه أحياناً، بيد أن اختلاف التواريخ يبلغ من الكثرة جداً لا يجوز معه أن نقول بأن هذه الحادثة هى عين تلك. لأن مائتى سنة على الأقل قد انقضت بين أجلاء الهكسوس وبين فتح العبريين فلسطين ^١."

إلا أن وجه الإشكال الحقيقى فى كل هذا أن ترمينات التوراة نفسها يشوبها شك كبير، سواء فى تقدير الزمن ما بين الخروج وحتى قيام الدولة السلیمانية وهو ٤٨٠ سنة، أو زمن البقاء فى مصر وهو ٤٣٠ سنة، أما مأساة أى باحث هنا أن كليهما ضرورة أساسية لتحديد زمن الدخول والخروج وليس لدينا أية مصادر أخرى بديلة غير التوراة بهذا الشأن .

وقد تكررت شهادات التوراة التزمينية بهذا الصدد، فهناك نص يتحدث فيه الرب مع صديقه إبراهيم يقول له فيه:

اعلم يقيننا أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمئة سنة.

تكوين ١٥/١٣

والتعبير فى النسخة العبرية " ودور ربيعى يشبوا هنا " يعنى أنهم فى الجيل الرابع يرجعون إلى هنا، وهو ما يطابقه قول آخر بالتوراة وهو أن بنى إسرائيل عندما دخلوا مصر تناسلوا هناك لأربعة أجيال فقط ثم خرجوا من مصر، فهى ترصد سلالة النبی موسى لتعيده إلى جده السبط لاوى شقيق السبط يوسف، إذ أنجب لاوى قهات وأنجب قهات عمران وأنجب عمران موسى، وموسى خرج بالإسرائيليين من

(١) روبنسون: إسرائيل فى ضوء سبق ذكره، ص ١٠٧.

مصر (!؟). ويبدو أن حاسبة سنوات بقاءهم بمصر قد تمت وفق قائمة أعمار هؤلاء الأشخاص الواردة بالتوراة، حيث قالت أن لاوى عاش ١٣٧ سنة، وقهات ١٣٣ سنة، وعمران / عيرام عاش ١٣٧ سنة (خروج ١٦/٦ - ٢٠) وموسى عاش ١٢٠ سنة فيكون المجموع ٥٢٧ سنة، وبخصم المدة التي قضاها لاوى فى فلسطين قبل نزوله مصر على أخيه يوسف وهى ٥٧ سنة، ثم إضافة المدة التى عاشها موسى بعد الخروج وهى أربعين سنة إذ خرج وعمره ثمانين سنة (خروج ٧/٧)، يصبح المجموع ٩٧ سنة تطرح من ٥٢٧ سنة فتكون النتيجة ٤٣٠ سنة.

وحتى لو أخذنا جدلاً بتلك الأعمار الأسطورية البعيدة عن أى واقع حقيقى، فسيكون معنى ذلك أن كل واحد من هذه الأجيال قد أنجب ابنه فى آخر يوم من حياته، وهى بحد ذاتها استحالة أخرى مضحكة وتلفيق واضح. أما الأزمة الكبرى هنا فستكون فى محاولة الإجابة على السؤال: كيف أمكن لهذه الأجيال الأربعة فقط أن تتجب ذلك العدد الهائل من الخارجين، والذى حددته التوراة فى قولها:

فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد.

خروج ١٢ / ٣٧

وإذا أضفنا إلى ذلك الرقم الهائل عدد الأولاد والنساء بافتراض امرأة وطفلين لكل رجل فسيصل الرقم إلى المليونين والنصف مع التحفظ والتواضع فى حساب عدد أفراد الأسر الخارجة من مصر. وهو رقم خيالى إلى حد بعيد، وربما لا يتطابق إلا مع فكرة يوسفوس أنهم كانوا ذات الهكسوس، تلك الفكرة التى استبعدها علم التاريخ الحديث تماماً.

وإعمالاً لذلك تضعنا التوراة وسط أحبولة من المتاهات، ناهيك عن الشرك الأعظم، فحيث تقول النسخة المازورية العبرية أن بقاءهم فى مصر كان لمدة ٤٣٠ عاماً، فإن النسخة السبعونية اليونانية (سبتواجت) تقول فى ذات الموضع من ذات السفر أنهم بقوا هناك ٢١٥ سنة فقط، لتجعل اللغز يستعصى تماماً ويستغلق؟! فهل ثمة حل؟ علينا هنا إعادة ترتيب المعطيات التى يمكن أن تساعدنا على امساك مفاتيح الحل، لتحديد موعد دخول بنى إسرائيل مصر أولاً، وفى زمن أى فرعون تحديداً؟ .

أولاً: يصعب كما قلنا آنفاً تصور فرعوناً مصرياً يهدى راعياً بدوياً مثل إبراهيم جارية مصرية، وانتهينا إلى أنه قد دخل مصر ضيفاً على أحلافه أو ذوى قرابته، خاصة أنه بعد ما خرج من مصر نزل فى طريقه إلى فلسطين ضيفاً على المملكة الفلسطينية جرار، وقد علمنا أن هذا التواجد الفلسطينى المبكر قد حدث بفعل تهجير إمبراطورية الهكسوس للشعوب التى كانت تخضع لها. ومن هنا نرجح أن يكون إبراهيم قد دخل مصر زمن حكم الهكسوس، وبحسابات الأجيال بينه وبين يوسف عبر إسحق ثم يعقوب، يمكن ترجيح أن يكون إبراهيم قد دخل مصر

زائراً زمن ملك الهكسوس بنون المعروف باسم سكا أو اسحق أو الضحاك كما استتجنا أو ربما زمن الملك التالى له مباشرة (أبوفيس الأول/ابخان/أبو الغنم) في أبعد تقدير.

ثانياً: أن يوسف عندما دخل مصر كان سلاح العجلات التى تجرها الخيل معروفاً هناك، أو على الأقل فى القصر الحاكم ومحيطه، ونحن نعلم الآن يقينا أن ذلك السلاح، والخيل نفسها، لم تعرفهم مصر إلا مع مجئ الهكسوس إليها، مما يعنى أن يوسف قد دخل مصر زمن الهكسوس، أو بعد زمنهم حيث تكاثرت العجلات والخيل فى مصر زمن الدولة الحديثة الفرعونية. وفى التوراة نصوص كثيرة تؤكد وجود العجلات فى مصر زمن يوسف منها مثلاً:

فقال فرعون ليوسف .. خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم. ففعل بنوا إسرائيل هكذا وأعطاهم يوسف عجلات بحسب أمر فرعون.. فصعدوا من مصر وجاءوا إلى أرض كنعان إلى يعقوب أبيهم.. وأبصر العجلات التى أرسلها يوسف لتحمله..

تكوين ٤٥ / ١٨ - ٢٧.

ثالثاً: أن يوسف تم تعيينه على خزانة المصريين بأمر فرعون الحاكم ، وأنه قام إبان سنوات القحط بشراء الأراضى المصرية من أهلها لصالح الفرعون كذلك شراء حيوانات المنزل والحقل، كذلك المصريين أنفسهم ليحولهم إلى عبيد للفرعون، مما يعنى نظاماً جديداً تماماً مخالفاً للنظام السابق، وظل معمولاً بهذا النظام الجديد فترة طويلة بعد طرد الهكسوس من مصر حتى إلغاء أحد الفراعنة فيما بعد، وأعاد توزيع الأراضى على الفلاحين. أى أن الحدث جميعه يجب أن يقع إبان زمن حكم الهكسوس لمصر أو بعده.

رابعاً: أن يوسف عندما استدعى أبيه وإخوته وبقية أهل بيته إلى مصر، أخذ عربته الحربية وأسرع لاستقبالهم على الحدود وأن ذلك السفر من مقر إقامة يوسف بالقصر الحاكم إلى الحدود المصرية مع سيناء، قد استغرق يوماً واحداً. وهو الأمر الذى يحدد لنا موقع العاصمة المصرية آنذاك، إذ لابد أن تقع فى تلك الحال على الأطراف الشرقية للدلتا فى محيط محافظة الشرقية الحالية، فى نقطة ما قرب مدينة الزقازيق. هذا بينما نعلم أن عاصمة مصر زمن الدولة القديمة كانت منف، ثم انتقلت جنوباً إلى طيبة / الأقصر/ واست زمن الدولة الوسطى، فى أقصى جنوب مصر، ولم تتحول العاصمة إلى الشمال إلا مع غزو الهكسوس الذين سكنوا مدينة حواريس، على الحدود الشرقية للدلتا المصرية حتى يمكنهم إحكام الاتصال مع بقية الإمبراطورية بالتواجد قرب خطوط المواصلات الدولية. وقد انتقلت العاصمة فور طرد الهكسوس إلى طيبة مرة أخرى، ولم تقم مدن كبرى فى الشمال بعد ذلك إلا ابتداء من زمن الرعامسة، وكانت المدينة

التي أنشأوها باسم رعمسيس قد بنيت على تلؤل أطلال مدينة حواريس الهكسوسية، فقط كمقر صيفى لملوك الأسرة التاسعة عشر وليس كعاصمة. ولما كان من المستحيل زمنيا دخول يوسف وأهله زمن الرعامسة، فلا بد فى هذه الحال أن يكون قد دخل مصر زمن الهكسوس، لأنه الزمن الوحيد الذى يتيح وجود القصر الحاكم على مسافة يوم من الحدود السينائية، وفى زمن كانت مصر قد عرفت فيه العجلات التى تجرها الخيول.

خامساً فى الذكريات العربية القديمة التى أورد القرآن طرفاً منها، نجد الآيات تتحدث دوماً عن ملك مصر باسم الفرعون إلا زمن يوسف وحده فقط. فهى تتحدث عن حاكم مصر بلفظ الملك، وتختفى تماماً كلمة فرعون فى قصة يوسف القرآنية، فقط تظهر إلى جوار شخصية الملك شخصية أخرى باسم العزيز، وهى تسمية سامية كما هو واضح، وأنه هو الذى اشترى يوسف. مما يشير إلى أن رئيس الشرطة (العزيز) كان سامياً وليس مصرياً، رغم أن التوراة تذكره باسم مصرى واضح هو (فوطى فارع)، وربما تسمى رئيس الشرطة الهكسوسى باسم مصرى على عادة سادته الهكسوس، حيث حمل حكام الهكسوس ألقاباً ملكية مصرية. إلا أن الالفت للنظر هنا تطابق اسم (عزيز) مع اسم حاكم الهكسوس الأخير (أسيس) مما يشير إلى بعض الخلط، وأن الأصل الصحيح ربما كان يشير فى الصيغة السامية للملك نفسه باسم العزيز. وهو ما يتفق إلى حد التكامل مع رواية الكتاب المقدس حيث نفهم من تلك القصة أن هناك تغيراً هائلاً قد حدث فى الهيئة المصرية الحاكمة آخر أيام يوسف، وأن هذا التغير جاء بحكومة لا تعرف يوسف ولا أهله، كما نفهم أن يوسف وأهله قد تحولوا من سادة مترفين ورؤساء مقربين من القصر الحاكم، إلى أسرى وعبيد، كما فى النص:

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب، أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلّوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس.

خروج ١ / ٨ - ١٠

وهو الأمر الذى يشير إلى متغير عظيم يفسر الأحداث التى سردها التوراة وهى تفسره بدورها، حيث يمكن أن نفهم أن الحكام الجدد لم يكونوا من سكان المنطقة الشمالية التى سكنها الملوك وأتباعهم الإسرائيليين فى شرقى الدلتا، بحيث أنه لم يكن بإمكانهم معرفة قيمة يوسف وأهله. بل على العكس تماماً، كانوا يحملون لهم ضغينة شديدة، إلى حد أنهم كانوا يشكون فى ولائهم إلى حد توقع تحالفهم مع أعداء البلاد. كما أن هؤلاء الملوك الجدد كانوا حريصين على عدم ترك هؤلاء الضيوف النقاء يغادرون مصر، مما يعنى أنهم قد أصبحوا أسرى. وكانت البلاد

بحاجة إلى الخدمات الرخيصة لمثل هؤلاء العبيد في بناء مدن جديدة، منها مدينة رمسيس بالتحديد التي انتهينا إلى أنها في الأصل كانت مقراً للهكسوس باسم حواريس، مما يعنى أنه قد تم تدميرها في حرب التحرير وأصبحت بحاجة للإصلاح والبناء من جديد. إن ما حدث فى تلك اللحظة التاريخية التى تسوقها التوراة على عجالة، يشير إلى آخر زمن لأخر ملك هكسوسى، وإلى قيام حرب التحرير وطرد الهكسوس من مصر، وأسر بعضهم ومن لحق بهم للقيام بأعمال البناء الشاقة، وهو الأمر الذى لا شك يقع زمن فرعون التحرير الملك المظفر (أحمس).

سادساً: بينما نفهم من القصة التوراتية أن يوسف قد عاش فى القصر الملكى الواقع بمنطقة باسم جاسان، وأن أهله قد اشتغلوا فى مراعى الملك المصرى وضياعه، نجد الأمر يختلف تماماً زمن الحفيد موسى، وإليك النصوص التى توضح هذا الأمر، يقول النص حاكيا لحظة وصول أهل يوسف إلى مصر:

ثم جاءوا إلى أرض جاسان، فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه، إلى جاسان، ولما ظهر له وقع على عنقه، وبكى على عنقه زمناً، .. ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه: أصد وأخبر فرعون، وأقول له: إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان قد جاءوا إلىّ، والرجال رعاة غنم، فإنهم كانوا أهل مواشى، وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال: ما صناعتم؟ أن تقولوا: عبيدك أهل مواشى منذ صبا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكى تسكنوا فى أرض جاسان، لأن كل راعى غنم رجس للمصريين. فأتى يوسف وأخبر فرعون وقال: أبى وأخوتى وغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، جاءوا من أرض كنعان وهؤلاء هم فى أرض جاسان، وأخذ من جملة إخوته خمسة وأوقفهم أمام الفرعون، فقال فرعون لإخوته: ما صناعتم؟، فقالوا لفرعون: عبيدك رعاة غنم وآباؤنا جميعاً، وقالوا لفرعون: جئنا لنتغرب فى الأرض، إذ ليس لغنم عبيدك مرعى، لأن الجوع شديد فى أرض كنعان، فالآن ليسكن عبيدك فى أرض جاسان، فكلم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وأخوتك جاءوا إليك، أرض مصر قدامك، فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك، ليسكنوا فى أرض جاسان، وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة، فاجعلهم رؤساء مواشى على التى لى، .. فاسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض مصر فى أفضل الأرض، فى أرض رمسيس كما أمر فرعون.

تكوين ٤٦ / ٢٨ - ٣٤ و ٤٧ / ١ - ١١

إن كاتب هذا النص، كان يعلم أن مقر القصر الحاكم يقع في أرض جاسان، وأن المدينة الإدارية للحكم هي التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم مدينة (رعسيس)، أما اللافت للنظر فهو إصرار يوسف على تنبيه أهله للفرعون أنهم رعاة غنم، والغنم والماعز معا يطلق عليها (عنز) و (معز). إن هذا الإصرار لاشك يحمل معنى يجعل أصحاب هذا المعز محل اطمئنان وثقة الفرعون إن علم به، وأنه إذا علم بذلك فسيتمكنه بقربه وهو ما حدث بالفعل، حيث أقطعهم أرضا يملكونها في مقاطعة جاسان، بل وجعلهم المسؤولين عن رعاية ما يملك هو من (عنز). ثم ما لا يجب أن يفوت العين الفاحصة هنا أن جاسان هذه كان لا يسكنها مصريون حينذاك، إنما عنصر آخر يكرهه المصريون، عنصر بدوي عنزي، فقد أكدوا للفرعون أنهم أهل عنز " لكي تسكنوا أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين "، وهو ما يشير إلى انفصال واضح في مواضع السكنى بين الرعاة الأنجاس وبين المصريين من أهل البلاد، كما يشير أيضاً إلى أن أرض جاسان جميعاً كانت موئلاً للرعاة، حتى تصلح لسكنى الملك وقومه ويوسف وقومه دون المصريين، لقد كان الملك بدوره من الرعاة أما المبهتر فهو أن تكون جاسان وهي مسكن البدو المكروهين من المصريين مقراً للقصر الحاكم وأن يصر يوسف على تنبيه أهله البدو إبراز صناعته (الرعي) كي يتمكنوا من السكن قرب قصر الفرعون..

ويبدو أيضاً أن المصريين كانوا لا يأتون إلى جاسان إلا زواراً، سفراء، أو عملاء تجاريين، لانعلم، لكنه ما يتضح من نص آخر عندما حان موعد اشتراك إخوة يوسف في مأدبة طعام أقيمت للضيوف، حيث يقول النص:

وقال (يوسف): قدموا طعاماً، فقدموا له وحده، ولهم (إخوته) وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم، لأن المصريين لا يقدر أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين.

تكوين ٤٣ / ٣٢

أما زمن (موسى) بعد يوسف بثلاثة أجيال، فإننا بالتدقيق نستطيع أن نفهم أن الوضع لازال كما هو، فالإسرائيليين يعيشون في (رعسيس)، ولم تزل جاسان منطقة معزولة بأهل العنز عن المصريين أهل الزرع، ألهم إلا زواراً مصريين من هنا أو هناك، مشرفين وإدرايين أو جنود يشرفون على أعمال البناء. لكننا نلاحظ في الوقت ذاته أن رعسيس في جاسان لم تعد مقراً للقصر الحاكم في زمن موسى، وهو ما يتضح في أسطورة الضربات التي وجهها إله الاسرائيليين يهوه إلى بلاد مصر، فكانت تصيب المصريين وتصيب البلاط المالك ولا تصيب الاسرائيليين، مما يعنى أن مقر البلاط قد أصبح حينذاك بعيداً عن جاسان حيث يعيش الاسرائيليون. وهو ما تنص به نصوص تقول:

ثم قال الرب لموسى: بكر في الصباح وقف أمام فرعون، إنه يخرج إلى الماء، وقل له هكذا: يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى، فإنه إن كنت لا تطلق شعبى، ها أنا أرسل

عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان، فتمتلئ بيوت المصريين ذباناً،
وأيضاً الأرض التي هم عليها، ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي
مقيم، حتى لا يكون هناك ذبان، لكي تعلم أنى أنا الرب فى الأرض، وأجعل فرقاً بين
شعبي وشعبك، غداً، تكون هذه الآية، ففعل الرب هكذا، فدخلت ذبان كثيرة إلى بيت
فرعون وبيوت عبيده وفى كل أرض مصر، خربت الأرض من الذبان.

خروج ٨ / ٢٠ - ٢٤

ونموذجاً آخر فى ضربة البرد والنار:

ثم قال الرب لموسى: مد يدك نحو السماء، ليكون برد ، فى كل أرض مصر، على
الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل فى أرض مصر، فمد موسى عصاه نحو
السماء فأعطى الرب رجوداً وبرداً وجرت نار على الأرض، وأمطر الرب برداً على
أرض مصر، فكان برد ونار متواصلة فى وسط البرد، شئ عظيم جداً لم يكن مثله فى
كل أرض مصر منذ صارت أمه، فضرب البرد فى كل أرض مصر ، جميع ما فى
الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل،
إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، فلم يكن فيها برد.

خروج ٩ / ٢٢ - ٢٦

كذلك فى ضربة الظلام:

ثم قال الرب لموسى: مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر، حتى
يُلْمَس الظلام، فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس فى كل أرض مصر ثلاثة
أيام، لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام، ولكن جميع بنى إسرائيل كان
لهم نور فى مساكنهم.

خروج ١٠ / ٢١ - ٢٣

وهذا بالطبع لا يعنى وقوع تلك الضربات اليهودية وجل ما يعنيه أن الكاتب التوراتي والذاكرة الحافظة
كانت تعلم أن البلاط المصري قد انتقل من جاسان إلى العمق المصري.
وإعمالاً لكل هذا، فإن إشارات التوراة التى تؤكد أن يوسف قد دخل هو وآله إلى مصر، وسكنوا رعمسيس
بأرض جاسان إلى جوار قصر الفرعون، فإن ذات الإشارات تؤكد أن هذا الوضع قد تغير آخر أيام
يوسف، وماتلاه من سنين حتى زمن موسى، حيث انتقل القصر المالك ليكون وسط المصريين وبعيداً عن
الإسرائيليين، وتحقيق به الضربات التى كان ينزلها رب إسرائيل بالمصريين بينما لا تصيب الإسرائيليين
مما يعنى أن كاتب تلك الأسطورة كان يعلم أن القصر الملكى حينذاك قد كان فى عمق الأراضى المصرية
بعيداً عن جاسان التى لم تلحقها تلك الضربات. إن الأمر يشى بكل وضوح إن يوسف وآله قد دخلوا مصر

على سادتها آنذاك من الهكسوس، وكان ذلك تحديداً زمن آخر ملك هكسوسى هو أسيس أو العزيز الملقب مصرياً باللقب أبوفيس أى الحية الثنين، وكانت عاصمته حواريس عند الشرقية. وبمجرد أن ينتهى عصر أسيس حتى يظهر لنا فى التوراة ملوك بل وحكومة بل واتجاه عام جديد تماماً، يتحول معه يوسف وأهله من أصحاب ضياع ورئاسة مكرمين إلى عبيد فى الأعمال الشاقة مسخرين. وتنتقل العاصمة مع هذا التحول بعيداً إلى طيبة جنوب مصر مرة أخرى.

لكن يبقى أمر لا يصح المرور عليه هكذا دون وقفة تحاول فهم تفاصيل ما حدث، وهو قصة السنوات السبع الجفاف، ومعلوم يقينا أن النيل أبداً لا يسير على الوتيرة التى صورتها القصة التوراتية، فهو لا يستمر سنوات سبع دون فيضان أبداً. لكننا نعلم يقينا أن قصة السنوات الجفاف السبع كانت تنتشر فى البلاد الفلسطينية والشامية عموماً، حيث كان بالإمكان حدوث متغيرات مناخية تؤدى إلى ندرة الأمطار لسنوات متتالية، أما النيل فلم يحدث أن جاء منخفضاً إلى حد المجاعة لعدد من السنوات المتتالية المحددة بالرقم المقدس عند الساميين (سبعة).

هنا نستعين بالتمرين المدرسى للتلميذ المصرى الصغير بيتاعور أو بنتأور الذى كان يديج موضوعاً فى التعبير الإنشائى عن أول فرعون فى ثورة التحرير ضد الهكسوس، وهو الفرعون (سقن رع) زمن آخر حكام الهكسوس أسيس الملقب (أبوفيس) ونذكر كلماته وهو يقول:

حدث أن أرض مصر كانت فى جائحة شنعاء، ولم يكن للبلاد حاكم يعد ملكاً فى

هذا الوقت، وقد حدث أن الفرعون سقن رع كان حاكماً على المدينة الجنوبية (طيبة /

المؤلف)، لكن الجائحة الشنعاء كانت فى بلد العامو (حواريس / المؤلف)^(١).

فماذا يعنى بالجائحة الشنعاء؟ ليس لدينا أى خبر عنها سوى تلك العبارة، لكن التاريخ المقدس يمكنه أن يفسر لنا تلك الجائحة الشنعاء التى حدثت فى منطقة العامو / الهكسوس. فلا شك أنها كانت تعنى ذلك الجفاف الذى سُمى (سنوات سبع جفاف). لكن التلميذ وهو يكتب موضوعه الاختبارى كان حريصاً على الحصول على درجات متميزة. لذلك لم تفته بعض دقائق الموقف، فأكد أن تلك الجائحة كانت فى بلد العامو (حواريس) حيث يحكم أبو فيس، بينما لم ينل المصريين المتحصنين عند طيبة بقيادة سقن رع شيئاً. فكيف نفسر جفافاً فى الشمال وخصباً رغيداً فى الجنوب؟.

هنا نعيد قراءة رسالة الملك أسيس الملقب بلقب (أبوفيس الثالث) يستفز فيها الفرعون المصرى ملك طيبة (سقن رع تاعا) ويقول له: " إن الملك أبو فيس يطلب منك أن تأمر فرس النهر ليهجر بحيرته التى تقع

(٢) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره ج٤ ص ١٢٨.

فى ينبوع المدينة الجارى، لأنه لا يسمح للنوم أن يغشى عينيه ليلاً ولا نهاراً .. لأن صياحه يطن فى أذنيه باستمرار»^(٣).

ولطالما ظلت تلك الرسالة تحتمل عدداً من التفسيرات التى تجمع على أنها لون من الألغاز التى كانت عادة يتبادلها ملوك العالم القديم وتحمل دلالات أعمق من الظاهر، فما هى رمزية أفراس النهر هنا وضجيجها؟! قيل هو ضجيج السلاح والعسكر والتهيو للثورة على الهكسوس وهو مالم يرض الملك الهكسوس فأرسل بتلك الرسالة المنذرة. لكن علام ترمز البحيرة؟ وليس فى طيبة بحيرات!! هناك النيل، فمتى نشأت تلك البحيرة؟ والرسالة تقول أن البحيرة تقع فى ينبوع المدينة، وهناك نيل لاينابيع، فالحديث عن بحيرة تكونت بفعل النيل، فكيف كان ذلك؟ ويدعم مثل تلك التخريجات ماجاء بعد ذلك فى النص الذى يحكى عن الملك سقنرع بعد أن قرأ رسالة أبوفيس: " هنا صمت أمير المدينة الجنوبية ولم يستطع أن يجيب على رسالة الملك أبوفيس، وقد تعجب كيف عرف أبوفيس عن البحيرة التى فى ينبوع المدينة الجارى ؟! يعقب هنا حماد فيقول: " يظهر أن فرس النهر الذى فى البحيرة التى فى ينبوع المدينة الجارى ترمز إلى خطة بحرية يدبرها الملك المصرى لمقاومة الهكسوس .. مما أزعج ملكهم.. أو أن ملك الهكسوس أبو فيس قد فطن إلى محاولة أمير الجنوب مما طلبته للاستعداد، لذلك فقد باغته بالهجوم عليه بجيشه" ^(٤). وانتهت هذه المعركة بمقتل سقنر رع المصرى، لكنها كانت فاتحة حروب التحرير المصرية ضد الهكسوس. ويبقى التساؤل ما هى تلك الخطة البحرية، خطة يستخدم فيها الماء فى الحرب، وتنشأ عنه بحيرة لم تكن موجودة قبل ذلك، وأن تلك الخطة كانت محاطة بالتكتم والسرية وهو ما يشير إليه تساؤل سقنرع: كيف عرف ملك الهكسوس بوجودها؟

نظننا وجدنا الإجابة فى أكثر من حادثة فى تاريخ مصر القديمة تشير إلى استخدام النيل كوسيلة فى الحاق الخسائر بالخصوم، فإبان العصر المتوسط الأول وانقسام مصر لأقاليم، حكم على إقليم مصر الوسطى (أهناسيا) الفرعون (خيتى)، الذى عمل على إعادة توحيد مصر مرة أخرى، وإبان ذلك حدثت عدة حروب طاحنة لإعادة الدلتا لمصر الموحدة، وضمن تلك الحروب كانت معركته ضد مدينة (إتريب/ بنها الحالية)، ولدينا نص بأمر موجه من الملك خيتى بهذا الشأن يقول:

" أقم سداً ضد نصف البلاد واغمر النصف الثانى بالمياه بما فى ذلك مدينة أتريب

."

^(٣) محمد حماد: كامس.. سبق ذكره، ص ٥١

؛ نفسه ص ٥٣.

ويعقب سليم حسن هنا قائلاً إن " هذه الجملة مع إيجازها لها أهمية استثنائية إذ تبرهن لنا أن كل المدن في الدلتا كانت تتوقف حياتها على النيل " ثم يشرح بأن مدينة اهناسيا حاضرة الملك خيتي قد أقامت ضد أتريب سداً في النيل لإخضاعها " وهذا السد طبعاً يكون في عرض النهر لأجل وقف الملاحة ولإجبار المدينة المناهضة على التسليم والخضوع ". وذلك يفسر لنا النص الفرعوني الذى يصف الفرعون بأنه " يمنع المدن من أن تنثور لأنه سيد النيل، وأنه بإرادته يمكنه أن يأتى بالنيل أو لا يأتى إلى مدن الدلتا " (٥).

ثم نجد هيرودوت يحكى لنا عن ذلك الأسلوب فى تحويل مجرى نهر النيل فى زمن فرعون آخر لكن لأسباب أخرى فيقول:

قال لى الكهنة: إن أول ملوك مصر مينا، وأنه هو الذى أقام الجسر الذى يقى مدينة ممفيس خطر فيضان النيل فقد كان قبل عهده يفيض على طول سلسلة من التلال الرملية التى تحد مصر من ناحية ليبيا، فصنع سداً وسط النيل عند المنحنى الذى يكونه النهر جنوبى ممفيس بحوالى مائة فورلنج، وبذا جفف مجراه القديم، وفى نفس الوقت حفر له طريقاً جديداً فى منتصف المسافة بين صفى التلال (٦).

إن الخطة البحرية التى أنشأت بحيرة جديدة فى الجنوب وأفض صوت الثوار فيها مضجع الملك الهكسوسى فشبههم بأفراس النهر لطول عملهم فى الماء، كانت بالضبط تحويل مجرى نهر النيل. ويأتينا التفسير من الفرعون كامس ثانى فراعنة التحرير، وهو يعبر عن سخطه من المحتلين ويقول: إلى أى مدى أدرك كنه قوتى هذه؟ عندما أرى حاكماً جالساً فى أواريس وآخر فى بلاد كوش وأنا أجلس مشتركاً مع رجل من العامو وزنجى، وكل رجل منهما مسئول عن جزئه من مصر هذه؟ أن ذلك الذى يقاسمنى الأرض، لن أجعله يمر فى ماء مصر حتى منف (٧)؟

(كامس) هنا يضئ أماناً تفسيراً موضوعياً تماماً للسنوات العجاف فى الشمال، لقد كان هو نموذج (مينا) فى قصة (هيرودت)، أو أنه كرر ما فعله سلفه العظيم، ليمنع الهكسوس حتى من استخدام السفن النيلية، وأنها لن تتمكن حتى الوصول من حواريس فى شرق الدلتا إلى منف " لن أجعله يمر فى ماء مصر حتى منف " لقد سد الفرعون نيل مصر من الجنوب، وكان منع الماء جائحة شنعاء متعددة الوجوه، فهو إذا كان سيؤدى إلى مجاعة فى الشمال، فإنه سيعوق هبوط سفن الهكسوس العسكرية جنوباً.

٥ (سليم حسن: أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعوني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٣٢).

٦ (ليفانز: هيرودوت... سبق ذكره، ص ٩٤).

٧ (سليم حسن: مصر القديمة... سبق ذكره، ج ٤، ص ١٤٠).

ولأن مسألة (سبع سنوات عجاف) كانت غير مقبولة مع وجود النيل العظيم، فقد جرت محاولات عدة لتفسير ذلك الأمر، وآخر ما سمعته في الإذاعة العربية من راديو لندن يوم الجمعة ١٩٩٦/٢/٩ في برنامج دنيا العلوم، حيث أجرت مقدمة البرنامج حواراً مع العالم (كولن همفرس) البروفيسور بجامعة كمبردج، لتسمع اكتشافه لتفسير قصة السنوات العجاف، حيث أكد أن النيل لا يتوقف أبداً سبع سنين، ثم رأى أن المجاعة قد شملت بلداً أخرى مثل كنعان بدليل رحيل أبناء يعقوب إلى مصر للحصول على الطعام قادمين من كنعان، كذلك قدم تفسيره بانفجار بركان سانتوريني بجزيرة ثيرا في المتوسط، وهو انفجار عظيم أدى إلى انتشار المطر الحامضي الذي يحمل حمض الكبريت، مما أوقف الأشجار عن النمو في مساحة كبرى وصلت إلى أمريكا، حيث ارتفعت الالفا ٣٦ كم في الجو، وكان بذلك كارثة عالمية، بدليل رحيل أبناء يعقوب إلى مصر للحصول على طعام، وإن دراسة كولن همفرس ترجح دوام تأثير البركان الذي حدث في المتوسط لمدة تصل إلى سبع سنوات، وأنه قد تم تحديد أثره بدراسة حلقات أشجار البلوط. وقبل همفرس كان (سبيريدون مارينا توس) ينقب في ميناء قريب من ميناء كونسوس فاكشف حفرة مليئة بالخفاف البركاني، كما اكتشف دلائل على أن أمواجاً عاتية طغت على الموقع واكتسحت في تراجعها أشياء ضخمة من أماكنها الأصلية. وأعرب مارينا توس عن اعتقاده بأن انهيار كريت لم يكن بسبب غزاة أتوها من الخارج كما يعتقد معظم المؤرخين، إنما إلى كارثة طبيعية عنيفة حلت بالجزيرة. وأشار إلى احتمال أن يكون مصدر هذا الخراب هو الجزيرة البركانية الصغيرة المسماة ثيرا والتي تبعد ٧٥ ميلاً شمال كريت. وكانت ثيرا في الماضي مستديرة الشكل يبلغ محيطها حوالي أحد عشر ميلاً، أما حالياً فهي ممزقة إلى ثلاثة قطع تلمحها من الجو كيف كانت واحدة مستديرة. ويتوسط الجزر الثلاث قبة سوداء تعلوها فوهة بركان. ويقول محمد العزب موسى في حديثه عن غرائب العالم القديم إن هذا البركان كان أقوى انفجار بركاني عرفه العالم. وكى نعلم مدى ضخامة الحدث، فإنه يقارنه بحدث مشابه لبركان من ذات النوع والمواصفات هو بركان كراتوكا الذي وقع وتم تسجيل تفاصيله سنة ١٨٨٣ م. وضمن تلك التسجيلات أن غباره تساقط في دائرة نصف قطرها ٨٠٠ ميل، وسمع صوت انفجاره في جزيرة رود ريجويز على بعد ٣٠٠٠ ميل، وارتفعت سحبه مسافة ٥٠ ميل، وحطمت الموجة الصوتية لانفجاره الجدران لمسافة ١٠٠ ميل، ورفع البحر في موجة مدمرت ٣٠٠ مدينة وقتلت ٤٠,٠٠٠ شخص تحت الموج الذي اجتاح مدنهم، وقد وصل هذا المد إلى مسافة تبعد حوالي ٧٠٠٠ ميل وظل الناس لعدة شهور في مختلف أنحاء العالم يرون الشمس تشرق خضراء ثم تتحول إلى زرقاء ثم تغرب مصحوبة بوهج شديد يستمر فترة، وكذلك استمر شأن القمر لعدة شهور، نتيجة العالق من الغبار البركاني في الفضاء.^(٨)

٨ (محمد العزب موسى: حضارات .. سبق ذكره، ص ٥٢، ٥٣.

وبدراسة (همفرس) أمكن تحديد زمن البركان الذى حدث حوالى عام ١٦٢٨ ق.م، وامتد أثره سبع سنوات، أى أنه انتهى حوالى عام ١٦٢١ ق.م، وبالحسابات ستجد أن تقديرات البروفيسور (همفرس) ستلقى بنا إلى آخر أيام الهكسوس فى مصر، وهو ما يعنى أن شمال مصر فى ذلك الحين (الدلتا) قد أصابها من ذلك البركان نصيباً عظيماً أدى إلى كارثة زراعية كبرى. فإذا كان ما قال (همفرس) قد حدث بالفعل، فإن (كامس) قد استثمر ذلك استثماراً عظيماً بتحويل مجرى النهر، لتصبح الجائحة (شنعاء) بالفعل. أما أن يقوم المصريون جنوباً بسد مجرى النيل وتحويله، فكان أمراً لا يمكن إخفاؤه، وقد شعر به الهكسوس، وعرف (أسيس / عزيز) بما يحدث، ذلك الحدث الذى جاء ترميزاً فى أسطورة حلم البقرات السبع والسنابل السبع، لقد عرف ما يحدث جنوباً، وأراد إطالة الأمر بمحاولة تخزين الحبوب للسنوات العجاف المقبلة.

هذا ما كان عن محاولتنا ترمين الدخول، فماذا عن الخروج؟

لو أخذنا بالتقديرات الحسابية التى قام بها فريق البحث الانجليزى بقيادة البروفيسور كولن همفرس، والذى انتهى إلى توقيت بداية السنوات العجاف السبع بحوالى عام ١٦٢٨ ق.م، مما يعنى أن نهايتها كانت حوالى عام ١٦٢١ ق.م، وهو زمن قريب جداً من بداية حكم أحمس فرعون التحرير ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة والدولة الحديثة الإمبراطورية، حيث حكم حوالى ١٥٨٠ ق.م، بفارق أربعين عاماً فقط عن تقديرات همفرس لسنوات العجاف، مما يشير حسب خطتنا إلى أن تلك السنوات كانت آخر سنين الهكسوس بمصر، وربما كانت أربعين عاماً رقماً كبيراً بعض الشيء، فالحسابات لن تكون بمنتهى الدقة، وربما كان الفارق أقل من ذلك، وهو الزمن الذى استغرقته حرب التحرير. مرة أخرى لو أخذنا بذلك التقدير ١٦٢١ ق.م لبداية حرب التحرير حسب فروضنا، وأن الأمور استقرت بطردهم نهايتها وبداية حكم الأسرة الثامنة عشرة المستقرة — خلال عشر سنوات مثلاً — أى حوالى عام ١٦١١ ق.م. وكفرض تجربى لمحاولة ترمين خروج بنى إسرائيل من مصر الذين تم أسرهم فى مصر بعد طرد الهكسوس، سنقوم بطرح ٤٣٠ سنة وهو الزمن الذى حددته التوراة المازورية العبرية العربية لبقاء بنى إسرائيل بمصر، من ١٦١١ ق.م، فتعطينا زمن ١١٨١ ق.م، وهو زمن حكم رمسيس الثالث الذى حكم ١١٩٨ - ١١٦٧ ق.م. وهى كما يرى قارئنا نتيجة خاطئة تماماً، حيث كان الإسرائيليون حينذاك بفلسطين مستقرين فيها فعلاً، إضافة إلى أنه لن يبقى لقيام مملكة سليمان سوى حوالى مائتى عام فقط، وهو ما يخالف تقرير التوراة حول الزمن الذى أنصرم ما بين الخروج وبين بناء سليمان للهيكل، وهو ٤٨٠ سنة كاملة، ولو حسبنا تلك المدة خصماً من عام ١١٨١ ق.م، فسيكون الهيكل قد بنى حوالى عام ٧٠٠ ق.م، وهو ما يخالف الزمن المفترض لحكم سليمان مخالفة شديدة، حيث اتفق على أنه كان زمن حكم الفرعون شيشنق الأول الذى حكم ٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م.

ولو افترضنا أن هناك خطأ في ترمين التوراة المازورية، وأخذنا بتزمين التوراة السبعونية لمدة بقاء بنى إسرائيل بمصر وهو ٢١٥ عاماً، وأعدنا الحسابات مرة أخرى بطرح ٢١٥ عاماً من ١٦١١ ق.م، فسيعطينا عام ١٣٩٦ ق.م، وهو زمن حكم الفرعون آمنحتب الثالث الذى حكم ١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م.

وننتذكر الآن ما سجله يوسفوس نقلاً عن العبرى المصرى (مانيتو) الذى حدد لنا زمن الخروج أيام فرعون باسم آمنوفيس / آمنحتب، دون أن يحدد لنا أى آمنحتب، خاصة أننا نعلم أن ابن آمنحتب الثالث المعروف باسم إخناتون كان يحمل اسم آمنحتب الرابع، وتتطابق معه إلى حد مدهش صفات فرعون الخروج آمنحتب التى دونها لنا (يوسفوس) نقلاً عن (مانيتو). فهو رجل لا يحب الحرب ويعتبرها عملاً ضد الآلهة، وكانت تلك بالضبط جزءاً أساسياً فى العقيدة الآتونية الجديدة التى جاء بها (إخناتون) ، وقد رفض الاستجابة لرسائل الاستغاثة التى تأتته من ولاته فى أملاك مصر بآسيا، إعمالاً لذلك المبدأ، حتى أضاع الإمبراطورية التى بناها أجداده. وإذا وضع الآن ميلنا إلى ترمين المؤرخ المصرى الفذ (مانيتو) لخروج الإسرائيليين من مصر، فسوف تواجهنا هنا عقبات. لعل أهمها ترمين التوراة المازورية للبقاء فى مصر بمدة زمنية هى الضعف بالضبط للمدة التى رصدتها السبعونية، حيث قالت إن البقاء بمصر استمر ٤٣٠ عاماً بينما أكدت السبعونية من جانبها أن هذا البقاء لم يزد عن ٢١٥ عاماً، ومن ثم يحق للقارئ هنا أن يذهب بظنونه فىنا مذهباً بعيداً يسلبنا العلمية، وهو يرانا ننتقى رأياً ونستبعد آخر دون إبداء أسباب واضحة لذلك، لكن الطريف فى أمرنا هنا أننا إطلاقاً لن نستبعد رأياً، بل سنأخذ بكل التزمينين رغم تضاربهما، حيث هذا التضارب كان تسجيلاً حقيقياً لواقع قد حدث فعلاً.

لقد كان الزمن الذى ساقته التوراة المازورية مثار انتقادات كثيرة من جانب، ومحاولات توفيقية من جانب آخر، حيث لا يمكن تصور أن يستغرق أربعة أجيال من الإسرائيليين هذا الزمن الطويل، ناهيك عن أن كل منهم يكون قد أنجب ولده فى اليوم الأخير من حياته الطويلة جداً قياساً على الأعمار المفترضة لبنى الإنسان. ثم اننا لو أخذنا بهذا التزمين بدلاً مع غض النظر عن عدد الأجيال، وافترضنا أن زمن الخروج كان آخر أيام حكم إخناتون / آمنحتب الرابع فى تل العمارنة أو بعد سقوطه بحوالى عشر سنوات ١٣٤٠ ق.م، ثم أضفنا ٤٣٠ عاماً وهو ترمين التوراة المازورية لبقاء الإسرائيليين بمصر، فسيكون زمن الدخول هو عام ١٧٧٠ ق.م، لكن المفاجأة هنا فى كون هذا التاريخ كان تاريخ دخول جافل الهكسوس إلى بلاد مصر القديمة واحتلالها؟! بالتحديد وبالتدقيق المبين دون فارق أو خطأ ولو بنسبة واحدة، فموسوعة تاريخ العالم (ج ١ ص ٤٨) تبدأ تاريخ احتلال الهكسوس لمصر ١٧٨٨ - ١٥٥٠ وتطلق عليه عصر الاغتصاب.

هنا بالضبط ما نقصده، لقد جمعت التوراة المازورية زمن بقاء الهكسوس بمصر، وهو بهذه الحسابات ٢١٥ سنة مضافاً إليه استمرار القبائل الإسرائيلية بمصر الذين لحقوا بهم آخر أيام حكمهم ٢١٥ عاماً أخرى ليكون مجموع السنوات ٤٣٠ عاماً، أما التوراة السبعونية، فقد استبعدت سنَى بقاء الهكسوس

بمصر ٢١٥ سنة وسجلت فقط زمن بقاء بنى إسرائيل هناك ٢١٥ سنة، لكن يبقى التساؤل: لماذا دونت المازورية وسجلت مدة بقاء الهكسوس بمصر مضافة إلى سنى الإسرائيليين فيها؟ هل كان الكاتب على رأى يوسفوس يرى أن الإسرائيليين هم ذات الهكسوس أم أن هناك أسبابا أخرى خفية تحتاج جهداً آخر للكشف عنها؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه الآن .

إسرائيل ويهوذا

انتهت الدراسات النقدية للتوراة، إلى اكتشاف تأسيسى يعيد فكرة النقاء الجنى العرقى إلى أصولها، حيث يتضح لنا أن كل تلك الصلات القرابية لأبطال العهد القديم، إنما كانت لونا من الأحلاف بين نماذج بشرية مختلفة بل وأحيانا متضاربة ومتصارعة. ويضرب لنا الباحث (فراس السواح) نماذج من الأمثلة التى توضح أكلوبة الأصل الواحد المتصل، ومنها ما جاء من ذكر للإسماعيليين والمديانيين فى قصة يوسف، حيث لا يتناسب هذا الذكر إطلاقا مع سلسلة الأنساب التى رسمها سفر التكوين لإبراهيم وأولاده، حيث المفروض أن الاسماعيليين هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية، وأن المديانيين هم أولاد مديان ابن إبراهيم من زوجته قطورة، فإذا أخذنا الزمن الفاصل بين عصر إسماعيل ومديان إنما إبراهيم، وبين عصر يعقوب ويوسف، لاكتشفنا أنه من المحال أن يكون الولدان قد تشكلا فى شعبين فقط خلال الفترة التى جرت خلالها أحداث قصة يوسف^(١).

إن الأيديولوجيا العرقية حاولت هنا رسم خط نسب رئيسى يوصل بتحالف الأسباط الإثنى عشر تحالفات أخرى وخطوط نسب فرعية، توصل إلى الشعوب المجاورة والمحيطية، التى أحتك بها الإسرائيليون. وهى المحاولة التى تؤكد وجهة نظرنا فى ذلك الحلف الكبير الذى أشرنا إليه دوما، وقام فى مركز رئيسى ببلاد آدوم ومحيطها.

وتقول الأركيولوجية (كانثلين. م. كنيون) أهم من نقب الأرض سعيا وراء التاريخ الإسرائيلى القديم فى فلسطين: " إن الذى قام بتحرير سفر التكوين فى القرن العاشر ق.م، حاول أن يجمع فى قصة واحدة الحكايات الشائعة بين القبائل والمجموعات التى اجتمعت فيما بعد لتكون شعب إسرائيل، وكثير من المتخصصين يتفقون على أنها قبائل متفرقة، ومن الأرجح أن تكون إحداها قبيلة إبراهيم وإسحق، أما قبيلة يعقوب فقبيلة أخرى، وقد تم فيما بعد إيجاد صلة قرابة بينهما، ولعل عائلة إبراهيم هى من أعلى النهرين، بينما عائلة يعقوب من شرقى الأردن .. ومن المرجح أنه لا توجد علاقة بين قصة الآباء وقصة الخروج Exodus، والانقطاع بين سفر التكوين وسفر الخروج تام " ^(٢).

ويقول (تيودور. هـ روبنسون)، وهو متخصص آخر: " من الواضح أن شعب إسرائيل الذى يتحدث التاريخ عنه، يشمل عشائر كثيرة لم تطأ أقدامها أرض مصر مطلقاً، بل أن الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين، قد يفهم منه أن يهوذا استقر فى الجزء الجنوبى من كنعان، وأن قبيلة أشير كانت قد أقامت

(١) السواح : أرام .. سبق ذكره، ص ٤١، ٤٢.

(٢) كانثلين كنيون: الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة د. شوقى شعث وسليم زيد، دار الجيل، دمشق، ١٩٩٠، ص ٢٩.

فى ديارها التى استقرت فيها عند ولادة موسى .. ودخلت بطون من هذه القبائل فى طاعة المصريين، بيد أنهم فى فترة من الفترات بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م، فروا من مصر وعلى رأسهم موسى، وكان موسى قبل ذلك قد عقد صلات بقبائل البدو، ووفق إلى جمع كلمة بعضها فى شعب واحد، متوسلاً إلى ذلك بدين جديد، آمن به جميع الأحلاف عند الجبل المقدس الذى كان موسى يتردد عليه « (٣).

وكلام (روبنسون) هنا بحاجة إلى بعض التوضيح، فهو يقول إن شعب إسرائيل لم يكن أبداً قبيلة واحدة متوحدة جنسيا وثقافيا، بل كما يشمل عدداً من القبائل، ومن بين هذه القبائل كانت قبيلة (يهوذا) أحد الأسباط فيما بعد، قد استقرت فى جنوبى فلسطين، أى فى محيط النقب وآدوم، وذلك فى الوقت الذى كان فيه الإسرائيليون مستعبدين بمصر، وقد استنتج من ذلك أن قبيلة يهوذا لم تدخل مصر أبداً، وهنا فقط نخالفه فى استنتاجه هذا، لأننا نزع من أن يهوذا قد دخل مصر فعلا، وأن تلك القبيلة الكبرى (يهوذا) قد خرجت من مصر، وتركت هناك بقية القبائل التى لحقت بها أيام آخر ملوك الهكسوس أسيس وشكلت فيما بعد جزءاً من شعب إسرائيل، أما قبيلة سبط أشير، فهى فيما يبدو بالفعل لم تدخل مصر، إنما كانت تستقر فى مواضعها التاريخية القديمة، على ساحل المتوسط الشرقى حول صيدون القديمة / صيدا الحالية، حيث نجدها هناك تخوض معارك ضد مملكة أوغاريت كما سيأتى بيانه. ثم يستمر (روبنسون) ليوضح أن الحلف الكبير قد بدأ نواته موسى النبى عند الجبل المقدس فى سيناء، حيث كان موسى قد هرب إلى هناك قبل أن يخرج بشعبه من مصر، وسبق له أن أسس تحالفات واضحة من القبائل التى تعيش فى محيط مديان، وبالإخراج أمكنه صهر هؤلاء الأحلاف فى شعب واحد تقوم هويته على أيديولوجيا اعتقادية واحدة موحدة.

ثم يتابع (روبنسون)، ليقول بعد ذلك أن الملك (داود) قد استكمل مهمة موسى بتوحيد العناصر القبلية المتعارضة فى فلسطين، حتى أمكنه أن يقيم دولة، تجمع « العناصر المتعددة التى توحدت فى الظاهر، واكتسبت ما يشبه القومية المشتركة » (٤).

ومن ثم أمكن لعالم النفس الأشهر (سيجموند فرويد) أن يقول: « إننا أضفنا إلى ثنائيات التاريخ اليهودى المعروفة شعبين ينصهران ليولفا أمة، مملكتين تنفرعان من انقسام هذه الأمة، إله يحمل اسمين فى مصادر التوراة، أضفنا إلى هذه الثنائيات ثنائيتين أخريين، تأسيس ديانتين جديدتين، تدحر ثانيهما أولاهما فى البداية، ولكن الأولى لا تتأخر فى انتزاع لواء النصر من جديد » (٥).

ومع (فرويد) نقف مرة أخرى للتوضيح. فهو يقول إن تاريخ الإسرائيليين هو تاريخ تحالفات وانفصاض لتلك التحالفات، إلا أن التحالف الأمثل كان بين سبط يهوذا، وأسباط إسرائيل الأخرى، لذلك نجد إلهين لشعبيين، إله ساد وبرز إبان زمن البطارقة الأوائل من إبراهيم حتى موسى، هو الإله المعروف باسم

(٣) روبنسون: إسرائيل فى ضوء .. سبق ذكره، ص ١٠٨.

(٤) نفسه: ص ١٠٩.

(٥) فرويد : موسى .. سبق ذكره، ص ٧٢.

(إيل) ثم إله آخر جديد يظهر مع موسى بإسم (يهوه)، ويهوه إله يهوذا وإيل إله إسرائيل، كما هو واضح فى المسميات ذاتها، وتتمكن ديانة يهوذا الطارئة، الجديدة، الثانية، غير الأصلية، من دحر ديانة إيل الأولى.

ومزيد من التوضيح يقدمه لنا (كمال الصليبي) فى عملين من أعماله، فى العمل الأول يقول: " إن بنى إسرائيل مثلهم مثل سائر الشعوب التاريخية، لم يكونوا شعباً واحداً فى الأصل، بل مجموعة من قبائل مختلفة تم توحيدها على مراحل ، عن طريق الالتفاف والتحالف، لسبب أو لآخر، ومن بنى إسرائيل قبائل كانت فى الأصل عبرانية، أنظر مثلاً سفر التثنية ١٥/١٢ .. وتتكلم الكنعانية، ومنهم قبائل كانت فى الأصل أرامية، أنظر سفر التثنية ٥/٢٦ ، .. وقد كان لعبادة الإله يهوه دور أساسى فى توحيد هذه القبائل المختلفة أصلاً، إذ أن هذا التوحيد كان يترافق فى كل مرحلة من مراحله، مع تحول قبائل جديدة عن عباداتها الأصلية المتنوعة إلى عبادة يهوه، مع الإبقاء على بعض التقاليد المتعلقة بعباداتها السابقة، من أساطير وخرافات وعادات وغير ذلك. وكانت عبادة يهوه فى الأصل واحدة من عبادات كثيرة منتشرة .. وما أن تم توحيد بنى إسرائيل، حتى بدأت عبادة يهوه تتحول على أيدى أنبيائهم من عبادة وثنية تعترف بتعدد الآلهة، إلى ديانة توحيدية أصبح فيها يهوه هو الإله الأعلى، ثم الله الواحد، بالعبرية عليهم، وبالإضافة إلى العنصرين العبرانى والأرامى، اللذين تشكل منهما شعب إسرائيل، كانت هناك على ما يظهر عناصر أخرى، أخذت تندمج على مراحل مع هذا الشعب .. إن كلا من هذه العناصر كان ينتسب إلى جد أعلى .. وكان اختلاف التقاليد بين قبائل شعب إسرائيل، سواء من ناحية الانتساب العرقى أو من ناحية تنوع المعتقدات والممارسات الطقسية، ما بقى يهدد وحدة الشعب، وهى الوحدة التى كان للكهنة الإسرائيلى بعد قيام مملكة إسرائيل، اهتمام خاص فى المحافظة عليها " (٦).

وفى العمل الثانى يقول (الصليبي): " كان بنو إسرائيل فى زمانهم فى هذه الأرض، يمثلون اثتلافاً قُبَلِياً بين مجموعة من الأسباط، اجتمعت حول عبادة إله واحد اسمه يهوه، وهو بالنسبة إليهم الرب، بالعبرية: آدون، والأسباط هذه من أصول مختلفة، ومنها سبط لاوى الذى كان منه وحده الكهنة، وما لبث الكهنة بين اللاويين أن انحصروا فى بيت واحد منهم هو بيت هارون، من آل عمران، والاسم فى شكله التوراتى: عمرم، أما بقية الأسباط فكانوا أحد عشر فى العدد، ومن هذه عشرة كانت تعرف أصلاً على ما يبدو باسم إسرائيل، وتنتسب إلى الشعب العبرى أو العبرانى، واسم اللغة العبرية أو العبرانية مشتق من اسم هذا الشعب، الذى كان يتكلم بها، ويلاحظ هنا أن بنى إسرائيل حسب العرف التوراتى لم يكونوا وحدهم العبرانيين، بل من هؤلاء أجداد عرب الجنوب وعرب الشمال فى الجزيرة .. وكان أبرز أسباط إسرائيل العشرة الناطقة أصلاً بالعبرية: بنيامين، والاسم بالعبرية: بن يمين، أى ابن الجنوب، أو ابن اليمين .. وفى التوراة مقاطع تشير إلى بنى بنيامين على أنهم: يمين، أى جنوبيون أو يمانيون، وفى ذلك ما يدل على أن قدومهم كان أصلاً من بلاد

(٦) كمال الصليبي: خفايا .. سبق ذكره، ص ١٢٠.

اليمن، أما السبط الحادى عشر.. فكان سبط يهوذا، بالعبرية: يهوده، والسبط هذا من أصل إرمى، .. لكن بنى يهوذا تحولوا من الإرمية إلى العبرية، بعد دخولهم فى الائتلاف الإسرائيلى" (٧).

وهكذا فإن (زينون كاسيدوفسكى) يعقب على انقسام مملكة سليمان بعد موته، إلى إسرائيل فى الشمال، ويهوذا فى الجنوب بالقول: " إن فكرة الوحدة العرقية التى فرضها موسى على الإسرائيليين ثم تبناها يشوع بن نون بعده، لم تصمد أمام امتحان الزمن، فقد كان التنظيم القبلى القائم لدى الساميين القدماء، على أواصر قربى الدم، أقوى من أن يتراجع، ليخلى المكان لعلاقات أخرى نشأت فى ظل الظروف التى خلقتها حياة الاستقرار. لقد كان لكل قبيلة تقاليدھا الخاصة بها، بل كانت تتكلم لهجة مختلفة، وبعد موت بن نون سرعان ما استيقظت الجروحات والنزاعات والخرافات القديمة والتيارات الانفصالية، وقد ساعد على ذلك واقع مؤداه: أنه بعد انهيار التعاون البدائى وتعمق النزاعات الطبقيّة، تحول الشيوخ الذين كان قد جرى انتخابهم إلى ارسقاطية وراثية، فأطلق رئيس القبيلة على نفسه لقب أمير أو قائد، ووصف نفسه بصفات مثل: جبار، نبيل، وأخذت تلك الفئات المتميزة تتنازع فيما بينها، الأمر الذى أدى إلى تفسخ وحدة الإسرائيليين وأنهيارها، بل ووصل الأمر إلى حد اندلاع الحروب الأهلية فيما بينهم، وهكذا بدأ عهد الفوضى السياسية .. ومما زاد فى خطر انقسام الإسرائيليين إلى اثنى عشر قبيلة متعادية، هو أن يشوع بن نون لم يغتصب كنعان كلها، .. وما كتاب القضاة من حيث الجوهر سوى مجموعة من الروايات والأساطير، التى تحكى معاناة القبائل الإسرائيلية، التى عانت من نير العبودية سنوات طويلة، ثم قامت تقاثل فى سبيل حريتها " (٨).

وعلى مثل تلك التقارير التى قدمها لنا الخبراء، ساغ لروجيه جارودى أن يقيم استنتاجاته التى يلخص فيها (دى فو) ما حدث ليقول: " يؤكد الأب دوفو أن شعب إسرائيل لم يتكون .. إلا بعد استقراره فى كنعان .. أن كل قبيلة من الأسباط كان لها سابقة وجودها التاريخى الخاص .. قبل أن تكون اتحاداً متيناً .. فبعد أن استقروا فى فلسطين نمت لديهم فكرة أن لإسرائيل تاريخاً مشتركاً قبل استقرارها " . (٩)

ثم يتابع " أن الرب يهوه الذى قادها، سوف يفرض نفسه على جميع الأسباط الأخرى، إن توقف التفسخ بهذا التدخل التاريخى باسم وحى الرب، سوف يصبح عقد الإيمان الأساسى لجميع الأسباط، وهذا هو بلاشك مغزى اجتماع شكيم الذى تحدث عنه سفر يشوع ٢٤ / ١ - ٢٨، حيث تحقق أول اتحاد بين الأسباط، فإن يشوع بعد أن ذكر لهم الإحسان العام الذى صنعه يهوه لهم، وهو أنه أصعدهم من مصر بيت العبودية، يوجه إلى جميع الأسباط بما فيهم أولئك الذين لم يعيشوا التجربة الحاسمة، تجربة الخروج، سؤالاً قاطعاً: اختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون؟ يهوه رب الخروج أو إله كنعان / ٢٤ / ١٥، ولقد اختارت الأسباط جميعاً الرب

(٧) كمال الصليبي: حروب داود، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط٢، ١٩٩١، ص ٢٠.

(٨) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١٦٠.

(٩) جارودى: فلسطين.. سبق ذكره، ص ١١٢، ١١١.

يهوه .. إن البحث التاريخي - كما قال فون راد - قد بين أن إسرائيل هو اسم هذا الاتحاد الكونفودرالى المقدس بين الأسباط .^(١٠).

وعلى مثل تلك المعطيات يقدم لنا (جارودى) مدعاة الشك حتى فى عدد تلك القبائل المتحالفة، والتي قيل إنها اثنتى عشر سبطاً، فيقول: " إن انحصار الأسباط فى اثنتى عشرة قبيلة لم يكن له أى واقع تاريخى، فلقد استتبع العدد اثنا عشر حينئذ فكرة الكمال، إذ نجد فى النصوص اثنا عشر سبطاً لإسرائيل، كما نجد اثنا عشر سبطاً إسماعيلياً / التكوين ٢٥/ ١٣ - ١٦، واثنتى عشر سبطاً أرامياً / التكوين ٢٢ / ٢٠ - ٢٤، واثنتى عشر سبطاً آدومياً / التكوين ٣٦ / ١٠ - ١٤، وتتغير قائمة الاثنتى عشر سبطاً لإسرائيل، لكن الرقم اثنا عشر يبقى، فعندما انقطع سبط ليفى، أكمل النقص بمضاعفة سبط يوسف فى إفرايم ومنسى، على حين نجد أن سبط جاد يحل محل سبط ليفى/ العدد ٢٦،^(١١). ونحن نعلم من دراسة الأساطير أن الرقم ١٢ كان رقماً مقدساً، يدل فى اعتقاد شعوب المنطقة القديمة فى اثنتى عشر إلها هى علامات الزودياك الإثنتى عشر السماوية المعروفة، مثله فى التقديس مثل الرقم سبعة المتكرر فى تلك العقائد، بحسبانه دالا على سبع آلهة سماوية، هى الأجرام الكوكبية السيارة فى المجموعة الشمسية، التى كانت معلومة بالرصد الفلكى الابتدائى آنذاك^(١٢)، (عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل + النيرين الكبيرين: الشمس والقمر).

ونتابع رصد ذلك التكوين الهجين فيما لاحظته (شفيق مقار) إذ يقول: " فى حكاية يوسف نلاحظ إصرار الرواة على تكرار لفظة: العبرانى؛

□ قد جاء إلينا برجل عبرانى يداعبنا

□ دخل إلى العبد العبرانى الذى جئت به إلينا
ليداعبنا

□ لأنى قد سرقـت من أرض
العبرانيين

□ وكان هنا غلام عبرانى عبد لرئيس
الشرطة

وهذا إلحاح لافت للنظر، فلفظة العبرانى لم ترد فى العهد القديم كله إلا سبع عشرة مرة، ومن تلك المرات السبع عشرة، حشدت اللفظة أربع مرات متتالية، على مدى إصحاح واحد من إصحاحات سفر التكوين، وهذا يتفق تماماً مع الغرض من إبراز حكاية يوسف مع فرعون، وهو جعل يوسف المعبر الأخير

(١٠) نفسه: ص ١١٧، ١١٦.

(١١) نفسه: ص ١١٨.

(١٢) للمزيد أنظر كتابينا رب الزمان، والأسطورة والتراث.

بين الحقيقة الأرامية لإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وكل أبناء يعقوب وسلالته، وبين إسرائيل، التي دقت في حكايات التوراة دقاً متواصلاً لتعني اليهود، والمشاهد في حكاية يوسف أنه بعد هذا التركيز على لفظة عبراني، بدأ التركيز على إسرائيل، ابتداء من : فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا، لأن الجوع كان شديداً في أرض كنعان / تكوين ٤٢ / ٥ " (١٣).

وسواء كان (مقار) هنا يقصد مع بعض اللبس أولم يقصد، فهو يضع أصبعه ضاغطاً على التكوين الإسرائيلي للزج، ليتفسخ عائداً لأصوله في ثلاثة أشكال، أولها الأرامية جنس إبراهيم والبطارقة حتى يوسف، الذي دخل مصر زمن السيطرة الهكسوسية المكونة من أحلامو / أحلاف، أبرزها العنصر الأدومي الأرامي التأسيسي، ليبدأ تمييزاً جديداً وملحاحاً للفصل العنصري وتأكيد هوية خاصة هي العبرانية التي يجب أن ينتسب لها (يوسف)، وليس الأرامية، ثم مع موسى يبدأ تأكيداً آخر جديد على توصيف عنصري جديد هو الإسرائيلية.

وفي قصة دخول بنى إسرائيل إلى مصر، تقول التوراة " فدخل يهوذا وإخوته إلى بيت يوسف / تكوين ١٤٤/١٤ "، وهو ما يعنى أن يهوذا قد دخل مصر مع أشقائه، لابل والصيغة تشير إلى أنه كان قائد هذا الدخول، وحتى الآن والكلام مقبول، لكن غير المقبول أن يكون يهوذا قد دخل ويوسف وزيراً لخزانة المصريين، وذلك لأسباب من داخل المقدس التوراتي ذاته. حيث تم تخصيص الإصحاح ٣٨ لشرح أمر عجيب الشأن، يبين أن يهوذا كان منفصلاً عن إخوته، وتبدأ القصة هكذا: " يهوذا نزل من عند إخوته / التكوين ٣٨/١ "، وذلك قبل دخولهم مصر على يوسف، وأنه تحالف مع رجل كنعاني من عدلام اسمه حيرة، وتزوج بنت كنعاني اسمه شوع وأنجب منها عير وأونان وشيلة، وكبر أولاده فزوج عير من بنت اسمها تاماراً، لكن عير كان شريراً فقتله يهو، فطلب يهوذا من ابنه الثاني أونان أن يتزوج تماراً لتنجب أولاداً ينسبون إلى أخيه الميت عير، على العادة الكنعانية. لكن أونان بدوره ارتكب ما أغضب يهو فقتله، وهنا طلب يهوذا من تاماراً أن تذهب لأهلها وتنتظر الولد الأصغر شيلة حتى يكبر ليتزوجها، لكنها تنكرت في زى عاهرة ودخل بها يهوذا وحملت منه بولدين هما: فارص وزارح. وكل تلك الأحداث تجرى، بينما بقية الأسباط قد نزلوا مصر على يوسف، لأنه من غير المقبول أن يفترق يهوذا عن إخوته وتحدث له كل تلك الأحداث على مر زمن طويل، ليدخل في الوقت ذاته برفقه إخوته إلى مصر؟! وهي النتيجة التي يصل إليها (كمال الصليبي) في قوله: " مما يعنى أن افتراقه عن إخوته كان سابقاً لهذا النزوح " (١٤).

لكن الصليبي يستمر في استنتاجه ليقول فقط أن ما حدث في الإصحاح ٣٨ من سفر التكوين، يشير إلى أن (يهوذا) قد أخرته رحلته الكنعانية تلك عن نزول مصر مع إخوته لكنه لحق بهم بعد ذلك. وأن لحوق يهوذا بإخوته جاء متأخراً جداً، وحدث في آخر أيامهم بمصر زمن موسى (نلاحظ أن صليبي له نظرية لا

(١٣) شفيق مقار: قراءة سياسية:.. سبق ذكره، ص ٧٤، ٧٥.

(١٤) كمال الصليبي: خفايا.. سبق ذكره، ص ١٩٨.

تعترف بدخولهم مصر الإمبراطورية إنما هي أحداث كانت تجرى فى بلاد عسير بجزيرة العرب، وهو ما لا يعنى بحثنا هنا). ويستند الصليبي فى ذلك إلى نصوص توراتية فيقول: " إن موسى تمنى على الرب يهوه قبيل وفاته أن يأتى بقبيلة يهوذا المستقلة عن سائر قبائل إسرائيل فيجمعها بهم، وذلك بالكلام الآتى: (اسمع يا يهوه صوت يهوذا وأت به إلى قومه، بيديه يقاتل لنفسه، فكن عوناً له على أصداده). فلماذا هذه التناقضات فى أسفار التوراة فى حديثها عن يهوذا؟.. السر طبعا هو أن بنى يهوذا لم يكونوا فى الواقع من بنى إسرائيل العبرانيين.. بل إن بنى يهوذا كانوا من بنى يعقوب الأراميين"، لكن لحق (يهوذا) بإخوته عند (الصليبي) لم يتم فى مصر، إنما بعد الخروج ووصول الخارجيين إلى المشارف الجنوبية لبلاد كنعان، حيث التقى هناك الخارجون " بنو إسرائيل مع بنى يعقوب الأراميين من بنى يهوذا ولقيهم، فاتحدوا معهم تحت قيادة موسى قبيل وفاته، وكانت هذه بداية الشعب التاريخي المعروف بشعب إسرائيل " (١٥).

" وهكذا التقى بنو إسرائيل ولقيهم من العبرانيين لأول مرة فى تاريخهم مع بنى يعقوب الأراميين الذين كانوا يتكلمون العبرية أى الكنعانية والآرامية فى آن .. فتت الوحدة بين الشعبين برعاية موسى وبركة يهوه وعندما تمكن موسى لأول مرة فى حياته من مخاطبة جميع إسرائيل: كل يسرع/ سفر التثنية ١٨، وليس بنى إسرائيل العبرانيين وحدهم " (١٦).

وحتى يمكن ترتيب هذا الصخب المتنافر يمكن إيجاز القول باتفاق الباحثين على كون الشعب التوراتي أيا كان مسماه لم يكن أبداً شعباً بالمعنى المفهوم ينتمى إلى عنصر إثني واضح بعينه، بقدر ما كان تجمعاً وتحالفاً قبلياً تشكل من مجموعة قبائل. وهنا يبدأ اختلاف الباحثين وتضاربهم عندما تبدأ محاولة تحديد ألوان هذه القبائل وانتماءاتها الجنسية، فكاثلين كانيون ترى أنهم هجين من قبيلتين الأولى هى قبيلة إبراهيم وإسحق وهم عندها من أعالي النهرين، والثانية هى قبيلة يعقوب وتراها من شرقى الأردن .. بينما لخص فرويد موقفه بالكشف عن شعبين اندمجا معها لكن تشير معبوداتهما إلى أصولهما الأولى قبل الاندماج، فكان هناك شعب يتبع إليها باسم إيل وشعب آخر يتبع إليها باسم يهوه، وبمرور الزمن أدت الأحداث إلى سيطرة وسيادة اليهودية وانكماش وتلاشى الإيلية. أما كمال الصليبي فقد تحدث عن قبائل مختلفة فى هذا الائتلاف تعود إلى عناصر عدة: عنصر إسرائيلي ويراها هو المعروف أيضاً بالعبراني، لكنه عنده ليسوا أبناء يعقوب، وأن نسبتهم إلى يعقوب واحتساب أن يعقوب كان اسمه إسرائيل هو محاولة مقحمة من المحرر التوراتي لجعل الإسرائيليين أبناء ليعقوب فى أسطورة صراعه مع الرب. ثم عنصر ثان هو يهوذا ويراها هو صاحب الأصل الأرامي، وهؤلاء هم بالفعل أبناء يعقوب، ثم عناصر أخرى مختلفة كقبيلة ليفى أولاوى التى امتنعت الكهانة، وقبيلة بنيامين التى يشير اسمها إلى أصولها اليمنية. هذا بينما ذهب (دوفو) إلى أن كل قبيلة من الأسباط الاثني عشر كان لها سابق وجودها التاريخي الخاص. أما شفيق مقار فيرى أن إبراهيم وإسحق ويعقوب كانوا

(١٥) نفسه: ص ٢٠٣.

(١٦) نفسه: ص ٢٣٩.

أراميين ومنهم يوسف الذى يبدأ عنده تأكيد وصف العبرانية، حيث سيصبح يوسف معبراً نحو توصيف جديد هو الإسرائيلىة.

وفى ظل تلك المعطيات يمكن أن نفهم كيف نجد فى الآثار المصرية اسما ضمن نقوش الهكسوس هو يعقوب هار وأيضا يعقوب بعل^(١٧). والذى جاء كاسم ثان للملك بنون وهو الثانى فى ترتيب ملوك الهكسوس بعد سالاتيس، وجاءنا فى الصيغة " مرو سر رع، ياكب بعل أو يعقوب حر " . ومعلوم أن بنون يعقوب هذا كان من حكام الهكسوس الكبار وانه جلس على عرش مصر طبقا لبردية تورين أكثر من ثمانى سنوات أو ثمانى عشرة سنة^(١٨). كذلك أفادنا باهور لبيب بوجود أسماء أفراد هكسوس مثل (يعقوب إيل) و (نحامين)^(١٩).

وقد ورد اسم ثالث لبنون هذا برسم (سكا) ومن جانبنا رأينا بالضبط الاسم (الضحاك) (اسحق) الذى حيكث حوله وحول إمبراطوريته أساطير شتى، مما يشير إلى شهرة الرجل وقيمته فى زمنه. والأمر بذلك يعنى أن بنون كان يحمل اسم يعقوب واسم إسحق معا كحقيقة تاريخية تحولت إلى أسطورة توراتية، وأصبح الشخص الواحد شخصين، وانتسب اليهما الإسرائيليون وعدوهما سلفين بعيدين من جيل البطارقة الآباء الأوائل.

بينما إطلاقا لم يصل الظن بالتوراة رغم مبالغاتها الى حد القول أن شعبها كان حاكما على مصر. وهو مايعنى أن المحرر التوراتى قد نسب بنو إسرائيل الذين دخلوا إلى مصر إلى شخص قوى ملكى من ملوك الهكسوس، بسبيل ذلك تم اختيار يعقوب ليخترع المحرر التوراتى قصة صراع حدثت بينه وبين الإله منحه بعدها الإله اسم إسرائيل، وذلك للقول إن سلف الإسرائيليين هو الملك الهكسوسى يعقوب، لهدف أبعد هو التغطية على الأصول المتباعدة وتأكيد الأصل الواحد لتلك القبائل.

وإذا كان اسم إسرائيل مركب من ملصقين (يسر - عل) الثانى فيهما هو (عل) أو (إيل) ويعنى الإله، فإن الملصق الأول (يسر) تفسره التوراة بأنه مشتق من الفعل (سره) أى يجاهد، لذلك ترجمت كلمة إسرائيل بأنها (مجاهد الرب) أو (جندى الرب). ويلاحظ زياد منى أن هذه المفردة (يسر) لم ترد فى التوراة سوى مرة واحدة فقط فى سفر هوشع ١٣/٤-٣، وتؤكد المراجع المختصة أن معنى (يسر) غير واضح لأنه من فعل ممات. وقد جاء الاسم فى لوح مرنبتاح بالصيغة (ى . س . ر . ى . ر . Y. si.r.r).^(٢٠)

وبسبيل تفسير الكلمة وردت اجتهادات أخرى، فهناك من يرى أن (عل) ليست مفعول به فى الكلمة إنما فاعل وبذلك يكون المعنى (إيل حارب) أو (إيل عارك) فهو صرع إيل. ويذهب آخرون إلى أن جذر الاسم

(١٧) سليم حسن: مصر القديمة.. سبق ذكره، ج ٤، ص ١٨٧.

(١٨) بيومى مهران: دراسات .. سبق ذكره، ص ١٤٥.

(١٩) محمد حماد: كامس .. سبق ذكره، ص ٤٢.

(٢٠) زياد منى: جغرافية .. سبق ذكره، ص ١١، ١٢.

فى المفردة الايجية الإغريقية إسر ISER بمعنى مقدس أى إيل المقدس، وهناك من ذهب إلى أن الاسم مختزل من الصيغة (ء يش راحيل) أى (رجل من قبيلة راحيل)، مع اجتهد يستحق الوقوف معه يقول أن اسم إسرائيل هو اختصار للعبارة (يه سغير هو عيل) و (يه) هى (يهوه) وعليه يصبح المعنى (إله سغير هو يهوه).^(٢١) ولأن اسم اسرائيل لم يأت إطلاقاً مسبقاً بأداة التعريف فهو ما يعنى لزياد منى أن الاسم اسم جغرافى "يسرعل هو السراة - عل سرءه " ولأن منى يذهب مع نظرية صليبي إلى جنوب غربى جزيرة العرب كموطن لإسرائيل الشعب والدولة فى جبال السراة، فقد قال أن هذا المكان الجغرافى (إسرائيل) يقع فى جبال السراة تحديداً فى الجنوب. بينما من جانبنا قد اتجهنا إلى امتداد جبال السراة حتى البحر الميت شرقى وادى عربة، وقلنا أنها هى التى حملت فى العبرية اسم (سغير). وينتهى (منى) إلى أن المقصود من كلمة إسرائيل هو (الأرض المكرمة من الله)^(٢٢) وهو ما يستدعى مباشرة وصف المصرى القديم لبلاد بونت بأنها (أرض الإله). ثم يرى منى أن الأسباط اكتسبت اسم إسرائيل بعد أن خرجت واستقرت فى منطقة السراة.^(٢٣) وحملوا اسم بنى إسرائيل نسبة إلى جبال السراة فهم أبناء السراة^(٢٤).

أما اسم يعقوب الذى نسبوا أنفسهم إليه باعتبار أنه أب لعنصر بشرى هو العنصر الاسرائيلى فيبدو لزياد منى أنه كان اسم أحد آلهة المعبد الوثنى للأسباط، بينما هذا يعنى لدينا أن الإسرائيليين قد عبدوا الفرعون بنون / يعقوب/ سكا فى أحد مراحلهم كاله. ثم مع التطور والنضوج تم اعتباره سلف القبيلة، وهى عادة معلومة عند القبائل القديمة حيث عادة ما يكون سلفها البعيد هو ربها. وكمال الصليبي يعيد اسم يعقوب إلى العقبة وهو برأينا رأى سديد تماماً، لكن لأنه يريده جنوباً عند سراة اليمن وعسير يفسره تأويلاً حسب المعنى بأنه مسالك الجبال هناك حيث لم يجد هناك مكاناً باسم العقبة^(٢٥)، رغم وجود العقبة عند جبال سراة سغير على رأس خليج العقبة باسمها دون حاجة لأى تأويل.

وعليه فإن كلا الاسمين (إسرائيل ويعقوب) يعودان عند مدرسة الصليبي باسم إسرائيل إلى الانتساب إلى إله العقبة أو إله السراة التى تقع حسب مذهبنا فى بلاد آدوم/ بونت/ أرض الإله أو الأرض المقدسة.

المهم فى كل هذا أنه يمكن دون جهد كبير أن نلاحظ وجود خطين رئيسيين مع خطوط أخرى فرعية، فى الروافد المكونة للكنفودرالية الإسرائيلية، فهناك جماعة محددة باسم يهوذا وجماعة باسم إسرائيل، وكلاهما ينتسب مرة إلى العبريين وأخرى إلى الأراميين، وأن أحدهما دخل مصر والآخر لحق به، لكنه التقى بالطرف الآخر للحلف فى بلاد مديان. لكن الخلاف البسيط لكنه الكبير العميق هنا، هو أننا نرى ما حدث قد حدث بالعكس تماماً، فقد دخل فريق يهوذا الأرامى مصر أولاً، ثم لحق به فريق إسرائيل فى أرض مصر ذاتها،

(٢١) نفسه: ص ١١٢.

(٢٢) نفسه: ص ١١٣.

(٢٣) نفسه: ص ١١٤.

(٢٤) نفسه: ص ١١٦.

(٢٥) كمال الصليبي: خفايا.. سبق ذكره، ص، ١٨٣، ١٨٤.

وذلك فى آخر أيام الفريق اليهودى بمصر. نحن نقصد بوضوح وبدون موارد أن (يهودا) كان الاصطلاح التوراتى الذى يشير إلى محتلى مصر باسم الهكسوس وأن إسرائيل فريق نسيب ووطن حليف لحق بهم آخر أيامهم فى مصر، أيام حكم (أسيس / العزيز/ أبوفيس)، أما تمنى (موسى) أن يلحق بهم (يهودا) فى مصر، فتلك قصة أخرى، حيث بقى الإسرائيليون بعد طرد الهكسوس من مصر تحت العبودية فى ظل الحكم الوطنى المصرى ما ينوف على قرنين من الزمان، ونحن نعلم من (يوسفوس) نقلا عن (مانيتو) أن قائد الهاربين (أوزرسيف) أرسل يستدعى البدو الرعاة من أورشليم إبان ثورته للخروج من مصر، ووعدهم أنه سيعيدهم لحكم مصر وهو ما يعنى لنا تفسير استدعاء موسى ليهودا ، لكن ما حدث هو هزيمتهم جميعاً، وطردهم من البلاد، وهو الأمر الذى سيأتى تفصيله فى موضعه من هذا العمل.

ولعلنا نذكر أن يهودا كان فرعاً يقيم فى جنوبى فلسطين والنقب، وهو موضع سكنى الهكسوس الذى حددناه، ثم إننا لم ننس بعد ما أكدّه (يوسفوس) نقلا عن (مانيتون) أن الهكسوس عندما خرجوا من مصر أسسوا مدينة أورشليم بفلسطين، ثم ظلت أورشليم مدينة يهودية طوال عصورها بعد ذلك. وهنا نلمح المحرر التوراتى وهو يصير على التمسك بأن احتلال أورشليم قد تم من جانب الحلف جميعه المسمى كل إسرائيل، تقلت منه الحقيقة وهو يؤكد لنا ولنظريتنا أن الهكسوس هم الفريق اليهودى هم من احتل أورشليم أولاً، وهذه الحقيقة المنفلته يسجلها النص " وحارب بنو يهودا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف واشعلوا المدينة بالنار/قضاة ٨/١ ". بنو يهودا وحدهم دون بقية الأسباط من أخذ أورشليم إذن.

وبعد قيام دولة داود وسليمان، ثم انقسام المملكة قسمين، ظلت أورشليم عاصمة المملكة الجنوبية يهودا، بينما أصبحت السامرة عاصمة المملكة الشمالية، لقد أجمع التاريخ الإسرائيلى على إخفاء علاقته بالبرابرة الهكسوس.

لكن المؤرخ اليهودى يوسفوس سبق الجميع وأكد ذلك فى تاريخه، قاصدا الارتقاء ببنى جلدته عن كونهم كانوا أنجاساً ملاعين، عملوا فى السخرة والعبودية ببلاد النيل، لكن ليعطينا أحد المفاتيح لنافذة تطل على ذلك الحلف الهكسوسى القديم، الذى كان الإسرائيليون أحد أطرافه. وهو الأمر الذى يفسر لنا استبعاد هؤلاء فى مصر بعد تحريرها من الغزاة. وبعد أن اندمج الشعبان الهكسوسى والإسرائيلى فى اتحاد كونفودرالى، وبعد الخروج من مصر، كانت المحاولات الدائبة من المحرر التوراتى لنسيان الأصل الهكسوسى للعنصر الحليف والتغطية عليه، فقام يضعه فى سلسلة أنساب إسرائيل باسم يهودا، وابتدع قصة الإخوة الاثنى عشر ترميزاً للأحلاف ولكن يهودا بمفرده قد شكل سبطاً هائلاً فكان هو فى كفة وبقية الأسباط جميعاً فى كفة أخرى، ولا تعادله لأنه ظل المسيطر دائماً.

ومرة أخرى عاد الخارجون بعد الخروج للتحالف مع أخلامو مديان الأراميين، لكن الضربة المصرية ومطاردتها للفلول المطرودة من مصر، أدت إلى انفصال عرى هذا الاتحاد إلى فصائله الأولى،

وهو ما تعبر عنه حالة العداء الذى استحكم فى السنوات التالية بين حلف إسرائيل مديان فى جانب، وبين العماليق فى جانب آخر، وبعد مرحلة يزداد التفكك لنجد صراعا دمويا بين حلف إسرائيل وحلف مديان .

ويبدو أن الإسرائيليين قد باعوا فى مصر رفاق الحلف الهكسوسى للثورة الوطنية، وأن ذلك وإن عافاهم من الإبادة فهو لم يعفهم من العبودية. وكانت مسألة اللعب على طرفى الصراع أمراً متكرراً لدى الإسرائيليين تلمسه بطول تاريخهم المدون بالكتاب المقدس سبق وأفضنا شرحه فى الجزء الأول من هذا العمل، وإن كان العداء بين أطراف الحلف خاصة إسرائيل والعماليق بحاجة إلى تبرير معقول وقوى، وهو ماسنرصده فى الأبواب المقبلة من هذا البحث.

ولأن التاريخ عادة مايكتب من على مقعد المنتصر والأقوى والمتسلط فقد فاحت التوراة دوماً بانحياز محرريها الواضح للعنصر اليهودى، إزاء بقية الأسباط، حتى لو كانوا مختارى يهوه وأحاباه، ولم يزل هناك مزموه محبب فى التلاوات يسجل غلبة (يهودا) فى النهاية على الأحلامو أو الأحلاف، وكيف انحاز الرب يهوه إلى يهودا وحده دون بقية الأسباط المتحالفين، حتى أنه استبعد من رعايته بيت يوسف نفسه وأخيه، الذين كانوا فى البداية الأقرب إليه والأكثر اصطفاء.

يقول هذا المزمور التاريخى فصيحاً بليغاً، يدون لنا ما وصلنا إليه وما أغفله التاريخ:

فاستيقظ الرب كنائم جبار معبط من الخمر، فضرب
أعداءه إلى الوراء وجعلهم عاراً أبدياً ، ورفض خيمة
يوسف، ولم يختار سبط إفرايم، بل اختار سبط يهودا
فى جبل صهيون الذى أحبه.

المزامير / ٧٨ / ٦٥ - ٦٨

ومن هنا طغت اليهودية حتى أصبحت علما على بقية الفصائل المتحالفة ليحملوا جميعاً لقب (يهود)، وتصبح أيديولوجيتهم العقدية هى (اليهودية)، أما الأمر الذى يجب التركيز عليه أن يهودا ويهود ويهودية تنتسب جميعاً إلى رب التجليات المتعددة فى المشروم البركانى وفى خنافس شجرة الأيكة وعناق، أطول الفصيلة الكلبية عناق، ضبع آدوم، وفى الطائر البونى، وفى القمر رب الهواء (هفا) أو (هوا) أو (يهوه).

لقد هرب موسى من مصر إلى مديان، ليدين هناك بعبادة (يهوه)، ويعود ليخرج برجاله من مصر إلى مديان تحديداً ليلتقى بحلفائه فى سيناء، لكن لتسيطر اليهودية الهكسوسية المديانية من بعد، ويسود ربها (الكائن) الذى لا يصح النطق باسمه، بل ينادى فقط بالكائن أو (يهوه).

والواضح تاريخياً، ومن الآثار، ومن الكتاب المقدس ذاته، أن دخول (يهودا) مرة أخرى إلى فلسطين عند طرده من مصر هكسوسياً شريداً، أو عند خروج الإسرائيليين من مصر لحوقاً بيهودا، مما دعم هذا الحلف الشرس، فإن كليهما لم يستطع أبداً طوال قرون عديدة، أن يكون المسيطر الأول فى فلسطين، بعد

استعادة مصر قوتها، واشتداد قبضتها على أراضيها الآسيوية. ومن ثم تراوحت الأحوال بين السكون وبين الحرب الدموية بين هؤلاء وبين سكان فلسطين من فروع أخرى طوال الوقت، ولم تكتب لهم السيادة إلا مع قيام مملكة داود المتحدة هناك، وحتى بعد ذلك كان هناك شك كبير في أن سيطرة ذلك الجنس كانت مطلقة كما تحب أن توعز التوراة.

ومن كتاب (الآلئ) الذى عثر عليه فى أوغاريت، مدونا بقلم (إيلي ميلكو) كاهن أوغاريت الأكبر، ورئيس مقدمى القرايين والمطهرين، نجد حكايات عديدة، تشير إلى أنه فى ذات الوقت الذى حكم فيه (آمنحتب الثالث) وولده (إخناتون) فى مصر، وهو ذات الوقت الذى كانت تهاجم فيه قبائل العبيرو/ الخابيرو بلاد فلسطين، هو ذات الوقت الذى سجل فيه (إيلي ميلكو) دمار أوغاريت على يد فصائل أجناس همجية يشار إليها مرة باسم الخابيرو، ومرة باسم اليوديم (اليهود / المؤلف) ^(٢٦). إننا الآن مع فك الخيط الأخير فى طلسم الخابيرو، لقد كان الخابيرو فعلا وصدقا هم العابيرو العبريين، هم الفرع اليهودى الهكسوسى الذى طرد من مصر على يد بطل التحرير أحمس حوالى عام ١٥٨٠ ق.م، وبعد مرور حوالى قرنين من الزمان تقريبا، كانوا يحاولون استعادة السيطرة على أملاك مصر فى فلسطين، ليأتينا ذكرهم فى وثائق المنطقة، ووثائق العمارنة باسم (الخابيرو)، فى الوقت الذى كان فيه العنصر الإسرائيلى الأسير لا يزال بمصر، على استعداد للخروج واللحوق ببقية فصائل الأحلامو، التى شتتها وفرقها فراعنة مصر الأشاوس، وبذلك نكون قد عثرنا على تفسير كيف كان الخابيرو لازالوا عبيداً بمصر، بينما كانوا فى الوقت ذاته - زمن العمارنة - يهاجمون أراضى فى فلسطين، لقد كان الخابيرو فى نصوص العمارنة هم اليهوديين الهكسوس.

وبتأكد صدق فهمنا هنا بما ورد بالكتاب المقدس من فلتات كانت تفرق بوضوح فى أكثر من موضع من أسفاره بين الإسرائيليين من جهة وبين العبريين من جهة أخرى، رغم نظريته الشاملة فى كونهما إثنية واحدة، فهو يقول فى سفر صموئيل أول: " والعبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله الذين صعدوا معهم إلى المحلة من حوالهم، صاروا هم أيضا مع إسرائيل الذين مع شاول ويوناثان/ ٢١/١٤ ". ومن جانب آخر تحرم شريعة التوراة استعباد الإسرائيلى لكنها لا تحرم استعباد العبرى سبع سنوات (انظر سفر اللاويين ٣٩/٢٥ وسفر الخروج ١٢/٢١ وسفر التثنية ١٥/١٢ وسفر إرميا ٩/٣ - ٤)، كذلك تبين الإصحاحات (٣/١٣ و ٧/٦ من سفر صموئيل أول) تباينا واضحا لدى المحرر التوراتى بين بنى إسرائيل وبين العبريين.

وهكذا نرى أنه مع تأخر الإسرائيليين فى الخروج ثم لحوقهم باليهوديين الهكسوس فى زمان تال، قام محررو التوراة باحتساب اصطلاح العبرى أى حلف البدو دالا على إثنية بعينها، نسبوا إليه إثنية أخرى هى الإسرائيلية، رغم أنهم بدورهم كانوا قبائل وشرانم متحالفة. فأخذت التوراة تؤكد وتزيد وتردد أن يوسف كان عبرانيا أى بلغتنا أو حسب نظريتنا كان هكسوسيا خبرويا كما كان الجد الذى انتسبوا إليه يعقوب/ إسحق

(٢٦) إيلي ميلكو كبير كهنة أوغاريت: الآلئ، ترجمها ديل ميدكو عن الأوغاريتية، ترجمها الى العربية مفيد عرنوق، دار أمواج، بيروت، ط٢، ١٩٨٩، ص ١٨٧.

الضحاك. ومن هنا أصبح الهكسوس أرومة أولى هي يهوذا العبرى الذى تم إدراجه ضمن الأسباط بالقول أنه كان الأخ الأكبر بين أبناء إسرائيل، ليصبح اليهوديون الهكسوس الخابيرو إسرائيليين، ويصبح الإسرائيليون خبيرو هكسوسيين. ومن ثم فإن هناك نتيجة أخرى تترتب على هذا حيث سيكون هناك خروجان قد تما من مصر: الخروج الأول هو خروج الهكسوس اليهوديين ثم تلاه الخروج الثانى وهو الخروج الإسرائيلي، وكلاهما بدوى كان اليهودى فيه يحمل النعت عبرى أوخابيرى ثم تم تعميم صفة العبرى بعد ذلك لتشمل إسرائيل.

ويبدو أن هذا المعنى كان يداعب الأركيولوجيست (كاثلين كانيون) لكنها أبداً لم تصل إلى كون الخبيرو فى نصوص العمارنة كانوا هم فصيل يهوذا الهكسوسى وأنهم غير الإسرائيليين، فهى تقول: « إن قصة الخروج فى حد ذاتها قصة مركبة، وفى وجهها الأول يبدو الهروب الذى ينظر إليه المصريون بمثابة اختفاء مزعج ومتعب لمصدر مفيد من مصادر عمل السخرة، وفى وجهها الثانى يبدو كأنه طرد لعبيد متمردين أو أجنب متسللين. ومن هنا يمكن القول بأنه توجد قصتان على الأقل للخروج مندمجتان فى قصة واحدة .. وبالنظر إلى وصف طريق الخروج تقول مناقشات الأب دو فو De Vau أن هناك طريقين منفصلين لهذا الخروج، وهو أمر أكثر إقناعاً. أحد هذه الطرق يمر بحافة الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط ومن ثم تدخل الجزء الجنوبى من فلسطين ومن هنا تكونت قبائل يهوذا الجنوبية [وهو ما نراه الخروج الهكسوسى اليهودى الذى اتخذ طريق ساحل المتوسط ودخل فلسطين من جنوبها واحتل أورشليم / المؤلف] أما الطريق الثانى الذى سار عليه موسى وهو شخصية تاريخية فينحرف بدرجة كبيرة نحو الجنوب إلى أطراف شبه جزيرة سيناء [وهو ما نراه الخروج الإسرائيلى الذى اتجه إلى بلاد مديان فى عمق سيناء الجنوبى والشرقى / المؤلف] .. وهناك موقع آخر محتمل لجبل الطور [تقصد جبل الله المقدس / المؤلف] هو خليج العقبة » (٢٧).

وتتابع كانيون تصورها لخروجين احتسبتهما كليهما لبنى إسرائيل بالذات فتقول: « أكد معظم الباحثين المحدثين النظرية القائمة على دخولين منفصلين لفلسطين من الجنوب ومن الشرق .. ف فيما يتعلق بالدخول من الجهة الجنوبية لاتوجد شواهد أثرية مؤكدة، لكن فى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد [وهو زمن سقوط إخناتون / المؤلف] تعرضت المدن الفلسطينية لتدمير شامل » (٢٨).

ويتأكد صدق تخريجنا هذا عندما نتذكر ماسبق وأوردناه حول حملة الفرعون سيتى الأول على فلسطين والتي كان غرضها صد هجمات العابيرو القادمين من عبر نهر الأردن من الشرق إلى فلسطين، (٢٩). وكان اسم العابيرو قد لحق الجميع يهوذى وإسرائيلى، وبحسبة بسيطة سنكتشف مدى وجهة نظريتنا فى تحديد زمن الخروج الإسرائيلى من مصر ومدى دقتها، وهو ذات زمن الهجمة الهكسوسية الثانية أيام آمنحتب

(٢٧) كاثلين كينونى: الكتاب .. سبق ذكره، ص ٤٣ ، ٤٤.

(٢٨) نفسه : ص ٤٤.

(٢٩) السواح / الحدث .. سبق ذكره، ص ٦٤.

الرابع التى أشار إليها يوسفوس نقلا عن مانيتو. فقد انتهى حكم إخناتون / آمحتب الرابع عام ١٣٥٠ ق.م. وبعدها خرج الإسرائيليون من مصر، وكان زمن حملة الملك سيتي لصد هجوم العابيرو والقادمين من شرقى الأردن إلى غربه بفلسطين كان عام ١٣٠٩ ق.م. وبالحساب السهل نكتشف أن فرق زمن الخروج الذى نفترضه من زمن حملة سيتي وهو زمن وصولهم شرقى الأردن لعبوره، هو بالضبط الزمن الذى قضاه الإسرائيليون فى سيناء، لأن الفارق هو بالضبط أربعين عاما، تلك المعروفة باسم سنوات التيه .

وفى كتاب اللآلئ الأثرى الذى كتبه كاهن أوغاريت (ميلكو) - والذى أثار ضجة عالمية بعد أن تم العثور عليه كاملا - حتى أسماء البعض: التوراة الكنعانية، - يوضح فى ثناياه أن سبطا مثل أشير لم يدخل مصر إطلاقا، فقط ربما كان حليفا أصيلا ضمن الأحلامو الذين كانوا يحاولون استعادة قوتهم بعد ضربة مصر القوية التى هشت الحلف، فنجد إشارات عديدة فى اللآلئ إلى (الأشير تم) وهى صيغة جمع لكلمة أشير اسم أحد الأسباط.

ورغم مالحق نصوص الكاهن (ميلكو) من تلف، فإن فيها الكثير مما يمكن قراءته، مثل ذلك النص الذى جاء فى اللوحة IIAB يقول:

ولكنهم ضاعفوا الخلاف هؤلاء الأشيرتم، فخذ شباكا وأنت
تتحنى .. انشقاق رؤساء اليهوديم.. فيما قاسة إيل
وأبناء إيليم سوف يدمرون أتباع إيل..

ها هى النار منذ يومين تلتهم، وكل شئ وقع فى العار،
والأشياء القبيحة فى القصور .. يذبح الأبقار حتى
المواشى الصغيرة، يرجم الثيران وتحت تأثير اللعنات
تهلك العجول .. وأنا أوافق على أن نخبر بأنى أنشر
الدمار فى الأردن، إلى أحزانك سوف لاتدير وجهها
قرتوهة QU ARTUHA وكما أعلنت سينهار عرشها
وستكون المغارة مسكنها، سوف أدمر ميراثها وستقنى ..
ذلّ الليبنت YABNT (٣٠).

وفى اللوحة IAB

كعلامة حداد ينثر على رأسه الرماد، الفلسطينى امسك
به حتى جعله يسقط، فاخترأ هربا من حصارهم .. لا
تعط وجهك إلى العدو القاسى عندما يتقرر جر العدو
رئيس اليهوديم حتى حلبا لاحتلال رهايتم وسحق بيت

(٣٠) نشرها فيللور تحت عنوان: نشيد عليان بعل وذلك فى مجلة سوريا عام ١٩٣٢ ص ١١٣ ، ١٦٣.

الأحرار، إقبل أن يحكموا الأردن^(٣١).

وفى اللوحة VAB

عندما يتقدم العبريون، حدد حدوداً للعبريين، لتكن **قيلة**
Queilah للعبرانيين، وشمشيراى وأعالى الصحراء
Shensheray لدغى **La doghy** وأشيرة **Asherat** من عاى
Ai حتى قادش **Quadesh**، ونحو مصائبك سوف لاتدير
وجهها مصر القاسية.

إنهم **باللغات دمرؤا كفتور** **Kaphtor**، حجبوا مساكنها
بقوى سماوية، وأرض ميراثها، بمساعدة ألف إبليس
مقاتل كالجيش، أسقطوها تحت الأقدام، وبسرعة جعلوها
تتحنى مثقلة بالشقاء^(٣٢).

ومثل كل النصوص القديمة، تبدو نصوص الكاهن ميلكو ملتبسة وصعبة الفهم المتتابع، وميلكو الذى نعرفه كان يعمل فى بلاط العمارنة بمصر على وجه التحديد، قبل أن يعود الى بلاده أوغاريت. إلا أنه يمكن تكوين فكرة عامة من تلك النصوص تشير إلى حروب طاحنة، يقف سبط (أشير) كنصر واضح فيها، ويحالفه عنصر آخر وهو (بوديم)، أى اليهوديين، وليس فى كل نصوص (ميلكو) إشارة واحدة الى قبائل إسرائيل، مما يعنى أنها لم تكن قد ظهرت فى المنطقة حتى زمن كتابه ذلك النص، ولم تشارك فى تلك المعارك فى البلاد الواقعة على الساحل الشرقى للمتوسط، وهو ما يعنى أن القبائل الإسرائيلية كانت حتى ذلك الوقت لم تخرج بعد من مصر.

ويؤيد تفسيرنا هذا أنه فى تقسيم الأرض على الأسباط فيما بعد، كان سبط آشير أقرب الفروع جغرافيا الى أوغاريت، مما يشير الى استقراره فى المناطق التى استولى عليها قبل الخروج الإسرائيلى حيث كان عنصرا هكسوسيا أو حليفا تابعا، وكان يستقر هناك من زمن طويل.

ثم ملحوظة أخرى تشير الى معارك خاضها رئيس اليهوديين ضد الفلسطينيين، مما يشير الى التواجد الفلسطينى المستقر على الساحل زمن العمارنة، وهو المؤكد تاريخيا، حسبما أوردنا فى فصل لغز البلست. ثم يحدثنا النص: " انهم باللغات دمرؤا كفتور " ولم يقل الكفتوريين حتى لاينصرف ذهننا الى الفلسطينيين البلست على الساحل الكنعانى، لقد خص الجزيرة بالذكر، وكانت تطلق عموماً على جزر البحر المتوسط فى نصوص العمارنة. إن النص يشير الى تدمير اليهوديين الهكسوس لبلاد كفتور بمساعدة ألف إبليس، وسبق وعلمنا من هم الأباليس أتباع ست تيفون. وبالطبع لايمكن تصور أن تدمير كفتور كان عند احتلالها فهذا زمن يبعد حوالى

(٣١) نفسه تحت عنوان (موت) بنفس المجلة، ١٩٣٤، ص ٣٠٥، ٣٣١.

(٣٢) إيلي ميلكو: اللآلئ .. سبق ذكره، ص ٧٠، ٨٢، ٨٣، ١٢٥، ٣٠.

قرنين من الزمان، لكنه حدث عند طردهم من مصر، حيث نجد فى سجلات فراعنة التحرير نصوصا تشير الى أن فراعنة التحرير كانوا على اتصال واضح بقيادة الجزر. وأن الثورة التى حدثت فى مصر واكبتها ثورة أخرى حدثت فى كريت ضد الاحتلال الهكسوسى، حيث نجد لوحا دونه أحمس بالكرك لتخليد أعماله وأعمال والدته الجلييلة القدر (اياح حوتب) التى قادت الجند بعد موت زوجها سقن رع حتى شب ولديها كامس وأحمس لمتابعة نضال الأب الشهيد. وفى ذلك اللوح نجد إشارات واضحة لاتصالات بين قادة التحرير فى مصر وبقية الثوار فى بقاع الإمبراطورية الهكسوسية الذين ثاروا بتحريض وبتموذج مصر، خاصة تلك المراسلات مع أهل بحر إيجة الذين كانوا منذ زمن مبكر أتباعا وحلفاء مخلصين لمصر وملوكها.

وفى زمن التحرير سجل اللوح المذكور أن سكان بحر إيجة قد أطلقوا على المرأة الحديدية (اياح حوتب) لقب سيدة جزر البحر الأبيض (حايونبوت) ويوضح محمد حماد معنى هذا الاسم بقوله إنه " جزيرة كريت وما حولها من جزر إذا أن هذه الجزر تعاونت مع المصريين فى كسر شوكة الهكسوس فى المنطقة كلها ". ثم يعقب على عبارات أخرى باللوح بقوله: " ويمكن أن نرى كذلك فى هذه الكلمات ما يشير الى أن هذه الملكة قد قامت كذلك بنشاط ملموس خارج البلاد ". " ولايستبعد أن يكون أهل الجزر أنفسهم هم الذين خلعوا على تلك البطلة ذلك اللقب مخلصين، لإعجابهم بها، فهم لاشك قد كرهوا حكم الهكسوس وضاقوا به كما ضاق به المصريون .. ثم إنهم وجدوا فى مصر أقوى معين لهم على الخلاص .. ولاشك أن هذه العلاقة القوية التى نشأت بين مصر وكريت كانت لها أهمية خاصة، ظهرت فى الثقافة وفى الصناعة والصلات التى تبودلت بين أهل البلدين منذ أقدم العصور " (٣٣).

أما التعبير " انشقاق رؤساء اليوديم "، فيوضح أن تلك الثورات التى اندلعت بتدبير حكام طيبة من فراعنة التحرير فى المناطق التى كانت تابعة لمصر من البدء، قد أدى الى خلافات واضحة بين رؤساء الحلف الهكسوسى أدت الى انشقاقهم وتفسخ حلفهم. والإشارات مثل رجم الثيران وذبحها تردد صدق ما نجده بعد ذلك فى الشريعة التوراتية، التى كانت تأمر بإبادة المدن بشراً وحيواناً وعمراناً، وهى ذات الفعال التى سجلها المصريون عن محتلى بلادهم الهكسوس.

ولا يفوت الفاحص هنا الأسماء التى وردت بتلك النصوص لمواضع، فدمار الأردن يترافق مع أولئك الذين يسكنون المغارات، الذين أدلوا أوغاريت، وقد ترجمت " ذل الليبت " بينما قراءتها الصحيحة. كما وردت بالنص YABNT، والياء تستبدل بالهاء أداة التعريف السامية الشمالية. إنها (هـ - بونت). أما قرتوه QUARTUHA فهى (قيراتو) وقد جاءت بالنص واقعة فى محيط الأردن وبلاد بونت، ونعتقد أنها الآن (قريات) الى الشمال الشرقى من عاصمة آدوم (البتراء) أو القرية قرب الحجر على ساحل البحر الأحمر الشرقى جنوبى آدوم، وتقع فى محيط منطقة تحمل ذات التتغيم، فهى تقع فى وادى القرى .

(٣٣) محمد حماد: كامس .. سبق ذكره، ص ٦١ : ٦٤.

أما (مفيد عرنوق) فيلخص لنا رأياً سائراً ألقاه المؤرخون إلقاء يقول: إنه « في فلسطين اختلطت شعوب سامية بشعوب منحدره من المناطق الجبلية الشمالية، وهذه الشعوب - وبنوع خاص الأناضولية القديمة - غير سامية، ألقت فيما بعد الشعب الحثي HITTIES الذى خلف فى فلسطين طابعا مميزا بالنسبة لبقية الأعراف، وهو الأتف المعقوف، الذى كان من المعتقد أنه من المميزات السامية وبنوع خاص اليهود ، بينما هو كما نرى اليوم يعود الى السلالة الأناضولية، فهو إذن غير سامى انتقل الى الساميين عن طريق التمازج السلالى »^(٣٤).

أما الأركيولوجى والعالم اللغوى فى الأوغاريتيات البروفيسور (ميدكو) فيقدم لنا التباسات وخط تاريخى اعتدناه فى متابعتنا لتاريخ المنطقة، وفى وسطها إضاءات برقية حقيقية، تبدو كحدس سريع تأكد لنا يقينه بعد كل ما قلناه. ويقدم لنا هذا المزيج المتناظر فى قوله: « من هم العبرانيون؟ ومن أين أتوا؟ جوابا على هذه الأسئلة التى طالما اكتنفتها المتناقضات يمكننا اليوم إعطاء جواب عنها، فكان دخولهم الى فلسطين فى زمن تل العمارنة، أى حوالى ١٤٠٠ ق.م، ويصح أن يكونوا من قبائل الخبيرو التى كانت تقاتل آنئذ الكنعانيين، أما تقاليد العبرانيين فقريبة فى ذلك العهد من تقاليد الحثيين وشعوب بين النهرين، ومن المرجح أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من اللغة الحوية، Hevien ، كتابتها هيروغليفية استخدمها الحثيون الأوائل، ولما كان إلههم يدعى يه أو يهوه، فثمة صلات لغوية وعرقية كانت تربطهم بالحيثيين والحويين الساكنين فى البلاد، إذن الافتراض هو أن العبرانيين يؤلفون بقايا الحثيين الذين اجتاحتهم مملكة بابل بتاريخ ١٩٠٠، ونحن نلاحظ أن التوراة تعتبر دوما الحثيين والحويين على صلات طيبة »^(٣٥). وهكذا حل (ميدكو) المشكلة فى تلك السطور ببساطة ساذجة لم تحل شيئا، بينما استغرقت منا نحن الصفحات السوالف وماسيلها، وأكلت من عمرنا سنوات.

ويصبح الخابيرو فى زعمنا اسما عاما على الأحلاف الهكسوس اليهوديين، بينما يشكل الإسرائيليون فى تلك الأحلاف واحداً فقط من عناصرها ، وإذا كان الخابيرو أو العابيرو هم أحلاف آدوم وبوادي الشام، فهو الأمر الذى يفسر للباحثين ذلك التضارب الشديد فى الآراء حول أصل العابيرو. وهو ما يفصح عنه قول فراس السواح: « نلاحظ كل من أسماء زعماء العابيرو فى رسائل تل العمارنة أن بعضهم من أصل سامى مثل ملكيلو (ملك - إيلو)، وبعضهم الآخر من أصل هندوأوروبى مثل شوارداتا ولابايو، وهذا يدل على الأصول المختلفة لجماعات العابيرو وعدم انتمائها الى منشأ إثنى عرقى واحد»^(٣٦). وملاحظات فراس السواح على زعماء العابيرو هى ذات ملاحظاته على الهكسوس، فهو يقول فى موضع آخر « ورغم أن معظم أسماء الملوك الهكسوس سامية، إلا أننا نعثر بينها على أسماء غير سامية أيضاً، الأمر الذى يدل على وجود

(٣٤) مفيد عرنوق: تعقيباته على ترجمته لكتاب ايلي ميلكو (اللائى) .. سبق ذكره ، ص ١٣٥.

(٣٥) نفسه: ص ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦.

(٣٦) السواح : أرام .. سبق ذكره ، ص ٨٢.

عناصر مختلطة في التركيب الإثني العرقي لهذه الجماعات، وربما كانت هذه العناصر غير السامية قد جاءت من أصل حوري .. وان الطبقة العسكرية الحاكمة للجماعات الحورية كانت من أصل هندوأوربي^(٣٧)، وهو أمر انتهى المؤرخون الى إقراره كما جاء عند (مهران) يقول : " إن الهكسوس أنفسهم كانوا خليطاً من أجناس مختلفة ما بين آرية وسامية " (٣٨). لذلك ينتهي السواح الى القول: " إن هؤلاء الخابيرو لم يكونوا جماعة عرقية متميزة، بل أخلاطاً من أجناس شتى، ولا تساعدنا أسماء الأعلام الدالة على أفراد منهم فى نصوص مارى وغيرها من ممالك البرونز الوسيط على تبين لغة واحدة تجمع بينهم. كما أن هذه النصوص لاتساعدنا على تحديد نمط حياة موحد لهذه الجماعات " (٣٩).

ويذكر السواح تفصيلاً تشغلنا وتعنينا وتؤكد نظريتنا فى تحالف عنصر جنوب جزيرى وزنجى مع عنصر هندوأرى قادم من الشمال، فى المركز التجارى العالمى الوسيط، إذ يقول: " وتشير هذه النصوص الى جماعتين رئيسيتين فى الخابيرو هما: بنو يامينا أو أهل الجنوب، وبنو شمال أى أهل الشمال " (٤٠).

إن الخابيرو أو يهوذا أو الهكسوس كانوا يتشكلون من موجتين مهاجرتين، موجة مختلطة زنجية - جنوب جزيرية قادمة من جنوب الجزيرة قبل أن تتكلم العربية المعروفة ويمثلهم اصطلاح بنيامين / بنو يميناء، التى تعنى أبناء الجنوب لأن الكلمة يمن فى العبرية تعنى الجنوب، كما تعنى بلاد اليمن (ساكن الجزيرة كان يحدد الاتجاهات الأصلية بالتوجه نحو شروق الشمس فتصبح بلاد اليمن عن يمينه والشام عن شماله). أما الهجرة الثانية فهى هندوأرية قادمة من الشمال الأرمينى والتركى هم بنو شمال أو بنو الشمال أو بنو شمأعيل (إسماعيل).

وقد ذكرت بداية ملحمة قراتو الأوغاريتية أن HBR العابيرو فئة عظيمة جبارة وأن قاداتهم كانوا يعرفون بلقب Try الجبابرة أو العمالقة (٤١).

وتتالى الأحداث ويخرج الإسرائيليون من مصر بقيادة موسى، ولا يأخذون الطريق المباشر الى فلسطين، بل يدورون داخل سيناء مع ساحل ذراعى البحر الأحمر، ليلتقوا بحلفائهم التاريخيين فى مديان، ويدخلوا فلسطين ليظلوا أربعة قرون يعيشون فى هيئة ائتلاف قبلى (نظام القضاة) حتى تمكن أحد أفراد الفصيل الإسرائيلى المعروف باسم (شاؤول) من قبيلة بنيامين، أن يقيم المملكة، لكن ليلتف عليها العنصر اليهودى بقيادة (داود) الذى كان من يهوذا حوالى ١٠١٢ - ٩٧٢ ق.م ويتم قتل (إيشبوشث) ابن شاؤول، ليستولى اليهوديون على الحكم.

(٣٧) نفسه: ص ٢٤ ، ٢٦.

(٣٨) بيومى مهران: دراسات .. سبق ذكره، ص ١٣٩.

(٣٩) السواح: ارام .. سبق ذكره، ص ٢٦.

(٤٠) نفسه: ص ٢٧.

(٤١) شيفمان: أوغاريت .. سبق ذكره، ص ٢٧ .

وكان إيشبوشث بن شاول ابن أربعين سنة حين ملك
على إسرائيل، وملك سنتين، أما بيت يهوذا فاتبعوا
داود / صموئيل ثاني ٩/٢ ق.م

وفي عهد سليمان بن داود حوالي ٩٧٢ — ٩٣٢ يدون المقدس عن الاتحاد بين العنصرين اليهودي
والإسرائيلي:

وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر
في الكثرة/ ملوك أول ٢٠/٤

وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين/ ملوك أول ٢٥/٤

لكن مع موت سليمان يقرر الفرع الإسرائيلي الاستقلال، وفي حوالي عام ٩٣٢ ق.م تتفصل القبائل،
ويؤكد لنا المقدس أن ذلك النزوع للانفصال كان قائما من زمن داود، فيقول:

فعصى إسرائيل على بيت داود الى هذا اليوم، ولما
سمع جميع اسرائيل بأن يربعام قد رجع، أرسلوا فدعوه
الى الجماعة، وملكوه على جميع إسرائيل، ولم يتبع
بيت داود إلا سبط يهوذا وحده، ولما جاء رحبعام الى
أورشليم، جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين / ملوك
أول ١٢/١٩ — ٢١.

وهكذا فإن (يربعام) الإسرائيلي كان قد عصى على سليمان وثار عليه، ثم هرب الى بلاد مصر لاجئا
سياسيا، وعاد بعد موت داود ليملك على الإسرائيليين في مملكة منفصلة باسم إسرائيل وعاصمتها السامرة،
بينما حكم (رحبعام بن سليمان) المملكة الجنوبية باسم مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم. وعلينا ان نتذكر هنا
أن الفرعون (شيشنق) قد هاجم مملكة رحبعام بن سليمان بعد تولي رحبعام بخمس سنوات، مما يشير إلى أنه
كان يدعم يربعام الإسرائيلي في انفصاله، حيث نجد مملكة إسرائيل تقوم في الشمال بعد غزوة شيشنق
لفلسطين. أما ما يجب أن نلاحظه هنا فهو النصوص التوراتية عندما نتحدث عن الشعبين متحدين تستخدم
اصطلاح كل اسرائيل أو جميع إسرائيل ويهوذا كما في قول المقدس التوراتي عن سني حكم الملك داود:

وفي أورشليم ملك ثلاثا وثلاثين سنة على جميع
إسرائيل ويهوذا.

صموئيل ثاني / ٥

وعندما كانت نصوص التوراة تود الإشارة الى واحدة من قبائل التحالف الإسرائيلي مثل بنيامين فإنها
كانت تستخدم اصطلاح سبط، أي فرع إسرائيلي، لكنها حين كانت تريد الحديث عن إسرائيل بكل أسباطها

وحدها دون يهوذا، فقد كانت تستخدم اصطلاح (بيت اسرائيل) و (بيت يهوذا)، مما يشير الى انفصال واضح، فأبناء اسرائيل أسباط، أما يهوذا فليس سبطاً، إنما هو بيت مستقل عن بيت اسرائيل، ثم تجمع كل بيت اسرائيل في يعقوب، وكل فصائل الهكسوس في يهوذا، كما في قولها:

بل أخرج من يعقوب نسلا، ومن يهوذا وارثا لجبالى،
فيرثها مختارى

أشعيا ٦٥ / ٩

فى تلك الأيام يذهب بيت يهوذا مع بيت اسرائيل
ويأتيا معا

إرميا ٣ / ١٨

أما الإشارة الفصيحة البليغة فهى فى تقرير الرب نفسه أنه حاول لصق البيتين معا قدر استطاعته لكنه فشل حيث يقول:

ألصقت بنفسى كل بيت اسرائيل وكل بيت يهوذا، يقول
الرب، ليكونوا لى شعبا واسما وفخراً ومجداً لكنهم لم
يسمعوا

إرميا ١٣ / ١١

وتتقسم المملكة وينفك الحلف ويظل الأنبياء يحلمون بحلم الأحلام مرة أخرى وان المملكة ستقوم فى
أيام مقبلة، يرددون الأمانى قائلين:

ها أيام تأتى، يقول الرب، وأقيم لداود غصن بر فيملك
ملك، وينجح ويجرى حقا وعدلا فى الأرض، فى أيامه
يخلص يهوذا ويسكن اسرائيل آمنا

إرميا ٢٣ / ٥ ، ٦

أما ذكرى فقد بح صوته وهو ينادى الشتات: يابيت
يهوذا ويابيت اسرائيل.

زكريا ٨ / ١٣

لكن الإشارة الهامة هنا تماما، والتى تشير الى أن لحظة خروج اسرائيل من مصر، كان يهوذا
مستقرا فى مقدسه اورشليم، تهرب منه مياه فلسطين وجبالها، فى صيغة توراتية تقول:

عند خروج اسرائيل من مصر، وبيت يعقوب من شعب

أعجم.

كان يهوذا فى مقدسه وإسرائيل فى محل سلطانه.
البحر رآه فهرب. الأردن رجع الى الخلف، الجبال
قفزت مثل الكباش، والآكام مثل حملان الغنم.

مزامير ١١٤ / ١-٤

وبينما يهوذا أو كما نزع: الخابيري الهكسوسى قد استقر فى جبل صهيون بأورشليم، وإسرائيل لم
يخرج بعد من مصر، قال الرب عن يهوذا:

أساسه فى الجبال المقدسة، الرب أحب أبواب صهيون
أكثر من جميع مساكن يعقوب.

مزامير ٨٧ / ١، ٢

لقد وضح أن الأقوى دوما كان يهوذا، وهو من دونت أغلب أسفار التوراة فى حجره ومن على
كرسى سلطته، فساد ربه يهوه بينما تراجع إيل رب إسرائيل.

أما جبل (صهيون) الذى استبدلته المملكة بجبل سيناء المقدس وجبل (صافون)، وأطلقت اسمه على
جبال أورشليم عاصمة يهوذا، فإنه لم يستطع إخفاء أصله، لأن (صهيون) لغة ليست شيئاً آخر غير (صافون)
باختلاط الياء وكذلك الواو مع الفاء كما فى (لاوى) و (ليفى).

هذا بينما ترد إشارات غامضة الى عنصر يسمى (الحوى) كان فى طريق الخارجين من مصر، وينطق
أيضاً (الهوى) وهو واضح النسبة الى يهوه، لكن تم إخفاءه بعناية فى طوايا الأحداث، وهو ببساطة اسم يدل
على الجنس اليهودى الهكسوسى الذى انتشر شذراً مدراً فى سيناء وبوادي الشام بعد طرد الهكسوس من
مصر، واستعادة مصر لسلطانها على أملاكها الآسيوية.

وتلك الإشارات السريعة الى (الحوى/ الهوى) تفصح عن نفسها وتصبح شديدة الوضوح بعد ما قلنا
وشرحنا، وينجلي السر عن ذلك الشعب الغامض الذى حير الكتاب زماناً، فهم الشعب الذى اتحد مع
الإسرائيليين بقيادة يشوع بن نون فى نص شارد وسط أحداث متلاحقة لاتعطى فرصة التأمل للكشف، ومن
نماذج ذلك:

الحويون صالحوا يشوع

يشوع / ٩

لم تكن مدينة صالحت بنى إسرائيل إلا
الحويين.

يشوع ١١ / ١٩

أما من هؤلاء الحويين/ الهويين، فهو ما يفصح عنه نص يتحدث عن تاريخ قديم لعلاقة يعقوب بهم عندما حل ضيفا عليهم يعيش في حماهم، ويشير الى اسم ملك هؤلاء في قول التوراة:

حمور الحوى رئيس الأرض

تكوين ٣٤ / ١ - ٣

لقد كان ذلك الملك الهوى الحوى يعتز ويفخر باسم إلهه فيتسمى باسمه (حمور) مثل بقية الملوك الحميريين، ومثله كان حمورابى من قبل يعتز باسمه (الحمار أبى).

أما (زينون كاسيدوفسكى) فيعقب على كل تلك الأحداث بعد انفصال المملكة الى عنصريها المتمايزين بقوله: " وعلى ضوء هذه الحقائق يغدو الوضع فى كنعان واضحا، سكنت القسم الشمالى منه القبائل اليهودية القديمة التى لم تكن فى مصر فى أى يوم من الأيام، ولم تغادره منذ زمن غابر، وكانت قد تماثلت حضارة الكنعانيين وعبدت آلهتهم، بينما استوطن القسم الجنوبى من أرض كنعان الاسرائيليون الذين جاءوا من مصر " (٤٢).

وهكذا خلط (كاسيدوفسكى) حابلها بنابلها ، فالرجل مثله مثل كل من كتب فى هذا الأمر، لمن يكن يعلم ما علمنا وهو أن يهوذا ليس شيئا آخر غير الحلف الهكسوسى الأخلامو قاطن الجنوب، ومن ثم رأى أن القبائل اليهودية لم تدخل مصر إطلاقا بل دخلها العنصر الإسرائيلى وحده. ولأن جنوبى فلسطين هو الملاصق لمصر، فقد استنتج كاسيدوفسكى بسرعة البرق الاستنتاجية التى لحظناها عند الباحثين، خاصة الأركيولوجين، الذين نتمنى عليهم أن ينهمكوا فى سبر أغوار الأرض وفك طلاسم الكتابات القديمة، ويتركوا لآخرين مهمة التحليل والتركيب والربط والاستنتاج، استنتج (كاسيدوفسكى) أن سكان الجنوب هم من خرج من مصر، ليقلب بذلك التاريخ رأسا على عقب، ويقاب الجغرافيا عقبا على رأس. مستندا الى شاهدة آخر، هو أن قبائل المملكة الشمالية عبدوا آلهة الخصب الكنعانية بينما ظلت المملكة الجنوبية على عبادة يهوه، هذا بينما التفسير الواضح لدينا هو أن اليهودى الهكسوسى قد خرج من مصر إلى مواضعه التاريخية جنوبى فلسطين، وتشنت الحلف وتم ضربه، فمنه ما ذهب جنوبا إلى جزيرة العرب، ومنه ما ذهب إلى بوادى الشام الشمالية وأسس الممالك الآرامية، ومنه ما تشنت في الجزر اليونانية. ومنه ما استقر فى مواضعه التاريخية. ليخرج الاسرائيليون بعد ذلك من مصر ويعيدوا التحالف مع الأحلاف، فى محاولة استعادة صيغة الأخلامو، ويدخل الاسرائيليون إلى فلسطين من شرق الأردن إلى أريحا، ولا يهبطوا جنوبها، إنما يستوطنوا الجزء الشمالى الذى حمل تاريخيا اسم إسرائيل، وظل الجنوب يحمل اسم يهوذا، وتحد المملكة زمن (شاول) الإسرائيلى، لكن لتخرج سدة العرش من بيت إسرائيل بعد ذلك الى بيت يهوذا، فيستولى (داود) اليهودى على المملكة، ويحكم بعده ولده (سليمان)، ثم يعود البيتان للانفصال زمن (رحبعام ابن سليمان / اليهودى) بدعم عسكرى مباشر من فرعون مصر ليربعام الإسرائيلى.

(٤٢) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١٢٣.

وكان طبيعياً أن يتعبد الإسرائيليون الخارجون من مصر لآلهة الخصب والنماء، بينما يظل اليهوديون كما كانوا في مواطنهم الأولى وكما كانوا في مصر وكما ظلوا بعد طردهم منها، يتعبدون لآلهة الصحارى دوشريت (سيت / عناق / هفا/ يهوه) البونتي السيناوى.

وإذا كان فرع يهوذا هو الهكسوس كما نقول نحن، فذلك يفسر لنا نصا توراتيا ظل غير مفهوم زمناً طويلاً، ورد في سفر ملوك ثانياً يتحدث عن زمن الملك يربعام بن يوش أحد ملوك إسرائيل الشمالية بعد انفصالها بزمان، ويحكى ذلك السفر أن يربعام هذا دخل معارك مع جيرانه الشماليين وكانوا أراميين خلّص وأنه انتصر في تلك المعارك، وأنه « استرجع إلى إسرائيل دمشق وحماة التى ليهوذا / ملوك ثانياً ٢٨/١٤ ».

وقد وقف الباحثون إزاء هذا النص يضربون الأخماس فى الأسداس لأن دمشق وحماة لم تكن يوماً تابعة لمملكة يهوذا، بل كانت تفصلها عن يهوذا دولة إسرائيل شقيقتها المنفصلة اللدود. فكيف استرجع ملك من دولة إسرائيل الشمالية دمشق وحماة اللتان كانت تتبعان دولة يهوذا الجنوبية ؟! كما لو كان بطلاً تاريخياً أعاد الأمور الى نصابها القديم الذى لم يكن حقيقة إطلاقاً؟.

أن المحرر التوراتى كان يعلم أن سبط يهوذا هو ذاته الهكسوس، وأنه ضمن مملكة الهكسوس الكبرى كانت دمشق وحماة، ورغم أن واقعة استرجاع يربعام للمدينتين لم تحدث إطلاقاً، فإن النص يعبر عن ذكريات كان مطلوب نسيانها، لكنها تقفز بين آن وآخر لتعطينا مفاتيح الألغاز.

وهكذا نكتشف أن التوراة السبعونية كانت تسجل فقط زمن دخول أسباط إسرائيل وخروجهم، لتؤكد أنهم بقوا في مصر فقط ٢١٥ عاماً ، بينما كانت التوراة المازورية العبرية الخابيرية الهكسوسية، تسجل زمناً آخر للبقاء في مصر، بدأت به من لحظة دخول الأحلاف الكبار الى مصر، وأنهته مع الخروج الإسرائيلى، فسجلت زمن بقاء الهكسوس فى مصر من لحظة دخولهم حتى طردهم على يد أحمس، وهو الزمن الذى يجب ان يبدأ حول عام ١٧٨٦ ق.م وينتهى بولاية أحمس فرعون التحرير حوالى ١٥٧٥ ق.م، وهو الزمن الذى يساوى ٢١٥ عاماً على وجه التقريب، ثم أضافت التوراة المازورية الزمن الذى استغرقه بقاء الاسرائيليين في مصر، من لحظة دخولهم زمن أسيس آخر فرعون هكسوس إلى زمن خروجهم بعد سقوط إخناتون بحوالى عشر سنين أو أقل، وهو الذى يساوى بدوره حوالى ٢١٥ عاماً. وجمعت كليهما فى زمن واحد هو ٤٣٠ عاماً.

لكن يبقى أمام ما قدمناه هنا لحل مشكلة الخابيرو عقبة شديدة الوطأة، يمكنها نقض كل ما قلناه وتشنته أدراج الرياح. وهى التى تتمثل فى النص الذى سلف الإشارة إليه، فى بداية الحديث عن الخابيرو والذى يعود الى زمن رمسيس الثانى، وهو النص الذى يتحدث عن وجود الخابيرو فى مصر، وأنهم كانوا يعملون فى نقل الأحجار للمعبد الذى يبنيه فى رسالة الكاتب (كوسيرا) الى رئيسه (بيكوبتاح)، التى يقول فيها:

وقد أعطت الأمر الذى أصدره سيدى، فأعطيت قمحا

للعسكر وللعاثيرو، الذين ينقلون الأحجار الى حصن
رمسيس العظيم، تحت ملاحظة إيمان رئيس الضباط،
وأعطيتهم القمح كل شهر، طبقاً للأمر الصادر الىّ.

فهل ترانا قد ذهبنا في الطريق الخطأ مذهباً بعيداً؟ هنا كان لابد من مراجعة الأمر كله، على الأحداث
التوراتية التي يجب - وفق نظريتي - أن تتزامن مع أيام حكم أسرة العمارنة، إذا كان فرضنا لزمن الخروج
صحيحاً، حيث قلنا إنه قد تم طرد الهكسوس العاثيرو من مصر على يد ملك التحرير أحمس عام ١٥٧٥
ق.م، بعد أن بقوا بها مائتين خمسة عشر عاماً، وتم أسر الإسرائيليين ليقوا بعد هذا التاريخ مائتين وخمسة
عشر عاماً أخرى، أي أنهم بذلك يكونوا قد خرجوا زمن اخناتون، الذي حكم ما بين ١٣٦٧ — ١٣٥٠
ق.م، والخروج يكون قد حدث بعد سقوطه عن العرش بعشر سنوات، أي يكونوا قد خرجوا حوالي ١٣٤٠
ق.م.

ويحكي الكتاب المقدس أن الخارجين قد استغرقوا في الرحلة من مصر الى فلسطين أربعين سنة، ثم
عاشوا تحت الحكم القلي المعروف بحكم القضاة، وكانوا على الترتيب (أي القضاة):

عنثيل بن قنار، وأهود بن حيرا، ثم القاضية المشهورة دبورة، ودبورة كلمة عبرية تعنى النحلة. وهي
التي تعنينا هنا حيث عثرنا معها على حل المشكلة المطروحة كعقبة في طريق الحل الذي طرحناه.

هنا يحكي لنا الكتاب المقدس في الاصحاح الرابع في سفر القضاة، ان الملك (يايين) الكنعاني، أذل
الإسرائيليين في فلسطين، وكان مقر ملكه في مدينة حاصور، أما قائد جيشه فكان اسمه (سيسرا)، وكان
(سيسرا) يسكن في مدينة (حروشة الأمم)

وبشرح لنا قاموس الكتاب المقدس معنى اسم (حروشة الأمم) تحت مادة (حروشة) بأنها تجمع سكنى
لأجناس من أمم مختلفة، وأنها الآن هي تل عمار على بعد ١٦ ميلاً الى الشمال الغربي من مجدو
بفلسطين.

والغريب أن الكتاب المقدس يقرر أمراً شديداً الغريبة، فيؤكد أن قائد الجيوش هذا المعروف باسم
(سيسرا)، كان لديه قوة ضاربة هائلة تتكون من تسعمائة مركبة سريعة من الحديد. وهو أمر لا يمكن على
الإطلاق تصوره مع ملك إقليمي لمدينة إقليمية بفلسطين، فهذا جيش يليق بإمبراطورية من إمبراطوريات ذلك
الزمن.

ونتابع رواية الكتاب المقدس فتقول إن القاضية النبية الإسرائيلية دبورة، كانت تعيش فى مكان يدعى جبل (تابور)، أو (دبور) وأنها دعت الإسرائيليين لمقاومة (سيسرا) وجنده عند قادش.

وبغض النظر عما لحق القصة من تهويلات أسطورية، فإن الحدث يمكن فهمه فى ضوء قصة الحملة الثالثة للملك رمسيس الثانى على فلسطين، حوالى عام ١٢٩٥ ق.م، ضمن حملات كانت موجهة دوما نحو قادش الجليل ومحيطها ويحكى لنا التاريخ:

وفى السنة التالية، وصل رمسيس شمالى فلسطين، حيث حاصر شاتونا، ثم دابور التى كانت تقع فى النهاية الجنوبية لمملكة عمورو، وبذلك يكون موقعها فى غربى الجليل، وفى قلعة دابور هذه سحب الحيثيون ملك العموريين السابق الذى خلعه ينبت شينا، ويبدو من النص أن الحيثيين قد استولوا على دابور السورية، وهى أقصى مدينة فى الجنوب يصلها الحيثيون الى حد الآن، وعندها دارت موقعة مهمة، الأمر الذى حدا برمسيس الثانى الى التقدم واختراق بلاد نهرينا/ دولة ميتانى، واستولى على رتو السفلى/ شمال سورية، وأرواد وبلاد كفتيو .. وفى هذا الوقت أو بعده بقليل قام رمسيس بغزو بلاد موآب .. وآدوم^(٤٣).

هكذا تعلمنا نصوص معارك رمسيس الثانى بمعركة كبرى ضد فلسطين، وضد غزاتها الحيثيين القادمين من الشمال، وإن هناك موقعة قد حدثت عند منطقة باسم دابور تقع غربى الجليل، وهو الموقع الذى حدده قاموس الكتاب المقدس لحروشه الأمم وجبل دابور.

وبعد أن هزم رمسيس الثانى سكان تلك البلاد وقام بتأديبهم، ورد الحيثيين وأوقف خطرهم مؤقتا، عاد الى مدينته (بى / رمسيس) بعدد غفير من الأسرى.

تمت هزيمة الآسيويين، جميعاً أتوا صاغرين، ينحنون أمامه فى قصره فى بى رمسيس ميرى آمون^(٤٤).

لقد كان هؤلاء الأسرى هم العبيرو الذين جاء ذكرهم بعد ذلك يحملون الأحجار لبناء الملك رمسيس الثانى، أما الحاسم فى الأمر فهو أن اسم ذلك المحارب الذى كانت لديه تلك المدرعات الهائلة، والذى سجله المقدس التوراتى بحسابه قائد جيوش كنعانى، بخطأ فادح لانعلم سره الآن، كان يحمل اسم (سيسرا)، وهو اللقب المتكرر المحبب للملك رمسيس الثانى، لقد كان ذلك اللقب هو (سى سى رع)^(٤٥). وهكذا يمكن تفسير

(٤٣) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٤٩، ٥٠.

(٤٤) السواح: الحدث .. سبق ذكره، ص ٦.

(٤٥) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٢٤، ٢٥.

البحر المتوسط

البحر الأحمر

أرام

عسروت

منسي

أفيق

بحر الجليل

كنارة

جبل تانور

حاصور

قادش

الجليل

دان

عكا

مجدو

تاعناخ

بيت شان

ديبون

رامه جلعاد

بنى آمون

جاد

الجلجال

ايل شطيم

بنيامين

أورشليم

بيت ايل

عاي

شايلاه

ششم

مغارة

أفرايم

أشدود

أثقلون

نسطينيون

جازر

دان

بيت شمس

يرموت

لاخيش

عجلون

حبرون

بيت لحم

دبير

أشموع

شمعون

بئر سبع

وادي تسين

النقب

مواب

ديبون

ريبن (رابون)

فير مواب

671

قاطعو الرقاب

معلوم أن اصطلاح (سامى) أو (ساميين) تسمية قد وضعها على أساس توراتى (شلوتزر) سنة ١٧٨١م. وانتشرت من بعده بعد أن قسم أجناس البشر حسب التوراة إلى: ساميين وحاميين ويافثيين، نسبة إلى أبناء نوح سام وحام ويافث. وأصحاب هذا التقسيم يذهبون إلى أن سام قد أنجب العبريين والعرب الذين يسكنون بواى الجزيرة والشام وسيناء، وأن حاماً قد أنجب المصريين والزنج الكوشيين الساكنين أفريقيا، وللعجب تمت إضافة الكنعانيين إلى بنى حام فى شجرة الأنساب التوراتية رغم أنهم ليسوا أفارقة بل من سكان فلسطين الآسيوية، لكن يبدو أن التوراة كانت تدون ذلك بما لديها من ذكريات زمن كانت فيه بلاد كنعان تتبع مصر سياسيا فاحتسبت الكنعانيين مصريين، هذا بينما أنجب يافث الهندوآريين وضمنهم الترك والصقالبة واليونان وأوروبا. وقد عنى علماء الساميات باصطلاح اللغة السامية مجموعة لغات شقيقة هى: العبرية والفينيقية والآرامية والبابلية والآشورية والعربية والحبشية الجعزية والأمهرية.

وقد سبق وعرضنا للفريق الذى يعيد أصول الساميين إلى جزيرة العرب عندما كانت جنات وارفة ترخر بالأنهار. وعلمنا أن مشكلة هذه النظرية التى تجعلها مستعصية القبول، هو أنها تعود بنا إلى أحداث وقعت إبان نهاية العصر الجليدى الأخير، لتفسر لنا بها حضارات فى أطراف شبه الجزيرة الشمالية فى الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد.

بينما علمنا أن هناك فريقا آخر يذهب إلى الاتجاه المعاكس تماما، فيأتى بالساميين مع الهندوآريين من بلاد أرمينيا القديمة، دون تبرير واضح للخلاف اللغوى والجنسى لشعبيين ينطلقا من مكان واحد فى اتجاه هجرة واحد ليستقروا فى مكان واحد. ويستمد هذا رأى وجاهته من سفر التكوين التوراتى، الذى ينسب الشعوب السامية إلى أرفكشاد Arpachsad أو أربكسد بن سام بن نوح (تكوين ١٠/٢٢ - ١١/٢٤ و ١٢/١). حيث لوحظ أن هذا الاسم هو بالضبط الاسم التاريخى لمنطقة آرابا - خيتيس Arrapa Chitis التى تسمى الآن (البك)^(١)، ولعله من الواضح أن الكلمة هى أيضا عرابة خيتيس، ولو أخذناها بهذا الشكل اكتسب الاسم معنى واضحا هو العرب الحثية أو الكاسية أو العرب الكاسيين أو القيسييين ويكون هؤلاء حسب نظريتناهم من منحوا وادى Arrapa عند العقبة اسمه عندما جاءوه مهاجرين. والتوراة تشرح لنا أن هناك قوما قد تعرضوا لكارثة طبيعية اضطروا معها إلى الهجرة على فلك أسطورى من مكان ما فى الشرق، معبرة بذلك الترميز عن وطن أول بعيد هو برأينا برارى أو اسط آسيا شمالي الهند، ثم نقول الأسطورة ترميزا للهجرة الأولى إن السفينة ألفت مراسيها عند المحطة الأولى لأولئك المهاجرين على جبال أارات الموجودة الآن بذات الاسم قرب بحيرة فان فى بلاد أرمينيا إلى الشمال من العراق فى محيط بحر قروين، ومن هناك انطلقت أجيال جديدة من البشرية تفرقت أجناسا فى أنحاء العالم المعروف آنذاك، والتوراة تؤكد:

(١) نولدكة: اللغات السامية.. سبق ذكره، ص ٢٢ .

واستقر الفلك فى الشهر السابع فى اليوم

السابع عشر من الشهر على جبال أراراط

تكوين ٤/٨.

وهنا يلفت (جويدى) نظرنا إلى أن الساميين ليس لديهم اسم مشترك للجبل، لكن لديهم اسم مشترك للنهر، ويستنتج من ذلك أنهم كانوا فى الأصل أهل زرع يعيشون معا قرب الأنهار فى مناطق ليست جبلية أو صحراوية (٢) وهو يريد بذلك تأكيد الأصل التوراتى الأاراتى للأرمينى للساميين كما هو فى الوقت ذاته أصل الهندوآريين.

لكن الدكتور لويس عوض من جهته لايعير اهتماما لحديث جويدى عن الأصول الزراعية للساميين القادمين من أرمينيا، ولأن الساميين عموما كانوا من البدو الرعاة، فقد ذهب يوجز أبحاثا كثيرة لذوى التخصص تدعم ذلك الرأى فيقول: « ظلت القوقاز وميديا (شمالى إيران/ المؤلف) وعامة منطقة بحر قزوين حتى العصور التاريخية الحديثة نسبيا ١٠٠٠ - ٥٠٠ ق.م. مجتمعات رعاة فى المقام الأول رغم معرفتها بالزراعة ورغم الاستقرار الزراعى فى أحواض أنهار الهند، كما نستخلص فى كتب إيران المقدسة ولاسيما الإفستا Aveasta والجائا والأوبانيشاد upanishads حيث نشم رائحة أبقار الرعى وجيادها وأعشابها الغالبة فى كل سفر من أسفارها » (٣)

ولأننا نعتقد - كما وضح - بهجرة قادمة من أرمينيا هى الهجرة الأرامية، لكننا نراها محض هندوآرية، ولأننا نراها هجرة لقوم من البدو وليسوا زراعيين، فقد ذهبنا نبحت عن تفسير لقوم رعاة رحل عاشوا فى مناطق زراعية خصبة، فعثرنا عند المؤرخين الكلاسيك على ذات المشكلة تواجههم وتؤرقهم، فقد لفتت نظرهم ظاهرة شعوب مرتحلة تسلك مسلك النظام البدوى الرعوى رغم معيشتها حول أنهار ومناطق خصيبة، فساقوا لتفسير ذلك ألوانا طريفة من الافتراضات، مثلما جاء عند (يفستافى) محدثا عن قبائل تعيش فى مناطق الأنهار حول بحر قزوين تحمل اسم سكيث أو سكات أوسكيز، فالاسم غير منضبط على لفظ ونطق واحد صارم فى الكتابات القديمة، لكنه يدور حول ذات التنعيم، فيقول (يفستافى):

يُروى أن سكيث كانوا فى السابق يأكلون الخبز
ويزرعون الأرض ويعيشون فى المنازل ويملكون
المدن، إلا أنهم بعد الهزيمة التى ألحقها بهم الفراكيون.

(٢) انظر جويدى فى

Della sede primitiva Memorie della Reale Accademie

وهو منشور فى

diellicci, classe die scienze morali storiche e filologiche

بالسلسلة الثالثة من المجلد الثالث، روما، ١٨٧٩، ص ٥٦٦ و ٦١٥

(٣) لويس عوض: مقدمة.. سبق ذكره ص ١٠٧

بدلوا نمط حياتهم. وأقسموا قسما لارجعة فيه ألا يقوموا
أبدأ ببناء المنازل ولا بزراعة الأرض ولا تشييد المدن
ولا امتلاك الأشياء الثمينة. إنما جعلوا من عرباتهم
مأوى لهم ومن الحيوانات طعاما لهم ومن اللبن مشربا
لهم. وألا يمتلكون من القطيع سوى ذلك القدر الذى
يسمح لهم باصطحابه من بلد إلى آخر. منذ ذلك الحين
تحولوا من مزارعين إلى رُحّل.^(٤)

ولكن مع متابعة البحث يمكننا العثور على تفسير علمى لهذا الأمر، ويتحدث عن تحول شعوب زراعية
إلى بدوية مرتحلة فى أكثر من منطقة بالعالم القديم، خلال العصر البرونزى القديم الرابع، ثم بعد ذلك خلال
العصر البرونزى الوسيط الأول، ويشرح ذلك (توماس طومسون) بقوله: "حوالى ٢٤٠٠ - ٢٣٥٠ ق.م.
انتهت فجأة المرحلة القليلة الأمطار التى سادت العصر النحاسى والبرونزى القديم، وتلتها فترة جفاف ارتفعت
فيها درجات الحرارة تدريجيا، ودامت حتى ١٩٥٠ ق.م. تقريبا. فقصرت فصول الشتاء وطالت فصول
الصيف الحارة وانخفض منسوب المياه وقلت الأمطار. وفى مصر أدت عدم كفاية فيضانات النيل إلى انهيار
زراعى بحجم كارثى... وهجرت مواقع عديدة فى العصر البرونزى القديم... مع وجود مؤشرات إلى عدم
القدرة على زراعة الأشجار المثمرة والتركيز على زراعة الحبوب والرعى". ولأن طومسون ركز حديثه
على منطقة شرقى المتوسط، فنحن نتخذها نموذجا ومقياسا لما حدث فى برارى آسيا ثم محيط قزوين، فهو
يقول: "على أطراف المناطق الزراعية وخاصة فى منطقة السهوب السورية، ظهر تزايد فى الرعى مع
زراعة بعض الحبوب... وتشير وثائق مسمارية عديدة من وادى الرافدين إلى تحول تدريجى فى هذه
المنطقة... ويبدو أن أطراف المناطق الزراعية فى المرتفعات لاسيما فى يهوذا، قد تخلت عن الزراعة
المستقرة / كما يبدو أن مثل ذلك قد حصل أيضا على طول الساحل الجنوبى للمتوسط وفى بئر سبع وحوض
عراد.. وتحولت معظم منحدرات النقب الأوسط خلال العصر البرونزى القديم الرابع والبرونزى الوسيط
الأول إلى الرعى الموسمى مع بعض الزراعة المستقرة. مما يشير إلى انهيار جزئى كبير أرغم المستوطنين
على هجر المنحدرات... والتركيز على زراعة الحبوب والرعى".

ثم يشرح (طومسون) فترات الانتقال بين العصور فى تقسيمها إلى ثلاث فترات هى كالتالى: " ١ -
الفترة الواقعة بين العصر الحجرى الحديث والغزوى أو النحاسى المتأخر ٥٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م ٢ - فترة
العصر البرونزى القديم الرابع والبرونزى الوسيط الأول من نهاية البرونزى القديم إلى بداية العصر

(٤) يفستافى: تعليق على جغرافية الأرض يونيسى، الفصل ٦٦٩. ضمن كتاب د. ت. م. كوزينتسوف (الاسكيثيون) وهو
مجموعة نصوص المؤرخين الكلاسيك جول الإسكيث، موسكو، دار نشر المدارس، ١٩٩٢، ترجمها خصيصا لهذا البحث
الفنان الروسى الكسندر مولستوف والدكتورة عزة الخميس، ص ٨٧. ونظن أن التسمية (يفستافى) هى النطق الروسى
للمؤرخ الفلسطينى (يوسابى) المعروف بالنطق اليونانى باسم (يوسابيوس).

البرونزى الوسيط حوالى ٢٤٠٠ - ١٩٥٠ ق.م. ٣ - الانتقال من العصر البرونزى الأخير الثانى إلى العصر الحديدي فى القرن الثالث عشر إلى القرن العاشر " (٥).

وهكذا تفسر لنا هذه القراءة كيف تحولت مناطق كثيرة من المعمور على خطوط المدارين، مما دعى إلى مجيئ بدو رعاة من مناطق خصيبة، والذين زعمناهم أراميين هندو آريين، وهم لاشك فصيل من تلك القبائل المتنبدية الهائلة المعروفة باسم سكيث أو سكاث، ناهيك عن كون تزايد الرعى المفاجئ فى محيط بادية الشام وفلسطين يدعم قولنا فى زيادة عدد الرعاة فى المنطقة بمجيئ المهاجرين الرعاة إليها.

ويعلن لويس عوض إيمانه بنظرية الكتاب المقدس التى تأتى بالساميين مع الهند وآريين أويافثيين من محيط قزوين فى قوله: " والمخزن البشرى العظيم الذى خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق الأوسط القديم، منذ الألف الثالثة ق.م. كان المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الاسود. وقد دلت الأبحاث التاريخية والأثرية على أن حضارة سومر Sumer فى جنوب العراق - وهى أقدم حضارة معروفة فى بلاد الرافدين - وأن اللغة السومرية هى لغة ميديا سيكيذية Medo - Scythis. وهذا يشير إلى موجات بشرية خرجت فى أوائل الألف الثالثة ق.م. من مراعى ميديا Medea فى شمال إيران المتاخم لبحر قزوين. ومن مراعى سيكيذيا Scythia فى القوقاز، ومن مراعى سيميريا Cimmeria حول البحر الأسود، واستقرت هذه الموجات فى بلاد ما بين النهرين وأعطتها لغتها الهندو أوروبية. وربما أعطتها اسم سومر من اسم سيميريا.. وعند كونتو Conteneau أن النموذج البشرى السومرى كان سائداً أيضاً بين البروتوحيثيين Proto-Hittites فى آسيا الصغرى [يفترض العلماء أنه سبق الحيثيين فى الأناضول / المؤلف] والهورييين Hurrians فى شمال آشور وغربها، وبين عامة السكان من القوقاز حتى عيلام Elam شرقى الخليج الفارسى. وهو يصنفهم أنثروبولوجيا بأنهم لاهندو أوروبيون ولا ساميون وإنما من النموذج الأرمنى Armenoid " (٦) أى النموذج الشبيه بالأرمنى وهو النموذج الذى قررنا نحن من جهتنا أنه الأرامى الأرمنى

وهكذا يشرح لنا (لويس عوض) أن أقوام مراعى ميديا شمالى إيران وسكيذيا فى القوقاز قد هبطوا منطقتنا فى هجرات متتابعة، كان أولها هجرة السومريين الذين أسسوا الحضارة السومرية الهندوآرية فى الرافدين القديم، قبل ظهور الساميين الذين تسلبوا هناك وامتلكوا البلاد وأسسوا الدولة الأكادية الواضحة السامية. وإن بين أعضاء هذه الهجرة المبكرة كان سكان الأناضول القبل حيثيين. وقد احتسب العلماء هؤلاء البروتوحيثيين كانوا سكان الأناضول بذات الاسم لكن من حضارة سابقة على الحيثيين فى فرضية غير ذات

(٥) توماس ل طوسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى، ترجمة صالح على سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٢٦: ١٢٨.

(٦) لويس عوض: مقدمه، سبق ذكره، ص ٣١، انظر أيضا

معنى، بعد أن ثبت لنا الآن أن الحِيثيين كانوا فصيلا من الاسكيثيين كذلك البروتوحِيثيين كذلك الحوريين، الذين رأيناهم ينحدرون جنوبا ليسكنوا وادى عربه فى آدوم الحورية وفى محيطها ببوادر الشام وسيناء.

ويتابع (لويس عوض) شروحاته قائلا: " من الثابت أن القبائل الآسية Asianiques المنحدرة إلى الهلال الخصيب من القوقاز وما حول بحر قزوين والبحر الأسود ومن منطقة الأناضول ومن هضبة إيران، أيا كان منبعها وأيا كان تكوينها الأنتروبولوجى، كانت تتكلم لغة ميدية سكيذية وهى إحدى فروع المجموعة الهندو أوروبية. وربما تكون موجات منها قد نزلت فى شبه الجزيرة كما نزلت موجات منها فى الهلال الخصيب، وفى هذه الحالة ليس هناك ما يمنع أن تكون الشعوب الملقبة بالسامية سواء فى الهلال الخصيب أو فى شبه الجزيرة، هى فى حقيقتها موجات متعاقبة من عصور متعاقبة ومن مواقع متباينة من هذه المجموعة الآسية ". (٧)

ثم يلقى (عوض) بالأهم فيقول: " فبنو إسرائيل إذن منذ خروجهم من مهد إبراهيم فى العراق نحو ١٨٠٠ ق.م. حتى عودتهم من مصر إلى فلسطين، ينتمون لغويا وسلاليا إلى مجموعة الأقوام القوقازية التى أخذت تتدفق على منطقة الشرق القديم منذ بداية الألف الثالثة ق.م على أقل تقدير، وعرفت بدايتها التاريخية بحضارة سومر ". (٨)

وهنا نعود إلى كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول) نقتطع منه فقرات شديدة التواصل مع ما يقول عوض هنا. حيث كنا نبحث عن مدينة (أور الكلدانيين) التى أشارت إليها التوراة كموطن أول للقبيلة الإبراهيمية، التى هاجرت من هناك إلى حاران فى داخل الحدود التركية الحالية، لتعود هابطة لتستقر فى أرض كنعان / فلسطين. أو كما تقول التوراة: إن إبراهيم / إبراهيم كان ابن تارح بن ناحور بن سروج ابن رعو بن فالج بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح. وأن هجرة هذه القبيلة حدثت كالتالى:

وأخذ تارح إبراهيم ابنه، ولوطا بن هاران ابن ابنه، وساراى كتنه
امراة إبراهيم ابنه، فخرجوا جميعا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى
أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك. ومات تارح فى
حاران.

تكوين ١١ / ٣١

وعلى الشاطئ الغربى للفرات فى أقصى جنوب الوادى عند رأس الخليج العربى، تم الكشف عن مدينة باسم (اور)، لكن علم التاريخ لا يخصصها بأنها (أور الكلدانيين) الذين حكموا العراق ما بين ٢٥ و ٥٣٨ ق.م. فقط. لأن (أور) كانت مدينة شديدة العراقة قبل زمن الكلدانيين بأزمنة طويلة، ولأنها كانت حاضرة

(٧) لويس عوض: مقدمه.. سبق ذكره، ص ٣٣.

(٨) نفسه: ص ٣٩.

ذات شأن أسسها السومريون الهندوآريون، وكانت موجودة في موضعها هذا تتقلب عليها الدول منذ منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد.

وإذا كانت الهجرة من (أور) التاريخية هذه إلى كنعان في الغرب منها عبر بادية الشام لا تحتاج إلى أكثر من أسبوع سفر. فإن رحلة القبيلة الإبراهيمية لم تتجه فوراً إلى كنعان، بل ضربت شمالاً من مدينة أور في أقصى جنوب الوادي حتى وصلت حاران داخل الحدود التركية، لتقيم هناك زمناً ترحل بعده إلى كنعان، فتصلها بعد خمسة عشر عاماً من خروجها من أور.

ثم تظهر لنا حاران بعد ذلك في التوراة، كما لو كانت هي الموطن الأول للقبيلة الإبراهيمية وليس أور. وحول حاران نقول التوراة:

فأتوا حاران وأقاموا هناك ومات تارح في حاران.
وقال الرب لإبرام: اذهب من أرضك وعشيرتك وبيت
أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة
وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. فأخذ إبرام
ساراي امرأته ولوطاً بن أخيه وكل مقتنياتها التي
اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران وخرجوا ليذهبوا
إلى أرض كنعان.

تكوين ١١/٣١ و ١٢/١ - ٥

والملاحظة هنا أن التوراة باتت تشير إلى حاران باعتبارها أرض عشيرة إبراهيم، رغم قولها قبل ذلك بمدينة (أور) كموطن أول لتلك العشيرة. وهو ما دفعنا دفعا إلى محاولة البحث عن الموطن الأول للعشيرة الإبراهيمية، ووضعها موضع البحث للتفسير والفهم. وتيسيراً للأمر نجمل المشكلة في موجز سريع يحدد سماتها بوضوح.

التوراة تقول إن الركب الإبراهيمي المهاجر قد خرج من أور الكلدانيين على الشاطئ الجنوبي الأقصى لنهر الفرات يقصد أرض كنعان الفلسطينية، وهو ما يعني أن الموطن الأصلي للعشيرة الإبراهيمية كان جنوبي العراق، وتقع مباشرة إلى الشرق من كنعان تفصلهما بادية الشام. لكن الركب — دونما سبب واضح — يتحول شمالاً ويستمر يضرب مسافات وبلدان ومواطن، ويتجاوزها جميعاً حتى يصل إلى حاران داخل الحدود التركية الآن. وهنا لا مندوحة من التساؤل: لماذا التحول عن الطريق القصير المباشر إلى كنعان، وتجشم مصاعب مضاعفة للوصول إليها عن طريق حاران. والأهم أن حاران تبدو في رواية التوراة كما لو كانت محطة ترانزيت معروفة على الطريق من أور إلى كنعان، رغم وقوعها في أقصى الشمال بعيداً عن الطريق بمسافات شاسعة. والغريب في أمر التوراة أنها بعد أن ذكرت (أور الكلدانيين) نسيته تماماً،

واستمرت تضرب على الأصل الأرامي الحاراني، ولم تمل تأكيد أن إبراهيم كان « أراميا تائها.. تنثية ٥/٢٦ ».

وهنا افترضت من جانبى أن حاران التوراتية لم يقصد بها مدينة محددة بعينها، قدر ما قصدت بها التوراة موطن الهجرات الأول للحوريين، ذلك الموطن الذى يضم عدداً من الدويلات الأرامية كانت التوراة على صلة بها طوال الوقت، وربطت إبرام وأسرته بها. وهو الأمر الذى يشير إلى المحطة الكبرى القديمة للحوريين القادمين من برارى الهند وإيران ليستقروا هونا فى محيط بحر قزوين وأرارات. وهنا كان لابد أن نتساءل حول (أور) الجنوبية ومدى صدق احتسابها موطناً أول للقبيلة الإبراهيمية؟ وبعدها ذهبنا نبحث فى مساحة بحر قزوين عن أور أخرى يمكن أن تكون هى ذلك الموطن: لأن (أور) الواقعة جنوبى العراق تختلف مكانياً مع معطيات التايخ حول الهجرة الهندوآرية، كما أننا لو احتسبناها فقط (أور الكلدانيين) فإن ذلك سيضعها بعيداً تماماً عن زمن النبى إبراهيم، حيث لم تقم دولة الكلدانيين إلا بعد زمن النبى إبراهيم بحوالى ألف عام أو يزيد.

والمعلوم أن (أور) كلمة تدل على القرية أو المدينة بشكل عام، وهى (UR) الجذر الثنائى للكلمة الثلاثية (كور KUR). والكور والكورة الحى أو القرية أو المدينة، أو ما نسميه فى الدارجة المصرية (الكفر)، فمدينة قرطاجة الفينيقيّة على الساحل الإفريقى — مثلاً — مركبة من ملصقين: الأول (كورة) أى قرية، والثانى (طاجه) أو بنطقها الأصلى (حداشه) أى الحديثة أو الجديدة فهى كور حداشة. وبتبادل حرف (واو) مع حرف (فى V) تصبح كور هي كفر، والكفر هو القرية.

ولذلك نجد أكثر من (أور) إضافة إلى (أور - الكلدانيين)، فهناك (أور - شليم) أى مدينة السلام و (أور - كومينوس) باليونان و (أور - أوك) بالعراق القديم، ثم مدينة الأرض أو (أور - آرتو) على جبال أرمينيا المعروفة الآن بجبال أرارات قرب بحيرة (فان).

والتوراة من جانبها ترمز للهجرات الكبرى من أواسط البرارى الآسيوية إلى محطتهم الكبرى بأرمينيا بقصة الطوفان، التى قالت باننقال قوم من موضع أصابته كارثة بواسطة سفينة ضخمة إلى جبال أرارات حيث ألقت السفينة مراسيها. وأنه مما يؤكد أن (أرارات) المذكورة بالتوراة هى ذات أرارات الواقعة فى أرمينيا، ما جاء عند المؤرخ (هروشيوش) إذ يقول: إن السفينة النوحية قد ألقت مراسيها « على الجبل الذى بأرمانية ».^(٩)

وفى الوقت ذاته تؤكد التوراة أن إبراهيم من نسل (أرفكشد أو أربكسد بن سام بن نوح)، ووجدنا فى اسم (أرفكشد) ما يضع أيدينا على وصلات الأمر المبعثر، حين تساءلنا: هل قصدت التوراة بمدينة (أور) مدينة أخرى غير أور الكلدانيين، ربما كانت تقع فى موطن الحوريين القديم بأرمينيا المعروف باسم (أراب -

(٩) أورسيوس: تاريخ.. سبق ذكره، ص ٦٣، ٦٢.

خيتيس) التى تلتقى بعد حذف التصريف الإسمى (الياء والسين) مع أرفكشد وتصبح هى بالضبط (أربكسد) أو (أربخسد)؟ وهلا يعنى ذلك إمكان أن تكون (أور) المذكورة فى التوراة باسم (أور الكلدانيين) هى ذاتها مدينة الأرض (أور - آرتو)؟ لانعتقدنا مخطئين إن احتسبنا منطقة أربكسد الكاسية هى المعنية فى التوراة بأور الكلدانيين، وأنها المقصودة بـ (أور كسديم)، وهو الاسم الوارد فى التوراة المازورية العبرية، فهى نقول: (أوركسديم) ^(١٠) ولا نقول: (أور الكلدانيين) الواردة فى الترجمة العربية. أما (أرابخيتيس) فهى مركبة بدورها من ملصقين (آرابه - خاسى) أو (آراب - كاسى) أو العرب الكاسيين أو العرب القيسية. وإذا كان هؤلاء من قبائل سكيث أو سكاس، فهو بدوره ما يذكرنا بالسكاسك ذلك العنصر الواضح فى فيالق الهكسوس بمصر. ولو قدرنا أن الكلمة كانت تنطق مصرياً (أراب - سا - كاس) فهى ما تعنى بالضبط العرب أبناء الكاسيين. لان (سا) تعنى (ابن) كما تعنى الإضافة فهم العرب الكاسيين.

وهكذا لا يعود رحيل العشيرة الإبراهيمية من أور إلى كنعان عبر حاران أمراً مثيراً للاستغراب والعجب، لأنها فى هذه الحال لن تأتى من أور على الخليج العربى، إنما من أورارتو أو (أارات) فى جبال أرمينيا متجهة غرباً نحو حاران القديمة التى تصبح بذلك محطة منطقية تماماً على الطريق، ثم تشد القبيلة رحالها مع التدفق الأرامى نحو بواى الشام خلال النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد. ويبدو أنه خلال استقرارهم فى محطتهم الأولى فى محيط أارات أنشأوا أول مدينتهم المستقرة متمثلة فى الدولة الحيثية، ثم فى مجموعة الدويلات الأرامية التى تناثرت على الحزام الحورى شمالى سوريا والعراق الغربى الشمالى.

وقد سبق وعلمنا أن الكلمة (أراب) و (عرابة) تدل فى إطلاقها على البداوة بشكل عام، كما أن الحيثيين يلفظ اسمهم على مختلف التخريجات خيتى وحيثى وكاثرى، مما يشير إلى أصولهم الجنسية السكوثرية أو السكاثرية أو الكاسية أو القيسية القادمة من البرارى الآسيوية. وضمن هجرة هؤلاء السكاثر أو الكاسيين جاءت العشيرة الإبراهيمية، لتوجز التوراة لنا قصة تلك الهجرات مرموزاً لها بالسفينة النوحية التى سجلت حدث الهجرة الأول حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد أو قبل ذلك من برارى آسيا إلى محيط أارات، ثم رمزت للهجرة الثانية من أارات ومحيط قزوين إلى بواى الشام بقصة الرحلة الإبراهيمية. ومن جهته أكد التراث الإسلامى أن إبراهيم لم يكن عربياً بمفهوم اليوم ولم يكن من الجنس العربى المقصود فى جزيرته، لأن لسانه كان سريانياً من الفرع الأرامى، لكنه عندما عبر نهر الأردن فيما يروى ابن هشام فى سيرته، حول الله لسانه إلى اللغة العبرية ^(١١) بينما اكتسب فرع من نسله العروبية بعد ذلك ممثلاً فى رمز إسماعيل أبو العرب المستعربة.

ولمزيد من التأكد سعيينا حتى سمعنا (ماكلاستر) يؤكد لنا بخبرته فى اللغات القديمة والأجناس أن لغة بلاد الميثانى التى يزعمها المؤرخون بين الخابور والفرات، كانت فرعاً هندوآرياً لا شك فيه إطلاقاً، كذلك

(١٠) الصليبي: التوراه جاءت... سبق ذكره، ص ٣٩.

(١١) السهيلي: الروض الأنف... سبق ذكره، ج ١، ص ١٦.

بنفس اليقين كانت بلاد الحثيين فى الاناضول تتكلم بدورها لغة هندو آرية، بل عبد كلاهما ذات الأرباب بذات الأسماء. (١٢)

وهكذا فإن (لويس عوض) ينهج مع ذات نهج المدرسة التى تأتى بالهندو آرى ومعه السامى من تلك المواطن، يأتى بكليهما من موطن واحد على اختلافهما الجذرى دون مبرر واضح واحد. فأكد أن موجة الهجرة الهندو آرية أوكما يسميها بالهندو أوروبية قد جاءت فى غزوتين: الأولى هى غزوة الكاسيين Kassites التى احتلت الرافدين، وغزوة الحوريين المبتانيين التى أنشأت لها دولة مزعوم أنها بين الفرات والخابور، أما الموجة التى صاحبته فهى موجة سامية قادمة من ذات المواطن وتمثلت بدورها فى فصيلين: العموريين أو الأموريين Amorites والأراميين Aramaeans ويأتى على ذلك بشهادات يرى أوتقها شهادة آرثر كيت الذى يصف العرب بأنهم أقوام قوقازية تتكلم لغة سامية. (١٣)

ثم يعلن عوض نظريته بقوله: " وقد انتهيت من أبحاثى فى فقه اللغة العربية إلى أن اللغة العربية هى أحد فروع الشجرة التى خرجت منها اللغات الهندو أوروبية ". (١٤) وكى يثبت (عوض) نظريته تلك؛ قدم لها بدراسة تاريخية أنثروبولوجية لا تتناسب إطلاقاً فى عجالتها وتبسطها مع عمله الكبير وقيمة النظرية التى يطرحها. وهى النظرية التى يمكنها أن تجد فى عملنا هذا تأسيسها التاريخى الأنثروبولوجى المناسب. رغم الاختلاف البنى بين ما يقول وبين ما نقول. لأننا لا نرى العنصر المعروف بالسامى الشمالى الذى ظهر فى بوادى الشام كان قادماً من بلاد أرمينيا خالصاً، بل نراه عنصراً مولداً من عناصر تلاقحت وتلاقت فيها العنصر الحامى ممثلاً فى الكوشيين العمالقة والجنوب جزيرى أو العمورى أو الأمورى وكذلك فى المصريين الحاميين ولغتهم، وبين العنصر الأرامى الكاسى أو السكيثى الحثى القادم من الشمال الهند وآرى. وأن ذلك اللقاء قد بدأ مبكراً قبل الألف الثالثة قبل الميلاد فى بواكير التواصل الأولى والتي تليها هجرات متعددة منوعة من بعد، وهو ما يمكن أن يكون قد حدث إبان قيام الدويلات السومرية الهندو آرية فى العراق الجنوبى القديم، وهو أيضاً ما تثبته خبرة العراق حيث ظهر الساميون هناك بعد ذلك ممثلين فى الدولة الأكادية، لكن ليتمثل الأكاديون الثقافة السومرية وعقائدها وطريقة كتابتها ممزوجة بلغة جديدة وثقافة جديدة سميت سامية، وهى تحوى فى تراكيبيها ومفرداتها وعقائدها تراثاً هندو آرياً كاملاً.

نحن نعى أن السامية الشمالية المعروفة فى لغاتها المتعددة إنما كانت ناتج تلاحق الحامى والهندو آرى أو اليافتى بلغة التوراة مع الجنوب جزيرى القديم القادم من اليمن، أما التفاصيل الدقيقة والمقارنات اللغوية التى يمكن إقامتها على تأسيسنا هذا، فهى مهمة أخرى نتركها لمن يستطيع بحثها من علماء متخصصين، قد تجد كشفنا طريقها إلى قناعاتهم.

(١٢) ماكسلتر: الأقوام الجدد.. سبق ذكره، ص ١٠٠.

(١٣) لويس عوض: مقدمه: ص ١١٠.

(١٤) نفسه: ص ٢٦.

وكى يدعم (لويس عوض) نظريته فى هندو أوربية اللغة العربية فى أصولها، قام بجمع ما يؤيد رأيه، وضمن ذلك إثباته حداثة العرب قياسا على الأمم القديمة، وهى برأينا حداثة ضرورية ناتجة عن حداثة العنصر السامى الشمالى جميعه كما زعمنا، ومن هنا يشير (عوض) إلى أن أبعد المصادر التى تشير للعرب كعنصر متميز عن غيره من الأجناس، لا تبعد عن بداية الألف الأولى قبل الميلاد: وهنا ينبه قائلا: " إن العرب حين يتحدثون عن منشئهم يقسمون أنفسهم إلى ولد عدنان وهم عرب الشمال، وولد قحطان وهم عرب الجنوب وهناك فكرة متوارثة أن نسل يعرب بن قحطان أصفى عروبة من نسل عدنان، ولذا جاء تبويب العرب إلى عرب عاربة وهم أهل الجنوب، وعرب مستعربة وهم أهل الشمال. ومن العلماء من يؤيد هذه النظرية بما تتضمنه من اعتراف بأن عرب الشمال من أجناس كانت غير عربية ثم استعربت. أو أنهم مولدون من العرب وغير العرب. وعلى كل فإن عرب الشمال المستعربة ينسبون أنفسهم إلى إسماعيل بن ابراهيم الخليل عن طريق عدنان ومضر. وفى روايات أنهم من عدنان ومضر دون ذكر لإسماعيل بن ابراهيم. وانتساب عرب الشمال إلى إسماعيل يجعلهم أبناء عمومة بنى إسرائيل، أو بتعبير أدق أنصاف اخوة، أى إخوة غير أشقاء. فالجد الأعلى للطرفين هو إبراهيم أبو إسحق وجد يعقوب إسرائيل من جهة، وأبو اسماعيل وجد عدنان من جهة أخرى.. وربما كان براهما Brahma هو الإيونييم Eponym القومى لموجه هندية إيرانية استقرت فى أور عبر لوريستان Luristan فى إيران، ثم هاجرت إلى حران فى عهد الكاسيين Kassites نحو ١٨٠٠ ق.م. لتعيش فى ظل الأرسنقراطية العسكرية التى نزلت على حران من القوقاز Caucasus أو سيكثيا Scythia وخرج منها الاشكينازى Ashkinazi". (١٥)

ولا يفوت (عوض) اللماح الإشارة إلى كون " الوثائق الآشورية التى ترجع إلى أواخر القرن التاسع ق.م. أى قبيل ٨٢٤ ق.م. تشير إلى ملكات العرب وهم قبائل مؤتلفة من البدو الرحل من شمال شبه الجزيرة العربية. جعلت بعض العلماء يستدلون من هذه الإشارة إلى ملكات العرب، ومن شيوع اسماء القبائل المؤنثة مثل: أمية، ربيعة، كندة، مرة، الخ أن القبائل العربية عرفت فى مرحلة من تاريخها نظم المجتمع الأمومى Matriarchal society حيث المرأة هى رأس القبيلة " (١٦).

أما نحن فقد انتهينا إلى القول بملكة تسمى عريبي وعراة وسبأ كانت تقطن محيط العقبة، وأن سكانها كانوا أصحاب تجارة وطوب وعز أو عزز أو معز، وأن بينهم كانت الملكة سبأ أو الزباء، وأنهم كانوا رفاعيين أو ربانيين من أصحاب الثعابين، وأنهم كانوا عمالقة.

وقد عرج عوض بلمحة مضيئة — لكنها أيضا مثل الفلاش السريع — على الهكسوس وعلاقتهم ببنى إسرائيل، فراجع ما قدمه يوسفوس نقلا عن ما نيتو ليخرج بنتائج أجملها فى قوله: " وواضح من كل هذا الكلام أن فرعون موسى الذى ذهب ما نيتون أو يوسفوس على لسان مانيتون إلى أن فتة بنى إسرائيل قد

(١٥) نفسه: ٢٥، ٢٦.

(١٦) نفسه: ٢٤.

حدثت في عهده هو **أمنحتب الرابع الشهير بإخناتون** نبي التوحيد والسلام في العالم القديم، فهو وحده الذي اشتهر باعتراض الضمير على الحروب، وقد ناصبته طيبة العداء لدعوته التوحيدية من ناحية، ولتفريطه في ردع أعداء مصر من ناحية أخرى^(١٧). وقد استند (عوض) في تزمين الخروج بزمن إخناتون تأسيساً على ماورد عند يوسفوس أنه رفض مشاركة رجاله في معركة ضد الهكسوس " فقد كان يعتقد أن الحرب عمل ضد الآلهة " (١٨)

ولما كان معلوماً أن الهكسوس قد تم طردهم قبل زمن إخناتون بما يزيد على قرنين من الزمان، فقد كان الرأي هو أن بنى إسرائيل كانوا بقاءاً أسيرة بقيت حتى زمن إخناتون حيث تم حدث الخروج، وعليه يستنتج عوض " أنه إذا صحت رواية ما نيتون فإن بنى إسرائيل كانوا بمثابة طابور خامس لغزوة هكسوسية ثانية متأخرة في الدولة الحديثة باعت بالفشل، وانتهت بكارثة لهم ولبنى إسرائيل. ومع ذلك فكل هذا لا يتفق في التاريخ مع الرأي السائد القائل بأن خروج بنى إسرائيل كان في عهد مرنباح ".

ومن هنا يضع عوض نظرية سريعة للتفسير أخذها عن بيير مونتيه - فيقول: " ومعنى هذا أن دخول بنى إسرائيل مصر كان نحو ١٦٥٠ ق.م. كما يبدو أنهم أقاموا بها (إيان حكم الهكسوس / المؤلف) كما تقيم الجاليات الأجنبية في ظل الحكم الأجنبي في أي بلد مفتوح. وأنهم لم يرحلوا عن مصر مع الهكسوس المطرودين ١٥٦٧ ق.م. بل ظلوا في البلاد نصف متمصرين ومتمركزين أساساً في شرق الدلتا، حيث كانت أفاريس عاصمة الهكسوس القديمة. بحجة أنهم غرباء يزاولون شئون معاشهم ولاصلة تربطهم بالغزاة الهكسوس، وفيها أقاموا أكثر من قرنين ضيوفاً أراذل حتى بعد أن أقام رمسيس الثاني مدينته بي رمسيس Pi-Rameses على أنقاض مدينة أفاريس، إلى أن طردهم مرنباح جملة من أرض مصر ما بين ١٢٢٣ أو ١٢١٥ ق.م بحسب تقديرات بيير موانتييه " (١٩)

ثم بلمحاته العبقريّة يتساءل (عوض): " إن الحقائق التاريخية تقول إن الهكسوس بعد خروجهم من مصر قد اختفوا جملة من مسرح التاريخ، وهذا الاختفاء ممكن سياسياً لكنه غير ممكن بشرياً. فمهما كان الهكسوس بعد خروجهم من مصر في حالة من التمزق والإعياء؛ فلا بد أن نفترض أن هذه الحشود البشرية التي أتيح لها أن تخضع المصريين أكثر من قرن ونصف، لا بد أن تكون قد استقرت في مكان آخر خال تتشئ فيه محلاتها ومضاربها، أو مكان آخر مأهول تختلط فيه مع السكان الأصليين " (٢٠)

وهكذا يبدأ عوض في العثور على أصول العربية في الهند وأوربية في قصة أنثروبولوجية تذهب إلى أن الهكسوس كانوا عنصراً هندوآرياً خرج من مصر لكن ليحط رحلة في مكان آخر، يعلن عنه في نص

(١٧) نفسه: ٣١.

(١٨) نفسه: ٣٠.

(١٩) نفسه: ٣١ : ٣٣.

(٢٠) نفسه: ٣٤.

عبرى يقول: « نشته أن الحجاز جملة كان المنطقة التى لجا إليها الحكا - خازو Heqa Khasou أو الهكسوس بعد طردهم من مصر. وتعايشوا مع سكانها الأصليين الذين عرفوا الهكسوس الوافدين باسمهم المصرى القديم. وانتهى الأمر بأن جرى الاسم على المنطقة كلها وفقد معناه الأصلي وصار اسم علم جغرافى فحسب » (٢١)

ولاشك أن ما قلناه حتى الآن يذهب إلى أن بعض عناصر الهكسوس وبينهم السكان الأراميين الذين خرجوا من مصر، قد ذهبوا جنوبا نحو شمالى جزيرة العرب ليمحوها اسمهم السكاث، لكن بعد تحول حرف (س) فى النطق المصرى إلى (ح) لتصبح الكلمة حسب القواعد التى وضعها عوض نفسه (حكاث) أو (حجاز)، قياساً على (ساكل/ حاكل المصرية أو ساذهب / ها أذهب)

وفى لقطات مضيئة سريعة قافزة فلاشية يعقد (عوض) المقارنات اللغوية كما فى قوله: « إن ملك الهكسوس خمودى: Khamoudi الذى ورد فى بردية تورين فيه جميع العناصر الفونيطيقية فى اسم ثمود » (٢٢) وهو القول الذى يعضد مذهبنا إليه حول قدم ثمود فى مناطقها الحضارية، وأنها كانت تقع ضمن دائرة حلف الاخلامو الكبير الذى قوى شأنه ليتوسع على حساب دول المحيط ويحتلها وضمها مصر نفسها.

ونتابع لقطات عوض إذ يقول: « نحن نقف أمام اسم مثل الصالحية فى مصر بالقرب من السويس (فى الحقيقة هى أقصى شمال شرق الدلتا وتتبع محافظة الشرقية الآن وينسبها البعض للملك الصالح أيوب/المؤلف) واسم مداين صالح فى شمال الحجاز واسم صالح وشالح ومتوشالح (أسماء عربية وتوارثية/ المؤلف) وربما صلاح، لايسعنا إلا أن نشته فى أنه صيغة من اسم شيليك Shelek الهكسوسى، ومن حقنا أن نستنتج مبدئياً أن مداين صالح كانت إحدى المحلات أو المدن التى أنشأها الهكسوس بعد طردهم من مصر » (٢٣)

أما نحن فقد قلنا أن مداين صالح كانت قبل الخروج من مصر بل قبل الدخول إليها، عضوا فى حلف الأخلامو ومدينة تابعة للعاصمة الأم سالع/ البتراء/ بونت فى وادى عربية ببلاد أدوم.

ومن تلك النماذج الفلاشية نموذج آخر يقول فيه: « وفى تقديرى أن اسم عمران ومشتقاته له علاقة باسم العمو Ammou أو العمرو Amrou وهى القبائل التى احتلت دلتا مصر أو شرقها مع الهكسوس وفى زمنهم، فنصوص مصر تحدثنا دائماً عن كفاح مصر ضد الخازو والعمو بعد الفتح الهكسوسى. والصلة بين الخازو والعمو غير واضحة عند المؤرخين » (٢٤)

(٢١) نفسه: ٣٤.

(٢٢) نفسه: ٣٣.

(٢٣) نفسه: ٣٤.

(٢٤) نفسه: ٣٥.

ويصل من هذا كله إلى نتيجته مفادها " إن الهكسوس إذن لم يأتوا إلى مصر من الحجاز ومن شبه جزيرة العرب، إنما استقروا فيها بعد طردهم من مصر، أما المنبع البشرى الذى تدفقوا منه على الشرق القديم ثم عبروا إلى مصر سواء على مراحل أو دفعة واحدة، فهو بحسب تقدير الكثير من علماء الآثار والتاريخ القديم، نفس المستودع البشرى المعروف فى عصر الهجرات العظيمة حول بحر قزوين. وربما كان هذا المنبع ذاته مجرد محطة وسطى استقروا فيها زمنا منذ هجرتهم من أواسط آسيا، شأن كافة القبائل التى تسمى آرية طورانية وسامية. والهكسوس إذن ليسوا بنى إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل كانوا على الأرجح قبائل دخلت مصر تحت جناح الهكسوس وعاشت فى كنفهم. ثم طردت من مصر بعد رحيل الهكسوس بقرون، أو ربما طردت معهم أيام أحمس ثم استجدت العودة أيام تحتمس الثالث. ولعل بنى إسرائيل هم قبائل العمو Ammou التى كثيراً مايرد ذكرها مع الخازو khasou أو الهكسوس فى النقوش المصرية القديمة. وكانت متمركزة معهم فى شرق الدلتا بصفة أساسية، مع جيوب هنا وهناك أكثرها فى مصر الوسطى " (٢٥).

وإعمالاً لكل هذه المعطيات، ينتهى عوض إلى أنه " مهما افترضنا للعرب وجوداً فى المنطقة فهو لن يتجاوز بضعة قرون ترجع بهم إلى ١٠٠٠ ق.م. أو ١٢٠٠ ق.م. فلو كان لهم وجود معروف باسمهم المعروف أيام الصراع العظيم بين المصريين والحيثيين ١٥٥٥ - ١٢٧٩ ق.م. أو بين المصريين والميتانيين Mitanni ١٤٥٠ - ١٣٦٢ ق.م. فى العراق، أو بين المصريين وبنى إسرائيل ١٢٢٣ - ١٢١٥ ق.م. ، أو بين المصريين والهكسوس أى بين ١٧٢٠ أو ١٥٦٧ ق.م. لورد ذكرهم فى النقوش القديمة فى أية منطقة من مناطق الشرق القديم. وعلى هذا فانه يتعين علينا أن نفترض أن وجودهم فى شبه الجزيرة لاحق لعام ١٠٠٠ ق.م. أو قبل ذلك بقليل. ولن نستطيع أن نفسر ظاهرة تكون اللغة العربية من عناصر مشتركة مع اللغات الهندوآرية، إلا إذا افترضنا أن التكوين السكانى لشبه الجزيرة، لم يكن فيضانا سكانيا من داخل شبه الجزيرة إلى خارجها أو حوافيها المحيطة بها، ولكن كان فيضانا سكانيا من خارج شبه الجزيرة إلى داخلها " (٢٦)

وهكذا أسس (لويس عوض) تاريخيا وأثنروبولوجيا لقوله إن اللغة العربية من أصول هندوآرية من حيث هبطت جموع الهكسوس من محيط بحر قزوين إلى المنطقة، ثم خرجت من مصر مطاردة من قبل المصريين، فهبطت الحجاز وأعطته اسمها ولغتها التى أصبحت العربية الشمالية، أم العربية الفصحى الآن. لكن ذلك كان وجهاً واحداً للحقيقة لايفسر لنا تداخل آخر لأسماء أعلام ومفردات وتراكيب لغوية ليست من الهندوآرية فى شئ، وكانت من العلامات الهكسوسية البارزة الباقية. هنا نظن أن نظريتنا هى الأوفق للتفسير، والتى قلنا فيها بمجئ هجرات تدريجية متتابعة من الجنوب اليمنى على الخط التجارىبرى الصحراوى، هى هجرة العمالقة العموريين التى جاءت من جنوب الجزيرة ويمكن تسميتها تجاوزاً (السامية

(٢٥) نفسه: ٣٦، ٣٧.

(٢٦) نفسه: ٣٨، ٤٠.

الجنوبية) وسبق وأطلقنا عليها الجنوب جزيرية مع هجرة كوشية زنجية استقرت فى شمالى الجزيرة وأدوم وسيناء، لتهبط عليها عناصر هندوآرية، حورية وحيثية، لتستقر معها فى مديان، وتشكل لها قيادة عسكرية تتوسع على حساب دول المحيط، حتى تتمكن من إقامة إمبراطورية الهكسوس، وكان أهم إفرازات هذا اللقاء من فجره قبل ثلاثة آلاف عام من الميلاد، ظهور جنس جديد ولغة جديدة هجين هى اللغة السامية الشمالية مشكلة من عناصر جنوب جزيرية تأسيسية وعناصر حامية زنجية ومصرية وعناصر هندو آرية.

على مستوى العربية والهندوآرية قدم لويس عوض جهداً رائعاً وعظيماً، لا نتكره المنكرات والمصادر ضد كتابه لسقطة هنا وزلة هناك، حيث إن الرجل قد أثبت نظريته ببراعة، وهى أحد مؤيدائنا هنا لا تغنى الإشارة إليها عن قراءتها فى كتابه الرائع. ومن جانبنا ثبت بطول هذا البحث بوضوح مدى الالتقاء والتداخل بين المصرية القديمة، وبين العربية، أو مابقى لنا من تطور العربية الشمالية ممثلة فى قمة نضجها فى لغة قريش التى أصبحت اللغة العربية الفصيحة الصحيحة. وعندما كنا نقدم قراءتنا عثرنا على أكثر من شهادة من التاريخ العربى الإسلامى على وجود عنصر عربى سامى ممثلاً فى شهادات ذلك التاريخ بحكم عماليق الجزيرة لمصر، لكننا أبداً لم نجد مثل تلك الشهادات الفصيحة على الجانب الآخر عند القائلين بهندوآرية الهكسوس أو بعضاً منهم على الأقل، فهل بالإمكان العثور على مثل تلك الشهادات التى تؤكد أن عناصر هندو آرية قد دخلت مصر واحتلتها وحكمتها؟ بل وحكمت أيضاً بقية مدن الشرق الأوسط القديم ضمن إمبراطورية كبرى؟ حيث وضح لنا وجود العنصر الآرى كعنصر قائد متقدم بين فيالق الهكسوس كما سبق شرحه.

نقف هنا مع القبائل التى جاء ذكرها باسم سكيث لنعتبرها من وجهة نظرنا القبائل الأم للهجرات الهندوآرية، أو أنها الاسم الشامل الذى كان يطلق على تلك القبائل المهاجرة من برارى آسيا ومنها كان الحوريون والحيثيون الذين كانوا عنصراً مؤسساً فى المملكة الآدومية التجارية، ومن ثم فى الإمبراطورية الهكسوسية. حيث كان الاسكيث أو السكاث كما أسماهم اليونان أو الكاسيون كما أسماهم الرافديون أو الهكسوس كما أسماهم المصريون قبائل متبدية هائلة العدد لاتعرف الاستقرار تنتشر طول الوقت فى برارى آسيا الوسطى من شمالى الهند إلى أرمينيا.

وبحسبان حرفي (خ) و (ك) حلقيان يتبادلان فإن الحيثيين هو لفظ آخر للسكيثيين حيث تتبادل (س) و(ح) وهكذا يمكن أن نعتبر المصادر الحيثية مصادر سكيثية أصيلة، نبدأ بحثنا منها، فهل ورد أى نص تاريخى فى المدونات الحيثية يشير إلى أحداث قديمة، احتل بموجبها الحيثيون مصر؟

هناك نص ضئيل القيمة تماماً لدى المؤرخين والباحثين لم يعره أحد التفاتاً، نتيجة عدم الربط إطلاقاً بين الحيثيين والهكسوس، وهو مانجد له ترجمة عند عالم الحيثيات (جرنى) إذ يقول أولاً مقبراً حقيقة

واضحة هي " والحيثيون من الأقوام الهندو أوروبية التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ الشرق الأوسط القديم،
لكننا مع ذلك نجهل الكثير عنهم" (٢٧)

أما النص المقصود فهو ذلك الذى يقول:

عندما حمل إله جو حاتى (يقصد إله الهواء الحيثى /
المؤلف) رجال كوروستوما إلى بلاد مصر. وقيدهم إله جو
حاتى بمعاهدة إلى أهل حاتى وجعلهم يقسمون على رعايتها
(يقول جرنى معقبا أن ذلك عائد على المصريين أى أن إله
الجو الحيثى فرض عهده، على المصريين بقسم الولاء
للحيثيين الذين من كوروستومار / المؤلف). وبذلك أصبح
شعب حاتى وشعب مصر مقيدين بقسمهم لإله جو حاتى ،
ونكت شعب مصر بعد ذلك بالعهد، وباتوا يحنثون بقسمهم
بالإله، لذلك أرسل أبى مشاة وفرسانا وغزوا حدود مصر
وببلاد أمكا، ثم أرسلهم مرة ثانية فغزوا مرة ثانية.

ويشرح هنا (جرنى) أن كوروستوما هي القطاع الشمالى الشرقى من الأناضول، أى بالضبط المساحة
التي نتحدث عنها كمناطق أخير للهجرة الهندوآرية ما بين قزوين والبحر الأسود فى أرمينيا وأرارات لكن
جرنى يرى ذلك النص غير مفهوم لو أخذناه بظاهره، وأن هؤلاء قد احتلوا مصر، ويفسر بأن ذلك كان غير
ممكناً ولم تتحدث عنه أية نصوص مصرية، لذلك لا تفسر له إلا وجود الحيثيين بفلسطين بعد ذلك فى التاريخ
التوراتى، وهو ما يعنى أن النص لم يقصد مصر بلاد النيل، إنما قصد فلسطين التي كانت تابعة آنذاك لمصر
سياسياً (٢٨)

لكن قراءة النص تفيد أن الملك الحيثى يتحدث عن غزو تم من جانب بلاده لبلاد مصر، وأن ذلك قد تم
زمن أجداده، حيث أقسم المصريون وأقسم الحيثيون على الارتباط بعهد نكت به المصريون، فعادوا زمن
أبيه فغزوا مصر ثانية، وهو الأمر الذى يلتقى مع تاريخ مانيتون عبر يوسفوس وأكد عليه لويس عوض.
حيث علمنا أن هناك غزوتين للهكسوس، غزوة أولى كبرى تم طردها على يد أحمس ثم غزوة هكسوسيه
متأخرة حدثت زمن فتنة بنى إسرائيل وقائدهم أوزرسييف الذى أرسل يطلب مدداً هكسوسياً عند ثورته، فدخل
الهكسوس مصر مرة أخرى، لكن لتتم هزيمتهم هزيمة نهائية وأخيرة على الحدود المصرية.

لكن ألا نكون بذلك كمن يصنع من مادة قليلة ضئيلة بناءً طويلاً عريضاً يقوم على أساس هش، على
إشارة بتيمة وردت فى نص ضمن نصوص حيثية كثيرة أخرى؟

(٢٧) جرنى: الحيثيون.. سبق ذكره، ص ١٧.

(٢٨) نفسه: ص ٨٥.

هنا كان لابد من المثابرة والدأب والمشقة سعيا وراء ما يمكن العثور عليه من قرائن، وهي ما وجدناه في حديث المؤرخين الكلاسيك عن شعوب اسكيث أو سكاث، لأن (هيبوقراط) في كتابه: " حول الماء والهواء والأقاليم " وهو كتاب في الطبيعيات، محدثا عن الشعوب التي عاشت في المنطقة الفاصلة بين أوروبا وآسيا، أى عند أراارات وقزوين تحديداً، يقول:

أولا سأحدث عن طوال الرؤوس لأنه ليس هناك شعب آخر على الإطلاق له مثل تلك الجماجم. وقد ساهمت مجموعة من العادات إلى تلك الاستطالة في الرؤوس، ثم أسهمت الطبيعة بعد ذلك بدورها في دعم تلك العادات، وقد أتت تلك العادات من اعتقاد تلك الشعوب أن طويل الرأس نوع مميز من البشر. فعند ولاده الطفل، وطالما كانت عظام الرأس لينه لم تتصلب بعد.. يجبروا الرأس على الاستطالة بلفائف. الأمر الذي يشوه الشكل الطبيعي للرأس فتزداد استطالتها. وفي البداية كانوا يفعلون ذلك خضوعا لعادات موروثه، لتأتى رؤوسهم بهذا الشكل بفعل قسرى. لكن مع الوقت أصبحت الرأس تأتى طويلة بحكم الميلاد الوراثى، أما الآن فقد اختفى طول الرأس بسبب اختلاطهم بالزواج من شعوب أخرى. وهذا رأى فيما يتعلق بهذه الظاهرة. (٢٩)

ولأن الحيثيين فيما زعمنا قبائل اسكيثية، فقد كان طبيعيا وغير مفاجئ أن نقرأ عند (جرنى) فى كتابه (الحيثيون) قوله:

من الحفريات بفحص الجماجم التى وجدت فى عدة مواضع بالأناضول، وجد أن معظم السكان كانوا طوال الرؤوس وذلك خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. على مزيج قليل بالأنواع القصيرة العريضة الرؤوس. (٣٠)

هذا وقد عثرنا عند مكسيلاك القرياندى على نص مؤيد يقول: " وقد عاش شعب من ذوى الرؤوس الطويلة خلف البخاريين " (٣١)

(٢٩) د.ت.م. كوزنيتسوف: الاسكيثيون .. سبق ذكره ، ص ٨٧. ولاحظ أن كلام أبو قراط في وراثة العادة يعود لزمن بعيد لا

يتفق مع ما يعرفه العلم الحديث

(٣٠) جرنى: الحيثيون.. سبق ذكره، ص ٢٧٧.

ولعلنا لم نزل نذكر ماقلناه في باب عاد وشمود، ونقلنا منه وصفا عينيا لمقابر منطقة مقنا في محيط بلاد الحجر وآدم، حيث يقول الشاهد: عثر على كثير من الجماجم الغريبة الشكل في طولها.. والجماجم أكبر بكثير من جماجم الناس العاديين (٣٢).

ثم نجد عند جرنى إشارات لاسم منطقة عاش فيها الحيثيون وردت في الأساطير اليونانية، مرتبطة باسم ملك حقيقي من ملوك الحيثيين، إلا أن اليونان إطلاقاً لم يعرفوا الدولة الحيثية في كتاباتهم، فقط كانوا يشيرون إلى الاسكيث، مما يعنى أنهم قد عرفوا الحيثيين ولكن باسم سكيث وتقول إشارة جرنى:

وأخيراً فلدينا القصة الخرافية التى حفظها استفانوس
البيزنطى وهى أن مدينة ساميليا فى كارييا قد أسسها شخص
يدعى موتيلوس الذى استقبل هيلين وباريس فى رحلتها من
اسبرطة إلى طروادة على ما يظن ويبدو أننا نجد هنا ما
يذكرنا بالمعاهدة الإقطاعية التاريخية بين مونتاليس
والأكساندوس (٣٣).

استفانوس هنا يحدثنا عن مدينة أسسها ملك يدعى موتيلوس أو مونتاليس فى كارييا، وأنه استقبل الأشخاص الأسطوريين هيلين وباريس القادمين من اسبرطة إلى طروادة. وقد تم الكشف عن طروادة فى أقصى غرب الأناضول، مما يعنى أن مونتاليس كان ملكاً على الأناضول. ونحن نعلم بوجود ملك بهذا الاسم متكرراً فى قوائم ملوك الحيثيين، وهو دليل آخر قوى على رأينا أن الحيثيين كانوا هم المعروفين باسم الاسكيث عند اليونان. كما نعلم من عالم الأجناس واللغات (ماكلاستر) أن بلاد كارييا هذه حيث حكم مونتاليس، على خريطة رسمها لبلاد الحيثيين بالأناضول، كانت تقع على ساحل المتوسط المحاذى لبلاد اليونان فى جنوب غربى شبه جزيرة الأناضول، مما يقطع بأن اليونان قد عرفوا الحيثيين خاصة أن الحيثيين قد أقاموا دولتهم وعاصمتهم فى بلاد الأناضول الملاصقة لبلاد اليونان وكانت امتداداً معلوماً لها. لذلك يكون غريباً تماماً ألا يعرف اليونان شيئاً عن الحيثيين اللهم إلا إذا كانوا يعرفونهم كما نقول باسم الاسكيثيين. وكان عدم ذكرهم لديهم يكمن فى كونهم أطلقوا عليهم اسمهم الأصيل (سكيث) ذلك الاسم الذى تكرر كثيراً فى قصص طويله كتبها اليونانيون عن شعب السكيث أو السكاث. وهو ما يؤكد ما قلناه بهذا الصدد إن الحيثيين من قبائل السكيث أو هم قبائل سكيثية، ثم نتذكر كيف استبعد المؤرخون الإشارات القديمة إلى الأراميين زمن الملك الأكدي نرام سين، واحتسبوا مجرد تشابه فى الأسماء لأنهم رفضوا وجود الأراميين فى المنطقة فى ذلك الزمن المبكر، لكن لما كنا قد احتسبنا الأراميين والحيثيين عناصر اسكيثية هندوآرية، فإن ذلك يفسر لنا قول

(٣١) مكسلاك القرياندى (كاريانديسكى): جغرافية البحر المتاخم لأوروبا وآسيا وليبيا المأهولة، ترجمه إلى الروسية لانيشيف، دار نشر المدرسة العليا، موسكو، ١٩٩٢، ترجمه إلى العربية خصيصاً لهذا العمل الفنان الكسندر مولستوف والدكتورة عزة الخميسى الفصل ٨٥.

(٣٢) فتامى ٣٨٨.

(٣٣) جرنى: الحيثيون.. سبق ذكره، ص ٨٠.

آخر جاء عند العاهل نرام سين يقول فيه أنه حارب حلفا مكونا من سبعة عشر ملكا بينهم الملك الحيثى بامبا، مما يقطع بوجود الحيثيين في ذات الزمن الذى ينكره المؤرخون ويقولون إن الأناضول كان يسكنه شعب سابق للحيثيين أعطوه اسم البروتوحيثيين. وقد ورد مايشير إلى أن أعضاء هذا الحلف كانوا جميعا يسمون (هوارواس) الذى هو ببساطة بعد حذف التصريف (هوارو) أو الحوريين، لأنه من المستحيل أن يكون هوارواس اسما للملوك الأحلاف السبعة عشر، فهى صفة لا اسم. ومن النصوص نكتشف صفات مشتركة بين الهكسوس والحيثيين، وأهمها نقل الشعوب المهزومة من مواطنها، وتسخير الشعوب المفتوحة فى جيش الإمبراطورية، وهو مانجد له نموذجا فى قول الملك الحيثى المنتصر على بلاد أرازوا إذ يقول:

وهكذا قهرت بلاد أرازوا ونقلت جزءاً من السكان إلى
خاتوشاش (العاصمة الحيثية/ المؤلف) أما الجزء الآخر
فقد أخضعته مكانه، وفرضت عليه المساهمة بفرق من
الجند « (٣٤).

وإذ كنا قد اكتشفنا أن هناك عنصراً حوريا سكن مديان باسم القينيين أى الحدادين، فإن علم التاريخ يعلمنا أن الحيثيين كانوا هم فجر صناع الحديد وتعدينه، حيث سبق وقرأنا رسالة الملك الحيثى خاتوشيليش إلى ملك صديق يعاصره يقول له فيها:

أما عن الحديد الجيد الذى كتبت لى عنه، فالحديد الجيد
غير متوفر فى بيت الختم فى كيز وواتانا. وقد كتبت
إليك أن هذا الوقت غير صالح لإنتاج الحديد. إنهم
سينتجون حديداً جيداً لكنهم حتى الآن لم ينتهوا، وعندما
ينتھون سأرسله إليك. أما اليوم فأنا مرسل إليك
خنجرأ من حديد (٣٥).

لازلنا نحاول التأكيد على أن الحيثيين كالحوريين تماما عنصراً اسكيثيا هندو آريا أو أنهم كانوا هم ذاتهم، كان العنصر الحيثى ضمن الفئات القائدة لحافل الهكسوس الهائلة التى تم تجنيدها من مختلف الشعوب المفتوحة ، فنقف مع (إيفار لسنر) يصف الشعب الحيثى فيقول:

ويعتبر الحيثيون شعباً غريباً، أما غرابته فمردها إلى أننا
لانعرف عنه حتى الآن سوى القليل، فضلا عن الخلاف
الكبير بينه وبين سائر الشعوب القديمة التى عرفناها.
وتكشف نقوشهم البارزة عن أنهم أناس قصار القامة

(٣٤) نفسه: ص ١٥٥.

(٣٥) نفسه: ص ١١٠.

مكتزون عظامهم بارزة وجبهاتهم منحدره اما أنوفهم
فطويلة ومقوسة قليلاً أشبه بمنقار الببغاء وذقونهم قصيرة
(٣٦).

وهو الوصف الذى يلتقى مع وصف قديم أكثر تفصيلاً قدمه اليونانى هيبيوقراط لشعب سكيث، إذ يقول:

نتيجة للمناخ تميز الاسكيث بأنهم ممثلثون ومكتزون إلى حد
عدم إمكان تمييز الأعضاء عن بعضها. فالأعضاء رخوة
بدون عضلات، والجزء الأسفل من البطن به قدر عال من
المائية والرطوبة.. وبفضل هذا الامتلاء يختفى الشعر عن
الجسد ويصبحوا متشابهين. (٣٧)

ولابس هنا إن راجعنا لوحة بلاد بونت نتقخص ملكة أرض الإله مرة أخرى، التى تبدو لنا مولدة من
عنصر زنجى جنوبى أعطى جلدها لونه وعنصر حيثى اسكيثى شمالى تتداخل معه أعضاء الجسد المترهلة
حتى لا يمكن تمييزها فكانت تحمل صفات كليهما معا. أما المؤكد والناصح الذى لا بد أنه كان، فهو مانقراه
عند هيبيوقراط مؤكداً:

كانت القبيلة الاسكيثية تتميز بالشعر الأحمر الأملح بسبب
المناخ (٣٨).

وهو اللون الذى رأيناه واضحاً فى بلاد آدوم الحمراء وصفة ذكرتها التوراة ليعسو / آدوم. ويبدو أن
الاسكيث عندما هبطوا جنوباً على مختلف قبائلهم وتعدد عشائهم ولغاتهم الهندوآرية، قد أعطوا لمواطنهم
الجديدة فى بلاد آدوم أسماء مناطق قديمة عزيزة فى مواطنهم الأصلية. فإذا كنا قد وصلنا إلى أن بلاد آدوم
كانت عند المصريين باسم بلاد بونت، فهو ما يؤكده، ويؤكد كل رحلتنا البحثية أن نجد ذات الاسم هو الذى
كان ولم يزل يطلق على منطقة شرقى البحر الأسود الذى جاء منه السكيث، ممثلاً فى مدينة بونت وإقليم
بونت، حتى أن البحر الأسود يحمل فى تلك المنطقة اسم بحر بونت أما الجبال الفاصلة هناك مع الجنوب فهى
جبال بنطس أو بنط بحذف التصريف الاسمى (س). ثم أن الاسكيث قد عبدوا رباً عثر له على نموذج فى
ادغال قريبه هناك، وأنه كان على جبل يحمل اسماً شديداً الدلالة، فقد كان ذلك الجبل فى تلك البلاد البعيدة
يحمل اسم الجبل الأقرع، الذى تكرر اسمه بعد ذلك فى منطقة حوض المتوسط الشرقى، فنجد الجبل الأقرع
فى سوريا الآن كان مسكن الإله البعل، كذلك نجد الجبل الأقرع فى بلاد آدوم، وكان دوماً يحمل اسم جبل
كاسيوس أو الكاسى، وهو مانجده فى جبال قاسيون، كما نجده فى منطقة الكسارون الآن شمالى سيناء الغربية

(٣٦) أيفارلسنر: الماضى الحى.. سبق ذكره، ص ٨٨.

(٣٧) د.ت.م. كوزنيتسوف سبق ذكره، ص ٨٩.

(٣٨) نفسه: ص ٩٠.

على ساحل المتوسط، وكان يحمل اسم (كاسيوس) بدوره أى الكاسى أو السكىثى. دالا على أصله وأصل أصحابه الذين تركوا اسمه أينما ذهبوا.

والآن نأتى إلى منطقة مفصلية فى البحث عن إشارات واضحة فى كتابات هندوآرية تشير إلى غزو هندوآرى حدث لبلاد مصر يمكن أن يفسر لنا وجود العنصر الهندوآرى قائداً لجموع الهكسوس، فنقرأ عند (ديودور الصقلى) وهو يحدثنا عن قبائل شعب سكيث أوسكات:

بفضل جسارتهم وقواتهم المحاربة احتلوا مناطق واسعة وأضفوا على قبائلهم مجداً وسيطرة كبيرة.. فى البداية عاشوا.. على نهر الأراكس (نهر يصب فى بحر قزوين/ المؤلف).. وفى الماضى البعيد تحت قيادة ملك محارب يتميز بقدرات عظيمة، أقاموا لأنفسهم عرشاً على الجبال امتد حتى القوقاز. وفى الأرض المنخفضة امتدت أراضيهم حتى البحر المحيط .. وتميزوا بالشجاعة والمواهب الاستراتيجية وأخضعوا بلاداً شاسعة بعد نهر تانيس، وحتى بلاد الفيريجيين (آسيا الصغرى/ المؤلف). وبعثوا بعثات عسكرية انتشرت فى جميع الأراضى وأخضعوها حتى وصلوا نهر النيل المصرى .. وسخروا العديد من القبائل التى تعيش بين هذه الحدود، ونشروا سيطرتهم حتى المحيط الشرقى.

واستوطن هؤلاء الملوك ومعهم القبائل التى أخضعوها بلاداً كثيرة، وأهم هذه الحركات الاستيطانية حركتين: الأولى من آشور إلى بلاد بافلاجونيا وبونت، والثانية من ميديا إلى نهر تانيس (٣٩).

إن امتدت الأراضى التى استولى عليها الاسكيث. بل وسخروا أهلها فى العسكر تاريا السكيثية بل واستوطنوا تلك الأراضى. حتى البحر المحيط أو الكبير وهو التعبير الكلاسيكى القديم الدال على البحر الأبيض المتوسط. وكانت حركة الاستيطان الأولى فى البلاد الممتدة شمالاً عند أرمينيا من بافلاجونيا إلى بونت على البحر الأسود إلى بلاد آشور أى العراق الشمالى، ثم كانت الحركة الثانية من ميديا إلى نهر تانيس، ولانظن المقصود بميديا هنا الأصلية بشمالى إيران إنما ميديا (ميديان)، لسببين جوهريين،

(٣٩) ديودور الصقلى: ترجمه إلى الروسية لاتيشف، دار النشر المدرسة العليا، موسكو ١٩٩٢، ترجمه لهذا البحث الكسندر مولستوف وعزة الخميسى، الكتاب الثانى، الفصل ٤٣.

الأول: ما جاء فى تعقيب الباحث الروسى المتخصص الذى ترجم نص ديودور إلى الروسية، حيث عقب بأن الإحداثيات المعطاة عند ديودور الصقلى لانتشير إلى ميديا فارس، لكنها تشير إلى موطن آخر مجهول. وهذا المجهول برأينا هو بلاد مديان فى سيناء ووادى عربيه وشمالى الجزيرة، والسبب الثانى هو ذلك النهر الذى يرد احتلال مناطقه فى الترتيب بعد ميديا وجاء ذكره باسم (تانيس)، لأن تانيس اسم الفرع النيل قبل الأخير للدلتا شرقاً، فهو أول فروع الدلتا القديمة المتلاحمة مع البوادر السينائية، وهو أول محطة عامرة كبرى بعد بلاد مديان عند الاتجاه من الشرق دخولا إلى مصر فى الغرب، وعلى رأسه عند المنزلة كانت تقع المدينة التى منحت اسمها مدينة (تانيس). فى المكان الواقع فى شرقى الدلتا حيث قامت عاصمة الهكسوس المصرية (حواريس) المظنون عند كثير من المصروولوجست أنها بالتحديد تانيس عيناها. هذا بالطبع مع عدم إغفال قول ديودور الأول أنهم أخضعوا جميع البلدان حتى وصلوا نهر النيل المصرى.

ثم يوضح لنا (ديودور الصقلى) من أين جاءت فكرة النساء الأمازוניات فى الأساطير اليونانية، وهن نساء محاربات يظهرن كثيراً فى الأساطير الملحمية المسرحية اليونانية مصحوبات بجوقة من النساء يسمين الفينيقيات، فيقول:

ملكنت على السكيث امرأة تتميز بالقوة. وعند هذا الشعب تتدرب المرأة على الحرب مثل الرجل ولا تنقل عنه شجاعة وعديد من مآثرهن العظيمة صنعتها نساء عظيمات (لابأس أن نتذكر هنا ملكات بلاد عريبي/ المؤلف). وعلى هذا النحو تأسست قبيلة الأمازוניات التى تميزت بالشجاعة التى مكنتها من احتلال دول كثيرة، كانت تشكل جزءاً كبيراً من آسيا وأيضاً من أوروبا.. وأحرقوا الندى الأيمن للأطفال الإناث حتى لا يعيقهم عند الحرب عند وصولهن سن البلوغ.. وهذه الملكة.. أخضعت كل جيرانها حتى وصلت إلى نهر تانيس.. واستحوذت على الجزء الأكبر من آسيا ونشرت سيطرتها فى سوريا (٤٠).

ولو كان نهر تانيس كما ذهب بعض الباحثين ربما كان نهر الدنيبر فى عمق الشمال الآسيوى، لما ذكر معه فى نص ديودور السابق، ولما قيل هنا مترافقا مع سيطرة السكيث الأمازוניات على بلاد سوريا. وحتى الآن لم يتم تقديم تفسير مرضى لمعنى كلمة الأمازוניات رغم شهرتهن لدى اليونان، لكن وفق ما جمعناه حتى الآن لن تكون مجازفين إذا قرأناه على أصوله عمزونيات أو عنزيات ذوات العنز والماعز، حيث نعلم أن حرف (م) يتبادل مع حرف (ن) كما فى عنّ وعمّ، ولو طالعنا ما أمكن جمعه من لوحات الفن السكيثى

(٤٠) نفسه: الكتاب الثانى فصل ٤٣، ٤٤، ٤٥.

لوجدناه جميعا لا يكاد يخلو فى لوحة واحدة منه من صورة العنز، حتى تلك الآثار التى وجدناها فى محيط بحر قزوين.

ولمزيد من التأكيد على أن العنصر الهندو آرى الذى تواجد مع الهكسوس فى مصر، يعود بأصوله الجنسية إلى شعوب السكيث، نقرأ فليكو فسكى، إذ يؤمن أن الهكسوس العمالة كانوا بالتحديد ساميين من جزيرة العرب، لكنه يعجب أشد العجب من بربرية وهمجية وقسوة الهكسوس فى مصر فيقول:

كان الغزاة العماليق قادمين من شبه الجزيرة.. ومثل
العماليق بأجسام الجرحى والمساجين، وقطعوا أطرافهم،
وكانوا على درجة كبيرة من القسوة والفظاظة فى نواح
كثيرة بما يعجز عنه الوصف. وخطفوا الأطفال والنساء
وأحرقوا المدن ودمروا الآثار والأعمال الفنية.. وجرّدوا
مصر من ثرواتها وكنوزها... وكانوا يبتزون أعضاء
وأطراف الجرحى ويمتلون بهم، ويهرطقون ويجذفون بكفر
صارخ بقذف الأعضاء المبتورة من الجرحى نحو السماء
ويسخرون من الرب (٤١).

كلا لم يرفليكو فسكى فى هذه الفظاظة القاسية سوى هرطقة وكفرًا، لأنه لم يكن يعلم بعد ما علمنا وفق
خطتنا الحميدة، حيث نجد تلك القسوة دليلا آخر على وجود عنصر آرى سكيثى فى الهكسوس، وذلك عندما
نقرأ عنها عند مؤرخى اليونان، فنكتشف أن تلك القسوة كانت طقساً دينيا تعبديا لدى شعب سكيث بالذات
وبالتحديد ولم تكن غاية فى حد ذاتها. كانت قربانا للملك وللإله، فيقول هيرودوت عن شعب السكيث:

.. فى كل عام يضيفون إلى مرتفع ١٥٠ حمولة من حزم
أعواد الخشب الجاف.. وفوقه كانوا يغرسون العقنّاق
Akunak [يقول المترجم أنه ربما كان سيفاً حديداً] يمثل
الإله، ويقدمون لهذا العقنّاق كل عام كافة أنواع القرابين..
فى أسفل هذا المرتفع يقومون بالآتى: **يقطعون الكتف الأيمن
من موتى العدو بالذراع ويقذفون بها فى الهواء** (٤٢).

وفى نصوص مصر القديمة، نجد السجاز الهكسوس يوصفون والوصف يأتي كما لو كان معنى لكلمة
سجاز بأنهم قاطعو الرؤوس أو قاطعو الرقاب، ومن جانبنا فقد عثرنا على تفسير للكلمة، وهو بذاته دليل آخر
على مدى نجاح فروضنا، فنقرأ هيرودوت يحكى عن قبائل سكيث قائلا:

(٤١) فليكو فسكى: عصور .. سبق ذكره، ص ١١٦، ١١٨.

(٤٢) هيرودت: الطبعة الروسية فى كتاب كوزنيتسوف الاسكيثيون، الكتاب ١٧ الفصل ٦٢ الفقرات ٢، ٤. ترجمه لهذا
البحث الكسندر مولستوف وعزة الخميسى.

حين كان السكيثى يقتل لأول مرة، كان لابد أن يشرب من دم عدوه.. ويسلخ جلد الرأس بقطع دائرة حول الأذنين ويسلخها عن الجمجمة ويقدمها للملك.. ثم كانوا ينشرون الجمجمة أسفل الحاجبين ثم ينظفونها، وإذا كان الشخص فقيراً كساها بالجلد.. وإن كان ثرياً كساها بالذهب، ثم يستخدمونها في الشراب (٤٣).

وقد سبق وعلمنا أن هناك تفسيرات تاريخية قديمة سبقت خلال القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، لخروج بنى إسرائيل من مصر، كان من بينها القول بأن الإسرائيليين لم يكونوا يأخذوا بقواعد النظافة عند المصريين، ومع طول عسرتهم للحيوانات، أصيبوا بأوبئة جلدية حادة، اضطر معها المصريون إلى طردهم من البلاد خشية نقشي الداء في مصر. وربما وصلنا من جانبنا إلى تفسير لسر انتشار ذلك الوباء بين الهكسوس في عادات شعب السكيث، وهو ما يمكن فهمه من نص هيرودت القائل:

يأخذ السكيث بذور نبات يشبه نبات التيل [نرى من جانبنا أنه أحد مواد البخور/ المؤلف] ويزحفون تحت غطاء ويلقون بالبذور على أحجار سبق تسخينها إلى درجة الاحمرار فتحدث دخاناً كثيفاً.. ويستمتع السكيث بهذا الحمام من البخار فهو لديهم بديلاً عن الاغتسال، فهم لا يغسلون أجسادهم بالمياه أبداً (٤٤).

لقد كان الاسكيث يعتقدون أن مواد التبخير كانت أطهر للجسد من الماء، وهو أمر لا يعتقد أنه إلا من كان إنتاج مواد التبخير لديه أمراً أساسياً وتأسيسياً ومصدر اقتصادي عظيم يستحق هذا التقديس. ولمزيد من التعضيد في كون اسكيث كانوا هم أصحاب الماعز بين الهكسوس نستمتع إلى المؤرخ الكلاسيكي يفيستافى يحكى لنا عن بعض قبائل سكيث في مواطنهم الأصلية فيقول:

والتياريون الذين يسمون تيباريين أى أصحاب الماعز.. يعيشون في المناطق حتى أرمينيا الصغرى.. وخلفهم يعيش الكاليبيون الذين استوطنوا أرضاً قفراً وقاسية، وكانوا بارعين في معالجة الحديد الخام.. وهم شعب بونتي (٤٥).

(٤٣) نفسه: كتاب ١٧ فصل ٦٤، ٦٥.

(٤٤) نفسه: كتاب ١٧ فصل ٧٥ فقرة ٢.

(٤٥) يفيستافى: تعليق على جغرافية الأمراض لديونيسى، ترجمه إلى الروسية تشيفنكوف E.B. كتاب الاسكيثيون، دار نشر المدرسة العليا، موسكو، ١٩٩٢، ترجمة مولستوف وعزة الخميسى. الفصل ٧٦٧.

ويبدو لنا أن اسم الكالبيين ونسبته إلى كالب، قد ترك بصمته واضحة فيما بعد في اسم أحد تلامذة موسى (كالب بن يفتا)، وأصبح شخصا لا يقل أهمية عن يشوع بن نون بعد موت موسى. ثم تتد ذكريات هنا وهناك في كتابات الكلاسيك، عن علاقات للمصريين بذلك الشعب المعروف باسم السكيث، تأتي في عبارات سريعة غامضة، لكنها تفصح مع كل ما جمعنا وتصبح شديدة الوضوح، ومن نماذج ذلك ما جاء عند بومبي تروج يقول:

وسيطرت السكاث على آسيا ثلاث مرات، أما هم فلم
يمسهم أحد ولم ينتصر عليهم أحد.. وكان أول من أعلن
الحرب ضد السكاث هو الملك المصري ثيزوسيس^(٤٦)]
يقصد الفرعون المشهور لدى اليونان باسم سيزوستريس/
المؤلف].

وفي رسالة من السكيث أو السجاز قاطعو الرقاب إلى الإسكندر المقدوني نقرأ القول بعد حكايات طويلة عن ماض عريق.

وهكذا انتصرنا على الملك السورى وملك الفرس وميديا
[يعقب المترجم الروسى المتخصص بأن ميديا هذه ليست
ميديا فارس/ المؤلف] وأصبح الطريق مفتوحا أمامنا حتى
مصر نفسها^(٤٧).

نظننا الآن نقف على أرض صلبة، بعد أن عثرنا على جميع أصول المحتل الهكسوسى، وبخاصة ذلك العنصر الغامض الهندوآرى الذى أثبت وجوده دون دلائل كافية، ولأقراءن تشير إلى أسماء قبائله ومواطنها، والذى ثبت أنه من قبائل سكيث. وهو الأمر الذى جهدنا عليه طويلا لتأكيد نظريتنا فى اتحاد العناصر المتلاقحة فى بلاد آدوم ومديان فى سيناء وآدوم وبوادي الشام، لينجبوا شعبا هجينا مولداً، ويفرزوا لغته السامية الشمالية وكان بين هؤلاء الشعب العبرى الإسرائيلى المرموز له دوماً بأورشليم، حيث يضيئ أماننا نص الكتاب المقدس كاشفا العنصرين العمورى الأمورى الجنوبي والشمالي الحيثى الأرامى السكيثى، فيقول:

هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من
أرض كنعان، أبوك أمورى، وأمك حيثية.

حزقيال ١٦ / ٣

(٤٦) بومباى تروج: تاريخ فيليب، اختصره مارك يونيان، ترجمه للروسية لانتشيف المصدر السابق، كتاب ٢، فصل ٣، فقرات ١، ٢.

(٤٧) كيونت كورنرروروف: المصدر السابق، الكتاب السابع، فصل ٨، فقرة ٣٤.

ليكرر منادياً بلسان حزقيال النبي:

أنت وأخت أخواتك اللواتي كرهن أزواجهن وأبنائهن.
أمكن حيثية وأبوكن أمورى.

حزقيال ١٦ / ٤٥

أما النظرية التي كانت تتوارى فى الظل طوال الوقت حول أصل الأقوام السامية وموطنها الأول الجغرافى، فهى تلك التى تقول إن بوادى الشام كانت المهد الأول للأقوام السامية، وبالذات بلاد عربية، وقد أكد كونتو أن بوادى الشام كانت محطة استراحة طويلة فى هجرة الأقوام السامية من مواطن أخرى أصلية (٤٨).

هكذا انتهينا من سكيث، بينما لازال علم التاريخ التقليدى يبحث من هم الساجاز، لينتهى من حل اللغز إلى ذات الحل الذى لجأ إليه فى مشكلة الخابيرو، وهو أنهم مجرد شذاذ آفاق لا يرتبطون بعنصر معلوم ارتباطا واضحا، وهو ما يعبر عنه قول المصرولوجست (الدريد):

وكانت هناك فئة تبدو لنا - أكثر غموضا هى فئة الساجاز
كما ذكرت على الألواح المسمارية، وهم مطابقون للخابيرو
الذين أطلقت عليهم النصوص المصرية اسم العابيرو. وكان
يندرج تحت هذا الاسم كل العمال غير المدربين وكل العبيد
من اسرى الحروب، ويبدو أن هذه الفئة كانت من أصول
عرقية مختلفة ولغاتهم أيضا مختلفة، يتجولون فى فلسطين
وسوريا ويعيشون على السلب والنهب أو الخدمة كمرتزقة (٤٩).

ساجاز أو سكيث هم إذن العنصر الهندوآرى الأرامى الذى هبط من الشمال ليسكن بلاد مديان بلاد الأيك وأشجار العطور مع الزنوج الأفارقة ومع العموريين القادمين من جنوب الجزيرة حتى أن كلمة شجرة العربية هى الأصل الذى تعود إليه كلمة SAGARIS اليونانية، وهو نوع من السلاح كان يستخدمه الاسكيثيون وتسميته سكيثية وليست يونانية.، ومن الشجرة فى العربية الشواجر، والشواجر هى سيوف الحديد (٥٠).

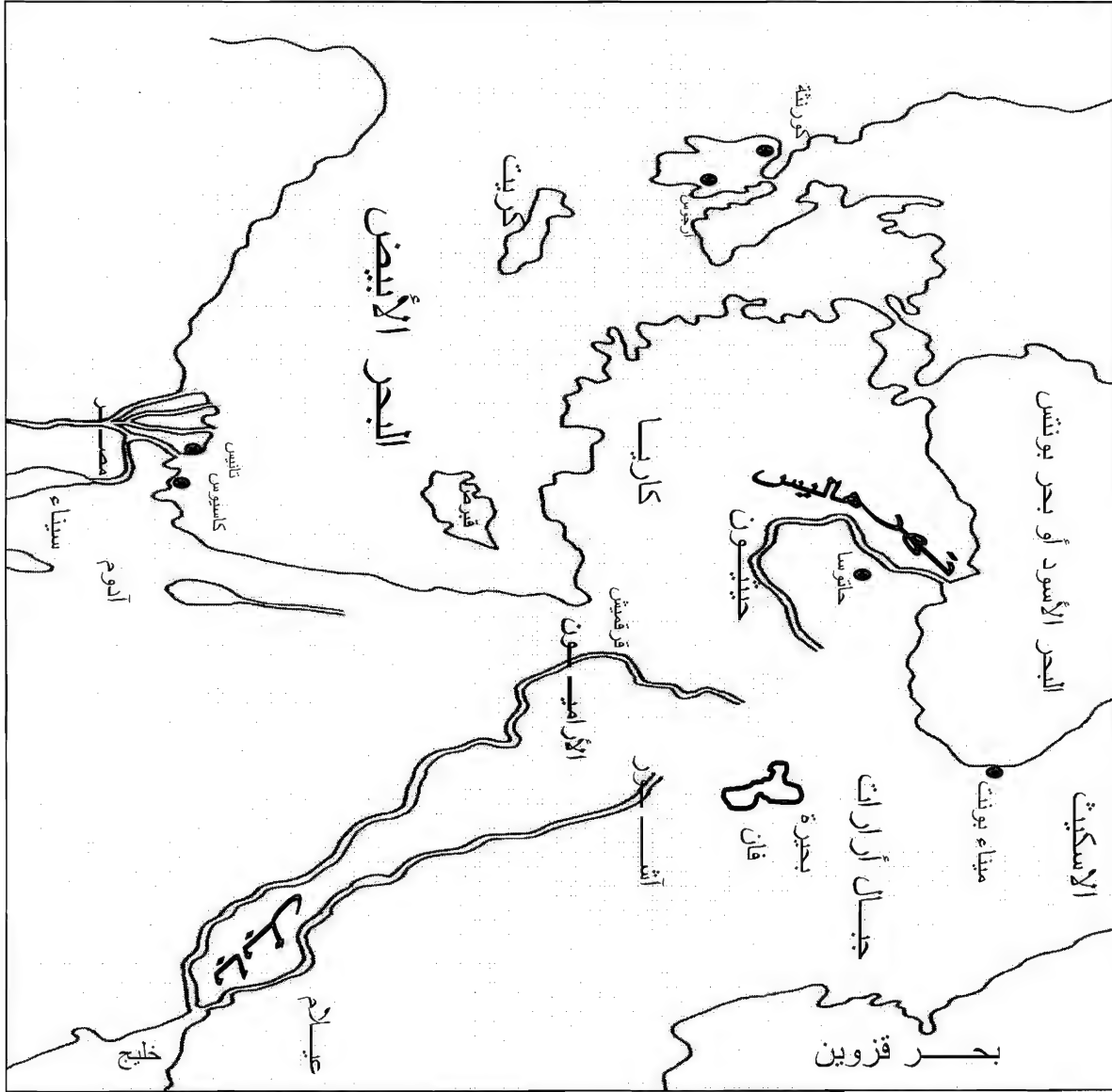
Conteneau, Ciuilisation d,Assur et de Babylone, paris, payot, ١٩٥١, p٦.

(٤٨)

(٤٩) سيرل آلدريد: إخناتون، ترجمة د. أحمد زهير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٣، ٤٤.

(٥٠) على الشوك: جولة .. سبق ذكره، ص ٦٦، ٦٧.

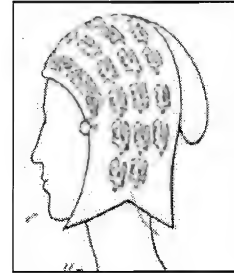
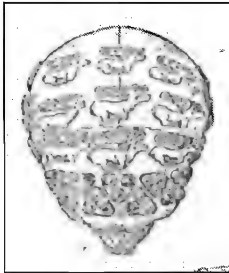
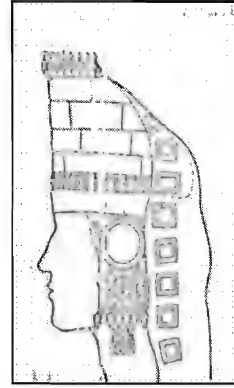
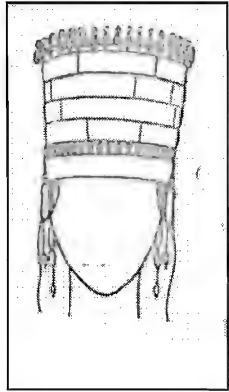
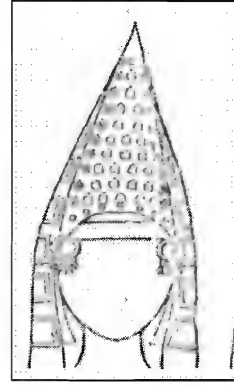
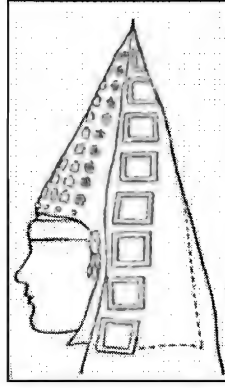
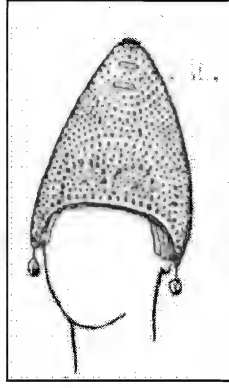
ويحيطننا (آرثر كيستلر) علما أن كلمة (سا - جاز) يعنى شقها الثاني (جاز) فعل بمعنى يتجول في اللغة التركية،^(٥١) أي البدوي أو التائه أو الهائم على وجهه. وفي العربية (اجتاز) انتقل من موضع لآخر، وعرب اليوم بجزيرة العرب والخليج لازالوا يطلقون على العابرين المتنقل أو المسافرين اسمه: العبري.. و .. التركي. أنها بقايا التاريخ في اللسان حتى اليوم.



خريطة رقم (٣٩)

لاحظ الموقع كارييا في الأناضول وقد قلنا أن عنصراً بشرياً جاء من هناك مهاجراً إلى آدوم، عنصر آرامي حيثى، ونحن نعلم أن اللغة الحورية لغة سكان الكهوف كانت تعرف باسم اللغة الكارية

(٥١) آرثر كيستلر: القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم، ترجمة أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية للكتاب، ص ٢٨.



شكل رقم (٨٤)
البسة الرأس عند الإسكيت

الجزء الثالث

آخر أيام تل العمارنة

الفرعون إخناتون الوهم والحقيقة

علاقة إخناتون الفرعوني بموسى النبى :

ليس هناك باحث تناول بدراسته النبى موسى إلا وذكر الفرعون إخناتون فرعون التوحيد قياسا على عقيدة التوحيد اليهودية، إضافة إلى كثير من الأبحاث التى قامت على العلاقة بين العقيدة الآتونية التى نادى بها الفرعون إخناتون فى مصر، وبين عقيدة التوحيد الموسوية، وقد أدى إلى هذا التداعى لأحدهما كلما ذكر الآخر عدد من العوامل التى تشى بعلاقة مابين العقيدتين، بل ربما بين الشخصين.

وأول الملاحظات تلك التى لاحظها علماء المصريات وتتعلق بالاسم (موسى) فالاسم مصرى قح، فالكلمة المصرية القديمة مس تعنى (أنجب) أو (ولد)، وتدخل فى تركيب أسماء مثل تحوت مس ورع مس، لكن كلمة موسى قد تحتل معنى آخر هو بدوره مصرى أيضا، وربما كانت مركبة من الشقين (مو + سا)، والكلمة مو وحدها تعنى ماء (مو) ، والكلمة (سا) تعنى ابن، ويعنى اسم موسى بذلك (ابن الماء)، وهو اسم أقرب إلى تفسير الحدث الذى ترويه التوراة، إذ عثرت عليه ابنة الفرعون فى سبط بالماء، فأطلقت عليه الاسم الذى يليق به حال العثور عليه، وهو ما تفصح عنه كلمات التوراة إذ تقول: " ودعت اسمه موسى وقالت: إنى انتشلته من الماء/ خروج ١٠/٢ ". وعلى كلتى الحالتين فالاسم مصرى قح.

وكانت هذه الملاحظة الأولى التأسيسية مدعاة للقول أنه ليس فقط الاسم هو المصرى بل الشخص بذاته، وهو ما رأيناه عند فرويد فى كتابه (موسى والتوحيد) الذى تركنا نستنتج أن موسى كان أميراً مصرياً من البيت المالك، ولم يكن أبداً عبرانياً.

تلك كانت الملاحظة الأولى عن علاقة موسى بمصر، وهو الأمر الذى يؤكد المقدس فى تاريخه، حيث يروى لنا المقدس أن موسى ربى فى بيت الفرعون كابن بالتبنى، بعد أن رمت به أمه فى سبط بالنهر، وعثرت عليه ابنة الفرعون كما تقول قصة التوراة، أو زوجة الفرعون كما يقول القرآن، فالقصة هنا تريد القول أنه من أصول عبرانية، لكنه ربى فى القصر الفرعوني الحاكم بمصر.

ولأن فرويد كان يرى موسى مصرياً بالميلاد والعنصر والثقافة فقد أعطى بعض الاشارات التى تترك القارئ يستنتج أن قصة التوراه عن عبرانية موسى كانت أكذوبة بالكامل، فلم يكن لهذا الأمير المصرى أية علاقة ببنى إسرائيل، وكان مصرياً بالجنس والاسم، ويبدو أنه من قرابة الفرعون المصرى إخناتون، أول من نادى بالتوحيد فى التاريخ الانسانى المعروف. وقدر فرويد أن موسى آمن بعقيدة سيده الفرعون بشدة، واقترب من الفرعون وأثبت إخلاصه العميق له، وربما حلم هذا الرجل موسى بعرش البلاد بعد إخناتون، بحكم تلك العلاقة القرابية، وبحكم إثباته لولائه لسيده الفرعون ولديانته الجديدة.

وعندما سقط إخناتون وديانته بانقلاب قام به كهنة آمون أو العسكر أو كليهما بالتحالف، أسقط في يد موسى، الذى كان فى ذلك الوقت قائد الحامية الحدودية فى شرقى الدلتا، فهو إن عاد إلى طيبة سيظل مشكوكا فى ولائه لآمون وعقيدة البلاد، وفى هذه الحال لن ينال شيئا، بل ربما لحقته بعض الأضرار التى تلحق بالمهزومين، وربما حوكم باعتباره كان من المتحمسين لسيده وديانته، وهكذا ضاع حلمه فى حكم الامبراطورية من الداخل، فتوجه بديانته إلى العبرانيين الذين كانوا مستبشرين على حدود الدلتا الشرقية، وخرج بهم من مصر، ليقيم بهم دولة بدلا عن الدولة التى فقدها، فقد كان الموقف مصيريا، إما العودة والمحكمة، وإما القرار التاريخى الجرى. وبالفعل خرج يقود العبرانيين فى سيناء، بعد أن علمهم عقيدة سيده إخناتون الآتونية، لكن العبرانيين الأجلاف لم يحتملوا قوانين وقواعد تلك العقيدة الراقية، فقتلوا سيدهم فى سيناء، وتحولوا إلى عبادة العجول القديمة، ثم بعد زمان شعروا بالذنب تجاه هذا السيد وربهم فعادوا إليها، لكنها العودة التى شابتها مصرية المؤسس الأول والحقيقى لديانته الملتبسة بقوميتهم، ورغم أن فرويد لم يقل ذلك صراحة، إلا أنه الاستنتاج الذى لا بد أن يصل إليه القارئ اللبيب، فقد قام الإسرائيليون بسلخون موسى عن مصريته، رفعا لتلك الوصمة التاريخية، ويصوغون قصة أسطورية تربطه بالميلاد ببنى اسرائيل، فاستعاروا قصة الالتقاء فى اليم التى كانت منتشرة إبان ذلك فى أساطير الأبطال، وقالوا إن موسى كان إسرائيليا بالمولد، وأنه فقط ربي فى قصر الفرعون، فكان مصريا بالتبني، **وصدق العالم تلك القصة الأسطورية.**

على أية حال، نحن نقصد هنا بيان العوامل التى أدت باستمرار إلى الربط بين موسى وإخناتون، حتى وصل الأمر كما عند فرويد إلى القول أن موسى كان التلميذ المباشر لإخناتون، وقد ظل مثل ذلك الربط يحدث طويلا فى كتابات الباحثين استناداً إلى شواهد مثل تلك التى قدمها ديورانت والتى قدمها برستد عن التشابه الدقيق بين أناشيد إخناتون لربه الواحد، وبين أسفار المزامير والأمثال بالكتاب المقدس، هذا ناهيك عن الأوامر الصريحة بالكتاب المقدس عن عدم تصوير الإله، وهو ذات الأمر الذى أتضح فى ديانة آتون الاخناتونية.

وفى ذلك يقول عباس العقاد: " وقد عقد كل من هنرى برستد وأرثرويجال Weigall مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد المزامير العبرية فانفتحت المعانى بينها اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر.. وقد خطر لويجال أن آتون وآتوم تصحيف أدوناي بمعنى السيد أو الاله فى اللغة العبرية، وإن إخناتون ورث آراءه عن أمه وهى تنتمى إلى سلالة آسيوية من شعب يقيم بين سورية وآسيا الصغرى (يقصد ميتانى المزعوم أنها بأعلى الفرات) حيث يُعبد أدوناي أو آتون على مختلف اللهجات " (١).

أما الإشارة القوية التى كانت تحيل دوما إلى إيجاد صلة من أى نوع بين موسى وإخناتون فهو ماجاء ذكره عند المؤرخ اليهودى يوسفوس، وهو ينقل عن مانيثو المؤرخ المصرى، فيزعم أن الإسرائيليين قد

(١) عباس العقاد: الله، كتاب الهلال، عدد ٤٢، القاهرة، سبتمبر ١٩٥٤، ص ٥٦، ٥٧.

خرجوا من مصر زمن فرعون زاهد لا يحب الحروب ولا القتال وهى صفات نعرفها الآن عن إخناتون، بل قال يوسفيوس إن هذا الفرعون كان اسمه أمنوفيس، وأمنوفيس هو النطق اليونانى للاسم المصرى أمنحتب، وهو الاسم الصادق للفرعون إخناتون، فهو أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث. لكن تلك النظريات جميعا أخذت فى السقوط والتداعى بعد أن بدأ علماء المصريات يتجهون نحو الإجماع على أن الخروج قد تم فى عهد مرنبتاح ابن رمسيس الثانى، وهو ما أدى إلى الابتعاد التدريجى عن فكرة العلاقة المباشرة بين موسى وإخناتون، والاتجاه إلى الفصل بينهما، وأنه إذا كانت ثمة علاقة، فهى تأثر موسى بتلك العقيدة القديمة بشكل ما، تأثر عن بُعد تفصله زمنيا سنوات تزيد على القرن من الزمان، وليس تأثراً مباشراً وعلاقة تماس بين الشخصين وهو ماتعبر عنه رؤية فراس السواح إذ يقول:

" إن تأثر الديانة اليهودية بالديانة الآتونية هو أمر منطقي وممكن، بصرف النظر عن حكاية موسى المصرى، فالديانة اليهودية نشأت فى زمن لا يبعد كثيراً عن زمن ازدهار الآتونية، ونستطيع بسهولة أن نفترض أن الديانة الآتونية بعد انهيارها تحولت إلى ديانة سرية، انتشرت بين المضطهدين الغرباء، وخضعت لتحولات أساسية عبر الوقت إلى أن اتخذت شكلها الجديد على يد موسى. وقد استمرت بعض الصلوات الآتونية حية فى كتابة التوراه " (١).

ويضيف رمضان السيد قوله: " وتقرب هذه العقيدة (أى الآتونية) بين الأفكار الدينية المصرية، والأفكار الدينية السائدة فى معظم المناطق تحت اسم أوهون أو آدون بمعنى السيد " (٢). ومن جانبه يقول سيجموند فرويد: " إن قانون الايمان اليهودى كما هو معلوم يقول:

Sehem Jisroel (Adonai) Elohena Adonai Echod

وإذا لم يكن من قبيل المصادفة أن اسم آتون المصرى يذكر هنا باللفظة العبرية Adonai وبالاسم الالهى السورى أدونيس، وإذا كان التشابه نتيجة لتماثل بدائى فى المعنى واللغة، فإن فى مستطاعتنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالى: إصغى يا إسرائيل:

إن إلهنا آتون Adonay هو الاله الأوحد " (٣).

وكما انشغل الباحثون انشغلنا وحددنا لنا موقفا يلتقى فى تفاصيله مع كل ماقلناه من البدء حتى الآن، وهو القول الذى كان بكامله إعادة قراءة لوضع الأمور فى صحيح نصابها، تمهيداً لطرح رؤيتنا فى علاقة الموسوية بالآتونية، وموسى بإخناتون، والإسرائيليين بمصر القديمة. لكن قبل أن نطرح رؤيتنا هنا علينا أولاً

(١) السواح: مغامرة .. سبق ذكره، ص ١٠٦ .

(٢) رمضان السيد: تاريخ مصر القديمة، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٩٣، ج ٢، ص ١٠١، ١٠٩ .

(٣) سيجموند فرويد : موسى .. سبق ذكره، ص ٣٤ .

أن نمر على زمن إخناتون وعهده، مع عرض بعض تفاصيل تلك الشخصية الثرية التى شغلت الدنيا ولم تزل.

إخناتون :

لوحة واحدة فقط ليس هناك غيرها، منقوشة على الجدار الجنوبي من الواجهة الخارجية لقاعة الأعمدة الكبرى البحرى بالكرنك يظهر فيها الفرعون آمنحتب الثالث وبرفته ابن له، وعدا ذلك لا يظهر لآمنحتب الثالث أى ابن فى أى صورة تمثله مع أفراد عائلته، فقط زوجته (تى) وبناته فى نقوشه الكثيرة، أما أبناء ذكور فلا، عدا تلك اللوحة اليتيمية التى تصور الفرعون وولده يركبان سفينة بحرية^(١)، وهو أمر لاشك له مغزى، لم نجد فيما وصلنا من مصادر موثوقة أى بحث تم بشأنه، ولماذا على سفينة بحرية بالذات؟

أما الأمر الذى يزيدنا التباسا، فهو أنه فى زمن تال لزمن آمنحتب الثالث وولده، تمت إزالة الاسم المكتوب لابن الفرعون على لوحة السفينة تلك، وكتب بدلا منه اسم لفرعون يأتى بعد ذلك بفترة، خاتما الاسرة الثامنة عشرة وبادئا الاسرة التاسعة عشرة هو حورمحب^(٢)، وبذلك فقدنا اسم الابن المدون على لوحة السفينة. كما أدى التدخل فى اللوحة إلى التباسات مبكرة عند المؤرخين، وهو ماحدث عند مانيتو المصرى ومن أخذ عنه من مؤرخى العصر الكلاسيكى واحتسبوا حورمحب الذى جاءنا بالنطق اليونانى (رهامبيس) فى رواية يوسفوس ولداً مباشراً لآمنحتب الثالث. وظلت أسرة العمارنة بعدما لحقها من مطاردة ومحو من على الآثار زمنا طويلا أسرة مجهولة، حتى تم الكشف عن مدينة أخت آتون فى العمارنة، لتعرف الدنيا أخبارها التى كانت غير معلومة بالمرة.

أما الالتباس الثانى فهو أننا نعلم أن (آمنحتب الثالث) قد رزق بولد اسمه (تحتمس) وقد عثر على سوطه وعليه نقش يقول: « ابن الملك وقائد الجيوش تحتمس »^(٣). كل مانعلمه عنه أنه قد تم إرساله إلى منف لتلقى العلم، ثم فقدنا أخباره بعدها مما أدى بقرار من المؤرخين وليس من الوثائق، أن هذا الابن قد مات صغيراً^(٤). ويبقى السؤال: هل كان الابن المصور مع أبيه فى السفينة هو تحتمس، أم أنه كان ذلك الذى عرفناه بعد ذلك باسم آمنحتب الرابع / إخناتون؟ ثم سؤال آخر لم يطرحه أحد بالمرة بعد أن افترض المؤرخون أنه كان لدى آمنحتب الثالث ولدين: الأول باسم تحتمس الذى مات، والثانى باسم إخناتون، والسؤال هو: ألايمكن أن يكون تحتمس هو ذات آمنحتب الرابع إخناتون؟ خاصة إذا علمنا أن الفرعون كان يحمل أكثر من اسم، وأن اسم آمنحتب الرابع كان اسم العرش، أما إخناتون فقد أطلقه هذا الفرعون على نفسه بعدما قرر الإعلان السافر عن عقيدة آتون الإله الواحد فانتسب إليه باسمه، وألغى اسم آمنحتب الذى ينتمى إلى الإله

(١) محمد عبد القادر محمد: آثار الأقصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ٧٣، ٧٥.

(٢) الموضع نفسه .

(٣) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٩ .

(٤) عبد المنعم أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٣٦ .

(آمون) فهو (آمون - حوتب). ثم الأمر المريب الشديد الغرابة، أننا لانجد إطلاقاً أى لوحة أو أى نقش أو أى كتابه تشير إلى ولد أو ولدين لآمنحتب الثالث سوى معرفتنا باسم تحتتمس الذى ذهب لعين شمس ثم مات صبيها باستنتاجات المؤرخين. ولوحة السفينة بالكرنك التى لا تفصح عن اسم ذلك الابن. فهل كان ذلك الإهمال مقصوداً فى فنون آمنحتب الثالث ومدوناته؟ يبدو أننا يجب أن نسلم بذلك لأنه من غير المنطقى إطلاقاً ألا يظهر وريث العرش فى لوحات والده طوال حياته، لنجده فجأة على العرش بعد موت أبيه، حتى ظن الباحثون لفترات أن إخناتون مجرد مغتصب للعرش، حتى تاكدوا أن إخناتون الذى اعتلى العرش وظهر فجأة دون مقدمات كان ابناً لآمنحتب الثالث .

أكثرنا على قارئنا من طرح التساؤلات والألغاز. ولكن ماحيلتنا ونحن لانستطيع قبول الأمور كما تلقى إلينا على علاتها، وإن كانت أسئلتنا مشروعة تماماً، فإنها أسئلة مقصودة لارتباطها بما سنطرحه خلال الفصول القادمة من حلول مقترحة لقضية إخناتون وموسى، لأننا أبداً لم نقتنع بقصة الخروج زمن مرتبناح ابن رمسيس الثانى، ولما تجمع بأيدينا من قرائن وأدلة تؤكد رؤية أخرى ترى أنه كانت هناك علاقة ليست فقط مباشرة، بل أكثر من مباشرة، أكثر من علاقة شخصية بين شخصية الفرعون إخناتون وشخصية النبى موسى، وهو ماسنوضحه فى الفصول التالية.

وشخصية الفرعون إخناتون حازت من التضارب فى الاجتهادات حولها ما لم تحزه شخصية أخرى من التاريخ، وهنا نقف نستمع إلى المصروولوجيين يحدثوننا عن ذلك التضارب، فيقول لنا (عبدالمعظم أبو بكر) :

" قد مجده البعض إلى درجة رفعوه إلى مرتبة الأنبياء، اذ اعتبروه أول من نادى بالتوحيد بين البشر.. كما حمل البعض الآخر على إخناتون حملات منكرة، محاولا الحط من قيمته إلى درجة أنه قيل عنه: كان هذا الرجل شاذاً فى خلقه، شاذاً فى عقله، منحدرًا إلى الحضيض فى بعض تصرفاته.. أما شذوذه العقلى فلمخالفته لأهل عصره فى عدم تشييعه لآلهة طيبة ومقته الشديد للإله آمون، أما شذوذه الخلقى فهو موضع الغرابة، فإننا لفى شك مريب فى تلك العلاقة بينه وبين أخيه سمنخ كا رع، إذ كان حبه له وتعلقه به خارجاً عن نطاق العقل والمألوف " (١).

ثم نستمع إلى (سيد توفيق) يحدثنا عن إخناتون قائلاً: " وتعددت الآراء بل تضاربت أحياناً فى تقييم هذه الشخصية، فالبعض يرى فى إخناتون أول الموحدين، والفيلسوف الأول، وأول المثاليين، والمفكر الأول، بينما يعتبره البعض الآخر مجرد حالم عاطل، تسبب بإهماله وتراخيه فى مواجهة مشاكل السياسة الخارجية فى فقدان مصر للولايات الخارجية، التى كانت خاضعة لها أيام الإمبراطورية التى شيدها آبؤه وأجداده. واعتقد فريق ثالث أنه سياسى ماهر اتخذ الدين ستاراً لحماية نفسه وزيادة نفوذه الشخصى، وقد ظهر إخناتون فى

(١) نفسه: ص ٣٩ ، ٤٠ .

رأى جون ويلسن كداعية لشئ جديد فى الدين، يدعو بصفة عامة إلى العالمية، فى عادات وأخلاق الناس، وفى الفن واللغة والأدب. واعتبر فرويد إخناتون المصلح الأول الذى أتى قبل موسى عليه السلام، واعترف به كأول الموحدين، لقد كان إخناتون فريدا فى دعوته لعبادة آتون؛ فريدا فى إخلاصه وتقانيه للماعت (أى للحق والعدل والنظام فى مصر القديمة حتى أنه لقب نفسه بالذى يعيش على الماعت/المؤلف)، فريدا فى تماثيله، حتى اللغة التى سادت عهده كانت ذات قواعد خاصة بها^(١).

ويحدثنا مختار السويفى قائلا:

" مازالت شخصية إخناتون محل خلاف شديد بين المؤرخين وعلماء المصريات، القدماء منهم والمحدثين. بعضهم يرفعونه إلى درجة سامية، وبعضهم يهبطون به إلى الحضيض. ويدعون أنه كان شخصية غير طبيعية ومنحرفة وأنه كان مخنثا، واختفاؤه المفاجئ من الحياة المصرية والتاريخ المصرى مازال لغزا غامضا حتى الآن فلم يعثر له على جثة، وربما كان موته نتيجة لعمل عنيف، وعلى أية حال فقد تولى عرش البلاد بعده أخوه سمنخ كارع الذى مات وعمره دون العشرين، بعد أن حكم لفترة قصيرة جداً، ولكنها كانت حافلة بالصراعات الهائلة التى قادها كهنة آمون لاستعادة أملاكهم وسطوتهم وسلطاتهم السابقة، التى كانوا يتمتعون بها قبل عهد إخناتون"^(٢).

أما المصروولوجيست الحجة سيرل ألدريد فيؤكد ذات المعانى إذ يقول:

" يقول بعضهم أن ديانة آتون خلت خلوا واضحا من التحدث عن الأخلاق، فى الأناشيد التى كانوا يخاطبون بها آتون. ولم تنتج شخصية إخناتون ذاتها من إلصاق التهم الأخلاقية بها، فأشارت له النصوص التالية لعصره باعتباره مجرما وأنما، ثم شاركها بعض الباحثين الغربيين مثل هذا الهجوم، وتشككوا فى مدى مصداقية إخناتون.. فاعتبره أحد الباحثين فرعون الاضطهاد، واعتبره آخر.. فرعون الخروج الذى غرق...، أما الأثرى جلانفيل فرأى فيه ملكا لا يستحق سوى اللوم والتأنيب، أما برستد عالم الآثار الأمريكى فقد امتدحه وقرظه ووصفه بأنه أول شخصية متميزة فى التاريخ. ويرى عالم المصريات جاردنر أن نظراته تدل على التعصب وبلبلة الفكر مما يجعله نموذجا للمصابين بالهوس الدينى " ^(٣).

هذا رأى علماء عصرنا فى إخناتون، ولم يكن رأى أهل زمانه فيه بأحسن من رأى أهل زماننا، فهذا المصروولوجيست (مختار) يقول لنا:

" تكاثفت عناصر مختلفة ضده، فالشعب البسيط الذى يعيش على التقاليد، رفض أى تغيير لما كان فى عهد آبائه وأجداده، كما أن رجال الجيش لم يغفروا له ضياع تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف التى

(١) سيد توفيق: إخناتون أول الموحدين، فكر للدراسات والأبحاث، العدد ٩ ، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٧٠.

(٢) مختار السويفى: مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٦م ص ١٢٢.

(٣) ألدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧ ، ١٦ .

أقاموها بدمائهم ودماء آبائهم، ثم رجال العفائف الدينية الأخرى وفي مقدمتها عقيدة آمون، الذين تربصوا به يتكلمون ضده دفاعاً عن مصالحهم. ولقد توقف التاريخ فجأة فيما يتعلق بإخناتون، الذي اختفى فجأة وأنطفأ نور رسالته، ولا ندري أين دفن، وهل مات ميتة طبيعية أو قتل وأين جثته الآن؟ وغير ذلك من الأسئلة المتعلقة بنهايته، وهي أسئلة لا يجد التاريخ لها إجابة شافية " (١).

ثم يتابع قائلاً:

" فيما يتعلق بسيرة حياته ومنجزاته وأفكاره وعقائده، فقد اختلف المؤرخون فيما يتصل بذلك، فهناك رأى يمجّد فلسفته وعبقريته التي أخرجت عقيدة جديدة للتوحيد، كما أخرجت روائع فنية ومبادئ أخلاقية كانت نتيجة مباشرة لوحيه الشخصي. أما الرأى الثانى فيعتبره حاكماً أهمل واجباته المقدسة، مما أدى إلى انهيار البلاد وتدهور أحوالها، ويقول إن المصريين القدماء فى عهده رفضوا رسالته فى أيامه وبعد موته، ولم يعترفوا عند تأريخهم للأحداث بحكمه كملك على البلاد، وأسقطوا اسمه من قوائم الملوك الرسمية، واعتبروه ملعوناً قد حلت عليه اللعنة " (٢).

هذه فقط نماذج لإيضاح أى تناقض صارخ يواجهنا بشأن التعامل مع هذا الفرعون، ومكامن الفخاخ الكثيرة لباحث يريد وجه الصدق التاريخى، لذلك، وقبل أى بحث، علينا أن نجيب على السؤال الأبسط، من هو إخناتون كشخص تاريخى؟

وفق الحسابات التاريخية، وتزمنيات توافق عليها أهل علم المصريات، يفترض أن يكون إخناتون قد ولد منذ ٣٣٠٠ عاماً تقريباً، فى مدينة طيبة عاصمة مصر الإمبراطورية، فى أقصى جنوب البلاد، وأبوه هو أمنحتب الثالث الذى حكم حوالى ١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م. وهو الفرعون المشهور برخاء عصره إلى حد تشبيهه عند الباحثين بعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا وبعصر هارون الرشيد فى بغداد، حيث تدفقت خيرات البلاد المفتوحة سيولاً دافقة على عاصمة الإمبراطورية، فكان قمة عصر الرخاء فى تاريخ العالم القديم.

وعند ولادته أعطاه أبوه اسماً على مسماه هو شخصياً، امتداداً للعز والفخر الذى ارتبط به، فأسماه أمنحتب الرابع. (٣)

وكما قلنا فوجئ المؤرخون، وربما الناس فى عهده، بظهوره المفاجئ لتولى العرش بعد وفاة أبيه. ويحيطنا المصروولوجيست سيد توفيق أحد الذين اهتموا بدراسة إخناتون دراسة خاصة، أن إخناتون " بدأ الحكم فى طيبة بعد وفاة والده مباشرة، وكان عمره لا يزيد عن ستة عشر عاماً، فعاونته أمه الملكة فى السنوات الأولى من حكمه، ثم تزوج نفرتيتى.. وقد بدأ حياته مثل أسلافه من ملوك مصر، بعبادة الإله آمون

(١) جمال الدين مختار: تقديمه لكتاب جوليا سامسون (نفرتيتى) سبق ذكره، ص ١١.

(٢) الموضع نفسه.

(٣) سيد توفيق: إخناتون.. سبق ذكره ص ٧٠.

إله الدولة فى ذلك العصر، والآلهة التقليدية المعروفة من قبل، مثل أوزيريس وإيزيس وحتحور وآتوم، وتدل على ذلك النصوص.. على جدران مقبرة خرواف رقم ١٩٢ بطيبة الغربية، والتي ترجع إلى أوائل حكمه فى طيبة « (١) ».

ويحيطننا المصروولوجيست (شتيندورف) علما أن الفرعون الجديد آمنحتب الرابع، قد اتخذ لقباً رسمياً هو (نفرخبرورع) الذى نقرأه فى الكتابات المسمارية فى رسائل تل العمارنة (نبخوريا)، ومعناه (جميل الهيئة رع)، مع لقب آخر هو (وع إن رع) أى (وحيد رع)، وكان هذا الفرعون رقيقاً ومخلصاً فى علاقاته الأسرية، ويحاكى أباه فى مظهره الشخصى، وتزوج من أميرة تدعى نفرتيتى، يعنقد كثير من المتخصصين أنها من أصل أجنبى، من أميرات البيوت الحاكمة فى البلاد المفتوحة للأميراطورية المصرية، التى كان يتوافد منها منذ عدة أجيال أعداد غفيرة كهدايا من حكام غرب آسيا للفراعين.

وعن الظروف التى اعتلى فيها آمنحتب الرابع عرش البلاد يقول لنا سيرل الدريد: " عندما اعتلى آمنحتب الرابع - ابن آمنحتب الثالث من الملكة تى - عرش مصر كان فى سن صغيرة وتتقصه التجربة. وقد ورث عن أبيه موقفاً صعباً، إذ وقعت ميثانى خليفة مصر فى ذلك الوقت تحت ضغط الحيثيين الذين استردوا قوتهم، وصاروا يثيرون الاضطرابات بين الولايات العميلة الجشعة فى سوريا، وفى نفس الوقت كانت جموع البدو الخابيرو من محترفى السلب والنهب، تسبب القلاقل فى فلسطين " (٢).

وإخناثون هو فرعون المفاجآت، فهو يظهر فجأة، ويقوم بتغيير شامل لعقيدة البلاد فجأة، ويختفى فجأة، ويترك وراءه كثيراً من الألغاز بدون حلول. يصفه المؤرخون بأنه كان " طفلاً هزيراً ضعيفاً، تراكت عليه الأمراض ولازمته طوال حياته، ويدل على ذلك تركيب جسمه الغريب، فوجهه كان نحيفاً إلى درجة الهزال، طويلاً، برزت عظامه وتدلّت ذقنه واتسعت مقلتا عينيه، وارتسمت على شفثيه الغليظتين ابتسامة خفيفة إن دلت على شئ فهى تدل على طيبة قلبه وحبه للسلام، وحمل رأسه الكبير عنق طويل فوق كتفين ضيقين منحدرين، وتميز جسمه ببطن كبير متهدلة لا تتناسب مطلقاً معه، كما كانت فخذه عريضتين، أما الساقان فكانتا رفيفتان بشكل ملحوظ " (٣).



شكل رقم (٧٤) آمنحتب الرابع / إخناتون / المتحف المصرى

(١) نفسه: ص ٧١ .

(٢) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) عبد المنعم أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٣٧ .

وقد علمنا أنه ابن الملك آمنحتب الثالث، تاسع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية، الذى حكم حوالى ١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م. وحمل ذات اسم أبيه، وبدأ الحكم فى طيبة عاصمة الامبراطورية المصرية، كبرى امبراطوريات ذلك الزمان بعد وفاة والده مباشرة. ثم تزوج من الجميلة نفرتيتى لكنه كان يحمل أفكاراً مخالفة للسائد فى الثقافة المصرية القديمة إلى حد بعيد. حيث أعلن لنفسه إلها باسم (آتون)، ويبدو أن كهنة الإله آمون قد اضطروا أن يسمحوا للملك الجديد ببناء معبد لإلهه فى الكرنك معقل آمون، فشيء لآتون معبداً ضخماً شرقى معبد آمون، وتم تسجيل آتون رسمياً واعترف به بين آلهة المصريين القدماء. وفى العام السادس من حكمه بدأ الفرعون حملة تغييرات شاملة، بدأها باسمه، فغير اسمه من آمنحتب الرابع إلى اسم فريد لم يتكرر من قبله ولا من بعده، هو (إخناتون)، ذلك الاسم الذى اختلف العلماء فى ترجمته وتفسيره، فترجمه برستد (آتون راض)، وفضل له زيتة (السعيد بآتون)، وفسره هارى سميث بأنه (روح آتون) وذهب جون ويلسن إلى أنه (المفيد لآتون)، ثم فازينى الذى قرر أنه (الروح الفعالة لآتون)^(١).

وترجمه (على فهمى خشيم) بقوله: إن الكلمة اخناتون مركبة من ثلاث مقاطع هى (أخ. ن . إت ن)، والمقطع الأخير هو اسم الإله الذى اختاره، وحرف (ن) الأوسط الأداة المصرية للإضافة، ويبقى المقطع الأول (آخ)، الذى يحمل معان أهمها: العظمة، المجد، البريق، السطوع، الفخر، النفع، الامتياز، القوة، السيطرة، الروح، لذلك ترجم بدج الاسم إلى معنيين Glory of ATEN مجدأتن، SPIRIT of ATEN روح آتن، وهو بهذا المعنى يصبح قوة الشمس أوروها، أى روح الإله آتون^(٢).

ويبدو أن إخناتون وجد نفسه فى طيبة محاط بمناخ معادى، وبسلطان كهنة الإله آمون، فأخذ قراراً تاريخياً ببناء عاصمة جديدة ينتقل إليها مع حاشيته وأتباعه المخلصين. وقد استدعى لهذا الغرض رجال بلاطه وقواده العسكريين، وشرح لهم رغبة الإله آتون فى بناء مدينة جديدة تحمل اسم (أخت آتون)، وإن الإله هو الذى حدد الموقع برغبته واختياره. وكان موقع تل العمارنة فى منتصف الطريق بين القاهرة والأقصر، هو المكان الذى اختاره الإله آتون للتجديد الدينى المقبل. وهناك حيث تتراجع الجبال الشرقية مخلفة سهلاً على شكل الهلال قرر إخناتون بناء مدينته، وسجل قراره: " سأبنى فى الشرق حيث تظهر الشمس، أى فى المكان الذى أحاط فيه نفسه بالجبال .. سأبقى هناك حتى يسود البجع ويبيض الغراب وحتى تروح الجبال وتجئ وحتى يسرى الماء نحو المنبع ". والمعنى أن عقيدته الجديدة ستبقى حتى تحدث مستحيلات لن تحدث إطلاقاً. لكن ماحدث أنها كانت اسرع مدينة مصرية ملكية زالت من الوجود قياساً على أى مدينة مصرية أخرى. لكن ألا يعنى ذلك الايمان المغلظ أن الفرعون الشاب كان يتوقع لمدينته نهاية قريبة ؟ .

(١)سيد توفيق: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) فهمى خشيم : آلهة .. سبق ذكره، ج ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ .

وبعد قرون طويلة وزمان سحيق البعد، فى عام ١٨٨٧ ميلادية كانت إحدى الفلاحات تجمع سباخا من خرائب العمارنة التى لم تعرف هويتها بوضوح حتى ذلك التاريخ، وفى العمارنة التى تقع على مبعدة ١٩٠ ميلا جنوب القاهرة عثرت تلك الفلاحة على عدد كبير من الألواح الطينية المكتوبة بالأحرف المسمارية، وهو الأمر الجديد تماما فى تاريخ مصر القديمة. ويؤكد جاردنر أنها الحالة الغربية والوحيدة فى تاريخ مصر جميعه حتى زمن إخناتون التى نجد فيها ألواحاً مسمارية، وذلك بقوله " ولم يكن شئ مثل ذلك قد عثر عليه من قبل فى مصر إطلاقاً لهذا لم يأخذ المصنوعون الأمر بجديّة، وقرر الأثريون أنها قطع مزيفة، لكن بعد دمار كثير منها وبعد مناقشات طويلة ومقارنات مع الموجود بمتاحف العالم من نصوص مسمارية، أدركوا حقيقة تلك المكتبة الكبرى وأهميتها، وأنها كانت مراسلات بين آمنحتب الثالث وولده إخناتون، وبين مختلف الحكام الآسيويين فى عصرهم، وكانت الكتابة باللغة الآرامية، بالخط المسمارى البابلى، قد أصبحت لغة المعاملات الدبلوماسية فى العالم إذ ذاك " (١).

وضمن تلك الرسائل عثر على قطع سامية أدبية مشهورة مثل ملحمة جلجامش التى وجدت مترجمة إلى لغتين هما: اللغة الحيثية واللغة الحورية أو الكارية، مع أساطير من آدب حضارة الرافدين مثل أسطورة آدابا وأسطورة سرجون الأكدي الذى قذفت به أمه فى سبط بالماء حتى أنقذته الإلهة عشتار ومنحته حكم البلاد. كما عثر بدون مناسبة ودون أن نعرف السبب على ملاحم أخرى مثل ملحمة ملك الحرب الأكديّة التى تتحدث عن فتوحات سرجون الأكدي، ووجدت منها نسخة أخرى بالحيثية فى عاصمة الحيثيين خاتوشاش بتركيا عند بوغازكوى الحالية (٢). وقد استنتج بعض الدارسين أن المقر الرسمى الأول لحفظ تلك الرسائل كان فى مقر الحكم بالعاصمة طيبة، ثم نقلها إخناتون معه حيث انتقل إلى عاصمته الجديدة فى العمارنة (٣).

الدعوة الجديدة :

أول مانجد ذكراً ممجداً لرب الشمس باسم آتون، عند الفرعون تحتمس الرابع الجد المباشر لإخناتون، ويقول د. عبد المنعم أبو بكر: " ومن هذه التباشير تصوير قرص الشمس تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشريتين تحيطان بالملك وتحميانه وتغدقان عليه النعم، وهو ذات التصوير الذى اختاره إخناتون فيما بعد لإلهه آتون مع تحوير يلائم عقيدته. بل عثر على اسم آتون نفسه مذكوراً على جعل سجل عليه الملك (يقصد تحتمس الرابع) تمجيداً لذاته، وإشادة ببأسه وقوته وجهاده فى سبيل إخضاع الشعوب وجعلهم من رعايا آتون " (٤).

(١) جاردنر: مصر الفراعنة:.. سبق ذكره، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) طه باقر: الوجيز .. سبق ذكره، ص ٣٦٥ .

(٣) جوليا سامسون: نفرтитى .. سبق ذكره، ص ٢٨ .

(٤) عبد المنعم أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره ص ٦٧ .

ومن بعده نجد إشارة إلى عبادة (آتون) فى لوحتين فى عهد آمنحتب الثالث ابن تحتمس الرابع ينسبان إلى الفنانين سوتى و حور اللذين كانا يعملان فى طيبة وكانا على صلة بولده إخناتون^(١) .

ويقول (سليم حسن): " الواقع أن الانقلاب الدينى الذى أحدثه آمنحتب الرابع/ إخناتون فيما بعد، لم يأت دفعة واحدة بل جاء على مراحل.. ومنذ عهد تحتمس الرابع بدأت تبدو ميول لتمثيل إله الشمس فى صورة جديدة غير صورته التقليدية التى كانت تتخذ شكلا بعينه على حسب الأحوال. وكلها كانت تتمثل فى هيئة إنسانية برأس حيوان وبصورة إنسان وحسب. أما الصورة الجديدة فكانت على هيئة قرص الشمس وحسب/ آتون. وقد أخذت عبادة الشمس بهذه الصورة تنمو شيئا فشيئا فى عهد آمنحتب الثالث ولكن دون مساس بعبادة آمون بأذى. لكن لما جاء آمنحتب الرابع اختمرت فكرة عبادة رع فى صورته الجديدة على أن يكون إله الإمبراطورية.. وأقام لنفسه حاضرة جديدة فى المكان المعروف الآن بتل العمارنة بالقرب من ملوى، وسماها إخت آتون أى أفق آتون، كما أسس مدينة أخرى بهذا الاسم فى بلاد النوبة، ومن المحتمل كذلك أنه أسس ثلاثة فى آسيا^(٢). ومن جانبنا نرى أن أخت آتون الآسيوية ربما كانت تلك التى وردت فى أسفار الكتاب المقدس كما فى سفر القضاة ١٢/١٣ - ١٥ باسم (فرع - آتون) أو (فرعتون). وحدد قاموس الكتاب المقدس موقعها فى جبل العمالقة فى إفرايم وأنها تحمل الآن اسم فرعاته على بعد سبعة أميال ونصف جنوبى غربى شكيم (نابلس الحالية) بفلسطين.

وهكذا يؤكد عبدالمنعم أبوبكر " أن شرر الثورة الدينية كان قد بدأ يتطير منذ أيام تحتمس الرابع، ووجد مناصرة قوية فى عهد ابنه آمنحتب الثالث .. هذا الملك أطلق اسم بهاء آتون على الزورق الملكى الذى أهدها لزوجته تى. كما عاش فى عصر آمنحتب الثالث رجل اسمه رع مس جمع بين وظيفتين: إحداها كاهن آمون والثانية مدير البيت فى معبد آتون. بل أكثر من هذا ماورد فى أحد النصوص فى عصر هذا الملك أن بن بوى وكان عمل كاتباً لخزانة معبد آتون كان يطلب من فرعون أن يتوسط عند الإله آمون ليمده بالقرابين الجنازية. كل هذا يدل على أن آتون كان معترفاً به فى عصر آمنحتب الثالث، وأنه كان له معبد فى طيبة قبل ثورة العمارنة^(٣).

ويحيطنا (سيرل ألدريد) علماً أنه " توجد بالمتحف البريطانى لوحة من مخلفات بيت بانحسى بالعمارنة، عليها منظر للملك آمنحتب الثالث يبدو فيها رجلاً بديناً مسناً مسترخياً على عرشه بجوار زوجته الملكة تى، وفوقهما الإشعة الآتونية^(٤) . وسعياً وراء مايمكن العثور عليه حول الإله آتون فى المراحل السابقة للفرعون إخناتون نعلم من المصرولوجست (سيد توفيق) أنه " لم يكن آتون سوى صورة جديدة لإحدى

(١) سليم حسن: الأدب المصرى .. سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٠ .

(٢) سليم حسن : مصر القديمة .. سبق ذكره.

(٣) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٦٩ .

(٤) ألدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ١٠٤ .

ظواهر الشمس المختلفة المعروفة من قبل، اتخذت اسماً جديداً أول ما ظهر في الدولة الوسطى، وعلى وجه التحديد في الأسرة الثانية عشرة من ١٩٩١: ١٧٨٦ ق.م. بمفهومين: الأول كوكب الشمس، والثاني الإله المقيم في هذا الكوكب. واستمر آتون بهذين المعنيين حتى جاء إخناتون وحرره من المعنى الأول واختار له المعنى الثاني. ولم يظهر الإله في صورته المألوفة لنا وهي قرص الشمس ذو الأيدي الإنسانية في أوائل عهد إخناتون، بل تعبد الملك للإله آتون في صورته البشرية برأس الصقر حور أختي متوجاً بقرص الشمس.. بعد ذلك وقع اختيار إخناتون على قرص الشمس ذي الأيدي البشرية ليكون الرمز المقدس لإلهه آتون.. وقد عرف المصريون القدماء القرص ذا الأيدي الإنسانية منذ عهد الملك أمنحتب الثاني ١٤٥٠ ق.م. (والد تحتمس الرابع والد أمنحتب الثالث والد إخناتون/ المؤلف) مثل عليها القرص يخرج منه ذراعان آدميان تحضنان وتحميان خرطوش الملك.. لقد اختار إخناتون إلهه.. صورة قرص الشمس محدباً أى صورة أمامية مجسمة له وذلك بخلاف ماعهدها في الفن المصري الذي تظهر فيه الشمس المجنحة كزخرفة على الأعتاب العليا لمداخل المعبد.. ويزينه الصل.. وتخرج من القرص أشعة على شكل خطوط ترمز إلى الأذرع، وينتهي كل منها بيد بشرية يمسك بعضها بأحد رمزين: الأول للحياة عنخ والآخر للسعادة واس، متوجهة بهما إلى أنف الملك والملكة فقط^(١).



إخناتون ونفرتيتي يتعبدان تحت أشعة قرص الشمس (لاحظ تاج إخناتون المستطيل وذؤابة تتدلى منه لاحظ أيضاً أيدي آتون ممسكة بعلامة العنخ عند أنف الملك

بل ونجد في طيبة أيام حكم أمنحتب الثالث، قبل الانقلاب الديني الذي قاده ولده إخناتون، المهندسين سوتى وحور ينقشان نشيداً للإله آمون باعتباره الشمس، ويخاطب قرص الشمس باسمه آتون، لأن آتون كانت تعنى قرص الشمس المادى ذاته، ويقول ذلك النشيد:

التحية لك يا قرص آتون النهار

الذى خلق الناس وجعلهم يعيشون

(١) سيد توفيق: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٥ .

الصقر القوى ذو الريش المتعدد الألوان

الذى جاء للوجود ليرفع نفسه

الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته دون أن ينجبه سواه

حورس الأكبر الذى يقيم فى نوت السماوية

عند طلوعه بيبتهج الانسان

وعند غيابه يحدث للانسان مثل هذا

ذاك الذى يدير القطر المزدوج من أعظم كائن إلى أصغره

أم الآلهة والناس

صانع الخير الفنان الساحر الذى لايعرف الكلل...^(١).

ومع الظهور المفاجئ للإله آتون زمن آمنحتب الثالث الذى صيغت فيه الانشودة السابقة موجهة إلى الإله آمون وقرص الشمس الأتون، ثم صعود آتون وتفرده وحده بالربوبية زمن آمنحتب الرابع / إخناتون. حاول البعض القول إن عبادة آتون كانت أصيلة فى مصر، فهى عبادة الشمس القديمة ذاتها التى تجلت فى حور وفى آتوم وفى رع وفى آمون، ويقول د. أبوبكر: " وعقيدة الشمس عرفت فى مصر منذ فجر تاريخها، وصورها المصريون على هيئة إنسان يحمل فوق رأسه تاج الملك ويتربع على عرش الدنيا، ويطلقون عليه اسم آتوم ويعتبرونه أول الخليفة وأصل البشر جميعا "^(٢). خاصة إذا أخذ بالحسبان إمكان تبادل حرفى (ميم) و(نون) فى آتوم وآتون، علما أن آتون كان هو قرص الشمس ذاته، فهو الأتون أى القرن النارى العظيم.

هذا بينما يذهب آخرون إلى العكس تماما، فيقولون إن الديانة الآتونية ديانة غريبة على الفكر المصرى القديم، خاصة مذهبها التوحيدي الذى يناقض ما فطر عليه المصريون من تعددية مفرطة، وحرية هائلة فى مساحة الاعتقادات. ويزعم هؤلاء أن عبادة آتون قد وفدت على مصر مع الساميين الذين كانوا فى مجملهم يقدسون الشمس ويرمزون لها بموقد نارى فى المعبد ^(٣)، يعمل الكهنة على اشتعاله الدائم، وهو مانجده فى الهيكل اليهودى وعبادات الفرس واليونان وغيرهم. فيقول أحد هؤلاء وهو يتحدث عن عقيدة التوحيد فى بوادى الشام: " إن دعوة التوحيد أصيلة فى هذه المنطقة، وأنها انتقلت مع الهكسوس العموريين أو العمالقة إلى مصر بين ١٧٨٥ - ١٥٨٠ ق.م. وسببت ظهور الديانة الآتونية التوحيدية التى دعى إليها إخناتون فى

(١) دوماس: آلهة .. سبق ذكره، ص ١٢٢ ، ١٥٦، ١٥٥، ١٢٣ .

(٢) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٤٥ .

(٣) عفيف بهنسى: إيبلا والتوراة، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، عدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨، ص ٧٧.

١٣٧٥ - ١٣٥٨ « ويضيف آخر قوله: « ونحن لانستبعد أن تكون عقيدة الوجدانية التي تبناها إخناتون قد جاءت إلى مصر عن طريق قبائل الهكسوس العربية، التي حكمت مصر زهاء قرنين قبل إخناتون »^(١).

ثم اختلافات بين الباحثين على مستوى آخر، عبر عنها أبوبكر وهو يقول: « لقد اختلفت الآراء في ديانة إخناتون، وهل كانت وليدة تنافس سياسى بين إخناتون كملك على العرش، وبين سلطان كهنة آمون وثرائهم العجيب. أم كانت فتنة حتمتها ظروف الإمبراطورية المصرية التي جعلت الثروة تتحصر فى فئة قليلة من الناس، فقام النزاع الميرير بين العمال وبين هؤلاء الأغنياء المستملكين لثروة البلاد، أم أنها كانت ثورة قامت بين كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الجيش؟ »^(٢).

وربما يدعم الآراء الأخيرة ما ذكره زينون كاسيدوفسكى أن « إخناتون.. اختار مقربيه من الفئات الاجتماعية المضطهدة، لأنه كان باستطاعته أن يثق بهم أكثر، ويجدر أن نشير هنا إلى الكتابة التي وجدت فى مقبرة أحد أفراد حاشيته: لقد كنت شخصا ذا منشأ وضيع من جهة أمى وأبى لكن الملك أوقفنى بكرمه وأعطانى قوتى اليومى، أنا الذى كنت فيما مضى أستجدى كسرة الخبز » ثم ينبهنا كاسيدوفسكى إلى وجوب ملاحظة أنه « قد اكتشف فى تل العمارنة.. تابوت أحد النبلاء كان فى خدمة إخناتون وكان النبيل يدعى نيحيم (نظنها مناحيم الاسرائيلية/ المؤلف) وهو آسيوى، أما وزير هذا الفرعون المدعو باتحامو فقد عُِد شخصا جبارا فى العصر الفرعونى مع أنه كان آسيوى المنشأ »^(٣).

بل إن جيش إخناتون نفسه كان يتكون من أخلاط أجنبية أو كما يقول (حماد): « إن جيشه كان مكونا من مختلف الجنسيات، إذ نرى صفا من الجنود يتقدمهم مصرى يرتدى النقبة ذات الثنيات ويحمل الترس والرمح وبلطه، يليه.. آسيوى يحمل الرمح والسيف الأقبى، والثانى نوبى (يقصد زنجى) يحمل قوسا مزدوج الانتهاء وسهاما »^(٤). بل وصل الامر إلى حد أن كاهن آتون نفسه، المفترض أنه أهم شخصية حينذاك بعد الفرعون، فقد كان بدوره آسيويا، أو حسبما يسجل التاريخ « وكان عصر العمارنة تحولا واضحا فى نظرة المصريين نحو الأجانب، وحيث بدأت الاستعانة باعداد كبيرة منهم فى مختلف مناصب الدولة. فكان الكاهن الخاص لآخناتون سورى الأصل (آسيوى)، ومن قبل عرف القصر الملكى فى طيبة طوائف مختلفة من الأميرات الآسيويات فى حريم الملك أمينوفيس الثالث »^(٥). وهى العلامات التى ذهبت بلويس عوض إلى

(١) أحمد سوسة: العرب واليهود .. سبق ذكره، ص ١٧٢ .

(٢) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٤٠ .

(٣) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ٧٩ .

(٤) محمد حماد: كامس .. سبق ذكره، ص ١٨ .

(٥) محمد إبراهيم بكر: صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٢١٩ .

القول أن « تل العمارنة قد أخذت اسمها من العمو Ammou أو العمرو Amro أو العمورو Amourru أو العموريين Amorites أو آل عمران كما نسميهم في العربية. إما لأن العموريين احتلوها بالفعل وكانت من مراكزهم الرئيسية في فترة ما، وإما لأن ذاكرة الأجيال حفظت رأى المصريين في إخناتون (مدينته بالعمارنة) وإخناتون وعبادة الإله الواحد، وتعريفهم بديانته على أنها ديانة الأعداء العموريين، وأنها كانت تستخدم الأعداء العموريين »^(١). وهي كلها مؤيدات لوجهة النظر التي ترى آتون إلهها غير خالص المصرية، وأن إخناتون نفسه كان سامي الهوى آسيوى المزاج والتفكير. ولأن فرويد كان ذو اهتمام خاص بالفرعون إخناتون، فقد أدلى بدلوه لتفسير مسألة التوحيد الطارئة واقترح الأسباب التي أدت إليها وأفرزتها فيقول: « كانت الظروف السياسية قد طفقت منذ ذلك العهد تمارس تأثيرها على الدين المصرى. فبفضل المآثر المظفرة لفاتح كبير هو تحتمس الثالث، أصبحت مصر قوة عالمية ضمت إلى إمبراطوريتها بلاد النوبة في الجنوب، وسورية، وجزء من بلاد الرافدين في الشمال. وقد تجلت هذه النزعة التوسعية منذ ذلك الحين في الدين في شكل نزعة شمولية توحيدية. فلما كان سلطان فرعون لايشمل مصر وحدها بل كذلك النوبة وسورية. فقد بات من المحتم ألا يبقى الإله مجرد إله قومي، ومادام فرعون قد أصبح السيد الأوحد اللا محدود السلطان على كل عالم المصريين المعروف، فقد بات من المحتم أن يغدو إلههم الجديد لها قويا وأوحداً هو الآخر.. لم ينكر آمنحتب الرابع قط أنه تبنى عبادة شمس أون.. بل أنه خطا خطوة أخرى إلى الأمام، فلم يتعبد للشمس بوصفها شيئاً مادياً، إنما بوصفها رمزاً لكائن الهى تتجلى قدرته في أشعتها.. ففي أحد أناشيده جاء مايلي بصريح العبارة: أيا أنت أيها الإله الأوحد الذى ليس إلى جانبه إله آخر »^(٢).

ومع إله أوحد غيور دكتاتور يطلب كل المساحة لذاته ويستبعد كل الآلهة كان لابد أن يمارس إخناتون أشد درجات التعصب الدينى لأول مرة في التاريخ المصرى فيقول أحمد عثمان: « أن إخناتون اعتبر أن آتون - الذى ليس له صورة أو تمثال - هو إله واحد لكل البشر. ثم منع دخول معبده إلا لمن ترك المعبودات الأخرى. وثار تائرة الكهنة المصريين.. فترك الشاب العاصمة واختار موقعا بمحافظة المنيا قبالة مدينة ملوى يعرف الآن بتل العمارنة، وبنى فيه مدينة جديدة ليعيش فيها هو وأتباعه.. وقرر الاعتماد على الجيش لتنفيذ سياسته فعين خاله الثانى آى مشرفا على الخيالة وقائداً للحرس الملكى، فى مكان والده بوياء، كما أنشأ فرقة عسكرية من أبناء الجاليات الأجنبية فى مصر لحراسته وهذا يتضح من رسومات مقابر النبلاء فى تل العمارنة، ثم أرسل فرقا عسكرية إلى جميع المدن المصرية لإغلاق المعابد ومصادرة أوقافها. وأمر بتسريح جميع الكهنة عدا كهنة آتون، ثم أمر بشطب اسم آمون من على جميع النقوش حتى تلك التى تدخل فى اسم والده آمون حوتب وكذلك كلمة نثرو وهى جمع لكلمة نثر بمعنى معبود »^(٣).

(١) لويس عوض: مقدمة .. سبق ذكره ، ص ٢١ .

(٢) فرويد: موسى .. سبق ذكره، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) أحمد عثمان: تاريخ اليهود، ج١، ص ٥٨ ، ٥٩ .

ويحدد لنا شيتندورف وسيل بداية حملة التعصب والكراهية في قوله « .. وفي السنة السادسة من حكمه أصبحت عبادة آتون الديانة الرسمية للدولة، وأغلقت معابد الآلهة الأخرى في كل مكان وصودرت ممتلكاتها. ودمرت تماثيل الآلهة القديمة ومحيت صورها من نقوش المعابد وأزيلت أسماؤها. وتركز الاضطهاد الشديد على آمون وعائلته ليس فقط في المعابد، بل وحتى في حجرات المدافن الخاصة إذا كان هناك سبيل إلى دخولها، وحرم اسم آمون بالتحديد.. وكل من يحمل اسما يحتوى آمون أجبر على تغييره. وكان الملك نفسه من أوائل من فعلوا ذلك، فتخلّى عن اسم آمون حتب آى آمون راضى.. وتسمى بإخناتون أى المفيد لآتون»^(١).

ويشرح عبدالمنعم أبوبكر مؤكداً ذلك التعصب الرهيب الذى امتلك عقل إخناتون « فأعلنها حرباً لاهوادة فيها ضد آمون إذ أمر بتجريد حملة من العمال والصناع تعاونهم فرق كبيرة فى الجيش لبدء حركة إرهاب عنيفة هدفها محو آمون ليس من طيبة فقط، بل من كل أرجاء الإمبراطورية المصرية والقضاء على كهنته»^(٢).

وهكذا يأتى تعقيب فرويد موجزاً كل الأحداث يقول: « ولئن كان آمون هو الضحية الرئيسية لاضطهادات العاهل، فإنه لم يكن الضحية الوحيدة، فعلى امتداد أرجاء الامبراطورية أغلقت المعابد وصودرت أملكها وحظرت العبادات وحجزت الكنوز الكهنوتية. وقد أمر العاهل مدفوعاً بحميته بالتعقيب. عن نقوش الأنصاب القديمة لتمحى منها كلمة إله فى حال ورودها بصيغة الجمع. ولاغرو أن تكون هذه التدابير قد أثارت فى أوساط الكهنوت المضطهد والشعب المستاء حاجة محمومة إلى الانتقام، أمكن لها أن تروى غليلها بعد وفاة إخناتون، ذلك أن ديانة آتون لم تكن ديانة شعبية، ولم يعتنقها فى أرجح الظن إلا جماعة صغيرة من الأشخاص الدائرين فى فلك العاهل ». ثم ينقل عن ويجال فى كتابه حياة إخناتون وعصره قوله: « ديانة آتون تستبعد الخرافات كافة وشعائر السحر والشعوذة جميعاً.. كان إخناتون يرفض الاعتراف بفكرة جحيم يثير من الرعب ما لاسبيل إلى توقيه لإبرقى سحرية لاتقع تحت حصر.. ورمى إخناتون بهذه الرقى جميعاً إلى النار وقدم الجن والغيلان والأرواح والمسوخ وأنصاف الآلهة وأوزيريس نفسه مع بطانته كلها لقمة سائغة لألسنة اللهب فأالت إلى رماد.. ولم يسمح إخناتون بأن تحفر لآتون أى صورة على القبور وكان الملك يقول: إن الإله الحقيقى لا شكل له. وقد بقى على رأيه هذا طوال حياته»^(٣).

وهناك احتمال أن حملة الكراهية تلك جاءت بعد مؤامرة فاشلة دبرت ضد إخناتون، وهو ما يؤخذ من أقوال إخناتون نفسه التى وجدناها مدونة على إحدى لوحات حدود مدينته إخت آتون، ويقول فيها:

(١) شيتندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢٠٦ .

(٢) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٠ .

(٣) فرويد: موسى .. سبق ذكره، ص ٣١ .

أقسم بحياة والدى آتون

أن الكهنة كانوا أشد إثمًا من كل الأشياء التى سمعتها
حتى العام الرابع بل وأشد ضرراً من كل الأشياء التى
وقعت حتى العام السادس.

ثم هناك وثيقة ثانية عبارة عن تسجيلات وردت مرسومة على جدران مقبرة رئيس الشرطة ماحو
وتحتوى على تفاصيل مؤامرة دبرها ثلاثة أشخاص أحدهم مصرى أما الآخران فكانا من الأجانب. وبدأت
شعورهما مسترسلة وقصرت لحيتهما. ويبدو أن هدف المؤامرة كان اغتيال الملك، إذ نرى الوزير بعد القبض
عليهم يتوجه بالشكر لآتون الذى وفقه لكشف هذه المؤامرة قبل تنفيذها^(١).

ويبدو أن التحقيقات أسفرت عن يد طولى كهنة آمون فى هذه المؤامرة وهو الاستنتاج الذى ينبى على
تركيز حملة الكراهية تدميرها على آمون أكثر من بقية الآلهة. وهكذا وللظروف التآمرية المحيطة بالفرعون
ودعوته، كان لابد أن تكون مدينته الجديدة ثكنة عسكرية عظيمة، تعطينا صورة مخالفة عن الفرعون المحب
للسلام الكاره للحرب الطبيب الرقيق الدمث، فقد أصبح مؤكداً الآن إن إخناتون بسبب تعصبه كان شديد
القسوة مع مخالفيه. ويقول قدرى: " إن الجيش كان المؤسسة الوحيدة التى اعتمدت عليها الدولة بعد سقوط
طبقة الكهنة " ^(٢).

وأن أخت آتون تحولت لتصبح المقر الرسمى لأقوى سلاح بالجيش آنذاك، فقد أمست " المقر الرسمى
لسلاح المركبات الحربية بالجيش المصرى، حيث يدل على ذلك وجود الثكنات العسكرية التى كانت تشغلها
وحدات هذا السلاح. ووجود أرض التدريبات الحربية التى كانت تتمرن عليها هذه الوحدات.. وهو ما يعتبر
دليلاً على مدى الأهمية التى كان يوليها عصر العمارنة للقوات المسلحة المصرية " ^(٣).

وتقول المصروولوجست (جوليا سامسون): " كانت هناك فكرة خاطئة قال بها الكثيرون من المؤرخين
وعلماء المصريات مؤداها أن شدة اهتمام إخناتون بالدين الجديد الذى دعا إليه وشخصيته كشاعر عالم قد
جعلته ينصرف تماماً عن التفكير فى شئون الدولة وشئون الحكم خاصة بالنسبة للشئون العسكرية والحربية
وشئون الأمن المحلى والقومى. ولكن عُرف الآن أن إخناتون قد واصل سياسة حفظ توازن القوى بين مصر

(١) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٨ .

(٢) أحمد قدرى: المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفى، هيئة الآثار
المصرية، القاهرة، ١٩٨٥ ، ص ١٥٧ .

(٣) نفسه .

ومستعمراتها في إفريقيا وآسيا وبين دول الشرق الأدنى التي بدأت في الظهور والنمو، وعرفنا أيضا أنه اتخذ إجراء عسكريا بإرسال حملة حربية لإخماد القلاقل التي أثارها البدو في النوبة " (١).

وكان المعلوم في خطابات العمارنة القادمة من الولايات المصرية في الخارج أن تلك الولايات تتعرض للهجوم والاقتطاع من الأملاك المصرية بواسطة الخابيرو وحكام ميتاني، والمظنون أن ميتاني تقع في أعالي الفرات حسبما موضعها المؤرخون، وهو أمر لا يلتقي مع وجود الخابيرو في تلك المناطق قدر ما يتناسب مع وضع ميتاني في مديان بسيناء عند العقبة وبلاد آدوم، فالخابيرو والمديانيين كما نعلم في التوراة بينهم صلات قرابية متصلة من النسب المتجدد. ناهيك عن سكن الخابيرو بلاد مديان ومحيطها معظم الوقت. وقد اتهم إخناتون تحديداً أنه السبب في ضياع أملاك مصر الإمبراطورية لتقاعسه عن إرسال الجيش وكراهيته للحروب. لكن يبدو أن إخناتون قد اتهم ظلما بسبب دعوته الدينية وبأنه فرط في أملاك مصر بالخارج، فهذا (جاردنر) يقول: " ليس فقط إخناتون وحده مسؤول عن ضياع هيبة مصر، إنما سبقه أبوه، فهناك رسائل من أكيزي لأمنحتب الثالث بها شكوى مريرة من الهجوم التي تتعرض له تلك الولايات، وفي رسائل العمارنة توصلات يائسه من رب عدى نائب الفرعون في بيبيلوس تطلب العون ضد عبد شري ومن بعده عزيزو حكام ميتاني اللذان ارتبطا بالخابيرو وساجاز قاطعو الرقاب " (٢).

وهكذا يجمع المؤرخون الآن على أن المتقاعس الأكبر الذي أهمل ولايات الإمبراطورية هو الأب أمنحتب الثالث الذي انغمس في الملذات حتى أنهكت جسده وروحه وأصابته أمراض الإسراف البدني مبكراً،



أمنحتب بن حابو مهندس عراف رُفع إلى مرتبة القداسة بشعر مصفف على طريقة النساء
شكل رقم (٧٦)

(١) جوليا سامسون: نفرتيتي .. سبق ذكره، ص ١٣٠ .

(٢) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

وفى ذلك يقول شيتندورف " ومن غير المحتمل أن يكون. أمنتب الثالث قد وضع قدمه على الأرض السورية، ومع ذلك فقد حاول أن يترك على آثاره انطبعا بأنه استطاع شخصيا بسيفه الماضى أن يخضع البلاد الأجنبية بما فيها كوش البائسة ونهارين وسوريا ويضعها جميعا تحت قدمه. كما حاول أيضا أن يقلد حملات سلفه العظيم تحتس الثالث فقام كهنته الأوفياء تنفيذاً لمشئته بتخليده فى كل معابده باعتباره الحاكم الظافر. فهو يظهر مثلاً على نصب تذكارى عظيم واقفا فى عربته العسكرية ممسكا بالسوط والقس فى يده، وهو يقود خيوله منتصراً فوق أجساد أعدائه الممزقة. بينما هو فى الحقيقة قد قنع بالخروج للصيد والقتل ليزبح الثيران والأسود بدلا من الأعداء البشريين. وما ادعاه أنه قتل ١٠٢ أسداً بيديه خلال السنوات العشر الأولى من حكمه، يبدو أكثر إقناعاً من محاولته تصوير نفسه كفاتح عظيم " (١)

وأبدأ لم يقتنع المؤرخون حتى بشهادة أمنتب بن حابو الحكيم الذى عين زمن أمنتب الثالث فى وظيفة الكاتب الملكى الرئيسى للمجندين، وقال فيما تركه مدونا باسمه " كنت أجند الشباب لمولاي، وعددت بقلمى الملايين من أعدادهم. لقد جندت أقوى الرجال من مقعد عائلاتهم وكنت أفرض الضرائب على البيوت بعدد من بها وأختار القوات من منازلهم. وأغرقت الفلاحين بأحسن الغنائم التى أخذها جلالته من ميدان القتال. وكنت أحصى كمية الغنائم من انتصارات جلالته وأنا بينها، وأتصرف طبقاً لما يقول وأنجز مايكلفنى به. ووجدت أن ذلك مفيد لى فى المستقبل " (٢).

وربما يزيد فى إدانة أمنتب الثالث ميله الشديد لمسالمة أنسابه فلدنا رسالة من عاملة عبدى خيبا أو عبد هفا حاكم أورشليم ترد بها فقررة واضحة الدلالة، فهو يتساءل غاضبا مستكراً عن تقاعس الملك فى إرسال كتائب الجيش المصرى لصدهجمات (الخابيرو) وهذه الفقررة تقول: " طالما أن سيدى الملك على قيد الحياة، فسوف أقول لمندوب جلالته: لماذا تحب العابيرو وتكره أمير الولاية المقيم؟ " ومن جانبنا ننقب عن مصدر ذلك الغزو العابيرو فنقرأ رسالة أخرى من ذات الوالى الأورشليمى تم تصنيفها تحت رقم ٢٨٦EA: " إلى كاتب الملك. سيدى من خادمك عبدى خيبا.. أفصح فى قولك لسيدى الملك: إن جميع أراضى سيدى الملك قد فقدت ". ثم نقرأ الرسالة رقم ٢٨٨EA تقول: " إن أراضى الملك قد فقدت. لقد أخذت منى، وهناك حرب ضدى من بلاد سعيير " (٣).

ويبدو لنا أنه رغم قيام أمنتب الثالث ببناء المعبد العظيم بالكرنك للاله آمون. ورغم رخاء عصره الذى لاشك عم على كهنة آمون وكان لهم النصيب الأعظم من جزى الشعوب المفتوحة. فإن هناك مشكلة أساسية جعلت كل هذه الرشاوى لاتجد صدقاً مناسباً من الكهنة، حيث كانت مشكلة الملك معهم مشكلة

(١) شيتندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٩٦ .

(٢) نفسه: ص ٩٨ .

(٣) Albright. W, Akkadian Letters, The Amarna Letters, in A.E.T, p ٤٨٧.

تأسيسية تتعلق بالقواعد والقوانين المقدسة للملكية، حيث كانت قاعدة القواعد وناموس النواميس أن **يؤول** العرش إلى بنت الملك الكبرى أولاً، ثم يتزوجها شقيقها أو أى أمير يحمل الدم الملكى فى عروقه عن طريق الأم وليس الأب إن عز وجود هذا الشقيق. وكانت حالة آمنحتب الثالث مخالفة لتلك القواعد بشدة. فقد تزوج أبيه تحتمس الرابع من (موت أم أويا) وهى سيدة ميثانية من بلاط حكام تلك البلاد ولم تكن مصرية لكن من بدو يعيشون على الحدود المصرية. وزاد الأمر سوءاً أن آمنحتب الثالث لم يجد أميرة وارثة ليتزوجها لتطبيق الشرع الإلهى لأحقية الحكم، والبعض يقول إنه كان له شقيقة طفلة اسمها سيبت آمون لاتصلح للزواج، فتزوجها سوريا لكنه فضل عليها واحدة أخرى هى مليكتة تى وكانت بدورها من خارج الدم الملكى. وقرر الفرعون فيما يبدو الوقوف أمام القوانين المعمول بها والثورة عليها. لكنه كى يثبت أحقيته الشرعية فى التاج أمكنه رشوة بعض الكهنة لإيجاد قصة مناسبة ترقى به إلى الحكم الشرعى، فلجأ إلى حيلة استخدمت قبل ذلك مرات متباعدة، وهى ترقى بالملك إلى رتبة أعلى من المحددات القانونية لشرعية الحكم، وتتمثل فى القول أن الملك قد أنجبه الإلهة آمون مباشرة بنفسه. حيث كان الدم الملكى فى نسل الأسر الحاكمة يعود مباشرة إلى الاله حور القديم عبر سلسلة مواليد إناث، ومن ثم تأتى الحيلة لتتسبب الملك مباشرة إلى رب الدولة آمون، الذى عاشر الأم الملكية وهى فى هذه الحالة الميثانية (موت أم أويا)، بعد أن اصطفاها من بين العالمين وتمثل لها بشراً سوياً فى شخص زوجها تحتمس الرابع وضاجعها فى هيكله بمعبد. لذلك فإن آمنحتب الثالث إطلاقاً لم يكن ابن تحتمس الرابع، إنما هو ابن الإله آمون مباشرة. وفى ذلك يقول (شتيندورف): " فهناك نقوش كثيرة من مختلف المعابد تصور كيف أنجب الملك من آمون وكيف جاء إلى العالم تحت رعاية الآلهة. فنرى مثلاً داخل قاعة معبد الأقصر الإله خنوم Khnum جالسا أمام عجلة الفخراى حيث يشكل فى وجود الإلهة إيزيس طفلين ذكرين هما الملك القادم آمنحتب الثالث وقرينه كا KA الذى يشبه الملك تماماً فى مظهره وطبيعته. وفى الصورة التالية نجد آمون يتصل بالزوجة الملكية العظمى موت إم أويا Mutem Wiye ويلد منها الطفل الملكى الذى سبق أن خلقة خنوم. وفى منظر آخر يظهر الاله تحوت Thoth للملكة ويعلن لها حملها القادم. ثم نجد نقشا مجاوراً يقود فيه خنوم وإيزيس الملكة إلى غرفة الولادة. وهذا يتم فى حضور وبمساعدة عديدة من الآلهة وأنصاف الآلهة. وبعد أن تضع طفلها تحمل الربة إيزيس الأمير المولود وتقدمه إلى أبيه آمون الذى يأخذ الطفل بين ذراعيه ويعدده بأن يحيا ملايين السنين مثل رع . ونقوم الربات والأبقار المقدسة بإرضاع الطفل الملكى الذى ينمو تحت رعاية الآلهة حتى يجلسه أبوه آمون فى النهاية على عرش مصر" (١). وهكذا تمكن آمنحتب الثالث أن يحصل بالحيلة على شرعية الحكم لأن أمه ليست من الأسرة المالكة ولايجرى فى دمها دم حور الملكى ثم تزوج بزوجة غير ملكية الأصل هى الملكة تى. وحتى يثبت ذلك ويؤكد تهادى إلى حد أنه قرر أن يكون إلها معبوداً باعتباره الإبن المباشر لآمون، وقد أصبح مؤكداً لدينا الآن أنه كان يعبد فى صورة تماثيل بصولب ومنف وهيراكنوبوليس / الكوم الأحمر وطيبة

(١) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ١٠٣ .

وهو مازال حيا. بل وقرر أن تكون تى بدورها إلهة لها ذات الحق، فقد وجدنا دلائل مؤكدة أنها كانت تعبد فى سيدنجا بعد أن تم تعيينها ربة للإقليم^(١).

لكن ذلك كله وإن صار رسميا، فإنه لم يكن ليخدع الكهان المخلصين من أتباع آمون. والذين ظلوا يعملون فى الخفاء ضده وضد أسرته كما سنرى ذلك أيام ولده إخناتون. خاصة أن زواج آمنحتب الثالث من فتاة غير نبيلة الأصل ولا تجرى فى دمها الدماء الملكية هى (تى) أضاف مزيداً من اللبل إلى الطين. لذلك سنقف قليلا مع الملكة تى نستطلع شأنها وشئون أسرة العمارنة.

ويعود تشبيه المؤرخين لعصر آمنحتب الثالث بعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا أوبعصر هارون الرشيد فى إمبراطورية العرب، إلى كون هذا الفرعون قد ورث إمبراطورية مصرية واسعة الأرجاء، تتدفق منها الخيرات على عاصمة الإمبراطورية طيبة حيث مقر الحكم فى أقصى جنوب مصر. وفى العام الثانى من حكمه تزوج آمنحتب الثالث مليكتة تى ابنة يويا وتويا، وأصبحت ملكة على تلك الإمبراطورية الواسعة، رغم أنها لم تكن من أفراد البيت الملكى، وكان المظنون أن أسرته من عامة الشعب، ويرجح أن والدها يويا وأمها تويا يعودان إلى بلدة تقع شمالى طيبة اسمها إخميم.

والمعلوم لدى علماء المصريات أنه كان هناك أميرة تدعى سيت آمون ذكرت نقوشها أنها « الملكة بنت الملك »، لكنها كانت طفلة صغيرة عندما اعتلى آمنحتب الثالث العرش، وهو مادعا إلى افتراض أنها كانت شقيقته وابنة تحتمس الرابع. وكان اللقب التالى الذى حازته سيت آمون هو « ابنه الملك وزوجة الملك »، مما أدى إلى استنتاج أن آمنحتب الثالث عقد عليها زواجا صوريا مراعاة أو خداعا للقوانين. لكن زوجته الفعلية كانت هى (تى) التى صارت ملكة على الإمبراطورية المصرية منذ العام الثانى لحكم آمنحتب الثالث بقرارات جريئة من الملك الذى قرر أن يفرض مليكتة على الجميع وإن رغمت أنوف، وحازت لقب (الزوجة الملكية العظمى) القاصر على الملكة بالوراثة فى العادة المقدسة. ويقول لنا آلدريد بشأن الأصل غير للملكة تى، أن أباه كان يويا الكاهن الأكبر للإله مين فى إخميم والمشرف على ماشية المعبد، أما الأهم فهو أنه كان قائد فيلق المركبات الملكية (سلاح الفرسان) ويعقب آلدريد بقوله: « فهو إذن من الماريانو الأشداء محترفى الجندية ». ثم يحيطنا علما أن (يويا) كان من أقرباء الملكة (موت - أم - ويا) زوجة الملك الراحل تحتمس الرابع ووالده الملك آمنحتب الثالث^(٢).

ويحيطنا عبد المنعم أبو بكر علما بشخصية تى قائلا: « وكانت تى سيدة ذكية صقلتها الأحداث، واستطاعت بدهائها أن تظل حتى آخر أيام حكم زوجها صاحبة اليد العليا ليس فى مصر فحسب، بل فى توجيه سياسة الإمبراطورية كلها. حتى بات ذلك أمراً معروفا عند الأمراء والحاكمين فى أقاليم الشرق، فكانوا

(١) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٦٥ .

(٢) نفسه: ص ٨٣ : ٨٤ .

يقدرونها ويبيعون لها برسائل الود « (١). وهكذا جاء حكم آمنحتب الثالث مشكوكا في شرعيته من شقين: الأول أنه من أم ميتانية، والثاني أن زوجته بدورها ليست من حاملات الدم الملكي لذلك سيكون نسلها مشكوك في شرعيته بدوره. وقد قرر آمنحتب الثالث تحدى الجميع بجعله الملكة تى الملكة الفعلية للإمبراطورية، بل وربة معبودة رغم أنف الجميع في تحد سافر للقوانين المقدسة.

وذهب كثير من المصروولوجيين إلى أن تى كانت من غمار الشعب المصرى، وهو ما يؤكد عبد المنعم أبو بكر في قوله: « كان آمنحتب الثالث من أم ميتانية.. أحيط بكل مظاهر الرعاية منذ طفولته. كما تجمعت له كل الأسباب ليصبح ملكا تخضع لأمره كل ثروات العالم. وتجبى موارده كلها تحت أقدامه. نشأ مترفا يعشق الحياة الرغدة ويقبل على ملذات الدنيا، ويعتبره التاريخ مثالا يضرب لأبهة الشرق، فإن حبه للبذخ وإقباله على الانهماك فى ملذات الدنيا، يجعلنا نعهده بحق سلطان مصر الفرعونية.. ولم يكد يكتمل العام الثانى لتربع آمنحتب الثالث على العرش، ولعله كان قد بلغ الربع الثامن عشر من عمره، حتى اختار صبية لاتنحدر من أصل ملكى زوجة له. أبوها هو يويا كاهن الإله مين، وأمها هي تويا إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس فى البلاط الفرعونى، أى لم يحمل أحد من أبويها لقبا ذى أهمية. هذه الصبية هي تى التى عرفت بقوة شخصيتها واستطاعت أن تجعل من نفسها إحدى سيدات التاريخ المصرى الشهيرات، إذ كان لها أثر كبير فى توجيه سياسة الإمبراطورية المصرية فى عصر زوجها. كما لعبت دوراً مهماً فى الأحداث التى جرت فى عهد ولدها آمنحتب الرابع/ إخناتون.. وإذا كان آمنحتب الثالث نصف ميتانى ولم يكثرث أبداً لنقاء دمه الملكى، فإنه كان أول ملك إختار: الزوجة الملكية العظمى، من بين بنات الشعب المصرى. لقد كان ولاشك جريئاً فى تصرفاته ومجدداً فى التقاليد المصرية. والوثائق التى وصلت إلينا من هذا العصر تشهد بمدى تدله هذا الملك فى حب أثيرته ابنة الشعب تى، وإمعانه فى إرضائها.. لقد وجد من حقها عليه أن يعلن زواجه منها على شعب إمبراطوريته جميعاً، فحمل الرسل إليها بعدد من الجعارين الكبيرة، نقش عليها نصاً يعتبر بمثابة إعلان ملكى لزواجه.. ومامن شك أن مثل هذا الإعلان يحوى بين طياته اعترافاً قوياً بشعور الملك أنه أقدم على عمل ما كان له أن يقدم عليه. كما يحمل إصراره على ذكر اسم والد تى وأمها. والدليل على أنه أقدم على هذا الزواج وهو يعرف معناه لكنه لا يأبه للنتائج، وظل بعد ذلك حريصاً على أن يقرن اسم زوجته الكبرى باسمه فى كل مناسبة دينية أو سياسية، ويشفع ذكرها بذكر أبويها أيضاً « (٢).

وإن كنا نرى إصرار آمنحتب الثالث على ترديد ذكر اسم والدى تى (يويا وتويا) كلما ورد اسم ابنتهما الملكة، له أسباب أخرى غير تدله الملك فى حب تى، وهى الأسباب التى سيأتى بيانها فى موضعها من هذا العمل.

(١) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) نفسه: ص ١٩ : ٢٣ .

ولم يقف إكرام آمنحتب الثالث لزوجته تى عند هذا الحد بل ذهب إلى أبعد منه، فنراه يخالف كل القواعد القديمة فى الفن المصرى التى كانت تحرص على عدم إظهار الزوجة الملكية إلى جوار زوجها فى النقوش والتماثيل، إلا فى مناسبات معينة، وبشرط أن تقف الملكة بحجم صغير جدا بجانب ساق زوجها تحتضنه بتواضع كأنما هى شخص لا أهمية له أبداً. وإن حدث أن ظهرت الملكة بجانب الملك فيجب تمييزها بحجم صغير إلى جوار حجم الملك الكبير. لكن تى أضحت تصور فى التماثيل والنحوت والرسوم على قدم المساواة مع زوجها الملك، ويصادق على ذلك تماثلها الضخم الذى يصورها جالسة إلى جوار زوجها دون تمييز فى الحجم، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصرى^(١).

لكن إذا كانت تى وأباها يويا يمتون بصلة قرابة للملكة الوالدة (موت أم أويا) كما قال آلدريد، وأن (موت أم أويا) من أصل ميثانى^(٢). ألا يفتح ذلك باباً للشك فى مصرية الملكة تى، وبذلك يكون آمنحتب الثالث قد خالف جميع القوانين السماوية دفعة واحدة؟!

هنا نجد من الضرورى إيضاح الأحوال فى مصر بعد طرد الهكسوس منها، فهذا عبدالمعمر أبو بكر يصور لنا أحوال البلاد فى لوحة واضحة؛ تفاصيلها فى قوله: « كما تركزت تجارة العالم القديم فى مصر.. وكما انتشرت الحضارة المصرية فى ربوع كثيرة، ولم تعد قاصرة على فلسطين والساحل الفينيقي فقط، فإن المصريين فتحوا أبوابهم للأسيويين، فدخلت البلاد عناصر جديدة من المظاهر الحضارية، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشر أدوات موسيقية جديدة، أنت من آسيا مع أنواع من الرقص الغريب. بل انتشرت فى مصر بعض العادات الآسيوية، وقبل المصريون عبادة آلهة آسيوية، كما رضى ملوك مصر أن يستعملوا فى اتصالاتهم الخارجية اللغة البابلية، ودخلت على اللغة المصرية كلمات اجنبية كثيرة كمدلولات للأشياء الجديدة الدخيلة على مصر. وأصبحت طيبة عاصمة الإمبراطورية بل عاصمة العالم، تتمتع بأزهى ما وصلت إليه البشرية إذ ذاك من مظاهر الرفاهية والرخاء »^(٣). وهى ذات المعانى التى يكررها سيرل آلدريد وهو يصف أحوال مصر الإمبراطورية فى قوله: « كل هذه الثروة المنصبة داخل مجتمع عالمى منفتح، فى دولة ذات بلاط فاخر به حاشية ضخمة من الأميرات الأجنيات وبطانتهم، أثرت على البيئة المصرية النمطية.. وهذا الجو الذى لم تعهده الحياة الثقافية فى مصر قبل ذلك يرجع الفضل الأكبر فيه إلى انفتاح مصر فى عهد الدولة الحديثة على جيرانها الأموريين والهورييين، وعلى دنيا الهندوأوروبيين. والحقيقة إن مصر بعد حكم الهكسوس فقدت كثيراً من ملامحها المحلية. واقتبست الكثير من مميزات بلاد شرقى البحر المتوسط، فأصبح الملك الإله يشبه إلى حد كبير أبطال هوميروس.. وأصبح لأعوانه طابع الماريانو (المرتزقة المقاتلين) الذين

(١) نفسه: ص ٢٣ .

(٢) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٤ .

(٣) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ١٥ ، ١٧ .

كانت لهم السيطرة على المجتمع الأسوي في ذلك الوقت، وتزايد نفوذ وتأثير الزوجات الأجنبية والعبيد بل حتى الموظفين العاديين^(١).

المهم أن آمنحتب الثالث عاش حياة شديدة الرفاهية غارقاً في الملذات، وهو ماتؤكد الخطابات التي كان يرسلها إلى أمراء مصر على البلاد الآسيوية، فهناك خطاب أرسله إلى (ميلكيلى) أو (الملك على) أمير جازر مع رسوله خانيا يقوله فيه: إنه في حاجة إلى أربعين فتاة من أجمل فتيات المدينة يتميزن بوجوه جميلة وقوام ممشوق وليس في إحداهن ما يعيب حسنهما، ويرد فرعون بعد ذلك القول: "وسأخذ من هذه الهدية مقياساً لحسن ذوقك وخبرتك".

وهناك خطاب آخر أرسله إلى (شوبا ندو) أحد الأمراء السوريين، وثالث إلى (عبدى خيبا) أمير أورشليم يطلب منه إحدى وعشرين فتاة أكاراً غير ثيبات، ثم أرسل أكثر من أربع مرات يلح في طلب ثلاثين عذراء من حليفة الملك الميتاني (دوشراتا)، وهو مايعقب عليه عبدالمعتم أبوبكر "لأنكاد نشك أن البلاط المصرى كان يعج بالغوانى الأجنبية وأن صاحبه كان منغمساً حتى أذنيه في اللهو والمجون وكانت النتيجة الحتمية لازدحام البلاط الملكى بهذه الوفرة من السرايا (وقد حضر منهن في عصر آمنحتب الثالث فقط ٤٢٨ غانية على أقل تقدير) أن أخذ الدم الأجنبى يزداد امتزاجاً في عروق المصريين وبخاصة أن سرارة القوم وكبار رجال الدولة أخذوا هم أيضاً يجارون الملك ويعملون من جانبهم على استجلاب محظيات من بلدان آسيا القريبة، وكان لتجميع هؤلاء في البيوتات المصرية أياً أثر في إنتشار كثير من العناصر الحضارية الأجنبية وتغلغلها في الحضارة المصرية"^(٢) أما الملك فقد أخذت الملذات تستنفذ صحته حتى انتهى عاجزاً مريضاً، ومات بملذاته^(٣).

وسعياً وراء العثور على طرف الخيط في الأصل الوطنى للملكة تى، تقترب من يويا وتويا: كان يويا والد الملكة تى هو قائد المركبات الملكية وصاحب الخيل، أى كان قائد السلاح الفرسان، وقد أثبت الفحص الطبى لمومياء يويا أنه كان ذا مظهر مخالف للجنس المصرى، فهو طويل القامة على غير المعتاد، شعر رأسه طويل أبيض متموج، أنفه كبير بارز معقوف، شفتاه غليظتان بارزتان^(٤) وهو الأمر الذى شكك تماماً في انتسابه للمصريين، وقامت على ذلك أبحاث كثيرة.

وقد حاز (يوبا) هذا في عهد الملك (آمنحتب الثالث) على ألقاب كثيرة وعديدة، ربما كان أهمها هنا: (وكيل الملك للعجلات) أى نائب الفرعون على قيادة سلاح الفرسان، و(حامل ختم الملك) ومعنى ذلك أنه كان

(١) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٦٠ .

(٢) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨، ٣٠، ٣٥ .

(٣) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ١٩، ٦٩ .

(٤) نفسه: ص ٥٢ .

الكاتب الملكى الرسمى وكاتم السر وأيضاً لقب (فم الملك) وهو ما يعنى أنه كان المتحدث الرسمى باسم البلاط، ثم لقب (آذان الملك) أى أنه أيضاً كان رئيس الاستخبارات وشرطة أمن الدولة، ثم لقب (الذى أغناه ملك مصر) وهو ما يعنى أن يويا ما كان ليصل إلى مركزه هذا إلا بفضل الملك ورضاه ورعايته وبقصد منه، وأنه لم يكن كذلك قبل ذلك، أما اللقب الأهم فهو (الأب المقدس)، أو (والد الإله) وهو اللقب الذى كان يعنى لحامله أنه حمو الملك ووالد زوجته الملكة.^(١) لكن ما يجب تذكره جيداً أن مقبرة هذا الرجل (يويا) وزوجته (تويا) التى اكتشفت بوادى ملوك، لم يعثر بها على نقوش أو رسوم أو كتابات تمثل الاعتقادات المصرية، وخاصة تلك التى تمثل الاعتقادات فى الحياة بعد الموت، وهو الأمر الذى يخالف المعتاد فى كل مقابر مصر القديمة^(٢)، مما يشير إلى أنه كان لا يعتقد حسب عقيدته المجهولة لنا الآن فى عالم آخر من بعد الموت فيه بعث وحساب وجزاء وثواب وعقاب. والمعلوم أن الديانات السامية وأبرزها اليهودية كانت لا تعتقد فى بعث وحساب. ولم يطرأ ذلك الاعتقاد على الديانة اليهودية إلا متأخراً جداً قبل قرنين فقط من الميلاد. كذلك كان الأنباط لا يهتمون إطلاقاً بالموتى، وكانوا يعتبرونهم لونا من القمامة والأغراض التى انتهت فائدتها.

وبعد خلاف طويل بين الباحثين انتهى الأمر إلى أن يويا وتويا قد أنجبا عدداً من الأبناء والبنات، منهم من انطفأ ذكره مبكراً، أو ليس لدينا عنه معلومات كافية مثل حنين ANEN الذى يترجم عادة عانن^(٣)، ثم أشقاء وشقيقات أخريات أكثر أهمية وصلتنا أسماؤهم من هذه الحقبة الهامة فى تاريخ مصر. فإضافة إلى (تى) التى اختارها آمنحتب الثالث ملكة لإمبراطوريته، كان هناك أيضاً أسماء تحمل ذات التنعيم الغريب على اللسان والمسمع المصرى، فقد كان من أبنائه الذكور (آى) الذى اعتلى عرش مصر بعد ذلك بفترة، وكان ذا يد طويلة فى أحداث فترة العمارنة. وكانت له زوجة تحمل اسماً من ذات النغمات (تأى)، ولا نعلم إن كانت شقيقة له وللملكة (تى) أم لا، لكنها قد حملت فيما بعد لقب (مربية الملكة). وحمل (آى) نفسه لقب أبيه يويا (الأب المقدس) و (والد الإله)، وهو ما تم تفسيره بأن (آى) كان والداً للملكة نفرتيى التى تزوجها الملك آمنحتب الرابع / اخناتون، لذلك استحق (آى) ذلك اللقب الذى يعنى أنه حمو الملك اخناتون، كما تقلد كافة المناصب والألقاب التى كان يحوزها أبوه (يويا).^(٤) وبهذا المعنى يكون آى ابن يويا وتويا والداً للملكة نفرتيى وخالا للفرعون آمنحتب الرابع / اخناتون وحماً له، أما الاهم هنا فهو أن آى قد نسبت إليه كثير من الأراء التى جاء بها الفرعون إخناتون التى تسمى بالهرطقة الأتونية، بل أن النشيد الشهير لدينا الآن فى

(١) أحمد عثمان: غريب فى وادى الملوك، مكتبة مديولى القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) نفسه: ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) أحمد قدرى: المؤسسة العسكرية .. سبق ذكره، ص ١٤٣ .

(٤) نفسه: ص ١٤٦ ، ١٤٧، انظر أيضاً الدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٦ ، ٨٧ .

عبادة الاله آتون، والذي يظن البعض أن مؤلفه هو إخناتون، قد وجد مسجلا فى مقبرة آى فى العمارنة (١)

وقد أنجب



جبل موسى بسيينا لاحتظ دير كاترين على القمة
شكل رقم)



دير سانت كاترين عن قرب
شكل رقم)

آى إضافة إلى نفرتيتى - إذا كانت ابنته فعلاً - الأميرة التى حملت اسم موت سحمت والقائد العسكرى نخب مين. (٢)

ومعلوم أن (آى) قد أصبح وصيا على العرش بعد اختفاء اخناتون، وإيان حكم الصبيان سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، وبعد موتهما المبكر قفز على العرش، وشرع له بزواجه من عنخ اس. ان. با. آمون أرملة توت عنخ آمون (٣).

ويستلقت كل حواسنا ذلك التتخيم فى أسماء أسرة العمارنة ذات الأصول الميتانية (موت أم ويا)، يويا أو يهويا، وتويا وتى و وآى أو ياي. وقد لاحظ المصروولوجيست سيرل الدريد ذلك فقال: « واضح أن العائلة كان لها ولع واضح بأسماء من نفس الفصيلة مثل ييى ويويا وآى، وكلها متقاربة الرنين قد توحى بوجود نوع من القرابة بين حاملها» (٤) لكن الاسم المنغم هذا يحمل لنا إشارات واضحة إلى الرب التوراتى ياه، إيهيه، يهوه، يهيه، يه، على مختلف التتخيمات، لقد كانت أسرة العمارنة من جهة الخنولة تعبد الإله يهوه السينائى

(١) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٥ .

(٢) نفسه: ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) قدرى: المؤسسة .. سبق ذكره، ص ١٧٨ ، وشتيندورف وسيل : عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

(٤) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٤ ، ٨٥ .

المديانى، لأنها ببساطة كانت من نسل سيدات ميتانيات أو مديانيات. وهو ما يفسر لنا لماذا خلت مقبرة يويا وتويا من أى نقش حول العالم الآخر، لأن عقيدة يهوه خلت تماماً من أى اعتقاد فى البعث والحساب، وكان اليهودى يعتقد أن مصير الجميع بعد الموت صالح وطالح إلى هاوية العالم التحت أرضى يعيشون هناك فى الرغام والطين، وكان ثواب المؤمن أو عقابه دنيويا بطول العمر والسعادة المادية، أو العكس بالشقاء فى الحياة ثم الموت السريع.

ثم نتساءل: لماذا نجد تماثيل تى فى سيناء تحديداً بالذات؟ قرب الجبل المقدس كاترين، ثم ألا تشير تلك التماثيل إلى امرأة كوشية مهجنة، فهى سوداء لكنه السواد السيناوى بكل ملامحه.

ثم نعود بقارئنا إلى لوحات حتشبسوت فى رحلة بونت، لنعلم دون أن تصيبنا الدهشة أن زوجة عظيم بونت بارح أوفرخ أورابح أو رابع أو رباح، كانت تحمل اسم (! - تى)، وهو اسم يحمل معنى: الرئيسة^(١)، كما فى تسمية المصريين الآن للأفراد (سيد) التى تحمل معنى السيادة. أن اسم الملكة البوننتية كما هو واضح يحمل ذات التنعيم اليهودى.

ثم نتوقف مدهوشين أمام فنون تل العمارنة ينتابنا ذهول الاكتشاف وبهرته.



رأس تى جاءتنا تماثيلها من سيناء بالتحديد وبالذات ؟!
شكل رقم (٨١)



الملكة تى سوداء سيناوية / رأس من خشب الأرز محفوظ بمتحف آثار
برلين العينان مطعمتان والرأس مكسو بقلنسوة من الفضة والقلنسوة
مثبتة على الجبين بشريط من ذهب
شكل رقم (٨٠)

ثلاث سمات تميز فنون تل العمارنة عن الفنون المصرية الكلاسيكية السابقة عليها: أولاً إكساب التماثيل والنقوش الحركة اللينة وتصوير الطبيعة الجميلة فى حركات كائناتها الرشيقة. ثانياً: العرى الغريب الذى يغلب على نحوت ونقوش كل العمارنة، فنادرأ مامثل البيت المالك بملابس ساترة. بل أن نفرتيتى بالذات

(١) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٤، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

وكذلك الملكة تى حماتها، قد صورتنا بأردية مغلقة إغلاقاً خفيفاً من عند الثديين بدبوس يترك الثوب مفتوحاً، لتتسع الفتحة كلما هبطنا مع الجسد حتى يفصح الثوب تماماً عن خروج فخذين عاريتين بينهما فرج عار تماماً.

ويقول أبو بكر حول التجديد الفنى الغريب فى فنون العمارنة: " ولابد أن كهنة آمون كانوا قد أحسوا بأن هناك مؤامرة تحاك ضدهم، وأن الأحداث تجرى سراعاً.. وما زاد الطين بلة أن التيارات الجديدة التى أفلقت مضاجع كهنة آمون، كان يصحبها تجديدات فنية قلبت الأسلوب الفنى القديم وقواعده رأساً على عقب. بل هدمته وأودت به. لقد طلب الملك من الفنانين أن يتوخوا الأسلوب التعبيرى فى فنهم وأن يتجنبوا المبالغة فى إبراز صور الأفراد .. فالرسوم الموجودة على أحجار ذلك المعبد الذى شيده الملك لأتون فى الكرنك مرسومة بهذا الأسلوب التعبيرى الذى يميز حكمه، والذى يظهر جسمه مشوهاً. بل إن التماثيل الضخمة التى عثر عليها فى معبد الكرنك توضح لنا بوجوهها النحيلة وأفخاذها المتكورة أن فن العمارنة كان مُنفذاً منذ أول أيام حكم اخناتون، أى قبل أن يبدأ النزاع رسمياً بينه وبين آمون وكهانه " (١).

وتحاول المصروولوجيست (جولياسامسون) أن تيرر العرى فى لوحة تقرأها لنا فتقول: " المنظر العائلى المنقوش على جدران مقبرة النبيل آى غير مكتمل من الناحية الفنية، ومن الواضح أن العمل الفنى قد توقف قبل أن ينتهى، فلم تكن ملابس الملك والملكة قد أضيفت إلى الرسم. ولكننا مع ذلك نلاحظ بوضوح أن كلا منهما كان يضع تاجه المميز على رأسه، كما نلاحظ أشعة آتون الممتدة على شكل أياذ تمنحهما البركة كما تمنحهما الحياة عنخ، ومن الواضح أن الفنان قد اعتبر ذلك من أساسيات المنظر الذى يحرص على تسجيلها منذ بدأ عمله الفنى. ومن الواضح فى هذا المنظر أيضاً أن نفرتيتى.. أصبحت تشارك زوجها مراسم وشئون الحكم حيث تظهر وهى تساهم فى منح وإهداء قلادات الياقات الذهبية إلى النبيل آى " (٢).

ورغم محاولة سامسون تفسير العرى فى تلك اللوحة بنسيان الفنان للملابس أو وقف العمل فى اللوحة قبل اكتمالها، فإنها هى نفسها فى موضع آخر تقول: " ومن هذه الحرية فى التعبير.. ظهرت خطوط وتعبيرات فنية غير مسبوقة فى تاريخ الفن، وأصبح الفنانون قادرين على تصوير الملك والملكة فى أوضاع مختلفة لم يكن مسموحاً بها على الإطلاق فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم قبل عصر العمارنة... ولكى يلاحظوا حيويتها وجمالها الذى خلدوه فى أعمالهم الفنية قد سمح لهم أن يجلسوا فى حضرة الملكة لساعات طويلة لكى يراقبوها فى كل وضع ومن كل زاوية. ومن الملاحظ أن أغلبية النقوش التى صورتها هى وبناتها كانت تصورهن وهن يرتدين ملابس شفافة تكشف خطوط ومنحنيات الجسم. وكانت

(١) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٧ .

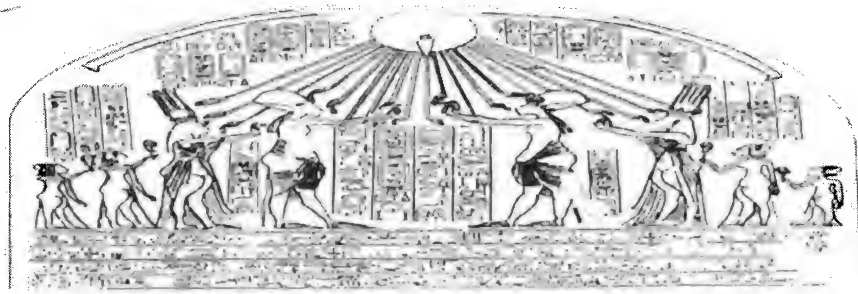
(٢) جوليا سامسون: نفرتيتى .. سبق ذكره، ص ١٤٤ .

المديانيين.

أما السمة الثالثة التى تسم فنون العمارنة فهو التيجان المميزة لإخناتون ونفرتيتى، وتقول هنا (سامسون) عن نفرتيتى إنها " صممت لنفسها تاجا خاصا أصبح من المعالم الهامة لشخصيتها. وقد استوحت نفرتيتى تصميم تاجها ولونه الأزرق من تاج الحرب خبرش الذى كان يرتديه الفراعنة المحاربون كرمز عسكري، والذى كان يرتديه إخناتون فى أغلب الأحيان بعد تطويره تطويراً فنياً خفيفاً جعله أشبه ما يكون بغطاء رأس ميز" (١) .

مرة أخرى تحاول سامسون التفسير فتشاهد تيجانا غريبة تماماً على الفن المصرى وتظهر بهذا الشكل لأول مرة، فتبحث لتجد أنها تشبه تيجان الحرب خبرش مع بعض التحوير، لكن لماذا تلك الاستطالة المفرطة فى هذه التيجان؟ إن أول ما سيلحظه المطالع لفنون العمارنة تلك الاستطالة المفرطة فى رؤوس أسرة إخناتون. وهنا تدخل سامسون مرة أخرى للتفسير لتقول عن رؤوس العمارنة: " قد رسمت جميعا باستطالة من الخلف حتى لقد شاع ظن خاطئ بأن الأسرة الملكية كلها كانت مصابة بمرض الاستسقاء فى الدماغ .. وربما بسبب حرارة الجو فى أيام الصيف كان من اللازم تسريح الشعر وتجميعه خلف الرأس لتخفيف الحرارة عن الرقبة وأعلى الكتف. وكان الرأس يبدو فى مثل هذه التسريحة كما لو كان فى حالة بروز وانفخا " (٢) .

كان هذا اقتراح (سامسون) لتفسير الرؤوس المستطيلة لبنات إخناتون، لكن لماذا لم يظهر أثر الصيف وتسريحاته تلك إلا فى لوحات العمارنة دون تاريخ مصر جميعه، ثم ماذا عن إخناتون نفسه الذى حمل الرأس نفسها، ثم ماذا عن تاج نفرتيتى الذى لا شك كان يخفى تحته ذات الرأس، بل وكثير من رجال الحاشية ونسائها كانوا يحملون ذات الرؤوس رجالا ونساء.



منظر جزئى من إحدى نصب أو علامات الحدود التى أقيمت حول العمارنة ونرى إخناتون ونفرتيتى وهما يتعبدان للإله آتون، وخلفهما الأميرتان الصغيرتان (لاحظ عرى نفرتيتى التحتى وكذلك بناتها وأيدى الإله آتون

(١) نفسه: ص ٥١ .

(٢) نفسه: ص ١١٤ .

لنستمع إلى تبرير آخر يلجأ إلى التفسير بأنها كانت عملاً فنياً يتم فيه تحويل أشكال أفراد الحاشية ليأخذوا شكل الفرعون فهو وحده الذى كان يحمل هذه الصفات فيقول شتيندورف: " ولم يكتفوا بتصوير الفرعون وحده بهذه الطريقة غير المألوفة، إنما أصبح شكله هو الطراز المصرى المثالى. وهكذا صوروا بنفس الأسلوب - لا الملكة فقط التى كانت وثيقة صلة القرابة بإخناتون أو الأميرات اللاتى ربما ورثن بعض ملامح الشبه عن أبيهن. إنما أيضا كل المصريين الآخرين [لأنهم لماذا وصفهم شتيندورف وسيل جزفاً بأنهم مصريون؟ / المؤلف] وهكذا منحوا نفس الخصائص البدنية المشار إليها آنفاً والتى اختصت بها الطبيعة الملك وحده، حتى أصبحوا أشبه بالصور الكاريكاتورية^(١) ."

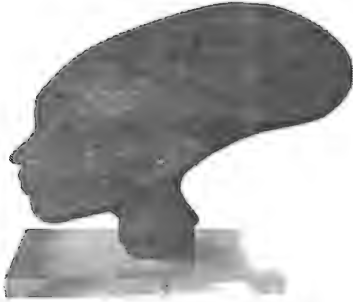
يوم
حيث
عها،
ث
ولاء



يؤكدون تأثر نقش العمارنة بفنون رشة فناني العمارنة لإخناتون ونفرتيتي من جزيرة كريت وبعض مميزات أسلوبها شبه بقمماش ضيق لا يخفى تفاصيل رأسها

شكل رقم (٨٥)

جزيرة البلقان، ويعتمدون فى ذلك على أن الفن المصرى لم يعرف الحركة كما لم يحاول الفنان أن يكسب أجسام البشر والحيوان فى تحركهم تلك الالتواءات فى الأعضاء التى تتناسب مع الحركة التى يقوم بها الجسم .. لقد أبدع فنان العمارنة فى صياغة هذا الموضوع فى رسومه بحيث جعله ينبض بالحياة المملوءة بالحركة. ويقول أصحاب نظرية تأثر فن العمارنة بفنون أجنبية أن هذا الأسلوب الفنى .. قد أخذه الفنان فى عصر إخناتون عن الفن الكريتي^(٢) .



بنت من بنات إخناتون
شكل رقم (٨٦)

(١) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢١٥ .

(٢) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ .

والذى لم يلتفت إليه هؤلاء المفسرون رغم أهميتهم أو أهملوه عمداً لعدم وجود تفسير واضح، أن الموميאות نفسها كانت تفصح بهذا الشذوذ فى طول الجماجم، حتى من لم يرسم برأس طويل منهم بسبب اختفاء الرأس تحت التاج، كما فى حالة سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون الذين تليا إخناتون على حكم مصر وهما صبيين صغيرين وماتا فى ريعان الصبى، حيث يقول (سيرل الدريد): « أصبح من المسلم به أن سمنخ كارع وتوت عنخ آمون كانا أخوين، والواقع أن رفاتهما المتبقية تظهر تشابها غير عادى وخصوصا بين قياسات مجسمتيهما المفرطحتين الشاذتين .. وقد ثبت فى دراسة حديثة اعتمدت على تحليل فصيلة دمائهما كانت واحدة مما يعزز اعتبارهما أخوين .. وتطابق شكل الملكين الصغيرين يدل على أنهما شقيقان لأب وأم .. فإن كان إخناتون هو الأب فلا بد أن تكون نفرتيتى هى الأم » (١) .

ولهذه الأسباب تحديداً سيق تفسير آخر لرؤوس العمارنة الطويلة، فقليل إن إخناتون حسبما تشير نقوشه ورسومه كان مصابا بأعراض اضطراب الغدة النخامية « ويوجد بمتحف اللوفر بباريس نقش يبدو من أسلوبه أنه ينتمى إلى فترة مبكرة .. يبدو فيها إخناتون ذا فك متضخم وبطن بارز وردفين ثقيلين .. وهذه صورة معتدلة لأعراض التشوه الجسمانى التى سوف يتجسم بعد ذلك بشكل صارخ عندما يبدأ الأخذ بالأسلوب الفنى الجديد » (٢) .

ومع اضطرابات الغدة النخامية قيل إن إخناتون كان مصابا بمرض نادر يدعى « متزامنة فروهليش »، وقد اعترض آلدريد على ذلك بقوله « فكيف يتمشى ذلك مع رجل كثير الإنجاب متوافق مع زوجته جنسيا فى الوقت الذى نعلم فيه أن حالة متزامنة فروهليش من شأنها أن تسبب للمريض العقم والعجز الجنسى .. ويترتب على ذلك أن نقول إن إخناتون قد عانى من المرض إلا أنه لم يصل إلى المرحلة الخطيرة التى تؤثر على خصوبته » (٣) .

وهكذا تعود فنون العمارنة إلى مرض أصاب إخناتون باستسقاء البطن والدماغ فظهر بهذا الشكل، وسعى فنانون العمارنة إلى جعل كل الأسرة وبعض الحاشية ينشابهون مع الفرعون فقط فى النقوش، إما لجعل عييه الجسدى ميزة يتوق إليها شعبه، أو لمجاملته ليس إلا، لكن الموميאות نفسها تشير إلى أن العيب كان أصيلا فى أجساد أصحابها، وهو إن تم تفسيره بالوراثة فى بناته فهو مالا يفسر لنا وجود أعضاء فى الحاشية ليسوا من أفراد الأسرة ويحملون ذات الرؤوس الطويلة.

أما الباحث الزنجى إنتاديوب الذى يريد أن يعيد كل مآثور فى المنطقة لما اسماه بالحضارة الزنجية كرد فعل على سيادة حضارة الرجل الأبيض الآتية، فقد أخذ ينقب ليعثر على الزنوج كيفما اتفق له فى

(١) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٩٣ .

(٢) نفسه: ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) نفسه: ص ١٢١ .

الحضارات القديمة، فهو يقول مثلاً أن اليهود من أصل زنجي .. لماذا؟ لأنه تم العثور على جماجم فينيقية في غرب ميناء سرقوصه بجزيرة صقلية وكانت مستطيلة بارزة الفكين تدل على أن أصحابها زنوج الأصل^(١). لكنه هو نفسه ينقل عن كونتينيو قوله إن بعض تلك الجماجم بها تشويه متعمد يبدو أنه تم بطريقة اصطناعية بربط الجمجمة مما أدى إلى استطالتها من الأمام إلى الخلف على شكل بيضه. إنه ذات التشويه الذي ظهر في عصر العمارنة وبالأخص في شخصيات الأسرة المالكة.

وليس لدينا شعب عمد إلى ربط رؤوس الأطفال بقصد صنع هذه الاستطالة المميزة في الرؤوس، ويرى ذلك علامة مميزة على شعب متميز على العالمين، سوى قبائل سكيث / ساجاز / قاطعوا الرقاب الأرامية التي هبطت من قزوين إلى شرقي المتوسط لتتمركز في بلاد مديان آدوم، التي يكتبها المؤرخون ميتاني ويضعونها في أعالي الرافدين. ومعلوم أن ثلاثة أجيال متتالية من النساء الميتانيات أفضين إلى أسرة العمارنة، بدأن بالملكة موت أم أويا زوجة تحتمس الرابع ثم تبعها الملكة تي زوجة آمنحتب الثالث، ثم نفرتيتي زوجة آمنحتب الرابع اخناتون والتي ربما كانت - في رأينا - شقيقة أمه تي بنت يويا وتويا . تلك الأسماء المنتسبة إلى ذات التنغيم اليهودي السيناوي المدياني.

ومن بين الفراعين تميز الفرعون إخناتون بأنه كان يضع رباط عريض حول رسغي يديه^(٢)، وهي عادات اسكيثية واضحة، وتظهر أيضا في لوحة يلبسها الإله تيشوب الحيثي، كما أنها عادات مديانية كانت معلومة لدى المحرر التوراتي الذي سجل لنا أغطية الرأس التاجية المديانية أيضا في قوله عن المديانيين التجار الأثرياء:

وصوت جمهور مترفهين معها مع إناس من رعا ع الخلق أتى
بسكاري من البرية الذين جعلوا أسورة على أيديهما وتاج
جمال على رؤوسهما

حزقيال ٤٣/٢٣

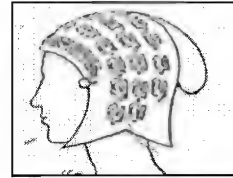
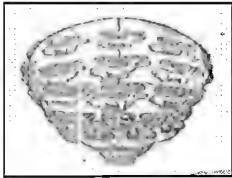
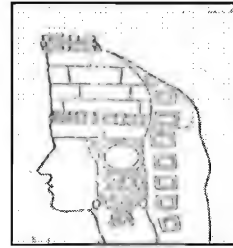
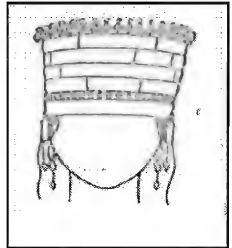
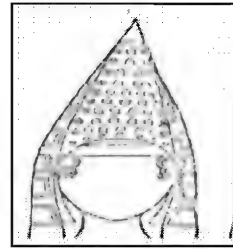
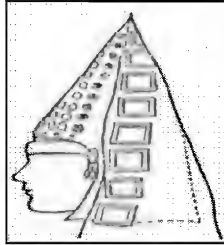
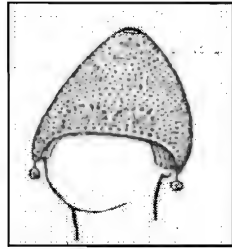
أما نفرتيتي فهي الزوجة الملكية الوحيدة في مصر التي صورت في وضع محارب يضرب أعدائه مما يذكرنا بنساء الاسكيث الأمازוניات.

(١) أنتاديوب: الأصول الزنجية .. سبق ذكره، ص ١٤٦، ١٤٧ .

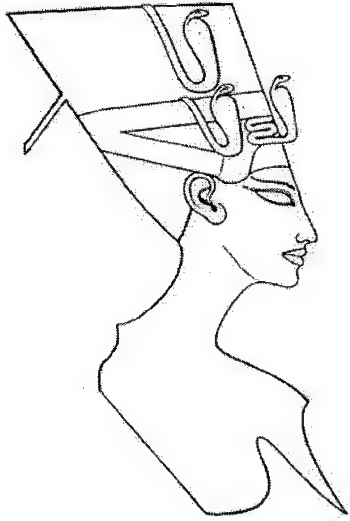
(٢) جوليا سامسون: نفرتيتي .. سبق ذكره، ص ٣٤ .



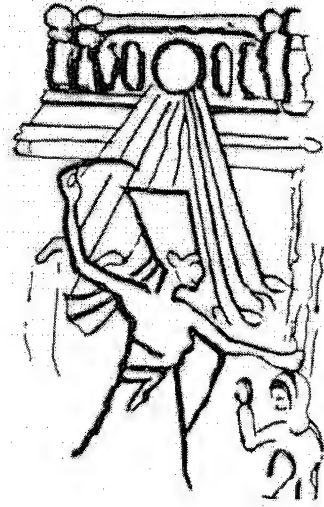
إخناتون، عيون أسيوية وفم إفريقي، لاحظ الأساور في معصم تذكرنا بأولئك الذين حدثنا عنهم الكتاب المقدس في بلاد آدوم، الذين يلبسون أساور في أيديهم
شكل رقم (٨٧)



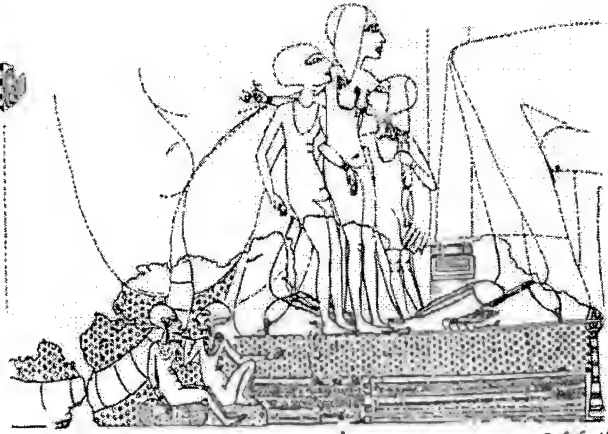
شكل رقم (٨٨)
البسة الرأس عند الإسكيت



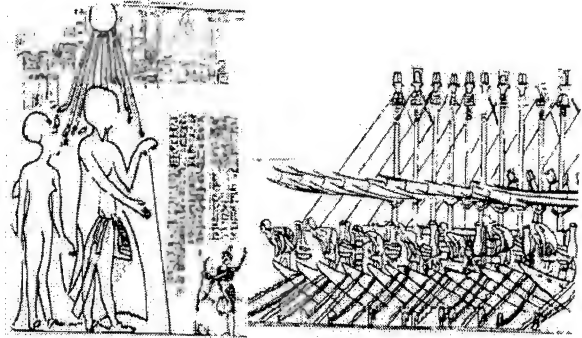
رسم لنفرتيتي من العمارنة (من ليسيوس)
شكل رقم (٨٩)



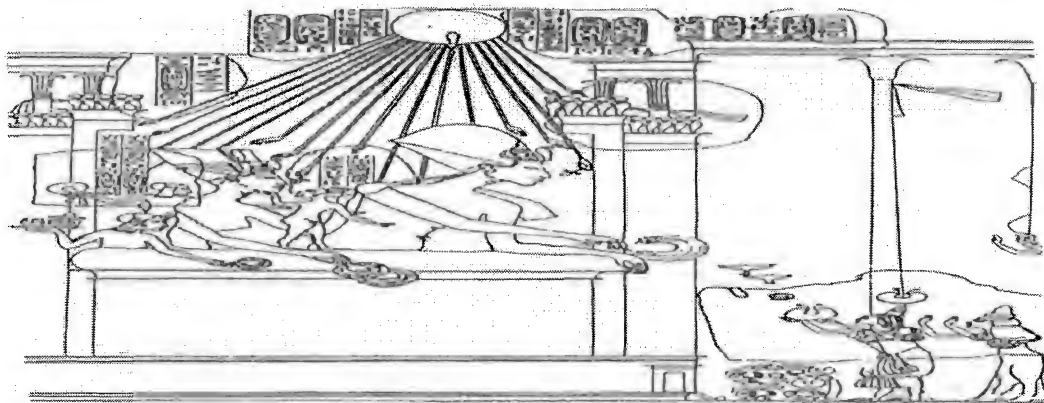
نفرتيتي كفرعون محارب لاحظ التاج العالي
الذي يغطي الرأس المستطيل
شكل رقم (٩٠)



نقش جداري للأميرات الصغيريات في منظر عائلي
(من جمعية الاستكشافات المصرية)
شكل رقم (٩١)



الملك إخناتون والملكة نفرتيتي في مناسبة منح
الأوسمة للنيل مري رع والتفشي على سفن
الأسطول (من جمعية الاستكشافات الأثرية
المصرية) (لاحظ نفرتيتي العارية تماما)
شكل رقم (٩٢)



إخناتون ونفرتيتي وهما يمنحان القلادات الذهبية للنيل آي وزوجته تي ونرى الأميرات الصغيريات وهن يحاولن مساعدة أمهن (من جمعية
الاستكشافات الأثرية لمصرية) — شكل رقم (٩٣)

نهاية إخناتون الغامضة

كانت أياما عصيبة على كهنة آمون والمتدينين عموما وهم عموم الشعب المصري، فعلامات الساعة تقترب، ويعلو عرش مصر آمنحتب الثالث كاسراً كل القواعد فهو من أم ميتانية هي (موت أم ويا)، ثم يزيد الأمر سوءاً فيتزوج بدوره من ميتانية، بل ويجعل من زوجته الميتانية تى الملكة العظمى ويسدل ستاراً كثيفاً من النسيان على الأميرة الطفلة سيت آمون صاحبة الحقيقة للعرش حسب القوانين الإلهية المقدسة السرمدية.

ثم يأتى ولده إخناتون بدوره من أم ميتانية هي الملكة (تى)، ثم يسير سيرة أبيه فيتزوج نفرتيتى، ليسمياها اسما على مسمى، لأن نفرتيتى الاسم المصرى الذى أطلقه عليها الفرعون، ويعنى الجميلة آتية، والتي تشير إلى مجيئها من بلاد أخرى. وإذا كان آمنحتب الثالث قد استجد بكهنة مرتشين بنى لهم معبد آمون بالكرنك لينقش له رجاله المخلصون على واجهته قصته المصورة عندما أنجبته أمه (موت أم ويا) من الإله آمون مباشرة، فإن ولده إخناتون جاء بقصة أخرى تماما، واتخذ أسلوبا مخالفا تماما، فقد قام بنفى آمون نفسه وبطانته وقوانينه المقدسة ثم كل الآلهة دفعة واحدة لينصب ربه آتون وحده ربا للجميع طوعا أو كرها. ولكنه كان قد حاز مبكراً الرفض من قبل كهنة آمون لأنه بميلاده ذاته كان يشخص قمة مخالفة القوانين الإلهية بل وتسبب العرش وبه تلك المعايير الأصيلة فى بذرته.

وحول الشك فى شرعية حكم إخناتون يقول أحمد عثمان: "أحب آمنحتب الثالث تى ابنة وزيره يويا وتزوجها فى السنة الثانية لحكمه وجعلها ملكة على مصر، خروجا على التقاليد المصرية التى كانت لا تمنع الملك من اتخاذ أى عدد من الزوجات. لكن الملكة التى تلد ولى العهد يجب أن تكون هى الوريثة الشرعية أى الابنة البكر للملك السابق .. ولأن آمنحتب الثالث لم يلتزم بهذه التقاليد، عندما أصر على اعتبار تى وليست أخته سيت آمون هى الملكة، رفض الكهان اعتبار الولد الذى تلده تى ابنا شرعيا لآمون. وكان أن اختفى ابنها الأول تحتس فى ظروف غامضة، بعد أن عينه أبوه وليا للعهد بمدة قصيرة، ولذلك عندما حل موعد ولادتها الثانية فى العام الثانى عشر لآمنحتب تركت القصر الملكى .. وذهبت لتعيش فى القصر الصيفى فى زارو [أو ثارو أو شارو أوسيله / المؤلف] . وكان أول ما نسمع عن ابن تى أنه وصل إلى العاصمة طيبة عندما كان قد بلغ ١٦ عاما. وبحسب الاعتقادات المصرية فإن آمون يرفض الحلول فى جسد الملك إذا لم تكن زوجته هى الوريثة الإبنة البكر للملك السابق. وعلى ذلك فإن ابن تى لا يعتبر ابنا لآمون ولا يحق له الجلوس على العرش .. لكن آمنحتب الثالث تجاهل كل هذه التحذيرات وأشرك معه ابن تى فى الحكم بعد أن زوجه نفرتيتى " (١) .

(١) أحمد عثمان: تاريخ اليهود .. سبق ذكره، ج١، ص ٥٥ : ٥٧ .

وهكذا يذهب أحمد عثمان إلى مذهب المدرسة التي ترى إخناتون قد ظهر فجأة وعمره ستة عشر عاما في طيبة ليشارك أباه الحكم فترة تصل إلى ست سنوات ليموت بعدها آمنحتب الثالث وينفرد إخناتون بالعرش. رغم أن هناك مدرسة نميل نحن إلى الأخذ برأيها نقول إن إخناتون ظهر فجأة ليحكم في طيبة، ولكن بعد موت أبيه آمنحتب الثالث ليحكم بمفرده سبعة عشر عاما وتقدم تلك المدرسة على ذلك أدلة قوية إلى حد بعيد، وأهمها خطابات الملك الميتاني (دوشراتا) أو كما قرأناه نحن (ذو الشرى) التي أرسلها إلى إخناتون تسديه النصيحة بالرجوع إلى أمه الملكة تي لاستشارتها في أمور الدولة وعلاقتها بالدول الخارجية. وهو ما يعنى أن الملك لم يكن قد اكتسب خبرة كافية عند انفراده بالحكم لا يحتاجه إلى رأى أمه. ويعززون رأيهم بما جاء فى إحدى رسائل ذى الشرى وكانت أولى رسائله لإخناتون بعد وفاة آمنحتب الثالث مباشرة. وكانت تتعلق باحتفالات تأبين الملك الراحل. وكان على الرسالة بطاقة تاريخها هو السنة الملكية الثانية، ويذكر فيها أن الملك إخناتون كان فى مقر إقامته بطيبة وهذا يدل على أن إخناتون أقام أثناء سنوات حكمه المبكرة بطيبة، ولم ينتقل إلى العمارنة إلا فى السنة الخامسة من سنوات حكمه. ^(٢) لكن الدليل الدامغ فى رأينا فهو رسالة الملك الميتاني إلى إخناتون يهنئه بارتقاء سنام العرش المصرى ويعزيه فى الوقت ذاته فى وفاة والده، مما يشير إلى التعاقب المباشر للحديث [مات الملك عاش الملك]، وهو ما يعنى أن إخناتون لم يحكم مشاركا لأبيه قبل وفاة والده، يقول الملك الميتاني فى رسالته :

عندما أبلغت بأن أخى نيموريا [كما كان آمنحتب الثالث يعرف فى الألواح المسمارية / المؤلف] قد ذهب إلى مصيره، بكيت فى ذلك اليوم، لقد جلست هناك نهراً وليلاً. فى ذلك اليوم لم أتناول طعاماً ولا شراباً لأننى كنت حزينا وقلت: ليت الذى مات كان شخصا آخر فى أرضى أو أرض أخى، وأخى الذى أحببته وأحبنى كان لايزال حيا لأن حبنا باق كبقاء السماء والأرض. لكن عندما تولى الحكم نابخوريا [الاسم المسمارى لإخناتون ويكتب أيضا نفوريا من اسم العرش نفر خبروا رع / المؤلف] الإبن الأكبر لنيموريا من الزوجة العظمى تى قلت: لم يمت نيموريا إذا كان ابنه الأكبر نابخوريا يحكم مكانه، إنه لن يغير كلمة واحدة من مكانها السابق. والآن يا أخى سوف نحفظ بصدقة أقوى عشر مرات مما كانت فى عهد أبيك ^(٣) .

(٢) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ١٠٣ .

(٣) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ١٢٩، ١٣٠ .

فيما عدا ذلك فإن أحمد عثمان أفادنا بخبر نافع يبدو أنه استنتاج ناجح من جانبه، مع ترك مساحة للقارئ لمزيد من الاستنتاج ليصل إلى أن إخناتون قد استبعد صغيراً من مصر، حيث وضعته أمه على المدينة الحدودية مع سيناء (شارو)، ولم يظهر له ذكر بعد ذلك إلا عندما تربع على العرش. وإذا تصورنا أنه لحماية الطفل من الدسائس والمؤامرات تم استبعاده وهو على حدود سيناء وإلى الجوار من أخوله الميدانيين فإن هذا الاستبعاد لابد أن يكون إلى هؤلاء الميدانيين تحديداً ليقتضى هناك طفولته حتى يفوجه صبياً في السادسة عشرة من عمره.

ونستعيد هنا رواية يوسفوس اليهودي نقلاً عن مانيتون المصري وهو يحدثنا عن فتنة أوزرسيف الكاهن المصري الذي هرب من عين شمس إلى الأسرى المضطهدين من بقايا الهكسوس على الحدود المصرية في مدينة حواريس الهكسوسية، وكيف قام أوزرسيف وأتباعه بفتنة عظيمة زمن فرعون باسم آمنحتب، وأن أوزرسيف استدعى هكسوس فلسطين وعاونهم لدخول مصر في غزوة هكسوسية ثانية.

ويقول لنا يوسفوس أن بقايا هؤلاء الهكسوس أصحاب الفتنة هم الذين أصبحوا بنى إسرائيل بعد ذلك، وأن الملك آمنحتب كان لا يحب الحروب لذلك أرسل ابنه رها مبيس وكان في الخامسة من عمره إلى ملك صديق، وانسحب جنوباً بجنده تحاشياً للحرب ليحلوا ضيوفاً على ملك أثيوبيا. وقضى القدر أن يعيش آمنحتب ومعه ثلاثمائة ألف جندي في هذا المنفى الأثيوبي ثلاثة عشر سنة، عادوا بعدها للقتال وجاء ابنه رهامبيس بجيش آخر من البلاد التي تربي فيها بعد أن بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً واشتركاً معاً في قتال الهكسوس والناس الفاسدين: أوزرسيف ورجاله، وهزمهم وطاردوهم حتى سوريا. وهنا نقف مع اسم آمنحتب كملك يعتبره مانيتون ومن بعده يوسفوس ويوليوس الإفريقي وغيرهم هو فرعون خروج بنى إسرائيل، لنجد أحداث ذلك القص يتوافق مع أحداث تاريخية بين أيدينا إخناتون يغادر البلاد طفلاً ليعود ملكاً على عرشها، وهو ابن آمنحتب الثالث الاسم الذي يلتقى مع آمنحتب في رواية مانيتو، كذلك رهامبيس تم إرساله إلى بلاد صديقه ثم عاد إلى بلاده بجيش ليصبح بعد ذلك ملكاً، وكليهما حكم صبياً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره. ونتذكر الآن اللوحة الوحيدة اليتيمة التي صور فيها ذكر لآمنحتب الثالث، وتصوره راكباً سفينة مما يشير إلى أهمية الحدث وضرورة تسجيل لحظه وداع الأب لابنه المغادر. لكننا نتذكر أيضاً أنه تم محو اسم الابن وكتب محله اسم حور محب / رهامبيس، بعد انقضاء زمن العمارنة ومجئ الثورة الأمونية بقيادة قائد الجيوش حور محب الذي أنهى عهد العمارنة تماماً، ومحي اسم آتون وإخناتون من كل أثر. وضمن ذلك تم محو اسم ابن آمنحتب الثالث وهو آمنحتب الرابع ودون بدلا عنه اسم حور محب. فظهر حور محب بذلك كما لو كان هو الابن المباشر لآمنحتب الثالث، وهو الخطأ الذي وقع فيه جميع المؤرخين القدامى. فبسقوط أسرة العمارنة كاملة (إخناتون، سمنخ كارع، توت عنخ آمون، آي) من التاريخ، أصبح الانتقال يتم من آمنحتب الثالث إلى حور محب مباشرة، وهو الذي ينطق يونانيا رهامبيس، ذلك الذي استبعده آمنحتب غير المحدد؛ أبوه المذكور باسم آمنحتب دون تحديد، وهو طفل صغير، أيام فتنة أوزرسيف في رواية مانيتون الرائع.

ويعود الطفل صبيا ملكيا يافعا يضرب بيد من حديد ليدفع بالخلاف مع الكهنة وقوانينهم إلى أقصى مدى، ويسدد ضرباته لآمون ومعابده ويغلقها ويصادر أموالها، ويهاجم معه كل الآلهة الأخرى، ويعلن أنه الوحيد الذى يعرف الإله الوحيد، وأنه نبي ورسول هذا الإله الذى يلقي إليه بالوحى، وأنه مرسل إلى كل البشر بل وكل الكائنات حتى الجبال. وهو ما يفهم من الحوار المدون فى مقبرة وزيره رعمسيس، حيث يقول إخناتون لوزيره: « كلمات رع ألقيتها إليك، إن الإله علمنى إياها وكشف لى عن خباياها، وهذه الكلمات عرفها قلبى وانشرح لها صدرى »، فيرد عليه وزيره رعمسيس قائلا: إنك الوحيد الذى اختاره آتون لكى يلقي إليه بتعاليمه. والخوف منك يملأ قلوب الناس، والجبال تستمع إليك كما يستمع الناس » (٤) .

ثم إن إخناتون اعتبر نفسه ابنا مباشراً للإله آتون حتى أنكر بنوته لأبيه آمحتب الثالث. وضمن تراتيل إخناتون نستمع إلى هذا الشعور القوى بالنبوة وبالبنوة، حيث كان معنى النبوة هو معنى البنوة المباشرة للإله، إذ يخاطب ربه آتون قائلا:

إنك فى قلبى

وليس هناك من يعرفك سوى ابنك نفر خبرو رع وع
إن رع الذى أطلعته على أسرارك وقوتك .. إنك
أنجبت جلالته كما تتجب نفسك كل يوم دون توقف. لقد
خلقته مثل أشعتك لتجعل حياته مثل آتون .. يا آتون
الحى الوحيد إنك أنت الأبدية والسماء هى معبدك الذى
تشرق فيه كل يوم لتلد ابنك الذى خرج من جسدك ملك
الجنوب والشمال نفر خبرو رع وع أن رع .. إنك أنت
الأبدية وابنك مثلك .. إنك تعمل طبقا لما يخرج من
فمك، إنك تلبي طلباته، إنك تحبه وقد صنعته مثل آتون
.. إبنك الذى خرج من أعضائك. إنك تسمع له وتسمع
لما فى قلبه .. يا آتون الحى الذى يشرق كل يوم لتلد
ابنك الذى خرج من جسدك ملك الجنوب والشمال نفر
خبرو رع وع أن رع . (٥)

القصيصة فيها تمجيد واضح للذات، ولم يجد إخناتون حرجا فى أن ينال صفات آتون الإلهية، وهو ما آمن به وأعلنه للناس، بل يقول لنا المصنوع (سيد توفيق): « كان الشعب يخاطب إخناتون بصفته إلها أو على الأقل فى مصاف الآلهة، فقد أشارت إليه النصوص على أنه الإله الذى خلق نفسه بنفسه، الذى خلق

(٤) أبو بكر إخناتون .. سبق ذكره، ص ١٠٣ .

(٥) سيد توفيق: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٣ .

الأرض كلها .. وهو الذى خلق الإنسان وخلق معه الزمان وحدد عمره .. وهو الأم الذى انجبت كل البشر .. إن إخناتون لم يكن ملكاً فحسب بل ارتفع إلى مصاف الآلهة، فكان له كهنته الذين يقومون على خدمته مثل باقى الآلهة المصرية .» (٦)

نعم كان المصرى القديم يؤمن بقدسية الملك لأنه يحمل فى تكوينه شفا إلهيا فهو لاهوت قبل أن يكون ناسوت، لكن لم يحدث أن أعلن ملك عن ألوهيته وطلب عبادته إلا فى حالات نادرة منها حالة آمنحتب الثالث ثم ولده إخناتون وبعد ذلك لا نجدها إلا عند رمسيس الثانى. وهكذا أعلن إخناتون ألوهيته فى حديث (سيد توفيق) حيث يقول: " وقد أشار جون ويلسون إلى أن ديانة العمارنة كان فيها إلهان رئيسيان: الملك الذى قال هو عن نفسه الابن الجسدى لآتون، وبديل المناظر العديدة التى تمثل على جدران مقابر تل العمارنة يتعبد إلى قرص الشمس الخالد، بينما ينحنى جميع رجال بلاطه وهم يعبدونه. ويعتقد جون ويلسون أن صلواتهم لم تكن موجهة إلى آتون بل كانوا يتوجهون بها رأساً إلى إخناتون. وقد وجه آى الذى أصبح ملكاً فيما بعد حديثه إلى إخناتون قائلاً: ليتك تهبنى عمراً طويلاً سعيداً كأحد المحبوبين منك .. ليتنى أسمع صوتك الجميل المقدس عندما تؤدى ما يسر له أبوك آتون الحى " (٧). ثم يورد لنا توفيق ترنيمة صلاة أخرى يؤديها أحد نبلاء العمارنة لإخناتون مباشرة فيرفع إليه الدعوات قائلاً: " ليتك تجعل ابنك المحبوب إخناتون يعيش معك إلى الأبد، ليفعل ما يحبه قلبك وليرى ما تفعله كل يوم. لانه ينشرح صدره برؤية جمالك، دعه يبقى هنا فى تل العمارنة حتى يتحول لون الأوز العراقى إلى السواد وحتى يبيض الغراب الأسود وحتى تتحرك الجبال وتسير وحتى يجرى البحر إلى النهر، وليتنى أظل أخدم الإله الطيب إخناتون، حتى يمنحنى القبر الذى يعطيه " (٨).

هذا بينما تم تنزيه وتجريد الإله إلى مستوى لم تعرفه العقائد المصرية من قبل، فيقول (شتيندورف): " فى سنوات إخناتون المبكرة كان الإله يصور على الآثار فى شكل آدمى له رأس الصقر مثل رع حور آختى القديم. ثم لم تلبث أن حرمت الديانة الجديدة تصوير الإله على أن توجه العبادة نحو الأشعة المرئية المنطلقة من قرص الشمس .. ومن المؤكد على أية حال أن إله الموتى القديم أوزيريس الأول بين الغربيين [أى حاكم مملكة الموتى فى الغرب / المؤلف] فقد مكانته وحل محله فيها آتون الحى الذى ينثر أشعته على الموتى المباركين فى ساعات الليل. ولكن العادات الجنازية عموماً ظلت فيما يبدو كما هى بدون تغيير " (٩).

نعم كان الإله آمون قد بلغ رتبة عالية من التجريد، فيصفه دوماس على ما بيديه من وثائق مصرية تتحدث عن آمون بأنه « الإله الذى لا يمكن معرفته، إنه ليس خفياً وحسب [كلمة آمون تعنى الواحد الخفى /

(٦) نفسه: ص ٧٤ .

(٧) الموضع: نفسه .

(٨) الموضع نفسه

(٩) شتيندورف: وسيل عندما حكمت. سبق ذكره، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

المؤلف] ولكنه يقع بعيداً عن وسائل البحث البشرى. لقد استخفى عن ذاك الذى خرج منه وهو المصباح الساطع ذو الأشعة العظيمة، إذ لا يرى إلا من خلال شعيرته المحبوبة. وبين نشيد ليدن عمقا روحيا يدعو للإعجاب: إنه خفى بين الآلهة لا يعرف المرء مظهره إنه أبعد من السماء، إنه أعمق من الجحيم، إن أى إله لا يعرف شكله الحقيقى .. إنه بالغ الخفاء حتى أن مجده لا ينكشف. إنه أكبر من أن يفحص وأعظم من أن يعرف. إن المرء ليسقط فى الحال من الرعب إذا تلفظ باسمه الخفى الذى لا يستطيع أحد معرفته ". ويعقب دوماس بالقول: " لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه تجاه هذه القصيدة المعاصرة على وجه التقريب لموسى النبى، من استنارة ذكرى الكلمة التى قالها يهوه: لا يمكن أن يرانى إنسان ويعيش " (١٠) .

وهكذا جاء آتون باسم مجرد يدل على قرص الفرن الشمسى، لكن يبدو أن الاسم (آتون) كان هو الاسم الخفى الذى عثر عليه إخناتون للإله. حيث كان معتقداً أن الله اسما يجب عدم النطق به، وكان ذلك واحدة من العقائد المنتشرة فى مصر حول الإله آمون والإله أوزيريس وفي حالات أخرى وهى الأكثر انتشاراً كانت مع أرباب الشر التى كان يكنى عنها أو يشار إليها باسم إشارة منعاً لحضورها وهو ذات الاعتقاد أساسا فى عقيدة يهوه السيناوى المديانى، لأن يهوه ليست اسم الإله الحقيقى إنما هو إشارة إليه بفعل الكينونة V.TO.BE يكون فهو الكائن فقط.

ونقف هنا مع أحمد عثمان إذ يقول: " إن إخناتون سقط عن العرش بانقلاب تحالف فيه العسكر مع الكهنة، ومع سقوطه فقد ألقابه وأسماء الملكية فلا يستطيع أحد أن يشير إليه باسمه الذى كان يعرف به أثناء وجوده على العرش. أى أنه صار لا اسم له " (١١).

ويعقب (سيد توفيق) قائلاً: " لاشك أن المركزية فى عقيدة إخناتون واقتصارها على شخص الملك كان سببا فى انهيار الديانة الجديدة بعد موت إخناتون عام ١٣٥٠ ق.م تقريبا. وهو لا يزال شاباً فى الثانية والثلاثين من عمره، إذ بموته فقدت الرعية الرمز الحى الذى يتعبدون إليه " (١٢) .

هذا ما كان من رأى سيد توفيق فى السر وراء انهيار ديانة آتون بغياب معبودها الحى، لكن هذا الغياب بسبب الموت كما يقول توفيق أمر فيه نظر ومشكلات عدة، وشكوك كثيرة واضحة. ويعبر شتيندورف عن هذه الشكوك الحادة فى قوله: " إن السنوات الختامية فى حياته كانت حزينة جداً ومريرة فى الواقع. وليس فى مقدورنا أن نحدد طبيعة النهاية التى لقيها وهل مات ميتة طبيعية أم أقصى بالعنف؟ " (١٣) ويقول د. أبو بكر " مات إخناتون واختفى دون أن نعلم ما حدث له فى نهاية عمره. ولو أننا نرجح أن موته حدث نتيجة

(١٠) دوماس: آلهة .. سبق ذكره، ص ١٢٦ .

(١١) أحمد عثمان: تاريخ .. سبق ذكره، ج ١، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(١٢) سيد توفيق: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٤ .

(١٣) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢٢١ .

لمؤامرة دبّرت لقتله. ومما يؤسف له أننا لم نعثر حتى الآن على مقبرته، ونذهب إلى حد التأكيد أنه لم يدفن في المقبرة التي نقرها لأفراد أسرته في التلال الحجرية الواقعة إلى الشرق من مدينة تل العمارنة .. ولعل أهل طيبة .. تخلصوا من إخناتون .. عندما بدأت المؤمرات تحاك من أكثر من جانب، فهناك نفرتيتي الغاضبة الحانقة قد خلا لها الجو، وهناك الأم الملكية تي، وهناك أيضا كهان آمون المنتصرون .. وساد الفساد وانتشرت الفوضى وعم الفقر بعد أن ضاعت المستعمرات المصرية في آسيا وانقطع ورود الجزية^(١٤) ثم يقول " من المعروف أن مدة حكمه لا تزيد عن تسعة عشر عاما ولم نعثر على جثته حتى الآن .. ولا يمكن أن يكون قد عاش أكثر من ثلاثين عاما " ^(١٥) هذا بينما يضع (جاردنر) افتراضات أخرى وتخمينات في شكل سيناريو مفترض يقول: " يمكن تقبل الرأي بأن جسد إخناتون قد مزق إلى أشلاء وألقى به إلى الكلاب. وأما عن اللعنة التي لاحقته بعد موته بقليل فليس من شك فيها، فقد ظل جيلان من بعده يشيران إليه باعتباره: العدو من أخت آتون، وقد هُجرت العمارنة عقب ذلك " ^(١٦) .

وعن زمن إخناتون جاءت إشارات بعد ذلك زمن خلفائه تشير إلى حجم الكراهية التي حملها المصريون لعاهلهم، وحجم الانهيار الاقتصادي الكارثي الذي عاشته مصر في زمنه. فيقرأ لنا عبد المنعم أبو بكر لوحة توت عنخ آمون زوج بنت إخناتون الذي عاد إلى طيبة وربها آمون، يقول أبو بكر " إن اللوحة التي أقامها في الكرنك ونقش عليها نصا طويلا متحدثا فيه عن مشاعره نحو الماضي وطريقته التي اتبعها لمعالجة الموقف لخير ما يفسر لنا ما كانت عليه مصر في هذه الفترة: لقد تهدمت معابد الآلهة والإلهات وأصبحت الأرض شذراً مدراً وأدارت الآلهة ظهرها للبلاد .. وإذا صلى إنسان لإله يسأله النصح لا يأتي إليه أبداً. وإذا دعا الإنسان إلهته أيضاً لا تأتي إليه أبداً. لقد أوديت قلوبهم لأنهم حطموا ما سبق عمله " ^(١٧) .

وعاد البلاط مع اختفاء إخناتون إلى طيبة ليتولى سمنخ كارع العرش لينتله بعد أشهر لا تزيد عن عام أخوه توت ليموت كلاهما ويرتقى العرش (آي) آخر أسرة العمارنة، قبل انقلاب حور محب الشامل والعودة إلى الآمونية الكاملة. ويقول (شيتندورف) عما لحق إخناتون من غضب المصريين: " وتدل الحفائر الحديثة في موقع تل العمارنة على أن خرابها اقترن باضطهاد كل شئ يمت بصلة إلى ديانة آتون. فقد بذلت جهود دؤوبة متعصبة لإزالة كل ما يذكر بالحركة الدينية والشخصية الملكية المسؤولة عن هذه الحركة " ^(١٨) .

(١٤) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ١١٧ .

(١٥) نفسه: ص ٧٠ .

(١٦) جاردنر: مصر الفرعنة .. سبق ذكره، ص ٢٦٢ .

(١٧) أبو بكر: إخناتون ص ١٢١ .

(١٨) شتندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢٢٣ .

والنص الذى يشير إليه أبو بكر يذكره شتيندورف وسيل ويقولان عن الملك توت عنخ آتون الذى عاد إلى دين آمون وعاصمة المملكة طيبة مغيراً اسمه إلى توت عنخ آمون :

والآن حين ظهر جلالته كملك كانت معابد الأرباب والرباب من ألفنتين إلى مستنقعات الدلتا قد سقطت فريسة الإهمال. تهدمت مقاصيرها ونمت فوقها الأشواك وأضحت هياكلها كما لم تكن من قبل. وتحولت المعابد إلى أرض مستباحة فإذا أرسلت القوات إلى زاهى [بلاد الشام / المؤلف] لتوسيع حدود مصر فإن جهودها تفشل، وإذا تقدم أحد طالبا أى شيء من إحدى الإلهات فإنها لا تستجيب له، لأن قلوب الآلهة كانت غاضبة فى أجسادها لأنهم [أى هرطقة تل العمارنة / المؤلف] دمروا ما سبق أن كان .. والآن أدار جلالته شئون بلاده ومصالح الأرضين .. ويطلب كل ما هو مفيد لأبيه آمون .. وأقام جلالته الآثار لكل الآلهة وصنع لهم التماثيل من ذهب جام الخالص وأعاد أضرحتهم إلى ما كانت عليه لتدوم إلى الأبد^(١٩).

وهكذا أمكن لياروسلاف تشيرنى أن يقول: " وبدأ اضطهاد ذكرى إخناتون منذ العهد الملكى لحور محب .. فدمرت أسماؤه الملكية وصوره كما أزيل اسم إلهه آتون التى كانت مدونة داخل خراطيشه الملكية من كل مكان وجدت به .. أما إخناتون فقد احتل مكانه فى التاريخ المصرى بالصورة التى رأته بها أعين كهنة آمون باعتباره عدو أخيناتون الخسئ. أما عهده الملكى فقد أشير إليه بسنوات الخارج أو المهرطق " (٢٠)

ومع عدم العثور على مومياء الملك فى أماكنها المتوقعة، فى مدفنه بتل العمارنة أوبوادى الملوك بطيبة أوبأى مكان آخر. ومع الشكوك التى لحقت مصيره، نجد رأيا آخر أقرب إلى منطق الأحداث، وهو التصور الذى وضعه أحمد عثمان فى سيناريو يقول: " بدأت المؤامرات تحاك داخل الجيش بتشجيع من الكهنة للإطاحة بإخناتون ونظامه. وعندما ازدادت المؤامرات ضده نصحه آى بالتنازل عن العرش لتوت عنخ آمون. وخرج هو من مدينة العمارنة ليعيش فى المنفى. فليس هناك دليل واحد يشير إلى موت إخناتون عند نهاية حكمه، فهو لم يدفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه وسط الصخور المحيطة بمدينة العمارنة. بل إن

(١٩) نفسه: ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢٠) ياروسلاف تشيرنى: الديانة .. سبق ذكره، ٨٩ .

بعضاً من أتباعه ظلوا يذكرون تاريخ كتاباتهم وينسبون لها إلى عصره كأنه لا يزال على العرش. إلا أن اسمه منع تماماً من المصادر الرسمية وكان عند الضرورة يشار إليه بتعبير: باخرو با أخيتاتون ومعناها ساقط أخت آتون / العمارنة « (٢١) .

ويتابع عثمان القول: « وتوجد دلالات على أن مكان المنفى الذى عاش فيه إخناتون كان عند معبد سربيط الخادم فى سيناء. وهى تقع على بعد بضعة كيلو مترات إلى الشمال الغربى من دير سانت كاترين وجبل موسى. وعثر الأثرى فلندرز بترى هناك على تمثال للملكة تى والدة إخناتون. كما وجدت دلالات على استمرار عبادة آتون فى هذه المنطقة بعد أن أصبحت ممنوعة فى وادى النيل » (٢٢) . ويشرح عثمان بقية السيناريو فى قوله: « وبموت آى انتهى حكم العمارنة وجاء قائد من الجيش اسمه حور محب ليصبح آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر. وكان حور محب أول من قضى على بقايا الثورة الدينية فى مصر، وألقى القبض على جميع أتباع إخناتون ووضعهم فى منطقة زارو [أوتارو أوسيله أوشور أو شارو / المؤلف] فى شمال سيناء، بعد أن حولها إلى سجن حربى ومنع أسماء كل ملوك العمارنة من دخول قائمة الملوك. فصارت المصادر الرسمية تضع اسمه هو مباشرة بعد آمنحتب الثالث .. وكان حور محب هو الذى اختار رمسيس ليكون وزيراً له وقائداً للجيش ومسئولاً عن سجن زارو .. وكان رمسيس هذا هو الذى استخدم المساجين من أتباع إخناتون، وكذلك الذين كانوا يسكنون مدينة زارو للقيام بأعمال البناء الشاقة على الحدود المصرية » (٢٣) .

لكن أمر إخناتون وفلسفته ورجاله المثقفين كان أمراً، بينما كان للناس العاديين شأن آخر. فيلاحظ الباحثون فى أركيولوجيا العمارنة أن الناس كانوا يتعاملون مع التعاويذ الخزفية القديمة ويتزينون بها (٢٤)، وهو مايؤكد ياروسلاف فى تقريره: « بالنسبة لعامة الشعب والطبقات الدنيا فإن السمو الفكرى لمبادئ إخناتون عزلتهم عنه وزادتهم التصاقاً بمعتقداتهم القديمة، ففى حى العمال فى العاصمة الجديدة اخت آتون وجدت أدلة .. أثرية على عدم تركهم لأى من آلهتهم القديمة الرئيسية منها أو الصغرى، مثل المعبودة توريس Toeris التى كانت تصور فى هيئة فرس البحر (يعنى فرس النهر/ المؤلف)، والإلهين بس Bes وشد Shed وكذلك الإلهتين حتحور وإيزيس » (٢٥). لهذا عقب جاردنر على استبعاد عالم الحساب الأخرى فى عقيدة أوزير بقوله عن مذهب إخناتون « كان هناك عيب فى المذهب هو حاجته الكاملة للتعاليم الأخلاقية، ويرجع سبب ذلك إلى حد كبير من غير شك إلى إقصاء أوزيريس .. وإنه ل يبدو كذلك أن عقيدة إخناتون لم

(٢١) أحمد عثمان: تاريخ .. سبق ذكره، ج ١، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢٢) نفسه: ج ١، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢٣) نفسه: ج ١، ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢٤) أحمد قدرى: المؤسسة العسكرية .. سبق ذكره، ص ١٥٢ .

(٢٥) ياروسلاف: الديانة .. سبق ذكره، ص ٨٧ ، ٨٨ .

تتغلغل إلى ضمير الجماهير. ولقد كشفت قرية العمال في العمارنة عن آثار متعددة للعبادة القديمة ومن بينها تماثيل للإله بس على شكل القزم وللعين المقدسة لحورس وغيرها « (٢٦) » .

لكن الغريب والمتناقض هنا أن إخناتون كان يجلس أوزيريس ويقدسه بشكل ما غير واضح، حيث أنه قد هيا في تخطيطه مدينة اخت آتون في السنة السادسة من حكمه مدفنا للعجل المنفى أبيس رمز أوزيريس (٢٧).

وبهذا الشأن يقول جاردنر: « .. وهناك إشارة غريبة جاء فيها أن عجل منفيس في هليوبوليس [عين شمس] يجب أن يدفن هو كذلك في مدينة آتون، وهي دلالة أخرى على اعتماد الآتونية الجديدة على واحدة من أقدم العبادات الدينية في مصر » (٢٨) .

والمعلوم أن أبيس هو صورة روح أوزيريس وهو شعار أوزير المقدس (٢٩)، هذا رغم أن إخناتون استبعد عالم أوزيريس الخالد ومسألة الحساب والثواب والعقاب والجنة والجحيم، وكان أقصى ما يضمنه آتون لعباده المخلص هو ذات الضمان التوراتي قبل ظهور العقيدة الأخروية في أسفاره الأخيرة « فلنضمن لى حياة طويلة وسعيدة كأحد أتباعك ولتجعلنى أحظى بدفنة جيدة .. ولتسمح لى أن استمع إلى صوتك العذب فى المعبد حين تؤدى الصلاة لوالدك آتون » (٣٠) ويقول عبد المنعم أبو بكر: « لم يخصص أهل العمارنة جبانة لمقابرهم على الشاطئ الغربى للنيل كما هى العادة عند المصريين القدماء الذين اعتبروا الغرب المكان المخصص للموتى. بل أن كلمة الغرب فى اللغة المصرية كان قد استقر استعمالها للتدليل على الجبانة، وكانت مقابر العمارنة منقورة [بالحفر / المؤلف] فى التلال الصخرية التى تحد المدينة من ناحية الشرق. ولا بد وأن هذه الظاهرة ترجع إلى أن ديانة آتون جعلت للشرق أهمية تفوق الغرب، إذ هو المكان المقدس الذى يشرق منه الإله » (٣١).

وما يبدو لنا هو أن إخناتون قد غرض النظر عن بعض العبادات المصرية التقليدية التي تواجدت مع عمال تل العمارنة، ودون أن يشير إلى تلك الديانات، ولجأ إلى إهمالها تماما، لكن ذلك كان يعنى وجود جماعات أوزيرية واضحة فى العمارنة.

(٢٦) جاردنر: مصر الفرعونية .. سبق ذكره، ص ٢٥٦ .

(٢٧) ليوولين جريفث: الا انقلاب الدينى فى مصر، ترجمة عبد الرحمن صدقى ودرينى خشبة، النهضة المصرية، القاهرة،

د.ت، المجلد الثانى من تاريخ العالم، ص ٣٨ .

(٢٨) جاردنر: مصر الفرعونية .. سبق ذكره، ص ٢٤٨ .

(٢٩) إيفانز: هيرودت .. سبق ذكره، ص ١٢٤ .

(٣٠) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٧ .

(٣١) نفسه: ص ٨٧ .

إلا أن أهم الأرباب فى تل العمارنة بعد (آتون) مباشرة كان إله الريح (شو) الهواء القديم المعروف، لكنه فى العمارنة يصبح أحد أسماء وتجليات الإله آتون، فقد حمل الإله آتون فى اسمه الجديد الذى أعطاه له إخناتون مجموعة أسماء وألقاب هى:

الحى رع حور آختى رب الأفق الذى يبتهج الأفق باسمه
شو الذى هو آتون

ويعقب ياروسلاف تشيرني على: كيف يكون (شو) هو (آتون) بقوله: « ليس من السهل فهم هذا التعريف »^(٣٢). لكنه يصبح واضحا حسب نظريتنا إن تذكرنا أن إخناتون قضى طفولته بعيداً عن مصر فى بلاد مديان مع أخواله، وأن هناك كان الأدون أو السيد يهوه، أو هوا، أو هفا، وكان ربا للهواء والريح. ويصف إخناتون نفسه بقوله إنه « الكاهن الأول لرع حر آختى المتهلل فى الأفق باسمه ضوء الشمس شو الذى هو آتن »^(٣٣).

ويتكرر (شو) أكثر من مرة حتى فى طقس تقديم القرابين فى العمارنة « وفى مقبرة آى نقش جدارى ملفت للنظر نرى فيه كلا من إخناتون ونفرتيتى وهما يقدمان القرابين للإله. وكان كل قربان عبارة عن الاسم الثنائى للإله آتون مكتوبا داخل خرطوشين .. وفى الجانب الذى يظهر فيه إخناتون من هذا المنظر نرى رسما للإله شو إله الهواء وعلى رأسه الريشات الثلاث التى تميزه »^(٣٤).

ورغم أن جاردنر يؤكد أن كلمة آلهة كانت محرمة فى العمارنة^(٣٥)، إلا أن ما يحدث هناك من خلط يجد تبريره فى عقائد مدينة عين شمس، مدينة رع حر آختى رب الشمس المعروف اختصاراً باسم رع، حيث عبروا عن ذلك الدمج الإلهى بنظرية تتلخص فى قانون إيمان بـ « رع الذى يعيش فى شكل حورس الأفق الذى يبتهج فى أفقه باسمه شو الذى هو آتون ». وغنى عن التذكير أن قائد جموع الخارجين فى قصة يوسفوس كان ينتمى باسمه إلى أوزير فهو أوزيريس، وأنه كان كاهنا مصرياً فى عين شمس. ثم لا يفوتنا تذكير آخر وهو أن تحتمس ابن آمنحتب الثالث الذى قالوا أنه مات صغيراً، وافترضنا أنه ربما كان ذات إخناتون، قد قضى شطراً من حياته بعد عودته من مديان فى عين شمس يدرس لاهوتها وفلسفة ربها رع. لذلك كان أول إعلان له بعد تتويجه ملكاً هو تلقب نفسه « الكاهن الأول لرع حور آختى »^(٣٦).

ورغم الاهتمام بالأوزيرية - ربما لوجود فريق أوزيرى كبير حليف حرص إخناتون على دوام حلفه، فإن سامسون تقول لنا « وفى المقبرة الملكية التى حفرها إخناتون لنفسه ولأسرته فى صخور تل العمارنة، لا نجد

(٣٢) ياروسلاف الديانة .. سبق ذكره، ص ٨٢ .

(٣٣) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٤٤.

(٣٤) جوليا سامسون: نفرتيتى .. سبق ذكره، ص ١٥٤ .

(٣٥) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٥٥ .

(٣٦) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢٠٤ .

آية إشارة في النقوش إلى الإله أوزيريس ولا إلى طقس من طقوسه أو من طقوس وشعائر العالم السفلى " (٣٧).

وإذا كان أتباع إخناتون بشكل عام من الطبقات المتواضعة تماماً، فإن سجلات العمارنة جرت على شرعة التوراة التي لا تذكر سوى الرجال الذكور وتهمل عادة الأولاد وتهمل تماماً ذكر الزوجات والنساء، فيقول لنا (جر يفت) " وقد خلت مدونات رجال الدولة من ذكر أنسابهم .. أن الزوجة والأولاد كان ينذر أن يرد لهم ذكر في مقبرة من مقابر أخيتاتون " (٣٨).

وكما ظهر آتون مع تحتمس الرابع جد إخناتون فقد ظهر معه أيضاً ردة عن آمون واقترباً واضحاً من الإله رع، ويقول (جريفث) " ومع أن الرب المشترك آمون كان رب طيبة والدولة، فإن الرب الذي كانت تفضله الطبقة المتعلمة وتؤثره هو رع لا آمون " (٣٩). ويقول عبد المنعم أبو بكر عن نبوءة أبو هول الجيزة - وهو أحد الآلهة الشمسية في عقيدة عين شمس - لتحتمس الرابع بتولى العرش: " والواضح أن كهنة رع كانوا من وراء قصة الرؤيا وأنهم قد نجحوا في تحويل ذلك الأمير [أى تحتمس الرابع / المؤلف] من عقيدة آمون إلى عقيدة رع الشمس، بعد أن أشعروه بمدى مناصرتهم له إذا هو انحاز إليهم، وعاونهم على التقليل من شأن إله طيبة .. ونجحت المحاولة وترجع تحتمس الرابع على عرش البلاد وأخذ يشيد بمناقب رع متغاضياً عن آمون. ولعل أقدم البشارات بقرب ظهور مذهب جديد أو تصور جديد عن إله الشمس ترجع إلى عهد هذا الملك. ومن هذه التباشير تصوير قرص الشمس تمتد منه ذراعان تنتهيان بأيدي بشرية تحيطان بالملك وتحميانه وتغدقان عليه النعم. وهو ذات التصوير الذى اختاره إخناتون فيما بعد لإلهة آتون مع تحويل يلائم عقيدته. بل عثر على اسم آتون نفسه مذكوراً على جعل سجل عليه الملك تحتمس الرابع تمجيداً لذاته وإشادة بياسه وقوته وجهاده فى سبيل إخضاع الشعوب وجعلهم من رعايا آتون " (٤٠).

ولمزيد من التوضيح حول نبوءة عين شمس ودورها الفاعل فى السياسة المصرية القديمة، ما جاء فى قصة تولى تحتمس الرابع العرش دونا عن أشقائه الأربعة، فيقول عبد المنعم أبو بكر: تولى عرش مصر أمحتب الثانى [السابع بين ملوك الأسرة الثامنة عشرة] وكان قد أنجب خمسة أبناء بعث بهم إلى منف العاصمة القديمة التى أصبحت فى عصر هذه الأسرة مقر قيادة الجيش. وكان العرف قد جرى إبان هذه الفترة على إيفاد أمراء البيت المالك إلى هذه المدينة ليتلقوا ثقافتهم العسكرية فيها، ويأخذوا بأسباب العلم والمعرفة، ويتعمقوا فى شئون اللاهوت المصرى فى جامعة أون / هيلوبوليس [عين شمس] القريبة منها. ويبدو أن علماء هذه الجامعة وهم فى نفس الوقت كهان رع صاحب الدين القديم، كانوا حاولوا منذ تداعى سلطانهم التأثير على قلوب من يفد إليهم من الأمراء وإغرائهم بالانقاف حول راية إلههم والدعوة له دون

(٣٧) جوليا سامسون: نفرتيتى .. سبق ذكره، ص ٨٦ .

(٣٨) ليوبولين جريفث: الانقلاب الدينى .. سبق ذكره، ص ٤٢ .

(٣٩) نفسه: ص ٣٣ .

(٤٠) أبو بكر إخناتون .. سبق ذكره، ص ٦٦ ، ٦٧ .

آمون، عساهم أن يسترجعوا من وراء ذلك بعضاً من سلطتهم السياسية القديمة، ويعيدوا إلى معابدهم مجدها القديم .. وأن أحد أولئك الأمراء الخمسة ولم يكن أكبرهم سناً بمعنى أنه لم يكن صاحب الحق الأول في تولي العرش بعد أبيه مال إلى الاستجابة لدعوتهم . ليس اقتناعاً بها بل على شريطة أن يؤيده في ارتقاء العرش دون إخوته بعد موت أبيه. ذلك هو تحتس الرابع الذي تلاقى مصالحه مع أهداف كهنة هيليوبوليس وارتقى العرش مسجلاً قصة الرؤيا على لوحة كبيرة من الجرانيت لا تزال قائمة في مكانها الأصلي بين ذراعى أبي الهول بمنطقة أهرام الجيزة. وهى إحدى القصص التى يحاول فيها الكهان تأكيد رضا أحد الآلهة عن شخص معين واختياره إياه ليكون ملكاً على مصر (٤١) .

ومن جانب آخر تظهر تلك القصة أن أبا الهول قد أصبح محلاً للوحى والتنبؤ وأنه كان له كهنة مكرسين لهذا الغرض تحديداً .

أما تحتس ابن آمنحتب الثالث، الذى ظنناه هو ذات إخناتون، فقد أرسل إلى عين شمس ومنف فترة من عمره ربما قبل التقائه العرش بفترة وجيزة، وتقلد هذا الصبى هناك بأمر ملكى منصب كبير الكهان هناك.

وينسأل كورت زيته U. Sethe : هل الصدفة وحدها فقط هى التى جعلت اسم آتون يشمل كل الرموز الخاصة بعبارة وتنتطق (ات . إن . رع) أو (آتون رع) وفى هذه الحالة يجب أن يكون معناها والد رع أو أبورع (٤٢) ، والاب يبنى عنه بالسيد وبالرب ورب الأسرة، والرب آدون السيناوى المديانى كان كذلك فاسمه يعنى السيد والرب والأب، إن آتون إذن كانت تعنى الأب وهو (أبورع) ولو قرأناها سامياً حسب خريطة اللغة حينها قياساً على (أبو مالك) حاكم جرار مثلاً زمن إبراهيم وكان ينطق أبى مالك، فيجب نطق (أبو) هنا (أبى) أو (أبى رع). و (أبى رع) أو (أبيرا) يجب أن ترتبط بفئة الأبيرو أو العابيرو أو الخابيرو، ويصبح معنى الاسم أصحاب أبى رع، وأبى رع أو أبيرا هو آتون، وآتون هو النداء الذى يتوجه به الإسرائيلى حتى اليوم ينادى ربه (آدوناي). فليست كلمة العابيرو إذن من عبور النهر كما اتفقت دواوين أصحاب التوراة، إنما من انتمائهم لعقيدة أبيرا. ربما (!؟).

وإذا كان جبل كاترين فى سيناء المديانية حسبما افترضنا جبلاً بركانيا يقذف بالحمم ويتفجر فى هيئة المشروم أو القضيب الذكرى، فقد كان بالإمكان تصور أنه هو الذى يلد النجوم والكواكب التى تخرج نحو السماء مع كل دفعة تفجيرية، ويمكن أن يكون والداً للشمس رع، وهو ما يضيف تخريجاً جديداً لتفسير : لماذا كان المصرى يعتبر بلاد بونت التى تقع فى الشرق أرضاً للإله الذى يلد الآلهة أو (أبى را) أو (والدرع). وكان البركان أيضاً هو (الآتون) فمعنى آتون واحد فى المصرية والسامية فكليهما يعنى مركز النار المشتعلة فهو آتون رع أو إت إن رع / والدرع. وهل من ولد رع سوى الكلمة الخالقة والفعل الخالق الأول / الذى

(٤١) نفسه ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٤٢) Sethe. K, Bitrage Zur Geschichte Amenophis IV in kgl. Ces.d. Wiss Machrichten philist, Klasse ١٩٢١, Heft ٢.

رسمه المصريون فى شكل ريش وعصافير إشارة لهواء رع تتفسه لأنه (هو) الذى لاسم له، الخالق الأول المعنوى.

أوديب وإخاناتون

علاقة إخاناتون الفرعون بأوديب الملك

فى عام ١٩٦٠م انتهى إيمانويل فليكوفسكى من تدبيح عمله غير المسبوق « أوديب وإخاناتون »، الذى أوجز المسألة كلها فى فقرة تقول: « لم يكن إخاناتون موحداً أولاً، ولم يطلق عليه من خلفه من فراعنة لقب المجرم من جراء محاولاته فى ميدان الإصلاح الدينى، ولكن من جراء خطيئة أخرى تسردها صفحات هذا الكتاب » (١).

يؤسس فليكوفسكى عمله على أسطورة يونانية عمرها الآن حوالى ٢٧٠٠ سنة، هى أسطورة أوديب الذى قتل أباه وتزوج أمه، التى وصلت إلى المؤلفين اليونان، فسلوها لنا فى شكل مسرحيات كتبها إيسخوليوس وسوفوكليس ويوربيدس. وقد استند العالم النفسى سيجموند فرويد إلى أسطورة أوديب لتفسير عقدة نفسية أعطاها اسم بطل الأسطورة، فهى عقدة أوديب التى تفسر لنا الرغبة الباطنة عند الإبن الذكر فى الاستحواذ على أمه وقتل أبيه.

وقد ذهب البعض إلى أن شخصية أوديب شخصية تاريخية حقيقية، وحاولوا نبش الأرض وراءها، لكن جميع الحفريات ذهبت هباء دون أى أثر يشير إلى مملكة بيت الملك لاويوس والد أوديب، وكانت أقدم إشارة لأسطورة أوديب قد وردت فى أوديسة هوميروس حوالى ٩٠٠ ق.م أو قبل ذلك.

وتتلخص الأسطورة كما وردت لدى هؤلاء الكتاب فى أن الملك لاويوس ملك طيبة اليونانية، لم ينبج وريثاً للعرش من زوجته يوكاستا، وعندما تحقق حلمه وحملت زوجته، جاءته نبوءة كهنوتية تقول: إن الطفل الذى سيولد سوف يقتل أباه ويتزوج أمه. ولتفادى الكارثة استلم الطفل خادم بالبلاط وحمله إلى أرض صحراوية قاحلة، بعد أن تم تقب قدمى الطفل. لكن راعياً بتلك الصحراء يعثر على الطفل أو يتسلمه من الخادم، فيربيه فى بيته، ويعجب ملك كورنثة بوليبيوس Palybus وزوجته ميروبي Merope بالطفل فيتبنياه، ويطلقان عليه اسم أوديب، أى القدم المتورمة، وينشأ الطفل معتقداً أن الملك بوليبيوس أبيه وأن الملكة ميروبي هى أمه.

ويشب الصبى ويحضر حفلاً بالقصر، لكن أحد المدعوين تنذّ عنه ملحوظة تشكك فى صحة نسب أوديب، فيرحل أوديب لاستشارة المعبد، فيعلم أن قدره هو أن يقتل أباه ويتزوج أمه، فيقرر أوديب ألا يخضع لهذا القدر ويهرب من كورنثة جميعاً، حتى لا يقتل بوليبيوس الملك، ظاناً أنه أبيه.

(١) فليكوفسكى: أوديب وإخاناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة بالمشاركة مع دار الكاتب العربى، القاهرة، د. ت، ص ٦.

ويقترّب أوديب من حدود مملكة طيبة وطنه الحقيقي عند تقاطع للطرق، ليلتقى بأبيه الحقيقي (لايوس) وتحدث مشادة وهو لا يعرفه، فيقتل أوديب أباه (لايوس) ويستمر في سيره نحو طيبة.

وعند مشارف طيبة كان يكمن الوحش (أبو الهول الأثني / سفنكس)، المجنح، وكان أبو الهول يستوقف المارة ليلقى عليهم بالألغاز، فإن لم يحل المار اللغز هجم عليه السفنكس وخنقه، ويلقى السفنكس لغزه الجديد على أوديب، فيحله أوديب ببساطة، وهنا يصاب السفنكس بالهزيمة والحسرة، فيلقى بنفسه من فوق الصخور منتحراً، وهنا يهتف سكان طيبة للشباب الذي خلصهم من الوحش، فيتزوجونه ملكاً عليهم بعد مقتل ملكهم (لايوس)، الذي هو أبو أوديب الحقيقي، ويزوجونه من ملكتهم يوكاستا التي هي أمه، تعبيراً عن عرفانهم له.

وينجب أوديب من يوكاستا طفلين هما بولينيكس Polynices وأتيوكليس Eteocles وطفلتين هما أنتيجوني Antigone وأسميني Ismene، لكن فجأة تحدث جائحة أو كارثة في البلاد في شكل مجاعة أو وباء، وعند استشارة الوحي أجاب أن بالمدينة شخص أغضب الآلهة فأرسلت بسخطها على طيبة، فهذا الشخص قد قتل أبيه وتزوج أمه، وكى تهدأ الآلهة لابد من عقاب المجرم.

ويقوم الملك أوديب بنفسه يبحث ويدقق ويستجوب الناس، حتى يصل إلى الخادم الذي حمل أوديب صغيراً وإلى الراعي الذي أنقذه، لتتضح الحقيقة بالتدريج ويعلم أوديب بما حدث، فيفقد عينيه عقاباً لنفسه ويتخلى عن العرش ويترك المدينة طريداً، بينما تشنق أمه يوكاستا نفسها، في الوقت الذي أدى فيه (كريون) شقيق يوكاستا وخال أوديب، دوراً بارزاً في إدانة أوديب وعقابه.

ثم يأتي القسم الثاني من الأسطورة ليقول لنا أن أنتيجوني إنة أوديب قد صحبت أباهما الأعمى في منفاه، بينما تربع الابن الأكبر بولينيكس على العرش بشرط أن يخليه لأخيه الأصغر أتيوكليس بعد عام، ويتناوبان الحكم سنة بعد سنة، وكان (كريون) هو من وضع تلك الصيغة، وعندما يحين الوقت ليتخلى أتيوكليس عن العرش لأخيه الأكبر بولينيكس، يرفض التنازل بتحريض من كريون الذي كان حاكماً فعلياً من وراء ستار.

وهنا يقوم الابن الأكبر بولينيكس بضرب الحصار حول طيبة بمعونة جيش حميه أدراستوس Adrastus ملك أرجوس. وعند أبواب طيبة السبعة، يلتقى سبعة قادة من كل جانب في قتال منفرد، ويلتقى بولينيكس بأخيه أتيوكليس ويقتل كل منهما الآخر، لتتحقق عليهم لعنة أبيهم أوديب بعد أن سبق وطردوه من المملكة.

ويحرم كريون دفن الابن الأكبر بولينيكس لأنه استعان بالأجانب ضد وطنه، ويعلن أن من يدفنه سيلقى عقابه موتاً بطيئاً. وفي الوقت نفسه يأمر بجنائز فاحرة ومقبرة فخيمة للأخ الأصغر أتيوكليس. ويقوم بنفسه بالإشراف على تلك الجنائز، العظيمة، تكريماً لصاحبها، لكن أنتيجوني ترفض الامتثال لأوامر كريون الجائرة وتقوم بدفن أخيها بولينيكس، فيحكم عليها كريون بالحبس في كهف هو مقبرتها حتى تموت.

وعندما يأتي الجيل التالي، يقوم أبناء القادة السبع من مملكة أرجوس بحصار طيبة مرة أخرى، وهم الذين أطلق عليهم لقب السلالة: Epigoni فينجحوا في الاستيلاء على طيبة. وهكذا حلت اللعنة على طيبة

وبيت الملك لايوس، لسبب أعلنه الآلهة، لأن لايوس هو أول من أدخل اللواط إلى بلاد اليونان، عندما عشق الشاب خريسبوس Chrysippus واغتصبه.

وفى روايات أخرى متأثرة غير المسرحيات الثلاث التى تختلف فى بعض التفاصيل، نجد أوديب ينجب أولاده ليس من أمه ولكن من زوجة أخرى تدعى أوريكانيا Euryganeia، وفى رواية ثانية أن بعض الأطفال كانوا من يوكاستا وبعضهم من أوريكانيا، ثم رواية ثالثة تقول بزوجة ثالثة لأوديب باسم استيمدوسا Astymedusa .

وبينما يذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القصة هى مخلفات رمزية لحروب تاريخية حدثت بين ملوك طيبة وأرجوس، فإن آخرين مثل (ريجلان) يجدها أسطورة نمطية نموذجية متكررة فى قصص الأبطال لدى شعوب مختلفة، وهو النموذج الذى يشتمل على عدد من العناصر الأساسية هى كالتالى:

- ١- أم البطل عادة ما تكون عذراء أو لا تكون .
- ٢- تكون من أسرة مالكة وعادة ما يكون الأب من أقرباء الأم.
- ٣- تحيط بالحمل ظروف غير طبيعية وقد يشاع أنه إله أو ابن إله .
- ٤- عند ميلاد الطفل تحدث محاولات متعددة للقضاء عليه، وعادة ما يدبرها الأب أو الجد للألم أو الوصى على العرش.
- ٥- يتم تهريب الطفل ليربيه أبوان بديلان، ولا يُذكر لنا شئ عن تفاصيل طفولته هناك.
- ٦- يحرز الطفل فى سن الشباب تفوقا ملحوظا، وربما تمثل فى قتل وحش أو عملاق أو ملك ظالم.
- ٧- يصبح الطفل ملكا محبوبا لكنه يفقد صلته الطيبة بالآلهة.
- ٨- يتم استبعاده عن المدينة أو يموت موتا غامضا غالبا ما يكون فوق تل مرتفع، ولا يدفن جسده، أو لا يعرف دفنه لكنه يصبح مباركا ويقام له أكثر من ضريح مبارك .
- ٩- لا يخلفه أبناؤه على العرش.

وقد طبق لورد ريجلان هذا النموذج على عدد من الأساطير فوجده يتطابق مع نماذج متعددة، فهو يطابق أساطير: أوديب، تسيوس، رومولوس، هرقل، برسيوس، جايسون، اسكيبيوس، ديونيسيوس، أبو للون، زيوس، موسى، سيجوردو آرثر، روبين هود ... إلخ.

ومن هنا يبدأ فليكوفسكى مشواره، ليثبت لنا أن قصة أوديب التى كانت تترد فى بلاد اليونان القديم، ليست قصة يونانية، وليست أسطورة، إنما هى ترديد لحقائق تاريخية وقعت فى بلاد مصر الفرعونية، وأن بطلها كان الفرعون آمنحتب الرابع المعروف باسم إخناتون.

ويبدأ بالسفنكس، فهذا الكائن الذى يحرس طيبة فى إقليم بيوتيا لم يكن مألوفاً فى بلاد اليونان، لأن أرضه الأصلية هى مصر، وأى صور أو نسخ أخرى له، عثر عليها فى أى مكان، فهى إما مصرية، أو تقليداً للنموذج المصرى. بل أن بيساندر قد قال أن سفنكس طيبة اليونانية هذا قد جاء وافداً من بلاد أثيوبيا، ولم تكن طيبة المصرية فى عمق مصر الجنوبى تحسب عند اليونان من بلاد أثيوبيا. إنما أثيوبيا هنا هى تيوبيا / طيبة المصرية، والاحتمال الأرجح لدينا أن أثيوبيا الحالية المعروفة هى التى اكتسبت اسمها من (طيبة) المصرية.

ومعلوم أن سفنكس الجيزة كان خلال الدولة الحديثة الفرعونية بدءاً من الأسرة الثامنة عشر يعد تمثيلاً للإلهة حتحور وهى تتأهب للقتل، وهو ما أثبتته المصرولوجست (ادوارد نافى)، أما صيغة أبو الهول الأثوى فقد ظهرت فجأة زمن حكم آمنحتب الثالث فى الأسرة الثامنة عشر. ومن اللوحات التى وصلتنا من هذه الأسرة نعلم أنه فى طيبة قد أقيمت تماثيل للسفنكس كان يقدم لها قرابين بشرية.

وعلى الجانب الآخر فإن طيبة اليونانية الواقعة فى إقليم بيوتيا، تُحكى عنها أسطورة تقول أن منشئها هو الملك قدموس الذى هاجر إلى طيبة اليونانية من البلاد الفينيقية، وبهدف التصريف الاسمى فإن الملك يكون (قدم)، وهى صيغة أخرى من (أدم) أو (آدم)، ولا ننسى أن الهكسوس قد احتلوا الجزر اليونانية، وأنهم هجروا الأقوام من مواضعها فى تهجين جنسى متعدد، وقد سميت طيبة اليونانية باسم (طيبة ذات البوابات السبع)، لأن سورها الخارجى كان له بوابات سبع، أما طيبة المصرية فيقال أنه كان لها مائة باب. وغربى طيبة المصرية لم يبق من معبد آمنحتب الثالث الجنازى سوى تماثيله الضخمين اللذين أطلق عليهما اليونان: تماثلاً ممنون، لكن زمن آمنحتب الثالث كانت طيبة سيدة مدن الدنيا، وعند الغزو الآشورى تم نهب طيبة وتدميرها، ثم أحرقها البابليون ثم الفرس بلا رحمة، وظلت منشأتها محجراً لكل من يريد البناء ولصنع الطواحين طوال السنين، تُنزع حجراً وراء حجر، ومع ذلك فإن طيبة على حالها هذا اليوم، تعد أروع ما تقع عليه العين إطلاقاً من أطلال خالدة فى الدنيا جميعاً.

ومن اللوحة التى عثر عليها بين يدى أبى الهول، والتى يصف فيها تحتمس الرابع كيف اختارته نبوءة الإله ليكون ملكاً، نفهم أن كهانة السفنكس قد أصبحوا مصدرراً للوحى والتنبؤ، وقد استنتج B. Bruyere أن كهنة طيبة قد أقاموا فيها عدداً من السفنكس ليدلوا بنبوءة تنافس نبوءة الجيزة. وفى زمن آمنحتب الثالث أصبحت عبادة السفنكس من أشيع العبادات.

ويقول (دسّين A. Dessenne) أنه زمن آمنحتب الثالث وزوجته تى حدث بعض التحوير فى صورة السفنكس، فقد تم تصوير الملكة تى فى صورة أبى هول أنثى، وأضيفت له أثناء المرأة وجناحين، وتم نقشه فى صورة امرأة تمزق ضحيتها، لقد كان سفنكس طيبة اليونانية نموذجاً للسفنكس الذى ظهر زمن آمنحتب الثالث وزوجته تى تحديداً فى طيبة المصرية.

ويلحظ فليكوفسكى كما لاحظ باحثون آخرون المكانة التى وصلت إليها الملكة تى زوجة آمنحتب الثالث رغم أنها من غير أصول ملكية، حتى أن الملك أصدر عدداً هائلاً من الجعارين تعلن هذا الزواج، وزعت فى

أرجاء الأرض المعروفة آنذاك، ثم بعد ذلك بدأ إجراء لم يحدث من قبل في تاريخ مصر، وهو أن القرارات الملكية كانت تصدر باسم الملك وزوجته معه. بل أن الملكة تى رفعت أبويها إلى مكانة مرموقة بالبلاط، وتم دفنهما في وادى الملوك مع الملوك، وكان اكتشاف مقبرة والديها يويا وتويا اكتشافاً فريداً من نوعه بين مقابر مصر الملكية.

ويقول فليكوفسكى نصيا " وقد حملت تى عدة مرات، وولدت إبناً، ولكننا لا نعرف عنه شيئاً، فلم ترسم له صورة ولم يرد له ذكر، إلى أن يأتى عند موت أبيه ويطالب بالعرش، ولكن هناك ثلاث بنات لآمنحتب وتى عشن مع أبويهن وظهرن في صور العائلة ".

ولأن (تى)، أظهرت استيائها من كهنة آمون، لأنهم لم يطلبوا منها القيام بدور الإلهة موت زوجة آمون، في احتفال تمثيلي يقام على سطح بحيرة المعبد المقدسة، أمر الملك بتشغيل مائة ألف رجل ليل نهار، فحفروا بحيرة صناعية في غضون أربعة عشر يوماً فقط. تم ملؤها بالماء وزرعوا فيها السوسن ونقلت إليها الأسماك وأحاطوها بالحدائق. وهكذا أصبحت تى تفوق آلهة الكهنة في مظاهر البذخ والسحر الملكي، حيث كانت مصر في أوج الرخاء، بعد أن تدفقت عليها ثروات العالم المفتوح لمصر آنذاك.

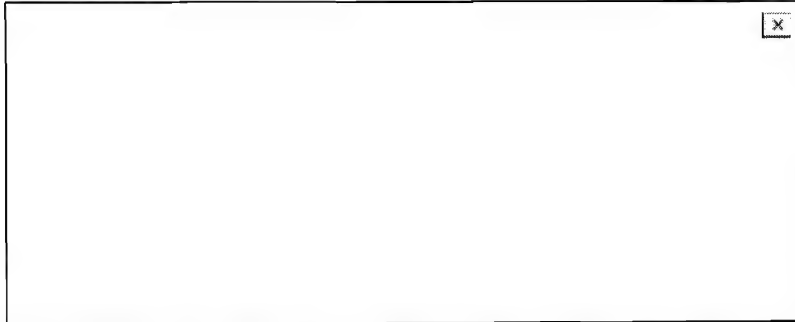
وكلما تقدمت السن بالملك آمنحتب الثالث أصبحت شخصيته أكثر اهتزازاً، ففي نوبة من نوبات انغماسه في الملذات تزوج إحدى بناته، كما أفصح عن بعض النزعات الشاذة، فهو الفرعون الوحيد الذى سمح لنفسه بأن يرسم وهو يرتدى ملابس امرأة.



واحد من أبى هولاء مصر (من معبد بتاح
أبو هول آمنحتب الثانى)
شكل رقم (٩٥)



صاحب النبوءة أبو هول الجيزة أو أبو
الهول الأكبر / السفنكس المصرى وخلفه
الهرم الأوسط (خفرع)
شكل رقم (٩٤)



طريق أبى الهول بالأقصر بمصر القديمة — شكل رقم (٩٦)

وبالمقارنة فإن ما ارتكبه الملك لايوس فى طيبة اليونانية من جرم اللواط لا يبدو غريباً على اليونان، فبينما كانت بلاد الشرق القديم تنتظر للواط على أنه عادة قبيحة وممقوتة، لم يكن الحال كذلك عند اليونان، ففي عصر اسخيلئوس وسوفوكليس ويوربيدس كُتِبَ تلك الملحمة، فى ق ١٥ ق.م، كان حب الأولاد أمراً شائعاً هناك وليس بغيبضاً، حيث امتلأت الآداب بحب الأولاد المحترم جداً. وكانت العلاقة الجنسية بين رجلين شائعة ولم تكن خزياً أو عاراً، بل أن الحكيم صولون أشار لحب الغلمان على أنه امتياز يتمتع به الرجل الحر؟! بل أن الآلهة نفسها كانت تمارسه. ومن ثم أين الجرم الذى ارتكبه لايوس؟ لقد صورت التراجيديات عمل لايوس على أنه خطيئة جلبت على بيته وعلى بلده اللعنة، وأنه لابد من التكفير بصرامة، وهو ما يشير إلى أن موطن الأسطورة الأصلية لم يكن بلاد اليونان.

وفجأة يموت الملك آمنحتب الثالث، ثم نجد الملكة تى هى السيد الحاكم وحدها، وفجأة أيضاً يظهر للملك ابن باسم آمنحتب الرابع، الذى لم يرد اسمه قط فى نقوش أبيه، ولم يذكر كولى للعرش، بل ولم يشر إليه مجرد إشارة، رغم تكرار اللوحات لصور شقيقاته البنات ولأسمائهن، ويتسلم آمنحتب الرابع الذى عرف بعد ذلك باسم إخناتون عرش مصر العظيم.

وفى أرشيف رسائل تل العمارنة توجد رسالة من (رب عدى) أمير بيبيلوس وهو أمير فلسطينى منوب من قبل الفرعون، والرسالة توضح أنه كان يعرف إخناتون من مقابلة تمت بينهما من زمن بعيد، فهو يقول فى خطابه:

ألا تذكر؟ فالآلهة والشمس وبعلات وجوبلا Baalat
Gubla قد قرروا أن تتربع أنت على عرش أبيك وفى
أرض وطنك (٢) .

وفى ذات الزمن يكتب دوشراتا ملك الميتانى لإخناتون يقول:

عندما مات أخى نموريا (اسم العرش للملك آمنحتب الثالث)، أعلنوا هم نبأ وفاته، وعندما أعلنوه وصل إلى مسمعى أنا أيضاً، لقد رحل عن الدنيا .. وبكيت أنا فى ذلك اليوم إذ كان الحزن يغمرنى، ولكن عندما كتب لى نافوريا (اسم العرش للملك إخناتون) الابن العظيم لنموريا من زوجته العظيمة تى، يقول: سوف أبدأ فترة حكمى، قلت: إن نموريا لم يموت، فقد احتل الآن نافوريا ابنه العظيم من تى زوجته العظيمة مكانه، ولن يغير من الأوضاع شيئاً عما كانت عليه من قبل، فإن

١١٦. الخطاب رقم ١٩٣٩، Mercer. S. A. B, The tell-El Amarna Tablets, (٢)

أمه تى التى كانت زوجة لنموريا المحبوب على قيد الحياة، وسوف تخبر هى نافوريا ابن نموريا زوجها، أنه كانت بيننا علاقات طيبة وصداقة حق. (٣)

وقد كتب (دوشراتا) الملك الميتانى إلى إخناتون رسالة أخرى تقول:

وكل كلمة تبادلتها مع أبيك تعلمها أمك تى، ولا يعلمها إنسان سواها، ولكن لك أن تسأل أمك تى عنها، دعها تخبرك كيف كان أبوك على علاقة طيبة بى (٤).

وهو ما يعنى أن إخناتون كان يجهل علاقة أبيه مع الحكام الأجانب، كما كان يجهل العلاقة الخاصة مع ملك الميتانيين، بينما كانت الملكة تى تعرفها حق المعرفة، وهو ما يعنى أن إخناتون لم يكن فى طيبة خلال السنوات التى سبقت موت أبيه. وكذلك أوديب أمضى طفولته وصباه بعيداً عن وطنه، وعندما مات أبوه تولت يوكاستا أمه العرش، حتى أتى أوديب وتولى العرش.

وفى الأسطورة اليونانية نجد كلمة أوديب تعنى ذو القدم المتورمة، وبالنظر إلى الوسيلة الغربية التى عالج بها الفنان جسم إخناتون، نجد رأساً مستطيلاً عجيباً ورقبة نحيفة وبطن متدلى، أما أكثر التشوهات فكانت فى الفخذين، لقد كانا متورمتين منتفختين، مع ملاحظة أن رؤوس أطفال إخناتون كانت مستطيلة بدورها، لكن تورم الفخذين كان خاصاً بإخناتون وحده.

وفى عام ١٩٢٠م نشر طبيبان فرنسيان فى مجلة Revue Neurologique هما ام. أميلين وب. كويرس بحثاً بعنوان: آمنحتب الرابع وعقليته، وافترضوا أنه كان يعانى من نقص المواد الدهنية، أما اليوت سميث أستاذ التشريح بجامعة لندن، والمتخصص فى المومياءات المصرية، فقد علق على البحث الفرنسى بقوله: إن الحالة المفترضة هى نقص مستمر فى المواد الدهنية فى القسم العلوى من الجسم مع تزايد شديد فى أسفل الخصر، وقد قدم باراكوى عام ١٩٠٧م نموذجاً حياً لهذا المرض النادر. لكن الملك اعتبر هذا التشوه النادر خاصية نادرة ومميزة وعلاقة قداسة اختارها القدر، ففاخر به، وطلب من الفنانين رسمه كما هو دون أى تجميل. وإذا كانت أفخاذ إخناتون هى المتورمة وليس القدمين، فإن كلمة pouس اليونانية القديمة فى أوديبوس تعنى القدم والساق، كذلك الكلمة المصرية (رد) تعنى كليهما. لكننا لم نعثر على مومياء لإخناتون على الإطلاق، وكان التشخيص على التماثيل والنقوش واللوحات.

وكثيراً ما تساءل الباحثون عن السر وراء القسوة التى لحقت بأوديب طفلاً، وتقرب قدميه دون مبرر، بينما كان جاردنر يتساءل بدوره عن النعت المستديم المفضل فى كل نصوص إخناتون « ذلك الذى تخلف

(٣) نفسه: الخطاب رقم ٢٩.

(٤) نفسه: الخطاب رقم ٢٨.

ليعيش طويلاً « ليتعجب قائلاً: « ألم يكن من المتوقع أن يعيش إخناتون طويلاً وهو فى عز الشباب؟ »
والإجابة فى أسطورة أوديب، حيث حكم عليه بالموت وهو طفل.

ويفترض (فليكوفسكى) أن آمنحتب الثالث قد استشار نبوءة آمون إبان حمل تى بإخناتون، ولا ريب أن تربية إخناتون بعيداً عن وطنه كان لها علاقة بتلك النبوءة، وأنه ربما تم إيداعه لدى أقرباء آمنحتب الثالث فى بلاد ميتانى، وربما كل ذلك كان وراء عداء إخناتون لكهنة طيبة، وتدميره لنبوءة طيبة، بينما أحاط نفسه بكهنة نبوءة أون / عين شمس.

ثم أنه قد عُثر على بقايا تماثيل محطمة لأبى الهول عند سفح تل قرب معبد حتشبسوت، تم إلقاءها من على التل، بينما محبت تماثيل أبى الهول بانتظام من على النقوش السالفة لعصر إخناتون، وبقيت خطوط باهتة تشير إليها. كما دمرت صور الملك آمنحتب الثالث نفسه، ولا ريب أن كل هذا قد حدث إبان حكم إخناتون، وإن إلقاء تماثيل السفنكس من على التل، وجد صداه فى إلقاء سفنكس اليونان نفسه من على التل، دون أى مبرر واضح لذلك، فالوحوش لا تتحرر لإصابتها بخيبة أمل من لغز تم حله، ولا تلقى بنفسها من التل عن طيب خاطر.

إن (فليكوفسكى) يريد القول أن أسطورة أوديب ما هى إلا ترديد لقصة حقيقية عرفتھا دول الشرق، وأنها حدثت فى مصر، وأن أوديب هذا لم يكن شخصاً آخر سوى الفرعون (إخناتون).

مشكلة بكتاتن

لقب « ذلك الذى تخلف ليعيش طويلاً »، لم يكن القلب الوحيد المميز للفرعون إخناتون، فهناك لقب آخر أينما نجده نعرف أنه يخص إخناتون حتى لو لم نجد اسم إخناتون، هو «ذلك الذى يعيش فى الحقيقة»، وعلى عكس ما يشاع عن إخناتون فإنه تحول عن عبادة آمون باعتباره تجلياً للشمس إلى عبادة قرص الشمس ذاته، فالإله الأوحد الذى عبده إخناتون هو (آتون)، وآتون اسم الشمس المادية ذاتها، لكنه فعلاً كان يبدو داعية سلام فلوحات العمارة صورت فقط الطبيعة الهادئة، وليس بينها لوحة تصور إخناتون وهو يصطاد الحيوانات أو ينفذ حكم الإعدام أو يرمى الأعداء بقوسه. ثم أنه حرر طيبة من الذبائح البشرية التى دخلتها خلال حكم آمنحتب الثانى وتحتس الرابع وآمنحتب الثالث، وفى الوقت ذاته لم نسمع عنه أنه شن حروباً، بل لم يبال بهجوم الخابيرو على ممتلكات مصر فى آسيا منصرفاً إلى نظم شعره ومباهجه العائلية. ويلاحظ أن إخناتون أزال اسم الإله آمون وأبيه آمنحتب الثالث أينما وجدتهما، فكان ناقماً على أبيه، وعلى رب النبوءة، وقد غير الفرعون اسمه من آمنحتب الرابع إلى إخناتون، نقمة على آمون وعلى اسم آمنحتب. لكنه لم يمح اسم آمون من اسمه بعد أن تحول فى منتصف العام الخامس من حكمه إلى عبادة آتون، إنما محاه من اسم أبيه بالذات. وكان بالإمكان قتل أى إنسان فى هذه الحياة، لكن القتل الحقيقى والأبدى فهو إزالة اسم شخص متوفى، فهذا يعنى هيام روحه إلى الأبد، لأن القرين (كا) لن تجد اسم المتوفى لتحل فيه. كما نلاحظ أنه لم يعد يذكر أنه ابن آمنحتب الثالث، بل ابن الإله آتون نفسه.

وفى نقش لإخناتون وجد على لوحة تأسيس مدينته الجديدة (أخت آتون)، نجده يقول:

طالما أبى حور آتن يعيش، فما أكثر شراً من تلك
الأخبار التى سمعتها فى السنة الرابعة، وما أكثر شراً
من هذه الأخبار التى سمعتها هذا العام، وما أكثر شراً
من هذه الأشياء التى وصلت مسمع الملك.

وهو ما يشير إلى صدام مع كهنة آمون الذين ربما أدلوا بحديث لا يرضى الملك، وبالفعل أعلن إخناتون قطعه لكل العلاقات فى العام الرابع من حكمه، وفى هذا العام دمر لوحة أبيه التذكارية ومحاها بوحشية سافرة وهو ما يعنى قتلاً أبدياً، فالميت يسترد حياته فى حدائق النعيم بعد الموت، أما إن قتل وهو بهذه الحقائق فلن يكون له وجود على الإطلاق، وربما كان هذا التصرف سبباً فى احتجاج كهان النبوة الذين اعتبروه قاتلاً لأبيه، وعندما تأزمت الأمور هجر الفرعون طيبة عاصمة مصر الكبرى ليبنى له عاصمة جديدة إلى الشمال، ويسمىها أخت آتون.

والغريب أن إخناتون كان يذكر دوماً أنه ابن تى، لكنه لم يذكر أبداً أنه ابن آمنحتب الثالث، ولولا رسائل تل العمارنة ما كنا عرفنا أنه ابن آمنحتب الثالث، وكما لقب إخناتون نفسه بأنه ابن آتون الشمس، فإن أوديب بدوره قد عُرف بأنه ابن الشمس.

وقد تم العثور فى تل العمارنة على أكوام من الفخار الميسينى اليونانى، حتى أطلق علماء الآثار على أحد شوارعها اسم الشارع الميسينى لكثرة السلع اليونانية به، ومن هنا تم تحديد زمن إخناتون باعتباره كان معاصراً للعصر الميسينى فى بلاد الإغريق.

والواضح أن الفرعون كان محباً للفنون بشدة، فلم يعثر فى مكان آخر على هذا العدد الهائل من النحوت والنقوش، وعادة ما كانت تصويراً له ولعائلته، والوحيد الذى يظهر بهذا الجسد الشاذ وسط بقية البشر الذين تم تصويرهم معه، هو إخناتون وحده، فقط أبنائه أخذن استطالة الرأس البالغة والرقاب النحيلة.

وبين مقابر تل العمارنة المهداة للنبلاء، عثر على مقبرة أعدت لرجل يدعى (بارنفر) من أصل غير نبيل، وكما تظهر لوحاتها فقد أغدق الملك على هذا الرجل امتنان عظيم، وقد عقب المصروlogي الألمانى على ذلك بقوله:

يبدو أن الأفضال قد اغدقت عليه لوجود علاقة قديمة
بينه وبين الملك، فقد قام هذا الرجل بأداء خدمة للملك
عندما كان هذا الملك طفلاً، ويتضح جلياً أن هذا الرجل
كان خادماً بسيطاً، وقد رفع هذا الرجل الذى كان خادماً
بسيطاً، وقد رفع هذا الخادم ذو الأيدى النظيفة إلى

مصاف أعرق النبلاء فى بلدة العمارنة (٥).

وربما كانت هذه الإشارة الوحيدة لطفولة إخناتون، لكنها الإشارة التى تذكرنا بالخادم المخلص الذى حمل الأمير الطفل إلى الموت فى أرض مهجورة فى أسطورة أوديب، لكنه لم ينفذ الأوامر بدقة، فأعطاه لراع وزوجته يرعياه.

وقد حمل (آى) - أقوى رجال الدولة نفوذاً - ألقاباً عدة، رغم أنه لم يكن من أصل ملكى، ومن هذه الألقاب التى حملها وهو فى خدمة إخناتون فى بلدته أخت آتون: أبو الإله أو الأب المقدس كما أن زوجته تاي قد حصلت على لقب المربية العظيمة للملكة، وآى فى رأى فليكوفسكى هو النموذج المصرى الأصلى لشخصية كريون اليونانى، فقد تمتع كريون بعد موت لايوس بمركز مرموق، وكان هو الذى وهب أخته الملكة يوكاستا إلى أوديب، وهو ما يشير إلى مكانة رفيعة فى البلاط. لكنه كان هو نفسه من أجبر أوديب على التخلي عن العرش، وهو نفسه من حكم البلاد بعد موت ولّدى أوديب. وهذا ما يجعلنا نستنتج فى الصورة المصرية أن آى كان أخا للملكة تى، وقد برهن كيرل الدريد على أن آى كان ابن يويا وتويا وشقيقاً للملكة تى، وكان والداً للملكة نفرتيتى، باعتباره قد حمل لقب أبو الإله أى أبو الفرعون الذى يعنى حمو الملك " (٦) .

ومن داخل مقبرة (حويا) (٧) يبدأ فليكوفسكى فى اكتشاف المأساة التى استغرقت زمناً من حياة الأسرة الملكية، حيث تختلف رسوم تلك المقبرة التى بنيت فى العام الثانى عشر من حكم إخناتون عن مثيلاتها فى مقابر أخرى. فالنحوت هنا تصور الملكة الأم تى وقد رسمت بصورة متكررة وهى تؤدى دور المسيطر الفعلى، وعند ذكر مهام حويا وألقابه نجد بينها دائماً: " المشرف على حريم تى أم الملك والزوجة الملكية العظمى ".

والغريب هنا أن تحتفظ تى بحريم لزوجها آمنحتب الثالث، بعد موت هذا الزوج باثنتى عشر عاماً (!) ولماذا يمنحه إخناتون لقب المشرف على حريم تى والملكة أرملة (؟) أم أن هذا الحريم كان حريم إخناتون نفسه؟ لأن مركز هذا الحريم كان مع تى فى تل العمارنة والتى مات زوجها آمنحتب الثالث قبل أن تُبنى، ولابد أن إخناتون هو من ألف لها هذا الحريم، وفى نقش بمقبرة حويا نقرأ وصفاً للملكة تى ومديحا يقول:

المديح والثناء لزوجك ياسيدة الأرضين، يامن جعلت
الأرضين تتألق بجمالك، أيتها الأم الملكية والملكة
العظمى تى، ولتحل عليها البركة بالسرور والبهجة كل

(٥) Frankfort and pendlebury, The City of Akhnaten, part II, ١٩٣٣, p٤٤.

(٦) Aldred. C, the end of El Amarna Period, Journal of Egyptian

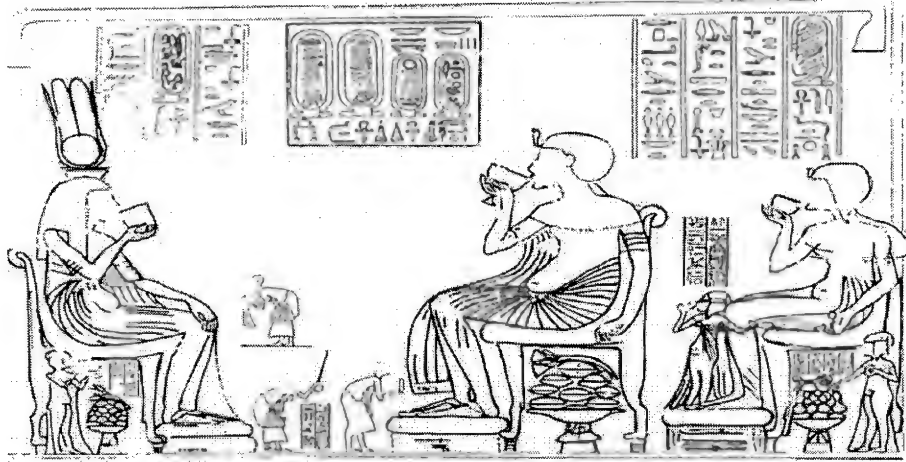
{J.E.A}, ١٩٥٧, p ٣٠ - ٤١ . Archaeology

(٧) حويا وربما (حوى) المشرف العام للملكة تى بعد حضورها لمدينة أخت آتون فى السنة الثانية عشر من حكم إخناتون ولم تستخدم مقبرته للدفن.

وهناك رسمان بالمقبرة يصوران وليمة بالقصر، وفي كليهما يجلس إخناتون مواجهاً للملكة تى بينما تجلس نفرتيتى خلفه، وتجلس أميرتان صغيرتان بجوار نفرتيتى، على حين تجلس أميرة صغيرة هى بكتاتن صغرى بنات إخناتون، بجوار الملكة تى.

وكانت كبرى بنات الملك هى مريت آتن التى تزوجت سمنخ كارع، لكن فى لوحة الوليمة كانت لم تبلغ من العمر أكثر من السابعة، أما شقيقتها التى تظهر إلى جوارها فى اللوحة فقد ماتت صغيرة.

وتظهر ابنتان أخريتان فى لوحات أخرى منهما (عنخ . إس . إن . با . آتن) التى تزوجت فيما بعد توت عنخ آمون، وعداها لا نعرف أسماء. لكن بكتاتن تحديداً لم ترسم إلا فى مقبرة حويا فى لوحة الوليمة ورسوم أخرى، وهو ما أدى إلى استنتاج أنها كانت صغرى بنات إخناتون. وقد عقب فلندر بترى على ذلك بقوله: « عادة ما كان ترتيب الأميرة بكتاتن هو السابعة وأصغر بنات إخناتون، ومع ذلك فهى تظهر فى مقبرة بنيت فى عامه الثانى عشر، أى بعد ميلاد الابنة الثانية بست سنوات، وقد حل بترى المشكلة باستنتاجه أن (بكتاتن) لم تكن صغرى بنات نفرتيتى بل ابنة تى فهى ترتبط بها دائماً وتجلس بجوارها



الطوى والمشروبات المنعشة بعد تناول الطعام (من جمعية الاستكشافات الأثرية المصرية)
شكل رقم (٩٨)

وهى الوحيدة التى تتبع تى فى موكب دينى لا يظهر فيه أطفال آخرون، وهى الوحيدة التى أطلق عليها ابنة الملك، بينما كان يطلق على الأميرات الأخريات: بنات نفرتيتى " (٨) .

هذا بينما استنتج آخرون أن بكتاتن أصغر بنات نفرتيتى لأن أول ظهور لها فى اللوحات كان فى العام الثانى عشر من حكم إخناتون، وجسمها أصغر من جسم انخستياتن الابنة الثالثة للزوجين الملكيين، والمقطع (آتن) فى اسمها هو اسم الإله آتن الداخلى فى تركيب أسماء شقيقاتها، لكن دى جارىس ديفيز اتفق

مع بترى على أن بكتاتن لم تكن بنت نفرتيتى بل ابنة تى وزوجها الراحل آمنحتب الثالث، لكن وجه المشكلة هنا أن بكتاتن كانت طفلة لا تتجاوز الأربع سنوات فى العام الثانى عشر لحكم إخناتون، وكان آمنحتب الثالث قد مات منذ اثنتى عشر عاما، والمشكلة الثانية: كيف حملت اسم آتن فى اسمها قبل ظهور ذلك الإله فى الأسماء فى عهد إخناتون، بعد أن غير الملك اسمه من آمنحتب إلى إخناتون وكذلك بقية أفراد أسرته وفى لوحات الوليمة توصف (تى) بأنها:

الأميرة الوريثة، كريمة فى هباتها، سيدة الرشاقة
خلابة برقة حبها، تملأ جوانب القصر بجمالها، سيدة
الشمال والجنوب، زوجة الملك العظمى التى يحبها
ويقدسها، سيدة الأرضين تى.

وبجوار بكتاتن كتب:

بكتاتن ابنة الملك من جسده، المحببة من نفسه.

لهذا جميعه رأى ديفيز أن اللوحة اليمنى بالمقبرة لا تصور إخناتون بل أباه آمنحتب الثالث، أما اليسرى بالمقبرة فتصور إخناتون وزوجته وأطفاله، وكانت اللوحتان وراء بزوغ فكرة تقول : إن الملك آمنحتب الثالث وولده قد قضيا فترة حكم مشترك وأن اللوحتان صدى لفترة الحكم المشترك تلك، وهو ما أصر على إثباته سيرل آلريد، لكن يبقى الإعتراض. أنه إذا كان إخناتون قد شارك والده الحكم، فهو ما يتناقض مع جهل إخناتون بشئون الدولة، وأن يأتيه نصح ملك أجنبي يحدثه عن العلاقات بين الدولتين إبان حياة أبيه، ولاننسى محو إخناتون لاسم أبيه مما يستبعد فرض الحكم المشترك، إضافة إلى أن بكتاتن تظهر كأصغر البنات فى السنة الثانية عشرة لحكم إخناتون، وبفرض صدق مسألة المشاركة فى الحكم، فإن آمنحتب الثالث ما كان بإمكانه أن يرزق بطفلة بعد وفاته بحوالى ست سنوات.

كما أن اللوحة اليمنى بالمقبرة التى يفترض أنها لآمنحتب الثالث وزوجته تى والطفلة بكتاتن تحمل سمات تؤكد أنها كانت لإخناتون وأمه تى وطفلته بكتاتن، فقد رسم تحت أشعة آتون التى ابتدعها إخناتون، كذلك التكوين الجسدى هو تكوين إخناتون لا أبيه.

وفى نقوش اللوحة اليمنى يترجم ماسبيرو :

الأميرة الوريثة، أكثر من يناله المديح، سيدة رشيقة،
عذبة فى حبها، تلك التى تملأ جوانب القصر بجمالها،
الحاكمة، سيدة الشمال والجنوب، زوجة الملك العظمى
التي تحبه، سيدة الأرضين تى.

وقد عبر (ماسبيرو) عن دهشته للتغزل في الملكة تي بمثل هذه الأوصاف فقال: " كما لو كان زوجها لا يزال على قيد الحياة " (٩) .

وهنا يقول فليكوفسكى: إنه لا مفر لحل اللغز من الانتهاء إلى أن الملك الذى أنجب بكتاتن ابنة الملك من جسده، هو إخناتون نفسه. وعلى الحائط الشرقى بذات المقبرة لوحة لإخناتون يقود (تى) إلى المعبد تتبعهما بكتاتن، مع كتابه تقول: " يقود الملكة العظمى والأم الملكية تى لترى ظلها فى الشمس " .. ويرتدى إخناتون ثوبا شفافا يسمح برؤية تفاصيله الداخلية، أما تى فتكاد تكون عارية، وإخناتون يمسك بيدها كما لو كانا عاشقين، ويقول أوديب عن يوكاستا " أمى التى هى زوجتى "، وعن أنتيجونى " إبنتى التى هى أختى ".

المضاجعة المحرمة

معلوم الآن أن العرش المصرى فى الأسرة الثامنة عشر لا يرثه الابن نظريا أو مجازيا، بل ترثه الإبنة، أما الإبن فبزواجه من الوريثة، أخته الشقيقة أو غير الشقيقة، يصبح مؤهلا لتولى العرش. وفى اللغة المصرية القديمة غالبا ما كانت كلمة أخت تستخدم بدلا من كلمة زوجة، وحتى اليوم تنادى المصرية زوجها بأخى، وكذلك فى بقية بقاع الشرق الأوسط القديم. ومع ذلك كانت العلاقة الجنسية بين الأم والابن أمراً بغضيا فى مصر والعالم القديم والمجتمع البدائى والحديث على السواء، ومثل هذه العلاقات رغم بغضها كانت تحدث، ومنها ما سجلها لنا التاريخ لشهرة أصحابها مثل (نيرون) وأمه (أجريبيا) التى أقرّها الإمبراطور نفسه وأكدها (سويتو نيوس)، وهى الحالة التى تشبه حالة إخناتون وأمه تى من وجهة نظر فليكوفسكى، فقد كان يعرف أنها أمه وتعرف أنه ولدها، وأن العلاقة كانت علنية، فجعل أمه شريكته على العرش والفرش وأنجب منها بكتاتن، وربما بدأت العلاقة سرية ثم انقضت تلك السرية بسرعة.

ومن تلك الفترة يأتينا خطابا من ملك (كاردونياش / بابل) المعروف باسم (بارنابورياش)، تجرأ فيه على الفرعون كما لو كان يخاطب شخصا أدنى منه ويقول:

لقد أرسلت عشرين خاتما فقط من حجر اللازورد إلى
سيدة قصرى، لأنها لم تتفد مطلبا من مطالبى، ولم ترفع
معنوياتى عندما كنت حزينا.

وكانت تى هى المذكورة بالخطاب وليس نفرتيتى، وعبارة سيدة قصرى تفصح عن إزدراء واضح نتج عن الأخبار التى وصلت الأقطار الأجنبية.

وكانت هناك صلات عائلية بين البلاط المصرى والبلاط الميتانى، وهو ما أفصحت عنه رسائل العمارنة، فأم آمنحتب الثالث (موت أم ويا) زوجة تحتمس الرابع كانت أميرة ميتانية. وفى العام العاشر من حكم آمنحتب الثالث جاءت إلى طيبة أميرة ميتانية تدعى (يلوهيبا) بصحبة حاشية كبيرة ودوطة كبيرة لتصبح

Maspero. G, In the odore Davies. M. The Tombo of Queen Tiye, ١٩١٠, PXX.

(٩)

زوجة ثانوية للفرعون، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن أحد والدي تي كان ميثانيا. وقبل نهاية حكم آمنحتب الثالث أرسل له ملك الميثانيين أميرة أخرى تسمى (تادوهيبا) لكنها وصلت بعد موته فانضمت لحريم ولده إخناتون. وهى العلاقات التى ترجح أن غياب إخناتون منذ ميلاده حتى توليه العرش، كان عند أخواله الميثانيين، استجابة لتحذير النبوءة المفجعة.

وهنا يقول هاستنج :

نحن لا نعرف بصورة إيجابية موقع مملكة الميثانيين، ولكن فى ضوء الاتصال الوثيق بين عائلات الميثانيين والمصريين المالكة، يحدد المؤرخون عادة موطن الميثانيين فى شمال سورية. وهى الأراضى المتاخمة لبلدة قرقيش التى على نهر الفرات، وعلى الرغم من أن هذا الإقليم كما نعلم علم اليقين كان ضمن مملكة آشور، فإن شعوب الأراميين والحيثيين، كانت تحتل مساحة واسعة من هذه المنطقة الآهلة، وهناك ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا التحديد الجغرافى خاطئ، وأن الميثانيين كانوا يقطنون شمالى العراق، إذ يصف هيرودت فى القرن الخامس قبل الميلاد شعب الماتينى قائلا: إن هذه المستعمرة الفارسية كانت بالقرب من جبل أرارات. وإذا كان الموقع الجغرافى لشعب الميثانيين موضع جدل وخلاف، فإن معتقدات هذا الشعب معروفة لدينا بصورة مؤكدة، إذا كان ملوك هذا الشعب يصلون ويقسمون بأسماء ميترا وفارونا وأندرا وآلهة هندو إيرانية أخرى .. والإيرانيون الفرس كانت لهم نظرة تجاه العلاقات الجنسية المحرمة، تختلف تماما عن نظرة شعوب العالم القديم الأخرى، فقد اعتنقوا مذهباً دينياً أخلاقياً وزاولوه، يسمى كسفتوكداس أو كسفاينفاداثا .. يعنى زواج الآباء بأولادهم والإخوة بأخواتهم فى الرحم، .. ومن الواضح أن من زاول هذه العلاقات الجنسية لم يكن العائلة المالكة فقط، بل كل الفرس بمختلف درجاتهم ومراتبهم (١٠).



هذا مابقى من أحد معابد البتراء فى بلاد آدوم المديانية، يحمل اسماً له دلالة لدينا تؤكد علاقة هذه البلاد بما كان يدور من أحداث فى مصر حول نبوءة أبى الهول التى استبعدت الطفل الملكى إلى بلاد مديان، وكان أبو الهول فى قصة أوديب مجنحاً.

إن اسم هذا المعبد هو (معبد أبى الهول المجنح) وهناك تم العثور على تمثال هذا المجنح - شكل رقم (١٠٠)

ويذكر لنا فليكوفسكى أمثلة منها خبر كوينتوس رفيوس عن سيسمثريس حاكم بكتريا الذى تزوج أمه، وقد ذكر كل من ديوجنيس اللائرتى وسترابون وبلوتارخ علاقات زواج الأم والابنة والأخت بكل اشمئزاز، كذلك تحدث عن هذه العلاقات التعبدية التى ترقى بممارستها إلى مراتب عليا فى القرب من الآلهة كليمنت السكندرى والقديس هيرونوموس والقديس جيرونوم، وقد كتب فيلون السكندرى يقول: إن الأطفال الذين يولدون من زواج الأم بالابن عند هؤلاء يعدون أكثر الأطفال شرعية، وقال كاتوللوس أن كاهن مازداً الذى يلقب بالماجوسى لابد أن يكون ثمرة مضاجعة الابن لأمه.

ويجمع فليكوفسكى من المقدس المجوسى ويكتبه أيضا الهاجوسى ما ورثه عن عقائد إيران القديمة ما نصه:

أن مراعاة هذه العادة تعتبر أجل علامات التقوى فى أيام الشر المقبلة، فهى تعوض الخطيئة الدنيوية، وتقيم الحاجز الوحيد الذى لايمكن تخطيه أمام هجمات آشوم إله الغضب (تكتب آدوم / المؤلف)، كما تقف فى وجه الشياطين وتسلبهم قوتهم، وهى الواجب الثانى من واجبات الدين السبعة، واهمالها هو الخطيئة الرابعة من الخطايا الثلاثين الكريهة، وهى الوسيلة التاسعة من الوسائل الثلاث والثلاثين لاكتساب مملكة السماء، بل وحتى يقال أن زرادشت أوصى بها على انها الوصية الثامنة من وصاياها العشر للإنسان.

وهل الهاجوس شيئاً آخر سوى الساجوسى أو السجاز قاطع الرقاب؟ خاصة إذا علمنا أن الهاء كانت أداة التعريف فى السامية الشمالية. أن الهاجوس بهذا المعنى هم الأراميين الاسكيث.

ويحتوى كتاب (دنكارت) مناظرة تمت بين زراد شتى وبين يهودى حول هذه العادة، فكان رد الزرادشتى: " إن هذا الرباط بين الأب والإبنة والإبن وأمه والأخ وأخته، لهو أكثر الزيجات اكتمالا فى اعتبارى (١١) .

وكان ملوك الميتانيين، الذين يأخذون بهذه العادة، والتي أخذها من بعد الزرادشتيون، على صلات وثيقة بالملكة تى وآنحتب الثالث وإخناتون، وكانت بينهما علاقات نسب ومصاهرة، والاحتمال القوى أن إخناتون عندما استبعد صغيراً، قد ربي فى البلاط الميتانى، وهو ما يمكن أن يفسر رباط الزوجية بين الملكة تى وولدها إخناتون.

وقد لاحظ المصروولوجى والاس بدج أن أناشيد إخناتون تطابق أناشيد الفيدا، وأن أذرع آتون التى تمتد بعلامة الحياة، هى ذات أيدى إله الشمس الفيدى (سوريا) (١٢).

كذلك هـ. ر. هول الذى أكد أنه بين الميتانيين كان هناك فرع هندو إيرانى يعبد الأشعة ذات الأيدى، أما إخناتون فلم يجعل علاقته بأمه سرا، إذ تفاخر بأنه " ذلك الذى يعيش فى الحقيقة "، وهو الأمر الذى أدى إلى سخط وثورة فى الأفق على وشك الفوران.

فضيحة فى القصر

من المتفق عليه أن الملكة (تى) قد تخلفت فى طيبة بضعة سنوات، قبل أن تلحق بولدها فى مدينته الجديدة (أخت آتون)، إلا أن آثار المدينة تؤكد أن مأساة حياة إخناتون العائلية قد اكتملت حلقاتها فى العام الثانى عشر من حكمه، لقد أصبح له أسرتان، سجلت التفاصيل بشأنهما فى نقوش الوليمة والشراعة، وبموجبها طالبت الأم الملكية التى أصبحت زوجة ملكية بمركز رسمى ومكانة ممتازة لها ولابنتها (بكتاتن)، وكان على إحدى الزوجتين أن تترك مكانها للأخرى، وبعد ذلك، ولمدة خمس سنوات يختفى ذكر نفرتيتى، حتى يقول آرثر ويجال فى كتابه The Life and times of Akhnaten : " لا يكشف لنا التاريخ ما آل إليه مصير نفرتيتى، ويبدو أن نهايتها كانت محزنة تماما ".

وعلى لوحة الشراعة، فوق لوحة الوليمة، نطالع موكب نصر يصور تى ذاهبة مع إخناتون وابنتها بكتاتن إلى معبد أخت آتون، حيث أعدت ثلاثة مذابح لهم، واحد للملك وثنان للملكة تى وثالث لبكتاتن، ولاشئ من أجل نفرتيتى وأطفالها، وهو تقرير واضح عما حققته تى من نصر، فقد اعترف بها ابنها زوجة شرعية له، وبالطفلة إبنة ملكية منه.

Dinkart, III, ١٩٥, E.W.Wesk, pp ٣٩٩, ff

(١١)

Budge. E.A.W., Tut ankh amen, Amenism, Atenism and Egyptian monotheism, ١٩٢٣.

(١٢)

ويقول (إريك بيت) فى كتابه Akhnaten, Ty, Nefertete, and Mutneymet : إنه " بعد مرور العام الثانى عشر بفترة قصيرة، سقطت على رأس إخناتون أقوى الضربات وأفساها، فقد هجرته زوجته نفرتيتى، هذا إذا لم نكن قد أخطأنا فى تفسير الشواهد "، هذا بينما نجد (جلانفيل) فى كتابه Amenophis III and his Succerors, in the XVIII Dynasty يقول: " وأما عن اختفاء نفرتيتى فمن المتفق عليه عامة أنه كان نتيجة لإلحاق الخزي والعار بها بعد العام الثانى عشر بقليل " حيث أزيل اسمها من على النقوش فى بعض المباني التذكارية، على حين ترك اسم إخناتون المنقوش عليها دون مساس. أما (فرانكفورت) فقد اعتقد أن التغيرات الكبرى التى حدثت فى العام الثانى عشر من حكم إخناتون فى تل العمارنة، كان نتيجة لوصول الملكة تى إلى مدينة الملك، وما ناله شخصها من تقدير فائق الاحترام، وأن ذلك كان له علاقة أكيدة باختفاء نفرتيتى، هذا بينما اعتقد (ج دس بندليبرى) أن نفرتيتى قد رحلت بعيداً عن إخناتون وقصره الملكى، لكى تستقر فى شمال أطراف مدينة الملك.

ويؤكد لنا فليكوفسكى أن كل الدلائل تشير إلى صراع حزبين فى البلاط أخذاً فى الصراع على السلطة، الحزب الأول هو حزب إخناتون وتى والحزب الثانى هو حزب نفرتيتى وانضم إليها آى لأنها ابنته حسبما يرى فليكوفسكى. وترعم هو الصراع ضد أخته وزوج ابنته، وفى إحدى روايات أسطورة أوديب يطرد أوديب زوجته الشابة أوريكانيا بعد أن ألحق بها العار وهى أم لأربعة أطفال.

المهم يستمر إخناتون يتربع على العرش طوال أربعة سنوات أو خمس سنوات بعد هجران نفرتيتى له أو إلحاق العار بها، وإبان ذلك يتسع نفوذ آى فقد كان هو وزير خزانة الدولة، ومن المتفق عليه أن تى قد اختفت من الوجود بعد فترة قصيرة، وأن نهايتها غامضة تماماً إذ لم تدفن بوصفها ملكة عظمى لإمبراطورية عظيمة.

أما مصير نفرتيتى فيمكن قراءته مع (بند لبرى) فى كتابه تل العمارنة حيث يقول: " لم نعثر فى المقبرة الملكية على أدوات تؤكد أنها من مدفن نفرتيتى، وما نمتلكه دليل وحيد، هو أنه فى العقد الثامن من القرن الماضى، شوهد مجموعة رجال يسيرون جنوبى الصحراء ومعهم كفن ذهبى، وخلفهم بمسافة قصيرة ظهرت أدوات ذهبية تحمل اسم نفرتيتى " (١٣).

وهنا يفترض فليكوفسكى أن ما تخلف عن نفرتيتى ليس مومياء بل تماثيلها المنحوتة.

وفى السنوات الأخيرة لحكم إخناتون نجده يحتضن الأمير سمنخ كا رع الذى يظهر كشاب فى الحلقة الثانية من العمر، وأشركه معه فى الحكم حوالى عام، وقد عثر على تماثيل لإخناتون وهو يقبل سمنخ كا رع الجالس على ركبتيه ويقول (جلانفيل) بهذا الخصوص: " لقد ثبت نهائياً وجود حكم مشترك بين إخناتون

وسمنخ كا رع، ولكن تكمن فى تلك اللوحة لمحات لعلاقة أخرى أكثر وثوقاً، فهناك لوحة فى متحف برلين كان من المعتقد إلى وقت قريب أنها تمثل إخناتون ونفرتيتى، ولكن وضح أنها دلالة على تعبير الملك عن شعوره تجاه شريكه فى الحكم الصغير السن .»

ويقول فليكوفسكى أن علم التشريح قد أثبتت بعد فحص مومياء سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون، أنهما أبناء إخناتون، وهذه الحقيقة تفسر العواطف الأبوية فى اللوحات من إخناتون تجاه سمنخ كا رع، لكن لأنه ملك يعيش فى الحقيقة يصعب تحديد ما يظهره علانية من مشاعر، وهل كانت تلك المشاعر شعوراً أبوياً تقليدياً أم تعبيراً عن رغبات محرمة.

ويتابع فليكوفسكى موضحاً أن سمنخ كا رع الابن الأكبر كان شاباً أنيقاً، تزوج مريتاتن كبرى بنات نفرتيتى وهو فى سن صغيرة، ولما كان سمنخ كا رع قد تزوج الوريثة الشرعية فقد أصبح من حقه وراثة العرش. أما الإبنة الثانية مكتاتن فقد ماتت صغيرة، ودفنت فى مقبرة أخت آتون الملكية، والإبنة الثالثة عنخ إس إن با آتون تزوجت أختها توت عنخ آمون، لكن لم يتم هذا الزواج إلا بعد أن قام أبوها إخناتون بزيارتها فى غرفة زفافها، وكانت ثمرة هذه الزيارة فتاة ماتت بعد ولادتها مباشرة، وقد أوقف هذا الاكتشاف عن إخناتون سيل المديح الذى تدفق عليه اعتباره الموحد الأول.

وقبل زمن إخناتون بجيل واحد تزوج والده آمنحتب الثالث إحدى بناته عرضاً، وقد حذا إخناتون حذوه، وربما كان تأثير عادات الميثانيين فى العلاقات الزوجية، هو المسئول عن هذه النزعات المتحررة، التى لم يعرفها المصريون فى الأجيال السابقة قبل علاقات البلاط المصرى الحميمة بالميثانيين. كذلك نزعة العرى فى رسوم نفرتيتى وبناتها، والتى تكشف دوماً عن الفرج، كما لو كان مقصوداً عن عمد، ربما تقديساً للفرج رمز الخصب، وعادة ما اشتملت عقائد عبادة الفرج على طقوس جنسية غير مألوفة، كزواج الابن من أمه أو الأب من بنته فيما يُعرف بالطقس السرى، ويطلق على العقائد التى تمارس ذلك عموماً « الديانات السرية ».

وقد يكون اتصال إخناتون جنسياً بابنته، هو أصل الأسطورة اليونانية القديمة التى تقول أن أوديب تزوج أيضاً عذراء تسمى استيمدوسا بالإضافة إلى يوكاستا أمه وزوجته، إضافة إلى زوجته الشابة أوريكانيا التى رزق منها أطفالاً عديدين ثم أبعداها بعد أن ألحق بها العار، لذا يقف دارسو الأساطير مشدوهين أمام كل هذا التشابك والتعقيد الذى بلا معنى واضح فى أسطورة أوديب.

وبمرور الوقت أخذت الإمبراطورية العظمى تترنح زمن إخناتون، وقد أرسل أحد الولاة من فلسطين إلى فرعون يقول: « إصغ إليّ .. لماذا ركنت إلى الانعزال على حين أنهم يأخذون أرضك؟ لاتدع مثل هذه الأقاويل تقال عنك فى المستقبل، وهى أنك لم تكن قادراً على إنقاذ ممتلكاتك »

وضاعت الأقاليم الآسيوية، التى أخضعها حملات أسلاف إخناتون العظام، وبدأت تظهر دلالات أخرى تكشف عن تفكك الدولة، فسرت على أنها غضب من الآلهة، وهو ما جعل النبلاء والكهنة وضباط الجيش فى حالة استقراز ضد الفرعون، لأن ضياع الإمبراطورية كان يعنى جفاف الدخل الذى ملاً مصر ذهباً

وكنوزاً، ولا بد أن الكهنة قد أشاعوا بين العامة والنبلاء أن هناك خطيئة قد حدثت تستوجب القصاص قبل دمار البلاد، وربما على ذلك تم تفسير انتشار كارثة من نوع ما ربما كانت مرضاً وبائياً.

وتحكى لنا أسطورة أوديب عن طاعون أو مجاعة أو كارثة ما غير محددة بالضبط حلت بالملكة، ولذا قرروا سؤال النبوءة عن سبب غضب الآلهة حتى يعالجوا الأمر. وبالمثل فى آخر حكم إخناتون حلت بالأرض كارثة يصفها (توت عنخ آمون) وريث (إخناتون) الملكى بقوله: « لقد كانت الأرض مريضة وأدارت الآلهة ظهرها لهذه الأرض ». ويبدو أن آى كان الزعيم وراء تحريك النقمة على بلاط إخناتون. وهو المقابل المصرى لشخصية كرايون فى أسطورة أوديب، فقد تزعم كرايون شقيق الملكة يوكاستا الثورة ضد الملك، طمعا فى الاستيلاء على الملك، وهو ما حدث فى مصر، إذ تحالف آى مع كهنة آمون، وأصبح بالفعل فى النهاية ملكاً، وعمل على دعم آمون وكهنته، وترك مدفنه فى أخت آتون قبل أن يكتمل، ذلك المدفن الذى يزين جدرانه نشيد آتون البديع، لكن صاحب المدفن قرر تركه لينضم إلى جانب آمون.

نهاية الملك الأعمى

لعزل ملك مصر فى زمن كان يحاط بقدسية الآلهة، كان لابد أن يستعين المصريون بشتى القوى السماوية والأرضية، أما فى طيبة اليونانية التى فى إقليم بيوتيا، فقد ساهم العراف الأعمى (تيرياس) فى إسقاط الملك، فقد كان له دور أساسى، فى قصة أوديب، وقد قدمته الأسطورة بحسبانه الحكيم والعراف المقدس الذى يعرف الماضى والمستقبل، وعاش زمن الملك لايوس ثم عاش فى بلاط ولده أوديب كهلاً، ثم فارق الحياة فى الجيل الذى جاء بعده وهو جيل حرب طروادة.

وعندما حل وباء الطاعون بمدينة طيبة اليونانية، طلب أوديب من العراف الأعمى أن يكشف عن السبب فى غضب الآلهة، وكان العراف (تيرياس) يعرف الحقيقة، فالسبب أن فى المدينة رجل قتل أبيه وتزوج أمه. وفى البداية رفض (تيرياس) الكشف عما يعلم. لكن أوديب اتهمه بالتآمر بالتضامن مع كرايون، فاضطر للكشف عن بعض ما يعلم، وإبان صراع ورثة أوديب على العرش، أدان تيرياس كرايون لرفضه دفن الأمير المقتول، وقد لجأ أهل طيبة أيضاً إلى نبوءة معبد دلفى لتكشف لهم عن سبب الكارثة، وفى طيبة المصرية نجد العراف المقابل لتيرياس هو (آمنحتب بن حابو) الذى عاش زمن آمنحتب الثالث وزمن ولده إخناتون، وقد قدسه الناس من بعد موته إلى حد عبادته، ولم يحدث فى تاريخ مصر أن أله المصريون شخصاً لا ينتمى لأصل ملكى، سوى هذا العراف (آمنحتب بن حابو)، وسميه الأسبق المهندس (إيمحتب).

وقد كان تيرياس عليماً بظروف ميلاد أوديب والتخلص منه طفلاً، وبين الجمل الغامضة التى تركها لنا (آمنحتب بن حابو) فى مذكراته، وصف يصف فيه نفسه بأنه « عالم وثيق بأسرار تربية الأطفال الملكيين » (١٤).

وبين اللوحات التي تصور العراف المصري، لوحة تصوره وهو صغير السن ذو شعر طويل مصفف مثل نساء عصره (أنظر الشكل ٧٦). وهي صورة شديدة الغرابة، لكنها تفسر لنا حدثاً جاء بالأسطورة اليونانية، حيث تقول الأسطورة فجأة ودون علاقة ببقية الأحداث التي ترويها، أن تيرياس قتل مرة حياة، فتحول إلى امرأة لفترة من الوقت عقاباً له، وعندما أصبح رجلاً مرة أخرى، واشتبك الإله زيوس مع الإلهة هيرا في نقاش حول أى منهما أشد تمتعاً بالاتصال الجنسي الذكر أم الأنثى؟ لجأ المتحاوران الإلهيان إلى تيرياس بوصفه صاحب الخبرتين، فأجاب: إن المرأة أشد استمتاعاً، فغضبت (هيرا) وأعمته عقاباً له، لكن زيوس كافأه بأن قرر منحه عمراً مديداً حتى يرى الجبل السابع من أحفاده، ثم أسبغ عليه نعمة القداسة. أما في مصر فقد أصبح آمنحتب بن حابو راعياً للبعير لأنه كان أعمى. وقد عاش طويلاً حتى أنه في العام الرابع والثلاثين من عمر الملك آمنحتب الثالث، بلغ من عمره الثمانين، ولكي يعيش هذا العراف حتى نهاية حكم إخناتون، فلا بد أنه قد أتم من عمره قرناً من الزمان أو يزيد.

وفي وسط معابد ملوك طيبة الفراعنة، أقيم لهذا العراف معبداً جنازياً، وقد تم العثور على صندوق تابوته بوادى الملوك، وكليهما المعبد والمقبرة كانتا من ميزات الملوك، لكن الملاحظ أنه لم تبين له مقبرة في تل العمارنة، مما يشير إلى أنه لم يغادر طيبة مع إخناتون، ويبدو أنه انحاز إلى جانب آي وكهنة طيبة ضد إخناتون، كما انحاز تيرياس إلى جانب كرايون في مسرحية سوفكليس (أوديب ملكاً).

وفي مصر نجد عقاب السماء واضحاً في وصف توت عنخ آمون لزمن إخناتون في قوله: « عندما كنا نرسل الجنود إلى سواحل فينيقيا كانت الحملات تقفل بسبب غضب الآلهة ». وفي قوله « لقد أدارت الآلهة ظهرها لهذه الأرض »، ويطابق ذلك عبارة لتيرياس حول رفض الآلهة للقرابين بسبب جريمة شنيعة قد حدثت « أن الآلهة قد باتت لا تقبل الصلوات والقرابين من أيدينا »، وهو ما جاء في مسرحية (أنتيجوني). وفي مصر انضم الأمير الأكبر سمنخ كارع إلى آي وكهنة طيبة، وسافر إلى طيبة بالفعل إبان حكم والده إخناتون، وبعد فترة نجده يتربع على العرش بعد اختفاء إخناتون، والمعلوم أن إخناتون قد اختفى، وهناك احتمال كبير أنه قد تم عزله ثم نفيه أو تحديد إقامته في منطقة نائية، بدون ثورة أو انقلاب.

وعند الكشف عن مدينة أخت آتون في تل العمارنة، كان يعيش هناك جماعات بدوية قبلية تحمل اسم (العمارنة)، تم استئجارهم للعمل في الحفائر، كان هؤلاء يحكون للمصريين المشرفين على الحفائر، عن أمير من أسلافهم كان مدفوناً هنا، كان حظه تعيساً، وأن أباه أراد إنقاذه من مصير تنبأ به القدر عند ولادته.

وطبقاً لرواية (يوريبيدس) عن الأسطورة، أنه بعد عزل أوديب عن العرش، عاش أعمى في سجن بقصر منعزل، أما وفقاً لرواية (سوفكليس) فقد اقتلع أوديب عينيه بعدما عرف الحقيقة، وعاش أعمى في قصره لبعض الوقت حتى نفاه أبناؤه من طيبة، أثناء حكم ولده الأكبر، ومن ثم تتفق الروايات على عمى الملك.

وهنا يعتمد فليكوفسكى على ما ورد عند (هيرودت) فى تاريخه عن مصر، أنه كان بين الفراعنة ملك أعمى جلس على العرش يدعى (أنيسيس)، عاش فى مدينة تحمل نفس اسمه، وقد تعرضت البلاد إبان حكمه لهجوم أثيوبى فهرب إلى المستنقعات، لكنه استدعى بعد خمسين عاما من منفاه ليتربع على العرش مرة أخرى، بعد طرد الغزاة، وفى مقبرة (توت عنخ آمون) نراه مرسوما وهو يحارب الآثيوبيين، ومن ثم نجد أن قيام حرب ضد الآثيوبيين أيام خلفاء إخناتون حقيقة تاريخية، كما نذكر أن إخناتون أطلق على مدينته ذات اسمه فأسمها (أخت آتون)، لكن هيرودت دون الاسم (أنيسيس).

وفى الرواية اليونانية كان المكان الذى نفى إليه أوديب جزيرة كلها كثبان رملية، وهو ما لا يختلف كثيراً عن أرض المستنقعات التى نفى إليها الملك الأعمى، أما البليغ فهو أن الملك أنيسيس عند هيرودت قد حكم مصر فى نهاية الأسرة الثامنة عشر.

وفى كلمات كتبها أمير فلسطينى موال لمصر إلى إخناتون، نجده يقول: " مع أن الإنسان يرى الحقائق، فإن عينى الملك مولاى لا تريان " (١٥) .

وفى نشيد مديح آتون، وهو يصف عجائب الدنيا عن سطوع آتون الشمس، نلمس احتفاءً فياضاً بقدرة الرؤية، وحمد جليل على نعمة النظر، " فالعيون ترى الجمال حتى تغرب أنت "، وبعد إختفاء إخناتون وعودة الأمونية، كان تلاميذ المدارس يتدربون على نسخ نشيد ظهر زمن توت عنخ آمون وآى يقول:

يا آمون

إن شمس ذلك الذى لم يقدرك قد غابت

لكن الذى يعلم قدرك يتألق

إن فناء الذى هاجمك يسبح فى ظلام دامس

على حين يسبح العالم كله فى ضوء النهار

إن من يضعك فى قلبه

يالبشره، تشرق شمس (١٦)

وقد دونت الكلمة التى ترجمها إرمان فى هذا النشيد إلى (فناء) برسم عين وتنطق (ويبا)، ولأن إرمان لم يكن يعلم أن إخناتون قد فقد بصره، فقد ترجمها بكلمة فناء، وعلق عليها بأنها " أبنية الكافر الدينى وخاصة فى العمارنة ". لكن المؤكد أن كلمة الرؤية هى المقصودة عند كتابتها بشكل عين بشرية، أما جرابو فقد ترجم كلمة (ويبا - ما). فى مؤلفه عن الطب المصرى بكلمة (ما = يفتح + ويبا = العين). كما كتب ليفير فى مقاله

El Amara Tablets, ٢٨٨.

(١٥)

Erman, The Literatura of The Ancient Egyptions, ١٩٢٧, pp. ٣٠٩ - ٣١٠.

(١٦)

١٩٥٦، Essai sur La medicine Egyptienne de L'epoque pharaonique، يقول: " هناك مجموعة كاملة لوسائل العلاج، لا يزال يشار إليها بوصفها من أجل فتح العين - وبياما - أو بالأحرى علاج العين ". أما الأستاذ (أبل) في ترجمته لبردية (إبريس) عام ١٩٣٩ فيترجمها " تحسين حالة النظر ".

لقد ارتقى (إخناتون) عرش مصر وهو مبصر، لكنه فقد بصره بعد ذلك، ربما نتيجة لأعراض المرض وتجمع أعراض تشوهه العضوى، وعندما شيد مدينته (أخت آتون)، قطع على نفسه عهداً ألا يتركها حتى نهاية حياته، وطلب دفنه فيها مع زوجته وأولاده، لكن الشخصية الوحيدة التى نعلم أنها دفنت بالعمارنة هى ابنته الثانية مكتاتن، وباستثنائها لا تحوى المقابر على بقايا جنازية، ولقد تم العثور على تابوت إخناتون الضخم المرمى وعلى أركانه النسر الحامية، لكن التابوت لم يستعمل على الإطلاق، ويخلو من أى أثر لمواد التحنيط، إن إخناتون لم يدفن بالعمارنة إنما ذهب إلى منفاه أعمى، وحذف اسمه وكل أسماء أسرة العمارنة من التاريخ المصرى كما لو كان نجساً يجب إجتنابه، وقرر المصريون نسيانه تماماً، وإذا حتمت الظروف ذكره كان يحل محل اسمه التعبير (مجرم أخت آتون هذا)، ولم يشر إليه من بعد باسمه، أما (أخت آتون) نفسها فتشئ بأنها قد هجرت فجأة وبسرعة ورحل عنها الجميع ليتركوها بلقعا، فى لحظة واحدة.

سر المقبرة الغامضة

فى عام ١٩٠٧ اكتشف تيودور ديفز بوادى الملوك بمدينة طيبة المصرية عدداً من المقابر، أهمها كانت مقبرة يويا وتويا والدى الملكة تى، وكانت المقبرة سليمة لم تمتد لها يد إنسان، ولم يعث بها لصوص المقابر. ثم مقبرة أخرى لها بابين من الخشب ذوا مقابض نحاسية، وعلى الجانب الأعلى من البابين ألواح ذهبية نقش عليها اسم وألقاب الملكة تى. لكن المفاجأة أن نجد مقبرة ملكة عظيمة قد نحتت فى الصخر بلا نظام ولا تنسيق، ومحتوياتها مبعثرة وفى حالة فوضى شاملة، وبين المحتويات كانت أوانى الأحشاء الكانوبية المصنوعة من المرمر، لكن اسم صاحبها أزيل من النقوش بدقة لم تسمح بقراءة الاسم. وكما وجدنا بالمقبرة ألواح خشبية على الأرض مغطاة بالذهب منقوش عليها اسم الملكة تى، ويبدو أنها كانت جوانب الصندوق الذى وضع به التابوت، وعلى إطار واحد من هذه الألواح حفرت صورة الملكة وهى ترتدى ثوبا شفافا لا يخفى جسدها، وأمامها إخناتون، لكن صورته أزيلت بعنف من على اللوح الذهبى، أما التابوت فكان مصنوعاً بدوره من الخشب، يبدو أنه قد ألقى فى الحفرة إلقاء، فقد انفصلت جوانبه، وخرجت منه رأس المومياء ورقبتها، وبإخراج المومياء وضح أنها كانت لإنسان صغير برأس صغير ويدان رقيقتان، ملفوفة فى نسيج فاخر، وتحت اللقافات كان الجسد معطى جميعه بألواح الذهب الخالص.

وكان وجود الجواهر والألواح الذهبية برهانا قاطعا على عدم تسلل اللصوص إلى المقبرة، رغم الفوضى الشاملة فى المقبرة، بل أن بعض خدم الملكة تى حصلوا على مقابر أجمل من مقبرتها بزينات ورسوم وتخطيط هندسى، أما قبر (تى) فكان مجرد كهف وعر عار عن الجمال منعزل عن بقية المقابر الملكية، مع العجلة الواضحة فى دفن الجسد وعدم الاحتياط الذى أدى لكسر التابوت، هذا إذا لم يكن قد ألقى

إلقاء عن عمد. وبالفحص الطبى برهنت عظام الحوض أن المومياء كانت لإمرأة، ولا شك أنها كانت الملكة العظمى (تى)، لكن بمراجعة الطبيب إليوت سميث أعلن أنها مومياء ذكر، وأن ما خدع الأطباء السابقين هو أن عظام الحوض كانت غير طبيعية، لكن جاستون ماسبيرو المصنولوجى المعروف أكد أن التابوت كان للملكة تى، خاصة أن الألقاب بجوار إسمها كانت ذات ألقاب تى فى حياتها فى أخت آتون " أم الملك وزوجة الملك العظمى ". أما المفاجأة الأكبر فهى اكتشاف أن التابوت كان مخصصاً أصلاً للملك إخناتون، حيث أزيل اسمه من على الألواح الذهبية التى تغطى الجسد، لكن ألقابه الملكية لم تمس، خاصة عبارة " ذلك الذى يعيش فى الحقيقة ". وعقب ماسبيرو بقوله:

علينا أولاً وقبل كل شئ، أن نضع فى أذهاننا، أن القبو الذى اكتشفه ديفز ليس بمقبرة حقيقية، بل هو مجرد كهف وعر حفر فى الحجر، وقد استخدم هذا الكهف كمخبأ سرى لدفن عضو من أعضاء الأسرة المسماة بأسرة الملوك الكفرة، وذلك عندما ارتد الناس إلى عبادة آمون، وقد دبر بعضهم نقل المومياء من مدفنها الأصلية فى طيبة أو العمارنة، هذا لكى ينقذ المومياء من انتقام الطائفة المنتصرة وبطشها.

ورجح (ماسبيرو) أن من رسم خطة الدفن السرى تلك إما توت عنخ آمون أو آى، وأن وجود اسم إخناتون وتى بمحتويات المقبرة يشير إلى أن المومياء هى مومياء الملك المهرطق إخناتون نفسه، وأنه دفن فى تابوت ومقبرة تى سرّاً حتى لا يتعرض الجسد لإيذاء الغضب الشعبى. لكن المشكلة التى تواجه ترجيح ماسبيرو هى تقرير الطبيب إليوت سميث الذى أكد أن الجثمان لرجل مات وعمره لا يزيد عن ستة وعشرين سنة. نعم لم يكن تكوين الهيكل طبيعياً فالجمجمة مستطيلة بشكل واضح، لكن هذه الاستطالة كانت واضحة أيضاً فى نسل إخناتون، حتى بناته تم تصويرهن حليقن الرؤوس، والرؤوس مستطيلة من الخلف.

وبين محتويات المقبرة عثر على ختم ملكى باسم توت عنخ آمون، وقوالب طوب نقش عليها اسم إخناتون، مع لوح ذهبى وجد عند قدمى المومياء يحمل صلوات ونشيد حب أو كلمات وداع تقول:

انى استنشق الهواء العذب الخارج من فمك

وأأمل كل يوم فى جمالك

وأمنيتى هى أن أسمع صوتك الحبيب

الذى يشبه حفيف ريح الشمال

إن الحب سيعيد الشباب إلى أطرافى

أعطني يدك التى تمسك بروحك

وسوف أحتضنها وأعيش

نادنى باسمى مرة أخرى وإلى الأبد

لن يصدر نداؤك أبداً بلا إجابة

وكما هو واضح، فالكلمات أغنية وداع وحب، كتبها شخص حى للشخص الميت، وهو ما زاد فى غموض المقبرة اللغز، التى يمكن أن تلتبس التفسير فى مقبرة أخرى، كانت إلى الجوار منها. هى مقبرة توت عنخ آمون، التى كان لكشفها دوى عالمى لم يحدث لأى كشف تاريخى آخر فى تاريخ العالم، وتساءلت الدنيا: لقد تم الكشف عن مقابر ملكية عديدة لم تمسسها يد، لكنها أبداً لم تكن بفخامة مقبرة الفرعون توت ما معنى كل هذا العرض المذهل للثروة وللفن والجمال؟ ولماذا دفنت كل هذه الثروة الهائلة فى مخبأ بعيداً عن الأنظار فى هذه المقبرة المنعزلة؟ ولماذا توارت أجمل المنتجات الفنية فى العالم فى هذا المدفن الغريب؟

وأرسلت المومياء إلى الطبيب (د. أ. درى)، وقدر هذا الجراح عمر توت عنخ آمون عند وفاته بما لايزيد عن ثمانية عشر عاماً، لكن الجديد أن جمجمة توت تميزت بذات السمك غير العادى فى عظام مؤخرة الرأس، مما أدى بالطبيب الجراح إلى نتيجة مفادها أن توت كان ابناً لإخناتون. وهنا تم فحص مومياء المقبرة اللغز المجاورة مرة أخرى على يد الطبيب (انجلباخ) الذى انتهى إلى أنها تشابه إلى حد بعيد مومياء الملك توت، وأنها ليست سوى مومياء سمنخ كا رع شقيق توت، وليست أبداً للملكة تى أو للفرعون إخناتون. وقد أيد وجهة نظر أنجلباخ تكرار عبارة " المحبوب من إخناتون " على الألواح الذهبية التى غطت المومياء، وهى العبارة التى ذكرت فى مواضع أخرى فى الآثار، لتشير إلى سمنخ كا رع تحديداً. وقد قرر الدكتور (درى) أن سمنخ كا رع كان شقيقاً للملك توت، وكلاهما كان ابناً للملك إخناتون. وأنه بعد توارى إخناتون تولى العرش لفترة قصيرة ولده الأكبر سمنخ كا رع الذى تولاه بعده أخوه توت، بينما كانت القوة المحركة وراء حكم الصبية هذا كانت الكاهن الأعظم آى، وكان هو المسئول عن احتفال دفن الملك توت، فقد رُسم على حوائط مقبرة توت وهو يشرف على طقوس الجنازة. والغريب أن آى بعد موت توت كان هو الملك، ولم يحدث أن قام ملك مصرى بتنظيم جنازة الملك السابق، فماسر كل هذا الاهتمام؟ ولماذا كل هذا التبجيل والتكريم لسلفه الطفل خاصة وأن توت عنخ آمون كان ملكاً لا أهمية له على الإطلاق؟ لكن رسوم مقبرته تصوره يضرب بسهامه صفوفاً من الأعداء، كذلك يضرب أسرى الحرب، مما يشير إلى وقائع عسكرية حدثت فى عهده، وأنه ربما مات فى تلك الحرب، ولا شك إذن أنه كان محارباً وطنياً يستحق التكريم بعد أن مات وهو ملك فى ساحة الشرف. لكن علينا أن نلاحظ الفرق الهائل بين مقبرتى الأخوين: سمنخ كا رع وتوت، أما الملحوظة الجانبية فى مقبرة سمنخ كا رع، أن ذلك المحب الولهان صاحب نشيد الوداع قد ترك بجوار الجثة نباتات محترقة وبخور خامد وبعض زهور تحولت إلى تراب.

وفى الأسطورة اليونانية، فى مسرحية سبعة ضد طيبة، قصة صراع الأخوين على العرش، يتخلى أوديب عن العرش بضغط من كرايون، ويتفق على تبادل ولديه العرش سنوياً، فحكم بولينيكس أكبر الأخوين لمدة عام، وتنازل عن العرش لأخيه أتيوكليس وترك المملكة ثم عاد إلى طيبة اليونانية بعد عام حسب الاتفاق، لكن أخيه الأصغر وبترخيص من كرايون، رفض التنازل عن العرش، وهنا استعان الابن الأكبر بولينيكس بأعداء البلاد ليستعيد عرشه، وهى القصة النموذج للأخوين سمنخ كا رع وتوت، حيث حكم سمنخ كا رع أولاً، ورسم وهو يرتدى الزى الملكى فى حياة أبيه، لكنه بعد موت أبيه لم يحكم سوى سنة واحدة فى طيبة، ثم فجأة يظهر توت ملكاً على طيبة، بينما نجد آى الحاكم الفعلى.

أما الحرب المجهولة التى مات فيها توت، فلا شك أنها كانت دفاعاً عن البلاد ضد الأجانب الذين استجلبهم أخيه الأكبر، ومن ثم قتل كلاهما فى تلك الحرب. [وهنا بالتحديد يمكننا أن نضع توقيت الهجمة الهكسوسية الثانية التى نقلها يوسفيوس عن مانيتون، وتم كسرها على الحدود بقيادة رئيس الجند حور محب / المؤلف].

وفى الأسطورة اليونانية أصدر كرايون أمراً بدفن الأمير الأصغر بكل تبجيل وقداسة، وحرّم دفن الأمير الأكبر الذى استعان على أخيه وبلاده بأعداء البلاد. ولإظهار الفارق أقيمت طقوس جنازية عظمية ببذخ طائل للملك الصغير، بعكس الأمير الكبير التى حكم على جثته بأن تترك فى العراء تأكلها طيور السماء وهوام الأرض، بعد خيانتها لبلاده وقومه. وقد أشرف كرايون بنفسه على تجهيز جنازة أتيوكليس الفخيمة، لكن أنتيجونى شقيقة أتيوكليس تجاهلت أمر الملك الجديد كرايون، لأنه يتضارب مع قوانين السماء، وقامت بدفن أخيها بولينيكس وهى تعلم أنها ستدفع حياتها ثمناً لمجازفتها. وبالفعل أصدر كرايون قراراً بدفنها حية فى كهف صخرى ليكون مقبرتها، ومعها زاد يكفى لإمدادها بالحياة، لتحيا ميتة فى مقبرتها، إلى جوار مقبرة أخيها الذى دفنته، أو أمرت بدفنه مع بعض خلصائها.

هنا نلجأ إلى آخر فقرات التقرير الذى كتبه ديفيز عن المقبرة الغامضة التى اكتشف فى النهاية أنها كانت مقبرة سمنخ كا رع، يقول ديفيز أنه بالقرب من تلك المقبرة عثر على كهف صغير هو مقبرة، به أوان بيضاء كثيرة، ومعها أكواب صغيرة حمراء، ولم يحطنا ديفيز علماً بوجود جثة من عدمه، لكن لو لم تكن هناك جثة ما أسماها مقبرة، بل اكتفى بكلمة كهف أو مخزن، حيث قيل أن المكان ربما كان مخزناً لرجل فقير.

وعليه يرى فليكوفسكى أن هذا الكهف كان هو مدفن أنتيجونى الأسطورية، لقربه من مدفن الأخ المغضوب عليه، ولوجود أوان وأكواب كانت تحتوى على أطعمة تكفى عدة أشهر.

أن (تيودور ديفيز) يصف باختصار بالغ اكتشاف المقبرة المخزن فى أقل من صفحة أضافها إلى كتابه "مقبرة الملكة تى"، وهو النشر الذى استاء له (جاردنر) بعد مرور أكثر من نصف قرن حيث يقول: "إن تاريخ الحفريات فى مصر - يصور بالإضافة إلى العمل الجليل - حلقات متصلة من الكوارث والمصائب،

وأفدح هذه المصائب تحل عندما تختفى النتائج ولا تنتشر إطلاقاً، لكن من الفادح أيضاً أن يكون النشر ناقصاً غير كامل أو غير دقيق، وهذا لسوء الحظ ما حدث في مجلد تيودور م ديفيز" (١٧) .

وفي عام ١٩٤١ نشر (هـ. أ. وينلوك) مقالاً في سلسلة أبحاث متحف متروبوليتان بنيويورك، دون فيه ملاحظاته عندما كان موجوداً في طيبة المصرية عام ١٩٠٨ عند اكتشاف المقبرة المخزن، وقد شرح وينلوك وجهة نظره في القدر والأواني والثيراب التي اكتشفت هناك، فقال أنها بقايا وجبة اشترك فيها بعض الناس، وأن من اشتركوا في تلك الوجبة هم من قاموا على دفن الملك توت.

والملابس التيلية التي وجدت في الكهف تحمل ختمان لتاريخ يشير إلى آخر عام في حكم الملك توت، وهناك قطعة نسيج جذبت انتباه وينلوك طولها ٢,٤٤ م وعرضها ٦١ سم، وقد انتزع من كلا جانبيها شريط طويل، والغريب أنها كانت من أفرع أنواع النسيج، لكنها كانت ملطخة ومتآكلة، وعليها علامة نسجت تطريزاً باليد ترجمتها " ليحي الملك الطيب نوفر "، ونوفر هو الاسم الذي حمله سمنخ كا رع.

وبين كومة الخرق البالية ثلاثة مناديل من مناديل الرأس النسائية وضح أنها استعملت كثيراً وغسلت عدة مرات، وعليها بقع بفعل زيوت الجبهة، بينما استعمل أحد هذه المناديل ولونه أزرق كخرقة للتنظيف حتى أنها تأكلت من كل اتجاه من وسطها.

وكان بالكهف قدر كبير وأوان وكؤوس للشرب وكلها صغيرة تماماً ولا تستخدم إلا لوجبة واحدة ولشخص واحد كما كان هناك خمسة وستون كوباً متشابهة، وآنية نبيذ وأوراق للشراب توضع بها المياه.

ويبدو أن هذه الأواني قد رشحت المياه بغزارة فقد تركت المياه شريطاً رقيقاً من الطين على كل منها، كما عثر بين الأدوات على أربع شفافات لقنينة ملونة، وستين طبقاً مختلفة التصاميم والأحجام، وقد تحطم كثير من الأطباق، وألقى في قدر كبير الحجم، ومن هنا رأى وينلوك أنها بقايا مأدبة، خاصة مع ما وجده في القدر الكبير الذي استخدم كصفيحة قمامة من عظام حيوانات، ووجد بين العظام كتف بقرة مقطوع بسكين، كذلك وجد أربع ضلوع لغنم أو ماعز، مع هياكل لحواالي تسع بطات وأربع أوزات ولم يعثر على سكين أو أي آلة حادة للتقطيع، كما عثر على ست كروانات ورود، فهل كان يرتديها حضور المأدبة؟

وهناك مكنتان استعملتا لكنس الرمل، عثر عليهما داخل الأواني، وكانتا حزم من أفرع الشجر ربطت من وسطها بحبل، وقد رأى وينلوك أنهما كانتا لإزالة آثار الأقدام الأخيرة لضيوف المأدبة العجيبة، لكن الإشكال أنه وضح الاستخدام الكثير والمتتالي للمكنتين حيث عثر عليهما مستهلكتين تماماً.

وبين المحتويات كانت هناك أغطية فخارية صغيرة للأكواب بها شريط أحمر، استخدمت كمصابيح، فقد كان مجوفها الداخلي مغطى بطبقة سميكة من الساج الأسود، وبقايا جافة لزيت المصابيح، هذا إضافة

لقناع صغير لامرأة صغيرة مصنوع من الجبس الملون، ومعلوم أن هذه الأقنعة كانت تصنع للشخص أثناء حياته، وكانت خاصة بعلية القوم، وتوضع مع صاحبها عند دفنه.

وهنا يدلى فليكوفسكى بتفسيره فيقول:

إن هذا المكان، وهو صومعة مساحتها 7×7 أقدام، وارتفاعها ست أقدام، منحوتة فى القشرة الصخرية بوادى الملوك، هذا المكان كان يحتله سجين زج به فيه، وكانت المؤن واللوازم الضرورية الأخرى تصله بصفة مستمرة، وتشهد المناديل على أن السجين كان امرأة تتحدر من أصل نبيل، كما يتضح من نوع النيل، فقد كان أرقى بكثير من ذلك الذى أستخدم فى تحنيط الملك توت، وقد أمضت السجينة فى هذا الكهف عدة أشهر، فقد تأكلت المناديل التى كانت تغطى الشعر والجبهة وغسلت بصفة مستمرة، وقد استخدم أحدها لتنظيف المكان.

كما عثر على زيت النطرون، ويحتمل أن الطعام والمياه اللازمة للشرب والغسيل كانت تتدلى من أعلى بفتحة فى السقف، وعندما كانت الأوانى تخلو من الطعام لم تكن تنقل إلى مكان آخر، بل كان يرد غيرها، بينما ترمى الأطباق المستعملة فى الإناء الكبير. كما أن المكانس استخدمت حتى هلكت تماماً، كما استخدمت أغطية الأكواب كمصابيح لتمده بضوء خافت فى ظلمة الليل، هذا ناهيك عن قناع يدل على أصل نبيل لصاحبة المقبرة. أما كروناات الزهور فيحتمل أنها كانت تدلى لها من الخارج بواسطة شخص يحبها ويهمه أمرها. وتحكى الأسطورة اليونانية أن (هايمون) ابن (كرايون) قد أحب (أنتيجونى) حبا جارفا غير أنه لم يقو على إنقاذها. من كانت إذن هذه السجينة التى سجنّت على مسيرة دقيقة واحدة من قبر الملك توت، ومسافة نصف دقيقة من قبر الملك سمنخ كا رع؟ من تلك التى طرزت بيدها على النسيج البالى: " ليعيش الملك الجميل نوفر / سمنخ كا رع ؟" لقد كان نوفر هو المطالب بالعرش، كان الأخ الأكبر الذى قتل فى معركة حاول فيها استرداد عرشه.

وبعد مرور خمسين سنة على اكتشاف مقبرة (تى) حيث توارى جثمان الملك سمنخ كا رع، كتب السير جاردنر فى ديسمبر ١٩٥٧ يؤكد أن أغنية الحب المتوارية عند قدمى الميت، قد كتبتها أخت هذا الميت أو زوجته التى أشارت إليه بوصفه أخاها، واعتقد (جاردنر) فى البداية أن النشيد كتبته نفرتيتى تتاجى حبيبها إخناتون، لكنه غير رأيه بعد ذلك، لقد خوطب سمنقرع بأنشودة حب من امرأة نادته بلفظ أخ، ومع ذلك كان التابوت تابوت إخناتون، والصندوق صندوق الملكة تى والمومياء لسمنخ كا رع.

وحاول (جنثر رويدر) البحث عن تفسير للفوضى والبثرة فى مقبرة الملك سمنخ كا رع، بشكل لا يجعلها أبداً جذيرة بملك، أما (كيرل ألريد) فركز اهتمامه على شخصية رسمت صورتها على أوانى الأحشاء، الموجودة فى مقبرة سمنخ كا رع، ودرس لذلك أنماط تصفيف الشعر فى مصر القديمة، وتعرف على أن الطريقة المرسومة فى الصورة، هى تصفيف نسائى لبنت من بنات إخناتون، وأنها هى مريت اتن كبرى بنات إخناتون، وزوجة سمنخ كا رع. ومن ثم نستنتج أن كاتبة النشيد المتلاع عن قدمى سمنخ كا رع

هى عينها مريتاتن زوجته، وأنها هى التى وهبته أوانى الأحشاء الخاصة بها والتى صنعت من أجلها، وقد أزيل اسمها من عليها بعناية، ومن ثم تكون هى من أعد هذا المدفن السرى لسمنخ كا رع. لقد كانت مريتاتن هى أنتيجونى الأسطورية، التى نظمت أبيات الاشتياق، وغسلت جثة حبيبها وألبسته ثيابه وكرمته بسكب قربان الشراب فى مقبرته، لكن دخلاء عرفوا سر المقبرة وأزالوا النقوش بقسوة وإهمال، وكسروا الصندوق بإلقائه أرضاً. هؤلاء الدخلاء كانوا جنود الملك الجديد آى، فاستخدموا ذات الختم الذى ظهر على مقبرة الملك توت، وعلى الكهف المنحوت فى الصخر ليكون سجناً لشخصية من نساء القصر.

وفى مسرحية أنتيجونى التى كتبها سوفوكليس نجد كرايون يوفد رجاله إلى مقبرة بولينكيس، وعندما قبض على أنتيجونى وهى بجوار جثته صرخت صرخة عالية، لقد وقعت عيناها على الجثة وقد انتزعوا ملابسها بعد أن كانت ألبستها وكرمتها، وخربوا ما أعدته فى المقبرة، وعندما قبض عليها أصدر كرايون حكماً عليها بأن تحيا بقية حياتها مدفونة فى كهف هو مقبرتها.

وعندما نقرأ يوربيدس لا نندهش مع المندهبين من شخصية أنتيجونى التى تحمل بجوار مشاعر الأخوة لأخيها القتيل، مشاعر الحب العاشق والفائق « آه يا محبوبى .. دعنى أطبع قبلة واحدة على شفثيك »، ومن هنا اتهمت أنتيجونى فى تعليق قديم على هذا النص اليونانى، أنها كانت تمارس مع أخيها علاقة سرية قوية لأن اليونان كانوا لا يتزوجون أخواتهم.

وعندما حكم كرايون على أنتيجونى بالموت البطئ، وأصر على تدنيس جثة المتوفى، كان تصرفه وحشية استدعت تدخل العراف (تيرياس) ليقول:

لقد ألقيت بأبناء الشمس والضوء فى الظلام وعالم
الأشباح، إذ دفنت بوقاحة روحاً حية فى قبرها، على
حين تلقى على وجه الأرض، جثة تخص آلهة العالم
السفلى، جثة لم تدفن أو تكرم، بل نال منها الدنس
والمهانة.

ثم حذره أن ذلك خرق لقوانين الآلهة، ويجلب الشقاء على الدولة، فيهيئ كرايون العراف العجوز ويتهمه بالارتشاء للعمل ضده. لكن قول تيرياس أزعج كرايون فعلاً، وجعله يخشى غضب الآلهة أو الناس، فيأمر بدفن الميت وإطلاق سراح الفتاة من غرفتها الصخرية، لكن القرار يأتى متأخراً إذ شنقت الفتاة نفسها بحبل من التيل الفاخر، وهنا ينبهنا فليكوفسكى لنتذكر شرائط التيل الغالى الطويلة التى مزقت من جانبى قطعة القماش الفاخرة فى المقبرة الكهف فى طيبة المصرية.

نهاية تى وإخاناتون

فى العام الثانى عشر من حكم إخناتون، بلغت تى أوج نفوذها وسلطانها، وفجأة تختفى تى ولا نعثر لها على مومياء، ونجد ابنها سمنخ كا رع فى تابوتها، فى قبر قريب من قبر أبويها يويا وتويا، لكنه قبر حقير لا يليق أصلاً بملكة، واضح أنه كان يعد لها هى فعلاً. فلماذا تلقى ملكة عظيمة مثل تلك المعاملة الخسيصة، وكل ما عثرنا عليه هو خصلة من شعرها، مع ملحوظة تشير إلى أن هذه الخصلة تخصها، وقد وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون.

أما الأسطورة الإغريقية فتؤكد أن يوكاستا أنهت حياتها بيدها، والانتحار لدى كل الشعوب يحرم المنتحر من التكريم الذى يستحقه الموتى، عدا الموت فداء لقضية كبرى تخص الأمة، وربما ذلك ما حدث للملكة تى فلم تمنح قبراً بل أخفيت جثتها بعد أن ارتكبت فى نظر المصريين خطيئة لا تغفر بعد أن انتزعت حياتها بيدها، وبعد أن عاشت فى علاقة جسدية محرمة مع ولدها. فأزيل اسم ابنها الذى هو زوجها مع صورته عن الألواح الذهبية، وكتب مكانه اسم زوجها الأول بالحبر، ولم يتم دفنها إلى جوار زوجها آمنحتب الثالث لهذا السبب، إنما دفنت بالفعل فى المقبرة الحقبيرة التى أعدت لها، وبعد عودة سيادة آمون انتزعوا تى من الصندوق وحملوه إلى مدفن مجهول.

المفترض أن يكون هذا هو سيناريو الأحداث إذا أخذنا التفسير من الأسطورة اليونانية، لكن يوكاستا انتحرت لأنها فوجئت بمعرفة أن زوجها هو ولدها أوديب، فلماذا تنتحر تى وهى من الأصل تعلم يقيناً أن زوجها هو ولدها إخناتون؟ هناك وجهة نظر أخرى جاءت عن يوربيدس فهو يجعل يوكاستا تعيش، حتى تشهد الحرب بين ولديها، ثم تنتحر عندما تقع عيناها على جسديهما القتيلين.

والغريب فى عادات الشعوب أن ما يتخلف عن المنتحر من ممتلكات يعد مجلبة للحظ، وهو ما يفسر لنا وجود خصلة من شعرها فى مقبرة الملك توت، ويوربيدس يجعل يوكاستا تقص شعرها وهى تقول: "إنى أقص خصلات شعرى الفضية، وأتركها تسقط مع الدمع الغزير لأظهر حزنى ومرارتى".

أما أوديب فقد تم نفيه أعمى، وصحبته لترعاه ابنته أنتيجونى، وفى الأحداث المصرية يمكن أن تكون التى صحبت أبيها إخناتون فى منفاه هى بكتاتن، فشاركته أيضاً مذلتة وهوانه، لأنها ثمرة زواجه بأمه، لأنه محال - فى رأى فليكوفسكى - أن تكون نفس الأميرة التى دفنت أخيها فدفنت بعده حية، هى ذات الأميرة التى صاحبت أبيها فى منفاه. إذ لابد أن الدورين اللذين قامت بهما أنتيجونى فى الأسطورة، قد قامت بهما ابنتان مختلفتان لإخناتون وكان إسناد العملين الجليلين فى مسرحيات سوفكليس إلى أنتيجونى وحدها، سبباً فى تعقيد فكرة المسرحية وصعوبة فهمها، هذا بينما تحول أوديب بعد توبته العظمى وفقاً عينيه ندماً إلى شخص مبارك، يبارك أى موضع يطأه، لذلك يهب رفاتة لشعب بلدة (كولونا) لتحل عليهم البركات الإلهية، وبذلك بارك كل أراضى إقليم (أتیکا) قرب أثينا.

وسوفكليس تحديداً تحدث عن أوديب الذى أصبح كهلاً عجوزاً هائماً على وجهه تبارك خطواته كل أرض يطأها، حتى يلجأ إلى محراب الإلهة ديمتر ليموت هناك. لكن ليستمر جواباً حتى بعد مماته فى

روح هائمة مباركة وقد نسب إلى كل من إخناتون وأوديب مدى حكم مختلفتين، فهناك تقدير بحكم استمر ستة عشر عاما، وتقدير آخر بحكم استمر بعد ذلك أربعة أعوام أخرى، أى حكم عشرين عاما، ويحتمل أن التقدير الثانى أخذ باعتباره المدة التى قضاها إخناتون أو أوديب فى بلاده كملك مخلوع، وإذا كان (كارتر) و (دريدر) والجراح (درى) قد ذهبوا إلى أن سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون هما ولدى إخناتون وليس أشقائه من أبيه آمنحتب الثالث، فمحتمل أن يكونا ولدين للملكة تى، وشقيقين للأميرة بكتاتن.

المهم أن (آى) تخلص من الصبيين الملكيين وترجع على عرش مصر، وكى يتربع على هذا العرش كان لابد أن يتزوج أميرة من البيت المالک، فتزوج من أرملة توت ابنة إخناتون (عنخ إيس إن با آتون) التى تحول اسمها إلى (عنخ إيس إن با آمن). وفى يوربيدس نجد كرايون يجلس على العرش ليس بوصفه شقيقا لزوجة الملك، إنما بوصفه زوجا لبنت أوديب، وهو ليس تقليداً يونانيا بل مصرياً، ويبدو أن العنف الذى مارسه ضد ميريتاتن كان بهدف الحيلولة دون ظهور أى منافس على العرش.

ويرى فليكوفسكى أن آى هو والد نفرثيتى، وأنه قد انجب نفرثيتى من زيجة مبكرة، وقد ماتت زوجته الأولى هذه، كما أوضح ألدريد وغيره، ثم تربت نفرثيتى وترعرعت تحت إشراف تاي زوجته الثانية، ومن ثم أعقد على تاي لقب (مربية الملكة) ^(١٨).

وقد رسمت تاي زوجة آى فى المقبرة الناقصة فى أخت آتون تقف بجوار زوجها آى أمام الزوجين الملكيين، وتصفها النقوش باللقب (مربية الملكة)، وكان اسم تاي زوجة آى الثانية هو نفس اسم تى شقيقته الملكة، ويكتب فى اللغات الحديثة بفارق بسيط للفرقة بينهما ليس إلا.

ويوربيدس يجعل هايمون ابن كرايون يقول لأبيه: سوف أذهب إلى أختك يوكاستا فقد أرضعتنى من ثديها عندما حرمت عناية أمى وتركت طفلا يتيما وحيداً، ويخبرنا التاريخ أن الزوجة الأولى لكرايون / آى، قد ماتت صغيرة، فتزوج آى امرأة أخرى تحمل اسم شقيقته الملكة، قامت على تربية أطفاله اليتامى، أما فى الأسطورة اليونانية كانت الملكة نفسها هى من ربت أبناء أخيها اليتامى، والغريب فى الأسطورة أن تقوم ملكة على خدمة أبناء ليسوا أبناءها، غير أن هذه الغرابة تتبدد بظهور الحقيقة التاريخية، وهو أن الملكة تى زوجة آى المعروفة باسم تاي، كانتا تحملان الاسم ذاته. فحدث هذا الخلط بين الشخصيتين فى الرواية اليونانية.

ونحن نعلم أن المقبرة التى دفن فيها توت عنخ آمون، كانت فى الأصل مبنية من أجل آى بأمر آمنحتب الثالث، وانتوى آى أن يجعل هذا المدفن الزاخر بالثراء مثواه الأخير لكنه كان من نصيب الملك توت. إلا أن الملك آى لم يمت فى سلام، بعد أن عمت الفوضى البلاد، وبعد موته استمتع بعضهم بتدمير مقبرة آى التى دفن فيها بالفعل تدميراً عنيفاً، ومحو النقوش واللوحات من على الحوائط بعنف يشير إلى رغبة فى الانتقام. وبذلك تحققت نبوءة العراف الأعمى، ففى مسرحية أنتيجونى يتنبأ تيرياس بأن كرايون سيلحقه العار والتدنيس بعد مماته، بعدما فعله بابن أوديب، ويرى فليكوفسكى أن هؤلاء الذين دمروا مقبرة آى، كانوا غزاة أغراب.

فالأسطورة اليونانية تقول أنه بعد انهزام الأبطال السبعة أمام أبواب طيبة جاءت سلالتهم الأبيجونى ليزحفوا على طيبة مرة أخرى ليدمروها، وهم من جاء بهم أصلاً سمنخ كارع ليساعده على استرداد عرشه.

إن الأصل المصرى للأسطورة اليونانية يتضح من تركيز الأسطورة على مشكلة دفن الجثة، التى تحتل المكانة الأولى فى فكرة المسرحية، وهذا الانشغال الدائم بالمتوى الأخير ظاهرة مصرية لا يونانية، فموضوع مسرحية أوديب فى كولونا ومسرحية أنتيجونى ومسرحية سبعة ضد طيبة، كلها تدور حول دفن الموتى. وفى رواية سوفوكليس يصر أوديب على أن تتوارى مقبرته عن الأعين وتظل سرا لا يعرفه سوى ملك أرض أتیکا، وهو تصرف الملوك المصريين لإخفاء مقابرهم. كما أن كهف أنتيجونى المحفور فى الصخر ليس يونانياً، لأن اليونان كانوا يحرقون موتاهم فى الغالب، أو يدفنونهم فى الأرض، لكنهم لا يحفرون لهم مقابر صخرية.

كيف انتقلت القصة إلى اليونان؟

قبل نشوب حرب طروادة، كانت هناك حركة نشيطة وتبادل تجارى بين مصر والجزر اليونانية، فقد تم العثور على كميات هائلة من الفخار الميسينى فى طيبة إبان حكم آمنحتب الثالث، كذلك فى تل العمارنة. وفى ميسينا تم الكشف عن بضائع مصرية من زمن آمنحتب الثالث، ومنها جعران باسم الملكة تى، بل وتم تقليد نقوش المقابر المصرية، فى مقابر ميسيسينا وأوركومينوس. وعثر فى بيوتيا على جعران يحمل صورة أبى هول مجنح، كذلك وجدت آثار مصرية كثيرة فى اثينا فى إقليم أتیکا. ومعلوم أن اليونان هم من أطلق على واست / الأقصر اسم طيبة، ويحتمل أن كادموس مؤسس مدينة سهل بيوتيا (طيبة اليونانية) الذى وفد إليها قادما من فينيقيا، كان معاصراً لتلك الأحداث.

وربما كان هو نكميد ملك أوجاريت الذى عاش زمن مراسلات العمارنة، والأساطير تقول أنه قد أحضر معه إلى البلاد اليونانية زوجة تدعى سفنكس كانت أميرة مصرية. وكانت طيبة المصرية أيام نكميد أعظم مدن العالم، ولاشك أن المأساة التى حدثت فى بلاطها لم تكن سراً، ويحتمل أن يكون الذين طردوا مع نكميد وأسسوا طيبة اليونانية، كانوا أول من سرد تلك الأحداث الفاجعة.

ونلاحظ أن مسرحية يوربيدس عن العائلة الملكية فى طيبة اليونانية حملت اسم (الفينيقيات) لأن الجوقة كانت تتكون من نساء فينيقيات يتكلمن ويبحن بالسر لأبطال المسرحية والمشاهدين، فلماذا تظهر جوقة فينيقيات فى تراجيديا يونانية؟

وسوفوكليس تند عنه عبارة تفصح عن معرفته للمكان الأصلي للأحداث، فبينما أوديب يتكلم عن ولديه بولينكيس وأتيوكليس يصرخ قائلاً: " يا إلهى إنهما يظهران صورة صادقة لوسائل مصر وطباعها فى روحهما وحياتهما " (عن مسرحية أوديب فى كولونا)، ثم يشير سوفوكليس مرتين إلى طيبة اليونانية باعتبارها " المدينة الزاخرة بالعربات الحربية "، وهى صفة تنطبق أكثر على طيبة المصرية، التى ذكرها

هوميروس على لسان اسخيليوس وهو يقول: أنها ذات مائه باب، أمام كل باب تقف على استعداد مائتا عربية حربية. وفي عالم هو ميروس السفلى فى الكتاب الحادى عشر من الأوديسا، صورة مصرىة تماما، فهو عالم تحت أرضى تحته شعوب شرقىة وبعضها من أصول فىنىقىة. بىنما كان الاعتقاد اليونانى أن الأرواح تهىم على وجهها كظلال وأشباح بدون مصىر واضح، وهو ما نجده فى موتى الحرب الطروادىة مثلاً.

ولا بىنسى فلىكوفسكى أن يحط من قدر (فرويد) لتجرؤه على شىخ موسى وعلى شعب الله المختار وتبجىله إخناتون تبجىلا عظمىا، لىقول بالنص عن كتاب فروىد:

هذا الكتاب لىس سوى إنقاص لقدر موسى والخط من شأنه، فقد خط فروىد من شأن موسى عندما أنكر أصالته وحرمه إىاها، كما هاجم شعب اليهود عندما حرّمهم زعىماً بقود جنسهم، إذ جعل موسى مصرىا. وفى النهاىة قلل من شأن إله اليهود، عندما جعل من يهوه معبوداً محلىا، أو مجرد روح شرىرة تسكن جبل سىناء. لقد كان فروىد وهو على أهبة الرحىل من حىاة طال أمدّها برىد أن يلعن إله اليهود ويخط من شأن نبىيه، على حىن ىمجد مرتداً مصرىا معتبراً إىاه مؤسساً لىدين عظمى الشأن.

هذا بىنما برى فلىكوفسكى وهو ىقلب التارىخ رأسا على عقب فى بقىة أعماله، أن موسى كان سابقا على إخناتون بزم من طوىل، أما إخناتون نفسه فلىس بمستحق لكل مالاقاء من احترام، فهو لم بىكن سوى الأصل لقصة أوىب الفاجعة، بل كان أسوأ شأنًا من أوىب، عندما ارتكب جرمىته وهو بىعلم ماذا بىفعل^(١٩).

(١٩) هذا موجز لما قدمه إىمانوىل فلىكوفسكى فى كتابه: إخناتون و أوىب .. سبىق ذكره.

موسى وإخاناتون

الثلاثة فى واحد

فرويد العالم النفسى الأشهر أقام على أسطورة أوديب سر عقدة نفسية تأسيسية هى عقدة أوديب التى تعد العماد الأول والأعظم للنظرية الفرويدية فى التحليل النفسى، ومن جانب آخر كان فرويد من المهتمين بالفرعون إخناتون وكان إخناتون عمدة كتابه (موسى والتوحيد)، ومع ذلك أبداً - رغم عبقريته الفذة - لم يربط بين الشخصين: أوديب وإخناتون. وهو الدرس الذى وعاه فليكوفسكى بقدرة عالية الجودة، ونعاه فى الوقت ذاته على فرويد ووجه له بهذه المناسبة تقريراً شديداً لعدم إدراكه أن الشخصين إنما كانا شخصاً واحداً. وربما كان سر التقرير هو أن فرويد سلب موسى اكتشافه لعقيدة التوحيد ونسبها لإخناتون، بل جعل من موسى مصرياً وليس إسرائيلياً، ثم جعله لا يرقى أبداً إلى عظمة أستاذه إخناتون. بينما كان هم فليكوفسكى هو العثور على كل ما يؤيد العقيدة اليهودية وكتابها المقدس فى وثائق التاريخ القديم على أصنافه وفروعه المتعددة والمعقدة. ويبدو أن لقيته الكبرى كانت فى اكتشافه المذهل والمدعم بشكل كاف أن أوديبوس اليونانى ليس سوى نسخة يونانية صيغت فى تراجيديات مسرحية عن أصل حقيقى فى حقل أحداث واقعى تم فى مصر أيام حكم أسرة الملوك الكفرة فى زمن العمارنة. ويبدو أنه قد قنع من ذلك بأن إخناتون لا يستحق المرتبة التى ينزله فيها الباحثون بإجلال وتقديس مفرط، فهو شخص مطعون فى نسبه، وفى نسب أولاده، ابن رجل شاذ ملعون جلب اللعنة على بيته وبلاده، ارتكب أعظم جرم بزواجه من أمه وبناته، وربما كان مجنوناً مخرباً بسبب مرضه. وهكذا قدر الرجل فيما اكتشفه إعادة الاعتبار لموسى التوراتى بتهميش إخناتون المصرى واستبعاده، اعتماداً على أحكام حس خلقى يختلف اليوم عن تلك الأزمان.

لكن هناك كشف آخر ينطلق من ذات فكرة فرويد نجده عند أحمد عثمان وهو أن موسى كان بالجنس والميلاد مصرياً، لكنه لا يربط بين أوديب وإخناتون، لكن بين موسى وإخناتون. ويوعز لنا عن بعد أن موسى كان هو ذات شخص إخناتون بعد سقوطه عن عرشه. وحتى يوصل ذلك للقارئ - دون مؤاذات من رجال الدين المتشددين - يعمد إلى التلميح لا التصريح، فهو مثلاً يسرب لنا أخباراً تاريخية عن النبى موسى تلقى مع ما حدث من أحداث للفرعون إخناتون، وذلك مثل قوله: « ونقول قصة التلمود - وهو كتاب تفسير عند اليهود - أن موسى بعد أن قتل المصرى، وقبل أن يذهب إلى سيناء، أصبح قائداً للجيش المصرى، وقاد المعارك منتصراً ضد أعداء مصر. ثم أصبح بعد ذلك ملكاً فى منطقة فى جنوب مصر ووضع التاج على رأسه وحكم موسى بالعدل والقسطاس لكن أهل البلد تأمروا عليه بعد ذلك فاضطر إلى التنازل عن العرش لابن الملكة وهرب هو إلى أرض مديان التى فى سيناء. ونحن نعرف أن قبائل مديان كانت تسكن حول خليج العقبة سواء داخل سيناء أو خارجها فى شمال الحجاز ولكن المنطقة المقصودة هنا هى التى تقع

بالقرب من جبل سيناء عند دير سانت كاترين الحالى. وكان المصريون يسمون سكان سيناء شاسو. وعاش موسى سنوات عدة فى منفاه مع أهل مديان الذين صاهرهم قبل أن يحين موعد عودته « (١)

ومعلوم أن قائد الجيوش عادة ما يكون أحد أعضاء الأسر المصرية المالكة وغالباً ما كان هو الفرعون نفسه إلا فى حالات نادرة، وما يؤكد أنه من الأسرة المصرية المالكة أنه قد أصبح ملكاً فى جنوب مصر، وجنوب مصر حيث مركز الحكم هو طيبة عاصمة الإمبراطورية المصرية. وأوردت القصة التلمودية أنه تزوج ملكة تسمى أدونيت، وعليها هنا أن نلاحظ أن أدونيت مؤنث أدون فهي مثله البعلة أو السيدة أو الرببة، وهو ما يعنى أن الأدون الذكر كان هو موسى بنفسه - وبفرض عثمان - هو إخناتون أيضاً بنفسه. ونحن نتذكر أن إخناتون كان يطلب التوجه إليه هو شخصياً مباشرة بالعبادة. وما تلى ذلك من تأمر أهل البلد عليه وإجباره على التنازل عن عرشه يلتقى مع ما حدث لإخناتون من تأمر كهنة آمون والعسكر ضده وعزله، أما فكرة إجبار إخناتون للتنازل عن عرشه فهي فكرة أحمد عثمان الذى يرى أنها تلتقى مع خبر التلمود، فخير التلمود يملأ لنا الفراغ فى القصة التاريخية التى لم نعثر عليها حول مصير إخناتون الذى اختفى من على صفحات التاريخ فجأة دون أى دليل يشير إلى ذلك المصير.

وهكذا يفسر عثمان بالتلمود السبب وراء هروب موسى إلى مديان فى قصة التوراة، وسبق لنا القول بأن إخناتون قد ربى عند أهل ميتانى / مديان أخواله حتى عاد إلى مصر يافعا ليتسلم عرشه.

لكن القول بخروج الإسرائيليين زمن إخناتون وبقيادته باعتباره موسى النبى سيتضارب مع حقيقة أكدتها التوراة وأكدها التاريخ وهى أن الإسرائيليين قد استعبدوا فى بناء مدينة باسم رمسيس، والمؤكد أنها لابد تنسب إلى أحد الرعامسة، بعد زمن إخناتون بزمن. وقد تم إختيار رمسيس الثانى ليكون سيداً لهذه المدينة وصاحباً لها تحمل اسمه، باعتبار لوح ابنه مر نبتاح الذى يقول أنه دمر بذرته إسرائيل، واحتسب رمسيس الثانى هو فرعون الاضطهاد وابنه مر نبتاح فرعون الخروج. لذلك حل عثمان المشكلة بقوله بقديم تلك المدينة وقدم اسمها رمسيس عن زمن الرعامسة، وأنها لم تكتسب اسم رمسيس من نسبتها للفرعون رمسيس الثانى، إنما لأنها كانت زمن إخناتون تحت إمرة قائد جيش إخناتون الذى يحمل اسم رمسيس أيضاً، وهو الذى أصبح رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة. وقد أنشئ بهذه المدينة زمن آمنحتب الثالث والد إخناتون قصراً صيفياً للعائلة المالكة، وأنها لابد تقع قرب مدينة الحدود المصرية (زارو) أو (شارو) أو (شور)، التى يظن أحمد عثمان أنها مدينة القنطرة الحالية، حسبما وضعها المؤرخون على الخرائط الظنية.

وحتى يستكمل عثمان بناءه الافتراضى يعود إلى مانيتو المصرى ويكتب: « مانيتو .. جعل أتباع موسى مصريين وليسوا أجانب. وهو يقول إن الملك المصرى جمع عدداً من المصريين من أتباع أوزر سيف الذى غير اسمه بعد ذلك وجعله موسى ووضعهم فى المحاجر حيث أوكل إليهم القيام بأعمال تكسير الحجارة الشاقة عقاباً لهم. وبلغ عدد هؤلاء ٨٠ ألفاً من بينهم أناس من المتعلمين

(١) أحمد عثمان : تاريخ : سبق ذكره، ج ١ ، ص ٥٣، ٥٤.

ومن الكهنة من الذين أسماهم موبوئين، لأنهم ما كانوا يحترمون الحيوانات التى يقدسها باقى المصريين بل كانوا يذبحونها ويأكلونها ثم جمع كل هؤلاء ووضعهم فى نفس المدينة أواريس التى كانت عاصمة الهكسوس من قبل. وهناك انضم إليهم عدد من الآسيويين وأصبحوا يهددون أمن البلاد إلى أن تم طردوهم^(٢).

هذه فى رأينا اهم إفساحات أحمد عثمان الحذر فيما وصلنا من أعماله، وفيها يهجس الرجل بأن موسى كان هو إخناتون بعد سقوطه عن العرش ونفيه - حسب نظريته - إلى سربيط الخادم قرب كاترين بسينا، حيث سيصبح هو موسى عندما يعود لمواجهة الحاكم الذى لابد أن يكون فى تلك الحال حور محب بعد أن أصبح فرعوناً. كما أن إخناتون / موسى هو ذات أوزرسييف الذى تحدث عنه يوسفوس نقلاً عن المصرى مانيتو. وأن الخارجين من مصر بقيادة موسى كان فريق كبير منهم مصرياً وفريق آخر إسرائيلياً من بقايا الهكسوس الأسرى. وأن الخروج لم يحدث زمن مرنبتاح ابن رمسيس الثانى أو زمن والده رمسيس الثانى، إنما حدث زمن حورمحب تحديداً. وكان قائد هذا الخروج هو إخناتون نفسه بعد سقوطه عن العرش.

الرجل شديد الحصافة يترك لقارئ أريب الوصول إلى ما يريد أن يقول، ربما خوف التحريمات الدينية فى بلادنا بهذا الشأن. ومن جانبنا كنا قد وصلنا إلى أن موسى ربما كان إخناتون نفسه قبل سنوات طويلة من الآن، منذ بدأنا جمع المادة العلمية لبحثنا. وقد أعلننا عن هذا الظن فى أكثر من منتدى ثقافى، لكن ذلك لا يعنى سوى أن عثمان قد وضع يده على الظن ذاته وأقام له السيناريو اللازم والنظرية وأنه سبق إلى إعلانها منشوراً فى كتاب. هنا فقط نقطة اللقاء، لكن نقطة البداية للوصول إلى هذه الفكرة المركزية تختلف تماماً، ثم عند التفرع من هذه النقطة إلى ما ترتب عليها فكل ما كتبنا حتى الآن كان محطات ممهدة للوصول إلى هذه الفكرة المركزية.

من تلك النقطة المركزية يختلف الأمر اختلافاً كلياً عن تصورات عثمان بهذا الشأن كما سيرى قارئنا الآن. لكن إذا كان ظننا كذلك، فإنه يعنى أن أوديب هو إخناتون هو موسى النبى، شخص واحد فى ثلاث روايات مختلفة، شخص مصرى معلوم الشأن هو إخناتون فى رواية مصرية حقيقية، وشخص يونانى هو أوديب فى تراجيدى يونانية، وشخصى إسرائيلى هو موسى فى رواية عبرية مقدسة.

إن فليكوفسكى الذى نعى على فرويد عدم التقاطه لأوديب باعتباره إخناتون، لم يلتقط بدوره ورغم اهتمامه بالشخصيات الثلاثة أن من الممكن أن يكون إخناتون هو موسى أيضاً، ولم يلتقط أحمد عثمان بدوره أنه من الممكن أن يكون إخناتون هو ذات أوديب، بينما فليكوفسكى نفسه رغم اهتمامه بالشخصيات الثلاثة موسى وأوديب وإخناتون فإنه لم يستطع أن يرى أنهم كانوا شخصاً واحداً.

لقد كان قائد الخروج من مصر هو الفرعون (إخناتون) بذاته وكان هو من عرفت اليونان قصته باسم (أوديب)، وهو ذاته ما دونت التوراة فى قصتها الكبرى اسمه (موسى)، وهذا ما سنحاول أن نقيم عليه الأدلة من الآن وحتى نهاية هذا البحث، ومهدنا له بكل الجهد السالف.

(٢) نفسه : ج ١، ص ٧٩، ٨٠.

لكن هنا سيطفر السؤال المستغرب: كيف وصلت قصة الفرعون المارق إلى بلاد اليونان بهذا التدقيق المدهش؟ لقد قال فليكوفسكى إجابته لكن لنا هنا إجابة أخرى.

للإجابة نبحث وننقب فنعثر على أول العلامات الشاهدة على معرفة بلاد اليونان بقصة الخروج الإسرائيلي من مصر، بل الشاهدة على علاقات أوثق وأمتن من مجرد السمع بالقصة بين اليونان وبين الخارجين من مصر. هو رسالة الملك اليونانى آريوس ملك لاكيدايمونيا إلى كبير أحبار اليهود فى زمانه آريوس أونياس تؤكد أن هناك أصلاً جنسياً مشتركاً لبعض أمم الإغريق والإسرائيليين، وقد جاءت هذه الرسالة عند المؤرخ اليهودى (يوسفوس) قال أنها دونت فى صفحة مربعة الشكل وتحمل خاتماً يصور نسر يصارع ثعباناً وهى كما ذكرها بالنص كالاتى:

من ملك الإسرطيين (أهل لاكيدايمونيا) إلى آريوس إويناس : تحية وسلاماً.

حدث أن وجدت فى بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمون إلى جنس واحد، وأن الأخيرين ليسوا بغرباء على نسل إبراهيم (إبراهيم الخليل)، لذلك فمن الأوفق ما دمنا إخوة أن نطلعونا على كل ما نرغبون فيه. ونحن من جانبنا سنفعل الشئ ذاته ولنسوف نعتبر شئونكم مثل شئوننا سواء بسواء، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة. وإن ديموتيليس الذى يحمل هذه الرسالة هو الذى سيقوم بحمل رسائلنا.

ويزعم العالم الجليل (دى بوا إيميه) رفيق علماء الحملة الفرنسية الأشهر أنه زمن خروج بنى إسرائيل من مصر ظهرت فجأة فى بلاد اليونان مستعمرات جديدة تماماً على بلاد الإغريق، ثم يستنتج من جانبه استنتاجاً تفرد به يقول باحتمال أن يكون مؤسس تلك المدن الجديدة فى بلاد اليونان كانوا من الرعايا القدماء الذين خرجوا من مصر، وكانت لهؤلاء الجدد باليونان عادات ومعتقدات تتشابه إلى حد بعيد مع عادات ومعتقدات خليط من المصرية والفينيقية (٣).

ثم لاشك سننتذكر هنا على الفور عبارة بلليني السريعة الشاردة التى نقول:

إن المعينيين كما يتضح من اسمهم يرجعون إلى مينوس ملك كريت (٤)

(٣) دى بوا إيميه : سبق ذكره ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧.

(٤) مظفر نادوى : التاريخ الجغرافى. سبق ذكره ص ٢١١.

وهى الإشارة التى سبق واستنتجنا منها أن المينويين الذين أسسوا الحضارة المعروفة باسمهم فى الجزر اليونانية كانوا معينيين نقلوا حضارة منطقتهم إلى بلاد اليونان، وأن ذلك قد حدث ربما زمن الهكسوس الذين كانوا ينقلون نخب من شعوب تحت ظل حكمهم الإمبراطورى إلى مواضع أخرى بعيدة على التبادل، ونحن نعلم أن المعينيين أو المعانيين كانوا فريقا ضمن الأخلامو فى بلاد آدوم.

وهنا حان موعد الاحتمال الثانى لتفسير علاقة الحضارة المينوية بالمعينية وهو انفصال فريق من الخارجيين من مصر اتجه إلى بلاد اليونان ليستقر هناك وينشئ حضارة خاصة هناك.؟ واحتمال الانفصال نتيجة انشقاق بين الخارجيين أصبح أمراً مؤكداً، حيث حدث خلاف عقائدى عند جبل الله حوريب بسيناء بين عبدة الأدون أو السيد أو الله ممثلاً فى ثور الخصب وبين عبته باعتباره الأدون أو السيد الأعلى فوق جميع الأرباب، وهو الانشقاق الذى سيأتى الحديث عنه تفصيلاً فى موضعه من هذا البحث، والذى أدى إلى معارك دموية بين فصائل الخارجيين انتهت إلى انقسامهم فرقاً. منهم من اتجه نحو بلاد الحجاز ومنهم من اتجه نحو بلاد اليونان، ومنهم الذين انتصروا فى الصراع وفرضوا عقيدتهم وهم من استمروا فى اتجاههم نحو فلسطين لفتحها.

ومع أولئك الذين اتجهوا نحو اليونان انتقلت قصة الفرعون المارق الذى تزوج أمه وسقط عن عرشه، لكن باسم أوديب، بينما نقل المنتصرون ذات القصة إلى فلسطين لكن بطلها حمل اسماً آخر هو (موسى).

ويعتمد عبقرى الحملة الفرنسية (دى بو إيميه) فى مصادره التاريخية فقط على مصدرين: الكتاب المقدس وتاريخ يوسفوس، لأن الرجل كان يخوض تلك المناطق الشائكة المعقدة قبل فك رموز الهيروغليفية فلم تتوفر له المصادر التاريخية الأركيولوجية التى توفرت لنا الآن. فيعود إلى قصة يوسفوس التى نقلها عن المؤرخ المصرى مانيتون التى تتحدث عن فتنة كاهن عين شمس المصرى (أوزرسيف)، وكيف استعان هذا الكاهن وبعض أتباعه الذين يصفهم التاريخ المصرى بالمصريين الفاسدين، بالإسرائيليين الموجودين بمصر، وبفلول الرعاة الهكسوس المطرودين من مصر والذين تمركزوا بعد طردهم حول أورشليم بفلسطين، وكان ذلك زمن فرعون باسم أمنوفيس أى آمنحتب.

وبدلاً من أن يقوم الفرعون وجيشه بصد الهجمة الهكسوسية الثانية وتأديب أوزرسيف، رحل برجاله جنوباً إلى أثيوبيا بعد أن تراءت له بعض المخاوف الأسطورية، لأنه كان لايؤمن بالحروب بين الناس، فسمح لهؤلاء المارقين بالاستقرار فى إقليم جاسان على الحدود بين دلتا مصر وسيناء.

ويقول دى بوا إيميه أن أوزرسيف قد أعطى هذه الألوف من المنشقين المصريين ومن القوم الرعاة ديانة خاصة، كانت خليطاً بين ديانتى الشعبين بالضرورة. وينقل عنه الباحث غطاس الخشبة قوله: " وأمر أوزرسيف هؤلاء ألا يتصاهروا إلا فيما بينهم، ولكى يحول دون أى صلح بين هؤلاء وبين المصريين، أوعز لهم بهدم وتشويه تماثيل الآلهة المصرية. وكانت النتيجة للاضطهادات الدينية والحروب والثورات، أن

عدداً كبيراً من العائلات أخذت تبحث لنفسها ومعها آلهتها عن موطن جديد. ويبدو أن هذا الوقت هو الفترة التي يحتمل فيها أن مستعمرات عديدة نشأت خلالها في بلاد الإغريق. فإن رأى البعض أن هذه الديانة ليست هي تماماً الديانة المصرية القديمة، فإننا نضطر هنا إلى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء الذين لم يعتنقوا جميعاً معتقدات أوزرسيف، بل كانت لهم بالضرورة عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين. وإذا لم يكن كتاب آريوس ملك لاكيدا يمونيا إلى أويناس كبير أحبار اليهود مزيفاً، فإنه يأتي كى يدعم هذا الرأى الذى يعطى للعبرانيين وبعض أمم الإغريق أصلاً مشتركاً. وأخيراً فإن علينا أن نجعل مولد موسى يتم فى عهد أمينوفيس (أمنحتب) هذا، وأن نضع فيه أول الإضطهادات التى لحقت بالعبرانيين كما تشير إليها التوراة ^(٥)

ويذكرنا هنا (أنتا ديوب) بروايات اليونانيين عن (كادموس) الذى جاء جزر اليونان وافداً، وكيف أدخل الكتابة والأبجدية إلى بلاد اليونان، وأنه ربما كان من أصول فينيقية، وأنه وفقاً لذات الروايات اليونانية نجد (كيركروبس) يأتى من الشرق ليستقر فى أتيكه، ويأتى (داناوس) أخو (إيجوبتوس) ليستقر فى أرجوليس حيث علم الإغريق الزراعة والتعدين عموماً وتعدين الحديد خصوصاً، وغير خاف أن إيجبتوس هنا تعنى المصرى. والذكريات اليونانية فى هذه المرحلة تحدثنا عن ثقافة مصرية فينيقية تصل بلاد اليونان وتقيم هناك أصولها الحضارية. ثم لا ينسى (أنتاديوب) أن يذكرنا أن أصول الأبطال الفينيقيين التاريخيين الذين هبطوا على بلاد اليونان كان مهدهم الأصلى يقع " على الحدود مع مصر " حسبما قررت نصوص أوغاريت، وبالتحديد فإن هؤلاء " الأبطال الوطنيين والأسلاف كانوا مستقرين فيما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر " ^(٦) وهى المساحة التى حددناها لسكنى الحوريين الآدوميين المديانيين. إن مثل تلك الذكريات اليونانية تحفظ فى طياتها أصول الأمر كله موجزاً مكثفاً، كما تزيدنا تأكيداً حول تشرذم الخارجين من مصر فى سيناء، وانشقاق مجموعة منهم اتجهت لبلاد اليونان. أو تؤكد الاحتمال الأسبق وهو أنهم عناصر من سكان المنطقة تم نقلهم من مواطنهم زمن الهيمنة الهكسوسية أو أن هذا التشرذم قد حدث بعد طرد الهكسوس من مصر ومطاردة فراغة التحرير لهم فى مساحة شرقى المتوسط وتشيت الحلف الأول، ليتجه البعض نحو الحجاز، والبعض يعود إلى مواطنه التاريخية فى يمن سبأ وحمير، ويوجه البعض الآخر نحو بلاد اليونان. هناك هجرة قد تمت بواحد من الأشكال السالفة وإن كنا نرجحها إبان الخروج الإسرائيلى من مصر حاملين معهم قصة اللعنة التى حلت على بيت آمنحتب الثالث أو بيت الملك لايوس حسب الرواية اليونانية. ومن جانبه يحتفظ المأثور العربى بذكريات باهتة عن هجرة مشرقية إلى دول أوروبا الجنوبية الواقعة على سواحل المتوسط، بل ويحدد لنا ذلك المأثور جنس هؤلاء المهاجرين ومواطنهم الأصلية، فيقول ابن قتيبة:

كان عيصو (عيسو) رجلاً أحمر شعر الجسد عليه
خواتيم من شعر، صاحب صيد، وهو أبو الروم

(٥) الخشبة : رحلة. سبق ذكره ، ص ٢٢٦.

(٦) أنتاديوب : الأصول الزنجية . سبق ذكره ، ص ١٣٣، ١٣٤.

(الأوروبيين الجنوبيين)، وكان الروم رجلاً جلدًا أحمر.
أصفر في بياض شديد الصفرة، فمن أجل ذلك سميت
الروم بنى الأصفر.

وتزوج عيصو ابنة عمه إسماعيل بن إبراهيم فولدت
الروم بن عيصو وخمسة آخرين، فكل من بأرض
الروم اليوم هم من نسل هؤلاء الرهط، وبعض الناس
يزعمون أن الأسبان من ولده. (٧)

ومن علامات ذلك التشظى الذى حدث للخارجين من مصر نتيجة انقسامهم، أو نتيجة خروجهم
ومهاجرتهم البلاد الفلسطينية الذى أدى بدوره إلى هجرات واضحة، ما أوردته صحاف شمبرز ببيير
Chamber's paperes " إن اسم يشوع بن نون وجد منقوشاً على حجر عند نوميديا بشمال إفريقيا حيث أقام
الفينيقيون مستعمرتهم قارة حداثة التى عرفت فيما بعد باسم قرطاجنة، وعلى ذلك الحجر الذى كشف سنة
٥٤٠م كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها إننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يشوع بن نون " (٨).
ومعروف أن يشوع بن نون كان هو قائد الخارجين من مصر بعد موت موسى.

الدلائل جميعا تشير إلى حراك مهاجر ومتشظى سبق الخروج وعاصره ونتج عنه، وكلها وسائل
يمكن أن تكون قد حملت قصة الفرعون المارق إلى بلاد اليونان ولكن باسم أوديب.

وإذا كان (فليكوفسكى) قد تمكن ببراعة واقتدار إثبات مصرية الأسطورة الأوديبية، فإن الأمر الذى
يجب التأكيد عليه كعنصر أساسى لهذه الرؤية. هو أن المصرى وحده وبالذات بين العناصر البشرية للشرق
القديم هو الذى كان يعطى عظيم اهتمامه للحياة من بعد الموت. لذلك كان إعلان كرايون النسخة اليونانية من
آى فى تل العمارنة أن عقاب بولينيكيس ابن أوديب لاستقدامه أعداء البلاد والاستعانة بهم، هو عدم دفنه
وعقاب من يدفنه عقابا هائلا. ومع ذلك أصرت أخته أنتيجونى على دفنه وتحمل ذلك العقاب، ثم لا بد من
الوقوف الدهش مع هايمون ابن كرايون / آى وهو يقول لأبيه " يا أبتاه كفى عناداً إنك لا تعلم ماذا يقول
الناس عنك .. إن كل مواطن يستحسن عمل أنتيجونى ويعتبره من أعمال البطولة التى تستحق التمجيد
السرمدى " (٩). وفى اليونان كان المستحب حرق الجثمان وليس دفنه دون كل تلك الحفاوة بعالم الموت . هذا
بينما أعلن تيرياس النسخة اليونانية للحكيم امنحتب بن حابو أن عدم دفن الجثة مخالف لقوانين السماء
وسيجلب على البلاد اللعنة الإلهية، ثم يهتف فى كرايون آى قائلاً : " فأى مجد هناك فى قتل المقتول " وهذه
العبارة تحديداً تعبر أشد التعبير عن عقيدة المصرى وحده دون العالمين. فقد كان يعتقد أن الميت يمكن أن

(٧) ابن قتيبة : المعارف. سبق ذكره ، ص ٣٨ ، ٣٩.

(٨) العقاد : سبق ذكره، ص ١٠٧.

(٩) أمين سلامة فى مقدمته لسوفوكليس فى الملك أوديبوس، أو ديبوس فى كولونوس، أنتيجونى، دار الفكر العربى، القاهرة،
د. ت، ص ٦١.

يموت موتاً نهائياً دون بعث وحياة أخرى إذا محى اسمه بعد موته، أو إذا لم يتم دفنه حسب الأصول المرعية. ثم لا ينى تيرياس يتفوه بتعابير وأفكار مصرية خالصة، انظره يقول لكرياوان : « إنك ترتكب جريمة مزدوجة بحرمانك العالم السفلى من حقوقه وحرمانك العالم العلوى من الروح التى يجب أن تحيا فى ضوء النهار » ^(١٠). لقد كان المصرى يعتقد أن الميت يذهب بعد الموت إلى العالم السفلى عالم الموتى حيث يعيش تحت حكم الإله أوزيريس، لكنه فى ذات الوقت كان يؤكد أن ذلك العالم كان نهار ساطعاً بالشمس لأن الإله الشمس رع كان يسلك رحلته بعد الغروب فى العالم السفلى حيث يشرق هناك ويحيل الليل نهاراً، أما التعبير « تحيا فى ضوء النهار » تعبير مصرى قح مئة بالمئة يرد أكثر من مرة فى كتاب الموتى نعرفه اليوم باسم كتاب الموتى أما المصرى القديم فكان يسمى كتاب الموتى (بر ت أم هرو) أى الخروج إلى ضوء النهار.

وحتى نتيقن مما نقول نعود إلى القصص الثلاث محاولين إلقاء الضوء على المساحات المشتركة بينها. أبداً لم نعر على نص واضح صريح يؤكد استبعاد إخناتون إلى بلاط أخواله الميتانيين / المديانيين، وأنه قد تم تهرباً من قدر قدرته عليه نبوءة أبو الهول الطيبى. لكن ما جمعناه من قرائن كاف تماماً للبرهنة على ما حدث، وأنه قد استبعد صغيراً من بلاده ومن بيت أبيه ليربو فى بلاط المديانيين حتى يتم استدعاؤه لتسليم عرش أجداده فى طيبة المصرية.

لكن تلك القرائن تتحول إلى سجل حقيقى للنبوءة وتفاصيلها عندما يتم تدوين الأحداث فى بلاد اليونان بعدما حملت القصة أسماء يونانية وأصبح بطلها هو أوديب بدلاً للاسم المصرى إخناتون، وإن كان الاسم اليونانى قد حفظ فى ملفوظه اللسانى اسم الملك المصرى، فقد كان الاسم الأصلى للملك المصرى هو (آمن — حُتِيب/ الرابع)، وأوديب تلتقى تماماً مع (حوتيب) حيث تتبادل الحاء مع الألف والتاء مع الدال. ونقول الصياغة اليونانية أن الآلهة قد قررت عقاب الملك لايبوس لأنه أول من أدخل العشق المثلى (الواط) إلى بلاد اليونان، فقدرت على بيته وأسرته اللعنة والشقاء، وقررت ما أفصحت عنه نبوءة دلفى، أن الولد الذى ستلده الملكة يوكاستا زوجة لايبوس، سيقتل أباه ويتزوج أمه. وحتى يحول الملك لايبوس دون تحقق النبوءة قرر التخلص من الطفل بتركه فى العراء لتفترسه الوحوش أو يموت جوعاً ومرضاً، ولهذا قام بتسليمه إلى أحد موظفى البلاط المخلصين سراً لتنفيذ الرغبة الملكية، لكن الموظف المخلص كان أشد إخلاصاً لإنسانيته ولم تمكنه رقة قلبه من القضاء على طفل رضيع، فسلمه إلى أحد الرعاى على الحدود بين طيبة وبين كورنثة فى موضع وصف بأنه صحراء قاحلة، ويتصادف أن يعجب بالطفل ملك كورنثة بوليبيوس Polybus وزوجته ميروبي Merope فيأخذا الطفل ويتبنياه ويطلقا عليه اسم أوديب.

أما التوراة فقد صاغت قصتها بقدر من الاختلاف لكن مع الاحتفاظ بالعنصر التأسيسى وهى فكرة استبعاد بطل الملحمة ونشأته فى بلاد غير بلاده، ومرباه فى قصر ملكى ثم عودته إلى أهله بعد ذلك كما

(١٠) نفسه : ص ٦٢.

عاد كل من أوديب وإخناتون، وهكذا تقول التوراة أن مولد موسى قد توافق مع ذروة الاضطهاد المصري للإسرائيليين المأسورين بمصر والذي وصل إلى حد قتل الأطفال الذكور من بنى إسرائيل، لأسباب تبررها نصوص المقدس بقولها:

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلّوهم بأنقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا، فاختشوا من بنى إسرائيل. فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل الحقل، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا. وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة واسم الأخرى فوعة وقال: حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعل كما كلمهما ملك مصر بل استحييتا الأولاد. فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما: لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد؟ فقالت القابلتان لفرعون: إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات، فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة، فأحسن الله إلى القابلتين ونما الشعب وكثر جداً وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتا. ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلًا كل ابن يولد تطرحونه فى النهر لكن كل بنت تستحيونها.

وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى فحبلت المرأة وولدت ابنا، ولما رآته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سبطا من البردى وطلته بالحر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من

بعيد لتعرف ماذا يفعل به.

فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء، فأرسلت أمتها وأخذته ولما فتحت رأت الولد وإذا هو صبي يبكي فرقت له، وقالت: هذا من أولاد العبرانيين فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي، فذهبت الفتاة ودعت أم الولد فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وارضعيه لى وأنا أعطيك أجرتك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا ودعت اسمه موسى وقالت: إني انتشلته من الماء.

خروج ١ / ٨ - ٢٢ و ٢ / ١ - ١٠

وفى هذا النص أكثر من إشارة تستحق التوقف معها، أولها قوله أن الإسرائيليين فى مصر قد أصبحوا أكثر وأعظم من المصريين وهو كلام يجافى العقل تماما فمن المستحيل أن يعيش سبعين إسرائيليا دخلوا مصر مع يوسف لمدة أربعة أجيال فقط فيصبحوا أكثر وأعظم من المصريين. وكان هذا هو السبب الذى ارتآه المحرر التوراتى لقتل ذكور بنى إسرائيل لأن الفرعون قد تخوف هذا العدد الهائل أن ينضم إلى أعداء مصر ويحاربوا المصريين.

وهكذا يخفى المحرر التوراتى عن عمد الأسباب الحقيقية لاستبعاد موسى فى سفته السابح بنيل مصر، ويلفق بدلا منها أسبابا لا يمكن لعاقل قبولها، وبعد قليل سنعلم السر فى هذا التلقيق العمدى. أما أن الفرعون خشى أن ينضم الإسرائيليون إلى أعداء مصر فهو تسجيل حقيقى لوقائع حدثت كان المحرر التوراتى يعلمها جيدا، لكنه وهو يعبث بتسجيل الأحداث فلتت منه هذه الواقعة، إلا أنه وضعها قبل موضعها من الزمن الذى حدثت فيه من بعد كما لو كانت مجرد تنبؤ وتخوف من الفرعون مما قد يحدث، ولم تسجل التوراة أن الإسرائيليين قد تحالفوا مع أعداء مصر عند الخروج، لكن وثائق التاريخ - حسب تفسيرنا ونظريتنا - لم تهمل تدوين هذا الحدث كما سيأتى بيانه فى حينه.

ثم شاردة أخرى بالنص تؤكد معرفة الإسرائيليين بالمصريين وعاداتهم معرفة وثيقة، ونقصد بتلك الشاردة قول الفرعون للقبائلتين: حينما تولدان العبرانيات وتظنرانهن على الكراسى، فما هو معنى " حينما تولدان العبرانيات وتظنرانهن على الكراسى "؟ لقد أوضحت الكشوف أن المصريين قد تميزوا من بين الشعوب بما يعرف بكرسى الولادة كأسلوب علمى متقدم فى تسهيل عمليات الولادة وقد أخذ العبرانيون بذلك الأسلوب بعد معيشتهم فى مصر كما هو واضح بالنص.

وهكذا تم استبعاد موسى إلى قصر الفرعون، ثم عاد إلى أمه وبيت أبيه لترضعه، لكنه ما أن بلغ فطامه حتى تمت إعادته إلى قصر الفرعون مرة أخرى.

الملحمة والتاريخ

ويقول لنا الباحثون في الأساطير والملحمة الشعبية أن هناك عناصر مشتركة في الملحمة الشعبية تتسم بها تلك الملحمة جميعاً على التفاوت في بعض العناصر أو التبادل بينها، ويرصد لنا (شكرى عياد) أهم تلك السمات في نقاط أساسية هي العناصر المكونة للملحمة الأسطورية كالتالى:

- (١) أم البطل ليس شرطاً أن تكون ملكه، لكنها من أصل ملكى.
- (٢) وأبوه ملك.
- (٣) كثيراً ما يكون الأب من الأقارب الأدنى للأُم.
- (٤) يولد في ظروف غير عادية.
- (٥) يقال أنه ابن إله.
- (٦) عند مولده يُراد قتله وعادة ما يكون صاحب الرغبة في قتله هو أباه أو جده لأمه .
- (٧) تتم تربيته في بلاد غير بلاده بواسطة أبوين بالتبني.
- (٨) لا نسمع عنه شيئاً طوال مرحلة طفولته منذ استبعاده حتى عودته إلى الظهور مرة أخرى شاباً يافعاً.
- (٩) حين يبلغ مبلغ الرجال يعود إلى بلاده.
- (١٠) ينتصر على ملك البلاد أو على عملاق أو وحش.
- (١١) يتزوج أميرة البلاد التى عادة ما تكون ابنة سلفه أو زوجته ويصبح ملكاً.
- (١٢) يحكم فترة من الزمن بدون أحداث تذكر.
- (١٣) يسن للبلاد قوانين جديدة وأعراف من نوع خاص.
- (١٤) نتيجة ذلك يتعرض لسخط الآلهة والرعية.
- (١٥) يتم إقصاؤه عن العرش ونفيه من مقر حكمه وبلاده.
- (١٦) يموت بعد ذلك ميتة غامضة.

(١٧) لا يخلفه أبناؤه على العرش عادة.

(١٨) لا يدفن جثمانه ولا يعرف له مكان يقينى.

(١٩) ومع ذلك تتعدد القبور والأضرحة التى تصبح مقدسة لهذا البطل (١).

ويكرر (عبد الحميد يونس) ما وجده من عناصر أسطورية مشتركة فى قصص البطل الملحمى فيقول: "إن البطل الملحمى أو بعبارة أدق البطل الشعبى يولد ويتعرض للأخطار فى طفولته، لكنه ينجو ويشب عن الطوق ويتفوق على الآخرين فى الطعان ويتحصن ضد الإصابات القاتلة، ويحارب التنين أو ما يماثله من وحش خرافى، ويطلب إليه أن يأتى بالمستحيل، وينفى عن موطنه، ويصارع أباه، ويحمى مجتمعه، ويفوز دون غيره من نظرائه بأجمل فتاه فى محيطه وعالمه. وتحقق بذلك النبوءة.. ثم يعبر إلى العالم الآخر بعد كفاح عنيف" (١١).

هذا بينما يفصل (على زيعور) بوصفه متخصصا فى الدراسة السيكولوجية للمأثور الشعبى والتراث فيقول: "تتميز أيضاً حادثة البطل بجمال خارق وشجاعة .. وعدم لهو، ويفضل الطفل التأمل والنظر إلى السماء والعزلة أو الصمت. وقد يكون ذا صفات خارقة وعلم لدنى .. ويعيش البطل مهدداً بالخطر طيلة السنوات الأولى من العمر، فقد يُخبأ أو يرمى أو يترك فى القفر .. وينقطع متخلياً عن المباهج مفضلاً الانعزال .." (١٢).

ويزيدنا زيعور تفصيلاً فيقول: "يتخيل الناس بطلهم إنساناً مولوداً على غير المألوف وأبويه غير مألوفين: أم غير عادية وأب يأمر بقتل المولود الذى سينجو، ثم فيما بعد يقتل الوحش الذى يخيف الجماعة فينقذها ويحررها، يتصل بالمطلق ويسبح فى السماوات وفى الأرضين" (١٣).

ثم يقرأ (زيعور) مجموعة أساطير عن البطل المخفق المنفى ليلحظ وجود عناصر أخرى مشتركة هامة تماماً أهمها خروج البطل على مألوف العادة وكسره للتحريمات المقدسة بل ربما تسبب فى إباحية جنسية، وأنه ربما تحول إلى إله معبود رغم إسقاطه للمحرمات ورفضه للشرائع والتكاليف والسعى لهدم الدين السائد واتسامه بالحق والغيرة فى الانتقام المروع الذى يرضى الحس الشعبى الذى يطلب دوماً الثأر من ظلم الأوضاع الاجتماعية فهو انتقام نظرى اجتماعى عبر صورة البطل (١٤).

وينبهنا (شكرى عياد) إلى أن تلك السمات والعناصر المشتركة جمعها (راجلان) الذى سبق لنا إيراد رأيه واعتبرها النموذج القياسى لجميع أساطير البطولة. لكن (عياد) من جانبه يرى أن هذا النموذج لا يكاد

(١) شكرى عياد : البطل فى الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، ط ٢، ١٩٧١، ص ١٢٠، ١٢١.

(١١) عبد الحميد يونس : الفولكلور والميثولوجيا، عالم الفكر، الكويت، مجلد ٣ عدد ١ ص ٤٦.

(١٢) د. على زيعور : قطاع البطولة والندرجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٠٥، ١٠٦.

(١٣) نفسه : ص ٣٤.

(١٤) نفسه : ص ٤١.

يتحقق كاملاً في غير أوديب، ثم يشرح موقفه موضحاً « ولعلنا لو اقتصرنا على عناصر ثلاثة رئيسية وهى: النشأة الغامضة للبطل وإن قيل أنه من أصل ملكى أو إلهى، وتولييه الملك أو الزعامة بعد عمل يدل على أنه محبوب بقوة خارقة وقد يكون هذا العمل هو القضاء على الملك الشيخ، وانتهاء ملكه بتخلي هذه النبوءة الخارقة عنه وانقلاب أحبابه عليه بحيث يموت مقتولاً بيد أحد هؤلاء الأحباب، أو من جهة لم يكن يتوقع أن يأتية منها الموت. لعلنا لو اقتصرنا على هذه العناصر الثلاثة لوجدناها .. متحققة فى قصص كثير من أبطال الأساطير كتحققها فى قصة أوديب » (١٥) .

ولدينا هنا نموذج آخر للبطل الملحمى يتعلق بموضوعنا تماماً بطلها الأسطوري اليونانى هرقل، حيث قد دارت أحداثها فى طيبة وفى بلاط كرايون نفسه بعد مقتل لايبوس، تكرر فى أحداثها الأسطورية عناصر تأسيسية من قصة أوديب / إخناتون / موسى، فنقول الأسطورة أن هرقل قد ولد من أبوين هما أمفتريون وألكمينا، وأن ألكمينا كانت بنت ملك ميسينى، لكنه لم يولد فى ميسينا بل فى طيبة، ثم تفاجئنا الأسطورة باكتشاف أن البطل لم يكن من أب بشرى بل هو ابن كبير الآلهة زيوس نفسه الذى عاشر ألكمينا بنت ملك ميسينى التى تعيش فى طيبة لا فى ميسينى إبان غيبة زوجها. ورباه أمفتريون وهو لا يعلم أنه ابن الإله وظنه ولده من صلبه، لكن فجأة تدخل على القصة عناصر غريبة تخل بتناسقها فيقتل هرقل رجلاً فى ساعة غضب مما يثير ضده أبيه أمفتريون الذى يعاقبه بأن يخرج من بيت العز ليرعى الغنم، ثم لا يكتفى بهذا العقاب بل يأمره بمواجهة أسد كيثابرين الذى كان يعيثُ فساداً فى المنطقة، ويتغلب هرقل على الأسد ويعود إلى طيبة مكللاً بالنصر العظيم الذى أحرزه. ثم نفهم أن هرقل كان شديد الألم من خضوع طيبة للمينويين فقام بتسليح أهل طيبة ودرّبهم على القتال وقادهم إلى الحرية، فكان أن كافأه كرايون ملك طيبة بأن زوجه من ابنته وجعله حامياً للمدينة (١٦).

والآن

إذا كانت تلك النماذج المشتركة للأساطير الملحمية تتطابق تماماً مع أسطورة أوديب، فهل بالإمكان أن نعثر فى حياة الملك إخناتون وفى قصة موسى على ذات النماذج؟

الملحمة التقليدية تؤكد أن البطل وريث ملكى حقيقى لأن أباه ملك، بينما أمه من أصل ملكى، وهو ما يعنى أن الأب ملك بالتأكيد والقطع لكن أمه ربما تعود إلى أصل ملكى عن قرابة بعيدة أو أنها من أصل ملكى لدولة أخرى، لكنها ليست ملكة وطنية بالقطع. ونحن نعلم أن إخناتون هو ابن الفرعون المصرى الأشهر آمنحتب الثالث الذى حكم على أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان، لكننا نعلم فى الوقت نفسه أن زوجته (تى) أم إخناتون يشوب أمرها شك كبير، فهى عند بعض المؤرخين من عامة الشعب، وعند البعض الآخر أنها من البلاط الميتانى / المديانى.

(١٥) شكرى عياد : البطل ... سبق ذكره ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٦) نفسه : ص ١٢٤ .

وإن تتابع متغيرات الأحداث السريعة فى المنطقة فى تلك الحقبة يمكنها أن تلقى ببعض الأضواء على ما حدث. كان البلاط الميتانى / المديانى فى زمن الأسرة الثامنة عشرة - التى حكم إيانها الملك آمنحتب الثالث - الصديق الصدوق للبلاط المصرى، لكن فى زمن تحتمس الرابع والد آمنحتب الثالث بدأت هذه العلاقات تتبدل بعد سقوط حليف مصر الملك الميتانى شورتانا / ونظنه كان (ثور - آتون) بعد الانقلاب الذى قاده (توعى) واستولى به على عرش مديان / ميتان. وتحول إلى العداء الشديد للبلاط المصرى، لكن فى عهد آمنحتب الثالث وفى منتصفه تقريباً عاد الود بين الأصدقاء مرة أخرى بثورة قادها حليف مصر الوريث الشرعى للعرش الميتانى (دوشراتا / ذو الشرى) ابن شورتانا ضد (توعى) وتمكن من هزيمته والاستيلاء على الحكم، وقام بالعودة السريعة إلى الحلف مع مصر، ولا نظن مصر كانت بريئة تماماً من ثورة دوشراتا ضد توعى، بل ربما شاركت مشاركة مباشرة عسكرية لإعادة العرش لأنصار مصر فى ميتانى. وهذا الفرض من جانبنا تدعمه أخبار المعارك العسكرية المنسوبة لزمن آمنحتب الثالث بالوثائق المصرية، ويكذبها المؤرخون ويرون أنه لم يكن فرعوناً مقاتلاً. ويفسر لنا أيضاً الإشارات المتكررة فى زمن آمنحتب عن غنائم وصلت بلاده من آسيا. كما نعلم أن الملك (آمنحتب الثالث) قد تزوج من الأميرة الميتانية (جيلوخيا) أو (يلوهيا)، فهل كانت يلوهيا هى ذات الملكة (تى). ربما نعم وربما لا لكننا نعلم بالقطع أن الملكة تى كانت ميتانية. ويترتب على ذلك أن يكون والدها يويا هو (شورتانا) الملك الميتانى الذى خلعه (توعى) وتولى مكانه، وهو ما يفسر لنا عدة أمور هو سر العداء المفاجئ الذى طبع سياسة ميتانى تجاه مصر بعد اختفاء (شورتانا)، حيث لجأ الملك المخلوع ورجاله وربما حاشية واسعة من بلاطه إلى مصر، كالعادة التى نراها فى حلفاء مصر المخلوعين فى ممالك بلاد آدوم وهو ما حدث بعد ذلك مع الملك هدد / حداد الذى أسلفنا الحديث عنه. بل ونمد الخيط على استقامته فنفترض أن شورتانا أو (ثور - آتن) هو ذات الشخص الذى جاء ذكره بالكتاب المقدس باسم (يثران) كاهن مديان حمى موسى. وقد سبق لنا فى كتابنا (قصة الخلق) أن ناقشنا هذا الاسم وانتهينا إلى أنه أحد الأسماء القديمة التى تفخر بالانتساب إلى الثور كرمز إلهى وملكى.

وهذا الفرض يفسر لنا ما حازه يويا من ألقاب، فهو الذى « أغناه ملك مصر »، وكان يكفى فى القلب القول « أغناه الفرعون » أو « أغناه الملك » لكن الإلحاق التشديدى « ملك مصر » يعنى المقابلة بغير المصرى، فهو غير مصرى أغناه ملك مصر. كما حاز هذا الرجل الأجنبى على شرف مركز عسكرى عظيم، فقد كان قائد سلاح الفرسان « وكيل لملك للعجلات ». وهو منصب يليق به بحسبانه من البلاد التى جاءت معها العجلات والخيول فهو الخبير بشئونها. والمعلوم أن العجلات والخيول ظلت فى مصر شيئاً ابتدئياً لا يشكل سلاحاً منذ خروج الهكسوس حتى زمن آمنحتب الثالث الذى قرر أن لديه ما يكفى من عربات وخيول لإنشاء سلاح جديد فى قواته المسلحة، وكان يويا أول قائد عسكرى ومؤسس لسلاح العجلات فى الجيش المصرى.

ثم يفسر لنا كيف يكون البطل ابن ملك باليقين لكن أمه (من أصل ملكى) حيث نحتسب أن قصة إخناتون كانت النموذج الأسمى لأساطير الأبطال بعد ذلك. ثم يفسر لنا ثالثاً كيف أمر آمنحتب الثالث بدفن يويا وتويا فى وادى الملوك فى طيبة والقاصر على المدافن الملكية المصرية فقط. بكل ما لهؤلاء الملوك من

قداسة وكان مدعاة للاستغراب والدهشة من جانب الباحثين المحدثين الذين رأوا في يويا شخصا من عامة الشعب، ثم رابعا يفسر لنا وجهة نظر الطب التشريحي التي أكدت أن يويا إطلاقا لا ينتمى في تركيب جمجمته للشعب المصرى، وأنه كان ساميا بالقطع واليقين، بل وبالتحديد من تلك الفئة ذات الأنف الببغائى المقوس.

ثم نعلم أيضاً أن البلاط المصرى قد استقبل أميرة ميثانية أخرى هى (تادوهيبا) أو (تادوخيبا) (تادوكيبا) فليس من المؤكد إطلاقا النطق الصحيح تماما ويعتقد جاردرنر وجله محترمة من المؤرخين أنها ليست سوى الجميلة نفرتيتى التى تزوجها الفرعون آمنحتب الرابع / إخناتون ابن آمنحتب الثالث^(١٧). وربما يعضد هذا اسمها نفسه لأن نفرتيتى اسم له معنى هو الجميلة قد أتت أو أقبلت. وعليه تكون نفرتيتى شقيقة للملكة تى، ويكون إخناتون قد تزوج بذلك من خالته الصغيرة.

ثم ننقل إلى العنصر الثالث من عناصر الملحمة والذى يؤكد أن أب البطل عادة ما يكون من أقارب الأم، ومعلوم أن آمنحتب الثالث كان ابنا لميثانية بدوره هى (موت أم أويا) مما يؤكد قرابة آمنحتب الثالث والد بطل قصتنا إخناتون من زوجته (تى) الميثانية التى لاشك كانت هى و(موت أم أويا) من البلاط الميثانى.

أما العنصر الرابع فهو ولادة البطل فى ظروف غير اعتيادية بالمرّة وقد ولد إخناتون فى البيت المالك المصرى فى زمن كانت فيه مصر أعظم إمبراطوريات زمانها، لكنها من الداخل كانت قد بدأت تعاني خلا واضحا فقد انتشرت فى مصر خاصة فى بيوتات النبلاء العادات والثقافات الميثانية نتيجة وجود عنصر نسائى واضح قلد به النبلاء سيدهم الملك، كما كان بلاط العرش نفسه يموج بالأجانب وبخاصة العنصر الميثانى. وعندما ولد إخناتون كان الصراع قد بلغ مداه بين آمنحتب الثالث والكهنة. مما دفعه إلى رشوة القابل للارتشاء من كبراء كهنة آمون لأن الصراع الخلافى كان حول شرعيته ذاته كملك، لأن أمه ليست مصرية وليست من الدم الملكى مما يعنى مخالفة واضحة للقوانين المقدسة. وضمن تلك الرشاوى المعبد العظيم الذى أقامه بطيبة للإله آمون، حتى أمكن تلافى ذلك العيب الشرعى بقول الكهنة أن الإله آمون هو الذى أنجبه من أمه بعد أن تمثل لها بشراً سويا. لكن المشكلة تفاقت بزواجه من أميرة ميثانية رغم وجود الوريثة الشرعية (سيت آمون)، وجعل من تى الزوجة الرئيسية أو الملكة ولم يجعلها من الزوجات الثانويات أو المحظيات، لذلك كان ميلاد ولده إخناتون هو المخالفة الصارخة لكل قوانين السماء.

ورواية مانيتون التى نقلها إلينا يوسفوس عن فتنة أوزرسيف كانت تتحدث عن ملك مصر حينذاك باسم آمنحتب / آمنوفيس ، فإن ذلك يضيف رصيذاً من الظروف غير الاعتيادية التى ولد فيها البطل الملحمى المفترض أنه إخناتون، فقد ولد وبلاده فى أزمة طاحنة.

وعن فتنة أوزرسيف ينقل يوسفوس عن مانيتون القول: إنه بعد طرد الهكسوس من مصر بقى بعضهم ممن لم يستطع الفرار، فوقعوا أسرى بيد المصريين حيث سيموا العذاب الطويل، وفرضت عليهم السخرة

(١٧) جاردرنر : مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٣٩.

بالعمل فى المحاجر زمنا طويلاً حتى طلبوا من الملك أن يخصص لهم مدينة حواريس عاصمة الهكسوس القديمة بعد أن خوت على عروشها. فاستجاب الملك لرغبتهم فلما أقاموا بها وجدوا المكان حصينا وصالحا للتمرد، وأقاموا على أنفسهم قائداً من كهنة عين شمس اسمه أوزرسيف سن لهم شرائع جديدة تعادى العبادات المصرية، وحرّم عليهم الانضمام لغير رابطتهم وأمرهم بالاستعداد لقتال الملك آمحتب. وأرسل السفراء إلى الرعاة الهكسوس فى أورشليم وطلب منهم مساعدته مع وعد منه بإعادتهم إلى مدينتهم حواريس، وأنه سيمون جيوشهم بالغذاء الوفير وأن فى ميسوره إخضاع البلاد لسلطانهم مرة أخرى. وقد استجاب له الرعاة وخفوا على وجه السرعة إلى مصر فى عدد ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل، وهو ما أمكن تسميته بالغزوة الهكسوسية الثانية، ويفسر لنا قول التوراة بلسان الفرعون عن عبيده الإسرائيليين: " فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض "، وقد سبق هذا النص أحداث الخروج ليتضمن فى صيغة مضمرة ما حدث بالفعل من تحالف بين هؤلاء المستعبدين وبين ملوك الهكسوس المطرودين من مصر إلى أورشليم حسب رواية مانيتون.

ومما يؤكد أن آمحتب المقصود هنا هو آمحتب الثالث أو الرابع إخناتون، أن القصة تقول: إن الفرعون آمحتب تذكر ما سبق وتتأ به الحكيم آمحتب بن حابو. ونحن نعلم أن آمحتب بن حابو قد عاش زمن آمحتب الثالث والرابع. فأرسل آمحتب ولده الذى جاءنا له ثلاثة أسماء هى سيتوس ورمسيس ورهامبيس إلى صديق له فى بلاد مجاورة لتأمينه.

وقد علمنا مما سلف أن المصريين قد أسقطوا أسرة العمارنة تماماً من التدوين بحيث بدا أن ابن آمحتب الثالث المباشر هو حورمحب مؤسس الأسرة التاسعة عشر. الذى دونه اليونان (رهامبيس) والذى يليه (رمسيس الأول) ثم (سيتى الأول). وواضح أن هذه المنطقة الزمنية قد أصيبت بالخلل لدى المؤرخ مانيتون، فافترض أن أحد هؤلاء كان ابنا مباشراً لآمحتب الثالث، ولكن لم يعلم بوجود مسافة تفصلهم عن زمن آمحتب الثالث، ولم يعلم أن ابن آمحتب الثالث كان هو آمحتب الرابع إخناتون، وليس حورمحب ولا رمسيس ولا سيتى. لكنه يسوق لنا معلومة هامة تواترت حتى وصلته وهى أن آمحتب الثالث أرسل ابنه وكان غلاماً صغيراً فى الخامسة من عمره إلى صديق للبلاط المصرى وهو ما يفصح عن استبعاد إخناتون صغيراً إلى المكان الذى اخترناه لمسرح أحداثنا عند أخواله فى مديان.

ويؤكد لنا ذلك ما قرأناه فى نسخة من خطاب آمحتب الثالث إلى عبدى خيبا / عبدهفا صديقه وتابعه المخلص على مدينة (قيله) التى ربما كانت (أيله) أو (قينه) المعلومة فى شرقى سيناء الآن. وحرفى اللام والنون من الحروف السقف حلقية سهلة التبادل.

ويقول لنا (ماكلاستر): " وقد كان فرعون يثق به فقد تلقى خيبا منه أمراً لم تكشف لنا الرسائل ماهيته، ولكنه وعد بتنفيذه بأمانة وإخلاص " (١٨). وهذا الأمر السرى هو ما نظنه يتعلق بإخناتون. ثم نتذكر الآن

(١٨) ماكلاستر : الأقوام الجدد ... سبق ذكره، ص ١٠١.

لوحة الكرنك التى يقف فيها آمنحتب الثالث على سفينة يودع فيها ابنه الذى تم محو اسمه واستبدل بحور محب. وما يعنينا هو أن الأحداث الآن قد أمست واضحة وأجابت على سؤالنا الذى سبق وطرحناه وراء السر فى ظهور الأب والإبن على سطح سفينة بحرية، ثم يختفى بعدها ذكر هذا الابن تماماً من كل المدونات والنقوش والرسوم، ليظهر فجأة صبيا ملكا بعد موت أبيه.

ولا ريب أن طريق البحر كان هو الأكثر أمناً إزاء توتر الموقف على الحدود البرية مع سيناء، ومن هنا نعتقد أن السفينة الملكية التى كانت تحمل ولى العهد قد اتخذت ذات خط سير بعثة حتشبسوت إلى بونت / أدوم / مديان، وهو الترجيح الأفضل من تهريبه من القصر الصيفى فى زارو حيث وضعته تى وهريته إلى أهلها خشية عليه عبر صحراء سيناء إيان فتنة كبرى كما ذهب أحمد عثمان. وكان آمنحتب - فى رواية مانيتون ويوسفوس - فرعوناً من نوع خاص، كان يعتقد أن الحرب عمل ضد الآلهة، لذلك ذهب برجاله إلى ملك أثيوبيا حليفه ليحل ضيفا عليه لمدة ثلاثة عشر سنة، يقول: إن القدر كان قد قضى بها سنوات منفى لآمنحتب وولده، وهو ما يشير إلى تقدير سماوى يفرغ صداه فى نبوءة أبى الهول.

وبعد انقضاء المدة التى حددها القدر عاد آمنحتب بجيوشه لطرد الرعاة من حوارييس، وجاء ابنه بجيش آخر، مما يعنى أن هذا الابن كان لدى دولة أخرى لها جيوشها وقوامها السياسى والعسكرى، واشتركا فى قتال الرعاة وهزمهم وطاردهم حتى سوريا^(١٩).

وهكذا كان ميلاد بطلنا فى ظروف غير اعتيادية إطلاقاً، مما يؤكد العنصر الرابع من عناصر الملحمة الأسطورية. أما العنصر الخامس فهو القول أن البطل ابن إله، وقد علمنا أن آمنحتب الرابع / إخناتون كان ابن إله مرتين، الأولى لأن والده آمنحتب الثالث قد نصب نفسه إلهاً وعبدته الناس باعتباره الابن المباشر للإله آمون، وعندما عاد إخناتون إلى مصر حاقداً على أبيه الذى استبعده مع نبوءة أبى الهول الطيبى الآمونى، وقام بمحو اسم أبيه أينما عثر عليه فى قتل أبدى مُتعمد، أعلن نفسه ابناً مباشراً للإله الجديد آتون. والعنصر السادس يقول أن الطفل البطل تعرض عند ولادته لمحاولة اغتيال وأن هذا الاغتيال تم بتدبير من أبيه أو جده لأمه، فهو ما يلتقى بمؤامرات الكهنة والعسكر لإقرار القواعد الإلهية بالتخلص من الأطفال الذكور للأسرة الملكية، ويبدو أن الفرعون نفسه كان ضليعاً فى الأمر وفضل نفى ولده بدلاً من قتله أو أرسله سراً إلى حلفائه وأنسابه الميتانيين بينما أعلن عن موته. وهكذا يتحقق العنصر السابع الملحى فتنم تربية البطل فى بلاد غير بلاده بواسطة أبوين بالتبنى. وبالفعل يختفى ذكر أى ابن لآمنحتب الثالث من جميع الآثار تماماً، ليتحقق العنصر الثامن وهو أننا لا نسمع عن البطل أى شئ طوال مرحلة طفولته منذ استبعاده حتى عودته. والطريف فى الأمر أننا لو أخذنا بحسابات مانيتو فى أن الطفل استبعد وعمره خمسة أعوام وعاد ليحارب الرعاة بعد ثلاثة عشر عاماً بالاتفاق مع أبيه وجيوش مصر، يعطينا لظهور الابن فى مصر ملكاً عمراً هو ثمانية عشر عاماً، وهو عمر إخناتون عندما اعتلى عرش مصر بالتمام والكمال. ويتحقق بذلك العنصر التاسع فالبطل حين يبلغ مبلغ الرجال يعود إلى بلاده.

(١٩) لويس عوض : مقدمه ... سبق ذكره ، ص ١٤ ، ١٥ .

أما العنصر العاشر فهو أنه عند عودته إلى بلاده يتغلب أولاً على ملك البلاد أو على وحش عملاق، وقد تحقق الأمران مع أوديب كما علمنا عندما قدم حلاً للغز السفنكس وقتل أباه لايبوس وهولا يعرفه، ثم أنه قبل ذلك قد تحقق كلا الأمرين مع إخناتون، فقد بادر عند عودته إلى هدم نبوءة أبى الهول الطبيعى الآمونى وأمر بإلقاء تماثيل أبى الهول من على الجبل، ثم قام بمحو اسم أبيه ليقتله بذلك قتلاً أبدياً لا حياة بعده.

ويحقق أوديب العنصر الحادى عشر فيتزوج أميرة البلاد التى هى أمه يوكاستا بينما يتزوج إخناتون من أمه تى، وهو الأمر الذى يجب الوقوف معه قليلاً قبل استمرار المقارنة بين العناصر الملحمية وبين واقع الأحداث فى بلاد النيل .

لعلنا نذكر كيف كانت أهم تجليات الإله السيناوى هى التجلى الخصبى ممثلاً فى قضيب الذكر / المشروم / البركان، وأن البركان عندما يقذف بمصهوراته مع هيئته المرتفعة كالقضيب العظيم ومقذفه القوى، وما يودى إليه من خصوبة عالية فى الأرض، أدى إلى تصويره قضيباً إلهياً عظيماً. وهو ما يبرر لى شخصياً أمراً حرت فيه طويلاً حيث كانت كل الديانات الخصبية عند الشعوب القديمة تنظر إلى الأرض باعتبارها إلهة أنثى تلد الزرع، وترى السماء إلهاً ذكراً دائم التخصيب لأنثاه الأرض بمنيه المطرى. عدا المصريين تحديداً الذين تفردوا بجعل الأرض ذكراً هو الإله (جب) يلقيح السماء الأنثى نوت لتلد الكون والكائنات. وقد وجدت فى مسألة القضيب الإلهى / البركان تفسيراً واضحاً للأمر فهو قضيب الأرض الإله المذكر الذى يقذف بحممه التى تأخذ شكل المشروم المختون ختانا نموذجياً، فيتصوروه قاذفاً بالكائنات وبالنجوم ومصدراً لخصب الأرض، وتصبح نوت السماء بذلك إلهة أنثى تقبل مقذوفاته لصنع الحياة. وقد علمنا من أسطورة تيفون أنه كان حبيباً تحت بركان، وأن دمدومات البركان لم تكن سوى صوت هذا الإله الحبيب. والطريف أن اسم الذكر الإلهى جب (الأرض) هو أحد أسماء الإله سبت فهو الجبت والطاغوت وهو الأمر الذى يضيف مزيداً من الرصيد لتحديدنا بلاد بونت بأنها شرقى سيناء / أدوم، ووصفها دون غيرها فى نصوص مصر بأنها أرض الإله، لأن هناك كان البركان العظيم، أعظم ظاهرة يمكن أن تسلب لب الإنسان. وهناك كانت تقع ميثان أو مديان.

والمعلوم إضافة للبركان الذى وصفته التوراة قرب جبل كاتربن الحالى، فإن بلاد السراة كانت - كما تدل تربتها الآن - مركزاً لأكثر من بركان نشط فى ذلك الزمان، ونذكر المسمى الإلهى (ود) أحد أرباب السراة، وأنه كان هو نفسه (هد) (هداد) (حداد)، وقلنا عن أن (يهود) يمكن ردها إلى (هـ - ود).

كانت العبادة هناك متعددة التجليات نعم، لكن الخصب والجنس كان عمادها وعمودها وعمدتها، ومن هنا نفهم السر فى ذلك العرى العجيب فى فنون العمارة، ولماذا كانت نفرتيتى وتى وبناتهما يظهرن عرايا الفروج أمام الناس. لقد كان إفصاحاً عن طقس لا بد يلزم العبادة الجنسية التى تقُدس أعضاء التناسل ولا ترى فى إظهارها عيباً ولا كارثة أخلاقية، بل لونا من الاحترام الواجب واللائق للمقدس والإعلان عن هذه العبادة بسفور، لأن إخناتون كان دوماً يؤكد أنه الفرعون الذى يعيش فى الحقيقة.

ولا يفوت عين مدققة أن الذين ذهبوا إلى أن يويا وتويا والدا الملكة تى زوجة أمنتب الثالث مصريان من بلدة إخميم، قد قالوا بمصريتهما لأن يويا كان كاهنا للإله (مين) فى بلدة إخميم، ويفترض أنه نشأ هنا وربى وتدرج فى مدارج السلك الكهنوتى حتى صار كبير كهنة (مين). ويقول هنا أدولف إرمان: " إن مين هو إله المنطقة بين إخميم وقفط وبين طيبة وأرمنت، وقد صوروه على شكل رجل بقضيب منتصب وعلى رأسه ريشتان عاليتان وذراعه اليمنى مرفوعة وبيده سوط مثلث فى النهاية، وعده المصريون القدامى إله خصب يسرق النساء وسيد للعذارى. وتذكر الأساطير كونه قد أخصب أمه التى قام بها حسب أسطورة أخرى إله الشمس وهو إله خصوبة الأرض. واعتبر مين أيضاً إله البقاع الشرقية والمنطقة بين البحر الأحمر والنيل والذى تسير فيه القوافل ، وهو إله الصحراء الشرقية، كما عبده أهل بونت وربما قدس فى وقت ما بطيبة. وهو مقابل الإله بان عند اليونان " (٢٠).

ولنراجع هنا تلك الصورة التى مثل المصريون بها إله الشبق والجنس والخصب مين، فعلى رأسه ريشتان والريشة سمة الملوكية عند البدو الرعاة وذراعه الأيمن المرفوع هو صورة دائمة متكررة للإله البعل حداد بعل صافون، والسوط المثلث الذى يمسك به هو الصاعقة ذات الثلاث شعب التى يحملها البعل، وهى الأمور كلها التى تؤكد أن مين كان أحد التصورات المصرية للبعل حداد إله الجبل الأقرع عند آدوم وشرقى سيناء حيث مديان/ميتان وآدوم. ويؤكد ذلك أن المصريين اعتقدوا أنه رب المناطق الواقعة فى صحارى شرقى مصر على طريق القوافل التجارية. أما الأكثر إبهاراً هو القول أنه كان رب بونت، التى رأيناها تقع عند العقبة والبتراء حتى البحر الميت. لقد جاء شورتانا أويثرون إلى مصر حسب نظريتنا لاجئاً على زوج ابنته ملك مصر ليحمل اسم (يويا) ، ويكرس كاهنا للإله البعل الذى كان يعبده فى وطنه، لكن باسم مصرى قديم هو (مين) الرب القضيبى الذى تم تصويره هنا فى هيئة رجل بقضيب منتصب . أما أن يتم العثور على تمثال الملكة تى الأشهر فى سيناء تحديداً على مسافة لا تتجاوز العشر كيلو مترات إلى الغرب من جبل كاترين المظنون أنه كان الجبل المقدس حوريب فى التوراة وأنه كان الجبل البركانى فهى دلالات أخرى تؤكد صدق مذهبنا إليه. ناهيك عن تكوين وجه تى الأسمر السيناوى الواضح الذى لا يمت للجنس المصرى المعروف لدينا آنذاك بصلة.

المهم لدينا هنا أن (مين) كان يخصب أمه (!؟) وهو أمر يستهجنه المصريون تماماً كلون من التقاليد البشرية الاجتماعية لكنهم كانوا لا يرون فيه عيباً على مستوى الآلهة فيجوز لها ما لايجوز للبشر. ولم يقتصر نكاح الأم على الإله المشكوك فى مصريته (مين) بل نجده واضحاً معلناً لدى الرب الأعلى والأكبر إله الملوكية والإمبراطورية رب طيبة الأعظم ورب الإمبراطورية المصرية (أمون) أو (آمين). انظر مثلاً تلك الترتيلة التى كانت تتلى فى قدس أقداس آمون بالكرنك يوم الصلاة الجامعة :

الحمد لك يا آمون رع يارب الكرنك

المسيطر فى طيبة

(٢٠) أدولف إرمان : ٤٢، ٤٤.

ثور أمه وأهم من فى حقله

واسع الخطى وسيد كل من فى الصعيد

رب أرض الماتوى وأميربونت

من تحب الآلهة رائحته الطيبة عندما يأتى من بونت

وتتضوع رائحته عندما يأتى من أرض الماتوى

عندما يأتى من أرض الإله (٢١)

ويشرح هنا (أحمد فخرى) فى حاشية على تلك الترتيلة بقوله إن التعبير " ثور أمه " لقب من ألقاب آمون. وأن الإشارة هنا للأم يقصد بها ربة السماء نوت، لأن هناك نصوصاً أخرى تذكرها باعتبارها زوجة آمون " (٢٢) ومعنى النص هنا مع تعقيب فخرى إنما يعنى أن آمون كان يخصب أمه السماء. ولعله يلتقى إلتقاء واضحاً مع تفسيرنا السابق لعلاقة البركان بالسماء. ويتأكد لدينا علاقة هذا الجماع الإلهى بين الإلهة الأم والإله الإبن فى قول الترتيلة أن آمون ثور أمه والثور كان رمز الخصب الأول فى المجتمعات الإنسانية القديمة على التعميم. وقد ربطت الترتيلة بين هذا الجماع التخصيبى وبين كون آمون هو أهم من فى الحقل، أى أنه المخصب الطبيعى الأول الذى بفعله هذا يتكاثر الزرع والخير. أما الأهم هنا فهو ما تؤكد تلك الصلوات المرتلة من صدق نظريتنا التى يصطلب عودها (الخرساني) طوال الوقت، حيث تؤكد الترتيلة أن آمون رب طيبة ليس فقط ربا فى مصر إنما هو أيضاً رب بلاد بونت التى تتكرر مرتين على التبادل مع أرض الماتوى، والماتوى هو الميطان أو ميتانى أو كما ذهبنا نحن، هى مديان بسياء الشرقية. وقد قام فرضنا التأسيسى على أن بلاد ميطان تقع فى محيط وادى عربية كذلك تقع هناك بلاد بونت حيث عاش تجار العالم القديم، وكانت أهم بضائعه التين والعطور والبخور (اللبان على أنواعه وألوانه)، وهو ما تؤكد الترتيلة بمجيئ آمون من هناك مضوعاً بالروائح الطيبة. وزيادة فى التأكيد فإن الترتيلة تؤكد لنا نظريتنا فنقول : إن هناك كانت تقع (أرض الإله).

وفى نصوص مصرية أخرى نجد الإله حورس يلقب بـ (ثور السماء) الذى هو " زوج لأمه التى تلده مرة أخرى " لذلك كان لقبه الثانى هو " عجل أمه التى تحمل منه وفيه ". وقد عقب (كونراد) على هذا الشذوذ فى العلاقات الاجتماعية بجماع الأم أو الأخت أو البنت بأنه كان ينعكس فقط فى التقاليد الملكية، وإن لم يشرح لنا (كونراد) كيف كان ذلك وما هى براهينه؟ (٢٣).

ومن جانبه يقول لنا المؤرخ وعالم المصريات (سليم حسن) أن " أعظم الآلهة المحلية التى كانت تعبد فى الدلتا هو الإله آتون الإله المحلى للمقاطعة الثالثة عشرة ومقرها عين شمس ... هناك تمثل الشمس على

(٢١) د. أحمد فخرى : تاريخ شبه جزيرة .. سبق ذكره، ص ٤١٦.

(٢٢) الموضع نفسه .

(٢٣) الخشاب : تاريخ اليهود ... سبق ذكره ، ص ١٢٩.

هيئة عجل من الذهب ولدته إلهة السماء، وفي خلال النهار يكبر ويصبح ثورا ويسمى كاموتف أى ثور أمه. لأنه يلقيح البقرة لأجل أن تضع شمساً جديدة لليوم التالي " (٢٤).

والمعلوم أن المصري القديم كان يتصور السماء فى هيئة بقرة عظيمة هائلة تلد النجوم والكواكب التى ترصع بطنها. ويبدو لنا أن هذا الخلط الابتدائى الضرورى للخصب بين ابن يلقيح أمه ويكون هو أبو نفسه الذى يولد بعد ذلك، كان تأسيساً لذات الخلط بيت ذات الأقانيم فى آخر الديانات الخصبية الفدائية، حيث أصبح يسوع المسيح هو الله وهو ابن الله فى وقت واحد، فكان يسوع أباً لنفسه.

وما دمنّا بصدد المسيح وزمنه نلّح إلماحا خاطفا إلى أن زمن المسيح كانت فلسطين تحت النير الرومانى، وقد أجهض الرومان عدة ثورات يهودية ضدهم وقاموا بتعيين والى من قبلهم أتوا به من بلاد آدوم. كما تم تكوين هيئة حكومية تابعة وموالية جميعاً للرومان، وكلها آدوميين متهودين. وكان الوالى هو (هيرود أنتباتس الآدومى)، ورئيس مجمع السند هارين كان آدومياً بدوره، وحمل اسماً شديداً التصديق على كشوفنا بشأن بلاد بونت باعتبارها بلاد آدوم، فقد كان رئيس السند هارين القادم من بلاد آدوم يحمل لقباً ينسبه إلى وطنه فهو بيلاطس البُنطى نسبة إلى موطنه بنط / بنت / آدوم.

وإذا كانت المسيحية هى الامتداد الواضح المطابق فى كل تفاصيله لديانات الخصب القديمة عموماً، وللأوزيرية المصرية خصوصاً، فإن لكتانيتوس الكاتب المسيحى المخلص، وصف فى القرن الثالث الميلادى تمثيلية آلام وقيام أوزير من بين الموتى بعد ثلاثة أيام من موته فى عيد القيامة المجيد، أكد فيها أن المسرحية جعلت من أوزيريس زوجاً لإيزيس وابناً لها فى الوقت نفسه (٢٥) وقد فسر كلام لكتانيتوس — وحتى الآن — باعتباره لم يفهم المسرحية لأن حور كان هو الإبن وليس أوزير.

وإذا كانت القواعد الاجتماعية فى مصر قد حرمت مبكراً زواج الرجل من أمه أو ابنته، ورسخت تلك القاعدة بمرور الوقت حتى أصبحت جريمة ووزراً يستحق الاستهجان والعقاب الشديد بين بنى البشر، وأنهم لم يرو ذلك نقيصة فى عالم الآلهة لأنها آلهة. فإن عالم الشرق القديم كان جميعه لم يزل ينظر إلى وجوب التخصيب بين الأم الإلهية وولدها كضرورة لتخصيب الأرض والزرع والحيوان والإنسان، ففى الملاحم البابلية نجد الإله القمرى (إنليل ، أو ياليل ، أو ليل) بعد فصله للسماء عن الأرض يجامع أمه (كى) الأرض وياتحادهما (القمر السماوى وكى الأرض) يخصب الكون ويخلق الإنسان على الأرض (٢٦).

والمعلوم أنه فى بابل وبلاد العراق والشام القديم كانت العبادات الجنسية الخصبية تمارس على نطاق واسع، وفى أعياد عشتار وتموز وأدونيس كانت حفلات الجنس الجماعى التى تتم فى العراء على العلن تتفشى تشيهاً هائلاً، أى رجل لأى امرأة حصاً للطبيعة وتقليداً للآلهة كى تحرض القوى الإخصابية الكونية.

(٢٤) سليم حسن : مصر القديمة .. سبق ذكره ، ج ١ ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢٥) شكرى عياد : البطل ... سبق ذكره ص ١٣٣ .

(٢٦) حسنى حداد وسليم مجاعص : بعل هداد ... سبق ذكره ، ص ٤٢ .

لكن بعض الفرق الدينية كانت تجعل من جماع المحارم أحد الفروض الدينية كما سبق وشرح لنا فليكوفسكى، وأن ذلك كان يتم في بلاد ميثان التي احتسبها تقع شمال فارس، وبحسبان ذلك التقليد تقليداً فارسياً آرياً. لكننا نقرأ عند المؤرخ (هروشيوش) أن سميراميس الملكة البابلية المشهورة كانت من أتباع تلك العقيدة، فيحكى عن كونها كانت تعلن أنه « لا ينبغي أن يكون بين الآباء وأبنائهم حشمة ولا امتناع في مناكحة بعضهم بعضاً كيفما أرادوا ذلك . ويقال أن من سببها صار في العراق إتيان الأمهات والبنات » (٢٧).

والمعلوم أن المجوسية نحلة فارسية آرية، وعن أصحابها يقول المؤرخ العربى المسعودى : « وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف في النكاح بين البطون ولم يتحر المخالفة، ولهم في هذا المعنى سر يدعون فيه الفضل في صلاح الحال بتزويج الأخ من أخته والأم من ابنها » (٢٨). وبشكل هلامى غير واضح أدرك المؤرخون القدامى أن هناك علاقة ما تربط بين المجوسى واليهودى، وتلك علاقة علمناها واضحة في بحثنا هذا حيث نشأت اليهودية وربت مع الجنس الإسرائيلى الأرامى ومع الآريين المجوس فى النقب وآدم وشرقى سيناء. وتأكيداً لذلك روى المسعودى حواراً حدث فى بلاط أحمد ابن طولون بـ قاهرة المعز بين مصرى وبين طبيب يهودى إذ قال المصرى لليهودى: أنت مجوسى فيعجب اليهودى فيوضح القبطى بأن ذلك لأنهم يشرعون كالمجوس فالرجل يتزوج بنت أخيه، وإذا مات فعلى أخيه أن يتزوج زوجة أخيه الميت لينجب منها نسلاً باسم أخيه الميت، وفي هذه الحال فإن هذه الأرملة ربما كانت بنته. وتأكد ابن طولون بالبحث أن ذلك الطبيب اليهودى تحديداً كان شهادة دامغة على صدق المصرى إذ ثبت أن هذا اليهودى قد تزوج امرأة أخيه وكانت ابنته. ولما احتدم النقاش بين المصرى واليهودى قرر المصرى تقبيحه بشهادة تلمودية فقال له : « إن الابن الأكبر - من كفرهم قولهم فى يوم عيد الكفور وهو يوم الاستغفار { أى كيبور عيد الغفران / المؤلف } وذلك لعشر تخلو من تشرين الأول - أن الرب الصغير ويسمونه ميططرون يقوم فى هذا اليوم قائماً وينتف شعر رأسه ويقول : ويلي إذ خربت بيتى وأيتمت بنتى فأمتى مُنكسة لا أرفعها حتى آتى بنتى » (٢٩).

ويقول (على عبد الواحد وافى) عن أساليب النكاح حسب شرعة يهود : « جاء فى تلمودهم أن الولد الإسرائيلى لا يعاقب إذا زنى بأمه الأرملة، بل يجب عليه فى هذه الحالة أن يستمر على الزنا معها بعد زواجه، صيانة للحالة التى كانت عليها قبل زواجه، وأن ذلك يعد حقالها عليه. وقد جاء فى تلمودهم كذلك أن الوالد إذا زنى ببنته بعد وفاة أمها لا يقام عليه الحد بل لا يعاقب ولا يزجر، لأنه بذلك يحفظ أمواله أن يبذرهما مع العاهرات الأجنبية، ويدرب ابنته على شئون الزوجية » (٣٠).

(٢٧) أورسيوس : تاريخ العالم ... سبق ذكره، ص ٩٣.

(٢٨) المسعودى : مروج الذهب ... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥.

(٢٩) نفسه : ج ١، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٣٠) على عبد الواحد وافى : اليهودية ... سبق ذكره، ص ٥٥، ٥٦.

وعلى الجانب الآخر نجد فى أساطير الحضارة المينوية بالجزر اليونانية، والتي أرجعناها من جانبنا إلى المعينية فى مديان وآدوم وبلاد الحجر، نجد إلهة أم عظيمة القدر تشاركها ربات أقل منها شأنًا، وكان شريكها فى الفراش ذكر أصغر منهم جميعاً لأنه ابنها فى نفس الوقت. ويؤكد لنا (ميرز) أن هذا الاعتقاد كان مألوفاً تماماً بل وشائعاً فى عقائد آسيا الصغرى، وأن أهم رموز هذه العقيدة كان الصليب^(٣١).

ونجد الآن ما سبق وساقه فليكوفسكى حول عادات الميثانيين التعبدية يلح على الذاكرة مع ما جاء ذكره بشأن المجوس وسكان سيناء المديانيين كلمنت السكندرى والقديس هيرونوموس والقديس جيروم. وخاصة ماكتبه فيلون السكندرى يقول : " إن الأطفال الذين يولدون من زواج الأم بالإبن عند هؤلاء يعدون أكثر الأطفال شرعية. وقد قال كاتوللوس إن كاهن مازدا الذى كان يلقب بالمجوسى لابد أن يكون ثمرة مضاجعة الابن لأمه ". كما جاء بالمقدس المجوسى " إن مراعاة هذه العادة تعتبر من أجل علامات التقوى ". وهو الأمر الذى يعنى أن ممارسة تلك العلاقات الشاذة لم يقتصر على الآلهة لكن مارسها البشر عموماً دون تمييز فى بعض العقائد ذات الأصول الآرية. فهل عرفت مصر مثل تلك الممارسات بين أفراد شعبها القديم؟ الإجابة فيما وصلنا كانت بالنفى قطعاً حيث احتسبت مثل تلك الألوان من جماع المحارم أمراً خاصاً بالآلهة الخلق وحدها وغير مسموح بها للبشر. لكن هل كان ذات الأمر سارياً على الملوك وهم نسل آلهة؟ الإجابة بحاجة إلى بعض التوضيح اللازم. إن جماع المحارم كحالة طقوسية تعبدية تعود إلى أصول بعيدة فى تاريخ البشرية، وترتبط بصورة الملك عند القبائل البدائية، حيث كان البدائيون يرون فى ملوكهم مستودعاً للقوة الكونية الحيوية التى تتغلغل فى شتى مظاهر الحياة. وبذلك اعتقد الإنسان البدائى أن بإمكان الزعيم أن يجعل المطر يسقط والماشية تكثر والزرع ينضج. وقد بقى صدى لذلك الاعتقاد فى تصور المصريين أن الفرعون كان أيضاً سبب حياة الناس، وذلك فى التعبير المصرى القديم المتواتر بكثرة فى كتابات الفراعنة ورسائلهم. وملاحظهم وأساطيرهم " أن الفرعون يمنح الناس أنفاس الحياة ".

وكان هؤلاء البدائيون حريصين على ألا يتركوا هذه القوة تخمد أو تضعف، فيجب ألا ينتظروا شيخوخة الملك وضمور قوته الكونية إنما يجب قتله بمجرد أن تطرأ عليه بوادر الضعف، وتتصيب ملك جديد عادة ما يكون كبير أبنائه، بغرض انتقال تلك الطاقة الحيوية للملك الجديد وهى فى أوج قوتها. حتى لا يحل الجفاف والخراب بالمحاصيل وبالماشية بل وبالإنسان. وعادة ما كانت أهم علامات ضعف الملك هى نقصيره فى أداء واجباته الزوجية السريرية مع نسائه العديداً.

ويقول جميس فريزر إن هذه الطقوس قد تطورت مع الزمن فتم تحديد دورة محددة بعدد من السنين لقوة الملك الحيوية. وفى المدن اليونانية القديمة كانت هذه الفترة ثمانى سنوات، وهى أقل مدة تكفى لالتقاء التقويم القمري بالشمسى، بمعنى أنه لا يحدث أن يتفق اكتمال القمر وبلوغ النهار غاية القصر أو غاية الطول إلا مرة كل ثمانى سنوات. وإذا كان الأقدمون قد تعلموا الربط بين نمو الزرع وبين دورة القمر ودورة

(٣١) ج. ل. ميرز : المينويون والميسينيون، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد الثانى من تاريخ العالم، ص ٦٠.

الشمس، وجعلوا من الأيام البارزة في دورتيهما مواسم يقتربون فيها إلى آلهتهم، فلا عجب إن احتسبوا التقاء الدوريتين في السماء علامة على ابتداء دورة آلهتهم على الأرض، وهو المرتبط بهذه القوى الكونية وجزء منها. (٣٢).

ويبدو لنا أن بقايا تلك الفكرة قد ظلت قائمة لدى المصري القديم مع بعض التشذيب والتطوير، حيث استبعدت مسألة قتل الملك، مع تحديد الزمن اللازم لبقاء الطاقة الكونية الحيوية في الملك نشطة وشابة، وأنه بالإمكان تجديد تلك الطاقة بطقوس وشعائر يتم تحديدها بدقة لتجديد تلك الطاقة في الزمن المطلوب بالتجديد، وهو ما نتصوره ماثلاً فيما أسماه المصريون القدماء عيد (حب / سد / الثلاثينى). وهو العيد الذى ظل أمره غامضاً وغير مفهوم القصد منه حتى اليوم. وهو ما يوضحه قول المؤرخ والمصر ولوجسيت (ياروسلاف) بقوله عن هذا العيد : " هو عيد مازالت طبيعته الحقيقية غامضة بالنسبة لنا " (٣٣) لكنه بشكل عام قد تم الاتفاق على أنه - كما تقول (جوليا سامسون) - " كان القصد منه تجديد قوى الفرعون الحاكم " (٣٤).

ويوضح (الدريد) ما يعرفه عن عيد حب / سد فى قوله : " وكان احتفال السد يقام بمنف، ولكن بعض شعائره كان يمكن تكرارها فى مراكز العبادة الأخرى ذات الأهمية. فمثلاً نجد أن أمانحتب الثالث قد أعاد الاحتفال بهذه المناسبة بمدينة طيبة فى قصره هناك. وبنيت بهذه المناسبة قاعة للاحتفالات وجهزت ساحة واسعة لهذا الغرض. واشتملت الاحتفالات على عرض مراسم التتويج من جديد، وقد ارتدى الملك فى هذه المناسبة عباءة قصيرة لها ياقة عالية. وقد ظهر كبار الموظفين من مصريين وأجانب فى هذه المناسبة فى أبهى صورة، حيث كان يجرى تجديدهم هم أيضاً. وكان الملك فى ذلك الاحتفال يتقبل الهدايا ويمنحها بسخاء " (٣٥).

ويعيد شرح ذلك بقوله : " ومن الاحتفالات الطقسية التى كان يتمنى الفراعنة شهودها - إلا أنه لم يسعد الحظ بذلك إلا القليل منهم - عيد السد أو اليوبيل ، وهو فى الحقيقة عيد تجديد نشاط الفرعون. واحتفال السد حسب النص الإغريقى على حجر رشيد، هو عيد الثلاثين عاماً، ويدفعنا هذا إلى استنتاج أن أول يوبيل يقام بعد ثلاثين عاماً من اعتلاء الفرعون لعرشه. إلا أنه وجدت حالات كان فيها خروج واضح عن هذه القاعدة ... لكن فى حكم المؤكد أن احتفال السد هذا قد اقتصر فى الأسرة الثانية عشرة على الفراعنة الذين أمضوا فى الحكم ثلاثين عاماً " (٣٦).

وللوصول إلى ما نريد، نوسط (أنناديوب) هنا بين (الدريد) وما سنصل إليه لنستمع إليه يقول : " كان يتعين ألا يحكم الملك فى مصر إلا إذا كان فى أوج قوته، ويبدو أنه كان يُقتل فعلاً فى بداية الأمر عندما

(٣٢) عياد : البطل ... سبق ذكره، ص ١١٤ : ١١٧.

(٣٣) ياروسلاف : الديانة ... سبق ذكره ، ص ٨٤.

(٣٤) سامسون : نفرتيتى ... سبق ذكره، ص ٦٩.

(٣٥) الدريد : إخناتون ... سبق ذكره، ص ٣٨.

(٣٦) الموضع نفسه.

كانت قوته **تضمحل**، غير أن الملكية سرعان ما لجأت إلى مختلف الحيل. كان الملك يتمسك بامتيازات منصبه - وهذا أمر مفهوم - مع الخضوع بأقل قدر لمغباته. ولذا فقد توصل إلى جعل هذا الاختبار رمزاً، فلم يعودوا يقتلونه إلا طقوسياً عندما يتقدم في السن، وذلك في الحفل الذى يستعيد فيه الملك شبابه فى نظر الشعب، ويصبح صالحاً للاضطلاع بمهامه. وهكذا **غدا حفل السد احتفالاً لتجديد شباب الملك**، وأصبح موت الملك الطقوسى وتجديد شبابه مترادفين، وكنا يتمن فى مناسبة واحدة ... ووفقاً لتلك المعتقدات فإن خصوبة الأرض ووفرة له المحاصيل وصحة الشعب والقطعان وسير الأحداث بشكل طبيعى وكأن مظاهر الحياة مرتبطة ارتباطاً حميماً بقوة الملك الحيوية الكامنة " (٣٧) لكن أننا ديوب وبقية المؤرخين لا يقول لنا أية تفاصيل مفيدة عن تلك الطقوس مما يعنى أنها لم تدون ولم يتم الإفصاح عنها من جانب الكهنة أبداً لا بالتصريح ولا بالتلميح.

لكن على لوحات الفراعنة عن عيد سد/حب، نجد الملك يوم عيده الثلاثينى يدخل مع الكاهنة الكبرى أو زوجته الرئيسية الملكة بعد تنصيبها كاهنة كبرى إلى **قدس الأقداس وتغلق عليهم الأبواب**، ولا يقال لنا ماذا كان يحدث داخل **قدس الأقداس** إبان هذا الاحتفال، لكن بعد خروج الملك تغم الفرحة البلاد ويبدأ فى تلقى الهدايا من أبناء شعبه، كما يهبهم هو هبات وهدايا مع مزيد من القوانين التيسيرية على المواطنين. وهنا أقترح من جانبى أن يكون هذا الذى كان يحدث فى **قدس الأقداس** شبيهاً بما كان يحدث فى بلاد الرافدين يوم الاحتفال بالمنقلب الربيعى وكان لونا من احتفالات الخصب المعروفة فى العالم القديم، حيث كان الكاهن يضاجع الكاهنة الكبرى داخل المعبد، بينما تقوم الجماهير الحاشدة من نساء ورجال حول المعبد بالعردة فى حفل نزوى هائل يمارس فيه الجميع الجنس مع الجميع دون أى تمييز، لحض الطبيعة على القيام بذات الممارسة للإخصاب وإكثار النتائج والخير، اعتماداً على مبدأ السحر التشاكلى الذى بموجبه ينتج الفعل شبيهه.

وربما غامرت قليلاً وقلت إن ما كان يحدث كان تقليداً لفعل الخلق الإلهى الأول، **عندما كان الإله يلتقى بأمه جسدياً**، باعتبار أن الأم تحديداً هى التى سبق وأكدت قدرتها على الإنجاب بإنجاب الملك نفسه، الذى يجب أن يقوم بذات الدور مع أمه داخل **قدس الأقداس** لينجب نفسه من جديد. لكن يبدو أنه تم تشذيب هذه القاعدة واستبدلت الأم بالزوجة الرئيسية التى تتجب ولى العهد لتقوم بدور الأم الإلهية ويقوم الملك بدور الأب الإلهى، ويؤكد لنا ذلك أن قوانين مصر القديمة جعلت حق العرش للأُنثى وليس للذكر، وأن الملك لا يصبح ملكاً إلا عندما يجامعها بالزواج. وإلا لماذا أحيطت احتفالات عيد حب سد الثلاثينى بكل تلك السرية وأطلق عليها كهان مصر (احتفالات الأسرار)؟ وإذا كان الملك على الأرض من ذات النسل الإلهى فمن الطبيعى أن يمارس الملك سلوك الآلهة. ومادام القصد هو تجديد قواه الحيوية فيجب إذن أن يولد من جديد، فكان يجامع فى البدء أمه التى ولدته، ثم بعد ذلك بزمان أصبح يجامع زوجته أو الكاهنة الكبرى لتقوم بدور أمه، فيكون هو الأب والابن فى أقنوم واحد. وبهذه العملية السرية يعود الملك مولوداً من جديد وقد تجددت طاقاته الحيوية ويخرج من **قدس الأقداس** إلى جماهير شعبه التى تعلن فرحها العظيم بملكها الجديد فى احتفال

(٣٧) أنتاديوب : الأصول الزنجية .. سبق ذكره، ص ١٥٩، ١٦٠.

بهيج ظل حتى الآن مجهول الهوية والغرض والمعنى. لكن بينما كانت مصر قد تخلصت مبكراً بحكم تطورها الثقافي من جماع المحارم، كانت بلاد مديان لم تنزل على الدرجة الأقدم في سلم التطور، كانت لاتزال تمارس جميعاً إثيان المحارم كشعيرة تعبدية تعود إلى أصول إيرانية قديمة في مواطنهم الأولى.

ويؤكد ذلك فهمنا لكلام ملتبس جاء عند دوماس في فقره تؤكد أن الإلهة " حاتحور وحورس كانا يعتبران في الأساطير زوجين، ولايستطيع المرء أن يفسر - إلا بفضل وجود جهاز موحد - تطابق صيغ الأسرار المحجوبة التي تتعلق بالمولد الإلهي " (٣٨) ونحن نعلم أن حاتحور هي إيزيس أم حورس نفسه الذي تنزوجه من أجل المولد الإلهي، ويضيف للفكرة مزيداً من الدعم أن الملكة الكبرى أو الأم الملكية في طيبة كانت عادة ما تكون هي " كاهنة آمون " (٣٩).

ويقول (أحمد عثمان) : " إن التقاليد المصرية كانت تقضى بأن يكون ميراث العرش عن طريق الابنة الوريثة، فمن يتزوج الابنة البكر للفرعون يصبح صاحب الحق في الجلوس على العرش من بعده. لذلك فإن ابن الفرعون كان يلجأ للزواج من أخته حتى يبقى العرش من بعده. وسبب هذا التقليد أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون بالميلاد المقدس للملك، فعند زواجه يذهب الملك الجديد إلى المعبد حيث يمر بمراحل عديدة من الطقوس الدينية مع الكهنة، الذين يطهرون جسده بالمياه المقدسة ثم يدهنونه بالزيوت المقدسة، ويقرأون التراتيل التي كانت - في اعتقادهم - تحضر روح الإله في جسد الملك. ويدخل الملك على زوجته في ليلة الزفاف وكأنه هو آمون الرب. وعلى ذلك فإن من يولد لها من الأبناء يعتبر بالنسبة للمصريين ابناً لآمون، وكان شرط حدوث ذلك أن تكون الملكة هي الوريثة ابنة الملك الراحل فآمون لا يتزوج إلا الوريثة. وعلى ذلك كان من الممكن للملك أن يتزوجوا ما شاء لهم من النساء، لكن الملكة التي يرث أبناؤها العرش لابد وأن تكون هي الوريثة ابنة الملك السابق " (٤٠).

وغنى عن الذكر أن ميلاد إخناتون كان مخالفاً لكل هذه القوانين، وقد حاول التغلب على ذلك بمحاولة تأويل القانون السماوى، فأقام عيده الثلاثينى فقط بعد خمس سنوات من وصوله إلى طيبة، وقامت فيه بدور الأم الإلهية زوجته نفرتيتى، لكن ذلك كله كان تحايلاً مكشوفاً مرفوضاً. وبعد أن أعلن صراحة عن عقيدته الجديدة، ونصب ربه آتون ربا أعلى وأوحداً وأعلن لقبه الدائم " ذلك الذى يعيش فى الحقيقة " قرر إعلان طقوس الآتونية علناً بالعودة إلى مرحلة تجاوزها المصريون من زمان بعيد. إذ قام بتكرار عيد حب سد فى العام الثانى عشر من حكمه فى تل العمارنة، لكن التى قامت بدور الأم الإلهية والكاهنة العظمى هذه المرة كانت أمه تى - وهو ما تتطابق به لنا لوحة الحائط الشرقى بمقبرة يويأ التى يأخذ فيها إخناتون بيد أمه تى يقودها إلى المعبد تتبعهما ابنته بكتاتن فقط وحدها. مع تدوين شارح يقول : " يقود الملكة العظمى والأم

(٣٨) دوماس : آلهة ... سبق ذكره ، ص ٧.

(٣٩) نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية منشأة معارف الإسكندرية، د. ت ، ص ٤٧.

(٤٠) أحمد عثمان : غريب فى وادى ... سبق ذكره، ص ٧٠ ، ٧١.

الملكية تى لترى ظلها فى الشمس "، وفى اللوحة يرتدى إخناتون ثوباً شفافاً يسمح برؤية تفاصيله الداخلية، أما تى فتكاد تكون عارية تماماً. ومن بعدها قرر أن تستمر هذه العلاقة فى زواج صريح معلن دائم وليس فقط فى حفل سرى بالمعبد، مما كان موطناً للأحداث المؤسفة التى ترتبت على ذلك من بعد. وبينما كان (جار ستانج) يعلن أنه : " من الجائز أن تكون قصة الزواج الإلهى البعيدة الصيت من ابتكار الحيثيين " (٤١) فإن الإله المصرى حور قد جامع أمه إيزيس/ حتحور، وكان أوزيريس زوج إيزيس ابناً لها فى الوقت نفسه، وكان معلوماً جيداً للمصرى آنذاك " أن ملك مصر كان يعتبر تجسداً للإله حور منذ الأسرة الأولى " (٤٢) لقد أراد إخناتون كشف كل الأسرار والتصريح بطقوس عقيدته فقرر أن يكون إلهاً ابن إله على الأرض قبل رحيله إلى عالم الآلهة بعد الموت، بالزواج من الأم الإلهية.

والآن بعد هذه الوقفة التفصيلية مع زواج البطل الملحمى من الملكة نتذكر أننا كنا نتابع مساحة التطابق بين العناصر المكونة لملمحة البطل الأسطورية ، وبين حياة الفرعون آمحتب الرابع إخناتون. وكانت آخر تلك العناصر هى زواج البطل من أميرة البلاد التى عادة ما تكون زوجة سلفه أو ابنته ويصبح ملكاً. لتنتقل الآن إلى العنصر الثانى عشر الذى يقول إن البطل بعد أن يصبح ملكاً يحكم فترة من الزمن دون أحداث تذكر، وهو ماحدث مع إخناتون فى بداية حكمه فى طيبة، ثم العنصر الثالث عشر. الذى يقول إن البطل الملك يسكن للبلاد قوانين جديدة وأعراف من نوع خاص، وهو العنصر الذى يرتبط ببقية العناصر، فالرابع عشر يؤكد أن تلك القوانين والأعراف تعرضه لسخط الآلهة والرعية ليتم فى العنصر الخامس عشر إقصاؤه عن العرش ونفيه من مقر حكمه ومن بلاده، وهى كلها الأحداث التى واكبت إعلان إخناتون عن عقيدته الجديدة الآتونية التى نصب فيها آدون أو البعل أو السيد المديانى ربا جديداً وحيداً فى أفق العقائد المصرية، وممارس العادات المديانية فى العلاقات الزوجية الشاذة علناً، مستثمراً فى ذلك الطقس المصرى السرى ووفقاً للعناصر النمطية للملمحة ينتهى مصيره بالنفى بعد إقصائه عن العرش ليموت بعد ذلك ميتة غامضة كما فى العنصر السادس عشر، وهو الأمر الذى ستفسره لنا قصة موسى عندما نبداً بمقارنتها مع ذات العناصر. أما العنصر السابع عشر الذى يقول إنه لا يخلف الملك البطل أبناؤه على العرش وهو ما يخالف ما حدث لإخناتون فإن فترة حكم الصبيين الصغيرين، سمنخ كارع وتوت عنخ آمون لم تدم أكثر من سنة واحدة لسمنخ كارع وستنتين لتوت أو عشر سنوات فى تقديرات أخرى، لكن الحاكم الفعلى كان آنذاك هو خالهما آى، وإن كان المقصود بهذا العنصر فى الملاحم هو عدم استمرار أسرة البطل فى الحكم وسقوطها وانقطاع نسله عن الملك، فهو ما حدث مع أسرة العمارنة تماماً. أما العنصر الثامن عشر فقد تأكد يقيناً لأننا لم نعثر أبداً على جثمان إخناتون ولا نعرف له مكاناً يقينياً. ثم العنصر التاسع عشر الذى يؤكد أنه رغم ذلك تتعدد القبور والأصرخة ومواقع كثيرة تصبح مقدسة لهذا البطل وهو ما ليس لدينا أية وثائق من زمن إخناتون

(٤١) جار ستانج : إمبراطورية الحيثيين ... سبق ذكره، ص ٢٩.

(٤٢) نبيلة عبد الحليم : معالم التاريخ ... سبق ذكره، ص ٤٤.

بعد أن قرر المصريون نسيانه تماماً وإسدال الستار على مأساته، لكنه بالفعل قد تعدد ممثلاً في أوديب وفي موسى متمثلة في المواضع المقدسة لرحلة الخروج.

فماذا الآن عن موسى التوراتي وما نزعمه؟

كان فرويد أول من نبهنا - فيما نعلم - إلى اختلاف أسطورة البطل الملحمي التوراتية (موسى) عن الأسطورة النمطية التي عدنا عناصرها في أن الأسطورة النمطية تجعل البطل دوماً من أصل نبيل ملكي ينشأ ويربو في بلاط مالك بالميلاد، وعادة ما يكون استبعاده إلى أسرة غير نبيلة بل عادة ما يقضى طفولته وصباه في بيئة شديدة الفقر كما بين الرعاة أو الصيادين، وعندما يشب عن الطوق يعرف حقيقة أصله وأهله ومنبته ويعود ليحارب من أجل استعادة ملكه المسلوب. وفي هذه النقطة تختلف أيضاً قصتا إخناتون وأوديب عن الأسطورة النمطية، لأن الأمر لم يكن مجرد أسطورة إنما كان تسجيلاً بالأسلوب الأسطوري لأحداث وقعت بالفعل. فقد استبعد إخناتون مباشرة إلى ملك حليف للأسرة الحاكمة المصرية، أما أوديب فاستبعد أولاً إلى أسرة فقيرة هي أسرة الراعي ثم تبناه بوليبيوس ملك كورنثة وزوجته ميروبي، لكن على أية حال فإن الأسرة التي استبعد إليها إخناتون كانت رغم ملوكيتها أدنى شأنًا بما لا يقارن فأهل هذه الأسرة كانوا - حسب نظريتنا - بدورهم بدواً رعاة، وعادة ما أكدت الأسطورة النمطية على الرعاة تحديداً كمحل لنشأة البطل ويفوقه بعد استبعاده.

لكن قصة موسى في التوراة تقف نافرة على العكس تماماً من تلك التأسيسات الأولية للأسطورة النمطية، فهو بالميلاد وبالجنس ينتمي إلى أسرة وضيعة أسيرة ضمن الأسرى الإسرائيليين في مصر، وعندما يتم استبعاده يستبعد إلى الأسرة النبيلة الملكية، حيث يصبح رجلاً من رجال البلاط وابناً للفرعون وهو ما يخالف قواعد الأسطورة النمطية بشدة لكن لتتم عناصر الأسطورة يعود موسى إلى أهله الوضعاء ليخرج بهم من مصر في أكبر حدث ديني في تاريخ المنطقة قيص له التدوين.

وبناء على قراءته لما حدث، يرى سيجموند فرويد أن ما جرى لموسى بالفعل في حقل أحداث التاريخ يسير على قوانين الأسطورة النمطية لكن محرري التوراة هم من قلب الأوضاع وعكسوها تماماً، ليجعلوا من هذا المصري الذي أسس لهم في التاريخ عقيدة وقومية، إسرائيلياً بالميلاد وبالعنصر استبعاداً لتلك السُبة التاريخية العظمى، فقاموا بعكس حقائق الواقع الفعلي ليؤكدوا إسرائيليته وليستبعدوا تماماً مصريته. وهكذا كان موسى من أصل ملكي وأبوه ملك وأبوه من أقارب أمه الأدنيين، وهو بذلك يطابق قصة إخناتون مطابقة كاملة. من حيث التطابق مع العناصر الملحمية الثلاثة الأول، بل ونزعم أن قصته بهذا الفهم تطابق جميع العناصر الملحمية التأسيسية.

وفي ظلنا أن أسطورة الإلقاء في اليم - إن كانت قد حدثت - لم تكن بقصد تهريب الطفل المطلوب قتله بمغامرة إلقائه في اليم ليتعرض لموت أكيد، إنما كانت بقصد اختبار نسب وبنوة الطفل الوليد على عادة الشعوب القديمة، فعادة ما كان النهر هو القاضي بهذا الشأن. وإن ذلك قد حدث كنتيجة للمعارضة الكبرى التي قادها كهنة آمون الأمناء على تطبيق الشرائع الإلهية. ولما كان إخناتون بظروف ميلاده يخالف تلك

الشرائع والقوانين مخالفة حادة، فقد كان الحل هو اختبار صدق نسبته لآمون بالقضاء النهري، لأنه ما كان ممكناً التدليس على شرع السماء مرتين، مرة مع أبيه ومرة معه. ويبدو أنه تم إنقاذ الطفل قبل أن يبتلعه اليم، وهو ما حدا بالأم تى إلى استبعاد طفلها بعيداً عن دسائس ومؤامرات الكهنة التى قد تتاله بالاغتيال فى الخفاء.

والمبهر حقاً أن نقع فى أسطورة أوديب على رواية نادرة مخفية غير متواترة، تتفق مع أسطورة إلقاء إخناتون / موسى فى اليم ويرويها لنا روبرت جريفز إذ لا يقول أنه تم استبعاد أوديب بعد وثق قدميه مع تابع بالقصر للتخلص منه، وأن هذا التابع سلمه إلى راع، وأن الراعى كان من بلاد أخرى يملك فيها الملك بوليبيوس الذى أخذ أوديب من الراعى وتبناه، وهى القصة المعلومة المتكررة، إنما يقول أمراً آخر تماماً فى رواية نادرة، فبعد أن أوثق الملك لايوس قدمى طفله أوديب، وضعه فى صندوق مغلق ورمى به فى البحر، وحملته الأمواج إلى شاطئ سيكيون حيث كانت الملكة بريبيويا تشرف على وصيفاتها وهن يغسلن لها ملابسها، فأخرجت الطفل وحلوا وثاقه، وتظاهرت بريبيويا أنها ولدت على الشاطئ، وعندما عادت إلى قصرها صارحت زوجها بوليبيوس بحقيقة ما حدث، وقررا تبنى الطفل. (٤٣)

والمدقق فى رواية التوراة إن أخذها على علاتها سيكتشف خلافاً شديداً، فإلقاء موسى فى سبط باليم يحمله التيار لبيت الفرعون تتناقض تناقضاً فاضحاً مع حقائق الجغرافيا والتاريخ، فحقائق التاريخ تقول إن البلاط الملكى خلال الأسرة الثامنة عشرة كان يقع فى طيبة / الأقصر، بينما كان الإسرائيليون يعيشون فى شرقى الدلتا، وحقائق الجغرافيا تقول إن معنى إلقاء سبط فى فرع نيلى بشرق الدلتا، يعنى أن يسير السبط مع تيار الماء شمالاً نحو البحر المتوسط، وليس جنوباً نحو طيبة، والقصة بذلك تجعل الصندوق يسافر عكس التيار حوالى ألف كيلو متر أو يزيد.

وقد يعترضنا هنا معترض بحجة أن قصة النبوة بمولد بطل للملحمة يقتل أباه ويتزوج أمه هى عنصر تأسيسى فى دراما أوديب والملاحم المشابهة، لكنها أبداً غير موجودة بالتوراة، فالتوراة لم تحدثنا عن أية نبوة سبقت ميلاد موسى ليستحق الاستبعاد بسببها، لكن القصة حسب التوراة تقول إن الفرعون قد أصدر قراراً بقتل جميع المواليد الذكور من بنى إسرائيل لسبب آخر، هو أنهم قد ازدادوا عدداً بشكل خطر، وأصبح يخشى من تخابريهم أو تعاونهم مع أعداء البلاد. وهذا الكلام إضافة لمجافاته أى منطق، فإنه يخالف ضرورة فرز الأحداث آنذاك، حيث كان الإسرائيليون يعملون فى سخرة البناء، وهو ما يعنى أن الفرعون كان بحاجة ملحة لهذه الأيدي العاملة الرخيصة، وإلا كان سجنهم أو طردهم دون تسخيرهم. ومن هنا تتناقض قصة التوراة فى أمر الفرعون بقتل الذكور من المواليد الإسرائيليين مع ظروف الأحداث حينذاك.

لكن ما يبدو لنا هو أن محررى التوراة قد استبعدوا قصة النبوة بكاملها لأنها كانت تعنى إبراز وإيضاح مصرية موسى بالميلاد وبالجنس، لأن النبوة تستبعد الطفل الملكى لخطره على أبيه الملك وقتله واستيلائه على عرشه حسبما قالت، لكن هذه النبوة لن يكون لها أى معنى مع أسرة حقيرة غريبة مستعبدة

فى مصر. لكن الأصل الحقيقى للقصة كان يحوى لاشك قصة النبوءة التى ظهرت فى النسخة اليونانية (أوديب) كما ظل أصيلاً فيما تواتر شفاهة وميراثاً غير مكتوب حتى وجد طريقه للتدوين بالقرآن بعد ذلك بأزمان، ليبرز قصة النبوءة ويؤكدها.

وهنا نستأنس برواية المؤرخ الإسلامى الحافظ بن كثير الدمشقى وهو يقول:

وذكر السدى .. عن ابن عباس .. أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الكهنة والحزاة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من بين هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلماذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان. ولهذا قال تعالى: " ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا فى الأرض " وهم بنى إسرائيل " ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين "، أى الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم. " ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون " أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً. وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل كما قال تعالى: {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها، وتمت كلمة ربك بالحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا } / ١٣٧ / الأعراف . وقال تعالى: { كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك أورثناها قوما آخرين } / ٢٥ / الدخان. وقال السهيلي اسم أم موسى يارخا وقيل أياذخت .. وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرن على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عسد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر زمن يوسف، وقيل إنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى، وقيل كانت

عمته، حكاة السهيلي. (٤٤)

وبغض النظر عن الخطب والتوليف المعتاد في كتب التاريخ الإسلامية، فإن قصة النبوة وصلت عرب الجزيرة لتدون في القرآن رغم أنها استبعدت من التدوين في التوراة، لكن ذلك لم يكن يعنى أنها لم تكن معلومة لمحرري التوراة، فنحن نقصد بوضوح إنها كانت معلومة لديهم وتم استبعادها عن عمد مع استبعادهم لكل ما يتعلق بمصرية موسى الجنسية، ويؤكد لنا ذلك إنها كانت معلومة لدى أشهر المؤرخين اليهود خلال القرن الأول الميلادي، المؤرخ يوسفوس فلافيوس، إذ يحكى أن أحد كهنة مصر القديمة " من أولئك الذين كانوا يتتباؤون، أخبر الملك أنه في ذلك الزمان سيولد طفل لبني إسرائيل سوف يعرض مستقبل الأسرة المالكة للخطر، لكنه هو سيصبح عظيماً وتعيش ذكراه عبر عصور الزمان " (٤٥) ويتابع يوسفوس روايته فيقول: " إن ابنة الفرعون بعد أن تبنت الطفل أرادت أن تجعله ولياً للعهد، فأخذته ووضعت بين يدي الملك الذي احتضنه ووضع التاج على رأسه، لكن موسى الطفل أوقع التاج على الأرض وداسه بقدمه. وكان الكاهن المصري الذي سبق أن أُنذر بميلاده حاضراً، فأمسك به وهو يصرخ وهم بقتله، لكن ابنة الفرعون منعتة وانتزعت الطفل من بين يديه، كما لم يوافق الفرعون على قتله ". (٤٦)

ولعل الرموز هنا واضحة بما لا يقبل لبساً، فما معنى أن بنت فرعون كانت تريد تأهيل طفل من أبناء العبرانيين ليكون ولياً لعهد فرعون مصر، خاصة وأن هناك نبوءة يعلمها القصر تحدثت عن كارثة ستقع على يد طفل من هؤلاء. إن الأمر فقط يمكن أن يكون متسقاً إذا احتسبنا ذلك ترميزاً للقصة الأصلية ظل محافظاً على وجوده في القصة المعدلة المزورة والمحرفة، ترميزاً واضحاً إلى أن موسى كان ولي عهد مصر فعلاً بحسبانه إخناتون، مع ترميز آخر تأكيدى في تفاصيل لا معنى لها إلا لو كانت تحتل بلاغاً ضمناً مستتراً مثل وضع فرعون التاج على رأس الوليد وهو ما لا يتم أو يعقل إلا إذا كان هذا الطفل هو ابن الفرعون بالميلاد وبالجنس، ثم الترميز الثالث في رمي الطفل للتاج تسجيلاً لما فعله إخناتون وانحيازه لمبادئه على حساب استقرار حكمه أو استمراره، وإصراره على ما كان يفعل من مناهضة إرادة الشرائع المصرية المؤسسة لمعاني الملكية في مصر القديمة مما أدى إلى سقوطه كملك في نهاية الأمر. وهكذا يجب الإقرار أن موسى كان مصرياً من أصل ملكي وهو العنصر الأول في عناصر الملحمة، وأبوه ملك وهو العنصر الثاني والشك في إسرائيليته أن أمه الإسرائيلية المزعومة لم تطلق عليه اسماً أما العنصر الثالث فهو الذى يؤكد على أن أب البطل يكون من الأقارب الأدينيين للأمم. وهو ما يفصح به نص التوراة وهو يقول إن السبط لاوى شقيق يوسف قد أنجب في مصر ولده قهات، وأنجب قهات عمران، وأنجب عمران موسى، ويفصل أكثر فيقول:

وأما قهات فولد عمراً واسم امرأة عمراً يوكابد بنت لاوى التى ولدت للاوى فى مصر. فولدت لعمراً

(٤٤) ابن كثير البداية والنهاية.

(٤٥) أحمد عثمان تاريخ .. سبق ذكره، ج ١، ص ٤٣.

(٤٦) نفسه ج ١ ص ٤٤، ٤٥.

هارون وموسى ومريم أختهما.

عدد ٢٦ / ٥٨ ، ٥٩

وهكذا فإن يوكابد زوجة عمران، وهما أبوى موسى، بينهما قرابة واضحة يفصح عنها المحرر التوراتى فيقول:

وأخذ عمران **يوكابد** عمته زوجة له فولدت له هارون
وموسى

خروج ١٦ / ٢٠

ويلفت نظرنا هنا الاسم (يوكابد) أو (يوكابت)، الذى يلتقى بشدة مع اسم بنت الملك الميثانى (جبلوخيا) أو (يلوخيات) أو (يلوكيا) التى افترضناها هى ذات الملكة (تى) أم إخناتون زوجة آمنحتب الثالث، وتتسق عناصر أطروحتنا وتتماسك عندما نجد اسم (يوكابد) يلتقى أيضاً بتطابق واضح مع اسم أم أوديب فى الملحمة اليونانية (يوكاستا) !! والأمر يجزنا هنا إلى تدقيق بقية أسماء أبطال الملاحم الثلاثة وهو ما أفرز تطابقاً مدهشاً بين أسماء هؤلاء الأبطال مع نشوز هنا وشدوذ هناك، مما يعنى أن محررى قصتى موسى وأوديب قد حافظوا بعض المحافظة على الأسماء الأصلية لأبطال القصة.

لقد حلت اللعنة على بيت لايبوس اليونانى والد أوديب لأنه أول من أدخل اللواط إلى طيبة بحالة العشق التى مارسها بصحبة الصبى خريسبوس، وقد تم تصوير آمنحتب الثالث فى اللوحات المصرية فى ملابس نسائية، وكانت الحالة الوحيدة الأولى والأخيرة فى تاريخ مصر التى يظهر فيها الفرعون بملابس نسائية. وهنا لابد أن نسترجع فوراً عادات قادة الهكسوس الأسكيث الهند وآريين فى مقرهم العسكرى الأعظم فى بلاد آدوم، وكيف استرجلت النساء بينما تخنت الرجال، ويحيطننا المؤرخ اليونانى هيبوقراط عن عادات الاسكيث مزيداً فيقول : " بين الاسكيث نجد كثيراً من المخنثين الذين كانوا يؤدون أعمالاً نسائية ويتحدثون كالنساء، وشعبيهم ينظر إلى هذه الظاهرة باعتبارها رغبة إلهية، فيوقرون المخنثين ويقدمونهم إلى حد كانوا يتعبدون لهم ويسجدون أمامهم، بينما كان عامة الناس يرتعون منهم ... وكان هؤلاء المخنثون يلبسون ملابس نسائية ويمارسون العادات النسائية ويقومون بأعمالهن. وكان هذا التخنت مرضاً يصيب أثرياء الاسكيث ". وقد أرجع هيبوقراط ذلك التحول المرضى الذى كان يصيب بعض رجال الاسكيث مع تقدمهم فى العمر إلى أسباب وراثية سببتها بيئتهم الجغرافية الأصلية التى كانوا يعيشون فيها فى مواطنهم الباردة الأولى " فيكتنزون إلى حد عدم إمكان تمييز أعضاء الجسد عن بعضها، وترتخى العضلات والجزء الأسفل من البطن نتيجة وجود قدر عال من الرطوبة والمائية باللحم، ومع الامتلاء يخفى الشعر عن الجسد " (٤٧). وهنا يجب أن نعيد تأمل اللوحات والتمائيل التى صنعها فنان العمارنة وبخاصة للفرعون إخناتون لنكتشف مدى تطابق اللوحة التى رسمها هيبوقراط للاسكيث مع لوحات العمارنة .

(٤٧) هيبوقراط : ضمن نصوص كوزينتسوف عن الاسكيث بالروسية .. سبق ذكره ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ٨٩ .

أما فى بلاد آدوم حيث عاش الاسكيث، بعد هجرتهم إلى هذا المكان من مواطنهم الأصلية الشمالية، انتشر داء اللواط انتشاراً هائلاً فى قصة لوط المعروفة بالكتاب المقدس، لكن الكتاب المقدس زمن تدوينه على يد المحرر كان قد تطور تطوراً شديداً عن أصوله الأولى، لذلك جاء المنطق الجديد بعقاب إلهى دمر تلك المنطقة الخماسية المدن أو بنط بوليس شمالى آدوم، بكارثة تشبه تماماً الكوارث البركانية فى تفاصيلها، ثم بعد ذلك انشغل المحرر التوراتى مع التطور بالتنبيه على وجوب ألا يلبس الرجل زى امرأة، باعتباره سُبّة وعاراً، وذلك فى النص " لا يلبس رجل ثوب امرأة، لأن كل من يعمل ذلك مكروه لدى الرب إلهك / تنثية ٢٢ / ٥"، وهو تنبيه لن يكون له معنى إن لم يكن ينهى عن عادة قديمة كانت معروفة ومنشرة، لكنها أصبحت زمن التدوين عادة مردولة تستحق نفيها واستبعادها.

وإذا كان لايوس هو النسخة اليونانية لآمنحتب الثالث المصرى، فإنه بحذف التصريف الإسمى تصبح لايوس هى (لايو) البيت الذى أنجب أوديب، لكن المبهمة هنا حسب التوراة أن بيت السبط (لاوى) كان هو البيت الذى أنجب موسى؟!.

ومعلوم أن إخناتون قد أقام مدينته على تل عرف باسم تل العمارنة وحتى الآن تعيش هناك قبائل تحمل اسم بنى عمران / العمارنة، تزعم أنها من نسل أمير عظيم حُكم عليه بالحبس فى مكان هذا التل حيث مات. ومعلوم لدينا من جانب آخر أن موسى وهارون ومريم يعودون إلى الأب عمران وجمعها عمارنة.

وقد استنتج الباحثون أن آى صديق إخناتون ومؤيده وحامل الألقاب العظمى كان ابنا ليويا وتويا وشقيقا للملكة تى، أى أنه كان خال إخناتون، وقد تحول آى عن التأييد المطلق لإخناتون إلى العداء المطلق، بعدما بدأت كفة الآمونية فى الرجحان والصعود. وقد جاء المعادل اليونانى لشخصية آى متمثلاً فى (كر - آى - ون) يحمل فى اسمه الشق آى أحد الأسماء اليهودية الإلهية. وقد تحول كرايون بدوره من حالة التأييد المطلق لأوديب إلى العداء المطلق له بحسابات المصالح والتآمر الذى انتهى به ملكا على البلاد. وفى القصة التوراتية ..

نجد مؤيداً شديداً للإخلاص لموسى، يتحول عن هذا التأييد إلى العداء الشديد، لكنه جاء فى التوراة باعتباره ابن عم لموسى. ونحن نعلم أن المصرى القديم كان يلقب والد الزوجة بـ (الأب)، وبقية الشعوب وحتى اليوم يلقبونه بالعم، وكان ابن عم موسى هذا فى التوراة يحمل اسم قارون، الذى يطابق اسم كرايون مطابقة تامة، وهو فى القصة المصرية آى ابن يويا. لكن الاعتراض البدهى هنا هو المعلوم أن موسى فى التوراة قد تزوج من صفورة بنت كاهن مديان (يثران / رعوثيل) أو (رع - إيل = رع إله)، وليس أمه يوكابد. ومن جهة أخرى نعلم أن التوراة لم يكن لديها ملامة فى زواج المحارم (بمنطق اليوم)، فالبطرك إبراهيم تزوج شقيقته سارة، وعمران تزوج من عمته (أو خالته) يوكابد، وكان بالإمكان التجاوز إلى بقية المحارم لكن التطور اللاحق منع المحرر من تسجيل الزيجة الأهم والصارخة. فقد عمد المحرر بعد تطور العلاقات الاجتماعية إلى إخفاء هذه الحقيقة المروعة، لكن لتختلط الأحداث بين يديه وتلتبس فتقلت الحقيقة من بين السطور، فى حكاية فصيحة.

والحكاية فى حديث التوراة عن زواج موسى من صفورة بنت (يثرون) فى سيناء، وكيف أنه لم يكن مختونا بعد، ومعلوم أن موسى قد هرب إلى مديان يافعا بعد قتله المصرى ظلما، وهو الترميز التوراتى لقتله أباه بمحو اسمه، كما يرمز الهرب إلى مديان قصة استبعاد إخناتون طفلا إلى هناك، ولكنه لو كان ذهب يافعا بالفعل لكان مختونا فقد نشأ وربى فى مصر بل فى بلاطها الذى يحافظ على هذه الشرعة كل المحافظة، ولكن عدم ختانه يحمل فى طياته ذكرى استبعاده طفلا. وهناك فى مديان يحدث ما تخبرنا به التوراة قائلة فى نص بليغ يمر عليه الجميع دون فهم واضح لمراميه رغم خطورته الهائلة التى أظهرها عملنا هذا وفسرها لأول مرة، إذ يقول هذا النص عن موسى:

وحدث فى الطريق إلى المنزل أن الرب التقاه وطلب
أن يقتله، فأخذت صفورة [زوجة موسى المديانية /
المؤلف] صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجله،
فقالت: إنك عريس دم لى فانفك عنه، حينئذ قالت:
عريس دم لى من أجل الختان

خروج ٢٤/٤ - ٢٦

هنا تتم عملية الختان بسكين من الصوان، وهو تقليد مصرى عريق من العصر الحجري، تم توارثه بحيث ظلت تجرى تلك الجراحة حتى نهاية العصور الفرعونية بسكين من الصوان رغم اكتشاف سكاكين المعدن مبكراً، وظل سكين الصوان يستخدم طقوسيا فيما يتعلق بشرائع السماء كما فى الختان وكما فى الذبائح المقدسة وكما فى عمليات تحنيط الموتى، ويقول هيرودت واصفاً عملية تنظيف بطن الميت لتحنيطه " يشقون الكشح بحجر أثيوبى مسنون ويخرجون الأحشاء كلها " (٤٨) وعقب أحمد بدوى بقوله أنهم " استعملوا السكين الصوان وأغلب الظن أن يكون سببه الحرص على التقاليد " (٤٩)

وتروى التوراة أنه عند وصول الخارجين من مصر إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن بقيادة يشوع بن نون بعد موت موسى، قرر يشوع عدم عبور النهر إلا بعد اختتان كل من لم يختتن من المواليد الذين ولدوا خلال أربعين عاما قضوها فى سيناء منذ الخروج من مصر. وهنا نقول التوراة أن ذلك كان أمراً إلهياً:

وفى ذلك الوقت قال الرب ليشوع: اصنع لنفسك
سكاكين صوان وعد فاختن بنى إسرائيل ثانية. فصنع
يشوع سكاكين من صوان وختن بنى إسرائيل فى تل
القلف. وهذا هو سبب ختن يشوع إياهم: إن جميع
الشعب الخارجين من مصر، الذكور، جميع رجال
الحرب. ماتوا فى البرية على الطريق بخروجهم من

(٤٨) هيرودت فى مصر .. سبق ذكره ، ص ١٩٥ .

(٤٩) الموضع نفسه .

مصر، لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين،
وأما جميع الشعب الذين ولدوا في القفر على الطريق
بخروجهم من مصر فلم يختنوا. لأن بنى إسرائيل
ساروا أربعين سنة في القفر.

يشوع ٥ / ٢ - ٦

ونعود للنص الخطر عن ختان صفورة لموسى بالصوان، لنجد النص يقول إن موسى يفع وكبر
وتجاوز السن الشرعية للختان ولم يختن، فأخذت زوجته صفورة بنت رعوئيل / يثرون / سكيناً مصنوعاً من
الصوان وقطعت به قلفه أوغرله أى غلفة قضيب موسى. لكن المبهز أن موسى هنا يوصف بأنه ابن صفورة
التي هي زوجته. وقبل علمنا هذا كان ذلك النص مدعاة لتخريجات وتخريفات ومحاولات تفسير تأويلية
فاشلة غير مقنعة، لتفسير كيف كانت صفورة زوجته وأمه في نفس الوقت، خاصة أن هذه الأم بعد أن ختنته
كبيراً أعلنته عريسا لها!! كان لابد كي يستقيم الأمر هنا ألا تكون صفورة هي الزوجة والأم لكنها يوكابد أمه
التي تزوجها أبيه عمران في مصر. لكن لإخفاء ما حدث وستره كان لابد من هذا التمويه، فقد علمنا أن
إخناثون قد تزوج أولا من نفرتيتي التي افترضنا مع جاردنر أنها الجميلة تادوخيا الميتانية، وأنها ذات صلة
قرايبة بأمه تي التي افترضناها الأميرة الميتانية جيلوخيا التي سبقت تادوخيا في الوصول إلى مصر
وافترضنا أنهما ربما كانتا شقيقتين، مما يعنى أن إخناثون قد تزوج مرتين: الأولى بزوجه نفرتيتي /
تادوخيا / والثانية بالملكة تي / جيلوخيا / يوكابد / يوكاستا / التي كانت أمه .

وننقب في المقدس التوراتي بعيون المباحث والتحري علنا نجد ما يفيد بزواج موسى من زوجتين
تبادلان نفرتيتي ثم تي في قصة إخناثون ، نجد التوراة تلتوى وتشير بسرعة إلى أن موسى قد أتخذ زوجة
ثانية وأن تلك الزوجة الثانية هي صفورة المديانية، أما الأولى فبتركنا المقدس التوراتي بشأنها دون إفادة
واضحة. وفي قصة التوراة التي نقصدها نعلم أن هارون شقيق موسى ومريم شقيقته بعد مساندة طويلة
لموسى يغضبان عليه غضبا شديداً، ويعلنان على الناس هذا الغضب مع تحريضهم وإثارتهم ضد موسى
لسبب يتلخص في كلمات شاردة سريعة مغطاة لا تتكرر مرة أخرى بالتوراة إلا هذه المرة الوحيدة ، تقول
تلك الكلمات الشاردة:

وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة
الكوشية التي أتخذها لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية

عدد ١٢ / ١

أبداً لا يكرر الكتاب المقدس تلك الإشارة ولا يفصح لنا عن هذه المرأة الكوشية ومتى تزوجها موسى
ولماذا أغضبت مريم وهارون، وليس مقبولا أن يكون كل هذا النزاع والغضب فقط لأنها كوشية / سوداء /
زنجية، ولا ريب أن لذلك الغضب الهائل مبرر آخر أغضض المحرر التوراتي عينيه عنه. أما تمثال تي أم

إخناثون الذى عثر عليه فى سيناء قرب الجبل المقدس كاثرين فكان يفصح بوضوح عن وجهها السيناوى الأسود الكوشى.

ويشرح كمال الصليبي قراءته للنص مقارنا بالأصل العبرى بعد أن كشف أن موسى فى بعض المقدس التوراتى كان نبيا، وفى البعض الآخر كان إلها فيقول:

وحدث فى الطريق فى ملىان (ب - ملون) أن يهوه
التقاء وطلب أن يقتله، فأخذت صفورة صوانة وقطعت
غرلة ابنها ووصلت إلى رجله (وتجع ل - رجليو)
وقالت: أنت عريس دم (حتن ديميم) لى من أجل الختان
(ل - مولت) .. صفورة فى الأصل لم تكن زوجة الإله
موسى هذا بل والدته .. وتدخلت صفورة فختنت ابنها
الإله موسى واتخذته لنفسها عريس دم أى عريس
عذرتها استرضاء ليهوه (٥٠) .

اذن يبدو أن إخناثون عندما عاد إلى مصر وكى يتزوج أمة تى كان لابد أن يقوم بطقس الختان حيث لم يكن قد اختتن فى مديان، وهو ما جاء فى النص التوراتى المذكور " فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ". أما أن يرى الصليبي بعينه الثاقبة أن فى التوراة صورتين لموسى واحده باعتباره نبيا وواحده باعتباره إلها، فهو ما يؤكد نظريتنا لأن إخناثون كان نبي آتون وفى الوقت نفسه ابنه الإلهى، لقد كان إلها ونبيا فى الوقت ذاته.

ومن جانب آخر لاحظ (جيمس فريزر) أن هناك خلا غير واضح المعالم فى نسب موسى أرجعه إلى أن والده عمران تزوج عمته، وليس كما كشفنا نحن عن أسبابه الحقيقية، وفى ذلك يقول إن: " قصة ميلاد موسى .. تحتوى على ملامح يمكننا أن ننسبها .. إلى مجال الفولكلور أكثر مما ننسبها إلى التاريخ إذ يبدو أن القاص لى يزخرف معجزات حياة البطل، رغب فى أن يحكى كيف تعرض الرجل لخطر عظيم .. ساعة ميلاده طفلا، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق إلا من خلال حادثة تبدو للعين العادية أنها حدثت صدفة. وإن تكن قد أثبتت حقا أن يد القدر قد تدخلت لتنقذ الطفل المعجز من أجل المصير الكبير الذى ينتظره " (٥١) .

" وقد افترض بعض الباحثين أن الحكايات الشبيهة بحكاية إبعاد موسى الطفل وطرحه فى الماء، بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصد اختبار بنوة الأطفال الشرعية لأبائهم، فقد كان الأطفال يطرحون فى الماء حيث يتركون لمصيرهم فإما أن يطفوا أو يستقروا فى قاع الماء. والطفل الذى يطفو يعد طفلا شرعيا أما الطفل الذى يستقر فى قاع الماء فإن المجتمع يرفضه بوصفه ابنا غير شرعى .. أما حكاية التوراة فلم تذكر شيئا

(٥٠) الصليب: خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقي، لندن، ١٩٨٨، ص ٢١٦ .

(٥١) جيمس فريزر: الفولكلور فى .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٣، ٥٣٤ .

عن شرعية بنوة موسى، لكن إذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجاً من عمته، وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج، وإذا تذكرنا أن القانون العبري المتأخر قد أبطل مثل هذا الزواج باعتباره زنى، فربما ساورنا الشك .. أن أم موسى في الشكل الأصلي للحكاية كان يدفعها سبب خاص إلى طرح ابنها في النهر " .. (٥٢)

وفي الدولة الحديثة التي ظهر فيها إخناتون، وقاد فيها موسى الخروج الإسرائيلي من مصر يبدأ المصريون بالنظر إلى فرس النهر باعتباره أحد رموز الشر سيت رب الصحارى وال فقر والجذب والموت، رغم أنه قبل ذلك لم يكن كذلك ويطلقون عليه لقب (ابن الماء)، ويتضح السبب في كراهية فرس النهر ما نسبته له المصريون في الدولة الحديثة ونفهمه من سرد المؤرخ اليوناني بلوتارك لحكمة مصرية نقشت بالهيروغليفية بمدينة سايس في معبد إيزيس على جدران البيلون (Pylon/ بوابة ضخمة عند مدخل المعبد)، ونصها أولاً طفل ثم رجل عجوز ثم بعده صقر يليه سمكة ثم بعد كل ذلك فرس نهر، ويفسر بلوتارك معنى تلك الرسوم فيقول إنها تعنى : " أيها الناس أطفالاً وشباباً إن الله يكره الفسوق، ففي النص الأول الطفل رمز الولادة والعجوز رمز مفارقة الحياة والصقر يرمز للإله والسمكة ترمز للكراهية ثم فرس النهر الذى يرمز إلى الفسوق وعدم الحياء إذ يقولون إن فرس النهر يقتل أباه ويجبر أمه على معاشرته " (٥٣)

ويقول لنا (دوماس) إنه بعد ذلك أصبحت تقام احتفالات وأعياد في مدينة (حفات) تنتهى بمقتل فرس النهر الذى يرمز لعدو البلاد وللشر (٥٤) . ورمز عدو البلاد ورب الشر هو سيت رب الهكسوس العامو البعل الأدون.

وإذا كان إخناتون / موسى / أوديب، يعود بجنسه من جهة الأب إلى مصر، فإنه من جهة الأم يعود إلى شرقى سيناء وآدم حيث المديانيين والعمالقة والكنعانيين (العموريين)، والسكيث (الأراميين) وضمنهم الإسرائيليين. وهنا نقف نستمع إلى الباحث على الشوك يقول: " وكانت للسفنكس أهمية خاصة عند الهكسوس وهم ساميون أو كنعانيون حكموا مصر ما بين ١٦٧٥ و ١٥٨٠ ق.م، ويعتقد عدد من الباحثين أن الهكسوس هاجروا إلى اليونان بعد أن أجّلوا عن مصر .. وقد عثر في بيوتيا / اليونان الشرقية على نقش يرقى إلى القرن الثالث عشر، تظهر فيه صورة ملك أمام سفنكس (أبى هول)، ولا بد أنه يرمز إلى أوديب. ويؤكد على أن قصة أوديب والسفنكس كانت معروفة في القرن الرابع عشر [وهو زمن إخناتون / المؤلف] .. ولا بد أن أوديب كان يونانياً وهو ما يدل عليه اسمه: القدم المتورمة .. لكن أجداده كانوا كنعانيين على ما يبدو، فلا بد أن كوس جده المباشر يذكرنا اسمه بالحرف الأبجدي الفينيقي لا بد أى حرف اللام .. وجد لا بد أن كوس هو قدموس الكنعاني باني طيبه " (٥٥) .

(٥٢) نفسه: ص ٥٤٠ ، ٥٤١ .

(٥٣) الخشاب : سبق ذكره ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، أنظر أيضاً

Graves, The Greek My the, Vol II, p ١٣ .

(٥٤) دوماس: آلهة .. سبق ذكره ، ص ٤٤ .

(٥٥) على الشوك: مأساة أوديب بين تحليلات فرويد وفرس الماء، صحيفة الحياة اللندنية، بتاريخ ١٧ / ٦ / ٩٣ .

ويلاحظ على الشوك ما جاء عند بلوتارك بخصوص فسوق فرس النهر، لكن ليسوق قول روبرت جريفر الساخر من فرويد واكتشافه لعقدة أوديب فيقول: "وعندما أشار بلوتارك ٤٦ / ١٢٠ ق.م فى كتابه إيزيس وأوزيريس إلى أن فرس الماء قتل أباه وأجبر أمه على معاشرته، لم يرد فى حسابانه أن الرجال عندهم عقدة فرس الماء، ولاشك أن روبرت جريفر يسخر بهذا من نظرية فرويد حول عقدة أوديب " (٥٦) .

وهنا نستمع إلى بلوتارك يحدثنا عن الإله الذى عبده اليونان باسم طيفون وعرفناه سيت المصرى: " ومن أجل هذا يخصصونه من بين الحيوانات المستأنسة بالحمار وهو أغباها. ويخصصونه من بين الوحوش بأشرسها وهما التمساح وفرس النهر .. ويشيرون فى هرمبوليس (الأشمونين) إلى تمثال توفون على هيئة فرس النهر يقف على ظهره باشقا يصارع ثعبانا " (٥٧) .

ثم يعود بلوتارك إلى فرس النهر ابن الماء الذى حكى حوله تلك القصة فى نهاية الأسرة الثامنة عشرة التى ضمتها أسرة العمارة وبيت إخناتون المارق، فيقول: " إن فرس النهر يعبر عن القحة، إذ يقال إن هذا الحيوان كان يجمع أمه بالقوة بعد أن يقتل أباه " (٥٨)

ولا تقوت العين المدققة رمزية الباشق يصارع الثعبان على ظهر (توفون / سيت / فرس النهر / ابن الماء) لأن الباشق هو الفينيقي القادم من بلاد العربية آدوم مديان حيث الثعابين الطائرة فى الأسطورة.

ويقول لنا صاحب كتاب دولة الأنباط إن هناك كان يعبد عددا من الأرباب أهمها ذى الشرى، وإن أهم رموز ذى الشرى كانت هى الأفعى والنسر / الباشق، صائد الحيات (٥٩) . وكان الثعبان والنسر هما الرمزين اللذين اتخذهما كل من بولينكيس وأتيوكليس ولدا أوديب، أو الملك سمنخ كا رع وأخيه توت. ولدا إخناتون، أو جرشوم وأليعازر ولدا موسى، عندما عاد سمنخ كا رع، بولينكيس فى الأسطورة اليونانية بأهالى تلك البلاد إلى مصر فى غزوة هكسوسية ثانية انتهت بالفشل الذريع وبموت الأخوين الملكين الصغيرين.

وقد أحاطنا دى بو إيميه علما أن رسالة الملك اليونانى آريوس ملك لأكديمونيا إلى كبير أخبار يهود زمانه، أن بين اليونانيين وبين اليهود قرابة جنسية بالدم فى أزمنة قديمة، وختم رسالته بخاتم يحمل رسما لنسر يصارع ثعبانا (٦٠) .

والغنى عن البيان هنا أن اسم موسى يتركب من شقين أو ملصقين هما (مو = ماء + سا = ابن) = موسى = ابن الماء، وهو اللقب الذى أطلقته الأميرة الفرعونية على موسى عندما عثرت عليه وصفاً لحاله حسب الأسطورة التوراتية، وابن الماء هو لقب فرس النهر الذى قتل أباه وتزوج أمه.

(٥٦) الموضع: نفسه

(٥٧) بلوتارك: إيزيس .. سبق ذكره، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٥٨) نفسه: ص ٥٥ .

(٥٩) إحسان عباس: تاريخ دولة .. سبق ذكره، ص ٢٩ .

(٦٠) دى بوا إيميه: سبق ذكره ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

وبعد سنوات طويلة من التطور الارتقائي الطويل كتب المحرر التوراتي معبراً عن انشغال بال يقف وراء ما كتب " وعورة أمك لا تكشف / لا وبين ١٨ / ٧ ". وبقي فرس النهر في ذاكرة المصريين رمزاً للفسق الأعظم وعدواً وعلماء على تيفون سيت رب سيناء والصحاري الجذباء، وذكرى فرعون مهرطق قرر المصريون نسيانه ونسيان اسمه ونسيان أسرته بالكامل (أسرة العمارنة). وقد لاحظ لويس عوض علاقة اسم قرية العمارنة بآل عمران العبران فوقف بينه قائلاً في كتابه (فقه اللغة) :

أما اسم عمران هذا الذي انتسب إليه موسى وانتسبت إليه العمارنة / اخيتاتون مدينة إخناتون، فهو بحاجة إلى تحليل لغوي وإثنولوجي بوصفه إبونيم Eponym قبلياً [وهذا ما فعلناه في كتابنا هذا / المؤلف] . وفي تقديرى أن اسم عمران ومشتقاته له علاقة باسم العمرو Ammou أو العمرو Amrou ، وهى القبائل التى احتلت دلتا مصر أو شرفيها مع الهكسوس وفى زمنهم، فنصوص مصر القديمة تحدثنا دائماً عن كفاح مصر ضد الخازو والعمو بعد الفتح الهكسوسى، والصلة بين الخازو والعمو غير واضحة عند المؤرخين، وعلى كل فالأمر بحاجة إلى مزيد من التحقيق للثبوت من وحدة أسماء الأعلام المذكورة، فهى مجرد اجتهادات تعتمد على قرائن لا على أدلة. (٦١)

وفى كتابه (الفكر المصرى الحديث) سبق للويس عوض أن طرح ذات الأفكار وربطها بالمماليك (الغز / الخازو) وبالأسرة البابلية التى تعيش على أطراف الدلتا الشرقية فى مصر، وعلينا أن نلاحظ أن تلك الأسرة قد توارثت ضخامة الجسم العملاق عن العموريين واللون الأحمر عن الأراميين حتى الآن، وفى هذا قال عوض:

(٦١) لويس عوض: مقدمه .. سبق ذكره ، ص ٢١ .

قبيلة الهوارة .. يسمون أحيانا فى الجبرتى
وغيره الهوارة قبلى، مما يوحى بأن هناك هوارة بحرى
.. وأنهم من فلول أفاريس أو أواريس Avaris
عاصمة الهكسوس فى الشرقية، التى تمت تصفيتا فى
الدولة الحديثة .. وهذا يفسر اشتغالهم بالزراعة
وتحضرهم، لكن مع رفضهم مخالطة المصريين فى
الوقت ذاته. وهذا يفسر نسبة الإمارة لزعمائهم من
ناحية بل وصفة الملكية التى نسبها الجبرتى إلى كبيرهم
الأمير همام بن يوسف صاحب الثورة الكبرى فى
القرن الثامن عشر .. بل إن هناك ما يوحى بأن
المماليك أنفسهم واسمهم التقليدى طوال العصور
الوسطى (الغزو)، هم أيضا طوائف من الهكسوس
Hyksos، وهى كلمة يونانية قديمة محرفة عن الاسم
المصرى القديم لهؤلاء الغزاة .. ولا يبعد أنهم بعد
طردهم من مصر أيام أحمس وتصفية مملكة أفاريس
أيام رمسيس الثانى استقروا فى الحجاز، وسميت هذه
المنطقة من شبه الجزيرة العربية باسمهم .. وقد كان
اسم مكة فى خريطة بطليموس (ملكاي) Melchae
(قارن: ممالك وعماليق). أما اسم الهكسوس الرسمى
كما ورد فى نقوش الآثار المصرية القديمة . . . فهو
(خزو) chesou ولا يبعد أن (خزو) هذه هى أصل
كلمة (الغز) بمعنى المماليك. وفى هذه الحالة لا يكون
هناك فرق جوهري بين هكسوس أو خزو دولة أواريس
فى العالم القديم .. وغز العصور الوسطى أو ممالكها.
ويكون هؤلاء وأولئك موجات مختلفة من الفرسان
الرعاة الوافدة إلى مصر فى عصور انهيار السلطة فيها
من جورجيا وبلاد الأبالسة. (٦٢)

(٦٢) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث، كتاب الهلال، القاهرة، إبريل ١٩٦٩، ص ٣٧، ٣٨ .

إن عوض يلمح إلى أن الغزو هم الخازو هم الهكسوس هم العمو هم بنو إسرائيل وإنهم قدموا من بلاد أرات وجورجيا (بلاد الأباظة أو الأباظة)، وهى رؤية لمحة، لكنها لم تدقق تفاصيل ماحدث، فقد كان الهكسوس كما علمنا فى بحثنا هذا أكثر من عرق متمايز لكن متحالفين.

وإن نظرة فاحصة للتكوين الاجتماعى لسكان مدينة إخناتون (أخت آتون أو أخيتاتون)، والحاوية التى أحاط بها إخناتون نفسه، يمكنها أن تفسر لنا اسمها الحالى (العمارة) جمع (عمران) وتؤكد قدم ذلك الاسم التاريخى. وليس فقط لأنه اسم قبائل العمارة التى تعيش هناك الآن فى قرية التل ومنحوها اسمهم، وربما كانت هذه القبائل المعاصرة من بقايا ذلك الماضى التليد. إن نظرة على سكان أخت آتون توضح انها كانت تغص بعوام الناس الذين لم تدون لهم المصادر أصلاً مصرياً نبيلاً واضحاً. ويقول (جاردنر): " وأما عن الشخصيات التى منحها إخناتون فيما بعد مقابر صخرية فى العمارة، فلنا نعرف من بينهم سوى واحد تبعه من طيبة هو ساقيه بارننوفه " (٦٣) وإن كنا نعلم أنه قد صحبه أيضاً (حويا) صاحب المقبرة الشهيرة بلوحتات الوليمة. إلى هذا الحد لم يكن من أتباع إخناتون فى بلاطه الذى انتقل من طيبة إلى العمارة سوى واحد واضح المصرية أو إثين، كان من قبل فى بلاط طيبة. أما بقية الجماهير الذين عجت بهم العمارة فكانوا مجهولى الأنساب فى المدونات المصرية، وهو الأمر النافر تماماً عن المعتاد المقدس الدائم فى بلاط مصر القديمة. وقد رجح البعض مثل (الدريد) أن سبب مجهولية تلك الأنساب يرجع إلى أنه " لم يكن رجال بلاط إخناتون من عائلات عريقة، بل كانوا رجالاً من عامة الشعب يرجع الفضل كله فى سمو مكانتهم للفرعون نفسه " (٦٤).

ويبدو أن هؤلاء (العوام) المجهولين قد ارتفع شأنهم مع ملكهم الذى اختارهم لنفسه شعباً من دون الناس، ووصل ببعضهم إلى مراتب عليا مثل اللواء (ماى) الذى عين مشرفاً على الوحدات العسكرية للوجه البحرى وأميناً لسكر القصر، وهو ما يعنيه لقبه " حامل أختام الملك فى الوجه البحرى ". وقد دون ماى فى مقبرته انه ليس من أسرة معلومة الشأن بين الناس، بل غالى فى التأكيد على انتمائه لأسرة وضعية مجهولة (٦٥). والغريب أن هذا الوضع قد ارتقى فى المناصب إلى وظيفة سفير بالخارجية وهو ما كان مستحيلاً أن يرتقيه غير مصرى قبل تلك اللحظة، بل كان مستحيلاً أن يرتقيه مصرى غير متعلم ومتقف ثقافة عليا لأنه يمثل شخص الفرعون فى البلاد الأجنبية، وكان يجب أن يكون متضلعا فى لغات تلك الشعوب بل وعاداتها وتقاليدها وديانيتها، فما بالنا و (ماى) هذا شخص مجهول الأصل؟! هذا ناهيك عن (عبريا) الذى وصل إلى رتبة رئيس وزراء.

إن (ماى) كى يقوم بهذه المهمة كان عليه أن يلم بلغات وعادات البلاد التى أوفد إليها بسفارته فى بلاد الشام وكى يكون كذلك وهو غير مصرى وليس من الطبقة التى أتيح لها العلم والثقافة، فلا شك أنه كان من أبناء تلك البلاد. ونحن نعلم من كتاب اللآلئ / التوراة الكنعانية أن كاتبها الذى عمل كبيراً للمعلمين فى

(٦٣) جاردنر: مصر الفرعونية .. سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٦٤) الدريد: إخناتون ... سبق ذكره ، ص ٧٤ .

(٦٥) أحمد قدرى: المؤسسة العسكرية .. سبق ذكره ، ص ١٥٣ .

القصر الملكي فى أوغاريت التى دمرها العبيرو ، أن هذا الكاتب كان يعمل فى بلاط العمارنة وأن اسمه كان إيلى ماى ليكو فهل كان ماى هو ماى ليكو؟ وكان هو من نقل قصة أحداث العمارنة ونشرها هناك؟

وتشير نقوش العمارنة إلى أن إخناتون أحاط نفسه وأسرته بفيالق من العسكر تتولى حمايته هو وأسرته بالتحديد، وليس بينها من يفصح تكوينه عن أصول مصرية، والسمات العامة لهذا الحرس سمات آسيوية بدون نقاش (٦٦) .

ثم تحيطنا رسائل العمارنة علما بشخصية أخرى هى وزير الخارجية (دودو) أو (توتو) الذى بلغ من السلطان مراتب عظيمة، وقام بدور المفاوض السياسى والدبلوماسى مع الأقاليم الآسيوية، " ويرى بعض المؤرخين أنه ربما كان ينتمى إلى أصل أجنبى، أو أنه سليل محارب آسيوى كان قد أسر " (٦٧) فيما سجل لنا (أحمد قدرى). وفى مقبرة وزير إخناتون (رمسيس) نجد تصويراً فى لوحة لأتباع هذا الوزير وليس بينهم مصرى واحد (٦٨).

وتبدو علاقة الآسيويين بعبادة آتون علاقة حميمة داخل بلادهم، فلدينا رسالة من الملك الكوشى على بابل بورنا بورياش الثانى موجهة إلى إخناتون، يقول فيها: " إنى باذل الآن جهداً كبيراً فى بناء المعبد وسوف أنجز العمل بدقة، فأرسل لى قدراً وافياً من الذهب " (٦٩) . هذا ما دونه المؤرخ العراقى طه باقر، ومن جهة أخرى سجلت جولياسامسون " أنه قد عثر على بقايا معبد أقيم لعبادة آتون فى إحدى المناطق السورية " (٧٠) .

وهكذا نظن إخناتون قد اختار له شعباً يعرف عقيدته ويسهل انقياده لممثلها الملكى وطاعته والولاء له بل وربما الموت فى سبيله، وهو ذلك الفصيل الآسيوى الذى كان أسيراً فى مصر منذ طرد الأحلاف الهكسوس، وهم العمارنة أو العمارنة فالبناء تتبادل مع الميم بقانون تبادل الشفويات والأنفيات، نسبة إلى عابر أو عامر أو عمران الذين كانوا يتعبدون للإله هفا أو هوا أو يهوه رب الريح وينعتونه بلقب السيد الذى هو بلغتهم (آتون) الذى سجله اللسان المصرى الأرق (آتون)، الذى كان بالأصل رباً مصرياً مهجناً بالبدوية السامية السينائية هو آتون النار البركانى القضيبى، والذى تعد الشمس أجلى مظاهر قدرته النارية. ولم يكن أحد يذكره إلا لماماً حتى جاء إخناتون وأعلنه ربا واحداً.

إن ما حدث فى العمارنة، واختيار إخناتون لأولائه ومواليه وحاشيته يذكرنا باللمحة العبقرية لسيجموند فرويد وهو يقول: إن جميع شعوب الدنيا كانت تختار آلهتها، إلا الشعب الإسرائيلى وحده هو الذى تم اختياره من قبل إله ليتأله عليه ويتخذ شعباً له.

(٦٦) أن زيفي: مقبرة عبريا، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٥.

(٦٧) نفسه: ص ١٤٩ .

(٦٨) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٤٥ .

(٦٩) طه باقر: الوجيز .. سبق ذكره، ص ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(٧٠) سامسون: نفرثيتى .. سبق ذكره، ص ٢٩ .

وقد دونت لوحات العمارنة اسم الإله بالصيغة (آ . ت . ن . ATEN) التى تمثل الشمس ذاتها كفرن وأتون عظيم، ويحيطنا لسان العرب علما تحت مادة أتن قوله: " الأتون بالتشديد الموقد .. قال بن خالويه .. ولا أحسبه عربيا وجمعه أتن " .^(٧١) ومعلوم أن رب الشمس فى الأكادية كان هو أوتو AUTU أيضاً وتعنى السيد أو راعى رعيته.

وقد صور إخناتون الرب أو السيد آدون أو آتون فى هيئة قرص شمس تخرج منه أذرع رفيعة تنتهى بكف يمنح العنخ / العنق / الحياة (رمز العنخ) وكف يحمل الـ (واس) رمز السعادة لتضعها عند أنف إخناتون، وهو ما يعنى أن آتن يمنح الحياة والسعادة، فهل نجد بالديانة الإسرائيلية أى أثر لذلك التصور عن الإله؟

وكما أوضحنا توصل فرويد إلى أن الإسرائيليين بعد خروجهم من مصر إلى سيناء نكسوا عن التوحيد الإخناتونى فى قادش سيناء، وعادوا إلى صورة الأدون يهوه ممثلة فى العجول وأشباهاها من ذوات القرون، لكن فرويد يقول إن الاعتقاد القديم ظل كامنا حتى جاء زمن أنبياء التجديد فى القرون المتأخرة قبل الميلاد، ليعيدوا التوحيد إلى صورته الأولى الآتونية الإخناتونية وقد وجدنا من جانبنا نصوصاً بالتوراة تفصح بوضوح عن أصولها الآتونية فى شمس تركب السماء وتمتد من تحتها أذرع أبدية رفيعة، وهى الصورة التى ابتكرها إخناتون لربه، ومن نماذج ما عثرنا عليه فى التوراة يشير إلى تلك اللوحة القديمة:

أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين
وأُنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة

خروج ٦ / ٦

هل شرع الله أن يأتى ويأخذ لنفسه شعباً من وسط
شعب بتجارب وعجائب وحرب ويد شديدة وذراع
رفيعة ومخاوف عظيمة مثل كل ما فعل الرب إلهكم فى
مصر؟

تثنية ٤ / ٣٤

هم شعبك وميراثك الذى أخرجته بقوتك العظيمة
وبذراعك الرفيعة

تثنية ٩ / ٢٩

عظمته وبده الشديدة وذراعه الرفيعة

تثنية ١١ / ٢

(٧١) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٢٨٧ .

وهنا قد يقال إن الذراع الرفيعة فى وصف يهوه مسألة مجازية تشير إلى قدرته وليس إلى يد بالفعل كما فى لوحات إخناتون، لذلك نسوق من التوراة تلك اللوحة التى تصور رب إخناتون كما تخيله الفرعون وكما تم نقشه ورسمه فى مصر، يقول الكتاب المقدس كما لو كان يصف لوحات الإله آتون،

ليس مثل الإله يايشورون. يركب السماء فى معونتك،
والغمام فى عظمته، الإله القديم ملجأ والأذرع الأبدية
من تحت.

تنبيه ٣٣ / ٢٦ ، ٢٧

هكذا إذن تتفق القصص الثلاث (إخناتون) و (أوديب) و (موسى) على عناصر تأسيسية متطابقة، نبوءة، طفل يولد يشكل خطراً على الملك. استبعاد الطفل صغيراً بعيداً عن أهله. الطفل ابن ملكى سواء بالتبنى أو بال ميلاد. وغنى عن التتويه أن موسى إضافة لتبنيه من قبل ملك حسب الرواية التوراتية، فهو فى نظر بنى إسرائيل من بيت ملكى هو بيت آل عمران. وتتفق الروايات الثلاث أيضاً على عودة الطفل يافعا فى أول مراحل الصبى إلى بيت أهله حيث يقتل أبیه فى الطريق كما حدث مع أوديب عندما قتل لايوس، أو يقتله بعد عودته كما فعل إخناتون باسم أبیه، أو كما حدث مع موسى فى رمزية قتل المصرى (لاستبعاد شُبهه الأصل المصرى) ثم هربه إلى مديان ثم عودته إلى مصر بتوجيه إلهى " وقال الرب لموسى فى مديان، اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين يطلبون نفسك / خروج ١٩/٤ ، ٢٠ " وهو ما يعنى لنا خبر موت آمنحتب الثالث وعودة إخناتون إلى مصر لتولى العرش.

ثم تتفق الروايات الثلاثة إن تصرّحاً أو تلميحاً على زواج البطل بأكثر من زوجة يظهر من بينهم زوجة أولى تختفى فى الظل عندما تظهر الزوجة الثانية، كما تتفق جميعاً على أن الزواج الثانى قد أغضب الآلهة فضربت البلاد بالوباء، وهو ما عبر عنه الملك توت عنخ آتون الذى ارتد بعد اختفاء إخناتون إلى عبادة آمون، وأصبح اسمه توت عنخ آمون، إذ يقول: " إن الأرض كانت مريضة وأغلقت معابد الآلهة، وهجرت الآلهة هذه الأرض، لأن البلاد كانت فى مأزق أثيم " (٧٢) أما الأسطورة اليونانية فنقول إن الآلهة أرسلت الطاعون على طيبة اليونانية بعدما تزوج أوديب من أمه يوكاستا (٧٣).

أما الكتاب المقدس فقد أسهب فى شرح الوباء فى سفر الخروج (٢٣ / ٢٥) وفى سفر اللاويين بدءاً من الإصحاح الثالث عشر، كذلك فى سفر العدد ١٦ / ٤٩ وسفر التثنية ٢٨ / ٢٧ ، ٣٥ .

ويبدو أن هناك وباء قد حدث حقاً، ربطه الناس بقصة الملك الخاطئ لأن أحمد قدرى يحيطنا علماً أن هناك كتابات حديثة تؤكد أن وباء الطاعون قد انتشر فى منطقة الشرق الأدنى فى تلك الفترة من الزمان، وبالتحديد المبين زمن العمارنة؟! وقد حجّم هذا الوباء من الخطر الحثي ضد مصر، وأعطى الفرعون

(٧٢) سليم حسن: الأدب المصرى .. سبق ذكره ، ج ٢، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٧٣) Graves, The Greek Myths, Vol II pp ١١-١٢ .

حور محب حرية الحركة العسكرية فى المنطقة بعد سقوط أسرة العمارنة، وقام بتطهير مصر من آخر العناصر الأجنبية (٧٤) .



الإله القديم يركب السماء والأذرع الأبدية الرفيعة من
تحت تمتد إلى توت عنخ آتون وزوجته
شكل رقم (٨٣)



جلسة عائلية تحت أيدى الرب الرفيعة نفرتي إلى اليمين
بثوب مفتوح من أسفل تحمل طفلتين من أطفالها، وإخنا تون
إلى اليسار يداعب واحدة من بناته، لاحظ رؤوس
الصغيرات وتيجان الوالدين العالية
شكا، ١، قه (٨٤)

كذلك أنجب الأبطال الثلاثة كل منهم ولدين، فقد أنجب إخناتون سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، وقد أكد لنا آلدريد أنه " قد أصبح من المسلم به أن سمنخ كارع وتوت عنخ آمون كانا أخوين، والواقع أن رفاتهما المتبقية تظهر تشابها غير عادى وخصوصا بين قياسات مجسمتيهما المفرطحتين الشاذتين .. وقد ثبت فى دراسة حديثة اعتمدت على تحليل الدم أن فصيلة دمائهما كانت واحدة (A+MN) .. وتطابق شكل الملكين الصغيرين يدل على أنهما شقيقان لأب وأم (٧٥)". كذلك نقول الأسطورة اليونانية أن أوديب قد أنجب ولدين هما بولينكيس وأيتوكليس، ويحيطنا الكتاب المقدس علما أن موسى قد أنجب ولدين هما أليعازر وجرشوم.

لكن إذا كان أوديب قد تزوج أمه يوكاستا، وإذا كان إخناتون قد تزوج أمه تى، وإذا كان موسى قد تزوج أمه يوكابد، فماذا عن الزوجة الأولى؟ وهى فى حالة إخناتون تحمل اسم نفرتي، وفى حالة أوديب تحمل اسم يوريكانيا (٧٦)، وفى حالة موسى تحمل اسم صفورة؟ لدينا هنا مشكلة فيما يتعلق بالزوجة فى القصة الأصلية (نفرتي) إذ يقول (جاردنر): " إن الملكة نفرتي مستها فضيحة ما فى العام الثانى عشر أو بعده بقليل، مالم تكن قد ماتت، وقد محى اسمها دوما من مبنى خاص بها يدعى مارو آتون يقع إلى جنوبى المدينة، وأحل محله اسم ابنتها الكبرى مريت آمون " (٧٧) لكننا نفهم من آلدريد أن إخناتون كانت له زوجة ثالثة تسمى كيا وجد اسمها محفوراً على إناء من الكالسيت محفوظ الآن بمتحف نيويورك، وبهذا يشذ عن

(٧٤) أحمد قدرى المؤسسة .. سبق ذكره ، ص ١٧٤ .

(٧٥) آلدريد إخناتون .. سبق ذكره، ص ٩٣ .

(٧٦) عبد المعطى الشعراوى أساطير إغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣ ، ج ١، ص ٢٤٩ .

(٧٧) جاردنر مصر الفراعنة .. سبق ذكره ، ص ٢٥٩ .

(٧٨) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره ، ص ٩٣ .

قاعدة الزوجتين (بالطبع هذا عدا الحريم الملكى) رغم أنه الأصل فى النماذج التى صيغت فيما بعد على قصته فى العبرية واليونانية؟ فهل ترانا قد أخطأنا هنا خطأ واضحاً؟

نقف الآن مع هذه المشكلة نحاول الفهم، لنقرأ عن نفرتيتى: " إن اسمها ينطق حسب كتابته بالخط الهيروغليفى: نفرت إيتى أى الجميلة آتية أو مقبلة، أو كما سميت فى السنة السادسة من حكم زوجها: نفرو نفرو آتون أى الجميلة جمال آتون .. ولا يزال موضوع أصل نفرتيتى موضوع نقاش بين المتخصصين إذ لم يذكر أى نص اسم والديها. ويعتقد البعض أنها تنتسب إلى إحدى الأسرات الأجنبية التى كان يعج بها البلاط الملكى فى عهد آمنحتب الثالث، وقد اختلف أصحاب ذلك الرأى فمنهم من رأى أنها ميتانية الأصل أى من شمال سوريا، ومنهم من رأى غير ذلك " (٧٩) .

ويكرر عبد المنعم أبو بكر فيقول: " يغلب على الظن أن نفرتيتى تنتسب إلى إحدى الأسرات الأجنبية التى كان يعج بها البلاط الملكى، وكثر الحديث عن الانبعاث الغريب الذى تميزت به مؤخرة الرأس للأميرات، وخاصة فى التماثيل والرسوم التى تمثلهن إبان الطفولة المبكرة. وواضح من التماثيل أن هذا الانبعاث الغريب لم يكن نتيجة طريقة تصفيف الشعر، بل هو نتيجة لمحاولة مقصودة " (٨٠) .

وثمة اجتهاد آخر فى تفسير اسم نفرتيتى أو على الأدق الشق الثانى فى اسمها (تى) فالشق الأول (نفر) يعنى الجميلة، أما الثانى (تى) - وهو اسم الملكة الأم - فهو طى فى العبرية من الأصل السيريانى Tayyaya . واللغة العربية تسمى فى السيريانية لسان طى / لسانا طايايا Lessana Tayyaya وقد ترجم صاحب الاجتهاد اسم نفرتيتى وفق ذلك بأنه (جميلة طى) (٨١). والأصوب (الجميلة العربية). ونحن نعلم أن منطقة عرابة عند سعيير وحتى حدود الدلتا الشرقية كانت تعرف بالمنطقة العربية.

بينما آلدريد يرى أن نفرتيتى هى ذات الأميرة الميتانية تادوخيا بدليل أن اسمها يعنى " آتت الجميلة " باعتبار (تى = آتت) (٨٢) وهو ما يشير إلى قدومها من خارج البلاد.

وتظهر لنا نقوش العمارنة أن إخناتون حذا أبيه، فمجد زوجته التى لا شك كانت تعاني من عدا الكهنة، عندما رفعها زوجها لمرتبة الزوجة الملكية العظمى / الرسمية / الرئيسية / التى تتجب ولى العهد، وهى غير مصرية. وقبل ذلك كان يتم تصوير الملكات الرئيسيات فى أوضاع لا يتجاوز فيها طول الملكة الواقعة ركبتى الملك الجالس، لكن آمنحتب الثالث وإخناتون خرجا على هذا المألوف المعتاد، وفعل إخناتون فعل أبيه عندما صور تى بذات حجمه، فصور إخناتون نفرتيتى فى صورتها المتكاملة التى لا تقل عنه بحال لتأكيد أنها ملكة كاملة الأهلية، بل إنه أطلق على نفرتيتى لقباً كان قاصراً على أميرات القصر المصرى فقط

(٧٩) جمال مختار: مقدمته لكتاب نفرتيتى .. سبق ذكره، ص ١٢ ، ١٣ .

(٨٠) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٨٦ .

(٨١) فهمى خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ٥٢٧ .

(٨٢) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره ، ص ٧٦ .

هو لقب الوريثة، بل تشير كل النقوش إلى حرص واضح من جانب إخناتون لإعلان نفرتيتي ليس فقط مجرد ملكة بل شريكة في الحكم مثله سواء بسواء^(٨٣).

وعلى اللوحات الضخمة التي أقامها إخناتون على حدود مدينته وصف لنفرتيتي يصفها فيه الفرعون بقوله: " مليحة الوجه المبتهجة بالريشتين، ربة السعادة، فريدة الحسن، رخيمة الصوت، سيّدة الكياسة والرشاقة، عظيمة في الحب، بهيجة في الطبع، مصدر سعادة سيد القطرين " ^(٨٤).

لكن ماذا يقصد جاردنر بقوله إن هناك فضيحة لحقت بنفرتيتي في آخر أيام تل العمارنة؟ لقد لوحظ اختفاء اسم نفرتيتي بل محوه بعد وصول الملكة الأم إلى العمارنة، كما وجدت شواهد على أنها انتقلت إلى أطراف مدينة أخت أتون لتعيش هناك في عزلة غير مبررة أو واضحة السبب ^(٨٥).

ويشرح لنا عبد المنعم أبو بكر الأحداث التي تتابعت بعد ذلك، وما حدث لنفرتيتي باختفاء إخناتون المفاجئ والمغز فيقول: " في هذا الجو المشحون بكل عوامل الكراهية والحقد والفساد تأتينا الأخبار أن نفرتيتي تحاول الثأر لنفسها فترسل خطابا إلى الملك الحيثي شوبيلولوما وتطلب منه أن يرسل أحد أبنائه ليتزوجها ويتولى عرش مصر. كان هذا التصرف من نفرتيتي بمثابة صفة دنيئة على وجه مصر والمصريين. يحدث هذا في العصر الذي حاول فيه أكثر من ملك آسيوي أن يخطب لنفسه أو لابن من أبنائه إحدى بنات البيت المالكي المصري، فكان يأتيه الرد دائما بالرفض، واستجاب الملك الحيثي لهذه الدعوة وأرسل بالفعل أحد أبنائه الذي لم يكد يصل على مقربة من الحدود المصرية، حتى داهمه بعض المصريين وقتلوه وقضوا بذلك على هذه المؤامرة، وأحسب رأى مصري مصر في ذلك الوقت، إنهم قضوا على هذه الخيانة العظمى . وقد صمت الآثار المصرية عن هذا الحادث ولم تذكره وثيقة ما، إلا أن إحدى الوثائق الحيثية التي عثر عليها في أطلال بوزازكوى العاصمة القديمة لدولة الحيثيين ذكرت هذا الحادث، وقام بتسجيله الملك مورسيل الثاني ابن شوبيلولوما " ^(٨٦) .

وقد ترجم لنا جوتر بوك الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو ذلك النص وفقا لرواية مورشيليش الثاني Mursilis II ابن شوبيلولوماش Suppiliumas كالاتي: " بعثت ملكة مصر إلى أبي رسولا وكتبت في رسالتها تقول: مات زوجي وليس لي ابن، فلو منحتني أحد أبنائك لصار لي زوجا، ولن أختار قط واحداً من خدمي ليكون لي زوجا. وأنا خائفة. وعندما سمع أبي هذا دعا إليه العظماء للتشاور وقال لهم: إن شيئا مثل هذا لم يحدث لي في حياتي قط " ^(٨٧)

^(٨٣) سامسون: نفرتيتي .. سبق ذكره ، ص ٥٧ ، ٤٥ ، ٤٦ .

^(٨٤) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره ، ص ١٧ .

^(٨٥) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره ، ص ١١٦ .

^(٨٦) نفسه: ص ١١٨ ، ١١٩ .

^(٨٧) إيفارلسنر: الماضي الحي .. سبق ذكره، ص ٨٧ .

وكانت عبارة " ليس لى ابن " مدعاة للتشكك فى شخصية الملكة التى أرسلت الخطاب، فاتجه رأى البعض إلى أن صاحبه ربما تكون نفرتيتى وأن عبارة ليس لى ابن من باب التجاوز، بينما رأى البعض أن الرسالة كانت موجهة فى تاريخ لاحق من أرملة توت عنخ آمون (عنخ اسن ان باتون) ^(٨٨) .

حتى الآن ليس هناك بالقطع فضيحة واضحة إذا لم تكن نفرتيتى هى من أرسل هذا الخطاب، ومع ذلك يصير المؤرخون على تلك الفضيحة غير الواضحة، فيقول - مثلاً - شتيندورف وسيل " إنه فى حوالى العام السادس عشر من حكمه وقع اضطراب خطير فى العاصمة الجديدة، فقد سقطت الملكة نفرتيتى فى فضيحة وانعزلت فى الطرف الشمالى من المدينة، حيث أقامت لنفسها قصرًا جديدًا. والأشياء التى عثر عليها فى خرائب هذا القصر تشير إلى احتمال أن تكون قد أخذت معها فى المقر الجديد الأمير الطفل توت عنخ آمون" ^(٨٩) .

ويرى شتيندورف وسيل من جانبهما أن صاحبة تلك الرسالة كانت بالقطع الملكة نفرتيتى التى كانت تدبر مؤامرة واضحة وكبرى لتتفرد بالسيادة ويرى " أنه ليس من المستبعد أن تكون قد لقيت حتفها مع عريسها المنتظر إذ أنها تختفى عند هذه النقطة من مسرح التاريخ ولا يسمع عنها شئ بعد ذلك " ^(٩٠) .

أما الباحثة والمصرولوجست الأمريكية (جوليا سامسون) فتتخذ موقف الدفاع الحاد عن نفرتيتى، وتؤكد أنه لم تصبها فضيحة ولا يحزنون، وأنه إذا كانت تلك الفضيحة قد افترضت افتراضا بناء على انعزالها فى قصر شمال المدينة وابتعادها عن القصر الملكى الإدارى، فإنها من جانبها قد توصلت إلى أن من قالوا ذلك قد أخطأوا خطأ فاحشاً، حيث التبت عليهم قراءة الإسم الممحى من آثار ذلك القصر، الذى لا يجب قراءته نفرتيتى إنما يجب قراءته (كيا)، وافترضت أن (كيا) هذه إحدى الزوجات الثانويات لإخناتون، وقد كتب اسمها بشكل يمكن أن يؤدى منطوقه بالخطأ إلى اسم نفرتيتى، خاصة مع عمليات المحو التى لحقت بذلك الاسم.

وتشرح (جوليا سامسون) نظريتها تحت عنوان: (تصحيح خطأ تاريخى) فتقول: " النظرية .. التى نقول بمحو اسم نفرتيتى وإيداله باسم ابنتها مريت آتون قد ثبت خطأها بعد دراسة متأنية لبقايا الاسم الذى تم محوه والتى قرئت خطأ على أنها بقايا اسم نفرتيتى. فقد ثبت الآن أن الاسم الممحى كان اسماً لامرأة أخرى هى كيا. وفى عام ١٩٧٤ نشر البروفيسور جون هاريس John Harris تقريراً علمياً مفاده أنه .. تبين له بصفة مؤكدة أن الاسم الممحى لم يكن اسم نفرتيتى بل كان اسماً لامرأة تدعى كيا .. وتدل الشواهد الأثرية التى اكتشفت أو عثر عليها مؤخراً أن كيا كانت زوجة ثانوية لإخناتون، مجرد زوجة من الحريم لكنها أبداً لم تكن زوجته الملكية العظمى فلم يكتب اسمها اطلاقاً داخل الخرطوش الملكى ولم تضع على رأسها تاجاً ... وقد عثر على منظر لها منقوش على أحد الأحجار التى نقلت من العمارنة بعد تدميرها إلى مدينة

^(٨٨) نبيلة عبد الحليم: معالم التاريخ .. سبق ذكره، ص ٧٥ .

^(٨٩) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢١٧ .

^(٩٠) نفسه: ٢٢٢ .

هرموبوليس / الأشمونين حالياً. تظهر فيه كامراً عادية من النبيلات تزين رأسها بباروكة مميزة ذات طراز خاص " (٩١).

ووقفت دون هذا الكشف الجديد عقبة، إذ ثبت أن الأميرة التي سكنت هذا القصر البعيد محددة الإقامة قد أخذت معها الأمير توت عنخ آمون المفترض إنه ابن نفرتيتي، وحتى يتم تجاوز هذه العقبة قال (هاريس) إن الأمير توت إذن لم يكن ابن نفرتيتي لكنه كان ابن كيا (٩٢).

تقف عدة عقبات ضد هذا الكشف أولها شكل رأس الأمير المستطيل الذي يطابق رؤوس بقية بنات نفرتيتي كما يطابق رأس شقيقه سمنخ كارع، ويشير إلى عادة كانت تمارسها نفرتيتي عند ميلاد الطفل عن عمد بربط رأس الرضع بقصد استتالته. إضافة إلى أن هذا الأمير (توت) قد ارتقى عرش مصر بعد الثورة الآمونية وتغير اسمه من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون، مما يشكك تماماً في أن والدته كانت زوجة ثانوية أى مجرد محظية. من هنا نطن أن نفرتيتي قد لحقتها فضيحة كبرى، وأنها بالفعل كانت صاحبة القصر النائي الذي عاشت فيه بقية حياتها مع ولدها الأصغر توت، وأن ذلك قد صحبته لعنة سيد القصر فأمر بمحو اسمها المصري الذي منحها إياه (الجميلة آتية أو نفرتيتي) ليعيدها إلى اسمها الأصلي الميتاني المجرد، وإذا كان جاردر قد افترض - ونحن معه - أن نفرتيتي كانت هي الميتانية تادوخيا أو تادوكيا، وهو اسم ملصق من شقين، فإن الكاتب المصري ربما اكتفى بكتابة الشق الأخير المميز (كيا) استهانة وامتهاناً، الذي قرأه بعد ذلك - حديثاً - البروفيسور جون هاريس باللفظ (كيا). وهكذا ووفق هذا التخرّيج لا يكون لإخناثون أكثر من زوجتين كلاهما كانت زوجة رئيسية، تمت تحية إحداهما لتفسح المكان للأخرى، فذهبت نفرتيتي أو كيا الفرعونية / يوريكانيا اليونانية / صفورة التوراتية / لتظهر مكانها زوجة ملكية عظمى تي / يوكاستا / يوكابد أم الملك وزوجته في الوقت نفسه.

لكن مع استمرار مطابقة الروايات الثلاث سنجدنا بحاجة إلى العثور في الملاحم الأخرى على نماذج متشابهة لذات الشخصيات الأساسية مثل العراف الحكيم العجوز الأعمى تيرياس في أسطورة أوديب، فمن كان تيرياس في واقع أحداث العمارنة ثم من كان في الملحمة التوراتية عن موسى؟ و(أدراستوس) ملك أرجوس حمو (بولينكيس ابن أوديب الأكبر) من كان في ملحمتي إخناتون وموسى؟ بل سنجد في الملحمة التوراتية شخوصاً غاية في الأهمية مثل هارون ومريم شقيقا موسى دون تواجد واضح لشخصيات مقابلة في الأصل المصري أو في الملحمة الأوديبية فمن كانا في تلك الملاحم ولو بالاستنتاج؟

ثم الأهم من كل هذا تبقى ثغرات واضحة في نظريتنا لاتحتاج جهداً لكشفها وتتمثل في السؤال: كيف كان الفرعون إخناتون هو ذات شخص موسى بينما المفترض أن موسى ثائر ضد الفرعون ودخل معه صراعاً جديلاً استخدمت فيه أدوات مختلفة لإدارة الصراع دمرت البلاد والعباد. ناهيك عن كون أوديب قد مات أعمى وهو مالم يحدث بالنسبة لموسى بل على العكس تماماً كانت التوراة تؤكد طوال الوقت أن موسى

(٩١) سامسون: نفرتيتي .. سبق ذكره، ص ١١٦ ، ١١٨ .

(٩٢) نفسه: ١٦٨ .

عاش ثاقب البصر صحيح العينين طوال عمره الذى وصل إلى مئة وعشرين عاما. ومعنى ذلك أيضاً أن إخناتون بدوره لابد كان أعمى وهو أمر بحاجة إلى تيقن أو على الأقل ترجيح أكثر تماسكا مما قدم فليكوفسكى. وعلميا من المستحيل على باحث أن يجد جميع العناصر والتفاصيل الصغيرة بدقتها ومنمنماتها متطابقة تمام التطابق بين أصل واقعى فى حقل أحداث حدثت فى مصر، ونسخة مروية من تلك الأحداث فى كتاب موصوف بأنه مقدس عمد محرروه إلى أكثر من استبعاد وأكثر من تزوير لاستبعاد فكرة واستبقاء أخرى تتفق مع رؤيتهم القدسية. وفى عدد من ملاحم التراجيديا اليونانية على تنوعها وطبعها بجغرافية اليونان وعقائدها وأسماء أعلامها .. إلخ، ومع ذلك سنحاول قدر الجهد على ألا نرتكب فى سبيل ذلك شططا لأنه سيظل هناك دوما عناصر غير متطابقة بين الملاحم الثلاث وهو أمر يجب الاعتراف به بهدوء تحاشيا للى عنق بعض الحقائق فى تفاسير متكلفة من أجل إثبات فروضنا، وهو الأمر الأبعد ما يكون عن مبتغانا وغايتنا.

بخصوص العراف الأعمى تيرياس فى الملحمة الأوديبية - كمثال - والذى كان يعلم ملابسات استبعاد أوديب طفلا وجد فليكوفسكى أن نموذج الواقعى فى تل العمارنة كان هو العراف الحكيم العجوز الأعمى وراعى العميان (أمنحتب بن حابو) الذى وصف فى نصوص العمارنة بأنه: " عالم وثيق بأسرار تربية الأطفال الملكيين ". لكننا لا نجد له نمودجا مطابقا فى رواية التوراة عن موسى التى قررت استبعاد كل ما يشير إلى أصول موسى المصرية وضمناها ولاشك كان هذا العراف، لكن ربما تسد لنا الرواية الإسلامية تلك الثغرة، فلدى المؤرخين الإسلاميين خبراً متواتراً عن شخص حكيم من حاشية البلاط الفرعونى زمن موسى كان ناصحه الأمين والمدافع عنه فى القصر، هو الذى جاء ذكره باسم (حزقيل مؤمن آل فرعون). ورغم الواضح فى الاسم أنه عبرانى بلا جدال إلا أن المؤرخين المسلمين ما كانوا ليدققوا هذا الأمر، ونفترض أنه مجرد تسمية موضوعة لتحديد شخصية كانوا متأكدين من وجودها أعطوها هذا الاسم على الاتفاق. وهو الرجل الذى جاءت بشأنه آيات القرآن تقول: " وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ٢٠ / الشعراء " (٩٣) وبهذه النصيحة هرب موسى إلى مديان وهى رمزية استبعاد البطل الملكى الطفل صغيراً إلى مديان، ثم أن (مؤمن آل فرعون) هذا هو من واجه الفرعون وملئه مدافعا عن موسى.

أما (أدراستوس) حمو (بولينكيس) فى الملحمة الأوديبية، فلا نشك أنه كان (دوشراتا) بحذف السين الأخيرة من (أدراستوس) فيتطابق الاسمان تطابقا تاما (دوشراتا = أدراستو)، ونحن نذكر أن دوشراتا حسب نظريتنا كان ملكا ميثانيا ضمن الأحلاف الأدومية وكان حليفا لمصر يحكم فى بلاد آدوم زمن العمارنة. وهكذا نفهم أن بولينكيس ومقابله المصرى سمنخ كا رع بن إخناتون قد لجأ إلى بلاط أخواله يستمد منهم المدد ضد أخيه توت عندما انفرد دونه بالعرش. وهو فى القصة التوراتية جرشوم ابن موسى الأكبر.

(٩٣) انظر مثلا : الثعلبى عرائس المجالس .. سبق ذكره، ص ١٧٣ .

والطريف أن الاسم جرشوم يحمل دلالة ما حدث لصاحبه، ويبدو أن المحرر التوراتي وهو يؤرخ للأحداث بعد قرون من حدوثها، قد رأى أن يختار لابن موسى الأكبر اسماً يليق بما حدث له، وهو دأب توراتي معلوم، فالاسم (جرشوم) في العبرية يعنى غريب، وهو من الفعل العبرى جرش أى طرد ونفى فهو المطرود أو المنفى (انظر قاموس الكتاب المقدس).

وتقول الأسطورة اليونانية أن (أدراستوس) هذا كان حاكماً على مملكة ضمن ممالك متجاورة متحالفة، وأن مملكته كانت تدعى (أرجوس) ومن جانبنا نرجح أن أرجوس باسمها هذا أو بتلوين مقارب كانت ضمن ممالك آدوم الخمسة. وبالإمكان مطابقتها مع آخر تلك الممالك شمالاً على البحر الميت مباشرة، وتحمل حتى اليوم اسمها القديم صوجر أو سوغر. لكن الأهم أننا عندما بحثنا عن معنى الكلمة ومشتقاتها وجدناها تحيلنا إلى بلاد العمالة والماعز والطبقات الاجتماعية المشردة والمأجورة التي تمارس النهب اللصوصية، إلى بلاد آدوم مديان، فكلمة أرجوس Argus اليونانية تعنى (علاق) ومنها Argali وتعنى (ماعز) ومنها أيضاً Argot وتعنى اللغة التي تستخدمها فئة أو طبقة اجتماعية من المشردين والمأجورين واللصوص وشذاذ الآفاق وهي المعانى التي اجتمعت في التاريخ لأخلامو آدوم.

لكن الإشكال الأكبر أماننا هنا هو في شخصيتين هامتين تماماً في القصة التوراتية هما الشقيقان هارون ومريم وقد لازما موسى في رحلة الخروج عبر سيناء. فمن كانا في الأصل المصرى وفي النسخة اليونانية؟ إن هارون بالذات يعد مشكلة فاسمه اسم سامى واضح العبرية لكنه منسوب إلى مصر، فهو يتركب من ملصقين هما (هار) أى ربوة أو قبيلة أو رأس أو جبل + (أون) وهو اسم مدينة عين شمس المصرية المعروفة، فاسمه يعنى ربوة أون أو رأس أو سيد عين شمس، وهو ما يذكرنا بكاهن عين شمس أوزرسيف الذى حدثنا عنه مانيتو ومن بعده يوسفوس، كما أن اسم أوزرسيف نفسه يحيل إلى عين شمس فهو اسم يعنى لسان أوزيريس أو شفة أوزير فهو (أوزر = أوزير + سيف وهي شفة بالعبرية وبالمصرية سب أو سف).^(٩٤) وأوزير كان أهم المعبودات الرئيسية في عين شمس كما هو معلوم. فربما كان هارون رفيقاً لأوزرسيف، وربما كان هو الوسيط العبرى بين إخناتون وبين أسرى مدينة حواريس سواء كان حقيقة أم اختراعاً اخترعته التوراة كمترجم، وهو الوسيط الذى لم يأتنا ذكره في الأصل المصرى لأن الأصل المصرى عنى بالأسرة الملكية وحدها، خاصة أن ظهور هارون كوسيط يبدأ دوره بعد خروج إخناتون منفياً من مدينته، ومن ثم إذا لم نجد أى ذكر في المدونات المصرية له فهو أمر طبيعى لأنه لم يكن قد ظهر بعد. وبالتالي لم يظهر أيضاً في ملحمة أوديب لأنها قد استمدت وقائعها من مصر مباشرة وليس عبر التوراة، لذلك كان طبيعياً أن يظهر في التوراة وحدها. ولتأكيد إسرائيلية موسى ونفى أصله المصرى ابتدع لهما أصل واحد فهو شقيق موسى وكنيهما إسرائيليان من بنى عمران العبران. فإذا كان هارون وهما توراتياً - وهو المرجح لدينا - فماذا عن مريم بنت عمران؟

^(٩٤) فى معنى كلمة (سب) انظر: أنطون ذكرى، مفتاح اللغة المصرية .. سبق ذكره، ص ٧١، وفى معنى كلمة (هار) انظر أى معجم عبرى.

مريم وماريه وميرها ومارى ومير ومريت وماريا كلها تنويعات على كلمة واحدة تعنى فى مصر القديمة ومختلف لغات الشرق الأوسط القديم: البقرة والبحر، وقد غلب عليها معنى البقرة الجميلة وساد وتأسس. ولدينا فى العمارنة (مريت - آتون) تطابقها اسما لكن تخالفها كيفا، فمريم كانت شقيقة موسى لكن مريت آتون كانت ابنة إخناتون وليست شقيقته، ومقابلها اليونانى هى أنتيجونى ابنة أوديب وليست شقيقته فالحالة الوحيدة النشار بين الحالات الثلاث هى حالة التوراة التى قالت إن مريم شقيقة موسى وليست ابنته .

وتقول الرواية اليونانية إن أنتيجونى عندما دفنت أخيها بولينكيس تم دفنها هى بدورها حية فى كهف صخرى عاشت فيه حبيسة حتى ماتت، وقد طابق فليكوفسكى تلك القصة مع أحداث العمارنة، واعتبر أنتيجونى هى مريتاتن زوجة أخيها سمنخ كا رع الابن الأكبر لإخناتون ويقابل بولينكيس الابن الأكبر لأوديب. ونعلم أن سمنخ كا رع لم يحكم سوى عام واحد بعد خلع أبيه إخناتون تتنازل بعده عن العرش لأخيه حسبما وصل إليه فليكوفسكى. لكن أخيه أتيوكليس / توت رفض التنازل عن العرش لأخيه حسب الاتفاق فلجأ بولينكيس / سمنخ كا رع إلى أدراستوس (دوشراتا / ذو الشرى) ملك أرجوس فى مديان واستمد منه المدد العسكرى ضد أخيه وضد جيش بلاده فاستحق اللعنة بعد الموت. وحكم عليه خالهما آى الذى أمسك بزمام الأمور بعدم الدفن ، لكن زوجته التى هى شقيقته أنتيجونى / مريتاتن دفنته فاستحققت بدورها اللعنة والدفن حية. والرواية اليونانية تؤكد أن بولينكيس قد ذهب من طيبة إلى البلاد التى نفى إليها والده، وبهذا المعنى يكون الأب المخلوع والابن المخدوع قد التقيا فى مديان، ومن الطبيعى أن تلازم أنتيجونى / مريت / آتن زوجها فتذهب بدورها إلى مديان، لنجدها هناك بصحبة أبيها أوديب / إخناتون. وهو ما يطابق وجود شخصية مريم بجوار موسى فى مديان، التى ربما عادت إلى مصر مع زوجها المطالب بعرشه حيث يموت فى المعركة ثم تحبس هى حية فى كهفها الصخرى وهو الذى رمزت له التوراة بغضب موسى عليها بعد أن عبرته بزواجه من المرأة الكوشية فضربها الرب بالبرص فتم عزلها وحدها (سفر العدد إصحاح ١٢/١٥) تعبيراً عما حدث لها فى طيبة بعزلها فى كهف هو مقبرتها. كذلك أقرت الأسطورة اليونانية بذلك عندما أكدت أن أنتيجونى قد عادت إلى طيبة وحضرت المعركة بين أخويها وجيوشهما. (٩٥) ويبقى السؤال: كيف كان الفرعون إخناتون هو ذاته موسى رغم أحداث الصراع الطويل الذى أوردت التوراة تفاصيله بين الفرعون المتأله وبين موسى الناثر؟

يتفق فليكوفسكى وأحمد عثمان ونحن معهما على أن المصريين قد استعانوا بشتى القوى السماوية والأرضية لعزل الفرعون بكل ماله من قدسية ولأنه ما كان بالإمكان اتخاذ قرارات أكثر صرامة مع مثل ذلك الرمز المقدس، فقد تم نفيه إلى منطقة منعزلة رآها أحمد عثمان عند قلعة (شور / زارو / سيله) على مختلف التنغيمات حيث كان يعيش بقايا الهكسوس الأسرى وبني إسرائيل. ونذهب من جانبنا إلى أن هذا النفى قد تم تحديداً إلى القصر الفرعونى الصيفى الواقع فى مدينة الهكسوس القديمة حواريس على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء، وسنقوم بتدقيق هذه المواضع جغرافيا فى الجزء الأخير من هذا العمل.

(٩٥) عبد المعطى الشعراوى: أساطير .. سبق ذكره ص ٢٦١ .

وفى حواريس عاش المصريون المنفيون بحكم القانون من نهايين وقطاع طرق وموظفين مرتشين وعسكر عصاه إضافة للإسرائيليين المأسورين هناك، ليذهب إليهم الفرعون وحاشيته وأتباعه المؤمنين بدعوته، لكن بالطبع ليسكن الفرعون القصر فهو قيمة قدسية حتى لو تم عزله ونفيه، ووصول إخناتون وحاشيته إلى حواريس يطابق وصول أوزرسيف عند مانيتو ومن نقل عنه من المؤرخين الكلاسيك إلى حواريس.

وبالطبع لم يعلم مانيتو إطلاقاً بأسرة العمارنة التى محاها المصريون من تاريخهم، لذلك كان ينتقل فوراً من آمنحتب الثالث إلى حور محب باحتسابه ابنه المباشر، لذلك لم يربط مانيتو بين إخناتون وبين أوزرسيف. وإذا كان أوزرسيف عند مانيتو كاهناً للشمس من عين شمس، فإننا نعلم أن إخناتون قد قضى ردها من عمره فى مدينة أون / عين شمس لينال من ثقافتها الرفيعة وربما قد منح لقب أوزرسيف هناك كرتبة كهنوتيه عالية الشأن، ثم أن مدينته نفسها أخت آتون التى بناها شرقى النيل بين المنيا وأسيوط، فإنها أيضاً تعنى ضمن ما تعنى مدينة الشمس لأن ربها آتون كان هو الشمس ذاتها.

ولو سلمنا بكلام مانيتو دون مناقشة فسيفرز نتائج لاتتسق مع المقدمات لأن كهنة عين شمس بالذات كانوا أشد الكهنة حرصاً على التقاليد المقدسة بينما كان أوزرسيف ثائراً على كل التقاليد خاصة تلك التى أرسنها مدرسة أون / عين شمس، ولاتتطبق تلك العقائد الجديدة التى يرونها مانيتو منسوبة إلى أوزرسيف إلا على شخص واحد هو الفرعون المارق إخناتون. ثم إنه وحده وليس أى كاهن آخر صاحب المبرر فى اختيار حواريس كمنفى لأن هناك سيجد من يمكنهم الالتقاء ثقافياً بما يدعو إليه.

ونستعيد هنا ما دونه يوسفوس نقلاً عن مانيتو بشأن فتنة أوزرسيف إذ يقول: " إن الهكسوس تركوا منهم بقايا لم يستطيعوا الفرار فوقعوا أسرى بيد المصريين حيث سيموا العذاب الطويل. وفرضت عليهم السخرة انتقاماً منهم. وبعد أن قضى أولئك الذين أرسلوا للعمل فى المحاجر زمناً طويلاً على تلك الحالة البائسة، طلبوا من الملك أن يخصص لهم أفاريس AVARIS - وكانت قد خوت على عروشها بعد أن تركها الرعاة الهكسوس - لتكون لهم مسكناً ووقاء، فاستجاب للرجبة وحققها لهم. والواقع أن هذه المدينة كانت مدينة الإله تيفون TYPHON سبت وفقاً للديانة القديمة، لكن لما دخلوها ووجدوا المكان صالحاً لإشعال الثورة، أقاموا على أنفسهم من بين كهنة هليوبوليس / أون / عين شمس / حاكماً عليهم. وأعطوه العهد أن يطيعوه فى كل شئ، وكان أول ما فعله أن سن لهم هذه الشريعة التى بموجبها حرم عليهم أن يعبدوا آلهة المصريين، وأن يمسكوا عن عبادة أى حيوان من تلك الحيوانات المقدسة التى يعظمها المصريون أيما تعظيم. بل أمرهم أن يقتلوا ويدمروها جميعاً، كذلك نهاهم أن ينضموا لغير رابطتهم. وبعد أن وضع لهم أمثال هذه الشرائع المعادية فى أغلبها لعادات المصريين، أمرهم أن يستخدموا ما يملكون من سواعد كثيرة لبناء سور حول المدينة، وأن يعدوا أنفسهم لقتال الملك أمنوفيس / آمنحتب AMENHOTEP أما هو نفسه فأنشأ صداقات مع الكهنة الآخرين ومن كانوا قد أفسدوهم. وأرسل السفراء إلى الرعاة الهكسوس الذين كان تهمزيس قد طردهم من البلاد إلى أورشليم. وعن طريق السفراء أبلغهم بأحواله وأحوال أولئك الذين عوملوا

بكل تلك الشناعة. وطلب إليهم أن تجتمع كلمتهم على أن يخفوا لمساعدته فى حربه ضد مصر. كذلك وعدهم أنه سيبادر إلى إعادتهم إلى مدينتهم ودولتهم القديمة أفاريس، وأنه سيمون جموعهم بالغذاء الوفير وبأنه سيحميهم ويقاتل من أجلهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك. وأن فى ميسوره أن يخضع البلاد لسلطانهم. وقد اغتبط هؤلاء الرعاة بهذه الرسالة أيما اغتباط وخفوا جميعا على وجه السرعة وكان عددهم ٢٠٠,٠٠٠ رجل، وبلغوا أفاريس فى وقت قصير " (٩٦) وكان هذا ما أمكن تسميته الغزوة الهكسوسية الثانية الفاشلة التى نرجح

وقوعها إبان حكم الفرعون آى منذ وصايته على العرش حتى ولايته الرسمية، وهو ما سنخرج عليه بالشرح فيما بعد.

وكان رهامبيس أو حور محب هو القائد العسكرى للجيش المصرى التى تصدت للغزوة الهكسوسية الثانية، وهو القائد العسكرى الذى قضى نهائيا على أسرة العمارنة بعد اختفاء آخر فراعتها (آى) الذى لم نعر له على مومياء حتى الآن. وأسس الأسرة التاسعة عشرة الحاكمة.

ويكون حور محب هو قائد الجند الذى طرد هؤلاء، ذلك الطرد الذى أسمىه التوراة خروجاً، ثم بعد ذلك صار فرعوناً عرف برفته الشديدة وبعده مع المصريين وبقسوته الشديدة إزاء الأجانب. وإذا كان آى كما نزع هو فرعون الخروج، فإن ذلك يفسر لنا ما جاء فى المآثور الإسلامى والقرآن عن شخصيتين أساسيتين فى قصة موسى والخروج، الأولى هى الفرعون والثانية شخصية تلى الفرعون أهمية هى شخصية هامان. وقد طابقنا شخصية كرايون مع شخصية آى مع شخصية الفرعون المقصود، فإذا كان ذلك صحيحاً فلا شك إذن أن هامان كان هو هايمون ابن كرايون / آى ومساعدته الأول، ويبدو أنه كانت تتم تهيئته لتسلم العرش، لكن هايمون مات مبكراً عندما أنتحر على أسوار طيبة إبان المعركة، فقدم نفسه قرباناً لنصر بلاده - ضد الغزاة الذين جاءوا ينصرون بولينيكيس ضد أخيه أتيوكليس (٩٧).

وقد علمنا أن ذلك الأثاث الجنائزى الفاخر الهائل بمدفن توت عنخ آمون كان مخصصاً للفرعون آى ويبدو أنه قد قرر تخصيصه لولده هامان أو هايمون لما أقدم عليه. ولأسباب لانعلمها ثم منح هذا الجهاز الجنائزى للملك توت عنخ آمون الذى قدم بدوره نفسه فداء لبلاده عندما مات وهو يحارب أخاه والغزاة.

[ملحوظة: إبان تببيض هذا الجزء من العمل طالعنا صحيفة
روز اليوسف القاهرية بتاريخ ٢٨ أبريل ٩٧ ص ٢٩
بالخبر التالى: "عالم المصريات بوب براير الذى يزور
القاهرة حالياً اكتشف خلال الأبحاث التى أجريت على جثة
توت عنخ آمون باستخدام أشعة إكس أنه مات مقتولاً"
وبعدها بأيام طالعنا صحيفة الأخبار القاهرية يوم ١١ مايو

(٩٦) لويس عوض: مقدمة .. سبق ذكره، ص ١٤، ١٥.

(٩٧) للمزيد عن هايمون انظر الشعراوى: أساطير .. سبق ذكره، ص ٢٦٧ : ٢٧١.

٩٧ تحت عنوان: سكوتلانديارد تحقق فى مقتل توت عنخ آمون، في موضوع يقول فى مقدمته: " عادت الوفاة الغامضة لفرعون مصر الشهير توت عنخ آمون لتثير من جديد اهتمام العالم، ليس باعتبارها حادثة تاريخية وقعت من ثلاثة آلاف عام، ولكن باعتبارها جريمة قتل يتعين مشاركة رجال الشرطة وخبراء علم الإجرام لكشف ملابسها .. وصرح الدكتور إيان إيشروود عالم الأشعة البريطانى بأن تحليلات الأشعة على جمجمة الفرعون كشفت عن وجود جرح عميق غير ظاهر فى الخلف، مرجحاً أن سببه هو ضربة على الرأس أدت إلى الوفاة، فى حين توصل ضابط سكوتلانديارد السابق إلى أن الذى نفذ الجريمة هو إما آى وزير توت عنخ آمون أو حور محب قائد الجيش أو كلاهما معاً".

هذا ما كان الخبر والاحتمالات والتساؤل عن القاتل وما يشغلنا اكتشاف أنه مات مقتولاً وتبقى اجتهاداتنا بشأن القاتل].

ويؤكد لنا أن الهجمة الهكسوسية الثانية الحليفة لإخناتون وولده المنفيان قد حدثت زمن آى، وأن آى هو فرعون الخروج، أننا أبداً لم نعثر على مومياء آى حتى الآن، كما أن هناك صفة لحقت بآى لا مبرر لها فى وثائقه على الإطلاق غير ما نقوله نحن هنا وهى فيما يقول قدرى " الشئ الملفت للنظر هو وصف الملك آى بأنه المنتصر على آسيا".^(٩٨) ثم نص مصرى آخر لشاعر كان يكتب قصائده فى حقبة العمارنة، ويلخص عبد المنعم أبو بكر قصة هذا النص بقوله أنه " كتبه أحد كهنة معبد الذى شيد لآمون فى طيبة، ويحوى النص ابتهالات لآمون، ثم يسرح الشاعر ببصره إلى مستعمرات مصر فى آسيا القريبة فيجدها قد تضاعلت وذهب معظمها إلى حد محاولة الاعتداء على مصر نفسها".^(٩٩) وهو ما يؤكد الغزوة الهكسوسية الثانية التى تشير إليها.

وتتواتر الأخبار الغامضة عن هذا الاعتداء على مصر فى نهاية فترة العمارنة، فيشير جاردنر إلى هجوم يصفه بأنه ربما كان حيثياً، وذلك استنتاجاً يربط بين قتل المصريين للأمير الحيثى القادم للزواج من الأرملة الملكية المصرية بناء على طلبها، وبين الأخبار الغامضة عن الهجوم الأجنبى على مصر. ويقول

(٩٨) قدرى المؤسسة .. سبق ذكره ، ص ١٧٤ .

(٩٩) أبو بكر إخناتون .. سبق ذكره ، ص ٧٧ .

جاردنر فى ذلك " وأخيراً أرسل الأمير الحثى الصغير لكنه قُتل فى الطريق، وقد كان من أثر ذلك إشهار الحرب على مصر، وإن كنا لا نعرف شيئاً من هذا عن طريق المصادر المصرية " . (١٠٠)

ويقصد جاردنر أن مصدر تلك المعلومة هو آثار بوغاز كوى الحيثية.

ويزيدنا تأكيداً على تأكيد بشأن الغزوة الثانية أن حور محب قائد الجيش المصرى إبان حكم العمارنة قد جاء عنه نص فى نقش يرجع إلى زمن توت عنخ آمون يقول فيه: " إنه كان يحرس قدمى سيده فى ميدان القتال يوم ذبح الآسيويين"، بل نعلم أن الملك توت قد حارب الآسيويين وذلك فى نقش على جدار صندوقه الملون، ثم نشاهد نائبه حوى يتلقى جزية من أشخاص " ذوى سمات آسيوية وسمات زنجية " . (١٠١)

كذلك يقول أحمد عثمان: " ونحن نعلم أن حور محب هو الذى حول منطقة جاسان إلى سجن كبير، وهو الذى قضى على الثورة الدينية فى مصر " (١٠٢) .

وعلى ظهر تمثال حور محب المعروف حالياً بمتحف Turin مرسوم تتويجه فرعوناً ويتضمن فقرة نقول:

.. لقد أخذ الملك يبحث عن مرابض الآلهة ومعابدها
التي أصبحت خراباً، وقام بإصلاحها وترميمها حتى
أصبحت فى نفس الشكل الذى كانت عليه فى العصور
القديمة. وأوقف عليها القرايين المنتظمة كل يوم، كما
زين هياكلها بالذهب والفضة وعين لها الكهان العاديين
والكهان المرتلين الذين اختارهم من الصفوة الممتازة
من رجال الجيش.

كما جاء بنص هذا المرسوم القول:

إن كل المعابد من طرف الأرض حتى طرفها الآخر قد
هجرت وسقطت محاريبها وهياكلها وتحولت إلى
خرائب، ولم يحدث لها مثل هذا من قبل أبداً. (١٠٣)

لكن جاردنر يلفت النظر إلى إشارة هامة رغم عجالتها فى ذلك النص فيقول: " وهناك إشارة عابرة إلى استدعائه للقصر الملكى حين حلَّ الغضب بالقصر "، ويوضح أن ذلك قد حدث إبان حكم العمارنة، وأنه زمن إخناتون وأخلافه كان نائباً للملك يدير الحكومة فى شمال البلاد . (١٠٤)

(١٠٠) جاردنر: مصر الفرعونية .. سبق ذكره، ص ٢٦٧.

(١٠١) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٦، ص ٣١، ٣٢ .

(١٠٢) أحمد عثمان: تاريخ .. سبق ذكره، ج ١، ص ٩٥ .

(١٠٣) قدرى: المؤسسة .. سبق ذكره، ص ١٨٧، ١٨٨ .

(١٠٤) جاردنر: مصر الفرعونية .. سبق ذكره ص ٢٦٩ .

ولعل العبارة " حين حل الغضب بالقصر " تفصح عن حدث إسقاط الفرعون. ويحيطنا (شتيندورف) علماً أن " حور محب استطاع أثناء حكمي إخناتون وتوت عنخ آمون أن يرتقى أعلى المناصب فأصبح القائد العام للجيش. وبصفته نائباً للملك كان يحتل المركز الثانى فى الإمبراطورية بعد الملك نفسه .. ولم يتحول حور محب مطلقاً إلى ديانة آتون بل ظل فى منف حيث يقيم مواليا للآلهة القديمة .. ومن المحتمل أن الفضل الرئيسى يعود إلى حور محب فى المحافظة على سلامة البلاد ومنعها من التمزق كلية خلال الأزمة العاصفة. ومن المحتمل أيضاً أن حور محب هو الذى أحبط الخطة الجسورة التى دبرتها الأرملة الملكة نفرتيتى للزواج من أمير حيثى " (١٠٥)

ويبدو أن حور محب بالإضافة إلى أنه كان رجل العسكرتاريا المصرية الأول حينذاك، فإنه قد تمتع بقدر من المرونة السياسية الماكرة، وانتظر الدور والوقت المناسب ليقفز على العرش، فرغم عدائه لفرعون العمارنة ولدعوته فإنه لم يسفر عن هذه العداوة مطلقاً، بل كان يحاول الظهور بمظهر المنفذ الأمين لأوامر الفرعون. وترك العرش يخرج من يده إلى يد العجوز الداهية آى بعد أن فرض وصايته على الطفلين سمنخ كارع وتوت، ثم استولى بموتهما المبكر على العرش. وفى ذلك يقول (شتيندورف): " بينما استطاع آى بزواجه من أرملة توت عنخ آمون أن يظهر باعتباره المرشح الممكن الوحيد، فعلى أية حال سواء بانتقاء حق آى فى العرش بعد وفاتها أو بالقضاء على الملك العجوز نفسه نتيجة لثورة، أحس حور محب أن اللحظة الحاسمة قد وصلت لارتقائه العرش، فقام بمشيئته الخاصة أو ربما بمشيئة كهنة آمون أيضاً، بالزحف على رأس جيشه إلى طيبة وهو ينتقى استقبالا حماسيا من الجماهير المبهجة فى كل مدينة يتوقف بها فى طريقه. وكان أعظم استقبال بالطبع فى العاصمة لأن الإله حورس رافقه شخصيا إلى طيبة ليقدمه فى حضرة آمون ويسبغ عليه المنصب الملكى وبعد انتهاء حفلات التتويج فى طيبة عاد الملك إلى الشمال وبدأ فى القضاء على آخر ذكريات الثورة الدينية وإزالة كل ما يذكر بإخناتون وخلفائه المباشرين توت عنخ آمون وآى. فطمس أسماءهم بلا رحمه من على الآثار واستبدل بها اسمه حور محب، وواصل هذا الاضطهاد إلى نهايته لدرجة أنه لم يعد للهراطقة الأربعة: إخناتون، وسمنخ كارع، وتوت عنخ آمون، وآى ذكر كما لو لم يوجدوا .. ومحيت مدد حكمهم من وفاة أمانحتب الثالث لحور محب، وتم تدمير معبد آتون تدميراً تاماً وتمت تسويته بالأرض (بالكرنك/ المؤلف) .. وبعد حكم استمر نحو ٣٥ سنة مات حور محب ودفن فى مقبرة لم تتم بوادى الملوك وخلفه على العرش رمسيس الأول " (١٠٦) .

ويعقب آلدريد قائلاً: " إن ما قام به حور محب لم يزد كثيراً عما كان يقوم به سلفاه، فإنه للأسف اغتصب آثارهما التى صنعها أصلاً لتمجيد عبادة آتون ومحا اسميهما من قائمة الملوك الرسمية بحيث يظهر حور محب كما لو كان هو الفرعون الذى خلف أمانحتب الثالث مباشرة .. وقد بذلت كل الجهود لاقتلاع أى ذكرى لإخناتون من أذهان الناس. وعندما كان الأمر يستدعى الإشارة إليه كان ينعت بأنه: مجرم أخت آتون،

(١٠٥) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(١٠٦) نفسه: ص ٢٣٣ ، ٢٣٥ .

أو ببساطة: المجرم " (١٠٧) وهكذا أكد لنا المؤرخون أن حور محب قد " أرخ بداية حكمه ابتداء من وفاة آمنحتب الثالث كما لو كان آمنحتب الرابع وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآى لم يكن لهم أى دور أو وجود فى التاريخ المصرى القديم " (١٠٨) ومن جانبنا نرى أن أحداث الخروج الإسرائيلى من مصر ليس لها أثر فى الآثار المصرية لهذا السبب تحديداً، لأنها وقعت آخر زمن حكم العمارنة الذى قرر المصريون نسيانه بكل أحداثه وتفاصيله كأنه لم يكن. ودمروا كل المدونات التى كان من الممكن أن تشير إليه أو إلى الأحداث التى تمت إياناه.

لهذا يقول لنا جاردنر إننا لانجد مثلاً فى تاريخ مانييتو أى ذكر لأى ملك من ملوك العمارنة، بل يبدو هذا المؤرخ الجليل جاهلاً تماماً بهذا الأمر وبهذه الأسرة الحاكمة بعد عمليات المحو المنتظم لها من التاريخ، وعادة ما كان المصريون لايمحون من تاريخهم سوى الأسرات الحاكمة غير المصرية كما فعلوا مع الهكسوس، ويبدو أن الدم الميتانى / المديانى الذى كان يجرى فى عروق العمارنة كان مبرراً كافياً لاستبعادهم من التاريخ المصرى المدون بحسابهم أجنب وبجسبان هذا الدم ذاته كان معلوماً بحسابه دماً هكسوسياً.

وقد ذكر المؤرخ الفلسطينى الكلاسيكى (يوسابيوس) حور محب مرتين فى ترتيبه لملوك مصر، المرة الأولى باسم (أورس) وواضح لنا أن (يوسابيوس) ذكر هنا الشق الأول من اسم حور محب وهو (حور) بعد أن أعطاه التصريف اليونانى فأصبح (حورس أو أورس)، وقد وضعه (يوسابيوس) مباشرة بعد آمنحتب الذى وصفه بأنه " آمنحتب المشهور المعروف بعلاقته بالتمثال الذى عرفه اليونان باسم ممنون الصوتى ". ثم ذكر يوسابيوس حور محب مرة ثانية. باسم (أرمائس) مختصراً فيما يبدو لنا اسم حور محب فى (حور إم) بدلاً من اسمه المصرى الأصلى الكامل (حور - إم - حب) ثم أضاف إليه التصريف اليونانى فأصبح (حورمايس) أو (أرمائس). ويؤكد لنا جاردنر أن قائمتى الملوك فى أبيدوس وسقارة قد تجاهلت تماماً إخناتون وخلفاءه الثلاثة الذين وصموا بالآتونية الكافرة، وأن القائمتين قد وضعتا حور محب مباشرة بعد آمنحتب الثالث " (١٠٩).

وشأن يوسابيوس هنا بحاجة لتوضيح، فهو يضع حور محب مباشرة بعد فرعون معروف مشهور اسمه آمنحتب، وأن هذا الفرعون له علاقة بتمثال ممنون الصوتى. فإذا علمنا أن ممنون هو الاسم الذى أطلقه اليونان على تمثالين أقامهما آمنحتب الثالث لنفسه عند مدخل معبده الجنائزي المندثر، فيكون آمنحتب المقصود عند يوسابيوس هو آمنحتب الثالث تحديداً وبالقطع اليقيني.

وحول تمثالي ممنون نستمتع إلى شتيندورف يقول: " والتمثال الشمالى منهما كان من المعتقد فى أزمنة الرومان أنه تمثال ممنون بن أيوس EOS، أورورا ربة الفجر. . . والآن كما تمضي الأسطورة قائلة يجلس

(١٠٧) آلدريد: إخناتون .. سبق ذكره، ص ٧٨ .

(١٠٨) رمضان السيد: تاريخ .. سبق ذكره، ص ١٢٩ .

(١٠٩) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٢٦٨ .

ممنون الراحل كتمثال حجري على سهل طيبة ويحيي أمه أيوس كل صباح عندما تظهر في الفجر. وعندما تسمع الربة نحب ابنها تذرف دموعها ندى الصباح على تمثال ابنها المحبوب، وقد شهد كثير من زوار الرومان في مخربشات تركوها على قاعدة التمثال الكبير أنهم سمعوا صوت نحب ممنون. وقد قيل لتفسير هذا الصوت إنه كان يحدث نتيجة للسخونة المفاجئة للتمثال - الذى تشقق بفعل الزلازل - بسبب أشعة الشمس الحارقة. وهى عملية تحدث سريعا فى جو مصر الصحراوى الجاف فتتمدد جزيئات الصخر داخل التمثال فتخرج هذه النغمات الموسيقية التى فسرها الأقدمون هذا التفسير الشاعرى. وعلى أية حال فعندما رمم التمثال فى زمن الإمبراطور سبتيموس سيفيروس صمت صوت ممنون ولم يعد يسمع بعد ذلك " (١١٠) .

وربة **الفجر** فى المصرية القديمة أو الفجر بالأحرى هو بالمصرية القديمة **آمو AMU** أو **عامو**، وهى الكلمة التى تعنى أيضاً الشرق كما تعنى العامو الآسيويين، وكلها معان تحيل إلى شرقى مصر حيث العامو الآسيويين، وهو ما يفصح عن معرفة الأقدمين أن أم ممنون / **آمنحتب الثالث كانت من العامو**، كانت ميثانية أو مديانية، وهى التى عرفناها باسم (موت أم أويا) أو (موتا ميا) وحرفى الميم والنون يتبادلان فهل كان اسمها هو (مديانية)؟! ربما ... لكن الأسطورة اليونانية اختارت لأم ممنون اسما آخر شديد الدلالة هو (أيو) الذى يحيلنا إلى أنثى الإله ياهو.

السؤال الأهم الذى يعترض نظريتنا مرة أخرى هو: كيف يمكن احتساب الفرعون إخناتون هو بعينه النبى موسى؟ بينما نعلم من قصة التوراة أن موسى كان الإسرائيلى النائر على الفرعون، وأنه دخل معه فى جدل طويل عريض مما يعنى أنهما لابد كانا شخصين متميزين عن بعضهما تماما.

القرآن هنا يضيف أمراً جديداً أبداً لم تذكره التوراة ولا حتى ألمحت له، وهو أن فرعون موسى كان قد ألّه ذاته وأمر الناس بعبادته من دون رب السماوات، وهى معلومة لابد قد تواترت حتى وصلت عرب الجزيرة وعرفوها وفهموها. وهنا نستمع إلى (شتيندورف) يقول: " بالرغم من أن الملك كان يعد إلها إلا أنه نادراً ما كانت هذه الفكرة تصل إلى نهايتها المنطقية أى **عبادة الفرعون كإله** فى معابد أقيمت بهدف مزاوله عبادته المقدسة "، ومن بين الفراعين الذين نعلم أنهم قد ألّوها ذواتهم وطلبوا من رعاياهم عبادتهم وأقاموا المعابد لذلك الغرض، الفرعون رمسيس الثانى المظنون أنه فرعون الاضطهاد الإسرائيلى، لكن هناك حالة أخرى واضحة يشير إليها شتيندورف بقوله: " وهناك استثناءات جديرة بالذكر مثلما كان يجرى فى معبد صولبا SOLEB بالنوبة حيث كان **آمنحتب الثالث يُعبد باعتباره الصورة الحية لرع على الأرض**. كذلك فى مدينة سيدنجا SEDEINGA النوبية، حيث كانت الملكة تى تلقى تكريماً مشابهاً فى محراب بنى خصيصاً لعبادتها " (١١١) .

وهكذا يكون آمنحتب الثالث والد إخناتون أحد الحالات النادرة التى ألّه فيها الفرعون نفسه وأنشأ معابد لعبادته بالفعل وطلب من رعاياه عبادته باعتباره إلها.

(١١٠) شتيندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره ، ص ١٨٧ .

(١١١) نفسه: ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

والكتاب المقدس كان يشير إلى ملك مصر زمن موسى باللفظ فرعون خلواً من أى تمييز كما لو كان (فرعون) هذا ليس لقباً ملكياً كما نفهم إنما كان اسماً لشخص، والمؤرخ هيرودت يذكر لنا أن ملكاً على مصر قد حمل اللفظ فرعون كاسم له وليس لقباً، ويقول إنه فيروس أو فيرون ابن الملك سيزوستريس الشهير. لكننا للأسف الشديد ليس لدينا أية إشارات إلى من يكون سيزوستريس بين ملوك مصر، حيث لم يرد هذا الاسم إطلاقاً في قوائم الملوك المصرية. ونص هيرودت بهذا الخصوص يقول عن سيزوستريس: "... بعد ذلك عاد الملك إلى بلده وانتقم من أخيه ثم شرع يستخدم الجموع الذين أحضرهم معه من البلاد التي غزاها في نقل كتل الصخر الضخمة التي نقلها إبان حكمة إلى معبد فولكان (آمون) .. ولم يكن سيزوستريس ملك مصر فحسب بل وملك أثيوبيا أيضاً، وكان هو الملك المصرى الوحيد الذى حكم ذلك القطر الأخير، ومن الآثار التي تركها تخليداً لذكرى حكمه تلك التماثيل القائمة أمام معبد فولكان، إثنان منها يمثلانه هو وزوجته وارتفاع كل منهما ثلاثون ذراعاً .. وقال الكهنة أنه بعد موت سيزوستريس اعتلى العرش ابنه فرعون ولم يقم هذا الملك بأية حملات حربية، إذ أصابه العمى بسبب هذه الظروف: فى إحدى السنوات ارتفع ماء النيل ارتفاعاً غير عادى حتى وصل إلى ثمانية عشر ذراعاً وأغرق الحقول، وتصادف أن هبت الريح فجأة فارتفعت المياه فى موجات عظيمة، عندئذ استبدت بالملك نزوة إلحاد فأمسك رمحه وقذفه فى وسط اللجج العاتية، وفى الحال أصابه مرض فى عينيه انتهى إلى إصابته بالعمى بعد فترة وجيزة " (١١٢) .

وقد ذهب الباحثون إلى أن شخصية سيزوستريس تطابق شخصية الفرعون رمسيس الثانى الذى افترضوه فرعون الاضطهاد اعتماداً على تشابه بين أحد ألقاب رمسيس الثانى (سيسى) وبين الاسم سيزوستريس، ولأنه سخر الأجانب فى حمل الأحجار وهو ما يطابق قصة الاضطهاد الإسرائيلى، ولأن ابنه حمل لقب فرعون كاسم، وهو ما يطابق رواية التوراة عن ملك الخروج المصرى باسم (فرعون). وقد احتسب تيار كبير من المؤرخين أن فرعون هذا هو مرنبتاح بن رمسيس الثانى صاحب لوح إسرائيل. وبهذه الدلائل تم التسليم بأن سيزوستريس هو ذاته رمسيس الثانى المفترض أنه فرعون الاضطهاد، وأن ولده (فرعون) هو مرنبتاح المفترض أنه فرعون الخروج. لكن لأننا أبداً لم نقتنع بذلك، فقد رجعنا ندقق فوجدنا استرابون يرفض أن يكون سيزوستريس هو حرمسيس ميامون (ميامون لقب خاص برمسيس الثانى)، لأنه حكم ٦٦ سنة بينما سيزوستريس حكم ٤٨ سنة، لذلك وضعه بعد فرعون باسم (أمانس). ولأن آخرين رفضوا مع استرابون أن يكون سيزوستريس هو رمسيس الثانى، فقد وضعوا افتراضات منها أنه ربما كان سنوسرت الأول أو ربما سنوسرت الثالث (١١٣).

ومع التضارب حول شخص الفرعون سيزوستريس رجعنا إلى رواية هيرودت نتفحصها: الملك سيزوستريس عند هيرودت أقام تماثيل أمام معبد آمون له ولزوجته، وكان ارتفاع كلا التماثيل واحداً حوالى ثلاثين ذراعاً، ونحن نعلم أن رمسيس الثانى قد سار على السنة التقليدية فصور زوجته بحجم ضئيل تقف بين

(١١٢) إيفانز: هيرودت .. سبق ذكره، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(١١٣) سترابون فى مصر .. سبق ذكره، ملاحظة للمترجم ص ٥١ ، انظر كذلك : محمد رمزى: المعجم الجغرافى .. سبق ذكره، البلدان المندرسة، ص ٣٣٩ .

رجلى تمثاله ولا تصل قمة رأس تمثالها إلى ما أسفل ركبتيه. بينما هناك حالة واحدة نادرة بين تلك التماثيل الكبيرة تم فيها تصوير زوجة الملك بذات حجم الملك، وكان ذلك أول خروج على المألوف فى التقاليد المصرية القديمة. وتلك الحالة هى تمثالا الفرعون آمنحتب الثالث وزوجته تى الموجودان الآن بالمتحف المصرى.

وحسبما وصل استرابون من معلومات عن تمثالى ممنون قال " أحدهما لآمنحتب الثالث والآخر لزوجته الليبية تى " (١١٤). لقد كان استرابون يعرف أن تى غير مصرية، وأنها أيضاً بدوية، لكنه لم يتمكن من نسبتها لبدوها الحقيقيين فى سيناء، فنسبها لبدو الساحل المعروفين باللوبيين آنذاك باعتبار ساحل المتوسط الأفريقى كان يسمى عند اليونان بالساحل الليبى.

ويقول هيرودت " وحين مات سيزوستريس خلفه ابنه فيرون وهو أمير لم تكن له مغامرات عسكرية، وقد خلف فرعون أحد مواطنى ممفيس " (١١٥) ونحن نعلم أن مرنبتاح قضى أيامه الملكية فى معارك عظيمة لا تطابق تلك القصة إطلاقاً، بينما يمكن للقصة أن تطابق إخناتون وشخصه الحالم الكاره للحروب. ثم إن الذى خلف مرنبتاح الملك ستى الثانى وهو بالطبع ليس من مواطنى ممفيس، أما الذى خلف إخناتون (بإسقاط أسرة العمارنة) هو حور محب الذى قضى حياته على رأس كتائبه فى ممفيس بعيداً عن الصراع الدائر فى العمارنة. هذا ناهيك عن أمر مقطوع به وهو أن أقدم نص موثوق يشار فيه إلى ملك مصرى تم تدوين اسمه فقط بالصيغة فرعون هو النص الذى يشير إلى إخناتون فى دعاء يقول: " بر - ع . و ع ن خ . و د أ . س ن . ن ب " أى " فرعون له الحياة والدعة والسلامة . الرب " (١١٦)

ثم لا نجد ذلك مثل ذلك ولا بعد ذلك أبداً إلا مرة واحدة حدثت فى عهد الشناشقة من الأسرة الثانية والعشرين يذكر فيه لقب فرعون مقرونا باسم الملك الشخصى حوالى أوائل الألف الأولى قبل الميلاد (١١٧).

فإذا كان فرعون المقصود هو إخناتون، فلا بد أن يكون سيزوستريس هو آمنحتب الثالث، ووفقاً لسترابون أن الملك ممنون (الاسم اليونانى المقابل لآمنحتب الثالث) كان ابن (سيزيا) وأنها كانت من مدينة بذات الاسم فهى من (سوز). ويبدو لنا أن استرابون قد خلط بين آرية / إيرانية العنصر الآدمى وبين أصوله العائدة للمدينة الإيرانية القديمة (سوز) وهو ما يشير عموماً إلى أصول تجتمع عند الاسم سيس، وسيسى هو اسم الحصان، الذى جاء مع الغزو الهكسوسى وهو ما يحيل إلى آدوم مديان حيث أحوال أسرة العمارنة فهم السيسيين، وسيزوستريس اسم منسوب إلى سيسيا، فاسترابون يقول " إن قلعة سوز كانت تسمى ممنونيوم نسبة لممنون الاسم اليونانى لآمنحتب الثالث ويسمى السوزيون أيضاً السيسيين " (١١٨) .

(١١٤) سترابون فى مصر .. سبق ذكره ، ص ١١٣

(١١٥) خشيم: آلهة .. سبق ذكره، ج ١، ص ١٠٦ .

(١١٦) الموضع نفسه

(١١٧) الموضع نفسه .

(١١٨) سترابون: سبق ذكره، الكتاب الخامس الفصل الثالث، انظر أيضاً: أنطاكيوب: الأصول الزنجية ... سبق ذكره ، ص ١٣٠

ومن الجدير بالذكر أن هيرودت نفسه كان يفرق بين سيزوستريس وبين رمسيس الثانى صاحب التماثيل المعبودة عند معبد أبي سمبل، فهو يقول إنه بعد موت فرعون جاء ملك اسمه (راميسينيتوس Rhompsinitus) أى رمسيس وترك آثاره فى المدخل الغربى لمعبد فولكان / آمون، والتماثلان القائمان أمام هذا المدخل يطلق المصريون على أحدهما الصيف وعلى الآخر الشتاء وأن السكان الوطنيين يعبدون تلك التماثيل (١١٩).

ويقول هيرودت إن سيزوستريس أقام أعمدة فى البلاد والمواطن التى كانت تخضع له نقش عليها أمجاده، ونحن نذكر أن القرآن ينعت فرعون موسى بأنه ذى الأوتاد أى صاحب الأعمدة (١٢٠).

ثم هل من الصدفة البحتة أن يستخدم مرنبتاح بن رمسيس الثانى لوحا يخص الفرعون آمنحتب الثالث (١٢١) لينقش عليه الانتصارات والذى سمي بلوح إسرائيل وهل من الممكن أن يكون مرنبتاح قد اغتصب لوح آمنحتب الثالث كعادة الفراعنة ونسب أمجاد اللوح لنفسه؟ . أم كان يكرر معلومة تواترت عن زمن آمنحتب الثالث وأولاده فنسبها لنفسه ليشتهر بعد ذلك بأنه هو الذى طرد بنى إسرائيل من مصر؟ إن ما قدمناه حتى الآن يستبعد دور مرنبتاح ووالده رمسيس الثانى، ويثبت دعائم إخناتون ووالده آمنحتب الثالث. أما الأشد دلالة فى صدق ما نقول هو ما جاء على لسان الكهنة المصريين من ذكريات مروية لهيرودت عن تلك الأيام التى أصيب فيها الملك المعروف باسم (فرعون) بالذات - وبالتخصيص من بين كل ملوك مصر - بالعمى، إثر موجة إلحاد أصابته ضد إوزيريس النيل، ونحن نعلم أن الملحد الأكبر بألهة مصر وخاصة أوزيريس كان هو الفرعون إخناتون الذى نسخه اليونان فى صورة الملك أوديب الذى أصابه العمى بدوره فى نهاية حياته. وهكذا نكون قد وصلنا إلى أن إخناتون قد أصيب بالعمى فى نهاية حياته رغم أن الآثار لم تفدنا بذلك. بشكل مباشر وفصيح.



الطريقة المصرية التقليدية فى تصوير الملكة بالنسبة للملك بحجم ضئيل عند سيقانه ولا تصل قامتها إلى ركبتى الملك. والمشهد لرمسيس الثانى. قارن مع تمثال آمنحتب الثالث وزوجته الملكة تى شكل رقم (١٠١)

(١١٩) إيفانز : هيرودت سبق ذكره، ص ٩٩ .

(١٢٠) نفسه: ص ٩٥ .

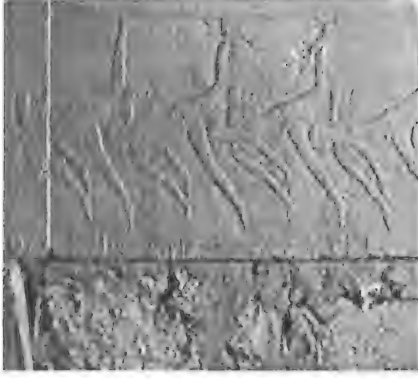
(١٢١) أحمد عثمان: تاريخ .. سبق ذكره ، ج ١، ص ٨٢ ، ٨٣ .



أمنحتب الثالث ومليكته تي وبينهما واحدة من بناتهما وهذه التماثيل هي التي أشار إليها هيرودوت أمام معبد فولكان أو آمون، وقد نقلت من مكانها وتوجد الآن بالمتحف المصرى
شكل رقم (١٠٢)



لوحة الرقصات هذه تعود إلى زمن إخناتون تحديداً وتدقيقاً، وقبل هذا ومن بعده لم تظهر هذه الرقصة فى نقوش مصر، فقط هذه اللوحة وفى العمارنة، وكما هو واضح فالرقصة عربية لم تزل تؤدى بنفس الأسلوب والطريقة لدى بدو الجزيرة وبدو الأردن والشام حتى اليوم/ قارن بين تلك الرقصة الغربية تماماً على مصر وبين الرقص المصرى فى لوحات انتقيناها من بين عشرات اللوحات متعمدين إيجاد أوجه شبه لكن الفرق كان شاسعاً.
شكل رقم (١٠٣)



رقص أكروباتي وهو رقص الرجال في مصر القديمة
ويختلف عن رقص النساء اللاتي كن يرقصن رقصة إيقاعيا
وشبه عاريات
شكل رقم (١٠٤)



تدريب على لون من رقص الرجال
الإيقاعي، لاحظ ربط الساقين لضبط
الحركة والمغنى يضع يده على أذنه
وصدغه بنفس الأسلوب الشرقي الحالي
شكل رقم (١٠٥)



العازف ورقص مصري إكروباتي
للنساء من عهد حتشبسوت بمتحف
الأقصر
شكل رقم (١٠٦)



ألوان أخرى من الرقص المصري مع عازفه ومصنفات
شكل رقم (١٠٧)



تمثالا ممنون آمنحتب
الثالث
شكل رقم (١٠٨)

فرعون أعمى وأعرج

لكن هل نجد فى التوراة أية إشارات إلى عمى أصاب النبى موسى؟ إن المعتاد على التعامل مع ذلك الكتاب المقدس سيتأكد يقيناً أنه عندما كان يريد أن ينفى أمراً قد حدث فإنه كان يؤكد عكسه تماماً، أو يخترع له قصة تنفيه، فعندما شابت قصة يوسف علاقة شاذة بحكم جماله المبالغ فيه مع صاحب البيت رئيس الجند فوطى فارع، ظل المقدس يؤكد على أن فوطى فارع كان خصياً، ونحن نعلم أن المصرى القديم إطلاقاً لم يعرف الخصاء خاصة إذا تعلق برجولة وفحولة قائد الجيش الذى كانت قوته العسكرية تقتزن وتقرن وتقرن بفحولته الجنسية والجسدية. ثم أبداً لا يتفق ذلك مع زواج القائد من امرأة فانتة كما جاء برواية التوراة، ومن هنا صاغ المحرر التوراتى قصة رغبة الزوجة فى يوسف وامتناعه عنها وذلك لأن زوجها كان خصياً لاستبعاد أى شبهة تلحق بيوسف الذى كان محبوباً من سيد القصر حبا جما حتى أنه سلمه كل أمواله وأملاكه.

" فوجد يوسف نعمة فى عينيه وخدمه فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له .. فترك كل ما كان له فى يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذى يأكله وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر / تكوين ٣٩ / ٣ - ٦ ."

وهو أمر يتكرر بعد ذلك فى قصة لوط الذى عاش بين الشواذ وعاشرهم وكان لابد أن تنفى التوراة عنه تلك التهمة رغم أن أهل القرية اتهموه بأنه جاء بالملكين السماويين ليعاشرهما. ثم يتكرر ذات المنهج فى إصرار التوراة على أن الإسرائيليين بمصر كانوا لا يعيشون بين المصريين إطلاقاً حتى تتحقق لعنة الرب على المصريين فتصيب ضرباته مواضع المصريين ولا تصيب مواضع سكنى الإسرائيليين، رغم أن هناك نصوصاً بالتوراة تؤكد أنهم كانوا يعيشون بين المصريين كما فى نصيحة يهوه لشعبه باستعارة الحلى الذهبية من المصريين وسلبها منهم ليلة الخروج وهو ما يعنى أن كليهما كان يعيش فى ذات المواضع بل أن تعبير التوراة يشير إلى اختلاط مساكنهم " تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهباً .. فتسلبون المصريين / خروج ٣ / ٢٢ ."

وعلى ذات الوتيرة يأتى تأكيد التوراة بلا مقدمات وبلا أسباب واضحة وبلا معنى " وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهب نضارته / تثنية ٣٤ / ٧ . " ولا ننسى عصاته التى كان يتوكأ عليها وتضيف رصيذاً لفكرة العمى الذى أصابه، وقامت التوراة تصر على نفيه، لنفى أى إشارات يمكن أن تكشف الأصل المصرى لأعظم أنبيائها.

وقد صادفنى نص غريب لامعنى له إلا إذا كان يشير إلى حدث حقيقى قد حدث عن قلع عيون أحد الفراعين أو لعقاب كان يمارس فى بلاد الحيثيين تحديداً وأنه ربما حدث أيضاً فى مصر، والنص يأمل ألا يتكرر ذلك وقد جاء ذلك فى نص معاهدة السلام التى عقدت بين الملك المصرى رمسيس الثانى وبين الملك الحيثى حاتوشيليش، ويقول هذا البند من الاتفاقية: " إن رمسيس وحاتوشيليش حقا أخوان، ولذلك عليهما ألا يفرضا عقوبات على ذنوبهم وألا يقتلعا عيونهم وألا ينتقما من أهلها " (١)

كما أفادتنا المصادر المصرية أن (حور محب) تحديداً قد أمر بعقوبات التشويه الجسدى والنفى معاً، وجعل منفاه فى مدينة تقع شرقى الدلتا على الحدود السينائية أسماها الرومان (رونيو كولورا - يضعها المؤرخون عند العريش وهذا خطأ كما سنرى) والكلمة رونيو كولورا تعنى بالضبط (مجدوعى الأنوف). لكننا نفهم من نصوص حور محب أنه كان يمارس ألوانا أخرى من التشويه الجسدى خاصة مع أعداء البلاد أو من يعتدون بالسرقة على أوقاف المعبد. ومن ثم لن يكون هناك مانع من سمل العيون كطريقة مسموعة فى عقوبات العالم القديم، وهى الحالة التى ربما تعرض لها إخناتون عندما تم إسقاطه عن عرشه ثم نفيه بعد ذلك. وفى الكتاب المقدس إفراط فى الحديث عن حاسة الشم بدلاً من حاسة البصر، ودوما كان هذا الكتاب يتحدث عن المحروقات المقربة إلى يهوه باعتبارها " رائحة سرور للرب ".

وبعد مراحل تطورية فى الديانة اليهودية تم فيها التخلّى عن آتون أو الأدون السيد الذى اصطبغ برقبة شخصية إخناتون لصالح يهوه السفاح الجبلى بانتصار أتباع يهوه البركانى الذى سيأتى شرحه مع استبعاد كل ما يمت للأصل المصرى بصلة. نصادف نصاً أكثر غرابة بالكتاب المقدس، وهو نص يتحدث عن انتقال الملك الإسرائيلى داود من مدينة حبرون إلى أورشليم حيث يعيش اليبوسيون ليتخذها عاصمة لملكه، وهنا يعترض اليبوسيون بطلب من أعجب المطالب ناهيك عن كونه كان حتى كتابة هذه السطور غير مفهوم على الإطلاق، يقول النص :

وذهب الملك (أى داود) ورجاله إلى أورشليم إلى
اليبوسيين سكان الأرض فكلّموا داود قائلين: **لا تدخل هنا**
مالم تنزع العميان والعرج، أى لا يدخل داود إلى هنا.
وأخذ داود حصن صهيون، هى مدينة داود. وقال داود
فى ذلك اليوم إن الذى يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى
القناة والعرج والعمى المبغضين من نفس داود لذلك

(١) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٥٩ .

يقولون لا يدخل البيت أعمى أو أعرج، وأقام داود فى
الحصن وسماه مدينة داود .

صموئيل ثانى ٥ / ٦ - ٩

النص شديد التناقض وغير مفهوم على الإطلاق، لكن لنحاول، يقول النص أن داود ورجاله ذهبوا إلى
أورشليم يريدون دخولها فواجهه أهلها اليبوسيون بطلب هو: ألا يدخل مدينتهم إلا بعد أن يتخلص من العميان
والعرج، ويفسر المقدس ذلك بجملة إلحاقية: أى لا يدخل داود إلى هنا. ونحن نعلم أن داود لم يكن أعرجا
ولا أعمى. نظن المقصود هو أن يتخلى داود عما يحمل من عقائد وهنا قرر داود أن يأخذ أورشليم بالقوة
وضرب اليبوسيين لكن يبدو أنه قد اضطر للتنازل عن ذلك التمسك بالأعرج الأعمى حيث نجد العرج
والعميان فجأة مبغضين من نفس داود، بل وبات من المحرم على الأعرج والأعمى من دخول البيت وربما
المقصود بعد ذلك الهيكل.

إن المحرر التوراتى والحقائق تقلت من بين يديه يحاول طمسها وتزويرها لكن لتفصح فى اضطراب
واضح عن نفسها فعقيدة داود تعود إلى فرعون كان أعمى كما كان أعرجا لتورم سيقانه وقدميه ..

هذا بينما المصرى الآن لازال يحتفظ بذكرىات باهتة فى وصفه للشخص الأعمى البصر إذا كان أعمى
البصيرة فى الوقت نفسه بالقول أن عماه (عمى حيثى) وهو ما يذكرنا بأن أصول إخناتون من جهة خؤولته
تعود إلى آدم حيث كان يعيش الاسكيث الحيثيون مع أحلافهم.

أما الصراع الجدلى الذى نشب بين موسى وبين الفرعون حسب حكاية التوراة فتفسره لنا أسطورة
أوديب فى قول يوربيدس أنه بعد نفى أوديب وتحديد إقامته فى قصر بذلك المنفى يعيش فيه أعمى، راودت
أوديب نفسه بالعودة واستعادة ملكه مرة أخرى، فوقف ضده كرايون وولذاه بولينكيس وأتيوكليس حتى تحقق
نفية نهائيا. وهو ما يساعد على إعادة تصور السيناريو المصرى لأحداثه عندما تم نفى الملك إخناتون
وجماعته إلى حواريس حيث عاش هناك وسط شعبه الجديد الذى تحالف معه وسلم بعقيدته، ثم كان هناك
على مقربة من أنسابه وأحواله المديانيين مما شجعه فيما يبدو على محاولة العودة للتفكير فى استعادة عرشه
مرة أخرى مستعينا بأنسابه، وهو ما يلتقى مع رواية مانييتو عن أوزرسييف الذى استعان بالهكسوس فى
غزوة هكسوسية تالية .

ومن جانبه كان كمال الصليبي شديد العجب من عبد عبرانى يمتلك كل تلك الجرأة، ولا ينزعج
الفرعون بل يسمح بها، ويبرر ذلك فى قوله: " ويبدو أن موسى التاريخى بعد رجوعه من مديان إلى

مصريايم استعاد على الأقل بعض من نفوذه الذى كان له هناك من قبل، فكان يدخل على فرعون .. كلما شاء ويتكلم أمامه بكامل حريته وبقدر كبير من الجرأة " (٢). ومنطق الأحداث يجعلنا نفترض أنه كان مع إخناتون آنذاك ولده المخلوع سمنخ كا رع على رأس تلك الجيوش لاستعادة عرشه. وأنه قد تمت مواجهة عسكرية مع الجيوش المصرية انتهت بصد تلك الهجمة على الحدود. ويدعم لنا فكرة الغزوة الهكسوسية الثانية التى نتمسك بها، نص عثر عليه بمكتبة العمارنة من الملك البابلى بورنا بورياش الثانى يقول فيه للملك المصرى

فى عهد أبى كوريكالزو أرسل إليه الكنعانيون يقول:
لنذهب إلى مصر ولنغزوها جميعا، وسوف نعقد معك
حلفا، أما أبى فقد أجاب على رسالتهم قائلاً: ليكن
الحلف ما بينكم، لكن لتحذروا جانبى إذا لما كان ملك
مصر حليفى فمن ذا الذى يصدنى عن غزوكم، وهكذا
من أجل أبىك لم يسمع أبى قولهم (٣)

ونعود إلى رسم سيناريو الأحداث فى مصر، حيث نفهم أن الملك توت عنخ آمون قد قتل فى المعركة، كما أنه لاريب قد استعان كل منهما بما فى إمكانه لإثبات هذه الشرعية أمام الناس، وفى هذا يقول أحمد عثمان " والكلمة العبرية التى استخدمت فى التوراة للدلالة على عصى موسى هى نحش وتقرأ أحيانا حنش، والكلمة نفسها لها معنيان آخران كذلك فى اللغة العبرية فهى تعنى ثعبان كما تعنى أيضاً النحاس الأصفر. وتخبرنا أحد قصص الهجاء - وهى الجزء الأسطورى من التلمود - أن العصا التى استعملها موسى كانت مصنوعة ومحفورة على شكل صولجان، ومن الطبيعى إذا أراد موسى إقناع المصريين بصدق قوله استخدام أدلة يكون لها أثرها الفعال فى مشاهديه من الكهنة والحكماء. والثعبان عند المصريين القدماء يرمز إلى سلطة العرش، وهو يوضع داخل التاج الملكى فوق جبهة الملوك، وكانت عصا الصولجان الملكى المصرى تصنع أيضاً على شكل ثعبان مخطط وملتو، وهو إما يكون مصنوعاً من النحاس أو مغطى بطبقة منه. وهذا أيضاً يتضح من موضوع الرسالة التى نال بها الدكتور على حسن وكيل الوزارة لشئون الآثار المصرية درجة الدكتوراة التى حصل عليها من ألمانيا، والعرض الذى قام به موسى أمام فرعون وقومه يشبه العرض الذى كان الملوك المصريون يقومون به فى أهم احتفالاتهم الشعبية وهو احتفال السد . . وكان على الملك

(٢) الصليبي: خفايا .. سبق ذكره، ص ٢٢٨ .

(٣) باقر: الوجيز .. سبق ذكره، ص ٤٦١ .

نفسه أن يقوم بعدد من الطقوس فى قاعة العرش بقصره أمام حكماء ونبلاء البلاد. ومن بين هذه الطقوس كما يتبين من الرسوم الموجودة على جدران مقبرة خيروف أحد وزراء آمحتب الثالث، كان الملك يضع يده فى عبه ثم يخرجها ليربها للناظرين، ثم كان الملك يقدم عرضا وهو يمسك صولجانا وضع عند نهايته رأس ثعبان، وهكذا فإن المصريين أدركوا مغزى الآيات التى عرضها موسى أمامهم " (٤) .

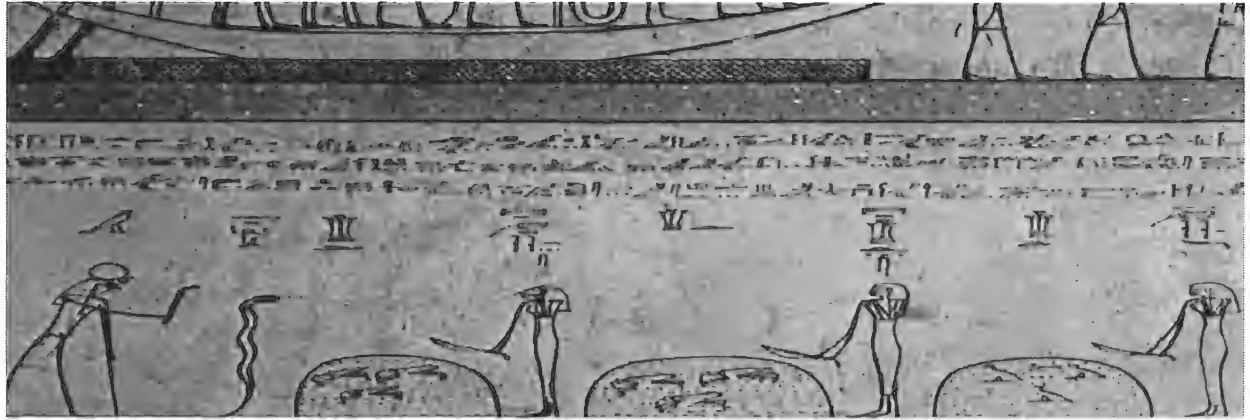
هذا فرض، ولدينا فرض آخر لهذا الاستعراض الذى يؤكد شرعية الملك وهو أن الملك كان يتم تدريبه من قبل الكهنة على التعامل مع الحية الدفانة فى حال تصلبها وبياتها والتى كان يتم إيقاظها بالضغط على غدة خلف الرأس كعلامة شاهدة على تمكن الملك من منح أنفاس الحياة للبشر وحتى للجمادات، وهو دأب معلوم ومتكرر فى عبارة دائمة الوجود فى النصوص المصرية عن الفرعون الذى " يمنح أنفاس الحياة " .

ويبدو أن مسألة العصا تلك كانت شديدة الأهمية، بل اعتقد المصرى القديم أن العصا / صولجان الملك هو منحة معطاه من الله نفسه، إذ نجد عند بلوتارك: " وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر بابه (ويوافق اليوم العشرين من شهر أكتوبر) يحتفلون بعيد ميلاد عصا الإله " (٥). العصا كانت عصا الإله، وهو الذى يعطيها للفرعون، وكان لها يوم ميلاد، لقد كانت العصا كائناً حياً أو (حية).

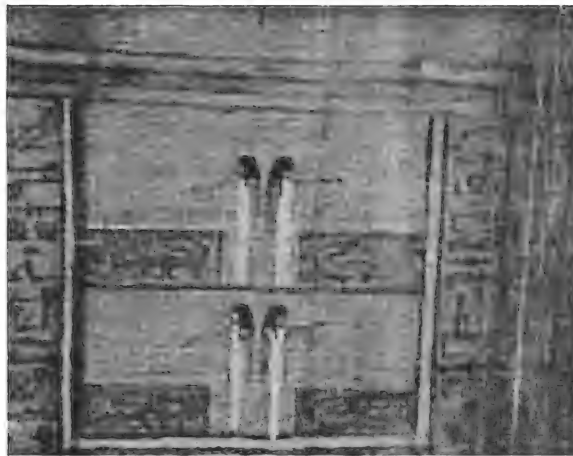
أما وضع الملك يده فى فتحة ملابسه فى صدره وإخراجها ليربها للناظرين، مع ماجاء فى التوراة والقرآن أنها تظهر فى تلك الحال بيضاء مضيئة، فنعتقد ذلك يرتبط بما سبق وفعلته حتشبسوت لتأكيد شرعية ملوكيتها المشكوك فيها وأرسلت لهذا السبب خصيصاً بعثتها إلى بونت لإحضار تلك المادة المضيئة التى أسـمتها النصـوص مــــادة

(٤) عثمان: تاريخ .. سبق ذكره، ج ١، ص ٦٩، ٧٠ .

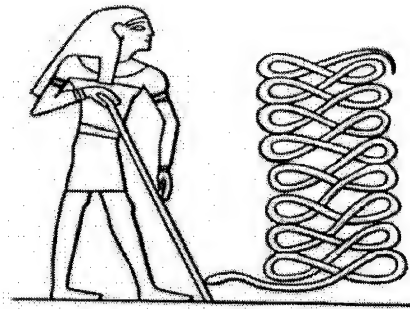
(٥) بلوتارك: إيزيس .. سبق ذكره، ص ٨١ .



العصى / الحيات الدفانة فى مصر القديمة وكيفية استخراجها من مكانها، تحولت
إلى أسطورة عصا حية تفعل المعجزات
شكل رقم (١٠٩)



الطقس السحرى لشق الماء، وكان طقسا منتشرا واعتياديا
فى مصر القديمة كفكرة أسطورية متواترة، لاحظ
التماسيح بالمياه التى تشير إلى أنه شق لنهر النيل
شكل رقم (١١١)

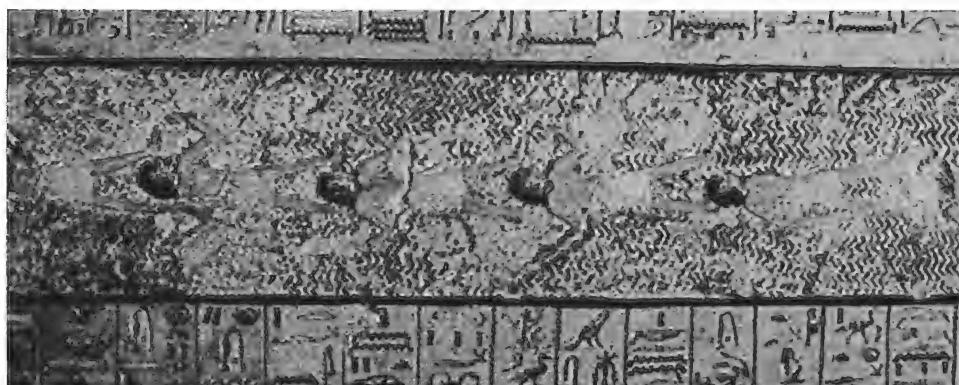


لوحة أخرى دعمت أسطورة العصا الحية / الإله
أتوم رع رب الشمس والضياء والخير يواجه
الإله الأفعى أبوفيس الأفعوان



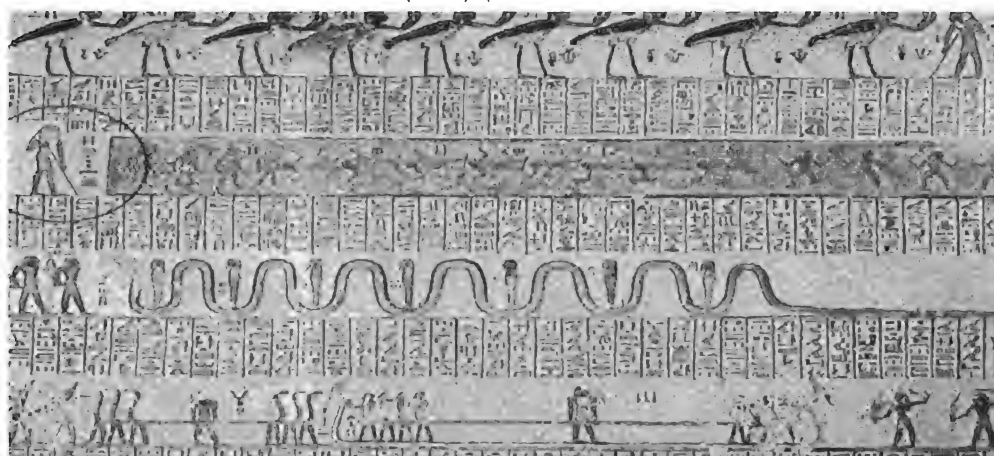
لوحة أخرى لشق اليم بالأفعى فى التصورات الشعبية، بينما هى فى الحقيقة لوحة الساعة الرابعة من كتاب البوابات فى مقبرة رمسيس الأول مع ربات يمثلن ساعات الليل

۱۸۱۵۱ : ۱۲۰۰



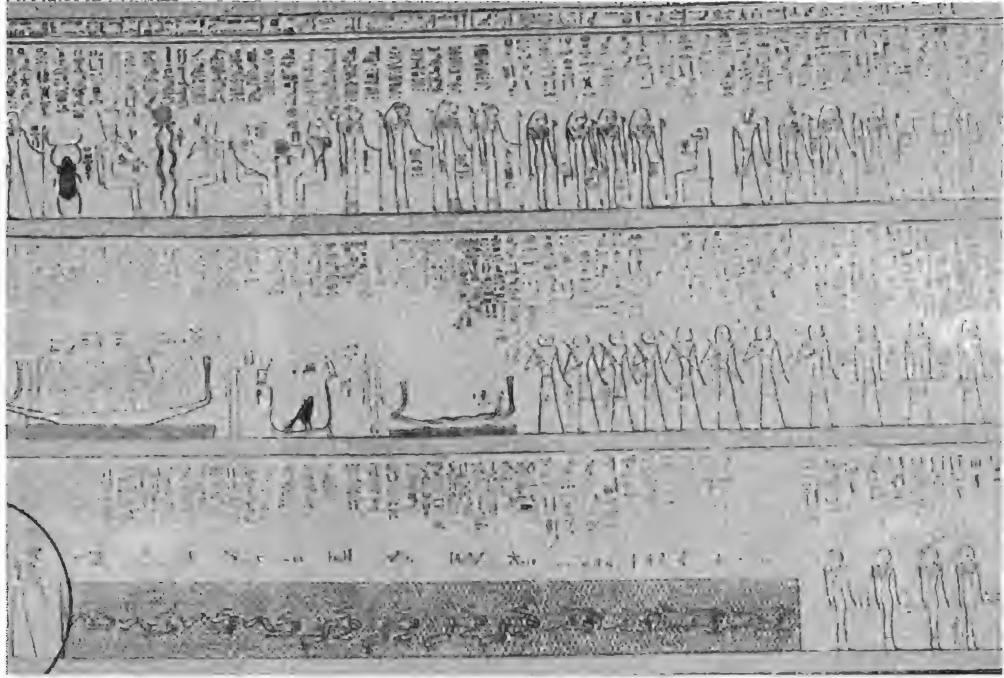
الغرقى فى الساعة التاسعة من كتاب البوابات بمقبرة رمسيس السادس

شكل رقم (١١٣)



في السطر الثالث من اللوحة شخص يمسك بعضا وأمامه موتى غرقى يسبقهم أربعة أشخاص أحياء. هذه اللوحة من اللوحات التي تصور عملية البعث وأن الغرقى سيقومون من الموت للحساب، لكن لوحة كهذه مع صورة الحية المتكررة كانت كفيلا بانتشار أساطير شق البحر والغرقى في اليم. اللوحة من مقبرة رمسيس الثالث وتعرف بلوحة الساعة التاسعة من كتاب البوابات

شکل رقم (۱۱۳)



هذه لوحة وضعها الكهنة ويفهمها الكهنة والمتقنون، وتصور إحياء الإله الموتى الذين ماتوا غرقا كالموتى فى أى مكان آخر، من آل بعثهم وحسابهم، لكنها تحولت فى الفهم الشعبى وقراءته للوحة إلى شخص معجزة يشق الماء بعصاته، وغرقى فى بحر مفلوق، استعارها المحرر التوراتى من المفاهيم المصرية الشعبية

شكل رقم (١١٤)

السام. ويذكر أنها دهنت جسدها كله من باب التأكيد المبالغ فيه فأضاعت لشعبها فى الليل كنجوم السماوات. ويبدو أنها كانت العادة التأكيدية لشرعية الملك فى أعياد سد فكان الملك يخفى يده فى جيب صديريته ويغمس يده فى مادة السام المخفية فى ملابسه ليخرجها مضيئة للناظرين، وهو بالضبط ما فعله إخناتون أمام آى وجماهير شعبه كآيات لملكه، وذكرته بعد ذلك التوراة كمعجزات قام بها النبى موسى أمام الفرعون. أما بقية المعجزات كضرب مصر بالبعوض والضفادع والجراد والذباب والقمل فهى كلها أمور اعتيادية فى أرض مصر التى تضج بالحياة، وهى فى ذات الوقت أمور غريبة على محرر توراتى يعيش فى صحراوات جافة ضئيلة بالحياة وشحيحة. ويبدو أن الأمر لم يحسم لصالح الدلائل السحرية للشرعية إنما حسم بقوة السلاح وتم طرد إخناتون وجماعته من مصر، ورغم أن التوراة حاولت القول أن الخروج تم رغما عن إرادة الفرعون وأنه طاردهم لهذا السبب حتى غرق فى البحر المفلوق، فإنها أفصحت فى أكثر من موضع آخر عن صدق ما حدث حقيقة، وكون هذا الخروج قد حدث بإرادة الفرعون، وأنه كان طرداً لهم من البلاد، كما فى النصوص:

فقال الرب لموسى: الآن تنظر ما أنا فاعل بفرعون
فإنه بيد قوية يطلقهم وبيد قوية يطردهم من أرضه

خروج ٦ / ١

وخبزوا العجين الذى أخرجه من مصر خبز كله
فطيراً إذا كان لم يختمر لأنهم طردوا من مصر ولم
يقدرُوا أن يتأخروا

خروج ١٢ / ٣٩

وهو الطرد الذى ينفى تماماً فكرة مطاردة الفرعون لهم وغرقه هو وجيوشه فى البحر، ذلك الحدث
الذى لم تذكره لا نصوص مصر ولا أى نصوص أخرى لأى دولة من دول الشرق القديم إزاء حدث هائل
كهذا مفترض أنه قد لحق بجيوش الدولة الإمبراطورية لذلك الزمان.

ثم نقرأ فى حروب سبتي الأول الذى حكم ١٣٠٩ قبل الميلاد أنه خرج من مصر إلى فلسطين لصد
هجمات جديدة للعابيرو تحاول عبور نهر الأردن من الشرق إلى الغرب داخل فلسطين. ^(٦) وبحساب بسيط
سنجد الفارق بين زمن سقوط إخناتون ١٣٥٠ ق.م وبين زمن تلك الغزوة العابيرية على فلسطين التى صدها
سبتي الأول ١٣٠٩ ق.م، يعطينا فارق أربعين عاما هى المدة التى انقضت ما بين سقوط إخناتون وبين
وصول الخارجين إلى فلسطين وسميت فى التاريخ الدينى بسنوات التيه الأربعين.

ومع حملة سبتي الأول تلك على شاسو سيناء الشرقية نقف قليلاً نقرأ نصوص الملك المظفر تروى لنا
الحدث:

السنة الأولى من حكم ملك الوجه القبلى والبحرى من
ماعت رع. التخريب الذى ألحقه سيف الفرعون البتار
له الحياة والفلاح والصحة بالشاسو الخاسئين من قلعة
ثارو حتى باكنعان عندما سار جلالته نحوهم مثل الأسد
المفترس وصيرهم أشلاء.

وكالعادة كانت الانتصارات تنسب لرب الدولة، ومع هذا الانتصار يقول الإله آمون فى الفقرات
الختامية لنصوص حملة سبتي الأول على الشاسو :

(٦) السواح: الحدث .. سبق ذكره، ص ٢٦٤ .

وإني أولى وجهى قبل المشرق وآتى بأعجوبة لك
فأغلبهم لك، جميعاً مجتمعين فى قبضتك، إني أجمع كل
ممالك بونت سويّا وكل جزيتهم من بلسم وقرفة وكل
الأخشاب الزكية الرائحة من أرض الإله، ناشراً شذاها
أمامك (٧)

إن الشاسو كانوا يعيشون فى مجموعة ممالك متحدة سويّا يعرفها هذا النص بأنها ممالك بلاد بونت
أرض الإله التى تقع فى الشرق وليس فى الجنوب، وهكذا تتأكد نظريتنا طوال الوقت. أن بلاد بونت هى
مجموعة الممالك التجارية المتحالفة شرقى مصر، حيث توجه سببى الأول بحملته التى انطلقت من قلعة ثارو
على الحدود الدلتاوية الشرقية لتصل إلى بى كنعان حيث تغلب الفرعون على كل ممالك بونت جميعاً
مجتمعين. لقد كانوا دوماً أحلافاً أو أخلامو.

وبين الأسماء المتطابقة التى تقفز بين أيدينا لتستكمل تضيفير النسيج بين إخناتون وأوديب وموسى، إقليم
أتیکا الذى تم نفي أوديب إليه أعمى حيث يعيش وقتاً على جبل كيثابرون ثم يموت هناك. وبالعودة إلى
النصوص المصرية نجد الفرعون رمسيس الثالث كما سبق وأسلفنا يرسل رجاله إلى الإقليم الآدومى لإحضار
النحاس من منطقة أتیکا^(٨)، وهو ما يؤكد أن فى شرقى سيناء حيث البلاد المديانية كان يقع إقليم قرب مناجم
النحاس يحمل الاسم الذى ورد بالنطق الدقيق Atike وترجمناه عتيقة. أما جبل (كيثابرون) الواقع فى إقليم
أتیکا فى أسطورة أوديب فيطابق اسم الجبل المقدس المعروف حتى الآن فى سيناء باسم جبل (كاثرين)،
والذى صيغت حول اسمه بعد ذلك قصة أسطورية عن مؤمنة مسيحية بهذا الاسم حملتها الملائكة لتدفنها
هناك. ويعود الاسم فى رأينا إلى اسم حمى موسى (يثرن) الذى ينطق بكل سلامة (جثرون) و (كاثرن) و
(كاثرين) دون أية مشاكل لغوية. ونحن نعلم من قصة التوراة أن يثرن أو كاثرين كان كاهن بلاد مديان.
وأطلقت التوراة على ذلك الجبل اسماً آخر هو جبل الله حوريب، أو الجبل المقدس حوريب، فالنص يقول :

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرن حميه كاهن مديان،
فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله
حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط
عليقة، وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق،

(٧) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج٦، ص٤٦ .

(٨) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ١٦١ .

فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا
لا تحترق العليقة، فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه
الله من وسط العليقة وقال: موسى موسى، فقال: ها أنا
فقال: لا تقترب إلى هنا. إخلع حذاءك من رجليك لأن
الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة.

خروج ٣ / ١ - ٥

ونتذكر أن أرض الإله بونت كانت عند المصرى القديم أرضا مقدسة وسميت (أرض الإله)، رأيناها
تقع فى شبه جزيرة سيناء، لا سيما قسمها الجنوبى والشرقى الملتحم مع وادى عربة وجبال السراة / سعيير.
ولأنها مقدسة فقد جاء أمر الإله لموسى التوراتى عندما دخلها يقول له: " اخلع حذاءك من رجليك لأن
الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة / خروج ٣ / ٥ " وهو ما تكرر فى آيات القرآن حيث نجد ذات
الأمر الإلهى يوجه إلى موسى القرآنى يحمل ذات المعانى " اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ".

والغريب أن هناك لفته لم يتم الالتفات إليها فى ملحمة أوديب بصياغة سوفوكليس لكنها تعنينا بشدة،
فالمحمة تصف المكان الذى وصل إليه أوديب منفيا، بعد رحلة طويلة فى صحارى جرداء، بحساباته قريّة
جميلة كثيرة الأشجار تجرى فيها القنوات المتدفقة من الينابيع والعيون، مليئة بأشجار عطرية ذات روائح
زكية (بخور) تغرد فيها الطيور على أشجار الكروم والزيتون والتين، وصخورها رائعة الألوان. وهذا شرح
سوفوكليس للمكان الذى يلتقى مع الصورة التى رسمناها لبلاد آدم، وكاثرين، لكن سوفوكليس يقول إن
أوديب لم ير هذه الصورة لأنه كان أعمى، إنما أدركها بحسه الداخلى. لكنه الحس الذى ما كان ممكنا أن
يدرك لون الصخور مثلا، فهذا ما وصل عن مواصفات المكان إلى سوفوكليس نفسه، المهم أن سوفوكليس
يقول إن أوديب أدرك من هذا كله أنه يقف فى أرض مقدسة، رغم أن هذه الصورة تتكرر فى بلاد كثيرة غير
مقدسة. لقد كانت معلومات سوفوكليس أن الحدث وقع فى أرض مقدسة. ثم يضيف سوفوكليس إضافة مضيئة
إذ يقول إن أحد أهالى تلك البلاد رأى أوديب يجلس على صخرة مع ابنته أنتيجونى فأمره بالانصراف من
المكان فوراً لأنه لا يصح تدنيس أرض الآلهة المقدسة بأقدام البشر؟! (٩) .

ثم بعد ذلك بقرون طويلة ننصت للرحالة المحدث رينشى يصف لنا رحلته فى صحراء سيناء القاحلة
حتى وصل إلى دير كاثرين، يقول: " وبالرغم من موقع الدير فى الوهاد المحاطة بالجبال العالية .. تجرى

(٩) سوفوكليس: الملك أوديبوس، أوديبوس فى كولونى، أنتيجونى، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص

فى خلال واديه غدائر من الماء العذب .. مع أجمات شجر الزيتون والكروم والبساتين النامية فى الوادى، تسقى من مياه الينابيع المنحدرة من فوق الجبال. والحدائق الملاصقة للدير نفسه محاطة بسياج من شجر السرو الزيتون، وتنتج مقادير وافرة من البرتقال والخضر .. تسد أود ٢٠,٠٠٠ نسمة من البدو القانعين بالعيش فى ظل الدير .. ومن الخطأ الفاحش أن يظن إنسان أن شبه جزيرة سيناء أرض قاحلة عديمة الماء والنبات " (١٠) .

وهو الأمر ذاته الذى قرأناه فى ترجمتنا لرسم وليس لكلام ورد منقوشا على صلاية الملك نعرمر التى سجلت له حروبا فسرهما علماء التاريخ بأنها حروب التوحيد للإقليمين المصريين البحرى والقبلى. بينما فسرناها نحن بأنها تسجيل لانتصاراته فى بلاد سيناء وإخضاعها للسلطان المصرى حتى بلاد آدوم، ولم يكن مفهوماً على الإطلاق لماذا يسير الملك حافى القدمين فى معركة بينما يحمل أحد أتباعه نعله خلفه؟ لقد كان الملك يخضع للطقس المقدس فى الموضع المقدس. وكان الفنان يقصد فى تقريره إبراز هذا المعنى تحديداً، وحتى لا تفسر اللوحة بأن الحفا كان أمراً اعتيادياً فى تلك الأيام بالنظر إلى أن بقية الأشخاص فى اللوحة كانوا حفاة، فإنه رسم خلف الملك تابعه يحمل نعال الملك بشكل بارز واضح لتبليغ المراد. وخلف رأس هذا التابع نجمة سباعية الإشعاعات، ونحن نعلم قدسية الرقم سبعة فى البلاد السامية، كما لو كان الفنان يريد تبليغنا بقدسية ذلك الموضع الذى يقف فيه الملك حافيا يمسك بأسير يضربه بدبوس القتال، وأسفله تم تمثيل سكان تلك البلاد فى شخصين يركضان بسرعة تعبيراً عن الهرب من مواطنهم أمام الفرعون. أما موطنهم فقد تمت الإشارة إليه بصورة تعبر عن ذلك الموطن فى شكل كهف غائر فى الصخور خلف الهارب الثانى. أما رأس الصلاية الأعلى فقد حمل على الجانبين رأس الإلهة تحنور ربة سيناء المعروفة الشأن .

وعلى الوجه الآخر للصلاية يسير الملك وخلفه تابعه يحمل نعليه وأمامه حملة الأعلام وعلى اليمين يمكنك أن ترى أسرى موثقين قد ألقيت رؤوسهم تحت أقدامهم وفوقهم طائر الزقزاق للإشارة إلى جنسهم وبلادهم. وإلى يمين طائر الزقزاق رسماً لسفينة محيطية تشير إلى أن الوصول إلى تلك البلاد قد تم عبر البحر، وأنه لا شك قد سلك ذات الطريق الذى سلكته بعد ذلك بقرون طويلة بعثة حتشبسوت، تحاشيا لقسوة العبور البرى فى الصحراء السينائية الهائلة.

(١٠) رتشى كالدز: رجال ذلوا الصحراء، ترجمة محمد معوض ومحمود الشواربى، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص ١٦٨، ١٦٩ .

وفى الملحمة الأوديبية يصعد أوديب إلى جبل يتبع نداء الآلهة ليختفى ولا يعود وسط أصوات الرعد والصاعقة والعواصف^(١١)، وهى الصورة التى نعرفها للإله حداد تيفون، وفى التوراة تصوير لمشهدية بركانية عظيمة عند جبال كاثرين، وقد صعد موسى مع يشوع إلى جبل نبو ولم يعد مرة أخرى وعاد يشوع وحده. ليقول لشعبه أن موسى قد مات. ثم لا نندهش عندما نعلم أن السفنكس اليونانى صاحب الألبان كان يتعلم تلك الأحاجى من ربات الفنون أسمتهم الملحمة (الموسيات)^(١٢)، أما يوربيد فقد أسماه **الفينيقيات**^(١٣)، فهل ثمة تبليغ أوضح من ذلك؟! أما الذى تأكد موجزاً بعد اكتشاف بقايا فخار نبطى فى موقع جبل كاثرين وجبل موسى إلى الشمال منه مباشرة، أن هذا الموقع كان مقدساً عند النبطيين، وأن الأنباط لم يكونوا زواراً لهذا المكان بل مقيمين^(١٤).

ثم نقرأ فى ملحمة أوديب ما يشير إلى نبوة أوديب وقديسته

فيقول سوفوكليس أن أوديب بعد أن كفر عن ذنبه الذى اقترفه وفقاً عينيه لم يكن هناك أى مبرر للقدر والآلهة فى استمرار بلائه، وهنا تتبأ له الوحي أنه عندما يصل إلى كولونوس وسط إقليم أتيكا .. سيغفر له ذنبه،^(١٥) وقالت نبوءة بوللون: " إن أوديب قد كفر عن خطايا وأصبح طاهراً بعد أن كان مدنساً وعفيفاً بعد أن كان زانيا وروحا محلقة فى سماء الفضيلة بعد أن كان منغمساً فى الرذيلة .. مباركة تلك الأرض التى تحوى رفات أوديب ".^(١٦)

لقد تحول أوديب إذن من ملك إلى نبي .. مقدس عندما وصل إلى عتيقة وجبال كاثرين. ولا نظننا بجانب الصواب فى افتراض أن موسى أبداً لم يصل إلى جبل (نبو) شرقى الأردن مباشرة مقابل أريحا ليموت هناك إنما مات تحديداً فوق جبل يقع شمالى جبل كاثرين مباشرة، وأن ذلك كان السبب فى أن ذلك الجبل قد حمل من يومها اسم جبل موسى. وأن قاتله كان يشوع تلميذه المخلص تحديداً، وعند تلك اللحظة المفصلية تتغير أمور كثيرة كانت سبباً فى كثير من الالتباسات التى أدت إلى كثير من الألغاز التى استغرقت عمرنا ونحن نحاول فك طلاسمها، وتلك اللحظة المفصلية فى التاريخ بحاجة إلى بعض الشرح لرسم لوحة تصويرية لما حدث.

(١١) سوفوكليس: سبق ذكره، ص ٤٢ .

(١٢) الشعراوى: أساطير .. سبق ذكره، ص ٢٤٨ .

(١٣) على نور: ملامح مصرية فى المسرح الإغريقى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د.ت، ص ٥٢ .

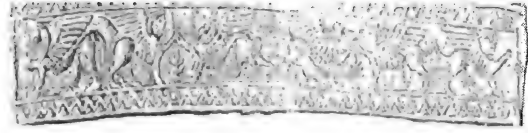
(١٤) أحمد عثمان: فى الشعر .. سبق ذكره، ص ١١٧ .

(١٥) سوفوكليس: سبق ذكره، ص ٣٣ .

(١٦) الشعراوى: أساطير .. سبق ذكره، ص ٢٥٨ .



صورة من الجو لجبل نبو شرقى أريحا المفترض أن
النبى موسى قد دفن فيه حسب رواية التوراة
شكل رقم (١١٦)



بين آثار الاسكيث وجد هذا النقش الذى يصور
عدد من الـ (سفنكس) المجنح



عند جبل نبو المطل على ساحل البحر الميت الشرقى حيث يفترض أن هناك
مدفن النبى موسى، قام فنان مسيحي بإقامة هذا العمل الرائع الذى يصور حياة
موسى المعبودة وكيف أنها رمز إلهى، قام الفنان بدمجه مع شخص المسيح
المصلوب. (من تصوير المؤلف إيان سعيه وراء المواقع القديمة وتوثيقها) —
شكل رقم (١١٧)



المؤلف فوق جبل نبو عند مدخل قبر النبى موسى
المفترض حسب التوراة
شكل رقم (١١٨)



المؤلف على الجانب الغربى من جبال الجلجال
المذكورة بالتوراة وخلفه جبال أريحا غربى الأردن
شكل رقم (١١٩)

لقد تم نفي الفرعون المارق إلى أقصى الحدود الشمالية الشرقية للبلاد المصرية، وتم تحديد إقامته فى القصر الصيفى فى مدينة حواريس التى كانت منفى لكل المارقين والآبقين والخارجين على القانون. فقد خلع الفرعون إخناتون من على عرشه، وحددت إقامته دون السماح له بالخروج من تلك المدينة المتطرفة على الحدود السينائية مع أتباعه ومريديه من مصريين وغير مصريين. وهناك ارتبط الجميع بالعقيدة الجديدة التى جمعتهم على قلب واحد. وحواريس من بقايا هكسوس وإسرائيليين. وهناك ارتبط الجميع بالعقيدة الجديدة التى جمعتهم على قلب واحد. ويقول مانيتون :

إن الفرعون قد سمح للأسرى باستيطان مدينة حواريس، وأن هؤلاء وصل إليهم الكاهن المصرى أوزرسيف الذى قادهم لإشعال ثورة عاتية، وأن ذلك الكاهن قد استنجد بالهكسوس المطرودين من مصر إلى برارى سيناء وفلسطين، والذين تمركزوا فى مدينة رئيسية لهم هى أورشليم. وأن أوزرسيف أحاطهم علما بأن فى إمكانه أن يفتح لهم البلاد. وهو أمر كان غير ممكن إلا إذا كان أوزرسيف يظن أن لديه هذه القدرة، وذلك لايفسره إلا أن يكون شخصاً ذا قدرات عالية وإمكانات السيطرة على البلاد، وتفسره قصتنا تحديداً حيث أن أوزرسيف هذا كان فرعوناً مخلوعاً يمكنه باستخدام القوة العسكرية استعادة عرشه ومجده بعون هؤلاء الحلفاء. وهنا تصدت له الجيوش المصرية زمن حكم الصبى توت عنخ آمون ووصاية آى الذى كان يستثمر كل تلك الأحداث لصالحه للوثوب على العرش. ولا شك أن قائد الجيوش المصرية آنذاك كان هو حور محب. وكان ذلك ما أسميناه بالغزوة الهكسوسية الثانية، أو مادونته الملحمة اليونانية عن استعانة بولينكيس بجيوش الأجانب ضد بلاده لاستعادة عرشه المغتصب من أخيه أثيوكليس أو سمنخ كا رع ضد توت عنخ آمون فى ملحمة سبعة ضد طيبة، ويبدو أن سمنخ كا رع / بولينكيس وجد مزيداً من تأييد شرعية مطلبه فى وقوف أبيه إخناتون إلى جواره الذى كان يطمع بدوره فى استعادة عرشه. لكن ينتهى الأمر بكارثة للحلفاء من متمردى حواريس والغزاة الهكسوس يضطرون معها إلى الفرار جميعاً من مصر فى رحلة دونتها المقدسات تحت عنوان خروج الإسرائيليين من مصر بقيادة موسى، وتم تصويرها مصحوبة بعدد من الخوارق والأحداث الطبيعية الهائلة.

ويؤيد ذلك ما وجده الأثريون فى مقبرة حوى نائب الملك الصبى توت عنخ آمون فى النوبة، حيث تدل سلسلة اللوحات المصورة على جدران مقبرته على حصول الملك توت على غنائم من من شعب هجين فاللامح آسيوية وزنجية، ضمنها خيول وعربات ثمينة وأوان ذهبية وفضية، أما الأشد غرابة لكنه مع

نظريتنا يصبح اعتياديا، فهو أن ضمن تلك الغنائم " زرافة حية " ^(١٧)، وقد سبق ورأينا الزرافة ضمن واردات بونت في لوحات حتشبسوت.

ويورد شيتندورف وصفا للصور التي تزين جانبي غطاء أحد صناديق الملك توت، وضمنها مشاهد لمعارك عنيفة خاضها الملك ضد شعوب صورت في سمات سامية وزنجية معا. وزمن الملك توت تحيطنا السجلات الحيثية بحملة مصرية على مدينة باسم قادش ^(١٨)، التي فسرت كالعادة بأنها قادش نهر العاصي، وهو تفسير يجافى تماما وضع مصر المتمزق حينذاك، لكن الخبر يمكن قبوله إذا احتسبنا قادش المقصودة هي قادش سيناء / عين قديس .

كما نعلم من المصادر الحيثية إبان تلك الأحداث المتسارعة أن الحيثيين قد أرسلوا حملة جديدة نحو الأراضي المصرية، لكن كل معلوماتنا عنها أنها كانت فاشلة، وأن الجنود الحيثيين قد عادوا منها يحملون وباء تقشى في المملكة الحيثية، بل ومات به الملك الحيثي نفسه شوبيلوليوماس عام ١٣٤٦ ق.م. ^(١٩) وهو لا شك الوباء الذي تقشى في بدو حوارييس وكان عاملا من عوامل طردهم في رواية أبيون النحوى التي رد عليها يوسفوس. وقد أوضح يوسفوس معتمداً على تاريخ مانيتون أن هذا الوباء كان وراء الخروج أو الطرد، وهو ما يلتقى مع وصف توت عنخ آمون لمصر زمن أبيه " وكانت الأرض مريضة "، وقد أشارت التوراة كما رأينا للوباء بالتفصيل الممل، وهو أيضاً ما دونته ملحمة أوديب عن وباء أرسلته الآلهة على طيبة نتيجة زواج أوديب بأمه.

ولمزيد من تأكيد مسألة الطردوليس الخروج نقرأ عند رمضان على عهده، إذ لم نجد ذلك إلا عنده، يقول عن إخناتون " وفيما بعد أعلن كهنة آمون أنهم طردوه هو وبلاطه ومعاونيه، وكانوا حوالى ثمانين ألف شخص .. وأطلق عليه أعداؤه هو وأعوانه صفة الملحدين " ^(٢٠) .

ونحن نعلم أن أى نفسه لم يكن مصرية حسب تقرير عالم التشريح إليوت سميث، ^(٢١) وأنه كان ابنا ليويا وتويا الآسيويين، وهو ما يوضح لنا لماذا أسقطه المصريون بدوره من قوائم الملوك رغم دفاعه عن مصر وتمصره، لأنه كان فى النهاية سليل عمارنة.

(١٧) شتندورف وسيل: عندما حكمت .. سبق ذكره، ص ٢٢٥.

(١٨) السواح: آرام .. سبق ذكره، ص ١٩٦ .

(١٩) الموضع نفسه .

(٢٠) رمضان السيد: تاريخ .. سبق ذكره، ١١١ .

(٢١) آلدريد: إخناتون ... سبق ذكره، ص ٩٥ .

وقد كان أصل آى هذا غير المصرى مدعاة لوضعه موضع المشكوك فى شرعيته، وقد استثمر إخناتون الذى يعود من جهة الأب إلى مصرية أصيله هذا الوضع، فخاض مباراة إثبات الشرعية بعد مقتل ولده توت، وتمثلت هذه المباريات فى مجموعة آيات أو معجزات قدمها موسى التوراتى أمام الشعب لإثبات تلك الشرعية كلمعان اليد وإضاءتها، وتحويل العصا إلى حية، وهو الأمر نفسه الذى قدمه الفرعون برجاله وسحرته أيضاً أمام الجماهير.

والمنطق يقول إن موسى كان يحمل تلك الآيات كمعجزة خاصة به لنبوته، وكى تكون معجزة يجب أن تكون فريدة تماماً وخاصة به، لكن التوراة تقول أن كل فعل إعجازى قدمه موسى تم الرد عليه بذات الفعل من قبل الفرعون ورجاله وهو ما يعنى أن الأمر كان كما نقول : مباراة لها غرض ومكسب يتحقق للفائز وهو برأينا عرش مصر، ويبدو أنها انتهت بهزيمة موسى ورجاله، تلك الهزيمة التى انتهت بخروجهم من البلاد نحو سيناء باتجاه فلسطين.

ونقرأ الآن الصورة التى رسمها لنا فليكوفسكى لآخر أيام تل العمارنة إذ يقول: " لقد كانت نهاية أخت أتون نهاية مفاجئة، إذ انتقل سمنكارع إلى طيبة [حسب رأيه] وهجر السكان منازلهم ورحلوا عن طريق النهر أو البر إلى طيبة أو إلى أى مكان آخر اختاروه، أما الأبنية فلم تكن قد اكتملت، فقد تركت على حالها، فأمام أحد المنازل التى كانت على وشك الاكتمال نهائياً وضعت قطعة من الحجر فوق المدخل وتركت بجواره ورحل البناعون. لقد كانت هجرة طابعها السرعة تركت المنازل خاوية من الأثاث ليكون مصيرها التآكل " (٢٢).

أما سوفوكليس فقد سجل فى ملحمة أوديب ملكا أن أوديب هو من طلب بنفسه النفى، وأنه بعد أن تم نفيه تذكر رغبة والديه عند ميلاده فى موته على جبل كيثابرون ومن ثم أراد تحقيق تلك الرغبة لهما وقرر الخروج من مدينة منفاه التى احتسبناها حواريس متجها نحو جبل كيثابرون الذى احتسبناه جبل كاثرين ليموت هناك. وهو ما نعتبره إشارة على صدق تقديرنا بمقتل موسى فى وسط جنوبى سيناء عند كاثرين وجبل موسى. لكنه قبل ذلك حاول التراجع لكنه قبل بالرفض وذهب ليموت فى كيثابرون (٢٣).

وتصور لنا ملحمة سوفوكليس ذلك الجبل بأنه قرية صغيرة جميلة تجرى فيها القنوات وتغرد فيها الבלابل وتمتلئ بأشجار الكروم وروائح المزروعات العطرية والزيتون والغار والصخور الملونة الجميلة،

(٢٢) فليكوفسكى : أوديب .. وإخناتون سبق ذكره ، ص ١٢٨ .

(٢٣) سوفوكليس سبق ذكره، ص ٣٢ ، ٣٣ .

فهى كالجنة أرض مقدسة، لكنها تقع بكل هذا الجمال وسط تيه واسع من الفيافي الجرداء (٢٤). وهو الأمر الذى ينطبق على منطقة كاثرين انطباقاً تاماً.

وربما بدا لنا أن هناك تناقضاً ظاهرياً بين الصفات التى نعلمها على إخناتون كفرعون حالم كاره للحروب بين البشر، وبين الصورة التى ترسمها لنا التوراة عن موسى كشخص دموى وأن أتباعه كانوا بالعبرية (صبأوت) أى ضباط أو جنود مقاتلين، وتم وصف يهوه الرب بأنه رب الجنود تعبيراً عن حالتهم القتالية. لكن هذا التعارض يجب أن يسقط الآن بعد ما رأيناه حول تل العمارنة إبان حكم إخناتون والتى كانت تبدو ثكنة عسكرية متكاملة، وهو ذات التناقض المتضافر والمنق - إن جاز التعبير - فى رواية التوراة عن الخروج التى علق عليها كمال الصليبي يقول: " فى الخروج ٦ / ٢٦ بالترجمة العادية نقرأ ما يلى : هذان هما هارون وموسى اللذان قال يهوه لهما: أخرجنا بنى إسرائيل من أرض مصر ايم بحسب أجنادهم / على صبء تم. وعل بالعبرية تعنى على أو فوق أو إلى أو نحو ولا تعنى بحسب، أما لفظة صبء تم فقد تعنى أجنادهم صبء ت، أو صبءوت، أى أجناد مضافة إلى ضمير الغائب. لكن سفر الخروج لا يتحدث فى أى مكان عن تنظيم عسكري كان لبنى إسرائيل وهم الشعب المسكين العامل بالسخرة فى أرض مصر ايم " (٢٥).

ثم يقول الصليبي: " فى الخروج ١٣/١٧ بالترجمة العادية نقرأ ما يلى: وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم فى طريق أرض الفلسطينيين، عرس فلشيتيم - مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر ايم، فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف - بدرك مديريم سوف - وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر ايم - وحمشيم علو بنى يسرعل م. عرس مصر ايم - وهناك تناقض فى المفهوم الذى تقوم عليه هذه الترجمة التى تفيد من ناحية أن بنى إسرائيل كانوا شعباً يخشى الحرب، ومن ناحية أخرى أنهم خرجوا من أرض مصر ايم متجهزين أى مستعدين للحرب .. حمشيم من حمش يقابلها بالعربية حمس بمعنى الحماس " (٢٦).

وهذا التناقض فى رواية التوراة لا يفسره إلا أن الخارجين مع إخناتون من مصريين كانوا عسكريين من حرسه الخاص وحرس مدينته، إضافة إلى ما تبقى من أسرى الهكسوس وكانوا بدورهم من المقاتلين. أما القول بكراهة إخناتون المطلقة للقتال فيشوبها شك كبير بعد أن علمنا أن العمارنة فى زمنه كانت أكبر ثكنة مسلحة فى مصر، ناهيك عن كونه ارتكب ما هو أبشع من القتل بإفناء أبيه نفسه بمحو اسمه

(٢٤) نفسه ص ٣٢ ، ٣٤ .

(٢٥) كمال الصليبي: خفايا .. سبق ذكره، ص ٢٢٩ .

(٢٦) الموضع نفسه .

من الآثار فى قتل أبدى. ناهيك عن تعصبه الأعمى الذى ملك عليه عقله وقلبه ضد كل أديان مصر وكهنتها، وانتهى بإغلاق جميع المعابد ومصادرة أموالها، وهو أمر لاشك - وإن لم يدونه لنا التاريخ أو فقدنا مدوناته - لم يتم بهدوء ودون عنف قد صاحب تلك الحملة المخيفة على مآثور مصر التليد الذى عاشت عليه طوال تاريخها وسكن قلوب المصريين وعقولهم ومشاعرهم عبر قرون طويلة.

وتقول التوراة أن الخارجين من مصر بقيادة موسى قد خرجوا بأملاكهم وسوائهم، بل كانت لديهم كميات كثيرة وهائلة من الذهب، ومن هذا الذهب صنع لهم هارون العجل الذهبى ليعبدوه إيان غياب موسى فوق جبل الشريعة أربعين يوماً. وحتى تبرر التوراة وجود هذه الكميات الهائلة من الذهب سأقت تبريراً غريباً وغير مقبول لاعتقلا ولا منطقاً ولا يتفق وواقع بنى إسرائيل فى مصر، فنقول بلسان الرب وهو يخاطب موسى:

ولكنى اعلم أن ملك مصر لا يدعمكم تمضون ولا بيد
قوية، فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التى
أصنع فيها. وبعد ذلك يطلقكم. وأعطى نعمة لهذا
الشعب فى عيون المصريين. فىكون حينما تمضون
أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كل امرأة من
جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً،
وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين

خروج ٣ / ١٩ - ٢٢

وهكذا، ورغم تأكيد التوراة أن الإسرائيليين كانوا يسكنون فى منطقة خاصة لايسكنها المصريون، وهو ما يؤكد لنا فكرة مدينة المنفى التى جاء ذكرها فى نصوص حور محب، وأن ذلك المكان الخاص البعيد عن المصريين أعطى رب اليهود فرصة لإنزال ضرباته بالشعب المصرى دون أن يصيب الإسرائيليين، فإننا فى هذا النص نجدهم يسكنون بين المصريين ويستعيرون حلبيهم الذهبية ليسلبوها ويخرجوا بها من مصر، وتعود التوراة ليلة الخروج تؤكد أن ذلك ما حدث فنقول:

وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من
المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى
الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم

فسلبوا المصريين. فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت، نحو ستمائة ألف ماشى من الرجال عدا الأولاد. وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جداً. وخبزوا العجين الذى أخرجه من مصر خبز كله فطيراً إذ كان لم يختمر. لأنهم طردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا .

خروج ١٢ / ٣٥ - ٣٩

وهكذا نفذ بنو إسرائيل الخطة فسلبوا المصريين - الذين لم يكونوا بينهم أصلاً - ذهبهم، وخبزوا عجيناً للطعام لكنهم طردوا فى تلك الليلة من مصر ولم يخرجوا مطاردين، فصنعوا عجينهم فطيراً لأنه لم يكن قد اختمر حتى يمكنهم تنفيذ أمر الطرد فى موعده.

المهم أن هذا هو تبرير المحرر التوراتى لوجود كميات الذهب الهائل مع عبيد معدمين خارجين من مصر، أما تبريرنا فهو أنه كان ذهباً ملكياً، وما كان يمكن مصادرة ذهب ملك حتى لو كان ملكاً مخلوعاً. هو الذهب الذى كان بحوزة إخناتون وخرج به من مصر زعيماً للخارجين والمهزومين المطرودين.

أما المبهر حقاً فهو أننا قد وقعنا على لوحة من أوغاريت بسوريا لم يجد لها الباحثون تفسيراً، وعقب بعضهم عليها بالقول: " رسم ملك يتعبد أمام الإله إيل من رأس شمرا أوغاريت، يظهر الملك بلباس مصرى وقد يمثل الرسم فرعون مصرى أو ملك أوغاريت فى زى مصرى " (٢٧). لكن اللوحة أمامنا واضحة تماماً وفق نظريتنا فالتاج العالى هنا على رأس الملك ليس تاج الوجه البحرى ولا القبلى لكنه غطاء رأس عال وبارز جداً ولا يميزه فرعونياً سوى الحية البارزة منه إلى الأمام وصورة رع منشور الجناحين بأعلى اللوحة ويتلقى هذا الفرعون ألواحاً من الإله (ألواح موسى)، ويمسك بذات اليد عصاً رأسها رأس حية، وهى لوحه تمزج بين موسى الذى تلقى الألواح وبين فرعون مصرى، لن يكون سوى إخناتون حسب نظريتنا. أليس هذا دليل شديد البهرة على صدق ما قلنا حتى الآن؟

ثم يصف لنا ابن قتيبة شخص النبى موسى وأخيه هارون وصفاً يذكرنا بالعماليق فيقول: " قال وهب بن منبه: موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم .. وكان موسى عليه السلام

(٢٧) اللوحة نقلاً عن كتاب بعل هداد سبق ذكر تفاصيل النشر. إرجع إلى قائمة المصادر.

آدم جعداً طوالاً كأنه من رجال شنوءة، وكان هارون أطول من موسى وأكنز لحماً وأبيض جسماً وأغلظ ألواحاً (٢٨) ."

وبنظرة في فنون مصر لن تجد فرعوناً أطول من الفرعون إخناتون، ثم الفرعون آي وهو بدوره من أسرة العمارنة.



ضمن اللوحات التي ضمها كتاب (بعل هداد) جاءت هذه اللوحة في صدفة عبقرية لتؤكد نظريتنا تأكيداً تاماً. وقد عقب المؤلفان على اللوحة بالكلمات التالية: "رسم لملك يتعبد أمام أب الآلهة إيل من رأس شمرا / أوغاريت . يظهر الملك بلباس مصري وقد يمثل الرسم فرعون مصر أو ملك أوغاريت في زي مصري". هذا بينما اللوحة تسجل ذكريات كانت معلومة للفنان التي رسمها، تلك الذكريات التي كشف عنها كتابنا هذا: الجالس على العرش هو الإله يهوه ذو القرون وأعلى اللوحة رسماً لرع الشمس المصرية المجنحة. والواقف أمام الإله بالفعل فرعون مصري لكنه يلبس تاجاً بذوابة تتدلى على ظهر الفرعون. وهو التاج الخاص بإخناتون وحده . ولا يبدو الفرعون في هيئة تعبدية إنما هو يتسلم ألواحاً من يهوه هي عندنا ألواح الشريعة التي تلقاها موسى ، بينما يمسك في اليد الأخرى العصا الحية الموسوية. إن تلك اللوحة العبقرية إنما تحكى بإيجاز كل ما أردنا إثباته حتى الآن.

شكل رقم (١٢٠)

نهاية البطل

فرويد فى كتابه موسى والتوحيد يسجل سيناريو الأحداث الذى تصوره لنهاية ذلك الشخص العظيم (موسى)، وفى رسم ذلك السيناريو استند إلى ما وصل إليه (سيللين) فى كتابه (موسى وأهميته فى التاريخ اليهودى لبنى إسرائيل). وكان (سيللين) قد كشف عن نهاية فاجعة لهذا القائد الفذ، وذلك من خلال قراءته لسفر يشوع، إذ قال إن الشعب البدوى المشاكس العنيد الإسرائيلى، لم يتمكن من الالتزام بالقوانين الصارمة والراقية للعقيدة الآتونية التى فرضها عليهم الأمير المصرى موسى تلميذ إخناتون، فثاروا عليه فى تمرد عظيم، وتم قتله إبان ذلك التمرد. وعلى الفور نكص الخارجون من مصر عن الدين الذى أعطاه لهم تلميذ إخناتون، وقد ساعد على هذه الثورة ونجاحها فى شبه جزيرة سيناء، المديانيون أنسباء الإسرائيليين حيث اعتنق الخارجون جميعاً ديانة يهوه المصبوغة بالبداءة القاسية التى تمثلت ربها فى صورة الوحش السينائى الدموى البركانى، وتم هجر ديانة آتون الراقية والعظيمة. ويرى فرويد أنه عند هذه اللحظة المفصلية من التاريخ يخفى موسى المصرى سليل أسرة الملوك المصريين بالموت قتلاً، لكن التوراة تستأنف قصتها بموسى آخر وهمى تزعم أنه كان طفل بنى إسرائيل الذى ربى بقصر الفرعون بالتبنى، وقامت تتسبب إلى موسى المصرى كل الخرافات التوراتية وقسوة البدو وربهم الشيطانى المارد البركانى. وهنا تحديداً وعند هذه النقطة الفاصلة يبدأ الحديث عن الأسرة الوهمية لموسى، ويتم لأول مرة نسبة موسى المصرى إلى بيت إسرائيل.

ويتمسك فرويد بل يصبر على هذا التمسك بأن الفريق الذى بقى مؤمناً بموسى المصرى وبالعقيدة آتون الواحد هم أولئك الذين وصفوا بعد ذلك باعتبارهم سبطاً من بيت إسرائيل ووضعوا فى سلسا لهم بوصفهم كذلك، وكانوا أهم الأسباط من بعد، وهو سبط (لاوى) المنطوق عبرياً (ليفى). والاسم (ليفى) يشترك فى الجذر مع (ليفان) أولبان، كما يحمل فيما يحمل من معانى معنى (الأبيض) فاللبن الأبيض اللون، كذلك يشترك معه فى الجذر (إلفانت) أى الفيل، وسن الفيل الأبيض (عاج) أو (شن هـ بين) وكلها تلقى بنا فى بلاد الأيكة مديان.

وكان اللاويون فى رأى سيجموند فرويد هم الحاشية الملكية المصرية التى فضلت الخروج مع النبيل المصرى موسى بعد سقوط إخناتون وموته (كما يظن فرويد)، لذلك أصروا بعد مقتل موسى فى سيناء على التمسك بذكرى مصر وركزوا على قصة الخروج لهذا السبب تحديداً حتى أمست لحظة الخروج عصب الديانة اليهودية وبداية التاريخ الإسرائيلى. كما أصر هؤلاء الخارجون على استمرار عادة الختان المصرية، لأنه ما كان بإمكانهم وهم مصريين أن يتخلوا عن عادة باتت طقساً مقدساً بطول تاريخ مصر، وأصبح الختان عند هؤلاء الخارجين شرطاً أساسياً للمؤمن كى يكون يهودياً من أتباع موسى. كذلك أصروا على التمسك بموسى وبمصريته بينما كان الفريق البدوى يخترع موسى آخر، موسى إسرائيلى مديانى منسوباً

للبطارقة الأوائل ونسلهم، ثم نسبوا عادة الختان للبطارقة هؤلاء باعتبارها سنة إسرائيلية من البدء، والحقيقة غير ذلك بالمرّة فقد كانت من فجرها مصرية.

وهكذا كانت فتنة عبادة العجل الذهبي رمزاً لنهاية ديانة آتون والعودة إلى عبادة العجول البعول، كما كانت قصة تحطيم موسى لألواح الشريعة رمزاً لانتهاء ديانتته وشريعته التي أسسها إخناتون ثم مقتله في الخلاف المذهبي العظيم الذي أدى إلى ارتداد هؤلاء عن ديانة آتون.

وسبق وأثبتنا أن هناك النقاء قد حدث في أحد تلك المراحل بين الحمار (سيت) وبين (آتون) حيث نجد الاسم آتون بعد ذلك لقبا ليهوه في الديانة اليهودية بمعنى السيد الرب، من الجذر (تون) أو (دون) ومنها دون كى Donkey، و (أتان) في العربية، كذلك يلتقى مع تقديس الفرس الأقدمين واليهود لجذوة نار مشتعلة داخل المعبد لا ينبغي أن تتطفئ أبداً هي الأتون الناري، وتحمل في طياتها الأتون الأعظم الشمسي، وكذلك البركان الذي يقذف بالحمم المشتعلة.

وفي قادش حيث استقر الخارجون من مصر حوالي ثمانية وثلاثين عاما، ثم عقد اجتماع مصالحة بين كافة الفرقاء تحزب فيه اللاويون لسيدهم القليل، ومن هنا ظل اسم موسى وقصة تربيته بالبلاط المصري بديلا عن نبلة الوراثي المنسوب لإسرائيل. كما تم الاحتفاظ باسم الإله آتون كلقب ليهوه فأصبح هو الأدون السيد. كما تمت الإشارة في هذا الاجتماع إلى اختيار إخناتون/ موسى للإسرائيليين، في رمزية اختيار الرب يهوه لهذا الشعب بعكس كل الشعوب التي تختار آلهتها. لذلك لم يفتأ الكتاب المقدس يردد نفيه الشديد أن يكون يهوه إلهاً أجنبياً على إسرائيل، بينما نعلم أن إله إسرائيل كان إيل السامي، وأن يهوه كان إلهاً من أصول كنعانية سيناوية، مدمجا في سيت تيفون وبعل حداد صافون.

كما حافظ اللاويون في هذا الاجتماع على مجموعة التفاصيل التي استخدمها بعد ذلك أنبياء اليهود للعودة إلى مفهوم الرب الجلالى الواحد الذى أسسه موسى المصرى، لكن بعد موته بقرون طوال.

ومن جانبنا نذكر هنا أن سبط أو بيت لاوى يرتبط عندنا بالاسم فى صيغته اليونانية (لايوس)، وهو بيت آمنحتب الثالث أو بيت العمارنة فى أخت آتون حسب نظريتنا.

ثم نقرأ بالمقدس التوراتى قصة اللحظة الأولى لتحرك ركب الخارجين من مصر بقيادة موسى فنجده يقول:

فارتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سكوت (سكوت أول محطة فى طريق الخروج بعد رعسيس باتجاه سيناء وقد سبق وحددناها بالقنطرة غرب اليوم/المؤلف) نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد وصعد معهم لقيف كثير أيضاً مع غنم وبقر، ومواش وافرة جداً. وخبزوا العجين الذى أخرجوه من

مصر خبز مله فطيراً، إذ كان لم يختمر. لأنهم طردوا
من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا، فلم يصنعوا لأنفسهم
زاداً. وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر
فكانت أربعمئة وثلاثين سنة. وكان عند نهاية أربعمئة
وثلاثين سنة، فى ذلك اليوم عينه، أن جميع أجناد الرب
خرجت من أرض مصر.

خروج ٣٧/١٢ - ٤١

وأبداً لا يمكن أن يعقل - كما أسلفنا القول - أن ينبج أربعة أجيال هذا العدد الهائل من الخارجين
٦٠٠,٠٠٠ رجل عدا الأولاد، ويلاحظ هنا أنه لم يذكر نساء، مما يشير إلى ندرة النساء مع الخارجين إلى
حد إسقاطهم من تعداد الخارجين، وهو الأمر الذى لا يفسره سوى الغزوة الهكسوسية الثانية التى جاءت
مصر حلفاً مع ملكها المخلوع وولده، ومن الطبيعى أن يكونوا من الرجال، مع القلة الإسرائيلية وبيوتهم
وأولادهم، مع تلك الإشارة غير المفهومة إلى آخرين خرجوا مع الإسرائيليين مر عليهم المحرر التوراتى
سريعاً فى فلاش خاطف فى جملة واحدة غامضة لم تتكرر أبداً بعد ذلك تقول: " وصعد معهم لفيث كثير
أيضاً " !!

فمن كان هؤلاء اللفيث؟ وهى الكلمة التى تحمل ذات المعنى بذات التصويت فى العربية والعبرية معا.

نزع هنا ونتفرد بالقول إن هذا اللفيث كان إخناتون وأتباعه من كهنة وحاشية مصرية وأنهم هم من
صاروا بعد ذلك كهنة إسرائيل اللاويين حسبما نبهنا فرويد. وقد عمد المحرر التوراتى هنا إلى وضع الحقيقة
الساطعة فى لغة بلاغية تقلل من شأن هؤلاء فهم مجرد لفيث انتهاز الفرصة فخرج مع الخارجين، لكن
الصيغة البلاغية هنا تضئ الموقف فى حملها لأكثر من معنى، لأن (لفيث) هى من (لفيث) أو (لاوى)، فى
العبرية كما هى فى العربية.

وننقب بالكتاب المقدس عن أى إشارات أخرى تدعم هذه الرؤية، عن أى إشارات ولو ضمنية لوجود
مصرى مع الخارجين من البدو الآسيويين الهكسوس، فنقف مع تلك الوفرة فى الأغنام والبقر والمواشى مع
الخارجين، التى تتناقض تناقضاً صارخاً مع الجوع الذى عاناه هؤلاء إبان رحلة الخروج حتى أكلوا المن
والسلوى. وهو الأمر الذى لا يفسره إلا قائد قد حرّم على أتباعه أكل الأغنام والبقر أو أمرهم بصيام عن
اللحوم طويل الأمد، وهو أمر كان معلوماً فى ديانات المصريين الذين كانوا لا يأكلونها إلا فى مناسبات
طقسية بعينها وكانوا يفضلون الطيور على لحوم السوائم فى صيام طقسى طويل. ويبدو أنه كان أحد الجوانب
الطقسية المصرية التى أخذها إخناتون ودمجها بعقيدته الجديدة المزيج بين عقائد مصر القحة وبين عقائد
مديان بسيناء المصرية. وهو ما وصل إلى علم محررى المقدس التوراتى عندما كان المحرر يروى
مناظرات موسى مع الفرعون، حيث كان موسى يوهم الفرعون أنهم سيخرجون فقط لمدة ثلاثة أيام ليذبحوا
ذبائح لعيد دينى لهم بعيداً عن المصريين الذين يقدسون تلك الحيوانات، أو بالنص :

فدعا فرعون موسى وهارون وقال: اذهبوا اذبحوا
لإلهكم فى هذه الأرض، فقال موسى: لا يصلح أن نفعل
هكذا، لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا. إن
نذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرحموننا؟
نذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا كما
يقول لنا .

خروج ٨ / ٢٥ - ٢٧

ونستمر فى التتقيب نبحث عن إشارات أشد إفصاحا حتى نجد نصا واضحا فصيحاً يقول الرب فيه
لشعبه :

لا تكره مصر يا لأنك كنت نزيلا فى أرضه، الأولاد
الذين يولدون لهم فى الجيل الثالث يدخلون منهم فى
جماعة الرب.

تنثية ٢٣ / ٧ ، ٨

إنها الإشارة الصريحة الوحيدة واليتيمة التى تشير إلى وجود مصريين مع الخارجين، رغم أنهم كانوا
القادة وأصحاب الفكر والكهنة بل وأصحاب الديانة، وتتأكد بذلك رؤية فرويد النفاذة التى ألقاها على عجل
دون مؤيدات يقول فيها إن أتباع ديانة آتون كانوا هم مؤسسى ديانة إسرائيل وكهنتها الذين عرفوا باسم
اللاويين أو الليفيين وتم إدراجهم بين أسباط إسرائيل باعتبارهم البيت الذى أنجب عمران / العمارنة ومنهم
كان موسى قائد الخروج.

ويزداد الفرض رسوخا عندما نقرأ المقدس فنعلم أن هؤلاء اللفيف الذين أشار إليهم المقدس تلك الإشارة
العابرة كانوا كثرة عددية أكثر من مجرد تعبير " لفيف كثير ". لأن اللاويين كما قرر المقدس نفسه كانوا
اثنتين وعشرين ألفا (أنظر سفر العدد ٣ / ٣٩). وقد تم هذا التحديد بعد عملية التعداد التى أمر بها موسى
للخارجين فى سيناء، لكنه عدّهم وحدهم دون بنى إسرائيل بناء على ما زعمه المحرر التوراتى أمراً إلهياً
يقول:

أما سبط لاوى فلا تحسبه ولا تعدّه بين بنى إسرائيل

عدد ١ / ٤٩

وهو ما يعنى أن اللاويين الكهنة وأصحاب الفكرة والديانة لم يكونوا أبداً إسرائيليين. وبكل الدأب تملكنا الرغبة فى الحصول على مزيد، فوجدنا أن المحرر التوراتى كان يعلم أصل هؤلاء يقينا، فكان يحذر دوماً قائلاً:

واللاوى الذى فى أبوابكم ليس له قسم ولا نصيب معكم .

تنبيه ١٢ / ١٢

وتعبير [الذى فى أبوابكم] يفصح عن أكثر من معنى، فهو يشير إلى تماس اللاوى مع الإسرائيليين من خارج، كما يحمل أيضاً معنى القيادة فباب المنزل هو سيده وعتبة المنزل هى سيدته. ثم نتابعه فنسمع الرب يحذر شعبه من كهنته (!!!)، نعم يحذر شعبه من اللاويين ويقول لشعبه المختار:

احترز من أن تترك اللاوى كل أيامك على أرضك

تنبيه ١٢ / ١٩

لا يكون للكهنة اللاويين - كل سبط لاوى - قسم ولا نصيب مع إسرائيل، يأكلون وقائد الرب ونصيبه [يعنى الكهانة فقط/المؤلف] فلا يكون له نصيب فى وسط إخوته، الرب هو نصيبه كما قال له.

تنبيه ١٨ / ١ ، ٢

ويبدو لنا أن وجود هذا العدد من المصريين الذين كانوا لا شك حاشية إخناتون المصرية ورجال عسكره، وسبق وعلما أنه كان قد جعل من مدينته أخت آتون ثكنة عسكرية كبرى، وأنهم خرجوا معه مؤمنين به وبدعوته، إن هؤلاء مع قائدهم كانوا وراء تحريم ذبح البقر. وهو مالم يحتمله أهل البداوة والرعى ومعتمدتهم فى الطعام على اللحم، وهو ما يفسر لنا فتنة العجل الذهبى بسيناء التى كانت فى رأينا ترميزاً دالاً على انتهاء الآتونية والعودة إلى عبادة العجول وأكلها بذبحها طقسياً، بل على موت صاحب الدعوة ذاته قتيلاً كما ذهب سيللين وفرويد. ويبدو أن ذبح البقرة كان ترميزاً لكيان قدسى، ترميزاً لقتل موسى. وتبدأ الفتنة مع غياب موسى عن شعبه على جبل الشريعة حيث صعد ليأتى لهم بألواح الشريعة من الله الذى

أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء..

لوحى حجر مكتوبين بإصبع الله .

خروج ٣١ / ١٨

وقد بدأت الفتنة فيما تروى التوراة عند تلك اللحظة عند الجبل المقدس فهي تقول بعد غياب موسى أربعين يوما ومعه يشوع فوق الجبل :

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل
اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة
تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أضعنا من أرض
مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط
الذهب التى فى آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها،
فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها
إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل
وصنعه عجلا مسبوكا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى
أضعذك من أرض مصر .. **وجلس الشعب للأكل
والشرب ثم قاموا للعب ..** فانصرف موسى ونزل من
الجبل .. وسمع يشوع صوت الشعب فى هتافه فقال
لموسى: صوت قتال فى المحلة، فقال .. بل صوت غناء
أنا سامع، وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل
والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه
وكسرهما أسفل الجبل .. ولما رأى موسى الشعب أنه
معزى .. وقف موسى فى باب المحلة وقال : **من للرب
فإلىّ فاجتمع إليه جميع بنى لاوى**، فقال لهم: هكذا قال
الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا
وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة، واقتلوا كل واحد
أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه .. وقع من
الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل .. **فضرب
الرب الشعب لأنهم نعوا العجل الذى صنعه هارون .**

خروج ٣٢ من ١:٣٥

والتوراة تؤكد أن موسى ظل على قيادة بنى إسرائيل إلى أن وصلوا إلى شرقى الأردن، وصعدوا إلى
جبل نبو ومن هناك رأى أريحا فى غربى الأردن وبقية الأرض الموعودة، وأنه قد مات هناك.

وفى موت موسى تروى التوراة أنه عندما وصل بالخارجين إلى شرقى الأردن:

كلم الرب موسى فى نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل
عباريم هذا جبل نبو الذى فى أرض موآب الذى قبالة
أريحا. وانظر أرض كنعان التى أنا أعطيتها لبني إسرائيل
ملكا ومت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضم إلى قومك
كما مات هارون أخوك فى جبل هور وضم إلى قومه.
لأنكما خنتما فى وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة
قادش فى برية صين إذ لم تقدسانى فى وسط بني إسرائيل،
فإنك تنظر الأرض من قبلتها ولكنك لا تدخل إلى هناك
إلى الأرض التى أنا أعطيتها إلى بني إسرائيل .

تنثية ٣٢ / ٤٨ - ٥٢

وخلف موسى على قيادة بني إسرائيل تلميذه يشوع بأمر من موسى ومن ربه:

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى
عليه يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى
الرب موسى .

تنثية ٣٤ / ٩

ومن ثم أصبح يشوع هو قائد الخروج والعبور من الأردن إلى أريحا وأرض الميعاد .

وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن
نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدى قد مات، فالآن قم
اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى
أنا معطيها لهم أى لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون
أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى .

يشوع ١ / ١ - ٣

هذا ما روته التوراة عن موت موسى لكننا من جانبنا قد جمعنا من القرائن ما يكفى للتدليل على أن
موسى المصرى أبداً لم يغادر سيناء وأنه قتل عند جبل الإله حور المقدس (حوريب / جبل سيناء / جبل
الشرية) إبان فتنة العجل الذهبى، وأنه بموته هناك انتهى إختاتون وانتهت ديانتة الآتونية، وبدأت قصة
موسى الوهمى التوراتى كمرحلة جديدة هى التى شكلت فيما بعد الديانة اليهودية، وهو الأمر الذى سندلل عليه
الآن.

لايغيب على فطن كقرينة أولى تحطم ألواح الشريعة عند سفح جبل الإله حور كرمز لنهاية العقيدة الآتونية ونهاية صاحبها. وعبثاً نحاول البحث عن تلك الخيانة التي قام بها موسى وهارون لربهما والتي أدت إلى اتخاذ قرار قتلتهما. والطريف أن التوراة تؤكد أن الله هو الذى أمات موسى بنفسه وقام بدفنه فى جبل نبو بنفسه، والموت الطبيعى لا حاجة أبداً لتبريره، لكن التوراة أصرت على التبرير، وأخفت اسم القاتل الحقيقى ونسبته إلى الله .

وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس
القسجة الذى قبالة أريحا، فأراه الرب جميع الأرض من
جلعاد إلى دان، وجميع نقتالى وأرض إفرايم ومنسى
وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى، والجنوب والدائرة
بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر. وقال له الرب هذه
هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلاً
لنسلك أعطيها، قد أريت لك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا
تعبر. فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض موآب
حسب قول الرب، ودفنه فى الجواء فى أرض موآب .

تنثية ٣٤ / ١ - ٦

والحالة الوحيدة التى غاب فيها موسى عن بنى إسرائيل برفقه شخص يحتمل أنه كان القاتل هى حالة
جبل حوريب عندما صعد بزعم إحضار ألواح الشريعة، وكان رفيقه يشوع ابن نون وهو شخصية دموية
تفصح بدمويتها كل أسفار التوراة أينما ذكرته.

وأبداً لم يكن إخناتون رجل حروب ودماء رغم ترسانته العسكرية ومادخلها مرة إلا مكرها، المرة
الأولى لاستعادة عرشه له ولا بنه سمنخ كا رع أو بولينيكس، واستعان فيها بأحلاف الهكسوس وكانت
عاصمتهم حينذاك أورشليم حسبما أخبرنا يوسفوس، والمرة الثانية عند خروج موسى مع رجاله إلى سيناء
عندما هاجمه فرع عماليقى فى رفيديم فلم يشترك فى القتال حسب رواية التوراة، إنما صعد إلى تل عال
يشرف على المعركة يطلب معونة ربه برفع يده نحو السماء. لذلك كان غريباً أن يأمر اللاويين بقتال
أصحاب فتنة العجل الذهبى. لقد حدثت الفتنة عبر شخصين، الأول هارون الذى صنع العجل، والثانى يشوع
الذى صعد مع موسى إلى الجبل، وبينما هارون يعلن خلع موسى وآتون بين الاتباع أسفل الجبل كان يشوع
يقتل موسى فوق الجبل، وكان محالاً أن يقوم اللاويون المنبذون حسب نصوص المقدس بعملية قتل للشق
الهكسوسى العظيم العدد، بل يبدو أن ما حدث كان على العكس تماماً، فما أن عاد يشوع من الجبل حتى تمت
إبادة أكبر عدد ممكن من المصريين على يد الهكسوس اليهوديين عند سفوح جبل حور المقدس .

والمعلوم أن عادة الختان عادة مصرية أصيلة قديمة أخذها عنهم الإسرائيليون والساميون عموماً، ونسبها الإسرائيليون إلى آبائهم الأوائل زمن إبراهيم ١٧٠٠ ق.م تقريباً، بينما مصر تعرفها من فجر تاريخها قبل ثلاثة آلاف عام أو أكثر قبل الميلاد. وتشير التوراة إلى أن الخارجين من مصر كانوا مختونين جميعاً، لكن التوراة تفاجئنا عند استلام يشوع القيادة بعد موت موسى أن من معه جميعاً كانوا غلفاً غير مختونين، ووجد يشوع أن ذلك قد يؤدي إلى هزيمتهم عند الهجوم على أرض فلسطين، فأمر جميع أتباعه بالختان على الطريقة المصرية بالصوان، أو بالنص " في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان وعد فاختن بنى إسرائيل ثانية، فصنع يشوع سكاكين صوان وختن بنى إسرائيل فى تل القلف. وهذا هو سبب ختن يشوع إياهم: إن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور جميع رجال الحرب ماتوا فى البرية على الطريق بخروجهم من مصر لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين، وأما جميع الشعب الذين ولدوا فى القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختنوا. لأن بنى إسرائيل ساروا أربعين سنة فى القفر حتى فنى جميع الشعب رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يسمعوا لقول الرب الذين حلف الرب لهم أنه لا يريهم الأرض التى حلف الرب لأبائهم أن يعطينا إياها، الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً، أما بنوهم فأقامهم مكانهم فإياهم ختن يشوع لأنهم كانوا قلفاً إذ لم يختنهم فى الطريق / يشوع ٥ / ٢ : ٧ ."

ولا معنى لهذا الكلام سوى إبادة جماعية تمت للمصريين مع زعيمهم فى فترة العجل الذهبى للتخلص من تلك السيادة المصرية وهو ما يؤكد استكمال قراءة ذلك الاصحاح فى سفر يشوع إذ يقول:

وقال الرب ليشوع : اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر

يشوع ٥ / ٩

ألا يعنى ذلك التخلص من كل ما أمكن من أثر فكرى مصرى ومن الأشخاص أصحاب هذا الفكر؟

وعند هذه النقطة يظهر دون سبب واضح ولا هدف ، الأمر بصناعة تابوت يحمله الخارجون معهم، بزعم أن الرب سيستلقى بداخله ليحملوه معهم فى ترحالهم (!!!؟) فلماذا اختيار تابوت بالذات ونحن نعلم أنه خاص بالموتى لا بالأحياء، فما بالك بإله؟ ثم لماذا يطلب الإله فى هذه اللحظة تابوتا بينما كان يسير أمام شعبه وخلفهم يحرسهم فى شكل أعمدة من سحاب وأعمدة من نار وينزل سخطه على أعدائهم فى شكل كلى القدرة هائل الرغبة فى سفك الدماء. لماذا فجأة وفى تلك اللحظة تحديداً وفى ذلك المكان تحديداً يطلب هذا الإله صناعة تابوت له ينام فيه ليحملوه معهم فيكون معهم حيثما حلوا أو ارتحلوا؟ وبطول الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج توضع مواصفات هذا التابوت التى تفاجئك بصيغتها المصرية الكاملة لتوايبت الملوك الفراعنة تحديداً وبالذات، مع ملاحظة أنه ليس كتوايبت أفراد الشعب المصرى بل تابوتا ملكيا يشكل عنصر الذهب فيه الجانب الأعظم:

فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان

ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع

ونصف، وتغشيه بذهب نقي، من داخل ومن خارج
تغشيه، وتضع عليه إكليلاً من ذهب حواليه. وتسبك له
أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربعة ..
وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب
وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت
ليحمل التابوت بهما .. وتصنع غطاء من ذهب نقي
طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وتصنع
كرويين من ذهب صنعة خراطة، تصنعهما على طرفي
الغطاء، فاصنع كروبا واحداً على الطرف من هنا
وكروبا آخر على الطرف من هناك .. ويكون الكروبان
باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنتهما على
الغطاء ..

خروج ٢٥ / ١ - ٢٠

وفى أسطورة أوديب، يتحول الملك أوديب من ملك خاطئ مخلوع إلى رجل مبارك (نبي)، ويتسابق
الملوك لدعوته إلى ممالكهم لكنه يصر على البقاء في كولونس في جبل كيثابرون الذي طابقتاه بجبل كاترين
وهو الاسم الحديث لجبل الله حور أو حوريب. وتجمع الروايات على أنه كان يجلس يوماً في هذا الجبل فسمع
صوتاً يناديه من السماء ارتفع على إثره نحو السماء واختفى على الأنظار، وقيل أن ربّات الرحمة رفعته إلى
السماء لتعوضه عما لاقاه من عذاب في الأرض، وكانت تلك هي رواية سوفوكليس في أوديب ملكا. لكن
هوميرس يذكر من جانبه نهاية مختلفة لحياته وهي " أنه قتل في معركة وانتهت حياته بالعنف، ودفن جثمانه
بعد أن وسد في تابوت وتليت عليه المراسم الجنائزية " (١) .

ومن جانبه يطرح أحمد عثمان (٢) ذات التساؤلات المستربية فيقول: " وليس من الواضح لماذا غضب
الرب على موسى وكانت النتيجة أن الرب منع موسى من دخول أرض كنعان مع بني إسرائيل وأماته ..
وبعد أن أعطى موسى بركته إلى بني إسرائيل صعد الجبل ونظر عبر الأردن إلى كنعان ثم مات هناك ودفنه
الرب في قبر ليس له علامة .. ويحتوى التلمود على رواية تختلف عن ذلك بخصوص الطريقة التي مات بها
موسى، فهي تقول إن موسى تصارع مع خصمه فوق الجبل قبل أن يموت، وهي تسمى هذا الخصم ملاك
الموت، وهذا هو الذي جعل باحث التوراة الألماني إرنست سيللين يقول إن موسى مات مقتولا " .

وفى الرواية الإسلامية تقول الآيات

واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له

(١) الشعراوي: أساطير .. سبق ذكره ، ص ٢٦ .

(٢) أحمد عثمان: تاريخ .. سبق ذكره ، ج ١ .

خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه
وكانوا ظالمين، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد
ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من
الخاسرين. ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا
قال بئسما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى
الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال يا ابن أم إن
القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي
الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين .

الأعراف ١٤٨

ويعقب ابن كثير في شروحه: " لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل
إلا بالقتل كما قال تعالى: { فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم } ^(٣) ولم ينف القرآن الكريم موضوع التابوت بل
أكده قائلاً: { إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم } / ٢٤٨ البقرة . كذلك وافقت الروايات
الإسلامية قصة صراع موسى مع خصمه قبل قتله لكنها كالتلمود قالت أن القاتل كان الملاك عزرائيل ملك
الموت. ويحكى ابن كثير رواية عن ذكرى باهتة لقلع العيون، لكنه قال إن العيون المقلوعة كانت لعزرائيل
ملاك الموت وأن من قلعه كان موسى إبان صراعه معه قبل موته ^(٤) بل ويشير إلى اتهام يشوع بذلك القتل
بشكل سافر ومباشر وذلك في قوله: " ثم أن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فتاه، إذ أقبلت ريح
سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله.
فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدى يوشع، فلما جاء يوشع بالقميص آخذته
بنى إسرائيل وقالوا: قتل نبي الله، فقال لا والله ما قتلته لكنه استل منى " ^(٥) .

وفي روايات يونانية أخرى نجدها تشير إلى أن أوديب ظل بعد موته روحاً هائمة تنتقل مرتحلة من
مكان إلى مكان، وهو ما نظنه قد حدث بتوسيد موسى / أوديب / إخناتون في التابوت بعد مقتله وحمله معهم
في شكل قيادة رمزية عبر ارتحالات طويلة انتهت بالوصول إلى جبل نبو على مشارف كنعان الشرقية.

لقد كانت فتنة العجل الذهبي النهاية المنطقية والعاجلة لتحالف مؤقت بين فريقين متناقضين، إخناتون
وعقيدته الآتونية وأتباعه من مصريين والبدو الأسرى في حواريهم وهم من عرفوا باسم بنى إسرائيل، وعلى
الطرف الآخر يهوديين هكسوس طردوا من مصر وسكنوا أورشليم وعادوا إليها في غزوة ثانية تحالفوا مع
ملكها المخلوع، كان الطرفان شديداً التناقض بين فرعون يمجد ربا واحداً هو الشمس آتون، وبين مجموعات
بدوية دموية همجية تعبد عدداً من الآلهة تتمثل في تجليات مختلفة أظهرها كان دوما العجل أو الثور، أما

(٣) ابن كثير: البداية .. سبق ذكره، ج ١، ص ٢٦٩ .

(٤) نفسه: ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٥) نفسه: ص ٢٩٧ .

رمزه فهو القرون أو الهلال فكانوا قمريين لا شمسيين. ولا مفر من الاعتراف بردة بعض المصريين من الخارجين فى قسوة الصحراء وحاجتهم إلى البروتين الحيوانى أو استسلاما لسيادة العدد الغفير والقوى. وربما كان ذلك العجل قد اتفق عليه من قبل البدو عبّاد البعل العجل، وبين هؤلاء المصريين الذين كانوا يعبدون قبل آتون تجليات إلهية أبرزها عجل أبيس، ولكن عجل أبيس كان يضع بين قرنيه الشمس، إلا أن إيريك هورنونج يعيد الأمر إلى نصابه ويقول عن هذا القرص أنه " قد فسر مؤخراً على أنه قرص قمرى " (٦)

ثم يؤكد أن العجل الذهبى كان بدوره طقساً مصرياً، ما وجدناه عند سليم حسن وهو يقول إن الإله أتم كان يتم تمثيله فى هيئة عجل من الذهب الخالص (٧)

ولم يبق من تأثيرات الآتونىة فى صلب العقائد اليهودية إلا ما كان لهم فى بلاد مديان من عقائد متمثلة فى إنكار البعث والخلود، حيث أبداً لم يقل إخناتون بعالم خالد فيه بعث وحساب وعقاب وخالف جميع المصريين، وقد قلنا أنه جاء بها من مديان المصرية، وجل ما كان يدعو به العابد ربه آتون. فلتضمن لى حياة طويلة وسعيدة (٨).

وهو ذات المبدأ التوراتى نصاً ومعنى، الذى ظل سائداً حتى العهود المتأخرة لتظهر تدريجياً مع أنبياء العهد الأخير قبل الميلاد بقرن أو قرنين من الزمان فكرة عالم آخر هو عالم الخلود.

ويؤكد لنا عبد المنعم أبو بكر أن إخناتون نجح فى تحريم ديانة أوزيريس التى تقول بالبعث والحساب والخلود " وهكذا نجح إخناتون فى تحريم ديانة أوزيريس، بل لم يحدث أن ذكر اسمه فى نقش من النقوش التى وردت على جدران مقابر العمارنة، بل لم تعد الصلوات الجنائزية توجه إلى آلهة العالم السفلى .. لكنها كانت ترفع إلى إخناتون رأساً " (٩).

" ويستفاد مما ذكره استرابو عن الأنباط أنهم كانوا لا يحفلون شيئاً بأمر الموتى إذ يقول فى هذا الصدد: ونظرتهم إلى الموتى كنظرتهم إلى الروث لهذا فإنهم يدفنون الموتى حتى الملوك منهم إلى جانب أكوام القمامة " (١٠).

ثم أبداً لا نجد تفسيراً لذلك العداء الهائل والعظيم الذى تموج به التوراة ضد العمالق سوى أنه أثر مصرى بقى صده ذكرى تردد كراهية المصريين للهكسوس، وليس كراهية الإسرائيليين للعمالقة. وقد ظل أمر التشدد التوراتى فى كراهية العمالق مثار دهشة شديدة لدى الباحثين حتى الآن، لعدم وجود مبرر واضح له، لكنه لو كان كراهية مصرية للمحتلين البرابرة، فإن الأمر يصبح واضحاً ومنطقياً.

(٦) إيريك هورنونج: ديانة .. سبق ذكره ، ص ٢٧٥ .

(٧) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره ، ج ١، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٨) أبو بكر: إخناتون .. سبق ذكره ، ص ٩١ .

(٩) نفسه: ص ٩٠ ، ٩١ .

(١٠) إحسان عباس: تاريخ .. سبق ذكره، ص ١٢٣ .

ولا نجد تفسيراً للقول بخيانة موسى للرب سوى أنها وجهة نظر المنتصر في الصراع الذى نشب عند جبل حور المقدس التى أرادت أن تجد تبريراً لقتل موسى / إخناتون ونهاية المصرية وبداية اليهودية المستترة. وفيما بعد سنجد الإسرائيليين ينسون تماماً جبل حور المقدس فى سيناء حيث كان الأتون المصرى، ويبدأون فى تقديس موضع آخر هو عاصمة الهكسوس / الخابيرو / يهوذا (أورشليم) وعلى جبل صهيون يقيمون هيكلهم ويضعون فيه تابوت لاشك أنه كان يحمل رفات الفرعون إخناتون وحيث يعتقد أنه المكنم الأزلئ ليهوه .

نحن إذن نقول بوضوح إن الكامن فى التابوت بوصفه الرب يهوه (الكائن، الذى لا اسم له) كان هو إخناتون بذاته بعد موته، وفى حياته كان إخناتون فى نظر أتباعه إلهاً ونبيا فى آن معاً. وإذا كان ليهوه اسماً خفياً لا يمكن معرفته فكذلك كان إخناتون، فبعد سقوطه عن العرش أصبح لا اسم له، أصبح كائناً دون اسم حسب الشريعة المصرية ^(١١)، أصبح فعل كينونه To Be فقط، وهو ذات اسم يهوه. وعليها أن نلاحظ أن أم موسى فى التوراة عندما ولدته لم تعطه اسماً، واسمه فقط هو وصف لحالته التى وجدته عليها ابنة الفرعون (ابن الماء). أما كمال الصليبي فقد اكتشف من جانبه أن موسى كان مرة نبيا ومرة إلهاً.

وانتصر سيت / يهوه، واختفى آتون ولم يبق له من ظل سوى لقب يطلق على يهوه يخاطبه به اليهودى العابد (آدوناي)، ياربى أو ياسيدى.

ويخبرنا أحمد عثمان عن وجود دلالات واضحة فى منطقة سراييط الخادم بسيناء تؤكد استمرار عبادة الإله آتون زمناً بعد انتهائها فى وادى النيل ^(١٢)، وغنى عن التذكير أن إخناتون وأوديب نسبت لهما مدتى حكم مختلفة ١٦ سنة و ٢٠ سنة وبينهما فارق ٤ سنوات أضافته الأسطورة اليونانية لمدة حكم إخناتون وهو ١٦ سنة، وهى عندنا السنوات الأربع التى قضاه إخناتون ملكاً مخلوعاً منفياً فى حواريس حتى وقت الخروج النهائى من مصر، بعد المعركة التى قتل فيها الصبيان سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون وهزمت الغزوة الهكسوسية الثانية. ونلاحظ بالكتاب المقدس اختفاء ذكر ألغازر وجرشوم ابنا موسى تماماً بعد عبور جبل سيناء، دون أى توضيح من جانب التوراة لسر هذا الاختفاء الذى أوضحته لنا أسطورة أوديب فيما حفظته من ذكريات عما وقع من أحداث. حيث أكدت مقتل الملكين الصبيين.

ومن جانبه يحيطنا المصروولوجيست هنرى بر وغش أن جماعات كانت تعيش فى شرقى دلتا مصر زمن الخروج، واحتسبهم جماعات فينيقية قرأ الاسم الدال عليهم (الخالو) ^(١٣)، والتى نراها بالقراءة السليمة (أخلامو) أى الأحلاف، وأن هؤلاء الخالوا فى رأى بروغش خرجوا مع الخارجين تحت عنوان (اللفيف) الوارد بالتوراة. وهم برأينا كانوا الهجمة الهكسوسية الثانية. أما اللفيف فكان إخناتون وحاشيته المصرية والمدنيانية.

(١١) جريفث: الانقلاب الدينى .. سبق ذكره، ص ٤٢ .

(١٢) أحمد عثمان: تاريخ .. سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٠ .

(١٣) الخشبة رحلة .. سبق ذكره، ص ٢٢٨ ، ٢٤٨ .

ويقول سيجموند فرويد أن دخول بنى إسرائيل إلى مصر لم يشملهم جميعاً، فهناك قسم من الأسباط دخل مصر، وقسم منهم لم يدخلها وبقي في مواعده التاريخية بفلسطين، ويرى أن من بقى مقيماً بفلسطين ولم يدخل مصر أولئك الذين استقروا شمالي فلسطين، وهم من استقلوا بعد ذلك عن المملكة الموحدة بعد موت سليمان وأقاموا هناك دولة إسرائيل الشمالية. أما الذين دخلوا مصر وخرجوا منها فقد استقروا جنوبي فلسطين، وهم من شكلوا عند انقسام دولة سليمان، دولة يهوذا الجنوبية. والمعنى أن الذين لم يدخلوا مصر أبداً هم من شكلوا دولة إسرائيل الشمالية، بينما شكل الخارجون من مصر دولة يهوذا الجنوبية.

وهنا نختلف مع فرويد اختلافاً تاماً وعلى العكس تماماً مما قال، وذلك في ضوء سيناريو الأحداث الذي رسمناه حتى الآن لأسباب عديدة ستقودنا إلى محاولة رسم طريق الخروج من مصر إلى فلسطين.

السبب الأول والأوضح أن النصف الشمالي أو مملكة إسرائيل كانت تموج بعبادات خصبية عديدة تلتنقى تماماً مع العبادات المصرية مما يشير إلى تأثير شديد بمصر خاصة عبادة العجل أبيس ومراكب الشمس وغيرها من ظواهر العبادة الخصبية التي استمرت حتى أيام المسيح وكان تأثيرها في المسيحية شديد الوضوح حتى كادت المسيحية تكون نسخة أخرى معدلة تعديلاً طفيفاً لعقائد الخصب المصرية المرتبطة بالإله أو وزير رب الخضرة والخصب. بينما كان النصف الجنوبي (مملكة يهوذا) أقرب إلى البداوة وقامت به عدة حركات إصلاحية للتخلص من الآثار المصرية على التوالي. والسبب الثاني أننا نعرف من مانيتون ويوسفوس أن الهكسوس عندما طردوا من مصر أمام جيوش أحمرس قائد التحرير قد اتخذوا طريق حورس الحربى الشمالى المحاذى للبحر المتوسط حتى وصلوا شاروهين، وحاصر أحمرس شاروهين ثلاث سنوات وانتهى الأمر بخروجهم من شاروهين إلى جنوبى فلسطين أو ما يشكل المملكة الجنوبية التي عرفت بعد ذلك باسم يهوذا، وأنهم هم من أقام هناك مدينة أورشليم. بينما يشير الكتاب المقدس إلى أن الخروج الإسرائيلى قد اتخذ طريقاً آخر اندفع نحو جنوب سيناء نحو الجبل المقدس حوريب / كاثرين، ثم اتخذ ساحل العقبة الغربى وعبر من شماله عند إيلات وعصيون جابر جنوبى آدوم ليقوم بالتفافه كبرى عبر البادية الأردنية الآن لينتهى عند رأس البحر الميت شرقى نهر الأردن ومن هناك تم غزو الشمال الفلسطينى بعد عبور الأردن عند أريحا.

وهكذا نجد أن الذين خرجوا من مصر متأثرين بثقافتها هم من استقروا شمالاً، أما يهوذا أو العبيرو أو الهكسوس هم من استقروا جنوباً، وبعد موت سليمان أقام الشماليون مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأقام الجنوبيون مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم.

وقد لاحظ الباحثون اضطراب خط الخروج الإسرائيلى عبر سيناء ما بين طريق حورس الحربى وما بين الطريق الجنوبى، فقالوا بخروجين لبنى إسرائيل، واحد من عند صان الحجر عبوراً جنوبى بحيرة المنزلة يلتزم ساحل المتوسط حتى يدخل فلسطين من جنوبها، وخروج عبر وادى طميلات ثم نزول خط السير جنوباً نحو الجبل المقدس ثم عبور شمالى العقبة عبر آدوم وموآب وعمون وعبور الأردن من شرقه إلى غربيه. بينما تتضح المسائل وفق نظريتنا فيكون الهكسوس اليهوديون العبيرو هم من اتخذوا طريق

الشمال عند طردهم، بينما اتخذ الخارجون تحت ما يسمى خروج بنى إسرائيل طريق وادى طميلات وجنوبى سيناء حتى شرقى الأردن والعبور إلى أريحا. ويكون هذا خروج وذاك آخر. وهو موضوع بحث الأبواب التالية من هذا العمل. أما الآن فسنعرض لخط سير بنى إسرائيل الخارجين من مصر عبر سيناء، بعد عبورهم البحر المفلوق (سوف) بالعصا المعجزة، لتدقيق المواضع التى مروا بها فى محطات حل وترحال .

وعلى الترتيب سار خط السير كالاتى :

□ الخروج من بحر سوف مباشرة إلى صحراء برية شور (خروج ١٥ / ٢٢)، وهو اسم الساحل الشرقى للبحر المفلوق ويؤدى إلى بداية الطريق السينائى. ومعلوم أن (إيل) أو كبير الأرباب السامى الذى حل محله يهوه السينائى، كان يلقب باللقب (هـ - شور) أى الثور، وهو مايفسر لنا القرنين فى اللوحة التى قدمناها لفرعون يتلقى الشريعة من الإله يهوه، وكيف صورت اللوحة هذا الإله يلبس قرنين أو ذى قرنين. وتقابل هذه الكلمة فى الأرامية Tor وفى الأكادية والعبرية Shor وفى الأوغاريتية الحورية وت ر وفى الحبشية سور وفى اللاتينية Taurus وفى اليونانية Touros وفى اللتوانية Tauras . المهم فى كل هذا ما يقوله على الشوك: " والعلاقة واضحة بين كلمة ثور والفعل ثار .. وتقابل ثار العربية شاور العبرية وتعنى: ينثب، قفز، يقوى، وهناك كلمة سار العبرية بمعنى مشى وتقابلها شور العبرية وتعنى: يدور، يسافر، ويمكن ذكر كلمة السور أيضاً ومثلها شور العبرية وتفيد المعنى نفسه " (١٤) . وهنا نتذكر أن آخر مدينة شرقية فى مصر كانت تحمل اسم (ثارو) فى المدونات المصرية، وأنها كانت مخرج جميع حملات مصر على آسيا، وأنها كانت أول الطريق نحو سيناء، وأنها كانت قلعة ذات أسوار عظيمة، وأنها والأهم تنطق فى العبرية (شور). لقد كانت ثارو أوسيلة هى أول مدائن الخروج بعد عبور البحر المفلوق، مما يعنى وجوب البحث عن هذا البحر المفلوق عند مدينة شور أو ثارو، وهو ما يعنى أيضاً أن هذا البحر يجب أن يكون فى عمق الدلتا المصرية، وليس على حدودها الشرقية تماماً، وهو ما سنجد فى البحث بشأنه فى الأبواب المقبلة.

□ تحرك الركب بعد ذلك فى مسيرة استغرقت ثلاثة أيام بلغوا بعدها موضعاً باسم مارة " فجاءوا إلى مارة، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر لذلك دعى اسمها مارة، فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه شجرة فطرحها فى الماء فصار عذبا / خروج ١٥ / ٢٢ - ٢٤". وبعد رحلتنا المعذبة الشاقة وراء مواضع الخروج أمكننا افتراض أن الموضع مارة هو موضع البير المرة الآن أو جبل مر وتقع داخل سيناء إلى الشرق من مدينة السويس الحالية.

ومن المناسب هنا أن نعلم أن تلك المعجزة التوراتية أمر اعتيادى تماماً يمارسه الأهليون هناك حتى الآن، فمعلوم أن بعض الآبار فى الصحراء تحتوى على كبريتات الكالسيوم التى تجعل الماء مر المذاق، وأنه إذا أضيف لتلك المياه حمض الاكساليك تعادل التركيب واختفت المرارة، ولم يزل بدو

(١٤) على الشوك: جوله .. سبق ذكره، ص ١٠١ .

سيناء حتى اليوم يستخدمون أغصان شجرة اسمها (ألواح) تحتوى على حمض الاكساليك لإزالة مرارة الآبار، بحكم التجربة المكتسبة خلال الأجيال.

- ارتحلوا من ماره إلى منطقة اسمها إيليم وصفتها التوراة بأنها غنية بالنخل وبالعيون (خروج ١٥ / ٢٧)، وهو الأمر الذى يمكن احتسابه منطقة عيون موسى الحالية جنوب شرقى السويس.
- ارتحلوا من إيليم ونزلوا على ساحل بحر سوف، وهو ما يعنى أنهم كانوا يلتزمون الطريق المحاذى لشرقى خليج العرب / السويس.

□ عادوا من ساحل بحر سوف إلى الصحارى مرة أخرى ليعمقوا بالداخل إلى منطقة باسم بركة سين (خروج ١٦ / ١)، المحتمل أنها المعروفة الآن باسم جبل سن البشر. وهناك يعانى الخارجون من الجوع رغم ما نعلمه من وجود السوائم معهم، وفسرناه بأوامر بعدم أكل اللحم، لذلك كان اعتراض الخارجين على موسى وهارون يقول: " ليتنا متنا بيد الرب فى مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع / خروج ١٦ / ٣ ". وهنا تأتى معجزة جديدة تستمر مدة طويلة تتمثل فى طعام المن وطيور السلوى التى قدمنا بشأنها التفسير، ونضيف هنا ما اكتشفه بودينسها يمر عام ١٩٢٧م فى سيناء لصنف من الإثل يفرز فى الربيع سائلا حلو المذاق، سرعان ما يجف ويتحول إلى كرات بيضاء تشبه حبات البرد فور تعرضه للهواء، وإذا حرق يعطى تبخيراً طيب الرائحة. وحتى اليوم ينطلق بدو سيناء مع بداية الربيع فى جماعات كبيرة لجمع تلك الكرات، وبإمكان الشخص الواحد أن يجمع حوالى كيلو ونصف جرام فى اليوم، وهى كمية كافية لتغذية فرد ليوم واحد أو يومين. ويبدو أن موسى كان يعرف القيمة الغذائية لهذا المن ^(١٥) . أما السلوى فقد عرفناه طائر السمان / الزقراق / المهاجر .

- ارتحلوا من بركة سين إلى موضع باسم دقفه (عدد ٣٣ / ١٢) والتى نحققها بموضع (عين الفوقية) الآن إلى الجنوب من جبل سين البشر، ومن هناك ارتحلوا إلى موضع باسم الوش (عدد ٣٣ / ١٣) لم يتمكن من تحقيقه. وإن كنا نظنه موقع سرايط الخادم الآن.

□ ارتحلوا من الوش إلى رفيديم (عدد ٣٣ / ١٤)، وقد عثرنا إبان رحلتنا التتقيبية على ثلاثة مواضع باسم رفيه، فهناك على التجاور وادى رفيه وجبل رفيه وبئر رفيه وجمعها العبرى (رفيديم)، وتقع هذه الرفيات أو رفيديم فى صحراء الطور إلى الجنوب الشرقى من وادى مكتب ووادى فيران. وهناك تحدث مشكلة عدم وجود الماء مرة أخرى، فنجد أعجوبة أخرى لم تنزل إلى الآن من الأمور الاعتيادية، فيضرب موسى الأرض بعصاه فتنبجس بالمياه عيوننا (خروج ١٧/١)، وبدو اليوم يمارسون ذلك أيضاً لأنهم يعلمون أن مياه الأمطار تتجمع عند سفوح الجبال تحت شريط رملى متماسك، وهو التماسك الذى ينشأ من رطوبة الماء تحت الرمل، ويكفى فى هذه الحال طرقه بأداه صلبة لتنبجس المياه من تحته.

(١٥) كاسيدوفسكى الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١١١ ، ١١٢ .

وعند ريفديم تأتى جماعات العمالقة لتدخل معركة مع الخارجين ينسحب العمالقة بعدها.

□ يرتحلون من ريفديم إلى برية سيناء (خروج ١٩ / ١) ليجدوا جبل سيناء يرتجف بالزلزلة والدخان والنار (خروج ١٩ / ١٨)، ويبدو أن المصريين كانوا قد أقاموا هناك تمثالا عظيما من الفيروز (الحجر الأزرق الصافى وهو من أحجار سيناء المشهورة)، ربما كان للاله حور أو للاله سيت، لأن نص التوراة يحدثنا عن كون موسى أخذ معه سبعين من شيوخ إسرائيل وصعد بهم الجبل ليشاهدوا رب البركان، ربهم، لأن جبل سيناء هو جبل الله حوريب المقدس، وتقول التوراة: " ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل، تحت رجله شبه صنعه من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل، فرأوا الله / خروج ٢٤ / ٩-١١".

وفى موقع برية سيناء / جبل الله حوريب / كاترين وموسى الآن / يصعد موسى الجبل وسط ضباب البركان ليأتى بالأواح الشريعة المكتوبة بإصبع الله، ويغيب هناك أربعين ليلة يزوغ أثناءها الخارجون عن ربهم ويعبدون العجل الذهبى الذى صنعه هارون ويرقصون حوله عراه، فيغضب موسى ويكسر الألواح، ويضربهم يهوه بالموت فى تعبيرة ومسه وقبروت هتأوت، على مسيرة ثلاثة أيام من الجبل (عدد ١٠ / ٣٣). وفى ذات المواقع يأتى الأمر الإلهى بصناعة تابوت العهد الذى سينزل الرب ليسكن فيه ويحملونه معهم فى ارتحالاتهم. ونظننا قد تمكننا من تحقيق موضع قبروت هتأوت أى المقابر بموقع بئر الرقبة وجبل البرقة الآن إلى الشمال الشرقى من جبل كاترين على الجانب الأيسر لخليج العقبة.

□ بعد ذلك يصل المرتحلون إلى محطة باسم حضيروت (عدد ١١ / ٣٥) وهناك تذمر مريم وتحمل حملتها هى وهارون على موسى اعتراضا على زواجه من امرأة كوشية زنجية، وهو ما أغضب يهوه على مريم فأصابها بعدوى البرص (عدد ١٢ / ١ - ٩). وقد أمكننا تحقيق حضيروت بموضع الحضيرة الآن شمالى جبل البرقة وجنوبى وادى وتير الحالى .

□ يمرون بعد ذلك بعدد من المواقع أمكننا تدقيق بعضها ولم نتمكن من تحقيق أغلبها وهى على الترتيب: رثمه (عدد ٣٣ / ١٨)، ثم رمون فارص (عدد ٣٣ / ١٩)، ثم لبنه (عدد ٣٣ / ٢٠)، ثم رسه (عدد ٣٣ / ٢١)، ثم قهيلاتة (عدد ٣٣ / ٢٢) وربما كانت هى وادى القهلت أو القلت الآن بين إيلات والشم. ثم جبل شافر (عدد ٣٣ / ٢٣) ثم حراده (عدد ٣٣ / ٢٤) ثم مقهيلوت (عدد ٣٣ / ٢٥) ثم تاحت (عدد ٣٣ / ٢٦) ثم تارح (عدد ٣٣ / ٢٧) ثم مثقه (عدد ٣٣ / ٢٨) ثم حشمونه (عدد ٣٣ / ٢٩) ثم مسيروت (عدد ٣٣ / ٣٠) ثم بنى يعقان: ثم حور الجد جاد (عدد ٣٣ / ٣٢).

والواضح أن كل تلك المراحل من خط السير كانت تقع على الساحل الغربى لخليج العقبة لأنها تنتهى عند قمة خليج العقبة فى موضع باسم يطبات (عدد ٣٣ / ٣٣) ويوجد بهذا الاسم عدد من المواقع هناك مثل طوبيه وطابا ويطبات، والأغلب أن المقصود بها طوبيه إلى الجنوب من قمة الخليج ببضعة أميال، لأنهم بعد ذلك يمرون بموقع عبرونه (عدد ٣٣ / ٣٤) ثم ميناء عصيون جابر

الذى تذكره التوراة باعتباره يقع على بحر سوف بجوار أيله (إيلات) الميناء المعروف على خليج العقبة (عدد ٣٣ / ٣٥ وتنثية ٢ / ١).

□ ويبدو أنهم كانوا فى مبدأ الأمر يريدون الوصول إلى نقطة حصينة تسمح بإيواء هذا العدد الغفير جنوبى فلسطين حتى يقرروا قرارهم بدخول فلسطين من جنوبها أم من شرقها، وكانت تلك المنطقة المختارة هى قادش برنيع / عين مشفاط عدد ٣٣ / ٣٦ التى تم تحقيقها بعين قديس الحالية عند بركة صين وبريه فاران اللتان حققتهما ببرية تسين وبرية باران الحاليتين. ومن قادش بعد ثمان وثلاثين عاما تخللتها صراعات واتفاقات بين أهل مديان وبين الخارجين، تقرر عبور بلاد آدوم من عند العقبة وعصيون جابر دون أية صراعات أو معارك، مما يشير إلى التحالف القرابى بين الجميع، ومن هناك يعبرون بلاد موآب ثم عمون إلى جبل نبو شرقى الأردن مقابل أريحا، حيث تزعم التوراة موت موسى هناك (عدد ٣٣ / ٤٧)، وكان هارون قد مات قبله ودفن فى جبل هور (عدد ١٤ / ٢٢) الذى يحمل أيضاً اسم جبل موسى (تنثية ١٠ / ٦). وبعدها يقودهم يشوع عابراً نهر الأردن من شرقيه إلى غربه لفتح فلسطين بادئاً بأريحا.

وهنا تحكى لنا التوراة عن معجزة جديدة بطلها هذه المرة يشوع بن نون خليفة موسى، فقد كانت أريحا قلعة حصينة يحيط بها سور قوى منيع يقف عقبة كؤد إزاء أى طامع، وهنا تروى التوراة أن يشوع قام بعملين معجزين الأول عند عبور نهر الأردن والثانى عند اقتحام أريحا.

والمعجزة الأولى هى تكرار لمعجزة فلق البحر الموسوية، فقد أمر يشوع باختيار اثنى عشر رجلاً يمثلون الأسباط ليحملوا تابوت العهد على أكتافهم ويخوضوا به فى ماء الأردن، وعندما فعلوا ذلك "وقفت المياه المنحدرة من فوق، وقامت نداً واحداً بعيداً جداً عن آدام المدينة التى إلى جانب صرتان، والمنحدرة إلى بحر العربية (البحر الميت/ المؤلف) بحر الملح، انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا / يشوع ٣ / ١٦، ١٧".

ولو افترضنا أن ذلك قد حدث فإن تفسيره شديد السهولة واليسر وقائم حتى الآن، لأن مدينة آدام التى يشير إليها النص هى داميح الحالية على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الشمال من أريحا. وهى التى تضع بيدنا مفتاح التفسير، لأن معنى ذلك أن يشوع لم يعبر مباشرة برجاله من أمام أريحا إنما اختار هذه النقطة البعيدة بمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الشمال ليعبر منها النهر. والسبب أنه عند داميح / آدام يضيق مجرى الأردن بين جدارين من الأرض، ويغلب على تركيب الجدارين الجير مع الطين الهش. وهناك ودوما تحدث انهيارات مفاجئة مع أى قلقلة أو اهتزازات أرضية، وكان آخر الأحداث من هذا النوع عام ١٩٢٧م عندما توقف ماء الأردن وانقطع عند هذه النقطة لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة نتيجة انهيارا جرف داميح^(١٦)، وكثيراً ما عجبنا لماذا أمر يشوع رجاله جميعاً. حسب رواية التوراة - بالاصطفاف فى

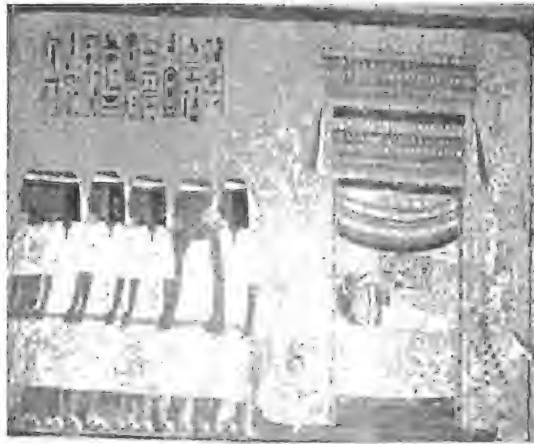
(١٦) نفسه: ١٥٨.

هذه النقطة مع دق الأرض بالأقدام دقات عسكرية شديدة، كانت كافيه لزلزلة الجرف وانقطاع ماء النهر وحدث المعجزة.

أما المعجزة الثانية فكانت حول حصون أريحا عندما أمر يشوع رجاله قائلاً: " تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق، ويكون عند امتداد قرن الهتاف عند استماعكم صوت البوق، أن جميع الشعب يهتف هتافاً عظيماً فيسقط سور المدينة في مكانه / يشوع ٦ / ٤ ، ٥ ."

وإن المرء ليسأل نفسه في دهشة عن الحكمة في دوران جيش هائل حول مدينة محصنة مطمئنة سبع مرات، والكهنة ينفخون الأبواق، والجيش يهتف بصوت عال قوى، وعلاقة هذا كله بسقوط السور المفاجئ، اللهم إلا إذا كان هذا كله لإلهاء حراس الأسوار وإلقاء الرعب والذعر بين سكان أريحا، مع التغطية على عمل عسكري حقيقى يتم تحت ستار من الهرج والمرج والأصوات المفزعة في خفاء الغبار الذى يثيره دوران المهاجمين حول القلعة.

ونحن نعلم من نقوش الرافدين القديم أن الآشوريين قد ابتدعوا أسلوباً فريداً لتفجير الأسوار الحصينة قبل اكتشاف النار اليونانية / البارود، فكان المهاجمون يشغلون المدافعين بالأصوات والحركات التى لا تعنى شيئاً بينما يتسلل بعض الفدائيين ويحفرون حفراً طويلة عميقة تحت الأسوار، يضعون فيها جذوع أشجار سريعة الاشتعال، تتفسخ وتفرقع عند إضرام النيران فيها فتتهار الأسوار ^(١٧). وهكذا فتح الخارجون أريحا.



الموكب الجنائزى فى قاعة دفن توت عنخ آمون (الكهنة يسحبون التابوت)
شكل رقم (١١٠)



الإلهات الحامية للتوابيت المصرية حولوا إلى كروبيين
شكل رقم (١١١)

(١٧) نفسه: ١٥٩ .

الجزء الرابع

جغرافية الخروج

مدينة رعمسيس ذلك اللغز الكبير!؟

كان آخر ملوك الهكسوس على مصر هو الملك أسيس الملقب بلقب أبو فيس الثانى، وذلك حسبما ورد عند يوسفوس نقلا عن المصرى مانيتو، وهو ما طابق قائمة الملوك المعروفة باسم بردية تورين. وهو الملك الأخير من الحكام الأجانب وقلنا أنه قد بدأت الثورة ضده من طيبة بقيادة الملك سقنن رع وولديه كامس ثم أحمس، كما زعمنا أن الفصل الإسرائيلي ضمن التحالف الآدومى الكبير، قد دخل مصر زمن الملك أسيس تحديداً. وأن قصة يوسف والسبع سنوات العجاف قد وجدت ترديد صداها لدينا فى تحويل فراغنة طيبة لمجرى نهر النيل عند التقافه منحنى قنا الحالية. وحسب القصة التوراتية تمكن يوسف ببراعة إسرائيلية من الوصول إلى الخطوة الملكية فصار وزيراً لخزانة الهكسوس فى مصر. ثم تمكنت الثورة المصرية من الإطاحة بالاحتلال، ليقاب الزمان لبنى إسرائيل وجهاً آخر، تمثله بصدق - وتطابق على صدقنا آيات - التوراة إذ نقول:

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف ..

فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلّوهم بأنقالهم، فبنوا

لفرعون مدينتى مخازن: فيثوم ، ورعمسيس .

خروج ١ / ٨ ، ١١

النص يقول إن ملكاً جديداً قد قام على حكم مصر، وهو أمر طبيعى، وربما يعنى موت الملك السابق أسيس ومجيئ ملك جديد، لكن النص هنا يحمل دلالات أخرى، لأنه لو كان الأمر قد سار على الوتيرة المنطقية للأحداث لكان ضروريا أن يعرف الملك الجديد الذى نشأ بالبلاط وعينه وارتنى فيه المناصب، من هو يوسف ومن هم أهله؟ خاصة أن يوسف كان يشغل أحد أهم المناصب الكبرى فى الدولة. لكن النص يقول إن هذا الملك الجديد ليس فقط لم يكن صاحب علاقة مباشرة بيوسف، أى أنه جاء من خارج البلاط الحاكم المعروف ليوسف حينذاك، بل جاء وهو يحمل ليوسف وأهله ضغينة شديدة فاستعبدهم وسخرهم فى بناء مدينتين للمخازن الأولى باسم فيثوم والثانية باسم رعمسيس.

لقد قالت التوراة ذلك قبل اكتشاف حجر رشيد وفك رموز اللغة الهيروغليفية بقرون بعيدة، لكننا قد أصبحنا نعرف الآن من علوم المصريات الحديثة مصداقية تلك التسميات، لأن فيثوم هى (بر - آتوم) أو بالنطق الملتبس بالسامى (بى - توم) بإسقاط حرف الراء المعترض والنقل، و(بر) أو (بى) أو (فى) تعنى المقر أو البيت أو المعبد أو المسكن أو الفم أو المصب أو أول الطريق أو نهايته فهى دلالة مكانية على الإطلاق، فهى بهذا المعنى تصبح (مقر آتوم) وآتوم هو الإله المصرى المعلوم الشأن، هكذا أخبرنا أصحاب

علم المصريين عن مدينة (فيثوم) أو (بى توم). أما (رعمسيس) فهي لاشك تلك التى كشف عنها علم المصريين الحديث فى المدونات المصرية التى تذكرها باسم (بررعمسيس) أو (بى رعمسيس) أو (بى رعسمه) بحذف (ى س) وهو التصريف اليونانى المعلوم للأسماء، و (رع مس يس) هو اسم لسلسلة من الفراعين حكموا مصر بدءاً من الأسرة التاسعة عشرة باسم سلالة الرعامسة، وبإسقاط حرف (ع) بالتخفيف يصبح الاسم هو (رمسيس) المتداول حتى الآن كسمى بين المصريين الأقباط بالذات. وإن أكد لنا المصروولوجيون أن مدينة رعمسيس يجب أن تنتسب تحديداً للفرعون العظيم المحارب وعاشق المعمار الذى لم يترك مقاطعة فى مصر إلا وترك فيهما أثراً باسمه والمعروف باسم (رمسيس الثانى) وهو والد الفرعون مرنبتاح صاحب لوح إسرائيل المشهور. وبسبب ذلك اللوح تم استنتاج أن رمسيس الثانى كان هو فرعون الاضطهاد الذى سخر الإسرائيليين الأسرى بمصر فى أعماله الإنشائية الكبرى، أما ولده مرنبتاح فكان هو فرعون الخروج الإسرائيلى من مصر زمن النبى موسى.

لكن من جانبنا قد وضعنا فرضاً دعمناه بالقرائن والبراهين أن هذا الخروج قد حدث تحديداً مع لحظة سقوط الفرعون آمنحتب الرابع المعروف باسم إخناتون، قبل أول أيام حكم رمسيس الثانى بما يزيد على ستين عاماً من الزمان وبما يزيد على بدء حكم مرنبتاح بحوالى ١٢٦ عاماً، وتصبح تسمية مدينة الاضطهاد باسم رعمسيس مشكلة حاول أن يحلها أحمد عثمان بنسبة المدينة إلى الضابط رعمسيس بعد أن رفض النظرية التى تربط بين الاستعباد وبين رمسيس الثانى، والضابط رمسيس الذى يقصده هو رمسيس الأول الذى تولى مناصبه زمن العمارنة ثم حكم بعد سقوط أسرة العمارنة وانتهاء حكم حور محب مؤسس الأسرة ١٩. لكنه فى رأينا كان حلاً شديداً للعسف والتكلف، لأنه من الصعب تصور مدينة مصرية كبرى تنسب فى نشأتها واسمها إلى ضابط صغير لم يكن متوقعاً ماذا سيكون مستقبله حين نشأتها. ومن ثم نتصور من جانبنا أن ما حدث هو أن المحرر التوراتى قد ذكر المدينة بالاسم الذى كان قد استقر وأصبح مشاعاً معلوماً حتى زمن تدوينه ذلك النص، وهو ما ذهب إليه باحث رصين مثل فراس السواح إذ يقول: " فى الحقيقة إن أرض رعمسيس ومدينة رعمسيس مما ورد ذكره فى سفر الخروج مسألة لايمكن الاعتماد عليها فى تحديد زمن الخروج، لأن المحرر التوراتى قد استخدم اسم أرض رعمسيس فى الإشارة إلى منطقة الدلتا منذ أيام يوسف أى قبل بناء مدينة رعمسيس بحوالى خمسمائة سنة [أى قبل زمن رمسيس الثانى بفرض أنه هو باني المدينة / المؤلف]. وهذا يعنى أن المحرر التوراتى الذى كان يكتب سفر الخروج فى فترة متأخرة من الألف الأول قبل الميلاد، قد استخدم الاسم الذى يعرفه لمنطقة الدلتا بصرف النظر عن ارتباط هذا الاسم بفترة تاريخية معينة ". (١)

وبهذا المعنى أجرى (روبنسون) أبحاثه وانتهى إلى القول: " لعل ذكر بيثوم Pithom ورعمسيس تفسير متأخر من كتاب القصة، وأن القصة فى صورتها الأصلية لم تسم هذه المدن " (٢).

(١) السواح: آرام .. سبق ذكره ، ص ٧٥ .

(٢) روبنسون: إسرائيل فى ضوء .. سبق ذكره، ص ١٠٧ .

وبالفعل فإنك تجد تسمية رعمسيس لموضع سكنى الإسرائيليين بمصر يبدأ مبكراً جداً وليس متأخراً مع الاضطهاد وظهور موسى، فقد كانت المدينة موجودة زمن يوسف، وزمن الدخول إلى مصر. وإذا كنا قد أكدنا أنه دخل زمن الهكسوس فهو ما يعنى أنه دخل عاصمة الهكسوس المصرية حواريس قبل أن يحكم مصر أى فرعون باسم رمسيس، لكن المحرر المتأخر عندما كتب القصة كتب اسم المدينة المتداول (رعمسيس) وهو الاسم الذى كان متداولاً حتى عهده، وهو ما يعنى أن رعمسيس هى ذات عين حواريس الهكسوسية، والنص المقصود هو الذى يقول:

فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض
مصر، فى أفضل أرض مصر، فى أرض رعمسيس،
كما أمر فرعون.

تكوين ٤٧ / ١١

هذا عن الترجمة العربية عن النص العبرى المازورى، أما النص السبعونى اليونانى فيورد ذات الكلام مطابقاً مع اختلاف وحيد لكنه تأسيسى فى كلمة واحدة هى اسم المدينة التى سكنها الإسرائيليون فى مصر، فبدلاً من رعمسيس تأتى التسمية اليونانية (هيروبوليس) والتى تترجم عادة ترجمة اعتباطية بمعنى (مدينة الأبطال). فهل كانت مدينة حواريس الهكسوسية هى بالتحديد التى حملت بعد ذلك اسم مدينة رعمسيس وأطلق عليها اليونانيون اسم هيروبوليس؟ أم أن هذه غير تلك غير الأخرى؟ هذا لغز أول حول التسمية، ناهيك بعد ذلك عن تحديد الموضع الجغرافى التدقيقى، وفيه من الفروض والأقوال ما لم يلتق أبداً مع بعضه البعض.

والتوراة تضع مدينة رعمسيس وجارتها مدينة فيثوم أوبى توم كمدن رئيسية ضمن مقاطعة كبيرة تسميها جاسان فنقول:

وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان،
وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً

تكوين ٤٧ / ٢٧

ثم لتزيدنا التوراة التباساً تعطينا اسماً آخر للمدينة التى سكنها الإسرائيليون بمصر هو كما فى النصوص:

قدام آبائهم صنع أعجوبة فى أرض مصر، بلاد
صوعن. شق البحر فعبدهم ونصب المياة كند .. جعل

فى مصر آياته وعجائبه فى بلاد صوعن .

مزامير ٧٨ / ١٢ ، ١٣ ، ٤٣

وهنا لا تدرى هل تقصد التوراة بصوعن مدينة رعمسيس أم مدينة فيثوم، والمشكلة أن اسم صوعن هذا كان فيما يبدو اسما قديما لإحدى المدينتين، فقد ورد فى قصة التوراة زمن إبراهيم، وهو زمن تواجد الهكسوس على سدة العرش المصرى، فيقول النص:

وأما حبرون فبنيت قبل صوعن مصر بسبع سنين .

عدد ١٣ / ٢٢

ونحن قد علمنا فيما أسلفنا أن حبرون هى الخليل اليوم، وأنها كانت أحد المقار الرئيسية للعمالقة، ذلك الفرع الأعظم فى حلف الهكسوس، وهو ما يمكن أن يستنتج منه أن الهكسوس قد غزوا مصر وأنشأوا مدينة صوعن بعد تأسيسهم مدينة حبرون بسبع سنين، بعد أن استقرت لهم الدولة الكبرى فى بلاد شرقى المتوسط. وعليه فقد استُعيد الإسرائيليون فى بناء مدينتين الأولى باسم رعمسيس والثانية باسم فيثوم، وأن أحدهما كانت تحمل اسم صوعن، والترجمة السبعونية تستبدل مدينة رعمسيس باسم هيروبوليس، وأن كلا المدينتين كانتا تقعان ضمن مقاطعة كبيرة باسم جاسان.

ولتضييق مساحة البحث عن مقاطعة أو إقليم جاسان نقول إنها لابد تقع فى أطراف الدلتا الشرقية على البوادر المتصلة مع سيناء، وأنها لا تبعد عن حدود مصر مع سيناء أكثر من سفر يوم واحد وهو الزمن الذى استغرقه يوسف ليغادر القصر الحاكم ليستقبل والده وأهله على الحدود.

والآن نبدأ بعرض ما وقعنا عليه من أهم المحاولات العلمية لتحديد تلك المواقع الجغرافية على خريطة دلتا مصر الشرقية، لنرى إلى أى حد تضاربت الآراء حول تحديد مواطن سكنى الإسرائيليين بمصر، وحول أشهر مدينتين مصريتين فى التاريخ التوراتى .

أهم نظريات الخروج

نظرية عالم الحملة الفرنسية (دى بوا - إيميه)

لم يكن لدى ذلك العبقري الفذ سوى شذرات متناثرة مما ورد فى تأريخ المؤرخين الكلاسيك وبخاصة يوسفوس الذى نقل عن مانيتو المصرى، إضافة إلى رواية التوراة، ولم يكن هناك أدنى معرفة علمية بمصر القديمة سوى الذكريات الباهتة التى اكتسبت كثيرا من الإضافات والحذف، ولم يكن حتى حجر رشيد مفتاح اللغة المصرية قد اكتشف بعد حين سجل الرجل نظريته الفريدة والرائعة حقا.

ولأن رواية مانيتو تقول بفتنة شخص اسمه أوزرسيف زمن فرعون باسم أمنوفيس / آمنحتب فقد قام (دى بوا إيميه) بمزج ما وصله من تأريخ الكلاسيك القدماء برواية التوراة ليضع سيناريو للأحداث مصدقا بالتوراة، وأن موسى قد ولد بين الإسرائيليين المستعبدين فى مصر، وألقت به أمه فى اليم زمن الفرعون آمنحتب ليجرفه التيار إلى قصر الفرعون، فتتقذه ابنة الفرعون وتحسن إليه وتتنياه وتأمر بتعليمه كل حكمة المصريين وعلومهم. فنشأ موسى نشأة مصرية كاملة، لكن يبدو أن تلك التى تبنته قد ماتت ففقد الحماية، ثم فى لحظة غضب قتل مصريا فطارده القصاص القانونى المصرى، فهرب إلى عرب مديان عند خليج العقبة. وهناك عند جبل حوريب المقدس جبل الإله حسب نص التوراة، واصل التأمل ليضع خطة كبرى لمشروع عظيم، وعندما علم بموت الفرعون آمنحتب قرر العودة إلى مصر، وذهب يدعو بنى جلدته المستعبدين هناك للهروب من تلك العبودية إلى آفاق الحرية. وبسبيل ذلك ابتدع للفرعون قصة مختلقة وهى أنه مع شعبه لديهم مناسبة مقدسة سنوية، يذبحون فيها حيواناً مقدساً لدى المصريين، لذلك يحتاجون إلى مغادرة المدينة إلى الصحراء لمدة ثلاثة أيام يقيمون فيها احتفالياتهم ثم يعودون، بينما كان موسى يضمم الهروب بشعبه. كان يريد مجرد الخروج الآمن من المطاردة بتلك الحجة، وأن الأيام الثلاثة كفيلة بقطع مسافة تجعل اللحاق بهم صعبا عندما يكتشف المصريون الخدعة. لكن الفرعون (فيرون ابن سيزوستريس) رفض ذلك، فى الوقت الذى تصادف فيه حدوث بعض الكوارث الطبيعية فى مصر، فتطير الفرعون شراً وتصوره غضبا إلهيا بسبب عدم إطلاقه الإسرائيليين فدعا موسى وهارون وأعطاهما تصريحاً بالخروج^(١)، أو بحسب النص التوراتى :

(١) دى بوا إيميه: الدراسة السادسة والسابعة من كتاب وصف مصر ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤ ، ج٣، ص ٣٢٧ : ٣٦٧ .

فدعا (أى فيرون ابن سيزوستريس/ ولاحظ أن آمنحتب هنا اسمه سيزوستريس كما سبق واستتجنا)
١١ فدعا موسى وهارون ليلا وقال: قوموا **اخرجوا** من بين شعبي أنتما وبنى إسرائيل جميعا، اذهبوا واعدوا

الرب كما تكلمتم، خذوا غنمكم أيضاً وبقركم كما تكلمتم واذهبوا / خروج ١٢ / ٣١ ، ٣٢ .١١

ومن (رعسيس) مدينة الاستعباد قادهم موسى فى رحلة طويلة نحو فلسطين عبر البوادي السينائية الكبرى، وكانت أول محطة استراحة بعد الخروج من رعسيس باتجاه فلسطين تلك تذكرها التوراة باسم (سكوت)، أو بنص التوراة :

فاتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سكوت نحو ستمائة
ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير
أيضاً، مع غنم وبقر ومواشى وافرة جداً.

خروج ١٢ / ٣٧ ، ٣٨

وبعد ذلك ارتحلوا عبر عدة محطات حتى لحظة العبور الإعجازى من البحر فيما ترويه التوراة قائلة:

وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى طرف البرية .. وكلم الرب
موسى قائلاً: كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم
الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون .. ومد موسى
يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل
الليل، وجعل الرب البحر يابسة، وانشق الماء، فدخل بنو
إسرائيل وسط البحر .. وتبعهم المصريون فقال الرب
لموسى/ مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين ..
فدفع الرب المصريين فى وسط البحر .. ثم ارتحل موسى
بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور

خروج ٢/١٣ و ١٢/١٤، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ و ١٥ / ٢٢

ويرى دى بوا إيميه أن أرض جاسان بمدينتيها فيثوم ورعسيس تقع فى النهاية الشرقية لودى
طميلات الممتد من الدلتا نحو الشرق حتى بحيرة التمساح ثم البحيرات المرة. وأن المدينة التى خرجوا منها
تقع قرب السبع أبيار على رأس بحيرة التمساح فى موقع تل المسخوطة الحالى، وأنهم ساروا من هناك عدة
محطات حتى عبروا البحر من عند منطقة تقع إلى الجنوب من المسخوطة بجوار مدينة السويس الآن على
رأس خليج السويس الذى كان يعرف بالخليج العربى حتى زمن دى بوا إيميه. ويرسم لنا سيناريو الأحداث
فيقول أن الركب كان متجها فى البداية نحو الطريق المباشر إلى فلسطين، وهو الطريق الذى نعلم اليوم أنه

كان باسم طريق حورس الحربى، لكنه خشى المرور بهذا الطريق فيقترب من فلسطين ويتعرض لهجوم مباشر من سكانها، لذلك سار برجاله جنوباً ليخفى - أيضاً - عن المصريين نيتهم فى الهرب وليوهمهم أنه يبحث فى الصحارى عن مكان بعيد للاحتفال الدينى، فقام يقودهم بالتقافة طويلة نحو بلاد أنسبائه سكان مديان بشرقى سيناء.

ويضع دى بوا إيميه تصوراً لجغرافية المنطقة زمن الخروج، فيرى أن الخليج العربى / السويس الآن، كان يمتد زمن الخروج ليلتحم بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح حيث السبع أبيار، مدلاً على ذلك بعدد وافر من القرائن المفترضة، وأهمها ما جاء فى عرضه التالى:

١١ يقع الطرف الشمالى للبحر الأحمر (يقصد خليج السويس) على بعد ستة أو سبعة آلاف متر إلى

الشمال من مدينة السويس. وفيما وراء ذلك ثمة حوض ينتهى بعد حوالى ستين ألف متر إلى الشمال من هذه المدينة، ويبلغ أقصى اتساع لهذا الحوض ١٢ : ١٥ ألف متر، ويضيق كثيراً عند الجنوب .. هذا الحوض .. يدل على أن البحر كان يغمره فيما مضى فهناك يعثر المرء على طبقات الملح البحرى، تتخذ فى بعض المناطق شكل القباب .. وعلى عمق أربعة أو خمسة أمتار مياهنا نتعرف فيها على نفس مذاق مياه البحر. وفى مناطق أخرى نجد الأرض موحلة، ونعثر هنا وهناك على مستنقعات من مياه مالحة .. والأرض فى هذا الحوض تغطيها القواقع وتنخفض عن سطح البحر إلى حد كبير (بالحاشية: يبلغ الفرق فى أماكن عديدة من ١٢ : ١٥ متراً). وعلى الرغم من ذلك لا يفصلها عن البحر سوى كتلة من الرمال يبلغ عرضها من أربعة إلى خمسة آلاف متر .. ونلمح فوق التلال المحيطة به (أى بالحوض) خطا يتكون من مخلفات نباتات بحرية تشبه تمام الشبه ذلك الأثر الذى تتركه البحار فوق الشواطئ. لكن ما يلفت النظر بشكل كبير هو أن هذا الخط يوجد على نفس مستوى المد العالى للخليج العربى ^(٢) .. بوضوح نحن هنا بصدد أرض كانت تغطيها فيما مضى مياه البحر .. وأن ترعة القدماء تلك التى يتحدث عنها هيرودت وبلين واسترابون .. إلخ [يقصد القناة المعروفة باسم قناة سيزوستريس التى كانت تصل النيل بخليج السويس / المؤلف] كانت تنتهى عند الطرف الشمالى للحوض الذى انتهيت لتوى من تحديده ^(٣) [أى أن ترعة سيزوستريس كانت لا تصل لقمة خليج السويس الحالى عند مدينة السويس / القلزم قديماً / المؤلف].

إنما كانت تأتى بماء النيل من شرقى الدلتا لتصل حتى تل المسخوطة قرب الإسماعيلية الآن، حيث كانت نهاية رأس خليج السويس / الخليج العربى فى ذلك الزمان قبل أن ينسحب بالتدريج جنوباً عبر السنوات ليتوقف عند السويس الآن.

وكى يزيد دى بوا إيميه فى تدعيم نظريته العبقريّة، يعتمد إلى ما جاء عند بليني بالفصل ٢٧ من الكتاب السادس إذ يقول عن القناة التى نهض بإتمامها سيزوستريس لتربط النيل بالخليج العربى على البحر

(٢) لاحظ أن خليج السويس ظل يحمل اسم الخليج العربى حتى زمن الحملة الفرنسية.

(٣) دى بوا إيميه: الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدراسة الأولى من وصف مصر، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

الأحمر كانت تبلغ حوالى ٦٢ ميل / ٩٣ كم، وفى تاريخ هيرودت الكتاب الثانى الفصل ٥٨ أن هذه القناة كانت تتفرع من الفرع البوبابسطى للنيل جنوب بوباسطه بقليل (بوباسطة من أحياء الزقازيق الآن)، وذلك فى المنطقة التى يصنع فيها ذلك الفرع كوعا يتجه نحو الشرق متفرعاً من فرع دمياط الحالى، لكننا لو قسنا الآن المسافة من هذه النقطة حتى رأس خليج السويس الحالى سنجدها ١٣٥ كم وليس ٩٣، بينما المسافة ما بين بوبسطة عبر وادى طميلات حتى مدينة السبع أبيار على بحيرة التمساح تساوى ٩٠ كم كما ذكر بلينى (٤).

وفى الجزء الشرقى من وادى طميلات نجد أنقاضا عظيمة تخلفت عن الأزمان الفرعونية عند موقع بلدة أبو كيشيد، [وهى الآن أبو خشب أو الخشبى أو تل المسخوطة إلى الشرق من أبى صوير بثلاثة كيلو مترات / المؤلف]. ويعتقد دى بوا إيميه أن رعمسيس أوبيتوم التى ذكرتها التورة المازورية هى هيروبوليس التى ذكرتها التورة السبعونية، هى ذاتها مدينة المسخوطة الحالية التى لاشك عنده كانت تقع عند رأس الخليج العربى / السويس عندما كان يملأ حوض البحيرات الحالى، وأن تلك القمة هى بحيرة التمساح الآن مع قرينة أخرى يضيفها لرصيده وهو أن اليونان كانوا يطلقون على البحر الأحمر اسم البحر الأرتيرى، وعلى خليج السويس الخليج العربى مرة، والخليج الهيروبوليتى مرة نسبة إلى هيروبوليس (٥).

ويتأرجح دى بوا إيميه حول كون هيروبوليس كانت هى رعمسيس أو بيتوم، ويذكرنا أن المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين ذكروا مدينة باسم Patumos وهى لاشك عند دى بوا إيميه هى بيتوم هى هيروبوليس هى المسخوطة، حيث ذكر هيرودت أن القناة التى كانت تحمل مياه النيل للخليج العربى كانت تقع عليها مدينة باسم باتوموس.

ولمزيد من التدقيق يقول دى بوا إيميه ١١ ولقد قمنا بتتقيقات عديدة فى حوض القلزم [يقصد المساحة

الممتدة من خليج السويس الآن حتى بحيرة التمساح شمالا]، دون أن نعثر على أقل شقفة طمى، فى حين وجدنا هذا الطمى فى شكل طبقات أفقية فى وادى السبع أبيار ١١ (٦). وإذا كان موطن القلزم الممتد من

السويس حتى البحيرات المرة ليس به سوى آثار مياه البحر المالح، وأن وادى السبع أبيار / طميلات يمتلئ بطمى النيل، فمعنى ذلك أن خليج السويس كان يمتد حتى بحيرة التمساح، وأن قناة سيزوستريس كانت لاتصل إلى السويس الحالية إنما إلى المسخوطة هيروبوليس التى قد تكون بيتوم أو رمسيس عند بحيرة التمساح الحالية.

(٤) نفسه: ص ١٤٠.

(٥) نفسه: ص ١٤٢.

(٦) نفسه الدراسة الثانية، ص ١٦١.

ويؤكد ذلك رفيقه من علماء الحملة الفرنسية المسيوى دى فيليه Divilliers الذى أكدت دراساته أن الماء كان يصل حتى وقت قريب منحدرًا من النيل بشكل طبيعي زمن الفيضان حتى يصل ألسنة كراش عند بحيرة التمساح وعند البلاح إلى الشمال منها (٧) .

ولاحظ دى بو إيميه أن مد البحر الأحمر فى الخليج العربى يعلو فى منسوبه عن منسوب مياه النيل التى كانت تصل هناك كما جمع من معلومات (٨)، لهذا رجع إلى بلينى يستعيد نصه الذى يشرح الجغرافيا قادمة من عند خليج العقبة متجها نحو مصر قائلاً :

بعد خليج إيلانتيك AELANITIQUE [أى خليج إيلات / العقبة الآن / المؤلف]
نجد خليجاً آخر يطلق عليه العرب اسم إيوانت EAANT هناك توجد مدينة الأبطال [يقصد هيروبوليس / المؤلف]، كما توجد هناك .. مدينة قمبيز [كبريت حالياً] التى كان ينقل إليها مرضى الجيش. تأتى بعد ذلك أمة العمالقة Tyres ثم ميناء دانيون Daneon التى أريد أن تبدأ منها حتى الدلتا ترعة ملاحية يبلغ طولها ٦٢ ألف قدم هى المسافة بين النيل والبحر الأحمر. وكان أول من فكر فى هذا المشروع سيزوستريس ملك مصر ثم داريوس ملك الفرس وبعد ذلك بطلميوس الثانى الذى أمر بحفر ترعة تصل إلى البحيرات المرة يبلغ عرضها ١٠٠ قدم وعمقها ٣٠ قدم فى حين يبلغ طولها ٣٧٥٠٠ قدم، لكن بطلميوس لم يتم مشروعه، خشية غرق المنطقة، إذ وجد أن مستوى البحر الأحمر يعلو بمقدار ثلاثة أذرع عن مستوى سطح أرض مصر.

وإن كان ثمة تفسيرات مخالفة عند الآخرين، حيث يرى هؤلاء أن بطلميوس قد خشى أن يتلف البحر مياه النهر إذا صبب الأول مياهه فى النيل وهى المياه الوحيدة القابلة للشرب وتؤدي هذه الطرق المختلفة إلى مدينة أرسينويه التى أطلق عليها اسم أخته، وهذا الحاكم هو أول من أخضع Troglodytiques أى سكان الكهوف (٩) (يبدو لنا أن بطلميوس هذا قام بحملة على بلاد الأنباط / بنط / أدوم / المؤلف) .

ويلخص دى بوا إيميه تلك النتائج التأسيسية فى قوله:

أما عن مدينة هيروبوليس ولعلها هى نفسها مدينة أفاريس (حواريس عاصمة الهكسوس بمصر / المؤلف)، فإننى مُصّر على أن أضعها فى نفس المكان الذى تشغله اليوم أبو كيشيد (المسخوطة) .

(٧) نفسه: ص ١٦١ : ١٦٣ .

(٨) نفسه: ص ١٦٩ .

(٩) نفسه: ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

ثم يعقب في الحاشية قائلاً :

أوضحت في مذكراتي عن الحدود القديمة للبحر الأحمر رأى البعض ممن يرجحون أن تكون هيروبوليس هي التي تشير إليها التوراة باسم بيتوم Pithom ، والراجح أن المدينة التي أسماها العبرانيون باسم بيتوم كانت هي تلك التي أطلق عليها الإغريق اسم باتوموس Patoumos وأطلق عليها الرومان اسم توم Thoum .. وهذه الاعتبارات المختلفة تفسر بطريقة بالغة اليسر لماذا كانت تلتبس هيروبوليس في روايات الأقدمين على الدوام في المنطقة التي كان ينتهي إليها الخليج العربي باتجاه مصر (يقصد عند السويس الآن / المؤلف) (١٠) .

ويسير دى بوا إيميه مع الخارجين، حيث يتجهون شمالاً بعد تجاوز رأس الخليج العربي القديم عند بحيرة التمساح، حيث أول محطة ذكرتها التوراة باسم (سكوت)، وسكوت عنده هي الكلمة العبرية سيخوت أى المخيمات أو العشش. ومن هناك يعود موسى خشية الحرب مع الفلسطينيين فيتجه برجاله جنوباً بحذاء الشاطئ الغربى للخليج العربى حيث يستريحون فى محطة إيتام ويرى أنها حالياً بير السويس. ومن بير السويس يرتدون غرباً حيث كانت تمتد مياه الخليج نحو المنطقة التى أسمتها التوراة فم الحىروث. ويرى أنها تبعد عن بير السويس غرباً بثلاثة فراسخ وأنها حصن عجروود الحالى بجبل عجروود، ويطابق فم الحىروث أو بالعبرية هـ حىروث وبين ع - جروت أو عجروود ليراهما موضعاً واحداً.

ويرسم لنا دى بوا إيميه جغرافية منطقة العجروود بدقة العالم الحصىف، فىرى هناك كتلة رمال جنوب شرقى العجروود، يسعى وراءها فىجدها تتصل بشكل متقطع بخلج السويس، مع وجود خواص عند تلك النقطةات يشير إلى وجود ماء قديم كثيف، ثم أنها منخفضة عن مستوى الماء بالخلج، وهنا يرى أنها كانت بحيرة تقع فى طرف لسان الخلج من شماله الغربى.

ولما كان موسى قد تربى بحكمة المصريين وعلومهم، فلاشك أنه كان يعرف إمكانات العبور من هذه النقطة سيراً على الأقدام إلى الضفة الأخرى. وكان المد يأتى فىغطى البحيرة فىصلها بالخلج، ثم ينحسر فتصبح بحيرة منفصلة عن الخلج. ووقت وصول الفرعون وجيشه كان المد يغطى البحيرة مما جعل الجيش المصرى ينشد الراحة بعد المطاردة المجهدة وهو يجد الخارجين أمامه مرتعبين محاصرين وراءهم البحر وأمامهم الجيش. ولم يخطر ببالهم أى خشية لافتلات الخارجين، بينما كان موسى يستفيد من دوامات الرمال

(١٠) نفسه: ص ١٧٩ ، ١٨٢ .

والغبار والضباب ليبدأ التحرك مستغلاً أول ساعات الجذر فيتبعه خائضاً برجاله فى البحيرة الجافة، وعندما لاحظ المصريون متأخرين، مؤخرة الإسرائيليين وهى تتسحب نحو الشرق، كان المد التالى قد بدأ فى العودة. ووسط حماس المطاردة دخل المصريون فى المد بسرعة يريدون مسابقة ارتفاعه بالوصول إلى الشاطئ وراء الإسرائيليين، مما قلل من إمكانية بلوغ الشاطئ فى الوقت المناسب وأدى لتراجع الجيش وغرق بعضه وانفلات الخارجين. ويطابق دى بوا إيميه نظريته المتماسكة بالآية التوراتية: ١١ فدخل بنو إسرائيل فى وسط

البحر على اليابسة، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم / خروج ١٤ / ٢٢. ويراها مجازاً صيغ فى

رواية إعجازية تعبر عن حالة جغرافية طبيعية لاعلاقة لها بالمعجزات، فقد عبروا عند مخاضه جانبها بحيرة وجانبها الآخر خليج السويس / العربى وقت الجذر فكانوا يبدون محصورين فى مساحة ضيقة كما لو كانوا بين بحرين أو داخل بحر مفلوق.

لكن علينا أن نلاحظ أن نيبور Niebuhr الرحالة، ولوكليز Leclerc قد سبقا دى بوا إيميه إلى تحديد رأس خليج السويس بالتحديد موقعا للعبور.

المهم يستكمل دى بوا إيميه مشهده الخروج، ويعرج على بعض الظواهر الإعجازية ليجد لها تفسيراً عقلياً مقبولا، ومنها ما جاء فى رواية التوراة يقول:

وكان الرب يسير أمامهم نهراً فى عمود سحب ليهددهم
فى الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضيئ لهم، لكى يمشوا
نهراً وليلاً .

خروج ١٣ / ٢١

وقدم تفسيره بأنه لابد كان هناك بركان يقع فى جبل الله حوريب المقدس بسيناء (كاترين وموسى الآن). وقرأ هذا التفسير على المجمع العلمى الفرنسى الذى انعقد بالقاهرة فى ١٦ من برميير من العام التاسع للحملة الفرنسية، ودلل على وجهة نظره بما يستخدمه البحارة الآن فى مدينة الطور بالخليج العربى من أحجار لحفظ التوازن، وأن هذه الأحجار بركانية، ولاشك مجلوبة من الجبل المقدس. لكن الرجل تراجع عن هذا الرأى بعد التقرير الذى قدمه عالمان آخران بالحملة، قاما بدراسة جبلى كاترين وموسى هما السيدان كوتل Coutelle وروزيير Roziere وأكدوا أنه لا وجود هناك لأى أحجار بركانية وأن الجبال هناك جميعاً جرانيتية تماماً.

وأسقط فى يد عالمنا الجليل لكنه كان يصبر على العقلة، فقام يقدم للآية تفسيراً جديداً بعد سقوط نظرية البركان، فقال إن هذا الإله السحابى النارى ليس سوى الشعلة النارية الضخمة التى يحملها البدو إبان سيرهم جماعات فى الصحارى ليلاً ونهاراً حتى لا يفقد المرتحلون بعضهم، بدليل أن التوراة تؤكد أن دليلهم

فى الصحراء كان شخصا يعرف دروب المنطقة ومن أهلها هو حباب المديانى شقيق صفورة زوجة موسى نظير جعل من المال جعله له موسى، والآية تقول: ١١ وقال موسى لحو باب ابن رعوثيل المديانى حمو موسى : إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم إياه ، اذهب معنا فنحن نحسن إليك .. بنفس الإحسان الذى يحسن الرب إلينا نحسن نحن إليك / عدد ١٠ / ٢٩ : ٣٢ .١١ ولو كان الرب هو الذى يسير أمامهم فما حاجته لرشوه نسيبه ليدله على الطريق فى دروب البوادي السينائية؟

ويعرج دى بوا إيميه على قصة المن والسلوى ويفسر بقوله: إن السلوى هو طائر السمان الذى يتساقط بكثرة فى سيناء نتيجة الإنهاك فى رحلته الفصلية. وقد حدثنا ديودور الصقلى عن مصريين منفين فى عهد اكتيزانيس فى صحراء برزخ السويس كانوا يغتذون من الطيور المهاجرة التى يسهل اصطيادها بعد سقوطها مجعدة. أما المن فما برح يجمع من شجر وفير فى المناطق المحيطة بجبل سيناء. أما النار التى كانت تزحف على خيام الإسرائيليين فى ذلك الجبل وتحرقهم فكان ممكنا تفسيرها بالبركان الذى نفاه السيدان كوتل وروزيير، لكن نتيجة بحثهما دفعت دى بوا إيميه لتفسير آخر قال فيه أن تلك النار كانت ناراً انفجارية مصنعة هى التى عرفها اليونان بعد ذلك باسم النار اليونانية، وبالتأكيد عرفها المصريون قبلهم كأسلوب حربى متطور، ولا شك أن موسى تعلمها من وجوده بالقصر حين كان يتعلم كل حكمة المصريين.

وتبقى من تلك الخوارق الأصوات الهائلة التى كانت تصدر من الجبل المقدس التى لن تكون بركانا بل أصوات رعد ملأت الإسرائيليين البدائيين رعبا وهم يعيشون طفولة عقلية اسمها الإيمان. (١١)

نظرية هنرى بروجش

يعد هنرى بروجش Henirich Brugsch من أبرز المصروlogيين الذين أولوا اهتماما خاصا لمسألة علاقة الإسرائيليين بمصر. وهو من أنصار المدرسة التى توقفت الاستبعاد بزمان رمسيس الثانى والخروج بزمان ولده مرنبتاح. وقد قدم بروجش ما وصل إليه من محاولات تدقيق لموضع مدينة الاستبعاد رعمسيس ونقطة عبور البحر وما هو هذا البحر؟ فى شكل محاضرة ألقاها بحفل المدارس المجانية بالقاهرة عام ١٨٧٩ م. قدم فيها نتائج بحثه فى نقوش وبرديات مصر القديمة وفى التوراة، ورسم فيها تصوره لخريطة الخروج.

يشرح بروجش أن مدينة رعمسيس كانت فى المصرية القديمة (بى رعمسيس) و (فيثوم) هى (بى آتوم) أى بيت آتوم ومدينته. ثم يعمد إلى إيراد موجز سريع لقصيدة ألقاها شاعر مصرى قديم أمام جلاله الفرعون فى حفل افتتاح مدينة رعمسيس. ومن جانبنا قمنا بمقارنة ذلك الموجز مع الأصول فاكتشفنا أن

(١١) نفسه: الدراسة ٦ ، ٧ ، بالجزء الثالث، ص ٣٢٧ : ٣٦٧ .

بروجش قدم مزيجا مختصراً من برديات ثلاث، ورأينا من جانبنا العودة للنصوص الثلاثة الأصلية، بادئين
بالقصيدة الأولى المعروفة بالقصيدة الصغرى فى مديح رعمسيس :

يابنزع محبوب آمون

أنت السفينة الرئيسية

والعصا التى تهشم

والسيف الذى يذبح الشعوب الأجنبية

وحرية اليد.

إنه نزل من السماء وولد فى عين شمس

وكتب له النصر فى كل أرض

ما كان أجمل يوم حضورك

وما كان أجمل صوتك عندما تكلمت

حينما بنيت مدينة رعمسيس محبوب آمون

فهى بداية كل أرض أجنبية ونهاية مصر

هى المدينة ذات الشرفات الجميلة

والقاعات التى تخطف الأبصار

باللازورد والزمرد

والمكان الذى تستعرض فيه فرسانك

وتجند رجالك

وحيث ترسو سفينتك حينما يحضرون لك الجزية

الثناء عليك حينما يأتى عبيدك المختارين من بدو آسيا

وهم رجال وجوههم كاسرة

وأصابعهم محرقة

يتقدمون حينما يرون الأمير واقفا ومقاتلا

لاقدرة للجبال على الوقوف أمامه

وهى تخاف بطشه

يا بنرع محبوب آمون

ستبقى ما بقيت الأبدية

وستبقى الأبدية ما بقيت

وستمكث على عرش والدك رع حور أختي (١٢)

والبردية الثانية ليست قصيدة، إنما تقرير في شكل رسالة مرسلة من كاتب من كتاب البلاط هو (بينبس) إلى
رئيس قلم كتاب القصر (آمنوبى) يقول له فيها:

أن الكاتب بينبس

يرحب بسيد الكاتب آمنوبى

فى حياة وفلاح وصحة

وقد حرر هذا ليكون سيدى على علم به

ترحيب ثان بسيدى

لقد وصلت إلى مدينة بيت رعسيس محبوب آمون

ووجدتها فى غاية الإزدهار

هى عرش جميل منقطع النظير على طراز طيبة

وإن رع هو الذى أسسها بنفسه

فهى مقام تلى فيه الحياة

حقولها مملوءة بكل ما طاب

ولديها مؤن وذخيرة كل يوم

بركها تزخر بالسماك

وبحيراتها بالطيور

حقولها يانعة بالبقل

وشواطئها محملة بالبلح

ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح

فيها الثوم والكراث للطعام

(١٢) سليم حسن: الأدب .. سبق ذكره، ج٢، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

وخس الـ (نقب) جنبنة
وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين من البساتين
وخمر كنكمة اللذيذ الذى يفوق الشهد حلاوة
وفيها سمك وز الأحمر من قناة (نقب)
وسمك بتن من بحيرة (نقب)
وسيهور تنتج الملح
ويستخرج من بحيرة هر النطرون
وسفنها تروح وتجيئ إلى الميناء
وفيها المؤمن والذخيرة كل يوم
وينشرح الإنسان بالمقام فيها
ولا أحد يقول: ليت كذا
والصغير فيها مثل العظيم
تعال، وتعالى تحتفل بأعيادها السماوية
وأوائل فصولها السنوية
إن مستنقعات زوف تنتج لها البردى
وسيهور تمدها باليراع،
وغرائس العنب تأتى إليها من البساتين
وتيجان الأزهار من الكروم
وتجلب إليها الطيور من الماء البارد
والبحر فيه سمك بج وسمك أد
والمستنقعات تهدى إليها (نقب)
وشباب عظيمة الانتصارات يلبسون حلل العيد كل يوم
ورؤوسهم مضخمة بزيت زكى الرائحة
فى الشعر المرجل حديثا
ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالزهور

وبالنبات الأخضر من بيت حتحور

وبالكثان من بحيرة حر ،

فى اليوم الذى يدخل فيه رعمسيس

هو منتو فى كلتا الأرضيين صبيحة عيد كيهك

وعندئذ يدلى كل إنسان بملتمسه

ونسيم عزيمة الانتصارات حلو

وشرابها تبى مثل الفاكهة شاو

وشرابها خيو طعمه كطعم الفاكهة إنو

فهو يفوق الشهد حلاوة

وجعه كدى ترد من الميناء (بلاد كدى بالشام / المؤلف)

والنبذ والكروم والروائح العطرة

يؤتى بها من مياه سيجبين

وتيجان الأزهار من (تقب) جنينة

أما مغنيات عزيمة الانتصارات ذوات الصوت العذب

فقد تعلمن الغناء فى منف

اسكن هناك سعيداً وامشى مرحاً ولا تغادرها

ياوسر مارع المختار من آمون

يامنتو فى الأرض

يا رعمسيس محبوب آمون

أنت أيها الإله (١٣)

ثم نأتى إلى النص الثالث وهو قصيدة فى مديح رعمسيس تعرف بالقصيدة الكبرى، لنستمع إلى الشاعر يقول:

لقد بنى جلالته لنفسه قلعة تسمى :

عزيمة الانتصارات.

وهى واقعة بين فلسطين ومصر

(١٣) نفسه: ج ١، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

وهى ملأى بالذخيرة والأرزاق
وهى مثل أرمنت وخلودها كخلود منف
فالشمس تشرق فى أفقها وتغرب فيها
وجميع الناس يهجرون مدنهم ويسكنون فى ربوعها
حيها الغربى معبد آمون
والجنوبى معبد الإله سوتخ
والإلهة عشتار فى شرقها
والإله بوتو فى الجهة الشمالية منها
والحصن الذى فى وسطها مثل أفق السماء
ورعسيس محبوب آمون إله
ومنتو فى الأرضين رسول
وشمس الأمراء وزير له وفرح لمصر
ومحبوب آتوم محافظ تذهب الدنيا إلى سكنه
ورئيس بلاد الخيتا الأعظم يكتب إلى ملك بلاد كدى:
تجهز لنسرع إلى مصر حتى يمكننا القول: إرادة الإله تنفذ
وحتى يمكننا أن نتكلم كلاماً جميلاً أمام رعسيس
إنه يعطى نفس الحياة من يريد
وكل بلد يحيا حسب رغبته
وببلاد الخيتا تعيش حسب إرادته فقط
وإذا لم يتسلم الإله (يقصد رمسيس / المؤلف) قربانه منها
فإنها لا ترى مطر السماء
وذلك فى استطاعة وسر مارع
الثور الذى يحب الشجاعة
الإله الطيب مثل منتو المظفر
الذى ولد من رع

طفل ثور هليوبوليس

الذى يقف فى ساحة القتال ويحارب بشجاعة
مثل الواحد القوى فى سفينة السماء حاكم الأبدية
وهو الذى كان ملكا وهو فى البيضة
مثل جلالة الإله حور
وقد استولى على الأرض بانتصاره
وأخضع الأرض بخططه
والشعوب التسعة وطأها بأقدامه
وكل الشعوب الأجنبية تساق بهداياها
وجميع الممالك تسعى إليه على الطريق الوحيد

ليس له خصم
وأمرأء البلاد الأجنبية لاقوة لهم
يصيحون كالماعز الوحشية ذعراً منه
إنه يدخل بينهم كابن نوت
وعلى ذلك

يسقطون أمامه خوفا من نفسه النارى
اللوبيون يتساقطون لذبحه إياهم
والناس يسقطون بنصل سيفه
وقد منح قوته إلى الأبد
وإرادته تحيط بالجبال

آه يارعمسيس محبوب آمون رب القوة
يامن يحمى جنوده

أنت يا ابن آمون أيها الجسور
أيها الثور القوى الذى يثنى المتحالفين ضده
ويقف ثابتاً على عربته الحربية مثل رب طيبة

قوته تفهر كل الممالك الأجنبية
ويخترق الأراضي باحثا عن مهاجميه
وندأوه الحربى للموقعة يؤثر فى قلوب من يخافون وجهه
هو الحاكم الطيب اليقظ الممتاز النصيحة
هو الذى يضع اسمه فى كل الأرضى
بوصفه الفرد الشجاع
نعم ياملك الأرضين وربهما مثل جلالة الإله حور
إن أمراء الأرض قد أصبحوا فى وجل منك

.....

.....

وجنود الشردانا الذين حملتهم إلى بلادك بقوتك
يأسرون لك رجال الصحارى
ما أجمل ذهابك إلى طيبة
وعربتك الحربية متقلة بالأيدي
ورؤساء القبائل يمشون أمامك مكبلين
وستقودهم إلى والدك المبجل آمون ثور أمه
ياقصر سيسى الذى تكرر فيه الأعياد
يا عرش تنن إنك تضى مثل (تقب)
كأتوم

كمصباح والدك رع (١٤) .

هذه نصوص البرديات الثلاث التى دمجها بروجش موجزة، ليأخذ عناصرها الأساسية لبحثه، وأهمها أن مدينة رعمسيس كانت ميناء عظيما على بحر، وكانت مقر عليه القوم وضيافة الملوك الأجانب، ومليئة بالخيرات، وتقع بين مصر وفلسطين وهو ما يعنى وقوعها على أطراف الدلتا الشرقية، وأنها تتصل بقناة تمدها بالمياه العذبة، وفى محيطها مجموعة بحيرات ومستنقعات.

(١٤) نفسه: ج ٢، ص ٢١٥ : ٢١٧ .

ويتطابق وصف التوراة للمدينة بحسبانها ميناء يقع على بحر سوف مع النصوص المصرية التى أكدت من جانبها أنها كانت ميناء دوليا، وهى النتائج التى وصل لها المؤرخون من دراسة النصوص المصرية التى تتعلق برمسيىس وتم إيجازها فى القول: ١١ من خلال وصف مدينة بر رمسيىس يمكننا أن

نستنتج أن تلك العاصمة كانت تقع على أحد فروع النيل وأن ثغرها كان يستقبل أسطول البلاد التجارى والحربى، يرسو فيه ويبحر منه عند قيامه بالغزوات الحربية أو البعثات التجارية ١١ (١٥)

ويرى بروجش أن بناء مدينة بهذه المواصفات لا شك قد احتاج إلى عمالة ضخمة، وهو ما يراه بروجش شرحا يوافق ما ذكرته التوراة عن استعباد بنى إسرائيل فى بناء مدينتى فيثوم ورعسيىس.

ثم ينتقل بروجش إلى نتائج حفائر المصرولوجيست مارييت فى خرائب مدينة صان الحجر، فى أقصى شمال شرقى الدلتا قرب بحيرة المنزلة، حيث عثر مارييت على تمثالين للملك رعسيىس الثانى عليهما نقوش تؤكد أنه قد بنى مدينة باسمه، ويرى أن تلك المدينة هى صان الحجر، وأنها هى المعروفة لدى اليونانيين باسم تانيىس.

وقد حظيت صان الحجر بعدة حفائر على يد المصرولوجيست الشهير بيير مونتبييه، ومن بعده على يد البعثة الفرنسية برئاسة جان بويوت من معهد آثار جامعة باريس. وقد تمكن مونتبييه من اكتشاف مجموعة مقابر مشيدة فى صان الحجر من أحجار الجرانيت. كما تم التعرف على مقبرتين ملكيتين للملك بشنس الأول والملك شيشنق من الأسرة الليبية التى حكمت مصر، وهى الأسرة الثانية والعشرين .

ويرى بروجش أن صان الحجر هى تانيىس هى مدينة صوعن المذكورة بالتوراة، ثم يلجأ إلى نقش على جدار هيكل الكرنك عن مدينة رعسيىس يرجع إلى زمن ستى الأول أبو رعسيىس الثانى، حيث يمكن رؤية جانبى المدينة مرفوعتين على شاطئ ومتصلتان بقنطرة، مع رسوم توضيحية زيادة فى الشرح، حيث نرى على جهة من القنطرة تمساح ونباتات نيلية نهريية ليعرفنا الفنان أن المدينة تقع على أحد فروع النيل، وعلى الجهة الأخرى رسم الفنان أسماكاً بحرية ليعلمنا أنها تقع من الجانب الآخر على بحر مالح ويرى بروجش أن تلك المدينة قد اكتسبت أهميتها الخاصة لوقوعها على طرف بداية الطريق الكبير الموصل لفلسطين. ويقول إنه بجوار هذا الطريق كانت توجد بئر ذكرها الرومان باسم مجدولان، ويراه بروجش هو مجدل المذكور بالتوراة عند موقع الخروج من البحر ١١ أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون

/ خروج ١٤/١١.

(١٥) كامل: ١٠١ .

ويعتقد بروجش جازما أن مدينة رعمسيس هي صوعن هي صان الحجر هي تانيس الشهيرة في التاريخ، وأنها كانت عاصمة مديرية من مديريات شرقى الدلتا أو عاصمتها جميعا، وأن اليونان أطلقوا عليها اسم (تراموس تانيسيس). ويرى أن جغرافيتها تجعل جزءاً كبيراً منها يقع على الشاطئ الشرقى لفرع نيلى، وغربها يقع على بحيرة المنزلة، بينما تتماس حدودها الجنوبية مع إقليم آخر من مديريات شرقى الدلتا هو المعروف باسم (توكو) أو (توكوت)، وهو الذى أشارت إليه التوراة باسم (سكوت)، وأن المؤرخين اليونان أسموا هذا الإقليم باسم (سيتوزيدس)، ويؤكد أن الآثار المكتشفة أسمت هذا الإقليم باسم بى توم وهو المذكور فى التوراة باسم فيثوم.

ثم يدعم نظريته برسالة محررة على بردية بمتحف ليدن من كاتب حكومى يدعى كويسرا / كويس رع إلى رئيسه بيكوبتاح زمن رمسيس الثانى يقول فيها محررها كويسرا :

وقد أطعت الأمر الذى أصدره سيدى فأعطيت قمحا
للعسكر والإسر ائيليين الذين ينقلون الأحجار إلى
حصن رمسيس العظيم، تحت ملاحظة إيمان رئيس
الضباط، وأعطيتهم القمح كل شهر طبقاً للأمر الصادر
إلى .

ومن هنا، وإزاء هذا النص الخطير الحاسم، يستنتج بروجش أن عاصمتى الإقليمين: إقليم صان الحجر وعاصمته رعمسيس أو تانيس، وإقليم سكوت وعاصمته بى توم أو فيثوم، كانا يتصلان ببعضهما عند جنوبى بحيرة المنزلة، وأن هناك أقيمت حصون ظل بعضها موجوداً حتى بعد مرور عشرة قرون إلى زمن اليونان بمصر، حيث نسب المؤرخون اليونان بناء حصن مجدولان للفرعون الشهير سيزوستريس الذى يرى بروجش أنه رمسيس الثانى تحديداً. وقد تأكد من وجود ذلك الحصن (مجدل) من وثيقة تعود لزمن مرنبتاح ابن رمسيس الثانى وكان يحمل اسم حصن مرنبتاح، والرسالة محررة على بردية بالمتحف البريطانى ويقول نصها:

كن مسرور خاطر ياسيدى، فإن قبائل بدو آدوم قد
مروا بحرية تامة من حصن الفرعون مرنبتاح الذى فى
إقليم سوكونت بالقرب من برك مدينة بيثوم التابعة
للملك مرنبتاح الموجودة فى أرض سوكونت. وقد
صرف لهم ولدوا بهم الزاد، الذى هو أرزاق فرعون
شمس العالم .

ويعود بروجش إلى اسم المقاطعة التى سكنها الإسرائيليون بمصر وجاءت باسم جاسان فى التوراة محاولاً العثور عليه على خريطة الدلتا الحالية، فيقول إنه الإقليم الذى أطلق عليه اليونان اسم الإقليم العربى ويسمى اليوم الصهرجية (بحثنا من جانبنا فلم نجد أية صهرجية، لكن ربما كان بروجش يقصد صهرجت

الكبرى وصهرجت الصغرى إلى الجنوب من الموضع الذى يتحدث عنه وليس عند صان / المؤلف). وكانت عاصمة هذا الإقليم تلك المدينة التى أسماها اليونان (فاقوسة) وهى الآن صفت الحنة بجوار الزقازيق وبسطة. وقد تم العثور على آثار فى صفت الحنة تشير إلى أنها كانت فى إقليم ترجم اسمه (جوسيم)، ويرى أن المؤرخين قد خلطوا بين اسم (جوسيم) أو فاقوسة الموجودة فى صهرجت وبين اسم مدينة رعمسيس التى هى عنده صان الحجر. أما جوسيم فقد صارت فاقوسة بعد ذلك بإضافة حرف (فا) أو (با) أو (بى) المصرية المعتادة لأسماء البلدان مثل (بى رعمسيس) ومثل (بى) التى أضيفت إلى توم فأصبحت (فيثوم)، وعليه أصبحت جوسيم (فاجوسيم) التى نطقت (فاقوسة) التى هى جاسان التوراتية .

ويرى بروغش أن القوم الذين ذكرتهم المدونات المصرية باسم الخالو وكانوا يستقرون هناك، هم بعض الساميين الفينيقيين الذين سكنوا جاسان كجالية أجنبية، وأنهم وراء إطلاق التسميات السامية على مواضع تلك المناطق المصرية، لأن مجدل كلمة عبرية تعنى حصن أو قلعة، وسكوت كلمة عبرية تعنى المخيم أو العشش أو المظلات، وصان هى التى كتبتها التوراة صوعن.

ويسير بروغش مع الخارجين من رعمسيس، فيتبع الطريق الفرعونى الكبير (طريق حورس الحربى)، وأنه قد خرج معهم لفيف كثير حسب التوراة هم عنده الفينيقيين / الخالو، وأنهم استراحوا فى أول محطة هى سكوت فى إقليم بى توم، ومن هناك اتجهوا شرقاً نحو صحراء أسمىها التوراة إيتام، لكنهم عادوا لتجنب الطريق الكبير المعروف، ليس لأنهم كانوا يخشون حرباً كما قالت التوراة، إنما لأن موسى كان يعلم بمعاهدة السلام التاريخية التى ربطت مصر بمملكة الحيثيين زمن رمسيس الثانى، والتى تنص على إعادة الرعايا الهاربين من أحد المملكتين إلى الأخرى، ومن جانبنا رأينا إيراد ذلك البند من بنود الاتفاقية.

المعروف أن حرباً طاحنة قد جرت بين مصر وتركيا، قادها رمسيس الثانى ضد حاتوشيليش الثالث ملك خيتا (بلاد الحيثيين) لوقف اعتدائه على أملاك مصر فى آسيا، وكان ذلك فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى. وانتهت المعارك بمعاهدة سلام هى الأولى من نوعها، دونت بنودها على لوح فضى وضع عند قدمى الإله رع وتم العثور عليه بمصر، بينما حمل الوفد الحيثى النسخة المدونة بالحيثية على لوح فضى وتم وضعها عند قدمى إله العاصفة الحيثى تيشوب، وقد عُثر عليها بدورها.

وتقول فقرة بالمعاهدة فى نصها الحيثى

هذه كلمات رعمسيس الثانى ملك أرض مصر العظيم
قاهر جميع البلدان، ابن منمورا (اسم العرش لأبيه ستى
الأول) الملك العظيم، ملك مصر القاهر .. قالها إلى
حاتوشيليش الملك العظيم، ملك بلاد الحيثيين الشجاع
ابن مورشيليش الملك العظيم ملك بلاد حاتى .. بالنسبة
لنا فإننا إخوة والسلام بيننا قد عقد وسيكون خيراً من
الأخوة

أما البند الذى يقصده (بروجش) فقد جاء مدونا بالوثيقة المصرية يقول :

إذا هرب نبيل من بلاد الحيثيين وجاء إلى رعمسيس
العظيم إلى بلاد مصر كى يدخل فى خدماته، سواء كان
رجلاً أم مدينة، فإن ملك مصر سيلقى القبض عليهم
ويرجعهم إلى ملك الحيثيين. وإذا هرب نبيل من
رعمسيس ملك أرض مصر وأتى إلى بلاد الحيثيين فإن
حاتوشيليش ملك بلاد الحيثيين سيلقى القبض عليه،
ويرجعه إلى رعمسيس الملك العظيم ملك مصر، أخيه
(١٦).

وعليه فإن بروجش يرى أن موسى كان على علم ببنود تبادل المارقين الواردة بتلك المعاهدة الدولية،
لذلك فضل سلوك السبل غير المطروقة فى سيناء، فعاد برجاله إلى مجدولان، ويرى أنها كانت تقع بين
(الفرما / بيلوز) وبين سيله قرب القنطرة، أما بحر سوف الذى عبروه فلا بد أن يكون سهل الطينة جنوبى
خليج الطينة وشرقى بحيرة المنزلة، فتبعهم المصريون لكن ليغرقهم مد البحيرة العالى.

ويستشهد بروجش على صدق نظريته بخطورة المد فى تلك المنطقة ومفاجآته الكارثية لأكثر من مرة
معلومة بالتاريخ، منها المرة التى ذكرها سترابون عندما ساح فى مصر خلال القرن الأول قبل الميلاد، وقال
فيها:

وقد حدث فى مدة إقامتى بالإسكندرية مد وجذر
عظيمين فى مدينة بى لوز قرب جبل كاسيوس، فأغرق
الماء تلك الجبال حتى صار الجبل كأنه جزيرة، وكانت
السفن تجرى على الطريق المجاور الذى كان يمتد إلى
فلسطين حيثغطاه الماء .

ويستشهد بشهادة أخرى من ديودور الصقلى فى معرض حديثه عن حملة ارتكزكتيس ملك الفرس
على مصر، عندما وقع فى شرك تلك المنطقة الجهنمية مع رجاله، عندما وصل زحفه إلى البركة التى
تجاوز سهل الطينة حيث منطقة المهالك، وهناك فقد جانباً كبيراً من جيشه فى هذا المكان بالتحديد. (١٧)

نظرية بيير مونتيه :

(١٦) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٥٦ ، ٥٩ .

(١٧) اقتبسها الخشبة: رحلة .. سبق ذكره، ص ٢٢٨ : ٢٤٨ .

ومن بين النظريات الهامة التي اهتمت بحدث الخروج الإسرائيلي وعلاقة التوراة بمصر القديمة نظرية المصروولوجيست بيير مونتيه التي طرحها في كتابه مصر والتوراة، وتعد بدورها من النظريات المشهورة والمعتبرة بين الباحثين ولم تزل صامدة حتى الآن، ونوجز لها هنا ملخصاً سريعاً يبدأ مع دخول يعقوب وأبنائه إلى مصر زمن ولاية يوسف الخزانة المصرية، حسب رواية التوراة، وأنهم سكنوا أرض جاسان التي يجب أن تتموضع شرقى الدلتا لاعتبارات ساقها مونتيه، أبرزها أن يوسف حسب التوراة قد عاش في عاصمة البلاد قرب الفرعون. وأن يوسف عندما علم بوصول أبيه حدود مصر أسرع فركب عربته العسكرية وتوجه للقاء أهله، ثم عاد ليخبر الفرعون. وأن ذلك حسب التوراة السبعونية قد استغرق يوماً واحداً. ثم نعلم أن يوسف استسمح الفرعون لإسكان أهله بأرض جاسان ومن المحال أن تكون جاسان في طيبة جنوباً أو حتى في منف لأن الراكب منها إلى حدود الدلتا الشرقية يحتاج أياماً للوصول وليس يوماً واحداً.

هذا بالإضافة إلى إفادات ماسبيرو عن المواصلات في مصر القديمة التي كانت تعتمد على الإبحار في النيل وقنواته العديدة، لذلك كان لابد أن تستخدم العجلات في مناطق تسمح بها على الأطراف بعيداً عن الأنهار والقنوات، وهو شرقى الدلتا حيث الصحارى الممتدة المتصلة بسيناء، وعليه لابد أن تقع جاسان هناك

ويرى مونتيه أن جاسان كانت المقاطعة الهكسوسية التي كانت تقع فيها عاصمتهم المصرية حواريس، ولا يشك مونتيه أنها هي مدينة صان الحجر الحالية. ويؤكد لمونتيه أن يعقوب وأولاده دخلوا مصر زمن الهكسوس، أنها كانت الفترة الزمنية الوحيدة التي تسمح بذلك حيث كانت عاصمة الهكسوس تقع شمال البلاد المصرية قرب الحدود السينائية، ولأن عاصمة مصر قد عادت بعد التحرير إلى مقرها القديم العريق في طيبة الأقصر بأقصى الجنوب.

ثم يسير مونتيه مع الخارجين ليدقق موقع العبور البحرى الإعجازى ويعقلنه، فيراهم ينطلقون من حواريس أو رعمسيس اللتين هما عنده مدينة واحدة هي حالياً صان الحجر، ليسيروا بمحاذاة شاطئ بحيرة المنزلة يريدون الطريق الحربى الكبير المعروف بطريق حورس، لكنهم يخشون الاصطدام بالتحصينات المصرية القوية على الحدود وهو الذى أطلقت عليه التوراة خطأ ١١ خشية حرب مع الفلسطينيين ١٢ لأن

فلسطين كانت بعيدة تماماً، وهو ما اضطر موسى ورجاله إلى تغيير خط سيرهم من الاتجاه شرقاً إلى الاتجاه جنوباً.

وللعثور على النقطة المفصلية وهي عبور البحر يقف مع المحطة التي ذكرتها التوراة باسم بعل صافون، حيث عبروا عند إحداثيات حددتها التوراة بأنها ١١ أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل

صفون ١١. فيرى أن (بعل صافون) كانت فيما يبدو معبداً للإله الكنعانى الذى يحمل ذلك الاسم، وتعنى (رب

الشمال). ويعلمنا أن اليونان كانوا يدمجون بين بعل صفون وبين الرب اليونانى زيوس كاسيوس، وقد لاحظ أن اليونان قد أطلقوا اسم زيوس كاسيوس فى زمنهم بأرض مصر على منطقة الكسارون الحالية بجوار الفرما / بى لوز على شاطئ البحر المتوسط بسيناء، وبذلك تكون هذه النقطة هى بعل صافون المذكور بالتوراة وأن المعبد لاشك كان يقوم هناك، على الشريط الساحلى الممتد أقصى شمال سيناء.

ويصر مونتييه على متابعة التوراة ويصدق قصة غرق أكبر جيش فى العالم آنذاك إبان مطاردة الخارجين، ويجد لها تبريرات جغرافية حيث تقع بحيرة البردويل / سيربونيس على الشاطئ السينائى على البحر المتوسط فى بقعة منخفضة عن سطح البحر بعدة أمتار، وعادة ما تجف مياهها ويمكن عبورها دون خطر، لكن ذلك لم يمنع أحيانا من مفاجآت مهلكة للعابرين نتيجة الهبوب المفاجئ وغير المتوقع لعواصف شمالية قادمة من البحر المتوسط، وعادة ما ذكر المؤرخون أحداثا مأساوية حدثت للعابرين على الشريط الضيق بين البحر والبحيرة، أو خلال البحيرة إبان جفافها.

ويرسم مونتييه صورة تأملية للحدث الأكبر فنشاهد معه الإسرائيليين يسبرون فى طابور طويل على الشريط الضيق بين البحر والبحيرة متجهين إلى الطرف الآخر نحو العريش، فى الوقت الذى بدأت فيه مطاردة الجيش المصرى للإسرائيليين، وفضل المصريون عبور البحيرة إبان جفافها ليقطعوا الطريق على الخارجين، لكنهم ما أن وصلوا وسط وعمق هذا الدن الهائل حتى هبت الأعاصير العاتية قادمة من المتوسط بأمواج هائلة ملأت البحيرة الفارغة وأغرقت من فيها. وكان عرض البحيرة حوالى عشرين كيلو مترا وطولها سبعين كيلو مترا مما لم يعط الفرصة لمن فى وسطها بالوصول إلى أحد شواطئها فلاقى المصريون جميعاً حتفهم. (١٨)

ويذهب مونتييه مع النظرية التى تقول بالاستعباد زمن رمسيس الثانى والخروج زمن مرنبتاح. وإزاء إشكالية وجوب وجود بركان فى طريق الخروج يفسر أحداث سيناء، مع عدم وجود أثر لأية براكين بسيناء حسب تقرير علما الحملة الفرنسية كوتل وروزير، ومع إصرار مونتييه على تفسير الأحداث التى روتها التوراة بضرورة وجود بركان، فقد ذهب بالخارجين بعد خروجهم من مضيق الشريط الساحلى شمال البردويل نحو العقبة داخل الأراضى الشمالية للسعودية الآن، ليتمكن من العثور على بركان حيث كانت المنطقة هناك بركانية بالفعل حتى زمن قريب.

نظرية على شافعى

وتعد هذه النظرية من النظريات المحترمة الجديرة بالاهتمام وبالاعتبار فى محاولة رسم سيناريو لخط سير الخروج من رعمسيس إلى سيناء بعبور البحر الإعجازى، مع عقلنة ذلك العبور بعيداً عن أسطورة

(١٨) كاسيدوفسكى: الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ٨٠، ١١٥، ١١٦.

العصا الشعبانية. ومبدئياً يأخذ شافعى بدوره بنظرية الخروج زمن مرنبتاح، ثم يسلم بكشوف محمود حمزة فى حفائر مدينة قننير الواقعة شمالى فاقوس، ويعتبر قننير هى رعسيس بشكل قاطع.

ويستند إلى ما وصل إليه جوتيه حول مدينة رعسيس باعتبارها كانت المقر الصيفى لملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، تحاشيا لرده بأن مقر الملك كان طيبة فى الجنوب. ويروى لنا قصة عن راهبة تدعى (إيثريا) تركت لنا حكاية أدائها لفريضة الحج بالأماكن المقدسة، وأن رحلتها بدأت من جاليا نربونيس Gallia Narbunis ودونت خط سيرها حوالى عام ٥٣٣ / ٥٤٠ ميلادية، وهى مودعة الآن فى مكتبة أرو. ومن خط سير تلك الرحلة يحاول شافعى أن يتعرف على مواقع الإسرائيليين بمصر ومن أين خرجوا؟

تقول الراهبة إيثريا إن بلدة رعسيس تقع على مبعده أربعة أميال من مدينة كانت تعرف فى زمنها باسم أرابيا. ويرجع شافعى إلى المصور الجغرافى الذى وضعه الأمير عمر طوسون نقلا عن وصف جورج القبرصى الذى عاش فى القرن السابع الميلادى، فيكتشف أن رعسيس كما جاءت فى قائمة المقاطعات المحفوظة بأكسفورد هى فاقوسة، لكنه لا يرى فاقوسة هى صفط الحنة كما هو متفق عليه لدى المؤرخين الكلاسيك، بل فاقوس الآن جنوبى قننير بحوالى عشرة كيلو مترات، وهى ما تطابق الاسم فاقوسة تماما. وعلى نفس البعد من فاقوس توجد آثار تل الضبعة ومعبد أمنمحات الأول على يمين ويسار ترعة الديدمون، ويرى أن تلك الخرائب هى امتداد للخرائب الشاسعة التى حدثتنا عنها الراهبة إيثريا فى قصة حجها.

تقول إيثريا إنها عبرت من بلدة أرابيا إلى مدينة رعسيس لمسافة أربعة أميال خلال حقول حتى وصلت رعسيس وكانت بدورها حقول دون أية مبان، لكن المنطقة كانت مفروشة بأحجار وآثار مبان متهدمة، فقط شاهدت أثراً كان باقيا حتى زمانها لتمثالين ضخمين ربما كان لأحد الفراعين، لكن الناس كانوا يزعمون زمن إيثريا من سكان المنطقة أنهما للأخوين موسى وهارون، مما يعبر عن ذكريات قديمة تواترت حتى وصلتهم، وتؤكد صلة الإسرائيليين بهذه المنطقة من مصر، وعليه فلا بد - عند شافعى - أن تكون رعسيس هى قننير التى كشف آثارها محمود حمزة.

ومع رحلة الخروج يسير شافعى باحثا عن موضع يمكن أن يكون هو استراحة المحطة الأولى للخارجين المذكور فى التوراة باسم (سكوت)، فيبحث فى المناطق المجاورة لقننير ويرى أن الموضع المناسب لمدينة سكوت هو الصالحية الحالية التى تبعد حوالى عشرين كيلو مترا إلى الشرق من قننير. وهى مسافة مناسبة للرحلة تستوجب الراحة بعدها. لكن معنى ذلك أن يعبر الخارجون عدداً من قنوات النيل بين قننير والصالحية وهو ما لم تذكره التوراة، ولتبرير ذلك يقول إن وقت خروجهم كان النيل فى أدنى منسوب له حيث تتحول كثير من القنوات إلى حياض جافة، ومن ثم لم يكن هناك داع لكى تذكر التوراة عبور مناطق جافة. ومن جانب آخر عمد شافعى إلى الصالحية بحسبانها سكوت المذكورة بالتوراة اعتماداً على ورقة أنستاسى التى تعود إلى الأسرة التاسعة عشر وتصف سكوت بأنها متاخمة للحدود ويسكنها أجانب وبها قلعة

باسم (ختم) سكوت يحتمل أنها مجدل التوراة، بينما كان الرعامسة يسكنون على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً شمال غربى سكوت / الصالحية بمدينة قنتر / رعسيس .

ومع شافعى نسير على خط السير بحذاء الشاطئ الأيمن لفرع النيل الشرقى، لنجده يعتمد وثيقة أخرى من أوراق أنستاسى، وهى وثيقة تتحدث عن مطاردة عبيد هاربين تقول الوثيقة:

وبعد، فقد أرسلت من بلاط القصر الملكى وراء هذين العبدین، فى اليوم التاسع عشر من الشهر الثالث من فصل الصيف وقت المساء. ولما وصلت حصن سكوت فى اليوم العشرين من الشهر الثالث، علمت أن أخبار الجنوب تقول: فرا ذاهبين .. اليوم .. من الشهر الثالث من فصل الصيف. ولما وصلت القلعة أخبرت أن السائس قد حضر من الصحراء وأعلن أنهما تخطيا الحدود شمالى حصن مجدول سبتى.

ولما لم يكن هناك قصوراً ملكية - برأى شافعى - فى هذه المنطقة سوى فى قنتر، فإن سكوت يجب ألا تبعد سوى مسيرة يوم و احد حسب الوثيقة المذكورة (من اليوم التاسع عشر إلى اليوم العشرين من الشهر الثالث) عن قنتر باتجاه سيناء .

أما الطريق الذى سلكوه على وجه التدقيق، فهو الممتد وراء دفنة (تل دفنه الآن) ثم الفرما (بى لوز)، وكان هناك فرع نيلى يأخذ ماءه من عند دفنه ليصل إلى تل أبو سيفاء، ويفترض شافعى أن هذا التل هو محل القلعة التى حدثت عنها النصوص المصرية كثيراً وحددت مكانها أقصى الحدود الشرقية للدلتا، وأسمتها سيلة أو ثارو أو زالو أو شور .. وفى هذه الحال يجب أن تقع مجدول شرقى سيله على أول الطريق نحو فلسطين. وكان فرع النيل الذى ينتهى إلى سيله / أبو سيفاء هو ما ذكرته النصوص المصرية باسم ماء حور أو بالمصرية القديمة سى حور، أما الفرع الأصلى الذى يتفرع منه سى حور فكان يسمى ماء رع أو سى رع .

ولتفسير العبور من عند (فم الحيروث) يقول على شافعى: إن حور كان الإله المحلى لمدينة سيلة / ثارو / أبو سيفاء الواقعة بين بحيرة البلاح وبحيرة المنزلة، وكان الملح يستخرج من جنوب شرقى بحيرة المنزلة حيث كان يصب الفرع النيل دون منفذ على البحر فملح الماء فى هذه المنطقة، وهذا هو الملح الذى كان يتحدث عنه الكاتب بينبس فى تقريره لسيده آمنوبى - وهو الموضع الذى رسمه على شافعى على خريطته مع التعقيب: ١١ يمكن ملؤه بالماء إذا احتاج الأمر ١١. وهو المكان أو المصب لماء حور وترجمه

اليونانية (فم حور)، وهو بالضبط يساوى فم الحيروث المذكور بالتوراة كموضع لعبور البحر الإعجازى.

والبحر الذى عبّروه ذكرته التوراة باسم بحر سوف، وكلمة سوف كلمة عبرية تعنى البوص وهو نبات لا ينمو إلا بالماء الضحل ومصبات الترع والمصارف العذبة فى ماء مالح، وقد ذكر الكاتب بينيس أن رعمسيس كانت تأخذ حاجتها من البوص من ماء حور الذى لا بد أن يكون هو بحيرة ماء حور، وأن تلك المنطقة بالتحديد هى بحر سوف.

ويبحث عن موقع مجدل، ويستند إلى وثيقة مذكرات أنتونين التى وضعت فى مكان ما بين سيرابيوم عند رأس البحيرات المرة وبين الفرما / بيلوز، وإلى المصروولوجيست بترى الذى احتسب تل الحير الحالى جنوبى الفرما هو مجدل التوراة، كما أن العرب قد بنوا فى تل الحير قلعة لا شك أنها كانت تجديداً لمجدل التوراتية .

ويبقى موضع بعل صافون المقابل لموقع العبور من فم الحيروث على شاطئ بحر سوف، فيستعين على شافعى بما كتبه الأثرى نويل جيرون عن ورقتين اكتشفتا فى سقارة عام ١٩٤٠، واحدة ديموطيقية والأخرى فينيقية. وأكدت إشارات الورقة الديموطيقية أنها معاصرة للفينيقية، وأنهما كتبتا خلال القرن الخامس قبل الميلاد. ومضمون الورقة الديموطيقية تضرعات من شخص للإله ١١ بعل صافون وكل آلهة

دافنى ١١ أى تل دفنه، مما يعنى أن بعل صافون كان الإله الرئيسى فى تل دفنه، وقد عقب جيرون بالقول: إذا قبلنا اعتبار مجدل هى تل الحير، فإن بعل صافون يجب أن يكون هو إله هذه المنطقة الرئيسى.

ويخلص على شافعى بالفعل فى وضع خريطة لتفاصيل مواضع الخروج، فموسى يجد نفسه هو وأتباعه فى مأزق شديد الوعورة، فبحيرة البوص عن يمينه (بحر سوف) وحصن مجدل أمامه بالحامية المصرية القوية تسد عليه الطريق إلى فلسطين، بينما تحصره من اليسار مستنقعات نهاية الفرع البيلوزى للنيل، وخلفه الفرعون على رأس الجيش المصرى. وفى هذه اللحظة الحاسمة تقول التوراة إن الله أرسل ريحا شرقية قوية جففت بحر سوف. ويقول شافعى إن تلك الظاهرة تتكرر هناك حتى الآن، حيث لم يزل منسوب ماء بحيرتى المنزلة والبرلس وهما من البحيرات الكبرى يتأثر تماما بالرياح، حتى أن الماء يغطى الطريق من بلطيم حتى برج البرلس عندما تهب الرياح الغربية، بينما يجف تماما عندما تهب الرياح الشرقية. لكن الذى لا ريب فيه عند شافعى أنه لم يغرق أحد لا الفرعون ولا جنوده، لأنه لا يمكن تصور الغرق فى ماء ضحضاح لا يزيد ارتفاعه مهما ارتفع عن قدمين. (١٩)

(١٩) Balltin, de la Societe royale de geographie d'Egypte, Tom xx١, ٣٣١, ff,

Historical notes on the pelusiac branch, The Red Sea Canal and the Reteeif The Exodus

انظر أيضاً سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٧، ص ١١٧ .



الخروج عند على شافعى
خريطة رقم (٢٠)

الأخطاء الكبرى فى النظريات المطروحة

أولاً : فى عام ١٩٨٩م تم اكتشاف مجموعة مقابر تضم أربعة عشر مومياء مصرية، كان من بينها لحسن الحظ مومياء الملك مرنبتاح بن رمسيس الثانى. وكان العثور عليها شاهداً ودليلاً على أن الرجل لم يختف فى لجج البحر المفلوق غرقاً. وزيادة فى الاحتياط تم افتراض أنه غرق بالفعل لكن البحر قذف بجثته إلى الشاطئ، أو أن أتباعه قد حملوه ميتاً إلى الشاطئ نظراً لقدسيتها، حيث حنطوه بعد ذلك ودفنوه. ولهذا الاحتمال تحديداً تمت إحالة المومياء إلى الأطباء المتخصصين وخضعت لبحوث طبية دقيقة، إلا أن كل البحوث أسفرت عن نتيجة واحدة، وهى أن الفرعون مرنبتاح قد مات ميتة طبيعية بعد أن عمر طويلاً ولم يعثر إطلاقاً على أثر لمياه البحر أو أملاحه أو أيأ من خواصه بالمومياء، كما لم يعثر على أى إشارة بالمومياء يمكن تأويلها لصالح فكرة الغرق بأى ماء عذب أو مالح.

ثانياً: بالنسبة لنظريه دى بوا إيميه ومطابقته لبحر سوف التوراتى بخليج السويس، وأن العبور تم من عند العجروء قرب السويس الآن، يعتمدها بعض الخلل الواضح، لأن كلمة سوف تعنى القصب، وهو مايشير إلى ماء تنمو فيه نباتات القصب (البوص وليس قصب السكر)، وهو أمر لا يتحقق إلا إذا كان هذا الماء مالحة ويستقبل ماء عذبا من مصدر نهري دائم أو متقطع بما فيه من طمى، أى أن يكون ماء مالحة يصب فيه مصرف يحمل مياهها عذبة. وحسب نظرية دى بوا إيميه فإن حوض القلزم الممتد من السويس إلى بحيرة التمساح لم تظهر فيه أية آثار نيلية مما لا يسمح بتسمية منطقة العبور عند العجروء والسويس ببحر سوف، فهو إطلاقاً فى هذه الحال لايعرف القصب.

وعلى المستوى الجيولوجى فقد مد دى إيميه خليج السويس / العربى، ليتصل بالبحيرات المرة وبحيرة التمساح، ليضع عند رأسه هيروبوليس علما على مدينة المسخوطة، لكن جيولوجيا الأرض المصرية رغم أنها تعترف بأن ذلك كان واقعا حقيقياً، فإنها تردف أن الانفصال بين الخليج والبحيرات قد تم فى أقرب التقديرات فيما قبل بدايات عصر البلايستوسين الأول، قبل زمن الخروج بأزمان، وقبل أن تعرف الأرض دولا وحضارات وممالك.

ثم إنه إذا كانت هيروبوليس هى تل المسخوطة / أبوكيشيد قرب الإسماعيلية الآن، مع شبه إجماع الآن على أن تلك المسخوطة هى سيخوت التوراتية التى تعنى المخيم أو العشش أو الحظائر بالعبرية والمدونة بالنسخة العربية سكوت، فسيكون هناك تضارباً واضحاً يتم النعامى عنه بين هذا المعنى وبين النص التوراتى:

فارتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سكوت نحو

ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد.

خروج ١٢ / ٣٧

وهو ما يعنى أن رعمسيس مدينة وسكوت مدينة أخرى، وسكوت تبدو طوال الوقت محطة أولى على طريق الخروج مما يعنى أنها لابد تقع فى طريق الخارج من الدلتا إلى الصحراء السينائية، أى يجب أن تقع إلى الشرق أو إلى الشمال الشرقي من رعمسيس وبيتوم معا. ناهيك عن كون الاسم : تل المسخوطة اسم حديث لا يشير إلى سكوت القديمة، قد أطلقه الأهالى على المدينة لما بها من تماثيل يعتقد العامة أنها كانت لأشخاص حقيقيين سخطهم الله أجاراً، ويسقط بهذا التخريج القائل أن محطة الخارجين الأولى سكوت هى المسخوطة للتطابق اللفظي.

هذا إضافة إلى إشكالية أخرى تواجه تلك النظرية بشدة، فلو افترضنا أن هناك هبوطاً قد حدث فى مستوى المياه منذ زمن الخروج مع ارتفاع فى اليابس أدى الآن إلى وجود بحيرة التمساح والبحيرات المرة وانفصالهما عن خليج السويس، وهو هبوط شديد بدليل تلك المساحة الكبرى التى تركها الخليج انسحابه جنوباً. فلا بد أن يكون هناك هبوطاً آخر قد حدث على التوازي فى مناطق بحرية مجاورة، حسب نظرية الأوانى المستطرفة، لكن ما نعلمه يقينا أن العكس هو ما قد حدث. والدليل يستمد من سواحل البحر الأبيض المتوسط القريبة حيث ارتفع الماء وغطى مساحات كانت يابسة بل وعامرة بالمبانى والبشر، وهو ما نقرأه فى جغرافية جمال حمدان حيث كان يشرح جغرافية الساحل الشمالى لمصر بعيداً عن مشاغل موضوعنا، فيقول:

"تعرض النطاق الساحلى الشمالى من الدلتا خلال العصور التاريخية إلى حركة هبوط وانخفاض بالنسبة لسطح البحر المتوسط، أدت إلى غرق وضياح مناطق كثيرة منه، والحركة لاشك فيها علمياً، والأدلة المادية والوثائقية والشهادات والشواهد وفيرة، مثلما هى يقينية ودامغة. لكن أسبابها وتفسيرها هى موضع الخلاف .. فهل البحر هو الذى ارتفع؟ أم اليابس هو الذى انخفض؟ المهم فى الأمر أن البحر نفسه لم ينخفض إطلاقاً، إنما احتمال ارتفاعه هو الوارد، والثبات فى مستواه هو المقبول، حيث يجمع الأكثرية على هبوط الساحل الشمالى مما أدى إلى غرق تحت البحر. وتحت البحر ترقد الآن المقابر الرومانية الشهيرة بكوم الشقافة Catacombs ، وكذلك المقابر البطلمية الغارقة بالشاطبي، وأيضاً أرصفة ميناء الإسكندرية القديم وما تناثر بينها تحت الماء من تماثيل مهشمة. والطبقة الرومانية عموماً تقع تحت سطح المدينة الحالى بنحو سبعة أمتار، هذا إضافة إلى غرق جزيرة أنتيرودس Antirhodes التى كانت تتوسط الميناء الشرقى القديم. إضافة إلى ثلاث مدن كلاسيكية غارقة تحت الخليج هى: هيرا كليوم ومنوتيس Menuthis وكانوب. وفى قاع بحيرة البرلس بقايا وآثار متناثرة تمثل أرضاً هابطة تشير لغزو البحر للبحيرة. وبحيرة المنزلة تعتبر أكبر متحف مائى لبقايا وأطلال القرى والمدن القديمة الغارقة تحت البحر، والتى طغى عليها البحر وأغرقها بحسابات المؤرخ المقربى سنة ٥٣٥م. وعلى أساس رواية المخزومى عن نشأة بحيرات الدلتا فى ٩٦١ ميلادية بواسطة طغيان مياه البحر. وينتهى بوتزر إلى أن هذه العملية كانت جزءاً من ارتفاع مستوى سطح البحر منذ القرن الثانى الميلادى" (١) .

(١) جمال حمدان: شخصية مصر، عالم الكتاب، دار نافع للطباعة، القاهرة، ج ١، ص ٢٠٧ : ٢١٧ .

ومثل هذه الشواهد تدحض للأسف الشديد إحدى النظريات العبقريّة بشأن الخروج ألا وهي نظرية دى بوا إيميه، كما أنها من جانب آخر تدحض النظريات التي وضعت مدينة رعسيس كميناء عظيم تصله سفن العالم القديم عند موضع صان الحجر اليوم. لأن صان الآن تقع على مسافة من بحيرة المنزلة، ومعنى أن المنزلة ازداد اتساعها ازدياداً عظيماً هو أن صان الحجر كانت على مسافة أكثر بعداً من بحيرة المنزلة بحيث لا يمكن احتسابها ميناء على الإطلاق. ناهيك عن أمر آخر يجب أن نعلمه يستبعد أى إمكانية لموضع ميناء دولى على بحيرة المنزلة، ونستقيهِ مرة أخرى من جغرافية جمال حمدان فهو يحدثنا عن بحيرات مصر شمالى الدلتا وشرقها فيقول: " إن الضحالة البالغة قاسم مشترك أعظم، فعمقها جميعاً يتراوح حول المتر أو أقل .. وبها مساحات شاسعة يزيد عمقها عن عدة سنتيمترات إلى درجة أن الرياح القوية كثيراً ما تدفع مياهها وترفعها رفعا، بل وأحيانا ترفع مستوى المصارف التي تفرغ فيها. وأن الرياح القوية هذه إذا استمرت تجفف مئات الأفدنة فيها أحيانا لبضعة أيام، وتهلك أثناءها بالطبع ملايين الأسماك " (٢) .

ثالثاً : لاحظنا عند بروجش أنه قد عمد لدعم نظريته إلى تلفيقات لا تليق بعالم جليل مثله، فإذا لم نعتبر إيجازه للنصوص المصرية الثلاثة بشأن رمسيس فى نص واحد موجز تلفيقاً، فإن التلفيق الأكيد كان فى النص الذى ساقه فى شكل رسالة محررة من الكاتب كويسراً إلى رئيسه بكونبتاح حيث أوردتها كالآتى " وقد أطعت الأمر الذى أصدره سيدى فأعطيت قمحا للعسكر والإسرائيليين الذين ينقلون الأحجار .. إلخ " . وقد تم هنا إبدال كلمة خطيرة عن النص الأصيل حيث أبدل كلمة (والعابيرو) بكلمة (والإسرائيليين) محتسباً ببساطة أن هؤلاء هم أولئك، (وهو الأمر الذى سنفصل الحديث بشأنه فى موضعه من بحثنا هذا) كما أن النص الذى أوردته عن رسالة بردية المتحف البريطانى

كن مسرور خاطر ياسيدى فإن قبائل بدو آدوم قد
مروا بحرية تامة من حصن الفرعون مرنبتاح

تم فيه إبدال الكلمة الأصلية (شاسو آدوم) بـ (بدو آدوم) فالنص الأصيل حسب جاردنر هو :

إنتهينا من السماح لقبائل الشاسو الآدومية بتخطى قلعة
مرنبتاح التى فى زيكو حتى بحيرات بيتوم مرنبتاح
التى فى زيكو، ليظلوا هم وقطعانهم أحياء بفضل
إحسان فرعون (٣) .

(عقب هنا جاردنر بالقول إن بى توم هنا ربما كانت فيثوم التوراة، لكنه فضل وضعها فى وادى طميلات).

(٢) نفسه: ج ١، ص ٨٢٠ .

(٣) جاردنر: مصر الفرعونية : سبق ذكره، ص ٣٠٢، ٣٠٣ .

ومما يدحض نظرية بروجش أيضا أنه اعتمد نصوصا بالتوراة وأغفل أخرى عامداً لأنها ضد نظريته، فحدد بحر سوف التوراتى بموضع خليج الطينة الآن بين الفرما وبين بحيرة المنزلة على شاطئ المتوسط. لكن ذلك يتضارب تضاربا صارخا مع بقية قصة التوراة لأن التوراة تستمر فتقول إنه بعد عبور البحر من عند فم الحيروث خرجوا من بحر سوف إلى بادية / برية باسم (شور). ومن شور ساروا لمدة ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى موضع باسم مارة / الخروج ١٥ / ٢٢ ، ٢٣ ، ثم ارتحلوا من محطة مارة إلى موضع باسم إيليم (خروج ١٥ / ٢٧)، ومن إيليم ارتحلوا لينزلوا مرة أخرى على بحر سوف، (عدد ٣٣ / ١٠). وهنا تظهر المفارقة الكبرى، فلو كان المقصود ببحر سوف خليج الطينة عند المنزلة، فمعنى ذلك أن الخارجين من مصر قد داروا بقسم كبير فى عمق سيناء عبر خمسة مواضع استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر، ثم قفزوا فجأة من إيليم دون المرور بأية مواقع ليعودوا فجأة إلى خليج الطينة عند بحيرة المنزلة باحتسابه بحر سوف. هذا إضافة إلى موضع تكرر التوراة ذكره يقع عند المواقع الأخيرة على أطراف سيناء الشرقية على خليج العقبة باسم (عصيون جابر)، وذلك بعد رحيل استغرق من الزمن سنتين عبر سيناء، وتصف هذا الموضع بأنه ميناء يقع بجوار أيله (إيلات الآن على العقبة)، ثم تصفه فى مواضع أخرى بأنه يقع على بحر سوف. انظر مثلا المراحل الأخيرة فى رحلة الخروج تحكى:

ثم ارتحلوا من عبرونه ونزلوا فى عصيون جابر، ثم
ارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا فى برية صين
وهى قادش

عدد ٣٣ / ٣٥ ، ٣٦

فعبّرنا عن إخوتنا بنى عيسو الساكنين فى سعير على
طريق العربية على أيلة وعلى عصيون جابر، ثم تحولنا
ومررنا فى طريق برية موآب.

تنثية ٢ / ٨

وبعد قيام مملكة إسرائيل الموحدة وزمن حكم الملك سليمان يحكى
الكتاب المقدس :

وعمل الملك سليمان سفنا فى عصيون جابر التى
بجانب أيلة على شاطئ بحر سوف فى أرض آدوم

ملوك أول ٩ / ٢٦

وهكذا تكشف لنا رواية التوراة فى مجملها دون انتقادات حسب رغبة الباحث أن الخارجين كانوا دوماً بالقرب من ساحل بحر سوف، مما ينفى بالقطع أن يكون بحر سوف هو خليج الطينة أو بحيرة المنزلة، لذلك

نجد تقليداً إنجيلياً قديماً لا نعرف صاحبه أو كيف وصل إلينا يقول: إن بحر سوف هو البحر الأحمر بذراعيه خليج السويس وخليج العقبة، فكان البحر الأحمر بحسابه بحر سوف موروثاً يتواتر فى فلسطين زمن المسيح. وكان المحرر التوراتى لديه وثائق جغرافية تؤكد أنهم داروا بحذاء سواحل البحر الأحمر السينائية من ضلعه الأيسر (خليج السويس) مع الاتجاه جنوباً نحو رأس المثلث السينائى ثم صعوداً إلى الشمال مع ضلعه الأيمن (خليج العقبة) حتى عصيون جابر بجوار إيلات. إن ذلك المأثور التوراتى يدحض تماماً أية نظرية تبعد ببحر سوف عن البحر الأحمر بذراعية: السويس والعقبة.

وقد لاحظ (غطاس الخشبة) تلك المشكلة، لكنه تابع رأى القائل بأن مدينة الاضطهاد رعمسيس كانت هى صان الحجر مرة، ثم ناقض ذلك وقال إنها كانت الفرما الحالية، لكن ما يشغلنا فى أمره أنه اتفق مع بروغش وغيره ممن قالوا إن بحر سوف ليس البحر الأحمر إنما بحيرة المنزلة. وما لاحظته الخشبة هو أن خط سير الخروج كما هو بالتوراة كان يعود بين كل عدة مواقع بالرحلة إلى شاطئ بحر سوف مرة أخرى. ومن هنا قام الباحث بوضع عدد من الخرائط تبين أن الخروج تم على مراحل، كان يقوم فيها كل مرة بالقفز بالخارجين فجأة من أقصى جنوب سيناء إلى بحيرة المنزلة مرة أخرى بحسابها بحر سوف، دون المرور بأية مواقع كما لو كانوا قد طاروا ليقفوا عند المنزلة، فى كل مرة يعودون فيها إلى موضع على شاطئ بحر سوف، ودون أية مبررات عقلية أو موضوعية واضحة لهذا الطيران غير المقبول أبداً ناهيك عن كونه يعود بالخارجين فى كل دورة إلى قبضة الجيش المصرى دون مبررات.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم أن الباحث الخشبة قد اعتمد نظرية بروغش فى كون بحر سوف هو بحيرة المنزلة، فقد استبعد رأيه فى ترمين الخروج ورفض القول بالخروج زمن مرنبتاح بن رعمسيس الثانى، وأخذ بدلاً منه برأى آخر بعيد هو رأى (جاستانج) رغم أنه لم يشر إلى هذا العالم كمصدر لرأيه. ورأى جاستانج يقول أن الخروج قد حدث زمن الفرعونة حتشبسوت. والرد السهل والبسيط على ذلك، خاصة أن الخشبة يقر فكرة مطاردة الفرعونة للخارجين وغرقها فى خليج الطينة عند المنزلة، هو أن خروج الإسرائيليين سواء من صان الحجر أو من الفرما كان بأقصى الشمال الشرقى فى زمن حتشبسوت، بينما كان مقر حكمها وإقامتها فى طيبة بأقصى الجنوب على مبعده حوالى ١٠٠٠ كم. وهو ما يعنى أن الفرعونة قد تحركت فوراً للحاق بالخارجين لتلحق بهم بعد خروجهم من رعمسيس إلى خليج الطينة كالبرق، بينما كانت تحتاج للوصول من العاصمة طيبة حتى خليج الطينة إلى أسبوع على الأقل. بينما التوراة تؤكد لنا أنهم بعد الخروج كانوا داخل سيناء عند إيليم بعد ثلاثة أيام من خروجهم، حيث لحقت بهم جيوش الفرعونة عند فم الحيروث. الأمر هنا شديد الاضطراب ومفكك إلى حد بعيد ولا يصمد للنقد وإعمال المنطق، لكننا لا ننكر على الرجل جهده لهذا كان محل اهتمامنا.

أما بيير مونتيه فقد أخطأ مرتين: الأولى باحتساب صان الحجر هى رعمسيس التوراتية، والثانية عندما أخذ من التوراة المقدمات حول مواضع سكنى الإسرائيليين بمصر ومواضع الخروج ثم قرر بعد ذلك

مخالفة التوراة تماماً فى بقية تفاصيل مواضع خط سير الخروج فأسقطها جميعاً ليصل من المنفذ الشرقى لبحيرة البردويل إلى أقرب موضع بركانى شرقى خليج العقبة.

هذا ناهيك عن أن كل من ذهب ببحر سوف شمالاً إلى البحيرات المتصلة بالبحر الأبيض المتوسط سواء بحيرة المنزلة كما عند بروغش أو بحيرة البردويل كما عند مونتيه، قد أغفلوا أمراً هاماً هو أن المحرر التوراتى كان يعلم جيداً أن هناك فرقاً بين بحر سوف وبين البحر المتوسط وبحيراته، لأنه كان دوماً يتحدث عن بحر سوف البعيد عن أرض فلسطين، وعن بحر آخر يتكرر ذكره ملاصقاً لفلسطين ويقع غربها تماماً يطلق عليه فى أكثر من موضع البحر الكبير، وهو البحر المتوسط الآن.

وقد تم تحديد حدود الأرض الموعودة بفلسطين فى عدة مواضع بالكتاب المقدس كان حدها الغربى دوماً هو البحر الكبير، ولم يخط المحررون ولا مرة واحدة بين البحر الكبير (المتوسط) وبين بحر سوف.

رابعاً : إن الاعتماد على الحفائر المصرية وحدها فى البحث عن مدينة رعسيس غالباً ما أدى إلى نتائج مضللة، فكلما عثر أحدهم على آثار باسم رمسيس الثانى وقف ينادى: هنا رعسيس مدينة الاضطهاد. وهو الأمر الذى من أجله حدث أول إجماع حول صان الحجر بحسبانها رعسيس، حيث عثر هناك على نقش يقول: " آمون صاحب بر رعسيس مرى آمون ذو الانتصارات العظيمة "، وقد احتسب ذلك دليلاً كافياً على أن صان كانت هى رعسيس التوراتية. وذهب هذا المذهب مع الإجماع رجل فى ثقل جاردنر الذى انتهى إلى أن صان هى التى ذكرتها النصوص باسم حواريس كعاصمة للهكسوس، وأن رعسيس الثانى جاء بعد زمن فجدها وأطلق عليها اسمه، ثم حملت بعد ذلك ولمدة طويلة اسم تانيس، وأنها هى التى أطلقت عليها التوراة اسم صوعن، ثم عرفت مؤخراً باسم صان الحجر. وقد وافقه على ذلك مصرولوجست آخر محترم هو يونكر، لكن ما لايفوتنا هو أن ذلك النص الذى عثر عليه فى صان الحجر " آمون صاحب بر رمسيس " و " مرى آمون ذو الانتصارات العظيمة " قد أصبح الآن غير ذى موضوع بعد اكتشاف أنه نص متكرر على آثار رمسيس الثانى فى أكثر من موضع بمصر^(٤). وما يجب الانتباه إليه هنا وجود خطأ آخر شديد الوضوح، هو احتساب مدينة صان الحجر هى تانيس المذكورة فى المصادر التاريخية، لأن تانيس هذه بدورها اختلف بشأن موضعها أشد الاختلاف، وليس من المقبول علمياً إلقاء القول هكذا سهلاً : تنيس هى صان الحجر، مع إغفال احتمالات أخرى لموقع تنيس لعل أشهرها ما جمعه محمد رمزى فى معجمه عن تاريخ تنيس، حتى أمكنه القول:

تنيس Tinnis من المدن المصرية القديمة التى اندثرت،
تكلم عنها ياقوت فى معجمه فقال إن تنيس جزيرة فى بر
مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، وبها تعمل

(٤) إبراهيم محمد كامل: إقليم شرقى الدلتا فى عصوره التاريخية القديمة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥، ج ٢، ص ٩١.

التياب الملونة والفرش الأبوقلمون، وبحيراتها التي هي عليها مقدار إقلاع يوم في عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر أيام السنة

ملحا لدخول ماء بحر الروم إليه عند هبوب ريح الشمال، فإذا انصرف نيل مصر في دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية خلت البحيرة وخلا سيف البحر المالح مقدار بريدين حتى يجاوز مدينة الفرما، فحينئذ يخزنون الماء في حباب أي صهاريج لهم ويعدونه لشربهم مدة السنة. ولما فتحت مضر سنة ٢٠ هـ كانت تنيس حينئذ أخصاصا من قصب وكانت تعرف بذات الأخصاص إلى صدر بنى أمية، ثم إن أهلها بنو بها قصورا، ولم تزل كذلك إلى أيام بنى العباس فبنى سورها ودخلها أحمد ابن طولون في سنة ٢٦٩ هـ فبنى بها عدة صهاريج وحوانيت في السوق كثيرة تعرف بصهاريج الأمير. وأما صفتها فهي جزيرة في وسط بحيرة مفردة عن البحر الأعظم، يحيط البحر بهذه البحيرة من كل جهة فإذا تكاملت زيادة النيل غلبت حالوته على ماء البحر فصارت البحيرة حلوة، فحينئذ يدخر أهل تنيس المياه في صهاريجهم ومصانعهم لسننتهم. وكان لأهل الفرما قنوات تحت الأرض تسوق إليهم الماء إذا خلت البحيرة. وبعضهم سمى تنيس باسم تونة في حين أن تونة من أعمالها. وبالبحث تبين لى أن الجزيرة التي كانت بها مدينة تنيس لا تزال موجودة إلى اليوم ببحيرة المنزلة ومعروفة بجزيرة تنيس، وبها بقايا من الطوب الأحمر المتخلف من مبانيها القديمة^(٥).

(٥) محمد رمزي: القاموس الجغرافى للبلدان المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، القسم الأول، البلاد المدرسة، ص ١٩٧ .

ومن جانبنا قمنا بالبحث وراء تنيس ووجدناها جزيرة صغيرة عبارة عن تلال من مدينة مدمرة وتقع بين الفرما ودمياط شمالى البحيرة ويعرفها الصيادون هناك باسم كوم تنيس، ثم وقعنا عند جمال حمدان على حديث فاصل فى مسألة تنيس يقول:

إن تنيس وحدها بحجمها الضخم وثرائها المعماري وصناعاتها العظيمة من أفخر المنسوجات والأسلحة والصلب، وتجارها الواسعة مع العراق بالذات، هى التى كانت تقارن بدمياط وشطا. ولقد كانت تنيس تقوم على جزيرة كبيرة المساحة ويتم الوصول إليها عن طريق قناة تسمى بحر الروم تنتهى إلى الصالحية، وربما كانت جزءاً من الفرع الثانيسى. ولكن حتى وقت متأخر كالقرن العاشر الميلادى ظلت تنيس عامرة بالآثار العظيمة من المساجد والكنائس والحمامات بالمئات والعشرات، وحتى بعد قرن آخر فى القرن ١١م ذهل الرحالة ناصرى خسرو لضخامتها ورخائها حيث وجد بها كما ذكر ١٠,٠٠٠ محل تجارى و ١٠٠٠ سفينة فى مينائها، بينما بلغ عدد سكانها الذكور وحدهم نحو ٥٠,٠٠٠ تقريباً، وعلى الجملة كانت من أجمل مدائن مصر. والأكثر إثارة أن هذه الجزيرة لم تكن تزرع شيئاً واعتمدت فى كل غذائها وتموينها على التجارة. كانت تعيش على الصهاريج فى مياه الشرب فأثناء الفيضان كانت مياه النيل تكتسح المياه المالحة المحيطة بها فتملأ الصهاريج الباطنية الشاسعة، حيث تخزن العام كله. ولقد ظلت جزيرة تنيس تقاوم غزو مياه البحر لكنها عجزت عن أن تواجه منفردة غزاة البحر إذ أصبحت معرضة لخطر غارات القراصنة والصليبيين من صقلية وفلسطين، فأمر صلاح الدين الأيوبي بإحلالها فى نهاية القرن ١٢م وفى أوائل القرن ١٣م هدم الكامل حصونها وسورها وسواها بالأرض وتركها مجرد كومة من الحطام. لتظل بعدها جزيرة مهجورة خربة تعرف الآن بكوم تنيس أو تل

وهو ذات ما انتهى إليه (إبراهيم محمد كامل) إذ يقول: " تل تنيس يقع حالياً فى بحيرة المنزلة التى لم تكن قائمة خلال العصر الفرعونى إذ تكونت البحيرة تدريجياً على أثر عوامل طبيعية سببت هبوط الأرض فى تلك الجهة وبقايا التل تشكل جزيرة وسط المياه ذات معالم أثرية واضحة للعين المجردة .. والتل هو بقايا مدينة تنيس المشهورة التى لم يحاول الأثريون إزاحة الستار عن ماضيها المجيد .. ولاشك أن المدينة القديمة تنيس كانت قائمة فى العصور الفرعونية، وأنها كانت تقع على مصب الفرع التنيسى " (٧).

وهذا بحد ذاته رد كاف على من يزعمون أن بحيرة المنزلة كانت هى بحر سوف التوراتى، لأن البحيرة لم تكن قد وجدت بعد حينذاك.

ثم نجد عالم مصريات حجة هو نافيل يرفض تماماً أن تكون صان الحجر هى حواريس الهكسوسية وقدم على ذلك برهانا قاطعاً بعد أن وجد كلا من البلدين مذكوراً بمفرده فى قائمة آمنوبى، وهو ما لا يقبل معه احتسابهما مدينة واحدة (٨) .

ثم اشتد نافيل فى المخالفة وذهب إلى أن رعمسيس التوراتية هى التى كان يطلق عليها اليونان اسم فاقوسة، التى هى برأيه سبط الحنة الآن، والسبب أيضاً آثار لرمسيس، حيث تم العثور هناك على قطعتين من الجرانيت الأسود باسم رعمسيس الثانى مع قطعتين أخريين من البازلت باسمه، ومن هنا رأى نافيل أن سبط الحنة هى رعمسيس التوراة، وأنها كانت عاصمة المقاطعة العشرين من مقاطعات الدلتا التى عرفها اليونان باسم المقاطعة العربية (أرابيا).

هذا علماً أن جاردنر قبل أن يذهب برعمسيس إلى صان الحجر كان يؤكد أن رعمسيس هى بيلوز / الفرما (٩) .

أما بترى وهو حجة مصريات معلوم فقد خالف هؤلاء وأولئك معتمداً أيضاً على آثار لرمسيس الثانى تم العثور عليها فى موضع مخالف تماماً، فقال إن رعمسيس هى تل رطابة حالياً فى النصف الشرقى من وادى طميلات غربى تل المسخوطة. حيث عثر هناك على معبد لرعمسيس الثانى ثم على أثر يصوره وهو يضرب أسيراً أسويوا أمام الإله آتوم، وأثر ثالث على هيئة تمثال جرانيتى أحمر لرمسيس الثانى والإله آتوم، عليه عبارة تقول: " عظيم الاحترام عظيم الروعة فى البلدان وعلى البلدان الأجنبية البعيدة، ملك مصر العليا والسفلى رعمسيس ابن الشمس معطى الحياة، الذى أوقع مذبحه فى أرض الشاسو ونهب تلالهم وقتلهم، قد

(٦) جمال حمدان: شخصية .. سبق ذكره، ج ١ ص ٢١٧ .

(٧) إبراهيم محمد كامل: إقليم شرقى .. سبق ذكره، ج ٢ ، ص ٣٨٦ .

(٨) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٦ ، ص ٣٨٤ .

بنى مدينة باسمه للأبد " ؟ وقد اعتبر فلندر بترى العبارة الأخيرة دليلاً قاطعاً على وقوع رعمسيس فى موقع تل رطابة الحالية، خاصة أنه قد عثر بها على غرف عديدة استخدمت كمخازن، والتوراة تشير إلى أن الإسرائيليين قد استعبدوا فى بناء مدينتى مخازن هما فيثوم ورعمسيس (١٠) .

وكلما زادت مساحة الكشوف الأركيولوجية زادت الخلافات وازداد الالتباس، فقد عثر المنقب محمود حمزة على دور سكنية فى حفائر قام بها فى قنتير شمالى الزقازيق، وتبعد حوالى ١٧ كم إلى الجنوب من صان، وتقع فوق تل أثرى تآكل بمرور الزمن وأصبح فى مستوى الأرض الزراعية. ووجد فى حفائره آثاراً من الأسرة الثانية عشرة والأسرة التاسعة والعشرين، كما عثر على أطلال لقصر يخص الملك ستي الأول، أما الأهم فكان عثوره على لوحة دون عليها " الإله الطيب الأسد ضد السوريين الإله الطيب حبيب سوتخ ". وهى إشارة واضحة للإله سيت الذى كان يعبد الهكسوس فى حواريس وعبد رعمسيس الثانى فى مدينته رعمسيس.

وبين الدور السكنية عثر محمود حمزة على آثار كثيرة باسم رعمسيس الثانى وموظفى عهده، دونت بكتابات هيراطيقية على كسرات فخار كثير تتضمن أيضاً اسم رعمسيس (١١) .

ونظراً لأهمية هذا الكشف تحديداً، نستمتع إلى محمود حمزة نفسه يعقب على حفرياته فى قنتير فيقول:

" إن ستي الأول كان أول من أقام فيها قصراً ليحمله مكاناً لراحته بعد عودته من حروبه فى آسيا، ولما جاء عهد رعمسيس الثانى رأى أنه تسهيلاً للقبض بيد من حديد على ممتلكاته فى آسيا وتخليص البلاد من غارات الساميين المتتالية، أن يترك مقره فى طيبة ويجعله فى الدلتا على مقربة من فلسطين ليقمع أى ثورة فى مهدها. لذلك يعد من الأمور الهامة فى حكم رعمسيس الثانى انتخاب موضع قنتير ليكون مقره الملكى فى الدلتا. والواقع أننا وجدنا فى الحقول والبيوت عوارض أبواب وعتب نقش عليها اسمه، هذا بالإضافة إلى مئات القراميد والزهريات المصنوعة من الخزف، والأشكال التى كانت تؤلف جزءاً هاماً فى تزيين القصر وزخرفته. على أن وجود مئات القوالب من الفخار المطلى باسم ستي الأول ورعمسيس الثانى ومرنبتاح الأول وسيتى الثانى ورعمسيس الثالث ورعمسيس السابع ورعمسيس العاشر، لبرهان على أن هؤلاء الفراعنة كانوا يقطنون هذا القصر، الذى كان يحلّى بمنتجات مصنع خاص به، وذلك ليكونوا على اتصال بأملاكهم الآسيوية .. كذلك كان فى قنتير معابد للآلهة آمون وبتاح وست .. وتحمل كثير من قوالب الفخار المطلى الذى عثر عليه فى قنتير اسم رعمسيس الثانى، مصحوباً باللقب (با نتر) أى روح الإله، وأخرى تحمل طغراء الملك مصحوباً بالنعنتين: شمس الأمراء وحاكم الحكام .. فإذا كانت قنتير هى رعمسيس فإنه لابد من البحث عن حواريس فى مكان آخر " (١٢) .

(١٠) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره ، ص ٩٩ .

(١١) نفسه: ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢١٣ .

(١٢) سليم حسن: مصر القديمة، ج ٦، ص ٣٨٨ .

ومن ثم اعتمد المهندس على بك شافعى اكتشافات محمود حمزة وسلم بأن قنتير هى رعمسيس وأن فاقوس الحالية (وليس فاقوسة / سبط الحنة) هى فيثوم ويرسم خريطة الخروج اعتماداً على دليل سفر حج الراهبة ايثيريا، لكنه يتغافل تماماً عن المسافة التى ذكرتها تلك الراهبة بين فيثوم ورعمسيس، لأن المسافة بين فاقوس وقنتير تصل إلى حوالى ضعف المسافة التى ذكرتها ايثيريا بين فيثوم ورعمسيس .

وحتى لا نغبط دى بوا إيميه حقه، فإن الكشف الأركيولوجية الحديثة يمكنها دعم وجهة نظره بعد رحيله بزمان. فى أن موقع تل المسخوطة كان هو مدينة رعمسيس، فقد جاء من بعده فرديناند دليسيوس ليعثر أثناء حفر قناة السويس فى موقع المسخوطة على عدد من التماثيل والنصب وأشكال لأبى هول صغير تعود إلى عهد رمسيس الثانى، وهى محفوظة الآن فى متحف الإسماعيلية. كذلك تم العثور على ثالوث من الجرانيت الوردى لرعمسيس الثانى جالسا بين الإلهين حورأختى وخبرى، ولوحة أخرى من ذات المادة لرعمسيس الثانى يقدم تمثال ماعت للإله حور أختى. ثم محراب من الجرانيت الأحمر لرعمسيس الثانى وهو يحتفل بعيده الثلاثينى (حب سد)، وتمثالاً لأبى الهول من الجرانيت الأسود من الدولة الوسطى سبق واغتصبه لنفسه أحد ملوك الهكسوس ثم جاء رعمسيس الثانى فاغتصبه لنفسه ثانية ودون عليه اسمه، كما عثر على صقر يحمل طغراء الملك رعمسيس الثانى من الجرانيت الأسود.

والأخطر أنه تم العثور على آثار واضحة لسور ضخم من اللبن حول معبد كبير، وقد جاء فى رواية التوراة: " فاستعب المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن / خروج ١ / ١٣ ، ١٤ ". وحديث الطوب اللبن متكرر فى سفر الخروج كما فى الإصحاح خمسة مثلاً. وهو ما يرجح بدوره أن تكون المسخوطة هى رعمسيس التوراتية.

وهكذا كانت شخصية رعمسيس الثانى النرجسية المتضخمة، وعشقه للمعمار وانتشار هذا المعمار فى مناطق واسعة، مدعاة لتعدد الاحتمالات حول موضع مدينة رعمسيس التوراتية، كلما وجد المنقبون اسم رعمسيس فى موضع من المواضع. ومن ثم نؤكد مرة أخرى أن الآثار وحدها ليست بالقطع كافية وحدها للفصل فى مسألة أين رعمسيس التوراتية؟!، وهو ما فعلته النظريات السوالف جميعاً، وكان نقطة ضعفها الأساسية، حيث اعتمدت على آثار الحفائر وحدها.

ومن أجل وضع تصور واضح أقرب إلى القبول حول تلك المواضع التوراتية والاتفاق مع ما لدينا من مصادر ومادة علمية هائلة رغم تنافرها وتضاربها، علينا أن نعيد ترتيب مايبينا الآن من أوراق .

أولاً : أقام الهكسوس فى مصر عاصمة لهم هناك على الحدود الشرقية للدلتا باسم يمكن نطقه متعديداً دون خلاف هو (حوت وعرت، حوارة، هواره، حواريس، أواريس — أفاريس، حويرة، حويلة). وإن تلك المدينة كانت مقراً عسكرياً ودينياً وكان الإله المعتبر فيها هو إله الشر المصرى سيت أو كما نطقه الهكسوس (سوتخ) بتصرفه إسمياً. وإنها بالتأكيد تقع إلى الشرق من الفرع البوابستى للنيل حسبما جاعنا فى مقبرة الضابط المصرى أحمس بن ابانا الذى حكى لنا قصة معارك التحرير التى قادها الفرعون أحمس بن سقنن رع.

• شيد الفرعون رعمسيس الثانى مدينة باسمه أو أعاد بناءها حيث كانت قائمة قبله، ويحتمل أن تكون هى ذات مدينة الهكسوس أولا تكون، وإلى القرب منها حسب خط سير رحلة الراهبة إيثيريا بحوالى ٤ أميال أى أقل من ستة كيلو مترات ونصف تقع مدينة أخرى باسم فيثوم أو بى توم أو باتوموس.

• إلى الشرق من هاتين المدينتين تقع محطة أولى على طريق الخروج باسم سكوت المظنون أنها الآن الخشبى أو أبوكيشيد المعروفة باسم تل المسخوطة، وأن المسخوطة كانت تلك التى جاءنا ذكرها عند اليونان باسم هيروبوليس.

ثانيا: اختلفت آراء الباحثين فى تحديد موقع مدينة رعمسيس وجارتها فيثوم كالاتى:

• افترض دى بوا إيميه أن رمسيس أو بيتوم هى التى ذكرها اليونان باسم هيروبوليس وأنها تل المسخوطة الآن وأنها كانت ميناءً دولياً على قمة الخليج العربى المعروف الآن بخليج السويس، الخليج كان يمتد فى ذلك الزمن ليملاً كل حوض القلزم ويلتحم بالبحيرات المرة وبيحيرة التمساح.

• افترض آخرون مثل بروجش وجاردنر أن مدينة رعمسيس هى ذات عين المدينة المذكورة بالوثائق التاريخية باسم تانيس وأنها هى هى صان الحجر حالياً، وذهب معهما ذات المذهب بيير مونتييه، إلا أن يونكر رفض توحيد حواريس — الهكسوسية — بتانيس بعد أن وجد كل منهما مذكوراً بمفرده فى قائمة آمنوبى .

• رأى بترى أن رعمسيس هى تل رطابة الحالية بوادى طميلات.

• رأى محمود حمزة أن رعمسيس هى قنتير الحالية مع رفضه أن تكون هى حواريس الهكسوسية، وقد تابعه على ذلك على بك شافعى الذى رسم وفقاً لأكتشاف حمزة خط سير الخروج الإسرائيلى من مصر.

• اعتمد نافيل على كشوف أثرية بدوره ليقول إن رعمسيس هى سبط الحنة الحالية وكان اليونان يسمونها فقوسه وكانت عاصمة المقاطعة التى عرفها اليونان بالمقاطعة العربية لغلبة العنصر السامى بين سكانها. ورفض بدوره أن تكون هى حواريس الهكسوسية.

ثالثاً : إن لمدينة رعمسيس عدة مواصفات أمكن تحديدها من التوراة ومن اللوحة المنقوشة على جدار الكرنك، ومن رسالة أحد الكتبة إلى سيده كاتب البلاط، ومن قصيدتين فى مديح رمسيس تعرفان باسم

القصيدة الصغرى والقصيدة الكبرى، ومن هذه المصادر يمكن تجميع أهم الصفات والشروط للمدينة التى نبحث عنها فى موقع يجمع مواصفات من الصعب أن تجتمع لمدينة على خريطة مصر، وهذه المواصفات كالتالى:

• نحن بحاجة إلى موضع تتوفر فيه آثار تشير إلى

المدينة باسم رعمسيس بشكل واضح وهذا شرط أول، وقد أخذ به الباحثون المصنولوجيون كشرط وحيد وليس أولاً مما أدى إلى تضارب شديد فى تحديد موضعها مع تعدد المواضع التى عثر فيها على اسم رعمسيس فى آثاره الهائلة عدداً وتفرقاً.

• يجب أن يقع هذا الموضع فى أقصى شرقى الدلتا

على الحدود مع البرارى المتصلة بسيناء بحيث يكون حسب قصائد مديح رعمسيس آخر كل أرض مصرية وبداية كل أرض أجنبية أو فلسطينية.

• إن تلك المدينة عند طرف الطريق الوحيد المؤدى

إلى خارج مصر شرقاً رعم تعدد الطرق إلى الشرق؟!!

• أن يسمح الموضع بقيام ميناء دولى يستقبل سفننا

بحرية تقد إليه بجزيرة بلدان العالم المعروف آنذاك.

• أن يكون فى الجوار موضعاً أو قناة ماء بالتحديد

تحمل اسم شبحور حسبما جاء بالتوراة أو سيهور حسبما جاء بقصائد مديح رعمسيس المصرية.

• أن تطل كميناء على الساحل الغربى لبحر يحمل اسم

سوف وأن يتناسب هذا البحر فى ظروفه مع اسم سوف أى بحر البوص، فيجب أن يكون ضحلاً، وأن يستقبل ماء عذبا من قناة نيلية، وتلك الضحالة

ستتضارب مع القول بميناء يستقبل سفنا كبرى، وهى بذاتها مشكلة مستعصية.

• ربما كانت رعمسيس هى حواريس الهكسوسية، وإذا لم تكن فيجب البحث عن موضع مناسب لمدينة حواريس لقطع الشك باليقين.

• فى جوار رعمسيس وعلى بعد أربعة أميال منها حسب الراهبة إريثيريا يجب أن تقع مدينة أخرى باسم فيثوم أو بيتوم، ويجب أن نعثر فيه على آثار مصرية تؤكد ذلك سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

• أن تقع رعمسيس وفيثوم فى محيط إقليم واحد يعرف عند اليونان باسم الإقليم العربى، وفى التوراة باسم جاسان.

• أن نجد ما يشير إلى أن إحدى المدينتين رعمسيس أو فيثوم كانت تحمل اسم صوعن الوارد بالتوراة.

• أن يقع إلى الشرق من موقعنا هذا موضعا يحمل اسم سكوت يبعد بمسافة سفر يوم واحد بالعربة التى تجرها الجياد حسبما علمنا من سفر يوسف من القصر الملكى إلى الحدود لاستقبال أهله. كما كانت سكوت محطة الراحة الأولى فى طريق الخارجين، كذلك من خبر الموظف المطالب بمطاردة عبيد هاربين من القصر الملكى واستغرق سفر يوم واحد. أى يجب وقوع سكوت قرب طرف الطريق للخارج من رعمسيس نحو الحدود، وأنها أول ما يقابل الداخل من سيناء إلى مصر نحو رعمسيس ، مع وجوب وجود آثار مصرية تشهد بذلك.

• أن يقع موضعنا الذى نبحث عنه غربى بحر سوف
بينما يقع شرقه موضعاً باسم شور حيث إن
الخارجين قد خرجوا من البحر إلى برية باسم شور،
حسب الأسطورة التوراتية.

• إلى الشرق من موضعنا هذا بمسافة سفر يوم كامل
تقع مجموعة إحداثيات جغرافية على الساحل الغربى
لبحر سوف هى مجدل وبعل صافون وفم الحيروث،
بينما يقع إلى شرق هذا البحر الموضع شور.
. . . . وهكذا فنحن نبحث تقريباً عن المستحيل.

نظرية المؤلف لضبط جغرافية الخروج

بين رعمسيس وحواريس

كان آخر ملوك الهكسوس على مصر هو الملك أسيس الملقب بلقب أبو فيس الثانى، وذلك حسبما ورد عند يوسفوس نقلا عن المصرى مانيتو، وهو ما طابق قائمة الملوك المعروفة باسم بردية تورين. وهو الملك الأخير من الحكام الأجانب وقلنا أنه قد بدأت الثورة ضده من طيبة بقيادة الملك سقنرع وولديه كامس ثم أحمس، وحسب القصة التوراتية تمكن يوسف ببراعة إسرائيلية من الوصول إلى الخطوة الملكية فصار وزيراً لخزانة الهكسوس فى مصر. ثم تمكنت الثورة المصرية من الإطاحة بالاحتلال، ليقلب الزمان لبنى إسرائيل وجهاً آخر، تمثله بصدق - وتطابق على صدقنا آيات - التوراة إذ نقول:

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف ..

فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلّوهم بأنقالهم، فبنوا

لفرعون مدينتى مخازن: فيثوم ، ورعسيس.

خروج ١/ ٨، ١١

النص يقول إن ملكاً جديداً قد قام على حكم مصر، وهو أمر طبيعى، وربما يعنى موت الملك السابق أسيس ومجيئ ملك جديد، لكن النص هنا يحمل دلالات أخرى، لأنه لو كان الأمر قد سار على الوتيرة المنطقية للأحداث لكان ضروريا أن يعرف الملك الجديد الذى نشأ بالبلاط وعايته وارتقى فيه المناصب، من هو يوسف ومن هم أهله؟ خاصة أن يوسف كان يشغل أحد أهم المناصب الكبرى فى الدولة. لكن النص يقول إن هذا الملك الجديد ليس فقط لم يكن صاحب علاقة مباشرة بيوسف، أى أنه جاء من خارج البلاط الحاكم المعروف ليوسف حينذاك، بل جاء وهو يحمل ليوسف وأهله ضغينة شديدة فاستعبدهم وسخرهم فى بناء مدينتين للمخازن الأولى باسم فيثوم والثانية باسم رعسيس.

لقد قالت التوراة ذلك قبل اكتشاف حجر رشيد وفك رموز اللغة الهيروغليفية بقرون بعيدة، لكننا قد أصبحنا نعرف الآن من علوم المصريات الحديثة مصداقية تلك التسميات، لأن فيثوم هى (بر - آتوم) أو بالنطق الملتبس بالسامى (بى - توم) بإسقاط حرف الراء المعترض والتقليل، و(بر) أو (بى) أو (فى) تعنى المقر أو البيت أو المعبد أو المسكن أو الفم أو المصب أو أول الطريق أو نهايته فهى دلالة مكانية على الإطلاق، فهى بهذا المعنى تصبح (مقر آتوم) وآتوم هو الإله المصرى المعلوم الشأن، هكذا أخبرنا أصحاب علم المصريات عن مدينة (فيثوم) أو (بى توم). أما (رعسيس) فهى لاشك تلك التى كشف عنها علم المصريات الحديث فى المدونات المصرية التى تذكرها باسم (بررعسيس) أو (بى رعسيس) أو (بى رعسمه) بحذف (ى س) وهو التصريف اليونانى المعلوم للأسماء، و (رع مس يس) هو اسم لسلسلة من الفراعين حكموا مصر بدءاً من الأسرة التاسعة عشرة باسم سلالة الرعامسة، وبإسقاط حرف (ع) بالتخفيف يصبح الاسم هو (رمسيس) المتداول حتى الآن كسمى بين المصريين الأقباط بالذات. وإن أكد لنا

المصريولوجيون أن مدينة رعمسيس يجب أن تنتسب تحديداً للفرعون العظيم المحارب وعاشق المعمار الذى لم يترك مقاطعة فى مصر إلا وترك فيهما أثراً باسمه والمعروف باسم (رمسيس الثانى) وهو والد الفرعون مرنبتاح صاحب لوح إسرائيل المشهور. وبسبب ذلك اللوح تم استنتاج أن رمسيس الثانى كان هو فرعون الاضطهاد الذى سخر الإسرائيليين الأسرى بمصر فى أعماله الإنشائية الكبرى، أما ولده مرنبتاح فكان هو فرعون الخروج الإسرائيلى من مصر زمن النبى موسى.

لكن إذا كان باني المدينة ومنشئها لأول مرة هو رعمسيس الثانى، فإن ذلك سيتضارب مع رواية التوراة حول استقرار يوسف وأخوته فى مدينة رعمسيس قبل زمن رعمسيس الثانى بزمان، وهي المشكلة التى واجهت أحمد عثمان فحاول حلها بالقول: أن تسمية المدينة باسم رعمسيس لا تعود إلى رعمسيس الثانى إنما إلى رعمسيس آخر، خاصة أن عثمان يرفض النظرية التى تربط بين الإستبعاد الإسرائيلى وبين رمسيس الثانى، لذلك يلجأ إلى الضابط رعمسيس الذى أصبح فيما بعد رعمسيس الأول وكان قد تولى مناصبه زمن العمارنة ثم حكم بعد سقوط أسرة العمارنة وانتهاء حكم حور محب مؤسس الأسرة ١٩. لكنه فى رأينا كان حلاً شديداً العسف والتكلف، لأنه من الصعب تصور مدينة مصرية كبرى تنسب فى نشأتها واسمها إلى ضابط صغير لم يكن متوقعاً ماذا سيكون مستقبله حين نشأتها. ومن ثم نتصور من جانبنا أن ما حدث هو أن المحرر التوراتى قد ذكر المدينة بالاسم الذى كان قد استقر وأصبح مشاعاً معلوماً حتى زمن تدوينه ذلك النص، وهو ما ذهب إليه باحث رصين مثل فراس السواح إذ يقول: " فى الحقيقة إن أرض رعمسيس ومدينة رعمسيس مما ورد ذكره فى سفر الخروج مسألة لايمكن الاعتماد عليها فى تحديد زمن الخروج، لأن المحرر التوراتى قد استخدم اسم أرض رعمسيس فى الإشارة إلى منطقة الدلتا منذ أيام يوسف أى قبل بناء مدينة رعمسيس بحوالى خمسمائة سنة [أى قبل زمن رمسيس الثانى بفرض أنه هو باني المدينة / المؤلف]. وهذا يعنى أن المحرر التوراتى الذى كان يكتب سفر الخروج فى فترة متأخرة من الألف الأول قبل الميلاد، قد استخدم الاسم الذى يعرفه لمنطقة الدلتا بصرف النظر عن ارتباط هذا الاسم بفترة تاريخية معينة ". (١٣)

وبهذا المعنى أجرى (روبنسون) أبحاثه وانتهى إلى القول: " لعل ذكر بيتوم Pithom ورعمسيس تفسير متأخر من كتاب القصة، وأن القصة فى صورتها الأصلية لم تسم هذه المدن " (١٤) .

وبالفعل فإنك تجد تسمية رعمسيس لموضع سكنى الإسرائيليين بمصر يبدأ مبكراً جداً وليس متأخراً مع الاضطهاد وظهور موسى، فقد كانت المدينة موجودة زمن يوسف، وزمن الدخول إلى مصر. وإذا كنا قد أكدنا أنه دخل زمن الهكسوس فهو ما يعنى أنه دخل عاصمة الهكسوس المصرية حواريس قبل أن يحكم مصر أى فرعون باسم رمسيس، لكن المحرر المتأخر عندما كتب القصة كتب اسم المدينة المتداول (رعمسيس) وهو الاسم الذى كان متداولاً حتى عهده، وهو ما يعنى أن رعمسيس هى ذات عين حواريس الهكسوسية، والنص المقصود هو الذى يقول:

(١٣) السواح: أرام .. سبق ذكره ، ص ٧٥ .

(١٤) روبنسون: إسرائيل فى ضوء .. سبق ذكره، ص ١٠٧ .

فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً فى أرض
مصر، فى أفضل أرض مصر، فى أرض رعسيس،
كما أمر فرعون.

تكوين ٤٧ / ١١

هذا عن الترجمة العربية عن النص العبرى المازورى، أما النص السبعونى اليونانى فيورد ذات
الكلام مطابقاً مع اختلاف وحيد لكنه تأسيسى فى كلمة واحدة هى اسم المدينة التى سكنها الإسرائيلون فى
مصر، فبدلاً من رعسيس تأتى التسمية اليونانية (هيروبوليس) والتى تترجم عادة ترجمة اعتباطية بمعنى
(مدينة الأبطال). فهل كانت مدينة حواريس الهكسوسية هى بالتحديد التى حملت بعد ذلك اسم مدينة رعسيس
وأطلق عليها اليونانيون اسم هيروبوليس؟ أم أن هذه غير تلك غير الأخرى؟ هذا لغز أول حول التسمية،
ناهيك بعد ذلك عن تحديد الموضع الجغرافى التدقيقى، وفيه من الفروض والأقوال ما لم يلتق أبداً مع بعضه
البعض.

والتوراة تضع مدينة رعسيس وجارتها مدينة فيثوم أوبى توم كمدن رئيسية ضمن مقاطعة كبيرة
تسميها جاسان فنقول:

وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان،
وتملكوا فيها وأثروا وكثروا جداً

تكوين ٤٧ / ٢٧

ثم لتزيدنا التوراة التباساً تعطينا اسماً آخر للمدينة التى سكنها الإسرائيلون بمصر هو كما فى
النصوص:

قدام آبائهم صنع أعجوبة فى أرض مصر، بلاد
صوعن. شق البحر فعبرهم ونصب المياة كند .. جعل
فى مصر آياته وعجائبه فى بلاد صوعن .

مزامير ٧٨ / ١٢ ، ١٣ ، ٤٣

ونبدأ بالسؤال الملحاح الذى لم يجد حتى الآن إجابة قاطعة بين مبعثرات التاريخ القديم وشظاياها: أين
تقع المدينة التى اتخذها الهكسوس مركزاً عسكرياً وإدارياً فى مصر، وجاعنا ذكرها عبر المؤرخ المصرى
(مانيتون ق ٣ ق.م) باسم (حواريس) أو (أواريس)، أو (حواعرة) أو (هواره) بالنطق المصرى، وأنها كانت

تقع فى مقاطعة مصرية باسم (سترويت)؟ وهو ما نقله عن (مانيتو) مؤرخو العصر الكلاسيكى أمثال يوسفيوس ويوليوس الأفريقى وغيرهم.

إن البحث عن مقاطعة الإله سيت التى تمركز فيها الهكسوس (سترويت) فى جداول المقاطعات المصرية التى دونها المصريون القدامى بأنفسهم، وعلى تغير اسمائها عبر الزمن، أمر غير مجد، فقد سعينا وراء تلك الجداول ولم نجد أى ذكر لمقاطعة باسم (سترويت).

وللحل افترضنا احتمالين: الأول أن تكون جداول المقاطعات المصرية قد ذكرتها باسم آخر، والاحتمال الثانى يرتبط بالأول، إذ يحيل الاسم (سترويت) فوراً إلى الإله (سيت)، ومن ثم يحتمل أن يكون (مانيتو) قد نحت لها اسماً منسوباً إلى ربها المعبود (سيت) فأسماءها (سيترويت) نسبة إليه، بمعنى المقاطعة (السيتية).

وحتى الآن، ورغم ما بذل من جهود، لم يوفق علماء المصريات إلى اتفاق واضح حول موضع (حواريس) وهو فى أصله المصرى (حواره) مع إضافة التصريف الإسمى (يس)، وهو التلوين اليونانى الذى لحق إله المقاطعة (سيت)، فحمل الاسم اليونانى (تيفون)، لما يجمع بين الإلهين: المصرى واليونانى من صفات الشر والجذب والأفعال الرديئة الحمراء. ويتضح ذلك الدأب اليونانى فى إطلاق أسماء يونانية على جميع المدن والآلهة المصرية الأخرى.

وتعتقد جلة محترمة من الباحثين أن مدينة الهكسوس (حواريس) أو (حاويرة) هى ذات المدينة التى عرفت بعد ذلك باسم (تانيس)، إلا أن المشكل يظل قائماً إذ لم يتم اتفاق الرأى حول موقع (تانيس)، ذاتها؟ ولم يتم الاتفاق حول موضعها بشكل قاطع، وإن كان من المتفق عليه وجوب البحث عنها على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء، استناداً إلى كون الإسرائيليين وهم ساميون، قد عاشوا فى تلك المناطق، وربما كانوا على علاقة بالهكسوس قد رجحنا أن تكون هى القابعة تحت تل تنيس شمالي بحيرة المنزلة استناداً إلى جمال حمدان. وقد أطلقت التوراة على المدينة التى عاش فيها الإسرائيليون اسم (صوعن / سفر العدد ٢٢/١٣)، ولأن (صوعن) تعتبر عند بعض الباحثين هى ذات عين (تانيس) فقد انتهوا بالقياس إلى أنها هى ذات (حاويرة/ حواريس)، وإن كان هذا التأكيد برمته فيما يرى (جاردنر) (١٥) لم يزل موضع جدل شديد حول مصداقيته التى لم تنل قائمة على افتراضات وتخمينات وأنها تتوقف أساساً على اليقين بأن بنى إسرائيل عاشوا فى (حاويرة) الهكسوسية. وأن (حاويرة) هى (تانيس) حقاً، وأنها المدينة المعروفة فى التاريخ والمذكورة فى التوراة باسم (رعميس). ومعنى (حاويرة) فى المصرية القديمة هو المدينة المتطرفة أو الواقعة على الحدود، وأسماءها اليونانيون (أفارس)، الذى حُرِف إلى (أوراس) و (أواريس) و (هواريس) و (هواره) و (حواريس)، وعادة ما تسمى بها مدن البدو المتطرفة فى مصر حتى اليوم كما لو كانت بقية من مأثور قديم، فيطلق المصريون على مدن الحواف الصحراوية اسم (الهواره).

(١٥) جاردنر مصر الفراعنة ..، سبق ذكره، ص ١٨٧.

وسبق وأفادنا (مانيتو) أن حواريس كانت تقع على الضفة الشرقية للفرع النيلى الدلتاوى المعروف باسم البوباسطى، نسبة لوقوع مدينة (بوباسطة) على ساحله الغربى، والتي تعرف اليوم باسم (تل بسطة)، وكانت مقراً لتقديس الإلهة القطه (باستت). (علما بأن هذا الفرع قد ضمر الآن، وحلت محله ترع ومصارف، مثله مثل الكثير من الفروع الكبرى الأخرى للنيل، والتي بلغ عددها أيام هيروت سابع فروع كبرى فى الدلتا، وحدثنا عنها فى تاريخه ولم يبق منها سوى فرعين رئيسيين هما دمياط ورشيد). ونفس القول حول وقوع حواريس على الفرع البوباسطى للنيل، يأتى فى قصة (أحمس ابن أبانا) لتؤكد ولا تدع مجالاً للشك فى ذلك. وهناك تيار قوى بين العلماء يذهب إلى أن مدينة (حواريس) هى بالضبط مدينة (صان الحجر) الحالية، استناداً إلى شواهد أهمها الشاهد الأركيولوجى المعروف بلوح الأربعمئة سنة، الذى عثر عليه بين مجموعة كبيرة من الأنقاض التى تشير إلى مدينة مصرية كبرى كانت تقوم فى هذا المكان.

ويذكر نص اللوح الأربعمئى أميراً باسم (رعمسيس) يقوم على احتفال كبير سمي الاحتفال الاربعمئى، فتم الربط بين (رعمسيس) هذا و(رعمسيس الثانى) من ناحية، وبينه وبين اللوح الأربعمئى من ناحية أخرى، وأخيراً بين اللوح الأربعمئى وبين عبادة الإله (ست) فى تلك المدينة. حيث معلوم أن (رعمسيس) وفراغة الأسرة التاسعة عشرة قد قدسوا (ست) الإله الذى سبق وقده الهكسوس فى مدينتهم، حتى أن والد الفرعون (رعمسيس الثانى) انتسب باسمه إلى الإله (ست) وتسمى باسم (ستى) أى (الستى). ومن ثم كان الإستنتاج أن (رعمسيس الثانى) قد أقام مدينة باسمه فى ذلك الموضع الذى كان يعبد فيه (ست)، وأن عبادة (ست) قد تكرست — حسبما جاء باللوح الأربعمئى — فى ذلك المكان منذ أربعمئة عام سبقت (رعمسيس). وعلى تلك الارتباطات تم الافتراض التزميني عند جارندر لمدة حكم الهكسوس لمصر ب ١٠٨ سنة، مع إضافة سنى الملوك الذين حكموا مصر بعد الهكسوس حتى زمن (رعمسيس الثانى) لتكمل الأربعمئة سنة. ومسألة بداية تكريس (ست) فى مدينة باسم حواريس لدى الهكسوس وإرادة فى تاريخ (مانيتو)، وأكدته (قصة الملك أبوفيس وسقننرع) وقد برهن المصروولوجست (يونكر) على أن (ست) كان الإله المحلى لبلدة باسم (سترت STRT) وأنها سميت (سيترويت Sethroite) فى العهد الإغريقى والتي ذكرها (مانيتو) كمقاطعة مصرية سكنها الهكسوس، وأكد (يونكر) أنها لابد تقع فى شمال شرقى الدلتا (١٦). لكن أين بالتحديد؟ لا يجيبنا (يونكر). المهم أن علماء المصريات وضعوا استنتاجاً يقول: إن مدينة الهكسوس (حواريس) هى ذاتها التى أعاد (رعمسيس الثانى) بناءها بعد ذلك بأربعمئة سنة، وأنها حملت اسم (رعمسيس) وبعد ذلك أطلق عليها اليونان اسمها المشهور تانيس، وهى ذاتها التى أطلقت عليها التوراة اسم (صوعن) واسم (رعمسيس)، وقالت: إنها المدينة التى اضطهد الإسرائيليون فى بنائها، وهى التى تحمل اليوم اسم (صان الحجر) (١٧)، حيث عثر هناك على اللوح الأربعمئى، الذى يقول فيه (رعمسيس) عندما كان أميراً.

(١٦) سليم حسن: مصر القديمة .. سبق ذكره، ج ٤، ص ٦٥.

(١٧) Montet, Le Nouvelles Fouilles des Tanis, P. ١٥ - ٣٢.

انظر أيضاً:

Will, The problem of situation of Avaris, J.E.A., V. XX١, ١٩٣٥ p. ١١ ff.

السنة الأربعمئة من الشهر الرابع فى فصل الصيف،
فى اليوم الرابع من حكم ملك الوجهين البحرى والقبلى
ست Sotch ، عظيم القوة ابن الشمس نبتى المحبوب من
رع حور أختى، الذى سيبقى مخلداً. حضر الأمير
الوراثى المشرف على العاصمة، والوزير، والمشرف
على البلاد الأجنبية، والمشرف على حصن شارو،
ورئيس المازوى، والكاتب الملكى، والمشرف على
الخيالة، ومدير عيد كبش مندیس، والكاهن الأول للإله
ست، والمرتل للإلهة بوتو فاتحة الأرضين، والمشرف
على كهنة الإلهة ستير.

لقد حضر الأمير الوراثى رعمسيس المرحوم، الذى
وضعت ربة البيت المغنية نيا المرحومة، ليقول : الحمد
لك ياست بن نوت، ياصاحب القوة العظيمة فى سفينة
الملايين، الذى طرح الثعبان المعادى لرع أرضنا،
والذى على رأس سفينة رع، ومن صوته العظيم فى
الحرب، لبتك تمنحنى حياة جميلة، لأجل أن أخدمك،
ولأجل أن أبقي فى حظوتك^(١٨).

ونلاحظ أن ذلك اللوح الاربعمئى، وحتى تدوينه ونصبه فى مكانه، لم يكن يتحدث عن (رعمسيس
الثانى) بوصفه فرعوناً، إنما بوصفه أميراً وارثاً يحمل تلك الألقاب العديدة. لذلك ذهب الاستاذ (زيتيه) إلى
الظن أن ذلك العيد الأربعمئى قد حدث فى عهد الملك (حور محب) حوالى عام ١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م،
والذى يفصله عن الملك (رعمسيس الثانى) ملكين هما: (رعمسيس الأول) و(ستى)، وأنه ربما كان
(رعمسيس الثانى) إبان حكم حور محب أميراً وقائداً عسكرياً مهماً، قبل أن يتولى سدة الحكم بعد ذلك^(١٩).

أما أول ذكر لمدينة (رعمسيس) باسم (بررعمسيس)، فقد ورد فى السنة الثانية لحكم (رعمسيس الثانى)
حوالى عام ١٣٠٠ ق.م، فى نصب (أبيدوس)، الذى تعرض لأعمال (رعمسيس الثانى)، وإكماله معبد والده
(سيتى الأول) فى معبد (أوزيريس) بمدينة المقدسة (أبيدوس). وقد وصف نصب أبيدوس رحلة بحرية قام
بها (رعمسيس الثانى) حتى وصل إلى مدينة (بررعمسيس)^(٢٠)، وقد استنتج الباحثون من ذلك ما يؤيد رأى

(١٨) غطاس الخشبة: سبق ذكره، ص ١٦٣.

(١٩) سليم حسن: مصر القراعنة، سبق ذكره، ج ٤، ص ٨٠.

(٢٠) سامى سعيد: الرعامسة .. سبق ذكره، ص ٩٨.

(زيتته)، وهو أن المدينة كانت موجودة وقتذاك، وأنها شيدت في عهد سابق، وأن (رعمسيس الثانى) أضاف إليها وجددها.

ويبدو أن أصحاب هذا الاتجاه الذى يرى أن (رعمسيس الثانى) قد استكمل تشييد المدينة وأطلق عليها اسمه، وكانت تقوم على انقاض (حواريس) الهكسوسية القديمة، وأنها هى ذات (تانيس) المذكورة بعد ذلك فى المدونات، وأنها ذات المدينة المذكورة باسم (صوعن) فى التوراة (انظر: متكررات منها مثلاً ما جاء فى الأعداد ١٢، ١٣ من المزمور ٧٨، فى قوله : "قدام آبائهم صنع أعجوبة، فى أرض مصر بلاد صوعن، شق البحر، فعبرهم، ونصب المياه كند" وأنها هى ذات (صان الحجر) الحالية. إضافة لما تشير إليه تلك الأسماء من علاقة لسانية تجيز ذلك الاستنتاج.

وعليه فإن المعلومة التى أوردها (مانيتو) حول اسم مدينة الهكسوس (حواريس) صحيحة مئة بالمئة، دعمتها نصوص التحرير المكتشفة، وإن كان مكانها غير محدد باليقين حتى الآن. كذلك المعلومة الثانية حول المعبود الأول للهكسوس (ست) أيضاً صادقة مئة بالمئة، وهو ما يضيف باستمرار رصيذاً مستمراً لمصادقية (مانيتو) المصرى السمندى. المهم الآن أن حواريس لم يزل مُختلفاً عليها وعلى موقعها أشد الاختلاف. وقد ذهبت جلة محترمة من علماء المصریات إلى أن حواريس (حواريس) هذه هى ذات المدينة التى حولها الملك رمسيس الثانى فيما بعد إلى مدينة عامرة، وأعاد بنائها حتى كانت أزهى مدن الزمان، وأطلق عليها اسمه (رعمسيس).. إلا أن ما يحبط أى باحث هنا، أن مدينة (رعمسيس) نفسها، والتى ذكرتها التوراة باعتبارها مدينة الاضطهاد الإسرائيلى فى مصر، لم يتم الإتفاق على موقعها حتى اليوم بشكل قاطع، وإن كان مجمل الاتجاهات يذهب بها إلى شرقى الدلتا، على الحدود السينائية. وتناثرت الاقتراحات على خريطة محافظة الشرقية الحالية أو حدودها الشرقية مع سيناء، فقد ذهب (دى بوا إيميه) العالم المصاحب للحملة الفرنسية إلى أن مدينة (رعمسيس) كانت تقع قرب مدينة (السبع أبيار) الواقعة على الساحل الغربى لبحيرة التمساح، وموضعها الآن تل المسخوطة قرب مدينة الإسماعيلية. أما (جاردنر) فقد ذهب إلى أنها (بى لوز) أو (بيلوزيوم) المعروفة الآن بالفرما أو بالوطة إلى الشرق من بور سعيد، لكنه تراجع عن (بى لوز) واقترح مدينة (صان الحجر) الحالية على شاطئ بحيرة المنزلة الجنوبى، وذلك بعد أن ذهبت مجموعة متميزة من المصرولوجيين إلى موضعها هناك، ومن هؤلاء (بونكر) و (بروغش) و (بيير مونييه). هذا بينما ذهب آخرون إلى وضعها على الخط الواصل بين شرقى الدلتا وبين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، فى الوادى المعروف الآن بوادى طميلات، ومن هؤلاء (نافيل) الذى اقترح (صفط الحنة) غرب هذا الوادى موقعاً لرعمسيس لكن بعضهم ذهب بها شرقاً على ذات الخط فاقترح (تل رطابة) مثل (بترى)، وأوغل آخرون شرقاً فاقترحوا (تل المسخوطة) كما عند دى بوا - إيميه. أما آخر الإقتراحات وهو السائد الآن، فهو ماجاء بعد كشف أثرى كبير قام به (محمود حمزة) واقترح معه أن تكون رعمسيس هى (قنتير) الحالية إلى الشمال من فاقوس شرقى الدلتا.

والمعنى أننا لو أخذنا بأن (حواريس) هي ذات مدينة (رعسميس)، فإن علينا الاتفاق على موضع (رعسميس) أولاً . وحول الاسم (حواريس) من الأصل (حوارة، أو هواره) يفيدنا (جاردنر) بأن معناه الإدارة المدنية للدولة. وإذا أخذنا بالنظرية القائلة أن الهكسوس قد كونوا إمبراطورية فلنا أن نفترض وجود أكثر من مركز إدارى لهم فى المنطقة ، وهو ما يقود إلى افتراض وجود أكثر من (حوارة)، وهو المفتاح الذى سيدلنا الآن على الموضع الذى تكرر كثيراً فى التوراة باسم (حويلة) . وما نقصده أنه لاختلاف على أن حواريس التى ذكرتها النصوص المصرية القديمة كانت مركزاً للإدارة الهكسوسية فى مصر وأنها كانت على الطرف الشرقى للدلتا الذى هو الطرف الغربى لسيناء، وإن لم يتمكن الباحثون من تدقيق موضعها هناك.

وكثيراً ما ربطت التوراة بين مدينة فى جنوبى فلسطين. (حبرون/ الخليل)، وبين حواريس المصرية. والتوراة تذكر حواريس باسمين يراد على التبادل، الأول والقديم هو (صوعن)، والثانى الأحدث هو مدينة (رعسميس)، وتشير فى تواتر متعدد فى مناطق متفرقة بالتوراة إلى أن (صوعن) قد بُنيت بعد (حبرون) بسبع سنين، يبدو لنا كما سيأتى التفصيل بشأنه فيما بعد، أنها الفارق الزمنى بين استيلاء الهكسوس تماماً على حبرون / الخليل / جنوبى فلسطين عند تحولهم من دولة تجارية إلى دولة توسعية إمبراطورية وبين دخولهم مصر وإقامتهم فى صوعن / رعسميس / حواريس.

الواضح لدينا على المستوى اللسانى وحده (الآن) أن (حويلة) التى تكررت فى الكتاب المقدس، أنها بالتبادل بين حرف اللام والراء باعتبارها حروف سقف حلقيّة، فإن (حويلة) ستكون (حويرة). وهى المسمى الذى يلتقى تماماً مع اسم عاصمة الهكسوس (حواريس) بعد حذف التصريف الاسمى فتصبح (حوار) وهى التى أطلق عليها المصريون (حواعة). وفى المعركة التى قادها أول ملك إسرائيلى، الملك (شاول) ضد العماليق العناقين، يؤكد لنا الكتاب المقدس نتيجة المعركة بقوله: " وضرب شاول عماليق من حويلة حتى مجيئك إلى شور التى مقابل مصر / صموئيل أول ٧/١٥ ". وهذه النتيجة تعنى أن شاول بضربه مدينة العماليق امتد تأثير تلك الضربة على العماليق بطول المنطقة الممتدة من (حويلة) إلى (شور) التى أمام مصر. وحتى الآن لم يتم تحديد أين تقع (حويلة) التوراتية على الإطلاق، إنما ذهب الجميع إلى تحديد (شور) بأنها على حدود الدلتا الشرقية مباشرة، حتى تكون أمام مصر. استناداً إلى مجموعة إحدائيات أعطتها لنا التوراة، حيث يتكرر ذكر (شور) مرات متعددة. وأول الإحدائيات وأوضحها تأتى فى حدث عبور البحر بالعصا المعجزة، حديث نجد أول موضع ينزل به الإسرائيليون بعد عبور البحر من الدلتا المصرية إلى سيناء هو برية باسم شور " ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف، وخرجوا إلى برية شور/ خروج ١٥ / ٢٢ "، مما يعنى أنها على الحدود مباشرة مع المدن المصرية العامرة فى شرق الدلتا، والتى كان أهمها (صوعن) أو (رعسميس) مدينة الفرعون التى يزعم الإسرائيليون أنهم أضطهدوا فى بنائها، وعبروا من جوارها البحر فى قصة العصا الحية. ويبدو أن هناك طريقاً كان يبدأ من الموضع شور حتى يصل إلى شرقى سيناء نحو فلسطين، أطلقت عليه العبرية (درك شور)، وجاء فى الترجمة العربية " طريق شور/ تكوين ١٦/١٧ " ولازلنا نرتب أوراقنا فمهلاً

قناة سيزوستريس

هناك معلومات مؤكدة أن الفراعنة قد وصلوا النيل بخليج السويس على البحر الأحمر، وينسب المؤرخون اليونان تلك القناة للفرعون الشهير سيزوستريس، لكن يبدو لنا مما جمعنا من الأخبار غير الكاملة التي وصلتنا. أن شأن القناة أقدم من ذلك بكثير، وأنها ربما تعود إلى زمن ما يسمى بالفترة الوسطى الأولى الواقعة بين نهاية الأسرة السادسة في الدولة القديمة وبين قيام الأسرة الثانية عشرة في الدولة الوسطى. حيث استغرقت تلك الفترة خمس أسرآت كان من بينها أسرة قوية اتخذت من مدينة إهناسيا بمصر الوسطى عاصمة لها، وقد تلقب ملوكها باللقب (خيتى) أو (أخيتوى). وهنا نستمع إلى (جون ويلسن) يحدثنا عن أسرة الملوك الإهناسيين (هيرا كوبوليس) فيقول: لقد كان العدو الذى يخشاه الإهناسيون هم الآسيويون حملة القوس — رغم رنة الاحتقار فى حديث الملك الإهناسى — ذلك لأن طبيعة بلادهم القاسية وما يلاقونه فيها من متاعب تدفعهم إلى السطو على الدلتا. ويصفهم خيتى بقوله: " انظر إلى الآسيوى اللعين، إن الأمور سيئة فى البلاد التى يعيش فيها، فهم فى حزن من أجل المياه، وبلادهم من الصعب الوصول إليها بسبب كثرة الأشجار، والطرق هناك وعرة بسبب الجبال، ومن ثم فإن الآسيوى لا يقطن فى مكان واحد، وساقاه خلقتا للتجول " (٢١) .

ثم ينبه ولده فى مجموعة نصوص عرفت بالعنوان (نصائح خيتى إلى ولده مرى كارع) أن يكون مستعداً لكل الاحتمالات إزاء هؤلاء الآسيويين الذى يربضون على حدود الدلتا الشرقية ينتهزون أى فرصة ضعف تبدو هناك. ومن هنا يقول (أحمد فخرى) إن خيتى قام ينبه ولده إلى أن يكون مستعداً لكل الاحتمالات، فمن خاف الحرب استعد لها، ولذلك يوجه اهتمامه إلى منطقة البحيرات المرة لحماية مصر من خطر البدو، وينصحه بتحصين جزء منها ثم تعمير الجزء الآخر وإمداده بالماء (٢٢) . ويعود ليؤكد على ولده "إذا قامت بلادك فى الجنوب بثورة فإن الأجانب فى الشمال سيجاربونك: فعليك أن تقيم مدناً فى الشمال " (٢٣)

ويقول (إبراهيم كامل) إن ملوك إهناسيا الملقبين باللقب أخيتوى أو خيتى " قد قاموا بتحصين الحدود الشرقية وإغلاق الوديان الصغيرة، إما بغمرها بالمياه عن طريق تحويل قنوات النيل إليها، أو بتأسيس المدن المحصنة عليها " (٢٤)

وإذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يفسر لنا الإشارات القديمة الغامضة عن وجود قناة النيل — البحر الأحمر زمن الدولة الوسطى بعد زمن إهناسيا وأخيتوى، وتلك ملاحظة (إبراهيم كامل) إذ يقول: " إن البحوث الجيولوجية وما كتبه المؤرخون القدامى من الإغريق والرومان نقلاً عن المصريين أنفسهم تدل كلها على أن

Wilson. J.A, ANET, P ٤١٦ .

(٢١)

(٢٢) أحمد فخرى مصر الفرعونية .. سبق ذكره، ص ١٧٤ .

Erman, The Literature of the ancient Egypt, London, ١٩٢٧, P ٨١ .

(٢٣)

(٢٤) إبراهيم محمد كامل إقليم شرقى .. سبق ذكره، ص ٢٣٧ .

تلك القناة كانت موجودة. خلال عصر الدولة الوسطى " (٢٥)، كذلك نجد (مانيتو) قد وضع في قائمته للملوك ملكاً باسم (سيزوستريس) في الترتيب رقم (٣) لحكام الأسرة الثانية عشر أول أسر الدولة الوسطى^{٢٦} ويمد (إبراهيم كامل) الخيط على استقامته فيرى أن وجود القناة في هذا الزمن القديم يفسر لنا عودة رحلة حتشبسوت من بونت عبر النيل مباشرة بالسفن التي أفلعت بها من القصير على البحر الأحمر، ويقول " يبدو واضحاً من واقع دراستنا لمناظر ونصوص رحلة بونت التي أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى تلك البلاد .. أن السفن المصرية لدى عودتها من الرحلة محملة بمحاصيل بلاد بونت كانت تصل إلى قرب مدينة منف حيث بدء القناة، ثم تبحر في النيل مصعدة حتى مدينة طيبة عاصمة البلاد في ذلك الوقت " (٢٧) .

ويؤكد المعنى الذى نذهب إليه، أنه قد تم العثور في تل رطابة بوادى طميلات إلى الغرب من تل المسخوطة على أثر يرجع إلى الملك خيتي من الأسرة الحادية عشرة من الفترة الوسطى الأولى، وهنا يتساءل المؤرخون: " ولكننا لا ندرى إن كان هذا الأثر مؤكد قد نقل إلى البلد أم أن تاريخها يرجع لعصر سابق لعصر رع عيسى الثانى، وإن كان هذا غير مؤكد " (٢٨).

وفى أكثر من موضع في كتاب الموتى نستمتع إلى إشارات حول ما يسمى بالبحيرة المزدوجة المقدسة فى أكثر من موضع (٢٩) . وفى اللوحة الرابعة من الفصل السابع عشر نشاهد معجزة فلق بحيرة ما، ربما تلك البحيرة المزدوجة تحديداً، والتي نعتقد من جانبنا أنها بحيرة التمساح تحديداً حيث كانت تتصل بها قناة سيزوستريس المشهورة.

ونعثر على خبر من زمن آمنحتب الثالث آخر يفيدنا علماً أن كهنة آمون عندما رفضوا أن تقوم الملكة تى بجولتها الطقوسية كملكة أولى رئيسية بالبحيرة المقدسة لأنها غير مصرية الأصل، قرر آمنحتب الثالث الذى توله بزواجه حباً الاستمرار فى سلسلة صداماته مع الكهنة بإنشاء بحيرة كبرى وصلتنا أطوالها، فعرضها يصل إلى ١٢٠٠ قدم أى حوالى ثلاثة كيلو مترات ونصف الكيلو متر، ويصل طولها إلى ٦٤٠٠ قدم أى حوالى تسعة عشر كيلو متراً وربع الكيلو متر (٣٠) .

وبالبحث فى مصر عن بحيرة موجودة الآن تحمل هذه المواصفات لم نعثر سوى على بحيرة التمساح، وسنرى أن البحيرة بالفعل بحيرة مزدوجة يصل بين شقيها الشرقى والغربى مضيق ضحل صغير فلم تزل حدودها الحالية شاهدة على وضعها قبل حفر قنال السويس، ويبدو أن القسم الشرقى الذى يطابق مواصفات بحيرة آمنحتب الثالث أو على الأصح بحيرة تى، كان موجوداً منذ الدولة الوسطى زمن خيتي عن طريق

(٢٥) نفسه: ص ٢٣٩ .

(٢٦) جاردنر: مصر الفراعنة .. سبق ذكره، ص ٤٨١

(٢٧) إبراهيم كامل: المصدر السابق، ص ٢٤٢ .

(٢٨) بواية مصر الشرقية: سبق ذكره، ص ١١١ .

(٢٩) كتاب الموتى: الفصول ١٢/١٥ و ١٣ و ٦/٥٨ و ٢١/١٧ .

(٣٠) شتندورف وسيل: عندما حكمت مصر الشرق، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠، ص ٩٧ .

وصله بالقناه النيلية بعد أن طمت هذه القناة بعد زمن خيتى، وكانت المنطقة بحكم طبيعتها الجيولوجية المرئية منخفضاً طبيعياً أزيلت من أمامه السدود الملحية المتراكمة لتترك مياة النيل تتساب لتملاً منخفض التماسح. وأنه سرعان ما تسربت المياه عبر هذا المضيق إلى المناطق الواطئة إلى اليسار منها مع فيضانات متتالية لتشكل بحيرة أخرى توازيها طولاً، لتظهر لنا بحيرة التماسح بحيرة مزدوجة قولاً وفعلاً. ويبدو لنا أن وضع بحيرة تى فى ذلك المكان يتفق تماماً مع منطق أن تى من تلك المناطق البدوية الشرقية — كما سنثبت ذلك في أبواب لاحقة — أنها كانت مديانية سيناوية ويدعم ذلك أن النص الخاص بإنشاء البحيرة يقول: " إن جلالتة قد أمر بعمل بحيرة للملكة تى عند مسقط رأسها جاروخا Djarkha " و " إن جلالتة أقام احتفال هدم السدود فى السادس عشر من الشهر المذكور ثم أبحر فى رعاية الله فى مركبه الرسمى آتون المتألق " (٣١) والقول بهدم السدود يعنى إنه قد تم توسيع القناة القديمة والقناة المؤدية لها، وعند الوصول إلى نقطة الالتقاء بينهما أقام سد يمنع المياه عن السقوط فى حفائر البحيرة، وأنه قد تم هدم هذا السد يوم افتتاح البحيرة بحضور الفرعون ومليكته العظمى. ونستمع من عبد المنعم أبو بكر للحدث كما دونه المصرى القديم يقول:

العام الحادى عشر الشهر الثالث من الفصل الأول اليوم
الأول من حكم الملك آمنحوتب له الحياة وزوجته
الكبرى تى لها الحياة.

إن جلالة الملك قد أمر بحفر بركة لزوجته الملكة
الكبرى تى فى مدينة زاروخ على أن يكون طولها
٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع. وقد احتفل الملك
بافتتاح البركة فى الشهر الثالث من الفصل الأول. وفى
اليوم السادس عشر أبحر فوق سطحها على الزورق
الملكى بهاء آتون. (٣٢)

ولدى المؤرخين العرب تختلط الحقائق بالأخيلة، وتختلط الأماكن ببعضها على حد تعقيب جمال حمدان وهو يحدثنا عن ياقوت فى حديثه عن مدينة تنيس يقول " إن التى أسستها وسمتها باسمها هى دلوكة ملكة مصر الفرعونية القديمة بعد حادثة خروج موسى وكانت هى التى قادت إليها مياه النيل، بينما كانت منطقة المدينة أرضاً صلبة كلها " (٣٣).

وقد علمنا أن تنيس كانت داخل بحيرة المنزلة وبالتالي لم تكن أرضاً صلبة، إنما الأرض الصلبة كانت عند بحيرة التماسح، والمهم فى الخبر أنه يتحدث عن قناة تخص فرعوناً وهو ما يلتقى مع خبر بحيرة تى، ناهيك عن كون اسم دلوكة لا يلتقى مع اسم تنيس بينما ياقوت يؤكد أنها دلوكة هى التى أسست المدينة

(٣١) سيريل آلريد: إخناتون، ترجمة د أحمد زهير الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢ .. سبق ذكره، ص ٥٤ .

(٣٢) عبد المنعم أبو بكر: إخناتون، المكتبة الثقافية، القاهرة، عدد ٥٢، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٣٣) جمال حمدان: شخصية .. سبق ذكره، ج ١، ص ٢١٦ .

وأسمتها باسمها، وعلى الفور نلاحظ التطابق الفونيطيقى بين اسم **دلوكة** أو **تاروكا**، وبين الاسم الذى أعطانا إياه نص آمنحتب الثالث لمكان البحيرة (**زارو خع**) أو (**زارو كا**) أما المدهش حقاً أن ياقوت يقول إن مدينة دلوكة أو زاروكة فى زمنه كانت تسمى **ذات الأخصاص** أى العشش أو الحظائر أو المظلات، وهو اسم لا تجده إطلاقاً فى سيرة مدينة تنيس، إنما هو المعنى العبرى لكلمة سكوت المحطة الأخيرة للخارجين من مصر قبل شق البحر، ثم إننا نعلم أن جميع الحملات المصرية تتحدث عن خروجها من آخر مدينة مصرية نحو سيناء والشام تقع على الحدود المصرية الشرقية، وجاء اسم هذه المدينة على مختلف القراءات (**سيلة** - **زل** - **ثارو** - **زارو** - **شارو**)، والواضح أن الشق الأول من اسم مدينة بحيرة التمساح (**زارو** - **خع**) يلتقى تماماً مع اسم (**زارو**) أو (**سيلة**) المشهور للقلعة الحدودية الكبرى منطلق الحملات المصرية على آسيا.

وقد ترك هذا الوادى بمدنه (**وادى طميلات**) ذكريات عظمت فى مخزون الذكريات العربى عن المدائن القديمة الكبرى بالمنطقة، ماثور يتحدث عن قصور عظيمة عرفها العرب فى ترحالهم لقربهم منها، ومعلوم أن وادى طميلات عرف بهذا الاسم حديثاً لكنه كان يعرف قديماً باسم **وادى الساتير** أو **السدير**، والساتير عرفه اليونان باعتباره وحشاً إلهياً يلقى بنا اسمه مع الإله المصرى سبت، فهو **وادى سبت** أو **سيترويت** تلك المقاطعة المتصلة بالبوادى السينائية دون بقية البلاد المصرية، وقد ذكره باسم السدير معجم البلدان ومعجم محمد رمزى. (٣٤)

وفى السدير قامت مدائن فيثوم ورعمسيس، وفيها قصر الفرعون الذى عرفه العرب باسم قصر السدير وتغنوا به شعراً كما جاء عند عدى بن زيد يقول:

وتبين رب الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير (٣٥)

ولا يحتاج إلى تنبيه ربطه بين بحر مستعرض الذى نراه قناة سيزوستريس (الذى يسير عرضاً بين الغرب والشرق بعكس كل مجاري الدلتا التي تسير من الجنوب إلى الشمال) وبين الوادى المسمى بالسدير، أما الخورنق فلا شك لدينا أنه الكرنك، وقد اشتهرت قصر الكرنك الشتوى وقصر السدير الصيفى لفراغنة مصر حتى صاروا مضرب الأمثال كما فى الأبيات القائلة :

ولقد دخلت على الفتى —————
الكاعب الحسناء ترفل
وأحبها وتحنى —————
وإذا شربت فإبنى
وإذا صحت فإبنى —————
رب الخورنق والسدير
رب الشهوية والبجير

(٣٤) محمد رمزى: القاموس الجغرافى، القسم الثانى، ج ١، ص ٧٧.

(٣٥) ابن قتيبة: المعارف، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ص ٦٤٧.

نعم نحن نقول إن تلك القناة التي كانت بعكس كل فروع الدلتا تسير عرضاً هي المقصودة في شعر
عدى بن زيد بالبحر المعرض، وسنعلم بعد قليل لماذا اعتبرت بحراً رغم أنها قناة.

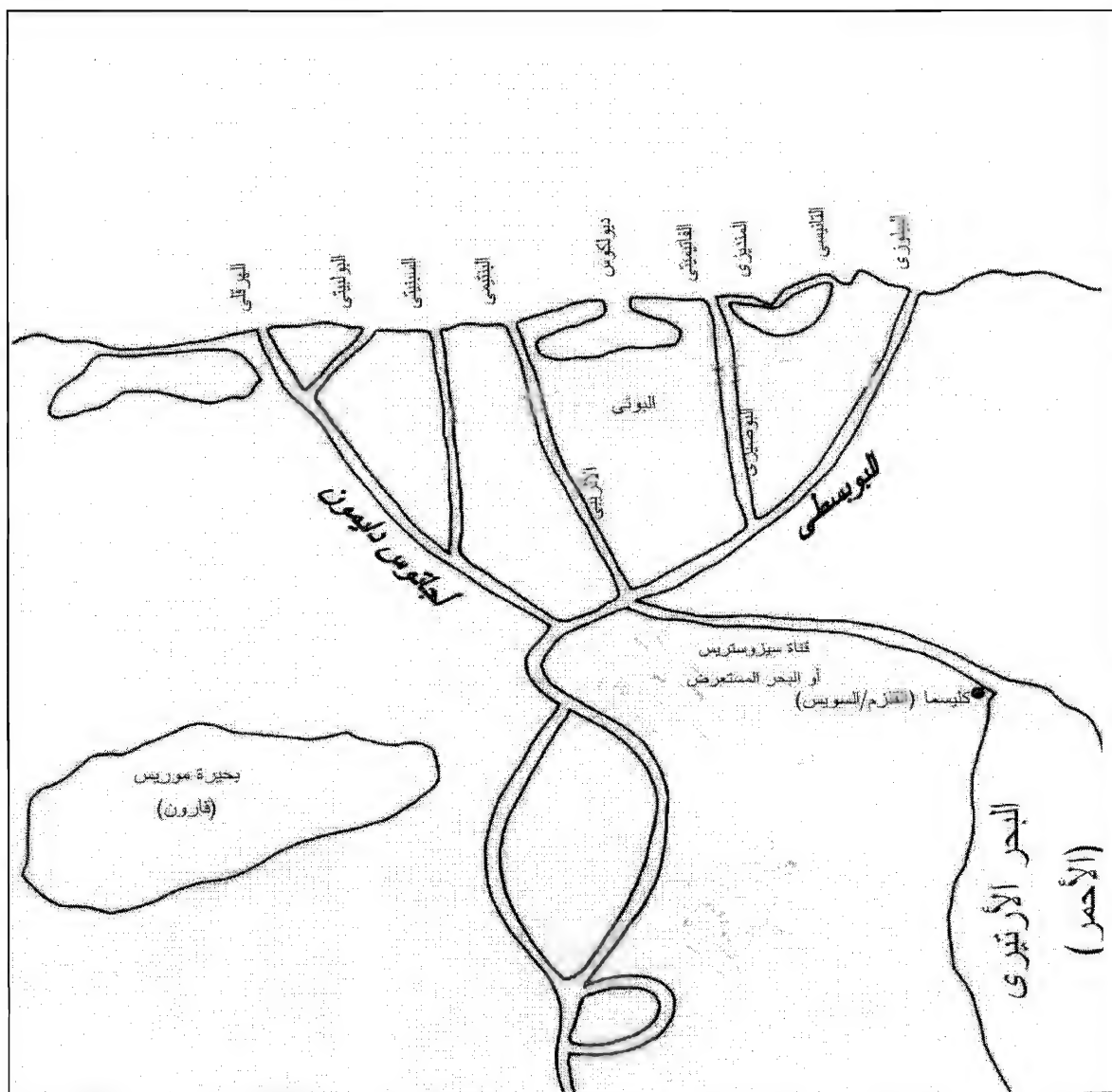
ومع الاتفاق بين المؤرخين الذين قلما يتفقون على كون المسخوطة هي التي عرفها اليونان باسم
هيروبوليس فإننا — وفق كل ما بيدنا الآن — من معطيات يمكننا أن نجازف ونقول إن مدينة الهكسوس
الكبرى بمصر والتي حملت اسم حواريس وأواريس وهواره قد قامت في تل المسخوطة تحديداً، وأنها هي
التي حملت بعد ذلك اسم رعمسيس. فالكلمة بوليس اليونانية تعنى مدينة، أما الشق الأول من اسم المدينة وهو
(هيرو) أو (إيرو) فهو ليس (الأبطال) إنما هو مدينة الهكسوس (حيرو). ومع تصريفها اسماً أصبح حيرويس
أو حواريس، وبكتابتها يونانياً أصبح حيروبوليس، أو هيروبوليس. ويحدثنا (غلاب) عن مدينة هيروبوليس
فيقول: إن هذه المدينة قد "نمت إلى مدينة تجارية في عهد بطلميوس الثاني كما كانت مدينة دينية إلى جانب
مكانتها كمدينة تجارية ومركز دفاعي وميناء نهري وبحري، فقد كانت منطلق السفن الملكية الحربية
والتجارية نحو البحر الأحمر .. وقد عرفت في عهد الرومان باسم مدينة إيروبوليس Eropolis أو إيرو،
وكانت مركزاً تجارياً وحربياً شيد على قناة النيل / البحر الأحمر .. وقد ظلت قناة النيل / البحر الأحمر هذه
مهمة بعد ذلك حتى ولى الملك نيخاو من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ٦٠٩ — ٥٩٤ ق.م وحاول
إعادة حفر القناة ولكنه لم يتم مشروعه هذا رغم اهتمامه بقوة مصر البحرية. ثم حفر دارا بن قمبيز الفارسي
الذي فتح مصر في القرن الخامس ق.م ترعة على غرار ترعة الفراعنة القديمة .. وكانت هذه القناة تخترق
وادي الطميلات وتتبع مجرى ترعة الإسماعيلية الحالية. وقد أمكن تتبع مجرى هذه القناة بما وضعه داراً من
شواخص حجرية تخليداً لذكرى هذا المشروع الذي كان يرمى من ورائه إلى تنشيط تجارة مصر مع بلاد
فارس عبر البحر الأحمر" (٣٦).

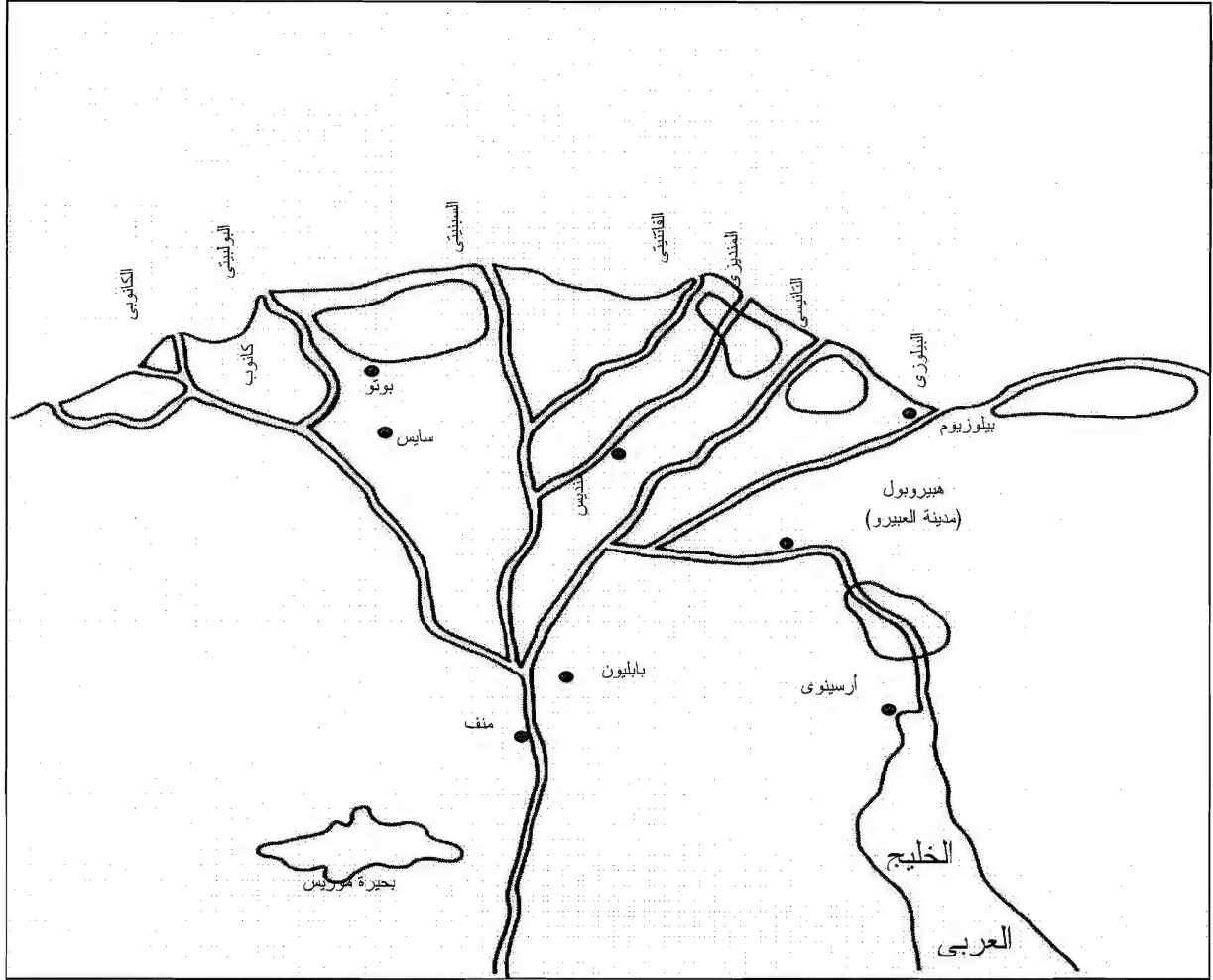
ويقول إبراهيم نصحي: " إذا كان من الجائز أن يكون قد سبق دارا إلى حفر قناة وادي الطميلات أحد
ملوك الأسرة الثانية عشرة أو حتشبسوت فإن النصوص التي تتحدث صراحة عن هذه القناة مدونة على
اللوحات الفارسية ولوحة بطلميوس الثاني. فقد أقام دارا على مجرى القناة ثلاث لوحات في تل المسخوطة
وسيرابيوم وكبريته وأقام أجزركيس لوحة رابعة عند الكوبرى شمالي مدينة السويس بستة كيلو مترات، وقد
 لوحظ أن كل لوحة تبعد عن الأخرى بحوالي ٢٥ كيلو متراً، وأن المسافة بين تل المسخوطة ومخرج القناة
من النيل عند تل بسطة تبلغ ضعف هذه المسافة، ولذلك إما أن تكون قد أقيمت لوحة خامسة بمنطقة التل
الكبير على الحافة الجنوبية للهضبة الصحراوية، لكن هذه اللوحة لم تكتشف بعد، وإما أن يكون نخاو هو
الذي أعاد حفر القناة من تل بسطة حتى تل المسخوطة، ويكون داراً وأجزركيس قد أعاد حفر الباقي من تل
المسخوطة حتى رأس خليج السويس " (٣٧).

(٣٦) غلاب سبق ذكره، ص ٢٦ .

(٣٧) نصحي: سبق ذكره، ص ٤٣ ، ٤٨ .

ويضيف (محمد سيد غلاب) القول: " ويتحدث مؤلف كتاب تاريخ الفرنجة Histoire des frances ٥٧٦م عن طريق مائى يصل بين ذراع البحر الأحمر والمستنقعات والبحيرات المرة والتمساح، وقناة تصل هذا كله بالنيل، فهل معنى هذا أن القناة كانت موجودة حتى القرن السادس الميلادى؟ على كل حال فقد كانت مدينة إيرو (يقصد هيروبوليس) موجودة فى القرن الرابع، كما كانت كليزما قائمة أيضاً حتى الفتح العربى لمصر، وكان البحر الأحمر معروفا عند العرب باسم القلزم .. وهو تحريف لكليزما اليونانية. ويبدو أن قناة النيل / البحر الأحمر ضئول شأنها بعد القرن الثانى الميلادى، وكانت تتعرض لسفى الرمال، ولم يكن خليج وادى طميلات يمتلئ بالماء إلا





أوقات الفيضان. ولكن بعض البرك والمستقعات تخلفت عنها فكانت تظهر من الرمال حيناً وتترك حيناً آخر، وقد استطاع العرب بعد فتح مصر مباشرة الاستدلال على مكانها بسهولة، فأعيد حفرها باسم خليج أمير المؤمنين وتم حفرها عام ٣٤ للهجرة. ولم ينقطع سيل ماء النيل عند البحر الأحمر إلا سنة ١٥٠هـ — ٧٦٧م فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور " (٣٨)

وهذا يعنى أن القناة قديمة العهد بدأ ذكرها منذ عهد خيتي في زمن الفترة الأولى وحتى الزمن العربى وأنها قد ربطت بحيرة التمساح بالبحيرات المرة بالخليج العربى (خليج السويس / البحر الأحمر)، وهو ما يعنى أنها جميعاً قد شكلت امتداداً للبحر الأحمر، وأصبحت جديرة جميعاً باسم (بحر سوف).

ولقد ذهب (دى بوا إيميه) إلى حل لغز مدينة رعمسيس، عندما جعلها المدينة التى عرفها اليونان باسم (هيريوبوليس) ووضعها على رأس الخليج العربى / السويس، الذى أسموه حيناً الخليج العربى وحيناً الخليج الهيريوبوليتى، مما أدى إلى استنتاجه أن (هيريوبوليس) تقع عند قمته وأعطته اسمها. لذلك مد الخليج وعبر به

(٣٨) غلاب: سبق ذكره، ص ٢٧ ، ٢٨ .

الحوض جميعه ليعبر به البحيرات المرة ويصله ببحيرة التمساح، وهناك عند منطقة السبع أبيار (الإسماعيلية الحالية) أو إلى الغرب منها حيث تقع تل المسخوطة وضع دى بوا إيميه مدينة رعسيس. وقد استند دى بوا إيميه فى وصلة خليج السويس ببحيرة التمساح عبوراً على البحيرات المرة إلى عدة شواهد هامة فعلاً، فقد عثر فى الحوض الرملى ما بين خليج السويس والبحيرات المرة على طبقات من الملح البحرى تصل فى كثافتها إلى درجة أنها أخذت شكل قباب من الملح. وبالحفر فى مواضع مختلفة من ذلك الحوض الطويل، كان الماء يوجد دوماً على عمق ما بين أربعة وخمسة أمتار فقط، وله ذات مذاق مياه البحر. وإنك فى ارتحالك بطول ذلك الحوض المستطيل ستصادفك مناطق كثيرة موحلة مع مستنقعات ملحية متناثرة، ناهيك عن كون الحوض نفسه ينخفض عن سطح البحر بحوالى خمسة عشر متراً. وقد عثر (دى بوا إيميه) إبان بحثه الميدانى فى هذا الحوض على قواقع بحرية ومخلفات لنباتات بحرية تنتشر على خط طولى يسير على مستوى واحد من خليج السويس إلى البحيرات المرة، ثم من البحيرات المرة إلى بحيرة التمساح، حيث يتوقف هناك ومن هناك أقدم (دى بوا إيميه) على فرضيته فقام يوصل أو يمد أو يدمج الخليج العربى / الهيربوليتى / السويس / بالبحيرات حتى التمساح حيث احتسبه كان يتسع هناك . لنقع تل المسخوطة على قمة ضفته الغربية^(٣٩)، والاتساع بهذا المعنى كان يجب أن يغطى عرضاً ستة عشر كيلو متراً كاملة هى المسافة بين الشاطئ الغربى لبحيرة التمساح وبين تل المسخوطة إلى الغرب منها بستة عشر كيلومتراً.

ولتأكيد وجهة نظره يذهب دى بوا إيميه فى وصلة الخليج ببحيرة التمساح إلى القصص القديم المتواتر عن قناة كانت تربط النيل بالخليج وعرفناها باسم قناة سيزوستريس. ويقول إن مدينة القلزم القديمة المظنون أنها السويس القديمة لو كانت كذلك فعلاً، أى لو كانت تقع قديماً محل السويس الحالية، فكان لابد أن تمر القناة منطلقة من النيل عبر وادى طميلات إلى بحيرة التمساح لتخرج منها جنوباً لتعبر البحيرات المرة حتى تصل رأس الخليج عند السويس الحالية، لتصب فى الخليج، لكن ذلك ليس صحيحاً بالمرّة لأن دى بوا إيميه لم يجد أى اثر لطمي النيل فى حوض القلزم جميعه أو حتى أية بقعة قريبة منه، ولم يسفر البحث عن وجود أى طمي، وكل ما وجده آثاراً للبحر وليس للنهر. ويستنتج دى بوا إيميه من ذلك أن البحر كان يمتد بخليجه العريض حتى بحيرة التمساح، وأن القناة القادمة من النيل من الغرب كانت تصب فى بحيرة التمساح، وعليه فقد كانت ميناء القلزم تقع على بحيرة التمساح التى كانت بهذا الشكل هى قمة الخليج، ولم تكن القناة تصب عند السويس الحالية إنما فى بحيرة التمساح التى هي فى رأيه جزء من خليج السويس انفصل عنه بعد ذلك بعوامل جيولوجية.

وقد استشهد (دى بوا إيميه) على مذهبه بوصف (لوبير Le pepere) لمياه الفيضان وهى تندفع نحو الشرق قادمة من الغرب خارجة بشكل طبيعى من النيل، لتجرى بكميات كبرى واندفاع مما يشير إلى انحدار سريع للأرض على خط المجرى. وقد أكد شيوخ البدو فى تلك المنطقة (عند السبع أبيار) للمسيو (ديفيليه) أن الماء كان يستمر فى تدفقه حتى يصل إلى موضع يتجمع عنده أطلق عليه البدو إسماً على مسمى هو (رأس

(٣٩) دى بوا إيميه: سبق ذكره، الدراسة السادسة، ج ٣ من وصف مصر، ص ١٣٧ : ١٣٩ .

المية) قرب بحيرة التمساح. وهذا يعنى أن مياه النيل وقت الفيضان كانت تتدفع بشكل تلقائى طبيعى فى منحدر يخترق وادى طميلات لتصب فى نقطة قرب بحيرة التمساح. وهو الأمر الذى يؤكد أخبار القدماء عن وجود قناة تربط خليج السويس بالنيل، وربما كانت المسافة من النيل حتى هذه النقطة التى تقف عندها مياه النيل هى التى أشار من هنيهة إلى أن من حفره هو الفرعون نخاو أو على الأصح أعاد حفره، ثم جاء (دارا) الفارسى وأعاد حفر الجزء الباقي حتى السويس. وبخصوص تلك القناة يقول (هيرودت): " وأنجب بسماتيك ولداً هو نيخوس (نخاو) حكم مصر، وهو أول من شرع فى حفر القناة التى تؤدى إلى بحر أروتري [بحر أروتري هو الاريتري أى الأحمر، وقوله أن أول من حفرها هو نخاو يعنى أن هذا ما وصله وليس بالضرورة صادقا / المؤلف]، والتى حفرها من بعده دارا الفارسى. وطول القناة يساوى مدى إبحار أربعة أيام، وقد حفرت عريضة حتى أن سفينتين من ذوات الثلاث صفوف من المجاديف تعبر انها جنبا إلى جنب [لاحظ هذه صفات سفن بحرية ضخمة / المؤلف]. ويؤتى إليها بالماء من النيل منصرفا من مكان فوق مدينة بوباسطيس بقليل، بالقرب من المدينة العربية باتوموس وتنتهى إلى بحر أروتري، ثم تسير فى منحدرات متجهة من الجبل نحو الجنوب .. حتى تبلغ الخليج العربى.. وقد هلك من المصريين أثناء عملهم فيها فى عهد نيخوس مئة وعشرين ألف عامل " (٤٠).

وهنا يقف دى بوا إيميه مستنداً إلى هيرودت ليقول إن تلك القناة الكبرى كانت تخرج من جنوب تل بسطة، وهذا يعنى خروجها من الفرع المعروف بالفرع البوباستى الذى يعرف أيضاً بالفرع الثانيسى لتصل مباشرة إلى الخليج العربى الذى يمتد حتى بحيرة التمساح، لذلك رفض دى بوا إيميه الطول الذى أعطاه لنا هيرودت للقناة وهو تسعين ميلاً لأنه يصل بها للسويس الحالية، ويأخذ برأى بلليني Peline الذى قال أن طولها كان ٦٢ ميلاً فقط، لأن ٦٢ ميلاً كانت أقرب للمسافة بين بسطة وبحيرة التمساح (٤١).

المشكلة هنا كما سبق وأشرنا أن مد الخليج حتى بحيرة التمساح إن كان حقيقة فقد كان أمراً قديماً قدم عصره الجيولوجى، ويؤكد لنا رفضنا لاحتساب الخليج كان يمتد بحجمه الهائل هذا حتى التمساح، أن الدراسات الحديثة بعد دى بوا إيميه بزمان أعادت دراسة حوض القلزم، فوجدت تحت آثار البحر بأعماق أبعد طبقات طمى نيلى وافرة، لا تشير إلى قناة صناعية كانت تربط النيل بالخليج، إنما إلى فرع نيلى حقيقى قديم كان يعبر الحوض جميعه ليصب عند السويس الحالية، وفى ذلك يقول جمال حمدان أنه كان ضمن أفرع النيل " فرع ناقص أو متدهور نوعا كان يخرج قبل الفرع البيلوزى ويتجه شرقا ليتصل بالبحيرات، ليخترقها جنوبا نحو البحر الأحمر عند كليسا / السويس، ويبدو أن هذا الفرع القلزمى كان يسير بوضوح فى وادى طميلات الحال (٤٢) " ثم يزيدها إيضاحا بشأن هذا الفرع النيلى القلزمى ضمن حديثه عن انقراض فروع الدلتا القديمة، حتى لم يبق منها سوى فرعى دمياط ورشيد فيقول حمدان: " يبدو أن الإنقراض قد بدأ من

(٤٠) هيرودت فى مصر ٢٩٠: ٢٩٢.

(٤١) دى بوا إيميه: سبق ذكره، الدراسة السادسة، ج٣، ص ١٤٠.

(٤٢) جمال حمدان: شخصية مصر...

الشرق حيث الفرع الواهى الضعيف الطمىلاتى القلزمى .. وبعده أتى دور البيلوزى أقصاهم شرقا الذى ذكره الجميع إلا جورج القبرصى، مما يوحى أنه كان قد اختفى قبل القرن السابع الميلادى على الأقل، ويلى بعد هذا غربا التانىسى فالمنديسى " (٤٣)

لكن العمق الذى تم فيه العثور على طمى ذلك الفرع القلزمى القديم يشير إلى أنه كان فى عصور قديمة، لكن آثاره هى التى أوعزت للفراعنة بشق القناة على ذات خطه القديم.

هنا تواجه نظرية دى بوا إيميه مشكلة كبيرة تسقطها تماما رغم عبقريتها، لأن وجود فرع نيلى قديم يعنى أن حوض القلزم كان كما هو لأزمان بعيدة، وأن انفصال البحيرات أقدم من زمن ذلك الفرع النيلى المنقرض ويعود إلى حقبة موعلة فى القدم. بدليل أن النيل هو الذى كان يسير فى حوض القلزم وترك آثاره هناك، ولم يكن الخليج ممتداً حتى التماسح لكن هنا يبقى اللغز الكبير، فمن أين جاءت آثار البحر المالح لتترك آثارها فى الطبقات العليا الحديثة لحوض القلزم؟

ثم يأتى هيرودت ليزيد الأمر اضطرابا بقوله إن فى المنطقة مناط الحديث كان يوجد أقصر طريق بين البحر الأحمر وبين البحر الأبيض، وأن هذا الطريق (موضع قناة السويس حالياً) هو الحد الفاصل بين البلاد المصرية والبلاد الفلسطينية (كانت سيناء تعد عند المؤرخين اليونان فلسطينية لسكانها بالبدو) فيقول نصا: " وهناك يوجد أقصر طريق وأصغر للذهاب من البحر الشمالى إلى البحر الجنوبى وهذا نفسه يسمى بحر أروتري. من جبل كاسيوس والحد الفاصل بين مصر وسوريا ". لكن المثير للبلبله فى كلام هيرودت وهو يتحدث عن خط جبل كاسيوس (الكسارون الآن عند الفرما) يقول: "إن القناة هناك تصبح أكثر تعرجا؟ وهكذا فالقناة هنا تتجه شمالا نحو الفرما وليس جنوبا نحو السويس، وهى عند الفرما أو قربها تصبح أكثر تعرجا (٤٤)!"

ولمزيد من الاضطراب بشأن قناة سيزوستريس ما جاء عند دى بوا إيميه وهو يتحدث عن الفراعنة فى آخر عهودهم زمن البطالمة عندما أراد أحد البطالمة إعادة حفر القناة، بعد أن عدت عليها الأيام والإهمال وسفى الرمال فطمرتتها فيقول: " بطلميوس حاول إعادة المشروع لكن مهندسيه أكدوا أن مستوى سطح البحر الأحمر يرتفع بمقدار ثلاثة أذرع عن سطح مصر، فخشى غرق المنطقة، أو أن يتلف ماء البحر مياه النهر، فأمر بإيقاف العمل بعد أن وصل إلى العيون المرة " (٤٤)

والآن لننتوقف نلتقط الأنفاس وسط هذا الرتل المختل نحاول أن نحدد ما لدينا من معلومات عن قناة سيزوستريس .

١ — أن هناك قناة عرضية كانت تربط فرعا شرقيا لدلتا النيل بخليج السويس عبورا على البحيرات الواقعة بينهما، لكن المشكلة هنا انعدام دليل وجود تلك القناة لعدم وجود أى أثر حديث لطمى النيل فى

(٤٣) نفسه: ج ١، ص ٢٠٦.

(٤٤) دي بوا إيميه: سبق ذكره، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

حوض القلزم جميعه. والأثر القديم للطمي يشير إلى أن النيل كان له فى العصور الجيولوجية القديمة، فرع قديم متدهور يسير فى حوض القلزم حتى السويس، وهو ما يعنى تراجع البحر قبل ذلك بأزمان ليسمح للنهر وطمييه بالتواجد، وتبقى مشكلة من أين أتت الآثار الباقية لمياة البحر المالح (الأحدث) بحوض القلزم .

٢ — زمن الحملة الفرنسية على مصر لم تكن قناة سيزوستريس موجودة عمليا، لكن زمن الفيضان كانت مياه النيل تجرى شرقا بشكل طبيعى تماما مندفعة عبر وادى طميلات حتى تصب عند رأس المية عند مما يشير إلى وجود قناة قديمة تجرى محلها تلك المياه.

٣ — أن إشارة هيرودت لاتساع القناة بحيث تستوعب عابرتين متجاورتين من السفن البحرية ذوات الثلاثة صفوف من المجاديف، تشير إلى أن القناة لم تكن مجرد ترعة صغيرة، إنما جهزت لاستقبال السفن العابرة للبحار.

٤ — أن أحد البطالمة أراد إعادة حفر القناة فأكد له مهندسوه أن مستوى البحر الأحمر أعلى بمقدار ثلاثة أذرع، وهو ما وجدناه حقيقة إذ ينخفض هذا الحوض حوالى خمسة عشرة متراً عن سطح البحر. وأمر بطليموس بإيقاف المشروع بعدما تبين له الخطر عندما وصل بالحفر إلى البحيرات المرة، مما يشكك فى كل ما سبق.

والآن ما قيمة تلك المعلومات؟ وماذا لدينا لينتج جديداً بعد النماذج التى طرحناها لعلماء أجلاء من أجل تحديد موقع مدينتى رعمسيس وفيثوم الواقعتان فى مقاطعة جاسان؟

لقد تأكد لنا من المؤرخين والجغرافيين الكلاسيك، وجود فرعين شرقيين للنيل ينطلق الأول وهو البيلوزى من جنوبى تل بسطة أى من الفرع البوباستى، ويتجه نحو الشمال الشرقى ليصب عند بيلوزيوم / الفرما. والثانى ينطلق من موضع ما بالقرب من بسطة بدوره ليتجه شرقا عبر وادى طميلات ليلتقى بحيرة التمساح ويتصل بعد ذلك بالبحيرات المرة ثم رأس خليج السويس، وعرفه المؤرخون الكلاسيك باسم قناة سيزوستريس. وقد وصلتنا خرائط أولية رفعت عليها القناتان كما فى خريطة استرابون وخريطة هيرودت [حسب تفسير بول]، فى زمن كان فيه النيل لم يزل يحتفظ بسبعة أفرع بالدلتا، وقبل أن تتقرض جميعا وتتحول إلى ترع ومصارف، بحيث لم يبق منها الآن سوى فرعى دمياط ورشيد.

وحتى زمن الحملة الفرنسية، نسمع لوبيير أحد علماء الحملة يؤكد أنه حتى زمانه — فقط منذ قرنين من الزمان — كان الفيضان يدفع بكميات هائلة من الماء شرقا، حتى قرب المسخوطة غربى بحيرة التمساح على حدود سيناء الغربية، وذلك يعنى أنه مع انقراض فروع الدلتا القديمة، فإن الماء كان يعرف طريقه الشرقى حتى زمن الحملة الفرنسية، ويتفق ذلك مع تقرير عالم الحملة المسيو ديفليه عن رأس المية عند السنة كراش قرب بحيرة التمساح كمصب للمياه المتدفقة من النيل نحو الشرق.

كما أن ذات الخرائط القديمة تؤكد وجود قناة تربط بين الفرع البوبسطى وبين خليج السويس، وقال هيرودت حسبما وصله أنها حفرت زمن نخاو، ولكننا ذهبنا إلى أنها حفرت قبل ذلك بزمان، ربما من أيام خيتى فى العصر المتوسط الأول، لكن بالتأكيد منذ زمن آمنحتب الثالث وزوجته تي. لكن هيرودت يقول أن بطلميوس لما حاول حفرها من جديد حذره مهندسوه لانخفاض سطح مصر هناك عن مستوى سطح البحر، ويكون السؤال البدهى: إذا كانت الأرض هناك منخفضة عن سطح البحر وهو الثابت فعلا، فكيف أمكن حفر القناة زمن نخاو ومن قبله آمنحتب الثالث ومن قبله زمن سيزوستريس ومن قبله زمن خيتى أوأخيتوي قبل الدولة الوسطى وقبل الجميع؟ لم نجد حلا سوى افتراض أن قناة سيزوستريس لم يكن الغرض منها إيصال الماء العذب إلى منطقة القلزم والبحيرات، بدليل أنها بالفعل لم تصل بمائها العذب إلى هناك، حيث لم يعثر على طمى النيل فى حوض القلزم. وعليه كان الغرض تجارى عسكري فى المقام الأول، فلم يشغل الفرعون الماء العذب أو المالح إنما شغله إقامة الخط التجارى البحرى، وخط حماية خندقى بالمياه هو ما نعتقد أنه المعروف فى التاريخ المصري القديم باسم سور الأمير الذى يصد الآسيويين. لقد تم حفر القناة ليس لتحمل مياه النيل إلى الخليج بل العكس أى لتحمل مياه البحر الأحمر المنحدرة فى القناة، بعد إزالة الحاجز الرملى الكبير، لتندفع باتجاه البحيرات عبر حوض القلزم، ثم نحو الوادى المنخفض طميلات حتى تتوقف عند أكثر المناطق موازنة على اليابس مع سطح البحر، وهناك — عند منطقة التوازن — تلتقى بالمياه الحلوة القادمة من القناة من الغرب من مخرجها عند الفرع البوبسطى.

ولأن الماء المالح كان لابد سيختلط بالحلو ويغلب أحدهما الآخر حسب قوته وتدفقه، فقد لاحظ (نصحى) ذلك وقال استنتاجا لماحاً سريعاً فى جملة واحدة: إن " حوض البحيرات المرة كان بمثابة حوض موازنة بين المياه القادمة من النيل، وبين المياه القادمة من البحر الأحمر " (٤٥). وإن كان تحديده لمكان الموازنة برأينا غير دقيق.

ولما كان اليابس حسب جميع التقارير أدنى ارتفاعا من سطح البحر، خاصة إذا ما اخترقت القناة أوطاً مناطق الدلتا الشرقية فى وادى طميلات العميق. لذلك نفضل افتراض حوض الموازنة فى وادى طميلات أو بالأحرى فى نقطة ما شرقيه تقع فى مكان ما يحتاج إلى تحديد. عند وصلة القناة ما بين الفرع النيلى وبين بحيرة التمساح، لأن الطرف الشرقي من وادى طميلات أكثر انخفاضا من حوض القلزم نفسه وهو بدوره كان منخفضا عن سطح البحر أصلا.

ومن ثم نتصور أن فرع القناة الجارى عبر وادى طميلات كان هو منطقة التوازن بين لحظات مدّ تندفع معها المياه المالحة، ثم تعود مع الجذر ليندفع ماء النيل العذب يطاردها مرة أخرى. ويترك لنا آثاره طميا واضحا بطول وادى طميلات. ويحول سواحل القناة إلى مناطق غنية بأحراش البوص، حيث توفر الماء العذب مع المالح، ومن هنا نعتقد سبب إطلاق التوراة اسم بحر البوص على البحر الأحمر جميعه باعتبار هذا الفرع أو تلك القناة كانت تحتسب جزءاً من خليج السويس، وهو مالمحه (إبراهيم نصحى) إذ

(٤٥) د. إبراهيم نصحى: السويس من العصور القديمة حتى الفتح العربى، دراسة ضمن كتاب السويس، صادر بالسويس، مصر، د. ت، ص ٤٧.

يقول : " إن القدماء كانوا يعتبرون البحيرات المرة امتداداً للبحر الأحمر .. ولهذ فإن بليوس .. كان يدعو خليج السويس بأجمعه الخليج الهيروبوليني نسبة إلى هيروبوليس"^(٤٦) بينما هيروبوليس كانت تقع في شرقي وادي طميلات.

إذن، وبهذا المعنى لدينا هنا قناتان وليس قناة واحدة، قناة ماء عذب مخرجها من الفرع البيلوزى تتحدر بمائها طبيعياً عبر وادي طميلات حتى تصل إلى نقطة قرب بحيرة التمساح ربما تكون المسخوطة، وأن اسم التمساح يشير إلى أن هذه القناة كانت تحوى ماء عذبا لا مالحا، فالتماسيح لا تعيش إلا فى الماء العذب النيلى فى مصر. هذا علما أن دى بوا إيميه لم يشر لا من بعيد ولا من قريب إلى نتائج بحثه عن آثار البحر المالح ما بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، مما يعنى أن المسافة بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح كانت تخلو من آثار البحر التى أشار إلى انتشارها بطول حوض القلزم. وهذا أيضاً يعنى أن القناة التى تم شقها من السويس الحالية تم وصلها بالبحيرات المرة، لتتحرف بعدها غربا نحو النقطة التى يتوقف عندها صعود الماء المالح فى منطقة توازن تلتقى فيه المياه المالحة بالمياه العذبة القادمة من النيل. [ويبدو أنه قد تم مد قناة الماء العذب من بحيرة التمساح لتلتقى بالفرع البيلوزى مرة أخرى قرب شرقى مدينة القطرلة لتصبح القطرلة غربها وتل أبو سيفا بشرقها، وكان لابد هناك من إنشاء قناطر للعبور نحو أبو سيفا وسيناء تركت أثرها فى اسم البلدة (القطرلة)، وهى فيما نعتقد تلك القناة الضائعة التى كانت تعرف تاريخياً باسم قناة الجفار]. ومعنى هذا أن الفرعون ومهندسيه قد قاموا بحفر القناة من السويس إلى البحيرات المرة، ثم انحرفوا بها نحو الغرب لتلتقى بفرع الماء النيلى الطبيعى عند نقطة بعينها، وهى تلك النقطة التى أصبحت مركز التوازن أو ملتقى البحرين أو مجمع البحرين، وأن عند هذه النقطة أنشأ الفرعون مدينته العبقريّة، لتكون ميناء عالمياً تلتقى عنده السفن القادمة ببضائع أفريقيا والجنوب الآسيوي عبر البحر الأحمر، بالسفن القادمة من عالم البحر المتوسط عبر الفرما فقناة الجفار حتى التمساح فمدينة الفرعون التى حملت بعد ذلك اسم رعسميس والتى وصفت بأنها بوابة مصر الوحيدة، وهو التعبير الذى يجد صداه فى تخريجنا هنا إذ تصبح جميع الطرق إلى مصر بهذا الشكل محاطة بخندق مائى عظيم، ولا يبقى سوى منفذ واحد برى يصل إلى تلك المدينة هو المسافة بين البحيرات المرة وبحيرات التمساح، وإن هذا المنفذ لابد ينتهى نحو المدينة التى يلتقى عندها طرف الماء فى زاوية منفرجة تجعل مدينة رعسميس بوابة مصر الوحيدة.

وهذا التخريج الذى نسوقه يلتقى بشدة مع خرائط جغرافى ومؤرخى العصر الكلاسيكى، وخاصة مع أخبار هيرودت وخريطة بطليموس واسترابون وتفسير بول لخريطة استرابون، الذى يأخذ من الفرع البوبسطى / التانيسى فرعين يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقى حتى يصب عند بيلوز / الفرما، ويتجه الآخر نحو البحيرات المرة والتمساح فالبحر الأحمر.

(٤٦) نفسه ص ٥٢ .

وهيرودت من جانبه يخرج الفرعان جنوبى تل بسطة / الزقازيق بقليل، ويضع المدينة الثانية من مدن الاضطهاد (فيثوم / بى توم / باتوموس) عند نقطة مقوسة فى انحناء قناة سيزوستريس من الشرق نحو الجنوب.

وذلك يفسر لنا أيضا التضارب بين هيرودت وبليني حول طول قناة كان مظنونا أنها واحدة، فقال هيرودت أنها كانت تسعين ميلا، وقال بليني أن طولها كان ستين ميلا، **لقد كان أحدهما يتحدث عن قناة، والثانى يتحدث عن قناة أخرى .**

لقد حفر الفرعون أخيتوي ثم آمنحتب الثالث، قنواته البحرية وهو يعلم ماذا يفعل بالضبط. لقد كان يعرف انخفاض حوض القلزم وبعض سطح وادى طميلات عن سطح البحر، ومع ذلك أمر بإزاحة أكوام الرمال العظيمة من أمام خليج السويس، لينحدر الماء فى الحوض المنخفض حاملا معه الماء المالح دافعا البحر خارج حدوده، ليظل فى طريقه حتى يتوقف عن الصعود عند نقطة يلتقى فيها بالفرع العذب القادم من النيل، لبنى الفرعون فى نقطة اللقاء مدينته العبقريّة وزهرة مدائن العالم القديم. التى أصبحت بهذا الشكل مركزاً وسطيا رئيسيا بين فرعين يشكلان سوراً حامياً لمصر، ثم أنها بذلك أصبحت ميناءً فريداً من نوعه فى تاريخ الدنيا، فهى بذلك ميناء للبحرين الأبيض والأحمر فى عمق الأراضى المصرية، تصلها السفن القادمة ببضائع الهند و إفريقيا من البحر الأحمر عبر القناة المالحة، وتصلها السفن القادمة من بلاد الشام وتركيا وجزر المتوسط عبر الفرع البيلوزى العذب، ويشرف الفرعون منها على ممتلكاته فى آسيا من أقرب نقطة ممكنة لتتحول المنطقة إلى منطقة جذب تجارى عظيم وعالمي.

وفى الوقت نفسه تقع المدينة العبقريّة عند منطلق الخطوط الرئيسية للمواصلات مع آسيا، فعندها يبدأ الخط المتجه شمالا فشرقا المعروف بطريق حورس الحربى الكبير، ثم طريق متلا وطريق الجدى اللذان يخترقان وسط سيناء نحو الشرق ونحو الجنوب، بينما المنطلق من عند نقطة انطلاق واحدة، عند المدينة الميناء، وتصدق قصيدة مدح رعمسيس الكبرى ثم الصغرى وهى تصف المدينة بأنها واقعة على بداية الطريق الوحيد.

ثم أن الفرعون قد ضمن بذلك سيطرته التامة أيضاً على بلاده من الداخل فمدينته العبقريّة تقع على المجرى النهري الرئيسى، لقد كان الموقع فريداً يليق بمن هندسه .

وحسب هذا التصور، فإن ذلك التخطيط الاستراتيجى العسكرى الإدارى الفنى الفذ قد حجز مصر تماما عن سيناء بقناة سيزوستريس والفرع البيلوزى، ولم يترك مكان مفتوحا للقادم من سيناء إلى مصر سوى تلك المساحة الصغيرة، ولا بد فى هذه الحال للدخل إلى مصر من المرور على قلاعها الواقعة بين القناتين عند مدينة رعمسيس. كى يتمكن من دخول مصر، وأصبح الماء حائلا دون الدخول أو الهروب إلا عبر تلك المساحة الضيقة الواقعة تحت رقابة الجيش الكاملة والأكثر يسراً.

وأصبحت مساحة وادى طميلات المحصورة بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة شرقاً، وحتى نقطة التقاء الماعين عند رعمسيس غرباً مساحة خاصة جداً كادت تكون سينائية تماماً وخارج مصر، لذلك يصبح مفهوماً لماذا أسماها اليونان المقاطعة العربية لاتصالها المباشر ببوادي سيناء السامية.

وتحكى لنا التوراة حكاية خروج بنى إسرائيل من مصر تحت قيادة (موسى) وتفصل أسماء المواضع بتفصيل يقول:

فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو
ستمائة ألف ماشى من الرجال عدا الأولاد، وصعد
معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وأفرة جداً
.. وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدمهم فى
طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة، لأن الله قال:
لئلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر،
فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف ..
وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى إيثام فى طرف البرية
.. وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بنى إسرائيل أن
يرجعوا وينزلوا أمام فم الحبروث بين مجدل والبحر
أمام بعل صفون، مقابلة تنزلون عند البحر .. فلما أخبر
ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون
وعبيده على الشعب، فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا
إسرائيل من خدمتنا، فشد مركبته وأخذ قومه معه، وأخذ
ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنوداً
مركبية على جميعها وشدد الرب قلب فرعون ملك
مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل .. وأدركوهم
جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم
نازلون عند البحر عند فم الحبروث أمام بعل صفون
.. ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح
شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء،
فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة، والماء
سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون
.. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال
الصباح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائهم،

فدفع الرب المصريين فى وسط البحر .. ثم ارتحل
موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية
شور .

خروج ١٣ : ١٦

فماذا لدينا هنا من مواضع جغرافية على خط السير الهامى هذا؟

الفرض التأسيسى أن مدينة رعمسيس تقع على حدود الدلتا الشرقية مع البرارى السينائية، بين البحر المتوسط شمالا وخليج السويس من البحر الأحمر جنوبا.

والنص يقول إنهم ارتحلوا من رعمسيس إلى موضع آخر يحمل اسم سكوت، وأن الموقع سكوت كان أول محطة على طريق يحمل اسم طريق أرض الفلسطينيين، وأن طريق أرض الفلسطينيين كان قريبا من الموقع سكوت، أى أنهم اتجهوا نحو بداية طريق معلوم يعبر سيناء ليفضى إلى أرض فلسطين. لكن النص يقول أن الرب بعد أن تركهم يمشون هذه المسافة إلى سكوت نحو الطريق الدولى خشى من تعرض شعبه لمعركة وحرب، مما يعنى أن هذا الطريق يقف عليه قوم مسلحون يمكنهم أن يجعلوا الشعب يندم على خروجه من مصر أو بالأحرى أن موسى قد شاهد علامات وجود تلك القوة العسكرية الحدودية، فأمر رجاله بالعودة مرة أخرى. وهو ما يفهم من التعبير " فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف "، وكانت تلك العودة نحو صحراء تحمل اسم برية بحر سوف، وهو ما يفيد أن تلك البادية تحمل اسم بحر داخل محيطها الجغرافى هو بحر سوف. وهكذا عادوا من سكوت أول محطات الطريق الدولى نحو فلسطين، ونزلوا إلى موضع باسم إيثام فى هذه البادية (برية بحر سوف)، ومن هناك رجعوا مرة أخرى ونزلوا فى موضع تتعدد إحداثياته الجغرافية حتى تكاد لتوراة تضع له حدوده الأربعة، فالحد الأول الواضح هو البحر، وفى المقابل الآخر للبحر مجدل أى القلعة، فهم بين القلعة والبحر، وأمامهم يقع موضع باسم بعل صفون وهو اسم إله مما يشير إلى معبد أو تمثال لهذا الإله فى ذلك الموضع، أما الموضع الذى نزلوا فيه على بحر سوف فكان يحمل اسم فم الحبروث، التى هى فى أصلها العبرى بى هـ حبروت. من بى هـ حبروت عبروا البحر المفلوق بالعصا الشعبانية ليخرجوا إلى صحراء باسم برية شور تقع إلى الشرق من بحر سوف.

نحن إذن بحاجة إلى تحديد عدد من المواضع الجغرافية هى:

- * فيثوم رفيقة رعمسيس حيث استعبد بنى إسرائيل.
- * سكوت الواقعة على أول الطريق الدولى وإيثام الموجود فى برية بحر سوف.
- * فم الحبروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون.
- * بحر سوف الذى تقع على شاطئه الغربى الإحداثيات السابقة.

* برية شور على الطرف الشرقى من بحر سوف.

عبقريّة المكان :

المفترض حسب رواية التوراة أن تقع مدينة الاضطهاد (رعسميس) قرب بحر سوف، وعلى جانب هذا البحر من جهة الغرب، وعليه يتم الاستنتاج أن الخارجين خرجوا من رعسميس ولم يتجهوا شرقاً نحو البحر مباشرة الذى لا نجد مقابلاً له فى تلك المنطقة سوى بحيرة التمساح، إنما اتجهوا شمالاً نحو الطريق الدولى، ونزلوا محطة سكوت. ثم عادوا منها جنوباً مرة أخرى نحو بحيرة التمساح ليحدث العبور إلى الشرق من مدينة رعسميس التى خرجوا منها فى البداية، وهو ما يعنى افتراض وجود رعسميس قرب بحيرة التمساح، وهو ما سبق وذهب إليه دى بوا إيميه عبقرى الحملة الفرنسية الفذ، عندما اعتبر تل المسخوطة هى مدينة رعسميس. وهو الأمر الذى عثرنا له على كثير من القرائن والشواهد والمؤيدات، فقد عثر ليبسيوس فى موقع تل المسخوطة عام ١٨٦٠ على تماثيل لرمسيس الثانى مع الإلهين رع وآتوم، كما عثر على آثار سور عظيم يحيط بالبلدة، كما عثر على تماثيل لأبى الهول من الجرانيت الأسود تحمل اسم رمسيس الثانى، كذلك عثر نافيل هناك عام ١٨٨٤ على حجرات مخازن مصنوعة من اللبن، لذلك ذهب كلاهما إلى موضعة مدينة رعسميس فى موضع المسخوطة / الخشبى الآن بوادى طميلات غربى بحيرة التمساح (٤٧).

وهنا نعث بعد لأي على واحدة من أخطر الشوارد لكنها الشواهد، المتمثلة فى الإله الذى أفصحت عنه آثار المسخوطة الذى ورد مكتوباً (وع نب هوو) الذى يعنى (الرب الوحيد هوو) (٤٨)، وهو ما يصادق على كل ما قلنا حتى الآن لأن (هوو) ببساطة هو (يهوه). هذا ناهيك عن دليل قاطع حيث لا يكتب النص السبعونى للتوراة اسم مدينة الاضطهاد بالاسم رعسميس إنما بالاسم هيروبوليس، والمعلوم أن اسم (هيروبوليس) فى العصر اليونانى كان الاسم الذى أطلقه الإغريق على تل المسخوطة الحالية. فقد ذكر استرابون أن هيروبوليس تقع قرب ميناء أرسينوى على خليج العرب، وقد أكد أميلينو فى جغرافيته أن هيروبوليس هى المسخوطة (٤٩).

لكن يبقى المأخذ على هذا الفرض لأن تل المسخوطة لا تقع على بحيرة التمساح إذا افترضنا أن بحيرة التمساح هى بحر سوف، إنما تبعد عنها إلى الغرب بمسافة تصل إلى ستة عشر كيلو متراً.

خاصة أننا سبق ورفضنا نظريات تجعل بحر سوف مجرد بحيرة مثل بحيرة المنزلة عند بروغش أو بحيرة البلاح عند على شافعى أو بحيرة البردويل عند بيبير مونتنييه وأصررنا على خليج السويس بالبحر الأحمر، فهل ثمة حل؟

(٤٧) بوايه: سبق ذكره، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤٨) سليم حسن: أقسام .. سبق ذكره، ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٤٩) رمزي: قاموس البلدان المدرسة، ص ١٩٣ .

لقد حللنا ذلك عندما قلنا أن الماء العذب كان يتدفق تلقائياً حتى يصل المسخوطة، وأن ما فعله
أمنحتب الثالث أنه أعاد الحفر الذى سبقه إليه أختوى للمسافة بين المسخوطة وبين بحيرة التمساح (١٦ كم)
لإقامة بحيرة لمليكتة تى ثم أوصل التمساح بالبحيرات المرة بخليج السويس فقط بإزالة التلال الملحية من أمام
مياة البحر الأحمر لتتدفق حتى منطقة التوازن.

ويظل علينا مع كل تلك المجازفات أن نحدد: أين تقع رفيقة رعسيس التى دونت التوراة اسمها
فيثوم؟

وهنا نقف مع أميلينو الذى اعتمد على خط سير أنطونين الرومانى، وقد وضع أنطونين مدينة فيثوم
(بى توم أو باتوموس بالنطق اليونانى) على بعد ٢٤ ميلاً غربى هيروبوليس / المسخوطة غرباً، ومن ثم
استند أميلينو إلى ذلك وانتهى إلى أن بى توم هى التل الكبير الآن، فحدد موقع فيثوم بأنه التل الكبير (٥٠)،
وهو ما يخالفه فيه بشدة، كما سيأتى بيانه.

وفى رسالة الكاتب بينيس لسيدة آمنوبى يقول عن مدينة رعسيس:

لقد وصلت إلى مدينة بيت رعسيس

محبوب آمون ...

لديها مؤن وذخيرة كل يوم

بركها تزخر بالسماك وبحيراتها بالطيور

.....

وشواطئها محملة بالبلح

.....

وهى تتأطح السماء فى ارتفاعها

.....

وفيهما سمك وز الأحمر من قناة (تلف بالوثيقة)

.....

وسمك بتن من بحيرة (تلف بالوثيقة)

.....

ويستخرج من بحيرة حور النطرون

.....

وسفنها تروح وتجئ إلى الميناء

.....

إن مستنقعات زوف تثبت لها البردى

وسيحور تمدها باليراع

والبحر فيه سمك بحج وسمك أد.

وإشارة الكاتب بينس إلى سمك وز الأحمر من عند مدينة رعمسيس إشارة لسمك ليس نيليا على الإطلاق، لأن النيل في مصر لا يعرف أى لون للأسماك سوى الرما دى التى تغلب عليه أحيانا الخضرة القاتمة والصفرة فيما ندر، وعليه لابد أن يكون سمك وز المستخرج من مياه مدينة رعمسيس سمكا بحريا. والأكثر النقاء معنا إشارة التقرير أن هذا السمك الأحمر البحرى لا يعيش فى بحر إنما فى قناة فقدنا اسمها بتلف الوثيقة. ومعنى ذلك أنه يتحدث عن سمك يعيش فى القناة القادمة بمياة البحر الأحمر حتى المسخوطة حيث منطقة التوازن أما سيحور فهى الفرع البيلوزى أو الشيحور بالتوراة الذى وصفته التوراة بأنه " الشيحور الذى هو أمام مصر / يشوع ١٣ / ٢ "، وعن ماء حور أو سى حور أو الشيحور حدثنا النبى الإسرائيلى إرميا وهو يندد بشعبه الذى يلجأ بسوائمه إلى مياه مصر يناديه قائلا: " والآن مالك وطريق مصر لشرب مياه الشيحور / إرميا ٢ / ١٨ ".

ولا ريب أن بحيرة حور هى التى نعرفها اليوم باسم بحيرة البلاح، أما مستنقعات زوف التى كانت تمد مدينة رعمسيس بالبردى فيمكن أن تكون هى بحيرة التمساح أو البحيرات المرة.

ثم بهذا التصور الذى طرحناه وحدة تطابق لوحة الكرنك وتتطابق بالكامل مع الموضع الذى حددناه، حيث وضعت مدينة رعمسيس على مائتين أحدهما مالح بتصوير الأسماك البحرية والآخر عذب بتصوير بيئة نهريّة نيلية.

وفى التوراة يتكرر ذكر مدينة مصرية باسم (نو آمون)، كما فى سفر (ناحوم ٨/٣ - ١٠)، وتذكر فى مواضع أخرى باسم (آمون نو) كما فى (إرميا ٤٦/١)، وأحيانا تذكر فقط باسم (نو) كما فى (حزقيال ٣٠/١). وقد ذهب الباحثون إلى أن المقصود بها طيبة (الأقصر الحالية) لورود اسم آمون وهو سيد طيبة ورب الدولة.

لكننا نعلم أن أحد الألقاب المتكررة لرعمسيس — الذى منح المدينة اسمه — الذى عادة ما يلازم اسمه هو (رعمسيس ميامون)، ونظن مدينة (نو آمون) هى (ميامون) لاختلاط النون بالميم، إشارة لمدينة رعمسيس العبقريّة كما حددنا موضعها. ويدعونا فى ذلك الموصفات التى قدمتها التوراة لمدينة (نو آمون) أو كما نظن (ميامون)، حيث تطابق الموصفات التوراتية خريطتنا لرعمسيس تطابقا تاما، انظر معنى التوراة نقول مخاطبة أورشليم تصغيراً إزاء مدينة عظيمة أخرى تقع فى مصر:

هل أنت أفضل من نو آمون؟ الجالسة بين

الأنهار، حولها المياه حصن ومن البحر سور لها /

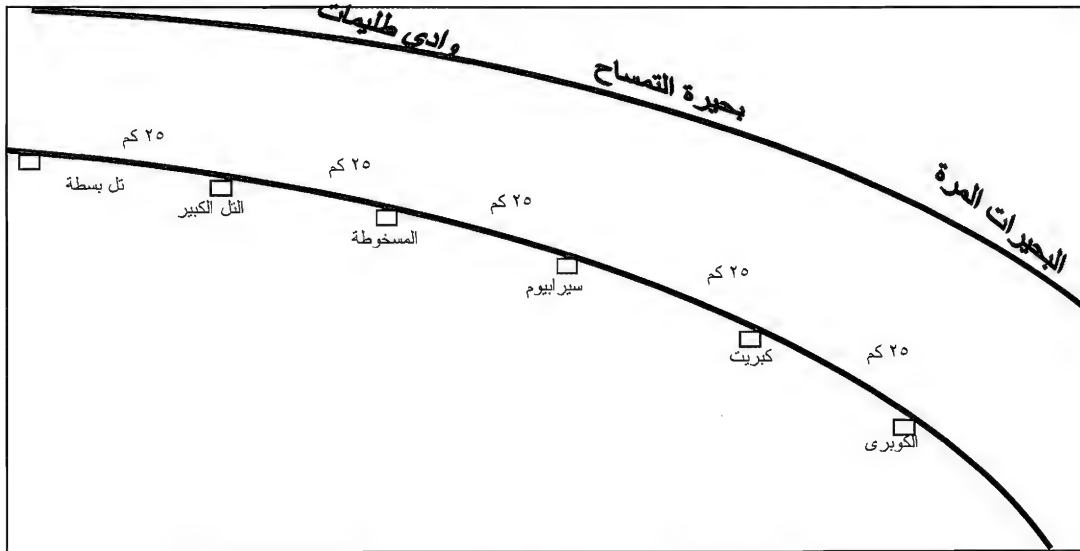
ناحوم ٨/٣، ٩٠ .

ومثل هذا الوصف إطلاقاً لا يطابق الأقصر، فالبحر ليس سوراً لها فهي بعيدة تماماً عن أي بحر، وليس هناك أنهار بل نهر واحد هو شريان النيل القادم من أفريقيا، أما تلك الجالسة بين الأنهار والبحر سور لها والمياه حصون، فلاشك لدينا أنها مدينة رعمسيس / المسخوطة حسب جغرافيتنا.

فيثوم :

فيثوم العبرية هي في المصرية القديمة بي - توم أي مقر الإله آتوم، ورد ذكرها عند المؤرخين الكلاسيك مصرفة اسمياً بالاسم باتوموس، وقد وضعها هيرودت على القناة الواصلة بين الفرع البوبسطى للنيل وبين بحيرة التمساح، والتي تمتد حتى الخليج، وأطلق المؤرخون الكلاسيك على مدينة بيتوم (أرابيا) أي المدينة العربية. نسبة إلى غلبة العنصر الآسيوي البدوي على سكانها حتى العصر اليوناني.

ولدينا الآن وثيقتين شديدتا التنافر كل منهما تعطي تقريراً عن موضع فيثوم بالنسبة لرعمسيس: الأولى هي خط سير الحاجة إيثريا التي تقول إن المدينة العربية (أرابيا) تبعد عن رعمسيس مسافة أربعة أميال فقط. والثانية خط السير الروماني (أنطونين) ويعطينا مسافة أربعة وعشرين ميلاً كاملة، وعليه سنقوم



الخريطة رقم (١٣)
لوحات دارا

بتحقيق كلا المسافتين لنرى إلى أين تلقى بنا تقديراتهما. ونبدأ بخط السير الروماني (أنطونين).

وباعتماد لوحات دارا التي وضعت على مسافات متساوية كل منها ٢٥ كم، يمكننا أن نقوم ببعض الحسابات مع أنطونين (وليس مع أميلينو الذي ذهب إلى أن بيتوم حسب أنطونين هي التل الكبير ولا نعلم كيف؟).

إن المسافة إذن بين تل المسخوطة وبين تل بسطة / الزقازيق خمسين كيلو متراً، لو طرحنا منها ٢٤ ميل أى ٣٧ كيلو متراً ستكون المسافة بين الموضع الذى نبحث عنه (فيثوم) وبين تل بسطة / الزقازيق حوالى ١٣ كيلو متراً. ولو بحثنا شرقى الزقازيق على خط وادى طميلات بعد ثلاثة عشر كيلو متراً سنجد قريتين متجاورتين يفصل بينهما كيلو متر واحد، إحداهما باسم **سفت الحنة** والأخرى باسم **الصوة** وعندما وصلنا إلى ذلك، ومضينا ننقب وراء سفت الحنة والصوة كانت النتائج مبهرة حقاً.

وخط السير الرومانى للإمبراطور أنطونين إذ يشرح يقول إن المسافة ٢٤ ميلاً بين هيروبوليس وبين بى توم، ثم يحدد أكثر فيقول إن نقطة انتهاء الـ ٢٤ ميلاً تقع عند بيتوم أو باتوموس التى تسمى (ثو) ^(٥١)، ذلك الاسم الغريب الذى لم يزل موضع خلاف حاد بين المؤرخين دون تحديد جغرافى واضح. و (ثو) برأينا تؤدي إلى (ثوم) أو بى توم، وقد أكد سليم حسن أن بلدة (ثو) أو (سو) أو (صو) موضع مجهول تماماً حتى الآن، وكل ما نعلمه عنه أنه كان عاصمة لمقاطعة باسم (حقا عنز) ^(٥٢)، ولو ترجمناها حقاً عنز عن الهيروغليفية فسيكون حكم السمكة باعتبار السمكة هى عنز، وحقاً هى الحكم. ولو ترجمناها بافتراض الأثر السامى من البدو وهى منطقة سامية تسمى العربية، فإن الترجمة ستكون: مقر حكم العنزيين أو أصحاب العنز وهو المرجح لدينا وسيؤكد في الأبواب المقبلة عندما نعلم أن العنزيين هم الهكسوس. أما معنى كلمة (صو) نفسها فهو المكان المحصور أو المضيق ^(٥٣)، وسنرى عندما تكتمل فرضياتنا ونرسم خريطة كـم يصدق اسم (صو) على موقعها الجغرافى.

ثم أن (سو) أو (صو) أو (ثو) تحمل معنى آخر يلائمنا تماماً ويدعم أطروحاتنا، لأنها كما تعنى المضيق فهى أيضاً تعنى فى المصرية القديمة اسم الإشارة للغائب المذكر (هو)، وهو ما يحيل مبنى ومعنى إلى رب التوراة (يهو) الذى لا يلفظ اسمه ويكنى عنه باسم الإشارة (هو) ^(٥٤) وبفعل الكينونة (يكون أو الكائن).

ثم معنى ثالثاً يشير إلى ترافق وتجاور وتلاصق بين مدينتين هما (صو) و(بيتوم) لأن كلمة (صو) تعنى أيضاً " يمشى بقره، رفة، تجاور " فهى المجاورة أو الرفيقة ^(٥٥)، ولازال المصرى يستخدم كلمة (سوا) تعبيراً عن الرفقة والتلازم .

وقديماً جازف جوتييه - فيما يبدو تخميناً - مجازفة نراها صادقة حقاً، فقال فى قاموسه أن (صو) هو الاسم الدينى لمدينة Per Atoum (بر آتوم) المذكورة فى الوثائق المصرية، وأن اسمها المدنى كان فيثوم Phithom المدون بالتوراة، وأن اسمها الرومى هو Patoumos، لكنه حدد موضعها عند النل الكبير. ولكن

(٥١) رمزى: القاموس، سبق ذكره، ج ١، ص ٢ / ١ / ٦٦

(٥٢) سليم حسن: أقسام .. سبق ذكره، ص ٨٥ .

(٥٣) رمزى: القاموس، البلدان المندرسة، ج ١، ص ١٨٤ .

(٥٤) أنطون ذكرى: مفتاح اللغة المصرية .. سبق ذكره، ص ٦١ .

(٥٥) نفسه ص ٧٩ .

لدينا الآن وبيدنا مع التدقيق قرية (الصورة) ^(٥٦) الملاصقة لسفط الحنة، ثم نتذكر أن هناك اسماً لمدينة ورد بالتوراة هو (صوعن)، لم نكن نعلم بالقطع هل كان يطلق على قسم من مدينة رعمسيس، أم على قسم من مدينة فيثوم، والآن لا شك قد أصبحنا نعلم، فالصورة هي صوعن أما فيثوم فيجب أن تكون سفط الحنة. ونتذكر هنا نافيل عندما ألقاها إلقاءً وقال إن مدينة رعمسيس هي سفط الحنة، لكن على أية حال لم تكن سفط الحنة هي رعمسيس حسبما وصلنا إليه إنما هي بيتوم / فيثوم / باتوموس / أرابيا / المدينة العربية المعروفة عند اليونان باسم فاكوسة (وليس فاقوس الحالية). وهناك تم العثور على قطعتان من الجرانيت الأسود باسم رعمسيس الثاني، إضافة إلى قطعتان أخريان باسمه من البازلت. أما المدهش فهو أن يحتفظ اللسان المصرى حتى الآن بذكرات الماضي فلم يزل المصرف القائم محل التربة القديمة من النيل إلى بسطة يحمل اسم مصرف (الفيوم)؟ ولا علاقة له بالفيوم الحالية ولا ريب أنه من البقايا اللغوية الحاملة لمدينة (فيثوم).

ويرى جوتييه أن اسم كلمة (سفط) في سفط الحنة مشتقة من اسم الإله (سوبد) - بقلب الباء فاء - رب الشرق المصرى القديم ^(٥٧)، ويرجح أن اسمها المصرى القديم كان (برسوبد) ويبدو أن هذا التخريج لدى جوتييه وآخرين قد اعتمد على نقوش وجدت على ناووس في سفط الحنة وضمنها (بيت سب)، رغم أن ترجمة (بيت سب) بأنها (بيت سوبت) فيه تكلف شديد لأن ترجمتها المباشرة كما هي (بيت سب) تعنى (بيت الجميزة). هكذا فسروا (سفط) وبقيت (الحنة)؟، هنا قيل أنه كان للبلده اسماً آخر هو (سختيو حنو) أى حقل الحنا، وهكذا تكون سفط الحنا قد أخذت اسمها من اسمين قديمين، سفط من (سوبد) فى كلمة (بيت سب) والحنا من (حنو) فى كلمة (سختيو حنو) ^(٥٨)؟

وما دمنا غير موافقين على هذا التخريج فماذا لدينا؟ سنعيد كلمة سفط مباشرة إلى (سبيت) أو (سبت) التى تعنى إقليم أو فرع أو مقاطعة وليس إلى الإله سوبد، مع ملاحظة أن قرى تملأ كل بر مصر الآن يبدأ اسمها بكلمة سفط، ولا يمكننا بحال أن نتصور أن مئات القرى فى عمق مصر كانت تعد الإله سوبد رب المشرق إلهاً رئيسياً لها تأخذ منه اسمها، وهو إله مغمور الشأن بين آلهة مصر. لكن الأرجح أن تكون كل تلك القرى تحمل اسم سفط شفاً فى اسمها، بمعنى إقليم كذا، وعليه فاسم سفط الحنة هو إقليم الحنة، لكن الحنة لدينا ليست نبات الحنة أو غيط الحنة أبداً إنما هي (حنت) الكلمة المصرية القديمة التى تعنى: الفاصلة، وكانت تطلق على المواضع المفصلية، مثلاً كما فى مقاطعة شرقى النيل / حلوان الآن كان اسمها حنت أى الفاصلة بين القطرين القبلى والبحرى ^(٥٩) وجاء ذكرها فى قائمة سنوسرت بهذا المعنى ^(٦٠). وعليه يصبح أصل سفط الحنة هو سبت حنت أى المقاطعة الفاصلة، وهو ما يصادق تماماً على موقعها كما نرى على خريطةنا.

(٥٦) رمزى ٦٦/١/٢.

(٥٧) رمزى: القاموس .. سبق ذكره، القسم الثانى، الجزء الأول، ص ٧٣.

(٥٨) محمد إبراهيم كامل: إقليم شرق الدلتا فى عصوره التاريخية القديمة ج ٢، الهيئة المصرية العامة للنشون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٥٣، ٥٥.

(٥٩) سليم حسن: أقسام .. سبق ذكره، ص ٢٣.

(٦٠) نفسه: ص ٦٦.

ويصادق على كلامنا هنا أن ستى الأول عندما قام بحملته على الشاسو (بدو سيناء)، بدأها من المدينة الواقعة على القناة الفاصلة^(٦١)، وهى القناة التى عرفناها باسم قناة سيروسستريس، التى كانت ذلك الزمان تبدأ من جنوبى تل بسطه على هيئة كوع ينحنى خارج من الفرع البوسطى، ثم تضرب شرقا مخترقة وادى طميلات حتى تصل بحيرة التمساح.

وتتدافع الدلائل بين أيدينا عندما يطالعنا معجم البلدان بأن سبط الحنة قرية فى جوف مصر قرب بلبيس ويفيدنا المشتريك ليأقوت بأنها هى سبط ترابية أو طرابية أو طرابيته^(٦٢). وهكذا يمسى أمر سبط الحنة شديد الوضوح، لقد أطلق اليونان على مدينة فيثوم القديمة (باتوموس) اسم (أرابيا / العربية)، وأضاف لها اللسان المصرى كلمة (أرض) المصرية (ت / طأ) فأصبحت أرابيا هى ترابية أو طرابية فى معجم البلدان العربية، أما اسم (فاكوسه) فلا شك أنه كان اسم المقاطعة، وكانت المقاطعة التى عاش الإسرائيليون فى مدنها باسم جاسان، ولو أضفنا إليها (بى) أى (موضع) كالعادة المصرية فستصبح بى جاسان أو بالأحرى فاقوسان أو فاكوسة.

هذا ما كان عن مطابقتنا لخط السير الرومانى (أنطونين) ٢٤ ميلا بين هيروبوليس / المسخوطة وبين باتوموس / فيثوم، وأدى بنا إلى الصورة وسبط الحنة كموقع لفيثوم، أما لو أخذنا بما جاء عند الحاجة ايثيريا بأن المسافة بين رعمسيس وأرابيا فيثوم أربعة أميال فقط، وإذ كنا قد سلمنا بأن رعمسيس هى المسخوطة، فإن على مسافة (٤) ميل إلى الغرب منها تقع تل رطابة بكل آثارها الفنية بدورها بالمخازن والتماثيل الرعمسية، ناهيك عن كون (تل رطابة) يمكن أن يكون تحريفا لسانيا للاسم (طرابيته) الذى أطلقه العرب على أرابيا فيثوم، لكننا نميل بشده إلى خط سير أنطونين كإمبراطور يحوز الثقة بما لديه من جهاز هندسى عسكرى متكامل، وربما سقط من مدون إيثيريا رقم المدونات اليونانية التى تشير إلى الرقم (٢) اللاحق برقم (٢٤ ميلا) فأدى إلى فوضى هائلة فى تحديد موقع المدينة العربية، وإذا أردنا الفرض الذى يذهب إلى تل رطابة، فالمسافة بين المسخوطة ورطابة تزيد عن أربعة أميال بقليل وفى هذه الحالة ربما كان رقم أنطونين الأصلى ٤ وأضيفت إليه (٢) بالخطأ أو لوجود حرف لغوى يليه فسر على أنه (٢) فأصبحت ٢٤، إذا احتسبنا فيثوم هى رطابة الحالية.

(٦١) مصر قديمة ٦ / ٣٥ .

(٦٢) رمزى ٢ / ١ / ٧٣ .

تصورنا لموضع رمسيس في إقليم جاسان حيث استعبد الإسرائيليون (المسخوطة = رمسيس)

(٦٣) هيرودت في مصر ١٣ .

(۶۴) ہیروئت فی مصر ۲۲۴ .

وإذا صدقت تصوراتنا جميعاً أو بعضها، فلا بد أن منطقة محيط الزقازيق الحالية ووادي طليمات بمداينه الرائدة فيثوم ورعمسيس، قد تحولت تقريباً إلى جزيرة بين فرعى المياه، وهى الرواية التى يصادق عليها خبراً من هيرودت يقول عن تل بسطة: " ويقع نطاق معبدها المقدس هكذا كله ماعدا المدخل: عبارة عن جزيرة إذ تمتد قناتان .. لا تتصلان ببعضهما إذ تصل كل منهما إلى مدخل المعبد، ثم تتدفع إحداهما حوله من جانب والثانية من جانب آخر، ويبلغ عرض كل من القناتين ثلاثين متراً" (١٥). (خريطة رقم ٣٤ و ٣٥).

وقد لفت نظرنا مأثور كان معلوما لدى تجار عرب الحجاز عشية الإسلام، وكانوا قد أصبحوا تجار العالم فى القرن السادس الميلادى، وورثوا البتراء بكل صنوف تجارتها العالمية، وتاجروا مع مصر وعرفوا مدينتها العبقريّة، وعاشوا الإسرائيليين وعرفوا مأثورهم عن مدينة الاضطهاد المصرية. وسار بينهم حديث عن بحرين يلتقيان بينهما برزخ، وأن أحدهما ماء مالح والآخر ماء عذب، لا يطغى أحدهما على الآخر، ليسجل القرآن الكريم ذلك المأثور العربى بقوله:

مرج البحرين يلتقيان

بينهما برزخ لا يبغيان

٢٩ ، ٣٠ / الرحمن

وفى موضع آخر يصف ذات المكان بإشارته لفعل إلهي معجز عبقري بقوله:

وهو الذى مرج البحرين: هذا عذب فرات، وهذا

ملح أجاج، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً .

٥٣ / ١ لفرقان

وقد ذهب المفسرون فى تفسير هذه الآيات مذاهب شتى، فمنهم من قال أن البحرين هما خليج السويس وخليج العقبة، أما البرزخ فهو مثلث شبه جزيرة سيناء، لكن ذلك التفسير لا يطابق القول بلونين متمايزين من الماء. ومنهم من قال أن البرزخ هو مصب نهري دجلة والفرات وهما المقصودان بالبحرين، حيث يسير الماء العذب فى البحر مسافة يمكن شرب الماء العذب منها داخل البحر. وقد استند هؤلاء لكلمة فرات رغم أنها فى اللغة تعنى الماء العذب على إطلاقه ولا تخص نهر الفرات العراقى بالتخصيص وبالذات.

أما نحن فنعتقد أننا قد عثرنا على الموقع الصحيح لبحرين متمايزين بينهما برزخ. وقد اقترب من موقعنا ابن الكندى الذى قال عن مدينة الفرما / بيلوز: " وبها مجمع البحرين وهو البرزخ الذى ذكره الله عز

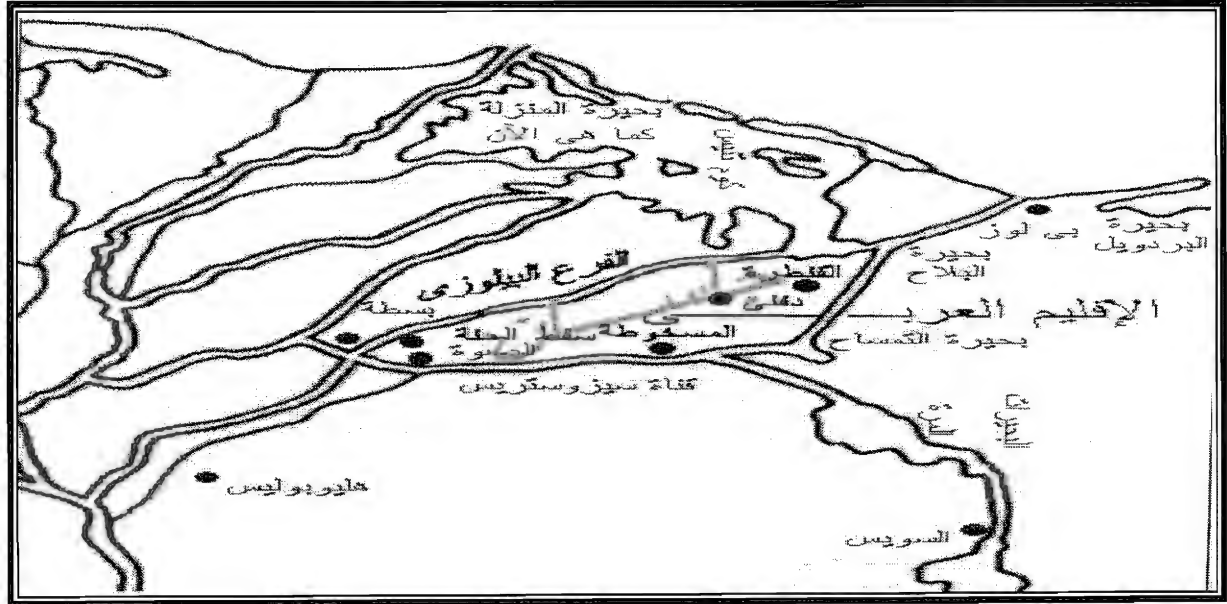
وجل، فقال: مرج البحرين يلتقيان " (٦٦) كذلك كان ابن إياس يعلم أن البحرين المتمايزين عذبا وملحا يصلان البحر الأحمر أو كما كان يعرف زمنه ببحر الصين، والبحر الأبيض الذى كان يعرف باسم بحر الروم، استمع إليه يقول فى الجزء الأول من كتاب النجوم الزاهرة وكلماته الباهرة التي تؤكد كل ما قلنا:

أن مجمع البحرين يقع فى مصر فى منطقة
وسطى بين بحر الروم [البحر الأبيض/ المؤلف] وبحر
الصين [البحر الأحمر/ المؤلف] ، والحاجز بينهما
مسيرة ليلة واحدة (٦٧).

ومن جانبه احتفظ المأثور الإسلامى بذكرىات تربط بين ملتقى البحرين عند مدينة رعمسيس وبين
النبي موسى الذى ذهب عند ملتقى البحرين ولا نعرف لموسى أية علاقة بالعراق والفرات لكن علاقته بمصر
هي الفصل، ليلتقي هناك بالحي الغائب المعروف باسم الخضر عند مجمع البحرين.

ثم يجب فهم " سور الأمير الذى يصد الآسيويين " فى ضوء ما طرحناه فهو لم يكن سوراً حجرياً
بطول المسافة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، إنما كان فقط مجموعة قلاع بين بحيرة التمساح وبحيرة
البلاح، بينما شكلت القناتان عائناً مائياً ضد أى محاولة دخول، وكان يكفى نشر بعض القلاع وهنا وهناك
للمراقبة كي تكون حدود مصر آمنة بما يكفى. ومن ثم كان لابد على الداخل إلى مصر أن ينتهى اضطرارياً
إلى مدينة رعمسيس أولاً.

أما عند السور بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة فلا بد أنه قد تواجد أكبر معقل عسكري مصرى .



الخريطة رقم (١٥) - قطاع أوضح لموضع الأحداث حسب رؤيتنا وتخرجنا

(٦٦) نعوم بك شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجيل بيروت، ١٩٩١ ، ص ١٨٥.

(٦٧) رمزي: القاموس .. سبق ذكره، البلدان المندرسة، ص ٤٠٣ .

ونلتفت هنا بعناية إلى الخبر الذى وردنا من زمن الفرعون مرنبتاح عن قلعة باسم (ختم سكوت). وورد فى معجم جوتييه ذكر لقلعة كبرى حملت فى زمانه اسم قمور Kemour كانت تقع شرقى القصاصين أى فى مكان المسخوطة الآن التى تقع على بعد ٣ كم من القصاصين ولدينا تسجيلاً كاملاً لخط رحلة عسكرية، تلك التى قام بها سبتي الأول لتأديب حلف بلاد بونت، ولأننا سنستقى خطوات سير الحملة من جاردنر، فسنهمل تفسيراته ونستبقى الأصل. يقول النقش أن سبتي خرج بحملته من عند موقع تم تصويره محصناً له ضفتين على قناتين اسمه **الفاصلة** (لأنه يفصل مصر عن الصحراء)، ويتألف هذا الموقع من مبان فى الشمال والجنوب وله بابان أحدهما فى الشرق وآخر فى الغرب. ويؤدى الباب الشرقى إلى قنطرة فوق قناة.

وكان أول محط نزل به سبتي للاستراحة عند قلعة مستطيلة تقع على بركة مستطيلة الشكل، والاستطالة من الشمال إلى الجنوب. وهى فى رأينا قلعة المسخوطة / هيروبوليس، أما البحيرة التى تجاورها فى اللوحة فهى بحيرة التمساح المستطيلة من الشمال إلى الجنوب. وقد دون اسم تلك القلعة (عرين الأسد) كناية عن الفرعون.

ثم بعد ذلك وعلى الترتيب مع المسير شرقاً نجد قلعة أخرى تقع على ذات البحيرة التى تقع عليها قلعة عرين الأسد، أى حسب تفسيرنا على بحيرة التمساح، أى أنها تجاور المسخوطة وهو ما يعنى فى رأينا وقوعها إلى الشرق من المسخوطة مباشرة، وحملت هذه القلعة فى النقش اسم (مجدل ماعت) أى قلعة العدل (٦٨).

ويدعم ذلك التفسير أن رعمسيس الأول كان يحمل وهو وزير فى عهد الفرعون حور محب عدة ألقاب تحيل إلى الموضع الذى نقف عنده الآن، فهو:

- حارس الحدود الشرقية ومقره قلعة ثارو .
- رئيس قلعة مصبات النيل .
- رسول الملك إلى البلاد الأجنبية .
- المشرف على قلعة العدل . (٦٩)

وللمزيد نقرأ فى أدب الدولة الوسطى لنقف مع القصة الشهيرة باسم (سنوحى)، ويتحدث فيها بطلها (سنوحى) عن هربه من مصر إثر مؤامرة دبّرت فى القصر تم اغتيال الملك (أمنحات الأول) بموجبها، قرر سنوحى الهرب فوراً خارج البلاد مما يشير إلى أنه ربما كان متواطئاً، يقول سنوحى:

ثم أسلمت الطريق إلى قدمي متجها نحو الشمال
ووصلت أخيراً جدار الأمير الذى كان قد أقيم لصد
الآسيويين والقضاء على سكان الصحراء. وقد أخبأت
نفسى فى خميلة خوفاً من أن يرانى الحارس الذى
كان رابضاً فوق الجدار ليل نهار (٧٠)

فهل لم يجد سنوحى سوى مكان الحراسة ليهرب منه أمام كل بوادى سيناء المفتوحة على الدلتا
الشرقية؟ طرحنا يجيب على السؤال: لم يكن هناك سوى طريق واحد ومدينة واحدة يمكن الخروج منها،
وتقول القصيدة الكبرى فى مدح رعمسيس " وجميع الممالك تسعى إليك على الطريق الوحيد " .

وهنا أقول لأهل الأركيولوجيا وعلوم المصريات، احفروا المسخوطة وستجدوا هناك - آثار مدينة
رعمسيس كاملة، وتحتها ستجدون مدينة الهكسوس (حواريس)، واحفروا الصوة وسفط الحنة أو تل رطابة
وستجدوا هناك مدينة (فيثوم)، أو هكذا أرجو حسبما وصلت إليه نتائج هذا البحث، وتكون جهودكم
مشكورة.

سكوت

هى أول محطة للخارجين من مدينة رعمسيس، وتقع على بداية الطريق الدولى المذكور فى التوراة باسم
طريق أرض الفلسطينيين، ونحن نعلم من الوثائق المصرية أن الطريق الدولى الحربى الكبير إلى فلسطين
كان يعرف باسم طريق حور الكبير، وكان يبدأ من عند مدينة محصنة بالقلاع الضخمة كانت تعرف باسم
زارو أو ثاروا أو سيلا أو شور. وقد تم تحديد سيلا إلى الشرق من مدينة القنطرة الحالية بثلاثة كيلو مترات
عند موضع يعرف الآن باسم تل أبو صيفا أو أبو صيفا (٧١). فإذا افترضنا أن هذا الطريق هو ذات الطريق
الذى قرر الخارجون اتخاذه فى البداية للاتجاه نحو فلسطين، فلا بد فى هذه الحالة أن تكون القنطرة غربى أبو
صيفا مباشرة هى التى أشارت إليها التوراة بالاسم سكوت، وهو خط السير المنطقى نحو فلسطين. لكن عند
وصولهم واكتشافهم الاستعدادات العسكرية على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الشرق فى قلعة سيلا قرروا العودة
مرة أخرى جنوباً باتجاه ما أسمته التوراة بحر سوف، وفى هذه الحالة سيكونون باتجاه بحيرة التمساح، أو
على التدقيق مقابل الخائق اليابس الممتد بطولها. وأنهم نزلوا بعد عودتهم من سكوت جنوباً فى موضع يدعى
إيثام، وفى النصوص المصرية نقرأ عن قلعة زمن الفرعون مرنبتاح تحمل اسم (ختم سكوت)، وأنها تقع
قرب بحيرة تحمل اسم (بى توم مرنبتاح)، وأن فى محيطها تقع مدينة اسمها (أتوما) حيث يسكن البدو (٧٢) .
التى لا شك هى إيثام الواردة بالتوراة.

(٧٠) سليم حسن الأدب ج ١ ص ٤٥ .

(٧١) كامل: إقليم شرقى الدلتا .. سبق ذكره، ص ٢٢٠ .

(٧٢) بوليه: سبق ذكره، ص ٩٧ ، ٩٨ .

وقد وردت بالقوائم المصرية مدينة تحمل اسم يطابق الاسم التوراتى سكوت، بالصياغة تيكوت وتكو بحسبانها مدينة لمقاطعة من مقاطعات الوجه البحرى، وورد ذكرها فى بردية أنستاسى من الأسرة ١٩ بحسبانها تقع على الحدود ويسكنها أقوام من الأجانب^(٧٣).

وفى تل المسخوطة الواقع فى وادى طميلات غربى بحيرة التمساح تم العثور على لوحة لبطليموس الثانى محفوظة الآن بالمتحف المصرى عليها النص التالى :

... وفى الشهر الثالث من العام السادس من حكم

جلالته (أى حوالى ٢٨٠ ق.م) حفروا قناة لإدخال

السورور على قلب أبيهم آتوم الإله العظيم، والإله الحى

سكوت، وبقصد إحضار إلهة مديرية خنت يابت^(٧٤).

ويلتقى هنا اسم الإله سكوت بالموضع سكوت، والنص يفيد بوقوع معبد الإله سكوت فى مديرية خنت يابت. وبالبحت نجد ما يؤيد وضعنا لسكوت التوراتية عند القنطرة غربى قلعة سيلا / أبو صيفا، إذ نعلم أن عاصمة مقاطعة خنت يابت كانت هى قلعة سيلا ذاتها^(٧٥)، وقد أوضح العالم روجيه من جانبه أن ثارو / سيلا كانت عاصمة لمقاطعة خنت يابت، وأنها كانت من أكبر القلاع التى تحمى المدخل الشرقى الرئيسى لمصر^(٧٦).

كما وجدنا عند جوتيه أن سكوت (بالعبرية سوخيت وتعنى مظاهرات أو عشش) هى بالمصرية تيكو أو تكوت، وأن لها فى المصرية القديمة معنيين الأول هو مدينة الحقل أما الثانى وهو ما يطابق حال المدينة حسب رؤيتنا، لأنه يعنى (باب الشرق)^(٧٧).

وكان الباحثون الذين اهتموا بذات موضوعنا قد ذهبوا إلى أن سكوت هى الخشبى الآن وتعرف أيضا بتل المسخوطة غربى بحيرة التمساح بوادى طميلات اعتماداً على التشابه بين الاسمين (سكوت) و (مسخوط)، لكن الحقيقة أن هذا الاستنتاج عار عن الصحة تماماً، لأن المسخوطة اسم حديث تماماً أطلقه الأهالى هناك تأثراً بالعقائد الإسلامية، حيث لاحظوا وجود تماثيل الفراعين فاحتسبوا أشخاصاً حقيقيين سخطهم الله أحجاراً لآثامهم. ناهيك عن كوننا سنكشف الآن أن تل المسخوطة كان يحمل اسماً آخر يستبعد معه أن يكون هو سكوت .

فم الحيروت

(٧٣) بوايه: سبق ذكره، ص ٩٧ .

(٧٤) نصحي: سبق ذكره، ص ٤٨ .

(٧٥) كامل: سبق ذكره، ص ٢٢٠ .

(٧٦) كامل: سبق ذكره، ص ٢٢١ .

(٧٧) رمزى: القاموس، سبق ذكره، البلدان المدرسة ص ٢٨٧ . وبوايه: سبق ذكره، ص ٩٨ .

لحل تلك الإشكاليات جميعا حلا سهلا، ولاحتمالات سكنى الإسرائيليين بمصر فى أقصى الشمال عند صان الحجر أو قنثير، واحتمالات أخرى بسكنهم فى وادى طميلات، والاحتمالان يستتبعان خروجا على طريق حورس الحربى المنطلق من صان الحجر، أو الخروج عبر وادى طميلات إلى ممر متلا أو ممر الجدى، فقد تم طرح حل سريع وسهل أصبح اليوم كما لو كان ليس له بديل يقول بدفعتين للخروج. أى أن الإسرائيليين خرجوا على مرتين الأولى من صان الحجر أو ربما قنثير، والدفعة الثانية من وادى طميلات عند المسخوطة، لكن نظريتنا لم تبق مساحة للطروحات المجازفة المستهلة، فالإسرائيليون حسب خريطتنا قد خرجوا من فيثوم / الصوة / سبط الحنة، ليَمروا بعد ذلك على رعمسيس (المسخوطة / الآن: الخشبى) ليأخذوا بقيتهم من هناك نحو الشمال إلى القنطرة غرب (سكوت)، لينخروا هناك يتدبرون أمرهم، فيقررون التوجه نحو بداية خط الطرق الدولية المؤدية إلى فلسطين، لكن ليكتشف الخارجون أنهم قد أعبوا بما فيه الكفاية، ويبدو أن قلاع مصر فى سيله / شور (القنطرة شرق) كانت قد أخذت عدتها كاملة، وتحاشيا للحرب حسب نص التوراة:

إن الله لم يهدمهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع
أنها قريبة، لأن الله قال: لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا
ويرجعوا إلى مصر، فأدارهم الله فى طريق بركة بحر
سوف.

خروج ١٣/١٧، ١٨

وإذا أخذنا باحتمالات الطرد بعد الهزيمة، وأنهم لم يخرجوا عنوة وعتوا رغم إرادة المصريين كما تحب التوراة أن تصور الحدث لإبراز قدرات يهوه، إنما خرجوا مطرودين حسبما فلتت منها الحقائق فى مواضع أخرى، فقد عادوا وهبطوا جنوبا نحو بحيرة التمساح يتسللون تسلل الهاربين من المنطقة المعتادة لفرار العبيد والآبقين والمحكومين بالأحكام بين شقى البحيرة الضحلة إبان قدوم الرياح التى ترفع الماء الضحضاح، فيتحولون عن الطريق الرئيسى بتبرير التدخل الإلهى، فأدارهم الله فى طريق بحر سوف أى جنوبا نحو بحيرة التمساح لأنه كان طبيعياً أن تعتبر بحيرة التمساح إمتداداً لبحر سوف لاتصالها به عبر قناة سيزوستريس. ونستمع التوراة تحكى تلك اللحظة التاريخية التى قام عليها كل تاريخ إسرائيل فنقول:

وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بنى إسرائيل أن
يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر
أمام بعل صافون، مقابلة تنزلون عند البحر

خروج ١٤/١

وعند فم الحيروت أو بى هـ حيروت بالعبرية تتم المعجزة الكبرى فيقول المقدس التوراتى أن الحية اللاعبة بسحرها قد فلفت بحر سوف وعبر الخارجون بعيداً عن الطرق المطروقة المعروفة.

والآن هل بيدنا ما يمكننا من تحقيق إحدائيات هذه المواضع الأربعة :

فم الحيروت أو بى هـ حيروت

مجدل أى القلعة

البحر وهو بحر القصب سوف

بعل صافون وهو معبد للإله بعل السامي الأصل

لقد سبق وعلمنا أن هذه المنطقة كانت مركزاً كبيراً لعبادة الإله بعل صافون / سيت وكل آلهة دافيناى (إرجع إلى نظرية على بك شافعى) ومعلوم أن التمساح كان من أبرز الرموز المصرية للإله (سيت بعل). فقد عرفنا أنه القنطرة غرب حيث قلعة سكوت حيث كانت تقع قلعة العدل (مجدل ماعت) التى هى فى رأينا مجدل التوراة. أما فم الحيروت فهو ما ترجمته (مدخل الحيروت)، وإذا كنا قد اتفقنا على أن مدينة رعمسيس هى هيروبوليس، وأن هيروبوليس هى مدينة الهكسوس التى عرفها اليونان باسم (حواريس)، فإن اسمها المصرى كان (حوت وعرت) وهو ما يتطابق تطابقاً مدهشاً مع الكلمة التوراتية (حيروت)، فقد عبروا تماماً وبكل دقة من المنطقة التى يمكن للآبقين والخارجين على القانون استخدامها وأعطوها اسماً يدل على معناها الجغرافى، فهى المدخل غير المطروق المؤدى إلى (حيروت) أو (حوت وعرت) أو (حواريس)، عبر بحيرة التمساح.

وبحيرة التمساح كان يمكن عبورها ببساطة فتصبح كبحر عن يمين وعن يسار حتى يتم العبور من الخانق الواقع فى أقصى جنوبها الشرقى مع أول بادرة ربح شديد وهو ما قالته التوراة كسبب لجفاف البحر المفلوق. أما ما أضافته التوراة عن المطاردة وغرق جيش أكبر دولة معروفة آنذاك فهو الأمر الذى ليس عليه دليل واحد فى أى وثيقة من وثائق دول المنطقة، بل ولا أى إشارة يمكن تأويلها أو حتى وضعها موضع الاحتمال الظنى.

لقد خرج موسى التوراتى مخرج المجرمين والعبيد الفارين مطرودين لا مُطاردين.

وهناك احتمال آخر يعطينا تخريجا ثانياً يعضدنا لتسميه بى هـ حيروت فأمام بحيرة التمساح كان يقع جبل يحمل اسم جبل الخير وهو بالمصرية القديمة **حينوتا خيرتا**^(٧٨). وهو ما يلتقى مع بى هـ حيروت التوراتية ناهيك عن كوننا قد دققنا القول أن المسخوطة هى هيروبوليس أى هيرو / إيرو / حيرو / وكلها تُحيل إلى أواريس أو حواريس الهكسوسية التى دونتها التوراة حويلة المصرية، ويدعم ذلك التفسير ما جاء عند بلينى يصف خريطة المنطقة فيقول إن الخليج العربى / السويس كان العرب يسمونه خليج EAANT

(٧٨) سليم حسن: أقسام ص ٧٧ .

إيان . وهو ما نظنه قد حمل اسم الملك الهكسوسى خيان الوارد فى الكتابات العربية بحسابه فرعون من العماليق باسم الريان. ويقول ابن كثير عن هذا الفرعون العماليقى: " هو الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن بن سام بن نوح " (٧٩)، ويستمر بلينى ليقول: وهناك توجد مدينتين هامتين الأولى هى مدينة هيروبوليس ومدينة قمبيز (كبريت حاليا)، ثم يقول ما نصه وهو يتجه غربا "وتأتى بعد ذلك أمة العماليقة Tyres " (٨٠).

وغنى عن الذكر أنه فى تلك المنطقة التى عرفها اليونان باسم المقاطعة العربية تم اكتشاف [دولته هنا أثناء كتابة هذا الفصل/ المؤلف]، وردت أخباره بصحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٠/١١/٩٤ بالصفحة الأولى تحت عنوان: "العثور على ٥٠ مقبرة من عصر الهكسوس، حقائق علمية عن الخروج الأول لليهود" وتحت هذا العنوان يأتى الخبر يقول: " تم اكتشاف جبانة أثرية ترجع إلى عصر الهكسوس فى منطقة تل الكوع بوادى الطميلات بالإسماعيلية، تم العثور على ٥٠ مقبرة حتى الآن بحالتها كاملة وتضم الأثاث الجنائزى وعدداً كبيراً من الأواني الفخارية والأدوات والجعارين، كما عثر على دفنات لحيوانات يرجح أنها الحصان الذى أدخله الهكسوس لمصر لأول مرة، يستكمل الاكتشاف الجديد حلقة مهمة فى التاريخ لوقوعه فى وادى طميلات والمشهور بخط سير الخروج الأول لليهود من مصر .. صرح الدكتور عبد الحليم نور الدين الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار أن هذا الاكتشاف يثير تساؤلات علمية مهمة لوجوده فى موقع لم يكن معروفاً من قبل أى علاقة بوجود الهكسوس فى مصر ". لكن حسب بحثنا هذا نكون قد سبقنا هذا الكشف إلى معرفة ذلك الموقع واتصاله عبر سيناء بمواقع الهكسوس الكبرى. ووضعنا للكشف أسسه التاريخية والجغرافية وهو ما سنتضح تفاصيله فى الجزء الثانى من هذا العمل.

وبهذا التصور لخريطة الخروج لابد أن تكون هناك قلعة قرب موقع التسلل عبر بحيرة التمساح تستحق الاسم العبرى مجدل، وفى هذه المساحة التى حددها تؤكد الورقتان الديموطيقية والفينيقيّة اللتان اكتشفهما نويل جيرون أن فى هذا المحيط الجغرافى الضيق كان يوجد معبد للإله بعل صافون / سبت رب الهكسوس المقدم، فالورقة تحوى تضرعات للإله " بعل صفون وكل آلهة دافنى " ودافنى هى دفنة الحالية التى أسمتها التوراة تحفنج، أو بالتصريف الإسمى تحفنجيس، المنشأة على اسم ملكة مصرية، ودافنى تقع فى مركز وسط بين القنطرة وبين بحيرة التمساح إلى الغرب قليلا .

والتوراة تردد أن عبور البحر الأعجازى قد تم " أمام فم الحىروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون / خروج ١/١٤ " .

أما المنطقة التى خرجوا إليها فتقع إلى الشرق من جنوبى بحيرة التمساح ليتجهوا نحو جنوبى سيناء، ولا شك أن اسم تلك المنطقة (برية شور) يعود إلى اسم القلعة المصرية الكبرى سيلا / زارو / شارو / شور

(٧٩) ابن كثير: البداية والنهاية، سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٤.

(٨٠) دى بوا ليميه: الحدود القديمة للبحر الأحمر، الدراسة الثانية من وصف مصر، ص ١٧٣.

التي منحت اسمها بشهرتها للبوادي الممتدة من البحر المتوسط شمالاً إلى خليج السويس جنوباً، إلى الشرق من سور الأمير العظيم الذي يصد الآسيويين وعابري الرمال.

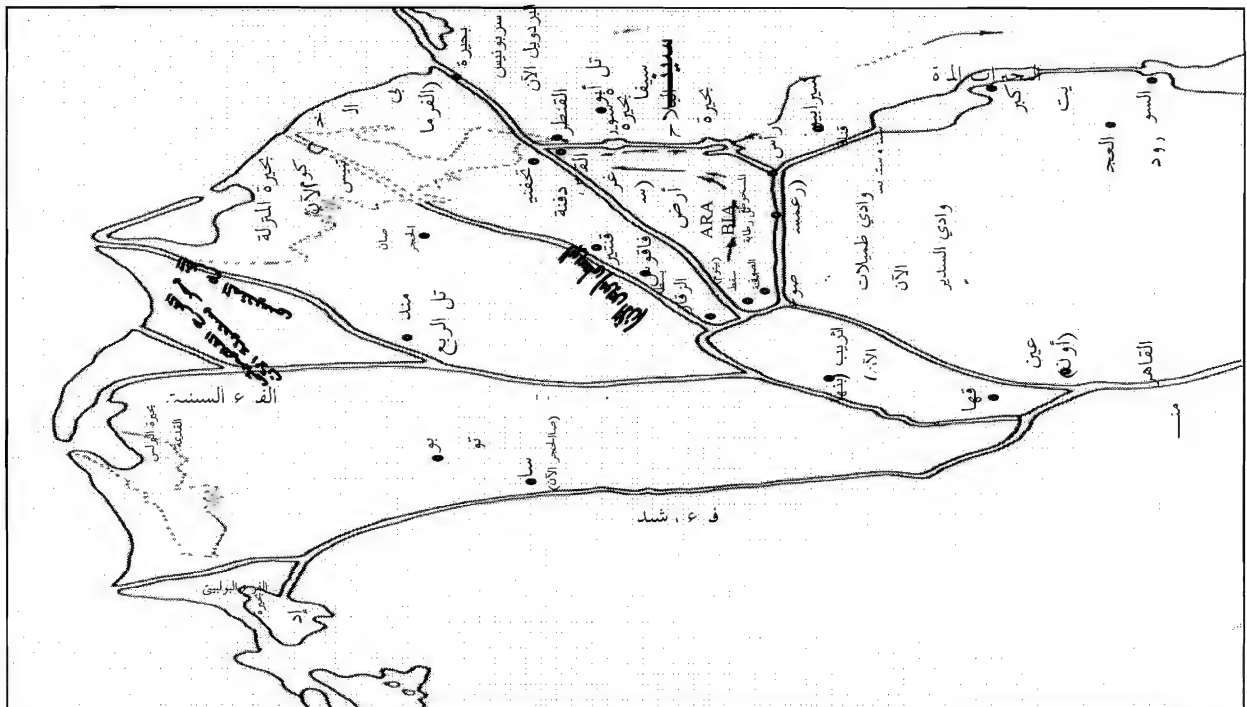
أما الآن فسنعرض لخط سير بنى إسرائيل الخارجين من مصر عبر سيناء، بعد عبورهم البحر المفلوق (سوف) بالعصا المعجزة، لتدقيق المواضع التي مروا بها في محطات حل وترحال .

وعلى الترتيب سار خط السير كالآتي :

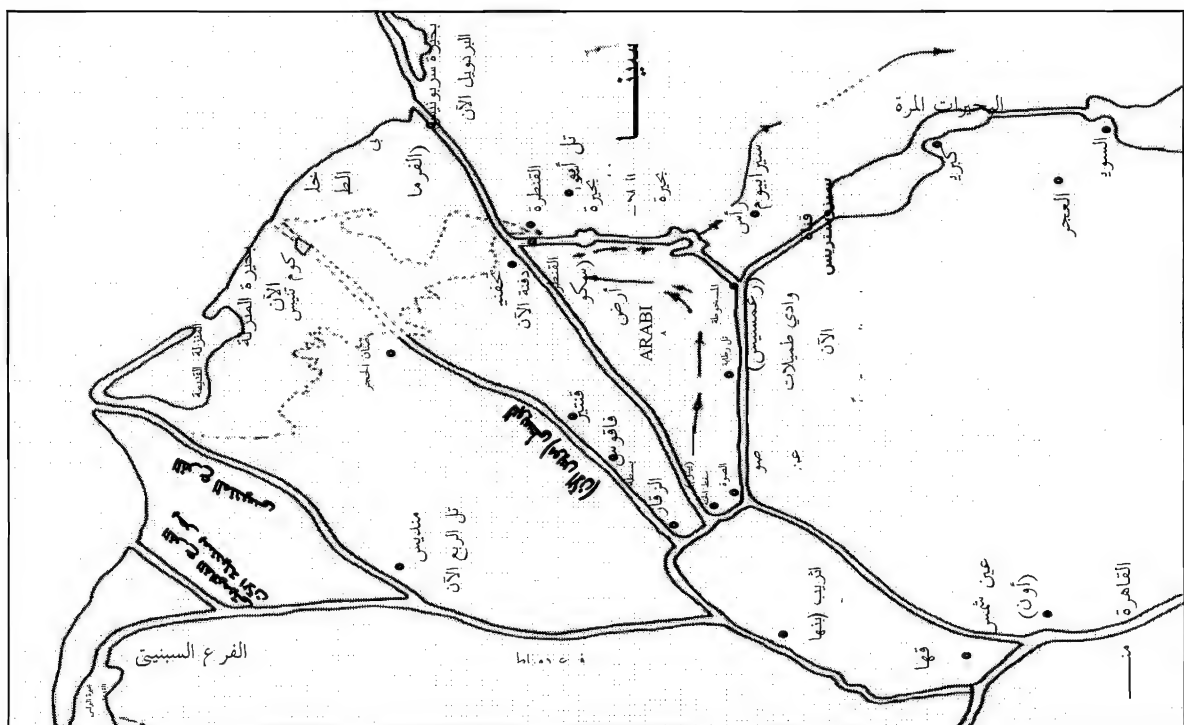
□ الخروج من بحر سوف مباشرة إلى صحراء برية شور (خروج ١٥ / ٢٢)، وهو اسم الساحل الشرقي للبحر المفلوق ويؤدي إلى بداية الطريق السينائي. ومعلوم أن (إيل) أو كبير الأرباب السامي الذي حل محله يهوه السينائي، كان يُلقب باللقب (هـ - شور) أى الثور، وهو ما يفسر لنا القرنين في اللوحة التي قدمناها لفرعون يتلقى الشريعة من الإله، وكيف صورت اللوحة هذا الإله يلبس قرنين أو ذى قرنين. وتقابل هذه الكلمة في الأرامية Tor وفي الأكادية والعبرية Shor وفي الأوغاريتية الحورية وت ر وفي الحبشية سور وفي اللاتينية Taurus وفي اليونانية Touros وفي اللتوانية Tauras . المهم في كل هذا ما يقوله عل الشوك: " والعلاقة واضحة بين كلمة ثور والفعل ثار .. وتقابل ثار العربية شاور العبرية وتعنى: يثب، قفز، يقوى، وهناك كلمة سار العربية بمعنى مشى وتقابلها شور العبرية وتعنى: يدور، يسافر، ويمكن ذكر كلمة السور أيضاً ومثلها شور العبرية وتفيد المعنى نفسه " (٨١) . وهنا نتذكر أن آخر مدينة شرقية في مصر كانت تحمل اسم (ثارو) في المدونات المصرية، وأنها كانت مخرج جميع حملات مصر على آسيا، وأنها كانت أول الطريق نحو سيناء، وأنها كانت قلعة ذات أسوار عظيمة، وأنها والأهم تنطق في العبرية (شور). لقد كانت ثارو أوسيلة هي أول مدائن الخروج بعد عبور البحر المفلوق، مما يعنى وجوب البحث عن هذا البحر المفلوق عند مدينة شور أو ثارو، وهو ما يعنى أيضاً أن هذا البحر يجب أن يكون في عمق الدلتا المصرية، وليس على حدودها الشرقية تماماً، وهو ما سنجد في البحث بشأنه في الأبواب المقبلة.

□ تحرك الركب بعد ذلك في مسيرة استغرقت ثلاثة أيام بلغوا بعدها موضعاً باسم مارة " فجاءوا إلى مارة، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر لذلك دعى اسمها مارة، فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأراه .

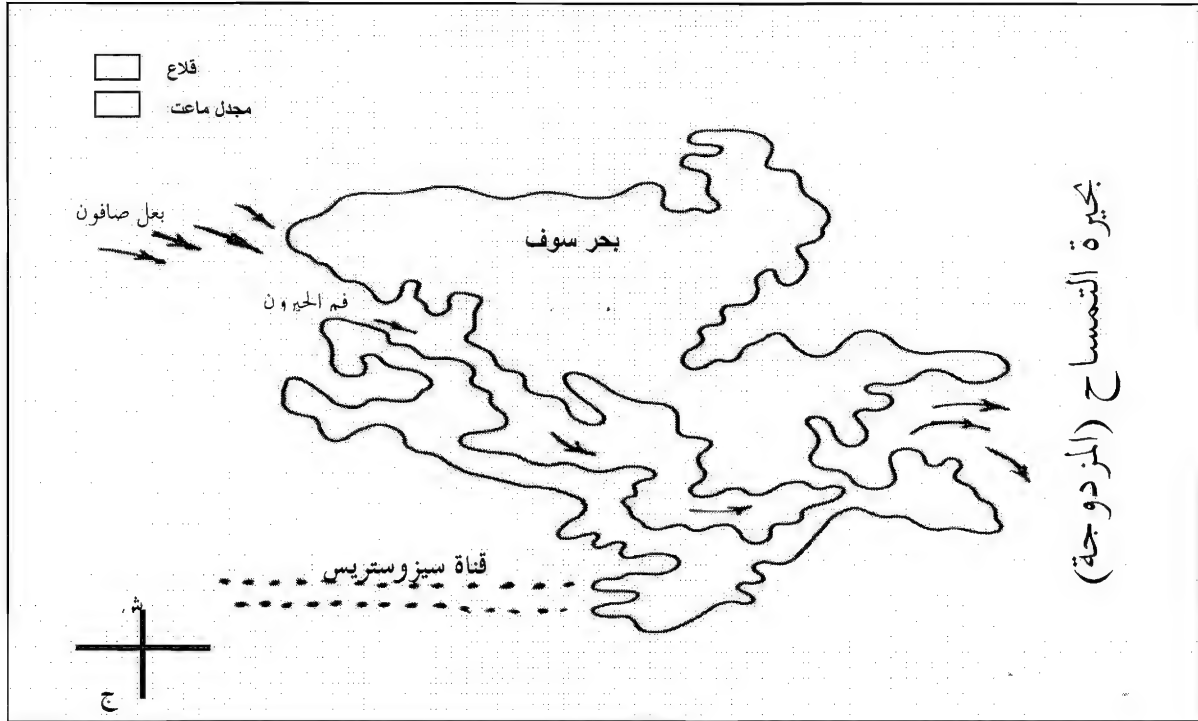
(٨١) على الشوك: جوله .. سبق ذكره، ص ١٠١ .



الخريطة رقم (١٦)
خروج بني اسرائيل من مصر حسب نظر بيتنا

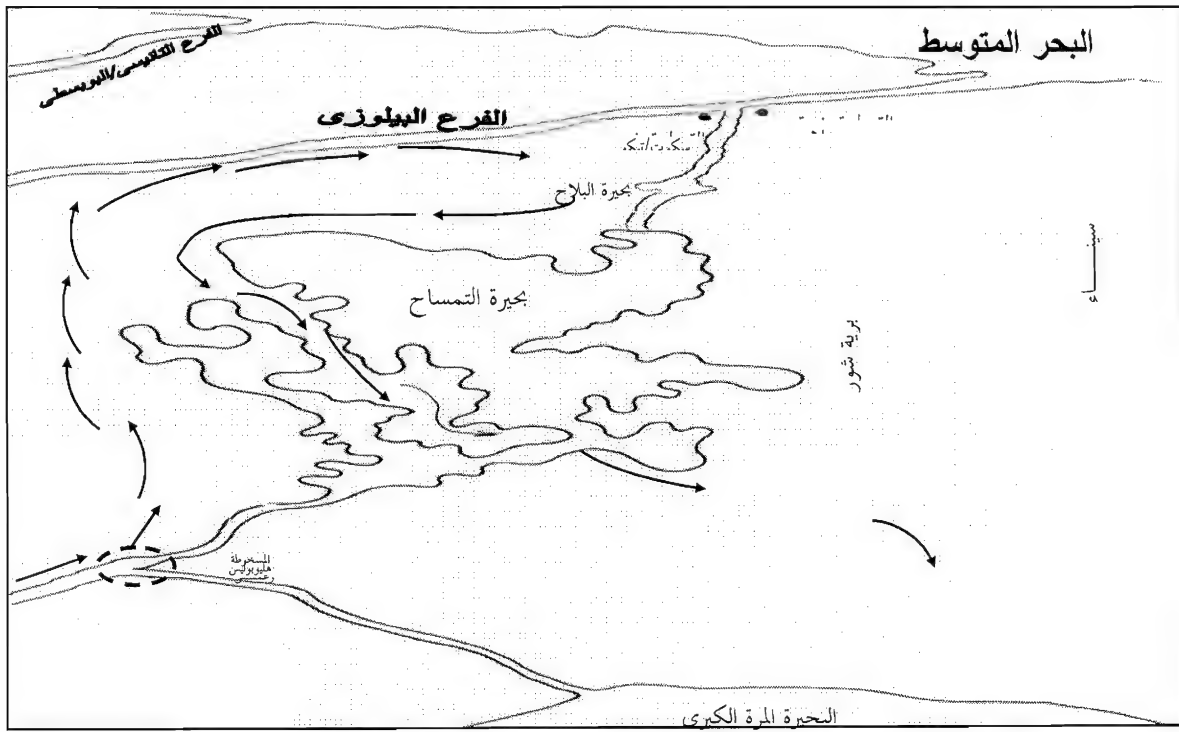


قطاع تفصيلي لموضع الخروج من مصر حسب نظريتنا
خريطة رقم (١٧)



خريطة رقم (١٨)

موضع الخروج عبر بحيرة التمساح مع استبعاد قناة السويس ومد الحدود على استقامتها عبر القناة، مع الاستعانة بالخرائط والأوصاف القديمة



قطاع تفصيلي لموضع الخروج حسب نظريتنا
خريطة رقم (١٩)

□ شجرة فطرحها فى الماء فصار عذبا / خروج ١٥ / ٢٢ - ٢٤". وبعد رحلتنا المعذبة الشاقة وراء مواضع الخروج أمكننا افتراض أن الموضع مارة هو موضع البير المرة الآن أو جبل مر وتقع داخل سيناء إلى الشرق من مدينة السويس الحالية.

ومن المناسب هنا أن نعلم أن تلك المعجزة التوراتية أمر اعتيادى تماماً يمارسه الأهليون هناك حتى الآن، فمعلوم أن بعض الآبار فى الصحراء تحتوى على كبريتات الكالسيوم التى تجعل الماء مر المذاق، وأنه إذا أضيف لتلك المياه حمض الاكساليك تعادل التركيب واختفت المرارة، ولم يزل بدو سيناء حتى اليوم يستخدمون أغصان شجرة اسمها (الواح) تحتوى على حمض الاكساليك لإزالة مرارة الآبار، بحكم التجربة المكتسبة خلال الأجيال.

□ ارتحلوا من ماره إلى منطقة اسمها إيليم وصفتها التوراة بأنها غنية بالنخل وبالعيون (خروج ١٥ / ٢٧)، وهو الأمر الذى يمكن احتسابه منطقة عيون موسى الحالية جنوب شرقى السويس.

□ ارتحلوا من إيليم ونزلوا على ساحل بحر سوف، وهو ما يعنى أنهم كانوا يلتزمون الطريق المحاذى لشرقى خليج العرب / السويس.

□ عادوا من ساحل بحر سوف إلى الصحارى مرة أخرى ليعمقوا بالداخل إلى منطقة باسم برية سين (خروج ١٦ / ١)، المحتمل أنها المعروفة الآن باسم جبل سن البشر. وهناك يعانى الخارجون من الجوع رغم ما نعلمه من وجود السوائم معهم، وفسرناه بأوامر بعدم أكل اللحم، لذلك كان اعتراض الخارجين على موسى وهارون يقول: " ليتنا متنا بيد الرب فى مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنكما آخر جتماننا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع / خروج ١٦ / ٣". وهنا تأتى معجزة جديدة تستمر مدة طويلة تتمثل فى طعام المن وطيور السلوى التى قدمنا بشأنها التفسير، ونضيف هنا ما اكتشفه بودينسها يمر عام ١٩٢٧م فى سيناء لصنف من الإثل يفرز فى الربيع سائلا حلو المذاق، سرعان ما يجف ويتحول إلى كرات بيضاء تشبه حبات البرد فور تعرضه للهواء، وإذا حرق يعطى تبخيراً طيب الرائحة. وحتى اليوم ينطلق بدو سيناء مع بداية الربيع فى جماعات كبيرة لجمع تلك الكرات، وبإمكان الشخص الواحد أن يجمع حوالى كيلو ونصف جرام فى اليوم، وهى كمية كافية لتغذية فرد ليوم واحد أو يومين. ويبدو أن موسى كان يعرف القيمة الغذائية لهذا المن (١). أما السلوى فقد عرفناه طائر السمان / الزقراق / المهاجر .

□ ارتحلوا من برية سين إلى موضع باسم دفقة (عدد ٣١ / ١٢) والتى نحققها بموضع (عين الفوقية) الآن إلى الجنوب من جبل سين البشر، ومن هناك ارتحلوا إلى موضع باسم الوش (عدد ٣١ / ١٣) لم نتمكن من تحقيقه. وإن كنا نظنه موقع سراييط الخادم الآن.

□ ارتحلوا من الوش إلى رفيديم (عدد ٣١ / ١٤)، وقد عثرنا إبان رحلتنا التتقيبية على ثلاثة مواضع باسم رفيه، فهناك على التجاور وادى رفية وجبل رفية وبئر رفية وجمعها العبرى (رفيديم)، وتقع هذه الرفيات أو رفيديم فى صحراء الطور إلى الجنوب الشرقى من وادى مكتب ووادى فيران. وهناك تحدث مشكلة عدم وجود الماء مرة أخرى، فنجد أعجوبة أخرى لم تزل إلى الآن من الأمور الاعتيادية، فيضرب موسى الأرض بعصاه فتتجسس بالمياه عيونا (خروج ١٧ / ١)، وبدو اليوم يمارسون ذلك أيضاً لأنهم يعلمون أن مياه الأمطار تتجمع عند سفوح الجبال تحت شريط رملى متماسك، وهو التماسك الذى ينشأ من رطوبة الماء تحت الرمل، ويكفى فى هذه الحال طرقه بأداة صلبة لتتجسس المياه من تحته. وعند رفيديم تأتى جماعات العمالقة لتدخل معركة مع الخارجين ينسحب العمالقة بعدها.

□ يرتحلون من رفيديم إلى برية سيناء (خروج ١٩ / ١) ليجدوا جبل سيناء يرتجف بالزلزلة والدخان والنار (خروج ١٩ / ١٨)، ويبدو أن المصريين كانوا قد أقاموا هناك تمثالا عظيما من الفيروز (الحجر الأزرق الصافى وهو من أحجار سيناء المشهورة)، ربما كان للإله حور أو للإله سيت، لأن نص التوراة يحدثنا عن كون موسى أخذ معه سبعين من شيوخ إسرائيل وصعد بهم الجبل ليشاهدوا رب البركان، ربهم، لأن جبل سيناء هو جبل الله حوريب المقدس، وتقول التوراة: " ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل، تحت رجليه شبه صنعه من العقيق الأزرق

(١) كاسيدوفسكى الواقع والأسطورة .. سبق ذكره، ص ١١١، ١١٢.

الشفاف وكذات السماء فى النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل، فرأوا الله /خروج ٢٤/٩-
١٩".

وفى موقع بركة سيناء / جبل الله حوريب / كاترين وموسى الآن / يصعد موسى الجبل وسط ضباب البركان ليأتى بالواح الشريعة المكتوبة بإصبع الله، ويغيب هناك أربعين ليلة يزوغ أثناءها الخارجون عن ربهم ويعبدون العجل الذهبى الذى صنعه هارون ويرقصون حوله عراه، فيغضب موسى ويكسر الألواح، ويضربهم يهوه بالموت فى تعبيرة ومسه وقبروت هتأوت، على مسيرة ثلاثة أيام من الجبل (عدد ١٠ / ٣٣). وفى ذات المواقع يأتى الأمر الإلهى بصناعة تابوت العهد الذى سينزل الرب ليسكن فيه ويحملونه معهم فى ارتحالاتهم. ونظننا قد تمكننا من تحقيق موضع قبروت هتأوت أى المقابر بموقع بئر الرقبة وجبل البرقة الآن إلى الشمال الشرقى من جبل كاترين على الجانب الأيسر لخليج العقبة.

□ بعد ذلك يصل المرتحلون إلى محطة باسم حضيروت (عدد ١١ / ٣٥) وهناك تتذمر مريم وتحمل حملتها هى وهارون على موسى اعتراضا على زواجه من امرأة كوشية زنجية، وهو ما أغضب يهوه على مريم فأصابها بعدوى البرص (عدد ١٢ / ١ - ٩). وقد أمكننا تحقيق حضيروت بموضع الحضيرة الآن شمالى جبل البرقة وجنوبى وادى وتير الحالى .

□ يمرون بعد ذلك بعدد من المواقع أمكننا تدقيق بعضها ولم نتمكن من تحقيق أغلبها وهى على الترتيب: رثمه (عدد ٣٣ / ١٨)، ثم رمون فارص (عدد ٣٣ / ١٩)، ثم لبنه (عدد ٣٣ / ٢٠)، ثم رسه (عدد ٣٣ / ٢٤)، ثم قهيلاتة (عدد ٣٣ / ٢٢) وربما كانت هى وادى القهلت أو القلت الآن بين إيلات والنمد. ثم جبل شافر (عدد ٣٣ / ٢٣) ثم حراده (عدد ٣٣ / ٢٤) ثم مقهيلات (عدد ٣٣ / ٥) ثم تاحت (عدد ٣٣ / ٢٦) ثم تارح (عدد ٣٣ / ٢٧) ثم منقه (عدد ٣٣ / ٢٨) ثم حشمونه (عدد ٣٣ / ٢٩) ثم مسيروت (عدد ٣٣ / ٣٠) ثم بنى يعقان: ثم حور الجد جاد (عدد ٣٣ / ٣٢).

والواضح أن كل تلك المراحل من خط السير كانت تقع على الساحل الغربى لخليج العقبة لأنها تنتهى عند قمة خليج العقبة فى موضع باسم يطبات (عدد ٣٣ / ٣٣) ويوجد بهذا الاسم عدد من المواقع هناك مثل طوبيه وطابا ويطبات، والأغلب أن المقصود بها طوبيه إلى الجنوب من قمة الخليج ببضعة أميال، لأنهم بعد ذلك يمرون بموقع عبرونه (عدد ٣٣ / ٣٤) ثم ميناء عصيون جابر الذى تذكره التوراة باعتباره يقع على بحر سوف بجوار أيله (إيلات) الميناء المعروف على خليج العقبة (عدد ٣٣ / ٣٥ وتنشئة ٢ / ١).

□ ويبدو أنهم كانوا فى مبدأ الأمر يريدون الوصول إلى نقطة حصينة تسمح بإيواء هذا العدد الغفير جنوبى فلسطين حتى يقرروا قرارهم بدخول فلسطين من جنوبها أم من شرقها، وكانت تلك المنطقة المختارة هى قادش برنيع / عين مشفاط عدد ٣٣ / ٣٦ التى تم تحقيقها بعين قديس الحالية عند بركة صين وبريه فاران اللتان حققناهما ببرية تسين وبرية باران الحاليتين. ومن قادش بعد ثمان وثلاثين عاما تخللتها صراعات واتفاقات بين أهل مديان وبين الخارجين، تقرر عبور بلاد آدوم من عند العقبة وعصيون جابر دون أية صراعات أو معارك، مما يشير إلى التحالف القرابى بين الجميع، ومن هناك يعبرون بلاد موآب ثم عمون إلى جبل نبو شرقى الأردن مقابل أريحا، حيث تزعم التوراة موت موسى هناك (عدد ٣٣ / ٤٧)، وكان هارون قد مات قبله ودفن فى جبل هور (عدد ١٤ / ٢٢) الذى يحمل أيضاً اسم جبل موسى (تنشئة ١٠ / ٦). وبعدها يقودهم يشوع عابراً نهر الأردن من شرقه إلى غربه لفتح فلسطين بادئاً بأريحا.

وهنا تحكى لنا التوراة عن معجزة جديدة بطلها هذه المرة يشوع بن نون خليفة موسى، فقد كانت أريحا قلعة حصينة يحيط بها سور قوى منيع يقف عقبة كؤد إزاء أى طامع، وهنا تروى التوراة أن يشوع قام بعملين معجزين الأول عند عبور نهر الأردن والثانى عند اقتحام أريحا.

والمعجزة الأولى هى تكرار لمعجزة فلق البحر الموسوية، فقد أمر يشوع باختيار اثنى عشر رجلاً يمثلون الأسباط ليحملوا تابوت العهد على أكتافهم ويخوضوا به فى ماء الأردن، وعندما فعلوا ذلك " توقفت

المياه المنحدرة من فوق، وقامت ندأ واحداً بعيداً جداً عن آدام المدينة التي إلى جانب صرتان، والمنحدرة إلى بحر العربة (البحر الميت) بحر الملح، انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا / يشوع ٣ / ١٦ ، ١٧ ."

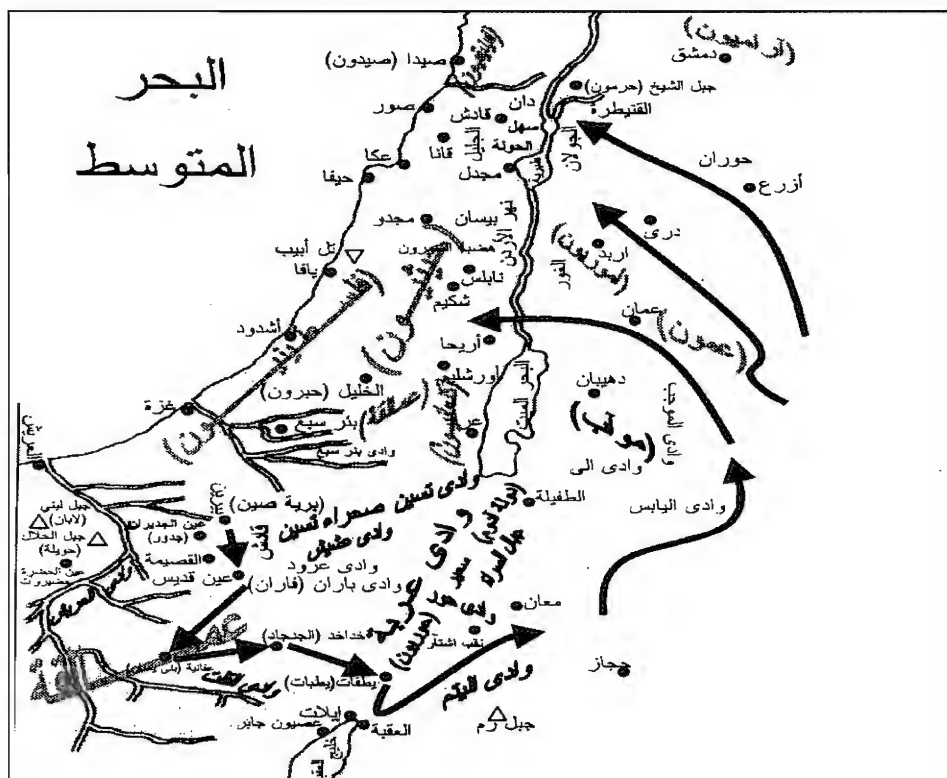


ولو افترضنا أن ذلك قد حدث فإن تفسيره شديد السهولة واليسر وقائم حتى الآن، لأن مدينة آدام التي يشير إليها النص هي داميح الحالية على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا إلى الشمال من أريحا. وهى التي تضع بيدنا مفتاح التفسير، لأن معنى ذلك أن يشوع لم يعبر مباشرة برجاله من أمام أريحا إنما اختار هذه النقطة البعيدة بمسافة خمسة وعشرين كيلو مترا إلى الشمال ليعبر منها النهر. والسبب أنه عند داميح / آدام يضيق مجرى الأردن بين جدارين من الأرض، ويغلب على تركيب الجدارين الجير مع الطين الهش. وهناك ودوما تحدث انهيارات مفاجئة مع أى قفلة أو اهتزازات أرضية، وكان آخر الأحداث من هذا النوع عام ١٩٢٧م عندما توقف ماء الأردن وانقطع عند هذه النقطة لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة نتيجة انهيارا جرف داميح (٢)، وكثيراً ما عجبنا لماذا أمر يشوع رجاله جميعاً. حسب رواية التوراة - بالاصطفاف فى هذه النقطة مع دق الأرض بالأقدام دقات عسكرية شديدة، كانت كافية لزلزلة الجرف وانقطاع ماء النهر وحدث المعجزة.

أما المعجزة الثانية فكانت حول حصون أريحا عندما أمر يشوع رجاله قائلاً: " تدورون دائرة المدينة سبع مرات والكهنة يضربون بالأبواق، ويكون عند امتداد قرن الهاتف عند استماعكم صوت البوق، أن جميع الشعب يهتف هتافاً عظيماً فيسقط سور المدينة مكانه / يشوع ٦ / ٤ ، ٥ ."

وإن المرء ليسأل نفسه في دهشة عن الحكمة في دوران جيش هائل حول مدينة محصنة مطمئنة سبع مرات، والكهنة ينفخون الأبواق، والجيش يهتف بصوت عال قوى، وعلاقة هذا كله بسقوط السور المفاجئ، اللهم إلا إذا كان هذا كله لإلهاء حراس الأسوار وإلقاء الرعب والذعر بين سكان أريحا، مع التغطية على عمل عسكري حقيقي يتم تحت ستار من الهرج والمرج والأصوات المفزعة في خفاء الغبار الذي يثيره دوران المهاجمين حول القلعة.

ونحن نعلم من نقوش الرافدين القديم أن الآشوريين قد ابتدعوا أسلوباً فريداً لتفجير الأسوار الحصينة قبل اكتشاف النار اليونانية / البارود، فكان المهاجمون يشغلون المدافعين بالأصوات والحركات التي لا تعنى شيئاً بينما يتسلل بعض الفدائيين ويحفرون حفراً طويلة عميقة تحت الأسوار، يضعون فيها جذوع أشجار سريعة الاشتعال، تنفسخ وتفرقع عند إضرام النيران فيها فتتهار الأسوار (٣). وهكذا فتح الخارجون أريحا.



الخريطة رقم (٢١)

الغزو - العبور من جنوبي دولة أدوم إلى ما بين دولتي موآب وعمون لغزو غربي النهر، مع حملات مكثفة على طول الساحل الشرقي لنهر الأردن حتى جبل الشيخ (حرمون بالتوراة)

المصادر

الكتب الموسوعية

- ١ — القرآن الكريم
 - ٢ — الكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والعهد الجديد الترجمة العربية الصادرة عن الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.
 - ٣ — قاموس الكتاب المقدس .
 - ٤ — الموسوعة العربية الميسرة .
 - ٥ — الموسوعة البريطانية .
 - ٦ — معجم فولكنر .
 - ٧ — معجم أوكسفورد .
 - ٨ — معجم بدج .
 - ٩ — موسوعة تاريخ العالم : ولیم لانجر رئيساً للجنة علماء متخصصين، أشرف على مجموعة المترجمين العرب د. مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، د . ت .
 - ١٠ — الموسوعة الأثرية العالمية.
- لم تتم الإشارة في الهوامش إلى تلك المصادر وأرقام الصفحات حيث يتم الرجوع إليها حسب الأصول المرجعية للبحث في الموسوعات والمعاجم حسب مادة المعلومة.

المصادر العربية والمترجمة إلى العربية

أ

- ١ — الأثير (ابن) : أسد الغابة فى معرفة الصحابة د . ت . مطبعة دار الشعب. القاهرة .
- ٢ — إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة، ترجمة د. محمد عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكرى، نشر مصطفى البابى الحلبي، القاهرة، د.ت.
- ٣ — ألدرید (سيرل) : إخناتون، ترجمة د. أحمد زهير الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- ٤ — أنتاديوب (شيخ) : الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة، ١٩٩٥ .
- ٥ — أورسيوس : تاريخ العالم، الترجمة العربية التي تمت فى منتصف القرن الرابع الهجرى، تحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ١، ١٩٨٢ .
- ٦ — إيفانز (أ . ج) : هيرودت، ترجمة أمين سلامة، الدار القومية القاهرة، د . ت

ب

- ٧ — بافقيه (محمد عبد القادر) : تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ٨ — باقر (د. طه) : الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين، دار الشؤون الثقافية العامة بوزارة الثقافة

والإعلام، بغداد، ١٩٨٦.

- ٩ — برستد (جيمس هنرى) : فجر الضمير ، ترجمة سليم حسن مكتبة مصر — القاهرة .
- ١٠ — أبو بكر (د. عبد المنعم) : إخناتون، المكتبة الثقافية، القاهرة عدد ٢٥ .
- ١١ — بكر (د. محمد إبراهيم) : صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ .
- ١٢ — بلوتارك : إيزيس وأوزيريس، ترجمة حسن بكرى ومحمد خفاجى، دار القلم، القاهرة د. ت .
- ١٣ — البهيتى (محمد نجيب) : المعلقة العربية الأولى عند جذور التاريخ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨١ .
- ١٤ — بهنسى (د. عفيف) : إيبلا والتوراة ، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، عدد ١٩٧ ، تموز ١٩٧٨ .
- ١٥ — بوابة مصر الشرقية (الإسماعيلية) مجموعة من الباحثين، لجنة صياغة التاريخ بالحزب الوطنى الديمقراطى بالإسماعيلية مطبعة الفجر، الإسماعيلية ١٩٩٠ .

ت

- ١٦ — تشيرنى (ياروسلاف) : الديانة المصرية القديمة، ترجمة (د / أحمد قدرى)، هيئة الآثار المصرية، القاهرة ، ١٩٨٧ .
- ١٧ — توفيق (د. سيد) : إخناتون أول الموحدين، فكر للدراسات والأبحاث ، العدد ٩ القاهرة ، ١٩٨٦ .

ث

- ١٨ — ثابت (سعيد محمد) : فرعون موسى، دار المدينة المنورة؛ القاهرة ١٩٩٢
- ١٩ — الثقافة العالمية (مجلة) : الكويت ، عدد ٥٥ نوفمبر ١٩٩٢ .

ج

- ٢٠ — جاردنر (آلن) : مصر الفراعنة، ترجمة د / نجيب ميخائيل، بيروت ، ط ١، ١٩٨٢ .
- ٢١ — جارستانج : إمبراطورية الحيثيين، ترجمة درينى خشبة، المجلد الثانى، ضمن العمل الموسوعى: تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة د. ت .
- ٢٢ — جارودى (روجيه) فلسطين أرض الرسالات الإلهية .
- ٢٣ — جرنى (أ. ر .) : الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر مطبوعات البلاغ، القاهرة، ١٩٦٣ .
- ٢٤ — جريفث (اليولين) : الإنقلاب الدينى فى مصر، ترجمة عبد الرحمن صدقى ودرينى خشبة، النهضة المصرية القاهرة ، المجلد الثانى من تاريخ العالم، د. ت .

ح

- ٢٥ — حتى (فيليب) : تاريخ العرب ، دار الكشف بيروت، ١٩٦٥ .
- ٢٦ — حداد ومجاصص (د. حسنى وسليم) : بعل هداد، دار أمواج، ١٩٦٥ .
- ٢٧ — حسن (د / سليم) : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٤٤ .
- ٢٨ — حسن (د / سليم) : مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢ .
- ٢٩ — الحلبى (برهان الدين) : السيرة الحلبية فى سيرة الأئمين والمأمون إنسان العيون، دار المعرفة ، بيروت، د .

ت .

- ٣٠ — حماد (د / محمد) : كامس، دار الجيل للطباعة مع دار المطبوعات العصرية، القاهرة ، ١٩٧٠ .
٣١ — حمدان (جمال) : شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، الناشر عالم الكتب، دار نافع للطباعة .

خ

- ٣٢ — الخشاب (د / عبد المحسن) : تاريخ اليهود القديم فى مصر، مكتبة مدبولى، القاهرة ، ١٩٨٩ .
٣٣ — الخشبة (غطاس عبد الملك) : رحلة بنى إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
٣٤ — خشيم (د / على فهمى) : آلهة مصر العربية ، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ .
٣٥ — الخير (عز الدين) : أضواء عربية فى الأسطورة الإغريقية مجلة المعرفة، بوزارة الثقافة والإرشاد القومى، دمشق عدد ١٩٧ ، تموز ١٩٧٨ .

د

- ٣٦ — دوماس (فرانسوا) : آلهة مصر ، ترجمة زكى سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦ .
٣٧ — ديب (سهيل) : التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٢ .
٣٨ — دى بوا إيميه كل دراساته ومعلوماتها .
٣٩ — ديسو (رينيه) : العرب فى سوريا قبل الإسلام ترجمة عبد الحميد الدواخلى، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة .

ذ

- ٤٠ — ذكرى (أنطون) مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواعها وخطوطها وأهم إشاراتهما، القاهرة د. ت.

ر

- ٤١ — روبنسون (تيودور) : إسرائيل فى ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى فى تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، د . ت .
٤٢ — رمزى (محمد) : القاموس الجغرافى للبلدان المصرية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٩٣ .
٤٣ — ريجيسكى (م) : أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية ترجمة د. آخو يوسف، دار الينابيع ، دمشق ١٣٩٣ .

ز

- ٤٤ — زايد (د / عبد الحميد) : أسماء مصر، مجلة كلية التربية، جامعة الكويت، العدد ٢ ، ١٩٧٢ .
٤٥ — زايد (د/ عبد الحميد) : الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة ، د . ت .
٤٦ — زغلول (د/ سعد) : الأنبياء والمنتبئون قبل ظهور الإسلام، مجلة عالم الفكر، الكويت مجلة ١٢ ، عدد ٤ ، ١٩٨٢ .
٤٧ — زيعو (د/ على) : قطاع البطولة والنزجسية فى الذات العربية، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٢ .

س

- ٤٨ — سامسون (جوليا) : نفرتيتى، ترجمة مختار السويفى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢ .
٤٩ — سترابون فى مصر: ترجمة وهيب كامل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣ .

- ٥٠ — سعيد (د. سامي) : الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨ .
- ٥١ — السهيلي : الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ٨ .
- ٥٢ — سوسه (د/ أحمد) : العرب واليهود في التاريخ، العربى للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، د. ت .
- ٥٣ — السواح (فراس) : أرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتى، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥ .
- ٥٤ — السواح (فراس) : الحدث التوراتى والشرق الأدنى القديم. دار علاء الدين، دمشق، ط٢، ١٩٩٣ .
- ٥٥ — السواح (فراس) : مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت .
- ٥٦ — سوفوكليس: الملك أوديبوس، أوديبوس فى كولونس، أنتيجونى، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربى، القاهرة، د. ت .
- ٥٧ — السيد (رمضان) : تاريخ مصر القديمة، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٩٣ .

ش

- ٥٨ — شباهات وهمية حول العهد القديم، نشر كنيسة قصر الدوبارة، القاهرة، ١٩٩١ .
- ٥٩ — شتيندورف وسيل: عندما حكمت مصر الشرق ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٠ .
- ٦٠ — شطا (د/ عبده) : جيولوجية شبه جزيرة سيناء، ضمن موسوعة جزيرة سيناء، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢ .
- ٦١ — الشعراوى (د/ عبد المعطى) : أساطير إغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣ .
- ٦٢ — شقير (نعوم بك) : تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١ .
- ٦٣ — الشوك (على) : بين الخطاب الموسيقى والخطاب اللغوى مجلة النهج، دمشق، عدد ٤، ١٩٩٥ .
- ٦٤ — الشوك (على) : جولة فى أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٤ .
- ٦٥ — الشوك (على) : مأساة أوديب بين تحليلات فرويد وفرس الماء، صحيفة الحياة اللندنية العدد الصادر فى ١٩٣٦/١٧ .
- ٦٦ — شيفمان (أ. تين) : ثقافة أوغاريت، ترجمة د/ حسان ميخائيل اسحق، الأبجدية للنشر دمشق ١٩٨٨ .

ص

- ٦٧ — الصليبي (كمال) : التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت ط٢ .
- ٦٨ — الصليبي (كمال) : خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقى، لندن، ١٩٨٨ .
- ٦٩ — الصليبي (كمال) : حروب داود، دار الشروق، بيروت، ط٢، ١٩٩١ .

ع

- ٧٠ — عابدين (عبد المجيد) : لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده، مطبعة الشبكشى بالأزهر القاهرة، ١٩٦٤ .
- ٧١ — عباس (إحسان) : تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق عمان، الأردن، ١٩٨٧ .
- ٧٢ — عبد البر (ابن) : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .

٧٣ — عبد الجواد (عصام): الوحش الذى يهدد الصعيد، مجلة روز اليوسف، القاهرة، عدد السابع من أكتوبر ١٩٩٦ .

٧٤ — عبد الحليم (د/ عبد المنعم): محاولة لتحديد موقع بونت، مطبوعات جمعية الآثار بالأسكندرية، دراسات أثرية وتاريخية، العدد الخامس، ١٩٧٤ .

٧٥ — عبد الحليم (د/ عبد المنعم): موجز رسالتيه للماجيستير والدكتوراه فى مذكرة مطبوعة بجامعة الاسكندرية .

٧٦ — عبد الحليم (د/ نبيلة محمد): معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية، منشأة المعارف، الاسكندرية د . ت .

٧٧ — عبد الرحمن (مرعى) : الإمبريالية اليهودية، المطابع الموحدة ١٩٨٧ .

٧٨ — العبرى (ابن) تاريخ مختصر الدول .

٧٩ — عثمان (أحمد) : تاريخ اليهود، الشروق، القاهرة ١٩٩٤ .

٨٠ — عثمان (أحمد): غريب فى وادى الملوك، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط١، ١٩٨٩ .

٨١ — عثمان (أحمد): صحيفة الحياة، عدد ١٨ / ١٠ / ١٩٩٦ .

٨٢ — عثمان (أحمد): فى الشعر الجاهلى واللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٦ .

٨٣ — على (أبو عساف) : الأراميون، دار أمانى، طرطوس، سوريا، ١٩٨٨ .

٨٤ — العقاد (عباس محمود): الله، كتاب الهلال، عدد ٤٢ ، القاهرة، سبتمبر ١٩٥٤

٨٥ — العقاد (عباس محمود): إبليس، كتاب الهلال، عدد ١٩٢، القاهرة.

٨٦ — العلو (إبراهيم): كائنات وضاعة، مجلة العربى الكويتية، عدد يناير ١٩٩٥

٨٧ — على (د. جواد): المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بغداد، د . ت .

٨٨ — عمار (د. عباس مصطفى): المدخل الشرقى لمصر، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٤٦ .

٨٩ — عوض (د. لويس): مقدمة فى فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ .

٩٠ — عوض الله (د. عاطف): بلاد بونت، محاولة لتحديد موقعها، مجلة نزوى العمانية، عمان، العدد السادس، إبريل ١٩٩٦ .

٩١ — عياد (د. شكرى) : البطل فى الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٧١ .

ف

٩٢ — الفردوس: الشاهنامة، ترجمة الفتح بن على البندارى، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣ .

٩٣ — فرويد (سيجموند): موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشى، دار الكشاف، بيروت، ط٤، ١٩٨٢ .

٩٤ — فريجة (د. أنيس): دراسات فى التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠ .

٩٥ — فريجة (د. أنيس) : ملاحم وأساطير من الأدب السامى، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩ .

٩٦ — فريزر (جيمس): الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢ .

٩٧ — الفقى (محمد): قصص الأنبياء والمرسلين: أحداثها وعبرها، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩ .

٩٨ — فليكوفسكى (إيمانويل): أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة بالمشراكة مع دار الكتاب العربى، القاهرة، د . ت .

٩٩ — فليكوفسكى (إيمانويل) : عصور فى فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٥ .

١٠٠ — فيللور: نشيد عليان بعل، مجلة سوريا، ١٩٣٢ .

١٠١ — فيللور: موت، مجلة سوريا، ١٩٣٤ .

ق

١٠٢ — ابن قتيبة: المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤ ، ١٩٨١ .

١٠٣ — قدرى (د. أحمد): المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفى، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٥ .

١٠٤ — القمنى (سيد محمود): الأسطورة والتراث، دار سيناء، القاهرة، ط٢ ، ١٩٩٣ .

١٠٥ — القمنى (سيد محمود): النبى إبراهيم والتاريخ المجهول.

١٠٦ — القيم (د. على): المرأة فى حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالى، دمشق، ١٩٨٧ .

ك

١٠٧ — كاسيدوفسكى (زينون): الواقع والأسطورة فى التوراة، ترجمة حسان ميخائيل، أبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠ .

١٠٨ — كالد (رتشى): رجال ذللو الصحراء، ترجمة محمد معوض، محمود الشواربى، دار الفكر العربى، القاهرة، د . ت .

١٠٩ — كامل (إبراهيم محمد كامل): إقليم شرق الدلتا فى عصوره التاريخية القديمة: ج٢، الهيئة المصرية لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥ .

١١٠ — كامل ومحمد (مراد والبكرى): تاريخ الأدب السريانى، القاهرة، ١٩٤٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨ .

١١١ — ابن كثير: البداية والنهاية .

١١٢ — كوزنيتسوف (د. ت . م): الاسكيفيون، مجموعة نصوص المؤرخين الكلاسيك يونان ورومان حول شعب الاسكيت (بالروسية سكيف)، دار نشر المدارس العليا، موسكو، ١٩٩٢، ترجمها خصيصا لهذا البحث الفنان (ميدالور ونحات) ألكسندر مولستوف والدكتورة عزة الخميسى.

١١٣ — كون (كارلتون): القافلة، قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجانى، دار الثقافة، بيروت، د . ت .

١١٤ — كون (كارلتون): قصة الإنسان، ترجمة محمد توفيق وعبد المطلب الأمين، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥ .

١١٥ — كينون (كانتلين): الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة د. شوقى شعث وسليم زيد، دار الجيل، ١٩٩٠ .

ل

١١٦ — لسنر (إيفار) : الماضى الحى، ترجمة إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١ .

م

١١٧ — ماكليستر : الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثانى من تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د . ت .

- ١١٨ — المتنبى (ديوانه): تحقيق عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥ .
- ١١٩ — محمد (د. محمد عبد القادر): آثار الأقصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢ .
- ١٢٠ — المسعودى : التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت.
- ١٢١ — المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د . ت.
- ١٢٢ — بهجة المعرفة: الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، طبعة إيطاليا، ١٩٨٢ .
- ١٢٣ — مقار (شفيق): قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتاب والنشر، قبرص ولندن.
- ١٢٤ — ابن منبه (وهب): التيجان فى ملوك حمير، حيدر إباد، الدكن، ١٣٤٧ هـ
- ١٢٥ — منى (زياد): بنو إسرائيل، جغرافية الجذور، الأهالى، دمشق، ١٩٩٥ .
- ١٢٦ — مهران (د. محمد بيومى): دراسات فى الشرق الأدنى القديم، حركات التحرير فى مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦ .
- ١٢٧ — موسكاتى (سبتيو): الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧ .
- ١٢٨ — موسى (محمد العزب) : حضارات مفقودة ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢ .
- ١٢٩ — ميرز (ج . ل): المينويون والميسينيون، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد، النهضة المصرية، مجلدات تاريخ العالم، المجلد الثانى، القاهرة، د . ت.
- ١٣٠ — ميلكو (إيلي) اللالى، ترجمة عن اللغة الحورية الأوغاريتية ديل ميديكو، ترجمها إلى العربية مفيد عرنوق، دار أمواج، بيروت، ط٢ ، ١٩٨٩ .

ن

- ١٣١ — نادوتى (سيد مظفر): التاريخ الجغرافى للقرآن، ترجمة د. عبد الشافى غنيم، لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٥٦ .
- ١٣٢ — ناصف (عصام الدين حنفى): اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج، بيروت، ١٩٨٥ .
- ١٣٣ — نصحى (د. إبراهيم): السويس فى العصور القديمة حتى الفتح العربى، ضمن دراسات بكتاب بعنوان السويس، صادر بالسويس، مصر، د . ت.
- ١٣٤ — نور (د. على) : ملامح مصرية فى المسرح الإغريقى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د . ت .
- ١٣٥ — نولدكه (تيودور): اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١٣٦ — النيسابورى (الثعلبى): عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د . ت
- ١٣٧ — نيلسن (ديتلف): تاريخ العلم، دراسة منشورة فى كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين على، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٣٨ — نيلسن (ديتلف): الديانة العربية القديمة، ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين على، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ .

هـ

- ١٣٩ — هورنونج (إريك): ديانة مصر الفرعونية، الوجدانية والتعدد، ترجمة

د. محمود طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥ .

١٤٠ — هومل (فرتز): التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب التاريخ العربى القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين على، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ .

١٤١ — الهمدانى : مختصر كتاب البلدان.

١٤٢ — هيرودت : (هيرودت يتحدث عن مصر): ترجمة محمد صقر خفاجى، تهمشيات وشروح د. أحمد بدوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧ .

و

١٤٣ — وافى (د. على عبد الواحد): اليهودية واليهود، دار مصر، القاهرة، د. ت.

١٤٤ — ولفنستون (إسرائيل): تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠ .

١٤٥ — الويسى (حسين بن على): اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ .

ى

١٤٦ — يحيى (د. لطفى عبد الوهاب): العرب فى العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٧٩ .

١٤٧ — اليوسف (يوسف سامى): تاريخ فلسطين عبر العصور، الأهالى ، دمشق، ١٩٨٩ .

١٤٨ — يونس (د. عبد الحميد): الفولكلور والميثولوجيا، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثالث، العدد الأول.

A

١ - Albright, w, Akkadian Letters, The Amarna Letters, J.E.A, T.

٢ - Alderd. c. The end of El-Amarna period, J.E.A, ١٩٥٧.

B

٣ - Breasted, Ancient Records.

٤ - Brugsch. H, History of Egypt under the pharaohs.

٥ - Budge. A.W, Tut-Ankh- Amen, Amenism, Atenism, and Egyptian monotheism, ١٩٢٣.

C

٦ - Childe, The Aryans, New York, ١٩٢٦.

٧ - Conteneau. G, Civilisation d'Assur et de Babylone, Paris, Payot, ١٩٥١.

E

٨ - Epicurea, ED. II. Usener Lipsia, ١٩٨٧.

٩ - Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, ١٩٢٧.

١٠ - Evans. A, The palace of Minos at Knossos, ١٩٢١.

F

١١ - Frankfort and Pendlebury, the city of Akhetaten, ١٩٣٣.

G

١٢ - Gardiner, Egypt of the pharaohs, ١٩٦٤.

١٣ - Gardiner, the Military Road Between Egypt and Palestine, J.E.A, Vol VI, ١٩٢٠.

H

١٤ - Hayes. w.c, Egypt from the death of Amenemhat II.

١٥ - Herzog, pynt in Abhandlungen in stitutes kairo, ٦, ١٩٦٨.

J

١٦ - James. T.S, Egypt from the Explution of the Hyksos to Amenophis I.C.A.H.

K

١٧ - Karll, Studien zur Gesehichte des Alten Aegypten IV, Das Land punit wien, ١٨٩٠.

١٨ - Kenyon (Kathleen), Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London, ١٩٧٤.

١٩ - Kitchen, punt and how to therein orientalia, ١٩٧١.

٢٠ - Kupper, Les nomades enrois de mori, ١٩٥٧.

L

٢١ - Lods. A, Israel from it's beginnings to the middle of eight century, London, ١٩٦٣.

M

٢٢ - Mariette. A, Deir el Bhi, Leipaig. ١٩٧٧.

٢٣ - Maspero. G, in the odore Davies. M, The Tombe of Queen Tiyi, ١٩١٠.

٢٤ - Mercer. S.A.B. The Tell-Elamarna Tablets, ١٩٣٩.

٢٥ - Montgomery, Arabia and the Bible, philadelphia, ١٩٤٣.

N

٢٦ - Navil, Archeology of the old Testament, ١٩١٣.

٢٧ - Naville. E, Le Commerce de l'ancienne Egypte avec les nations voisnne, Geneve, ١٩١١.

٢٨ - Noldeke, The semitic Languages, Encyclopaedia Britannica, II.

P

٢٩ - Petrie. F., A History of Egypt Vthed, ١٩٢٤.

٣٠ - Petrie. F, Ancient Gaza, London, ١٩٢١.

S

٣١ - Save. S.T, J.E.A, ٣٧.

٣٢ - Sayce. A.H, Menes and Naram sin, J. E. A. ٦, ١٩٢٠.

٣٣ - Se the . k, Bitrage zur Geschichte Amenophis IV, Kgl. Ges. d. wiss Machrichten philhist
klasse, ١٩٢١.

٣٤ - Stade. B, Lehrbuch der hebraischen grammatik, Libzig, ١٩٤٩.

W

٣٥ - Wallhausen. J, Die Bibllischen atertu mer, calw and stuttgart.

٣٦ - Weigall, The Life and times of Akhnaten, J. E. A, ١٩٥٧.

٣٧ - Wilson. J.A, Egyptian Historical textes, in Janes pritchard, Ancien Near Eastern Texresa.

Z

٣٨ - Zallig. S. H, A grammar of phoenician Language, New Haven, Conn, ١٩٣٦.

من أعمال المؤلف

- ١ — الموجز الفلسفى .
 - ٢ — مشكلات فلسفية (بمشاركة) .
 - ٣ — رب الثورة : أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة.
 - ٤ — الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية.
 - ٥ — النبى إبراهيم والتاريخ المجهول .
 - ٦ — الأسطورة والتراث .
 - ٧ — حروب دولة الرسول. جزءان .
 - ٨ — قصة الخلق : منابع سفر التكوين .
 - ٩ — إسرائيل : التوراة والتاريخ والتضليل .
 - ١٠ — رب الزمان ودراسات أخرى .
 - ١١ — السؤال الآخر.
 - ١٢ — النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة.
- وأعمال أخرى منشورة بالدوريات العربية والعالمية

| الصفحة | عنوان الخريطة | رقم الخريطة |
|--------|--|--------------|
| ٢٢٠ | الموضع المفترض لبلاد ميتاني بأعلى الرافدين | خريطة رقم ١ |
| ٢٣٧ | موقع بلاد آدوم | خريطة رقم ٢ |
| ٢٥٥ | جغرافيا حقل الأحداث (من وضع المؤلف وتخرجه) | خريطة رقم ٣ |
| ٢٥٦ | خط سير رحلة حتشبسوت السلمية إلى بلاد بونت حسب نظريتنا | خريطة رقم ٤ |
| ٢٧٤ | شرقى المتوسط زمن الأحداث | خريطة رقم ٥ |
| ٣٥٢ | وديان سيناء | خريطة رقم ٦ |
| ٣٨٦ | حقل الأحداث زمن إمبراطورية الهكسوس | خريطة رقم ٧ |
| ٤٢٠ | موقع كاسيوس وبيليزيوم | خريطة رقم ٨ |
| ٤٦٠ | فلسطين وفق التقسيم التوراتي | خريطة رقم ٩ |
| ٤٩٢ | بلاد الحثيين | خريطة رقم ١٠ |
| ٥١٤ | خريطة بطلميوس | خريطة رقم ١١ |
| ٥٢١ | مناطق العاديين والشموديين | خريطة رقم ١٢ |
| ٥٢٤ | جزيرة العرب / طرق القوافل التجارية | خريطة رقم ١٣ |
| ٦٦٢ | طرق سيناء تفسير الخروجين عند كانيون | خريطة رقم ١٤ |
| ٦٨٠ | توزيع الأسباط حسب رؤية التوراة على أرض فلسطين | خريطة رقم ١٥ |
| ٧٠٢ | كاريا فى الأناضول | خريطة رقم ١٦ |
| ٩٥٣ | الخروج الإسرائيلى فى شبه جزيرة سيناء حسب تخريجنا | خريطة رقم ١٧ |
| ٩٥٤ | الغزو | خريطة رقم ١٨ |
| ٩٩٢ | خط الخروج حسب مونتيه | خريطة رقم ١٩ |
| ٩٩٧ | الخروج عند على شافعى | خريطة رقم ٢٠ |
| ٩٩٨ | خريطة اعتباطية للخروج توزعها الكنيسة المصرية | خريطة رقم ٢١ |
| ٩٩٩ | خريطة اعتباطية للخروج | خريطة رقم ٢٢ |
| ١٠٠٠ | خريطة اعتباطية بالكتاب المقدس | خريطة رقم ٢٣ |
| ١٠٠٧ | المرحلة الثانية من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٢٤ |
| ١٠٠٨ | المرحلة الثالثة من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٢٥ |
| ١٠٠٩ | المرحلة الرابعة من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٢٦ |
| ١٠١٠ | المرحلتان الخامسة والسادسة من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٢٧ |
| ١٠١١ | المرحلة السابعة من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٢٨ |
| ١٠١٢ | المرحلتان الثامنة والتاسعة من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٢٩ |

| | | |
|------|---|--------------|
| ١٠١٣ | المرحلتان العاشرة والحادية عشر من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٣٠ |
| ١٠١٤ | المرحلة الثانية عشر من مراحل الخروج عند غطاس الخشبة | خريطة رقم ٣١ |
| ١٠٣١ | خريطة بطلميوس لفروع الدلتا حسب تفسير بول | خريطة رقم ٣٢ |
| ١٠٣٢ | خريطة استرابون لفروع الدلتا حسب تفسير بول | خريطة رقم ٣٣ |
| ١٠٥٤ | تصورنا لموضع رعمسيس فى إقليم جاسان حيث استعبد الإسرائيليون | خريطة رقم ٣٤ |
| ١٠٦١ | قطاع أوضح لموضع الأحداث حسب رؤيتنا وتخريجنا | خريطة رقم ٣٥ |
| | موضع الخروج عند بحيرة التمساح مع استبعاد قناة السويس ومد الحدود على استقامتها عبر القناة مع الاستعانة بالخرائط والأوصاف القديمة | خريطة رقم ٣٦ |
| ١٠٦٢ | | |
| ١٠٦٨ | خروج بنى إسرائيل من مصر حسب نظريتنا | خريطة رقم ٣٧ |
| ١٠٦٩ | قطاع تفصيلي لموضع خروج بنى إسرائيل من مصر حسب نظريتنا | خريطة رقم ٣٨ |

| رقم اللوحة | عنوان اللوحة | الصفحة |
|------------|---|--------|
| شكل رقم ١ | الختان لوحة مصرية قديمة | ٤٣ |
| شكل رقم ٢ | المسحة المصرية المقدسة بالدهن أو الزيت المقدس | ٥٥ |
| شكل رقم ٣ | رأس حتشبسوت — أسرة ١٨ المتحف المصرى | ٢٠٤ |
| شكل رقم ٤ | الدير البحرى / معبد حتشبسوت | ٢٠٦ |
| شكل رقم ٥ | ملك وملكة بونت فى لوحات حتشبسوت | ٢٠٨ |
| شكل رقم ٦ | حاملو الهدايا من أهل بونت (شعب إرم) | ٢٠٩ |
| شكل رقم ٧ | مساكن بلاد بونت كما صورتها لوحات حتشبسوت | ٢١١ |
| شكل رقم ٨ | البتراء واجهة خزنة فرعون فوق الأعمدة | ٢٤١ |
| شكل رقم ٩ | أعمدة مساكن البتراء | ٢٤٢ |
| شكل رقم ١٠ | قاعة المحكمة / البتراء / أعمدة ومبان كأعشاش النحل فى الصخر | ٢٤٤ |
| شكل رقم ١١ | قبر القصر | ٢٤٤ |
| شكل رقم ١٢ | الأعمدة الأربعة سمة بيوت بلاد بونت (قبر الجرة من البتراء) | ٢٤٦ |
| شكل رقم ١٣ | الواجهة الأمامية لقصر (بنت) فى البتراء | ٢٤٧ |
| شكل رقم ١٤ | الدير أكبر واجهة منحوتة فى الصخر / البتراء | ٢٤٧ |
| شكل رقم ١٥ | الكهوف الطبيعية بجبال سيناء | ٢٤٨ |
| شكل رقم ١٦ | طائر الفينيق وكاهن متبتل | ٢٥٩ |
| شكل رقم ١٧ | العنقاء تخرج من بيضتها وسط النار التى تضى ولا تحترق | ٢٦٠ |
| شكل رقم ١٨ | طائر الفينيق / كما صورته المصرى القديم / من بردية أنى | ٢٦٣ |
| شكل رقم ١٩ | تحتمس الثالث | ٢٦٦ |
| شكل رقم ٢٠ | شبه جزيرة سيناء بالقمر الصناعى | ٢٧٣ |
| شكل رقم ٢١ | الإله سبت يلبس أطواقاً | ٣١٦ |
| شكل رقم ٢٢ | مفتاح الحياة (العنخ المصرى) | ٣١٦ |
| شكل رقم ٢٣ | بدو ساميون من ضريح (خنوم حوتب) | ٣١٧ |
| شكل رقم ٢٤ | التصور المصرى للحيات الطائرة | ٣٤٢ |
| شكل رقم ٢٥ | الشجرة الإلهية المقدسة فى مصر القديمة | ٣٤٧ |
| شكل رقم ٢٦ | الربة الشجرة مرسومة على عمود فى غرفة الدفن بمقبرة تحتمس | ٣٤٧ |
| شكل رقم ٢٧ | وادی فيران من وديان سيناء | ٣٥١ |
| شكل رقم ٢٨ | أنوبيس رب الموت فى مصر القديمة | ٣٧٣ |
| شكل رقم ٢٩ | ابن آوى يلحد الموتى فى مقبرة سبتاح التعويذة رقم ١٥١ من كتاب | ٣٧٤ |

| | | |
|-----|---|------------|
| | الموتى | |
| ٣٧٤ | أنوبيس / المتحف المصرى | شكل رقم ٣٠ |
| ٣٧٤ | سيت يلبس أطواقاً | شكل رقم ٣١ |
| ٣٧٥ | رب الشر / سيت يلبس تاج القطرين | شكل رقم ٣٢ |
| ٣٧٥ | ست تفصيل علوى | شكل رقم ٣٣ |
| ٣٧٥ | السلعوة فى الأخبار القاهرية بتاريخ ١٩٩٧/٤/٦ | شكل رقم ٣٤ |
| ٣٧٥ | أخبار السلعوة فى صحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ ١٩٩٧/٤/٧ | شكل رقم ٣٥ |
| ٤٠٩ | الإله بعل | شكل رقم ٣٦ |
| ٤١٣ | نصب من رأس شمرا يمثل الإله الأوغاريتى بعل هداد | شكل رقم ٣٧ |
| | تمثال من البرونز والفضة والذهب للإله بعل هداد وجد فى رأس شمرا | شكل رقم ٣٨ |
| ٤١٦ | | |
| ٤١٦ | تمثال مصرى للإله سيت فى هيئة بعل وحركته | شكل رقم ٣٩ |
| ٤١٨ | تيشوب من تل برسيب | شكل رقم ٤٠ |
| ٤٤٨ | معبد إيزيس | شكل رقم ٤١ |
| | خبر بصحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٩٩٧/١١/١٢ اليهود | شكل رقم ٤٢ |
| ٤٦١ | ينحدرون من أصل أرمنى | |
| ٤٦٧ | طائر الزقراق مشنوقا على رأس دبوس قتال الملك العقرب | شكل رقم ٤٣ |
| ٥٢٧ | نقش ثمودى تيمانى من جبل غنيم | شكل رقم ٤٤ |
| ٥٣٢ | منظر عام لصريح منحوت فى الصخر فى خربة العلا | شكل رقم ٤٥ |
| ٥٣٤ | التموديون : مدائن صالح / الحفر فى الصخر | شكل رقم ٤٦ |
| ٥٣٦ | التموديون : المساكن الكهفية القديمة بخرائب ددان | شكل رقم ٤٧ |
| ٥٤٠ | تمثال عثر عليه فى المعبد الليجانى - العلا | شكل رقم ٤٨ |
| ٥٤٠ | تمثال للمقارنة الكاهن الأعلى - الأسرة الخامسة | شكل رقم ٤٩ |
| | ضحوت من تل العمارنة زمن إخناتون وأمامه الكاتب جالس | شكل رقم ٥٠ |
| ٥٤٩ | القرفصاء | |
| | ضحوت الضحاك إله شمس قمرى يحمل الهلال والشمس فوق رأسه | شكل رقم ٥١ |
| ٥٥١ | مع طائر الأبيس أو الفينيق | |
| ٥٥٤ | الأبيس ضحوت / هبتى / أبو قردان / الفينيق | شكل رقم ٥٢ |
| | الفينيق أو ضحوت الرفائى يدخل بالعصى الشعبانية على الفرعون | شكل رقم ٥٣ |
| ٥٦٢ | يمنحه الحياه | |
| ٥٧٢ | قصة البقرة فى أصلها المصرى | شكل رقم ٥٤ |
| ٥٧٤ | طقس فتح الفم كما هو متمثلاً فى مقبرة تاوسرت | شكل رقم ٥٥ |
| ٥٩٥ | تمثال صغير من الأناضول يمثل إلهاً بشكل إنسان نصفه جبل | شكل رقم ٥٦ |

| | | |
|-----|------------|--|
| ٥٧ | شكل رقم ٥٧ | رسم حثى يمثل إله العاصفة نيشوب يقف على جبل بشكل قدمين إلهيين |
| ٧٣١ | شكل رقم ٥٨ | آ منحتب الرابع / إخناتون / المتحف المصرى |
| ٧٣٥ | شكل رقم ٥٩ | إخناتون ونفرتيتى يتعبدان تحت قرص الشمس |
| ٧٤٣ | شكل رقم ٦٠ | أمحتب بن حابو مهندس عبقرى رفع إلى مرتبة الآلهة |
| ٧٥٣ | شكل رقم ٦١ | جبل موسى سيناء |
| ٧٥٣ | شكل رقم ٦٢ | دير سانت كاترين عن قرب |
| ٧٥٤ | شكل رقم ٦٣ | الملكة تى سوداء سيناوية |
| ٧٥٤ | شكل رقم ٦٤ | رأس تى من سيناء |
| ٧٥٦ | شكل رقم ٦٥ | نفرتيتى (باعتبارها الزوجة الملكية العظمى) تصب السائل فى كأس إخناتون |
| ٧٥٨ | شكل رقم ٦٦ | منظر جزئى من إحدى نصب أو علامات الحدود التى أقيمت حول العمارنة |
| ٧٥٩ | شكل رقم ٦٧ | نقش عثر عليه فى ورشة فنان العمارنة لإخناتون ونفرتيتى |
| ٧٦١ | شكل رقم ٦٨ | بنت من بنات إخناتون |
| ٧٦٣ | شكل رقم ٦٩ | إخناتون عيون أسبوية وفم إفريقى |
| ٧٦٤ | شكل رقم ٧٠ | ألبسة الرأس عند شعب سكيث |
| ٧٦٤ | شكل رقم ٧١ | نفرتيتى كفرعون محارب |
| ٧٦٤ | شكل رقم ٧٢ | رسم لنفرتيتى من العمارنة |
| ٧٦٥ | شكل رقم ٧٣ | نقش جدارى للأميرات الصغيرات فى منظر عائلى مع الأم نفرتيتى |
| ٧٦٥ | شكل رقم ٧٤ | الملك إخناتون والملكة نفرتيتى فى مناسبة منح الأوسمة للنيل مرى رع والتفتيش على سفن الأسطول |
| ٧٦٦ | شكل رقم ٧٥ | نفرتيتى وهى تمنح القلادات الذهبية للنيل آى وزوجته تى ونرى الأميرات الصغيرات وهن يحاولن مساعدة أمهن |
| ٧٨٩ | شكل رقم ٧٦ | صاحب النبوءة أبو هول الجيزة أو أبو الهول الأكبر |
| ٧٨٩ | شكل رقم ٧٧ | واحد من أبى هولاء مصر (من معبد بتاح أبو هول أمحتب الثانى) |
| ٧٨٩ | شكل رقم ٧٨ | طريق أبى الهول بالأقصر |
| ٧٩٧ | شكل رقم ٧٩ | لوحة الوليمة |
| ٧٩٧ | شكل رقم ٨٠ | الحلوى والمشروبات المنعشة بعد تناول الطعام |
| ٨٠٠ | شكل رقم ٨١ | أونا يصنع تمثالا عارياً للأمير بكتاتن بينما تلميذه يتابعه |
| ٨٠٢ | شكل رقم ٨٢ | ما بقى من أحد معبد البتراء فى بلاد آدوم المديانية |
| ٨٧٨ | شكل رقم ٨٣ | الإله القديم يركب السماء والأذرع الأبدية الرفيعة من تحت تمتد إلى توت عنخ آمون وزوجته |

| | | |
|-----|--|-------------|
| ٨٧٨ | جلسة عائلية تحت أيدى الرب | شكل رقم ٨٤ |
| | الطريقة المصرية التقليدية فى تصوير الملكة بالنسبة للملك بحجم ضئيل والمشهد لرمسيس الثانى | شكل رقم ٨٥ |
| ٩٠٠ | | |
| ٩٠١ | أمنحتب الثالث ومليكته تى وبينهما واحدة من بناتهما | شكل رقم ٨٦ |
| ٩٠١ | لوحة الراقصات (تعود إلى زمن إخناتون تحديداً) | شكل رقم ٨٧ |
| ٩٠٢ | رقص أكروباتى وهو رقص الرجال فى مصر القديمة | شكل رقم ٨٨ |
| ٩٠٢ | تدريب على لون من رقص الرجال الإيقاعى | شكل رقم ٨٩ |
| | العازف ورقص مصرى أكروباتى للنساء من عهد حتشبسوت بمتحف الأقصر | شكل رقم ٩٠ |
| ٩٠٢ | | |
| ٩٠٣ | ألوان من الرقص المصرى مع عازفه ومصنفات | شكل رقم ٩١ |
| ٩٠٣ | تمثالا ممنون أمنحتب الثالث | شكل رقم ٩٢ |
| ٩٠٩ | العصى / الحيات الدفانة فى مصر القديمة | شكل رقم ٩٣ |
| ٩٠٩ | الإله أتوم رع يواجه الإله الأفعى أبو فيس الأفعوان | شكل رقم ٩٤ |
| ٩٠٩ | الطقس السحرى لشق الماء | شكل رقم ٩٥ |
| ٩١٠ | شق اليم بالأفعى فى التصورات الشعبية | شكل رقم ٩٦ |
| ٩١٠ | الغرقى فى الساعة التاسعة من كتاب البوابات بمقبرة رمسيس السادس | شكل رقم ٩٧ |
| | لوحة من اللوحات التى تصور عملية البعث وأن الغرقى سيقومون من الموت للحساب | شكل رقم ٩٨ |
| ٩١١ | | |
| | لوحة وضعها الكهنة تصور إحياء الإله للموتى الذين ماتوا غرقا كالموتى فى أى مكان آخر | شكل رقم ٩٩ |
| ٩١١ | | |
| ٩١٧ | صلاية نعرمر (الوجه الأول) | شكل رقم ١٠٠ |
| ٩١٧ | تابع الفرعون يحمل نعليه بالوادى المقدس مع النجمة السداسية | شكل رقم ١٠١ |
| ٩١٨ | صلاية نعرمر (الوجه الثانى) | شكل رقم ١٠٢ |
| | رأس حتحور ربة سيناء وتحتها إلى اليمين السفينة المحيطية وإلى يسار السفينة مباشرة طائر الزقزاق | شكل رقم ١٠٣ |
| ٩١٨ | | |
| ٩١٩ | نقش يصور عدد من الـ (سفنكس المجنح) | شكل رقم ١٠٤ |
| ٩١٩ | صورة من الجو لجبل نبو شرقى أريحا | شكل رقم ١٠٥ |
| | عمل لفنان مسيحى يصور حية موسى المعبودة وكيف أنها رمز إلهى | شكل رقم ١٠٦ |
| ٩٢٠ | قام الفنان بدمجه مع شخص المسيح المصلوب | |
| | المؤلف فوق جبل نبو عند مدخل قبر النبى موسى المفترض حسب التوراة | شكل رقم ١٠٧ |
| ٩٢٠ | | |
| ٩٢١ | المؤلف على الجانب الغربى من جبال الجبال | شكل رقم ١٠٨ |
| ٩٢٩ | رسم لملك يتعبد أمام أب الآلهة إيل | شكل رقم ١٠٩ |

| | | |
|------|--|-------------|
| ٩٥٢ | الموكب الجنائزى فى قاعة دفن توت عنخ آمون | شكل رقم ١١٠ |
| ٩٥٢ | الأرواح الحامية للتوابيت المصرية حولوا إلى كروبيين | شكل رقم ١١١ |
| ١٠٥١ | لوحات دارا | شكل رقم ١١٢ |

فهرس موضوعات الكتاب

| الموضوع | الصفحة |
|-------------------------------------|--------|
| الجزء الأول: | |
| هذا العمل على سبيل التقديم | ٧ |
| مدخل | ١٧ |
| التوراة شعبها وكتابها وربها | ٢٥ |
| كل إسرائيل | ٥٢ |
| التاريخ النبوى | ٧٢ |
| مصر والتوراة | ١٣٣ |
| نظريات الخروج | ١٤١ |
| فهرس الجزء الأول | ١٩٦ |
| الجزء الثانى: | |
| لغز بلاد بونت | ٢٠٣ |
| ولغز بلاد الحور | ٢١٥ |
| بلاد آدم وبلاد آدوم | ٢٢١ |
| سالع / البتراء / ونظرية جديدة | ٢٣٨ |
| حملة تحتمس الثالث على بلاد الفينيقي | ٢٥٧ |
| لغز بلاد موصرى | ٢٧٥ |
| ميتانى وميديانى | ٢٨٥ |
| المديانيون والاسماعيليون والعماليق | ٣٠١ |
| سر الملكة السوداء | ٣٢٤ |
| الرب الأحمر | ٣٥٣ |
| معان المصرية | ٣٧٦ |

| | |
|-----|---|
| ٣٨٧ | أين تقع حويلة التوراتية |
| ٤٠٤ | بعل صفون : لغز آخر؟؟ |
| ٤٢٧ | لغز أرام النحاسية |
| | العامو أو العموريون اسم الأحلاف الجامع |
| ٤٥٠ | |
| ٤٦٢ | الشاسو والكاشو والحاثو |
| ٤٩٣ | عاد وشمود |
| ٥٤٦ | إسحاق و (الإله الضحاك) |
| ٥٦٣ | بقرة بنى إسرائيل وثورها |
| ٥٧٦ | تجليات الرب السينائي |
| ٥٩٦ | لغز البلست |
| ٦١٢ | لغز الخابيرو |
| ٦٢٩ | ربح يوسف |
| ٦٤٧ | إسرائيل ويهوذا |
| ٦٨١ | قاطعوا الرقاب |
| ٧١٢ | فهرس الجزء الثانى |
| | الجزء الثالث: |
| ٧٢١ | الفرعون إخناتون الوهم والحقيقة |
| ٧٦٩ | نهاية إخناتون الغامضة |
| | أوديب وإخناتون علاقة إخناتون الفرعون بأوديب الملك |
| ٧٨٤ | |
| ٨٢٥ | موسى وإخناتون |
| ٩٠٤ | فرعون أعمى وأعرج |
| ٩٣٠ | نهاية البطل |
| ٩٥٥ | فهرس الجزء الثالث |
| | الجزء الرابع: |

| | |
|------|-------------------------------------|
| ٩٦٣ | مدينة رعمسيس ذلك اللغز الكبير |
| ٩٦٨ | أهم نظريات الخروج |
| | الأخطاء الكبرى فى النظريات المطروحة |
| ١٠٠١ | |
| ١٠٧١ | الملحق |
| ١١٢٥ | المصادر |
| ١١٤٧ | فهرس اللوحات |
| ١١٥٥ | فهرس الخرائط |
| ١١٥٨ | فهرس الجزء الرابع |